

إرشيف المقالات الشرعية

العَشْرُ الأَواخرُ؛ تِجارةٌ معَ اللهِ لَا اعتكافٌ فِي الأَسْواقِ

كثيرة هي المواسم التي تُضاعَف فيها الحسنات، ويبارك الله تعالى فيها للمتعبدين والمتعبدات، وعلى قدر أهل التنقّل والتبتّل تأتي الأجور وتُرفع المنازل، ولعله من أكثر المواسم بركة للمسلم، وأعظمها خيرا العشر الأواخر من رمضان، ولقد اختلف أهل العلم في أفضل أيام السنة، فمن قائل أنها العشر الأواخر من رمضان، ومن قائل بأنها العشر الأوائل من ذي الحجة، ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- له تفصيل نفيس في المسألة حيث سئل عن عشر ذي الحجة والعشر الأواخر من رمضان أيهما أفضل؟،

فأجاب: «أيام عشر ذي الحجة أفضل من أيام العشر من رمضان، والليالي العشر الأواخر من رمضان أفضل من ليالي عشر ذي الحجة» [مجموع الفتاوى].

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا دخل العشر، أحيا الليل، وأيقظ أهله، وجدّ، وشدّ المئزر» [رواه البخاري ومسلم].

وفي حديث آخر: قالت عائشة، رضي الله عنها: «كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يجتهد في العشر الأواخر، ما لا يجتهد في غيره» [رواه مسلم].

والعشر الأواخر من رمضان فيها ليلة خير من ألف شهر، وهي ليلة القدر، قال النووي: «قال العلماء: وإنّما سُمِّيت بذلك لما يكتب فيها الملائكة من الأقدار والأرزاق والآجال التي تكون في تلك السنة، لقوله تعالى: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} [سورة الدخان: ٤]، وقوله تعالى: {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ} [سورة القدر: ٤-٥] ومعناه يظهر للملائكة ما سيكون فيها، ويأمرهم بفعل ما هو من وظيفتهم، وكل ذلك مما سبق علم الله تعالى به وتقديره له، وقيل: سُمِّيت بها لعظم قدرها وشرف أمرها، وأجمع من يُعتد به على وجودها ودوامها إلى آخر الدهر للأحاديث الصحيحة المشهورة».

عن أبي سلمة، قال: «تذاكرنا ليلة القدر، فأتيت أبا سعيد الخدري -رضي الله عنه- وكان لي صديقا، فقلت: ألا تخرج بنا إلى النخل؟ فخرج وعليه خميصة فقلت له: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يذكر ليلة القدر؟ فقال: نعم، اعتكفنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- العشر الوسطى من رمضان، فخرجنا صبيحة عشرين، فخطبَنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: (إني أُريت ليلة القدر، وإني نسيتها أو أُنسيتها، فالتمسوها في العشر الأواخر من كل وتر، وإني أُريت أني أسجد في ماء وطين، فمن كان اعتكف مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فليرجع)» [متفق عليه].

الليالي العشر الأواخر من رمضان هن أفضل ليالي العام، وفيهن ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر

و (من كل وتر) أي: الحادي والعشرين، والثالث والعشرين، والخامس والعشرين، والسابع والعشرين، والتاسع والعشرين.

وقد قال بعض أهل العلم أن قوله صلى الله عليه وسلم: (وإني نسيتها أو أنسيتها) محمول على كونه لو تذكرها وأخبر الناس عنها، فلربما قل اجتهادهم في العشر واقتصروا على إحياء تلك الليلة المعلومة بعينها، ولذلك أخفاها الله تعالى عن عباده كما أخفى ساعة الإجابة من يوم الجمعة وغيرها، والمأمور بقيامها هي جميع تلك الليالي العشر الفاضلة مع الاجتهاد في طلب ليلة القدر والعمل على إدراكها.

وعن عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (تحروا ليلة القدر في الوتر، من العشر الأواخر من رمضان) [رواه البخاري].

والتحري أي الاجتهاد في الطلب، والحث على التقرب إلى الله في تلك العشر بالقيام والقرآن والدعاء.

وإن مما يستغرب منه المرء أن نجد كثيرا من النساء اليوم يفرطن في هذا الأجر العظيم، ويضيعن الأوقات الثمينة في هذا الموسم المبارك.

بعض النساء يضيّعن ثواب الليالي العشر الأواخر في الأسواق بدعوى التجهز للعيد باللباس والحلوى

وأبرز مظاهر تضييع الأوقات في هذه الليالي المباركة الانشغال بالتحضيرات لاستقبال عيد الفطر، حيث تنصرف همم بعضهن إلى شراء الملابس وإعداد الأطعمة والحلويات والتحضير للزيارات والمعايدات.

وهذه الأمور وإن كانت مباحة، ولكن الانشغال بالمباحات عن المندوب إليها من العبادات تضييع لخير عظيم.

فنرى من تدمن على التجول في الأسواق في الليالي العشر الأواخر، لتشتري لنفسها أو لأطفالها الثياب، وما يحتاجه بيتها في العيد، فتقضي كل ليلة في السوق الساعات الطوال، ثم تعود في الليلة التالية لتبحث عن غرض آخر، أو قطعة أخرى من اللباس.

على المسلمات القانتات العابدات أن لا ينسين إخوانهن المرابطين والمجاهدين من الدعاء

وهكذا تنقضي الليالي ليلة بعد ليلة فلا تشعر المسلمة إلا وقد انقضى رمضان، فتقعد متحسّرة على ما فاتها من ثواب القيام وتلاوة القرآن، هذا بالإضافة إلى ما نالته من إثم بكثرة نزولها للسوق لغير حاجة، وعدم طاعتها الأمر الشرعي بالقرار في البيت، وتعريض نفسها وغيرها للفتن والمعاصي.

فكيف يخفى على المسلمة دعاء جبريل -عليه السلام- وتأمين النبي -صلى الله عليه وسلم- عليه: (أرغم الله أنف عبد -أو بَعُدَ- دخل رمضان فلم يغفر له) [رواه ابن خزيمة وابن حبّان]؟

بل كيف لا نجزع لمثل هذا فنشمّر ونشدّ الهمة علنا نرقع ما خرق صومنا الذي مضى في هذا الشهر الفضيل، ونلحق بركب العتقاء من النار.

(فـ) هل قائم لله في ليله * يسأله العتق من النار

والمسلمة الحكيمة لا تضيّع مثل هذه الأوقات المباركة فيما يضرها ولا ينفعها، بين تفريط وتقصير، إنه شهر القرآن يا أمة الله، والله تعالى يقول: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ} [سورة البقرة: ١٨٥]، فوجب الاستكثار من كلام الله تعالى تلاوة وتدبرا، وها هم سلفنا الصالح -رحمهم الله- كانوا إذا دخل شهر رمضان تركوا الدروس وتفرّغوا للقرآن.

وإن كان قد فات المسلمة ما فاتها من هذا الشهر، فلا تقنط ولا تيأس ولتشمر الآن عن ساعد الجد في هذه الليالي المباركة، ولتتحرَّ ليلة القدر علَّ الله تعالى يبلغها إياها.

وعن عائشة قالت: يا رسول الله! أرأيت إن علمت ليلة القدر، ما أقول فيها؟ قال: (قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني)» [رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح].

ونذكّر المسلمات بإخوان لهن على ثغور العز يرابطون، فالله الله في الدعاء لهم بالنصر والتمكين والثبات، والله الله في تحري مواطن إجابة الدعاء، كالثلث الأخير من الليل، وبين الأذان والإقامة، وفي السجود، وعند الإفطار، وآخر ساعة من يوم الجمعة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



عصبة أبي بصير
أسوة جنود الخلافة في بلاد المشركين

بهجرة النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى يثرب وإقامته الدولة الإسلامية فيها، صارت المدينة دار إسلام يجب على كل المسلمين الهجرة إليها، وعلى رأسهم المسلمون في مكة، الذين هاجروا في سبيل الله أفرادا وجماعات، ومع اشتعال الحرب بين المسلمين وكفار قريش وقع الجزء الأكبر من عبء هذه الحرب على هؤلاء المهاجرين الذين تبرؤوا من كفار قومهم، وناصبوهم الحرب، ومع كل مهاجر جديد من مكة كانت شوكة المسلمين تقوى، وشوكة المشركين تضعف، لذلك جعل أئمة الكفر في مكة هذا الأمر في رأس بنود اتفاق صلح الحديبية الذي عقده الرسول -صلى الله عليه وسلم- معهم، بأن يتعهد المسلمون بردّ من جاءهم من مسلمي مكة إليهم، وقدّر الله أن يكون أول مِن يقع عليه هذا الأمر، أبو جندل بن سهيل بن عمرو -رضي الله عنهما- فردّه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى المشركين، وأعيُن المسلمين تفيض من الدمع، وقلوبهم تغلي من الغيظ والغضب، ولكنهم ما كان لهم إذا قضى الرسول أمرا إلا أن يسلّموا تسليما.

ورغم ذلك لم يتوقف المسلمون في مكة عن سعيهم للخروج من حكم المشركين، والانتقال إلى دار الإسلام، وإعلان العداوة لأعداء الله، فكانت قصة الصحابي الجليل أبي بصير -رضي الله عنه- التي روتها كتب السنن والسير، ففي رواية الإمام البخاري -رحمه الله- عن المسور بن مخرمة ومروان، رضي الله عنهما: «رجع النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة، فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدا، فاستله الآخر، فقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت به، ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد، وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين رآه: (لقد رأى هذا ذعرا)، فلما انتهى إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: قُتل -والله- صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله، قد -والله- أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (ويل أمه مِسعَر حرب، لو كان له أحد)، فلما سمع ذلك عرف أنه سيردّه إليهم، فخرج حتى أتى سِيف البَحر، قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشأم إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- تناشده بالله والرحم، لما أرسل، فمن أتاه فهو آمن».

فإغلاق طريق الوصول إلى جماعة المسلمين في المدينة، لم يمنع أبا بصير وأبا جندل وإخوانهم من السعي إلى استنقاذ أنفسهم من حكم الكفار واضطهادهم، بل ولم يمنعهم من أن ينصروا جماعة المسلمين، ويقاتلوا المشركين، بإعلان الحرب عليهم، وقطع الطريق على قوافلهم، وقتل رجالهم، واغتنام أموالهم، بالرغم من حالة العهد بين قريش وبين النبي -صلى الله عليه وسلم- ما دفع المشركين إلى أن يتنازلوا عن شرطهم الذي انقلب عليهم ويلاً وثبوراً، فجاءوا يسألون النبي -صلى الله عليه وسلم- بما يجمعهم بهم من رحم وقرابة أن يرسل في طلب أبي بصير وعصبته فيهاجروا إلى المدينة ليشملهم بذلك عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لقريش بترك الحرب والقتال بضع سنين، فيأمنوا بذلك على أموالهم وأنفسهم التي صارت مهدّدة من المجاهدين، وهذا ما كان.

المشركون سعوا لإلغاء الشرط الذي اشترطوه على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في صلح الحديبية

وإن أفعال مجاهدي الدولة الإسلامية اليوم التي تشابه كثيرا أفعال الصحابة الكرام -رضوان الله عليهم- لا تقتصر على من هم في صفوف جيش الخلافة في ولايات الدولة الإسلامية المختلفة، وإنما امتدت أيضا لتشمل المقيمين منهم في دار الكفر ممن أعجزهم الوصول إلى دار الإسلام، الذين أطاعوا أمر إمامهم بقتال المشركين ما استطاعوا، وبما استطاعوا، وأن يحققوا أي نكاية في صفوف المشركين مهما صغرت، لأن فيها تخفيفا عن المسلمين الذين تحالف ضدهم الصليبيون وأجلبوا عليهم بجيوشهم وطائراتهم، فقام نفر من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ليقوموا بغزواتهم الفردية ضد الصليبيين، في مواقع متعددة، وبطرق جديدة مبتكرة، فهذا يهاجمهم بسلاح رشاش أردى به أكثر من ١٠٠ من أتباع قوم لوط في أمريكا قتلى وجرحى، وآخر لم يجد إلا سكين مطبخ ذبح بها ضابطا في الشرطة الفرنسية، وثالث استخدم سيارة شحن ليسحق بها جمعا من الصليبيين المحتفلين بـ«عيد فرنسا الوطني»، وآخرون في جزيرة العرب أعلنوا براءتهم من الطاغوت بقتل أقرب الناس إليهم من جنود الردّة في واحدة من أسمى صور الولاء والبراء، وغيرهم كثير، والحمد لله.

لقد سعت أمريكا الصليبية وحلفاؤها بكل ما يمتلكون لوقف هجرة المسلمين إلى أرض الخلافة، خوفا من أن تزداد الدولة الإسلامية بهم قوة، ويزدادوا هم إيمانا على إيمانهم، فيكونوا مصدر خطر عليهم، ولذلك بُذلت الجهود الكبيرة، وأُنفقت الأموال الكثيرة لمراقبة الحدود، وضُبطت المطارات، وأُطلقت الحملات العسكرية التي هدفها عزل أراضي الدولة الإسلامية عمّا حولها، وجُنِّد المرتدون والصحوات لتشكيل المناطق العازلة في محيطها، وكل ذلك لم يغن عنهم من الله شيئا، وجاءهم الخطر من حيث لم يحتسبوا، إذ خرج عليهم من وسط ديارهم من يسومهم سوء العذاب، ويجعل كل ما أنفقوه من مال وجهد في إجراءاتهم الأمنية خارج الحدود حسرة عليهم.

وبذلك كان منع المشركين للمسلمين من الهجرة إلى دار الإسلام في أرض الخلافة وبالاً عليهم، إذ تحوّل كلٌ مِن هؤلاء إلى قنبلة موقوتة بين ظهورهم، لا يعلمون متى ستنفجر، بل ولا يعرفون مكانها إذ غابت بين حشود من ملايين البشر، وصار كلّ همهم الآن أن يمنعوا وصول أوامر الخلافة إلى هذه الخلايا اليقظة بالتحرك، خاصة بعدما جربوا تأثير الخطاب الأخير للشيخ أبي محمد العدناني، حفظه الله، ورأوا بأعينهم مقدار استجابة المأمورين له، فانفجرت على الفور بضعة قنابل موقوتة من جنود الإيمان وحققت فيهم أيما نكاية، وهم يعلمون أن هناك أضعافا مضاعفة من الموحدين لمّا يأذن الله بتحركهم بعد، فصار لزاما عليهم أن يراقبوا كل المسلمين في الغرب، بل كل من لا زال على ملتهم ممن يخشون دخوله في الإسلام فجأة، أن يكون أول فعل له بعد الشهادتين أن ينغمس في أعداء الله المشركين، فيكون ممن عمل قليلا وأجر كثيرا.

باستمرار العمليات في الغرب سيرضخ الصليبيون أمام إرادة الموحدين في الهجرة إلى الدولة الإسلامية

ولن يطول الزمن -بإذن الله- حتى يأتي المشركون صاغرين يطلبون من الخلافة أن تجدّد دعوتها للموحّدين للهجرة إلى دار الإسلام وترك دار الكفر، وذلك بعد أن يزيلوا بأيديهم كل ما وضعوه من عقبات في وجه هجرتهم، بل ويدفعوا هم من أموالهم تكاليف رحلتهم، ويكفّوا عن سعيهم الخائب -بإذن الله- لتدمير دار الإسلام، لعلمهم أن تهديد المجاهدين في دار الإسلام لهم رغم عظمته فإنه لا يقارن بحال بتهديده لهم داخل ديارهم.

إن على المسلمين في الغرب اليوم أن يسعوا إلى فكاك أنفسهم من قيد الكفار، كما فك قدوتهم أبو بصير نفسه من الأسر بيديه، وعليهم أن لا يركنوا إلى الدعة والسكون، فمنعهم من فريضة الهجرة لا يعذرهم من القيام بفريضة جهاد المشركين، فليقوموا بما قام به أبو بصير من تنغيص عيش المشركين وإقلاق راحتهم، حتى يتمنوا هم إخراجهم من بينهم، بل إن واجب القتال عليهم أكبر من أبي بصير، رضي الله عنه، إذ إن المسلمين اليوم في حرب مع الصليبيين، في الوقت الذي كان فيه أبو بصير وإخوانه يقاتلون قوما هم على عهد وصلح مع المسلمين.

لقد أثبت إخوان أبي بصير -تقبلهم الله- أن قتال المشركين والنكاية فيهم لا يحتاج إلى كثير سلاح، ولا عديد أفراد، ولا عظيم تخطيط، فقاتلوا بما في أيديهم من أدوات القتل ونالوا ما تمنُّوا على أيدي أعدائهم، نحسبهم كذلك ولا نزكي على الله أحدا.

أعظم الكرامة

للشيخ المجاهد
(عبد الله بن محمد الرشود)
تقبله الله

أخي المجاهد: يفرح المؤمن كثيراً بما قد يجريه الله على يديه من كرامات تحدث له وتحفزه وتذكره بعظيم فضل الله عليه، مع أنه ما كلُّ كرامة هي كرامة في الحقيقة، إذ قد تكون فتنة للعبد واستدراجاً له وغير ذلك، ولكن تبقى كرامة الكرامات التي لا يتطرق إليها احتمال غير الكرامة التي امتن بها ربُّنا -عزّ وجل- على خير خلقه وأحبِّهم إليه نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم.

إنها كرامة لزوم الاستقامة، وعدم تأثره بتضليل وتلبيس المضلين، حيث يقول الله تعالى: {وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا}.

وفي السورة التي تليها يقول -عز وجل- محذراً نبيه من هؤلاء المضلين سعاة الفتنة: {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ}.

مؤمن زمان الغربة أشد استيعاباً وإدراكاً لعظيم الكرامة الربانية، لا سيما حينما يرى كثرة المتساقطين حوله

ورغم أن المؤمن في كل الأزمان يدرك عظيم هذه الفضيلة إلا أن مؤمن زمان الغربة أشد استيعاباً وإدراكاً لعظيم هذه الكرامة الربانية، لا سيما حينما يرى كثرة المتساقطين حوله دون بلوغ المراد، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فيزداد المؤمن بهذه المواقف إيماناً واعتباراً، ولجوءاً إلى الله وافتقاراً، وازدراءً لنفسه واحتقاراً.

تماماً كما كان الصحابة -رضي الله عنهم- يفعلون.

فترى مثلاً الإمام الراشد الفقيه المسدد المبشَّر بالجنة والنجاة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- كثير النوح على نفسه والخوف عليها من موارد النفاق فيقول لحذيفة، رضي الله عنه: «نشدتك الله، هل عدَّني رسول الله من المنافقين؟»

وقال ابن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- كلهم يخشى النفاق على نفسه».

فلذلك كانوا -رضي الله عنهم- أحسن الناس عملاً وأكثرهم خوفاً وأشدهم محاسبة لأنفسهم لما استقر في أنفسهم من تعظيم الله ومعرفة استحقاقه من العبادة والخضوع أضعاف أضعاف ما يفعله العباد.

ولهذا الحس الربَّاني في قلوبهم -رضي الله عنهم- جعل الرسول -صلى الله عليه وسلم- منهجهم هو المعيار الذي لا يعتبر غيره ففي الحديث: (وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة) قالوا: «من هي يا رسول الله؟» قال: (من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي)، أو فيما معناه، ولذلك من كان مستناً فليستن بهم -رضي الله عنهم- لاسيما إذا اشتدت غربة الدين وقلّ المساعد والمعين.

غربة الدين... نعم، (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء).

قال ابن تيمية، رحمه الله: «أعظم ما تكون غربته إذا ارتد الداخلون فيه عنه...»، إلى أن قال: «فإنه ما ارتد عن الإسلام طائفة إلا أتى الله بقوم يحبهم يجاهدون عنه، وهم الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة، يبين ذلك أنه ذكر هذا في سياق النهي عن موالاة الكفار فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}، إلى قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}، فالمخاطبون بالنهي عن موالاة اليهود والنصارى هم المخاطبون بآية الردة» [الفتاوى].

في الغربة نعمة ربانية لما فيها من مضاعفة الأجور، وعظيم الكرامة عند رب العالمين

نعم إنها الغربة الغريبة، ومن ملامحها ما ورد في الحديث عن أمامة: (وإن من إدبار هذا الدين أن تجفوَ القبيلة كلها بأسرها حتى لا يوجد فيها إلا الرجل الفقيه أو الرجلان فهما مقهوران ذليلان لا يجدان على ذلك أعواناً وأنصاراً)، وحينها تنزل رحمة الله الواسعة على أولئك الغرباء فيعوِّضهم الله في هذه الغربة فضلاً ربانياً وهو مضاعفة الأجور لهم أضعاف أجور بعض الأولين.

ففي الطبراني الكبير عن ابن مسعود -رضي الله عنهم- أنه -صلى الله عليه وسلم- قال: (إنّ من ورائكم زمان صبر للمتمسك فيه أجرُ خمسين شهيداً منكم).

وهؤلاء القلة هم الطائفة المنصورة، حيث أنَّه ورد عند مسلم عن غير واحد من الصحابة قوله صلى الله عليه وسلم: (لن يبرح هذا الدين قائماً تقاتل عليه عصابة من المؤمنين حتى تقوم الساعة)، فجعل أظهرَ صِفةٍ لهم المقاتلة في سبيله، تلك الصفة التي أولتهم محبة الله لهم: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ}.

المؤمن يأنس في غربته بنصوص الوحي، والبطالون يأنسون بنصوص الطواغيت التي تعدهم الفقر وتأمرهم بالفحشاء

فهنيئاً لك أخي هذه النصوص التي تؤنس غربتك، حينما يستأنس البطَّالون بنصوص الطواغيت المظلمة التي تعدهم الفقر وتأمرهم بالفحشاء.

ولكن أخي المجاهد: ما موقفك من دروس الزمان وعجائب التغيرات والتقلبات؟ نعم ينبغي لك أن تستلهم من هذه الظروف دروساً نافعة نسأل الله الهدى والسداد، فمن الفوائد ما يلي:

١) الاغتباط بنعمة الثبات:

قال ابن تيمية، رحمه الله: «ولا يقتضي هذا أنه إذا صار غريباً أن المتمسك به يكون في شر بل هو أسعد الناس كما قال في تمام الحديث: (فطوبى للغرباء)، و(طوبى) من الطيب، قال تعالى: {طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ}، فإنه يكون من جنس السابقين الأولين الذين اتبعوه لمَّا كان غريباً وهم أسعد الناس وأما في الآخرة فهم أعلى الناس درجة بعد الأنبياء، عليهم السلام)» [الفتاوى].

٢) عدم الحزن والضيق من حال الغربة: قال ابن تيمية، رحمه الله:

«وكما أن الله نهى نبيه أن يصيبه حزن أو ضيق ممن لم يدخل في الإسلام في أول الأمر فكذلك في آخره، فالمؤمن منهي أن يحزن عليهم وأن يكون في ضيق من مكرهم، وكثير من الناس إذا رأى المنكر أو تَغيُّر كثيرٍ من أحوال الإسلام جزع وكلَّ وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهي عن هذا، بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام» [الفتاوى].

٣) الصبر والمصابرة والمرابطة:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، {فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ}.

٤) الانطراح بباب الغني الرحيم والانكسار بين يديه بالدعاء والاستغفار:

فإن أعظم ما يخذل العبدَ ذنوبُه، ففي الحديث القدسي: (يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم...)، إلى أن قال: (إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم)، [رواه مسلم].

ومن الأدعية المأثورة: (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)، وكان هذا من أكثر دعاء المعصوم -صلى الله عليه وسلم- ومن الأدعية المأثورة أيضاً: (اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي)، (يا حي يا قيوم، لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحدٍ من خلقك)، (اللهم إني أسألك اليقين والعافية).

٥) الإكثار من حمد الله على نعمه:

فعلى قدر حمدك لله يكون استقرار نعمه وزيادتها فهو وحده المستحق للحمد في الأولى والآخرة فله الحمد ظاهراً وباطناً.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن هي إلا أسماء سمّيتموها

إن من يرجع إلى تاريخ الوثنية والأوثان، يجد أنهم من سخف عقولهم كانوا يصنعون أوثانهم بأيديهم ثم يطلقون على ما صنعوه الأسماء المفخّمة، ويعطونها الأوصاف التي لا تجوز لغير الله عز وجل، ليتّخذوها بذلك آلهة من دون الله.

فإذا غاب عنهم الوثن أو فُقد، لتحطّمه أو سرقته أو لصعوبة نقله في الأسفار، لم يجد الوثني غضاضة في أن يصنع لنفسه وثنا جديدا، يطلق عليه نفس الاسم، ويعطيه بذلك نفس الصفات التي سبق له أن أعطاها للوثن الأصلي، بل يروى عن سفهاء الجاهلية أن أحدهم إذا ما نزل منزلا في سفره اختار من حجارة الأرض التي ينزل فيها أربعة أحجار، يجعل ثلاثا منها أثافي للقدر، ويتخذ من الرابع وثنا يعبده، بعد أن يعطيه اسم «إله»، وبالتالي يحوز الحجر الجديد صفات «الإله» بمجرد إكسابه هذا الاسم.

ومما يؤكّد هذه الحقيقة أيضا الروايات المختلفة عن دخول الأوثان إلى جزيرة العرب، التي تُجمع على أنها نُقلت بأعداد قليلة من البلدان المجاورة، ثم انتشرت بكثرة في أنحاء الجزيرة كلها، فالذي انتشر هو أسماء الأوثان المعبودة في بلدان أخرى، اقتبسها مشركو جزيرة العرب عن إخوانهم في العراق والشام وفارس والروم ومصر، بل إن من يدرس تاريخ الحضارات الجاهلية القديمة يجد أن كثيرا من أوثان اليونان والرومان والفرس والهند والصين انتشرت في الأرض بسبب هذا الأمر، إذ يأخذ كل شعب عمَّن يجاوره أسماء أوثانه بعد ذيوع صيتها، ليلقيها على ما في بلده من الحجارة والأشجار، وما يراه فيه من النجوم والكواكب، مع اختلافات بسيطة في اللفظ ترجع لاختلاف اللغات.

الوثني يعبد أسماء الأوثان ويدافع عنها ويستنسخها بإطلاق تلك الأسماء على أحجار وأصنام جديدة

هذه الحقيقة في الأساس مرجعها إلى كتاب الله -عز وجل- الذي بين هذا الأمر في خطابه للمشركين: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ} [النجم: ١٩-٢٣]، كما جاء هذا البيان للمشركين على لسان نبي الله هود -عليه السلام- لقومه لما استنكروا عليه أمره لهم بعبادة الله وحدة وترك ما يعبدون من الأوثان: {قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ} [الأعراف: ٧١]، وكرّر يوسف -عليه السلام- المعنى ذاته في دعوته لمن معه في السجن إلى عبادة الله وحده فقال: {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف: ٣٩-٤٠].

ولا زلنا نرى اليوم هذه الصورة من الوثنية البدائية لدى الوثنيين في كثير من أصقاع العالم، فها هم الوثنيون المشركون في الصين والهند ما زالوا يصنعون التماثيل بأيديهم ثم يطلقون عليها أسماء بوذا وأشباهه من الطواغيت، وهم في عقولهم القاصرة وأفهامهم الفاسدة يعتقدون أنه بمجرد أن تنحت حجرا بصورة معينة وتطلق عليه اسما معينا فإن روح الطاغوت ستحل في هذا الحجر ويصبح بذلك سامعا لدعائهم، بصيرا بسجودهم له، فرحا باجتماعهم حوله في معبده، ولو نظرنا في حقيقة الأمر فهؤلاء المشركون إنما يعبدون الأسماء التي أطلقوها على تلك الأحجار المنحوتة، التي هي أسماء طواغيتهم الذين ليس لهم وجود في عالم الواقع غير تلك الأسماء.

وفي ظل ما نشاهده في أيامنا هذه من عبودية للتنظيمات والفصائل والأحزاب، فإننا إذا دققنا في واقع تلك التجمعات من البشر نجد أن أتباعها إنما يتّبعون سبيل المشركين في تقديسهم الأسماء التي لم يأمر الله بتقديسها، بل ويعبدون تلك الأسماء بطريقة أو بأخرى، شاءوا الاعتراف بذلك أم أبوا، علموا ذلك أم لم يعلموا، ولا أدلّ على ذلك من تمسّكهم بتلك التنظيمات المنحرفة، تعصّبا لأسمائها المشهورة، واعتقادا من كثير منهم أن بقاء الإسلام مرتبط ببقاء أسماء فصائلهم وتنظيماتهم، وحرصا دائما على مبارزة الخصوم بتاريخها الذي كتبوه بأيديهم ليزيدوا من خلاله من بريق تلك الأسماء.

ومن يراجع تاريخ تلك التنظيمات والأحزاب الذي يمتد أحيانا لدى بعضها إلى ما يقارب القرن من الزمان يجد أنها غيرت من عقيدتها ومنهجها عدة مرات، وأنه تعاقب عليها أجيال من القيادات والأتباع، فمنهم من هلك، ومنهم من ترك، ومنهم من انشق وشكل تنظيما جديدا، ورغم ذلك بقي الثابت الوحيد لديهم هو الاسم، حتى غدا هذا الاسم وكأنه الصنم الذي يبقى معبودا لأجيال عديدة، وكلما استجد عليه جيل من الناس كسوه حلة جديدة، وصوروه بصورة جديدة، فلا يبقى له من حاله القديمة غير الاسم الذي لا يتغير بتغير حاله، ولا بتغير عبيده.

ومن يشاهد حال الكثير من هذه الفصائل والتجمعات، يرى أنها كلما نشبت بين قادتها النزاعات، وتعرضت للتفرق والانشقاقات، فإن المتنازعين لا يتصارعون على الأتباع والمقرات والممتلكات بقدر صراعهم على حيازة اسم التنظيم، وذلك لاعتقادهم أن حيازة الاسم سيعطيهم الشرعية، ويجذب إليهم الأتباع والأنصار، ونادرا ما يتخذ المنشقون اسما جديدا لتجمعهم، لأن ذلك يعني أنهم سيمضون سنين في بناء الاسم الجديد وتعظيمه في عيون الخلق، لذلك يتصارعون حول الاسم الأصلي، فمن يحوزه يتمسك به، ومن يخسر الصراع يشتق لنفسه اسما قريبا من الاسم الأصلي يكون غالبا بإضافة كلمات جديدة عليه، توحي أن الحزب الجديد يمتلك كامل رصيد الاسم الأصلي ويزيد عليه بما استجد من شعارات تعكسها الزيادة على الاسم.

الأساس في فتنة التنظيمات هو الأسماء التي يقدسها الناس ويوالون ويعادون فيها

بل ونجد أنه ما إن ينتشر اسم لفصيل أو تنظيم ويصبح مشهورا، حتى يسارع بعض المفتونين بالأسماء إلى تبنّي هذا الاسم وإسباغه على تنظيماتهم وأحزابهم الجديدة، رغم عدم وجود ارتباط تنظيمي حقيقي بين التنظيم الأصلي، والتنظيمات الجديدة التي ليس لها من علاقة به غير تشابه الأسماء، وما ذلك إلا لقناعة لدى المتأخرين بأن تبني الاسم المشهور للجماعة سيسرع من عملية استقطاب الأنصار إليها.

بل ونجد بعضهم يصيبهم الكبر والغرور لمجرد استيلائهم على اسم مشهور، فيخيل لهم شياطينهم أنهم بحيازتهم لهذا الاسم وقدرتهم على منح الموافقة لتوزيع هذا الاسم على من يرتضون من التنظيمات والفصائل، أنهم صاروا بذلك أوصياء على دين الله، فلا يتعبّد اللهَ أحدٌ من الناس بهذه العبادة أو تلك إلا بإذنهم، وأنهم بامتلاكهم للاسم المشهور يحق لهم وحدهم قيادة الأمة، ويجنّ جنونهم إذا ظهر اسم جديد وانتشر واشتهر بين الناس، فلا يرون ذلك إلا مؤامرة على الدين، وحربا على الإسلام والمسلمين.

ولو دققنا في أكثر الأسماء المشهورة اليوم في عالم الأحزاب والتنظيمات، نجدها لا علاقة لها بواقع التنظيم ولا عقيدته ولا منهجه، إن لم يكن الاسم مناقضا كل التناقض لذلك، فإذا انطفأ بريق الاسم الذي يعمي الأبصار عن رؤية ما تحته من واقع، أصيب المفتونون بالصدمة، كصدمة المشرك الوثني عندما يزيل عن وثنه المعبود ذلك الاسم البراق الذي أسبغه عليه، أو تبع آباءه وأجداده في إبقائه ملتصقا به، فلا يجد في حقيقة الوثن غير قطعة من حجر لا تختلف في طبيعتها عن حجارة الأرض.

لذلك ينبغي أن ينظر المسلم إلى حقائق الأمور لا إلى أسمائها، وقد حذر النبي -صلى الله عليه وسلم- من فتنة الأسماء واتباع المفتونين فيها بقوله: (ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها) [حديث صحيح رواه أبو داود وابن ماجه]، وكما أن تسمية الخمر بغير اسمها لا يرفع عنها حكم التحريم، ما دامت فيها حقيقة الإسكار، فكذلك الأمور كلها، أسماؤها مرتبطة بأوصافها، فما حمل الوصف، حمل الاسم، وحمل الحكم، وليعلم المسلم أنما تعبّده الله بالإسلام، ولم يفرض عليه تعظيم اسم لم يعظمه بنفسه أو يعظمه نبيه، وأن الله -عز وجل- لن يسأله يوم القيامة عن أسماء التنظيمات والأحزاب، ولكنه سائله عن عمله، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره.

نبي الملحمة، صلى الله عليه وسلم.. جهاد حتى الممات

الجهاد في سبيل الله عبادة لها من الإسلام ذروة السنام، ومقامها فيه أرفع مقام، وليست تنقطع حتى قيام الساعة كما أخبر النبي، صلى الله عليه وسلم، وهو الذي قاد المجاهدين وأرسل السرايا وجيّش الجيوش، بعد هجرته إلى المدينة بفترة يسيرة، واستمر في جهاد أعدائه حتى لقي ربه.

فقد وصل النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة بعد هجرته من مكة، يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول، على رأس ثلاث عشرة سنة من النبوة كما يذكر أصحاب السير، وانشغل وأصحابه في بناء المسجد وتنظيم أمور المدينة والمؤاخاة وغيرها من الأمور الأساسية في بناء الدولة النبوية، ولم يتأخر -صلى الله عليه وسلم- عن الجهاد، فبعد أشهر من تاريخ مقدمه أرسل أولى سراياه.

ذكر ابن سعد في الطبقات أنَّ «أول لواء عقده رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لحمزة بن عبد المطلب بن هاشم، في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من مهاجر رسول الله، صلى الله عليه وسلم»، وتوجهت هذه السرية لاعتراض عير قريش ولم يحدث بين الفريقين قتال، فسبعة أشهر بعد الهجرة كانت كافية عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليبدأ جهاد الطلب لأعداء الله وشن غاراته عليهم، ثم تجد أنه -صلى الله عليه وسلم- في الفترة الفاصلة بين هذه السرية وغزوة بدر الكبرى في رمضان من السنة الثانية للهجرة (التي تقدر بسنة واحدة فقط)، قد أرسل وشارك بنفسه في سبع سرايا وغزوات؛ أي لا يمر شهران دون أن يرسل سرية أو يخرج في غزوة، بل أقل من ذلك إذا احتسبت المدة التي تقضيها السرية أو الغزوة في الخروج ولقاء العدو والرجوع ثم الخروج بعدها لغزوة أخرى.

كان أول لواء للحرب عقده النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد سبعة أشهر فقط من هجرته إلى المدينة

وهكذا كانت سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم- جهادا غير منقطع طلباً لأعداء الله ورداً لهم عن حياض المسلمين، وكم كان -صلى الله عليه وسلم- يَوَدُّ أن يخرج في كل سرية تغزو في سبيل الله، ولكنَّ شدّة الوضع في المدينة تمنعه.

فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده لولا أن رجالا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده، لوددت أني أقتل في سبيل الله، ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل) [رواه البخاري].

فكم هي عظيمة منزلة الشهادة في سبيل الله حتى يتمناها النبي الذي اصطفاه الله وكرمه وختم به الرسالة! وكم هو عظيم أجر الجهاد في سبيل الله حتى يَوَدُّ النبي -صلى الله عليه وسلم- ألا يتخلف عن سرية تغزو في سبيل الله، ولو عاد المرء إلى السيرة لوجد أنَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- قد خرج بنفسه في إحدى وعشرين غزوة على الصحيح من الأقوال. [انظر: النبي القائد]، «وأما البعوث والسرايا؛ فَعَدَّ ابن إسحاق ستا وثلاثين....» وزاد غيره على ذلك [انظر: النبي القائد]، أي بمجموع سبع وخمسين غزوة وسرية في مدة عشر سنوات، بمعدل خمس إلى ست غزوات وسرايا في السنة.

وحتى بعد عقد الرسول -صلى الله عليه وسلم- الصلح مع قريش عام الحديبية في آخر السنة السادسة من الهجرة، فإنه -صلى الله عليه وسلم- لم يخلد إلى الراحة والاستقرار بعد ست سنوات خاض فيها الصحابة ما خاضوا من الحروب وفقدوا من فقدوا من الأهل والأولاد والأموال، بل خرج إلى خيبر أول سنة سبع من الهجرة.

قال ابن كثير: «وقال موسى بن عقبة: لما رجع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الحديبية مكث عشرين يوما أو قريبا من ذلك، ثم خرج إلى خيبر وهي التي وعده الله إياها»، فمكّنه الله من فتح حصونها وقتل اليهود وإخراجهم واغتنام ما بأيديهم، ثم في جمادى الأولى من السنة ذاتها، أرسل الرسول -صلى الله عليه وسلم- جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل إلى مؤتة من أرض الشام ليؤدب النصارى العرب الذين قتلوا رسوله إليهم؛ حتى لا تضيع هيبة المسلمين ودولتهم، وواجه المسلمون في هذه المعركة مائتي ألف مقاتل من النصارى؛ نصفهم من العرب والنصف الآخر من الروم، وسقط فيها قادة الجيش الثلاثة الذين سماهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- شهداء، وهم جعفر بن أبي طالب ابن عمه وحبيبه، وزيد بن حارثه حِبُّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعبد الله بن رواحة، رضي الله عنهم جميعاً.

مات النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يعد العدة لقتال الروم، وأنفذ الصحابة بعث أسامة

ثم منَّ الله -عز وجل- بعد ذلك على النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه بفتح مكة ثم حنين ثم غزو الطائف ثم ما كان من تبوك وغيرها من السرايا والبعوث التي بذل فيها الصحابة -رضي الله عنهم- الأنفس والأموال، وفقد فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- الأقارب والأحباب، فلم تكن الانتصارات يوما بلا ثمن.



إصدار مرئي من إنتاج المكتب الإعلامي لولاية سيناء، يكشف حقيقة ما يصيب الجيش المصري المرتد من خسائر كبيرة على يد جنود الخلافة، ويحوي عرضا مطولا لعدد كبير من العمليات العسكرية، من بينها اقتحامات لمواقع المرتدين، واستهداف لآلياتهم بالعبوات، وعمليات قنص متنوعة.

وتوفي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو يُعد سرية أسامة (ابن شهيد مؤتة زيد بن حارثة)، جهزه ليقاتل القوم ذاتهم، وتوفي -صلى الله عليه وسلم- قبل إنفاذ بعث أسامة -رضي الله عنه- فأنفذه الصديق -رضي الله عنه- من بعده.

فيا من تدّعون محبّة الرسول -صلى الله عليه وسلم- أين أنتم من سيرته؟ أوليس فيها أسوة حسنة لكم؟ ما لكم جعلتم أسوة لكم الأئمة المضلّين الذين يجهدون كل الجهد في أن يغيروا معالم هذه العبادة العظيمة، أو يجعلوها من نوافل الطاعات بعد أن يشترطوا لها من الاشتراطات ما لم ينزل الله به من سلطان.

أولئك الضالون الذين أطنبوا وأكثروا من الحديث عن السلام في الإسلام وصغروا من شأن الجهاد في سبيل الله، وأدخلوا فيه ما ليس منه تبريراً لقعودهم عنه، ثم قللوا من شأنه بادعائهم أن الجهاد الأكبر جهاد النفس وما عداه أصغر، ودعوا إلى السلم وأوّلوا قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [البقرة: ٢٠٨] بالدخول في السلام مع أنَّ المراد بها الدخول في شرائع الإسلام كافة دون ترك بعضها، وليس مسالمة الأعداء كما زعموا [انظر: تفسير ابن كثير].

وأين هم من جهاد النبي -صلى الله عليه وسلم- وجهاد أصحابه والتابعين؟ وأين هم من قوله تعالى: {فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[التوبة: ٥]؟ وأين هم من قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} التوبة: ١٢٣]؟ أم أنَّ هذه الآيات نزلت تخاطب قوما آخرين ولا تعني مدّعي العلم بشيء؟

وأما أنتم يا جند الخلافة فهنيئاً لكم اتباع سنة نبيكم، وسيركم تحت لوائه وائتماركم بأمره في جهاد أعداء الله مهما كثروا ومهما تجهزوا، فأنتم جند الله -عز وجل- وأتباع رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- قال تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الصافات: ١٧١-١٧٣].

حشرنا الله وإياكم تحت لواء النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم القيامة، وسقانا من يده الشريفة شربة ماء لا نظمأ بعدها أبدا.

وَسَتُسْأَلِينَ عَنْ عُمْرِك فِيمَا أَفنَيْتِهِ

كم من الوقت يقضيه الناس بين قيل وقال، وكم من الفراغ يمضونه بين سفاسف الأعمال، وكم من العمر يهدرونه بين تفريط وتقصير، وكم من النعم يضيعونها دونما شكر أو تقدير!

ولعل الرجال في هذا الشأن أهون حالا من النساء، إذ إنهم وبحكم القوامة التي ألزمهم الله بها، والتكاليف التي فُرضت عليهم دون النساء، هم بين عمل وجهاد ورباط -هكذا حالهم في دولة الإسلام- أما النساء فيا لطول فراغهن، فراغ ستسأل عنه المرأة كما الرجل، وقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)، قال المباركفوري: «المغبون أي الخاسر في التجارة مأخوذ من الغبن في البيع. والمعنى: لا يعرف قدر هاتين النعمتين كثير من الناس حيث لا يكسبون فيهما من الأعمال كفاية ما يحتاجون إليه في معادهم فيندمون على تضييع أعمارهم عند زوالها ولا ينفعهم الندم» [تحفة الأحوذي].

> **الفراغ نعمة من نعم الله الكبيرة التي لا يقدّر أهميتها كثير من الناس لذلك تراهم مضيعين لها**

قال ابن حجر في شرحه لهذا الحديث: «ضرب النبي -صلى الله عليه وسلم- للمكلف مثلا بالتاجر الذي له رأس مال، فهو يبتغي الربح مع سلامة رأس المال، فطريقه في ذلك أن يتحرى فيمن يعامله، ويلزم الصدق والحذق لئلا يُغبَن، فالصحة والفراغ رأس مال، وينبغي له أن يعامل الله بالإيمان، ومجاهدة النفس وعدو الدين، ليربح خيري الدنيا والآخرة» [فتح الباري]، فلتحذر المسلمة فإن عمرها رأس مالها، وأنّى لتاجر ضيع رأس ماله أن يفوز ويربح!

فالفراغ إذن نعمة لا يثمنها كثير من النسوة، إذ نجد الواحدة منهن تهدر وقتها في أمور قد تعمر بها دنياها، ولكنها حتما تخرب بها أخراها؛ من جلسة إلى جلسة، ومن حديث إلى حديث، ومن اتصال إلى اتصال، وكل ذلك لا يكاد يخلو من غيبة، أو نميمة، أو إرجاف، أو تناقل إشاعة كاذبة وإذاعتها بين الناس، إلا من رحم ربي وهن قليلات.

وعن أبي برزة الأسلمي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيمَ أفناه، وعن علمه فيمَ فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه، وعن جسمه فيمَ أبلاه) [رواه الترمذي].

فهلّا تأملت المسلمة في عمرها فيما أفنته؟ وهلا حاسبت نفسها الأمارة بالسوء عن وقتها فيما أضاعته؟ والله تعالى يقول: {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الحجر: ٩٢-٩٣]، وقال الحسن البصري، رحمه الله: «يعرض على ابن آدم يوم القيامة ساعات عمره، فكل ساعة لم يحدث فيها خيرا تقطعت نفسه عليها حسرات».

هذه ساعات لم يحدِث المرء فيها خيرا تتقطع نفسه عليها حسرات، فكيف بساعات يحدث فيها شرا؟ كيف بساعات أسخط فيها ربه وأفرح الشيطان ولم يكُ من المفلحين؟

أيتها الأخت المسلمة إن الناس لم يُخلقوا عبثا حتى يفنوا أعمارهم فيما يضرهم في الآخرة ولا ينفعهم، كيف والله تبارك وتعالى يقول: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} [المؤمنون: ١١٥]، بل خُلقوا ليعبدوا الله -عز وجل- وحده ويعمروا هذه الأرض وفق ما أراده الخالق وشاء، إذ يقول الله سبحانه: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]، فكيف ستتحقق هذه العبادة للمرأة المسلمة إن هي أهدرت عمرها تلهث وراء الشهوات والملذات، وكانت من اللاهيات الغافلات؟

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لرجل وهو يعِظه: (اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك) [رواه الحاكم].

> **يا ابن آدم ما من يوم يمرّ عليك إلا وقد نقص في عمرك وقرب فيه أجلك فاحرص على أن تزداد به عملا**

قال المناوي: «(اغتنم خمسا قبل خمس)، أي افعل خمسة أشياء قبل حصول خمسة أشياء؛ (حياتك قبل موتك)، يعني اغتنم ما تلقى نفعه بعد موتك، فإن من مات انقطع عمله، وفاته أمله، وحق ندمه وتوالى همه، فاقترض منك لك، (وصحتك قبل سقمك)، أي اغتنم العمل حال الصحة، فقد يمنع مانع كمرض فتقدم المعاد بغير زاد، (وفراغك قبل شغلك)، أي اغتنم فراغك في هذه الدار قبل شغلك بأهوال القيامة التي أول منازلها القبر، فاغتنم فرصة الإمكان لعلك تسلم من العذاب والهوان، (وشبابك قبل هرمك)، أي اغتنم الطاعة حال قدرتك قبل هجوم عجز الكبر عليك فتندم على ما فرطت في جنب الله، (وغناك قبل فقرك)، أي اغتنم التصدق بفضول مالك قبل عروض جائحة تفقرك فتصير فقيرا في الدنيا والآخرة، فهذه الخمسة لا يُعرف قدرها إلا بعد زوالها» [فيض القدير].

وهل إضاعة الوقت فيما يضر ولا ينفع من هدي خير معلم وقدوة محمد، صلى الله عليه وسلم؟ أو من هدي أصحابه من بعده أو التابعين؟ حاشاهم حاشاهم أجمعين.

فقد روي عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- أنه قال: «كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء؛ جزءا لله، وجزءا لأهله، وجزءا لنفسه، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس» [رواه الطبراني].

> **من السنة أن يقسم المسلم والمسلمة يومه بين نفسه وأهله والناس ولا يفرط في شيء من ذلك**

وقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يعلّم أصحابه كيف يستثمرون أوقاتهم، جاء في الحديث: (بادروا بالأعمال سبعا، هل تنظرون إلّا إلى فقر منسٍ، أو غنى مطغٍ، أو مرض مفسد، أو هرم مفند، أو موت مجهز، أو الدجال فَشَرُّ غائب يُنتظر، أو الساعة؟ فالساعة أدهى وأمر) [رواه الترمذي].

وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: «ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت فيه شمسه، نقص من أجلي ولم يزدد فيه عملي»، وبعض السلف كان يعد كلامه من الجمعة إلى الجمعة! وقال الحسن البصري، رحمه الله: «لقد أدركت أقواما كانوا أشد حرصا على أوقاتهم من حرصكم على دراهمكم ودنانيركم»!

ولتعلم المسلمة أن الشيطان عدو متربص بالعباد إلا من عصم الله، فما من خير إلا ويسوّفه لهم ليثنيهم عن فعله، وما من شر إلا ويزيّنه ويزكيه ويستعجلهم لاقترافه، وإن ذهب أحد يعُدّ مداخل الشيطان ومكايده لما أحصاها.

وعليه فحريّ بالمسلمة الكيِّسة أن تتفطن لحيل الشيطان، فتكثر من الزرع للآخرة حتى لا تندم يوم الحصاد وجني الثمار، فتموت حسرة وكمدا على ما فرطت في جنب الله تعالى.

قال ابن الجوزي: «الكسل عن الفضائل بئس الرفيق، وحب الراحة يورث من الندم ما يربو على كل لذة، فانتبه وأتعب نفسك، واندم على ما مضى من تفريطك، واجتهد في لحاق الكاملين ما دام في الوقت سعة، واسقِ غصنك ما دامت فيه رطوبة، واذكر ساعتك التي ضاعت فكفى بها عظة، ذهبت لذة الكسل فيها، وفاتت مراتب الفضائل، وإنما تقصر الهمم في بعض الأوقات، فإذا حثت سارت، وما تقف همة إلا لخساستها، وإلا فمتى علت الهمة فلا تقنع بالدون».

وإن للمسلمة في سير الصحابيات والصالحات من السلف أسوة حسنة، تشحذ الهمم وتنير الدرب، فهن اللاتي لم يخدعهن بريق الدنيا الزائف، وما غرتهن الحياة بمتاعها الفاني، فكان الفلاح في الآخرة مبلغ همهن، وكن خير النساء وخير الزوجات وخير الأمهات، والله حسيبهن.

فهذه هجيمة الوصابية، أم الدرداء الصغرى، اشتهرت بالعلم والعمل والزهد، ترجم لها الذهبي فكان مما قاله عنها: «كانت فقيهة عالمة عابدة واسعة العلم وافرة العقل».

وهذه معاذة بنت عبد الله العدوية وتكنى أم الصهباء البصرية، تلميذة عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- وقد روت معظم أحاديثها، وكانت مثلها من المستكثرات من العبادة، قال الذهبي عنها: «بلغني أنها كانت تحيي الليل وتقول عجبت لعين تنام وقد علمت طول الرقاد في القبور».

وغيرهن من الصحابيات والتابعيات اللواتي حافظن على أوقاتهن، وحرصن على أعمارهن، في الصالحات الباقيات، فهن المتبعات في الخير، لا الغافلات المفرطات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلِّ اللهم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إياكم والدخول على النساء

الاختلاط؛ كلمة ما ذُكرت إلا وتبادر إلى أذهان جل السامعين أن المقصود بها الاختلاط بين الرجال والنساء الذين لا تربطهم بهم صلة قرابة، وهذا للأسف ما ترسّخ لدى فئام من الناس ممن تربوا على أن المسلمة يجوز لها الاختلاط بغير محارمها إذا كانوا من عائلتها كأبناء العم والخال، أو عائلة زوجها كأحمائها، الذين هم إخوة الزوج وأعمامه وأخواله.

غير أن حكم أحكم الحاكمين جاء واضحا وصريحا بتحريم ذلك، وكذلك بيّن نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- الذي لا ينطق عن الهوى، حرمة اختلاط المسلمات بغير محارمهن وإن كان أخو زوجها.

فقد حدد الله -تبارك وتعالى- محارم المرأة في الآية الكريمة: {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النور: ٣١].

الاختلاط المذموم يشمل ذوي القربى من غير المحارم فيجري عليهم ما يجري على كل الرجال الأجانب

وروى الشيخان في صحيحيهما عن عقبة بن عامر، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إياكم والدخول على النساء)، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحَمْو؟ قال: (الحَمْو الموت).

قال الحافظ ابن حجر: «وقد قال النووي المراد في الحديث أقارب الزوج غير آبائه وأبنائه لأنهم محارم للزوجة يجوز لهم الخلوة بها ولا يوصفون بالموت، قال وإنما المراد الأخ وابن الأخ والعم وابن العم وابن الأخت ونحوهم مما يحل لها تزويجه لو لم تكن متزوجة، وجرت العادة بالتساهل فيه فيخلو الأخ بامرأة أخيه، فشبّهه بالموت وهو أولى بالمنع من الأجنبي».

ثم قال: «وقال القرطبي في المفهم المعنى أن دخول قريب الزوج على امرأة الزوج يشبه الموت في الاستقباح والمفسدة، أي فهو محرّم معلوم التحريم وإنما بالغ في الزجر عنه وشبّهه بالموت لتسامح الناس به من جهة الزوج والزوجة؛ لإلفهم بذلك، حتى كأنه ليس بأجنبي من المرأة فخرج هذا مخرج قول العرب: الأسد الموت، والحرب الموت، أي لقاؤه يفضي إلى الموت، وكذلك دخوله على المرأة قد يفضي إلى موت الدين، أو إلى موتها بطلاقها عند غيرة الزوج، أو إلى الرجم إن وقعت الفاحشة» [فتح الباري].

ولكن ورغم تشبيه النبي -صلى الله عليه وسلم- لدخول أحماء الزوجة عليها في غياب زوجها أو ذي محرم لها بالموت، وهذا من التغليظ في الزجر عن فعل ذلك، إلا أنه قد درج لدى كثير من الناس عدم التحرز من هذا الفعل، فبتنا نسمع عن الاختلاط بين الزوجة وأقارب زوجها، ما الله به عليم، حتى أصبحت الخلوة بين الزوجة وأحد أحمائها من أهون الأمور، ولا حسيب عليها ولا رقيب.

وعن ابن عباس، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا يخلُوَنّ رجل بامرأة إلا مع ذي محرم) [متفق عليه].

وكنتيجة حتمية لهذا التهاون والتمييع لهذا الأمر، وبعد أن استنوقت الجِمال في بعض العائلات -إلا من عصم اللهُ- وغابت الغيرة والمروءة والحياء، فقد حدث في بعض بيوت المسلمين ما تقشعر لذكره الذوائب.

ثم إنه ومما يزيد الطين بلّة عادات وتقاليد نشأت عليها بعض العوائل المسلمة، فكثير من الآباء والأمهات يرون في خروج ابنهم عند زواجه للسكنى في بيت منفصل عن بيتهم عارا وشنارا، وعقوقا ما بعده عقوق، فتجدهم يلزمون جميع أبنائهم بالسكن في بيت العائلة الكبير، ولا بأس حينها من الاختلاط وظهور زوجات الأبناء أمام إخوان الزوج؛ يجلسون معاً، ويأكلون معاً، ويشاهدون التلفاز - المحرم- معاً، ويتسامرون معاً وهكذا تمضي الحياة! والويل كل الويل، والثبور كل الثبور لمن تحلم من الزوجات مجرد حلم ببيت منفصل عن بيت أهل الزوج!

اختلاط النساء بإخوة أزواجهن وأقاربهم من أعظم أسباب الفساد في البيوت

ولكن وبعد أن فتح الله على عباده الموحدين، وتمكنت الدولة الإسلامية -بفضل الله وحده- من بسط سلطانها وتحكيم شرع الله، عز وجل، وفُتحت المعاهد وأُقيمت الدورات الشرعية للنساء، انتبه كثير منهن إلى خطورة ما تربين عليه وألفنه من الاختلاط مع أحمائهن، وأصبحن ينشدن الحلول لمثل هذه العادات المحرمة شرعا.

ولمثل هؤلاء نقول، لقد جاء في الحديث الشريف أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، حتى وإن كان هذا المخلوق الذي يأمر بالمعصية، هو الزوج الذي طاعته واجبة على الزوجة، وظهور المرأة أمام أحمائها مكشوفة الوجه معصية عظيمة، بل إنها وإن جلست معهم بخمارها ولم يبدُ منها شيء، فإن ذلك لا يجوز أيضا، فهذا باب فتنة عظيم حري بالزوج المسلم الغيور أن يوصده.

ولا يظن بعض الرجال أن هذا تحريض للنساء على التمرد على أزواجهن بطلب بيت مستقل بعيد عن الأحماء، ولكننا نربأ بالمسلمة أن تتعدى حدود ربها، عز وجل، وتنال رضا زوجها بسخط الله تعالى، وإن هي أقامت في بيت أهل زوجها لقلة ذات اليد وعدم قدرة الزوج على توفير بيت مستقل، فأقلها أن يضمن لها الزوج الضوابط الشرعية لإقامتها، بحيث لا تجتمع مع غير ذي محرم.

وسؤال لكل ذي غيرة، لقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (خير صفوف الرجال أوّلها، وشرّها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرّها أوّلها)، فإذا كان هكذا يجب أن يكون حال المرأة في بيوت الله تعالى، وهي تؤدي فريضة الصلاة، بعيدة كل البعد عن الرجال، فلا يرونها ولا تراهم خشية الفتنة، فكيف يسمح الزوج بعد هذا لأخيه الأجنبي عن زوجته، أن يدخل بيته في غيابه، ليجالس زوجته ويحادثها والشيطان ثالثهما؟!

ونقول للأخت المسلمة التي تعترضها بعض الصعوبات وهي تجاهد نفسها ومن حولها حتى تجتنب الاختلاط: اثبتي فإنك على الحق، ولا تهتمي لمضايقة الأهل لك وسخريتهم منك -وهذا ما يحدث في كثير من البيوت إذا ما قررت المسلمة اعتزال الأقرباء الغرباء عنها- ولا تزيدنك همزاتهم وغمزاتهم إلا ثباتا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلِّ اللهم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بل يكرهون الإسلام وشعائره!

في من مـزّق الخمار إرضاءً للملاحدة الكفّار

النفاق صورة من صور الكفر بالله ترتبط عادة بعزّ المسلمين والتمكين لهم في الأرض، ذلك أن الكفار إذا ظهروا واستعلوا على أهل الإيمان أظهروا كفرهم، وأخرجوا كل ما في قلوبهم من عداء للإسلام وأهله، حتى إذا ما كانت الدولة للمسلمين انقسموا أقساما، فمنهم من يستمر في عناده واستكباره، محاربا بكل ما أوتي من قوة ساعيا إلى تدمير دولة الإسلام، وإبادة المسلمين، كما كان الحال مع مشركي قريش قبل فتح مكة، ومنهم من يستمر على كفره ولكنّه لا يقوى على حرب المسلمين فيطلب العهد والأمان -إن أمكنه ذلك- ليأمن بذلك على نفسه وماله وعرضه، ويبقى يترقب زوال دولة الإسلام، وينتظر المدد القادم له من الخارج ليغدر بالمسلمين ويطعنهم من الخلف، أو يرضيه العيش في دار الإسلام رغم بقائه على الكفر لما يجده من أمن وأمان وعدل، كما كان حال اليهود قبل أن ينهي النبي -صلى الله عليه وسلم- وجودهم من المدينة، ومنهم أيضا من يبقى على كفره وكرهه للإسلام، وشرائعه، وشعائره، ولكنه لا يجرؤ على قتال المسلمين أو إعلان العداوة لهم، فيظهر الإسلام، رغم استثقاله لواجباته، من صلاة وزكاة وجهاد وصدقة، فلا يؤدّيها إلا كارها، ولا يقوم إليها إلا وهو كسلان يرائي الناس، ويمنّ بها على المسلمين، وهذا من أخطر فئات الكفار عادة، لأنه يعيش بين المسلمين، ويطّلع على عوراتهم، وهو في حالة تحفّز دائم للغدر بأهله والانقلاب إلى صف أهل الكفر والإشراك.

وقد بيّن الله تعالى كثيرا من صفات المنافقين في كتابه الكريم، حتى سمّيت إحدى سور القرآن بسورة «المنافقون» لأنها نزلت فيهم، وسمّيت أخرى بـ «الفاضحة» لأنها كشفت بواطنهم وبيّنت أوصافهم لأهل الإيمان، كما بيّن كثير من الأحاديث الشريفة أفعال المنافقين لتحذير أهل الإيمان من الوقوع في شعب النفاق، فضلا عن الوقوع في النفاق الخالص.

فهؤلاء المنافقون لا يقومون بشعائر الإسلام ولا يلتزمون بأحكامه إلا خوفا ورياءً، ويظنون أنهم بذلك يخدعون المسلمين كما وصفهم الله تعالى: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} [البقرة: ١٤]، وقوله: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} [المنافقون: ١]، ولكن رغم ذلك فإن الله يفضح ما يخفونه في صدورهم، فقال سبحانه: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ} [محمد: ٢٩-٣٠]، وبيّن لأوليائه أنهم يمكنهم الاستدلال على نفاق المنافقين بعلامات كثيرة، أبرزها فلتات ألسنتهم، وكرههم للقيام بشعائر الإسلام الظاهرة، كما في قوله تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء: ١٤٢]، وقوله: {وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ} [التوبة: ٥٤]، وقوله: {وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [التوبة: ٩٨].

كما بيّن سبحانه أن المنافقين يُخرجون ما في قلوبهم عند اشتداد الفتن، وعندما تشتد الخطوب على المسلمين، فتظهر حقيقة معادنهم، ويتمايزون عن المؤمنين، كما في قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} [العنكبوت: ١٠-١١]، وبيّن أنهم في المعارك الفاصلة بين الإسلام والكفر يترقبون ليروا لمن تكون الغلبة فينضموا إلى صفّه، فإن فتح الله على المؤمنين بقوا على نفاقهم، واستمروا في إظهار الإسلام للمسلمين، وإن كانت الغلبة للمشركين أظهروا حقيقة كفرهم، وكشفوا عن موالاتهم للمشركين وسعيهم لإرضائهم، كما في قوله تعالى: {الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا} [النساء: ١٤١].

وقال صاحب «توضيح المقاصد شرح الكافية الشافية»: «وكفى بالعبد عمى وخذلانا أن يرى عساكر الإيمان، وجنود السنة والقرآن، وقد لبسوا للحرب لأمته، واعدوا له عدته، وأخذوا مصافهم، ووقفوا مواقفهم، وقد حمي الوطيس، ودارت رحى الحرب، واشتد القتال، وتنادت الأقران النزال النزال، وهو في الملجأ والمغارات والمدخل مع الخوالف كمين، وإذا ساعد القدر وعزم على الخروج قعد على التل مع الناظرين، ينظر لمن الدائرة ليكون إليهم من المتحيزين، ثم يأتيهم وهو يقسم بالله جهد أيمانه أني كنت معكم، وكنت أتمنى أن تكونوا أنتم الغالبين، فحقيق بمن لنفسه عنده قدر وقيمة أن لا يبيعها بأبخس الأثمان، وأن لا يعرضها غدا بين يدي الله ورسوله لمواقف الخزي والهوان، وأن يثبت قدميه في صفوف أهل العلم والإيمان».

وهذا ما نشاهده اليوم في الحرب القائمة بين الدولة الإسلامية والتحالف الصليبي الدولي وأوليائه من المرتدين، إذ يترقب المنافقون نتائج المعارك وما إن تبدو لهم بارقة تقدم للمشركين حتى يخرجوا إليهم، ويظهروا ما في قلوبهم من كره للإسلام وأحكامه وشعائره، لينالوا بذلك رضاهم، ويعلنوا بذلك انتماءهم إليهم وبراءتهم من التوحيد وأهله.

فيكون أوّل ما يفعله المنافقون المجاهرة بالمعاصي التي كانوا ممنوعين من المجاهرة بها من قبل، بل ويظهرون الفرح والسرور بدخولهم تحت طاعة المشركين، فيما تسارع المنافقات إلى خلع الحجاب ثوب الحشمة، بل إنّ منهنّ من لا تكتفي بخلعه، بل تلقي به أرضا لتُهينه أو تحرقه أو تمزّقه، لعلّها تنال بذلك رضا الكفار، بسخط الجبار.

ويخرج أولئك المرتدون على الشاشات والقنوات ليسبّوا الموحّدين من جنود الدولة الإسلامية، ويزعموا أنهم يكرهونهم ولا يكرهون الإسلام، وقد فضحهم الله بما أظهروه من استهزاء بشعائر الإسلام، وإهانة لها، فبان للناس جميعا أنهم إنما يكرهون الإسلام ككل لا جنود الدولة الإسلامية فحسب، وأنهم لم يكرهوا الدولة الإسلامية إلا لأنها تقيم أحكام الإسلام وتعظم شعائره.

فقد قال اللهُ تعالى: {وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} [الحج: ٣٢]، قال الزجّاج في {شَعَائِرَ اللَّهِ}: «يعني بها جميع متعبداته التي أشعرها الله، أي جعلها أعلاما لنا، وهي كل ما كان من موقف أو مسعى أو ذبح، وإنما قيل: شعائر لكل عَلَم مما تُعُبِّد به؛ لأن قولهم: شعرت به: علِمته، فلهذا سُمِّيت الأعلام التي هي متعبدات الله تعالى شعائر» [تاج العروس].

وإن تعظيم شعائر الله من تعظيم الله -عز وجل- الذي أمر بها، والحجاب الشرعي شعيرة من شعائر الله تعالى الذي لم تأت به الدولة الإسلامية من فراغ، وإنما من كتاب الله -عز وجل- وسنة نبيه، صلى الله عليه وسلم، وكذلك اللحية والثوب القصير وما إلى ذلك من الشعائر وعلامات الهدي الظاهر، التي عظمتها دولة الإسلام وأمرت بها رعاياها من المسلمين.

ومعلوم أن من نواقض الإسلام، من استهزأ بشيء من دين الرسول، صلى الله عليه وسلم، أو ثواب الله، أو عقابه، كَفَر، والدليل قوله تعالى: {يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ} [التوبة: ٦٤-٦٦].

قال ابن حزم: «فنصّ تعالى على أن الاستهزاء بالله تعالى أو بآياته أو برسول من رسله كفر مخرج عن الإيمان، ولم يقل تعالى في ذلك أني علمت أن في قلوبكم كفرا بل جعلهم كفارا بنفس الاستهزاء» [الفصل].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله: «فدل على أنهم لم يكونوا عند أنفسهم قد أتوا كفرا، بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر، فبين أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر، يكفر به صاحبه بعد إيمانه» [مجموع الفتاوى].

وعليه فكل رجل أو امرأة استهزأ أو استهزأت بشيء مما جاء به القرآن أو السنة في حال ظهور الإسلام ودولته فهم كفار مرتدون، فكيف بمن استهزأ بما جاء في الوحيين موالاة وموادة للكفار والملحدين؟!

قال سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، رحمهم الله: «فكيف بأهل البلدان الذين كانوا على الإسلام، فخلعوا ربقته من أعناقهم، وأظهروا لأهل الشرك الموافقة على دينهم، ودخلوا في طاعتهم، وآووهم ونصروهم، وخذلوا أهل التوحيد، واتبعوا غير سبيلهم، وخطّؤوهم، وظهر فيهم سبّهم، وشتمهم، وعيبهم، والاستهزاء بهم، وتسفيه رأيهم في ثباتهم على التوحيد، والصبر عليه، وعلى الجهاد فيه، وعاونوهم على أهل التوحيد طوعا لا كرها، واختيارا لا اضطرارا، فهؤلاء أولى بالكفر والنار من الذين تركوا الهجرة شحا بالوطن، وخوفا من الكفار، وخرجوا في جيشهم مكرهين خائفين» [الدلائل في حكم موالاة أهل الإشراك].

إن الدولة الإسلامية لا يضرها -بإذن الله- لو ارتد من الناس من ارتد، ولكن نسأل الله تعالى أن يمنّ بالفتح على عباده الموحدين فيرجعوا إلى كل أرض انحازوا منها وزيادة، كما منّ عليهم من قبل بذلك، عندئذ يعض المنافقون والمرتدون أصابعهم من الندم على ما أجرموا، فلا يكون مصيرهم إلا بين قتيل وطريد، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

أنفُــسٌ هو خلقها وأموالٌ هو رزقها

للشـيخ عبد العزيز بن رشـيد الطويلعي (تقبّله الله)

وانظر إلى سعة كرم الكريم -جل وعلا- فقد اشترى ما وهبه وهو بيده لم يخرج من ملكه، وأثاب عليه ما هو أعظم منه، والكل من عنده سبحانه.

أخرج ابن أبي شيبة عن الحسن البصري قال: (أَنْفُسٌ هو خلقها، وأموالٌ هو رزقها).

وقد أوقع الله في الآية هذا العقد الذي هو أصل عبودية العبد لربه والعلاقة بينه وبين خالقه على القتال في سبيله، وفسره بقوله: {يَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ}، لأن القتال في سبيل الله ذروة السنام، وطلب الموت والشهادة غاية الصدق في الوفاء بالعقد من عبده، وإن كان هذا العقد الذي ثمنه الجنة يشمل جميع فرائض الدين وشعائره.

قال الله عز وجل: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: 111].

وهذا أعظم عقد بين الله -عز وجل- وعباده، فاشترى الأنفس والأموال بالقتل في سبيله والقتال وأثاب عليه الجنة، وأكد ذلك بأنه وعد منه حق أوجبه على نفسه، وعد به في التوراة والإنجيل والقرآن، وأكد ذلك بما لا يشك فيه أحد: ومن أوفى بعهده من الله، فأي عاقل يجد في نفسه الجلد والصبر عن هذا الوعد العظيم من الله العظيم؟ وهذا العهد ممن لا يخلف العهد والميعاد.

وأكد الله العقد بأنه في التوراة والإنجيل والقرآن، وظاهره أن العقد لأصحاب هذه الكتب، وهذا يضعّف ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- من أن الجهاد لم يفرض على النصارى لا للطلب ولا للدفع، بل ظاهر الآية أنه مفروض عليهم مذكور في إنجيلهم، كما أنه مفروض على أهل الكتاب من اليهود قبلهم، وأول ما فرض الجهاد على قوم موسى اليهود في التوراة، وقبل ذلك كان الله يأخذ المعرضين بالعقوبات الكونية من عنده كما جاء في بعض الآثار.

وختم الله -جل وعلا- الآية بالأمر بالاستبشار بهذا العقد الذي هو ربح محض لا مقابل له من العبد، بل الثمن والسلعة من عنده، وفي هذا أمر كل مسلم بالاستبشار بهذا العقد عموما، وبفرض القتال المنصوص عليه في العقد خصوصا، والذي يستبشر بعقد كهذا العقد ويؤمن به حق الإيمان، لا يجد في نفسه حرجا من القتال، ولا ينظر نظر المغشي عليه من الموت إذا سمع الآيات والنصوص المحكمة في الجهاد، ولا يقول ائذن لي ولا تفتني، ولا يقول غرّ هؤلاء دينهم، ولا يظن أن لن يرجع المؤمنون والمجاهدون إلى أهليهم أبدا ويظن ظن السوء.

بل يستبشر بقلبه، ويسر بهذا العقد والفضل من ربه، ومحال أن يستبشر بعقد ثم لا يبذل الثمن فيه ولا يسعى في إتمام الصفقة، بل حقيقة الاستبشار بالعقد أن يحرص على إتمامه، ويتضرع إلى المولى -جل وعلا- أن يعينه عليه وألا يصرفه عنه ويحرمه منه بعد إذ هداه إليه.

وهذه الكلمات بين يدي كلام نفيس لابن القيم -رحمه الله- في هذه الآية آثرت أن أنقله بطوله، قال رحمه الله:

(وأخبر سبحانه أنه {اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ} وأعاضهم عليها الجنة، وأن هذا العقد والوعد قد أودعه أفضل كتبه المنزّلة من السماء، وهي التوراة والإنجيل والقرآن، ثم أكد ذلك بإعلامهم أنه لا أحد أوفى بعهده منه، تبارك وتعالى، ثم أكد ذلك بأن أَمَرَهم بأن يستبشروا ببيعهم الذي عاقدوه عليه، ثم أعلمهم أن ذلك هو الفوز العظيم.

فليتأمل العاقد مع ربه عقد هذا التبايع ما أعظم خطره وأجله، فإن الله -عز وجل- هو المشتري، والثمن جنات النعيم والفوز برضاه والتمتع برؤيته هناك، والذي جرى على يده هذا العقد أشرف رسله وأكرمهم عليه من الملائكة والبشر، وإن سلعةً هذا شأنها لقد هُيئت لأمر عظيم وخطب جسيم...

قد هيئوك لأمر لو فطنت له
فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

مهر المحبة والجنة؛ بذل النفس والمال لمالكهما الذي اشتراهما من المؤمنين، فما للجبان المعرض المفلس وَسَوْم هذه السلعة؟!!

بالله ما هزلت فيستامها المفلسون، ولا كسدت فيبتاعها بالنسيئة المعسرون، لقد أقيمت للعرض في سوق من يزيد، فلم يرض ربها لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخر البطالون وقام المحبون ينتظرون أيّهم يصلح أن تكون نفسه الثمن، فدارت السلعة بينهم، ووقعت في يد {أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}.

لمّا كثر المدعون للمحبة؛ طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلي حرفة الشجي.

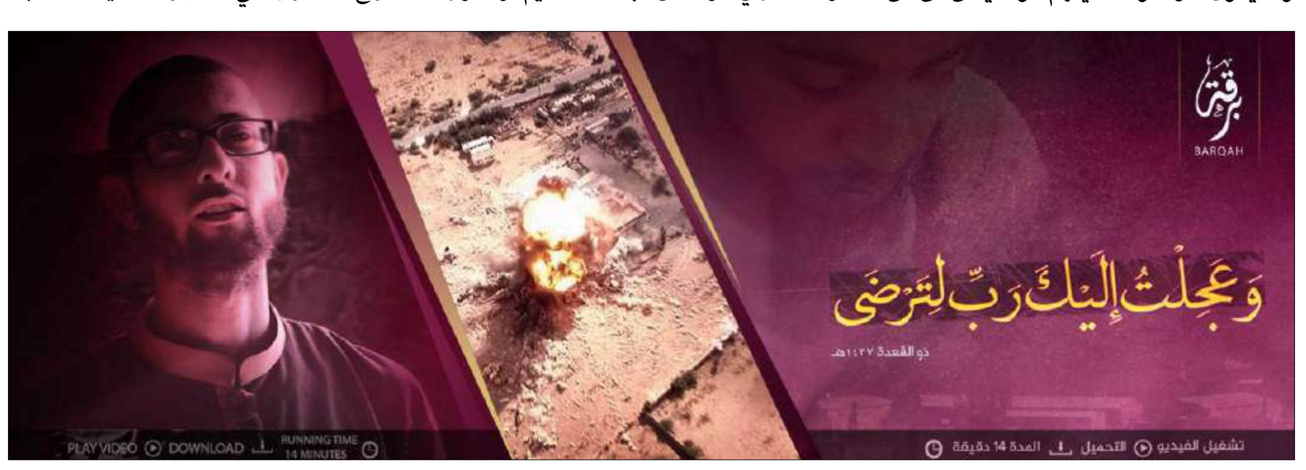
فتنوع المدعون في الشهود، فقيل: لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} فتأخر الخلق كلهم، وثبت أتباع الرسول في أفعاله وأقواله وهديه وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البينة، وقيل: لا تقبل العدالة إلا بتزكية {يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ}؛ فتأخر أكثر المدعين للمحبة، وقام المجاهدون.

فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم، فسلموا ما وقع عليه العقد، فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وعقد التبايع يوجب التسليم من الجانبين، فلما رأى التجار عظمة المشتري وقدر الثمن، وجلالة قدر من جرى عقد التبايع على يديه، ومقدار الكتاب الذي أُثبت فيه هذا العقد، عرفوا أن للسلعة قدرا وشأنا ليس لغيرها من السلع، فرأوا من الخسران البـين والغبن الفاحش أن يبيعوها بثمن بخس دراهم معدودة تذهب لذتها وشهوتها وتبقى تبعتها وحسرتها، فإن فاعل ذلك معدود في جملة السفهاء.

فعقدوا مع المشتري بيعة الرضوان رضى واختيارا من غير ثبوت خيار، وقالوا: والله لا نقيلك ولا نستقيلك، فلما تم العقد وسلموا المبيع، قيل لهم: قد صارت أنفسكم وأموالكم لنا، والآن فقد رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعاف أموالكم {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} لم نبتع منكم نفوسكم وأموالكم طلبا للربح عليكم، بل ليظهر أثر الجود والكرم في قبول المعيب والإعطاء عليه أجلّ الأثمان، ثم جمعنا لكم بين الثمن والمثمن.

تأمل قصة جابر بن عبد الله وقد اشترى منه -صلى الله عليه وسلم- بعيره، ثم وفاه الثمن وزاده، ورد عليه البعير، وكان أبوه قد قتل مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في وقعة أحد، فذكره بهذا الفعل حال أبيه مع الله، وأخبره أن الله أحياه، وكلمه كفاحا وقال: «يا عبدي تمنَّ علي».

فسبحان من عظم جوده وكرمه أن يحيط به علم الخلائق، فقد أعطى السلعة وأعطى الثمن ووفق لتكميل العقد، وقبل المبيع على عيبه، وأعاض عليه أجل الأثمان، واشترى عبده من نفسه بماله، وجمع له بين الثمن والمثمن وأثنى عليه، ومدحه بهذا العقد، وهو سبحانه الذي وفقه له، وشاءه منه) انتهى كلامه رحمه الله.



العمل المكلف به، وطواف على جبهات القتال حتى أعياه التعب، فلا يجد وقتا للاجتماع بجنوده أحيانا إلا بعد منتصف الليل، ولا ينتهي اجتماعه معهم إلا قبيل الفجر، لضيق وقته وكثرة شغله.

وفي ساعة متأخرة من ليلة رحيله ودّع أبو مارية جنوده وداع مفارق...

«قد حانت الساعة، وقريباً قريباً بإذن الله سنلقى الأحبة، والله إني قد اشتقت للقاء الله».

هكذا رددها كلمات أخيرة من قلب استشعر قرب لقاء الله جل في عليائه، وفي صباح اليوم التالي، رغم التعب والإرهاق والإجهاد، توجه إلى الثغور ليطلع على أحوال المعارك وسيرها في أحد القواطع، وفي طريق عودته قصفته طائرة أمريكية صليبية، ليودّع فارس الإعلام مضماراً لطالما خاضه بتعب ونصب نصرة لدين الله وطمعا بما عند مليك مقتدر، ولينتهي فصل من فصول شجاعة فارس من فرسان الدولة الإسلامية، الرجال الذين خضبوا مسيرتهم بالدماء، وطرزوها بالفداء، ومهروا خاتمتها بالأشلاء.

قُتل أبو مارية، وهو ابن سبعة وعشرين ربيعا، قضى نصفها في ساحات الجهاد، مقاتلا، وأسيرا، وطريدا، وفاتحا، وأميرا.

قتل صاحب المروءة الذي كان يشتد غضبه إن علم تقصيراً في حق أسرة أخ قتيل أو أسير أو مرابط، فيسارع بنفسه إلى تلبية احتياجاتهم، حتى أنه شكل لجنة في الإعلام العسكري خاصة بمتابعة شؤون عوائل وأسر القتلى والجرحى والأسارى من الإعلاميين.

رحل الذي كان يكثر من ترديد: «أخاف أن أشق على من يعمل برفقتي فيبتليني الله بأمير يشق عليّ في عملي»، ما جعله لا يعرف للظلم طريقاً، بل كان ينتصف لمن يصاب بظلم، ويسعى لحل كل مشاكل رفاقه، رغم انشغاله الشديد بأمور العمل الإعلامي والعسكري.

رحل الفارس ملتحقا بأشقائه الثلاثة، ممن سبقوه إلى الجنان، بإذن الله تعالى، تاركا فراغا سيجد من يخلفه مشقة كبرى في سده، فنحسبه كان ممن قال فيهم رسول الله ﷺ: (من خير معاش الناس لهم، رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، يبتغي القتل والموت مظانه)، فلله درك يا أبا مارية.

رحلت أبا مارية، يا من تدمع العين لفقدك، وتبكيك المعارك وقت النزال، كيف لا، وأنت الضرغام حين الاحتدام، فنم قرير العين يا جبلاً، فقد خلّفت جيلاً من بعدك لن يناموا على ضيم!

قتال الكفار أجمعين

في سنة سيد المرسلين وخلفائه الراشدين

قاتل رسول الله قومه على دين الله، كما قاتل سائر كفار العرب الذين رفضوا دعوته والخضوع للإسلام، وكذلك فعل مع اليهود في المدينة وخارجها، وأرسل جيشه لقتال الروم مؤدباً لهم؛ لقتلهم رسوله، ولم يغض الطرف عنهم لقوتهم وشدة بأسهم، وأرسل رسوله إلى كسرى عظيم الفرس، يدعوه للدخول في دين التوحيد، واتباع شريعة الإسلام، مع علمه ﷺ بغطرسة كسرى وتعجرفه، ولولا أنّ الله صرف شره بمقتله، لأرسل الفرس جيشهم لحرب المسلمين في ذلك الوقت.

وفي غزوة الخندق اجتمعت على رسول الله ﷺ الأحزاب من قريش وقبائل العرب، بتحريض ومشاركة من يهود بني النضير، الذين أجلاهم رسول الله من المدينة فحنقوا على الإسلام وأهله. قال ابن إسحاق: «فخرجت قريش، وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان، وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، في بني فزارة، والحارث بن عوف بن أبي حارثة المري، في بني مرة، ومسعر بن رخيلة... فيمن تابعه من قومه من أشجع».

وحتى في هذا الكرب العظيم لم يتراجع رسول الله ﷺ عن جهاد المشركين، بل كانت سياسته التصدي لهم جميعا، مع سعيه إلى تفكيك تحالفهم من خلال دفع بعض أطرافه إلى الانسحاب منه، كما أراد أن يفعل مع غطفان، بأن يعرض عليهم قسما من ثمار المدينة على أن ينسحبوا من المعركة كي ينفرط بذلك أمر باقي الأطراف، ولكن لما وجد في أصحابه إصرارا على الثبات وأن لا يعطوا الدنية للمشركين بعد أن أعزهم الله بالإسلام عزم أمره على أن يستعين بالله على هزيمة الأحزاب كلهم، وأن لا ينال أي منهم من المسلمين ظفرا أو مغنما.

قال ابن إسحاق: «فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل، بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فذكر ذلك لهما، واستشارهما فيه، فقالا له: يا رسول الله، أمرا تحبه فنصنعه، أم شيئا أمرك الله به، لا بد لنا من العمل به، أم شيئا تصنعه لنا؟ قال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا! والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم»، وقد سره ذلك -عليه الصلاة والسلام- وأقرهم على عزمهم، فنصرهم الله -عز وجل- وأيدهم بتأييده.

وحتى ما كان بين رسول الله ﷺ والمشركين من معاهدات فإنها كانت مؤقتة بزمن، ما يعني ضمناً استمرار العداوة مع تأجيل القتال، وكذلك فإنها لم تكن على حساب الدين والتوحيد كما يفعل المرتدون حلفاء الصليبيين اليوم، الذين يزعمون أن عملهم تحت إمرة الشركين مشابه لمهادنة النبي ﷺ لبعض القبائل، ثم كان أمر الله تعالى لعبده ورسوله -عليه الصلاة والسلام- أن يقاتل المشركين بعد انتهاء عهودهم التي عاهدهم عليها ما لم يستعجلوا هم القتال بنقضهم العهود.

> **أرسل الصديق -رضي الله عنه- الجيوش شمالا وجنوبا، تطارد المرتدين جميعا في عقر ديارهم، وتستأصل شأفتهم**

وبعد وفاة رسول الله ﷺ ارتدّت العرب قاطبة إلا مكة والمدينة والطائف ومسجد بالبحرين، فأصر أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- على إنفاذ بعث أسامة -رضي الله عنه- لقتال الروم تنفيذا لوصية رسول الله ﷺ مع أنَّ ظاهر السياسة يقتضي الاحتفاظ بجيشه ليرد عن المدينة خطر المرتدين المحدق بها، ولكن وصية رسول الله ﷺ تُقدّم على ما يُظن أنه من حسن السياسة.

ثم أرسل الصديق -رضي الله عنه- الجيوش لقتال المرتدين جميعا، ولم يقبل في ذلك أي تنازل أو استثناء، وقد وفّقه الله وأظهر الحق على يديه.

قال ابن كثير، رحمه الله: «وقد تكلم الصحابة مع الصديق، في أن يتركهم وما هم عليه من منع الزكاة، ويتألفهم حتى يتمكن الإيمان في قلوبهم، ثم هم بعد ذلك يُزكّون، فامتنع الصديق من ذلك وأباه»، فأرسل -رضي الله عنه- الجيوش شمالا وجنوبا، تطارد المرتدين جميعا في عقر ديارهم، وتستأصل شأفتهم.

قال ابن كثير: «وعقد الألوية، فعقد أحد عشر لواء، عقد لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح إن أقام له. ولعكرمة بن أبي جهل، وأمره بمسيلمة. وبعث شرحبيل بن حسنة في أثره إلى مسيلمة الكذاب، ثم إلى بني قضاعة. وللمهاجر بن أبي أمية، وأمره بجنود العنسي ومعونة الأبناء... ولخالد بن سعيد بن العاص إلى مشارف الشام. ولعمرو بن العاص إلى جماع قضاعة ووديعة والحارث... إلخ».

ولم يفرّق الصديق في القتال بين من ارتد بامتناعه عن التزام الزكاة وحدها مع بقائه على سائر المباني، وبين من ناقض الإيمان بخاتم الأنبياء والمرسلين واتبع الدجالين مدعي النبوة، بل حاربهم جميعا، وسيّر إليهم السرايا والجيوش، حتى نصره الله عليهم ومكنه من رقابهم.

ولما انقضت حروب الردة أرسل الصديق -رضي الله عنه- الجيوش تغزو أعظم إمبراطوريتين في ذلك التاريخ: فارس والروم، مع أنّ المسلمين خرجوا لتوّهم من حرب شرسة مع المرتدين، استشهد فيها كثير من الصحابة، ولكنه واجب البلاغ، والهدف الذي بينه الصحابي الجليل ربعي بن عامر -رضي الله عنه- وهو على بساط الفرس وأمام عظيم قادتهم حين قال: «الله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فمن قبل ذلك قبلنا منه، ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى موعود الله. قال: وما هو موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي» [المنتظم في تاريخ الملوك والأمم].

قالها مدوية وحجة مبطلة لقول كل من يدعي أن أسلافنا خرجوا لمجرّد تحرير التراب أو زيادة المكتسبات.

وهكذا كان المسلمون يحاربون في العراق والشام أعظم دولتين في الأرض آنذاك في آن واحد ويوقعون فيهم أنكى وأشد الهزائم، وانتصر المسلمون على الأمتين الكافرتين ونشروا دعوة التوحيد بكتاب يهدي وسيف ينصر.

واليوم يخوض أحفاد ذلك السلف الصالح من أبناء الخلافة حربهم على الكفار جميعا، وقد عزموا على أن يهزموهم جميعا ويخضعوهم لدين الله أو يهلكوا دون ذلك، ولأن تمزق أشلاؤهم أحب إليهم من أن يساوموا على دينهم وتوحيدهم، مهما بلغت قوة أعدائهم واشتدت حملتهم عليهم، فالثبات على المبدأ نصر بحد ذاته.

وليسوا بالقوم السذج الجاهلين بحسن السياسة وإدارة المعارك، ولكنها لن تكون على حساب التوحيد أو دماء المسلمين وأعراضهم، ولن تكون بالذل والخنوع والرضى والاستسلام لأعداء الله. وجند الخلافة -بإذن الله تعالى- لن يداهنوا في دينهم، أو يتنازلوا عن شريعتهم، أو يوالوا أحدا من الكفار، لأن الله فرض عليهم معاداتهم، فليسوا كمن باع دينه لجيش تركيا المرتد أو تمسح بالصليبيين ليمدوه بالغطاء الجوي أو تسول الدعم بالسلاح وغيره، بل يتوكلون على الله وحده لا على أحد سواه، ولهم في رسول الله ﷺ وأصحابه أسوة حسنة، وظنهم بالله أنه ينصرهم على أمم الكفر جميعا، كما نصر أسلافهم ويوقنون أن البلاء والشدة والقتل والجراح، ما هي إلا تمحيص واختبار، وأن العاقبة للمتقين.

فضل عشر ذي الحجة
والعبادة الواردة فيها

ما هي إلا أيام قلائل ونستقبل موسما عظيما من مواسم العبادات، ألا وهو الأيام العشرة الأولى من شهر ذي الحجة الحرام، تلك الأيام التي هي أفضل أيام السنة عند الله تعالى على الإطلاق، وقد شرع لنا فيها سبحانه عبادات لنستدرك ما فاتنا ونجبر نقص عباداتنا، فما مكانة هذه الأيام العشرة؟ وما فضلها؟ وما هي أهم العبادات التي تشرع فيها؟

فضل العشر الأول من ذي الحجة:

يكفي في بيان فضل تلكم الأيام الجليلة أن يقسم بها الله -جل جلاله- بقوله تعالى: {وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ} [الفجر: ١-٢]، قال ابن كثير: «والليالي العشر المراد بها: عشر ذي الحجة، كما قاله ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وغير واحد من السلف والخلف»، والحق سبحانه لا يقسم إلا بعظيم! قال ابن القيم: «فالزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال أهل أن يقسم الرب -عز وجل- به» [التبيان].

كما بين النبي ﷺ أن الأيام العشرة الأولى من شهر ذي الحجة أفضل أيام الدنيا، وأن العمل الصالح فيها أفضل من كل عمل فيما سواها، قال ﷺ: (ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام، [يعني أيام العشر]) قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: (ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء) [رواه البخاري].

قال ابن رجب الحنبلي: «دل هذا الحديث على أن العمل في أيامه -يقصد عشر ذي الحجة- أحب إلى الله من العمل في أيام الدنيا من غير استثناء شيء منها، وإذا كان أحب إلى الله فهو أفضل عنده» [لطائف المعارف].

العمل في أيام العشر من ذي الحجة من أحب الأعمال إلى الله تعالى

وقال ابن القيم: «عشر ذي الحجة إنما فُضِّل باعتبار أيامه؛ إذ فيه يوم النحر ويوم عرفة ويوم التروية» [زاد المعاد].

ففي هذه العشر يوم عظيم عند الله، ألا وهو يوم عرفة، اليوم المشهود، الذي أكمل الله فيه الدين، وصيامه يكفر آثام سنتين، وفيها أيضا يوم النحر، الذي هو أعظم أيام السنة على الإطلاق، يوم الحج الأكبر الذي يجتمع فيه من الطاعات والعبادات ما لا يجتمع في غيره.

أهم عبادات العشر من ذي الحجة:

إن إدراك هذه الأيام العشرة لنعمة عظيمة من نعم الله تعالى على العبد، لا يقدرها حق قدرها إلا العابدون المجتهدون، فالواجب على العبد المسلم استشعار هذه النعمة واغتنام هذه الفرصة، فقد كان السلف يجتهدون في هذه الأيام في العبادة ما لا يجتهدون في غيرها، كما هو ثابت في سيرهم العطرة.

والأعمال الفاضلة التي ينبغي على المسلم أن يحرص عليها في هذه الأيام كثيرة جدا، كالجهاد في سبيل الله، وتلاوة القرآن، والمحافظة على صلاة الجماعة في المساجد، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجيران، والإصلاح بين الناس، وإكرام الضيف، والإنفاق في سبيل الله، وعيادة المرضى... إلخ، ولكن هناك أعمال معينة لها خصوصية في هذه الأيام، وهي:

١. الإكثار من الذكر: قال تعالى: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ} [الحج: ٢٨]، قال ابن رجب: «جمهور العلماء على أن هذه الأيام المعلومات هي: عشر ذي الحجة» [اللطائف].

لذا فقد ندب النبي ﷺ المسلمين في هذه الأيام لكثرة التهليل والتكبير والتحميد، كما في قوله ﷺ: (ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد) [رواه أحمد وغيره].

قال البخاري في صحيحه: «وكان عمر -رضي الله عنه- يكبّر في قبته بمنى، فيسمعه أهل المسجد، فيكبّرون، ويكبّر أهل الأسواق، حتى ترتج منى تكبيرا، وكان ابن عمر يكبّر بمنى تلك الأيام وخلف الصلوات وعلى فراشه وفي فسطاطه ومجلسه وممشاه، تلك الأيام جميعا».

إذاً، من أخص الأعمال المسنونة في هذه العشر التكبير، وهو هنا نوعان: تكبير مطلق وتكبير مقيد، فأما المطلق ففي سائر الوقت من أول العشر إلى آخر أيام التشريق، وأما التكبير المقيد فهو المقيد بأدبار الصلوات الخمس (بعد السلام من الصلوات المفروضة)، ويبدأ من فجر يوم عرفة -لغير الحاج- إلى عصر آخر أيام التشريق، كما جاء عن بعض الصحابة، أما الحاج فيبدأ تكبيره من حين يرمي جمرة العقبة يوم العيد.

وصيغة التكبير هي: (الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد)، وورد غيرها في الآثار.

٢. الصيام: يسن للمسلم أن يصوم تسع ذي الحجة (كلها أو ما تيسر له منها)، فعن بعض أزواج النبي ﷺ قالت: «كان رسول الله ﷺ يصوم تسع ذي الحجة» [رواه أبو داود]، وأكثر العلماء على أن صيام التسع من ذي الحجة مستحب استحبابا شديدا [شرح صحيح مسلم للنووي].

٣. ذبح الأضاحي: ومن أعمال هذه العشر التقرب إلى الله تعالى بذبح الأضاحي، والأضحية سنة مؤكدة عند جمهور الفقهاء، فينبغي للمسلم المستطيع أن لا يفرط فيها، لأن رسول الله ﷺ واظب عليها، وكذا الصحابة -رضي الله عنهم- من بعده.

فعن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: «أقام رسول الله ﷺ بالمدينة عشر سنين يضحي» [رواه الترمذي وحسنه]، وقال ابن القيم: «ولم يكن ﷺ يدع الأضحية» [زاد المعاد].

٤- الحج والعمرة: إن من أفضل ما يعمله العبد في هذه العشر المباركة حج بيت الله الحرام إن استطاع، فمن وفّقه ربه تعالى لحج بيته وقام بأداء نسكه على الوجه المطلوب؛ فله نصيب من قول نبيه ﷺ: (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) [متفق عليه].

الجهاد والرباط في هذه الأيام المباركة زيادة في الخير والأجر

نسأل الله تعالى أن يمكن لمجاهدي الدولة الإسلامية، ويفكوا أسر مكة والمدينة من طواغيت آل سلول، أخزاهم الله، وأن يرزقنا سبحانه حجة وعمرة في ظل حكم الشريعة.

هذا، وقد يسأل سائل: كيف نجمع بين حديث النبي ﷺ الذي فضّل فيه أعمال العشر من ذي الحجة على سائر الأعمال، وبين الأحاديث الكثيرة المتواترة التي أثبتت فضيلة الجهاد في سبيل الله على سائر الأعمال وجعلته ذروة سنام الإسلام؟! كحديث أبي هريرة -رضي الله عنه- الذي سُئل فيه رسول الله ﷺ: «أي الأعمال أفضل؟» فأجاب: (إيمان بالله ورسوله)، فقيل: «ثم ماذا؟» قال: (الجهاد في سبيل الله) [متفق عليه].

وللجمع بين هذه النصوص يقول صاحب «فيض الباري»: «هذا كله إذا لم يكن الجهاد فرضا، فإن الكلام في الفضائل دون الفرائض»، ويقول ابن رجب: «فرائض عشر ذي الحجة أفضل من فرائض سائر الأعشار، ونوافله أفضل من نوافلها، فأما نوافل العشر فليست أفضل من فرائض غيره... فصيام عشر رمضان أفضل من صيام عشر ذي الحجة، لأن الفرض أفضل من النفل» [فتح الباري].

وما هو متقرر لدى أهل العلم أن الجهاد -وإن كان جهاد طلب- أفضل الطاعات، ولا يعدله شيء قط، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «اتفق العلماء -فيما أعلم- على أنه ليس في التطوعات أفضل من الجهاد، فهو أفضل من الحج [التطوع]، وأفضل من الصوم التطوع، وأفضل من الصلاة التطوع» [مجموع الفتاوى].

فكيف إذا كان الجهاد جهاد دفع وتعيّن على كل مسلم كما هو حاله اليوم؟! قال ابن تيمية عن جهاد دفع التتار: «حتى والله لو كان السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم، حاضرين في هذا الزمان لكان من أفضل أعمالهم جهاد هؤلاء القوم المجرمين» [مجموع الفتاوى].

إذاً، فالجهاد إن كان فرض عين (كما في جهاد الدفع)، كان أفضل من كل العبادات (الواجبة والمستحبة)، وإن كان الجهاد فرض كفاية (كما في جهاد الطلب) ووقع في عشر ذي الحجة؛ كان أفضل من أي تطوع يقدّمه العبد على الإطلاق.

فالغنيمة الغنيمة -أيها المسلمون- لهذه الأيام العظيمة، فإنها والله لا تقدّر بقيمة، والمبادرة المبادرة بالعمل، والعجل العجل قبل هجوم الأجل، فاليوم عمل بلا حساب، وغدا حساب بلا عمل.

اللهم بلغنا العشر من ذي الحجة، وأعنا فيها على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.



علماء السوء...

ملعونون مغضوب عليهم

لقد شرَّف اللهُ العلمَ وأهلَه ورَفَع قَدْرَهم وأعلى منزلتهم، قال الله تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: 18].

قال القرطبي: «لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته، كما قرن اسم العلماء» [الجامع لأحكام القرآن].

ولذلك نفى الله سبحانه التسوية بين العلماء وغيرهم، قال الله تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر: 9].

وأمر الله بالرجوع لهم فقال سبحانه: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: ٤٣].

ولكن هل المقصود بالعلم هو مجرد حفظ المتون، وجرد المطوّلات، وتحقيق المخطوطات، والإحاطة بالأقوال، والتأليف التجاري؟! أبداً وكلّا!

إن العلماء الذين مدحهم الله سبحانه وسماهم بـ«أولي العلم» هم العاملون بالعلم المبلّغون له، قال الشاطبي: «العلم المعتبر شرعا -أعني الذي مدح اللهُ ورسولهُ أهلَه على الإطلاق- هو العلم الباعث على العمل» [الموافقات]، فثم تلازم بين العلم والعمل، فلا عمل بدون علم، ولا علم بدون عمل.

هتف العلمُ العملَ * فإن أجابه وإلا ارتحل

والعمل الملازم للعلم هو المُثمِر لخشية الله، فتحمله خشيته من الله أن يصدع بالحق خوفا من غضب الله وعذابه، قال الله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨]، وعن ابْن عباس -رضي الله عنهما- قال: «العلماء بالله الذين يخافونه» [الزهد لأبي داود].

وعن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: «ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية» [حلية الأولياء].

الجهاد قرين العلم وعلماء السلف كانوا من المجاهدين في سبيل الله

كما أن من العمل الملازم للعلم الجهاد في سبيل الله، فالجهاد قرين العلم كما جاء في حديث معاوية -رضي الله عنه- قال: «سمعت النبي ﷺ يقول: (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، ولا تزال عصابة من المسلمين، يقاتلون على الحق، ظاهرين على من ناوأهم، إلى يوم القيامة)» [رواه مسلم].

وهذا الاقتران في الحديث يدل على التلازم بين العلم والجهاد، وأن أهله هم الطائفة المنصورة، فقوام الدين وظهور الحق لا يكون إلا بالعلم والجهاد.

وهذا هو حال الصحابة -رضي الله عنهم- الذين هم أعلم الأمة حيث قرنوا العلم بالجهاد، والناظر في سير الصحابة من المهاجرين والأنصار يجد أن كثيرا منهم قُتِلوا في ساحات الجهاد، محققين العلم والعمل، ففي يوم اليمامة وقد استحرّ القتل بحفظة كتاب الله من الصحابة، إذ سقطت الراية فأخذها سالم مولى أبي حذيفة -رضي الله عنه- فقال المسلمون: «يا سالم، إنا نخاف أن تؤتى من قبلك!» فقال: «بئس حامل القرآن أنا إن أتيتم من قبلي، وتقدّم فقاتل حتى قُتل».

وعلى ذلك سار التابعون وباقي الأئمة، فلهم في ساحات الرباط والغزو وقائع وجولات، بالرغم من أن الجهاد والرباط في أيامهم كان فرضاً على الكفاية.

فأولئك الأئمة أهل الحديث والزهد، فكما شاركوا في الرواية، شاركوا كذلك في الرباط وملازمة الثغور والرماية، أمثال الأوزاعي، وعبد الله بن المبارك، وابن القاسم، وأبي إسحاق الفزاري، ومخلد بن الحسين، وإبراهيم بن أدهم، وحذيفة المرعشي، ويوسف بن أسباط، وغيرهم كثير، فقد ترجموا علمهم بالعمل من الرباط والجهاد.

بل كان من المحدّثين من يلازم الثغر مرابطا لا يخرج، كالإمام عيسى بن يونس، ولذا كان الإمامان ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما يقولون: «إذا اختلف الناس في شيء فانظروا ما عليه أهل الثغر، فإن الحق معهم؛ لأن الله تعالى يقول: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}».

وعلى مر العصور تجد العلماء من أهل الحديث قائمين بواجب العمل من الجهاد والصدع بالحق، أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية، الذي صدع بالحق وجاهد التتار وقاتلهم، وكذا إلى عصر الإمام محمد بن عبد الوهاب، الذي قاتل المشركين في الجزيرة وجاهدهم بالسنان والبيان.

وإلى أيامنا هذه، فالذين أحيا الله بهم العلم والعقيدة، وظهروا بالحق وظهر الحق بهم، كانوا من أولئك الذين قرنوا العلم بالجهاد، أمثال الشيخ العَلَم أبي مصعب الزرقاوي، والشيخ أبي أنس الشامي والشيخ عبد الله الرشود والشيخ أبي الحسن الفلسطيني والشيخ أبي ميسرة الغريب، رحمهم الله جميعا.

ولذا فمَن عَلِمَ ولم يعمل بعلمه فهو مذموم شرعاً، ولا يكون من أولي العلم ولا يسمى عالماً بالمعنى الشرعي، وكيف يسمى عالماً، وهو ممقوتٌ عند الله، مغضوب عليه! فقد غضب اللهُ على اليهود وسماهم «المغضوب عليهم» لمّا لم يعملوا بعلمهم.

وقال تعالى: {كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: ٣]، وفي هذا بيان شدة مقت الله وغضبه على من علم ولم يعمل.

وكذا بيّن القرآن أنّ مَن عَلِمَ وكتم علمه فهو ملعون، كما في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} [البقرة: ١٥٩]. فعُلِم من هذا كله أن أولي العلم هم الحاملون له العاملون به الصادعون به.

وقد وصف الله تعالى مَن لم يعمل بعلمه بالجهل، وذلك في قوله تعالى عن علماء اليهود لما رغبوا في السحر واختاروه: {وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [البقرة ١٠٢]. ومحل الشاهد من الآية قوله تعالى: {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}، فحيث لم يعملوا بعلمهم، صاروا جهالاً.

ولذلك فمن لم يعمل بعلمه من الصدع بالحق والجهاد، أو كَتمه وألبَس الحق بالباطل فليس بعالم، بل هو إما شيطان أخرس أو شيطان ناطق.

كان السلف لا يعدّون أهل البدع من العلماء، وينهون عن الأخذ عنهم

وقد كان أهل العلم لا يَعدّون أهل البدع من العلماء، كما قال ابن عبد البر عن المبتدعة من أهل الكلام: «أجمع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ ولا يُعدّون عند الجميع في طبقات الفقهاء، وإنما العلماء أهل الأثر...» [جامع بيان العلم وفضله]، فكيف لو رأوا ما ابتليت الأمة به من أئمة الكفر؟

والناظر في المنتسبين للعلم في عصورنا المتأخرة يجد أنّ الأعمّ الأغلب منهم ليسوا علماء ولا يدخلون في زمرة أهل العلم؛ لتخلّفهم عن واجب العمل، فما صدعوا بالحق في وجوه الطواغيت، بل كتموا العلم وألبسوا الحق بالباطل، وضللوا عباد الله، وعلموا آيات القتال والغزو، ثم أعرضوا عن القيام بواجب العمل فيها مخالفين بذلك سنة النبي ﷺ وما كان عليه الصحابة والتابعون، وتجدهم درسوا النصوص في الولاء والبراء وحادوا عنها، وعلموا الآيات في وجوب البلاغ وبيان الحق ثم كتموا وداهنوا، فهل هؤلاء هم الذين سماهم الله بأولي العلم؟! حاشا وكلّا، بل هم أهل ضلال، وهم متوعدون بالعذاب لتركهم العمل وكتمهم للحق، فكيف إذا عرفنا أن جلّ من يُشار إليهم بالبنان من المنتسبين إلى العلم في عصرنا قد أظهروا الطاعة للطاغوت والدخول في ولايته ونصرته على من خرج عليه من الموحّدين! وحكم من فعل هذا معروف في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

وعلى هذا، فإن ابن باز، وابن عثيمين، والفوزان، وآل الشيخ (المعاصرين)، ومحمد حسان، والحويني، وحسين يعقوب، والقرضاوي، والبوطي، والنابلسي، والغرياني، والمقدسي، وأبا قتادة، والحدوشي، والفحل، ليسوا علماء!

أين عملهم بالعلم؟! أين صدْعُهم بالحق؟! أين إنكارهم لشرك الطواغيت؟! أين غزوهم وقتالهم ورباطهم؟! أين بيانهم للحق وإرشادهم الناس؟! أين تصديهم للحملات الكافرة الصائلة على المسلمين؟! أم أنهم صاروا برضاهم عُصيّ في أيدي الطواغيت لضرب المجاهدين والقضاء عليهم باسم الشريعة والدين؟ فهل هؤلاء إلا أئمة ضلال وعلماء طاغوت؟

فلا يغرنّك هؤلاء ولا حملهم العلم، فعلمهم حجة عليهم، بل إنّ حمْل هؤلاء العلمَ الشرعيَّ شبيه بحمل المستشرقين العلم، بل قد برع بعض النصارى المستشرقين في علم الحديث مثل المدعو: (أرند جان فنسِنك) وهو مستشرق هولندي، صاحب «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي»، وكذا قام المستشرق جوستا فتسستام بتحقيق كتاب «الرد على الجهمية» للدارمي، فهل دخل أولئك المستشرقون في مسمى «أولي العلم» وهل يصح وسمهم بـ«العلماء»؟!

ألم يخبر النبي ﷺ بأول الناس الذين يقضى يوم القيامة عليهم فذكر منهم: (ورجل تعلَّم العلم، وعلَّمه وقرأ القرآن، فأُتي به فعرَّفه نعمه فعرَفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلّمتُ العلم، وعلّمتُه، وقرأتُ فيك القرآن، قال: كذبتَ، ولكنّك تعلمتَ العلم ليقال: عالم، وقرأتَ القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار) [رواه مسلم].

فإذا كان فساد نية العالم يورده المهالك فكيف بمن خالف عملُه علمَه وكتم الحق وضلل الناس؟! بل كيف بمن دخل في ولاية الطاغوت ونصر حكمه؟!

عن هَرِم بن حيان، أنه قال: «إياكم والعالم الفاسق»، فبلغ عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فكتب إليه -وأشفق منها- ما العالم الفاسق؟ قال: «فكتب إليه هَرِم: ... يكون إمام يتكلم بالعلم، ويعمل بالفسق، فيشبه على الناس فيضلوا» [رواه الدارمي]، هذا في الفاسق، فكيف بالضال المضل الخارج من الملّة؟

وبهذا يتبيّن لنا فساد مقولة بعض الجهّال عن المنتسب للعلم: «خذ علمه ودع عمله»، بل اسأل عن عمله وصدعه بالحق وجهاده وخشيته ربه؛ كما تسأل عن علمه وضبطه، وحينئذ يتبيّن لنا من هو العالم، فإن مَن خان الأمانة في العمل يخونها في العلم.

يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ

فرض الله تعالى القتال على عباده دون إمائه، فظن كثير من النساء -نساء عصرنا- أن لا جهاد عليهن أبدا، وفاتهن أنه قد بقي من أنواع الجهاد جهاد عظيم، قدّمه الله على الجهاد بالنفس في جميع المواضع في الكتاب العزيز، إلا موضعا واحدا؛ إنه الجهاد بالمال، الذي لم يسقط في حق المرأة، كما سقط في حقها جهاد السيف من حيث الأصل، ورحم الله بعض نساء السلف، فقد كانت الواحدة منهن إذا لم تجد ما تنفقه على الغزاة، قصت ظفيرتها وجعلتها عقالا للخيل الغازية، فأين المشمّرات إعلاء لكلمة الله تعالى في الأرض، وأين المنفقات لنصرة هذا الدين؟ والجزاء جنة عرضها السماوات والأرض، بإذن الله تعالى.

قال الله تعالى في كتابه العزيز: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الصف: ١٠-١١]، إيمان بالله تعالى ثم جهاد في سبيله بالمال والنفس، والجهاد بالمال مقدّم لأن المال هو الذي يُبدأ فيه بالإنفاق لإعداد العدة وتجهيز الجيوش، والجهاد بالنفس فيه أهل الأعذار الذين لا حرج عليهم إن تخلفوا، والمرأة مستثناة منه، أما الجهاد بالمال فلا عذر فيه لمن أغناه الله من فضله وتأخر عن الإنفاق، لا فرق فيه بين الرجل والمرأة، والشيخ والشاب، والأعمى والبصير، والمقعد والسليم، أما من كان فقيرا فلا حرج عليه لقول الله تعالى: {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ} [التوبة: ٩٢].

وعن أنس -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم) [رواه أبو داود].

يقول ابن قيم الجوزية -رحمه الله- في الحكمة من تقديم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس: «وفائدة ثانية وهي أن المال محبوب النفس ومعشوقها، التي تبذل ذاتها في تحصيله، وترتكب الأخطار وتتعرض للموت في طلبه، وهذا يدل على أنه هو محبوبها ومعشوقها، فندب الله تعالى محبيه المجاهدين في سبيله، إلى بذل معشوقهم ومحبوبهم في مرضاته، فإن المقصود أن يكون الله هو أحب شيء إليهم، ولا يكون في الوجود شيء أحب إليهم منه، فإذا بذلوا محبوبهم في حبه، نقلهم إلى مرتبة أخرى أكمل منها، وهي بذل نفوسهم له فهذا غاية الحب» [بدائع الفوائد].

ومعلوم أن النساء -إلا من عصم الله، وهنّ قليلات- يكثرن اللغو وكفران العشير والغيبة وما إلى ذلك من الذنوب المهلكة، فأرشدهنّ النبي ﷺ إلى ما يكفّرن به عن بعض ما يقترفنه في الدنيا، فعن أبي سعيد الخدري، قال: «خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى، فمرّ على النساء، فقال: (يا معشر النساء تصدّقن، فإني أريتكن أكثر أهل النار) فقلن: وبِمَ يا رسول الله؟ قال: (تكثرن اللعن، وتكفرن العشير...)» الحديث [رواه البخاري].

وها هي أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنها- ورغم فاقتها وحاجتها، أسماء التي لم تكن تملك ذهبا ولا حليا، تسأل النبي ﷺ عن الصدقة، فعن ابن أبي مليكة، قال: «حدثتني أسماء بنت أبي بكر، قالت: قلت: يا رسول الله، ما لي شيء إلا ما أدخل الزبير على بيتي، فأعطي منه؟ قال: (أعطي، ولا توكي، فيوكى عليك)» [رواه أبو داود].

قال ابن حجر: «والمعنى النهي عن منع الصدقة خشية النفاد، فإن ذلك أعظم الأسباب لقطع مادة البركة؛ لأن الله يثيب على العطاء بغير حساب، ومن لا يحاسب عند الجزاء، لا يحسب عليه عند العطاء، ومن علم أن الله يرزقه من حيث لا يحتسب، فحقه أن يعطي ولا يحسب» [فتح الباري].

يجود علينا الطيبون بمالهم
ونحن بمال الطيبين نجود

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: «قال رسول الله ﷺ: (إنّ الله -عز وجل- يقبل الصدقات، ويأخذها بيمينه، فيربّيها لأحدكم كما يربّي أحدكم مُهره، أو فَلُوَّه حتى إن اللقمة لتصير مثل أُحُد)» [رواه الترمذي].

فكيف إذا كانت هذه الصدقات لتجهيز المجاهدين في سبيل الله؟ وهل يقيم الدين ويحمي بيضة الإسلام غير المجاهدين؟ وهل يذود عن الأعراض ويكسر أنف الكفر غير المجاهدين؟

روى البخاري في «باب فضل من جهّز غازيا أو خلفه بخير» عن زيد بن خالد -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: (من جهّز غازيا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيا في سبيل الله بخير فقد غزا)؛ وهذا ما فقهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان -رضي الله عنه- فتاجر مع الرحمن تجارة أورثته الجنان، ولم يجهّز غازيا واحدا فحسب بل جيشا بأكمله لغزوة تبوك، هو جيش العسرة وما أدراك ما جيش العسرة، ذاك الجيش الذي ما سمي بالعسرة إلا لأنه كان في أيام عسيرة وأوقات عصيبة على المسلمين، عن عبد الرحمن بن سمرة، قال: جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار، حين جهّز جيش العسرة فنثرها في حجره، قال عبد الرحمن: فرأيت النبي ﷺ يقلّبها في حجره ويقول: (ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم) مرتين. [رواه الترمذي].

الجهاد بالمال مقدم على عموم الصدقات، ورب تمرة وقت صاحبها من النار

بل لقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية لطيفة فقهية نفيسة تبيّن منزلة الجهاد بالمال وتقديمه على عموم الصدقات، فقال رحمه الله: «لو ضاق المال عن إطعام جياع والجهاد الذي يتضرر بتركه، قدّمنا الجهاد وإن مات الجياع، كما في مسألة التترس وأولى، فإن هناك نقتلهم بفعلنا وهنا يموتون بفعل الله» [الفتاوى الكبرى].

وإنّا إن تأملنا في حال بعض النساء اليوم، نلحظ إسرافا منهن على متاع الدنيا الزائلة، من لباس وزينة وولائم وما إلى ذلك، وفي المقابل نجد تقتيرا وشحا على دين الله تعالى وهو الغني ونحن الفقراء: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد: ٣٨].

فهل تكون المسلمة طويلة اليد إلى أمور الدنيا، قصيرة اليد إلى ما ينفعها في آخرتها؟ وهل من متأسية بسودة زوج النبي وأم المؤمنين؟ فعن عائشة، رضي الله عنها: أن بعض أزواج النبي ﷺ قلن للنبي ﷺ: «أيّنا أسرع بك لحوقا؟ قال: (أطولكن يدا)، فأخذوا قصبة يذرعونها، فكانت سودة أطولهن يدا، فعلمنا بعد أنما كانت طول يدها الصدقة، وكانت أسرعنا لحوقا به وكانت تحب الصدقة» [رواه البخاري ومسلم].

ولا تظن المسلمة أن الله تعالى لا يقبل إلا الكثير والوفير، بل رُب درهم سبق ألف درهم، ورب نصف تمرة يتصدق بها صاحبها في الدنيا تقيه نار الآخرة، فعن المنذر بن جرير، عن أبيه، قال: «كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر فتمعر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام، فصلى ثم خطب فقال: ({يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ}) إلى آخر الآية، ({إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}) [النساء: ١]، والآية التي في الحشر: {اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ} [الحشر: ١٨]. (تصدّق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره) -حتى قال- (ولو بشق تمرة) قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفّه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل، كأنه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ: (من سنّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء)» [رواه مسلم].

وإذا فات المسلمة في الجهاد بالسيف من الخير الكثير، وذلك من فضل الله تعالى على الرجال، فها هو باب الجهاد بالمال العظيم مفتوح على مصراعيه ينتظر المتاجرات مع ربهن تجارة لن تبور أبدا، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في الفتاوى الكبرى: «ومن عجز عن الجهاد ببدنه وقدر على الجهاد بماله، وجب عليه الجهاد بماله، وهو نص أحمد في رواية أبي الحكم، وهو الذي قطع به القاضي في أحكام القرآن، في سورة براءة عند قوله: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا}، فيجب على الموسرين النفقة في سبيل الله، وعلى هذا فيجب على النساء الجهاد في أموالهن إن كان فيها فضل».

وبعض النساء تكنز الذهب قائلة: لعلِّي لا أجد يوما ما أنفق -على الدنيا طبعا- فأبيع من هذا الذهب. ولكن عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- لم تكن تتبع نفس السياسة، فعائشة تصدقت بسبعين ألفا وإنها لترقع درعها، بل ويرسل إليها معاوية -رضي الله عنه- بمائة ألف درهم، فلم تغرب شمس ذاك اليوم إلا وقد تصدقت بها كلها، فتقول لها جاريتها: «لو اشتريت لنا منها بدرهم لحما؟» فتجيبها أم المؤمنين: «ألا قلت لي؟»

فإن كان هذا حال أمهات المؤمنين والصحابيات مع الصدقة والإنفاق في سبيل الله، وهنّ من هنّ، أفلا يجدر بمن هن دونهن من المسلمات ممن آتاهن الكريم من فضله، أن يتزودن لدار القرار، ما دمن في سعة من الأمر وأمنة من العيش، والله -تبارك وتعالى- يقول: {وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المنافقون: ١٠-١١].

من قصص الثبات في حياة الصحابيات

الجنة... سلعة الله الغالية، خير المقام ومنتهى المرام، إليها يتسابق المؤمنون، ويتنافس في نيلها المتنافسون، تحار في كنهها العقول، ويعجز عن وصفها فحل قؤول، غير أنها قد حُفّت بالأشواك لا بالورود، ودماء المشترين وأشلاؤهم على ذلك شهود، والجود بالنفس أقصى غاية الجود، «بالله ما هزلت فيستامها المفلسون، ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون، لقد أقيمت للعرض في سوق من يريد، فلم يرض ربها لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخر البطالون، وقام المحبّون ينتظرون أيُّهم يصلح أن يكون نفسه الثمن» [زاد المعاد].

يقول الله -عز وجل- في كتابه العزيز قولا عظيما، طوبى لمن قرأه أو سمعه فتأمله وتدبره: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: ١٤٠-١٤٢]، إنه التدبير الرباني المحكم؛ قرح بقرح، ودولة بدولة، والمؤمنون منهم شهداء، والذين آمنوا يُبتلون ليتمايزوا، ويعلو الطيّب على الخبيث، وأما الجنة فثواب من نجح في الاختبار، وصبر عند البلاء، وثبت ساعة الشدة، ولم يفزع أو يسخط، ولم يكن لسان حاله: {مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا}، وهيهات لمثل هذا أن ينعم بجنان ربه هيهات.

ولا تظنَّنَّ المسلمة الموحدة أنها بمنأى عن دوائر التمحيص والابتلاء، بل إنها في ذلك والرجل سواء بسواء، وأكثر من ذلك؛ قد يكون لها عظيم الدور في تثبيت الزوج والأبناء.

فهذه خديجة وأسماء، وتلك سمية وخنساء وغيرهن كثيرات ممن لا يسع المقام لذكر مناقبهن؛ أما خديجة فأم المؤمنين صاحبة أول قلب يخفق إيمانا بالرسالة المحمدية، خديجة التي كانت ممن ثبّت الله هذا الدين بتثبيتها زوجها سيد المرسلين محمد، صلى الله عليه وسلم.

أخرج الشيخان في صحيحيهما من حديث عائشة -رضي الله عنها- أن النبي - صلى الله عليه وسلم- وبعد نزول الوحي عليه لأول مرة في غار حراء وفزعه منه، أتى خديجة زوجه فأخبرها الخبر ثم قال: (لقد خشيتُ على نفسي)، قالت له خديجة: «كلا أبشر، فوالله، لا يخزيك الله أبدا، والله، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق...» إن أم المؤمنين خديجة -رضي الله عنها- وهي تسمع ذاك الخبر العجاب من زوجها، لم تجزع ولم تهلع، ولم تمسك بتلابيب بعلها خوفا من قادم الأيام، ولم تثبّط فؤاده بل ثبّتته، حتى قال العلماء عن كلامها كما نقل النووي فقال: «قال العلماء... وفيه [أي كلام خديجة، رضي الله عنها] أعظم دليل وأبلغ حجة على كمال خديجة -رضي الله عنها- وجزالة رأيها، وقوة نفسها، وثبات قلبها، وعظم فقهها، والله أعلم» [شرح صحيح مسلم].

وتمضي الأيام وينتشر أمر الدعوة ويبطش طواغيت قريش بالموحدين، ويحاصرونهم في شعب أبي طالب ويمنعون عنهم القوت والماء، وأم المؤمنين ثابتة مع زوجها، صابرة محتسبة، يصيبها ما يصيب القوم من جوع وظمأ، وهي من هي، سليلة الحسب والنسب، صاحبة المال والجاه، حتى حوصرت معهم في شعب أبي طالب لعامين، وضرها ما لاقت من جوع وتعب، فماتت وهي صابرة محتسبة، ثابتة على دينها، راض عنها زوجها، عليه الصلاة والسلام، فرضي الله عنها وأرضاها.

> **لم يتوقف ثبات الصحابيات على أنفسهن، بل مضين يثبتن المسلمين على دين الله بأقوالهن وأفعالهن**

أما سمية فهي سمية بنت خياط، أم عمار بن ياسر، وكانت سابع سبعة في الإسلام، وأول شهيدة تسقي بدمائها شجرة التوحيد، نعم يا مسلمة؛ إن أول دماء سالت في سبيل لا إله إلا الله كانت دماء امرأة، فقد كانت سمية وزوجها وابناها من موالي بني مخزوم، ولما أسلموا لقوا صنوفا وألوانا من العذاب، فعن جابر، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- مرّ بعمار وأهله وهم يعذبون، فقال: (أبشروا آل عمار، وآل ياسر، فإن موعدكم الجنة) [رواه الضياء والحاكم].

إن سمية لم تعذب إلا في الله، كي تعود عن دينها، وتترك سبيل محمد، صلى الله عليه وسلم، هذا الرجل الذي لم يأتهم بمال ولا ذهب ولا فضة، وإنما بدين «جديد» لم يكن عليه الآباء من قبل، بكلمة يشهدونها ويعملون بها فتكون لهم الجنة، ورغم التعذيب الشديد، إلا أن سمية تلك المرأة الضعيفة المستضعفة ثبتت ولم تتزحزح عن دينها، ولم تتراجع عما باتت تعتقده وتدين الله تعالى به، قال ابن إسحاق في «السيرة»: «حدثني رجال من آل عمار بن ياسر أن سمية أم عمار عذبها آل بني المغيرة على الإسلام، وهي تأبى غيره حتى قتلوها»، فكانت خاتمتها الشهادة بعد صبرها وثباتها إذ طعنها عدو الله أبو جهل بحربة فقتلها.

وأما أسماء، فبنت الصديق، رضي الله عنها وعن أبيها، تلك التي ضربت في الثبات والجهاد أروع الأمثلة، أسماء التي يخرج أبوها مهاجرا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، فيأخذ كل ماله ولا يترك لهم شيئا، فلا تتذمر ولا تتبرم، بل تحتال على جدها ولا تفضح أباها، فعن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، أن أباه، حدثه عن جدته أسماء بنت أبي بكر، قالت: «لما خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وخرج معه أبو بكر، احتمل أبو بكر ماله كله معه: خمسة آلاف درهم، أو ستة آلاف درهم»، قالت: «وانطلق بها معه»، قالت: «فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه»، قالت: «قلت: كلا يا أبه، إنه قد ترك لنا خيرا كثيرا»، قالت: «فأخذت أحجارا، فوضعتها في كوة البيت، كان أبي يضع فيها ماله، ثم وضعت عليها ثوبا، ثم أخذت بيده، فقلت: يا أبه، ضع يدك على هذا المال»، قالت: «فوضع يده عليه، فقال: لا بأس، إن كان قد ترك لكم هذا، فقد أحسن، وفي هذا لكم بلاغ»، قالت: «ولا والله ما ترك لنا شيئا، ولكني قد أردت أن أسكّن الشيخ بذلك» [رواه أحمد وغيره].

ولم تسلم ذات النطاقين من بطش الطاغوت أبي جهل إذ تقول: «لما خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وأبو بكر، أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل، فوقفوا على باب أبي بكر فخرجت إليه»، فقالوا: «أين أبوك يا بنت أبي بكر؟» قالت: «قلت: لا أدري والله أين أبي»، قالت: «فرفع أبو جهل يده، وكان فاحشا خبيثا، فلطم خدي لطمة خر منها قرطي»، قالت: «ثم انصرفوا» [حلية الأولياء].

هكذا حال المسلمة المؤمنة بربها، الظانة به ظن الخير، المستعذِبة العذابَ في سبيل دينها، وإنه لما خرج قوم على خليفة المسلمين عبد الله بن الزبير -رضي الله عنهما- وحاصره الحَجّاج الثقفي في مكة، كانت أسماء تلك الأم التي ثبتت ابنها وحرضته على الموت في سبيل الله تعالى، يقول ابن كثير: «ودخل عبد الله بن الزبير على أمه فشكا إليها خذلان الناس له، وخروجهم إلى الحَجّاج حتى أولاده وأهله، وأنه لم يبق معه إلا اليسير، ولم يبق لهم صبر ساعة، والقوم يعطونني ما شئت من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت: يا بني، أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وتدعو إلى حق فاصبر عليه، فقد قُتل عليه أصحابك، ولا تمكّن من رقبتك، يلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنتَ إنما أردتَ الدنيا فلبئس العبد أنت؛ أهلكتَ نفسك وأهلكتَ من قُتل معك، وإن كنتَ على حق فما وهن الدين، وإلى كم خلودكم في الدنيا؟ القتل أحسن [...] ثم جعلت تذكّره بأبيه الزبير، وجدّه أبي بكر الصديق، وجدّته صفية بنت عبد المطلب، وخالته عائشة زوج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وترجيه القدوم عليهم إذا هو قتل شهيدا، ثم خرج من عندها، فكان ذلك آخر عهده بها، رضي الله عنهما وعن أبيه وأبيها» [البداية والنهاية].

وأما الخنساء بنت عمرو، فحالها ليس ببعيد عن حال أسماء، فعن أبي وجزة، عن أبيه، قال: «حضرت الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمية حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال، فقالت لهم من أول الليل: يا بني، إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غبرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، فإذا أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها، واضطرمت لظى على سياقها، وجللت نارا على أوراقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها، عند احتدام خميسها، تظفروا بالغنم والكرامة، في دار الخلد والمقامة» [الاستيعاب].

فكان للخنساء ما أرادت، وخرج أبناؤها الأربعة يبتغون الموت مظانه فقتلوا جميعهم في يوم واحد، ولما بلغها خبرهم ما زادت على أن قالت: «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته».

فلله در نساء كهؤلاء، ما قعدن يبكين وينتحبن في ساعات الشدة والبلاء، بل حملن على أعتاقهن هم الدين والأمة، فهذه تثبت زوجا، وتلك تحرض ابنا...

وبمثل هؤلاء تقتدي المسلمة، وإذا اشتدت الأزمات وضاقت الحلقات، تسلت بذكر ثباتهن، واستعطرت بطيب سيرهن.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلِّ اللهم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الغِلظة والشِدَّة على الكفار في سيرة النبي المختار ﷺ

أرسل الله رسوله محمدا -صلى الله عليه وسلم- رحمة للعالمين، فصدع بدعوتهم إلى طريق الحق والهدى، فمَن قَبِل نالته هذه الرحمة، ومن ناوأه وعانده، جاهده وقاتله واستعمل معه الشدة والغلظة حتى يخضع لأمر الله، وفي سيرته -صلى الله عليه وسلم- خير شاهد ودليل.

فبعد قفول النبي -صلى الله عليه وسلم- من بدر أمر بقتل الأسير عقبة بن أبي معيط صبرا؛ وذلك لأنه كان من أشد الناس أذية للإسلام والمسلمين، قال الذهبي في «السيرة»: «وقتل بعرق الظبية عقبة بن أبي معيط، فقال عقبة حين أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بقتله: من للصبية يا محمد؟ قال: النار؛ فقتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح؛ وقيل: علي، رضي الله عنه».

وفي أُحُد أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بقتل الأسير أبي عزة الجمحي، وكان ذا بنات، قال ابن كثير: «ولم يؤسر من المشركين سوى أبي عزة الجمحي، وقد كان في الأسارى يوم بدر، فمَنَّ عليه بلا فدية واشترط عليه ألا يقاتله، فلما أُسر يوم أحد قال: يا محمد امنن عليَّ لبناتي، وأعاهد ألا أقاتلك؛ فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: لا أدعك تمسح عارضيك بمكة وتقول: خدعت محمدا مرتين؛ ثم أُمر به فضُربت عنقه، وذكر بعضهم أنه يومئذ قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين!».

وهذان الأسيران، لم يكن المقام معهما مقام مَنٍّ أو فداء أو رأفة، فإنها إن حصلت كان ذلك مما يؤثر في هيبة رسول رب العالمين، كما أوضح -صلى الله عليه وسلم- حين قتله لأبي عزة.

ولم يكن النبي -صلى الله عليه وسلم- ليدع من يؤذي الإسلام والمسلمين آمنا في سربه، وإن كانت أذيته بالقول والتحريض، كما فعل مع اليهودي كعب بن الأشرف.

قال ابن إسحاق: «وجعل يحرض على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وينشد الأشعار، وبكى على أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر، ثم رجع كعب بن الأشرف إلى المدينة، فشبب بأم الفضل ابنة الحارث ثم شبب بنساء المسلمين».

وهنا صدر الأمر من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بقطف رأس هذا الطاغوت، وسأل عمّن يمكن أن ينفذ هذه العملية، فعن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، قال: «قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله) فقام محمد بن مسلمة، فقال: يا رسول الله أتحب أن أقتله قال: (نعم)» إلى آخر الحديث [رواه البخاري ومسلم].

كانت الغلظة والشدة هما سنة النبي -عليه الصلاة والسلام- مع اليهود بعد غدرهم بالمسلمين

وبعد غزوة الأحزاب توجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى بني قريظة، ليحاصرهم جزاء نقضهم العهود، فكان حكم الله فيهم أن يُقتل رجالهم جميعا، وتُسبى نساؤهم وذراريهم.

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «أُصيب سعدٌ يوم الخندق، رماه رجلٌ من قريش يقال له ابن العرقة، رماه في الأكحل، فضرب عليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خيمة في المسجد يعوده من قريب، فلما رجع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الخندق وضع السلاح، فاغتسل، فأتى جبريل -عليه السلام- وهو ينفض رأسه من الغبار، فقال: وضعت السلاح والله ما وضعناه، اخرج إليهم؛ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (فأين؟) فأشار إلى بني قريظة، فقاتلهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فنزلوا على حكم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فرد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الحكم فيه إلى سعد، قال: فإني أحكم فيهم أن تُقتل المقاتلة وأن تُسبى الذرية والنساء، وتقسم أموالهم...»، قال عروة بن الزبير: «فأُخبرت أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (لقد حكمتَ فيهم بحكم الله)» [رواه مسلم]، وهكذا كانت الشدة والغلظة على أولئك الغدرة علاجا نافعا وعظة وعبرة لغيرهم.

وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قبل ذلك قد أخرج بني النضير من ديارهم وغنم أموالهم بعد أن كشف الله له سعيهم لقتله وهو بين أظهرهم، فلما لبث أن خرج وعاد محاصرا ومحاربا لهم فنصره الله عليهم، كما حارب بني قينقاع وحاصرهم، وكذلك فعل مع يهود خيبر إذ حاربهم وفتح حصونهم عنوة [انظر: سيرة ابن هشام].

ولم يكن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليسكت كذلك عن حق مسلم واحد قتل غدرا وظلما، كما يفعل دعاة السوء الذين يثبّطون المسلمين عن القيام لأخذ حقهم ممن قتل وسفك من دمائهم وانتهك من أعراضهم.

قال ابن كثير: «قال الواقدي: في شوال سنة ست كانت سرية كرز بن جابر الفهري إلى العرنيين الذين قتلوا راعي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- واستاقوا النعم».

الضالون يأتون بقصص رحمته بالمؤمنين ليحاولوا إسقاطها على الكفار والمشركين

عن أنس -رضي الله عنه- أن ناسا من عكل وعرينة قدموا على النبي -صلى الله عليه وسلم- وتكلموا بالإسلام فقالوا: «يا نبي الله، إنا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف»، واستوخموا المدينة، فأمر لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بذود وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها وأبوالها، فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي النبي -صلى الله عليه وسلم- واستاقوا الذود، فبلغ ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- فبعث الطلب في آثارهم فأمر بهم فسمَّروا أعينهم [والتسمير هو أن يَحمي مسمارا فيدنيه من العين دون أن تمسّ العينَ حرارتُه، فتصل حرارته إلى العين فتذيبها]، وقطعوا أيديهم، وتُركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم [رواه البخاري ومسلم].

فهذا عقاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وإن نهى عن المثلة لكن القصاص ثابت بحقهم وأمثالهم ولم يدع قتلة راعيه طلقاء، بل أرسل سرية تحضرهم وتنفذ فيهم حكم القصاص.

وفي فتح مكة (أعادها الله) أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بقتل أناس وإن تعلقوا بأستار الكعبة، فعن أنس -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- دخل مكة عام الفتح وعلى رأسه مغفر، فلما نزعه جاءه رجلٌ فقال: «ابن خطل متعلق بأستار الكعبة»، فقال: (اقتلوه) [رواه البخاري ومسلم].

وعن سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- قال: «لما كان يوم فتح مكة أمّن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الناس إلا أربعة، وامرأتين، وقال: (اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة)» [رواه النسائي].

وذلك أيضا لأذيتهم الإسلام والمسلمين، فما كانت أستار الكعبة المشرّفة لتحميهم من شرع رب العالمين بعد الكفر المغلّظ الذي اقترفوه بأيديهم وألسنتهم.

وهذه الشواهد من سيرة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وغيرها كثير لا تنفي عنه صفة الرأفة والرحمة ولكنها كما قال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح: ٢٩]، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- منفذ لأمر الله -عز وجل- الذي قال له: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: ١٢٣].

وكما أنه -صلى الله عليه وسلم- نبي الرحمة فهو نبي الملحمة، وأما النظر إلى الجانب المتعلق برأفته ورحمته مع أولياء الله وإسقاطه على أعداء الله فهذا منهج أولياء الطاغوت الذين أرادوا من المسلمين مداهنة أعدائهم، بل يريدون منهم أن يدخلوا في طاعتهم ما وجدوا إلى ذلك سبيلا، فإذا ما انتفض المسلم وسارع إلى أعداء الله يثخن فيهم ويعاملهم بمثل ما يعاملون به المسلمين من قتل وتشريد، سارع أولئك الشياطين للإنكار عليه محذرين من تشويه صورة الإسلام والمسلمين، فعن أي إسلام يتحدثون ولأي دين يتبعون؟

كُونِــي مُثبِّتة لاَ مُثبِّطة

في ظروف الحرب والفتن والشدة، تزداد الهموم، وتبلغ القلوب الحناجر، فمن الناس من يثبتهم الله بإيمانهم وحسن ظنّهم بالله، ومنهم من يهلك فينقلب على عقبيه، منتكسا عن دينه، موليا الدبر، وخائنا لإخوانه، بل تجد أن كثيرا من هؤلاء لا يكتفي بانهزامه، بل يحاول سعيه أن ينقل تلك الهزيمة إلى غيره، ويشيعها في المسلمين كافة، فيهوّل من شأن أعدائهم، ويسعى لإخافة المسلمين منهم، وصدهم بذلك عن قتالهم والوقوف في وجههم.

وهذا الفعل من الأفعال المشهورة عن المنافقين، المنتشرة بين ضعيفي الإيمان ومسلوبي اليقين، من الرجال والنساء، فأما شأنهم في الرجال معروف، ودورهم فيما مضى من كلام مبسوط وموصوف، أما في النساء، فإن المصيبة من قبلهن تكمن في نقل هذا الإرجاف من بيوت المنافقين وألسنتهم لتدخله إلى بيتها وبين زوجها وأولادها، لتقع في أفعال المنافقين من حيث شعرت أم لم تشعر.

الإرجاف فعل المنافقين

والإرجاف هو الخبر الكاذب المثير للفتن والاضطراب، فقد قال القرطبي في تفسيره: «الإرجاف التماس الفتنة، وإشاعة الكذب والباطل للاغتمام به».

وقد ذم الله تعالى الإرجاف وأهله في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، فقد قال عز وجل: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا} [الأحزاب: ١٨]، وقال أيضا: {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (*) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا} [سورة الأحزاب: ٦٠-٦١]، قال الجصاص في (أحكام القرآن): «في هذه الآية دلالة على أن الإرجاف بالمؤمنين والإشاعة بما يغمهم ويؤذيهم يَستحق به التعزير والنفي إذا أصر عليه ولم ينته عنه، وكان قوم من المنافقين وآخرون ممن لا بصيرة له في الدين، وهم الذين في قلوبهم مرض، وهو ضعف اليقين، يرجفون باجتماع الكفار والمشركين وتعاضدهم ومسيرهم إلى المؤمنين، فيعظّمون شأن الكفار بذلك عندهم ويخوفونهم، فأنزل الله تعالى ذلك فيهم، وأخبر تعالى باستحقاقهم النفي والقتل إذا لم ينتهوا عن ذلك، فأخبر تعالى أن ذلك سنة الله وهو الطريقة المأمور بلزومها واتباعها».

ومن خطورة الإرجاف أن حذّر الله المجاهدين من الاختلاط بالمرجفين، لأنهم يوهنون الصف بكلامهم، ويضعفون المسلمين بتخذيلهم، كما قال تعالى {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [سورة التوبة: ٤٧]، قال ابن إسحاق: «وقد كان رهط من المنافقين، يشيرون إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جِلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا! والله لكأنا بكم غدا مقرَّنين في الحبال، إرجافا وترهيبا للمؤمنين».

الإيمان بالقدر والثقة بوعد الله درع المرأة المؤمنة

وأحكام النساء في هذا الباب كأحكام الرجال سواء بسواء، فمن وقعت من المسلمات في شيء من ذلك بتخويف أهل بيتها أو غيرهم من المسلمين، ونشر الإشاعات التي تضعف القلوب بينهم فعليها أن تستغفر الله من هذا الذنب، وأن تصحح إيمانها بقضاء الله وقدره، وأن تعي جيدا قول الله تعالى: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [سورة التوبة: ٥١]، وحديث النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لعبد الله بن عباس وهو رديف خلفه: (يا غلام، إني معلّمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجَفّت الصحف) [رواه الإمام أحمد والترمذي].

وإن المرأة المسلمة عليها دائما إذا ما سمعت شيئا من إرجاف المرجفين، عن قوة أعدائنا، وتحضيراتهم لغزونا، وتحشيدهم علينا بالعدة والعتاد، أن تضع نصب عينها قوله تعالى، حكاية عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، لما حشد لهم الروم الذين كانوا يمتلكون أقوى جيوش العالم آنذاك: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (*) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (*) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [سورة آل عمران: ١٧٣-١٧٥].

فهكذا يكون جواب المرأة المسلمة للمرجفين والمنافقين، أن ترد عليهم بقولها «حسبنا الله ونعم الوكيل»، ليقينها أن مدد الله يكفي عباده مهما كانت قوة أعدائهم، ولإيمانها أنه لن يصيبها وأهلها وسائر الناس، إلا ما كتب الله لهم، ولمعرفتها أن تخويف الشيطان إنما ينطلي على أوليائه لا على المؤمنين.

أم المؤمنين خديجة بنت خويلد تثبت رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

ويزداد هذا الواجب في زوجات المجاهدين وأمهاتهم وأخواتهم، بأن يكنّ لهم ظهورا في بيوتهم، يحمينها من إرجاف المرجفين، وكلام المنافقين، فلا يقلن لهم من الكلام إلا ما يثبّت الأقدام ويربط القلوب، وإن من أروع قصص النساء المؤمنات في هذا الجانب قصة أم المؤمنين خديجة -رضي الله عنها وأرضاها- في تثبيتِ زوجها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إذ يفزع إليها يوم أتاه جبريل أول مرة وهو في الغار يتعبد: («زَمِّلوني زَمِّلوني» فزَمَّلوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيتُ على نفسي» فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتَكسِب المعدوم، وتَقري الضيف، وتُعينُ على نوائب الحق...) [متفق عليه]، وكانت أول المؤمنين بدعوته من النساء، وظلت تشد من أزره وتقويه من عزيمته حتى توفاها الله، وبقيت محبّتها في قلب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- شاهدة على عظم ما قامت به، حتى قال فيها صلى الله عليه وسلم: (قد آمَنَتْ بي إذ كفر بي الناس وصدقتني إذ كذبني الناس وواستني بمالها إذ حرمني الناس) [رواه الإمام أحمد].

أسماء بنت أبي بكر تدفع ابنها للموت صابرا

ومن الأمثلة أيضا أسماء بنت أبي بكر، رضي الله عنها وعن أبيها، يوم حوصر ابنها خليفة المسلمين عبد الله بن الزبير في مكة من جيش البغاة الذي يقوده الحجاج الثقفي، فجاء يستشيرها للخروج لقتاله بعدما اشتد عليه أذاهم، وقال لها: «خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، فلم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت: أنت والله يا بُنيَّ أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على الحق وإليه تدعو فامش له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك، وأهلكت من قتل معك، وإن قلت: كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفا، فهذا ليس من فعل الأحرار، ولا أهل الدين، فكم خلودك في الدنيا، القتل أحسن»، فدنا منها أمير المؤمنين وقبل رأسها، وقال: «هذا والله رأيي... ولكني أحببت أن أعلم رأيك، فزدتني بصيرة مع بصيرتي، فانظري يا أُمَّه، فإنيّ مقتول من يومي هذا، فلا يشتد حزنك، وسلمي الأمر لله». ثم انصرف ابن الزبير عنها وهو يقول: «إني إذا أعرف يومي أصبر وإنما يعرف يومه الحرُّ».

فسمعت والدته -رضي الله عنها- قوله فقالت: «تصبر والله، إن شاء الله، أبوك أبو بكر والزبير، وأمك صفية بنت عبد المطلب».

فهكذا يكون حال الزوجة المؤمنة مع زوجها، وهكذا يكون حال الأم المؤمنة مع ابنها، فيمضي في طريقه يجاهد أعداء الله، ويقوم بما أمره ربه، ولها من عمله نصيب بإذن الله.

لم يمنعهنّ الحياء أن يتفقّهن في الدين

الحمد لله الذي رفع ذكر العالِمِين، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء وأولي العلم الراسخين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد.

فقد قال الله تعالى في محكم التنزيل: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: ١٨]، وقال ابن قيم الجوزية -رحمه الله- وهو يذكر فضل العلم: «واستشهد الله -عز وجل- بأهل العلم على أجلّ مشهود به، وهو التوحيد، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وفي ضمن ذلك تعديلهم، فإنه سبحانه وتعالى لا يستشهد بمجروح» [مدارج السالكين].

ثم قال رحمه الله: «ويكفي في شرفه [أي شرف العلم] أنّ فضل أهله على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وأن الملائكة لتضع لهم أجنحتها، وتظلهم بها، وأن العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، حتى الحيتان في البحر، وحتى النمل في جحرها، وأن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير» [مدارج السالكين].

وجوب طلب العلم

ولقد فرض الله تعالى طلب العلم على كل مسلم ومسلمة، فالرجال والنساء في طلب العلم الشرعي النافع سواء، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (طلب العلم فريضة على كل مسلم) [رواه ابن ماجه والطبراني].

قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب، رحمه الله: «اعلم أن طلب العلم فريضة، وأنه شفاء للقلوب المريضة، وأن أهم ما على العبد معرفة دينه الذي معرفته والعمل به سبب لدخول الجنة، والجهل به وإضاعته سبب لدخول النار أعاذنا الله منها» [الدرر السنية].

وقال ابن رجب الحنبلي، رحمه الله: «فإنه يجب على كل مسلم معرفة ما يحتاج إليه في دينه، كالطهارة والصلاة والصيام، ويجب على من له مال معرفة ما يجب عليه في ماله من زكاة ونفقة، وحج وجهاد، وكذلك يجب على كل من يبيع ويشتري أن يتعلم ما يحل ويحرم من البيوع، كما قال عمر، رضي الله عنه: لا يبيع في سوقنا إلا من قد تفقه في الدين» [مجموع رسائل ابن رجب].

ولذلك كان من أوجب الواجبات على دولة الإسلام ما إن مكنها الله تعالى في الأرض، أن حرصت على نشر العلم الشرعي بين رعاياها، فأقيمت الدورات الشرعية وانتشرت حلق الذكر والتعليم في المساجد.

وقد كانت الدولة الإسلامية -سددها الله- ولا زالت تحث النساء على طلب العلم، وتقيم لهن الدروس والمحاضرات، وتنشر بينهن الرسائل النافعة، والكتب الجامعة.

المسلمة ترفع الجهل عن نفسها وأهلها ومن حولها

عن ابن عمر، رضي الله عنه، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (ألا كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع، وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده، وهي مسؤولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته) [متفق عليه]، فوجب على المسلمة تعلُّم أمر دينها لرفع الجهل عن نفسها وأطفالها ومن حولها، وتأسيا بمن كان قبلنا من الصحابيات ونساء السلف والصالحين.

ولتعلم الأخت المسلمة أن تنشئة النساء في الحلية والزينة والترف وما أباحه الشارع لهن، لا يجب أن يكون مبلغ همّ المسلمة، ولتقلب صفحات التاريخ، ولتطرق أبواب السير والتراجم، لتجد فيها حدائق غَنَّاء بزهرات يفوح عبيرها مع كل سطر، زهرات هن نساء خيِّرات، زوجات وأمهات وفي نفس الوقت عالمات فقيهات محدِّثات، تعلمن وعلمن، وحفظن وحفَّظن، بل وتفقهن وأفتين.

أم المؤمنين تعلم علماء الصحابة

فها هي أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق -رضي الله عنها وعن أبيها- يشهد لها كبار الصحابة -رضوان الله عليهم- بغزارة العلم، عائشة معلمة الأمة التي قال عنها الزهري: «لو جُمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل».

وسئل مسروق إن كانت عائشة تحسن الفرائض، فقال: «والذي لا إله غيره، لقد رأيت الأكابر من أصحاب محمد يسألونها عن الفرائض» [رواه الدارمي].

وعن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- قال: «ما أشكل علينا أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حديث قط، فسألنا عائشة -رضي الله عنها- إلا وجدنا عندها منه علما» [رواه مالك في الموطأ].

عَمرَة الأنصارية: تلميذة عائشة

كذلك عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد الأنصارية النجارية المدنية الفقيهة، تربية عائشة وتلميذتها، حدَّثت عن عائشة، وأم سلمة، ورافع بن خديج، وأختها؛ أم هشام بنت حارثة. كانت عالمة فقيهة حُجة كثيرة العلم.

روى: أيوب بن سويد، عن يونس، عن ابن شهاب، عن القاسم بن محمد، أنه قال لي: يا غلام، أراك تحرص على طلب العلم، أفلا أدلك على وعائه؟ قلت: بلى، قال: عليك بعمرة، فإنها كانت في حجر عائشة، قال: فأتيتها، فوجدتها بحرا لا ينزف [سير أعلام النبلاء].

حفصة بنت سيرين: تروي عن أم عطية

ومن العالمات أيضا حفصة بنت سيرين أم الهذيل الفقيهة الأنصارية. روت عن أم عطية، وأم الرائح، ومولاها أنس بن مالك، وأبي العالية. روى عنها: أخوها محمد، وقتادة، وأيوب، وخالد الحَذَّاء، وابن عون، وهشام بن حسان.

روي عن إياس بن معاوية، قال: ما أدركت أحدا أفضِّله عليها.

وقال: قرأتْ القرآن وهي بنت ثنتي عشرة سنة، وعاشت سبعين سنة، فذكروا له الحسن وابن سيرين، فقال: أما أنا فما أفضِّل عليها أحدا.

وقال مهدي بن ميمون: مكثت حفصة بنت سيرين ثلاثين سنة لا تخرج من مصلاها إلا لقائلة أو قضاء حاجة [سير أعلام النبلاء].

أم زينب البغدادية: من فقيهات الحنابلة

ومن النساء اللاتي لمع نجمهن أيضا وزاحمن الرجال في ميادين العلم فاطمة بنت عباس بن أبي الفتح، الشيخة المفتية الفقيهة العالمة الزاهدة العابدة، أم زينب البغدادية الحنبلية الواعظة.

كانت تصعد المنبر وتعظ النساء، فينيب لوعظها، ويقلع من أساء، وانتفع بوعظها جماعة من النسوة، ورقَّت قلوبهن للطاعة بعد القسوة، كم أذرت عبرات، وأجرت عيونا من الحسرات كأنها أيكية على فننها، وحمامة تصدح في أعلى غصنها.

وكانت تدري الفقه وغوامضه الدقيقة، ومسائله العويصة، التي تدور مباحثها بين المجاز والحقيقة.

وكان ابن تيمية -رحمه الله تعالى- يتعجب من علمها، ويثني على ذكائها وخشوعها وبكائها [أعيان العصر وأعوان النصر].

وهذا غيض من فيض من سير بعض الصالحات العالمات العطرة، وإن نحن ذهبنا نعدّهن لما وسعنا المقام، فنعم الأسوة هن وخير قدوة، وحري بكل مسلمة أن تقتفي أثرهن، وتسير على خطاهن وتنهل مما نهلن.

العلم يحيي قلوب الميتين كما
تحيا البلاد إذا ما مسها المطر
والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه
كما يجلي سواد الظلمة القمر

فالله الله في طلب العلم، والله الله في ثني الركب التماسا لذلك، ورضي الله عن أم المؤمنين عائشة إذ تقول: «نِعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين» [متفق عليه]، ونحن نقول يرحم الله نساء الخلافة، لا تمنعهن مشاغل الدنيا وتربية الأبناء من التفقه في الدين والتزين بحلية العلم.

الرِّفقُ خُلُـــقُ الأنبياء

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فإن الله تعالى رفيق يحب الرفق في الأمر كله [حديث متفق عليه]، وقد حثّ سبحانه صفوة خلقه نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- على الترفق بالمسلمين فقال له: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [سورة آل عمران: 159] وقال له جل جلاله: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الشعراء: 215].

فكان -صلوات الله وسلامه عليه- أرفق الناس بالناس، بل كان الرفق علامة من علامات نبوته -صلى الله عليه وسلم- ومن صور رفقه ما رواه مسلم عن معاوية بن الحكم السلمي، قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه، ما شأنكم؟ تنظرون إلي، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت، فلما صلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه، فوالله، ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال: (إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن).

وما رواه البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- في قصة الأعرابي الذي بال في المسجد، وقوله -صلى الله عليه وسلم- لأصحابه، رضي الله عنهم: (دعوه وهريقوا على بوله سَجلا من ماء، أو ذَنوبا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين).

وروى الشيخان عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت للنبي، صلى الله عليه وسلم: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحُد؟ قال: (لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلّم عليّ، ثم قال: يا محمد فقال ذلك فيما شئت إن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا).

وهذا مع قوم آذوه وسبوه وسفهوه وطاردوه، صلى الله عليه وسلم.

ولما كانت هذه منزلة الرفق بالناس من الدين، حث عليها أرفق الناس بالناس، رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في أحاديث كثيرة صحيحة، كقوله، صلى الله عليه وسلم: (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه) وقوله: (يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا)، وقوله: (ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار؟ تحرم على كل قريب هيِّن ليِّن سهل).

إن الرفـق لا يكـون في شـيء إلا زانـه، ولا ينـزع مـن شـيء إلا شـانه

كما تبرأ النبي -صلى الله عليه وسلم- من فعل كل عنيف غليظ بغير حق، فقال: (اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم، فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم، فارفق به) [رواه مسلم]، وقال: (ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر) [متفق عليه].

ويروى أن رجلا قبطيا من أهل مصر أتى عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فقال: يا أمير المؤمنين! سابقت ابن عمرو بن العاص (وكان والي مصر آنذاك) فسبقته، فجعل يضربني بالسوط ويقول: أنا ابن الأكرمين! فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم ويجلب ابنه معه، فلما قدم، قال عمر للمصري: خذ السوط فاضربه، فجعل يضرب، وعمر يردد: «اضرب ابن الأكرمين»، ثم التفت عمر لعمرو وقال له: «مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟!» فقال عمرو: يا أمير المؤمنين! لم أعلم ولم يأتني [جامع الأحاديث للسيوطي].

فانظر -أخي- كيف يقتص لـمعاهد من ابن صحابي! كيف لا وقد حذر النبي -صلى الله عليه وسلم- من إيذاء الكافر الذمي، إن كان من رعية الدولة الإسلامية، فقال: (ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة) [صحيح، رواه أبو داود].

ومن هنا ندعوك -أخانا المسلم- إلى التحلي بهذا الخلق العظيم، فكن محظوظا برفقك ولا تكن محروما بفضاضتك، (فمن أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير ومن حُرِم حظه من الرفق فقد حُرِم حظه من الخير) [رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح]، وليكن أمرك بالمعروف معروفا، ولا يكن نهيك عن المنكر منكرا، واختر أحسن كلماتك وعباراتك.

واعلم أن الكلمة الطيبة صدقة، وتبسَّم في وجوه المسلمين ليطمئنوا إليك، واعلم أن تبسمك في وجه أخيك المسلم صدقة.

وإياك إياك أن تحكم على الناس بالهلاك، وترى نفسك أنت وحدك الناجي! وإلا كنت أنت أهلك الناس أو أنك أنت الذي أهلكتهم، كما قال صلى الله عليه وسلم: (إذا قال الرجل: هلك الناس، فهو أهلَكُهم) [رواه مسلم]، وفي رواية (فهو أهلَكَهم)، وكلا المعنيين صحيح.

وإلى كل مجاهد في سبيل الله، نخصه بالتذكير ونقول له:

يا قرة العين، وتاج الرأس، يا من اعتليت ذروة سنام الإسلام، يا بائعا نفسك لربك: أشفق بالناس لأنك أحق بالشفقة من غيرك، فما نذرت نفسك ومالك إلا لإقامة شرع الله ونصرة المستضعفين ونشر التوحيد وإنقاذ الناس من الضلال وتعليمهم أمر دينهم، فكيف يتأتى ذلك منك بغير الرفق والحلم والرحمة والشفقة!

الرفـق يكـون مـع مـن أمرَ الشرعُ بالرفـق بهـم مـن المسلـمين والمعاهـدين

واحذر -أخا الجهاد- من أن تغتر بجهادك وعلمك وعملك، ولا تقل إن الله اصطفاني لأني كذا وكذا، وقد أوتيت ذلك على علم عندي! لا، بل تذكر دائما أن هدايتك وجهادك نعمة من الله مـنّها عليك برحمته، فاشكر هذه النعمة بالتواضع للناس ولا تكفرها بالتعالي عليهم، واحفظ هذه الآية الكريمة ورددها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [سورة النساء: ٩٤].

فالله الله في رعايا الخلافة، فإن لهم عليك حق الإحسان إليهم، والرفق بهم، ونصيحتهم، ورعاية مصالحهم، وليكن شعارك ما وصاك به الشيخ المجاهد أبو حمزة المهاجر -رحمه الله- حيث قال: «فترفقوا بالناس وأشعروهم حلاوة الإسلام وعزته، وإياكم أن تشعروهم الخوف من الإسلام وأحكامه، وإن كان ثمة أمر مُرٌّ على أهلنا، فاعملوا له من الحلو والطيب من القول والفعل ما يتقبل الناس مُرَّه، وعلى الجملة: حببوا للناس دينه وأحكامه ودولة الإسلام» [الوصية الثلاثينية لأمراء وجنود الدولة الإسلامية].

هذا، ومما ينبغي التنبيه عليه: أنه وكما أن للرفق مواضعه المحمودة، فإنّ للشدّة والغلظة مواضعها المحمودة أيضا، كما قال تبارك وتعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [سورة التوبة: ٧٣]، وقال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ} [سورة الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: {فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ} [سورة محمد: ٤]، وقال تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ} [سورة النور: ٢].

وقال صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله)، وقال: (وايم الله لو أن فاطمة ابنة محمد سرقت، لقطعت يدها) [متفق عليهما]، وقال صلى الله عليه وسلم: (يا معشر قريش! أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح) [صحيح رواه أحمد وغيره].

وقال أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- في نقاش الصحابة له في قتال مانعي الزكاة: «والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لقاتلتهم على منعها» [متفق عليه]، وللفاروق عمر وسيف الله خالد وأسد الله حمزة وغيرهم من الصحابة، مواقف مشهودة في الشدة حربا لأعداء الله، وزجرا للعصاة والمبتدعين، فليراجعها من يريد الاستئناس بها في سيرهم العطرة، رضوان الله عليهم.

اللهم إنا نسألك قلبا واسعا ولسانا طيبا ووجها باسما، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كيف نستقبل رمضان؟

ما هي إلا أيام ويقدم علينا شهر عظيم، شهر الصيام والقيام والقرآن، شهر المغفرة والرضوان، فيه تفتح أبواب الجنان وتغلق أبواب النيران، فضّله الله تعالى على سائر الشهور، ففيه أُنزل القرآن، وفيه ليلة هي خير من ألف شهر، من صامه أو قامه إيمانا واحتسابا غُفر له ما تقدم من ذنبه، فيه ليالٍ عشر، هي خير ليالي السنة، شهر رمضان الذي ترتبط به القلوب والأبدان لما تجده النفوس من بهجة واطمئنان، وحب للخيرات وترك للمنكرات، زمن يجتمع فيه المسلمون على البر، ويعتصمون بحبل الله، فتراهم يجتمعون للإفطار ويجتمعون للتراويح ويجتمعون في حلق الذكر والقرآن.

لذا كان حريّا بنا أن نحسن الاستعداد لهذا القادم الكريم، ونغتنم أيامه ولياليه لئلا يفوتنا الخير العميم، ونتفقّه في العبادات المرتبطة بهذا الموسم الحافل، ولا ننشغل بمفضول عن فاضل، فنستقبل ضيفنا بأحسن استقبال، فهو ضيف عزيز غالٍ، مثله كمثل من له حبيب أو صاحب أو قريب، غاب عنه أحد عشر شهرا! ثم علم بمجيئه إليه زائرا عما قريب، فماذا هو صانع لملاقاته واستضافته؟! ونحن سوف نستقبله في غضون أيام، وقد جلب لنا معه أعظم الهدايا وأجزل العطايا وأحلى الكلام، فلا بد أن نحفظ لهذا الضيف قدره وننزله ما يستحق من مكانته.

فإليك أخي الحبيب بعض التوصيات علها تنفعك في تهيئة نفسك لاستقبال شهر رمضان المبارك، وهي:

أولا: الفرح بقدوم رمضان، والاستبشار بحلوله، والسرور بالعبادات التي شرعها الله فيه، وذلك من تعظيم شعائر الله سبحانه وتعالى، {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} [سورة الحج: ٣٢].

فأول أدب من الآداب الشرعية بين يدي رمضان، أن تتأهب لقدومه قبل الاستهلال، وأن تكون النفس بحلوله مستبشرة، قال تعالى: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [سورة يونس: ٥٨]، ومحبة الأعمال الصالحة والاستبشار بها فرع عن محبة الله عز وجل، فترى المؤمنين الصادقين متلهفين مشتاقين إلى رمضان، تحنّ قلوبهم إلى صوم نهاره، وتئن صدورهم لقيام ليله، وتهفو نفوسهم لعمارة أوقاته بالذكر والقرآن والصدقات، يفرحون بقدوم شهر رمضان، ويدعون الله أن يبلغهم إياه، ويكحل أعينهم برؤية إشراقة هلاله، ويتم عليهم نعمة إتمام صيامه وقيامه، ويستشعرون قلة أيامه وسرعة انقضائه، ويستحضرون الحزن على رحيله ووداعه، ولسان حالهم يردد:

مرحبا أهلا وسهلا بالصيام ... يا حبيبا زارنا في كل عام

ثانيا: تبادل التهاني والتبريكات بحلول شهر رمضان، ذلك أن بلوغ شهر رمضان وإدراكه نعمة دينية كبيرة، حري أن يُهنَّأ المسلم على بلوغها، وقد أُثر عن السلف أنهم كانوا يسألون الله تعالى ستة أشهر أن يبلغهم رمضان، وفي الستة الأخرى يسألونه القبول، كما أننا نرى العشرات ونسمع عن أضعافهم ممن يموتون قبل بلوغهم الشهر! فمن بلغ رمضان حيا صحيحا قادرا على الصوم، فهذه من نعم الله تعالى عليه، تستحق الحمد والشكر.

قال ابن رجب الحنبلي، رحمه الله: «كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يبشّر أصحابه بقدوم رمضان، كما خرجه الإمام أحمد والنسائي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يبشّر أصحابه، يقول: (قد جاءكم شهر رمضان، شهر مبارك، كتب الله عليكم صيامه، فيه تفتح أبواب الجنان، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتُغلّ فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم)، قال بعض العلماء: هذا الحديث أصل في تهنئة الناس بعضهم بعضا بشهر رمضان» [لطائف المعارف].

المؤمنون يفرحون بقدوم شهر رمضان ويدعون الله أن يبلغهم إياه، فيكحلوا أعينهم برؤية هلاله

ثالثا: تَعلُّم ما لا بد منه من فقه الصيام، أحكامه وآدابه، في الحضر والسفر، والعبادات المرتبطة برمضان من تراويح واعتكاف وزكاة فطر وغيرها، وهذه الأحكام والآداب مبسوطة في كتب الفقه، فمما لا شك فيه أن من يعبد الله -في رمضان وغيره- بعلم أفضل بكثير ممن يؤدي العبادات دون معرفة أحكامها إن صحّت نيته، بل قد يترتب على الجهل بأحكام العبادة ضياع ثوابها، ووجوب إعادتها إن كانت من الواجبات، لذلك يجب على المسلم تعلّم أحكام الصيام، طلبا للعمل بها بشكل صحيح، من غير مخالفة ولا بدعة، وكذلك كي لا يحمّل العبد نفسه بما ليس من الدين في الصيام، فيرهق نفسه في غير عبادة الله.

رابعا: التوبة الصادقة النصوح، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا} [سورة التحريم: ٨]، وقال سبحانه: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [سورة النور: ٣١]، وقال جل جلاله: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ} [سورة هود: ٣]، وقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم مئة مرة) [رواه مسلم]، وحث -صلى الله عليه وسلم-على التوبة، بقوله: (يا أيها الناس توبوا إلى الله) [رواه مسلم].

ورمضان شهر التوبة، فلا تفوِّت الفرصة، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: صعد النبي -صلى الله عليه وسلم- المنبر يوما، فقال: (آمين، آمين، آمين) قيل له: يا رسول الله، ما كنت تصنع هذا؟! فقال: (قال لي جبريل: رغم أنف عبد دخل عليه رمضان لم يغفر له. فقلت: آمين...) الحديث [حديث حسن رواه البخاري في الأدب المفرد]، وعنه أيضا -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر) [رواه مسلم].

فتب إلى الله -عبد الله- يَكُ خيرا لك في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ} [سورة التوبة: ٧٤]، تب فإن الله يحب التوابين، تب إلى ربك ليتوب ربك عليك، فقد قال سبحانه الذي هو أرحم بك من والدتك: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [سورة البقرة: ١٦٠].

تدارك ما استطعت من الخطايا ... بتوبة مخلص واجعل مدارك
على طلب السلامة من جحيم ... فخير ذوي الجرائم من تدارك

كان علماء السلف الصالح يقطعون مجالس العلم في شهر رمضان من أجل التفرغ للعبادة

خامسا: البدء بأعمال رمضان في شهر شعبان، فإن كان رمضان موسما للتقوى، فإن شعبان مرحلة لا بد من النجاح فيها قبل دخول رمضان، وإن العبادة في شعبان بمثابة تدريب مهم يسبق الدخول لمضمار التنافس في عبادات رمضان.

وإننا نجد من تتبع سيرة النبي، عليه الصلاة والسلام، أنه لم يكن يصوم من الشهور نافلة كما كان يفعل في شعبان.

وكما أن صوم شعبان توطئة (تهيئة) لصوم رمضان، كذلك فإن قراءة القرآن وقيام الليل والصدقات وصلة الرحم، وغيرها من العبادات في شعبان بمثابة إعداد واستعداد لأمثالها في رمضان، قال ابن رجب الحنبلي: «ولما كان شعبان كالمقدمة لرمضان شُرع فيه ما يُشرع في رمضان من الصيام وقراءة القرآن ليحصل التأهب لتلقي رمضان، وترتاض النفوس بذلك على طاعة الرحمن»، وقال أيضا: «كان المسلمون إذا دخل شعبان انكبّوا على المصاحف، فقرؤوها وأخرجوا زكاة أموالهم تقوية للضعيف والمسكين على صيام رمضان، وقال سلمة بن كهيل: كان يقال شهر شعبان شهر القرّاء» [لطائف المعارف].

سادسا: تنظيم الوقت وقطع الشواغل وإنجاز المتعلقات وتفريغ الذهن، فاقض جميع حوائجك -أخي المسلم- من مواد غذائية وملابس الأطفال للعيد وغيرها من الأمور، اقضها في شعبان، بحيث لا يشغلك شاغل عن العبادة في رمضان.

وإياك إياك والإسراف في المباحات، كالطعام والشراب والملبس، كما يفعل كثيرٌ من الناس، فيتزوّدون في شعبان لرمضان بأنواع المأكولات والمشروبات! فكأن رمضان موسم للأكل والشرب! فيتزوّدون بزاد الدنيا، ولا يتزوّدون بزاد الآخرة، قال تعالى: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ} [سورة البقرة: ١٩٧].

فأين هؤلاء من السلف الصالح الذين كانوا يقطعون مجالس العلم للتفرغ لرمضان، كما كان يفعل الإمام مالك بن أنس -رحمه الله- فإنه إذا دخل رمضان يفرّ من الحديث ومجالسة أهل العلم ويقبل على تلاوة القرآن.

فيا أخي الحبيب:

أمامك شهر عظيم، أحسن استقباله، وعظّم شعائره، بالكف عن الغيبة والنميمة وحفظ السمع والبصر واللسان عن الحرام وغيرها من المعاصي، فإن لم تغتنم هذه الفرصة ولم تستعد لها، فهذا يعني أن رمضان سيدخل عليك وينقضي كما انقضى رمضان الذي قبله، ولن تخرج منه إلا بالحسرة والندامة، كما أنك لا تدري أتبلغ رمضان الذي بعده أم لا؟! فكم تعرف من أناس أدركوا رمضان الفائت ولن يدركوا رمضان القادم!

إذا أتاكم مجاهد ترضون خُلُقه ودينه فزوّجوه

المجاهد، رجل هجر لذائذ الحياة وزخرف الدنيا، وخرج لتكون كلمة الله هي العليا، فهو درع الإسلام، وبه وبجهاده يحفظ الله تعالى بيضة الدين، ويُعزّ المسلمون، وتُصان الأعراض والحرمات، غير أن المجاهد يبقى غريبا بين قومه وبني جلدته، فهو الذي طلّق دنياه وإن أتته راغمة، وودع الأهلين والأقربين، بل ولربما تبرأ منهم إن هم عادوا الله ورسوله والمؤمنين، وما غربة المجاهد في زماننا الذي نُقضت فيه عرى الإسلام عروةً عروةً، إلا مصداقا لقول نبينا، صلى الله عليه وسلم: (بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء) [رواه مسلم].

ومن مظاهر غربة المجاهد أنه وإذا ما أراد الزواج توصد دونه أغلب أبواب بيوت المسلمين، إلا ما رحم ربي، وجرمه أنه مجاهد يحمل روحه بيمينه وكفنه بشماله.

المجاهد يربّي أطفاله على عزة الإسلام، ويعلمهم أن لا يعطوا الدنية في دينهم ولا يناموا على ضيم

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إذا أتاكم من ترضون خُلُقه ودينه فزوِّجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض) [رواه الترمذي]، قال الشُرّاح: «أي إن لم تزوِّجوا من ترضون دينه وخلقه وترغبوا في مجرد الحسب والجمال أو المال» [تحفة الأحوذي].

فكيف إذا كان هذا الخاطب ممن نرضى خلقه ودينه؟ بل وهو ممن لبى نداء ربه يوم عز النصير، فنفر حين تثاقل المتثاقلون، وجاهد حين تخلف المتخلفون، بل كيف إن كان هذا الخاطب ممن رُفع به رأس أمتنا عالياً عالياً، حتى بات أباطرة الكفر عاجزين عن أن يطالوه ليعيدوه إلى الأرض كما كان آنفا؟ وإن لم يرض الناس بدين من قام بذروة الدين فبدين من يرضون؟!

إن الزواج من مجاهد لهو قربة تتقرب بها الأخت المسلمة إلى الله عز وجل، إن هي أخلصت النية؛ فبزواجها من مجاهد، تكون المسلمة قد برّت أبناءها قبل مجيئهم إذ أنها قد أحسنت اختيار أبيهم، فالأصل الطيب فرعه طيب أيضا.

فالمجاهد هو اليد الأمينة على الأبناء، كما نحسبه والله حسيبه، فما من مجاهد إلا ويسعى جاهدا إلى تنشئة أبنائه تنشئة صالحة على أسس سوية، وأهم تلك الأسس كتاب الله تعالى وسنة نبيه، صلوات ربنا وسلامه عليه، والعقيدة الصحيحة الصافية التي لا تشوبها شائبة ولا تلوثها لوثة.

والمجاهد هو الذي يربيّ أطفاله على عزة الإسلام، ويعلمهم أن لا يعطوا الدنية في دينهم ولا يناموا على ضيم.

فبحفظ الآباء والأمهات للدين يحفظ الله الأبناء، قال الله تعالى: {وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا} [سورة الكهف: ٨٢]، قال ابن عباس: «حُفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر منهما صلاحا».

وأما ما يروّج له بعض ضعاف الأنفس من شبهات حول المجاهد تزهّد المسلمات فيه وتثنيهم عن الزواج منه، من أنه شخص مقتول لا محالة، ولا يطول به المقام عادة في هذه الدنيا إذ ما يلبث حتى يُقتل، فهؤلاء ليس أهون من الرد عليهم بقول الله عز وجل: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ} [سورة النساء: ٧٨]، وقوله تعالى: {قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ} [سورة آل عمران: ١٥٤]، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [سورة آل عمران: ١٥٦].

قال ابن كثير في تفسيره: «ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد، الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار وفي الحروب: لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم... ثم قال تعالى ردا عليهم: {وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ} أي: بيده الخلق وإليه يرجع الأمر، ولا يحيا أحد ولا يموت إلا بمشيئته وقدره، ولا يُزاد في عمر أحد ولا يُنقص منه إلا بقضائه وقدره».

وكم من ميت في بيته وعلى فراشه، وكم من مجاهد قد مضت على جهاده السنين الطوال وما قُتل رغم أن الموت مبتغاه والشهادة مناه، ولكن الآجال بيد الله وحده، لا يقدمها قتال ولا يؤخرها قعود، فليت شعري هل مثل المجاهد في سبيل ربه يُردّ إذا استأذن أو شَفَع أو استَنْكح؟!

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة، كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع).

وعليه، فإن المسلمة المؤمنة بقضاء ربها وقدره خيره وشره، لا يجب أن تتأثر بكلمات الصادّين عن الحق وأهله، بل الأولى بها أن تقبل بمن ترضى ووليُّها خلقه ودينه، وعلى الولي أن يتقي الله فيمن هن تحت ولايته من مسلمات، فلا يعضلهن بحجج واهية وشبهات سقيمة إن هن أردن العفاف والزواج من مجاهد، قال ابن قدامة: «ومعنى العضل منع المرأة من التزويج بكفئها إذا طلبت ذلك، ورغب كل واحد منهما في صاحبه، قال معقل بن يسار: زوّجتُ أختا لي من رجل، فطلّقها، حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها، فقلتُ له: زوجتُك، وأفرشتُك، وأكرمتُك، فطلقتَها، ثم جئتَ تخطبها، لا والله لا تعود إليك أبدا، وكان رجلا لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية: {فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ}. فقلت: الآن أفعلُ يا رسول الله. قال: فزوجها إياه، رواه البخاري» [المغني].

إن الزواج من مجاهد رفعة للمسلمة في الدنيا والآخرة؛ في الدنيا يصونها ويحسن عشرتها ويعلمها أمور دينها، وفي الآخرة يشفع لها بإذن الله إن هي أخلصت توحيدها لله، فعن المقدام بن معدي كرب قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (للشهيد عند الله ست خصال: يُغفر له في أول دفعة، ويَرى مقعده من الجنة، ويُجار من عذاب القبر، ويَأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوَّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفَّع في سبعين من أقاربه) [رواه أحمد والترمذي وابن ماجه].

ولعل بعض المسلمات لا يعرفن قصة أبي عبد الرحمن فَرّوخ (وهو أحد المجاهدين) والد ربيعة الرأي (وهو أحد العلماء، توفي سنة ١٣٦هـ)، حيث ذكر الذهبي: أن فرّوخ والد ربيعة، خرج في البعوث إلى خراسان، أيام بني أمية غازيا، وربيعة حمل في بطن أمّه، وخلف عند زوجته أم ربيعة ثلاثين ألف دينار.

فقدم المدينة بعد سبع وعشرين سنة، وهو راكبُ فرسٍ، في يده رمح، فنزل عن فرسه، ثم دفع الباب برمحه، فخرج ربيعة، فقال: يا عدو الله! أتهجم على منزلي؟

فقال: لا.

وقال فرّوخ: يا عدو الله! أنت رجل دخلتَ على حرمتي.

فتواثبا، وتلبث كل واحد منهما بصاحبه، حتى اجتمع الجيران.

فبلغ مالك بن أنس والمشيخة، فأتوا يعينون ربيعة، فجعل ربيعة يقول: والله لا فارقتك إلا عند السلطان.

وجعل فرّوخ يقول كذلك، ويقول: وأنت مع امرأتي.

وكثر الضجيج، فلما أبصروا بمالك، سكت الناس كلهم.

فقال مالك: أيها الشيخ! لك سعة في غير هذه الدار.

فقال الشيخ: هي داري، وأنا فرّوخ مولى بني فلان.

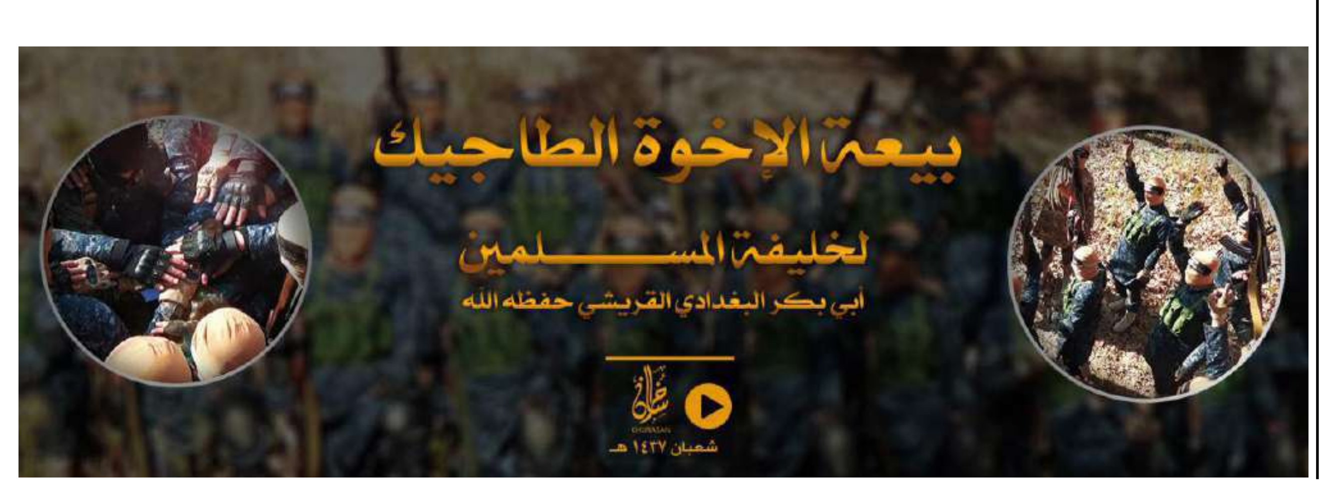
فسمعت امرأته كلامه، فخرجت، فقالت: هذا زوجي، وهذا ابني الذي خلفتَه وأنا حامل به.

فاعتنقا جميعا، وبكيا... اهـ [سير أعلام النبلاء].

نعم خرج زوجها غازيا فقدّر الله أن يغيب عنها سبعا وعشرين سنة، فلاقت غيابه بالصبر وحسن تربية ابنه.

فلله درك يا زوجة المجاهد إن أنت رضيتِ به وكنتِ له سكنا وسندا، وعلى الله أجرك يا أرملة الشهيد إن أنت صبرت واحتسبت وعلى قدر المشقة تكون المنفعة.

الزواج من مجاهد رفعة للمسلمة في الدنيا والآخرة



أهم أحكام الصيام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فإن صيام شهر رمضان ركن من أركان الإسلام، وعلى كل مسلم تحقيق هذا الركن ليتم إسلامه، ولا يمكنه ذلك إلا بمعرفته لأهم أحكام الصيام في رمضان.

تعريف الصوم

الصوم لغةً: مِن صَامَ يَصُومُ، والمصدر منه صَوماً وصِيَامَاً، والصوم هو الإمساك عن الشيء، سواء كان طعاما أو شرابا أو كلاما أو غير ذلك، قال تعالى: {فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً} [سورة مريم: ٢٦]، فـ(صَوْماً) وردت هنا بمعنى: إمساكا عن الكلام [لسان العرب، لابن منظور].

والصوم شرعاً: الإمساك عن المفطرات (من الطعام والشراب والجماع)، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، مع النية.

حكم الصوم

صيام شهر رمضان ركن من أركان الإسلام، وواجب (فرض) على كل مسلم، بنص القرآن والسنة وإجماع الأمة.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [سورة البقرة: ١٨٣]، وقال سبحانه: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [سورة البقرة: ١٨٥].

وقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «بُني الإسلام على خمس؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان» [متفق عليه].

وقد أجمعت الأمة على وجوب صيام رمضان على المسلمين، وأن من أنكر وجوبه كفر [مراتب الإجماع، لابن حزم].

شروط وجوب الصوم

لا يجب الصوم إلا على:

١. المسلم: فلا يصح صيام الكافر.
٢. العاقل: فلا يجب على المجنون.
٣. البالغ: فلا يجب على الصبي، ولكن يستحب أن يُدرَّب عليه ليتعوده عند البلوغ.
٤. الصحيح: فلا يجب على المريض الذي يزيد الصوم في مرضه أو يؤخر في شفائه.
٥. المقيم: فلا يجب على المسافر، ويستحب له الصوم إن لم يجد فيه مشقة.
٦. القادر: فلا يجب على من لا يطيقه، كالكبير في السن، والمريض الذي لا يُرجى شفاؤه، والحامل والمرضع إذا كان الصوم يضر بهما أو بولديهما.

أركان الصوم

١. النية: ومحلها القلب، ويكفي أن تنوي منذ أول يوم من أيام شهر رمضان صيام الشهر كله، ويقوم مقام النية الاستعداد للصيام بالقيام للسحور وتحري وقت الفجر للامتناع عن المفطرات ونحو ذلك.
٢. الإمساك عن المفطرات: وهي الأكل والشرب والجماع (يعني الإمساك عن شهوتي البطن والفرج).
٣. الزمان: ووقت الصوم من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس.

فضل الصوم

قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (من صام رمضان إيمانا واحتسابا غُفر له ما تقدّم من ذنبه) [رواه البخاري].

فإن صُمت رمضان (إيمانا) منك بأن صيامه فرض من الله تعالى يجب أداؤه، فقد حققت الشرط الأول في الحديث، وإن صُمت رمضان (احتسابا) للأجر والمثوبة من الله تعالى، ولم تصم رمضان رياء وسمعة، فقد حققت الشرط الثاني في الحديث، ولك بعد ذلك البشارة من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بـ(مغفرة ما تقدّم من ذنبك) إن شاء الله.

الحكمة من الصوم

للصوم فوائد عظيمة كثيرة، مدارها كلها على الحكمة التي شرع الله تعالى لأجلها الصيام، وهي (التقوى)، والتي تتمثل بأداء ما أمرنا الله به، والكف عما نهانا عنه سبحانه، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [سورة البقرة: ١٨٣]، و(لَعَلَّ) هنا للتعليل، أي: لأجل أن تتقوا الله، فتتركوا ما حرّم الله، وتقوموا بما أوجب الله.

حكم تارك الصوم

من ترك الصوم في رمضان لعذر فلا شيء عليه، كمن تركه لمرض أو سفر أو غير ذلك من الأعذار.

أما من ترك صيام رمضان بلا عذر شرعي فيُنظر حاله، فإن كان تركه للصيام لشهوة طعام وشراب وجماع أو نحو ذلك وأنه كان مُقرّا بوجوب صيام رمضان وركنيّته في الإسلام، فهذا فاسق مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب.

أما من جحد وجوب الصوم -كأن قال مثلا: لا يوجد في الإسلام صيام رمضان- فهذا كافر بإجماع الفقهاء، لأن وجوب صوم رمضان معلوم من الدين بالضرورة، وهو ركن بُني عليه الإسلام، ومن جحده واستحل فطره فقد نقض أصل الدين.

عقوبة المفطر من غير عذر

يراد بالعقوبة هنا: الجزاء الدنيوي المترتب على من أفطر عمدا في رمضان من غير عذر شرعي.

وعقوبته متفرعة عن اعتقاده في حكم الصيام، فمن ترك صوم رمضان بلا عذر مع كونه لا يجحد وجوبه، فهذا يعاقب ويعزّر بالجلد أو بحبسه أو بما يراه الإمام من عقوبات رادعة له ولغيره، ومن ترك الصيام مع استحلاله لتركه فهذا مرتدّ يُستتاب من ردّته، فإن لم يتب، يُقتل ردةً بلا خلاف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إذا أفطر في رمضان مستحلّا لذلك، وهو عالم بتحريمه استحلالا له، وجب قتله، وإن كان فاسقا عوقب عن فطره في رمضان بحسب ما يراه الإمام» [مجموع الفتاوى].

مستحبات الصوم

مستحبات الصيام كثيرة، أهمها:

١. السحور، ويستحب تأخيره إلى قبيل طلوع الفجر.
٢. الدعاء أثناء الصوم وعند الإفطار.
٣. تعجيل الإفطار بعد غروب الشمس.
٤. الإفطار على رطبات وترا، فإن لم يكن فعلى تمرات، وإلا فعلى ماء.
٥. تفطير الصائمين.
٦. الإكثار من النوافل كـ (قيام الليل بالتراويح والتهجد، وقراءة القرآن، والصدقة، والاعتكاف في المسجد... إلخ).

وغير ذلك من الطاعات الكثيرة.

مكروهات الصوم

١. المبالغة في المضمضة والاستنشاق.
٢. إكثار الكلام بغير ذكر الله وبلا ضرورة.
٣. تذوّق الطعام من غير حاجة.
٤. الإكثار من الطعام والشراب عند الإفطار.

مباحات الصوم

١. تأخير اغتسال الجنب والحائض والنفساء (إذا طهرتا) إلى ما بعد الفجر.
٢. بلع ما لا يمكن الاحتراز عنه كالريق وغبار الطريق ونحوهما.
٣. تذوّق الطعام للحاجة (كطهو الطعام أو إطعام طفل).
٤. شم الروائح (الطيب أو الطعام).
٥. صب الماء على رأس الصائم وجسده، وكذلك النزول في الماء والانغماس فيه.
٦. التداوي بما لا يصل إلى الجوف كزرق الإبرة (غير المغذية) في العضلة أو الوريد.

مبطلات الصوم

١. نقض شرط من شروط صحة الصيام، مثل ردة المسلم، وجنون العاقل، والحيض والنفاس للمرأة.
٢. نقض ركن من أركانه، كمن تعمّد الأكل والشرب (أما إذا أكل أو شرب ناسيا فلا يفطر)، والجماع وإنزال المني بتعمد (أما الاحتلام في نهار رمضان فلا يبطل الصوم).
٣. تعمد إخراج القيء (أما إذا غلبه القيء فلا شيء عليه).
٤. إخراج الدم بالحجامة، لقوله صلى الله عليه وسلم: (أفطر الحاجم والمحجوم) [صحيح، رواه أبو داود وغيره].

وختاما، نسأل الله تعالى أن يتقبل منّا الصيام والقيام والجهاد وسائر الأعمال، وأن يعيد علينا شهر رمضان وقد فتحت لنا بغداد ودمشق، وفُكّت قيود الأسرى والأسيرات من سجون الطغاة...

وصلِّ اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



فقد اخترنا لك -أيها المجاهد- كلمة للشيخ الوزير أبي حمزة المهاجر عبد المنعم البدوي المصري، تقبله اللَّه، نصحَ بها إخوانه المجاهدين قبل سنوات، وكلمته كانت بعنوان (رمضان شهر الجهاد والغفران)، وقد أوردناها لك باختصار وتصرّف يسير، فاسمع لما يقول المهاجر، رحمه اللَّه:

رمضان شهر الاجتهاد والطاعات والجهاد والفتوحات

الحمد للَّه مالك الملك، المتنزه عن الجور، والمتكبر عن الظلم، المتفرد بالبقاء، السامع لكل شكوى، والكاشف لكل بلوى، والصلاة والسلام على من بُعث بالسيف بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى اللَّه بإذنه وسراجا منيرا، أما بعد:

فنحمد اللَّه الكريم المنّان أن بلّغنا هذا الشهر، ونُهنئ أمة الإسلام والمجاهدين في سبيل اللَّه المرابطين في ثغور العز ومواطن الفخر في مشارق الأرض ومغاربها، الأبرار المخلصين، الصادقين الصابرين، ليوث الحرب وفرسان النصر، رجال الدولة الإسلامية، فعن أبي هريرة -رضي اللَّه عنه- أن رسول اللَّه -صلى اللَّه عليه وسلم- قال: (إذا جاء رمضان فُتّحت أبواب الجنة وغُلّقت أبواب النار وصُفّدت الشياطين) [رواه مسلم].

قال القرطبي: «ويصحّ حمله على الحقيقة، ويكون معناه أن الجنة فُتحت وزُخرفت لمن مات في شهر رمضان، لفضيلة هذه العبادة الواقعة فيه، وغُلقت عنهم أبواب النار فلا يدخلها منهم أحد مات فيه» [المُفهم].

وشهرنا الكريم ركن من أركان الإسلام عظيم، ولا قِوَامَ للدين إلا بأركانه، قال صلى اللَّه عليه وسلم: (بُني الإسلام على خمس؛ شهادة أنّ لا إله إلا الله وأنّ محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان) [متفق عليه].

قال القرطبي: «وإنما خصّ هذه بالذكر ولم يذكر معها الجهاد مع أنه به ظَهَرَ الدين وانقمع به عتاة الكافرين، لأن هذه الخمس فرضٌ دائم على الأعيان ولا تسقط عمّن اتصف بشروط ذلك، والجهاد من فروض الكفايات وقد يسقط في بعض الأوقات» [المُفهم].

فصرّح أنّ الجهاد إذا تعيّن صار من مباني الإسلام التي لا قوام ولا عزّ له إلا به، ولِمَ لا ونفع الجهاد عام، وضرر تركه عظيم على الدين والعرض والنفس والمال! فالمجاهدون في سبيل اللَّه هم من حققوا معنى الإيمان، الصادقون بنص الكتاب بادعائهم له، قال اللَّه تعالى في سورة الحجرات: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه اللَّه: «بيّن أن الجهاد واجب وترك الارتياب واجب، والجهاد وإن كان فرضا على الكفاية -أي في حال كونه فرض كفاية- فجميع المؤمنين يُخاطَبون به ابتداءً، فعليهم كلهم اعتقاد وجوبه والعزم على فعله إذا تعيّن» [مجموع الفتاوى].

الجهادُ من الإيمانِ بل هو ذروة الإيمانِ وأعلاه، فلا يَفُتْكَ حظُّك منه في هذا الشهر الكريم

فالجهادُ من الإيمان بل هو ذروة الإيمان وأعلاه، فلا يَفُتْكَ -يا رعاك اللَّه- حظُّك منه في هذا الشهر الكريم، ففي الصحيح عن أبي هريرة -رضي اللَّه عنه- عن النبي -صلى اللَّه عليه وسلم- أنه قال: (انتدب الله لمن خرج في سبيله، لا يُخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي، أن أرجعه، بما نال من أجر أو غنيمة، أو أدخله الجنة، ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية، ولوددت أني أُقتل في سبيل الله، ثم أُحيا ثم أُقتل، ثم أُحيا ثم أُقتل).

قال ابن بطال: «انتدب اللَّه: يريد أوجب اللَّه وتفضّل لمن أخلص النية في جهاده أن ينجزه ما وعده» [شرح البخاري].

أنْعِمْ حياةً في الجهاد وفي الهدى ... إنَّ الجهادَ مجامعُ الإيمانِ
فاحملْ سلاحَكَ لا يغيبُ بريقهُ ... إنَّ السلاحَ وسامة الفرسانِ
وارمِ بنفسك في النزال فإنما ... لا تقصر الأعمار بالشجعانِ
شهرٌ كريمٌ قد أطلّ صباحهُ ... قد يرفضُ الخيرَ العظيمَ جبانِ

قال، صلى اللَّه عليه وسلم: (من خير معاش الناس لهم رجلٌ ممسكٌ عِنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه، يبتغي القتل أو الموت مظانَّه) [رواه مسلم].

قال النووي: «أي مِنْ خير أحوال عيشهم رجلٌ ممسكٌ...» [شرح مسلم]، وقال القرطبي في «المفهم»: «أي مِنْ أشرف طرق المعاش: الجهاد».

فتأمل -رحمك اللَّه- قوله صلى اللَّه عليه وسلم: (يبتغي القتل)، بعد قوله: (من خير معاش الناس)، فإنّ ذلك يدل على أن الموت في سبيل اللَّه حياة -وإنْ كذبتْ نفسُك الأمّارة بالسوء وأثقلتْ عليك بالشهوات والشبهات- فقد قال اللَّه تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [سورة آل عمران: ١٦٩].

فاحرص -أيها المجاهد- على الشهادة في هذا الشهر الكريم، وإيّاك إيّاك أن تَحسَب أن الشهادة لُقَطَة لا قيمة لها، بل هي كنز عظيم لا يناله إلا ذو حظ عظيم، ووسام شرف لا يناله إلا من ارتفع إلى درجة عالية.

ثم اعلم أن الطريق إلى الجنة لا مكان فيه للعاجزين الخائفين الجبناء، وإنما يسلكه الشجعان الشرفاء، شرفاء النفس والدين، الذين باعوا أنفسهم للَّه وفي سبيل اللَّه، فهو طريقُ جدٍّ واجتهاد وتعب ونَصَب، تُزهق فيه الأنفس ويَتلف فيه المال، كما أن الجهاد عزة ورفعة.

وإليك منقبة من مناقب أجدادك الكثيرة:

فقد طمع يوماً ملك الروم الصليبيين (أرمانوس) في هزيمة المسلمين على قلة رآها في العدد والعدّة، فجاء في مئتي ألف من الكفار لقتال السلطان (ألب أرسلان) فوصلوا إلى (ملاذ كرد) فبلغ السلطانَ كثرتُهم، وما عنده من الجنود سوى خمسة عشر ألف فارس، فصبَّحهم على الملتقى، فلما التقى الجمعان أرسل السلطان يطلب الهدنة، فقال له طاغيةُ الروم المغرور: لا هدنة إلا بالري (أي في عقر دار المسلمين)، فغضب السلطان ألب أرسلان، وجرى المصاف بين الجيشين يوم الجمعة والخطباء على المنابر، ونزل السلطان وعفَّر وجهه بالتراب وبكى وتضرَّع لمولاه ومَنْ بيده النصر، القادر على كل شيء، ثم ركب وحمل، وصدقوا اللَّه، فنزل النصر وقتلوا الروم كيف شاؤوا، وانهزم الصليبيون، وامتلأت الأرضُ بقتلاهم، وأُسر الطاغية (أرمانوس)، وأُحضر إلى السلطان فضربه ثلاث مقارع بيده، ثم فدى نفسه بألف وخمسمائة دينار وبكل أسير في مملكته.

الإخلاصَ الإخلاص، والجماعةَ الجماعة، والثباتَ الثبات، والحذرَ الحذر، والدعاءَ الدعاء، والتوكل التوكل يا جنود اللَّه

أيها الأبطال، أيها الموحدون المجاهدون: أنتم في شهر مبارك كريم، لكم من اللَّه فيه المعونة على أنفسكم وعدوكم، شرّفكم اللَّه بجهاد المرتدين والصليبيين، وقد تحمّلتم همّ إقامة الدين واستنقاذ المستضعفين المقهورين، فشدُّوا رحمكم اللَّه، فلقد قال أميرُ المؤمنين أبو عمر البغدادي كلمة عظيمة حين قال: «فيجب على كل مسلم قَدَرَ اللَّهَ حقَّ قدره وعظّم دينَ اللَّه وشرعَه أنْ يبذلَ نفسَه رخيصةً في سبيل اللَّه»، وقال عن السجون والأسرى مخاطباً الأمّهات: «ولكم علينا أن تَرَيْنَ دماءنا تسيل تحت أسوارها حتى تَرَيْنَ أهليكم أحراراً».

فالإخلاص الإخلاص، والجماعة الجماعة، والثبات الثبات، والحذر الحذر، والدعاء الدعاء، والتوكل التوكل يا جنود اللَّه، ودونكم أعداء اللَّه {فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} [سورة التوبة: ٥]، فإنهم ظَلَمَةٌ كفرةٌ معتدون، لا يرقبون في مؤمن إلّاً ولا ذمة، ويسعون في الأرض فسادا، ويحبون أن تشيع الفاحشةُ في الذين آمنوا، وودُّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء، فلا حَلّ لهم إلا أن يُقتَّلوا أو يُصلَّبوا أو تُقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف.



تعدّدُ الزّوجاتِ من منهاجِ النبوّةِ

إن منهاج النبوة الذي ما نفتأ نردده جميعنا كلما ذكرنا الخلافة، في بيوتنا ومجالسنا، قياما وقعودا، ليس مجرد عبارات فضفاضة ينطق بها اللسان، ولا يؤمن بها الجَنان، بل هي كلمات عظيمة علينا أن نفهمها ونعي مكنونها، ومنهاج النبوة أن تُساس الأمة وتُقاد الرعية وفق ما أتى به النبي -صلى الله عليه وسلم- من قرآن وسنة نبوية، ولا يجوز لمسلم أو مسلمة بحال أن يرضى من منهاج النبوة بما يوافق هواه، ويردّ ما جاء خلافا لما يحبه ويهواه.

وإن تعدد الزوجات من منهاج نبوته صلى الله عليه وسلم، فعن أنس، أن نفرا من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- سألوا أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- عن عمله في السر؟ فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فحمد الله وأثنى عليه، فقال: (ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني) [رواه مسلم].

وقد شرع الله تعالى تعدد الزوجات لحكم كثيرة، عَلِمْنا منها ما عَلِمْنا وجَهِلْنا منها ما جَهِلْنا، فقال تعالى في محكم التنزيل: {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ} [سورة النساء: ٣]، فبدأ سبحانه بالمثنى وعليه بنى بعض أهل العلم على أن الأصل في الزواج التعدد وليس الإفراد.

كما وقد راعى إسلامنا الحنيف الفطرة التي جُبل عليها الرجل والمرأة، فالرجل عموما قد عُرف عنه حبه للنساء وهذا ليس عيبا في حق الرجل، فتلك جِبلَّة وضعها خالقه فيه، والله -عز وجل- يقول: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ} [سورة آل عمران: ١٤]، وها هو آدم -عليه السلام- وهو في الجنة رغم ما فيه من النعيم، إلا أن ربه تعالى ذكره خلق له من ضلعه أنثى ليسكن إليها وتسكن إليه، وها هو سيد المرسلين وخاتم النبيين -صلوات ربي وسلامه عليه- فيما يرويه عنه أنس -رضي الله عنه- يقول: (حُبِّبَ إليَّ النساء والطيب، وجُعلت قرة عيني في الصلاة) [رواه أحمد والنسائي]. قال سهل بن عبد الله: «قد حُبِّبْنَ -أي النساء- إلى سيد المرسلين، فكيف يُزهد فيهن؟».

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «خير هذه الأمة أكثرها نساء» [رواه البخاري].

لذلك فإنه ليس من العيب أن يقال أن الرجال قد جُبلوا على محبة أكثر من امرأة حليلة، فهذه من فطرة الله تعالى التي فطرهم عليها.

ولا يجب على المسلمة العاقلة أن تلقي بالا لما يروّج له أعداء الله من أن التعدد ظلم للمرأة، وتَعَدٍ على حقوقها، وأن المعدد ليس سوى رجلا أنانيا يركض وراء شهوته ولا يقيم لزوجته الأولى وَزْنًا، وإن هذا البلاء الذي أصاب بعض النساء حتى بتن ينتقصن مما أحله الله تعالى، لهو مما رسّخته المسلسلات الساقطة والتمثيليات الماجنة التي دخلت بيوت المسلمين وأفسدت الدين والعقول، فأصبح المرء يرى في تعدد الزوجات خرابا لبيت الزوجية الأول، وفي الزوجة الثانية خائنة تبني سعادتها على حساب دمار أسرة!

وحاشا لله تعالى أن يشرّع أمرا فيه ظلم أو جور أو مفاسد محضة لعبيده، بل إن من حكمة الله -عز وجل- ورحمته بإمائه أن أباح للرجل اتخاذ أكثر من زوجة، فبزواج الزوج تجد الزوجة متسعا من الوقت لعبادة ربها وطلب العلم الشرعي، والاعتناء بنفسها وبأطفالها وتعليمهم أمور دينهم.

ومعلوم أن المرأة تمر بفترات لا يمكنها فيها تلبية حاجيات زوجها، كأيام الحيض والنفاس، فأيهما أنقى وأتقى، أن تكون له زوجة أخرى تعفه أو أن يطلق بصره في الحرام والعياذ بالله؟

وعلى الأخت المسلمة أن تراعي جيدا هذه النقطة وتتخلى قليلا عن أنانية النساء اللاتي إن حضن حاض الزوج وإن نفسن نفس الزوج.

ومن حِكم التعدد العظيمة أيضا تكثير النسل المسلم الموحد، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم) [رواه أبو داود والنسائي]. فالتعدد من أسباب نصرة الحق، وتكثير سواد أهله.

وأيضا فمن الملاحظ ازدياد عدد النساء وتراجع عدد الرجال بسبب الحروب وما قد يعتري المجتمع المسلم من نوازل، وما ذاك إلا ليتم الله أمره الذي أخبر به النبي -صلى الله عليه وسلم- حيث قال: (من أشراط الساعة: أن يقل العلم، ويظهر الجهل، ويظهر الزنا، وتكثر النساء، ويقل الرجال، حتى يكون لخمسين امرأة القَيِّم الواحد) [رواه البخاري].

وإنا اليوم قد بتنا أقرب ما يكون من ذاك الزمان الذي يقل فيه الرجال وتكثر فيه النساء، فمن يعف الأرامل ويكفل الأيتام، ومن يحصن الأيامى (والأيِّم هي المرأة التي لا زوج لها)؟ ولقد كان الصحابة الكرام يسارعون إلى إحصان من قتل عنها زوجها أو مات، ولتعلم المسلمة أن لها أخوات مسلمات أرامل لا يجدن من يقوم على حوائجهن، ويرعى مصالحهن، ويكفيهن شر السؤال، مما قد يضطر إحداهن أحيانا لسؤال الغريب، وهذا باب فتنة حريّ بالمؤمنة الموحدة أن تساهم في غلقه.

> **كان الصحابة الكرام يسارعون إلى إحصان من قتل عنها زوجها أو مات، ولتعلم المسلمة أن لها أخوات مسلمات أرامل لا يجدن من يقوم على حوائجهن**

ثم إن هناك من النساء من قد يبتليها الله تعالى بالعقم، فأيهما أفضل، أن يجبر الزوج بخاطرها فيبقيها على ذمته ويتزوج من أخرى تأتيه بالولد، فتعيش الأولى في كنفه يرعاها ويحسن إليها، أو أن يبقى أبدا دون ذرية مغلبا مراعاة مشاعرها، مع تغليبها لهواها على أن يكون له من يدعو له ولها؟!

هذا غيض من فيض من الحكم الجليلة والمعاني النبيلة والتي لأجلها شرع الله -عز وجل- التعدد.

غير أن بعض النساء -أصلحهن الله- ممن يعارضن أن يتزوج أزواجهن عليهن، عادة ما يدندن حول شبهات باهتة، ويتحججن بحجج واهية، كالغيرة والخوف من ظلم الزوج والمشاكل الزوجية، وهذا كله من تلبيس إبليس على المرأة المسلمة.

فأما الغيرة فهي شعور جِبِلِّي فطرت عليه جميع النساء، ولو كانت المرأة لا تستطيع العيش مع وجود هذا الشعور الغريزي، لما حمّلها الله فوق ما تطيق، ولكنه سبحانه يعلم وهو العليم الخبير أن المرأة تستطيع تحمّل هذا الشعور، وها هي أم المؤمنين الصدّيقة بنت الصدّيق عائشة -رضي الله عنها وعن أبيها- يروى عن غيرتها الشيء الكثير، غير أن غيرتها غيرة طبيعية محمودة يضبطها الشرع وتقوى الله والخشية من عقابه، وإن كانت الأخت المسلمة مقتدية ولا بد، فلتكن عائشة قدوتها، عائشة التي صبرت واحتسبت وهي ترى النبي -صلى الله عليه وسلم- يتزوج عليها سبعا من النساء، ولم تعارض شرع ربها ولم تعاند زوجها وتطلب منه الطلاق كما تفعل بعض المسلمات بحجة الغيرة، مع أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يحذّر النساء من أمر خطير، حيث قال: (أيما امرأة سألت زوجها طلاقا في غير ما بأس، فحرام عليها رائحة الجنة) [رواه أحمد وأبو داود والترمذي]، فلتحذر المسلمة من مغبة طلب الطلاق أو السعي إلى الخلع لمجرد أن زوجها يريد حقه الشرعي وهو الزواج بثانية أو ثالثة أو رابعة.

وتأملي يا رعاك الله هذا القول العظيم: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا} [سورة التحريم: ٥]، هل تعلمين لمن وُجِّه هذا الخطاب الرباني؟ لأمهات المؤمنين سيدات بيت النبوة أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- في الدنيا وفي الجنة! فهلا عَرَفَتْ من هي دونهن من النساء قدرها، واتقت ربها، وأطاعت زوجها في غير معصية ربّها!

> **الخوف من ظلم الزوج والخشية من عدم عدله بين الزوجات وسوء الظن به، لا يبيح للمسلمة معارضة زوجها فيما أباحه له الله ربه وربها**

وأما الخوف من ظلم الزوج والخشية من عدم عدله بين الزوجات وسوء الظن به، فلا يبيح للمسلمة معارضة زوجها فيما أباحه له الله ربه وربها، الذي يحذّر الرجال بقول واضح صريح: {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً} [سورة النساء: ٣]، وعن أبي هريرة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل) [أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه].

وجلّ النساء -إلا من رحم الله- دليلهن أنّ الرجل المُعدد سيظلم ويجور الآية الكريمة: {وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [سورة النساء: ١٢٩]، وهذا فهم خاطئ لأن العدل المذكور هنا إنما هو العدل فيما يخص المشاعر والميول القلبية، التي لا يملك منها العبد شيئا وهي بيد الله تعالى، وقد نزلت هذه الآية بعد آية: {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً}، فرفعت الحرج عن المؤمنين الذين ظنوا أن العدل المقصود إنما هو العدل بإطلاقه، فجاءت رحمة الله تعالى لتبين المقصود وترفع الحرج.

علما بأن المسلمة متى ما انقادت لأمر الله تعالى وأذعنت لشرعه، فلن يترها الله عملها ولن يخيبها ولن يظلمها زوجها بإذن الله تعالى، إلا أن يشاء الله ابتلاءها ليعلم مدى صبرها وإيمانها.

وأما تحجج بعض المسلمات بحدوث مشاكل وخصومات إثر زواج الزوج فليس أهون من الرد عليهن بسؤالهن، هل خَلَت بيوتكن قبل أن يفكر الزوج في الزواج من المشاكل؟! ثم هل إذا تحلّت كل زوجة بتقوى الله ستزيد المشاكل والمشاحنات أم ستقل؟ بل ستقل حتما ولربما غابت واضمحلت.

أختي المسلمة أحذرك من مغبة الانسياق وراء ما يوسوس به شيطانك لك وبعض الصويحبات من القول بأن زوجك إنما يريد الزواج لنقص في محبته لك، أو لتقصير بحقه منك، فهل يقال أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد تزوج على عائشة وبقية أمهات المؤمنين زهدا فيهن أو لتقصيرهن؟ حتما لا، بل إن عائشة -رضي الله عنها- كانت أحب النساء إليه ولم يمنعه ذلك من الزواج عليها، واعلمي أن محبة زوجك لك قد تزيد بعد زواجه لما قد يراه منك من طاعة ورضا وصبر.

أختي المسلمة، إن الله تعالى يقول: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} [سورة الأحزاب: ٣٦]، فاحذري أن تكوني بما تفعلين ممن يعصي الله ورسوله فيضل ضلالا مبينا، بل كوني من أهل هذه الآية: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (*) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [سورة النور: ٥١ – ٥٢].

الاستهزاء بالدين صفة الكفار والمنافقين

إنّ للكلمة في دين الله تعالى شأنا عظيما، فبكلمةٍ يدخل المرءُ للإسلام، وبكلمةٍ يخرج منه.

فبتلفظ كلمة التوحيد (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) ينتقل الكافرُ الأصلي من الكفر إلى التوحيد، وكذا بتلفّظه بكلمة كفرٍ؛ يخرجُ المسلم من ملة الإسلام، فيرتدُّ عن دين الله.

إن للكلمة في دين الله تعالى شأنا عظيما، فبكلمة يدخل المرء الإسلام، وبكلمة يخرج منه.

فبتلفظ كلمة التوحيد (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) ينتقل الكافر الأصلي من الكفر إلى التوحيد، وكذا بتلفظه بكلمة كفر، يخرج المسلم من ملة الإسلام، فيرتد عن دين الله.

وهذا الحكم الذي يفجع بعض الأسماع ويُبلِغ بعض القلوب الحناجر ليس بدعا من القول، وما هو باجتهاد عالم، ولا بقانون حاكم، لا، بل هو نصّ كلام رب العالمين جلّ جلاله، كلامه في كتابه العظيم ووحيه سبحانه لرسوله الأمين، صلوات الله وسلامه عليه، قال الحقُّ تبارك وتعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} [سورة المائدة: ١٧]، وقال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ} [سورة المائدة: ٧٣]، وقال سبحانه: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ} [سورة التوبة: ٧٤]، وقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا، يهوي بها سبعين خريفا في النار) [صحيح، رواه الترمذي وغيره]، وقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: (وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم إلا حصائدُ ألسنتهم؟!) [رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح].

وغير ذلك من الآيات والأحاديث الصريحة التي تقرر كفر العبد بكلام يقوله، وأكثر الكلام الذي يُخرج العبدَ من الإسلام هو السبُّ والاستهزاء، ونقصد بالسبِّ والاستهزاء: أيَّ مقولة أو كتابة أو فعل – كإشارة بيد أو إخراج لسان أو غمز بعين وغير ذلك – فيه سخرية أو هزل أو تنقّص أو شتم أو طعن أو لَــمْز بالدِّين وشعائره!

الاستهزاء بالدين من خصائص الكفار

والاستهزاء بالدِّين وأهله من أخص صفات الكفار في الأمم الغابرة مع أنبيائهم –عليهم الصلاة والسلام– قال تعالى: {وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (*) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [سورة الزخرف: ٦-٧]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (*) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [سورة الحجر: ١٠-١١]، وقال تعالى عن قوم نوح، عليه السلام: {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ} [سورة هود: ٣٨]، وقال تعالى عن استهزاء فرعون بموسى، عليه السلام: {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ} [سورة الزخرف: ٥٢]، وكذلك فعل كفار قريش مع نبينا –صلى الله عليه وسلم– كما قال الله تعالى: {وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا} [سورة الأنبياء: ٣٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله: «فاستهزؤوا بالرسول صلى الله عليه وسلم لما نهاهم عن الشرك، وما زال المشركون يسُبُّون الأنبياء ويصفونهم بالسفاهة والضلال والجنون إذا دعوهم إلى التوحيد، لـما في أنفسهم من عظيم الشرك، وهكذا تجد مَنْ فيه شَبَهٌ منهم إذا رأى من يدعو إلى التوحيد استهزأ بذلك، لـما عنده من الشرك» [مجموع الفتاوى].

وكما استهزأ الكفار بالأنبياء استهزؤوا بآيات الله، كما قال تعالى: {وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا} [سورة الكهف: ٥٦]، وقال سبحانه: {وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ} [سورة الصافات: ١٤].

واستهزؤوا بالموحدين المؤمنين أيضاً، قال تعالى: {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا} [سورة البقرة: ٢١٢]، وقال سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (*) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (*) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ} [سورة المطففين: ٢٩-٣١]، ويقولُ الله –جلّ جلاله– يوم القيامة تبكيتاً للكافرين إذا توسلوا الخروج من النار والرجوع إلى الدنيا بقولهم: {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (*) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (*) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (*) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ} [سورة المؤمنون: ١٠٧-١١٠].

الاستهزاء بالدين من خصائص المنافقين

والسبّ والاستهزاء من صفات المنافقين، الذين فضحهم الله تعالى بقوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (*) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} [سورة البقرة: ١٣-١٤]، وبقوله تعالى: {يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ} [سورة التوبة: ٦٤]، وبقوله تعالى: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة التوبة: ٧٩].

قال ابن كثير: «وهذه –أيضا– من صفات المنافقين: ألّا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إنْ جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا: هذا مُرَاءٍ، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا» [تفسير القرآن العظيم].

هكذا حال الكافرين والمنافقين كما قصّه القرآن الكريم، أما في عصرنا هذا، فقد صار الاستهزاء والسبّ ظاهرة مشهورة! تفشّتْ واستُسيغتْ بين كثير من المنتسبين إلى الإسلام، وانتشرتْ وراجتْ في بلاد الكافرين، حتى تنافس عباد الصليب وأحفاد القردة وبني علمان والروافض والملحدون... تنافسوا على الجهر بسبّ الربّ والدِّين والرَّسول صلى الله عليه وسلم والقرآن، وسبِّ أهل العلم والدِّين وأهل الصلاح والمجاهدين وأهل الأثر والموحدين ...

ولا غرابة أن يتجرّأ هؤلاء الحثالة على حرمات الله، يوم وجدوا لسخريتهم صدى في البلدان المسماة زوراً إسلامية، فترى السبَّ والاستهزاء في هذه البلاد يجري على ألسنة من ينتسب للإسلام، على ألسنة الشعراء والكتّاب والصحفيين والممثلين والمغنين ومقدمي البرامج والسياسيين، بل حتى على ألسنة كثير من عوام الناس في الشوارع والأسواق إذا تشاجروا وتعاركوا، وأحيانا يجعلون الاستهزاء فاكهة مجالسهم، فيتنادمون ويتبارون بإلقاء (النكات) التي فيها استهزاء صريح، ولا ثمة حسيب ولا رقيب، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

فإذا أراد من حرّكته الحمية أن ينتصر لدين الله هنالك في تلك البلاد؛ فغاية ما بيده أن ينصح السابّ والمستهزئ، ليَلقى –الناصحُ لا المنصوح!– وبالَ أمره على يد جنود الطاغوت، ولينتهي به الأمر في غياهب السجون! وربما عوقب المستهزئ والسابّ بغرامة مالية زهيدة يسدّدها على التراخي حسب استطاعته، أو بسجن في فندق «خمس نجوم»، يخرج منه في أول يوم بكفالة كفيل، كل هذا الكفر البواح يحصل يوميا في تلك البلدان التي تضحك على الناس بأنها دول «إسلامية» بل ودولة «توحيد» كدُويلة آل سلول، أزال الله ملكها وأنجى المسلمين من طغيانهم.

هذه هي ظاهرة السبّ والاستهزاء بالدّين اليوم في الأرض، كلّ الأرض، عدا دار الإسلام، أرض الخلافة المحروسة، فإنَّ تلك الظاهرة الخبيثة مقموعة ولله الحمد، ففي بقاع الدولة الإسلامية –أعزَّها الله– حيث سلطان الشريعة هو السائد وشرع الله هو الحاكم، فإن السبّ والاستهزاء بالدّين وشعائره ردة وكفر يستتاب من يتلبّس به –إن كان السبّ والاستهزاء من النوع الذي تُقبل التوبة فيه– فإن تاب عُزّر أشد التعزير، وإن لم يتب ويرجع ويرضخ، قُتل كفراً كما تُقتل الكلاب السائبة، ولا يُصلى عليه، ولا يُدفن في مقابر المسلمين، ولا يرثُه أقاربُه...

فليحذر المسلمون من أي كلام فيه استهزاء بالله تعالى أو بصفة من صفاته أو اسم من أسمائه، أو رسله وأنبيائه، أو ملائكته، أو كتبه، أو بالقدر، أو دين الإسلام، أو شعيرة من شعائره، وليحرص كل مسلم على كلام أهله فلا يرضى لهم إلا ما صلح منه، وليحذّر كل امرئ جليسه إذا ما زلّ لسانه بشيء من المحظور، أو ليبلغ عنه الإمام أو من ينوب عنه ليعاقبوه بما يستحق.

أما في دار الكفر التي يسرح فيها المستهزئون بدين الله، ويزدادون تطاولا على حرمات الله، فما للمسلمين هناك إلا أن يثأروا لدينهم وأن يقيموا حكم الله في هؤلاء الكفار، بأن يقتلوا كلّ من ثبت عليه استهزاء بالدين وطعن فيه وانتقاص منه، كما قال تعالى: {وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ} [سورة التوبة : ١٢]، ففي ذلك تخويف لأمثالهم أن يعودوا لمثل ذلك أبدا، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الاستهزاء بالدين.. حكمه وبعض صوره

نعود لظاهرة الاستهزاء والسبّ المتفشية في دور الكفر المعاصرة، ونعرّج على بعض صور وأساليب وأشكال السبّ والاستهزاء المنتشرة فيها، لكثرتها وتعددها وتنوع أساليبها، أخرس الله ألسنة السابين والمستهزئين وشل أركانهم.

فمن هذه الصور وأشهرها: سب الله وسب الدين باللسان بألفاظ معروفة نتعفف عن نقلها، ولا نخال أحدا لم يسمعها والله المستعان!

ومنها: سب الملائكة، كما زعمت الباطنية أن جبريل -عليه السلام- خان الأمانة وكان يُفترض به أن ينزل بالوحي لعلي، رضي الله عنه، لذا فإن من طقوس الباطنية أنهم يسبون جبريل عقب كل صلاة ثلاث مرات.

ومنها: الاستهزاء برسل الله وأنبيائه، كما هي عادة اليهود معهم، بل وصل بهم الحال بأن حرفوا التوراة وتنقصوا فيها من قدرهم، عليهم الصلاة والسلام.

ومنها: النظريات الإلحادية المنتشرة في الكتب والتي تُدرَّس في الكليات، كنظرية أن أصل الإنسان قرد! أو نظرية تناسخ الأرواح وأن الله يحل في أجساد حيوانية! أو نظرية أن الدين أفيون الشعوب... وغيرها كثير من زبالة الأفكار وما تقيأه الفلاسفة الملاحدة على مر العصور.

ومنها: ما يلقيه الكثير من الشعراء ويكتبونه وينشرونه من الاستهزاء بالله ورسله بدعوى «الأدب»، أخزاهم الله.

ومن السب والاستهزاء المعاصر: الرسوم الساخرة (الكاريكاتيرية) الطاعنة في الشريعة والنبي -صلى الله عليه وسلم- والمنتشرة في الصحف والمجلات، العربية والأجنبية، والأمثلة عليها كثيرة.

ومنها: ما يفعله المثلون والفنانون من حركات فيها استهزاء بالدين وأهله في مسرحياتهم ومسلسلاتهم وأفلامهم «الكوميدية»، وهي معروفة ولا تحتاج إلى مثال.

ومنها: ما في الكثير من الأغاني من سب واستهزاء، كاستهزاء أحد المغنين الهالكين بالقدر بقوله: «قَدَرٌ أحمق الخطا».

ومنها ما هو موجود في الرسوم المتحركة (أفلام الكارتون) من استهزاء، كتصوير الشاب الملتحي بالشرير، ونحو ذلك...

ومنها ما يقوله الزنادقة في محاضراتهم وخطبهم ومؤتمراتهم ومجالسهم وكتبهم وبحوثهم، كوصفهم لتحكيم شرع الله بالرجعية، وتطبيق الحدود بالوحشية، والحجاب بالظلم، واللحية بالوساخة، وتعدد الزوجات بالزنى، والجهاد بالتطرف، ووصفهم للموحدين المجاهدين بالمتشددين التكفيريين أصحاب القرون الظلامية...

الرسوم «الكاريكاتورية» والمسلسلات تستخدم من قبل المنافقين للطعن في الدين

وهذا غيض من فيض من أمثلة السب والاستهزاء المقنَّن، المحمي من قبل الطواغيت، ولو كان المقام يسمح لذكرنا لك -أخي القارئ- ما تقشعر له الأبدان وتمتلئ منه غيضا القلوب.

وما يهمنا هو أن تعلم -رحمك الله- أن كل من كتب أو تكلم بكلمة من هذه الكلمات أو ما في معناها أو أتى فعلا فيه استهزاء، فهو كافر كفرا أكبر.

وهذا الحكم من الأحكام الراسخة في الشريعة الإسلامية، بل من المجمع عليه بين أهل العلم.

قال شيخ الإسلام: «الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر، يكفر به صاحبه بعد إيمانه»، وقال أيضا: «الاستهزاء بالقلب والانتقاص ينافي الإيمان الذي في القلب منافاة الضد ضده، والاستهزاء باللسان ينافي الإيمان الظاهر باللسان كذلك» [مجموع الفتاوى]، وقال إسحاق بن راهويه: «أجمع المسلمون على أن من سب الله، أو سب رسوله -صلى الله عليه وسلم- أو دفع شيئا مما أنزل الله عز وجل، أو قتل نبيا من أنبياء الله، أنه كافر بذلك وإن كان مقرا بكل ما أنزل الله»، وقال الخطابي: «لا أعلم أحدا من المسلمين اختلف في وجوب قتله» [الصارم المسلول].

وقال القاضي عياض: «قال محمد بن سحنون: أجمع العلماء أن شاتم النبي -صلى الله عليه وسلم- المتنقص له كافر، والوعيد جار عليه بعذاب الله له، وحكمه عند الأمة القتل، ومن شك في كفره وعذابه كفر» [الشفا].

وقال ابن حجر الهيتمي: «ومنها -أي المكفرات- لو حضر جماعة وجلس أحدهم على مكان رفيع، تشبيها بالمذكرين، فسألوا المسائل، وهم يضحكون، ثم يضربونه بالمجراف، أو تشبه بالمعلمين، فأخذ خشبة، وجلس القوم حوله كالصبيان، فضحكوا واستهزؤوا، أو قال: قطعة من ثريد خير من العلم، كفر» [الإعلام بقواطع الإسلام].

وعقد الإمام محمد بن عبد الوهاب باباً في «كتاب التوحيد» عَنْوَنَهُ بقوله: «باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول»، ثم قال عقب سرد الأدلة: «فيه مسائل: الأولى: وهي العظيمة، أن من هزل بهذا إنه كافر».

وعلق الشيخ عبد الرحمن بن حسن على ذلك بقوله: «ومن هذا الباب: الاستهزاء بالعلم وأهله، وعدم احترامهم، أو الوقيعة فيهم لأجله» [قرة عيون الموحدين].

وقال الشيخ حمد بن عتيق: «اعلم أن العلماء قد أجمعوا على أن من استهزأ بالله، أو رسوله، أو كتابه، أو دينه، فهو كافر، وكذا إذا أتى بقول أو فعل صريح في الاستهزاء» [الدرر السنية].

وقد يكون القول أو الفعل صريحا في الاستهزاء، وقد يكون غير ذلك، فالاستهزاء الصريح الواضح البيِّن كُفْر، يحكم فيه بكفر من قاله أو فعله، أما القول أو الفعل غير الصريح الذي يحتمل أكثر من معنى، فيستوقف صاحبه على قصده ومراده، فإن كان قصده من قوله أو فعله -المحتمل- المعنى الكفري فهو كافر، وإن كان قصده غير ذلك، فلا.

وعندما عدّ الإمام محمد بن عبد الوهاب الاستهزاء ناقضا صريحا من نواقض الإسلام العشرة، فقال: «الناقض السادس: من استهزأ بشيء من دين الرسول -صلى الله عليه وسلم- أو ثوابه أو عقابه كفر»، قال في آخر رسالة النواقض: «ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف، إلا المكره».

كما لا فرق في الحكم بكفر الساب والمستهزئ بين قاصد الكفر وعدم قاصده، فقد يتذرع بعض من يسب أو يستهزئ بأنه لم يقصد السب والاستهزاء.

والدليل أن الله تعالى كفّر من استهزأ بالصحابة -رضوان الله عليهم- في غزوة تبوك ولم يقبل منهم ادعاءهم أنهم لم يقصدوا الكفر بما قالوا.

الاستهزاءُ الصريحُ الواضحُ البيِّن كفر، يُحكم فيه بِكُفْر مَنْ قَالَهُ أو فعله

قال شيخ الإسلام: «وبالجملة فمن قال أو فعل ما هو كُفْر، كَفَر بذلك وإن لم يقصد أن يكون كافرا، إذ لا يقصد الكفر أحد إلا ما شاء الله» [الصارم المسلول].

وقال الشيخ سليمان آل الشيخ: «الذين قالوا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء، يعنون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه القراء، لم يقولوها من حيث لم يقصدوا الكفر، ولم يختاروه، وإنما قالوه على وجه المزح واللعب، فرفع ذلك إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقد ارتحل وركب ناقته، فقالوا: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق، فقال: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون» [الدرر السنية].

وقال في شرحه لكتاب التوحيد -مبينا مراد المؤلف بباب (من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول): «أجمع العلماء على كفر من فعل شيئا من ذلك، فمن استهزأ بالله أو بكتابه أو برسوله أو بدينه كفر ولو هازلا لم يقصد حقيقة الاستهزاء، إجماعا» [تيسير العزيز الحميد].

إذاً ما دام أمر السب والاستهزاء خطيرٌ خطير! فماالذي يجب على المسلم حيال السابين المستهزئين في دار الكفر؟

يجب عليه أولا أن يغضب لمحارم الله وينكر فعلهم ويمنعهم منه ويكفّرهم ويتبرأ منهم، وقال صلى الله عليه وسلم: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان) [رواه مسلم].

ومن الإنكار الواجب قتل المستهزئ أو الساب إن لم يتب من ردته، بالأخص إن كان كفره مما لا تقبل توبته في أحكام الدنيا، كساب الرسول، صلى الله عليه وسلم، قال صلى الله عليه وسلم: (من بدل دينه فاقتلوه) [رواه البخاري]، وقتل هؤلاء من الجهاد في سبيل الله.

فإن لم يستطع ذلك، وجب عليه المفارقة فورا، امتثالا لقول الله تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [سورة الأنعام: ٦٨].

فإن لم ينكر، ولم يغير، ولم يفارق، فحكمه حكم المستهزئين السابين سواء بسواء، بنص قول الله تعالى: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} [سورة النساء: ١٤٠].

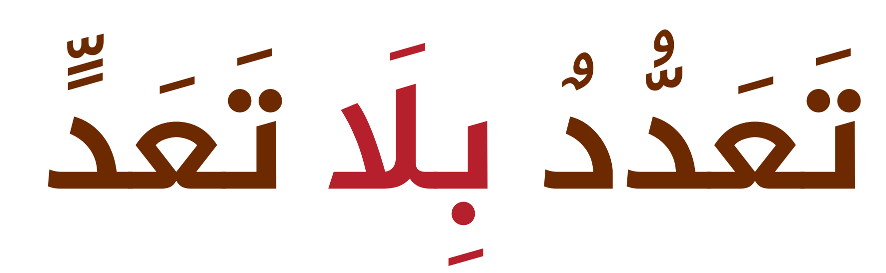
قال ابن كثير في تفسيره: «أي إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم، ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله وينتقص بها، وأقررتموهم على ذلك، فقد شاركتموهم في الذي هم فيه»، إلى أن قال: «وقوله {إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} أي: كما اشتركوا في الكفر، كذلك شارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم».

هذا، وإن كان ثمة كلمة أخيرة، فنوجهها لمن وقعوا في شيء من هذا السب والاستهزاء، فنقول لهم:

توبوا إلى الله من ردتكم، وجددوا إسلامكم، وعظموا شعائر الله، ولا تستهينوا بحرماته، ذلكم خير لكم في الدنيا والآخرة.

واعلموا أن الضحك والمزاح والهزل والمرح -الذي هو أكبر سبب يدفعكم للاستهزاء- لن ينفعكم في شيء سوى إرضاء الشيطان والهوى وجلساء السوء، فإذا كان النبي، صلى الله عليه وسلم قال: (ويل للذي يحدث القوم ثم يكذب ليضحكهم، ويل له، ويل له) [حديث حسن، رواه أحمد وغيره]، وهذا في الكذب الذي هو معصية، فكيف بالاستهزاء الذي هو كفر؟!

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



الحمد لله الذي حرّم على نفسه الظلم وتوعّد الظالمين، والصلاة والسلام على سيد العادلين وإمام المتقين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فعن أبي ذر، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما روى عن الله -تبارك وتعالى- أنه قال: (يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّما، فلا تظالموا...) [رواه مسلم]، وعن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ألا فاستوصوا بالنساء خيرا، فإنهنّ عَوَانٌ عندكم) [رواه الترمذي والنسائي]، «فإنما هنّ عوان عندكم جمع عانية أي أُسَرَاء كالأُسَرَاء، شُبِّهن بهنَّ عند الرجال لتحكمهم فيهن. قال في النهاية: العاني الأسير وكل من ذل واستكان وخضع» [تحفة الأحوذي].

وأخرج الإمام البخاري في صحيحه (باب الوصاة بالنساء)، من حديث أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: واستوصوا بالنساء خيرا، فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبتَ تقيمه كسرتَه، وإن تركتَه لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرا.

هذا وقد فضّل الله تعالى الرجال على النساء، ولم يجعل الذكر كالأنثى، وجعل القوامة بيد الرجل، وفرض على المرأة طاعة الزوج بل وجعلها عبادة تتقرب بها إلى خالقها عز وجل. كما وأحلّ الله تعالى للرجال أربعا من الزوجات، وما شاء من السراري، فقال تبارك اسمه: {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ} [سورة النساء: ٣].

ولكن هل ترك الشارع الحكيم هذا الأمر (أي تعدد الزوجات) على إطلاقه؟ لا، بل قيده سبحانه بشرط عظيم، حري بكل رجل تدبره بقلب وَجِل، وهذا الشرط هو: {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً} [سورة النساء: ٣]، إنه العدل، عمود تعدد الزوجات وذروة سنامه! {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً}؛ نعم واحدة لأن الله عَدْلٌ يحب العَدْلَ، واحدة إذا خيف الظلم والجور والتعدي على حقوق إحدى الزوجات، واحدة لأن الظلم يوم الحساب ظلمات، فما بال كثير من الرجال اليوم يستهينون بأمر التعدد ولا يخشون مغبة الظلم والتعدي؟ أما بلغهم حديث النبي، صلى الله عليه وسلم: (من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط) وفي رواية: (أحد شقيه مائل) [أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي].

قال المباركفوري: «قال الطيبي في شرح قوله (وشقه ساقط): أي: نصفه مائل، قيل: بحيث يراه أهل العَرَصات ليكون هذا زيادة في التعذيب» [تحفة الأحوذي].

فمن ذا الذي يقدر على الوقوف بين يدي الملك وشقه مائل، ومن ذا الذي يقدر على عذاب الآخرة والسبب زوجة!

الشرع الحكيم لم يترك أمر تعدّد الزوجات على إطلاقه، بل قيده بقيود وضبطه بضوابط

إنا أحيانا ونحن ننصر شرعة التعدد وذب عنها، نُصدم بواقع مرير وبتجارب مفجعة لبعض الأزواج المعددين، ولكنهم أزواج معتدون، لا يعرفون من تعدد الزوجات سوى أنه سنة ثابتة عن النبي، صلى الله عليه وسلم، نعم هو سنة ونعمت السنة هي والله، ولكنها كذلك إذا أتينا بها وفق ما أتى به النبي -صلى الله عليه وسلم- أما أن نشذ ونتعدى، وتحكمنا الشهوة والهوى، فهذا لم يأمرنا به ربنا ولم يرضه لنا.

وإن للتعدد فقهاً، كما إن للطهارة فقهاً، وللصلاة فقهاً، وللصوم فقهاً، وللزكاة فقهاً، وللحج فقهاً... إلخ، فكما لا يمكن للمرء أن يزكي قبل أن يلم بشروط الزكاة وأركانها، لا يمكن لمن أراد أن يعدد أن يلج هذا الباب خالي الوفاض صفر اليدين من فقه التعدد، جاهلا بأبسط أحكامه!

وإن كثيرا من هؤلاء الرجال هم من أعانوا الشيطان على النساء، فأصبحن يجدن منافذ وأسبابا ليقفن في وجوه أزواجهن إن أرادوا التعدد، وساهم في التنفير بأفعاله من سنة هُجرت وكادت تموت، فغرتهم الدنيا وحسبوا أنهم لا يُسألون، وكما صح عن النبي، صلى الله عليه وسلم: (يا أيها الناس إن منكم لمنفرين) [رواه أحمد].

ولمثل هؤلاء نقول: على رسلكم فالأمر ليس كما تحسبون أو تظنون، فهلّا تريثتم وفكرتم وقدّرتم وزنتم ما أنتم عليه مقدمون بميزان الشرع؟ هلّا تفقّهتم وتعلّمتم كيف تعددون كما عدد النبي، صلى الله عليه وسلم؟

فمن هديه -صلى الله عليه وسلم- أن يسبّع للبكر ويثلّث للثيب؛ عن أم سلمة، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما تزوج أم سلمة، أقام عندها ثلاثا، وقال: (إنه ليس بك على أهلك هوان، إن شئت سبعت لك، وإن سبعت لك، سبعت لنسائي) [رواه مسلم]، بل إن من رحمته بنسائه ورفقه بهن، أنه ليلة بنى بأم المؤمنين زينب بنت جحش، رضي الله عنها، كما أخرج البخاري عن أنس، قال: «فخرج النبي -صلى الله عليه وسلم- فانطلق إلى حجرة عائشة فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله، فقالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدتَ أهلك بارك الله لك. فتقرّى حُجَر نسائه كلهن، يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة». والبعض اليوم يتزوج الثانية أو الثالثة أو الرابعة، فيغيب عمَّن قبلها ما شاء الله دون إشارة أو أمارة، بل إن من الرجال من إذا عدد وجاء بالجديدة نسي القديمة والولد، إنها غيبوبة التجديد التي يدخلها أحيانا بعض الأزواج، ومن كان هذا حاله فلا يستفيق من غيبوبته غالبا إلا على أبواب المحاكم والدعوى خلع أو طلاق والله المستعان.

وما أكثر المستهينين بمسألة القسم بين الزوجات، فتجد أحدهم يطيل مع زوجة على حساب أخرى، أو قد يأخذ ليلة هذه ليهبها لتلك دون قضاء، متعللا بأمور كثيرة إن هي وزنت بميزان الشرع بان عوارها وزيفها، وقد أجمع أهل العلم على وجوب التسوية في القسم بين الزوجات؛ «قال أبو القاسم: وعلى الرجل أن يساوي بين زوجاته في القسم؛ لا نعلم بين أهل العلم في وجوب التسوية بين الزوجات في القسم خلافا، وقد قال الله تعالى: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} [سورة النساء: ١٩]، وليس مع الميل معروف» [المغني].

لا يمكن لمن أراد أن يعدد أن يلج هذا الباب خالي الوفاض صفر اليدين من فقه التعدد، جاهلا بأبسط أحكامه

كذلك بعض المعددين يأبى إلا أن يكون أذنا لإحدى زوجاته، ولكن أذن شر لا خير، فيظلم هذه على حساب تلك، وعندما تغيب تقوى الله ويحضر كيد النساء، وتصبح الزوجة لا همّ لها سوى افتعال المشاكل والتحريض على ضرتها وإيغار قلب الزوج عليها، بل أحيانا تطلب هذه الزوجة رقيقة الدين من زوجها أن يطلق ضرتها! نعم هكذا وبمنتهى الصراحة والبساطة، خاصة إذا كانت صاحبة أطفال منه فتجدها تزبد وترعد: «إما أنا وأطفالك أو هي»! وكم من زوج مسكين رضخ لمثل هذه وضحى بزوجته الثانية حتى لا يخسر عائلته الأولى، هكذا يزعم وهكذا يظن، ولو أنه اتقى ربه ورد ما تُنُوزِع فيه إلى الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- لا إلى هوى زوجة متجبرة لجعل الله له مخرجا لا إثم فيه ولا عدوان.

وقد حذر النبي -صلى الله عليه وسلم- من مثليات هذه الزوجة فقال: (لا يحل لامرأة تسأل طلاق أختها لتستفرغ صحفتها فإنما لها ما قدر لها) [أخرجه الشيخان].

قال ابن عبد البر: «وذكر الصحفة في هذا الحديث كناية عن خير الزوج»، أي أن هذه الزوجة تسعى لطلاق ضرتها ليصبح الزوج وما يملك ملكا لها وحدها، ويكأن العقد الذي ربط بينهما كان عقد تمليك لا عقد زواج.

وأيضا من فقه التعدد أن لا يُسكن الرجل زوجاته في حجرة واحدة، قال الحجاوي: «ويحرم جمع زوجتيه في مسكن واحد بغير رضاهما»، وقال البهوتي: «لأن عليهما ضررا في ذلك، لما بينهما من الغيرة، واجتماعهما يثير الخصومة» [الروض المربع].

بعض الرجال أعانوا الشيطان على النساء، ليقفن في وجوه أزواجهن إن أرادوا التعدد

وقال ابن قدامة في المغني: (فصل: ليس للرجل أن يجمع بين امرأتيه في مسكن واحد بغير رضاهما): «وليس للرجل أن يجمع بين امرأتيه في مسكن واحد بغير رضاهما، صغيرا كان أو كبيرا؛ لأن عليهما ضررا؛ لما بينهما من العداوة والغيرة، واجتماعهما يثير المخاصمة والمقاتلة، وتسمع كل واحدة منهما حسه إذا أتى إلى الأخرى، أو ترى ذلك، فإن رضيتا بذلك جاز؛ لأن الحق لهما، فلهما المسامحة بتركه... وإن أسكنهما في دار واحدة، كل واحدة في بيت، جاز، إذا كان ذلك مسكن مثلها».

وعليه فلا يجمع الزوج نساءه في حجرة واحدة لتندلع الحروب بينهن ثم نقول التعدد أمر صعب والعدل مستحيل، لأن ما سلف ليس من هدي النبي -صلى الله عليه وسلم- في شيء، وليس من فقه التعدد في شيء.

هذا غيض من فيض من بحر من الأخطاء التي يقع فيها بعض الأزواج المعددين، بعضهم عن جهل، وبعضهم عن لا مبالاة واستهانة بحقوق الزوجة، وبعضهم عن جبروت وغطرسة، فليتق الله كل زوج عدد أو يريد أن يعدد، وليذكر وقوفه بين يدي الله عز وجل، وليحاسِب نفسه قبل أن يحاسَب، فإما مثنى وثلاث ورباع تسعد القلب وترضي الرب، وإما {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً}.

صلاة التراويح .. وقيام ليالي رمضان

لله في أيامه مواسم أنعم بها على عباده المؤمنين، ليتقرّب إليه محسنهم، ويتوب إليه مسيئهم، ويعود إليه مدبرهم، فهي سوق الرحمن، تُعرض فيه الجنة على المشمرين لها، ومن تلك المواسم الفضيلة التي منّ الله بها على المؤمنين في هذه الأمة شهر رمضان، حيث تُفتح فيه أبواب الجنة وتُغلق فيه أبواب النار، وتُصفّد فيه الشياطين، وينادي فيه منادٍ كل ليلة: يا باغي الخيرِ أقبل، ويا باغي الشرّ أقْصر، حتى ينقضي رمضان.



وإن من أهم الأعمال في هذا الشهر العظيم قيام لياليه، ومن أفضل ما تقام به ليالي رمضان المباركة الصلاة، التي تعرف عند المسلمين بصلاة التراويح، أو صلاة التهجد.

فالتهجد وقيام الليل وقيام رمضان والتراويح هي عدة أسماء لمسمى واحد، قال النووي: «والمرادُ بقيام رمضان صلاةُ التراويح» [شرح صحيح مسلم]، وقال الكرماني: «اتَّفَقوا على أن المراد بقيام رمضان صلاة التراويح» [فتح الباري].

١. تسميتها:

قال ابن حجر: «والتّراويح جمع تَرْويحة، وهي المرة الواحدة من الراحة، كتسليمة من السلام، سُمِّيَت الصلاة في الجماعة في ليالي رمضان التراويح؛ لأنهم أول ما اجتمعوا عليها كانوا يستريحون بين كل تسليمتين» [فتح الباري].

٢. حكمها:

قال ابن قدامة: «ولا شك أن صلاة التراويح سنة مؤكدة، أول من سنها بقوله وفعله رسول الله، صلى الله عليه وسلم» [المغني]، وقال النووي: «اتفق العلماء على استحبابها» [شرح صحيح مسلم].

٣. عدد ركعاتها:

أما عدد ركعاتها فإن السنة الفعلية الواردة بأسانيد صحيحة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثمان ركعات، والوتر بعدها بثلاث أو خمس، وهو ما جاء في حديث عائشة -رضي الله عنها- عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، أنه سأل عائشة، كيف كانت صلاة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في رمضان؟ قالت: «ما كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يزيد في رمضان، ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة» [متفق عليه]. وعن ابن عباس -رضي الله عنه- قال: «كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة» [رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح]. ولم يرد عنه -صلى الله عليه وسلم- بسند صحيح أكثر من هذا ولم يَجمع صحابته في المسجد للتراويح إلا ليلتين أو ثلاث، عن عائشة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صلى في المسجد ذات ليلة، فصلى بصلاته ناس، ثم صلى من القابلة، فكثر الناس، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة، فلم يخرج إليهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلما أصبح قال: قد رأيتُ الذي صنعتم، فلم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تُفرض عليكم، قال: وذلك في رمضان) [أخرجه البخاري ومسلم].

وأما الزيادة على هذا المسنون فجائزة عند الأئمة، إن كان المصلي يصليها محققا للطمأنينة ولا يعتقد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- صلى هذه الزيادة، والزيادة واردة عن الصحابة والسلف بأعداد مختلفة، فروي عن بعض الصحابة عشرين ركعة وعن بعض السلف ست وثلاثين وست وأربعين وغيرها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله: «وإن قام بأربعين وغيرها جاز ذلك، ولا يُكره شيء من ذلك»، ثم يقول: «ومن ظن أن قيام رمضان فيه عدد موقت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يزاد فيه ولا ينقص منه فقد أخطأ» [مجموع الفتاوى].

والذي يتتبع السنة وأحوال السلف يتبين له أن عدد الركعات يختلف باختلاف تحمّل القيام، فمن يتحمّل طول القراءة فليصلِّ بإحدى عشر ركعة، وهو الأولى لفعل النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن يريد أن يستوعب الليل كله لكن شق عليه طول القيام فليصلِّ حسب حالته، كما روى السائب بن يزيد: «أمر عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أُبيَّ بن كعب -رضي الله عنه- وتميما الداري -رضي الله عنه- أن يقوما للناس في رمضان، فكان القارئ يقرأ بالمئين، حتى كنا نعتمد على العصي من طول القيام وما كنا ننصرف إلا في فروع الفجر» [رواه أبو داود والنسائي وغيرهما] وعن عبد الله بن أبي بكر قال: سمعت أبي يقول: «كنا ننصرف في رمضان من القيام فنستعجل الخدم بالطعام مخافة الفجر» [رواه مالك]، أما التراويح المعتادة عند كثير من الناس اليوم أنهم يصلون ٢٣ ركعة في ٢٣ دقيقة، بعجلة ودون طمأنينة، فهي بدعة محضة ولم تثبت عن أحد من السلف، بل من فعل ذلك لم يفهم فقه السلف ولم يصب السنة.

٤. مقدار ما يُقرأ في كل ركعة:

لم يرد في السنة عدد معين من آيات القرآن يُقرأ بها في قيام الليل، إلا أن هناك آثار يَستأنس بها المسلم في عبادته، فقد مر أن الصحابة كانوا يقرؤون فيها بالسور المئين التي تقارب المائة آية، وروي عن أبي عثمان: أن عمر -رضي الله عنه- جمع القرّاء في رمضان فأمر أخفهم قراءة أن يقرأ ثلاثين آية، وأوسطهم خمسا وعشرين، وأثقلهم قراءة عشرين، وأمر عمر بن عبد العزيز القرّاء في رمضان أن يقوموا بست وثلاثين ركعة، ويوتروا بثلاث ويقرؤوا في كل ركعة عشر آيات» [مختصر قيام الليل للمروزي].

٥. الختم في التراويح والقراءة من المصحف فيه:

قال شيخ الاسلام ابن تيمية، رحمه الله: «وأما قراءة القرآن في التراويح فمستحب باتفاق أئمة المسلمين، بل من أجلّ مقصود التراويح قراءة القرآن فيها ليسمع المسلمون كلام الله، فإن شهر رمضان فيه نزل القرآن وفيه كان جبريل يدارس النبي -صلى الله عليه وسلم- القرآن، (وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن)» [الفتاوى الكبرى]، ويجوز أن يُقرأ من المصحف في التراويح كما روي ذلك عن عائشة -رضي الله عنها- وغيرها من السلف، وسُئِل ابن شهاب -رحمه الله- عن الرجل يَؤُمُّ الناس في رمضان في المصحف، فقال: «ما زالوا يفعلون ذلك منذ كان الإسلام، كان خيارنا يقرؤون في المصاحف» [مختصر قيام الليل للمروزي]، ويجوز أن يجتمع الناس عند ختم القرآن، قال النووي في آداب حملة القرآن: «يستحب حضور مجلس ختم القرآن استحبابا متأكدا»، وقال: «وروى الدارمي وابن أبي داود بإسنادهما عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه كان يجعل رجلا يراقب رجلا يقرأ القرآن، فاذا أراد أن يختم أعلم ابن عباس فيشهد ذلك»، ولكن لم يثبت عن السلف الصالح حفلات الأناشيد والحلويات وغيرها من الأمور المستحدثة، التي يجب تجنبها، حتى لا يقع المرء في البدع.

٦. بعض ما لا ينبغي في التراويح:

- تسريع الإمام في القراءة والصلاة بحيث لا يتمكن كثير من الناس -لا سيما المرضى وكبار السن- أن يفهموا ما يُتلى من القرآن أو أن يدركوا أركان الصلاة.
- خروج بعض الناس قبل إتمام التراويح، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إن الرجل إذا صلى مع الإمام حتى ينصرف حُسِب له قيام ليلة) [أخرجه الترمذي والنسائي وغيرهما].
- من المنكرات أن يتخذها الناس محلا للمناظرات في ركعاتها، فترى من اتبع حديث عائشة -رضي الله عنها- يتهم من يصلي عشرين ركعة بالبدعة، ويتعصّب صاحب العشرين لعمله وكأنه محل إجماع، فيفوتهم خير كثير، ولو ردوا الأمر إلى السنة وفهم السلف لرضوا وعبدوا الله بما يحب.

خامسا: صور من قيام السلف الصالح، رحمهم الله

١ - عن عبد الله بن قيس قال: «دخلتُ على أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- فقالت: يا عبد الله لا تَدَع قيام الليل، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما كان يدعه، وكان إذا مرض أو كسل صلى وهو قاعد» [رواه أبو داود].

٢ - وعن أبي عثمان النهدي قال: «تضيفت أبا هريرة سبعة أيام -أي نزلت ضيفا عليه- فكان هو وزوجته وخادمه يقتسمون الليل ثلاثا: الزوجة ثلثا، وخادمه ثلثا، وأبو هريرة ثلثا» [رواه أحمد].

٣ - وكان ابن مسعود -رضي اللهُ عنه- إذا هدأتِ العيونُ قام فيُسمعُ له دويٌّ كدويِّ النحلِ حتى يصبح.

٤ - وعن نافعٍ أنَّ ابن عمر -رضي الله عنهما- كلما استيقظ من الليل صلّى.

وذكر آثار السلف لا ينحصر في مثل هذا المقام.

إن رمضان شهر عظيم مبارك تُضاعف فيه الأجور، فعلى المسلمين عموما وعلى جنود الدولة خصوصا أن يتجهوا فيه إلى الله -عز وجل- بكل ما يستطيعون فعله من جهاد، وقيام، وتلاوة قرآن، ونفقة مال، فأبواب الخير كثيرة وغير محصورة.

نسأل الله تعالى أن يجعل شهر رمضان علينا باباً للمغفرة والعتق من النار، وأن يفتح لعباده المؤمنين البلاد وقلوب العباد، وأن يمكن لهم في الأرض، اللهم آمين.

أهم أحكام زكـــاة الفطــــــــر

من رحمة الله تعالى أن جعل للعبادات ما يجبر نقصها ويطهّر فاعلها من التقصير في أدائها، ومن ذلك ما شرعه الله سبحانه لعباده الصائمين من زكاة الفطر، التي بها تطهيرٌ لنفس من صام رمضان، وكفارة لما ارتكبه من فحش الكلام، وجبرٌ لخاطر الفقير وإغناؤه عن السؤال يوم عيد الفطر... فما هي زكاة الفطر؟ وما حكمها؟ وما حكمة مشروعيتها؟ وما مقدارها؟ ومتى تُخرج؟ وعَمّن تُخرج؟ ومِمّن تُخرج؟ ولمن تُعطى؟

تعريفها

زكاة الفطر (أو ما يسمى الفطرة): هي صدقة تجب بالفطر من رمضان عند إتمام صيامه، وأضيفت الزكاة إلى الفطر لأنه سبب وجوبها.

حكمها

زكاة الفطر واجبة (فرض)، فعن ابن عمر -رضي الله عنه- قال: «فرض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- زكاة الفطر صاعا من تمر أو صاعا من شعير على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين» [رواه البخاري]، قال النووي: «أجمع العلماء على وجوب صدقة الفطر» [المجموع].

الحكمة من مشروعيتها

عن ابن عباس -رضي الله عنه- قال: «فرض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين» [حسن، رواه أبو داود وغيره] و«قوله: (طهرة): أي تطهيرا لنفس من صام رمضان، وقوله (والرفث) قال ابن الأثير: الرفث هنا هو الفحش من كلام، قوله (وطعمة): بضم الطاء، وهو الطعام الذي يؤكل» [عون المعبود]، وعن وكيع قال: «زكاة الفطر لشهر رمضان كسجدتي السهو للصلاة، تجبر نقصان الصوم كما يجبر السجود نقصان الصلاة» [المجموع للنووي]، وقال ابن قدامة: «والحكمة من مشروعية زكاة الفطر الرفق بالفقراء بإغنائهم عن السؤال في يوم العيد، وإدخال السرور عليهم في يوم يسر المسلمون بقدوم العيد عليهم، وتطهير من وجبت عليه بعد شهر الصوم من اللغو والرفث» [المغني].

وقت إخراجها

تجب زكاة الفطر بغروب الشمس من آخر شهر رمضان، ووقت دفعها له وقت استحباب ووقت جواز، فأما وقت الاستحباب فهو صباح يوم العيد لأن النبي، صلى الله عليه وسلم «أمر بها أن تؤدَّى قبل خروج الناس إلى الصلاة» [رواه البخاري ومسلم]، أما وقت الجواز فهو قبل العيد بيوم أو يومين، ففي صحيح البخاري عن نافع قال: كان ابن عمر -رضي الله عنهما- يعطيها قبل الفطر بيوم أو بيومين؛ ويحرّم تأخيرها لبعد صلاة العيد، قال ابن رسلان في تأخيرها إلى ما بعد صلاة العيد: «إنه حرام بالاتفاق لأنها زكاة، فوجب أن يكون في تأخيرها إثم كما في إخراج الصلاة عن وقتها» [عون المعبود]، ولا تبرأ ذمة مؤخرها، لقوله، صلى الله عليه وسلم: «من أدّاها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات» [حسن، رواه أبو داود وغيره].

على من تجب

تجب زكاة الفطر على المسلم القادر، فلا تجب على الكافر، لأن زكاة الفطر قربة من القُرَب وطهرة للصائم من الرفث، وليس الكافر من أهلها، وإنما يعاقب على تركها في الآخرة، قال الشافعي: «وفي حديث نافع دلالة على أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لم يفرضها إلا على المسلمين، وذلك موافقة لكتاب الله -عز وجل- فإنه جعل الزكاة للمسلمين طهورا والطهور لا يكون إلا للمسلمين» [الأم]، وتجب على القادر (المستطيع)، وبيّن النووي حد هذه القدرة بقوله: «المعسر لا فطرة عليه بلا خلاف... والاعتبار باليسار والإعسار بحال الوجوب، فمن فضل عن قوته وقوت من تلزمه نفقته لليلة العيد ويومه صاع، فهو موسر، وإن لم يفضل شيء فهو معسر ولا يلزمه شيء في الحال» [المجموع].

تجب زكاة الفطر بغروب الشمس من آخر شهر رمضان، ويجوز أداؤها قبل العيد بيوم أو يومين

عمّن يخرجها المسلم

يخرجها الإنسان المسلم عن نفسه وعمن يعولهم (ينفق عليهم)، فيخرجها عن نفسه وزوجته وأولاده وما ملكت يمينه ووالديه الفقيرين، والبنت التي لم يدخل بها زوجها، والأقارب إذا لم يستطيعوا إخراجها عن أنفسهم، فإن استطاعوا فالأولى أن يخرجوها هم، لأنهم المخاطبون بها أصلا، ويبدأ بالأقرب فالأقرب، بنفسه فزوجته فأولاده ثم بقية القرابة أقربهم فأقربهم على حسب قواعد الميراث، ولا تجب عن الحمل الذي في البطن إلا إن يُتطوع بها، وإن مات مَن وجبت عليه الفطرة قبل أدائها، أخرجت من تركته، والخادم إذا كان له أجرة مقدرة كل يوم أو كل شهر لا يخرج عنه.

مقدارها

مقدار زكاة الفطر صاع من طعام، لحديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- حيث قال: «كنا نخرج زكاة الفطر صاعا من طعام...» [متفق عليه]، والصاع المعتبر هو صاع النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي يساوي أربعة أمداد، والمد هو ما يملأ كفي الرجل المعتدل الكفين، قال ابن الأثير: «وقيل إن أصل المُد مقدر بأن يمد الرجل يديه فيملأ كفيه طعاما» [النهاية].

تنبيه: الوزن يختلف باختلاف ما يملأ به الصاع، فعند إخراج الوزن لا بد من التأكد أنه يعادل ملء الصاع من النوع المخرج منه، فهو مثلا يعادل ثلاثة كيلو من الرز تقريبا، بينما يعادل كيلوين ونصف من الطحين... وهكذا.

الأنواع التي تخرج في زكاة الفطر

يجوز إخراج زكاة الفطر من كل طعام يعد قوتا، أي يقتاته الناس، ولا يفسد بالادخار، وذلك لحديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- المتقدم: «كنا نخرج زكاة الفطر صاعا من طعام، أو صاعا من شعير، أو صاعا من تمر، أو صاعا من أقط، أو صاعا من زبيب»، وتفسير الطعام هنا ببعض أنواعه لا يعني قصره على هذه الأنواع، فالرسول -صلى الله عليه وسلم- فرض هذه الأنواع لأنها كانت قوت أهل المدينة، وعلى هذا يجوز إخراجها من كل ما يعد قوتا لأهل بلده من أرز أو دقيق أو تمر أو عدس أو فاصولياء... وليحرص المؤمن على أن تكون زكاة فطره من الجيد الطيب لا من شر الأصناف، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (ما تصدق أحد بصدقة من طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة فتربو في كف الرحمن، حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله) [رواه مسلم].

مقدار زكاة الفطر صاع من طعام، من أرز أو دقيق أو تمر أو عدس أو فاصولياء أو غير هذه الأصناف مما يقتاته الناس ولا يفسد بالادخار

مصرف زكاة الفطر (لمن تدفع زكاة الفطر)

تصرف زكاة الفطر للمحتاجين (الفقراء والمساكين)، للحديث المذكور: «فرض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمه للمساكين»، قال ابن القيم: «وكان من هديه -صلى الله عليه وسلم- تخصيص المساكين بهذه الصدقة ولم يكن يقسمها على الأصناف الثمانية قبضة قبضة، ولا أمر بذلك ولا فعله أحد من أصحابه ولا من بعدهم» [زاد المعاد].

ولا يجوز دفع زكاة الفطر لكافر أو مرتد أو عاص يستعين بها على معصيته، وعلى المسلم أن يتحرى من المساكين المستحقين لزكاة الفطر عائلات الشهداء والأسرى والمصابين، فلهؤلاء حق علينا، وهم أحق الناس بصدقاتنا، وهم يستحقونها من أكثر من وجه، قال تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا} [سورة البقرة: ٢٧٣]، فذكر الله تعالى مستحقي النفقات، ووصفهم بست صفات: أحدها الفقر، والثانية أنهم {أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} أي: محبوسون بسبب الجهاد، والثالثة {لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ} أي: عاجزون عن الأسفار لطلب الرزق، والرابعة {يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ} وهذا بيان لصدق صبرهم وحسن تعففهم، والخامسة {تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ} أي: بالعلامة التي ذكرها الله في وصفهم، وهذا لا ينافي قوله: {يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ}، فإن الجاهل بحالهم ليس له فطنة يتفرس بها ما هم عليه، وأما الفطن فمجرد ما يراهم يعرفهم بعلامتهم، والسادسة أنهم {لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا} أي: لا يسألونهم سؤال إلحاف، أي: إلحاح، فهؤلاء أولى الناس وأحقهم بالصدقات [تيسير الكريم الرحمن].

ويجوز للمسلم أن يقوم بإخراج زكاة فطره بنفسه أو أن يوكل مسلما بإخراجها عنه أو أن يدفعها لديوان الزكاة ليقوم الإخوة هناك بتفريقها على مستحقيها، ولهذا أصل في الشرع، فقد كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعين أبا هريرة -رضي الله عنه- ويرتبه على جمع زكاة فطر المسلمين وتفريقها على مساكين المسلمين [رواه البخاري]، وكذلك فعل الصحابة -رضي الله عنهم- من بعده.

نسأل الله تعالى أن يتقبل من المسلمين صيامهم وصدقاتهم وطهرهم وزكاتهم.

زَقُّومُ مَجَالِسِ النِّسَاءِ

عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: «ما شيء أحق بطول سجن من لسان» [رواه الطبراني في الكبير]، والمتأمل في حال مجالس المسلمين اليوم يرى فيها انفلاتا عجيبا للألسنة وتجرؤا غريبا على الأعراض بالقيل والقال، إلا من عصمه الله وهم قليل، وكأنهم ما سمعوا قول ربهم، عز وجل: {وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ} [الحجرات: 12]، ولو تدبّروه وتفكّروه، ووعوه وفقهوه، لوجلت من هوله القلوب.

وليس افتراء منا إن قلنا أن أكثر المجالس التي تشكو من وباء الغيبة هي مجالس النساء خاصة، ولا نقول كما قيل أنها أصبحت فاكهة المجالس، بل إنها زقوم المجالس، والله المستعان.

والغيبة بكسر الغين عرّفها النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (أتدرون ما الغيبة؟) قالوا: «الله ورسوله أعلم»، قال: (ذكرك أخاك بما يكره)، قيل: «أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟» قال: (إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بَهَتَّه) [رواه مسلم]، و(بَهَتَّه) من البهتان والزور وقول الباطل، عن قتادة قال: «كنا نحدّث أن الغيبة أن تذكر أخاك بما يشينه، وتعيبه بما فيه، وإن كذبت عليه فذلك البهتان» [انظر: تفسير الطبري].

وعن قتادة أيضا في تفسير قوله تعالى: {أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ} يقول: «كما أنت كاره لو وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها، فكذلك فاكره غيبته وهو حي» [انظر: تفسير الطبري].

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قلت للنبي، صلى الله عليه وسلم: «يا رسول الله إن صفية امرأة» وقالت بيدها هكذا، كأنها تعني: قصيرة، فقال صلى الله عليه وسلم: (لقد مزجت بكلمة لو مزجت بها ماء البحر لمزج) [رواه أبو داود والترمذي].

قال المباركفوري: «المعنى: أن هذه الغيبة لو كانت مما يمزج بالبحر، لغيّرته عن حاله مع كثرته وغزارته، فكيف بأعمال نزرة خلطت بها؟» [تحفة الأحوذي].

سبحان الله! هذه عائشة زوج النبي وأم المؤمنين، الصِّدّيقة التقية الورعة الحافظة العالمة تشير بيدها فقط لتصف أختها (أي ضرتها) للنبي -صلى الله عليه وسلم- في غيابها ولم تفعل ذلك إلا لغيرتها، ولكن النبي ينهاها ويحذّرها من كلمتها التي قالتها، ولم يقل هي غَيرى ولا بأس بذلك، فقد غارت عائشة وضربت يد خادم كان يحمل صحفة فيها طعام من إحدى زوجاته فسقطت وانفلقت، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- لصحابته: (غارت أمكم) [رواه البخاري وغيره]، فاستوعب غيرتها والتمس لها العذر، ولم يجعل غيرتها عذرا لها فيما قالته في صفية، رضي الله عنها.

وعن معاذ بن جبل، قال: «كنت مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في سفر، فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني من النار، قال: (لقد سألتَ عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم شهر رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير: الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم قرأ: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ} [السجدة: ١٦]، ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر وعموده، وذروة سنامه؟) فقلت: بلى يا رسول الله، قال: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد)، ثم قال: (ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟)، قلت: بلى يا رسول الله. فأخذ بلسانه، فقال: (كفّ عليك هذا)، فقلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: (ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يَكُبُّ الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم يوم القيامة إلا حصائدُ ألسنتهم) [رواه الترمذي].

إن كانت كلمة واحدة تلقي بصاحبها في النار فكيف بمجالس لا حديث فيها إلا عن فلان أو فلانة؟

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا، يهوي بها سبعين خريفا في النار)، ولفظ (الرجل) هنا لا يعني أن المعنيين بالخطاب الرجال فحسب، بل المرأة كذلك يشملها هذا الحديث وهذا الوعيد، وإن كانت كلمة تفعل بصاحبها هذا الفعل، فكيف بكلمات وكلمات، بل كيف بمجالس تدوم لساعات وساعات، لا حديث فيها إلا عن فلان أو فلانة.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه) [رواه مسلم]، نعم عرضه الذي لا ترقب فيه المغتابة إلاّ ولا ذمة، فنجد الواحدة من النساء رقيقات الدين تلوك في عرض أختها المسلمة دونما خوف أو رادع لها.

ويحك يا مسلمة، أما بلغك حديث نبيك -صلى الله عليه وسلم- إذ يقول: (لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم) [رواه أبو داود]، نعم هذا حال الواقعين في أعراض المسلمين في الآخرة والعياذ بالله، أم حسب المغتابون أنهم لا يُسألون؟!

وعن ابن عمر -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (من قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال) [رواه أبو داود].

أتدرين ما ردغة الخبال يا مسلمة؟ قال ابن الأثير: «جاء تفسيرها في الحديث أنها عصارة أهل النار، والردغة، بسكون الدال وفتحها: طين ووحل كثير».

روي أن الإمام ابن سيرين -رحمه الله تعالى- ذكر رجلا فقال: «ذاك الرجل الأسود»، فخاف وجزع ثم استدرك: «أستغفر الله، إني أراني قد اغتبته»!

فلتحذر المسلمة من هول يوم عظيم، فالله -تبارك وتعالى- قد يغفر لك ما كان في حقه عليك من تقصير أو تفريط، أما حقوق عبيده الذين تعديت عليهم فلن يغفرها حتى يعفوا هم عنك، ولتعلمي أن مجالسك الدنيوية ستكون يوم القيامة شاهدة عليك، وجهاز الهاتف الذي تقضي به بعضُ المسلمات الأوقات الطوال، تذكر أختا لها مسلمة بسوء أو شر، هو أيضا سيأتي يوم الحساب شاهدا عليك، ولا تظني يا مسلمة أن دعاء كفارة المجلس الذي تلهج به المغتابة بعد الانتهاء من أكل لحم أختها، أو قول: «غفر الله لنا ولها»، سينجيك بين يدي الحسيب، لأن كفارة المجلس والدعاء المجرد لا ينفعان صاحبهما إن لم تؤدَّ الحقوق إلى أصحابها ويتوب المرء توبة صادقة.

لتعلم من يبلغها من أختها شرّ في حقها أن من نقلت لها ستنقل عنها حتما، هكذا هي معادلة النمامين!

أما النميمة وما أدراك ما النميمة، فتلك أمرها أشد وأعظم من الغيبة، وهي -كما عرّفها أهل العلم- نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد بينهم، وقد ذم الله -عز وجل- النمّامين في محكم التنزيل فقال تعالى: {وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ} [القلم: ١٠-١١]، وقال النبي، صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة قتّات) [متفق عليه]، والقتّات النمّام الذي ينقل الكلام بين الناس بغية الإفساد وإحداث فتنة، وما أبغض هذا الخُلُق وأسوأه، وكيف يطيب عيشه وينام ليله من كان هذا طبعه؟

وعن يحيى بن أبي كثير -رحمه الله- قال: «النمّام يفسد في ساعة ما لا يفسد الساحر في شهر» [الآداب للبيهقي].

وبعض النسوة لهن أكثر من وجه، فتجد إحداهن تأتي هذه بوجه والأخرى بوجه، وقد روى الشيخان من حديث أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه، ويأتي هؤلاء بوجه)، وما تكاد النمّامة تسمع من مسلمة كلمة في حق أخت لها، حتى تطير بها إليها زاعمة أن ذلك من المحبة والإخلاص، كذبت والله، فهذا من إفساد ذات البين، فما تنقل المُحِبَّة لأختها ما يكدّرها وينزغ بينها وبين مسلمة، وما تمشي من تخشى الله واليوم الآخر بوقيعة بين المسلمين، فلتحذر المسلمة من أن تكون من الفاسقات، إن هي سلكت سبيل المشّائين بنميم إذ يقول الله، عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ} [الحجرات: ٦].

والنميمة من موجبات عذاب القبر، فعن ابن عباس قال: «مرّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على قبرين، فقال: (أما إنهما ليُعذَّبان وما يُعذَّبان في كبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله)» [متفق عليه].

ولتعلم من يبلغها من أختها شرّ في حقها أن من نقلت لها ستنقل عنها حتما، هكذا هي معادلة النمامين! وعليها أن تردّها وتنهرها وتقبّح صنيعها وتذكّرها بالله وشديد عقابه علّها تنزجر وتتعظ.

وأخيرا: حذار حذار يا أَمَة الله من أن تأتي يا مسلمة يوم القيامة مفلسة من الحسنات التي كنت تجمعينها بصلاتك وزكاتك وقراءتك القرآن وتحريضك وهجرتك... إلخ، روى مسلم عن أبي هريرة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أتدرون من المفلس؟) قالوا: «المفلس فينا يا رسول الله، من لا درهم له، ولا متاع»، قال: (المفلس من أمتي يوم القيامة من يأتي بصلاة، وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم عرض هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وضرب هذا، فيقعد فيقتص هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته، قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم، فطرح عليه، ثم طرح في النار).

وحريّ بالمسلمة مريدة الآخرة أن تجعل من بيتها منارة من منارات الهدى، ومن مجالسها شعلة من مشاعل الإيمان، فلا تقومنّ من مجلس كمن تقوم من على جثة حمار، لحديث النبي، صلى الله عليه وسلم: (ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه، إلا قاموا عن مثل جيفة حمار وكان لهم حسرة) [رواه أبو داود].

كما عليها أن تختار لنفسها صحبة صالحة تعينها على أمر الآخرة، فيجتهدن لتعلم أمر دينهن والسؤال عما ينفعهن.

الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح

ينظر كثير من المسلمين إلى النصر والهزيمة على أنَّهما معياران لصحة المنهج أو بطلانه ولا ينظران إليهما في السياق العام للمعركة بين الحق والباطل، التي يُمحِّص الله فيها أهل الإيمان ثم تكون العاقبة لهم بإذن الله، ويتناسون أنَّ الثبات على المبدأ وصلابة العزم على مواصلة قتال أعداء الله هما من معايير النصر الحقيقية إن توفرت في الجماعة المؤمنة، وهذه غزوة أحد وما بعدها خير شاهد، فحين كثر القتل والجراحات في صفوف المسلمين وأعلنت قريش بعد ذلك انتصارها وأشاعت أنها ستغزو المسلمين من جديد حتى تبيدَ خضراءهم، لم توهن هذه الإشاعات صلابة عزيمتهم ونهض المسلمون من جراحهم عازمين على إعادة الكرّة مع قريش، فلم تكن الابتلاءات دليلا على بطلان المنهج بل كانت صقلا وتمحيصا، وكان موقفهم من حشد قريش الجديد هو النصر بحد ذاته.

فبعد أن عصى الرماة في الجبل أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فنزلوا منه رغبة في جمع الغنائم تاركين ثغرةً تَسلَّل منها المشركون فأمعنوا في جيش المسلمين قتلا وإصابة حتى قُتل من الصحابة -رضي الله عنهم- سبعون، من بينهم أسد الله حمزة بن عبد المطلب، رضي الله عنه، وبينما يلملم المسلمون جراحهم جاءتهم الأخبار أنَّ قريشاً تحشد من جديد مستغلة ما حققته يوم أحد.

بعد انتصار قريش في غزوة أحد عزموا أن يجددوا الهجوم على المسلمين ليستأصلوهم تماما

ذكر ابن كثير في السيرة أنه «قدم رجل من أهل مكة على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فسأله عن أبي سفيان وأصحابه فقال: نازلتهم فسمعتهم يتلاومون ويقول بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئا أصبتم شوكة القوم وحدهم ثم تركتموهم ولم تبتروهم فقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم، فأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبهم أشد القرح بطلب العدو ليسمعوا بذلك وقال: (لا ينطلقن معي إلا من شهد القتال)، فقال عبد الله بن أُبي: أنا راكب معك! فقال: (لا)، فاستجابوا لله ولرسوله على الذي بهم من البلاء فانطلقوا، فقال الله في كتابه: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ}، قال: وطلب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- العدو حتى بلغ حمراء الأسد».

«وقال محمد بن إسحاق في مغازيه: وكان يومُ أُحُد يومَ السبت النصف من شوال، فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذَّن مؤذن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الناس بطلب العدو، وأذن مؤذنه: ألا يخرجن أحد إلا من حضر يومنا بالأمس... قال ابن إسحاق: فخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى انتهى إلى حمراء الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال، فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء...»، وكانت قريش بالروحاء، «فمرَّ بهم ركب من عبد القيس فقال: أين تريدون؟ قالوا: المدينة. قال: ولم؟ قالوا نريد الميرة. قال: فهل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة أرسلكم بها إليه وأحمل لكم إبلكم هذه غدا زبيباً بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم. قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، فمر الركب برسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل» [السيرة لابن كثير].

وقد كان قول المشركين هذا من باب الحرب الإعلامية ليوهنوا جيش المسلمين، إذ أنَّ قريشاً لما بلغها خروج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى حمراء الأسد عزمت على الرجوع إلى مكة، ولكن هذه الحرب الإعلامية لم تنفع مع المسلمين بل قالوا: «حسبنا الله ونعم الوكيل»، وقد سجلت آيات القرآن هذا الموقف العظيم، قال تعالى: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٧٢-١٧٥] ثم عاد المسلمون إلى المدينة بعد ذلك.

وقد حاول المنافقون واليهود كما هو حالهم في كل زمان ومكان أن يستغلوا هذا الموقف فقالت اليهود: «لو كان نبيا ما ظهروا عليه ولا أصيب منه ما أصيب، ولكنه طالب مُلك تكون له الدولة وعليه»، وقال المنافقون مثل قولهم، وقالوا للمسلمين: «لو كنتم أطعتمونا ما أصابكم الذين أصابوا منكم»،

استجاب المؤمنون لأمر الله ورسوله لهم بالخروج لقتال قريش رغم ما أصابهم من جراح

فأنزل الله القرآن في طاعة من أطاع ونفاق من نافق وتعزية للمسلمين -يعني فيمن قُتل منهم- فقال: {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [آل عمران: ١٢١].

فقد حكم اليهود على صحة منهج ودعوة بناءً على نتيجة معركة، كما هو حال أهل النفاق اليوم، الذين يغمزون ويلمزون إن انحاز مجاهدو الخلافة من مكان، بينما يخنسون إن حقق المجاهدون نصراً على أعدائهم في أكثر من مكان، متناسين أنَّ النصر هو بالثبات على المبدأ والعزم القوي على جهاد الأعداء وقبل ذلك التوحيد والقرآن الذي في صدور المجاهدين، الذين لا ينهزمون إلا إن انتُزع منهم، كما صرَّح بذلك الشيخ العدناني حفظه الله، وإن كان معيار الهزيمة كثرة القتل والجراح فلنا في رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أسوة حسنة يوم أحد ثم بئر معونة على رأس أربعة أشهر من أحد وقُتل فيها غدرا من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- القراء سبعون قارئا، رضي الله عنهم وتقبلهم، ثم سرية عاصم بن ثابت -رضي الله عنه- التي أفنيت عن آخرها وكانوا عشرة رجال من خيرة أصحاب النبي، صلى الله عليه وسلم، ووقع بعضهم أسيراً بيد قريش ثم قُتلوا.

وإن كان المعيار هو أخذ الأرض ومحاصرة المسلمين في معاقلهم فقد حوصر الرسول -صلى الله عليه وسلم- في معقله بالمدينة ولم يكن للمسلمين يومئذ دار غيرها، وواجه المسلمون هذا التحالف العربي اليهودي من قريش وغطفان واليهود في أكثر من عشرة آلاف مقاتل، وواجهوه بعزم وثبات كان لهم نصراً حققوه قبل بداية المعركة يوم الأحزاب في شوال سنة خمس من الهجرة.

قال تعالى: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [الأحزاب: ٢٢]، وفي ظل هذه الشدة وهذا التمحيص نجم النفاق مرة أخرى، وأظهر المنافقون ما كانوا يسرون في قلوبهم.

قال ابن كثير في السيرة: «ونجم النفاق حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط!».

وهنا أيضا ترى النظرة القاصرة للحدث إذ رأوا بعين غفلتهم أنَّ الأمور قد حُسمت والدائرة للمشركين، فماذا بعد أن يُحاصر معقل المسلمين في المدينة بأكثر من عشرة آلاف مقاتل؟ ومن ذا الذي يقدر على هزيمتهم؟ وهو ذات الحكم الذي استنبطوه يوم أحد، متناسين مرة أخرى أو متجاهلين وعد الله بأن العاقبة للمتقين، وفعلا كانت هذه الحملة آخر حملات قريش، وبعدها بثلاث سنين كان فتح مكة ودخل الناس في دين الله أفواجا، فهذه هي حسابات النصر وهذه هي معاييره كما في سيرة خير البشر، صلى الله عليه وسلم، وجنود الخلافة اليوم يسيرون على المنهاج ذاته والعاقبة والنصر لهم -بإذن الله تعالى- مهما كثرت الجراح، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.



رسالة الشيخ محمد بن عبد الوهّاب للموحدين

من محمد بن عبد الوهّاب، إلى من يصل إليه من الإخوان المؤمنين بآيات الله، المصدّقين لرسول الله، التابعين للسواد الأعظم من أصحاب رسول الله، والتابعين لهم بإحسان، وأهل العلم والإيمان، المتمسكين بالدين القيم عند فساد الزمان، الصابرين على الغربة والامتحان، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد: فإن الله سبحانه بعث نبيكم –صلى الله عليه وسلم– على حين فترة من الرسل، وأهل الأرض من المشرق إلى المغرب، قد خرجوا عن ملة إبراهيم، وأقبلوا على الشرك بالله، إلا بقايا من أهل الكتاب، فلما دعا إلى الله، ارتاع أهل الأرض من دعوته، وعادَوْه كلهم، جُهّالهم وأهل الكتاب، عبّادهم وفسّاقهم، ولم يتبعه على دينه إلا أبو بكر الصديق، وبلال وأهل بيته –صلى الله عليه وسلم– خديجة وأولادها، ومولاه زيد بن حارثة، وعلي، رضي الله عنه.

قال عمرو بن عبسة: لما أتيت النبي –صلى الله عليه وسلم– بمكة قلت: ما أنت؟ قال: نبي. قلت: وما نبي؟ قال: أرسلني الله. قلت: بأي شيء أرسلك؟ قال: بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يُعبد الله لا يُشرك به شيء. قلت: من معك على هذا؟ قال: حر وعبد. ومعه يومئذ أبو بكر، وبلال.

فهذا صيغة بُدوّ الإسلام وعداوة الخاص والعام له، وكونه في غاية الغربة، ثم قد صح عنه –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: (بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ) فمن تأمل هذا وفهمه، زالت عنه شبهات شياطين الإنس، الذين يجلبون على من آمن برسول الله –صلى الله عليه وسلم– بخيل الشيطان ورجله.

اصبروا يا إخواني، واحمدوا الله على ما أعطاكم، من معرفة الله سبحانه، ومعرفة حقه على عباده، ومعرفة ملة أبيكم إبراهيم

فاصبروا يا إخواني، واحمدوا الله على ما أعطاكم، من معرفة الله سبحانه، ومعرفة حقه على عباده، ومعرفة ملة أبيكم إبراهيم، في هذا الزمان التي أكثرُ الناس منكر لها، واضْرعوا إلى الله أن يزيدكم إيمانا ويقينا وعلما، وأن يثبت قلوبكم على دينه، وقولوا كما قال الصالحون، الذين أثنى الله عليهم في كتابه: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} [سورة آل عمران: ٨]

واعلموا أن الله سبحانه، قد جعل للهداية والثبات أسبابا، كما جعل للضلال والزيغ أسبابا؛ فمن ذلك: أن الله سبحانه أنزل الكتاب، وأرسل الرسول، ليبين للناس ما اختلفوا فيه، كما قال تعالى: {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [سورة النحل: ٦٤] فبإنزال الكتب، وإرسال الرسول، قطع العذر، وأقام الحجة، كما قال تعالى: {لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [سورة النساء: ١٦٥].

فلا تغفلوا عن طلب التوحيد وتعلمه، واستعمال كتاب الله وإجالة الفكر فيه، وقد سمعتم من كتاب الله ما فيه عبرة، مثل قولهم: نحن موحدون، نعلم أن الله هو النافع الضار، وأن الأنبياء وغيرهم لا يملكون نفعا ولا ضرا، لكن نريد الشفاعة، وسمعتم ما بيّن الله في كتابه، في جواب هذا، وما ذكر أهل التفسير وأهل العلم، وسمعتم قول المشركين: الشرك عبادة الأصنام، وأما الصالحون فلا، وسمعتم قولهم: لا نريد إلا من الله، لكن نريد بجاههم*، وسمعتم ما ذكر الله في جواب هذا كله.

وقد منّ الله عليكم بإقرار علماء المشركين بهذا كله، سمعتم إقرارهم أن هذا الذي يفعل في الحرمين، والبصرة، والعراق، واليمن، أن هذا شرك بالله، فأقروا لكم أن هذا الدين الذي ينصرون أهله، ويزعمون أنهم السواد الأعظم، أقروا لكم أن دينهم هو الشرك.

وأقروا لكم أيضا أن التوحيد الذي يسعون في إطفائه، وفي قتل أهله وحبسهم، أنه دين الله ورسوله، وهذا الإقرار منهم على أنفسهم، من أعظم آيات الله، ومن أعظم نعم الله عليكم، ولا يبقى شبهة مع هذا إلا للقلب الميت، الذي طبع الله عليه، وذلك لا حيلة فيه.

ولكنهم يجادلونكم اليوم بشبهة واحدة، فأصغوا لجوابها، وذلك أنهم يقولون: كل هذا حق، نشهد أنه دين الله ورسوله، إلا التكفير والقتال، والعجب ممن يخفى عليه جواب هذا!! إذا أقرّوا أن هذا دين الله ورسوله، كيف لا يكفر من أنكره وقتل من أمر به وحبسهم، كيف لا يكفر من أمر بحبسهم؟! كيف لا يكفر من جاء إلى أهل الشرك، يحثهم على لزوم دينهم وتزيينه لهم؟! ويحثهم على قتل الموحدين، وأخذ مالهم، كيف لا يكفر، وهو يشهد أن هذا الذي يحث عليه، أن الرسول –صلى الله عليه وسلم– أنكره ونهى عنه؟! وسماه الشرك بالله، ويشهد أن هذا الذي يبغضه، ويبغض أهله، ويأمر المشركين بقتلهم، هو دين الله ورسوله!

اعلموا أن الأدلة على تكفير المسلم الصالح إذا أشرك بالله، أو صار مع المشركين على الموحدين ولو لم يشرك، أكثر من أن تحصر

واعلموا أن الأدلة على تكفير المسلم الصالح إذا أشرك بالله، أو صار مع المشركين على الموحدين ولو لم يشرك، أكثر من أن تحصر، من كلام الله، وكلام رسوله، وكلام أهل العلم كلهم.

وأنا أذكر لكم آية من كتاب الله، أجمع أهل العلم على تفسيرها، وأنها في المسلمين، وأن من فعل ذلك فهو كافر في أي زمان كان، قال تعالى: {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ} [سورة النحل: ١٠٦] إلى آخر الآية وفيها: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ} [سورة النحل: ١٠٧] ؛ فإذا كان العلماء ذكروا أنها نزلت في الصحابة لما فتنهم أهل مكة، وذكروا: أن الصحابي إذا تكلم بكلام الشرك بلسانه، مع بغضه لذلك وعداوة أهله، لكن خوفا منهم، أنه كافر بعد إيمانه، فكيف بالموحد في زماننا، إذا تكلم في البصرة، أو الإحساء، أو مكة، أو غير ذلك خوفا منهم، لكن قبل الإكراه، وإذا كان هذا يكفر، فكيف بمن صار معهم، وسكن معهم، وصار من جملتهم؟! فكيف بمن أعانهم على شركهم، وزينه لهم؟ فكيف بمن أمر بقتل الموحدين، وحثهم على لزوم دينهم؟

فأنتم وفقكم الله تأملوا هذه الآية، وتأملوا من نزلت فيه، وتأملوا إجماع العلماء على تفسيرها، وتأملوا ما جرى بيننا وبين أعداء الله، نطلبهم دائما الرجوع إلى كتبهم التي بأيديهم، في مسألة التكفير والقتال، فلا يجيبوننا إلا بالشكوى عند الشيوخ، وأمثالهم، والله أسأل أن يوفقكم لدينه القيم، ويرزقكم الثبات عليه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* يقصد الشيخ بهم الذين يستشفعون بالأموات قائلين «يا فلان اشفع لي عند الله» ونحوه زاعمين أنهم يتقربون إلى الله بجاه الصالحين، وهذا هو عين شرك الجاهلية الأولى، قال تعالى: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ} [سورة الزمر: ٣].



وماذا بعد وداع رمضان؟

ها هو ضيفكم العزيز قد رحل، وشهركم الكريم قد أفل! فما أسرعَ انصرام لياليه وأيامه، وما أعجل انطواء صفحاته وأعماله! رحل الغالي آخذاً شغاف قلوبنا، رحل الحبيبُ تاركاً دموعاً على خدودنا! كيف لا تجري للمؤمن على فراقه دموع، وهو لا يدري هل بقي له في عمره إليه رجوع! فحريٌّ بقلوب الصائمين لهذا الشهر تحن، ومن ألم فراقه تئن!

سلام من الرحمن كل أوانِ على خير شهر قد مضى وزمانِ
سلام على شهر الصيام فإنه أمان من الرحمن كل أمانِ
لئن فنيت أيامك الغر بغتة فما الحزن من قلبي عليك بفانِ

مبارك عليكم إتمام رمضان، وتقبّل الله منكم صيامكم وقيامكم وصدقاتكم وتهجّدكم وسائر عباداتكم.
ولكن ألا يجدر بكم أن تتساءلوا: وماذا بعد وداع رمضان؟

ولعلّكم تشكرون

فأولاً عليكم أن تشكروا الله تعالى أن بلغكم رمضان ويسّر لكم إتمام صيامه وقيامه، فكم من محروم من هذه النعمة! ثم عليكم أن تحمدوه سبحانه وتشكروه وتكبروه كثيراً، لأنه أمركم بذلك فقال تعالى: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [سورة البقرة: ١٨٥].

قال ابن كثير: «وقوله: {وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ} أي: ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم، كما قال: {فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا}، وقال: {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ}، {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}...».

وقال ابن رجب: «لما كانت المغفرة والعتق كل منهما مرتباً على صيام رمضان وقيامه، أمر الله سبحانه وتعالى عند إكمال العدة بتكبيره وشكره، فقال: {وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} فشكر من أنعم على عباده بتوفيقهم للصيام وإعانتهم عليه ومغفرته لهم وعتقهم من النار أن يذكروه ويشكروه ويتقوه حق تقاته» [لطائف المعارف].

ربّنا تقبّل منّا...

ثم اسألوا الله ثانياً القبول واستغفروه من التقصير، فقد كان السلفُ الصالح –وهم خيرُ القرون– يجتهدون في إتمام العمل وإكماله وإتقانه في رمضان، ما لا يجتهدون في غيره، ومع ذلك كانوا يخافون أن يُردَّ ولا يُتقبل منهم! روي عن علي –رضي الله عنه– أنه قال: «كونوا لقبول العمل أشدّ اهتماماً منكم بالعمل»، وعن فضالة بن عبيد قال: «لأن أكون أعلم أن الله قد تقبل مني مثقال حبة من خردل أحب إليَّ من الدنيا وما فيها، لأن الله يقول: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}»، وقال مالك بن دينار: «الخوف على العمل أن لا يُتقبل أشد من العمل»، وقال ابن أبي رواد: «أدركتهم يجتهدون في العمل الصالح فإذا فعلوه وقع عليهم الهمُّ أيُقبل منهم أم لا؟!»

وخرج عمر بن عبد العزيز في يوم عيد فطر فقال في خطبته: «أيها الناس! إنكم صمتم لله ثلاثين يوماً وقمتم ثلاثين ليلة وخرجتم اليوم تطلبون من الله أن يتقبل منكم»، وكان بعض الصالحين يظهر عليه الحزن يوم عيد الفطر فيُقال له: إنه يوم فرح!

> **كان السلف يجتهدون في العمل الصالح فإذا فعلوه وقع عليهم الهمُّ أيُقبل منهم أم لا**

فيقول: «صدقتم، ولكني عبد أمرني مولاي أن أعمل له عملاً فلا أدري أيقبله مني أم لا؟!» [اللطائف]

نعم، أولئك السلف الصالح {الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} [سورة المؤمنون: ٥٧-٦١].

روى الترمذي عن أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها– أنها قالت: سألت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن هذه الآية {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ}: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ فقال، صلى الله عليه وسلم: (لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم) والحديثُ صحيح.

ومما قيل في تفسير الآية: «أي: هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله خائفون منه، وجلون من مكره بهم، لذا تراهم يعطون العطاء وهم خائفون ألا يتقبله الله منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الإعطاء» [تفسير ابن كثير].

أحبّ العمل إلى الله أدومه...

ومما يجب عليك بعد أن منَّ الله عليك بإتمام الشهر الفضيل الدوام على عباداتك التي كنت تتعبد بها في رمضان، من صيام وقيام وصدقات وقرآن وأذكار... إلخ، فحافظ على ما بدأتَ به كماً ونوعاً، فحافظ على الصلوات في أوقاتها وعلى سننها الراتبة وعلى الخشوع فيها وعلى التبكير إليها في المساجد... وحافظ على الصيام، فالذي شرَّع لك صيام رمضان هو سبحانه الذي شرَّع لك صيام داود –عليه السلام– وصيام ثلاثة أيام من الشهر وصيام الاثنين والخميس، ولْيكن صيامك –كما كنت في رمضان– صيام الظاهر والباطن، وحافظ على تلاوة القرآن وحفظه وتدبره والعمل به، ولا تهجر كتاب الله كما يفعل الكثير من الناس ما إن يهل هلال شوال! وهكذا مع سائر العبادات التي تعبّدتَ بها الله تعالى.

وقد حثَّ النبي –صلى الله عليه وسلم– على المداومة على العمل الصالح بعد رمضان، كما في قوله، عليه الصلاة والسلام: (من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر) [رواه مسلم]، فديمومة الصيام في شوال توصل المسلم بأجواء صيام رمضان، وعندما سألت عائشة –رضي الله عنها– رسول الله، صلى الله عليه وسلم: أي العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: (أدْوَمُه وإن قلّ) [رواه مسلم]، قال النووي: «وفيه الحث على المداومة على العمل، وأن قليله الدائم خير من كثير ينقطع، وإنما كان القليل الدائم خيراً من الكثير المنقطع، لأن بدوام القليل تدوم الطاعة والذكر والمراقبة والنية والإخلاص والإقبال على الخالق سبحانه وتعالى، ويثمر القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافاً كثيرة» [شرح صحيح مسلم].

> **من علامات قبول الله تعالى لعباداتك في رمضان استمرارك عليها بنفس نشاطك**

واعبد ربّك حتى يأتيك اليقين

وإياك إياك أن تكون من عبّاد رمضان، الذين لا يعبدون الله حق عبادته إلا في رمضان! أوليسَ الله تعالى هو ربُّ رمضان وربُّ غيره من الشهور؟! قيل لبعض السلف: «إن قوماً يتعبدون ويجتهدون في رمضان»، فقال: «بئس القوم لا يعرفون لله حقاً إلا في شهر رمضان! إن الصالح الذي يتعبد ويجتهد السنة كلها» [اللطائف].

وهل ضمنت –عبد الله– أن الله تعالى قد تقبل منك رمضان وأنك ستموت على ما أنت عليه؟! ألم تسمع قوله تعالى: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}، وقد قيل في تفسيرها: «واعبد ربك حتى يأتيك الموت، الذي هو مُوقَن به» [تفسير الطبري].

وقوله تعالى: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ}، وقد قيل في تفسيرها: «إن الله تعالى، أمر نبيّه أن يجعل فراغه من كلّ ما كان به مشتغلا من أمر دنياه وآخرته، مما أدّى له الشغل به، وأمره بالشغل به إلى النصب في عبادته، والاشتغال فيما قرّبه إليه، ومسألته حاجاته، ولم يخصص بذلك حالا من أحوال فراغه دون حال، فسواء كلّ أحوال فراغه، من صلاة كان فراغه، أو جهاد، أو أمر دنيا كان به مشتغلا... وقوله: {وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ} يقول تعالى ذكره: وإلى ربك يا محمد فاجعل رغبتك، دون من سواه من خلقه» [تفسير الطبري].

واعلم –يا من أتممت عبادات رمضان– أنَّ من علامات قبول الله تعالى لعباداتك في رمضان، استمرارك عليها بنفس نشاطك، فدليل قبول الطاعة أن توصل لطاعة بعدها، وعلامة ردها أن توصل بمعصية بعدها، فالحسنة تقول لأختها تعالي، والسيئة كذلك، فانظر حالك وقيِّم نفسك، ولا تكن {كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا}، ولا تكن من الخَلَف الذين {أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ}.

وأخيراً نختم بنصيحة غالية لمن قصَّر في عبادة رمضان، ونقول له: احذر –أخي المسلم– أشد الحذر من الشيطان أن يعدك ويمنيك بأنَّ رمضان قد فات وانقضت أيامه، وأنك ستعوض ما فاتك في رمضان المقبل! فإنَّ هذا من تلبيس إبليس اللعين بالتسويف والمماطلة في العبادة، والأجدر بك أن تبادر فوراً بالتوبة والإنابة وتُقبل على عبادة الله وتستغفره لما فرطت في جنبه سبحانه، أما انتظارك أحد عشر شهراً لكي تتوب فإنَّ هذه لحياة طويلة، ما أنت ولا أي أحد يضمن إدراكها! كما أنَّ تسويفك هذا العام سيتكرر العام القادم! فكم من أناس عاهدوا الله أن يفعلوا كذا وكذا إذا حلَّ رمضان، وإذا بهم يدخل عليهم الشهر ويخرج ولم يفعلوا شيئاً مما عاهدوا الله عليه! فاحذر أخي أشد الحذر من هذا المرض الـمُهلك، وبادر بالتوبة وحسن العبادة من شوال، نسأل الله تعالى أن يبلغك رمضان المقبل فتري الله منك ما يسرّ.

والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيّتها

حريّ بكلّ أمٍّ أنعم الله عليها بنعمة الإنجاب في ربوع دولة الإسلام، أن تستغل هذا الفضل العظيم الذي آتاها الله تعالى دون غيرها من النساء، فتسعى جاهدة لتنشئة أبنائها تنشئة ترضي بها ربها وتنفع بها أمتها، كيف لا؟ وهي الأم المنجبة والحاضنة والمربية، بينما الرجال الآباء هم بين عمل ورباط.

فعن عبد الله بن عمر، قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده ومسؤول عن رعيته) [متفق عليه].

وقد عرّف أهل العلم الراعي على أنه الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما اؤتمن على حفظه، فهو مطلوب بالعدل فيه، والقيام بمصالحه، ومسؤول هل قام بما يجب لرعيته أو لا.

وعندما يقول النبي، صلى الله عليه وسلم: (والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها)، فهذا تكليف عظيم وأمانة كبيرة قد وُسِّدت للمرأة المسلمة، فيها من الأجر والثواب ما فيها، إن هي أدت ما عليها في حق رعيتها وهم الأبناء، وفيها من الحساب والعقاب ما فيها، إن هي ضيّعت هذه الأمانة وفرطت في حق رعيتها.

قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} [سورة التحريم: ٦]، وقال ابن عمر -رضي الله عنهما- لرجل: «أدِّب ابنك، فإنك مسؤول عن ولدك، ماذا أدّبته، وماذا علمته، وإنه مسؤول عن برّك وطواعيته لك» [رواه البيهقي].

الابتداء بالتوحيد

وإن أول ما على الأم المسلمة تنشئة الأطفال عليه عند أول نطقهم، تلقينهم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ومعناها، ومما يروى عن علي بن الحسين -رحمه الله- أنه كان يعلم ولده ويقول: (قل آمنت بالله وكفرت بالطاغوت) [رواه ابن أبي شيبة]، وكذلك تلقن الأم طفلها الأصول الثلاثة: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ وأيضا سؤال الطفل: أين الله؟ وما هو القرآن؟ ومثل هذه الأسئلة التي تضع أسسا للعقيدة السليمة والتوحيد الصافي في نفس الطفل.

ومن أجمل ما قد يتعلمه الطفل معية الله -سبحانه وتعالى- لعبيده، فيتعلم الخشية من الله -عز وجل- ويعظم شأن الخالق في نفسه، ويتحسس مراقبته له في سره وعلانيته، وهذا عبد الله التستري -رحمه الله- كان وهو طفل يردد قبل أن ينام: (الله شاهدي، الله ناظري، الله معي) [رواه ابن أبي شيبة].

صلاح الأم سبب لإصلاح أبنائها

وعلى الأم المربية المعلمة القدوة أن تصلح من نفسها حتى تنجح في إصلاح رعيتها في بيتها، فإن صلاح الرعية من صلاح الراعي، وصلاح الأبناء من صلاح الأم.

وقد روى ابن أبي الدنيا أن عتبة بن أبي سفيان قال لمؤدِّب ولده: «أبا عبد الصمد، ليكن أول إصلاحك بَنِيَّ إصلاحك نفسك؛ فإن عيوبهم معقودة بعيبك، الحسن عندهم ما صنعت والقبيح عندهم ما استقبحت» [النفقة على العيال].

التربية على الزهد والخشونة

كما ويجدر بالأم المسلمة أن تزرع في نفوس أبنائها أن هذه الدنيا دار سفر، وأن الآخرة هي دار القرار، والله -عز وجل- يقول على لسان مؤمن آل فرعون: {يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ} [سورة غافر: ٣٩]، وهكذا يزهد هؤلاء الناشئة في هذه الدنيا الفانية فتهون عليهم وتعظم في أعينهم الآخرة، بتربية أمهم لهم على شظف العيش وشيء من الخشونة، وإرضاعهم معنى الزهد، وأن هذه النعم التي تنتعم بها لزوّالة، وليس أفضل في مثل هذا من سيرة إمام الزاهدين -صلى الله عليه وسلم- فعن عروة عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: «إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقدت في أبيات رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نار!» فقلت: «يا خالة ما كان يعيشكم؟» قالت: «الأسودان التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- جيران من الأنصار كانت لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من ألبانهم فيسقينا» [متفق عليه].

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا) [متفق عليه]؛ قال ابن حجر: «(قوتا): أي اكفهم من القوت بما لا يرهقهم إلى ذل المسألة ولا يكون فيه فضول تبعث على الترفه والتبسط في الدنيا» [فتح الباري].

نعم هذا ما سأله النبي -صلى الله عليه وسلم- لآل بيته رغم أن جبريل -عليه السلام- قد أتاه بمفاتيح خزائن الأرض ولكنه -صلى الله عليه وسلم- زهد فيها، وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: «ما شبع آل محمد -صلى الله عليه وسلم- من طعام ثلاثة أيام حتى قُبض» [رواه البخاري]، وها هو النبي -صلى الله عليه وسلم- حبيب الحق وصفيه وخير خلقه ينام على الحصير حتى تدمي جنبه ويراه عمر -رضي الله عنه- فيبكي لذلك، فيقول له النبي: (ما يبكيك؟) فيقول: يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله، فقال: (أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة) [متفق عليه].

هكذا كان حال نبينا -صلوات ربنا وسلامه عليه- في هذه الدنيا، وعلى مثل هذا يجب أن يتربى جيل الخلافة، فيَنشأ جيلاً صلباً خشناً قد عركته الحياة وشدت عوده، ويتهيأ بذلك لحمل الأمانة وأخذ الراية والاستخلاف في الأرض، عن أبي عثمان النهدي، قال: «أتانا كتاب عمر بن الخطاب: اخشوشنوا، واخشوشبوا، واخلولقوا، وتمعددوا كأنكم معد، وإياكم والتنعم، وزي العجم» [رواه الطحاوي في «شرح معاني الآثار»].

التربية على حب القتال في سبيل الله

ومن أعظم نعم الله على الأشبال في أرض الخلافة، التي على الأم استشعارها وحسن استغلالها وشكر الله تعالى عليها، أن ينشأ أبناؤها في كنف بيت أب مجاهد، فيكبرون وقد اعتادت أعينهم الصغيرة على رؤية السلاح من بنادق وجعب ورصاص وقنابل وأحزمة ناسفة، كما وأن متابعة إصدارات المجاهدين وأخبارهم المقروءة والمسموعة، تنمي لدى الشبل حب الجهاد وأهله وبغض من عاداهم، وقد تسمع الأم لوماً من بعض الناس على طريقة تربيتها لأبنائها، متحججين بأن هذا قد يقتل طفولتهم ويميت براءتهم، ولمثل هؤلاء نقول؛ أخرج أبو يعلى بإسناد جيد عن أبي هريرة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: كان الحسن والحسين -عليهما السلام- يصطرعان بين يدي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (هَيَّ حسن) ، فقالت فاطمة، رضي الله عنها: يا رسول الله، لم تقول: (هَيَّ حسن)؟ فقال: (إن جبريل عليه السلام يقول: هَيَّ حسين).

وأخرج البخاري في صحيحه عن عبد الرحمن بن عوف أنه قال: «إني لواقف يوم بدر في الصف، نظرت عن يميني وعن شمالي، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، تمنيت لو كنت بين أضلع منهما، فغمزني أحدهما فقال: يا عم، هل تعرف أبا جهل؟ قال: قلت: نعم، وما حاجتك يا ابني أخي؟ قال: بلغني أنه سب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والذي نفسي بيده لو رأيته لم يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، قال: فغمزني الآخر فقال لي مثلها، قال: فتعجبت لذلك، قال: فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، فقلت لهما: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه، فابتدراه، فاستقبلهما، فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأخبراه، فقال: (أيكما قتله؟) فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، قال: (هل مسحتما سيفيكما؟) قالا: لا، فنظر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في السيفين فقال: (كلاكما قتله)».

وجاء في البداية والنهاية: «عن هشام بن عروة قال: إن أول ما فصح به عبد الله بن الزبير وهو صغير السيف السيف، فكان لا يضعه من فيه، وكان الزبير إذا سمع ذلك منه يقول له: أما والله ليكونن لك منه يوم ويوم وأيام».

وعن عروة بن الزبير أن الزبير أركب ولده عبد الله يوم اليرموك فرسا وهو ابن عشر سنين ووكل به رجلا [رواه البخاري].

الحرص على اللسان العربي

وحبذا لو تحرص الأم المسلمة أن تحافظ على عروبة لسان أبنائها، وتقويمه من اللحن، فإن لم يكونوا من العرب فتسعى إلى تعليمهم اللسان العربي، ليتعلموا أمر دينهم، ويختلطوا بجماعة المسلمين، وقد روى الخطيب البغدادي أن عليا وابن عباس وابن عمر -رضي الله عنهم- كانوا يضربون أبناءهم على اللحن

أيُّها المُجاهد جدّد النيَّة وأخلِص الطويَّة

إن الجهاد في سبيل الله هو أحب الأعمال إليه سبحانه، وهو ذروة سنام الدين، وقد بشّر ذو الجلال والإكرام عباده المجاهدين في سبيله بأن لهم أعلى الدرجات.
وكذلك فإن الجهاد هو من أخطر ما يعمله المؤمن في حياته من الأعمال، نظرا لأنه يخاطر بحياته لإرضاء ربّه ذي الجلال والإكرام، ومن فقد حياته لم يعد لديه الفرصة ليصلح ما فسد، أو يجدّد ما بلي.
ولهذا وذاك كان من الواجب على المجاهد أن يحرص على ثمرة جهاده، فلا تضيع هباء، أو يجد ما ظنه مجلبة للثواب وقد تحول إلى أوزار يحملها يوم القيامة.

ومن أهم الأسس التي تنبني عليها الأعمال كلها، وتتحقق بها الأجور، ويزيد الله فيها الحسنات، باب النية.

فإخلاص النية، بأن يكون العمل خالصا لوجه الله تعالى، هو أحد شرطي قبول العمل عند الله، إذ لا يقبل الله عملا قُصد به غيره، فضلا أن يكون العمل مغضبا له سبحانه.

ففي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- أنه قال: جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) وفي رواية أن الرجل سأل رسول الله، صلى الله عليه وسلم: ما القتال في سبيل الله، فإن أحدنا يقاتل غضبا، ويقاتل حمية؟ فقال له، صلى الله عليه وسلم: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل).

واعلم أخي في الله، أن آثار إخلاص النية في الجهاد في سبيل الله أكثر من أن تحصى، وثمراته أعظم من أن تحصر، وأبرزها:

أولا: قبول العمل

الجهاد عبادة، ولا بد لها من شرط الإخلاص لتُقبل، فلن تقبل إلا إذا كانت خالصة لوجهه سبحانه، كما قال جل في علاه: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ} [سورة البينة: ٥]، وعن أبي أمامة -رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر، ما له؟ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (لا شيء له) فأعادها الرجل ثلاث مرات، ورسول الله يقول له: (لا شيء له) ثم قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا، وابتغي به وجهه) [رواه أبو داود والنسائي وحسّنه الحافظ العراقي والمنذري].

قال ابن القيم: «والأعمال أربعة: واحد مقبول، وثلاثة مردودة؛ فالمقبول ما كان لله خالصا وللسنة موافقا، والمردود ما فُقد منه الوصفان أو أحدهما» [إعلام الموقعين].

ثانيا: التوفيق والسداد

قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [سورة العنكبوت: ٦٩] فحددت الآية أوّلاً طريق الجهاد {جَاهَدُوا فِينَا} فلم يقل سبحانه {جَاهَدُوا} فحسب، وإنما وصف سبحانه المجاهدة التي تترتب عليها الهداية بأنها المجاهدة الخالصة لوجهه تعالى {فِينَا}.

قال السعدي في تعليقه على هذه الآية: «دل هذا على أن أحرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد، وعلى أن من أحسن فيما أمر به، أعانه الله ويسر له أسباب الهداية» [تيسير الكريم الرحمن].

ثالثا: دخول جنات النعيم

قال تعالى: {إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [سورة الصافات: ٤٠-٤٣]، «قرأ أهل المدينة والكوفة بفتح اللام {الْمُخْلَصِينَ}، أي: الذين أخلصهم الله لطاعته وتوحيده، وقرأ الباقون بكسرها، أي: الذين أخلصوا لله العبادة والتوحيد» [فتح القدير للشوكاني]

رابعا: الحفظ من كيد الشيطان

قال تعالى: {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [سورة الحجر: ٣٩-٤٠]، وقال سبحانه عن نبيه الكريم يوسف الصديق، عليه السلام: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [سورة يوسف: ٢٤].



خامسا: سبب للنصر والتمكين

عن سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها؛ بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم) [رواه النسائي بسند صحيح].

قال المنذري: «ومعناه أن عبادة الضعفاء ودعاءهم أشد إخلاصا لخلاء قلوبهم من التعلق بزخرف الدنيا، وجعلوا همهم واحدا، فأجيب دعاؤهم وزكت أعمالهم» [عون المعبود].

فيا من تتربصون النصر على الحلف الصليبي القائم اليوم لقتال الدولة الإسلامية، عليكم بالإخلاص، عليكم بالإخلاص، ففيه الخلاص بإذن الله تعالى.

سادسا: نزول الفرج والنجاة من الكرب والعون في الشدة

وقد تعجب لو علمتَ أن الله تعالى يفرج عن المشرك بالإخلاص لو أخلص لله قليلا، مع أنه مشرك! فما ظنك بالمؤمن! قال تعالى: {وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ} [سورة لقمان: ٣٢].

فعلى المقاتلين في سبيل الله في جبهات القتال، والمرابطين في الثغور، وجنود الخلافة جميعا، إخلاص النية وتخليصها، ففيه الفرج القريب إن شاء الله.

سابعا: الشعور بالاطمئنان وسكينة الإيمان

قال تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} [سورة الفتح: ١٨]، قال الطبري في تفسيره: «وقوله: {فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ} يقول تعالى ذكره: فعلم ربك يا محمد ما في قلوب المؤمنين من أصحابك إذ يبايعونك تحت الشجرة، من صدق النية، والوفاء بما يبايعونك عليه، والصبر معك. يقول: فأنزل الطمأنينة، والثبات على ما هم عليه من دينهم وحسن بصيرتهم بالحق الذي هداهم الله له».

وقال ابن النحّاس في تفسيره: «{فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ} من الإخلاص»، وهذه الآية دليل على أن الله تعالى يثيب المخلص في الجهاد بالنصر والعون على الطاعة وتقوية الإيمان وغير ذلك من الثواب في الدنيا، فضلا عن ثواب الآخرة.

ومن هذا كله يتبين أهمية أن يجدد المجاهد نيته في كل وقت، ويحرص على إخلاص عمله لله سبحانه، فإذا ما وجد في نفسه غير ذلك بادر إلى التوبة والتصحيح، والله غفور رحيم.

فضائل وفوائد التبكير للصلوات في المساجد

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فقد حثَّ الحقُّ سبحانه عبادَه على المسارعة إلى مرضاته والتسابق في طاعته والتنافس على علو الدرجات، فقال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ}، وقال سبحانه: {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ}، وقال جلَّ جلاله: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ}، وقال تبارك وتعالى مادحاً أنبياءه ورسله: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ}، وقال صلى الله عليه وسلم: (بادروا بالأعمال) [رواه مسلم]، وقال صلى الله عليه وسلم: (اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك) [رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي].

وقد كان النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- خير الناس في الاجتهاد في العبادات وأحسنهم في المسارعة في الخيرات وأسبقهم في المنازل والدرجات، فقد قام الليل حتى تفطَّرت قدماه، وصام حتى قال الناس: ما يُفطر! وقاتل في سبيل الله حتى كان بعض الصحابة يحتمون به عند النزال إذا حمي الوطيس، ولم يُبقِ باباً من أبواب الخير والطاعة إلا واستبق فيه وسبق، صلوات الله وسلامه عليه.

ولعل من أهم أبواب الخير التي حثَّ الله تعالى الناس عليها وندبَ النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- أمته للمسارعة والتسابق فيها هو: التبكير إلى الصلوات، قال صلى الله عليه وسلم: (لو يعلمون ما في التهجير -وهو التبكير للصلاة في المسجد- لاستبقوا عليه) [رواه البخاري ومسلم]، فإنَّ للذهاب إلى المساجد مبكراً لأداء الصلوات المفروضة ثمراتٍ وفوائدَ وفضائلَ عظيمة، لعل أهمها:

١- منتظرُ الصلاة لا يزال في صلاة ما انتظرها، قال صلى الله عليه وسلم: (لا يزال أحدكم في صلاة ما دامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة) [متفق عليه]، وفي رواية للبخاري: (لا يزال العبد في صلاة ما كان في المسجد ينتظر الصلاة).

٢- الذي ينتظر الصلاة تصلي عليه الملائكة وتدعو له بالمغفرة والرحمة ما دام في مصلَّاه، قال صلى الله عليه وسلم: (الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه، ما لم يحدث، تقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه) [متفق عليه].

٣- انتظار الصلاة بعد الصلاة سببٌ في محو الخطايا ورفع الدرجات، قال صلى الله عليه وسلم: (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟) قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط) [رواه مسلم].

٤- في التبكير إلى المسجد ضمانٌ لإدراك صلاة الجماعة في المسجد التي هي أفضل من صلاة المنفرد في بيته بكثير، قال صلى الله عليه وسلم: (صلاةُ الجماعة تفضلُ صلاة الفذِّ بسبع وعشرين درجة) [متفق عليه].

٥- الـمُبكِّر إلى المسجد حريٌّ بأن يُدرك تكبيرة الإحرام مع الإمام، التي قال فيها النبيُّ صلى الله عليه وسلم: (من صلى لله أربعين يوماً في جماعة يُدرك التكبيرة الأولى كتبت له براءتان: براءة من النار وبراءة من النفاق) [حَسَن، رواه الترمذي].

قال عليه الصلاة والسلام: «لو يعلمون ما في التهجير -وهو التبكير للصلاة في المسجد- لاستبقوا عليه»

٦- الـمُبكِّر إلى المسجد أقربُ للفوز بالصف الأول، الذي قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: (لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلّا أن يستَهِموا عليه لاستَهَموا) [متفق عليه]، وفي التبكير إدراكٌ لميامن الصفوف التي قال عنها صلى الله عليه وسلم: (إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف) [حَسَن، رواه أبو داود].

٧- في التبكير حضور ما قد يكون من مجالس الذكر والعلم التي تُقام بين الصلوات، والتي قال فيها صلى الله عليه وسلم: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده) [رواه مسلم].

٨- في التبكير للصلوات الجهرية إدراكٌ للتأمين وراء الإمام، وفي فضل التأمين قال صلى الله عليه وسلم: (إذا قال الإمام: غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فقولوا: آمين، فإن من وافق قوله قول الملائكة غُفر له ما تقدم من ذنبه) [رواه البخاري]، وقال -صلى الله عليه وسلم- عن اليهود: (إنهم لا يحسدونا على شيء كما يحسدونا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام آمين) [صحيح، رواه أحمد].

٩- في المبادرة إلى المسجد فرصة لأداء النوافل المشروعة، كتحية المسجد والتطوُّع بين الأذان والإقامة التي سنَّها النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- بقوله: (بين كل أذانين صلاة، لمن شاء) [متفق عليه]، وغيرها من النوافل.

١٠- المبادرة إلى الصلاة دليل على تعلق القلب بالمسجد، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله) وذكر منهم: (ورجل معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه) [رواه البخاري ومسلم].

١١- التبكير إلى المسجد وانتظار إقامة الصلاة سببٌ في حضور القلب والخشوع في الصلاة، الذي بيَّن رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- أهميته ومكانته من الصلاة بقوله: (إن العبد لَيُصلي الصلاة وما يُكتب له منها إلا عشرها، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها) [صحيح، رواه أحمد وغيره].

١٢- المبكر إلى الصلاة يتسنَّى له تلاوة شيء من القرآن قبل الإقامة، وفي تلاوته فضل عظيم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ألم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف) [رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح].

١٣- المبكر إلى الصلاة يتمكن من الذكر والدعاء بين الأذان والإقامة، وهذا وقتٌ فاضل من أوقات استجابة الدعاء، قال صلى الله عليه وسلم: (لا يُردُّ الدعاء بين الأذان والإقامة) [رواه الترمذي وقال: حديثٌ حَسَن].

أقام يحيى بن سعيد عشرين سنة يختم القرآن في كل ليلة ولم يَفُتْه الزوال في المسجد أربعين سنة

١٤- من يأتي مبكراً يأتي إلى الصلاة بسكينة ووقار، بخلاف المتأخر فإنه غالباً ما يأتيها مستعجلاً مضطرباً، فعن أبي قتادة عن أبيه قال: بينما نحن نصلي مع النبي -صلى الله عليه وسلم- إذ سمع جَلَبَةَ رجال، فلما صلى قال: (ما شأنكم؟)، قالوا: استعجلنا إلى الصلاة، فقال (فلا تفعلوا، إذا أتيتم الصلاة فعليكم بالسكينة) [متفق عليه]، وفي رواية للبخاري: (فامشوا إلى الصلاة وعليكم بالسكينة والوقار ولا تُسرعوا).

هذه أهم فضائل التبكير إلى الصلوات، فضائلُ عرفها السلف الصالح حقَّ المعرفة، فنهلوا منها، وتسابقوا فيها، ومن يقرأ سيرهم العَطِرة يتعجَّب من علو همتهم وعظيم مسارعتهم!

قال ربيعة بن يزيد: «ما أذَّن المؤذن لصلاة الظهر منذ أربعين سنة إلا وأنا في المسجد، إلا أن أكون مريضاً أو مسافراً» [سير أعلام النبلاء].

وقال يحيى بن معين: «أقام يحيى بن سعيد عشرين سنة يختم القرآن في كل ليلة ولم يَفُتْه الزوال في المسجد أربعين سنة» [صفوة الصفوة].

وقال سعيد بن المسيب: «ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة، وما نظرت في قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة» [حلية الأولياء].

وقال وكيع: «كان الأعمش قريباً من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى» [تاريخ بغداد].

وقال ابن سماعة: «مكثت أربعين سنة لم تفتني التكبيرة الأولى إلا يوماً واحداً، ماتت فيه أمي» [الوافي بالوفيات].

وقال سفيان بن عيينة: «إن من توقير الصلاة أن تأتي قبل الإقامة»، وقد حث على السير إلى الصلاة قبل النداء لها، فقال: «لا تكن مثل عبد السوء لا يأتي حتى يدعى، ائت الصلاة قبل النداء» [حلية الأولياء].

وقال إبراهيم النخعي: «إذا رأيت الرجل يتهاون بالتكبيرة الأولى فاغسل يديك منه» [صفة الصفوة].

وقال سليمان بن حمزة المقدسي وقد قارب التسعين: «لم أصلِّ الفريضة منفرداً إلا مرتين وكأني لم أصلهما قط» [ذيل طبقات الحنابلة].

وقال محمد بن المبارك الصوري: «رأيتُ سعيد بن عبد العزيز إذا فاتته الصلاة في جماعة بكى» [تذكرة الحفاظ].

وقال حاتم الأصم: «فاتتني الصلاة في جماعة فعزَّاني فيها فلان ولم يعزني غيره، ولو مات لي ولد لعزاني مائة ألف، وما ذاك إلا أنَّ مصيبة الدين عند أهل الدين أعظم من مصيبة الدنيا» [المدخل لابن الحاج].

نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من السابقين للخيرات، المسارعين للطاعات، المبكرين للصلوات، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الجهاد رحمة

يستغرب الناس من شدة المجاهدين على الكافرين، والتنكيل بهم، ويظنون ذلك تشويها لما اعتقدوا أنه الإسلام، وهم بذلك كمن ينظر لوجه واحد من العملة النقدية فقط، وسبب ذلك الاستغراب هو بعد الناس عن فهم الإسلام الحق أولا، والصورة التي يحاول الطغاة رسمها عن الإسلام، حتى لا يمسهم لهيب الحق المُبطل لسحرهم وكذبهم ثانيا، وكان للإرجاء دور مهم في تصوير الإسلام بهذا الشكل، والذي بسببه استطالت الأمم عليه، فصوّرته نفوسهم الضعيفة الرقيقة وردة بلا أشواك، مخالفين بذلك النصوص الصريحة التي تبين أن الإسلام شديد على الكفار بشتى مللهم ورحيم بالمؤمنين، وكما أنه هداية للعالمين، وهم من حيث لا يعلمون يتهمون الله عز وجل بصفات ذموها لكن الله امتدحها، فهو شديد العقاب كما أنه غفور رحيم، تعالى عما يصفون علوا كبيرا.

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣].

وبعد أن شرع الله الجهاد وفرضه على عباده المؤمنين، أمرهم بقتال المشركين كافة حتى يكون الدين كله لله، فإن أبوا الإسلام بعد دعوتهم دفعوا الجزية وإن امتنعوا نالهم القتل والسبي والتشريد.

وإنه لأمر عجيب أن يغيب هذا المعنى الواضح لأحكام الجهاد عن المسلمين، وهو من المعاني البينة المحكمة، والأغرب من ذلك أن تغيب حكمة الجهاد العظيمة، فالجهاد الذي يكسر شوكة الكفار، ويُقتلُ به المقاتلة منهم (أي من يحملون السلاح ويقوون على القتال)، سيكون سببا لنجاة العدد الأكبر من نسائهم وذراريهم من النار، وتلكم هي الرحمة والرأفة بالعالمين، فتعذيب الكفار بالجهاد مطلب دلت عليه الآيات الواضحة البينة، منها قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].

ومما لا شك فيه أن العذاب الدنيوي الذي يقع على من كفر بالله قتلا وسبيا بسبب الجهاد أقل بكثير من عذاب النار الذي سينجو منه أغلبهم، إن هم آمنوا بعد زوال ظل الكفر من فوق رؤوسهم، ولو أنهم آمنوا واتقوا وتركوا شهواتهم الدنيوية لكان خيرا لهم، فما الله يريد ظلمهم، لكنهم هم من أبى إلا القتل في الدنيا والنار في الآخرة.

يعترض على هذا الفهم العميق والمبسط لرسالة التوحيد والإسلام من لم يُعَظِّم الله في نفسه، ولم يُسَرِّح طرفه في الملكوت، فظن نفسه حرا فيما يعتقد وفيما يختار، شابه في ذلك قول قوم شعيب.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

ومن ضئضئ هؤلاء خرجت أفكار حرية الاعتقاد وجواز الردة، تحت شعارات حقوق الإنسان وما شابهها من أفكار أشربت قلوب المنافقين بها، لذا كان القرآن في دعوته لرسالة الإسلام يدعو الناس للتفكر والتدبر في عظمة الخالق بالنظر إلى بديع صنعه وعجيب خلقه.

وقد انحرف كثير من المسلمين عن هذا النهج الواضح السهل، وطرحوا الإسلام بقالب أكاديمي جامد لا روح فيه، فغلبهم دعاة حرية الاعتقاد والكفر بالمنطق والجدل، ولو أنهم دعوا إلى الإسلام غضا طريا كما أُنزل على نبي الهدى والرحمة واستنّوا به وبهديه في دعوته، وكيف تلقى الصحابة الأطهار تلك الدعوة بإيمان وفهم يعظّم الخالق،



فيتواضع المخلوق أمام خالقه، لا ينازعه حقوقه وعبادته، لَمَا وجدنا لدعاة حرية الكفر صوتا يعلو وفكرا ينتشر.

وأما من أبى بعد ذلك وجعل نفسه ندا لله، فكما أغرق الله أسلافه من قبل، فستصيبه قارعة بأمر الله أو ستتبادره بإذن الله سيوف من آمن بالخالق عز وجل من بعد، حتى يكون الدين كله لله، فإن تمّ أخرجت الأرض بركتها إذ حُكمت بشريعة خالقها، لتعود على هيئتها يوم خلق الله آدم عليه السلام متوازنة ومتناغمة، جاء في الحديث: (ينزل عيسى ابن مريم إماما هاديا ومقسطا عادلا، فإذا نزل كَسَر الصليب، وقَتَل الخنزير، ووَضَع الجزية، وتكون الملة واحدة، ويوضع الأمر في الأرض، حتى أن الأسد ليكون مع البقر تحسبه ثورها، ويكون الذئب مع الغنم تحسبه كلبها، وترفع حُمَة كل ذات حُمَة حتى يضع الرجل يده على رأس الحَنَش فلا يضره، وحتى تُفِرَّ الجارية الأسد، كما يُفَرُّ ولد الكلب الصغير، ويُقوَّم الفرس العربي بعشرين درهما، ويُقوَّم الثور بكذا وكذا، وتعود الأرض كهيئتها على عهد آدم، ويكون القطف يعني العنقاد يأكل منه النفر ذو العدد، وتكون الرمانة يأكل منها النفر ذو العدد) [أخرجه الصنعاني].

فلا نجاة للبشرية جمعاء ولا فلاح إلا بالعودة إلى الكتاب الهادي والسيف الناصر، حتى يكون الناس عبيدا لله عز وجل لا سواه، فالفطرة التي جُبل عليها الخلق لا بد أن تعود لنحيا، فبدونها الشقاء والعناء وبها السعادة في الدارين بإذن الله.

الحسبة في الإسلام

مكانتها وفضيلتها



الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين، نبيّنا محمّدٍ وعلى آله الطّيبين وصحابته الأكرمين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين، أمّا بعد:

فقد بعث الله نبيّه محمّداً صلّى الله عليه وسلّم بخير دين وخير كتاب، وجعل أمّته خير أمّة بين الأمم، وخصّص هذه الخيريّة بمزيّة عظيمة فقال: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران: ١١٠]، وقد عرفت هذه الشّعيرة العظيمة في التّاريخ الإسلاميّ باسم الحِسبة.

فما هي الحِسبة؟ وما هي مكانتها في الشّريعة الإسلاميّة؟

وما فضيلتها وفوائدها؟ وما الآثار المترتّبة على تركها؟

• تعريف الحِسبة:

الحِسبة لغةً: بالكسر هو الأجر؛ تقول: فعلته حِسبةً؛ والاحتساب: طلب الأجر، وفي الحديث: (من مات له ولد فاحتسبه)، أي احتسَبَ الأجر بصبره على مصيبته به، وفي الحديث: (من صام رمضان إيمانا واحتسابا)، أي طلبا لوجه الله تعالى وثوابه. انظر لسان العرب لابن منظور.

الحسبة اصطلاحاً: قال صاحب الأحكام السّلطانيّة: "هي أمرٌ بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهيٌ عن المنكر إذا أظهر فعله." ، وقال صاحب الإحياء: "الحسبة عبارةٌ عن المنع عن منكرٍ لحقّ الله صيانةً للممنوع عن مقارفة المنكر".

فالحسبة إذاً ولايةٌ دينيّة تتولّى مهمّة الأمر بالمعروف إذا أظهر النّاس تركه، والنّهي عن المنكر إذا أظهر النّاس فعله، حماية لجناب الشّريعة من الضّياع، وصيانة للجماعة المسلمة من الانحراف، وتحقيقاً لمصالح النّاس الدينيّة والدنيويّة وفقاً لشرع الله تعالى.

• منزلة الحسبة في الإسلام:

قال ابن تيميّة رحمه الله: "جميع الولايات في الإسلام مقصودها أن يكون الدّين كلّه لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فإنّ الله -سبحانه وتعالى- إنّما خلق الخلق لذلك، وبه أنزل الكتب، وبه أرسل الرّسل، وعليه جاهد الرّسول والمؤمنون، قال الله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} (الذاريات: ٥٦)، وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} (الأنبياء: ٢٥)، وقال سبحانه: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} (النحل: ٣٦) ".

وقال القرطبيّ عن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر: "هو فائدة الرّسالة وخلافة النّبوة" تفسير القرطبيّ. فالحسبة هي سفينة النّجاة التي تحمل الأمة وتنجو بها من التّيه في غياهب المعاصي والشّهوات، والضّلالات والشّبهات.

وقد ضرب لها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مثلاً واضحاً فقال: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قومٍ استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعًا" رواه البخاريّ.

• مشروعيّة الحسبة وحكمها:

قال القاضي عياض:" الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر من واجبات الإيمان ودعائم الإسلام بالكتاب والسّنة وإجماع الأمّة" إكمال المعلم بفوائد مسلم. والأدلّة من القرآن الكريم والسّنة المطهّرة على وجوب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر أكثر من أن تحصى في هذه الأسطر ؛ فمنها: قول الله تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران: ١٠٤]، وقال تعالى:{فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ} [هود: ١١٦].

وعن أبي سعيدٍ الخدريّ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان». صحيح مسلم.

فجعل تغيير المنكر من صفات المؤمن الرّاسخة مصداقاً لقوله تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [التوبة: ٧١]. وليست مقتصرة على مؤسّسة معيّنةٍ أو طائفةٍ أو فرقةٍ من المسلمين، بل هي واجبةٌ على كلّ مسلم لعموم الأدلّة الواردة في وجوب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، و علّق الإمام ابن كثير على قوله تعالى:{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ} فقال: "والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقةٌ من الأمّة متصدّية لهذا الشّأن، وإن كان ذلك واجباً على كلّ فردٍ من الأمّة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان". وفي رواية: "وليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل".

• فضائل الحسبة:

لمّا كانت مكانة الحسبة في الشّريعة عظيمةٌ كان فضلها عظيماً، وكان القائمون عليها بصدقٍ وحقٍ هم أهل الفضائل الذين صدّقوا القول بالعمل، ودعوا النّاس لدين الله وأخذوا على يد الظّالم والمسيء، وقد تكلّم الله سبحانه وتعالى في كتابه عن صالحي أهل الكتاب من الأمم قبلنا فقال: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ(١١٤)} [آل عمران]، فجعل أول علامة للصّالحين بعد الإيمان بالله واليوم الآخر هي الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

• فوائد الحسبة الدينيّة والدنيويّة:

اشتملت هذه الشّعيرة المباركة على فوائد دينيّةٍ ودنيويّةٍ جمَّة، منها -على سبيل المثال لا الحصر-:

- النّجاة من عذاب الله تعالى كما قال سبحانه: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ} [الأعراف: ١٦٥].

- إدراك رحمة الله لمن قام بشعيرة الحسبة، قال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١)} [التوبة].

- شيوع الأمن الحقيقيّ والأمن النّفسيّ بين رعية الدّولة الإسلاميّة، فحين يقوم كلّ فردٍ بدوره الشّرعيّ المأمور به من الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ينتفي الظّلم وتشيع الفضيلة، قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأنعام: ٨٢].

- تنبيه الغافلين عن أوامر الله، الغارقين في معاصي الله، وتحقيق مفهوم الرّحمة المتمثّلة ببعثة النّبي صلّى الله عليه وسلّم {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧]، فالرّحمة تقتضي الحرص على النّاس ومنعهم من ولوج محارم الله الموصلة إلى سخطه وعذابه في الدّنيا والآخرة.

- التّقليل ما أمكن من مظاهر الانحراف الأخلاقيّ والسّلوكيّ بين الرعيّة، فما دام دعاة الطّاعة قائمين على رؤوس النّاس فلن يجد -بإذن الله- دعاة جهنّم مكاناً لهم ليفتنوا عباد الله عن صراطه المستقيم.

• الآثار المترتبة على ترك الحسبة:

كما أنّ للحسبة فوائدٌ وفضائلٌ ظاهرةٌ فإن لتركها وإهمالها آثارًا خطيرةً على الجماعة المسلمة، منها:

- حلول الغضب الإلهيّ بسبب شيوع المنكرات وهجران الطّاعات، وفشوّ الفساد بين الرعيّة دون نكير أو تحذير.

- تمكّن الباطل وأهله في المجتمع، وذلك يؤدي إلى أن تتحوّل الأرض إلى بؤرةٍ من الشّرّ والفساد قال الله تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ} [البقرة: ٢٥١]، {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا} [الحج: ٤٠]■

الدولة الإسلامية وتحطيم وثن المؤامرة

تتنوع التفسيرات البشرية المتجردة غير المبنية على الكتاب والسنة لأحداث التاريخ، فمنها ما يركز على التحليل الاقتصادي، ويجعل من الاقتصاد قاعدة للتحولات التاريخية، وعلى أساس التغيرات في أحوال الناس الاقتصادية تحدث التغيرات في كل نواحي حياتهم، وما الصراعات بين الأفراد، وبين الطبقات الاجتماعية، وبين الدول والأمم والشعوب، سوى ظل للصراع على المادة بمفهومها الاقتصادي، ومنها ما يرى أن السياسة هي محرك التاريخ، وأن غريزة حب السيطرة عند الإنسان، هي وقود هذا المحرك الذي تنتج عنه الأحداث بمختلف مستوياتها، ابتداء بالصراعات داخل الأسرة الواحدة، حتى الصراعات والحروب بين الدول والأمم، ومنها ما يتجه إلى التفسير الفكري أو "الأيديولوجي" الذي يجعل من الصراعات في الواقع انعكاسا لاختلاف الأفكار والعقائد التي يحملها المتصارعون في أذهانهم وعقولهم، وبمقدار إيمان الأطراف المتصارعة بأفكار متناقضة تزداد حدة الصراع بين الطرفين ويطول أمده، بل منها من مال باتجاه تحميل الظروف البيئية التي يعيشها الإنسان المسؤولية عن كل أحداث التاريخ ونتائجها، فالتضاريس والمناخ والمياه، وغيرها من خصائص الأمكنة التي يعيش فيها الإنسان، هي السبب – حسب هذه المناهج – لكل ما يجري في التاريخ من أحداث، وبالتالي فإن معرفة أحوال الطبيعة في المكان في كل مرحلة زمنية كافية – حسب نظرهم – لتفسير كل ما جرى في هذا المكان من أحداث، وهناك غير هذه المناهج السابق ذكرها الكثير من المناهج المجتزأة في دراسة التاريخ التي يركز كل منها على وجه من وجوه احتياجات الإنسان وخصائصه النفسية، فيجعله الأساس في كل سلوكياته واندفاعاته، وتفسير كل الأحداث على أساس هذه الصفة، أو هذه الغريزة، دون سواها، وبالتالي وقوعها جميعا في أخطاء كبيرة رغم انطلاقها من الواقع، بسبب اجتزائها لجزء منه وعدم اشتمالها على كل العوامل التي تؤثر في سلوك الإنسان، والأحداث التي يصنعها.

ونتيجة عقم هذه المناهج البشرية عن إنتاج تفسير متماسك متكامل لأحداث التاريخ، لجأ كثير من الناس إلى البحث عن افتراضات لا تمت لأي من العلوم بصلة، وإنما صاغها لهم من يشبهون المشعوذين والكهان من أدعياء المعرفة ببواطن الأمور، وخلفيات الأحداث، وإدراك ما لا يرى من الوقائع، وكان من أبرز ما تفتقت عنه أذهان هؤلاء الدجالين من الخرافات، وتلقفه المدمنون على المخدّرات الفكرية من مسكّنات، تريحهم من آلام الواقع، وأحزان الماضي، وهموم المستقبل، ما يعرف عند الجهال بنظرية المؤامرة.

ما هي نظرية المؤامرة؟

تقوم هذه الفرضية على أساس وجود مجموعة من الناس، هم من اليهود غالبا، يجتمعون في مكان مجهول من العالم بشكل دوري، ليضعوا خططا لتغيير العالم، يطلق عليها تسمية بروتوكولات، ويطبقونها، عن طريق اصطناع الأحداث الكبرى فيه، التي هي في الغالب الحروب، والكوارث الاقتصادية، والثورات الاجتماعية، وتسيطر هذه المجموعة من الناس على كامل اقتصاد العالم، وعلى كل السلطات الحاكمة فيه، وعلى كل الحركات والتنظيمات بطريقة أو بأخرى، والنتيجة التي يخلص إليها معتنق هذه الفرضية، أن كل ما يجري في العالم من أحداث إنما هو من تدبير هذه المجموعة من المتآمرين الدوليين، الذين يمتلكون المال من خلال سيطرتهم على رأس المال عن طريق البنوك الربوية العالمية، وعلى السلطة بسيطرتهم على كل الحكومات والأنظمة، وعلى الشعوب والمجتمعات عن طريق سيطرتهم على الإعلام، والمنظمات والأحزاب بمختلف أنواعها، وأن نتيجة الأحداث في العالم كيفما كانت فهي في خدمة أهداف المؤامرة الدولية التي تقصد في النهاية إلى التمكين لمجموعة المتآمرين من حكم العالم، والتمهيد لحكم الشيطان، أو لقدوم المسيح الدجال، أو على الأقل لسيادة اليهود على العالم.

فهذه النظرية وإن كان بعض أسسها حقيقيا كسيطرة اليهود على أكبر رؤوس الأموال في العالم، وعلى أكبر مفاصل الإعلام، وتغلغل نفوذهم داخل دوائر الحكم في العالم، فإن الجانب الساذج من الفرضية، يقوم على افتراضهم أن اليهود بسيطرتهم على المال والإعلام يمكنهم أن يفعلوا في العالم ما يشاؤون من تغييرات، بخلاف الواقع الذي يحوي الكثير من التناقضات والتداخلات في المصالح والأهواء، وبالتالي فإن تضارب هذه الأهواء والمصالح على مساحة العالم تجعل من المستحيل أن يحقق أي من البشر خططه على أرض الواقع بالصورة التي يريد، هذا إذا عزلنا الأرض عن الظروف البيئية وغيرها من العوامل الواقعية التي من شأن التغيرات المفاجئة فيها أن تعيق استمرار أي مشروع، بتغير الشروط الملائمة لنجاح المشروع، وتطبيق الخطة.

كيف يتقبل الناس نظرية المؤامرة؟

رغم سذاجة هذه الفرضية، وصعوبة تصديقها، فإنها راجت كثيرا في العالم، كتعبير عن الروح الانهزامية الجبريّة، التي تستخدم أمثال هذه الأفكار لتبرر واقعها السيء، وتفترض من خلالها أن العالم يُدار من قبل المتآمرين بحيث لا يمكن لأي إنسان أن يخرج من إطارها فضلا عن أن يقف في وجهها، كما يستخدم هذه الفرضية وما يشتق منها بعض الأدعياء تحليلات يقنعون بها المغفلين بأنهم قادرون على إدراك خفايا الأحداث، فيرُضون بذلك غرورهم الساذج بقدراتهم المزعومة، وتسخيف عقول غيرهم ممن يتهمونهم بالسطحية والجري خلف ظواهر الأمور.

ومن جانب آخر فإن فرضية المؤامرة هذه قد جرى الترويج لها من خلال حملات دعائية مكثفة طوال قرن من الزمن، قام بالجزء الأكبر منها أطراف متناقضة في غاياتها، أولهم القوميون المعادون لليهود لأسباب قومية، في أوروبا على شكل الخصوص، الذين كانوا يركزون على قضية أن اليهود هم السبب في كل ما يحل ببلدانهم من مصائب اقتصادية وسياسية، وهزائم عسكرية، ليجعلوا من ذلك مبررا لحملات الانتقام منهم، والتي كان أشهرها حملات النازيين الألمان قبيل الحرب العالمية الثانية وأثناءها.

والطرف الآخر كانوا هم اليهود أنفسهم وحركتهم الصهيونية، الذين استفادوا من فرضية المؤامرة في إخافة خصومهم في العالم، وجذب الراغبين في الزعامات للارتباط بهم، عن طريق إقناع الناس في كل مكان أنهم المهيمنون على العالم وأن كل ما يجري فيه إنما هو بتخطيط منهم، وتنفيذا لمصالحهم ومشاريعهم، وبالتالي لا فائدة من مقاومتهم أو الوقوف في وجه مشاريعهم وطموحاتهم.

كما قامت أطراف أخرى متناقضة باستخدام هذه الفرضية لضرب خصومها، فالاشتراكيون يستخدمونها لإثبات علاقة الرأسمالية العالمية التي يمثلها المرابون الكبار من اليهود بكل ما يحدث في العالم من كوارث ونكبات، وأعداء الاشتراكية يستخدمونها لضرب الشيوعية على أساس أنها صنيعة المؤامرة لضرب الأديان ونشر الإلحاد، وتدمير اقتصادات البلدان، ونشر الجوع والفقر، لتهيئة الأوضاع لسيطرة "الحكومة الخفية" على العالم.

بل حتى داخل الحركات والأحزاب التي تعطي لنفسها لقب "الإسلامية" تجد من كبار منظريها وقادتها من يروّج لفرضية المؤامرة، ليبرر لأتباعها وأنصارها القعود، والاستسلام، بدعوى أن لا فائدة من قتال الطواغيت الحاكمين لأرض الإسلام وجنودهم، باعتبارهم مجرد بيادق على "رقعة الشطرنج" التي تتحكم بها "الحكومة الخفية" التي تديرهم من وراء الستار، وبناء على هذا فالحل عندهم، أن يتم العمل على تدمير هذه "الحكومة الخفية" ورفع قبضتها عن العالم قبل التفكير في إحداث أي تغيير، دون أن يشرحوا طبعا كيف يمكنهم هزيمة هذه الحكومة التي يرونها تقدر على كل شيء، وتعلم بكل شيء، ولا يعجزها شيء، وكأنها إله من دون الله عزّ وجل! تعالى الله عما يشركون.

الإسلام.. وحقيقة المؤامرات

لا يختلف اثنان أن الصراع بين الإسلام والكفر شمل كل أشكال الحرب، سواء منها الظاهرة المباشرة، أو الخفية غير المباشرة، التي يمكننا أن نعبر عنها بالمكيدة أو المكر أو حتى بالمؤامرة، فالحرب بين الرسول عليه الصلاة والسلام والمشركين في مكة شهدت كل ذلك، من التضييق والتعذيب وقتل الأنصار، إلى الحصار الاقتصادي والتجويع، إلى استعداء الأهل والعشيرة، إلى المؤامرة والمكر، كما فعلوا في اجتماعهم الشهير في دار الندوة للتحضير لقتله صلى الله عليه وسلم، وهذه المحاولات جميعها بما فيها المؤامرة فشلت جميعا - بفضل الله - وبقي الإسلام، حتى صارت له دولة في المدينة، وقد وصف الله عز وجل بعضا من مؤامراتهم في تلك المرحلة فقال: (وَإِذْ



يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) [سورة الأنفال: ٣٠].

وفي المدينة التي لم يكن للكفار والمنافقين الشوكة لإعلان الحرب الظاهرة، كان اللجوء إلى المكر والمؤامرات لإنهاء الدولة النبوية، والقضاء على دعوة النبي عليه الصلاة والسلام، وكان القائمون على هذا هم اليهود -أجداد السادة المفترضين للعالم الحالي حسب نظرية المؤامرة- وقد جرب هؤلاء وحلفاؤهم من المنافقين مختلف أنواع المؤامرات من إشعال الفتن بين الأوس والخزرج، إلى التشهير بعرض النبي عليه الصلاة والسلام، بل ومحاولة قتله، ولما فشلت كل محاولاتهم تآمروا مع الكفار من قريش وقبائل العرب وجمعوا أقصى ما استطاعوا لقتال المسلمين في غزوة الأحزاب، فلم تكن نتيجة مؤامراتهم وكيدهم إلا أن أخرج النبي عليه الصلاة والسلام قسماً منهم من المدينة، وقتل الآخرين، وسبى ذراريهم، وغنم أموالهم وأرضهم، ودمر مساكنهم وحصونهم، ولو طبقنا نظرية المؤامرة على يهود ذلك الزمان لوجدناهم مخالفين لها تماما، فلاهم كانوا متحدين تقودهم قيادة موحدة تضع لهم خططا طويلة الأمد لفترات تصل إلى قرن من الزمن، ولا هم قادرون على الوصول بمؤامراتهم إلى النتيجة المرجوة، بل فشلت كل مؤامراتهم على الدولة النبوية بفضل الله، لما كان النبي عليه الصلاة والسلام وصحابته كما أرادهم الله تعالى من الصبر والتقوى (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)، فأزال الله المشركين من قريش ومن اليهود، وارتفعت راية الإسلام عالية في جزيرة العرب رغم مؤامراتهم.

وإننا لنجد أن القرآن ردّ الابتلاءات التي حلّت بالمسلمين في أحد وحنين إلى ذنوب المسلمين لا إلى مؤامرات اليهود والمنافقين، رغم أن قصة انسحاب رأس النفاق وحليف اليهود ابن سلول في معركة أحد بثلث جيش المسلمين كانت ستمثل مادة دسمة لأصحاب نظرية المؤامرة في تفسير ما حدث، إلا أن أهل الإسلام مجمعون على أن سبب ذلك كان معصية بعض الصحابة لله سبحانه وتعالى، بمخالفتهم أمر النبي عليه الصلاة والسلام، لا مؤامرات المنافقين حلفاء اليهود، وكذلك في حنين، فالسبب فيما أصابهم كان معصيتهم لله سبحانه وتعالى، بأن أعجب بعضهم بقوتهم وكثرتهم، فنالهم ما نالهم.

فالمؤامرات على الإسلام وأهله لم تنقطع يوما، لكنها لم تؤت ثمارها إلا حين فتح لها المسلمون المجال بمخالفتهم للقاعدة الربانية في التصدي لكيد الأعداء بالصبر واليقين.

الدولة الإسلامية في عصر نظرية المؤامرة...

لو بحثنا في مؤامرات كفار اليوم وعلى رأسهم اليهود والصليبيون ضد الإسلام، فإننا سنجد أن أهم أهدافها كانت إبعاد شريعة الله من الوجود، وترسيخ الفرقة بين المسلمين، وتجزئة أرضهم، وتقاسم ثرواتها بينهم. ولتحقيق ذلك احتلوا بلاد المسلمين، وأنشؤوا فيها الحدود المصطنعة ليقسموها إلى مناطق، تقاسموها فيما بينهم، وأزاحوا عنها شريعة الله وطبقوا فيها شرائعهم الوضعية، ثم فرضوا عليها من يرتضون منه استمرار سياستهم تلك بعد رحيلهم، وبقي الوضع على هذه الحال لفترة طويلة من الزمن، وكانت أهداف مؤامراتهم تلك بمثابة الثوابت التي لا يقبلون التنازل عنها بأي حال.

وبالتالي فإن قيام الدولة الإسلامية بنسف كل تلك الثوابت من خلال إقامتها للدين، وتحكيم الشريعة، وتطبيق الحدود، وكسر الحدود المصطنعة لتوحيد بلاد المسلمين، وإعلان إعادة الخلافة، وتوحيد الجماعات المجاهدة في العالم تحت ظلها، كل ذلك كان نسفا لنظرية المؤامرة التي افترض أصحابها أنه لا يمكن الخروج عن الخط الذي ترسمه "حكومة العالم الخفية"، أو الدول الاستعمارية، أو حتى رؤوس الأموال الدولية والشركات الاحتكارية.

فالدولة الإسلامية قامت – بفضل من الله – خلال سنوات قليلة من العمل الدؤوب الجاد بكسر وثن نظريات المؤامرة التي جعلتها الفصائل والأحزاب والتنظيمات عقبة أمام أي تفكير جاد بإقامة حكم الله في الأرض، وذلك بافتراض أن اليهود والصليبيين لا يمكن أن يسمحوا بذلك مهما كان الثمن، لكن مجاهدي الدولة الإسلامية – بفضل الله – قدّروا الثمن اللازم لذلك من الدماء والأشلاء والأموال، وأعلنوا استعدادهم لدفع هذا الثمن في سبيل إقامة حكم الله في الأرض، وذلك انطلاقا من العقيدة التي يقوم عليها الجهاد، وهي القتال لتحطيم كل أنواع الشرك في الأرض، ومنه شرك نظرية المؤامرة التي تعطي لأمريكا واليهود ولأجهزة المخابرات صفات رب البرية من العلم المطلق والقدرة المطلقة، بل والتحكم فيما قضاه الله وقدره للبشر.

الإيمان بالله... لا الإيمان بالمؤامرة؟

إن المؤمنين بنظرية المؤامرة عليهم أولا أن يراجعوا إيمانهم، فيعلموا يقينا أن الأمر كله بيد الله عز وجل، وأن كل ما يجري من أحداث في العالم إنما هو مقدر منه سبحانه، ومكتوب في اللوح المحفوظ من قبل أن يخلق الله تعالى السموات والأرض، وأنه لا يعلم الغيب إلا الله، لا "حكومة العالم الخفية" ولا كل أجهزة المخابرات، وبالتالي فإنهم بإعطائهم صفات الربوبية، من القدرة الكاملة، والعلم الكامل، إنما يشركون بالله عز وجل، وهم بعجزهم أمام ما قيدوا به أنفسهم من خرافات وأوهام أساؤوا الظن بالله تعالى، الذي وعد عباده بالنصر على أعدائهم إن هم أخلصوا النية لله تعالى في جهادهم، وسلكوا سبيل الكتاب والسنة في سعيهم لإقامة الدين، وأن المؤامرات والمتآمرين لو كان بيدهم وقف مسيرة الدين، لما بقي الدين قائما حتى الآن، وأن اليهود والمرابين كانوا موجودين في مدينة رسول الله عليه الصلاة والسلام، فلم تكن نهاية مؤامراتهم إلا قطع رؤوس مقاتليهم وسبي ذراريهم، واغتنام أموالهم على يد المؤمنين.

وعليهم ثانيا أن ينظروا في هذا العالم، ويعلموا أن أحداث العالم أكثر تداخلا من أن يتم تفسيرها بفرضياتهم الساذجة، وأن مصالح الأمم والدول، وأصحاب القوى، أكثر تشابكا وتضاربا من أن يتم توجيهها لخدمة مشروع واحد، فالعالم مكون من فرق متصارعة كثيرة، كل منها يريد أن يهيمن عليه كله، أو على جزء منه، والمسلمون يستفيدون من هذا التنازع والتصارع بين أمم الكفر في ضربها جميعاً، وتحقيق مصالحهم هم إن سلكوا طريق السنة، وساروا على منهاج النبوة.



إن الدولة الإسلامية بما منّ الله على جنودها من عز وتمكين، تقدّم النموذج الواضح، والمثال الناصع عن إمكانية إقامة الدين، والانتصار على المشركين، وقمع المرتدين، مهما بلغت قوتهم وزاد عددهم، وإن واقعها اليوم هو نقض لنظرية المؤامرة، وتنكيس لوثنها المعبود من دون الله، وتحطيم للأغلال التي فرضها أصحابها على الناس ليظلوا عبيدا خانعين لهم، وإن القادم من الفتوح سيزيد أهل الإيمان يقينا بقدرة الله، ونصره للمؤمنين، والعاقبة للمتقين.

متابعات إعلامية

نشر المكتب الإعلامي لولاية شمال بغداد إصدارا بعنوان "نصر من الله وفتح قريب"، يوثق جانبا من اقتحام المجاهدين ثكنات الجيش الرافضي في سدة سامراء، ضمن غزوة أبي عبد الله سعد الأنصاري –تقبله الله-،تخلل الإصدار مشاهد فرار جماعي لقطعان الرافضة، الذين لم يصمدوا –بفضل الله- أمام هجمات أولياء الله فولوا الأدبار هاربين، ومشاهد أخرى لتصفية جنود الرافضة ونحرهم.



"تحت ظلال السيوف"، من إنتاج المكتب الإعلامي لولاية حمص، ينقل سير المعارك بين الدولة الإسلامية والجيش النصيري في محيط مدينة تدمر، حيث أحالت صواريخ الكونكوس التي أطلقها جنود الخلافة مدرعات النصيرية إلى كتل من الحديد المنصهر، وحيث شردت العمليات الانغماسية بالنصيرية من خلفهم في الدوة وقصر الحلابات، فولوا الأدبار هاربين، وكان النصر والفتح بفضل الله حليفا للمجاهدين، رغم طيران الروس وقطعان الروافض.





الزكـاة.. الزكـاة أيـها المسلمون

أخبر الله تعالى في كتابه الكريم أن إعطاء الزكاة سبب في الفوز والفلاح، فقال سبحانه: {الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ* وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ* أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [البقرة: ١-٥].

كما وعد جل جلاله الذين يؤدون الزكاة بأن يرحمهم ويدخلهم في رحمته الواسعة، فقال تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ١٥٦].

ورتّب عز وجل الأجور العظيمة المضاعفة لمن يُخرج زكاة ماله ابتغاء مرضاته، فقال تعالى: {وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ} [الروم: ٣٩].

ثم بيّن ربنا سبحانه أن من أدى زكاة ماله، فسينجيه من عذاب النار يوم القيامة، فقال تعالى: {فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى* لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى* الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى* وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى* الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى*} [الليل: ١٤-١٧].

ووصف عباده المؤمنين بصفات كثيرة، منها أنهم يؤدّون الزكاة، فقال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} [المؤمنون: ١-٤].

ولعظيم أمر الزكاة وأهميتها، فإن الحق سبحانه فرضها على الأمم السابقة وأوصى بها الأنبياء والرسل، فقال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً* وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً} [مريم: ٥٤-٥٥]، وقال تعالى: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً* وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً} [مريم: ٣٠-٣١].

وكذلك حض رسول الله صلى الله عليه وسلم على أداء الزكاة ورغّب في أجرها في أحاديث كثيرة، منها ما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله تعالى: يا ابن آدم أنفِقْ أُنفق عليك»، ومنها ما رواه الترمذي عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما نقص مال عبد من صدقة» وهو حديث حسن صحيح، ومنها أيضا ما رواه الإمام أحمد بسند صحيح عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كل امرئ في ظل صدقته يوم القيامة حتى يُقضى بين الناس».

فهنيئا لمن وفقه الله وأدّى زكاة ماله طيبة بها نفسُه، فمن فعل ذلك فليبشر بالخير الكثير والبركة من الله، قال تعالى: {وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سبأ: ٣٩]، وقال تعالى: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٦١].

الترهيـب من منع الزكاة:

وفيه أدلة كثيرة من القرآن والسنة، فكما أن الله عز وجل أعد تلك الفضائل العظيمة لمن أدّى زكاة ماله طيبة بها نفسُه؛ توعد جلت عظمته مانعي الزكاة بالوعيد العظيم، فقال تعالى: {وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ* الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} [فصلت: ٦-٧].

وبيّن تبارك وتعالى أن كراهية إخراج الزكاة من علامات النفاق، قال تعالى عن المنافقين: {وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ} [التوبة: ٥٤].

وأنها صفة من صفات أهل النار الذين قال الله تعالى عنهم: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ* قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ* وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ} [المدثر: ٤٢-٤٤].

كما أن مانعي الزكاة من أشد الناس عذابا يوم القيامة، قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ} [التوبة: ٣٤-٣٥].

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في بيان هذه الآية في الحديث الذي رواه مسلم: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدّي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفّحت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة»، وحقها هو الزكاة.

وعند البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من آتاه اللَّه مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزميه (يعني شدقيه) ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك» ثم تلا قوله تعالى: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [آل عمران: ١٨٠].

وروى الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفا: «لا يكون رجل يكنز فيمس درهم درهما، ولا دينار دينارا، يوسع جلده حتى يوضع كل دينار ودرهم على حدته»، وقال المنذري: إسناده صحيح.

مسألة مهمة:

دفع أموال الزكاة إلى جباة إمام المسلمين "بيت مال الزكاة"، وبراءة ذمة من أداها إليهم، وعدم جواز كتمان قدر الزكاة:

قال الشوكاني في (نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار): "باب براءة رب المال بالدفع إلى السلطان مع العدل والجور"، ثم أورد حديث أنس رضي الله عنه أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أدّيت الزكاة لرسولك فقد برئت منها إلى الله ورسوله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعم، إذا أديتها إلى رسولي فقد برئت منها، فلك أجرها، وإثمها على من بدلها» رواه أحمد بإسناد صحيح، كما أورد رحمه الله حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها»، قالوا: يا رسول الله فما تأمرنا؟ قال: «تؤدون الحق الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم»، متفق عليه.

وقال المباركفوري في "تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي" باختصار: "باب المعتدي في الصدقة كمانعها، الاعتداء مجاوزة الحد، فيحتمل أن يكون المراد به المزكي الذي يعتدي بإعطاء الزكاة لغير مستحقيها وعلى غير وجهها، وعلى المعتدي في الصدقة من الإثم ما على المانع، فلا يحل لرب المال كتمان المال وإن اعتدى عليه الساعي، ويؤيده حديث بشير بن الخصاصية الذي رواه أبو داود قال: قلنا: يا رسول الله: إن قوما من أصحاب الصدقة يعتدون علينا، أفنكتم من أموالنا بقدر ما يعتدون علينا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا".

فوائد إخراج الزكاة:

اعلم أخي المسلم: أن للزكاة فوائد عظيمة، منها:

أولا: أن الزكاة أحد أركان الإسلام ومبانيه العظام، فمن أداها فقد أقام ركنا من أركان الدين، ففي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان».

ثانيا: أنها تطهر المال وتطهر النفس، قال تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [التوبة: ١٠٣]

ثالثا: أنها تكفر الذنوب، فعن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أدلك على أبواب الخير؛ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ...» أخرجه الترمذي وغيره، وقال: حديث حسن صحيح.

رابعا: أنها تجعل صاحبها من المحسنين المحبوبين لرب العالمين، قال تعالى: {وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: ١٩٥].

خامسا: أنها سبب لنماء المال وحلول البركة، قال تعالى: {وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سبأ: ٣٩]

سادسا: أنها دليل على صدق إيمان المزكي، ولذا سميت صدقة، فإنها تدل على صدق صاحبها في طلب رضا الله تعالى.

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم)
من آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاته مُثِّل له شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوِّقه يوم القيامة بلِهزِمَتيه ثم يقول أنا مالك أنا كنزك
[متفق عليه]
عقوبة مانع الزكاة في الآخرة

العلاقة بين الطواغيت والعلماء القاعدين

إن العلم وما جاء في فضله وشرفه وفي فضل العلماء، هو للعلماء العاملين المجاهدين بما يقدرون عليه من جهاد سنان وجهاد لسان، أما من لا يعمل بعلمه فهو لا يدخل في هذا الفضل، فكيف بالعالم القاعد والمدافع المنافح عن الطواغيت والمحارب للتوحيد ولدولة الإسلام فهذا لا يشك أحد في ضلاله ومروقه من الدين، ولا يغرنّك كثرة علمه وحفظه، فإن أساس العلم وثمرته ومداره على الخشية من الله والعمل بما يدل عليه العلم، قال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وهذا يدل أن كل من خشي الله فهو عالم، وهو حق، ولا يدل على أن كل عالم يخشاه" اهـ.

وعلماء السوء ممن يجلس عند الطواغيت ويخدمهم ويفتي لهم بما يرغبون ويشتهون، وفي مقابل هذا يعطيهم الطاغوت من فتات الدنيا، فهؤلاء بينهم وبين الطواغيت علاقة نفعية يباع فيها الدين والعياذ بالله، وقد بيّن أمير المؤمنين وخليفة المسلمين أبو بكر البغدادي -نصره الله- هذا الأمر حيث قال في كلمته التي كانت بعنوان (ولو كره الكافرون): "يكمن ضعف الصليبيين وحلفائهم في حاجتهم للسحرة المجرمين من علماء الطواغيت من حكام بلاد المسلمين، ليسحروا أعين الناس ويُلبسوا على عوام المسلمين... ليحولوا بأولئك السحرة وتلك الفتاوى بين عودة المسلمين لخلافتهم والتفافهم حول المجاهدين ونصرتهم" اهـ.

ومن هؤلاء أقوام يُظهرون أنهم مع الجهاد وأهله وما هم إلا أعوان للطواغيت في حرب الخلافة لمن تأمّل حالهم، فبعضهم يخرجه الطاغوت من السجن ليذهب لقناة طاغوتية يهاجم الخلافة، والثاني يقيم على حساب المخابرات الكافرة في الدول الغربية ليهاجم الخلافة، والثالث يقسم على احترام الطاغوت الكافر في دولة غربية ويحصل على جنسيتها ثم يهاجم الخلافة، إنه مكر هؤلاء السحرة , فتنبه أخي المسلم لذلك.

هي علاقة بين الطواغيت وبين هؤلاء ممن قعد عن الجهاد وحارب دولة الخلافة، ففُتحت للواحد منهم القنوات الفضائية ليطعن في خلاصة المجاهدين ويهاجم دولة الإسلام القائمة بالتوحيد وهدم الشرك، ويُلبّس على عوام المسلمين دينهم.

وعلماء الحق والصدق والجهاد قليل جدا، أما علماء السوء فما أكثرهم -لا كثّرهم الله- فعلماء الآخرة غرباء بين علماء الدنيا كما ذكر ابن رجب -رحمه الله- من أنواع الغربة أن "غربة علماء الآخرة بين علماء الدنيا الذين سُلبوا الخشية والإشفاق" اهـ.

أخي المسلم من المعلوم أن كل من ينتسب للعلم لابدّ أن يقع في الزلل والهلاك إنْ هو آثر الدنيا ، يقول ابن القيم رحمه الله: "كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها فلا بد أن يقول على الله غير الحق، في فتواه وحكمه، في خبره وإلزامه، لأن أحكام الرب -سبحانه- كثيرا ما تأتي على خلاف أغراض الناس، ولا سيما أهل الرئاسة والذين يتّبعون الشهوات، فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيرا، فإذا كان العالم والحاكم محبا للرئاسة، متبعا للشهوات لم يتم له ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق" اهـ.

هذا أخي المسلم يفسر لك لمَ يبيع هؤلاء دينهم ويفتون بحرب الخلافة وبدعم الصحوات وغيرها، ذلك أن أغراض أهل الجاه والملك من الحكام ضد الخلافة التي تريد إقامة الدين وهم يريدون حربه، وتريد الجهاد وهم يريدون الشهوات، فيأتي دور علماء السوء من القاعدين وتأتي الفتاوى والبرامج والرسائل وغيرها لحرب الخلافة.

أخي المسلم إن كثيرا من علماء السوء من القاعدين الذين يحاربون دولة الخلافة نصرها الله، يعلمون أنها على الحق، وأنها دولة الإسلام، ولكنهم لا يريدون المشقة والتعب وعداوة الطواغيت وغيرهم، وهذا يحصل في كل زمان ومكان، حين يقوم كل صادق بدعوة للدين والحق والجهاد، نعم أخي المسلم حين قام شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب -رحمه الله- بالدعوة للتوحيد وحرب الشرك وافقه من يسمّون العلماء، ولكن حين بدأ رحمه الله الجهاد والقتال وتكفير الطواغيت رفضوا ذلك لمشقة ذلك عليهم وعلى دنياهم يقول شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله: "صدَّقني مَنْ يدّعي أنه من العلماء في جميع البلدان في التوحيد ونفي الشرك، وردوا علي التكفير والقتال" اهـ.

وهذا ما نراه الآن، فكم من محسوب على العلم من القاعدين كان يقرر أحكام الجهاد والجزية وحرب المرتدين ويبشر بالخلافة وأنها قادمة، وحين قامت الخلافة وأعلنت التوحيد وهدمت الشرك وجاهدت الكفار وأهل الردّة وهدمت الحدود الطاغوتية، رفض هؤلاء ذلك، لأنهم يريدون الراحة والدعة والعيش في القصور والمزارع والجاه والسمعة، هذه هي العلة الكبرى التي جعلت الكثير منهم يحارب دولة الخلافة المجاهدة.

أخي المسلم لا تعجب من ذلك فإن في من ينتسب للعلم والعلماء من يقدّم الكفر على الإيمان، ويفضل الطاغوت على الشرع، وذلك لأجل الدنيا والعياذ بالله مع معرفته بأن ذلك هو الهلاك المبين في الآخرة، يقول شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله: "في من ينتسب إلى العلم من يختار الكفر على الإيمان مع علمه أن من اختاره لا حظ له في الآخرة" اهـ.

أخي الموحد لتعلم أن العالم إذا ترك ما علمه من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم واتبع حكم الحاكم المخالف لحكم الله ورسوله فهو مرتد كافر، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ومتى ترك العالم ما علمه من كتاب الله وسنة رسوله واتبع حكم الحاكم المخالف لحكم الله ورسوله كان مرتدا كافرا يستحق العقوبة في الدنيا والآخرة" اهـ.

وختاما أخي المسلم في دولة الإسلام، فلتحمد الله على هذه النعمة العظيمة الكبيرة أن تعيش في دولة إسلامية تحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وتهدم الشرك وتنشر التوحيد، فهي نعمة عظيمة وكبيرة، نسأل أن يرزقنا شكرها، ويستعملنا في مرضاته، والحمد لله رب العالمين.

الغلول من الغنيمة من أسباب الهزيمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن الأموال السلطانية -التي يتولى السلطان جمعها وتقسيمها- ثلاثة أصناف: الغنيمة والصدقة والفيء، فأما الصدقات فمعروفة، وأما الفيء فهو ما أُخذ من الكفار بغير قتال، وأما الغنيمة فهي المال المأخوذ من الكفار بعد قتالهم، فإذا كان الإمام -أو من يخوّله الإمام- هو الذي يتولى جمع الغنائم والأفياء وتقسيمها، لم يـجز لأحد أن يأخذ منها شيئا دون إذن الإمام، وإلا كان ما أخذه غلولا [السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، لشيخ الإسلام ابن تيمية].

تعريف الغُلول:

الغُلول لغة: الخيانة، يقال: غَلَّ يَغُلُّ غُلولاً فهو غَالٌّ، وكل من خان في شيء خفية فقد غل [النهاية في غريب الحديث]، وسميت غلولا لأن الأيدي فيها مغلولة: أي مجعول فيها غُل، والغُل: هو طوق من حديد يُجعل في العنق وتجمع معه اليدان [مختار الصحاح]، «وأصل الغلول الخيانة مطلقا، ثم غلب اختصاصه في الاستعمال بالخيانة في الغنيمة» [شرح صحيح مسلم للنووي].

أما شرعا: فالغلول هو أخذ شيء من الغنيمة أو الفيء -قل أو كثر- خفية قبل القسمة وبدون إذن الأمير المخول بالغنائم.

حكم الغلول:

الغلول حرام، وخيانة، وموجب من موجبات دخول النار، كما دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع الأمة، ونقل الإمام النووي إجماع الفقهاء على أن الغلول كبيرة من الكبائر [عمدة القاري شرح صحيح البخاري].

قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [آل عمران: ١٦١]، وهذه الآية نزلت في قطيفة (نوع من الثياب) فُقدت من مغانم القوم يوم بدر، فقال المنافقون: لعل رسول الله أخذها! فأنزل الله عز وجل: { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ}، مخبرا أنه ما ينبغي ولا يليق بنبي أن يُتّهم بالغلول، لأن الغلول من أعظم الذنوب وأشرّ العيوب، وقد صان الله سبحانه أنبياءه -صلوات الله وسلامه عليهم- عن كل ما يدنسهم. ثم ذكر -سبحانه- الوعيد على من غلّ، فقال: {وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} أي: يأتي به حامله على ظهره، فيفضحه الله على رؤوس الأشهاد، قبل أن يحاسبه على خيانته، وفي ذلك تأكيد تحريم الغلول والتنفير منه [تفسيرا الطبري والشوكاني].

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قام فينا النبي -صلى الله عليه وسلم- فذكر الغلول، فعظّمه وعظّم أمره، ثم قال: (لا ألفين أحدكم يوم القيامة، على رقبته شاة لها ثغاء، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا) [متفق عليه].

وعنه -رضي الله عنه- أنه قال: افتتحنا خيبر وغنمنا، ثم انصرفنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومعه عبد له يقال له: مِدْعَم؛ فبينما هو يحط رحل رسول الله إذ جاءه سهم عائر -لا يُدرى من رماه- حتى أصابه، فقال الناس: هنيئا له الشهادة، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (بلى والذي نفسي بيده إن الشملة (وهي نوع من الثياب) التي أصابها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارا)، فلما سمع الناس بذلك جاء رجل بشراك أو بشراكين (الشراك: سير النعل الذي يكون على ظهر القدم) فقال: يا رسول الله، هذا شيء كنت أصبته، فقال -صلى الله عليه وسلم-: (شراك أو شراكان من نار) [متفق عليه].

وعن عبادة بن الصامت -رضي الله عنه- قال: صلى بنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم حنين إلى جنب بعير من المقاسم ثم تناول من البعير قَرَدَةً -قطعة من وبر البعير مما يُنْسَل منه- فجعل بين إصبعيه ثم قال: (يا أيها الناس، إن هذا من غنائمكم، أدوا الخيط والمخيط فما فوق ذلك فما دون ذلك، فإن الغلول عار على أهله يوم القيامة وشنار ونار) [صحيح، رواه ابن ماجة وغيره].

ما يترتب على الغال في الدنيا:

تبين آنفا أن جزاء الغال في الآخرة هو النار إذا لم يتب ويتحلل مما اقترفه، أما في الدنيا فلا يخلو الغال من إحدى حالتين:

الأولى: أن يتوب من ذنبه قبل اكتشاف غلوله وقبل رفع أمره إلى السلطان، ويشترط لقبول توبته عندئذ أن يعيد ما غله لبيت مال المسلمين، ولا يحق للغال أن يتصدق بما غله، لقوله -صلى الله عليه وسلم-: (لا تقبل صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول) [رواه مسلم]، علاوة على ذلك فإن عائدية هذا المال لبيت مال المسلمين.

الحالة الثانية: إن لم يتب الغال من ذنبه، ولم يرجع ما غله لبيت مال المسلمين ووصل أمره للأمير، فللأمير تعزيره بأشد العقوبات، بعد إلزامه برد ما غله أو رد قيمته [المبسوط للسرخسي]، كما أن للإمام تحريق متاع الغال زيادة في النكاية به وردعا لغيره، والتحريق يكون للمتاع لا لما غله من الغنائم [المغني لابن قدامة].

ومن العقوبات التي تلحق الغال غير التائب ترك الصلاة عليه من قبل إمام المسلمين، فعن زيد بن خالد الجهني -رضي الله عنه- أن رجلا من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- توفي بخيبر، وأنه ذُكر لرسول الله ليصلي عليه، فقال -صلى الله عليه وسلم-: (صلوا على صاحبكم)، فتغيرت وجوه القوم لذلك! فلما رأى الذي بهم قال: (إن صاحبكم غل في سبيل الله)، ففتشنا متاعه فوجدنا فيه خرزا من خرز اليهود، ما يساوي درهمين [صحيح، رواه أحمد وغيره].

ومن العقوبات أيضا عدم إلحاق اسم الشهيد بمن قُتل وثبت عليه غلول، فعن عمر -رضي الله عنه- قال: لما كان يوم خيبر أقبل نفر من صحابة النبي فقالوا: فلان شهيد، فلان شهيد. حتى مروا على رجل فقالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (كلا، إني رأيته في النار في بردة غلها) [رواه مسلم]، قال النووي: وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (كلا)، زجر ورد لقولهم في هذا الرجل أنه شهيد، ومن فوائد الحديث أن الغلول يمنع من إطلاق اسم الشهادة على من غل إذا قتل [شرح صحيح مسلم].

أخذ الغنيمة من غير غلول حلال، لكنه ينقص الأجر:

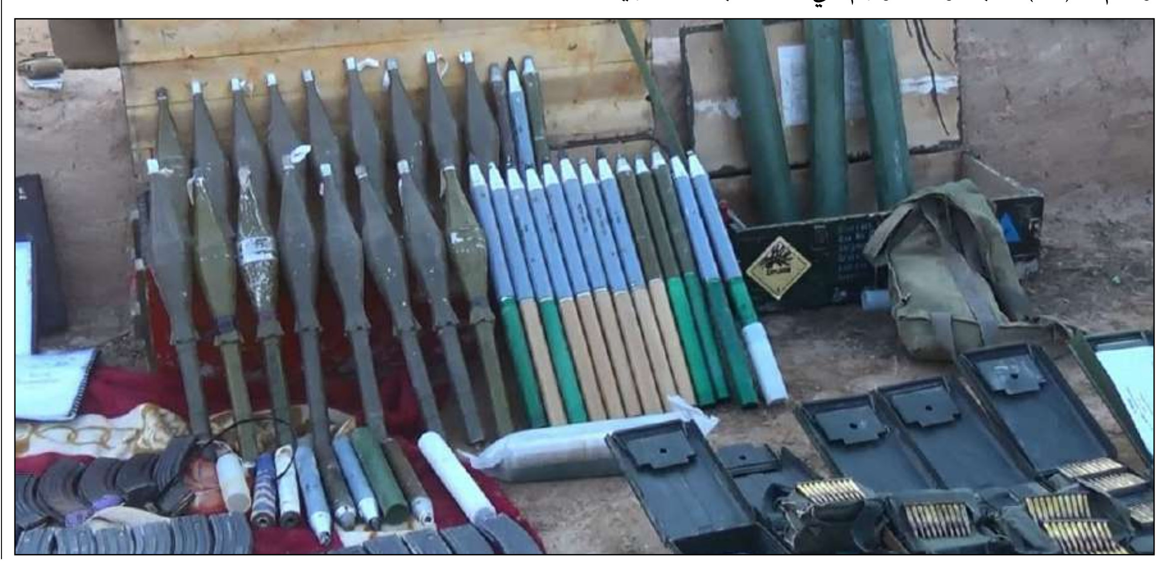
قال تعالى: {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا} [الأنفال: ٦٩]، وقال -صلى الله عليه وسلم-: (أُحلّت لي الغنائم، ولم تَحِلَّ لنبي كان قبلي) [صحيح، رواه أحمد وغيره]، فالغنيمة مال طيب، لكنّ أخذها ينقص أجر المجاهد في سبيل الله، وذلك ثابت بقوله -صلى الله عليه وسلم-: (ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلا تعجّلوا ثلثي أجرهم من الآخرة ويبقى لهم الثلث، وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم) [رواه مسلم]، قال النووي: «وأما معنى الحديث: فالصواب الذي لا يجوز غيره أن الغزاة إذا سلموا أو غنموا يكون أجرهم أقل من أجر من لم يسلم أو سلم ولم يغنم، وأن الغنيمة هي في مقابلة جزء من أجر غزوهم، فإذا حصلت لهم فقد تعجّلوا ثلثي أجرهم المترتب على الغزو وتكون هذه الغنيمة من جملة الأجر، وهذا موافق للأحاديث الصحيحة المشهورة» [شرح صحيح مسلم].

الغلول من أسباب هزيمة المسلمين:

ليس الغلول سببا لهلاك الغال فحسب، وإنما هو سبب من أسباب هزيمة المسلمين أمام عدوهم أيضا! فعن عبد الله بن عباس -رضي الله عنه- أنه قال: «ما ظهر الغلول في قوم قط، إلا ألقي في قلوبهم الرعب» [موطأ مالك]، قال الزرقاني في شرحه للموطأ: «وذلك معاملة لهم بالنقيض، لأنهم لما أخذوا المال بغير حق خافوا، فلـما خافوا دخل الرعب في قلوبهم من عدوهم، فجبنوا عن لقائهم، فظهر العدو عليهم، وذلك عامّ في من غل، ومن لم يغل ولم ينكر على الغال مع القدرة على الإنكار» اهـ.

لذا كان خليفة المسلمين أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- يحذر جنوده وأمراءه من معصية الغلول خشية الهزيمة، كما فعل مع يزيد بن أبي سفيان -رضي الله عنه- الذي أمّره على جيش عظيم وأرسله لفتح الشام وشيّعه بنفسه ماشيا، وأوصاه من بين ما أوصاه قائلا: «واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر ويدفع النصر» [الكامل في التاريخ لابن الأثير].

اللهم طهر صفوف المجاهدين من الغلول، وأخرج حب الدنيا وزخرفها من قلوبهم، وصل اللهم وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



توكلوا على الله لا على فصل الشتاء

قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، والشرك بالله تعالى يدبّ إلى هذه القلوب كدبيب النمل، لذا كان على العبد المسلم وخصوصا المجاهد في سبيل الله أن يكثر من الاستعاذة بالله من الوقوع في شرك يعلمه والاستغفار مما لا يعلمه، كما أنّ على المجاهد في سبيل الله أن يعلم أن كل ما في هذا الكون هو جند من جنود الله تعالى التي قد يسخرها الله تعالى لنصرة المجاهد، فتسخيرها بأمر الله إنْ عمل هذا المجاهد بأسباب النصر التي أمر الله تعالى عباده المجاهدين بالأخذ بها، وأهمها التوكل على تعالى وحده والبعد عن الذنوب والمعاصي والحذر من ظلم الناس دونما تجاهل لإعداد العدة التي أمر الله تعالى بها في قوله: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠)) [التوبة].

فقدوم الشتاء لا يأتي بالنصر وإن كان الشتاء جنديا من جنود الله تعالى، فلا تعتمد على هذا الجندي بل اعتمد وتوكل على ربّه، فهذا إبراهيم عليه السلام لما ألقي في النار قال: "حسبي اللّه ونعم الوكيل"، كما روى البخاريّ عن ابن عبّاس، وذكر بعض السّلف أنّه عرض له جبريل وهو في الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا، هذا مع أن جبريل عليه السلام جندي من جنود الله وقد أرسله الله تعالى لنصرة إبراهيم، لكن إبراهيم عليه السلام معلم الناس التوحيد أبى بث شكواه إلى جبريل وأبى الاعتماد عليه وتوكل على الله تعالى، ويوم الأحزاب لم تكن الريح سبب هزيمة المشركين بل كانت جنديا سخره الله تعالى لنصرة المؤمنين بعد أن كان منهم ذلك الموقف العظيم قال تعالى: (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢))، فيا جنود دولة الإسلام الحذر الحذر من الركون إلى هذه الظواهر أو الاعتماد عليها، وتوكلوا على الله حقّ التوكل.

ففي رمضان الماضي - على سبيل المثال - حدّثني عدد من الإخوة عن ترقّبهم وانتظارهم لنصر عظيم يحلّ عليهم إذا ما جاء شهر رمضان، وكأن النصر لجند الله متعلٌ بحلول هذا الشهر مع العلم أن الفتح العظيم لمدينة الموصل كان في شهر شعبان من سنة ١٤٣٥ هـ، والفتح الثاني لسهل نينوى وما بعده كان في شهر شوال من السنة ذاتها، ولم يكونا في رمضان، فلا تنتظر النصر والفتح إلا إذا أخذت بأسبابه، فقد نُصر المسلمون يوم بدر مع قلة عددهم بفضل الله تعالى، وهُزموا أول الأمر يوم حنين مع كثرة عددهم بسبب اغترارهم بهذه الكثرة وهُزموا يوم أحد، لا لكثرة أعدائهم بل لمعصيتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أمرهم بلزوم الجبل. فالنصر من عند الله وحده، فإذا نصرت الله نصرك الله في حر الصيف أو في برد الشتاء بعدد قليل أو كثير، سواء كان من يعاديك فصيل مرتد واحد أو العالم كله. فيا جند دولة الإسلام توكلوا على الله لا على فصل الشتاء، والحذر الحذر من الظلم، فالظلم جرم قد يؤخر النصر.

فهذه رسالة لولاة أمر المسلمين أن ينظروا في مظالم الرعية بأنفسهم ولا يكتفوا بإيكال هذا الأمر إلى هيئة أو قاض، فهذا القبطي قد جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاصدا إياه من أرض مصر فقضى أمير المؤمنين له أمره وأنصفه ولم يقل له ارجع إلى قاضي بلدك أو ارجع إلى واليك، وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أيضاً يعزل الصحابي المبشّر بالجنة سعد بن أبي وقاص لشكوى رجل من أرض الكوفة عليه ■

خنساوات الخلافة آيات في الصبر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فعن أبي وجزة، عن أبيه، قال: (حضرت الخنساء بنت عمرو بن الشريد السُلَمية حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال، فقالت لهم من أول الليل: يا بني، إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غبرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعدّ الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين.

واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، فإذا أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها، واضطرمت لظى على سياقها، وجللت نارا على أوراقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة.

فخرج بنوها قابلين لنصحها، عازمين على قولها... فقاتلوا حتى قُتلوا، فبلغها الخبر فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته) [الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٤ / ١٨٢٩].

ولقد كنا نحسب أن زمان الخنساء قد ولّى، وأن الأرحام قد عقمت عن إنجاب مثيلاتها من بعدها، حتى عادت دولة الإسلام، عادت بمجاهديها وأمهاتهم، بشهدائها وخنساواتهم.

خنساوات الخلافة، آيات في الصبر والاحتساب، نساء بهمم رجال، يأتيها خبر ارتقاء فلذة كبدها، فتخر لله ساجدة شاكرة، وكأنه قد زُفَّ إلى عروس، وإن أنت زرتها لتعزيها، فلن ترى من الحزن شيئا سوى عينا باكية، ولسانا لا يفتر عن الحمد والشكر، تروم تصبيرها فتصبرك وهي تحدثك عمّن هم أحياء عند ربهم يرزقون، عن حواصل الطير، والحور والشفاعة، من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، قد تذكر شهيدها -كما نحسبه والله حسيبه- فتذرف العين شوقا إليه وهي تتذكر بره بها، ممازحته، كلماته، حركاته، سكناته وكيف ودّعها عند آخر لقاء!

تقول إحدى الخنساوات وهي أمٌ لشهيدين -بإذن الله تعالى- متذكرة يوم فارقها أحدهما: لقد وصل إلى الباب وقبل أن يدلف منه خارج البيت نظر وقال: (أمي... القرآن القرآن)، ثم خرج ولم يعد، أفلا تحزن على مثل هذا؟!

إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى
وصاروا إلى ميعاد ما في المصاحف

والعجب ممن قدّمت ثلاثة وأربعة وخمسة، جميعهم قتلوا تحت هذه الراية، راية الحق، راية الدولة الإسلامية، ولا زالت تلك الخنساء تنتظر بيع بقية أبنائها بل وأحفادها.

ثم إن أغلب خنساوات هذه الدولة المباركة لسن من طالبات العلم، بل هن من عوام المسلمين، ولكنها الفطرة السليمة، التي علّمتها وبمنتهى اليسر: (لله ما أعطى ولله ما أخذ)، لا تجادل في أمر الله، ولا تعقّب على حكمه، بل منهن من تجهّز جعبة فلذة كبدها وسلاحه بنفسها، لترسله إلى حتفه، إنها الفطرة التي لم تعانِ مما يعانيه كثير من حاملي العلم وحاملاته، من لوثة إرجاء، أو سرورية، أو أشعرية، أو صوفية أو غير ذلك من أوبئة الشراك والشباك.

فشتّان شتّان بين الخنساء (بنت عمرو) التي باعت بنيها لله تعالى، وبين خُناس (بنت مالك) التي قتّرت على ابنها مصعب بن عمير وضيقت عليه لما أسلم وسار على طريق الحق.

فلله در كل صابرة محتسبة، لله در كل من لم تتصدق بدرهم ولا دينار ولكنها تصدقت بدماء وأشلاء أحب الناس إلى قلبها، ربح البيع أم الشهيد!

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصل اللهم وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

دماؤهم... نور ونار

في غزوة أحد، وبعد أن التف المشركون على المسلمين وأطبقوا عليهم من كل جانب، وقُتل من المسلمين الخيرة والقادة وأولو السبق أمثال حمزة بن عبد المطلب، رضي الله عنه، أسد الله ورسوله وعم رسول الله وأخوه من الرضاعة، ومصعب بن عمير رضي الله عنه، أول سفير في الإسلام، بلغت قلوب الصحابة الحناجر وزلزلوا، وقُتل منهم ما يفوق السبعين، إذ بها تنتشر بين صفوفهم إشاعة مقتل قائدهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فما كان من الصحابة الذين علمهم -صلوات ربي وسلامه عليه- أن القتال إنما هو لأجل دين الله لا لأجل شخصه، وأنّ الإسلام باق وإنْ مات رسول الله أو قُتل، إلا أنْ قال قائلهم أنس بن النضر، رضي الله عنه: (إنْ كان رسول الله قد مات، فقوموا وموتوا على ما مات عليه)، هذه العقيدة الراسخة التي لا تهزها رياح الشبهات، قتال في سبيل الله وإن مات القادة والأمراء، بل قتال في سبيل الله وإن قيل أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قد مات.

ومن السنة الثالثة للهجرة إلى السنة الحادية عشر، ومن جبل أحد الأشم الذي ارتوت تربته بدماء آل البيت والصحابة رضوان الله عليهم، إلى حجرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يسلم روحه الطاهرة لباريها، هل انكسرت شوكة المسلمين بموت قائدهم الأعظم؟ بل ما كان بعد رسول الله إلا ثبات من الصديق -رضي الله عنه- في قتال المرتدين وإرسال الجيوش لفتح بلاد فارس والشام، فهل أثّر سلبا موت رسول الله في نفوس المسلمين؟ وما هي إلا سنتان حتى مات الصديق الذي صدق الله ورسوله وصدقه الله ورسوله، فهل أثرت وفاته سلبا في حياة المسلمين، بل ما تلاها إلا عشرية عمرية عرفت بالعدل والنصر والفتح.

ومن ملحمة أحد في جزيرة العرب إلى أبي غريب، عروس حزام بغداد، وبينما الشيخ المجاهد العالم العامل أبو أنس الشامي، مسؤول اللجنة الشرعية لجماعة التوحيد والجهاد (نواة الدولة الإسلامية) وأحد رجالاتها الأفذاذ، برفقة إخوانه ليشارك في الغارات والمواجهات، كان على موعد مع زفة إلى جنة الرحمن بإذن الله، فارتقى شيخنا الفاضل، ليخضب بدمائه الطاهرة راية العقاب التي كان له وللشيخ أبي مصعب الزرقاوي -تقبله الله- فضلٌ بعد الله -عز وجل- في نسج خيوطها وبسط سلطانها في بلاد الرافدين، قتل القائد فهل انتهى المشروع؟ بل بدماء أبي أنس وإخوانه، نما المشروع وازدهر، واشتد ساقه وأزهرت أفنانه فكانت البيعة المباركة والتحم المجاهدون تحت راية الشيخ المجاهد أبي عبد الله أسامة بن لادن تقبله الله، وما هي إلا أشهر حتى ارتقى الشيخ أبو مصعب الزرقاوي -تقبله الله- لينال الشهادة التي سجن ينتظرها وهاجر بحثا عنها وقاتل طلبا لها سنين، فهل أثّر قتل الشيخ على المشروع؟ لا، بل ما هي إلا أيام، حتى امتطى الجواد فارسان من فرسان الإسلام، أمضى عزيمة، وأقوى شكيمةً، فلله در أميرنا ووزيره، فبدأت الأسود تسطر الأيام السود على الرافضة في بغداد والجنوب، وسالت دماء الصحوات حتى أصبح لون الفراتين أحمر، وقطعت رؤوس المرتدين وأمست المفخخات إلى الجنة معبرا، وقامت دولة العراق الإسلامية، بأشلاء المجاهدين الذين وهبوا الله أرواحهم ودماءهم.

فكانت سنّة الله في الجهاد، أن من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، فنال الشيخان الحسنى، وارتقيا شهيدين -كما نحسبهما- بعد معركة ضروس استمرت ساعات ضد الصليبيين والرافضة والمرتدين، فخلفهما من حمل الراية من بعدهما، ويعلي الله بنيان الدولة الإسلاميّة في عهده، ويشتدّ عودها أكثر ممّا سبق،و الحمد لله من قبل ومن بعد.


الشيخ أبو مالك التميمي تقبله الله

قرأنا أن التاريخ يدور ويعيد نفسه، فكما كانت أيام أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- أيام عقيدة وثبات تجسدت فيها معاني الولاء والبراء واليقين بموعود الله وقتال كل من يرتد عن دين الله ويمتنع عن شريعة من شرائع الله، كانت أيام أميرنا ووزيره -تقبله الله- أيام ثبات وصدق، أيام قتال المرتدين والرافضة والصحوات والمتنعين والديمقراطيين، وكما كانت أيام عمر -رضي الله عنه- أيام فتح ونصر، فقد امتازت فترة مولانا أمير المؤمنين إبراهيم بالتمدد إلى ساحة الشام المباركة، ومن ثم إعلان الخلافة والتمدد إلى جزيرة العرب واليمن وسيناء وليبيا والجزائر وخراسان والقوقاز وغيرها ولا زالت -بفضل الله- باقية وتمتد، لن يؤثر فيها ارتقاء قائد ولا استشهاد أمير.

كتبت هذه الأحرف تعجبا من فرح المنافقين باستشهاد إخواننا، وطربهم بمقتل قادتنا وأمرائنا، من المجاهدين أولي السبق والبلاء الحسن ويكفي هولاء أن يتدبروا في حال الدولة الإسلامية بعد مقتل شيوخها، فبعد أن سالت دماء أبي أنس الشامي كانت البيعة المباركة، وبعد دماء الزرقاوي كانت دولة العراق الإسلامية، وبعد دماء أميرنا ووزيره كانت الدولة الإسلامية في العراق والشام، وبعد دماء حجي بكر وأبي أسامة المغربي وقوافل الشهداء اتقدت شعلة الخلافة حتى غدت منارا لكل من يفرّ بدينه باحثا عن الحق، وبعد دماء أبي مهند السويداوي كان فتح الرمادي، وبعد دماء أبي مالك التميمي كان فتح السخنة وتدمر.

يفرحون بقتل قادتنا، ونحن نفرح أكثر من فرحهم، بأن الله اصطفاهم شهداء ورزقهم الحسنى، وقد استقرأنا تاريخ الجهاد المعاصر، فوقفنا على أن استشهاد القادة بركة للجهاد والمجاهدين، فاستبشروا يا أهل الجهاد باستشهاد قادتنا واصطفائهم، فوالله إن دماءهم نور للمجاهدين، نار تلظى على الكافرين، نسأل الله تعالى أن يتقبل إخواننا الشهداء، وأن يلحقنا بهم، وأن يثبتنا على الحق حين يفتن الناس.

طواغيت.. ومرتدون.. ولو تعلقوا بأستار الكعبة

بسم الله القوي القائل: ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾، والصلاة والسلام على النبي القائل: (اللهم منزل الكتاب سريع الحساب هازم الأحزاب، اللهم اهزم الأحزاب وزلزلهم)، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ثم أما بعد:

فإنه وبعد وفاة النبي ﷺ عصفت بالأمة محنة كادت تزري بها وتطيح بهيبة الدولة الإسلامية، إذ ارتدّت عن دين الإسلام أغلب قبائل العرب، ولكن الله سبحانه قدَّر فلطف، فسخر لأمتنا رجلا، عزم على التصدي للمرتدين، الذين لم يحكموا بغير ما أنزل الله، ولم يوالوا مشركا أو يحالفوا كافرا، ولم يجعلوا من ديارهم قواعد عسكرية ينطلق منها علوج الكفر للإغارة على المسلمين، وإنما ارتدوا عن دين الله لمجرد امتناعهم عن أداء ثالث ركن من أركان الإسلام، ففرقوا بين الصلاة والزكاة، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله وعن أبيها قالت: "قُبض النبي ﷺ وارتدت العرب، فنزل بأبي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها، ارتدت العرب واشرأب النفاق بالمدينة، فوالله ما اختلف الناس في نقطة إلا طار أبي بحظها وعنائها" [رواه أحمد].

فجيّش الصديق رضي الله عنه وأرضاه للمرتدين أحد عشر جيشا، وقاتلهم قتالاً لا هوادة فيه، وإن خالفته حينها الأمة بأسرها وعلى رأسهم الفاروق عمر رضي الله عنه بادئ الأمر، فعن أبي هريرة قال: "لما توفي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر واستُخلف بعده وكفر من كفر من العرب، فقال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله)؟ فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقا [وفي رواية: عقالا] كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق" [متفق عليه].

مفارقة عجيبة حقا؛ فالمتأمل في شخصية أبي بكر وشخصية عمر رضي الله عنهما، يرى أن من قرر خوض قتال المرتدين هو الصدِّيق، ذاك الأسيف الحليم، ومن عارضه هو الفاروق، ذاك الشديد قوي الشكيمة، فأخمد الله (تعالى) بالصديق ما قد اضطرم من نيران الردة.

نور رباني وهداية إلهية بحتة لخليفة رسول الله ﷺ أن حكم الردة أغلظ من حكم الكفر الأصلي، ولأن خطر المرتدين على الأمة أشد وأعظم من خطر الكفار الأصليين، جعل الله تعالى عقوبة المرتد أشد وأعظم من عقوبة الكافر الأصلي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وكفر الردة أغلظ بالإجماع من الكفر الأصلي" [مجموع الفتاوى].

وقال أيضا: "وقد استقرت السنة بأن عقوبة المرتد أعظم من عقوبة الكافر الأصلي من وجوه متعددة، منها أن المرتد يقتل بكل حال ولا يضرب عليه جزية، ولا تعقد له ذمة، بخلاف الكافر الأصلي الذي ليس هو من أهل القتال، فإنه لا يقتل عند أكثر العلماء كأبي حنيفة ومالك وأحمد، ولهذا كان مذهب الجمهور أن المرتد يقتل كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد، ومنها أن المرتد لا يرث ولا يناكح ولا تؤكل ذبيحته، بخلاف الكافر الأصلي إلى غير ذلك من الأحكام" [مجموع الفتاوى].

انظر -رحمك الله- أنك متى ما أردت أن تعامل مرتدا وكافرا أصليا وفق الشرع فعليك أن تدعو الثاني للإسلام أولا، وإن أبى فجزية ويبقى السيف آخر الطب معه. أما المرتد فيُقاتَل ويُقتَل والمهدِر لدمه هو الكفر بعد الإيمان، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فإنه لو لم يُقتل ذلك -المرتد- لكان الداخل في الدين يخرج منه؛ فقتله حفظ لأهل الدين وللدين؛ فإن ذلك يمنع من النقص ويمنعهم من الخروج عنه" [مجموع الفتاوى].

والصحابة رضوان الله عليهم قد التزموا بهذا الأمر، وساروا على هذا النهج في تعاملهم مع من بدل دينه؛ وقد كان معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهما أميرين في اليمن، فزار معاذ يوما أبا موسى فإذا رجل موثق، فقال معاذ: "ما هذا؟"، قال أبو موسى: "كان يهوديا، فأسلم ثم تهوّد"، ثم قال: "اجلس"، فقال معاذ: "لا أجلس حتى يُقتل قضاءَ الله ورسوله" -ثلاث مرات- فأمر به فقُتل [رواه البخاري].

جهاد المرتدّين قبل الكفار الأصليين

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : "والصدِّيق وسائر الصحابة بدؤوا بجهاد المرتدين قبل جهاد الكفار من أهل الكتاب، فإن جهاد هؤلاء حفظ لما فُتح من بلاد المسلمين وأن يدخل فيه من أراد الخروج عنه، وجهاد من لم يقاتلنا من المشركين وأهل الكتاب من زيادة إظهار الدين، وحفظ رأس المال مقدم على الربح" [مجموع الفتاوى].

هكذا إذن، حفظ رأس المال مقدم على الربح، فهل أبقى مرتدو اليوم من أمراء أشقياء ورؤساء خبثاء رأس مال أصلا؟ أم أنهم قد ضيعوا الدين وعاثوا في الأرض فسادا، وأهلكوا الحرث والنسل؟ وفقأ الله كل عين لا تراهم اليوم أولياء للكفرة أو تشك في ردتهم.

قال الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: "واعلموا أن الأدلة على تكفير المسلم الصالح إذا أشرك بالله، أو صار مع المشركين على الموحدين ولو لم يشرك، أكثر من أن تحصر، من كلام الله، وكلام رسوله، وكلام أهل العلم كلهم" [الدرر السنية].


الطاغوت الصغير محمد بن سلمان يسعى لتشكيل تحالف خادم للتحالف الصليبي ضد الدولة الإسلامية

فالأدلة طافحة في تكفير من ناصر الكفار على المسلمين ولو بشق كلمة، فكيف بمن فتح دوره لليهود والنصارى وقال هيت لكم، استحلوا الدماء واستبيحوا الأعراض وانهبوا الثروات!

روى ابن أبي حاتم، عن محمد بن سيرين، قال: قال عبد الله بن عتبة: "لِيَتَّقِ أحدكم أن يكون يهوديا أو نصرانيا، وهو لا يشعر، قال: فظنناه يريد هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾".

وقال ابن حزم الأندلسي: "صح أن قوله (تعالى): ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ إنما هو على ظاهره بأنه كافر من جملة الكفار، وهذا حق لا يختلف فيه اثنان من المسلمين" [المحلى].

وقال الشيخ حمد بن علي بن عتيق رحمه الله : "وكذلك من تولى الترك، فهو تركي، ومن يتولى الأعاجم فهو عجمي، فلا فرق بين من تولى أهل الكتابين أو غيرهم من الكفار".

وكذا من تولى أمريكا وبريطانيا وفرنسا وروسيا وإيران وغيرهم فهو منهم.

لقد بحّت حناجر الصادقين من مشايخ ومجاهدين، وهم يصدعون بكفر حكام العرب قاطبة، ولكن قاتل الله التجهّم وبلاعمته، الذين ضلوا في مسمى الإيمان والكفر، وقالوا الإيمان مجرد المعرفة، أو الاعتقاد، وأحسنهم حالا من زاد نطق الشهادتين، فنخروا جسد الأمة بشبهاتهم الموبوءة، فلا ضير من أن تستبدل بالشريعة الإلهية القوانين وضعية، أو أن ترتدي صليبا، أو توالي كافرا، أو تأتي بمشرك على ظهر أباتشي أو (إف ١٦) إلى جزيرة العرب، أو تقبل بدين آخر غير الإسلام وتقيم له المحافل تحت مسمى حوار الأديان، والله (تعالى) يقول: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، أو تضخ أموال المسلمين في خزائن الصليب لتكافح الإسلام وأهله، لا ضير من كل ذلك طالما أن منبر الحرم بات مذياعا للكفر، محاربا لله ورسوله، ظهيرا لأمريكا وأذنابها، وهكذا أغلق باب الردة، وأوصد باب الولاء والبراء، وأقفل باب الجهاد، ولولا أن الله تعالى حافظ لكتابه العزيز، لطمست آيات وآيات.

خيل الصليبيين عاثت في الحمى
وعلا عروش الملك أرعن نابح
سلّوا خناجر غدرهم وبدا لنا
من كل صوب صِلٌّ غدر طافح

ولكن شاء الله تعالى أن تقوم دولة الإسلام من جديد، وتعود للدين هيبتُه، وإن سأل سائل كيف؟ فأقول له: بينك وبين الحق -بعد هداية الله تعالى- تحريك فأرة وضغطة زر، اختر أي متصفح شئت واكتب في خانة البحث "دولة العراق الإسلامية"، ثم ابدأ رحلة الشجون، رحلة الاستضعاف والخوف، رحلة الحاجة والفقر، رحلة الأسر والبتر، رحلة الجوع والعطش، رحلة الحر والقر، رحلة الصحراء والتشريد، رحلة الجهاد والاستشهاد!

ألم تك راية التوحيد قامت
من الأشلاء تختضل اختضالا؟
ألم تُسقَ بهبهب من وريد
أذل الكفر إذلالا وهالا؟
أما سالت من الثرثار روح
تحث على معاركنا الرجالا؟

أم أنك أيها السائل تظن أن زمان العزة هذا قد عاد دونما ثمن؟ بل بأثمان وأثمان! أو تظن أن الدولة الإسلامية التي بات العالم بأسره لا ينام ولا يصحو إلا على فعالها وأمجادها قد عادت دونما بذل وعطاء؟ أوتظن أن الحكم الطاغوتي قد كسر، وأشرقت الخلافة على منهاج النبوة دونما تمحيص وابتلاء؟

نعم لقد عادت دولة الإسلام رغم كيد كل كافر ومرتد ومنافق، عادت لأن الغلبة لهذا الدين، وإن رغمت أنوف الصليبيين وطواغيت العرب وأحبارهم.

وما إن عادت حتى وقف العالم أجمع على أنامله، فقالت أمريكا المتغطرسة كعادتها: أنا أكفيكموها! فأبرقت وأرعدت ظانّة أن دولة الإسلام تنظيما هُلاميا، أو حزبا شركيا، أو جماعة سلمية، ولكن سرعان ما عادت أدراجها ولسان حالها: لا قِبَل لي بالخلافة وجندها، أين شركائي من العرب والعجم؟ فاجتمع الأحزاب من جديد، صليبيون ويهود وملاحدة ومرتدون ومائة سطر فوق "مرتدون"، فعنهم مدار مقالتي وحديثي.

تحالف المرتدون من جديد من حكام وشرطهم وجنودهم وبمباركة شيوخهم -وكما عهدناهم وعهدنا أجدادهم من قبل- مع الغرب الكافر بكل أطيافه وأصنافه، فكان ما يسمى بالتحالف الدولي (الصليبي) لمحاربة الدولة الإسلامية -المثبتة الأركان بإذن ربها- فقصفوا ودمروا وقتلوا، تماما كأسلافهم الهمج المتعجرفين، ولكن هذه المرة تغيرت النتيجة: دولة الإسلام باقية، بل ومع كل قصف فتح جديد وبيعة جديدة.

فشل ذريع وفضيحة كبرى لأعظم تحالف عرفه التاريخ ضد الإسلام وأهل التوحيد، فدبروا وقدروا وأبرموا حلفا جديدا ولكن هذه المرة مرتد بحت، وحاملة لواء الردة فيه وكالعادة ما تسمى بـ "السعودية"، وقد أسموه "التحالف العسكري الإسلامي"، وأسميته تاعس، اختصارا لمبناه، واحتقارا لمعناه، فتعسا لهم ونكسا وبؤسا!

عن نفسي لقد فرحت كثيرا لهذا التحالف الجديد، ورددت قول ربي المتعال: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾، وكيف لا أفرح وأنا أرى تدبير القدير في هؤلاء عليهم حيثما ثقفتموهم، فكل جندي منهم متعوس مهدور الدم وإن كان في غرفة نومه، اجلبوا عليهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، وكذلك كل لحية مزيفة تدعى زورا وبهتانا شيخا، ولا تجعلوهم يهنؤون بدرس ولا محاضرة، فأين الغيارى الثائرون لدماء المقرن والعوفي والدندني وإخوانهم؟ وها قد ظهر لكم قاتلوهم اسما ورسما فأين


علماء الطاغوت في بلاد الحرمين وظفوا حتى منبر المسجد الحرام لخدمة أسيادهم

المرتدين، أتون الحرب، هكذا سيكونون وهكذا يجب أن يكونوا، فعلى الأمة الخلاص منهم أولا حتى يَخلو لجند الخلافة بعدها وجه أمريكا ومن في حزبها، ويا لثارات الموحدين من المرتدين!

فما من مجاهد في دولة الإسلام إلا ويقاتل وعيونه على مرتدي أرضه التي منها خرج، كلٌّ ينتظر العودة فاتحا، ودون الفتح أنهار من دماء المرتدين النجسة، وأكداس من أشلائهم العفنة، وليؤذنن فوق جماجمهم في كل قطر منا مؤذن: الله أكبر! دين الله غالب!، و﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾.

كم رددت الألسنة وهي ترى الردة ترغو في ديار المسلمين، قديما: ردة ولا أبا بكر لها، كنا نهمس بها بمرارة وضعف، أما اليوم فنهتف بها عاليا لتصم آذان الكفر والنفاق: ردة وأبو بكر لها، ردة باردة لا تسخنها إلا حرارة سيوف حفيد رسول الله ﷺ .

تعساء آل سلول لا أمن لهم

فيا أهل التوحيد وجند الله في الأرض، ها هم قد تعسوا فجاؤوكم بتاعس، فلا تنتظروا ملاقاتهم في سوح النزال، أجهزوا الذئاب المنفردة؟ ويا لثارات الزهراني والطويلعي والحميدي!!!

فأين من يشفي صدور المؤمنين من مشايخ آل سلول الذين كبرّوا وهلّلوا لإعدام إخواننا؟ أوَيُقتَل أهل الحق صبرا بضربة سيف الباطل؟ أوَيُعدِم الأنجاسُ أهلَ الهدى ثم يعتلي أهل الضلال الملتحون المرتدون منبر القعود "تويتر" ليباركوا الإعدام ويدعوا لآل سلول ثم لا تذيقونهم حرارة سكاكينكم؟ فلا تكونن أسلحتكم من الظالمين وأعوانهم ببعيد.

إنهم ورثة بلعام بن باعوراء المسبحين بحمد الطواغيت، ولولا فتاواهم لما ثبت لطاغية عرش، ولما افتتن امرؤ في دينه إلا ما شاء الله، هم الذين يكتمون ما أنزل الله ويروجون لما قاله السلطان ووافق هواه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: (من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلاطين افتتن) [رواه الترمذي].

وفي رواية، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (من بدا فقد جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلاطين افتتن، وما ازداد عبد من السلطان دنوا إلا ازداد من الله بعدا) [رواه أبو داود].

هذا فيمن أتى أبواب السلاطين الظالمين؟ فكيف بمن أتى أبواب السلاطين المرتدين؟ بل كيف بمن كان بابَهم إلى كل كفر، ومفتاحَهم إلى كل شر؟!

فهؤلاء الطغمة قد دخلوا قصور الطواغيت وتمرغوا على بلاطهم، فافتُتِنوا وفَتَنوا وضلوا وأضلوا وباتوا سلما على أعداء الله حربا على أوليائه.

قال سفيان الثوري: (إن دعوك لتقرأ عليهم: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلا تأتهم) [رواه البيهقي]، وهؤلاء الخائنون لله ولكتابه قد دعاهم الحكام الكفرة لا ليقرؤوا عليهم ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وإنما ليقروهم على ردتهم وعداوتهم للإسلام وأهله، فكان لهم ما أرادوا واشتروا ذممهم بثمن قليل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وما الفرق اليوم بين عبد العزيز آل الشيخ وصالح الفوزان وعائض القرني ومحمد العريفي وعبد الرحمن السديس وغيرهم من بلاعمة الطواغيت، وبين الجعد بن درهم والحلاج والجهم بن صفوان؟ تغيرت الوجوه والأسماء ومناطات التكفير وبقي الكفر واحدا.

ولله در ابن القيم إذ يقول في نونيته فرحا بمقتل الجعد:

ولأجل ذا ضحى بجعد خالد الـ
قسري يوم ذبائح القربان
إذ قال إبراهيم ليس خليله
كلا ولا موسى الكليم الداني
شكر الضحية كل صاحب سنة
لله درك من أخي قربان

نعم مرتدون ولا كرامة، ومن أظهر لنا الكفر أظهرنا له التكفير وإن كان شيخا قد طالت لحيته، وذاع على قنوات الطاغوت صيته، فليسوا أمام تعبّد الحلاج وتنفّله لله بشيء، فقد روي عنه أنه كان يصلي في اليوم والليلة ثلاثمائة ركعة سوى الفرائض، ومع ذلك فقد قال ابن كثير: "وقد اتفق علماء بغداد على كفر الحلاج وزندقته، وأجمعوا على قتله وصلبه، وكان علماء بغداد إذ ذاك هم الدنيا" [البداية والنهاية].

نعم، من أقر أمريكا على حربها للدولة الإسلامية مرتد، ومن دخل في حزبها مرتد، ومن دعا لتاعس بالنصر مرتد ومن فرح لانحياز جند الخلافة من أرض يحكم فيها بشرع الله فدخلها الكفار مرتد، ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾.

فاللهم منزل الكتاب سريع الحساب هازم الأحزاب، اللهم اهزم الأحزاب وزلزلهم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إلى المجاهدين في سبيل الله تعالى، جنود الدولة الإسلامية، نهدي لهم همسة من شيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن تيمية، وهي رسالة كتبها عام ٦٩٩ هجريا إلى المجاهدين في وقته، وذلك لما وصل المغول التتار إلى الشام وفر من فر وثبت من ثبت، فكتب الإمام المجاهد ابن تيمية رحمه الله:



رسالة من شيخ الإسلام إلى جنود دولة الإسلام

«أما بعد:

فإن الله عز وجل قال: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ}، وما أنزل الله في القرآن من آية إلا وقد عمل بها قوم، وسيعمل بها آخرون، فمن كان من الشاكرين الثابتين على الدين، الذين يحبهم الله ورسوله، فإنه يجاهد المنقلبين على أعقابهم، الذين يخرجون عن الدين، ويأخذون بعضه ويدعون بعضه، كحال هؤلاء القوم المجرمين المفسدين -يقصد الغزو المغولي الذي زحف لبلاد الإسلام ومن عاونهم من المرتدين آنذاك- فإن عسكرهم مشتمل على أربع طوائف:

معسكر التتار مشتمل على أربع طوائف

١. كافرة باقية على كفرها من الكرج والأرمن والمغل.

٢. وطائفة كانت مسلمة فارتدت عن الإسلام وانقلبت على عقبيها من العرب والفرس وغيرهم، وهؤلاء أعظم جرما عند الله وعند رسوله والمؤمنين من الكافر الأصلي.

٣. وفيهم أيضا من كان كافرا فانتسب إلى الإسلام ولم يلتزم شرائعه، وهؤلاء يجب قتالهم بإجماع المسلمين، كما قاتل الصديق -رضي الله عنه- مانعي الزكاة، وكما قاتل علي -رضي الله عنه- الخوارج.

٤. وفيهم صنف رابع، شر من هؤلاء، وهم قوم ارتدوا عن شرائع الإسلام وبقوا مستمسكين بالانتساب إليه.

فهؤلاء الكفار والمرتدون، كلهم يجب قتالهم بإجماع المسلمين، حتى يلتزموا شرائع الإسلام، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وحتى تكون كلمة الله -التي هي كتابه وما فيه من أمره ونهيه وخبره- هي العليا، هذا إذا كان الكفار قاطنين في أرضهم، فكيف إذا استولوا على أراضي الإسلام وصالوا على المسلمين بغيا وعدوانا!

واعلموا -أصلحكم الله- أن الناس في هذه الفتنة تفرقوا لثلاث فرق:

١. الطائفة المنصورة، وهم المجاهدون لهؤلاء القوم المفسدين.

٢. والطائفة المخالفة، وهم هؤلاء القوم، ومن تحيز إليهم من خبالة المنتسبين إلى الإسلام.

٣. والطائفة المخذلة، وهم القاعدون عن جهادهم، وإن كانوا صحيحي الإسلام.

فلينظر الرجل، أيكون من الطائفة المنصورة أم من الخاذلة أم من المخالفة؟ فما بقي قسم رابع.

واعلموا -رحمكم الله- أن الجهاد فيه خيري الدنيا والآخرة، وفي تركه خسارة الدنيا والآخرة، قال الله تعالى في كتابه: {قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ}، يعني: إما النصر والظفر، وإما الشهادة والجنة، فمن عاش من المجاهدين كان عزيزا كريما، ومن مات منهم أو قتل فإلى الجنة.

وقد اتفق العلماء على أنه ليس في التطوعات أفضل من الجهاد، فهو أفضل من الحج وأفضل من الصوم التطوع وأفضل من الصلاة التطوع، والمرابطة في سبيل الله أفضل من المجاورة بمكة والمدينة وبيت المقدس، حتى قال أبو هريرة، رضي الله عنه: «لأن أرابط ليلة في سبيل الله أحب إلي من أن أوافق ليلة القدر عند الحجر الأسود»، فاختار -رضي الله عنه- الرباط ليلة واحدة على العبادة في أفضل الليالي عند أفضل البقاع، ولهذا كان النبي -رضي الله عنه وأصحابه- يقيمون بالمدينة دون مكة؛ لمعان عدة، منها: أنهم كانوا مرابطين بالمدينة.

ليس في التطوعات خير من الجهاد



وهذا في الرباط فكيف بالجهاد؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في وجه عبد أبدا) [رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح]، وقال صلى الله عليه وسلم: (من اغبرت قدماه في سبيل الله حرّمهما الله على النار) [رواه البخاري]، وهذا في الغبار الذي يصيب الوجه والرجل، فكيف بما هو أشق منه، كالثلج والبرد والوحل؟

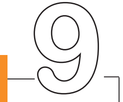
ولهذا عاب الله عز وجل المنافقين الذين يتعللون بالعوائق، كالحر والبرد، فقال سبحانه وتعالى: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ}، وهكذا الذين يقولون: لا تنفروا في البرد، فيقال لهم: نار جهنم أشد بردا.

فالمؤمن يدفع بصبره على الحر والبرد في سبيل الله حر جهنم وبردها، والمنافق يفر من حر الدنيا وبردها حتى يقع في حر جهنم وزمهريرها.

واعلموا -أصلحكم الله- أن النصرة للمؤمنين والعاقبة للمتقين، وأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن هؤلاء القوم مقهورون مقموعون، والله ناصرنا عليهم، ومنتقم لنا منهم، فأبشروا بنصر الله وبحسن عاقبته، وهذا أمر قد تيقنّاه وتحققناه، فلا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين.

واعلموا -أصلحكم الله- أن من أعظم النعم على من أراد الله به خيرا أن أحياه إلى هذا الوقت الذى يجدد الله فيه الدين، ويحيي فيه شعار المسلمين وأحوال المؤمنين والمجاهدين، حتى يكون شبيها بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، فمن قام في هذا الوقت بذلك كان من التابعين لهم بإحسان، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار.

فينبغي للمؤمنين أن يشكروا الله تعالى على هذه المحنة التي حقيقتها منحة كريمة من الله، وهذه الفتنة التي



باطنها نعمة، حتى -والله- لو كان السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي -رضي الله عنهم- حاضرين في هذا الزمان، لكان من أفضل أعمالهم جهاد هؤلاء القوم المجرمين.

ولا يفوت مثل هذه الغزاة إلا من خسرت تجارته وسفه نفسه وحرم حظا عظيما من الدنيا والآخرة، ما لم يكن ممن عذر اللهُ تعالى، كالمريض والفقير والأعمى وغيرهم، وإلا فمن كان له مال وهو عاجز ببدنه فليغز بماله، ففي الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (من جهز غازيا فقد غزا، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا).

من كان له مال وهو عاجز ببيته فليغز بماله

ومن كان قادرا ببدنه وهو فقير، فليأخذ من أموال المسلمين ما يتجهز به، سواء كان المأخوذ زكاة أو صلة أو من بيت المال أو غير ذلك، حتى لو كان الرجل قد حصل بيده مال حرام وقد تعذر رده إلى أصحابه لجهله بهم ونحو ذلك، أو كان بيده ودائع أو رهون أو عوار قد تعذر معرفة أصحابها، فلينفقها في سبيل الله، فإن ذلك مصرفها.

ومن أراد التخلص من المال الحرام والتوبة، ولا يمكن رده إلى أصحابه فلينفقه في الجهاد في سبيل الله، فإن ذلك طريق حسنة إلى خلاصه، مع ما يحصل له من أجر الجهاد.

ومن كان كثير الذنوب فأعظم دواء له هو الجهاد، فإن الله يغفر ذنوبه، كما أخبر -سبحانه- في كتابه بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.

وكذلك من أراد أن يكفِّر اللهُ عنه سيئاته في دعوى الجاهلية وحميتها فعليه بالجهاد؛ فإن الذين يتعصبون للقبائل وغير القبائل كل هؤلاء إذا قتلوا، فإن القاتل والمقتول في النار، فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار) [متفق عليه]، وقال: (من قتل تحت راية عمية: يغضب لعصبية، ويدعو لعصبية، فهو في النار) [رواه مسلم].

فعليكم بالجماعة، والائتلاف على الطاعة، والجهاد في سبيل الله، يجمع الله قلوبكم، ويكفر عنكم سيئاتكم، ويحصل لكم خير الدنيا والآخرة.

أعاننا الله وإياكم على طاعته، وصرف عنا وعنكم سبيل معصيته، وجعلنا وإياكم ممن رضي الله عنه ورضوا عنه، إنه على كل شيء قدير، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم».

من أراد أن يكفّر الله عنه سيآته فعليه بالجهاد

انتهى باختصار وتصرف يسير من مجموع فتاوى شيخ الإسلام، رحمه الله.

أقوال أهل العلم في حكم الروافض المرتدين

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فإن الشيعة الروافض طائفة شرك وردة وحرابة، ممتنعة بشوكة، صائلة على الإسلام والمسلمين، لذا وجب على كل مسلم تكفيرهم وجهادهم، لا فرق في الحكم بين آحادهم وجماعاتهم، رؤوسهم وأتباعهم، كلهم في الحكم سواء.

وقد تضافرت الأدلة النقلية من أقوال أهل العلم في تقرير ذلك الأصل، وفيما يلي أقوال في حكم الروافض المرتدين:

قال الإمام مالك: «الذي يشتم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ليس لهم سهم -أو قال نصيب- في الإسلام» [السنة، للخلال].

وقال القرطبي في تفسيره: «لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويله، فمن نقص واحدا منهم أو طعن عليه في روايته فقد رد على الله رب العالمين وأبطل شرائع المسلمين».

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: «سألت أبي عن رجل شتم رجلا من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ما أراه على الإسلام، وقال أيضا: وليست الرافضة من الإسلام في شيء» [السنة للخلال].

وقال الإمام أحمد بن يونس الذي قال عنه الإمام أحمد بن حنبل وهو يخاطب رجلا: «اخرج إلى أحمد بن يونس فإنه شيخ الإسلام»، قال: «لو أن يهوديا ذبح شاة، وذَبَح رافضيٌ، لأكلتُ ذبيحة اليهودي، ولم آكل ذبيحة الرافضي، لأنه مرتد عن الإسلام» [الصارم المسلول لابن تيمية].

وقال الإمام البخاري عن الرافضة: «ما أبالي صليت خلف الجهمي والرافضي، أم صليت خلف اليهود والنصارى، ولا يسلم عليهم ولا يعادون ولا يناكحون ولا يشهدون ولا تؤكل ذبائحهم» [خلق أفعال العباد للبخاري].

وقال ابن حزم عندما ناظر النصارى وأحضروا له كتب الرافضة للرد عليه: «وأما قولهم -يعني النصارى- في دعوى الروافض تبديل القرآن فإن الروافض ليسوا من المسلمين، إنما هي فرقة حدث أولها بعد موت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بخمس وعشرين سنة، وهي طائفة تجري مجرى اليهود والنصارى في الكذب والكفر» [الفصل في الملل والنحل لابن حزم].

> **الإمام البخاري: ما أبالي صليت خلف الجهمي والرافضي، أم صليت خلف اليهود والنصارى.**

قال الإمام الأوزاعي: «من شتم أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- فقد ارتد عن دينه وأباح دمه» [الشرح والإبانة لابن بطة].

قال الحافظ أبو زرعة الرازي: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة» [الكفاية في علم الرواية].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما من... زعم أنهم ارتدوا بعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلا نفرا قليلا لا يبلغون بضعة عشر نفسا أو أنهم فسقوا عامتهم فهذا لا ريب أيضا في كفره فإنه مكذب لما نصه القرآن في غير موضع من الرضى عنهم والثناء عليهم، بل من يشك في كفر مثل هذا فإن كفره متعين، فإن مضمون هذه المقالة أن نقلة الكتاب والسنة كفار أو فساق وأن هذه الأمة التي هي: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} وخيرها هو القرن الأول كان عامتهم كفارا أو فساقا ومضمونها أن هذه الأمة شر الأمم وأن سابقي هذه الأمة هم شرارها، وكُفر هذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام» [الصارم المسلول].

وقال ابن رجب الحنبلي: «ولهذا تشبهت الرافضة باليهود في نحو سبعين خصلة» [الحكم الجديرة بالإذاعة لابن رجب].

قال ابن القيم: «وأخرج الروافض الإلحاد والكفر، والقدح في سادات الصحابة، وحزب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأوليائه وأنصاره في قالب محبة أهل البيت والتعصب لهم وموالاتهم» [إغاثة اللهفان].

قال السمعاني: «واجتمعت الأمة على تكفير الإمامية، لأنهم يعتقدون تضليل الصحابة وينكرون إجماعهم وينسبونهم إلى ما لا يليق بهم» [الأنساب للسمعاني].

قال الإسفراييني في الرافضة: «واعلم أن جميع من ذكرناهم من فرق الإمامية متفقون على تكفير الصحابة، ويدَّعون أن القرآن قد غير عما كان، ووقع فيه الزيادة والنقصان... ولا مزيد على هذا النوع من الكفر، إذ لا بقاء فيه على شيء من الدين» [التبصير في الدين للإسفراييني].

سأل رجل الإمام الفريابي عمَّن شتم أبا بكر، فقال: «كافر»، قال: «فيصلى عليه؟» قال: «لا»، وسأله كيف يصنع به، فقال: «لا تمسوه بأيديكم ارفعوه بالخشب حتى تواروه في حفرته» [السنة للخلال].

قال الإمام الشعبي: «أحذركم الأهواء المضلة وشرها الرافضة، وذلك أن منهم يهودا يغمصون الإسلام لتحيا ضلالتهم، كما يغمص بولس بن شاول ملك اليهود النصرانية لتحيا ضلالتهم» [السنة للخلال].

وقال القاضي أبو يوسف صاحب أبي حنيفة: «لا أصلي خلف جهمي، ولا رافضي، ولا قدري» [شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي].

وقال ابن قتيبة: «غلو الرافضة في حب علي المتمثل في تقديمه على من قدمه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وصحابته عليه، وادعاؤهم له شركة النبي -صلى الله عليه وسلم- في نبوته وعلم الغيب للأئمة من ولده وتلك الأقاويل والأمور السرية التي جمعت إلى الكذب والكفر أفراط الجهل والغباوة» [الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة].

قال الطحاوي: «ونحب أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان» [العقيدة الطحاوية].

قال الإمام البربهاري: «واعلم أن الأهواء كلها ردية، تدعوا إلى السيف، وأردؤها وأكفرها الرافضة» [شرح السنة للبربهاري].

قال القاضي أبو بكر بن العربي: «ما رضيت النصارى واليهود في أصحاب موسى وعيسى ما رضيت الروافض في أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- حين حكموا عليهم بأنهم قد اتفقوا على الكفر والباطل» [العواصم من القواصم].

قال الشوكاني: «إن أصل دعوة الروافض كياد الدين، ومخالفة شريعة المسلمين والعجب كل العجب من علماء الإسلام، وسلاطين الدين، كيف تركوهم على هذا المنكر البالغ في القبح إلى غايته ونهايته! ... وبهذا يتبين أن كل رافضي خبيث يصير كافرا بتكفيره لصحابي واحد، فكيف بمن كفر كل الصحابة» [نثر الجوهر للشوكاني].

> **الشوكاني: إن كل رافضي خبيث يصير كافرا بتكفيره لصحابي واحد، فكيف بمن كفر كل الصحابة؟**

قال عبد القاهر البغدادي: «وأما أهل الأهواء من الجارودية والهشامية والجهمية والإمامية الذين أكفروا خيار الصحابة ... فإنا نكفرهم، ولا تجوز الصلاة عليهم عندنا ولا الصلاة خلفهم» [الفرق بين الفرق للبغدادي].

قال الشيخ محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب بعد نقله لأقوال ابن تيمية في تكفير الرافضة: «فهذا حكم الرافضة في الأصل وأما الآن فحالهم أقبح وأشنع لأنهم أضافوا إلى ذلك الغلو في الأولياء الصالحين من أهل البيت وغيرهم واعتقدوا فيهم النفع والضر في الشدة والرخاء ويرون أن ذلك قربة تقربهم إلى الله ودين يدينون به فمن توقف في كفرهم والحالة هذه وارتاب فيه فهو جاهل بحقيقة ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب فليراجع دينه قبل حلول رمسه».

وقال أيضا: «وأما مجرد السلام على الرافضة ومصاحبتهم ومعاشرتهم مع اعتقاد كفرهم وضلالهم فخطر عظيم وذنب وخيم يخاف على مرتكبه من موت قلبه وانتكاسه، وفي الأثر أن من الذنوب ذنوبا عقوبتها موت القلوب وزوال الإيمان» [الدرر السنية].

قال الشيخ أبو مصعب الزرقاوي: «فلقد قرأنا التاريخ واستقرأناه فلم نجد في ماضيه وحاضره ولا حتى إرهاصات مستقبله كمثل سيرة بل سوءة أصحاب الرفض، رفضهم الله كما لفظوا دينه ومنهاجه القويم واستبدلوه بالذي هو أدنى من خليط حقد وخزعبلات الفرس وتضاليل اليهود وضلال النصارى ليتناسب مع جميع أصحاب الديانات المُعادين لأهل الإسلام، فخرجوا بدين ممسوخ... وفي تكفيرهم ووجوب قتالهم أدلة من الكتاب والسنة».

وقال أيضا: «إن دين الرفض لم يقم أساسا ومنذ بداية ظهوره، وعلى مر الأزمان وحتى أيامنا هذه، إلا لغرض هدم الإسلام وبث الفتنة والفرقة بين المسلمين وتقويض دولة الإسلام، من خلال محاربة أهل السنة والجماعة، أعني بهم الجماعة الأولى التي استثناها الرسول -صلى الله عليه وسلم- من الثلاث والسبعين فرقة بالنجاة من النار ومن سار على نهجهم وليس هذا كلاما مبالغا أو متوهما ولا هو منكر من القول وزورا بل هذا ما قرره علماء السلف والخلف، فهو مخطط دبر بليل لم يقم من الأساس إلا لغرض هدم الدين» [هل أتاك حديث الرافضة للزرقاوي].

الحمو الموت

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

روى البخاري ومسلم عن عقبة بن عامر –رضي الله عنه- حديثا عظيما، وهو أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- حذر تحذيرا شديدا من اختلاط الرجال بالنساء ومن التقارب بين الجنسين، وشدد أكثر على مسألة جلوس الزوجة مع أخ الزوج أو قريبه، فقال:)إياكم والدخول على النساء)، قال رجل: «أفرأيت الحمو؟» قال: (الحمو الموت).

قال النووي في رياض الصالحين: «الحمو قريب الزوج كأخيه وابن أخيه وابن عمه».

وقال النووي أيضا: «وأما قوله صلى الله عليه وسلم: (الحمو الموت)، فمعناه أن الخوف منه أكثر من غيره، والشر يتوقع منه، والفتنة أكثر لتمكنه من الوصول إلى المرأة والخلوة من غير أن يُنكَر عليه بخلاف الأجنبي، والمراد بالحمو هنا: أقارب الزوج، غير آبائه وأبنائه، فأما الآباء والأبناء فمحارم لزوجته تجوز لهم الخلوة بها ولا يوصفون بالموت، وإنما المراد الأخ وابن الأخ والعم وابنه ونحوهم ممن ليس بمحرم، وعادة الناس المساهلة فيه ويخلو بامرأة أخيه فهذا هو الموت وهو أولى بالمنع من الأجنبي لما ذكرناه».

ولا ريب أن قريبات الزوجة أيضا فتنة للزوج فتحرم الخلوة بهن وأن يترکن الاحتجاب منه لأن النساء أعظم فتنة على الرجال كما قال صلى الله عليه وسلم: (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء) [متفق عليه].

ولا يصح أن يتذرع الرجل أو المرأة بالحرص أو العفة ونحو ذلك فقد وصف الله الإنسان بأنه ضعيف {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً} فقد يُقال لنا أن فلانا من الأقارب مأمون الجانب معروف بالأدب و العفة، فنقول: ينبغي أن نسلّم ألّا أحد معصوم من الشيطان، وأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم حتى لو كان هذا الرجل صالحا، فإن للشيطان مداخل وحيل كثيرة، ينبغي لمن أراد صيانة نفسه وعرضه أن يتأمل فيها ويتجنب القرب منها.

ولذلك سد الشارع كل الطرق التي قد تساعد في الوصول إلى الحرام؛ فحرّم على المرأة أن تتبرج وأن تخضع في القول للأجانب وأن تتعطر عند خروجها من بيتها وغير ذلك، لأن ذلك مدعاة ومُحسّن ومقرّب إلى المحظور و(من حام حول الحمى أوشك أن يرتع فيه) كما قال النبي صلى الله عليه وسلم.

وعن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (لا يخلونّ رجل بامرأة إلا مع ذي محرم) [متفق عليه]، وقال صلى الله عليه وسلم: (ألا لا يخلونّ رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان) [رواه الترمذي]، وقال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس بينها وبينه محرم) [رواه الإمام أحمد].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كان عمر بن الخطاب يأمر العُزاب ألا يسكنوا بين المتأهلين، وألا يسكن المتأهل بين العزاب، وهكذا فعل المهاجرون لما قدموا المدينة على عهد النبي، صلى الله عليه وسلم» وما هذا إلا خوف الفتنة، وهو المجتمع النقي الطاهر الديّن العفيف، رضي الله عنهم ورحمهم.

فعلى المسلم أن يحذر كل الحذر من هذا المنكر ويدفعه عنه كما يدفع النار أن تحرقه، وحرقٌ أعظم من حرق، فحرق الجسد أخف من حرق الدين والعرض والمروءة، و(من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان) [رواه مسلم]، فانظر أقاربك وجيرانك فحيث وجدت هذا المنكر فامتثل أمر نبيك –صلى الله عليه وسلم– وغيرّه. إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد والله أعلى وأحكم ولا حول ولا قوة إلا به.

الدعوة إلى الله تعالى تنبيهات ونصائح

الدعوة والأمر بالمعروف إذا ظهر تركه والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله ليس مخصوصا بأناس دون غيرهم، لا برجال الدعوة والحسبة ولا بأحد من الناس، بل هو شرف يستطيع أي مسلم أن يتقلده، شريطة أن لا يأمر الناس بأمر إلا وعنده عليه دليل من الكتاب أو السنة ولا ينهى الناس عن شيء إلا وهو متيقن أنه منكر وعنده على ذلك الدليل من الكتاب أو السنة كي لا يقع في مصيبة الابتداع في دين الله أو نهي الناس عن أمور أباحها الله أو اختلف العلماء فيها خلافا مستساغا، قال الله: { وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (*) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة النحل: ١١٦-١١٧]، ولا بد من الإشارة هنا إلى الفرق بين إنكار المنكر في حال رؤيته ومصادفته وبين الطريقة التي سنذكرها، فإنكار المنكر في حال رؤيته ومصادفته واجب حتم على كل مسلم كما أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بقوله: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) [رواه مسلم]، فلم يعذر النبي -صلى الله عليه وسلم- بالخجل ولا بعدم المعرفة ولا حتى بعدم المودة وإنما عذر فقط غير المستطيع، هذا في إنكار المنكر حال رؤيته، أما الطريقة التي يندب لها ويحث عليها فهي تخصيص وقت للدعوة إلى الله بالخروج للطرقات والأسواق وغيرها بحثا عن المعاصي والمنكرات من أجل إنكارها ومناصحة مرتكبيها وهذه من أعظم الأعمال التي ترفع صاحبها في الدنيا والآخرة، وهي من أقوى الطرق في تطهير وتنقية المجتمع المسلم، قال الله تعالى: { وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [سورة التوبة: ١٢٢]، وقال تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} [سورة هود: ١١٧]، وهنا عدة تنبيهات نسوقها لمن أراد أن يخصص شيئا من وقته لهذه الطريقة من طرائق الدعوة:

أولا: إخلاص النية لله والحذر من العجب والرياء وحب الظهور وغير ذلك من النوايا الفاسدة، وكذلك استشعار نعمة الهداية وشكره سبحانه عليها.

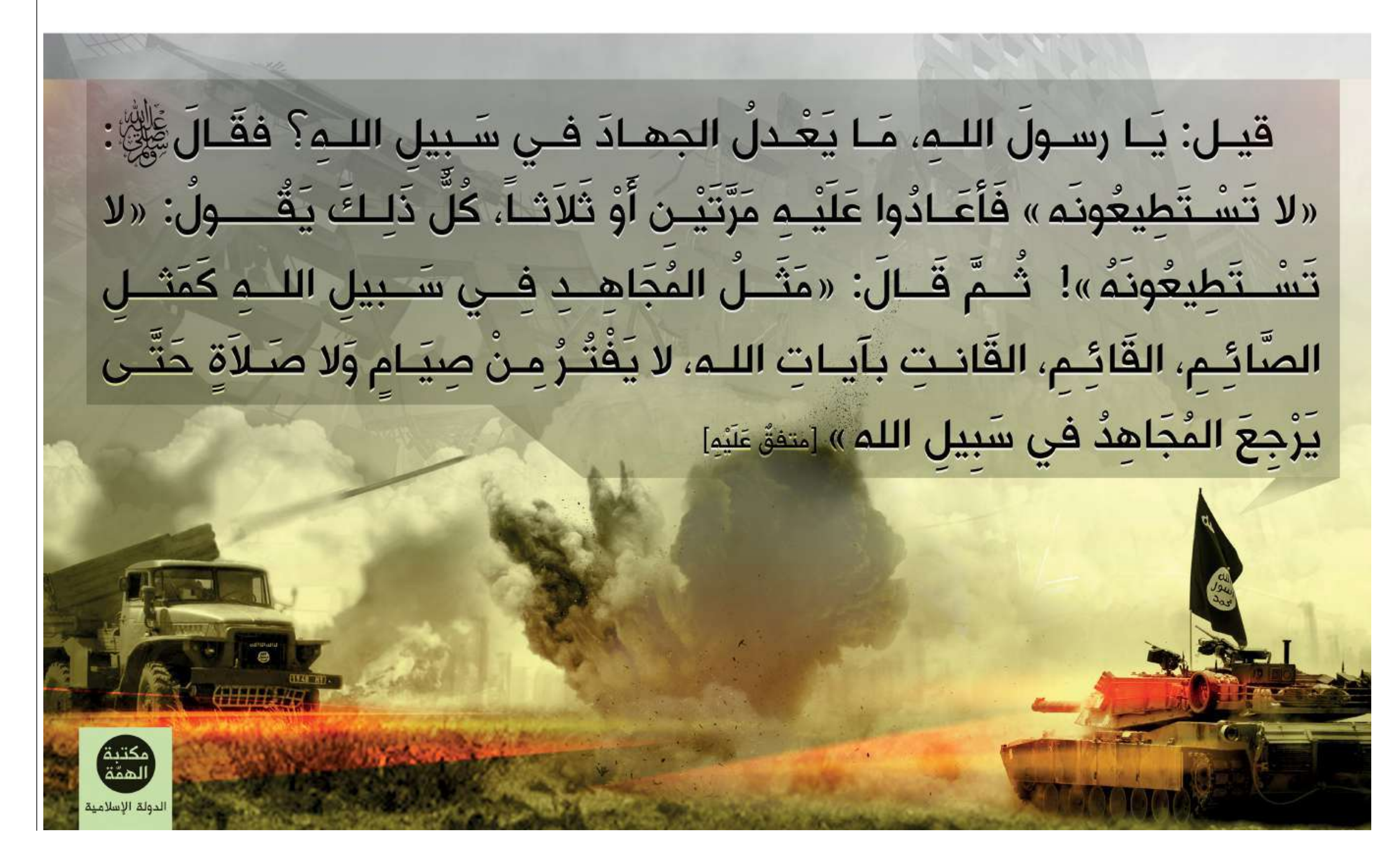
ثانيا: هذه الطريقة من طرائق الدعوة أمرها سهل ويسير على من يسره الله عليه ولا تحتاج إلى كثير علم واطلاع، بل يستطيع أي مسلم أن يقوم بها، بأن يخرج من بيته باحثا عن المنكرات لينكرها، سواء في الطرقات والأسواق أو حتى بالبحث والسؤال عن المقصرين والعصاة، كالسؤال عن المقصرين في عدم حضور الجماعة أو بعقوق الوالدين أو بأكل وشرب المحرمات أو غير ذلك، ثم الذهاب إليهم ومناصحتهم وتذكيرهم بتقوى الله، ولو استلزم الأمر طرق الباب عليهم في بيوتهم، وتكون النصيحة بكلمات يسيرة مع الدعوات الصادقة، فإن لهذه الطريقة أعظم الأثر في نفوس المقصرين.

ثالثا: الرفق واللين مع جهلة الناس، كما قال الله تعالى: {وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [سورة آل عمران: ١٥٩]، وإشعارهم بالحرص عليهم وإرادة الخير لهم.

رابعا: أن سالك هذا الطريق، طريق الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالذات قد يواجه أصنافا من الأذى والمضايقة والسخرية والاستهزاء والاتهام، فلا بد من توطين النفس على ذلك واحتساب الأجر عند الله، فهذه سنة الله وعلى قدر الإيمان يكون الابتلاء {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (*) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ} [سورة المطففين: ٢٩-٣٠].

خامسا: إذا قمت بالنصح عدة مرات بالحكمة والموعظة الحسنة ولم تجد استجابة، فلا تيأس ولا تمل فإن الأنبياء -عليهم السلام- لم يملوا ولم يكلوا ولم يكونوا يكتفون بالنصيحة مرة واحدة، بل كانوا يكررونها لعل الله أن يفتح على قلوب العصاة ويهديهم، وأوضح مثال على ذلك نوح عليه السلام، فقد استمر يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، ثم إنه بإمكانك بعد تكرارك النصيحة وعدم استجابة من نصحته أن ترفع أمره إلى السلطان ممثلا برجال الحسبة أعزهم الله، هذا في عموم المعاصي أما كبائر الذنوب، أو الذنوب التي يتعدى ضررها إلى الغير فانصح مرة واحدة فإن لم تجد الاستجابة فارفع الأمر مباشرة إلى السلطان حتى تبرئ ذمتك أمام الله سبحانه، وهذا ليس من الإفساد في شيء كما يعتقده بعض الناس بل هو عين الإصلاح، واحذر أشد الحذر من أن تعاقب أو تعزر على المعاصي بنفسك دون الرجوع إلى السلطان، فإن هذا باب شر وفتنة، وقد يترتب عليه من المفاسد أعظم من المنكر الذي أردت أن تنكره.

التنبيه السادس: احرص على أن تصحب معك في وقتك الذي خصصته للدعوة أخا صالحا يعينك على هذا العمل العظيم ويشد من أزرك، وفقنا الله وإياك إلى سبل الخير والفلاح.



القول على الله بغير علم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد تسرّع الناس هذا الزمان في الفتوى بعلم وبدون علم، والله المستعان، وإنه مما يعاب على المرء أن يقول بغير علم ويتكلم من حيثيات نفسه، ويطلق لسانه في غير فنّه بلا جادّة تُقلّه ولا علم يدلّه، ومن تكلم بغير فنّه أتى بالعجائب! نسأل الله أن يعصم المسلمين من الزلل وأن يحفظ ألسنتهم من العيب والخطل.

إن الشريعة قد نفّرت من الجهل في الدين، وحضت على العلم وطلبه، وبينت الفرق بين العالم والجاهل، فقال الله تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [سورة الزمر: ٩]، وما ذاك إلا لخطورة آثار الجهل في الدين وما ينتج عنه من عبادة الله بغير ما شرع، وإنشاء البدع والمحدثات.

قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [سورة الأعراف: ٣٣]، وقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) [رواه البخاري]، ومن هذا: القول على الله بغير علم.

عجبت لإدلال العييّ بنفسه
وصمتُ الذي قد كان بالقول أعلما
وفي الصمت ستر للعييّ وإنما
صحيفة لب المرء أن يتكلما

وأشد من عي اللسان عي الجهل وقلة العلم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وذكر العلماء أن الجاهل جهلا مركبا، هو الرجل الذي لا يعلم ويجزم أنه يعلم! وآخرون من الرجال يجهلون وهم مقرون بجهلهم، وقد عرفوا قدر أنفسهم، فلا يحملونها ما لا تطيق، وإن زل أحدهم رجع عن قوله بعد علمه بخطئه، وهذا هو ما يسميه أهل العلم بالجاهل البسيط وهو الجاهل الذي يدري أنه جاهل، وهذا سرعان ما تتقدم به المعرفة والعلم ويرتفع عن جهله شيئا فشيئا ما دامت هذه حاله، ولقد قال الخليل بن أحمد: الناس أربعة: رجل يدري ويدري أنه يدري فهذا عالم فالزموه، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري، فهذا غافل فنبهوه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فهذا مائق فاحذروه، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فهذا جاهل فعلموه؛ وقد قال الشاعر:

لما جهلتَ جهلتَ أنك جاهل
جهلا وجهلُ الجهل داء معضل

وقال الآخر:

ومن أعجب الأشياء أنك لا تدري
وأنك لا تدري بأنك لا تدري

ومن أعظم الأمور الإفتاء بغير علم، قال عز من قائل: {ولا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ} [سورة النحل: ١١٦]، وقال تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} [سورة الإسراء: ٣٦].

ولنا في السلف الصالح -رضي الله عنهم أجمعين- أسوة وقدوة، فقد كانوا كما يقول ابن القيم: وكان السلف من الصحابة والتابعين يكرهون التسرع في الفتوى، ويود كل واحد منهم أن يكفيه إياها غيره.

قال ابن عباس: كل من أفتى الناس في كل ما يسألونه عنه لمجنون.

وسئل الشعبي عن مسألة فقال: لا أدري، فقيل له: ألا تستحي من قولك لا أدري، وأنت فقيه أهل العراق؟ فقال: لكن الملائكة لم تستحِ حين قالوا: {لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا}.

ويقول عبد الله بن الإمام أحمد: كثيرا ما يُسأل الإمام أحمد عن المسائل فيقول: لا أدري، ويقف إذا كانت مسألة فيها اختلاف، وكثيرا ما يقول: سل غيري، فإن قيل له: من نسأل؟ قال: سلوا العلماء.

وقال أبو داود في مسائله: ما أحصي ما سمعت أحمد سُئل عن كثير مما فيه الاختلاف في العلم فيقول: لا أدري، قال: وسمعته يقول: ما رأيت مثل ابن عيينة في الفتوى -أي ما رأيت أحسن منه- وكان أهون عليه أن يقول: لا أدري.

وقال سحنون بن سعيد: أجسر الناس على الفتيا أقلهم علما، يكون عند الرجل الباب الواحد من العلم يظن أن الحق كله فيه.

وقال بعض السلف: ليتق أحدكم أن يقول: أحل الله كذا وحرم كذا، فيقول الله له: كذبت لم أحل كذا ولم أحرم كذا.

وقال ابن مسعود: أيها الناس من سئل عن علم يعلمه فليقل به، ومن لم يكن عنده علم فليقل الله أعلم فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم.

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: أدركت عشرين ومائة من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فما كان منهم محدثا إلا ود أن أخاه قد كفاه الحديث ولا مفتيا إلا ود أن أخاه كفاه الفتيا.

وقال الهيثم بن جميل: شهدت مالك بن أنس سُئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري.

وقال القاسم وابن سيرين: لأن يموت الرجل جاهلا خير له من أن يقول ما لا يعلم.

وقال سعيد بن جبير: ويل لمن يقول لما لا يعلم إني أعلم.

ويقول ابن المنكدر: المفتي يدخل بين الله وبين خلقه، فلينظر كيف يفعل فعليه التوقف والتحرز لعظم الخطر.

وبوّب البخاري: باب ما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يسأل مما لم ينزل عليه الوحي، فيقول: (لا أدري)، أو لم يجب حتى ينزل عليه الوحي، ولم يقل برأي ولا بقياس.

وما يضيرك أن تقول: لا أدري، وقد كثر في أجوبة الأئمة قول: لا أدري، بل قد كان النبي -عليه الصلاة والسلام- المؤيد بالوحي يُسأل فيسكت، ينتظر الوحي، وبعض الناس إذا سئل لا يترك السائل يكمل سؤاله، بل يبادر بالجواب قبل إكمال السؤال، وقد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كما في سنن أبي داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (من أفتي بغير علم كان إثمه على من أفتاه).

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد.



عبادة الجهاد وغايات المنحرفين

إنّ من أكثر الأمور التي خاض فيها المتفلسفون في أمر الجهاد، هو سؤالهم: هل الجهاد وسيلةٌ أم غايةٌ؟

والغالب على من يطرح هذا السّؤال أنّه يريد أن يمهّد لإطلاق تنظيراته العقيمة حول الجهاد والتي يجب أن تقوم على أساس أنّ الجهاد مجرد وسيلة! لكي يبني على أساس هذه القاعدة الفاسدة، أنّ الوسيلة إذا لم توصل إلى الغاية فلا فائدة منها، أو أنّ الجهاد يجب أن يُمارس بالطّريقة التي توصل إلى الغاية التي وضعوها هم لهذا الجهاد.

ففي منظورهم إذا كانت الغاية هي إخراج المحتلّ الكافر من أرض الإسلام فقط، فإنّ هذا العدوّ لا يواجه بالجهاد إلا في حالة عدم وجود وسيلة أخرى، فإذا أجبروا على اتّخاذ هذه الوسيلة، فإن هذا الجهاد يجب أن يمارس بأيّ طريقة يعتقدون أنّها توصلهم إلى إخراج المحتل، وعليه يكون هذا "الجهاد" مصمّماً على قياس هذه الغاية فقط، ولنا في فصائل العراق أيّام الاحتلال الأمريكيّ والتي أطلقت على عملها لقب "المقاومة الشّريفة" لتمييزه عن عمل المجاهدين وغايته أن تكون كلمة الله هي العليا، حيث اعتبرت هذه الفصائل أن توسيع دائرة القتال لتشمل المرتدين من الشّرطة والحرس الوثنيّ والصّحوات والرّافضة "جريمة" بناءً على قاعدتهم الفاسدة التي أطلقوها وهي "حرمة الدّم العراقيّ"، في نفس الوقت الذي توسّعوا في دائرة "جهادهم" ليشمل ذلك الجهاد المشاركة في البرلمان العراقيّ، وإقامة علاقاتٍ مع مخابرات الطّواغيت العرب في دول الجوار، بل وعقد جلسات تنسيقٍ مع المحتلّ الأمريكيّ.

وبالمثل إذا كان "الجهاد" وسيلةٌ لإسقاط طاغيةٍ فإنّ شكل هذا "الجهاد" وحجمه مصمّم وفق مقاييس الثّوار على هذا الطّاغية، ومتى ما ظنّ أصحاب هذا "الجهاد" أو ذاك أنّ الغاية التي يطلبون يمكن تحقيقها بوسائل أخرى بادروا إلى خلع اللباس العسكري والأحذية الثقيلة، وارتدوا البدل الرسميّة والأحذية اللامعة، ليطلقوا على عملهم الجديد اسم "الجهاد السّياسي"، رغم ما يتضمنه من الجلوس مع أعداء الأمس، ومع مخابرات الطّواغيت، وإطلاقهم للتّصريحات المداهنة للكفار، وغير ذلك من الأفعال المخزية، وفي قادة أكثر الفصائل في في ليبيا والشام هذا الزمان مثال ناصع على هذا النّموذج من المجاهدين المزعومين.

بل والأشنع أن يكون "جهاد" بعضهم لإقامة الدّيموقراطيّة، بزعمهم الضّال أنّها وسيلةٌ لإقامة الدّين، فتجد شيوخهم وزعماءهم يحرّضون الشّباب على هذا "الجهاد"، وينعتون من يقوم به و يقتل فيه بأنّهم "مجاهدون" أو "شهداء"، ومثل هذا القتال في سبيل الطّاغوت نجده في قتال الحركات المنتمية إلى فكر "الإخوان المسلمين"، والأمثلة على ذلك كثيرة لكن أشهرها تجربة مشاركة "الإخوان المسلمين في سوريا" في القتال ضدّ الطّاغوت (حافظ الأسد) قبل ثلاثة عقود حيث لم يستحِ قادتهم من إعلان أنّ هدف القتال الذي ساقوا إليه أتباعهم هو فتح المجال أمام الحريّات، وإتاحة المجال أمام المسار الدّيموقراطيّ لتداول السّلطة، وغير ذلك من الضّلالات، وكذلك تجربة مشاركة "جبهة الإنقاذ في الجزائر" في القتال ضدّ طواغيت الجزائر، حيث كان الهدف من تأسيس "جيش الإنقاذ" المرتبط بهم هو إجبار الطّواغيت على العودة إلى المسار الدّيموقراطيّ وإلى الانتخابات التي تمّ إلغاؤها، في الوقت الذي كان المجاهدون في الجزائر يعلنون بصراحة أنّ هدفهم إقامة الدّولة الإسلاميّة، لتكون أساساً لإقامة الخلافة الإسلاميّة في كلّ الأرض.

وفي كلا الحالتين، لم يحقّق هؤلاء الضّالّون غاية قتالهم الفاسدة، فضلاً عن تضييعهم للغاية الشرعيّة لقتال الكفّار، وهي أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن لا يبقى شرك في الأرض ويكون الدّين كلّه لله عزّ وجلّ.

وكذلك انحدر بعض ممّن خرجوا يزعمون جهاد الطّواغيت، وغايتهم (المعلنة) هي إقامة شريعة الله، فتكون كلمة الله هي العليا، فلما استبطؤوا النّصر، واستصعبوا الثّبات على الطّريق، واستعجلوا قطف الثّمار، وأحزنهم قلّة الصّاحب، وقلّة ذات اليد، وأرعبهم تكالب ملل الكفر عليهم، استزلّهم الشّيطان، فظهرت التّراجعات، وراجت "المراجعات"، بل بات الكثير من هؤلاء يستحي من وصف قتاله للطّاغوت أنّه جهاد، ويتباهى أنه لن يعود إلى "طريق العنف"، وأنّه سيسلك "السّبل السّلميّة" في طريقه إلى الوصول إلى الشّريعة التي يحلم بها، و"السّبل السّلميّة" التي يتكلّم عنها هؤلاء هي في الغالب الدّخول في البرلمانات الشّركيّة وموالاة المرتدّين من العلمانيّين الدّيموقراطيّين ممّن يصنّف في صفّ المعارضة السّياسيّة، وبالطبع لو سئل هذا المنتكس عن فعله لسمّاه "جهاداً" ولحرّف حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "أفضل الجهاد كلمة حقٍّ عند سلطانٍ جائرٍ" ليجعل المقصود منه هو معارضة الحاكم الجائر المبدّل للشّريعة، ولو دخل البرلمانات الشّركيّة، ولعلّ في قادة التّنظيم المسمّى "الجماعة الإسلاميّة في مصر" خير مثال على ذلك.

إنّ هذه الانحرافات في مفهوم الجهاد وغيرها إنّما تنشأ من السّبب الذي ذكرناه في البداية، وهو الجهل في غاية الجهاد ووظيفته.

فالجهاد في منظور هؤلاء وسيلةٌ من الوسائل التي يفهمها أهل الدّنيا، لها من القيمة بمقدار ما تحقّقه من الفائدة وتقلّل من التّكلفة، فإذا قلّت فائدتها أو زادت تكلفتها، وجب استبدالها بوسيلة أجدى في تحقيق غاياتهم، فيكون الجهاد والمنهج الذي يسير عليه -في هذه الحالة- تبعاً للنتيجة المتوقّعة منه، فإذا تحقّق له النّصر والفتح، أعلن أنّ "الجهاد هو الحلّ"!، وإذا تأخّر النّصر والفتح انقلب على عقبيه، وبحث عن "حلٍّ" آخر، بما أن الجهاد عنده هو "أحد الحلول المطروحة" لا أكثر! فكان حاله كما قال الله عزّ وجل فيه: (ومن النّاس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة)، فهو يتعبّد الله بالجهاد ما أصابه منه خير، فإذا أصابته فتنة في جهاده انقلب على عقبيه.

وهذه الأمثلة نجدها دائماً تظهر في صفّ المجاهدين، حيث يبرز المنافقون ومن في قلبهم مرضٌ مع كلّ مصيبةٍ تحلّ بالمجاهدين، ومع كلّ تراجعٍ يحصل معهم، ومع كلّ تأخرٍ في النّصر، ليشكّكوا المجاهدين في جهادهم، ومنهجهم، ودينهم، ويوسوسوا لهم بضرورة تغيير ذلك كلّه أو بعضه لتحقيق النّصر على الأعداء، فإذا ما فتح الله على عباده سكتوا وخنسوا.

أمّا المجاهد الحقّ فإنّه يجاهد طاعة لأمر الله الذي كتب عليه القتال، ولو كان الله أمره باتباع سبيل غيره في مدافعة الكفّار والمنافقين لالتزم بذلك ولم يقاتل مهما رأى في القتال من وسيلة مجدية لتحقيق غاياته، وهو يحرص كلّ الحرص على صحّة جهاده من حيث موافقته لأمر الله عزّ وجلّ، كونه عبادة من العبادات، ويقيّم صحّة هذا الجهاد بمقدار التزامه بضوابط الشّرع، وبمقدار اتّباعه فيه لهدي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وصحابته، لا بمقدار ما يتوقّعه منه من نتائج، والكلام هنا عن أصل الجهاد والقتال، لا عن أساليبه وإجراءاته التي تخضع لاجتهاد أمراء الجهاد في تقديرهم للطّريقة الأفضل في قتال العدو والتي تحقّق فيه أكبر نكاية وفي المسلمين أقل الخسائر، في إطار ضوابط الشّريعة ولا شكّ.

فالجهاد من حيث كونه عبادة لا يمكن تقييمه بناءً على ما ينتج منه من منافع أو خسائر ظنّيةٍ، وإلا لأمكن لأهل الضّلال تقييم كلّ العبادات بهذا الميزان المنحرف، فإذا كانت الصّلاة بالنسبة لفردٍ ما لا تنهاه عن الفحشاء والمنكر، فترك الصّلاة بالكليّة - في مقياسهم الفاسد - جائزٌ أو واجبٌ، وإذا كان الصّيام لا ينهاه عن قول الزّور والعمل به فالأولى الفطر وترك الصيام، وإذا كانت الزّكاة لم تؤدّ -في نظر أحدهم- إلى تنمية ماله وحفظه وتطهير نفسه، ظنّ أنه جاز له العدول عنها إلى وسيلة أخرى من وسائل تحقيق هذه الغايات التي كان يروجونها من عبادة الزكاة.

بل يجب على المسلم أن ينظر إليها أنّها عبادةٌ بشّر الله من عمل بها مخلصاً محتسباً بأعظم الثّواب، وتوعّد من تركها بغير عذرٍ شرعيّ بالعذاب الشّديد في الدّنيا والآخرة، بل من ترك العمل بها وهو يرى فيها شرّاً، أو يرى أنّ زمانها انتهى، أو أنّه يسعه عدم العمل بها بغير عذرٍ شرعيٍّ فقد خرج من الإسلام بالكليّة، بل إن امتنعت طائفةٌ من النّاس بشوكةٍ عن هذه العبادة لأي سببٍ كان اعتُبرت طائفةً ممتنعةً عن شرائع الإسلام وجب قتالها■

فضائل الرباط في سبيل الله

(الأمر بالرباط)

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: ٢٠٠].

قال ابن عباس (رضي الله عنهما): "{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا} على طاعة الله {وَصَابِرُوا} أعداء الله {وَرَابِطُوا} في سبيل الله" [تفسير ابن المنذر].

وكتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، يذكر له جموعا من الروم، وما يتخوف منهم، فكتب إليه عمر: "أما بعد، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة، يجعل الله له بعده فرجا، وإنه لن يغلب عسرٌ يسرين، وأن الله يقول في كتابه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: ٢٠٠]" [رواه مالك في الموطأ].

وقال الحسن البصري -رحمه الله- في تفسيرها: "أَمَرَهم أن يصبروا على دينهم، ولا يدعوه لشدة ولا رخاء، ولا سراء ولا ضراء، وأمرهم أن يصابروا الكفار، وأن يرابطوا المشركين" [تفسير الطبري].

وقال زيد بن أسلم رحمه الله: "اصبروا على الجهاد، وصابروا عدوكم، ورابطوا على عدوكم" [تفسير الطبري].

وقال قتادة رحمه الله: "أي اصبروا على طاعة الله، وصابروا أهل الضلالة، ورابطوا في سبيل الله {وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: ٢٠٠]" [تفسير الطبري].

وقال محمد بن كعب القرظي رحمه الله: "{اصْبِرُوا} على دينكم، {وَصَابِرُوا} الوعد الذي وعدتكم عليه، {وَرَابِطُوا} عدوي وعدوكم حتى يترك دينه لدينكم" [تفسير ابن المنذر].

في هذه الآية الكريمة أمر بالرباط المعروف في سبيل الله بالثغور كما فسرها عمر وابن عباس من الصحابة رضي الله عنهم، والحسن البصري وقتادة وزيد بن أسلم ومحمد بن كعب من التابعين رحمهم الله.

أما الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط"، فالحديث مثل الأحاديث التي فيها "المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله"، و"المهاجر من هجر ما كره الله"، و"الإسلام طيب الكلام وإطعام الطعام"، فهو لا يقصر معنى الرباط على انتظار الصلاة بعد الصلاة ولا يفهم من لفظه أن الحديث تفسير للآية، ولذلك قال الطبري -رحمه الله- في تفسيره، بعدما روى الحديث عن أبي هريرة: "قوله {وَرَابِطُوا} معناه: ورابطوا أعداءكم وأعداء دينكم من أهل الشرك، في سبيل الله، وأرى أن أصل الرباط: ارتباط الخيل للعدو، كما ارتبط عدوهم لهم خيلهم، ثم استعمل ذلك في كل مقيم في ثغر، يدفع عمن وراءه من أراده من أعدائهم بسوء، ويحمي عنهم



من بينه وبينهم، ممن بغاهم بشر كان ذا خيل قد ارتبطها، أو ذا رجلة لا مركب له وإنما قلنا: معنى {وَرَابِطُوا} ورابطوا أعداءكم وأعداء دينكم، لأن ذلك هو المعنى المعروف من معاني الرباط، وإنما توجه الكلام إلى الأغلب المعروف في استعمال الناس من معانيه دون الخفي، حتى يأتي بخلاف ذلك ما يوجب صرفه إلى الخفي من معانيه حجة يجب التسليم لها من كتاب أو خبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم، أو إجماع من أهل التأويل" [تفسير الطبري].

قال ابن قتيبة رحمه الله: "[أي] ورابطوا في سبيل الله، وأصل المرابطة الرباط: أن يربط هؤلاء خيولهم، ويربط هؤلاء خيولهم في الثغر، كلٌّ يعد لصاحبه، فسمي المقام بالثغور رباطا" [غريب القرآن].

وكثير من الناس لا يميزون بين الرباط والحراسة، فربما يكون المرء مرابطا ولا يكون حارسا، فالمرابط بالثغر ينام ويأكل ويمارس الرياضة ويتكلم مع أصحابه ويقرأ ويصلي قبل نوبة حراسته أو بعدها، وربما يكون مرابطا بالثغر يطبخ لغيره من المرابطين ويخدمهم وينتظر ويستعد لحماية الثغر ضد أي محاولة من الكفار للهجوم، لكن ليس له أي نوبة حراسة لاحتياج المجاهدين له في خدمة أخرى أثناء رباطه إن قرر ذلك أمراؤه، وهو مرابط حتى ولو لم تأت نوبة حراسته أو لا تأتي لفترة بعيدة أو لن تأتي أبدا، ما دام ملتزما بها مخلصا فيها إذا جاءت، وهو مرابط حتى لو كان الثغر الذي يحميه هادئا، وإن كان الأجر لحماية الثغور الخطيرة أكبر، والحراسة درجة أعلى من الجهاد أكرمه الله تعالى بها أثناء رباطه، وتجب عليه إذا ما أمره أمراؤه بها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله" [حسن: رواه الترمذي عن ابن عباس]، ما أعظمه من شرف أن يتعب المرء عينيه في حماية المسلمين!

(فضل من رابط يوما)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها) [رواه البخاري ومسلم عن سهل بن سعد].

وقال صلى الله عليه وسلم: (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأجري عليه رزقه وأمن من الفتان) [رواه مسلم عن سلمان].

وقال صلى الله عليه وسلم: (رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل) [حسن: رواه الترمذي والنسائي عن عثمان بن عفان].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: (رباط يوم في سبيل الله أحب إلي من أن أوافق ليلة القدر في أحد المسجدين: مسجد الحرام ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم) [سنن سعيد بن منصور].

والذي ييسر فهم هذا الأجر العظيم في الرباط هو معرفة المرء أن العُبّاد -بما فيهم العلماء- لا يستطيعون القيام بعباداتهم لولا المرابطون على الثغور، ولو أن المرابطين تركوا مواقعهم ولم يحموها، لصارت كل مدن المسلمين وقراهم مهددة بالغزو والنهب من قبل الكافرين، لذلك قال العلماء أن المرابط له أجر كل مسلم خلفه يعبد الله، حيث أن رباطه يمكنهم من الخشوع في عباداتهم، كما أن المسلم الذي يعتني بأهل المجاهد في غيابه له أجر غزوه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من خلف غازيا في سبيل الله بخير فقد غزا) [رواه البخاري ومسلم عن زيد بن خالد].

(السلف وأربعون يوما من الرباط)

جاء رجل من الأنصار إلى عمر بن الخطاب فقال: "أين كنت؟" قال: "في الرباط" قال: "كم رابطت؟" قال: "ثلاثين" قال: "فهلّا أتممت أربعين" [مصنف عبد الرزاق].

وإن ابناً لعبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- رابط ثلاثين ليلة ثم رجع فقال له ابن عمر: "أعزم عليك لترجعن فلترابطن عشرا حتى تتم الأربعين" [مصنف ابن أبي شيبة].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: "تمام الرباط أربعون يوما" [مصنف ابن أبي شيبة].

بسبب هذه الآثار وغيرها، عندما سئل الإمام أحمد "هل للرباط وقت؟"، أجاب: "أربعون يوما"، قال إسحاق بن راهويه: "[هو] كما قال" [مسائل الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه]، وهذه الآثار تدل على أن الأفضل للمرء إذا رابط أن يرابط أربعين يوما أو أكثر قبل أن يعود ليستريح، وهذا هو الرباط على منهج السلف.

(فضل من مات مرابطا)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله، فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتنة القبر) [صحيح: رواه أبو داود والترمذي عن فضالة بن عبيد].

وقد ذكرنا الحديث المرفوع الذي رواه مسلم عن سلمان الفارسي رضي الله عنه: (وإن مات فيه [أي في الرباط] جرى عليه عمله الذي كان يعمل وأجري عليه رزقه وأمن من الفتان) [رواه مسلم عن سلمان].

هذا الميتة العظيمة وهذا الأجر المضمون لكل مرابط توفي في رباطه حتى ولو كان سبب موته مرض أو كبر سن أو حادث عادي، وما أزكاها عندما تكون شهادة سببها القصف الجوي من قبل الصليبيين وحلفائهم المرتدين!

إن نمو عمل الميت ذُكر في حديث آخر، (إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له) [رواه مسلم عن أبي هريرة]، وإن أجر الصدقة والعلم والولد باق ما دامت الصدقة جارية وما دام ينتفع بعلمه وما دام ولده يدعو له، كما هو مفهوم هذا الحديث ومنطوق غيره، بينما نمو أجر من مات مرابطا هو مستقل عن أي شرط آخر، وهذا ليس إلا للمرابط! وهذا الأجر غير مذكور لشهيد المعركة، بل للمرابط الذي ربما مات في رباطه بكبر سنه أو مات في نومه مستريحا! وما أشرفها من ميتة! وهذا أكبر محرض يدعو المرء ليطلب من الله أشرف ميتة، الشهادة في سبيل الله في الرباط

الرباط وأفضل الجهاد

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أول هذا الأمر نبوة ورحمة، ثم يكون خلافة ورحمة، ثم يكون ملكا ورحمة، ثم يتكادمون عليها تكادم الحمير، فعليكم بالجهاد، وإن أفضل جهادكم الرباط، وإن أفضل رباطكم عسقلان) [رواه الطبراني بإسناد حسن].

يتكادمون: أي يعض بعضهم بعضا.

هناك روايات مشابهة تبين أن الرباط يكون أفضل الجهاد بعد انتهاء عصر الملوك الرحماء من الخلفاء، أثناء عصر الملوك المسلمين الظلمة، وكان ذلك قبل عصر الطواغيت المرتدين، والذي انتهى -إن شاء الله- بتجديد الخلافة، والله أعلم.

قال الإمام أحمد رحمه الله: " ليس يعدل الجهاد عندي والرباط شيء، والرباط دفع عن المسلمين، وعن حريمهم، وقوة لأهل الثغر ولأهل الغزو، فالرباط أصل الجهاد وفرعه، والجهاد أفضل منه للعناء والتعب والمشقة... أفضل الرباط أشدهم كَلَباً" [المغني].

وعليه، إذا لم يكن هناك حاجة لمزيد من المرابطين (وهو أمر لا يقرره سوى الإمام)، ولم يفضل المرء المعركة على الرباط بسبب قلة صبره أو غروره بعمله، وكان المرء مرابطا في أغلب وقته وسيعود إلى الرباط بعد المعركة، فإن القتال أفضل لما فيه من مخاطر ومشقة، وإلا على المرء أن يعرف أن التفكير في ترك الرباط لا ينبغي للمجاهد الصادق، ويصل هذا الترك إلى كبيرة من الكبائر إن تضمن الإعراض عن الرباط الضروري أو عصيان أوامر الأمراء، بل يصبح خطر التفكير هذا أشد عندما نرى الصليبيين والمرتدين لا يكلّون من التخطيط ومحاولة الهجوم على أراضي الدولة الإسلامية ومناطقها.

هداية الله وبركته للمرابطين

قال سفيان بن عيينة رحمه الله: "إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور فإن الله يقول: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [العنكبوت: ٦٩]" [تفسير ابن أبي حاتم؛ تفسير القرطبي].

وعزا شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم -رحمهما الله- هذه الحكمة إلى الأوزاعي وابن المبارك والإمام أحمد وغيرهم أيضا [مجموع الفتاوى؛ مدارج السالكين].

وبعد ذكر هذا الأثر عن ابن المبارك والإمام أحمد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وبالجملة إن السكن بالثغور والرباط والاعتناء به أمر عظيم، وكانت الثغور معمورة بخيار المسلمين علما وعملا، وأعظم البلاد إقامة بشعائر الإسلام وحقائق الإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان كل من أحب التبتل للعبادة والانقطاع إلى الله وكمال الزهد والعبادة والمعرفة يدلّونه على الثغور" [جامع المسائل].

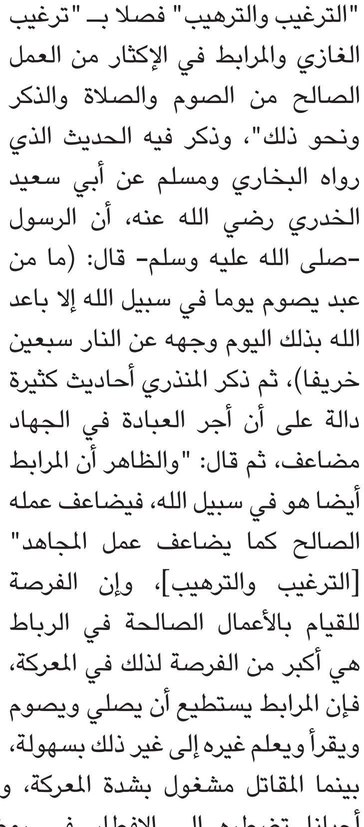
وبوّب المنذري -رحمه الله- في كتابه "الترغيب والترهيب" فصلا بـ "ترغيب الغازي والمرابط في الإكثار من العمل الصالح من الصوم والصلاة والذكر ونحو ذلك"، وذكر فيه الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قال: (ما من عبد يصوم يوما في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفا)، ثم ذكر المنذري أحاديث كثيرة دالة على أن أجر العبادة في الجهاد مضاعف، ثم قال: "والظاهر أن المرابط أيضا هو في سبيل الله، فيضاعف عمله الصالح كما يضاعف عمل المجاهد" [الترغيب والترهيب]، وإن الفرصة للقيام بالأعمال الصالحة في الرباط هي أكبر من الفرصة لذلك في المعركة، فإن المرابط يستطيع أن يصلي ويصوم ويقرأ ويعلم غيره إلى غير ذلك بسهولة، بينما المقاتل مشغول بشدة المعركة، والتي أحيانا تضطره إلى الإفطار في رمضان وتأخير الصلاة الواجبة (جمع تأخير).

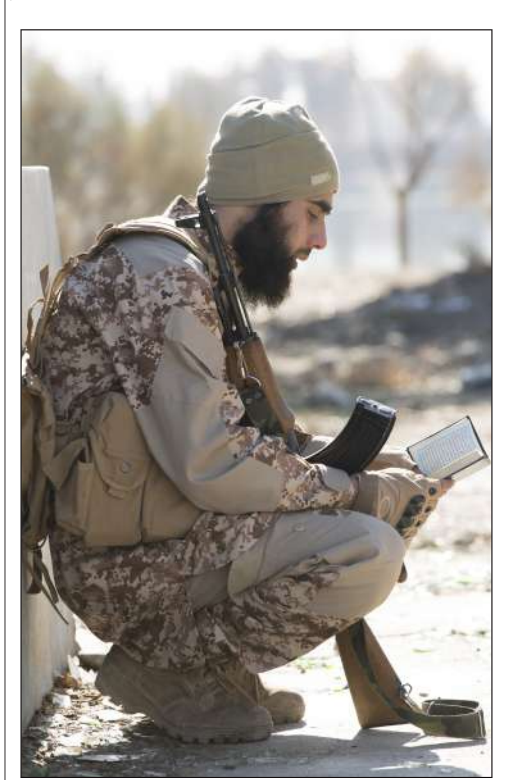
وهذه الآية وهي قول الله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [العنكبوت: ٦٩]، تبين أن طلب العلم أثناء الرباط مبارك بهداية الله لعبده، والمرابط يستطيع أن يحفظ القرآن ويدرس تفسيره ويحفظ الحديث ويدرس معناه ويدرس التوحيد والإيمان والتفسير والزهد والفقه والسيرة، وعندما يدعو الله أن يمكنه من العمل بعلمه الذي تعلمه، سيجد دعاءه مستجابا، وأن الله تعالى منحه الهداية الموعودة، وأن رباطه -إن شاء الله- سيثبت علمه في قلبه ويبقي أثره على لسانه وجوارحه، وهناك أحاديث تبين أيضا أن الرباط يضاعف بركات العبادات الأخرى التي يقوم بها المرابط في الثغور.

الرباط والطريق إلى الشهادة

منذ تجديد الجهاد قبل أكثر من ثلاثين عاما، ذكر أمراء الجهاد أن الجهاد لكل شخص يتضمن خطوات على طريق الشهادة، إذ يهاجر المرء أولاً إلى أراضي الجهاد (والهجرة هي الآن إلى دار الإسلام)، ثم يبايع على السمع والطاعة للأمير (والبيعة الآن للخليفة) والاعتصام بالجماعة (وهي الآن الخلافة)، ثم يعد العدة للتدرب في المعسكرات، ثم يرابط صابرا لأشهر ويخدم ساعات غير معدودة في الحراسة، ثم يُقاتِل ويَقتُل من يستطيع من العدو الكافر، ثم في النهاية يفوز بالشهادة، هذه الخطوات مبنية على نصوص من القرآن والسنة تربط هذه الأعمال بعضها ببعض، وعلى الخبرة المكتسبة من العيش في الجهاد يوما بعد يوم، وعلى مشاهدة الشهداء وقوافلهم، ولا شك أن هناك استثناءات في كل حين، كالمهاجر الذي يستشهد في معسكر التدريب أو المرابط الذي يستشهد في أول يوم من رباطه، لكن هذه الخطوات التي ينبغي أن يتمسك بها كل مجاهد حتى يزيد من ثمار جهاده، وإلا كيف يتوقع المرء أنه سيصبر في ساحة المعركة الشرسة وهو لا يستطيع أن يتحمل مشقة الرباط؟

نسأل الله تعالى أن يكرم كل مسلم بنعمة الرباط على ثغور الخلافة وأن يرزقه الصبر المحمود ليكون سببا لثباته حتى يلقى الله جل في علاه.





"جهاد" الإخوان والسرورية في سبيل الديموقراطية

إن أغلب الفصائل المسلحة الموجودة في ساحة الشام اليوم، ومثلها ما كان موجودا في ساحة العراق سابقا إنما تستقي فكرها ومنهجها بطريقة أو بأخرى من حركة "الإخوان المسلمين"، أو من تيار "السرورية" بوصفه النسخة السعودية المعدلة من الحركة، مهما حاولت هذه الفصائل أن تزعم الابتعاد عنها، وقامت بانتقاد منهجها.

وبالرجوع إلى فكر تلك الحركة المنحرفة ومعرفة منهجها، يمكننا تفسير الانحرافات في مناهج الكثير من الفصائل، والتي يعجز حتى أنصارها عن فهم سبب انتكاساتها المفاجئة بالنسبة لهم، ولعل في الانحرافات التي ظهرت من الفصائل خلال "مؤتمر الرياض" وعلى رأسها إقرارهم بالديموقراطية، والدولة المدنية، وغيرها من الكفريات، بعد سنوات من الزعم بأن غاية "جهادهم" هو تطبيق الشريعة الإسلامية مثال مناسب للبحث.

"منهج (حسن البنا) و(سعيد حوى) لا منهج الرسول صلى الله عليه وسلم"

يعتبر (سعيد حوى) واحدا من رموز "الإخوان المسلمين" في العالم كله، لا لكونه كان "المراقب العام للإخوان في سوريا" فحسب، بل لكونه أهم منظريهم خلال ربع القرن الماضي، وواضعا لبعض المناهج التي تدرس في حلقاتهم وأُسرهم على مستوى العالم، ومن خلال كتاباته يمكننا استخلاص البعض من أهم أسس النظرية السياسية عند "الإخوان المسلمين"، وهذه الأسس هي:

١- الديموقراطية:

موضحا أن الديموقراطية هي الأساس الذي ينبغي أن يقوم عليه نشاطهم، يقول (سعيد حوى) "إننا نحذر أنفسنا وإخواننا من محاربة الديموقراطية العملية، بل نرى أن المطالبة بمزيد من الديموقراطية هو الطريق العملي لانتصار الإسلام على أرض الإسلام، وقد فطن أعداؤنا لهذا فاغتالوا الديموقراطية وأوجدوا ديكتاتوريات وبدائل، وغفل الكثيرون من أبناء الإسلام عن الإيجابيات التي تقدمها لنا الديموقراطية، ونظروا إلى المسألة في إطارها النظري العقدي، ولم ينظروا في إطار الواقع الذي يقول إنه حيثما كانت الأكثرية فهي التي تحكم، ومبادؤها هي التي تسود" [جند الله – تخطيطا، ص ٨٣]، فالطريق إلى "انتصار الإسلام" وفق المنهج الإخواني المنحرف هو المطالبة بالمزيد من الديموقراطية، بغض النظر عندهم عن الجانب العقدي المتمثل في كونها أحد صور الشرك بالله، وأن من يمارس هذا الشرك أو يعين عليه أو يدعو إليه أو يرضى به يكون مشركا بالله تعالى، فالمهم عندهم ما يظنونه من "منافع" هذه الوسيلة الشركية من أنها ستؤدي إلى انتصار حركتهم الذي يسميه هذا الضال المضل "انتصار الإسلام"، بناء على أن المسلمين هم الأكثرية في "البلدان الإسلامية" وبالتالي إذا جرت انتخابات فإن هؤلاء "المسلمين" سينجحون في إيصال من يريدون لتحقيق الأغلبية في البرلمانات، وعن طريق هذه "الأغلبية البرلمانية" يمكن فرض تطبيق الشريعة، وهذه النظرية السياسية الفاشلة هي التي تحكم كل تحركات الإخوان في كل مكان منذ تأسيس حركتهم، ومنذ أيام مؤسسها (حسن البنا)، الذي رشح نفسه لانتخابات "المجلس النيابي" مرتين، انسحب من الأولى بسبب ترهيبه أو ترغيبه من قبل رئيس الحكومة (النحاس باشا)، فيما خسر في الثانية، متّهماً الإنكليز ورئيس الحكومة (أحمد ماهر) بتزوير الانتخابات.

وبناء على هذا الأساس نفهم طبيعة صراع "الإخوان المسلمين" في مصر اليوم مع الطاغوت (عبد الفتاح السيسي)، حيث فقد الآلاف من أنصارهم حيواتهم، وغيب منهم عشرات الألوف في السجون، وهم ليس عندهم إلا المطالبة بعودة الديموقراطية، وإزالة "حكم العسكر"، وغيرها من الشعارات التي ليس فيها ذكر لشريعة أو دين.

٢- احترام قوانين الطواغيت والعمل من خلالها:

الأساس الآخر لعمل "الإخوان المسلمين" يتمثل في أن عملها يكون في إطار طاعة قوانين الطواغيت والخضوع لها، وعدم مخالفة هذه القوانين، وبالتالي لا يكون الخروج على هؤلاء الطواغيت، ومخالفة قوانينهم إلا في حالة التهديد باستئصال حركتهم تماما من قبل الطواغيت، وفي هذا يقول (سعيد حوى): "إننا ندعو الإسلاميين في كل مكان في العالم إلى أن تبقى حركتهم ضمن القانون، وأن يطوروا وجودهم وحركتهم عبر القانون، ويجب أن يعرف العالم أن خطتنا السياسية لتحقيق أهدافنا لا تقوم على أساس ثورة في كل قطر، بل نحن نعتمد في حركتنا السياسية على نظرية تقول: إننا سنصل إلى كل أهدافنا المحلية والعالمية عبر القانون إذا أعطينا حرية عمل" [جند الله – تخطيطا، ص ١٢٤]، وبالتالي يكون "نضال" الإخوان في سبيل إقناع الحكومات الطاغوتية على السماح لهم بالعمل فقط، بناء على ظنهم أن ذلك سيؤدي لانتشارهم وشعبيتهم، واستقطابهم للمزيد من الأتباع، وبالتالي ازدياد قوتهم إلى الحد الذي يمكنهم من الوصول إلى الحكم، عن طريق الديموقراطية، أو عن طريق "الثورة" في حال حاول الطاغوت إضعافهم وكسر شوكتهم.

٣- استبعاد قتال الطواغيت إلا في حال سعيهم لاستئصال الحركة:

الأساس الثالث الذي يبني عليه "الإخوان المسلمون"، ومن نهل من فكرهم وعقائدهم وخططهم، هو أن القتال لا يكون إلا إذا أُجبروا عليه من قبل الطواغيت المرتدين أو الكفار الأصليين، وفي ذلك يقول (سعيد حوى): "سرى مفهوم خاطئ أن الجماعات الإسلامية تعد العدة للقتال في كل مكان وهذا ليس صحيحا، إن الحركة الإسلامية الحديثة لا تفكر في القتال إلا في أماكن محدودة لا يكون أمامها من خيار إلا أن تقاتل" [جند الله – تخطيطا، ص ٣٣].

وما جرى من محاولات فاشلة لهم للمشاركة في قتال الطواغيت، كما حدث في الشام، بتطفل قيادة تنظيمهم على الجهاد ضد الطاغوت (حافظ الأسد)، وتقديم أنفسهم أنهم قادة هذا الجهاد، وما حدث في الجزائر بتطفلهم على الجهاد وتشكيلهم "جيش الإنقاذ" وغيره، وادعائهم أيضا قيادة الجهاد في الجزائر، لم يلبثوا أن تراجعوا عنها، ودعوا إلى التصالح مع النظام بشرط فتح المجال أمام عملهم، والعودة إلى الديموقراطية، ومن ثم إلقائهم السلاح إلى الأبد، دون أن يجنوا من محاولاتهم على شيء، بل لم يتحصلوا من الطواغيت حتى على قانون يسهل لهم العودة للنشاط ولو من نقطة الصفر.

٤- العلاقة مع الطواغيت يحددها الطواغيت أنفسهم، من خلال نمط تعاملهم مع الحركة، بغض النظر عن كفر هؤلاء الطواغيت وحربهم على المسلمين:

الأساس الرابع لـ "الإخوان المسلمين" هو أن الأنظمة الطاغوتية هي التي تحدد شكل علاقة الإخوان بهم، فيقول (سعيد حوى): "الأنظمة بالنسبة للحركة الإسلامية الحديثة مختلفة، فهناك نظام لا نفكر في أن نتعامل معه إلا في حدود النصيحة، وهناك نرغب أن نتعامل معه في حدود القانون ، وهناك أنظمة يفترض علينا أن نقاتلها، فهناك حالات يكون القتال فيها على المسلم فرض عين، على أنه حتى في هذه الحالات فقد لا نقاتل لموانع قدرتها الشريعة".

كما حدث معهم أيام الطاغوت (الملك فاروق) حيث كانت العلاقة الحسنة بين (حسن البنا) وكل من (الملك فاروق) ورؤساء حكومته المتعددين هي الغالبة، رغم كفرهم وعمالتهم للإنكليز، ولم تكن تتوتر إلا عند محاولاتهم الضغط على "الإخوان المسلمين" أو تقييد حركتهم، ومنعهم من إصدار جريدتهم.

"الإخوان والسرورية لا يؤتمنون على الجهاد"

وبناء على ما سبق يمكننا إدراك حقيقة النظرية السياسية للإخوان في باب التعامل مع الطواغيت، والتي تقوم على استجداء الطواغيت مساحة للعمل لا أكثر، وخروجهم عن هذه القاعدة هو الحالة الشاذة، التي يسعون بعدها للعودة إلى الحالة الأصلية، أي العمل من داخل أنظمة الطواغيت، بعد أخذ الإذن منهم، أو دفعهم للسماح لهم بحرية العمل، وبما أن النظام الديموقراطي يؤمن لهم حرية العمل من جهة ويقربهم من الصليبيين من جهة أخرى فإنهم يسعون دائما لسيادته رغم علمهم بأنه نظام مضاد للشريعة الإسلامية التي يدعون حرصهم على تطبيقها.

وفي الشام اليوم نجد أن مقررات "مؤتمر الرياض" التي توافقت عليها فصائل الصحوات مع المعارضة العلمانية، لا تخرج أيضا عن هذا الإطار، فإقامة الديموقراطية وفتح المجال أمام العمل السياسي لهذه الفصائل، هما الثمن الذي ترى هذه الفصائل ذات المرجعية الإخوانية أو المرتبطة بالإخوان، أنه الثمن المناسب لكل ما قدم في الشام من خسائر بشرية ومادية خلال السنوات الماضية.

وقد أوضحت الدولة الإسلامية منذ الأيام الأولى لدخول مجاهديها إلى الشام، أنه لا يمكن أن يؤتمن هؤلاء على الجهاد في الشام، وقد عُرفت خيانتهم للمجاهدين في كل الساحات التي دخلوها، فجهاد الطواغيت ليس موجودا في قواميسهم الحركية، ولا يرون في الجهاد أنه وسيلة لتطبيق شرع الله، بل تحولت الديموقراطية التي كانوا يزعمون أنها "وسيلة لانتصار الإسلام" لتصبح هي غايتهم، وصارت غاية جهادهم أن تكون "كلمة الشعب هي العليا" عوض أن تكون كلمة الله هي العليا.

قتال جيوش الردّة... الحكم الشرعي والمصلحة الشرعيّة

مرّت على الأمّة المسلمة في القرنين الماضيين فتراتٌ عصيبةٌ من الاحتلال الصّليبيّ الأوروبيّ المباشر، الذي نشر الكفر والإلحاد وأفسد في الأرض وأهلك الحرث والنّسل.

ثمّ لم يخرج هذا الاحتلال الغاشم من بلاد المسلمين إلا وقد زرع وكلاء محليّين من العلمانيّين ونحوهم، الذين حكّموا في النّاس القوانين الوضعيّة الشّركيّة وعطّلوا الشّريعة، وحاربوا كلّ مَن سعى لإعادة أمجاد الأمّة، ومكّنوا أسيادهم الصّليبيّين واليهود من امتصاص خيرات بلاد المسلمين.

وصارت صورة الوضع القائم؛ حكّامٌ طواغيتٌ يحكمون البلاد بقوانين وضعيّة شركيّة، ويمُكّنون الصّليبيّين واليهود في أراضي المسلمين ليُقيموا فيها قواعد عسكريّةً وشركاتٍ اقتصاديّةً، كما يتعاونون مع "مجلس الأمن" وكلّ دول الكفر في محاربة الإسلام تحت دعوى محاربة الإرهاب!!

وصاروا يطمسون معالم الدّين من التّوحيد والولاء والبراء والجهاد، وينشرون المنكرات والرّذائل ويستحلّونها من بنوك الرّبا و منتجعات الزنا ودور الدّعارة...

وبسبب غياب الشّريعة وانتشار الفقر كثُر الفساد، وتفشّى الكذب والرّشاوى، وارتفعت نسبة الجريمة من سفك الدّماء والسّرقات.

وكلّ هذا الفساد ونحوه ما كان ليتحقّق لولا وجود جندٍ لهؤلاء الطّواغيت من الجيوش والشُّرَط والمخابرات، إذ إنّ أيّ دولةٍ لا يمكن أن تقوم أركانها إلا بالجند من الجيوش والشُّرَط.

ولا شكّ أنّ أيّ جماعةٍ جادّةٍ تسعى لتغيير هذا الواقع والإطاحة بهذه الأنظمة، لابدّ وأن تصطدم بتلك الجيوش والشرط، وأن يقع الاشتباك والقتال معها.

وقد عُلم إنّ أيّ جماعةٍ تنشد التّغيير دون إزالة هذه الجيوش وقتالها والعمل على تفكيكها هي جماعةٌ فاشلةٌ تصادم السّنن الكونيّة والشّرعيّة، بل وتكذب على الأمّة وتضلّلها.

ومن هذا المنطلق نازع مجاهدو الدّولة الإسلاميّة هذه الحكومات والأنظمة الطّاغوتية بالسّيف، وقاتلوا هذه الجيوش، وقتلوا أفرادها ومنتسبيها دون تفريق بينهم في العراق والشّام ومصر وتونس وليبيا والجزائر وخراسان وجزيرة العرب واليمن وغرب إفريقية وغيرها، فما شرعيّة جهاد هذه الجيوش والشّرط وقتل منتسبيها؟

أولًا: كلّ حكومةٍ تحكم بغير ما أنزل الله فهي حكومةٌ كافرةٌ.

قال الله تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ} [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: {فَلَا وربِّكَ لا يُؤْمِنُون حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيماً} [النساء: ٦٥]، وقال تعالى: {وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} [الكهف: ٢٦].

قال الإمام المفسّر ابن كثير: (مَنْ ترك الشّرع المُحكَم المُنزل على محمدٍ خاتم الأنبياء عليه الصّلاة والسّلام وتحاكم إلى غيره من الشّرائع المنسوخة كفَر، فكيف بمن تحاكم إلى الياسق وقدمها عليه؟ ومن فعل ذلك كفرٌ بإجماع المسلمين)[البداية والنّهاية]، والياسق هو كتاب التّتار الذي كانوا يحكمون به.

ثانياً: تكفير الحكومات الطّاغوتية يستلزم تكفير جنودها.

إنّ تكفير الأنظمة الطّاغوتية يستلزم تكفيرٌ لجيوشها وعساكرها وشرطتها؛ لأن هؤلاء الجنود هم الذين يُثبّتون هذه الأنظمة الكافرة، ويُعينونها على تثبيت أحكامها الكفريّة، وهم الذين يناصرون هذه الأنظمة الكافرة على المسلمين؛ فتجد هؤلاء الجنود هم الذين يعتقلون المسلمين ويعذبّونهم في أقبية المخابرات، ويلاحقونهم ويتجسّسون عليهم ويرفعون التّقارير فيهم, وهم من يقودون الدّبابات والمدرّعات في الحملات الغاشمة لقتال المجاهدين وترويع الآمنين, وهم من يقصف المدن بالطيران والمدفعيّة ويهدم البيوت ويهجّر أهلها، فهم حرّاس المحاكم الوضعيّة، وبنوك الرّبا، وسفارات الصليبيّين وهم من يعملون على نشر الكفر وحمايته.

وبالتّالي فإن جيوش هذه الأنظمة والحكومات والعساكر من الشّرط والمخابرات والجواسيس ونحوهم كفّارٌ مرتدّون، والأدلّة على تكفيرهم كثيرةٌ منها قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [النساء: ٧٦]، فهذه الآية دلّت بشكلٍ صريحٍ على أنّ مَن قاتل دون نظامٍ كافرٍ أو أعدّ نفسه لذلك فقد قاتل في سبيل الطّاغوت؛ وبالتّالي فهو كافرٌ مرتدٌّ، لأنّ الله تعالى قال: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ}، فسمّاهم الله الذين كفروا.

وكذا قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة: ٥١]، قال ابن حزم رحمه الله: (صحّ أنّ قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}، إنّما هو على ظاهره بأنّه كافرٌ من جملة الكفّار، وهذا حقٌّ لا يختلف فيه اثنان من المسلمين)، وقال أيضا: (فإنْ كان هناك محارباً للمسلمين مُعيناً للكفّار بخدمةٍ، أو كتابةٍ فهو كافر)[المحلّى]، فانظرْ وتأمّلْ كيف عدَّ إعانة الكافر على المسلم بمجرد الكتابة كفراً مخرجاً عن الملّة؟!

وكذا قوله تعالى: {إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ} [القصص: ٨]، وقوله سبحانه: {فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ} [القصص: ٤٠]، فالله سبحانه قد سوّى في الحكم بين فرعون وبين جنوده، وأشركهم في العقاب.

ولذا فجنود هذه الأنظمة كفّارٌ مرتدّون وإنْ كانوا جهّالاً، فالصّحابة لمّا قاتلوا طوائف الرّدّة، قاتلوهم دون تفريقٍ بين جاهلٍ وغير جاهلٍ واستحلّوا دماءهم وغنموا أموالهم، واشترط أبو بكرٍ الصّديق على من تاب منهم أن يشهدوا على قتلاهم بالنّار.

بل إنّ جهل هؤلاء العساكر هو جهل إعراضٍ عن دين الله؛ فهم يرون الكفر والظلّم جهاراً نهاراً ثمّ لا يحرّكون ساكناً ولا يتخلّون عن شركهم ولا يفارقون صفّ الكافرين.

قال الله تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال: ٢٢-٢٣].

ثالثًا: وجوب قتال جيوش الرّدّة

إنّ قتال هذه الجيوش والشّرط وقتل منتسبيها واجبٌ شرعاً وليس جائزاً فحسب، قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [النساء: ٧٦]، فهذه الآية دلّت بشكلٍ صريحٍ على وجوب قتال هذه الجيوش والشّرط، حتى الذي لا يباشر منهم القتال لا يخرج عن وصف الكفر والمحاربة.

وهنا ثمّة مسألةٌ أخرى وهي أنّ هذه الجيوش والشّرط هي التي تحكم البلاد بالظلّم وأحكام الكفر وتعطّل أحكام الشّريعة، وبالتّالي فجهادها وقتل منتسبيها هو من قبيل جهاد الدّفع، وهو واجبٌ بالإجماع، قال الله تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [البقرة: ١٩٠]، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله: (وأما قتال الدّفع فهو أشدّ أنواع دفع الصّائل عن الحرمة والدّين، فواجبٌ إجماعاً، فالعدوّ الصّائل الذي يفسد الدّين والدّنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه، فلا يشترط له شرطٌ بل يدفع بحسب الإمكان)[مجموع الفتاوى]، وبالتّالي فواجبٌ شرعاً على عموم الأمّة وليس فقط على مجاهدي الدّولة الإسلاميّة قتل هؤلاء العساكر أينما وُجدوا وحيثما حلّوا، حتّى يتوبوا إلى ربّهم ويتبرّؤوا من شركهم، ومن فرّط في قتل هؤلاء العساكر فهو آثمٌ إثماً عظيماً.

وما من أمرٍ شرعيٍّ إلّا وفيه مصالحٌ عظيمةٌ للأمّة في حاضرها ومستقبلها، ودنياها وأخراها، ولا يخرج عن هذا الأصل هذا النّوع من الجهاد فإنّ من أعظم مصالحه:

أ- حفظ دين المسلمين وإزالة الفتنة عنهم، فلا شكّ أن تغلّب الطّواغيت وجيوشهم وإجبار النّاس على التّرافع لمحاكمهم لهو أعظم فتنةٍ على دين النّاس، فجهاد الطّواغيت وجنودهم وإستئصالهم لهو نعمةٌ؛ وأيّ نعمةٍ، فَرَجٌ بعد كرْبٍ، ويُسْرٌ بعد خَطْبٍ، وهدايةٌ بعد ضلالةٍ، ورُشدٌ بعد غوايةٍ.

ب- قتال هذه الجيوش سببٌ للتّمكين، فإنّ من أشدّ العوائق التي كانت تحول دون تمكين الأمّة وعودة السّيادة لها والرّيادة هي هذه الجيوش، فلا شكّ أن إزالتها يؤدّي إلى تمكين الأمّة وإضعاف رأس الكفر أمريكا التي تهيمن على بلدان المسلمين بواسطة هذه الجيوش.

ج- استهداف عساكر الجيش والشّرط يؤدّي لبثّ الرّعب في قلوبهم وتخلخل صفوفهم وازدياد حالات الهروب بينهم ممّا يعجّل بانهيار هذه الجيوش.

د- استهداف عساكر الجيش يوقظ النّاس من غفلتهم ويأخذ بأبصارهم نحو التّوحيد وتحكيم الشّريعة، وظهور كفر هذه الجيوش.

فقتال هؤلاء المرتدّين واجب شرعاً، ويحقّق مصلحة كبيرة للمسلمين، ولا يقول أنّ قتالهم فتنة إلا من فُتن في دينه وحاد عن صراط الله المستقيم■

لا سواء... والعاقبة للمتقين

كما هو الشّأن في كل أحداث التّاريخ التي تمرّ بها الأمم، لا تكون الحرب غالباً إلا سِجالاً بين الأمم المتحاربة المتكافئة في القوّة، ويشترك في هذه القاعدة كلّ من يخوض الحروب سواء كانوا من أهل الكفر أم من أهل الإيمان، قال الله تعالى (غُلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبهم سيَغلبون في بضع سنين)، وكذلك قال أبو سفيان لملك الرّوم لمّا سأله عن الحرب بين قريشٍ والرّسول عليه الصّلاة والسّلام: (يكون الحربُ بيننا وبينه سِجالاً، يُصيب منّا، ونُصيب منه) ، وهي العبارة ذاتها التي قالها للرّسول عليه الصلاة والسلام بعد أُحدٍ (يومٌ بيومِ بدرٍ، والحربُ سِجالٌ)، فأبو سفيان رضي الله عنه تكلّم بالسُّنن التي يعرفها عن حياة الأمم، ولكنّ الذي غاب عنه أيّام جاهليّته أنّ الحرب التي يخوضها الرّسل وأتباعهم تختلف عن باقي الحروب لا في غاياتها فقط، وإنّما في أهميّتها ومآلاتها أيضاً، لذلك نجد أنَّ هرقل عظيم الرّوم بما لديه من بقيّة علمٍ من الكتاب ردّ على مقالة أبي سفيان فقال: (وكذلك الرسُل تُبْتَلَى، ثم تكون لها العاقبة)، وكذلك ردّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه على مقالته في أحدٍ فقال: (لا سواء، قتلانا في الجنّة، وقتلاكم في النّار) (رواه الحاكم وصحّحه).

فهذا الفقه في المآلات الأخرويّة والدنيويّة لكلٍّ من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، وعظيم الرّوم هرقل، يوضّح أنّ حرب الرّسل عليهم الصّلاة والسّلام وأتباعهم، ليست كبقيّة الحروب في نتائجها، وإنْ اشتركتْ معها في حقيقتها ومجرياتها، فالرّسل وأتباعهم بثباتهم على الحقّ، وصبرهم على جهاد أعدائهم، وعدم تركهم لأمر الله بقتالهم، تكون لهم العاقبة بنصر الله تعالى لهم، بعد مراحل عديدةٍ تمسّهم فيها البأساء والضّرّاء والزّلزلة، وكذلك فإنّ جيش الرّسل لا يشارك بقيّة الجيوش في الحال عند الانكسار وإن كان يشابهها في بعضٍ من نتائج الانتصار، وذلك أنّ جيوش الجاهليّة بانكسارها تكون قد خسرتْ كلّ شيءٍ، فيما المجاهدون يكونون بانكسارهم قد فازوا بما لا يُقارن بما خسروه من متاع الدّنيا وفرحة النّصر، كما قال عليه الصّلاة والسّلام: «ما مِنْ غازيةٍ أو سريّةٍ تغزو فتغنمَ وتسلمَ إلّا كانوا قد تعجّلوا ثُلُثَي أُجورِهم، وما مِنْ غازيةٍ أو سريّةٍ تُخفق وتُصاب إلا تمّ أجورهم» (صحيح مسلم).

الجانب الآخر من فقه حقيقة حروب الرّسل وأتباعهم، أنّ المساجلة في الحرب بين أهل الإيمان وأهل الكفر ليست دليل استواءٍ بين حال الطّرفين، وإن تساووا بعَدَد المرّات التي يَنال فيها كلٌّ منهم من الآخر، أو بعدد من يَقتلُ كلٌّ منهم من الآخر، أو بحجم ما يغتنمونه من بعضهم، فالرّسل وأتباعهم إنّما يكونون مستضعفين في بادئ أمرهم، يسومهم أنصار الطّواغيت، وأجناد الفراعنة القهر والعذاب، ويحيونهم حياة الذّل والمهانة إن استبقوهم أحياء، فإذا بلغ هؤلاء المستضعفون المرحلة التي يساجلون فيها أعداءهم، فإنّ هذا دليل غلبةٍ لا دليل استواءٍ، كما ورد في الحديث عنْ أوس بن حذيفة (قالَ: كنتُ في الوفدِ الذين أتَوا رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أسلمُوا مِنْ ثَقيف مِنْ بني مالكٍ أَنْزَلَنا في قبّةٍ له، فكان يختلفُ إلينا بين بيوته وبين المسجد، فإذا صلّى العشاءَ الآخرةَ انصرفَ إلينا فلا يبرحُ يحدّثُنا ويشتكي قريشاً ويشتكي أهلَ مكّةَ ثم يقولُ لا سواء، كنَّا بمكّةَ مُستذَلّين أو مُستضعَفين، فلمّا خرجْنا إلى المدينة كانت سِجال الحرب علينا ولنا) (رواه أحمد وابن ماجة وأبو داود وغيرهم)، فانتقال العصبة المؤمنة إلى المرحلة التي تكون فيها تكاليف الصّراع مع أهل الشّرك لهم وعليهم، لا يمكن مقارنتها بمرحلة الاستضعاف التي تكون فيها التّكاليف الشّديدة للصّراع محصورةً بأهل التّوحيد، وهذا ما حَدَثَ للرّسول عليه الصلاة والسلام ومَنْ معه بانتقالهم مِنْ مرحلة الاستذلال والاستضعاف (في مكّة) إلى مرحلة الشّوكة والتّمكين (في المدينة)، ثم الانتقال إلى المرحلة اللّاحقة وهي مرحلة الفتح التي تكون فيها التكاليف محصورةً بجانب المشركين كما حَدَثَ بعد صلح الحديبيّة حتى فتح مكّة.

إنَّ أكثر مَنْ يُدرك هذه المعاني من جنود الدّولة الإسلاميّة هم المجاهدون القدماء، ومن ناصر المجاهدين قبل قيام الدّولة الإسلاميّة، فقد كانت الأيّام الماضية أيّام استضعاف وقهر لهم، فكم منهم من قضى سنيناً في سجون المشركين يسومونه سوء العذاب، يُهان دينهم، ويُسبّ إلههم، ويُشتم عرض نبيّهم، ويُداس قرآنهم أمام أعينهم، ولا يملكون لكلّ ذلك شيئاً، بل ويُمنعون من الصّلاة، وتُمنع زوجاتهم من الحجاب، ولا ملجأ لهم من هذا الاستضعاف، ولا قوّة لديهم كي ينتقموا من عدوّهم، ولا ركن شديد كي يأووا إليه، وكان أملهم بالله أنْ يهيّء لهم قيام الخلافة، فيهاجرون إليها، فتمكّنهم من إقامة دينهم، وتجعلهم أعزّةً بعد ذلّهم، ويكونون من جنودها فينتقمون من الطّواغيت وجنودهم، ويذيقونهم كأس العلقم التي طالما شربها المسلمون على أيديهم.

ولذلك تجد هذا الصّنف من المجاهدين أقل جنود الدّولة الإسلاميّة تأثّراً بخسارة الأرض، أو فقدان الموارد، بسبب المعارك مع أعداء الله، إذ تكون صورة حالهم أيّام الاستضعاف حاضرةً في أذهانهم دائماً، فلم يكنْ شبرٌ من الأرض تحت أيديهم، بل حتّى بيوتهم الخاصّة كان بقاؤهم فيها رهناً ببقائهم خارج السّجون، ولم يكنْ لديهم من السّلاح والمعدّات أيّ شيءٍ، فكان كثيرٌ منهم يخشى اقتناء قطعة سلاحٍ ولو كانت بندقيّة صيدٍ صدئة، ولم يكنْ لديهم من المال أحياناً ما يسدّ رمقهم ويغنيهم عن سؤال النّاس، فمكّنهم الله، وآواهم، وأغناهم، وما داموا يتمكّنون بفضل الله من النيل من أعدائهم، فلا سواء بين الحالين.

وتجد هذا الصّنف من المجاهدين أقلّ النّاس تأثّراً بالمُرجفين والمُخذّلين، وأقلّ النّاس تأثّراً بكلام أعداء الله، وادّعاءات إعلامهم بتحقيق الانتصارات على الدّولة الإسلاميّة، وتجد أنّ لديه في الغالب الجواب على كلّ الأراجيف التي يبثّونها.

فإنْ كان أعداء الله يتكلّمون عن استعادتهم لجزءٍ من المساحة التي سيطرت عليها الدّولة الإسلاميّة خلال عامٍ من حربهم الشّديدة عليها، فهلّا سألوا أنفسهم: كم هي المساحة الجديدة التي امتدّ إليها سلطان الخلافة في جهات أخرى من ساحة المعركة ؟ بل كم هي السّاحات الجديدة التي انضم مجاهدوها إلى جيش الخلافة في مشارق الأرض ومغاربها؟ وإنْ كانوا يتكلّمون عن قتلهم لعددٍ من جنود الدّولة الإسلاميّة خلال العام المنصرم بواسطة أكثر من ٧٥٠٠ غارةٍ جويّةٍ، فهلّا سألوا أنفسهم: كم تضاعف عديد جيش الخلافة خلال هذا العام؟

وإن كانوا يتكلّمون عن تراجع في إمكانات جيش الخلافة من التّسليح والعتاد يحسبونه بتعداد ما استطاعوا تدميره بطائراتهم، أو استهلكه المجاهدون في معاركهم التي لا تنتهي، فهلّا سألوا أنفسهم: كم هي كميّة السلاح والعتاد الذي اغتنمه جيش الخلافة من أعدائه الكثيرين خلال هذا العام فقط؟

وإن كانوا يتكلّمون زاعمين إضعافهم للدّولة الإسلاميّة من خلال هذه الحرب الطّويلة على كلّ الجبهات، فهلّا سألوا أنفسهم: وما كان حالها قبل أنْ يمنّ الله على جنودها بالفتح والتّمكين؟ وهل يستوي حال من كانوا قليلاً مستضعفين يخافون أن يتخطّفهم النّاس، مع من حاله القوّة والتّمكين، يخافه المشركون في مشارق الأرض ومغاربها، ويحشدون لاحتواء خطره عدّة تحالفات من الدّول الطّاغوتيّة تضمّ أكثر من نصف أمم الأرض، في حين يؤيدها النّصف الآخر وإن لم يشارك في الحرب مباشرة؟ أم يستوي حال من كانوا يقتلون ويأسرون ويعذبون دون أن يتمكّنوا من النّيل من عدوّهم، مع من حاله قتالهم ومنازلتهم في الميدان، فينالون منه مرّة وينال منهم مرّات، وإن قصفوه بطائراتهم في حلب ردّ عليهم فأسقط طائراتهم في سيناء، وإن أسقطوا على أهله برميلاً متفجّراً في الرقّة، فجّر عليهم المفخّخات "من ديالى إلى بيروت"، فكانت الحرب بينه وبين عدّوه سجالاً؟ أم يستوي حال من إنْ خسر نصيباً من الدنيا، لقي الفوز العظيم في الآخرة، مع من شأنه إنْ خسر الدنيا، خسر الدنيا والآخرة معاً وذلك هو الخسران المبين؟

كلّا... لا سواء... والعاقبة للمتّقين■

لله لا للوطن

إنَّ المرءَ مجبولٌ على حبِّ الديار التي وُلد أو عاش فيها، فهذه محبّة فِطريّة لا يجحدُها إلا من انحرفتْ فطرتُه، ومثْلُ هذا الحبِّ، كباقي أنواع المحابِّ الفطرية التي جُبل الإنسان عليها، ليس بمحضور ولا مكروه، لكنْ بشرط أن لا تتجاوز المحابُّ حدَّها، ولا تتعارض مع ما أمر الله به ونهى، قال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: ٢٤]، فمحبّة الإنسان للنفس والأهل والعشيرة والمال والموطن محبّة طبيعية لم يحرّمها الشّرع ما لم تتجاوز حدّها، ومجاوزة الحدّ هنا هو تقديم هذه المحابّ على محبّة الله ورسوله والجهاد في سبيله، ومن أشكال المجاوزة في حبّ البلاد ضلالة "الوطنية" الخبيثة التي انتشرت بين أبناء الإسلام.

الوطنيّة بنتُ القوميّة:

القوميّة لغةً من (القوم)، وقومُ الرجل: شيعتُه وعشيرتُه، أما القوميّة اصطلاحاً فهي رابطة للمجتمع تربط بين مجموعة من البشر يشتركون بخصائص وصفات مشتركة، كاللغة أو اللون أو العرق أو التاريخ... إلخ. فالقوميّة من المناهج الجاهليّة المنحرفة التي غزت ديار الإسلام، حيث كانت نابتةُ القوميّة من أُولى معاول الهدم التي دكّت أسس العقيدة الإسلامية، وجعلت من الانتماء للقوميّة -العربيّة أو الخليجيّة أو الأفريقيّة أو التركيّة... أو غيرها- أساساً للاجتماع والولاء والنّصرة! ومن رَحِم هذه "القوميّة" الخبيثة وُلدتْ "الوطنية" المقيتة، فمبدؤهما واحد وحكمُهما واحد.

حُكْمُ الوطنيّة في الإسلام:

بحسب ما عُرِضَ آنفاً مِنْ أنَّ الوطنيّة تعني ترك عقيدة الولاء والبراء الإسلاميّة وإحلال عقيدة الولاء والبراء الوطنيّة؛ فإنَّ الوطنية كفرٌ أكبرٌ مخرجٌ من الملّة، وكلُّ مَنْ اعتنقها أو دعا لها أو عمل لأجلها فهو مرتدٌّ عن دين الإسلام، والنقطة التالية ستبيّن جانباً من ذلك.

بعضُ مفاسدِ دينِ الوطنيّة:

أولا: الوطنية شركٌ بالله تعالى: الوطنية دينٌ باطلٌ، ومنهجٌ جاهليٌّ يدعو لاتخاذ الوطن وثناً وطاغوتاً يُعبد من دون الله، فهي تُلزم الناس بالعمل لها وحدها، والتضحية والقتال في سبيلها، وصرف البغض والبراء لكل خارج عن حدود أرضها وإن كانوا أولياء لله، وصرف الحبّ والولاء لكل داخل في حدودها وإنْ كانوا من أعظم الناس كفراً وأغلظهم شركاً؛ وهي بهذا تكون نداً معبوداً من دون الله، قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ} [البقرة: ١٦٥].

ثانياً: الوطنية تنقضُ عقيدةَ الولاء والبراء: ذلك أنَّ أصل الولاء والبراء في الإسلام قائمٌ على المفاصلة والمفارقة بين المسلمين وغيرهم على أساس الدّين، كما قال تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} [المائدة: ٥٥]، وقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ} [المائدة: ٥٧]، أما الوطنيّون فالموالاة عندهم قائمة على أساس الانتماء للأرض التي تحيطها حدود الوطن، وهذا يلزم منه إزالة الفوارق التي وضعها اللهُ سبباً شرعياً للمفاصلة مع الكفار، وتلك مصادمة صريحة لنصوص الشّرع الصّحيحة، قال تعالى: {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} [النساء: ١٣٨-١٣٩].

ثالثاً: الوطنية تعطّلُ أحكام الديار والهجرة: ذلك أنّ جَعْلَ الرابط الوطنيّ مهيمناً على رابط الدّين يَلزم منه اختلاط الأحكام على الناس، فمن الأمور المستقرّة في الشريعة أنَّ دار الكفر التي تعلوها أحكام الكفر تختلف عن دار الإسلام التي تعلوها أحكام الإسلام وتُحكم بما أنزل الله، ولكلٍ منهما أحكامها التي تميّزها، ومن هذه الأحكام وجوب الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، أما في دين الوطنية فلا مجال للكلام عن هذه المسائل البتّة، لأنَّ المواطن يلزم الوطن، بل ويدافع عنه وإن كان ذلك الوطن دارُ كفر وردّة وحرابة.

رابعاً: الوطنيّة تلغي التمايز بين المسلمين والكفّار: فتخلط بذلك بين مسمّى الإيمان ومسمّى الكفر؛ لأنَّ جَعْـلَ الانتماء للأرض أساساً لمعاملة الناس يُزيل حتماً الفوارق المبنية على أساس الدّين، والتي جعلها الله السّبب الشّرعي للتّمييز بين النّاس في الدّنيا والآخرة، فالوطنيّة تجعل الناس مؤمنَهم وكافرَهم، برّهم وفاجرهم في مرتبة واحدة، وهذا تكذيبٌ صريحٌ لنصوص الدّين القطعية، التي منها: {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} [القلم: ٣٥-٣٦]، ومنها: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} [صّ: ٢٨].

خامساً: في الوطنيّة تعطيل لجهاد الطّلب: وهو أحد نوعي الجهاد في سبيل الله، والذي يكون بقتال الكفّار في عقر دارهم حتى تكون كلمة الله هي العليا، أمّا عند الوطنيّين فالجهاد لا يتجاوز الدّفاع عن حدود الوطن ضدَّ الاعتداء الخارجيّ، والغاية العظمى لهم هو الحفاظ على وحدة تراب الوطن وسلامة أراضيه.

لذلك تجد الكثير من الفصائل المنحرفة ممّن تلبّس بضلالة الوطنيّة يسارع في تطمين الطواغيت المجاورين للبلاد التي يقاتل فيها، إنّه لا يقصد من قتاله سوى "تحرير وطنه من المحتلّ"، وأنّه لن يشكل خطراً عليهم، وأنه حريص على علاقات "حسن الجوار" مع هؤلاء الطواغيت. وهذا الأمر تعطيل صريحٌ لفريضة الجهاد، وردٌّ للأحكام المعلومة من الدّين بالضّرورة في قتال الكفّار حيثما وُجدوا حتى يُعبد الله وحده، ويزول الشّرك من الأرض ويُحكم بما أنـزل الله.

سادساً: في الوطنية الفُرقة والاختلاف: كونها تفرّق بين المسلمين، وتجعلهم أوطاناً وقوميّات متنافرة، كلٌ منها يتعصّب لأرضه وتاريخه وتراثه، فهي تفصل المسلم العربيّ عن أخيه المسلم العجَميّ، بل وتفرّق بين العرب أنفسهم، فهذا عراقيّ وذاك سوريّ وهناك مصريّ...إلخ، وكذا تفرّق بين المسلمين العجم كالأتراك والكُرد والفرس، وفي ذلك تضادٌّ مع أمر الله بالتجمّع والاعتصام، كما في قوله تعالى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ} [آل عمران: ١٠٣]، وفيه مساس بأخوّة الدّين التي وصفها الله تعالى بقوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات: ١٠]، وهي الصّورة النّاصعة التي جسّدها الصحابةُ (رضي الله عنهم)، فحمزة القرشي وبلال الحبشي وسلمان الفارسي جمعهم الإسلامُ لا الوطن.

سابعاً: الوطنية من دعاوى الجاهليّة: فالإسلامُ حارب دعاوى الجاهليّة سواء كانت مرتبطة بلون أو جنس أو عرق أو وطن أو مذهب... إلخ، ولا شكَّ أنَّ دعوة القوميّة والوطنيّة دعوة إلى غير الإسلام، قال شيخ الإسلام ابنُ تيمية: "كل من خرج عن دعوى الإسلام والقرآن من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة، فهو من عزاء الجاهلية" [مجموع الفتاوى]، ولاشكَّ أنَّ أرباب القوميّة والوطنيّة يدعون إلى قوميّة عصبيّة ووطنيّة جاهليّة ويتفاخرون بالعروبة والوطن، والإسلام براءٌ منهم ومن مناهجهم الكفريّة.

شبهات وردود:

دائماً ما يُشغِّبُ الوطنيّون بأنَّ حبَّ الوطن من الإيمان! ويتغنّون بأنَّ الموتَ في سبيل الوطن شهادة! وغيرهما من الشبه التي يُلقونها في أسماع رعيّتهم.

وللردّ على ذلك نقول: أما مقولة (حبُّ الوطن من الإيمان) فلا هي بحديث ولا أثر، فهي مقولة ساقطة تعارض الشرع، لأنَّ جعل حبِّ الوطن أحد معايير أو درجات الإيمان فيه افتئات على شرع الله تعالى. وأما مقولة (الموت دفاعاً عن الوطن شهادة) فهذه فِرية واضحة، فالشهيد هو مَن قاتل لتكون كلمة الله هـي العليا كما صحّ عنه صلى الله عليه وسلم، أما مقولة: "من قُـتل دون أرضه فهو شهيد" فهي زيادة على حديث (من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد) الذي أخرجه أحمد وأبو داود والنّسائي والترّمذي بسندٍ صحيح، ولم نعثر على هذه الزيادة في كتب الحديث! ولو سلّمنا جدلاً بأنَّ هذه المقولة صحيحة؛ فإنَّ الأرض التي يقاتل المسلم دفاعاً عنها هي دارُ الإسلام التي تُحكَم بشريعة الله، فيُدافعُ عنها المجاهدُ ويقاتلُ كلَّ مَنْ يصولُ عليها حفاظاً على أحكام الإسلام التي تعلوها لا حفاظاً على تربتها التي قد تصيرُ في يومٍ ما دارَ كفرٍ وردةٍ وحرابةٍ كما في الكثير من البلدان اليوم■

ليست مجرد كلمات!

عندما اشتد التعب بفاطمة -رضي الله عنها- واشتكت لأبيها تعبها وحاجتها لخادم علّمها كلمات، وعندما اشتكى رجل للنبي -صلى الله عليه وسلم- وطأة دَينه وفاقته علّمه كلمات، واشتد غضب الله على النصارى لكلمات قالوها بأفواههم، حتى إنّ السماوات كادت أنْ تنفطر، وتنشقّ الأرض، وتخرّ الجبال هدّاً من قولهم القبيح الذي قالوه، حيث إنهم ادّعوا أنّ الله اتخذ ولداً، تعالى الله عما يشركون وعندما خاف الناس مِن تحزّب الأحزاب، أثنى الله على ثبات المؤمنين قولهم حسبنا الله: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) [سورة آل عمران: ١٧٣]. فلم تكن كلماتهم مجرد كلمات، وإنْ كانت كذلك في ميزان البشر المادية.

وعندما تتحزّب الأحزاب لقتال الدولة الإسلامية، ويهول الناظرَ عظيمُ ترسانتهم، وشديد فتك أسلحتهم، ويُسأل رجال الدولة الإسلامية: بماذا ستقاتلون هؤلاء؟ فيقولون: بالكتاب والسنة، فيظن الظانّ أنّ ما بين دفتيهما مجرد كلمات، لكنها ليست كذلك، ليست مجرد كلمات، لأن كلام الله هو كلام الجبار وحبله المتين، من تمسك به انتصر وفاز وظفر.

وانظر إلى قوله تعالى: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) [سورة آل عمران: ١٧٣].

انظر إلى هذه الآية الكريمة، فالمؤمنون لم يقولوا هذا فقط، بل فقد استعدّوا لما تتطلبه المعركة استعدادا ماديا وعسكريا ، لكن هذا القول ذكره الله لأهميته في حسم المعركة لصالح المسلمين، إذن فالكلمات التي نقولها في ميزان الشرع ليست مجرد كلمات، وليس الدعاء مجرد كلمات، بل هو سبب لقرع أبواب السماء، لقد دعا يوماً نوح فأمطرت السماء حتى أغرقت الأرض بالماء، ولم تترك من الكافرين ديّاراً.

ولو تنظر في القرآن الكريم مليّاً، فسوف تجد كثيرا ما تتكرر كلمة: (قال)، لأهمية القول.

فبعد كل هذا إذا ما جاءت أنباء تحزب الأحزاب على الدولة الإسلامية فقل: حسبنا الله ونعم الوكيل ولا تظنّنّ -أيها الحبيب- أنها مجرد كلمات لعل الله يمنّ علينا كما منّ على الصحابة، فتكون عاقبة أمرنا كما كانت عاقبة أمرهم، إذ قال تعالى: (فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ) [سورة آل عمران: ١٧٣].

بل كانت وصية الله للمؤمنين إذا لقوا الكافرين بأن يذكروا الله كثيرا، حيث قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [سورة الأنفال: ٤٥]، فقد أوصاهم بذكره، ووعدهم بالفلاح، فذكر الله سبب النصر،ألا وهو الذكر وليس الذكر مجرد كلمات.

فعندما يسلّ الناس أسيافهم من أغمادها علينا أنْ نسبقهم بأنْ نخرج قلوبنا من غفلتها، وأنْ نطلق ألسنتنا بدعاء الله وذكره، ولله درّ ذلك القائد المسلم الذي تفقد خيم الجند في الليل، فسمع الجند يذكرون الله، فقال: من هنا يأتي النصر! نعم من هنا يأتي النصر! فلتكن ليالينا كلياليهم، نحييها بذكر الله، والصلوات والمناجاة، ونكثر فيها السجدات، فوالله لسبابة تتحرك بدعوة الله لهي أشد على الأعداء من كل أنواع السلاح، ولتكبيرات الانغماسيين في الاقتحامات لهي أكثر فتكا ورعبا في قلوب الكافرين.

فيا أيها الحبيب... إننا اليوم بحاجة لك، فلا تقصّر مع المسلمين فيما تملكه بين جوانحك، ، فلا تجعل لسانك يفتر عن الدعاء، ولا تستكثر على المسلمين من رفع الغطاء عنك في ليلة الشتاء البارد، لتعزم على قرع أبواب السماء في الأسحار، ولتكن بيوتنا سببا للنصر والفتح بكثرة الذكر، ذلك ما أوصيك به ونفسي، لعل الله ينفع بك وبي، ويجعلنا سببا لنصر المسلمين، هذا والحمد لله رب العالمين.



مصلحون.. أم مفسدون؟

الفصائل والمناهج المنحرفة

كثيرة هي المحاولات التي قامت لإعادة الخلافة وتطبيق الشريعة، وكثيرة هي الحركات التي عملت لتحقيق هذا الهدف السامي، وكثيرة هي التضحيات التي بذلت على الطريق، ولكن لم يتمكن أي من تلك الحركات من الوصول إلى هذه الغاية، حتى قدّر الله أن تقام على أيدي ثلة من المجاهدين في العراق والشام.

وكثيرة هي النظريات التي طرحت، والأقاويل التي قيلت، والأساطير التي صيغت، لتفسير هذا التوفيق الرباني لجنود الدولة الإسلامية وقادتها حتى مكنهم الله من إقامة الخلافة، دون أن يعيَ أغلب من خاض في هذه القضية أن هذا النجاح الذي يسره الله، إنما ملخصه الشعار الذي تبنته الدولة الإسلامية وهو (خلافة على منهاج النبوة)، إذ لا يعني هذا الشعار الالتزام بنهج النبوة في إدارة دولة الخلافة وشؤونها السياسية في مرحلة (ما بعد التمكين) فحسب، وإنما أيضاً الالتزام بالمنهج النبوي أثناء العمل على إعادة الخلافة، أي في مرحلة (ما قبل التمكين) أيضاً، وعلى طرفي حافة التمكين وقع الانحراف لدى معظم الفصائل والحركات التي قامت لإعادة الخلافة طيلة القرن الماضي.

فعلى الطرف الأول (قبل التمكين) نجد الكثير من الفصائل والأحزاب أرادت تطبيق الشريعة، وإعادة الخلافة، ولكنها سلكت في سبيل ذلك مناهج متعددة تختلف وتنحرف عن المنهج النبوي لتحقيق ذلك، فكانت النتيجة أكبر من مجرد الفشل في تحقيق الهدف، وإنما تعدته إلى انحراف هؤلاء عن السنة إلى البدعة، بل كثير منهم انحرف نحو الشرك والضلال، بينما كان هدفه الأول التوحيد والهداية.

في حين نجد على الطرف الآخر (بعد التمكين)، بعض الحركات والتنظيمات مكن الله لها في بقعة من الأرض، ولكنها انحرفت عن المنهج النبوي في الحكم، فحكمت بغير ما أنزل الله، وصار سعيها للحفاظ على ما بأيديها، لا إقامة حكم الله فيما مكنهم الله فيه من البلاد والعباد، فصاروا هم من جنس الطوائف الممتنعة التي خرجوا عليها، بل وصار رؤوسهم طواغيت جديد لا يختلفون عن الطواغيت الذين سبقوهم، إلا بلحاهم وشعاراتهم الإسلامية.

مصلحون... أم مفسدون؟

إن من يرجع إلى جذور الانحراف في أغلب الفرق والطوائف، سيجد أنهم في كثير من الأحيان أرادوا الإصلاح، ولكنهم أفسدوا دينهم ودين من اتّبعهم، بأن سلكوا في محاولاتهم الإصلاحية هذه غير منهاج النبوة، واستحسنوا هذه المناهج البدعية، فضلّوا وأضلّوا، وكانوا من جملة من قال الله عز وجل فيهم (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) [سورة الكهف: ١٠٣-١٠٤].

الصوفية والمنهج المنحرف في إصلاح القلوب

فإذا أخذنا مشركي الصوفية كمثال، نجد أن الصوفيين الأوائل إنما رأوا أن سبب الانحراف في الأمة هو فساد القلوب، وأن الإصلاح إنما يكون بصلاحها بناء على القاعدة النبوية (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب) رواه البخاري، ونجد أن الخلل الأكبر أصابهم عندما بحثوا عن إصلاح القلوب بمناهج أخرى لا تنتمي إلى الإسلام وشريعته، فوجدوا ضالتهم في طرائق الشرق التي تقوم على ادعاء إصلاح النفوس بهجر الملذات، والإكثار من الخلوات، واتباع مسالك معينة تؤدي بحسب ادعائهم إلى المعرفة، ولم يدرك معظم المتصوفة أن هذه المناهج إنما وضعها أهل الديانات الباطل لتناسب ما وضعوه من أديان، وأن هذه المناهج تطورت عبر آلاف السنين لتوافق أصول هذه الأديان الباطلة وحقائقها، وبالتالي من سلك هذه السبل فإنها ستؤدي به إلى الوصول إلى النتيجة ذاتها التي وصل إليها أصحاب تلك الأديان من الشرك والضلال، أو على الأقل إلى مكان قريب منها، ولكنه بالمحصلة خارج الإسلام.

"الإخوان المسلمون".. والمنهج المنحرف في العمل السياسي

وكذلك كان انحراف فرقة "الإخوان المسلمين" إذا أخذناها مثالا على الفرق التي رأى أصحابها أن الإصلاح إنما يكون طريق الوصول إلى الحكم بأي طريقة كانت، ومن ثم تحويل ما يقع تحت أيديهم إلى "مجتمع إسلامي"، ثم الوصول إلى الإصلاح الكامل عن طريق إقامة الدولة الإسلامية.

حيث وجد "الإخوان المسلمون" ومن سلك سبيلهم أن من المستحيل بمكان إقناع الطواغيت الحاكمين بأن يسلموهم السلطة، أو حتى أن يقوم هؤلاء الطواغيت بالإصلاح بأنفسهم، كما قصرت همتهم عن العمل على خلع هؤلاء الطواغيت، كما هو المنهج النبوي، لذا لجؤوا إلى المناهج والسبل الجاهلية في محاولتهم تحقيق أهدافهم، وكان اختيارهم الأنسب تبني الديموقراطية الشركية كمنهج عمل للوصول إلى السلطة، رغم اختلافهم على الحال بعد ذلك، بين زاعم أنه سيحطم صناديق الانتخابات بعد صعوده إلى السلطة عن طريقها، وبين مؤكد على الحفاظ عليها، بل وجعلها أصلا من أصول الإسلام، والعياذ بالله.

لم يدرك معظم هؤلاء أن الديموقراطية هي دين وضعي، وأن من وضعوه وطوروه على مدى آلاف السنين، صمموه لحكم مجتمعاتهم في غياب أي طاعة لرب العالمين في هذه المجتمعات، وبالتالي للوصول بمجتمعاتهم إلى الشرك المحض، والبعد التام عن اتّباع شريعة رب العالمين، وبالتالي إذا ما طُبّق هذا المنهج، وسُلك هذا السبيل في أي مكان في العالم، وعلى أي مجتمع من المجتمعات، فإنه سيؤدي بالمحصلة إلى الوصول إلى الحالة التي أرادها واضعوا هذا الدين للمجتمعات الديموقراطية أن تصل إليه، مع اختلافات بسيطة تفرضها العوامل التاريخية والجغرافية.

الفصائل المقاتلة.. والمنهج المنحرف في قتال الطواغيت

وقريبٌ من حال هؤلاء، حال من علم من الفصائل أن الوصول إلى تطبيق شريعة رب العالمين لا يكون إلا عن طريق الجهاد، وأن هذا الطريق هو منهج النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن نشأ الانحراف في جهادها لما حاولت استيراد الأفكار حول تكتيكات (حرب العصابات) التي طبقتها المنظمات والحركات الشيوعية الكوبية والفيتنامية وغيرها، دون أن ينتبهوا إلى خطورة تسلل ما يختلط بهذه الأفكار المستوردة من أدران مناهجهم الفاسدة.

فصارت مفاهيم من قبيل "الحاضنة الشعبية" و"عدم مسك الأرض" مبررات لدى هذا الفريق لعدم تطبيق شرع الله في الأرض التي مكنهم الله عز وجل فيها، وبامتناعهم عن تطبيق الشريعة متذرعين بهذه الأعذار غير الشرعية، صاروا من جنس الطوائف الممتنعة، بعد أن كان أساس خروجهم هو لتطبيق الشريعة، بل وتمادوا في منهجهم الضال بإعلانهم الحرب على من يريد تطبيق الشريعة، واتهامه بأنه يريد تخريب الجهاد، وتأليب "الحاضنة الشعبية"، وما إلى ذلك من التهم التي مرجعها الأول ما صاغوا جهادهم على أساسه من مفردات المنهج الشيوعي في (حرب العصابات)، وغفلتهم عن حقيقة أن هذا المنهج مستمد من عقيدة إلحادية لا تحل حلالاً، ولا تحرم حراماً، وأن المرجع الأول في تقييماتها هو المنفعة فقط، والحق عندهم هو ما يرون فيه نفعاً لحركاتهم، في حين أن المنهج الإسلامي إنما ينظر إلى شرعية الأفعال قبل النظر في ما يتوقع من مصالح ظنية تأتي من ورائها.

لا منهج في الإصلاح غير منهج رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

إن كل منهج من المناهج إنما يؤدي إلى النتيجة التي وضع المنهج على أساسها، في الظروف ذاتها الموافقة لهذا المنهج، ومن أراد أن تكون نتيجة عمله إقامة شرع الله عز وجل، فلا يمكن له أن يتبع غير المنهج الإسلامي النبوي، لأنه المنهج الوحيد الذي ارتضاه الله عز وجل لنبيه –عليه الصلاة والسلام- أن يعمل من خلاله من بعثته وحتى وفاته، وأي انحراف عن هذا المنهج سيؤدي حتماً إلى انحراف عن دين الإسلام باتجاه الأديان الأخرى التي تم تطبيق مناهجها، فضلاً عن أنه لن يؤدي بحال إلى الوصول إلى النتيجة التي يرضاها الله من أعمالهم.

وعليه أن يقوم بتعميم القاعدة النبوية في قوله صلى الله عليه وسلم: (صلوا كما رأيتموني أصلي)رواه البخاري، على كل أفعاله التعبدية، فيجاهد كما جاهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ويحكم الأرض كما حكمها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ويصلح نفسه ومجتمعه كما فعل رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

من يبذل الثمن؟

في هذه الأيام الأخيرة التي يشتد فيها وطيس المعارك، ويصبح حال المسلمين بين كر وفر، يأتيك خبر يثلج قلبك بانتصار المؤمنين في أرض، ويأتيك في الوقت نفسه خبر آخر يحزنك بانحيازهم عن أرض أخرى، وبين هذه الأخبار وتلك يتقلب قلبك بين الحزن والسرور.

وننسى أن قتالنا هو قتال لأمر أعظم من الأرض والعرض والناس أجمعين، إنه القتال من أجل دين رب العالمين، نعم إنه التوحيد الذي من أجله خُلقنا جميعا، فعندما نستشعر عظم الأمانة التي نقاتل من أجلها يهون كل شيء أمامها، فليس كثير أن تهرق دماؤنا، وتدق جماجمنا من أجلها، لأن من عَظُم الولاء والبراء في قلبه والحب والبغض في الله هانت أمامه التضحيات، وما أروع موقف ذلك الصحابي -رضوان الله عليه- الذي أراد الكفار قتله فبكى، فظنوه بكى جزعا من الموت، ولكن بكاءه كان حزنا على أن له نفسا واحدة فقط، فقد تمنى لو أن له مئات الأنفس ليبذلها كلها في سبيل الله.

نعم لقد أبصروا وعلموا الغاية الحقة التي من أجلها خلقوا، وزاد شوقهم لحسن المآل، فصغرت في أنفسهم كل التضحيات التي كانوا يقدمونها، ونحن اليوم بفضل الله على نهج أولئك الأفذاذ نسعى، وبهدي سيد المرسلين - صلى الله عليه وسلم - نسير، فلا نقاتل من أجل غايات زائلة لا معنى لها ولم يرشدنا إليها ربنا، ولا نبيه صلى الله عليه وسلم، كمن ينافح عن حدود موهومة رسمها "سايكس وبيكو"، ولا نقاتل من أجل حفنة تراب، فجهادنا أسمى وأعلى، إنه القتال من أجل تحقيق الغاية العظمى، أن يكون الدين كله لله.

لقد وفق الله أولئك الرجال الذين أخذوا بيد أهل الإسلام على أرض العراق إلى ميادين العز والسؤدد والأنفة والكرامة قبل عشر سنوات مضت، فغدوا شامة بين الخلائق أجمعين يصدعون بدعوة خير المرسلين وتوحيد رب العالمين، فشمخت منارات الهداية ترشد السالكين وتأوي المستضعفين، وارتفعت راية الحق على أرض الشام فأضاء مجد الخلافة وعم خيرها وسناها.

نعم أيها المسلمون، إن فجر دولة القرآن قد بزغ، هذه الكلمة الصادقة التي رددها الشيخ أبو مصعب الزرقاوي - تقبله الله - وهو يجالد الأعداء بثلة قليلة من المجاهدين الذين ينغمسون في الحتوف بصدور عارية، وكان وقتها يبصر من وراء الأفق ذلك الفجر الموعود، فجر دولة القرآن.

فما لأناس يتعامون ولا يبصرون هذا الفجر الذي نعيش دفئه، وقد بزغ نوره حتى غطى ولايات عديدة بين العراق والشام واليمن وسيناء وغرب إفريقية والقوقاز وخراسان وغيرها من البلدان.

إن التفاؤل وضده، إنما ينبعان من القلب، فمن عرف التوحيد وعمل بما علم، أدرك أن المعركة لا تحددها تلك الأشبار من الأرض هنا أو هناك، بل يحددها ما يفيض من القلب من ثمرة تلك المعرفة النابعة من الإيمان بالله استجابة لأمره وطمعا برضاه، فمتى ما كنا نقاتل من أجل دين رب العالمين مستصغرين التضحيات التي نبذلها في سبيله أدركنا العز والظفر، وإن انطفأت جذوة التوحيد في نفوسنا، لا قدّر الله، وما عاد يحركنا أوارها المتقد، وشككنا في الطريق، فستضيع كل المكاسب التي تفضل الله بها على أهل الأيمان اليوم.

إذن يجب أن نعلم أن الأمانة عظيمة والحمل ثقيل، إنه دين رب العالمين الذي خلق لأجله الخلق أجمعين، وسيحاسبهم عليه يوم الدين، وبما أنه السبيل الذي ارتضاه لنا اللطيف الخبير، فلن يهولنا تجمع الأحزاب، ولن تخيفنا حفنة من الثعالب والذئاب، ولو سدت الآفاق طائراتهم، وملأت البحار بارجاتهم، فإننا نقاتل من أجل ملة أبينا إبراهيم، دين رب العالمين، الذي متى شاء أمرا، قال له: كن، فيكون، ليهلك من هلك على بينة ويحيا من حي على بينة.

فتعال معي أيها المسلم الموحد لنبصر الفجر الموعود، ونجعل الطريق إليه أعمارنا، والخطوات إليه تضحياتنا، فزوال الغمة قريب، وإنما هي أيام قلائل، وسنسمع التكبيرات ترج أنحاء روما، وسنرى عما قريب ابتسامة الموحد مشرقة، وهو يدك بمعوله آخر رموز الشرك في (تل أبيب) وغيرها، وليتبروا - بإذن الله - ما علوا تتبيرا، وحينها بإذن الله تصدح حناجرنا بالشكر والتكبير، لمن كان حقا عليه نصر المؤمنين، هذا... والحمد لله رب العالمين، وسلام على المرسلين.

وقفات شرعية مع غزوة باريس

لا شكّ أنّ غزوة باريس هي فتحٌ من الله سبحانه لأوليائه، إذ سُرّ بها المجاهدون، وفرح بها المستضعفون من المسلمين، واستبشر بها المكروبون الذين أصابهم ما أصابهم من عدوان الصّليبيّين، وبالرغم من آلام الأمّة إلا أنّ المنافقين دأبوا على استنكار أيّ غزوةٍ يغزوها جنود الخلافة، وبثّ الشّبهات محاولين التّشويش على النّاس، لذا ومن باب إحقاق الحقّ وتبيين الصّواب فهذه وقفاتٌ نبيّن فيها مشروعيّة هذه الغزوة وأمثالها من الغزوات من النّاحية الشّرعيّة، وهذا الذي يهمّ المسلم الفطن، فإن كان الشّرع يقرّ هذا النّوع من الغزوات فدعونا إذاً من إرجاف المنافقين.

الوقفة الأولى: فرنسا دولةٌ كافرةٌ محاربةٌ.

ممّا هو معلومٌ ولا يختلف فيه اثنان من العقلاء أنّ فرنسا دولةٌ كافرةٌ صليبيّةٌ حاقدةٌ تعلوها أحكام الكفر بل وتقاتل على نشر الشّرك والإلحاد والرّذيلة، وهي مع ذلك دولةٌ محاربةٌ للمسلمين، فواقعها وتاريخها شاهدان على جرائمها وفظائعها واستباحتها لديار المسلمين في الجزائر ومصر وتشاد والشّام ومالي وتونس والنّيجر وخراسان. وهي إلى يومنا هذا تشارك في العدوان على المسلمين في العراق والشّام وتقصف بيوتهم وترعب أطفالهم وتناصر أعداءهم من الرّافضة وملاحدة الكرد، كما أنّها تفعل الشّيء نفسه ضدّ المسلمين في أفغانستان ومالي، وإنّ عداء فرنسا للإسلام شديدٌ؛ فهي من أوائل الدّول حرباً على النّقاب، كما أنّها من الدّول التي جهرت بسبّ نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم، قاتلهم الله وقبّحهم.

ولذلك فإنّ فرنسا في ميزان الشّريعة هي دولةٌ كافرةٌ حربيّةٌ محاربةٌ للإسلام والمسلمين، ليس بينها وبين المسلمين عهدٌ أو هدنةٌ أو ذمّةٌ؛ وبالتالي فهي دار حربٍ وينبني على ذلك شرعيّة جهادها وإحداث التفجير والتقتيل فيها.

الوقفة الثانية: وجوب جهاد فرنسا.

ممّا تقدّم بيانه ينبغي معرفة أن جهاد فرنسا الصّليبيّة وقتالها واجب على المسلمين وهو من قبيل جهاد الدّفع في زماننا هذا ولا شكّ، قال الله تعالى: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم) [البقرة: ١٩٠]، وقال الله تعالى: (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) [البقرة: ١٩٤].

وهذا النّوع من الجهاد واجبٌ بإجماع أهل العلم سلفاً وخلفاً، وإنّ الغزوة التي وقعت في باريس هي من الجهاد الواجب على الأمّة، إذ به يُكَفُّ بأس الذين كفروا.

الوقفة الثالثة: جواز قتل الصّليبيّين من الفرنسيّين.

مما دلّت عليه نصوص الكتاب والسنّة وما انعقد عليه إجماع الأمّة أنّ الكافر الذي ليس بينه وبين المسلمين عهدٌ من ذمّةٌ أو هدنةٌ أو أمانٌ، فإنّه حلال الدّم والمال، وهو بذلك صار حربياً يجوز قتله وإن لم يشارك في قتالنا، قال الله تعالى: (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) [التوبة: ٥].

وعن سليمان بن بريدة، عن أبيه، قال: كان رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- إذا أمّر أميراً على جيشٍ أو سريّةٍ، أوصاه في خاصّته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: "اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله"، [رواه مسلم].

فهذه النّصوص وغيرها تدلّ على أنّ سبب قتالهم هو الكفر والشّرك، فنحن نقاتلهم ابتداءً لكفرهم وشركهم، وقد جاءت نصوصٌ استثنت من حكم القتل مَنْ لهم عهدٌ شرعيٌّ مع المسلمين، فهؤلاء يوفى لهم عهدهم إلى مدّته، وعليه فالكافر الذي ليس بينه وبين المسلمين عهدٌ هو حلال الدّم والمال، وحلال العرض أيضاً بالجهاد. وهذه المسألة أجمع عليها الأئمّة والعلماء على مرّ العصور وسبقهم في ذلك الإجماع العمليّ للصّحابة على ذلك، قال الإمام الشّافعيّ: (حقن الله الدّماء، ومنع الأموال إلا بحقّها بالإيمان بالله وبرسوله، أو عهد من المؤمنين بالله ورسوله لأهل الكتاب، وأباح دماء البالغين من الرّجال بالامتناع من الإيمان إذا لم يكن لهم عهد) [الأم: ١/ ٢٩٣]. وقال الإمام القرطبيّ: (والمسلم إذا لقي الكافر ولا عهد له جاز له قتله) [تفسير القرطبي: ٥/ ٣٣٨].

الوقفة الرابعة: بطلان مصطلح "المدنيين".

وقد روّج بعض المفتونين شبهة أنّ القتلى من المدنيّين وأنّ هؤلاء لا يجوز قتلهم! وللردّ على هؤلاء نقول: ليس في شرعنا مصطلح (مدنيّ لا يجوز قتله)، و(عسكريّ يجوز قتله)، فهذا تقسيم محدثٌ وهو بدعةٌ قبيحةٌ منكرةٌ، وقد ذكرنا نصوص الكتاب والسّنة الدّالّة على جواز قتل الكفّار الذين ليس بينهم وبين المسلمين عهدٌ، وذكرنا الإجماع على ذلك، ولا فرق في ذلك بين ما سُمّي مدنيّ وما سُمّي عسكريّ، ومن فرّق وأفتى بعدم جواز قتل الكفّار "المدنيّين" فعليه بالدّليل من الكتاب والسّنّة، وإلاّ فهو يكذب على الشّريعة ويفتري على النّصوص.

الوقفة الخامسة: بيان أنّ شعب فرنسا رجالاً ونساءً هو شعبٌ محاربٌ للإسلام.

وقد أشاع بعض المفتونين والمنافقين أنّ حكومة فرنسا هي التي تحارب الإسلام وأمّا شعبها من النّصارى واليهود ونحوهم ليسوا في حالة حرب، وأنهم مسالمون فلا يجوز قتلهم! وللردّ على هؤلاء نقول: بل إنّ شعب فرنسا سواء كانوا من أعيانهم أو عسكرهم أو عوامّهم هم قومٌ محاربون للإسلام والمسلمين، ولا نستثني إلاّ المسلمين منهم، الذين لم يوالوا حكومة فرنسا أو يقترفوا مكفّرا، فهؤلاء لا يجوز تقصّدهم بالقتل. ومن ناحية النّساء والصّبيان فلا شكّ أنّ النّصوص من الكتاب والسّنّة جاءت بتحريم تقصّد قتلهم ابتداءً؛ إلا أنّه يجوز قتلهم تبعاً لا قصداً، وذلك كمثل الإغارة على الكفّار مع صعوبة التّمييز بين الرجال والنّساء والذّراريّ، فيجوز حينها قتلهم تبعاً لا قصداً، ويدلّ على ذلك حديث الصَّعْب بن جَثَّامة -رضي الله عنه- حيث قال: مرّ بي النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالأبواء أو بِوَدّانَ، وسُئل عن أهل الدّار يبيّتون من المشركين، فيصاب من نسائهم وذراريّهم قال: "هم منهم"، [متفق عليه].

فأقرّ النبي صلّى الله عليه وسلّم ما يصيب النّساء والذّريّة من قتل وجرح في البيات، قال الإمام أحمد بن حنبل: (لا بأس بالبيات، وهل غزو الروم إلاّ بالبيات) [مسائل الإمام أحمد رواية أبي داود: ٣١٨]. كما أنه يجوز تقصّد قتلهم إذا كان لهم مشاركة في الحرب على المسلمين، سواءٌ كانت هذه المشاركة بالنّفس أو بالمال أو الرّأي، كما هو الحال بما يُسمّى "استطلاعات الرأي"، أو انتخاب الزعماء الذين يحاربون الإسلام والمسلمين، ويشهد لذلك إقرار النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- قتل دُرَيْد بن الصِّمَّةِ وكان عمره يزيد عن المئة عام، لأنه كان ذا رأي في الحرب على المسلمين، وكذا إقرار النبي -صلّى الله عليه وسلّم- لقتل المرأة التي كانت تشتمه، قال الإمام النّوويّ في قتل النّساء والذريّة: (فإن قاتلوا قال جماهير العلماء يقتلون) [شرح النووي على مسلم: ١٢/ ٤٨].

وإن شعب فرنسا من الرّجال والنّساء لهم مشاركة في الحرب على الإسلام والمسلمين، وذلك بانتخابهم لتلك الحكومات المحاربة للمسلمين، وبتأييدهم للحرب على المسلمين في العراق والشام وخراسان وكلّ مكان، قال الإمام ابن القيم: (وكان هديه -صلّى الله عليه وسلّم- أنّه إذا صالح قوماً فنقض بعضهم عهده وصلحه وأقرّهم الباقون ورضوا به غزا الجميع، وجعلهم كلّهم ناقضين، كما فعل بقريظة والنّضير وبني قينقاع، وكما فعل في أهل مكّة) [زاد المعاد: ٣/ ١٢٣].

الوقفة السّادسة: مشروعيّة إحداث التفجير والتخريب والتّدمير في فرنسا.

باعتبار أنّ فرنسا هي دار كفرٍ وحربٍ؛ فمعنى ذلك أنّه يجوز التّدمير فيها والتّخريب والتّفجير، وهو من الجّهاد في سبيل الله، ويستحسن التّركيز على تخريب ما يضرّ باقتصادهم، كما فعل النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- حين حارب يهود بني النّضير، حيث قطع نخيلهم وحرّقه، كما روى البخاريّ ومسلم في صحيحيهما عن ابن عمرٍ رضي الله عنهما، قال: "حرّق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نخل بني النّضير وقطع، وهي البويرة"، فنزلت: (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله) [الحشر: ٥]، وهذا نصّ صريح في جواز التّخريب والتّدمير في بلاد الكفر الحربيّة.

الوقفة السّابعة: غزوات باريس هي السّبيل لردع الكفّار.

إنّ كفّ بأس الكافرين وصدّهم وردع عدوانهم عن المسلمين لا يكون إلاّ بمثل هذه الغزوات في عقر ديارهم، لما لها من أثرٍ عظيمٍ من ناحية الإضرار باقتصادهم، وسفك دمائهم وإلقاء الرّعب في قلوبهم، فحينها يحسبون ألف حسابٍ لأيّ هجومٍ لهم على المسلمين، والحمد لله رب العالمين▪

نصرة الدولة الإسلامية على أحزاب الكفر والردّة والنفاق

من أوثق عُرى الإيمان

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فلا يخفى عليك اليوم -أيها المسلم اللبيب- كيف اجتمعت ملل الكفر والردة والنفاق من العرب والعجم على حرب الدولة الإسلامية، فتراهم يتحشدون ويجمعون ويأتمرون ويتآمرون ويجيشون ويتوعدون، وتقودهم في ذلك حاملة الصليب أمريكا، حتى باتت المعركة الفاصلة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان قاب قوسين أو أدنى.

ورغم وضوح الرؤية وانكشاف الحقائق، تجد البعض يتساءل: مع من سأقف؟ وما هو موقفي؟

فاسمع هذه الكلمات أيها المسكين، فالخطب جلل والأمر عظيم، فوالله إنهما الفسطاطان اللذان أخبر عنهما الصادق المصدوق: (فسطاط إيمان لا نفاق فيه، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه)!

قال تعالى: {لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ} [آل عمران: ٢٨].

وقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله والحب في الله والبغض في الله) [حديث حسن رواه الطبراني].

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «من أحب في الله وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله فإنما تُنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك» [جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي].

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في شرح قول ابن عباس الآنف: «قوله: «ووالى في الله»، هذا بيان للازم المحبة في الله، وهو الموالاة فيه، إشارة إلى أنه لا يكفي في ذلك مجرد الحب، بل لا بد مع ذلك من الموالاة التي هي لازم الحب، وهي النصرة والإكرام والاحترام، والكون مع المحبوبين باطنا وظاهرا، وقوله «وعادى في الله»، هذا بيان لازم البغض في الله، وهو المعاداة فيه، أي إظهار العداوة بالفعل كالجهاد لأعداء الله، والبراءة منهم، والبعد عنهم باطنا وظاهرا، وإشارة إلى أنه لا يكفي مجرد بغض القلب، بل لا بد مع ذلك من الإتيان بلازمه، كما قال تعالى: { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءاؤا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ}» [تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد].

لذا فقد تقرر في الشريعة المطهرة وعُلم من الدين بالضرورة أن الولاء والبراء أصل من أصول الدين، لا دين ولا إسلام ولا إيمان بدونه!

فما معنى الولاء والبراء؟ وما موقعهما من الدين؟ وماذا يجب على المسلم لكي يحقق الولاية والبراءة؟

قال الشيخ حمود بن عقلاء الشعيبي -رحمه الله- عندما سُئل عن الموقف من «الحملة الصليبية على أفغانستان» باختصار وتصرف يسير:

«الولاء في اللغة اسم مصدر من والى يوالي موالاة وولاء، ووالى فلان فلانا إذا أحبه واتبعه، والولاية معناها النصرة والحماية والاتباع، وولي فلان فلانا أي تقرب منه، أما معنى الولاء في الشرع فهو تولي العبد ربه ونبيه باتباع الأوامر واجتناب النواهي وحب ونصرة أولياء الله من المؤمنين».

«أما البراء لغة فهو مصدر برى بمعنى قطع، ومنه برى القلم بمعنى قطعه، والمراد هنا قطع الصلة مع الكفار، فلا يحبهم ولا يناصرهم ولا يقيم في ديارهم، والبراء في الشرع هو البعد والخلاص والعداوة، يقال برى وتبرأ من الكفار إذا قطع الصلة بينه وبينهم فلا يواليهم ولا يحبهم ولا يركن إليهم ولا يطلب النصرة منهم».

> أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله

«ومنزلة الولاء والبراء في الإسلام عظيمة، فالولاء والبراء قاعدة من قواعد الدين وأصل من أصول الإيمان والعقيدة، فلا يصح إيمان شخص بدونهما، فيجب على المرء المسلم أن يوالي في الله ويحب في الله ويعادي في الله، فيوالي أولياء الله ويحبهم، ويعادي أعداء الله ويتبرأ منهم ويبغضهم، فمن أحب في الله وأبغض في الله ووالى في الله وعادى في الله فهو ولي الله، أما من والى الكافرين واتخذهم أصدقاء وإخوانا فهو مثلهم، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة: ٥١]، والقرآن العزيز مشتمل على كثير من الآيات التي تحذر من اتخاذ الكافرين أولياء، مثل قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ} [الممتحنة: ١]».

«فالبراء من الأسس التي تقوم عليها العقيدة الإسلامية وهو البعد من الكفار ومعاداتهم وقطع الصلة بهم، فلا يصح إيمان المرء حتى يعادي الكفار والمرتدين والمنافقين ويتبرأ منهم ولو كانوا أقرب قريب، قال سبحانه: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة: ٢٢]، فقد تضمنت هذه الآية الكريمة أنه لا يتحقق الإيمان إلا لمن تباعد عن الكفار المحادين لله ولرسوله وتبرأ منهم وعاداهم ولو كانوا أقرب قريب، وقد أثنى -سبحانه وتعالى- على خليله إبراهيم حينما تبرأ من أبيه وقومه ومعبوداتهم حيث قال: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ} [الزخرف: ٢٦]».

> البراء هو البعد من الكفار ومعاداتهم وقطع الصلة بهم

«وقد أمرنا سبحانه وتعالى بأن نتأسى بالخليل -عليه الصلاة والسلام- وبتوحيده الخالص وبراءته من المشركين حيث قال: { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [الممتحنة: ٤]».

«أما مظاهرة الكفار على المسلمين ومعاونتهم عليهم فهي كفر ناقل عن ملة الإسلام عند كل من يعتد بقوله من علماء الأمة قديما وحديثا، قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب، رحمه الله: الناقض الثامن من نواقض الإسلام «مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين» ... وبناء على هذا فإن من ظاهر دول الكفر على المسلمين وأعانهم عليهم كأمريكا وزميلاتها في الكفر يكون كافرا مرتدا عن الإسلام بأي شكل كانت مظاهرتهم وإعانتهم...»

«وهذا العداء والحقد على الإسلام والمسلمين من قبل هؤلاء الصليبيين واليهود لا يستغرب، لأن الكفر وإن كان مللا شتى إلا أنهم ملة واحدة بالنسبة لعداء المسلمين والحقد عليهم...»

«وبهذه المناسبة فإننا ندعو جميع المسلمين أن يهبوا لنصرة إخوانهم المجاهدين بكل ما يستطيعون من عون بالنفس والمال والدعاء والدعاية، كما نوصي إخواننا المجاهدين بالصبر والثبات والاستماتة في مقاومة هذا العدوان، وكلنا أمل في الله أن تكون ديار المسلمين مقبرة لهؤلاء الصليبيين والمرتدين كما كانت مقبرة لمن قبلهم من الطغاة المستكبرين».

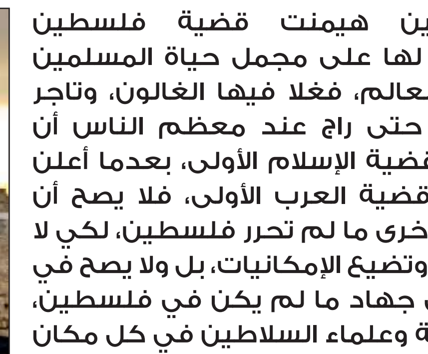
> من الواجب على جميع المسلمين أن ينصروا الدولة الإسلامية بكل ما يستطيعون

«كما نذكر إخواننا المقاتلين في سبيل الله بحالة المسلمين يوم الأحزاب حينما تكالبت عليهم قوى الكفر وتحالفوا على غزو المدينة واستئصال شأفة المسلمين، إلا أن الله -سبحانه وتعالى- بقوته التي لا تقهر زلزلهم وفرق شملهم وأنجى نبيه ومن معه...» انتهى كلامه رحمه الله.

واليوم يعيد التاريخ نفسه، وتعود نفس ملل الكفر والعمالة لحرب المسلمين من جديد، فالواجب على جميع المسلمين عموما، وعلى المسلمين الساكنين ديار الدولة الإسلامية خصوصا أن ينصروا دولتهم الإسلامية في كل مكان بكل ما يستطيعون من أنفس وأموال ودعوات، وأن يذبوا عن عرض إخوانهم المجاهدين ويوالوهم ويؤدوا لهم واجب النصرة والدعم ويفرحوا بظهورهم وانتصارهم وأن يرفعوا همم الناس ويلجموا أفواه المغرضين والمخذلين، فوالله الذي لا إله إلا هو إن ذلك من أوثق عرى الإيمان، كما أن ضده من الفرح بهزيمة المسلمين ومحبة ظهور الكفار وتمكنهم في الأرض لهو الردة الصريحة عن دين الإسلام.

فاحذر أيها المسلم من مغبة تضييع ما أوجبه الله عليك، واسع في درب مرضاته وكن على يقين بموعود الله لعباده المؤمنين بأن العاقبة للمتقين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.





لعشرات السنين هيمنت قضية فلسطين واحتلال اليهود لها على مجمل حياة المسلمين في كل أنحاء العالم، فغلا فيها الغالون، وتاجر بها المتاجرون، حتى راج عند معظم الناس أن فلسطين هي قضية الإسلام الأولى، بعدما أعلن القوميون أنها قضية العرب الأولى، فلا يصح أن تطرح أي قضية أخرى ما لم تحرر فلسطين، لكي لا تتشتت الجهود وتضيع الإمكانيات، بل ولا يصح في نظر الكثيرين أي جهاد ما لم يكن في فلسطين، وبات دعاة الفتنة وعلماء السلاطين في كل مكان يستنكرون على المجاهدين في كل الساحات، ويلبسون على الجهلة بالسؤال: لماذا لا يجاهد هؤلاء في فلسطين؟

بيت المقدس.. قضية شرعية أولاً

وتعدى الأمر بهؤلاء المنحرفين ليدخل في باب الولاء والبراء، إذ لم يعد هناك عدو للأمة المسلمة غير اليهود المحتلين لفلسطين، وحتى من أراد أن يوسع الدائرة لتشمل الصليبيين النصارى، انحرف عن الشريعة بإعلانه أن السبب الوحيد لعدائه لهم هو دعمهم لليهود، ولا عدو من الطواغيت إلا من صالح اليهود، أو تحالف معهم.

ومن جانب آخر صار كل من يعادي الدولة اليهودية بطلا محبوبا ترفع راياته، وتعلق صوره، بغض النظر عن دينه وعقيدته، وبهذا تعلقت قلوب الناس بالشيوعيين من أمثال مقاتلي الجبهتين الشعبية والديموقراطية لتحرير فلسطين وحلفائهم من الحركات الماركسية العالمية لفترة من الزمن، ومُجّدوا، وسُمّي قتلاهم شهداء، رغم أنهم ملاحدة كفار، لا يؤمنون بالله ربّا، ولا بالإسلام دينا، ولا بمحمد -صلى الله عليه وسلم- رسولا، ولكن كان يكفي عند أصحاب «قضية العرب الأولى» أنهم يقاتلون اليهود في فلسطين.

ثم تعلقت قلوبهم بالروافض الأنجاس من أمثال حزب اللات، وحركة أمل، لقتالهم لليهود في جنوب لبنان في السنوات الماضية، حتى وصل الأمر بالناس في حرب عام «٢٠٠٦» المعروفة بحرب تموز أن ارتفعت رايات الرافضة، وصور المرتد حسن نصر اللات في منازل الملايين من الناس.

وعلاوة على ذلك تعلقت قلوب عشرات الملايين من الناس بشرار الطواغيت العرب من أمثال جمال عبد الناصر، وحافظ الأسد، ومعمر القذافي، وصدام حسين، بسبب متاجرتهم بقضية فلسطين، وبيعهم الأوهام للمتعلقين بهم من خلال الخطابات الحماسية عن إلقاء اليهود في البحر، أو إحراق دولتهم بالصواريخ.

الأحزاب المنحرفة

قضية المتاجرة بفلسطين تعدّت القوميين واليساريين والرافضة، حيث دخلت منذ زمن في صلب مناهج العمل للأحزاب والفصائل والجماعات التي تنتسب كذبا للإسلام، باعتبارها وسيلة لحشد الناس، وتوحيد الصف، حيث لم يجدوا في الساحة أمامهم قضية يُجمع عليها الناس غير قضية فلسطين التي تاجر بها الجميع دون استثناء، واستسهلوا بناء مناهجهم الحركية على أساس «قضية فلسطين» الذي أشرف على بنائه القوميون لعقود، وذلك لما وجدوه من بُعد للناس عن الدين، فسولت لهم أنفسهم أن يجمعوا الناس حولهم على هذا الأصل الفاسد وينطلقوا بهم -بزعمهم- لتحقيق الأهداف المعلنة لجماعاتهم في إقامة الدين وتطبيق الشريعة، دون أن يلتفتوا لاختلاف طبائع الناس ممن تجذبه الدعوات لاستنقاذ فلسطين وأنهم خليط من المسلمين والكفرة، من القوميين واليساريين، والنصارى، فهل يمكن أن يتم حشد هؤلاء جميعا لإنجاح أي مشروع «إسلامي» حقيقي؟.

وبعد ما يقارب سبعة عقود من الشعارات الفارغة، لا زالت فلسطين تحت حكم اليهود، ولا زال الرافضة وحلفاؤهم من الأحزاب الضالة يتاجرون بالقضية، بعد أن انقسمت فلسطين القديمة إلى ثلاثة أقسام، كل منها يحكم بحكومة طاغوتية تزعم العداء للأخرى.

الجهاد لاستنقاذ بيت المقدس يخضع لضوابط الشريعة

إن وضع قضية فلسطين في إطارها الشرعي الصحيح، وكسر وثن «قضية المسلمين الأولى» الذي تم تعبيد الناس له لعقود، يجب أن يكون الأساس الذي ينبني أي عمل حقيقي باتجاه تلك البقعة المباركة من الأرض.

فقضية المسلمين الأولى هي إقامة التوحيد، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}، ولأجلها أرسل الله الرسل وشرع الجهاد، لتطهير كل الأرض من الشرك، وتعبيدهم لرب العالمين عز وجل، كما قال تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ}، وينطبق على بيت المقدس وأكنافها في ذلك ما ينطبق على باقي الأرض، بل إن الجهاد لاستنقاذ بيت المقدس من أيدي اليهود لا يجوز إلا إذا كان في سبيل إزالة حكم الطاغوت عنها، وإقامة الدين فيها كاملا غير منقوص، أما أن يستبدل بحكم اليهود، حكم الطواغيت من أمثال من يحكم حاليا في غزة والضفة الغربية، فالجهاد في سبيل ذلك باطل، وهو قتال في سبيل الطاغوت، لا جهاد في سبيل الله.

ولو نظرنا إلى واقع الأرض اليوم لوجدناها تحكم كلها بالشرك وقوانينه، خلا بقاعا منها مكن الله الدولة الإسلامية من إقامة الدين فيها، والجهاد لدفع الكفار عن أراضي المسلمين المغصوبة واجب على المسلمين، ومنها بيت المقدس وأكنافها، وأرض الحرمين، وباقي ديار المسلمين، وبالتالي يتساوى الحكم على الجهاد في فلسطين مع غيره دون تمييز، ولو كان فضل الأرض يقدم خيار الجهاد فيها، فالجهاد لاستنقاذ مكة والمدينة من أيدي الطواغيت من آل سعود مقدم ولا شك على سائر بقاع الأرض.

ومن باب آخر فإن الله عز وجل أمر عباده أن يقاتلوا المشركين كلهم، دون استثناء لبعضهم دون بعض، أو تخصيصه ببعضهم دون بعض، فقال تعالى: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}، فما الذي أعطى لليهود الميزة من بين كل أصناف المشركين كي يَحصُر المنحرفون الجهاد بهم دون غيرهم، فالطواغيت المرتدون الحاكمون لديار الإسلام أشد كفرا منهم، وقتالهم مقدم على قتال المشركين الأصليين، فالجهاد المشروع يكون بقتال اليهود في فلسطين وبقتال الطواغيت وأتباعهم من المرتدين في كل مكان في الوقت نفسه، وكذلك الصليبيين، وكل المشركين في العالم، أما حصر الجهاد باليهود فقط فهو تبديل لشرع الله، واتباع لأهواء الطواغيت الذين يريدون منع المسلمين من جهاد المشركين والمرتدين في البلدان التي يحكمونها.

وكذلك فإن الله تعالى أمر المؤمنين أن يتوجهوا في جهادهم إلى الأقرب إليهم من الكفار، في إطار قتالهم للمشركين كافة، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ}، وبالتالي فإن على المسلمين في كل مكان أن يقاتل كل منهم الأقرب إليه من الكفار، فيبدأ المسلمون تحت حكم اليهود بقتالهم، ويبدأ أهل الشام بقتال الطاغوت النصيري وغيره من أصناف المرتدين كالصحوات والـ PKK، ويبدأ المسلمون في العراق بقتال مرتدي الرافضة والبيشمركة والصحوات، والمسلمون في مصر وسيناء بقتال الطاغوت الحاكم لمصر، وهكذا في كل ديار الإسلام، حتى إذا انتهى المسلمون في أي قطر من الأقطار من قتال الكفار الذين يلونهم وأخضعوا أرضهم لحكم الله، انتقلوا إلى الكفار الذين يلونهم، وهكذا حتى تُطهّر الأرض من الشرك والكفر.

وتتأكد هذه الحقيقة إذا أخذنا بالحسبان أن الطواغيت في جوار بيت المقدس، يشكلون هم وجيوشهم خط الدفاع الأول عن دولة يهود، وبالتالي لا يمكن بحال التوصل إلى قتال اليهود إلا بالتخلص من هؤلاء الطواغيت وإزالة حكمهم، وتدمير جيوشهم، وبالتالي الوصول إلى تخوم دولة اليهود والاشتباك مع جيشهم بشكل مباشر.

إن الجهاد لاستنقاذ بيت المقدس وأكنافه من أيدي اليهود والذي نسأل الله أن يكون قريبا، هو مسألة شرعية، تخضع لضوابط الشريعة في كل أجزائها، ولا يصح بحال أن يغلو أحد فيها فيرفعها فوق توحيد الله، مثلما لا يصح أن يتهاون فيها أحد ممن يؤمن بالله ربا وبالإسلام دينا، فهو واجب شرعي، يجب على كل المسلمين العمل عليه، لكونه من ديار المسلمين التي استولى عليه الكفار اليهود، وحولوه إلى دار حرب، وحكموه بشريعة الطاغوت، ومنعوا فيه شعائر الإسلام، وقتلوا المسلمين، ونهبوا أموالهم، وأخرجوهم من أرضهم، فقتال هؤلاء اليهود واجب على كل مسلم، ولكن هذا الواجب أوكد على أهل بيت المقدس لكونهم أقرب إليهم، على أن تكون غاية هذا القتال هي إقامة دين الله لا مجرد استعادة الأرض والمال، أو لمجرد الثأر من اليهود على جرائمهم طيلة العقود الماضية، وواجب على كل المسلمين في العالم إعانتهم في ذلك بما يستطيعون إيصاله إليهم من المال والرجال، وكذلك التخفيف عنهم، والنكاية في عدوهم عن طريق استهداف اليهود وحلفائهم أينما ثقفوهم، وقتلهم، وإتلاف أموالهم، وتعطيل مصالحهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

والجهاد لاستنقاذ بيت المقدس من أيدي اليهود لا يبرر الانتساب إلى الفصائل والأحزاب المرتدة، مثل حزب اللات الرافضي، وحركة «الجهاد الإسلامي» المرتبطة بها، أو الحركات العلمانية والشيوعية، كحركة فتح والجبهتين الشعبية والديموقراطية، ولا الحركات المنتسبة للإسلام اسما، الممتنعة عن تنفيذ شرع الله حكما، المطبقة لشرك الديموقراطية واقعا كحركة حماس المرتدة.

فقتال الكفار تحت راية كفرية لا يجوز بحال، وإنما يجاهد المسلم تحت راية جماعة المسلمين فإن لم يستطع الالتحاق بالخلافة، فبيعتها وجهاده وحده أبرّ له عند الله من أن يهلك نفسه في سبيل إزالة حكم اليهود وإحلال حكم الأحزاب والفصائل الطاغوتية المرتدة.



تثبَّت قبل أن تحكم وتنقل

لقد ابتلي بعض المسلمين بالتسرع في الحكم على الوقائع والأشخاص، والإسراع في نقل ما اقتنعوا به، قبل أن يتثبتوا ويعرفوا حقيقة الأمر وملابسات الخبر.

ومآل ذلك ظلمٌ وكذبٌ وافتراءٌ وقول زور وتنازع، وهو مما يفت عضد الأخوة الإيمانية، ويضعف اللحمة، ويورث الفرقة، وفي النهاية ستكون النتيجة الفشل والهزيمة، والعياذ بالله.

فعلى المسلم التثبت والتأكد من كل خبر يسمعه أو واقعة تعرض له، فالتثبت في الأخبار منهج قرآني، الآيات فيه كثيرة متضافرة، كقوله تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء: ٣٦].

قال ابن كثير: «قال قتادة: لا تقل رأيت ولم تَرَ، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله»، وقد أمرنا الله تعالى بالعدل، في القول في قوله سبحانه: {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [الأنعام: ١٥٢].

الحكم والنقل لأولي الأمر بمثابة شهادة، يجب أن تراعى فيهما المصداقية والتجرد

والحكم والنقل لأولي الأمر بمثابة شهادة، يجب أن تراعى فيهما المصداقية والتجرد، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا} [المائدة: ٨]، قال الطبري: «يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله محمد، ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم... ولا يحملنكم عداوة قوم على ألا تعدلوا في حكمكم فيهم وسيرتكم بينهم، فتجوروا عليهم من أجل ما بينكم وبينهم من العداوة».

مراحل التثبت من الخبر:

هذا، وعلى المسلم أن يعلم أن التثبت من الخبر والواقعة ثلاث مراحل، يجب استيفاؤها جميعا قبل الحكم أو الشكوى، وهي:

١- التثبت من صحة الخبر أو الواقعة: ويتحصل بالاطمئنان إلى صحة أصل الخبر وحقيقة وقوع الواقعة، لأن الخبر قد يكون كذبا والواقعة مختلقة، فعندها يرفض الخبر وترد الواقعة.

٢- التثبت من دقة الكلام ووضوح الواقعة: فقد يكون أصل الخبر صحيحا والواقعة حقيقية، ولكن يتبين فيما بعد أن تفاصيل الخبر ليست كما نقل، وأحداث الواقعة ليست كما عرضت، ومن هنا تنشأ الشائعات بتسلسل النقل المعنعن المعلول.

٣- التثبت من دقة فهم الناقل واستيعابه: فقد يكون الشخص صادقا، ولكنه سيء الفهم بطيء الاستيعاب، فيفهم الكلام على غير مقصوده، فينقله لغيره بفهمه الخاطئ.

وهذه المراحل الثلاث من التثبت لا بد لكل مسلم يخشى الله أن يجتازها قبل أن يحكم أو أن ينقل خبرا أو واقعة معينة.

الكذب الكسبي:

إن من قصر المسلم في التثبت من صحة الخبر ودقة الكلام وفهمه، فإن ذلك ربما يدخله في الكذب الكسبي! فما هو الكذب الكسبي؟

قال ابن حجر: «الكذب: هو الإخبار بالشيء على خلاف ما هو عليه، سواء كان عمدا أم خطأ» [فتح الباري]، وقال النووي: «الكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو، سواء تعمدت ذلك أم جهلته» [الأذكار].

ومن هنا فإن الكذب نوعان:

كذب ذاتي: وهو تعمد الإنسان قول خلاف الحق، وكذب كسبي: وصاحبه ليس كذابا متعمدا، ولكن يناله نصيب من الكذب بما ينقله من الأخبار التي يسمعها من الآخرين دون تبين ولا تثبت.

وعن هذا القسم قال الله تعالى: {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ} [النور: ١٥].

فهؤلاء خاضوا في حادثة الإفك دون تثبت وتبين وتأكد، فما أن طرق خبر الطعن في عرض أمنا الصديقة بنت الصديق عائشة -رضي الله عنهما- أسماعهم حتى انساب حديثه على ألسنتهم، والصياغة تدل على سرعة روايته عن غيره، وسرعة تكلمه بما سمع، فكأنه تلقى الخبر بلسانه وليس بأذنه!

قال ابن أبي حاتم في تفسيره: «عن سعيد بن جبير في قول الله: {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ}، وذلك حين خاضوا في أمر عائشة، فقال بعضهم سمعت من فلان يقول كذا وكذا، فقال بعضهم بلى كان كذا وكذا، فقال تلقونه بألسنتكم، يعني: يرويه بعض عن بعض، سمعته من فلان، وسمعته من فلان، وفي قوله: {بِأَفْوَاهِكُمْ} يعني: بألسنتكم، يعني: من قذفوها، وفي قوله: {مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ} يعني: من غير أن تعلموا أن الذي قلتم من القذف حق».

أصناف نقلة الأخبار:

وعلى المسلم أن يعلم أن نقلة الخبر أصناف كثيرة، فناقل الأخبار إما أنه ناصح، فتشترط فيه عندها ليكون كذلك شروط، هي:

أ- النية الصالحة.

ب- الصدق.

ج- الضبط (الضبط حين السماع، والضبط حين الأداء).

د- مخاطبة المنصوح مباشرة، لأن من حق المسلم على المسلم أن ينصحه، أما إن تجاوزه وتحدث أمام غيره، فإن ذلك ليس من النصح في شيء، بل هو الغيبة والتشهير والتأليب وإن لم يقصده.

حق المسلم على المسلم أن ينصحه، أما إن تجاوزه وتحدث أمام غيره، فإن ذلك ليس من النصح في شيء، بل هو الغيبة والتشهير والتأليب وإن لم يقصده.

فإن لم تتحقق هذه الشروط مجتمعة صار الناقل من أصناف نقلة الأخبار الأخرى المذمومة السيئة، التي منها:

١. إما أن يكون الناقل مفتريا، نسب إلى مسلم ما ليس فيه، وعنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال) [صحيح، رواه أحمد وغيره].

٢. وإما أنه بهات، وفيه قال تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا} [الأحزاب: ٥٨]، قال ابن كثير: «أي: ينسبون إليهم ما هم برآء منه لم يعملوه ولم يفعلوه، وهذا هو البهت البين، أن يحكى عن المؤمنين ما لم يفعلوه، على سبيل العيب والتنقص».

٣. وإما أنه نمام، أراد الإيقاع بين من ينقل عنه وبين من ينقل إليه، (ولا يدخل الجنة نمام) كما قال المصطفى -صلوات الله وسلامه عليه- في الحديث الذي رواه مسلم.

نصيحة وخاتمة:

فيا أخا الإسلام، حينما ترى في أخيك المسلم أمرا أو تسمع عنه شيئا، لا تتعجل الحكم ولا تنقل لغيرك قبل أن تتثبت، وكن في ذلك ناصحا أمينا صادقا دقيقا عادلا متجردا لله تعالى، وإياك إياك من الظلم والكذب والنميمة والبهتان وسائر الأخلاق الذميمة التي لا تليق بالمؤمنين.

أعظم الناس إيماناً

(قوم يأتون من بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بها)

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

من كان شيخه كتابه كان صوابه أكثر من خطئه... نعم، إن كان كتابه كتابا {لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}، كتابا {لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، كتابا أنزله الله على عبده {وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا}، كتابا {أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}، كتابا {مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ}، كتابا لو {كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}، كتابا قال الله -جل وعلا- فيه: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}، وقال: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}، وقال: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ}.

فمن كان كتابه كلاما غير مخلوق، من الله بدأ وإليه يعود، وكان للطالب قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فصوابه أكثر من خطئه، لا ريب في ذلك.

وكذلك من كان شيخه البخاري أو مسلما وتلقى عنهما ما رفعاه إلى أفصح من نطق بالضاد، الذي أوتي جوامع الكلم، وما أوقفاه على خير أمة أخرجت للناس، خير القرون، رضي الله عنهم.

وكذلك من كان كتابه تفسير الطبري أو ابن المنذر أو ابن أبي حاتم.

وكذلك من كان كتابه في الاعتقاد السنة للإمام أحمد أو ابنه عبد الله أو البربهاري أو الخلّال أو ابن بطة أو حرب الكرماني.

وكذلك من كان كتابه رسائل مجدّدي الإسلام كابن تيمية وابن القيم وابن عبد الوهّاب وعبد الرحمن بن حسن.

أما من كان شيوخه علماء الطواغيت والمبتدعة الضلّال والفسقة القاعدين، فخطؤه أكثر من صوابه -إلا من رحم الله وقليل هم- فكيف إذا تبعهم على ما يدعون إليه من الفجور والابتداع والردة، والعياذ بالله؟!

فلا يُعظِّم طالب العلم بدراسته عند علماء الطاغوت ودعاة الضلال كابن باز وابن عثيمين وابن جبرين والفوزان والعودة والحوالي والحويني والعدوي والمدخلي والوادعي والفلسطيني والمقدسي والحدوشي والسباعي... إلخ.

من كان كتابه كلاما غير مخلوق، وكان للطالب قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فصوابه أكثر من خطئه

وقد صدق أحد هؤلاء الرويبضة عندما قال وهو كذوب: «والسنة التي مدحت العودة إلى الورق دون النظر إلى الشخوص والمثل هي القاطعة لحجة هذا الفريق، هذه السنة هي قوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه يوما: (أي الخَلْق أعجب إليكم إيمانا؟) قالوا: الملائكة، قال: (وكيف لا يؤمنون وهم عند ربهم؟) قالوا: الأنبياء، قال: (وكيف لا يؤمنون وهم يأتيهم الوحي؟) قالوا: نحن، فقال: (وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟) قالوا: فمن يا رسول الله؟ قال: (قوم يأتون من بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بها) وفي بعض ألفاظه: (بل قوم من بعدكم، يأتيهم كتاب بين لوحين يؤمنون به، ويعملون بما فيه، أولئك أعظم منكم أجرا) وفي لفظ آخر: (يجدون الورق المعلق فيعملون بما فيه، فهؤلاء أفضل أهل الإيمان إيمانا) فالحديث بوضوحه يمدح أخذ العلم عن طريق الورق المعلق، بل جعل هؤلاء القوم هم أعظم الناس أجرا، وأفضل أهل الإيمان إيمانا، وهذا يدل على أن العصمة عند اختلاف الزمان، وسقوط النماذج الفاسدة الحاملة لاسم العلم والعلماء زورا وبهتانا، هو العودة إلى الورق، ولن يضر هؤلاء (المتمردين) قول فلان وعلان، ورأي زيد وعمرو فإنه لا يعدل أحد عن الطرق الشرعية إلى البدعية إلا لجهل أو عجز أو غرض فاسد كما قال ابن تيمية، وهذا الطريق، وهو أخذ العلم عن طريق الورق المعلق -وهو طريق شرعي- هو الذي يمنع زلة العالم من أن تقفز إلى ذهن التابع فتستقر تحت اسم العصمة والدين».

من كان شيوخه علماء الطواغيت والمبتدعة الضلّال فخطؤه أكثر من صوابه

وبعد هذا، ليتدبر مريد العلم بعض الأحاديث والآثار في التحذير من علماء السوء:

عن أبي ذر -رضي الله عنه- قال: كنت أمشي مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: (لغير الدجال أخوفني على أمتي)، قالها ثلاثا، قال: قلت: يا رسول الله، ما هذا الذي غير الدجال أخوفك على أمتك؟ قال: (أئمةً مضلين) [رواه الإمام أحمد].

وقال صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا، فسُئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا) [رواه الشيخان عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما].

وقال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: «يوشك أن يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا يبقى من القرآن إلا رسمه، مساجدهم عامرة وهي خراب من الهدى، علماؤهم شر من تحت أديم السماء من عندهم تخرج الفتنة وفيهم تعود» [رواه البيهقي في «شعب الإيمان»].

فإذا مات العلماء ولم يبق منهم إلا قليل بين مرابط في الثغور وأسير في السجون ومطارد في الكهوف، لم يُعظَّم طلب العلم عند «المشايخ» إلا من جهل حقيقة العلم الشريف، فالعلم النافع هو المثمر في القلوب وعلى الجوارح، قال عبادة بن الصامت، رضي الله عنه: « إن شئت لأحدثنك بأول علم يُرفع من الناس؟ الخشوع، يوشك أن تَدخُل مسجد جماعة فلا ترى فيه رجلا خاشعا» [رواه الترمذي].

قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: «إن الفقيه حق الفقيه، من لم يقنِّط الناس من رحمة الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله، ولم يؤمِّنهم من عذاب الله، ولم يَدَع القرآن رغبة عنه إلى غيره، إنه لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علم لا فهم فيه، ولا قراءة لا تدبر فيها» [رواه الدارمي في سننه].

وقال مجاهد، رحمه الله: «إنما الفقيه من يخاف الله تعالى» [رواه الدارمي في سننه].

قيل للحسن البصري، رحمه الله: «ليس هكذا يقول الفقهاء»، فأجاب: «ويحك ورأيت أنت فقيها قط؟! إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بأمر دينه، المداوم على عبادة ربه» [رواه الدارمي في سننه].

طلب العلم عن طريق الورق في قرن غاب فيه العلماء إلا في الثغور والسجون والكهوف فمحمود بالآثار

وقال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: «يا حملة العلم اعملوا به، فإنما العالم من عمل بما علم ووافق علمُه عملَه، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، يخالف عملُهم علمَهم، وتخالف سريرتُهم علانيتَهم، يجلسون حلقا فيباهي بعضهم بعضا، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم، تلك إلى الله تعالى» [رواه الدارمي في سننه].

نعم، حقيقة العلم خشية الله، {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}، فمن لم يخف اللهَ فيترك ما يُغضب اللهَ وما يبغضه، فليس بعالم ولا فقيه، ولو درس ودرّس وزعم أنه عالم، ومن لم يدعُ الناس إلى عزائم الأمور ويحذّرهم من رخص الفجور فليس بعالم.

فطلب العلم عند «شر من تحت أديم السماء» وعند «دعاة على أبواب جهنم»، ليس طلبا محمودا، وأما طلبه عن طريق الورق في قرن غاب فيه العلماء إلا في الثغور والسجون والكهوف فمحمود بالآثار، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

لا ينبغي لطالب العلم في دار الخلافة أن يعرض عن طلب العلم من العلماء المجاهدين

وليحذر المرء من العجب والكبر إن ابتلاه الله بصحبة علماء السوء، وليتذكر ما رواه عبد الله ابن الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبي بن كعب أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (انتسب رجلان على عهد موسى عليه السلام، فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان، حتى عدَّ تسعة، فمن أنت لا أُمَّ لك؟ قال: أنا فلان بن فلان ابن الإسلام. قال: فأوحى الله إلى موسى (عليه السلام): أنّ هذين المنتسبين، أما أنت أيها المنتمي أو المنتسب إلى تسعة في النار فأنت عاشرهم، وأما أنت يا هذا المنتسب إلى اثنين في الجنة، فأنت ثالثهما في الجنة) [المسند].

فهل يفتخر طالب العلم بترجمة مليئة بالجلوس في حلق أهل الفجور والبدع والارتداد؟!

أما بعد تجديد الخلافة، فالحمد لله الذي منّ على ولاة أمور المسلمين -حفظهم الله- بفتح باب واسع لعامة الجنود والرعية ليطلبوا العلم في المعاهد والمساجد والمعسكرات، فصار بإمكان مريد العلم أخذه من أفواه الرجال دون حرج ولا افتتان بإذن الله تعالى، فلا ينبغي للطالب المستطيع أن يُعرض عن هذه الوسيلة السلفية في ظل الخلافة، علما أن فضل المدرسين من المهاجرين والأنصار لم يكن بصحبة علماء السوء في دار الكفر والقعود، وإنما كان ذلك بالورق وجعل ما في الورق سلوكا في الاعتقاد والمنهاج.

اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعاء لا يسمع.

الأذكار

أهميتها وفضائلها

إن ذكر الله سبحانه بالقلب واللسان هو روح العبادة وأحد مقاصدها، فهو الطارد للنسيان والغفلة، وهو الذي يملأ القلب بالإيمان والحكمة، فهو الذي يورث القرب من الإله، ويجعل في القلب دوام المراقبة له، لذلك فإن الذكر هو طريق الإحسان، وأعظم ما يوصل لمحبة الرحيم الرحمن.

جعل الله الذكر حياة للقلوب وجعله أمارة للقلب الحي، عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه، مثل الحي والميت) [رواه البخاري].

وقد أمر الله سبحانه عباده بالذكر في أكثر من موضع من كتابه، قال تعالى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} [سورة البقرة: ١٥٢]، وقال تعالى: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ} [سورة الأعراف: ٢٠٥]، وقال الله تعالى: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} [سورة العنكبوت: ٤٥]، وقال تعالى: {وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [سورة الجمعة: ١٠]، وقال تعالى: {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [سورة الأحزاب: ٣٥]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (*) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [سورة الأحزاب: ٤١-٤٢].

وقد حثّ سبحانه عباده على الذكر في كل أحوالهم قال الله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ} [سورة آل عمران: ١٩٠-١٩١].

ولذلك كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما روت عنه عائشة -رضي الله عنها- (يذكر الله على كل أحيانه) [رواه مسلم].

فضل الذكر وفوائده

لقد وعد الله عباده الذاكرين بعظيم الأجر والثواب ورتب على الذكر ما لم يرتب على غيره من الأعمال، ولو لم يكن في الذكر إلا أن الله سبحانه يذكر من ذكره من عباده الموحدين لكفى بذلك شرفا وفضلا ومنزلة، قال الله تعالى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} [سورة البقرة: ١٥٢]

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم) [متفق عليه].

وعن أبي هريرة أيضا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سبق المفرِّدون)، قالوا: وما المفرِّدون؟ يا رسول الله قال: (الذاكرون الله كثيرا والذاكرات) [رواه مسلم].

وعن عبد الله بن بسر، أن رجلا قال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: (لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله) [رواه أحمد والترمذي وابن ماجه].

قال ابن القيم: «الذكر يوجب صلاة الله -عز وجل- وملائكته على الذاكر، ومن صلى الله تعالى عليه وملائكته فقد أفلح كل الفلاح وفاز كل الفوز قال سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (*) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (*) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [سورة الأحزاب: ٤١-٤٣]» [الوابل الصيب].

كما أن الله سبحانه جعل الذكر سببا للفلاح والنصر فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [سورة الأنفال: ٤٥].

فما أحوج المجاهدين خاصة والأمة عامة إلى الذكر.

فضائل في أذكار مخصوصة

لقد خصّ الله سبحانه أنواعا من الذكر بمزيد من الأجر والفضل ينبغي للمسلم أن يعرفها كي لا يفوته الخير.

فضل التهليل

عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (أفضل الذكر: لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله) [رواه الترمذي].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (من قال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به، إلا أحد عمل أكثر من ذلك) [متفق عليه].

وعن أبي أيوب الأنصاري -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، عشر مرار، كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل) [متفق عليه].

فضل الاستغفار والتوبة

عن الأغر المزني، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنه لَيُغَانُ على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة) [رواه مسلم].

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم إليه مئة مرة) [رواه مسلم].

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم: (سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) قال: (ومن قالها من النهار موقنا بها، فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة) [رواه البخاري].

فضل التسبيح والتحميد والتكبير

عن الأغر المزني، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنه لَيُغَانُ على قلبي، وإني لأستغفر الله، في اليوم مئة مرة) [رواه مسلم].

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم إليه مئة مرة) [رواه مسلم].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم) [متفق عليه].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قال: سبحان الله وبحمده، في يوم مائة مرة، حطت خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر) [متفق عليه].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله؟ إن أحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده) [رواه مسلم].

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن -أو تملأ- ما بين السماوات والأرض) [رواه مسلم].

وعن سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- قال: كنا عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: (أيعجز أحدكم أن يكسب في كل يوم ألف حسنة؟) فسأله سائل من جلسائه: كيف يكسب ألف حسنة؟ قال: (يسبح مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة، أو يحط عنه ألف خطيئة) [رواه مسلم].

وعن جويرية، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خرج من عندها بُكرةً حين صلى الصبح، وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى، وهي جالسة، فقال: (ما زلتِ على الحال التي فارقتك عليها؟) قالت: نعم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته).

وفي رواية: (سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته) [رواه مسلم].

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لأن أقول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس) [رواه مسلم].

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قال حين يصبح وحين يمسي: سبحان الله وبحمده، مائة مرة، لم يأت أحد يوم القيامة، بأفضل مما جاء به، إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه) [رواه مسلم].

فضل (لا حول ولا قوة إلا بالله)

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة)، فقلت: بلى، يا رسول الله قال: (قل: لا حول ولا قوة إلا بالله) [متفق عليه].

وعن عبادة بن الصامت، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من تعار من الليل، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دعا، استجيب له، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته) [رواه البخاري].

الأشهر الحرم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فقد قال تعالى: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة:36]، وقال -صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيحين: (الزمان قد استدار كهيئة يوم خَلَقَ السمواتِ والأرضَ، السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر، الذي بين جمادى وشعبان).

تعيين الأشهر الحُرُم

قال ابن رجب الحنبلي: «فأخبر سبحانه أنه منذ خلق السماوات والأرض وخلق الليل والنهار يدوران في الفلك وخلق ما في السماء من الشمس والقمر والنجوم وجعل الشمس والقمر يسبحان في الفلك وينشأ منهما ظلمة الليل وبياض النهار؛ فمن حينئذ جعل السنة اثني عشر شهرا حسب الهلال، فالسنة في الشرع مقدرة بسير القمر وطلوعه لا بسير الشمس وانتقالها كما يفعله أهل الكتاب، وجعل الله تعالى من هذه الأشهر أربعة أشهر حرما، وقد فسرها النبي –صلى الله عليه وسلم- في هذا الحديث وذكر أنها ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وواحد فرد وهو شهر رجب» [لطائف المعارف].

قال الشوكاني: «وفي هذه الآية بيان أن الله سبحانه وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها على هذا الترتيب المعروف يوم خلق السموات والأرض، وأن هذا هو الذي جاءت به الأنبياء ونزلت به الكتب، وأنه لا اعتبار بما عند العجم والروم والقبط من الشهور التي يصطلحون عليها ويجعلون بعضها ثلاثين يوما وبعضها أكثر وبعضها أقل» [فتح القدير].

سبب تسميتها الحُرُم

قال ابن رجب: «اختلف العلماء في سبب تسمية هذه الأشهر الأربعة حرما، فقيل: لِعظم حرمتها وحرمة الذنب فيها، قال ابن عباس، رضي الله عنه: اختص الله أربعة أشهر جعلهن حرما وعظَّم حرماتهن وجعل الذنب فيهن أعظم وجعل العمل الصالح والأجر أعظم، وقال كعب: اختار الله الزمان فأحبه إلى الله الأشهر الحرم... وقيل: إنما سميت الأشهر الأربعة حرما لتحريم القتال فيها، وكان ذلك معروفا في الجاهلية، وذلك لأجل التمكن من الحج والعمرة، فحرمت العرب شهر ذي الحجة لوقوع الحج فيه وحرمت معه شهر ذي القعدة، وسمّوه كذلك لقعودهم عن القتال، للسير فيه إلى الحج، وحرمت شهر المحرم للرجوع فيه من الحج، حتى يأمن الحاج على نفسه من حين يخرج من بيته إلى أن يرجع إليه وحرمت شهر رجب للاعتمار فيه في وسط السنة فيعتمر فيه من كان قريباً من مكة» [لطائف المعارف – باختصار وتصرف]

الإثم في الأشهر الحرم

على المسلمين فعل الطاعات وترك المنكرات في كل الشهور عامة وفي الحرم منها خاصة، ذلك لان الذنوب والمعاصي أعظم وزرا في هذه الشهور لقوله تعالى {فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ}.

قال القرطبي في تفسيره للظلم هنا: «في الظلم قولان: أحدهما لا تظلموا فيهن أنفسكم بالقتال... الثاني: لا تظلموا فيهن أنفسكم بارتكاب الذنوب لأن الله سبحانه إذا عظّم شيئاً من جهة واحدة صارت له حرمة واحدة، وإذا عظمه من جهتين أو جهات صارت حرمته متعددة، فيضاعف فيه العقاب بالعمل السيء كما يضاعف الثواب بالعمل الصالح».

وقال ابن كثير: «{فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ} أي: في هذه الأشهر المحرمة لأنه آكد وأبلغ في الإثم من غيرها، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف، لقوله تعالى: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} وكذلك الشهر الحرام تغلّظ فيه الآثام، ولهذا تغلظ فيه الدية في مذهب الشافعي، وطائفة كثيرة من العلماء، وكذا في حق من قتل في الحرم أو قتل ذا محرم».

العمل الصالح فيها

ولعظيم هذه الأشهر وزيادة أجر العمل الصالح فيهن، شرّع الله تعالى لنا عبادات مخصوصة في أيام عظيمة، كيوم عرفة ويوم عاشوراء والعشر الأوائل من ذي الحجة، والأعمال الفاضلة في هذه الأشهر كثيرة ومتنوعة، والله أعلم.

حكم القتال في الأشهر الحرم

ذهب الجمهور من فقهاء المسلمين الى القول بأن القتال في الأشهر الحرم كان محرماً في الإسلام إلا في حالة رد العدوان ثم نُسخ هذا الحكم وحل محله مشروعية الجهاد، والبدء بقتال الكفار في كل وقت بما يشمل الأشهر الحرم.

قال ابن القيم: «لا خلاف في جواز القتال في الأشهر الحرم إذا بدأ العدو، إنما الخلاف أن يقاتل في ابتداء، فالجمهور جوّزوه وقالوا تحريم القتال منسوخ لقوله تعالى {وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً} وقوله تعالى {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ} وهو مذهب الأئمة الأربعة رحمهم الله» [زاد المعاد].

وقال ابن رجب: «واستدل الجمهور بأن الصحابة اشتغلوا بعد النبي –صلى الله عليه وسلم- بفتح البلاد ومواصلة القتال والجهاد ولم ينقل عن أحد منهم أنه توقف عن القتال وهو طالب له في شيء من الأشهر الحرم وهذا يدل على إجماعهم على نسخ ذلك والله علم» [اللطائف].

اللهم يسّر لنا حسنَ عبادتك في الأشهر الحرم، وجنّبنا فيها الفواحش والإثم والظلم، وصلِّ اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

صدر حديثا... عدد جديد من مجلة «المنبع»

صدر العدد الرابع من مجلة المنبع الناطقة باللغة الروسية، وقد احتوى العدد الجديد على الكثير من المواضيع أهمّها:

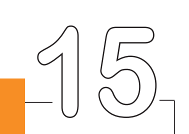
مقالة افتتاحية بعنوان (سبقني ولدي) تحدث فيها الكاتب عن ظهور جيل جديد من الشباب همّه إعلاء كلمة الله والقتال في سبيل الله، الجيل الذي يختلف عن الأجيال السابقة، لكونه نشأ في ظل الدولة الإسلامية، فلم يُربّ في مدارس الطواغيت ولا على برامج الفضائيات، وإنما كانت تربيتهم في ظل الشريعة، ويتمنون أن يجعل الله هلاك المرتدين على أيديهم.

(الإخوان «المسلمون»... طريق الذل) عنوان مقال جديد يتناول بالأدلة كفر حزب الإخوان وكيف حاربوا الجهاد في القوقاز كما فعلوا في العراق وأفغانستان وغيرها من البلدان.

حقائق عن جاسوسة روسية، ألقي القبض عليها في أرض الخلافة وتم إعدامها، في مقال يحمل اسمها بعنوان (كاريفا إلفيرا).

حوار العدد كان مع أحد أطباء جيش الخلافة، تضمن موضوعات شتى تتعلق بوظيفة الأقسام الطبية العسكرية في الدولة الإسلامية.

بالإضافة لمواد أخرى خاصة بالمجلة، وأخرى مترجمة عن اللغة العربية.





الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فقد حظيت المرأة المسلمة بمكانة رفيعة في الإسلام، وأولى لها الشرع الحنيف عناية فائقة كفلت لها صون عفتها، ففرض الله –تعالى– عليها التحجب عن الرجال الأجانب حفاظا على شرفها من أن يمس بسوء، وجعل –سبحانه– لهذا الحجاب شروطا لا بد من تحققها مجتمعة لكي يكون الحجاب شرعيا، فإذا اختل أحد هذه الشروط لم يكن حجاب المرأة شرعيا ولم يكن مرضيا لله جل وعلا، فما هي شروط حجاب المرأة المسلمة؟

شروط (صفات) الحجاب الشرعي للمسلمة –كما بينها العلماء– هي ثمانية:

أولا: أن يكون صفيقا (ثخينا) لا يشف عما تحته:

قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا) [رواه مسلم]، قال النووي: «هذا الحديث من معجزات النبوة، فقد وقع هذان الصنفان –وهما موجودان الآن– وفي الحديث ذم لهذين الصنفين، ومعنى «كاسيات» تستر بعض بدنها وتكشف بعضه، وقيل معناه تلبس ثوبا رقيقا (خفيفا) يصف لون بدنها» [شرح صحيح مسلم].

ثانيا: أن يكون فضفاضا (واسعا غير ضيق):

فعن أسامة بن زيد –رضي الله عنه– قال: كساني رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قبطية كثيفة –كانت مما أهدى له دحية الكلبي– فكسوتها امرأتي، فقال لي رسول الله: (ما لك لا تلبس القبطية؟) فقلت: يا رسول الله كسوتها امرأتي، فقال –صلى الله عليه وسلم–: (مرها أن تجعل تحتها غلالة، فإني أخاف أن تصف حجم عظامها) [حديث حسن رواه الإمام أحمد]، والقبطية: نوع من الملابس نسبة لأقباط مصر، والغلالة: ملابس تلبس تحت الثوب، قال الشوكاني: «الحديث يدل على أنه يجب على المرأة أن تستر بدنها بثوب لا يصفه، وهذا شرط ستر العورة» [نيل الأوطار].

ثالثا: أن يكون ساترا لجميع البدن ومنه الوجه والكفان:

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الأحزاب: ٥٩]، وفي هذه الآية أمر الله سبحانه نبيه –صلى الله عليه وسلم– أن يأمر النساء عموما، ويبدأ بزوجاته وبناته لشرفهن ولأنهن آكد من غيرهن، أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب، والجلباب هو ما يكون فوق الثياب من رداء وإزار وخمار ونحوه [تفسير ابن كثير وتفسير السعدي].

رابعا: أن لا يكون لباس شهرة:

قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (من لبس ثوب شهرة في الدنيا ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة ثم ألهب فيه نارا) [أخرجه أبو داود وغيره وحسنه المنذري]، والمراد بلباس الشهرة: هو اللباس الذي يثير الاستغراب والاستقباح عند الناس! بتعبير آخر: هو اللباس الذي يعرّض صاحبه للتشهير وحديث الناس لغرابة لونه أو صفته أو كيفية خياطته، ويختلف ثوب الشهرة من زمن لآخر ومن مكان لآخر، فقد يعد لباس في زمن ما أو بلد ما لباس شهرة، ولا يعتبر كذلك في زمان آخر أو بلد آخر، وفق الأعراف.

خامسا: أن لا يشبه لبس الكافرات:

فمن أهم أصول الدين مخالفة الكفار والمشركين، وهذا الأصل ثابت وراسخ في الكتاب والسنة الصحيحة، من ذلك قوله –صلى الله عليه وسلم– لعبد الله بن عمرو بن العاص –رضي الله عنه– حينما رآه لابسا ثوبين معصفرين: (إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها) [رواه مسلم]، ومن لباس الكافرات اليوم ما تلبسه النصرانيات واليهوديات والعلمانيات والوثنيات.

سادسا: أن لا يشبه ملابس الرجال:

فعن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: (لعن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل) [رواه أبو داود وغيره وصححه الحاكم]، وقال صلى الله عليه وسلم: (ليس منا من تشبه بالرجال من النساء ولا من تشبه بالنساء من الرجال) [رواه الإمام أحمد].

سابعا: أن لا يكون لباس زينة يلفت الأنظار:

لقوله تعالى: {وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ} [النور: ٣١]، وقوله سبحانه: {وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى} [الأحزاب: ٣٣]، وقوله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لا تسأل عنهم: رجل فارق الجماعة وعصى إمامه ومات عاصيا، وأمة أو عبد أبق فمات، وامرأة غاب عنها زوجها وقد كفاها مؤنة الدنيا فتبرجت بعده، فلا تسأل عنهم) [حديث صحيح رواه الإمام أحمد]، فإذا كان حجاب المرأة في ذاته زينة فلا يسمى حجابا، لأن العلة من تشريع الحجاب هي منع ظهور الزينة للأجانب، فلا يعقل حينئذ أن يكون الحجاب نفسه هو زينة! فعلى المسلمة التي تريد أن تحقق هذا الشرط أن تراعي في ثوبها بأن يكون خاليا من الزخارف وأن لا يجذب لونه أنظار الرجال.

ثامنا: أن لا يكون مطيبا (معطرا أو مبخرا):

قال صلى الله عليه وسلم: (أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية) [أخرجه النسائي وغيره، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح]، وقال صلى الله عليه وسلم: (إذا خرجت إحداكن إلى المسجد فلا تقربن طيبا) [حديث صحيح رواه الإمام أحمد]، قال ابن دقيق العيد: «وفيه حرمة التطيب على مريدة الخروج إلى المسجد لما فيه من تحريك داعية شهوة الرجال» [فيض القدير للمناوي].

أختاه المسلمة:

هذه هي صفات حجابك الشرعي التي يحرم عليك مخالفة إحداها أمام الرجال الأجانب، وهم جميع الرجال غير المحارم، ومحارم المرأة التي لا حرج عليها من عدم التحجب عنهم هم الذين ذكرهم الله تعالى في سورة النور في الآية ٣١ حيث قال سبحانه: {وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ}، فليس من محارمك أيتها العفيفة أخو زوجك وابن عمك وابن خالك وغيرهم من أقاربك، فإياك أن تتكشفي أمامهم فقد قال نبيك، عليه الصلاة والسلام: (إياكم والدخول على النساء) فقال رجل: يا رسول الله أفرأيت الحمو؟ قال صلى الله عليه وسلم: (الحمو الموت) [متفق عليه]، قال النووي: الأحماء –جمع حمو– هم أقارب الزوج، ووصفهم الحديث بالموت لأن الخلوة بقريب الزوج أكثر من الخلوة بغيره والشر يتوقع منه أكثر من غيره لتمكنه من الوصول إلى المرأة والخلوة بها من غير نكير بخلاف الأجنبي [شرح النووي على مسلم].

الخشية من الله، أم الخوف من الحسبة؟!



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فإن من أهم مراتب الإسلام مرتبة الإحسان، وهو كما عرّفه النبي، صلى الله عليه وسلم: (أن تخشى الله كأنك تراه، فإنك إن لا تكن تراه فإنه يراك) [رواه مسلم]، وهذا المقام هو الذي ينبغي أن يكون عليه العبد المسلم المؤمن دائما، والذي لن يصل إليه إلا إذا عَلِمَ عِلْمَ اليقين وآمن إيمانا قاطعا بأن الله تعالى رقيب عليه، يراه ويسمعه، وأن الملائكة تسجّل كل ما يصدر عنه من حسنات وسيئات.

فإذا تلا المسلم قوله تعالى: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} [سورة الشعراء: ٢١٨]، وقوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ} [سورة الحديد: ٤] وقوله: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} وقوله: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [سورة آل عمران: ٥] وقوله: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [سورة الزخرف: ٨٠] وقوله: {مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [سورة ق: ١٨]؛ وأمثالها من الآيات العظيمة، إذا تلاها استشعر عظيم قدرة الله تعالى، وقربه من عباده.

إذاً، من عرف ذلك وآمن به، استبعدت منه المعاصي، ولكن لـمّا كانت النفوس تميل بطبعها إلى الهوى، شُرِع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليردّ النفوس العاصية إلى الطاعة، قال تعالى: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة آل عمران: ١٠٤]، فبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينجو الآمر والمأمور، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (*) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [سورة الأعراف: ١٦٤-١٦٥]، وبه تنال الأمة الخيرية التي قال عنها الله تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ} [سورة آل عمران: ١١٠]، وبتركه هلاك ولعنة، قال تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (*) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [سورة المائدة: ٧٨-٧٩]، وقال صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم) [رواه الترمذي، وقال: حديث حسن].

لـمّا كانت النفوس تميل بطبعها إلى الهوى، شُرِع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لهذا أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- كل مسلم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فقال: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان) [رواه مسلم].

ولأهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جعلها أئمة المسلمين ولاية دينية (وظيفة رسمية من وظائف الدولة المسلمة) تحت مسمى (الحسبة)، وعينوا لها رجالا (مـحتسبين)، واجبهم الأساس هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنحوهم سلطة عظيمة، ليتمكنوا من خلالها إلزام المخالف للشرع بالقوة.

لذا كان ديوان الحسبة من أول الدواوين التي أنشأتها الدولة الإسلامية، حفظها الله، ومن يوم إنشائه حمل رجاله على عاتقهم أمانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تأخذهم في الله لومة لائم، يرغّبون الناس تارة ويرهّبونهم تارة، ويعاقبون من لم ينفع معه الترغيب ولا الترهيب، حتى صار بعض الرعية اليوم يهابون رجال الحسبة، فيستخفون منهم، ولا يستخفون من الله! فتراهم يعصون الله -جل جلاله- في السر لا في العلن، وهو سبحانه بحلمه يسترهم! فما خافوا الملك الجبار، ولكنهم خافوا عبادا لله ضعفاء! فلا حول ولا قوة إلا بالله.

الحسبة من أول الدواوين التي أنشأته الدولة الإسلامية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

فيا عبد الله العاصي: لـمَ لا يكون تركك للمعصية خوفا من الله لا خشية من الحسبة؟!

يا عبد الله: من حرّم عليك الخبائث كالسجائر والخمر؟

من نهاك عن سماع المحرمات كالغناء والمعازف؟

من أمرك برفع إزارك وإطلاق اللحية والصلاة في وقتها؟

أليس ربك وإلهك؟

فما لك تخشى من يلزمك بما أمرك به ربك، ولا تخاف من الآمر نفسه جل وعلا؟!

ويا أمة الله: ما لك تلتفتين يمنة ويسرة ترقبين خائفة، فإذا رأيت محتسبا أصلحت خمارك! هلا جعلت حجابك خشية من ربك؟!

من الذي أمرك بستر وجهك عن الأجانب؟

ومن الذي نهاك عن الخلوة بغير محرم؟

ألله أم الحسبة؟!

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل ... خلوت، ولكن قل عليَّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ما يرى ... ولا أن ما تخفي عليه يغيب

المحتسب بشر مثلك فلا تكن خشيتك له أكبر من خشيتك لله

واعلم -رحمك الله- أن الله أجزل لك الأجر العظيم إذا راقبته وخشيته، والتزمت شرعه طاعة له لا خوفا من بشر، قال الحق سبحانه: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (*) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ} [سورة النازعات: ٤٠-٤١]، وقال تعالى: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [سورة الرحمن: ٤٦].

قال ابن القيم: «من راقب الله في سره، حفظه الله في حركاته في سره وعلانيته، والمراقبة: هي التعبد باسمه الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير، فمن عقل هذه الأسماء، وتعبد بمقتضاها، حصلت له المراقبة» [مدارج السالكين].

وقال ابن الجوزي: «يا أرباب المعاملة! بالله عليكم، لا تكدروا المشرب! قفوا على باب المراقبة وقوف الحراس! وادفعوا ما لا يصلح أن يلج فيفسد!».

وقال أيضا: «قلوب الجهال تستشعر البعد [عن الله]، ولذلك تقع منهم المعاصي، إذ لو تحققت مراقبتهم للحاضر الناظر، لكفوا الأكف عن الخطايا، والمتيقظون علموا قربه، فحضرتهم المراقبة، وكفتهم عن الانبساط» [صيد الخاطر].

فتيقن -هداك الله- أن المحتسب بشر مثلك، فلا تكن خشيتك منه أعظم من خشيتك لربك الذي خلقك وهو الذي نهاك وأمرك.

وكن ذكيا فطنا! ثم تفكر! أنت في دولة الإسلام، التي فيها الكفر والبدع والمعاصي مقموعة لا محالة، وهيهات هيهات يرضى بها المجاهدون الذين ما بذلوا أرواحهم رخيصة إلا لإزالتها وتطبيق شرع الله، فاحسبها حسابا صحيحا، واترك المحرمات لله تعالى، ولك الأجر والثواب على ذلك، فمن ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فاترك المحرمات قبل أن تجبر على تركها، فليس لك حينئذ أجر، وعليك الوزر.

رزقنا الله وإياك مراقبته وخشيته، والحمد لله رب العالمين.

ضوابط خروج المسلمة إلى السوق

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد... من حكمة الله تعالى أن جعل الأصل في المرأة القرار في بيتها لقول الله تعالى: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ} [سورة الأحزاب: 33]، فلا يكون خروجها إلا لحاجة أو ضرورة، وفي امتَثالها لهذا الأمر الخير كله لها وللمجتمع الذي تعيش فيه، وقد أباح الله -عز وجل- للنساء الخروج من بيوتهن لحاجة يقضينها أو ضرورة تجبرها على ذلك، ومن رحمته أنه لم يقيد ذاك الخروج بمَحْرَم يصاحبها كما هو الشأن عند السفر رفعا للحرج، ولكن ومع ذلك فقد جعل الشارع لخروج المرأة من بيتها وارتيادها الأسواق ضوابط، يجب على المسلمة مراعاتها والالتزام بها عند الخروج، هذا مع ضرورة التذكير بأنها إن وجدت من يكفيها ولوج الأسواق ويكفيها شرورها وفتنها فهذا خير لها وأكمل لدينها.

ومعلوم أن الأسواق من مراتع الشيطان التي ينشغل الناس فيها بالدنيا وزخرفها، وقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها)، فكان لزاما على من يدخل السوق رجلا كان أو امرأة، أن يتقي الله ما استطاع في نفسه وفي غيره من المسلمين.

من اللازم على من يدخل السوق رجلا كان أو امرأة، أن يتقي الله ما استطاع في نفسه وفي غيره من المسلمين

ومن ضوابط خروج المرأة المسلمة إلى السوق:

أولا: استئذانها من زوجها، إذ لا يجوز لها الخروج من بيتها دون إذنه، وإن فعلت ذلك كانت عاصية آثمة، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (إذا استأذنت امرأةُ أحدِكم إلى المسجد فلا يمنعها) [رواه البخاري]، وفي هذا دليل على أن المرأة تستأذن زوجها للخروج إلى الصلاة، وعليه ومن باب أولى أن تستأذنه إذا أرادت الخروج لمكان آخر كالسوق وغيره.

ثانيا: على المسلمة التزامها بحجابها الشرعي الكامل، فتخرج من بيتها متشحة بالسواد فلا يظهر منها شيء، وروى الترمذي وابن حبان من حديث قتادة، عن مورق، عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: (المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان).

على المسلمة الالتزام بحجابها الشرعي الكامل، فتخرج من بيتها متشحة بالسواد فلا يظهر منها شيء

ثالثا: تخرج المرأة تَفِلَةً غير متطيبة، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أيما امرأة استعطرت، فمرت على قوم ليجدوا من ريحها، فهي زانية) [رواه أبو داود والترمذي والنسائي].

ولقي أبو هريرة امرأة مُطَيِّبة، فقال لها: أين تريدين؟ فقالت: إلى المسجد، فقال لها: وله تَطَيَّبْتِ؟ فقالت: نعم، فقال لها: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (أيما امرأة تَطَيَّبَتْ وخرجت إلى المسجد لم تُقبَل لها صلاة حتى ترجع فتغسله عنها) [رواه أبو داود وابن ماجه وأحمد].

وإذا كان هذا النهي عن التطيب فيمن تخرج وهي تريد بيت الله، للصلاة والعبادة -علما بأن الأفضل والأعظم أجرا للمرأة صلاتها في بيتها- فكيف بمن تتطيب وتخرج تريد الأسواق مواطن الفتنة والإغواء والعياذ بالله؟!

قال الهيتمي في الزواجر: «خروج المرأة من بيتها متعطرة متزينة من الكبائر ولو أذن لها زوجها».

رابعا: لا تخرج المرأة من بيتها وهي تنتعل ما يعرف اليوم بالكعب العالي، والله -عز وجل- يقول: {وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ} [سورة النور: ٣١]، قال الإمام الطبري رحمه الله: «أي لا تضرب المرأة برجلها إذا مشت لتُسمِع صوت خلخالها، فإسماع صوت الزينة كإبداء الزينة وأشد...».

والكعب العالي محرم لبسه أمام الرجال الأجانب لما فيه من التشبه بالكافرات، وتغيير الهيئة والمشية، إذ يجعل المرأة تبدو طويلة وتتمايل في مشيتها فتلفت نظر الرجال إليها، ولعل ذلك يجعلها من المائلات المميلات المذكورات في الحديث، علما بأن أول من ابتدع الكعب العالي نساء من بني إسرائيل.

خامسا: على المسلمة أن تلزم أطراف الطريق ولا تمشي في وسطه، حتى تتجنب محاذاة الرجال وملاصقتهم، فعن حمزة بن أبي أسيد الأنصاري، عن أبيه، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول -وهو خارج من المسجد فاختلط الرجال مع النساء في الطريق- فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء: (استأخرن، فإنه ليس لكن أن تحققن الطريق، عليكن بحافات الطريق) فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به [رواه أبو داود والبيهقي والطبراني].

جاء عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- أنه قال: «ألا تستحيون ألا تغارون؛ فإنه بلغني أن نساءكم يخرجن في الأسواق يزاحمن العلوج!» [رواه أحمد].

سادسا: على المسلمة إن هي جاءت السوق، أن تغض بصرها عن الرجال، قال الله عز وجل: {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ} [سورة النور: ٣١]، قال ابن كثير: «ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة أن تنظر إلى الرجال الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلا».

ورضي الله عن فاطمة إذ تقول: «خير للمرأة أن لا ترى الرجال، ولا يراها الرجال».

سابعا: على المسلمة أن تخفض من صوتها ولا تخضع بالقول، لقول الله عز وجل: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} [سورة الأحزاب: ٣٢]، وإن كان هذا الأمر بعدم الخضوع بالقول موجه لنساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إلا أن نساء الأمة تبع لهن في ذلك، فلا تحدث المسلمة رجلا غريبا عنها وترقق صوتها وتُلِينُ له القول.

يحرم اختلاء البائع بالمرأة الأجنبية، ويلتزم من يبيع حوائج النساء أن تكون معه امرأة من محارمه

ثامنا: على المسلمة أن تتجنب الاختلاء بالبائع في المحل فهذا من الخلوة المحرمة شرعا، ومن نعم الله على النساء في دار الخلافة أن ألزم رجال الحسبة -جزاهم الله خيرا- أصحاب المحلات التي تُباع فيها ملابس ولوازم النساء بوجود امرأة من محارمهم لتبيع النساء فلا يكون البائع رجلا.

كما وقد منع رجال دولتنا الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر أصحاب المحلات من اتخاذ غرفة داخل محلاتهم تعرف «بغرفة القياس»، حيث كانت بعض المسلمات لا يتورعن عن نزع ملابسهن في المحلات التجارية حتى يجربن لباسا يردن شراءه، وقد رواه أحمد وغيره عن عائشة، قالت سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (أيما امرأة وضعت ثيابها، في غير بيتها، فقد هتكت ما بينها وبين الله عز وجل، أو ستر ما بينها وبين الله عز وجل).

على المسلمة أن تعجل بقضاء حوائجها في السوق وأن لا تضيع وقتها بالتجول بين المحال

أما اليوم وغيرةً من رجال الحسبة على أعراض المسلمات فقد مُنعت تلك الغرف، ولله الحمد من قبل ومن بعد.

وأخيرا فعلى الأخت المسلمة أن تعجل بقضاء حاجتها من الأسواق ولا تضيع وقتها في التسكع بين المحلات، يستشرفها الشيطان وتلتهمها أعين الرجال.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلِّ اللهم وسلِّم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

شهر رجب.. بين السنة والبدعة

لقد جعل الله للعبادات مواسم يزداد فيها الأجر لمن عمل بها، بل من العبادات ما لا يصح أداؤه إلا في أوقات معينة كالصلوات الخمس، وصلاة الجمعة، وصيام رمضان، وحج البيت الحرام، وقد وردت فضائل هذه المواسم في أدلة من الكتاب والسنة، ما يغني عن الأخذ بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، التي جاء فيها أخبار عن زيادة الأجر في أيام وليال معينة أو شهور محددة من السنة، وتحديد لنوع العبادات المخصصة لكل منها، بل وابتداع عبادات لا أصل لها وربطها بهذه المواسم، ومنها شهر رجب الذي كثرت الأخبار الواردة في فضائله مما لا يصح.

فترى الناس قد اعتادوا على عادات وأعمال يؤدونها في شهر رجب ظنا منهم أنها من الدين، فتراهم ابتدعوا صلاة وسموها «صلاة الرغائب»، يصلونها في أول ليلة جمعة من شهر رجب، وتراهم يخصصون أياما معينة للصيام فيه، وتراهم يذبحون في رجب الذبائح، ومنهم من لا يخرج زكاته إلا في شهر رجب... إلخ.

ولندع الحافظ ابن حجر العسقلاني يتحدث لنا عن ذلك، حيث قال في «تبيين العجب بما ورد في شهر رجب» ما ملخصه:

«تكرر سؤال جماعة من الإخوان: هل صح شيء في فضائل شهر رجب؟ فسطرت هذه الأوراق فيما وصلت إليه بحسب العجلة، فأقول: لم يرد في فضل شهر رجب، ولا في صيامه، ولا في قيام ليلة مخصوصة فيه حديث صحيح يصلح للحجة، وقد سبقني إلى الجزم بذلك الإمام أبو إسماعيل الهروي الحافظ، رويناه عنه بإسناد صحيح، وليحذر المرء من دخوله تحت قوله، صلى الله عليه وسلم: (من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين) فكيف بمن عمل به!»

أما الأحاديث الواردة في فضل رجب، فهي إما ضعيفة أو موضوعة، ومنها:

- حديث: «إن في الجنة نهرا يقال له: رجب، ماؤه الرحيق، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا، أعده الله لصوام رجب».
- حديث: «اللهم بارك لنا في رجب وشعبان وبلغنا رمضان».
- حديث: «رجب لا يقارنه من الأشهر أحد، ولذلك يقال له: شهر الله الأصم، وإن رجبا شهر الله، وشعبان شهري، ورمضان شهر أمتي. فمن صام من رجب يوما إيمانا واحتسابا استوجب رضوان الله الأكبر، وأسكنه الفردوس الأعلى، ومن صام من رجب يومين فله من الأجر ضعفان، ومن صام من رجب ثلاثة أيام جعل الله بينه وبين النار خندقا، ومن صام من رجب أربعة أيام عوفي من البلاء، ومن الجذام، والجنون والبرص، ومن فتنة المسيح الدجال، ومن صام من رجب خمسة أيام وقي عذاب القبر».



> لم يرد في فضل شهر رجب، ولا في صيامه، ولا في قيام ليلة مخصوصة فيه حديث صحيح يصلح للحجة

حديث: «كان أهل الجاهلية إذا دخل رجب يعطلون أسلحتهم ويضعونها، فكان الناس يأمنون وتأمن السبل ولا يخافون بعضهم بعض حتى ينقضي».

- حديث: «من فرج عن مؤمن كربة في رجب أعطاه الله تعالى في الفردوس قصرا مد بصره، أكرموا رجبا يكرمكم الله بألف كرامة».
- حديث: «رجب من أشهر الحرم، وأيامه مكتوبة على أبواب السماء السادسة، فإذا صام الرجل منه يوما، وجود صومه بتقوى الله، نطق الباب ونطق اليوم، فقالا: يا رب اغفر له، وإذا لم يتم صومه بتقوى الله لم يستغفرا له».
- حديث: «من صام يوما من رجب، وصلى فيه أربع ركعات، يقرأ في أول ركعة مائة مرة آية الكرسي، وفي الركعة الثانية قل هو الله أحد مائة مرة، لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة، أو يرى له».
- حديث: «رجب شهر الله وشعبان شهري ورمضان شهر أمتي».
- حديث: «من صلى ليلة النصف من رجب، أربع عشرة ركعة، يقرأ في كل ركعة الحمد مرة، وقل هو الله أحد إحدى عشرة مرة، وقل أعوذ برب الناس ثلاث مرات فإذا فرغ من صلاته صلى علي عشر مرات، ثم يسبح الله ويحمده، ويكبره ويهلله ثلاثين مرة، بعث الله إليه ألف ملك، يكتبون له الحسنات، ويغرسون له الأشجار في الفردوس».
- حديث: «أيها الناس، إنه قد أظلكم شهر عظيم، شهر رجب، شهر الله، الأصم، تضاعف فيه الحسنات، وتستجاب فيه الدعوات، ويفرج عن الكربات، لا يرد فيه للمؤمنين دعوة، فمن اكتسب فيه خيرا ضوعف له فيه أضعافا مضاعفة، والله يضاعف لمن يشاء. فعليكم بقيام ليله، وصيام نهاره، فمن صلى في يوم فيه خمسين صلاة يقرأ في كل ركعة ما تيسر من القرآن، أعطاه الله من الحسنات بعد الشفع والوتر، وبعد الشعر والوبر، ومن صام يوما منه كتب له به صيام سنة».
- حديث: «في رجب ليلة يكتب للعامل فيها حسنات مائة سنة، وذلك لثلاث بقين من رجب، فمن صلى فيها اثنتي عشرة ركعة، يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة من القرآن، يتشهد في كل ركعتين، ويسلم في آخرهن، ثم يقول: سبحان الله ولا إله إلا الله، والله وأكبر، مائة مرة، ويستغفر مائة مرة، ويصلي على النبي -صلى الله عليه وسلم- مائة مرة ويدعو لنفسه بما شاء من أمر دنياه وآخرته، ويصبح صائما، فإن الله يستجيب دعاءه كله، إلا أن يدعو في معصية».
- حديث: «من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب له صيام ستين شهرا، وهو اليوم الذي هبط فيه جبريل بالرسالة».

هذه نبذة من العديد من الأحاديث الضعيفة والموضوعة والمكذوبة على رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وقد روي عن ابن عباس -رضي الله عنه- أنه «كان ينهى عن صيام رجب كله لكيلا يتخذ عيدا»، ومثل هذا ما روي أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- كان يضرب أيدي الرجال في رجب إذا رفعوها عن الطعام حتى يضعوها فيه، ويقول: «إنما هو شهر كان أهل الجاهلية يعظمونه»، فهذا النهي منصرف إلى من يصومه معظما لأمر الجاهلية.

أما إن صامه لقصد الصوم في الجملة، كمن يصوم صوم داود -عليه السلام- أو لا يدع صيام الاثنين والخميس عموما -من غير أن يخص من رجب أياما معينة يواظب على صومها، ظانا أن ذلك سنة، أو يعتقد أن الصيام في رجب أفضل من الصيام في غيره- فهذا لا بأس به.

وروي عن أزهر بن سعيد، عن أمه، أنها دخلت على عائشة، رضي الله عنها، فذكرت لها أنها تصوم رجب، فقالت عائشة، رضي الله عنها: «صومي شعبان، فإن فيه الفضل»، والله أعلم.

سلاح المؤمن!

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وآله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد أمر الله عباده بأن يدعوه، ووعدهم بأن يجيب دعاءهم، فقال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [سورة غافر: ٦٠].

بيّن الله عز وجل أن الدعاء عبادة بقوله: {عبادتي} لأن الدعاء أعظم العبادات، كما في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (الدعاء هو العبادة) [رواه أحمد وأصحاب السنن]، وفي الآية ترغيب في الدعاء؛ لأنه عبادة لله عز وجل، وفائدته ترجع على العبد بالأجر والقرب من الله عز وجل، وتحقق ما يطلبه العبد من ربه عاجلا أو آجلا، وفي الآية ترهيب كبير لمن أعرض عن الدعاء، حيث وصفهم الله سبحانه وتعالى بالمستكبرين وهي أكبر من وصف المتكبرين، فهي زيادة في الكبر وطلب له، وقد هددهم الله وتوعدهم بدخول جهنم أذلة صاغرين ذليلين، وهو الجزاء المقابل للاستكبار الذي لا يحبه الله ولا يحب أهله، كما في قوله تعالى: {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ} [سورة النحل: ٢٣]، إذ التكبر من صفات الله عز وجل التي لا يرضى أن ينازعه فيها أحد من خلقه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما يرويه عن ربه: (الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النّار) [رواه أبو داود]، ومنه نعلم أن الطغاة والجبابرة والمتكبرين موعودون بعذاب الله، وقد يكون عذابهم من عنده أو بأيدي المؤمنين، كما قال تعالى: {قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ} [سورة التوبة: ٥٢]. هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فالذين يستكبرون عن عبادة الله {سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} وعدا حقا.

وقد أمرنا الله عز وجل بأن ندعوه مخلصين له الدين: {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة غافر: ٦٥]، ولا يرضى سبحانه بأن يدعو عباده غيره أبدا، فذلك هو الشرك وهو الظلم العظيم، قال لقمان لابنه: {يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [سورة لقمان: ١٣].

وقد أخبر سبحانه أن كل من يُدعى من دون الله فهو لا يملك لمن يدعونه ضراً ولا نفعاً فقال: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} [سورة فاطر: ١٣-١٤]، والقطمير هو الغشاء الرقيق الذي يكون على نوى التمر.

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله، فغيره كذلك وأولى، قال تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [سورة الأعراف: ١٨٨].

وأمره ربه سبحانه وتعالى أن يقول: {إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ} [سورة الجن: ٢١].

وإن أردنا أن يجيب الله دعاءنا فقد طلب منا أن نستجيب له فنفعل ما يأمرنا به وننتهي عما ينهانا عنه، مع الإيمان به سبحانه، قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [سورة البقرة: ١٨٦]، أي: فليفعلوا ما أريد منهم وليبشروا بإجابة دعائهم.

أمر به المرسلين، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا}، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}، ثم ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم: الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يده إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام فأنى يستجاب لذلك) [رواه مسلم].

فلندع الله عز وجل في كل وقت، ولنرفع إليه حاجاتنا، ونسأله أن يصلح حالنا وحال المسلمين، وأن لا يسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا، وأن ينصر الإسلام ودولته، وأن يمكن لها في الأرض وأن ينصرنا على القوم الكافرين، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.



فإذا دعا اللهَ مسلمٌ فليعلم أنه أولا في عبادة، وكلما زاد وألح في الدعاء كان من الله أقرب، وثانيا: أنه سيستفيد من دعائه -مع الأجر- إحدى ثلاث خصال، كما في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم، ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها) قالوا: إذاً نكثر، قال صلى الله عليه وسلم: (الله أكثر). [رواه أحمد]، وقد استثنى من إجابة الدعاء ما كان فيه إثم أو قطيعة رحم.

وعلى الداعي أن لا يعجل، بل يلح ويكثر ويتضرع ويخشع، فقد قال صلى الله عليه وسلم: (يستجاب لأحدكم ما لم يعجّل، يقول دعوت فلم يستجب لي) [رواه البخاري ومسلم].

وهناك موانع تمنع من إجابة الدعاء، منها: الدعاء بإثم أو قطيعة رحم، وأن يكون الداعي ممن يأكل المال الحرام، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما

ثم إن الاستغفار هو طلب مغفرة الذنوب وستر العيوب من الله الغفور الرحيم، وقد جعل الله عز وجل للمستغفرين الصادقين ثواباً عظيماً في الدنيا والآخرة.

والاستغفار سبب زيادة قوة الأمم والأفراد، قال نبي الله هود عليه وعلى نبينا السلام: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ} [سورة هود: ٥٢].

وفي ساحات القتال التي شهدت المواجهات بين أنبياء الله وأتباعهم من جهة وبين المكذبين الضالين من جهة أخرى، نجد أن الأنبياء ومن آمن بهم يقرنون بين طلب المغفرة وطلب النصر من الله، قال تعالى: {وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [سورة آل عمران: ١٤٧].

وسبب ذلك -والله أعلم- أن الداعي يريد النصر من الله، ولكن كيف يطلب النصر من الله وهو يرى نفسه مقصرا في جنب الله ومحملا بالذنوب والآثام، ولذا فهو يطلب من الله أن يطهره ويعفو عنه أولا، ثم يطلب حاجته الحالية الملحة وهي تثبيت الأقدام في مواجهة جنود إبليس والنصر على الكفر وأنصاره.

والاستغفار المقرون بالتوبة النصوح سبب لسعادة الدنيا والآخرة، قال تعالى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ} [سورة هود: ٣]، وهو سبب لأن يرحمنا الله ويحبنا: {وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ} [سورة هود: ٩٠].

ومن ثواب الاستغفار أن ينزل الله علينا بركات السماء ويفتح علينا بركات الأرض: الأموال والبنين وإنبات النبات وجريان الأنهار: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا} [سورة نوح: ١٠-١٢].

والله سبحانه لا ينزل عذابه ونقمته على أمة تستغفره وتتوب إليه {وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [سورة الأنفال: ٣٣].

والاستغفار تجديد للعهد بين العبد وربه، وأنه ملتزمٌ لطاعة مولاه، يعود إلى ربه وإلى طاعته في كل وقت، وكلما أذنب وكلما غفل استغفر ربه سبحانه وتعالى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنه ليغان على قلبي – أي يأتي عليه شيء من الفتور – وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة) [رواه مسلم]. تلك كانت حاله صلى الله عليه وسلم، وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

والمؤمن إذا انتهى من صلاته المكتوبة وكذلك صلاة الليل يستغفر الله عز وجل طالبا أن يغفر الله له ما كان في عبادته من تقصير وخلل، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلّم من الصلاة المكتوبة قال: (أستغفر الله) ثلاثاً. وقال الله تعالى عن المؤمنين: {وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [سورة الذاريات: ١٨].

بل وحتى بعد مجيء النصر من الله، واندحار الكفار، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالتسبيح المقرون بالحمد وبالاستغفار والتوبة {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (*) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [سورة النصر: ١-٣].

فعلى المسلمين أن يستغفروا الله ويتوبوا إليه ويصلحوا أعمالهم ويعودوا إلى ربهم، وأن يسألوه النصر على أعداء الدين، مع طلب مغفرة الذنوب والعفو والرحمة من رب العالمين، كما علّمنا الله عز وجل في آخر سورة البقرة أن ندعو {وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [سورة البقرة: ٢٨٦]، جاء في حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- الذي أخرجه مسلم في صحيحه أن الله تعالى قال: (قد فعلت) أي قد أجبت من دعا بهذا الدعاء.

شهر شعبان بين السنة والبدعة

شعبان هو الشهر الثامن من شهور السنة، وسمّي بهذا الاسم لأن القبائل كانت تتشعب فيه، أي تتفرق فيه للقتال، بعد قعودها عنه في شهر رجب المحرّم، ولهذا الشهر فضائل كثيرة وردت في أحاديث السنة الصحيحة، ما يغني عن غيرها من الضعيف والموضوع، مما شاع بين الناس عن فضائل ينسبونها لبدع من الدين ما أنزل الله بها من سلطان.

كما إن للصيام في هذا الشهر أحكاما خاصة، لفضله، ولالتصاقه بشهر الصوم رمضان، نذكر أهمها في هذه المقالة المختصرة.

فضل الصيام في شهر شعبان:

للصيام في شعبان فضل ليس كفضل غيره من الشهور، لذا كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يُكثر من الصيام فيه، فعن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قالت: «لم يكن النبي -صلى الله عليه وسلم- يصوم شهرا أكثر من شعبان، فإنه كان يصوم شعبان كله» وفي رواية: «كان يصوم شعبان كله، كان يصوم شعبان إلا قليلا» [متفق عليه]، كما أن صوم يوم من شعبان يعدل يومين من غيره، روى الشيخان عن عمران بن حصين -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال له: (أصمت من سَرَرِ شعبان شيئا؟) قال: لا، فقال صلى الله عليه وسلم: (فإذا أفطرت، فَصُمْ يومين مكانه)، قال الحافظ ابن حجر: قال القرطبي: «وفيه إشارة إلى فضيلة الصوم في شعبان وأن صوم يوم يعدل يومين في غيره، أخذا من قوله في الحديث (فصم يومين مكانه) يعني مكان اليوم الذي فوَّتَه من صيام شعبان» [فتح الباري].

> للصيام في شعبان فضلٌ ليس كفضل غيره من الشهور، لذا كان رسول اللّه يُكثر من الصيام فيه

الحكمة من إكثار الصيام في شعبان:

سأل أسامة بن زيد -رضي الله عنه- النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله، لَمْ أرَكَ تصوم شهرا من الشهور ما تصوم من شعبان؟ فأجابه النبي -صلى الله عليه وسلم- قائلا: (ذلك شهر يغفُل الناس عنه، بين رجب ورمضان، وهو شهر تُرفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، فأُحِب أن يرفع عملي وأنا صائم) [حديث حسن، رواه النسائي]، ومن هنا يتبين أن الإكثار من صيام شعبان له أسباب، منها:

غفلة الناس: والعبادة في أوقات الغفلة لها شأن عظيم، ولنا على ذلك عدة أمثلة ذكرها ابن رجب الحنبلي في كتاب (لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف)، منها: ما رتّبه الله تعالى من الأجر الجزيل لمن يذكره سبحانه في الأسواق (دعاء دخول السوق)، لأن السوق مكان غفلة! يكثر فيه الكذب والغش والنظر للمحرمات... لذا كتب الله سبحانه لمن قال دعاء دخول السوق ألفَ ألفِ حسنة، وحطَ عنه ألفَ ألفِ سيئة، ورفع له ألفَ ألفِ درجة [حديث صحيح، رواه النسائي وغيره]، ومنها: عن سلمان -رضي الله عنه- أنه قال: «إذا صلى الناس العشاء صدروا عن ثلاث منازل: منهم من عليه ولا له، ومنهم من له ولا عليه، ومنهم من لا له ولا عليه... وَمَنْ له ولا عليه؛ فرجل اغتنم ظلمة الليل وغفلة الناس فقام يصلي، فذلك له ولا عليه...» [رواه الطبراني]، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: (العبادة في الهَرْج كهجرة إليّ) [رواه مسلم]، قال النووي: «المراد بالهرج هنا الفتنة واختلاط أمور الناس، وسبب كثرة فضل العبادة فيه أن الناس يغفلون عنها ويشتغلون عنها ولا يتفرغ لها إلا أفراد».

السبب الثاني: أن شعبان شهر تُرفع فيه الأعمال إلى الله تعالى، كما هو مبيّن في الحديث السابق الذكر: (وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين).

السبب الثالث: في الحديث أيضا إشارة منه -صلى الله عليه وسلم- إلى مزيَّة أخرى لشهر شعبان، وهي أنه متوسط بين شهري رجب المحرّم ورمضان المعظّم، فترى الناس يجتهدون في العبادة في رجب، ما لا يجتهدون في شعبان!

قال الحافظ ابن حجر: «فهذا فيه إشعار بأن في رجب مشابهة برمضان، وأن الناس يشتغلون من العبادة بما يشتغلون به في رمضان، ويغفلون عن نظير ذلك في شعبان، لذلك كان يصومه صلى الله عليه وسلم»، ثم أورد أثرا بسنده عن أم أزهر بن سعيد، أنها دخلت على عائشة رضي الله عنها، فذكرتْ لها أنها تصوم رجب، فقالت لها عائشة: «صومي شعبان، فإن فيه الفضل»، وأما حديثها رضي الله عنها: «ما رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أكثر صياما منه في شعبان» فظاهره فضيلة الصوم في شعبان على غيره [تبيين العجب بما ورد في شهر رجب].

السبب الرابع: ومن حِكَم صيام شعبان أيضا التمرين لصيام رمضان، قال ابن رجب: «وقد قيل في صوم شعبان معنى آخر، وهو أن صيامه كالتمرين على صيام رمضان، لئلا يدخل في صوم رمضان على مشقة وكلفة، بل يكون قد تمرن على الصيام واعتاده، ووجد بصيام شعبان قبله حلاوة الصيام ولذّته، فيدخل في صيام رمضان بقوة ونشاط» [لطائف المعارف].

هل يُشرع صيام شهر شعبان كله أم بعضه؟

في حديث عائشة -رضي الله عنها- السابق روايتان؛ هما رواية: « كان يصوم شعبان كله»، ورواية: « كان يصوم شعبان إلا قليلا»، وبالجمع بين الروايتين، يظهر بأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يصوم أكثر أيام شهر شعبان، قال النووي: «وقولها كان يصوم شعبان كله، كان يصومه إلا قليلا، الثاني تفسير للأول، وبيان أن قولها كله: أي غالبه» [شرح صحيح مسلم]، وقال القاضي عياض: «وكذلك يفسر قوله: (كان يصوم شعبان كله) (كان يصوم شعبان إلا قليلا)، والكلام الثاني تفسير للأول، وعبّر بالكل عن الغالب والأكثر» [إكمال المعلم في شرح صحيح مسلم]، ويقوّي هذا الرأي ما رواه مسلم عن ابن عباس -رضي الله عنه- قال: «ما صام النبي -صلى الله عليه وسلم- شهرا كاملا قط غير رمضان»، قال النووي: «قال العلماء: وإنما لم يستكمل غير رمضان لئلا يُظن وجوبه» [المنهاج].

الفصل بين صيام شعبان وصيام رمضان:

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا يتقدمن أحدكم رمضان بصوم يوم أو يومين، إلا أن يكون رجلٌ كان يصوم صومه، فليَصُم ذلك اليوم) [متفق عليه]، وعن عمار بن ياسر -رضي الله عنه- قال: «من صام اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبا القاسم صلى الله عليه وسلم» [حديث حسن، رواه أبو داود وغيره].

قال الصنعاني: «واعلمْ أن يوم الشك هو يوم الثلاثين من شعبان إذا لم يُرَ الهلال في ليلة بغَيْم ساتر أو نحوه فيجوز كونه من رمضان وكونه من شعبان والحديث وما في معناه يدل على تحريم صومه» [سبل السلام]، وعن عطاء قال: كنت عند ابن عباس قبل رمضان بيوم أو يومين فقرّب غداءه فقال: «أفطروا أيها الصِّيَّام! لا تواصلوا رمضان بشيء وافْصِلوا» [رواه عبد الرزاق في مصنفه].

قال ابن عبد البر: «استحب ابن عباس وجماعة من السلف رحمهم الله أن يفصلوا بين شعبان ورمضان بفطر يوم أو أيام، كما كانوا يستحبون أن يفصلوا بين صلاة الفريضة بكلام أو قيام أو مشي أو تقدم أو تأخر من المكان» [الاستذكار].

إحصاء هلال شعبان لرمضان:

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أحصوا هلال شعبان لرمضان) [حديث حسن، رواه الترمذي وغيره]، قال المباركفوري: «(أحصوا) بقطع الهمزة أمر من الإحصاء وهو في الأصل العد بالحصا أي عدّوا (هلال شعبان) أي أيامه (لرمضان) أي لأجل رمضان أو للمحافظة على صوم رمضان... وقال ابن حجر: أي اجتهدوا في إحصائه وضبطه بأن تتحروا مطالعه وتتراءوا منازله لأجل أن تكونوا على بصيرة في إدراك هلال رمضان على حقيقة حتى لا يفوتكم منه شيء» [تحفة الأحوذي].

بدع النصف من شعبان:

مما أحدث الناس في دين الله مؤخّرا تخصيصهم ليلة النصف من شعبان (ليلة الخامس عشر) بالقيام، أو تخصيصهم نهاره بصيام، أو قراءة سُوَر معينة في ذلك اليوم، أو الصلاة المسماة عندهم «الصلاة الألفية» والأخرى «صلاة براءة»، أو إيقاد المصابيح وتوزيع الحلوى... وغيرها مما هو معروف هذه الأيام، وما له مستند سوى أحاديث موضوعة أو ضعيفة جدا، وفيما يلي بعض أقوال أهل العلم في ذلك:

- قال القرطبي: «ليس في ليلة النصف من شعبان حديث يُعوَّل عليه، لا في فضلها، ولا في نسخ الآجال فيها» [الجامع لأحكام القرآن].
- قال أبو بكر الطرطوشي المغربي: «روى ابن وضاح عن زيد بن أسلم قال: ما أدركنا أحدا من مشيختنا ولا فقهائنا يلتفتون إلى ليلة النصف من شعبان، ولا يلتفتون إلى حديث مكحول، ولا يرون لها فضلا على سواها» [الحوادث والبدع].
- قال ابن القيم: «ومن الأحاديث الموضوعة: أحاديث صلاة ليلة النصف من شعبان» [المنار المنيف في الصحيح والضعيف].
- قال ابن دحية: «قال أهل التعديل والتجريح: ليس في حديث النصف من شعبان حديث يصح، فتحفَّظوا عباد الله من مُفترٍ يروي لكم حديثا يسوقه في معرض الخير، فاستعمال الخير ينبغي أن يكون مشروعا من الرسول صلى الله عليه وسلم، فإذا صح أنه كَذِبٌ خرج من المشروعية، وكان مستعمله من خَدَم الشيطان لاستعماله حديثاً على رسول اللّه -صلى الله عليه وسلم- لم يُنزل الله به من سلطان» [الباعث على إنكار البدع والحوادث، لأبي شامة المقدسي].

> مما أحدثَ النّاسُ في دين اللّه تخصيصهم ليلة النصف من شعبان ونهارها بأنواع من العبادات

- قال الشوكاني: «قال المجد في المختصر: حديث صلاة ليلة النصف من شعبان باطل، وهكذا قال غيرُه من أئمة هذا الشأن» [تحفة الذاكرين].
- قال النووي: «وهاتان الصلاتان -يقصد صلاة الرغائب وصلاة نصف شعبان- بدعتان مذمومتان منكرتان قبيحتان» [المجموع، شرح المهذب].

فهذا شهر شعبان قد أهلكم أيها المسلمون، فاغتنموه بالطاعات، وروّضوا النفوس لاستقبال شهر رمضان، بالصيام والقيام والقرآن، واطلبوا بذلك الأجر من الكريم الرحمن.

طاعة المرأة لزوجها عبادة واجبة

خلق الله الزوجين الذكر والأنثى، وجعل بعضهم لبعض أزواجا، وجعل بينهم مودة ورحمة، وجعل للرجال منهم القوامة على النساء، كما في قوله تعالى: {وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى}، وقوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً}، وقوله تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ}.

وأوصى الرجال بما أعطاهم من القوامة أن يحسنوا عشرة زوجاتهم ويصبروا على ما يكرهون منهن كما في قوله: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}، وما جاء في الحديث: (ألا واستوصوا بالنساء خيرا، فإنما هنّ عوانٌ عندكم) [رواه الترمذي]، ومعنى قوله: عوانٌ عندكم، أي: أسرى في أيديكم، بل وجعل الله ذلك أحد مقاييس التفاضل بين الرجال كما في حديث النبي -عليه الصلاة والسلام- عن عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي) [حديث صحيح، رواه الترمذي وابن حبّان].

كما جعل الله للرجل على زوجته حقوقا يجب عليها أن تؤديها له، وقرن أداءها لحقوق زوجها بأدائها لحقوق الله عليها، كما في قوله عليه الصلاة والسلام: (المرأة لا تؤدي حق الله عليها حتى تؤدي حق زوجها كلّه، حتى لو سألها وهي على ظهر قتب لم تمنعه نفسها) [حديث صحيح، رواه الطبراني]، وقوله عليه الصلاة والسلام: (إذا صلّت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحصّنت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت) [رواه أحمد والطبراني]، وفي الحديث المرفوع: (أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة) [رواه ابن ماجه والترمذي والحاكم].

فطاعة المرأة المسلمة لزوجها عبادة تتقرّب بها إلى الله كسائر العبادات، ولا يعقل من مسلمة تخاف الله واليوم الآخر أن تزعم أن صلاتها وصيامها وصدقتها وهجرتها تغنيها عن أداء حق زوجها عليها، فتتكبر عليه، أو ترى نفسها ندا له، أو تعصيه فيما أمرها من غير معصية الله، أو تعتدي عليه بالكلام أو ما سواه، ويكفيها ما سبق من الأدلّة على افتقارها إلى أداء حقوق زوجها وطاعته لتنال رضا الله وتدخل جنته، وتكون بذلك من الصالحات، اللواتي وصفهن الله عز وجل بقوله: {فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ}، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «وقوله: {فَالصَّالِحَاتُ} أي: من النساء {قانِتَاتٌ}، قال ابن عباس وغير واحد: يعني مطيعات لأزواجهن».

فكيف تسوّغ بعض النساء لأنفسهن الخروج من منازلهن بغير إذن أزواجهن، بل معصيتهم إن منعوهن من ذلك؟ وكيف يبرّرن معصيتهن لأزواجهن فيما أباح الله لهم أن يتأمّروا فيه، فضلا أن يكون أمرهم هو واجب شرعي من التزام بالحجاب، وتجنّب للاختلاط، وقرار في البيوت؟

وكيف تجرؤ امرأة أن تنافس الزوج وتزاحمه فيما أعطاه الله إياه من حقوق القوامة عليها، وولايته لأمرها وأمر أولاده، كما في قوله تعالى {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ}، وقوله {وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ}، وقول نبيه عليه الصلاة والسلام (والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته) [رواه البخاري ومسلم].

وكيف تنسى امرأة تقرأ كتاب الله قوله تعالى: {وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا}، فأعطى الله بذلك للزوج الحق في ضرب الزوجة ضربا غير مبرّح إن أبت إعطاء ما عليها من حق الطاعة، ولم تستجب للموعظة وعقوبة الهجر، فعن ابن عباس -رضي اللهُ عنهما- في قول الله تعالى: {وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ}، قال: «تلك المرأة تنشز، وتستخف بحق زوجها، ولا تطيع أمره» [رواه الطبري والبيهقي]، وقال الطبري، رحمه الله: «وأما قوله: {نُشُوزَهُنَّ}، فإنه يعني استعلاءهن على أزواجهن، وارتفاعهن عن فُرُشهم بالمعصية منهن، والخلاف عليهم فيما لزمهنّ طاعتهم فيه، بغضاً منهن وإعراضاً عنهم».

فليذكر الرجال أزواجهم بما لهم عليهن من حق الطاعة، ويخوفوهن بالله من معصيتهم في المعروف، وليذكّر الآباء بناتهم بذلك، ولتذكّر المرأة أختها بذلك، فإنّ الأمر عظيم، وإن معصية الزوج وعدم أداء حقوقه إنما هو من كبائر الذنوب، نعوذ بالله أن تقع فيه نساء المسلمين، إنه الهادي إلى سواء السبيل.

غُسْــل الجنـــابة مسائل وأحكـــام

تعريف غُسْل الجنابة:

الغسل لغة: مصدر للفعل غَسَل يَغْسِل غَسْلاً وغُسْلاً، ومعناه: سيلان الماء على الشيء، والغُسل شرعا: هو إفاضة الماء الطهور على جميع البدن على وجه مخصوص بنية التطهر.

أما الجنابة لغة: فهي مأخوذة من البُعد، ومنه قوله تعالى: {وَالْجَارِ الْجُنُبِ} [النساء: ٣٦] أي البعيد، والجنابة شرعا: هي الاسم من الجُنُب، والجُنُب هو من أنزل المني، أو جامع وإن لم يُنزل، وسمي جنبا لأنه يجتنب الصلاة والمسجد وقراءة القرآن.

حالات وجوب الغسل من الجنابة:

الأسباب التي توجب على المسلم والمسلمة الغسل هي:

١- خروج المني في يقظة أو نوم: لقوله تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا} [المائدة: ٦]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (الماء من الماء) [رواه مسلم]، ففي حال اليقظة يشترط لوجوب الغسل خروج المني بدفق وشهوة، قال ابن قدامة: فخروج المني الدافق بشهوة يوجب الغسل، وهو قول عامة الفقهاء [المغني]، فإذا خرج من الإنسان مني في حال اليقظة بغير شهوة بسبب مرض ونحوه، فلا يجب عليه الغسل.

أما في حال النوم فإن مجرد خروج المني يوجب الغسل سواء كان بشهوة أو بغير شهوة، فعن أم المؤمنين أم سلمة -رضي الله عنها- قالت: جاءت أم سليم إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحي من الحق، هل على المرأة غسل إذا هي احتلمت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نعم، إذا رأت الماء) [متفق عليه]، وظاهر الحديث أن المحتَلِم بمجرد أنه يرى آثار المني في ثوبه يجب عليه الغسل وإن لم يشعر بشهوة، في حين أنه لو شعر بالشهوة واللذة ولم يجد آثار المني فلا غسل عليه.

٢- الجماع ولو من غير إنزال لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا قعد بين شعبها الأربع، ثم أجهد نفسه، فقد وجب الغسل، وإن لم ينزل) [رواه مسلم].

صفة غسل الجنابة (كيفية الاغتسال من الجنابة):

وصفت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- غسل النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالت: (كان إذا اغتسل من الجنابة بدأ فغسل يديه، ثم توضأ كما يتوضأ للصلاة، ثم أدخل أصابعه في الماء، فخلل بها أصول شعره، ثم صب على رأسه ثلاث غرف بيديه، ثم أفاض الماء على جلده كله) [متفق عليه]

وبيّن الفقهاء -رحمهم الله- أن للغسل من الجنابة صفة واجبة لا يتم الغسل ولا تتحقق الطهارة إلا بها، وصفة مستحبة (صفة كمال) وهي كل ما زاد على الصفة الواجبة من سنن.

أولا: الصفة الواجبة في الغسل، وهي الصفة التي إن توفرت في الغسل كان مجزئا، وتتحقق هذه الصفة بتحقق ركنين هما:

١- النية، أن ينوي بقلبه رفع الحدث الأكبر (وهو هنا الجنابة).

٢- تعميم جميع البدن بالماء (إيصال الماء إلى كل البشرة والشعر).

ثانيا: الصفة المستحبة في الغسل (صفة الكمال)، وتتحقق هذه الصفة بالآتي:

١- النية.

٢- التسمية (أن يقول: بسم الله).

٣- أن يغسل يديه ثلاثا قبل إدخالها في الإناء.

٤- ثم يغسل فرجه وما أصابه من الأذى بشماله.

٥- ثم يغسل يديه بعد غسل فرجه.

٦- ثم يتوضأ وضوءا كاملا كالوضوء للصلاة.

٧- ثم يفيض الماء على رأسه ثلاثا حتى يبلغ أصول الشعر، ويبدأ بشق رأسه الأيمن ثم الأيسر.

٨- ثم يفيض الماء على سائر جسده مرة واحدة.

٩- كما يستحب للمغتسل تخليل شعر رأسه ولحيته، وتعاهد الأماكن التي قد لا يصلها الماء مباشرة كالإبطين وداخل الأذنين والسرة وغيرها.

ما يجوز للجنب وما لا يجوز:

يحرم على الجنب: الصلاة، والطواف، ومس المصحف، وقراءة القرآن، واللبث (المكث) في المسجد. ويستحب للجنب: أن يغسل فرجه ويتوضأ إذا أراد أن يأكل، أو يشرب، أو ينام، أو يعاود الجماع. ويباح للجنب: الذكر، والدعاء، ودخول المسجد وعبوره، وأن يصبح صائما قبل أن يغتسل، وأن يقضي حوائجه، وأن يخالط الناس... وهناك خلاف مشهور في بعض هذه المسائل، والله أعلم.

إن التوحيد يقوم على ركني عبادة الله وحده والكفر بالطاغوت، وبدون تحقيق هذين الركنين معاً لا يمكن تحقيق التوحيد، فمهما زاد العبد من عبادته لله فإنّه مطالب بالكفر بالطواغيت والبراءة منها هي وأوليائها، ومهما بلغت درجة عدائه للطواغيت فإنه لا يحقق التوحيد إلا بعبادة الله وحده، ولا يكتفى منه بإعلان البراءة من طواغيت دون آخر، وإنما بالكفر بها جميعا لأن الطاغوت الذي أمر الله باجتنابه في قوله {وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} هو اسم لجنس، فالأمر باجتناب كل ما حمل صفة الطغيان بأن يجعل نفسه ندّا لله في صفة من صفاته أو حق من حقوقه، كتعبيد الناس له بأن يدعوهم إلى طاعته من دون الله أو يفرض عليهم ذلك، أو يعبّدهم لأي نوع من الطواغيت، كدعوة الناس إليها، أو الدفاع عنها، أو الرضى بصرف أي نوع من العبادات له.



قتال أمريكا.. قضية شرعية أوّلاً

فكل ما وقع عليه وصف الطاغوت وجب على المسلم اجتنابه، والكفر به، ومعاداته، وتكفير من يعبده، والبراءة منهم، ومعاداتهم، وقتالهم، حتى يتوبوا من شركهم ويخلصوا العبادة لله العزيز الحميد.

ولا يصح تخصيص نوع من الطواغيت بالكفر به دون آخر، أو صنف من المشركين بالبراءة دون آخر، وإن كان الأولى في قتالهم أن يبدأ المسلم بقتال الأقرب إليه منهم، ثم الذين يلونهم، فالذين يلونهم، إلى أن يشمل القتال كل المشركين في الأرض، قال تعالى {قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ}، وهكذا كان منهج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في قتال المشركين في جزيرة العرب، وهي طريقة أصحابه من بعده، فبعد أن أنفذ أبو بكر الصديق -رضي الله- عنه وصية رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في إرسال بعث أسامة بن زيد لقتال الروم، تفرغ والمسلمون معه لقتال من ارتد عن دين الله من قبائل العرب لسنوات، مؤجلا قتال المشركين من الفرس والروم حتى أعاد كل جزيرة العرب إلى الإسلام، ولم يُذكر أن صحابة رسول الله -عليه الصلاة والسلام- حاولوا الاستفادة من عصبية المرتدين من العرب وكرههم للروم في حشد القبائل لقتالهم تحت لواء جيش أسامة بن زيد، والسكوت في سبيل ذلك عن تكفيرهم.

ولكن ما نراه في زماننا هذا الذي سيطرت فيه أمم الشرك على الأرض كلها باستثناء الأراضي الواقعة تحت سلطان الخلافة، ظهور دين جديد يقدم قتال بعض المشركين على توحيد الله عز وجل، ويقول بأسلمة طوائف من المشركين لتبرير عدم قتالهم، بل والتحالف معهم، وموالاتهم ضد المسلمين، وذلك بزعم عدم الانشغال بمقاتلتهم عن قتال رأس الكفر أمريكا، حتى بات في أذهان الكثيرين من هؤلاء أن دين الإسلام ينحصر في مقاتلة أمريكا، وأن القرب والبعد عن الإسلام يقاس بمقدار العداء لأمريكا لا بمقدار موافقة الشريعة، وأن الولاء يكون على أساس العداء لأمريكا، لا على أساس تحقيق التوحيد، حتى لكأن الدين عند هؤلاء صار الكفر بأمريكا دون سائر الطواغيت، ودون تحقيق التوحيد.

إن العداء لأمريكا وقتالها، ينطبق عليه ما ينطبق على سائر أفعال العباد، فلا بد أن ينبع من الشريعة ويستقي منها أحكامه، وإلا فإن أكثر من يعادي أمريكا اليوم يزعم أن قتاله لها جهاد في سبيل الله، وبدون أن يعرف حكم الشريعة في جهاد أمريكا، فإن قتاله لها قد يتحول إلى محض قتال جاهلي، على عصبية أو على منفعة دنيوية محضة لا أكثر.

العداء لأمريكا وقتالها، ينطبق عليه ما ينطبق على سائر أفعال العباد، فلا بد أن ينبع من الشريعة ويستقي منها أحكامه

فأمريكا اليوم طاغوت يُعبد من دون الله، من حيث أنها حكومة كافرة تحكم شعبها بغير ما أنزل الله، وتدين بدين الديموقراطية الشركي، وتحارب الله تعالى في حكمه باستباحة كل المحرمات، من الكفر بالله بدعوى الحرية إلى الزنا واللواط والخمر والميسر والربا وغيرها، وهي رأس الطواغيت في العالم، من حيث فرضها للأحكام الشركية على العالم كله، سواء باسم ميثاق الأمم المتحدة الشركي، أو بنصبها للطواغيت الحاكمين بغير ما أنزل الله، ودعمهم وتمويلهم وتسليحهم في حربهم على الإسلام والمسلمين، والدفاع عنهم وعن شرائع الشرك إذا ما خرج المسلمون عليها، ومن هذا المنطلق يكون جهاد هذا الطاغوت، وبهذا المنطلق يفترق أولياء الرحمن عن سواهم في قتالهم لأمريكا، بأن يكون القتال لإزالة هذا الطاغوت لإقامة حكم الإسلام مكانه، سواء داخل أمريكا ذاتها أو في العالم الذي تحكمه بجبروتها وطغيانها.

وإننا نعلم باستقراء التاريخ أن الشيوعيين الملاحدة هم من أشد الناس إعلانا للعداء لأمريكا، وتبعهم في ذلك الرافضة من أنصار الهالك الخميني الذين أطلقوا عليها لقب «الشيطان الأكبر»، وبعض الطواغيت العرب الذين شعروا بتهديد أمريكا لملكهم وعروشهم، ونعلم أن عداء هؤلاء لأمريكا هو لرغبتهم في إزالة حكمها الطاغوتي لنصب طواغيت آخرين مكانه، كطاغوت عبادة المادة الشيوعي، وطاغوت ولاية الفقيه الرافضي، وما شابه ذلك، ففي المعايير الضالة الجديدة، هل كان عداء هؤلاء المزعوم لأمريكا وقتالهم لها جهادا في سبيل الله؟! وهل كانت مئات الألوف إن لم يكن الملايين من الكفار في أنحاء العالم الذين دفعوا حياتهم في حروب مع أمريكا أو عملائها شهداء، منازلهم في الغرف العليا من الجنة؟!

الدولة الإسلامية هي أكثر من حقق النكاية في أمريكا

إن دعاة الدين المُحدَث يزعمون أن حل كل مشاكل المسلمين يكون بكف أذى أمريكا عن التدخل في بلاد المسلمين، حيث سيتمكن المسلمون من هزيمة الطواغيت وإقامة دول وإمارات إسلامية، ومن ثم توحيد هذه الدول والإمارات في كيان واحد يطلقون عليه لقب الخلافة، متغافلين عن حقيقة أن الأرض تعج بالطواغيت الذين لا يقل أي منهم في عدائه للإسلام عن أمريكا، وأن أيا منهم لن يرضى بقيام الدولة الإسلامية، فإذا قرّرت أمريكا أن تنعزل عن العالم وتكف عن التدخل في بلدان المسلمين ودعم الطواغيت الحاكمين من ملوك ورؤساء ويهود، فإلى من سينقل هؤلاء لقب «الشيطان الأكبر»؟ إلى روسيا أم إلى الصين أم إلى الهند أم إلى أي دولة تهيمن على العالم من بعد أمريكا؟

وإن أحداث الشام الأخيرة أكدت بما لا يدع مجالا للشك أن أمريكا إن كفت عن التدخل في بلاد المسلمين، فسيجد الطواغيت الحاكمون لها بدلاء كثر عن أمريكا ليستنصروهم على أهل الإسلام، فبعدما سعت فصائل الصحوات لاسترضاء أمريكا بكل طاقتها، رجاء عونها، وخوفا من بطشها، وبعد أن حصّلت رضا أمريكا عنها نوعا ما، فوجئت بالطائرات الروسية وهي تساند النظام النصيري ضدها وتقدم لها الغطاء الجوي لتقدّمها إلى مناطقهم.

ومن جانب آخر، فإن أمريكا وإن كانت الداعم للعدد الأكبر من الطواغيت الحاكمين لبلدان المسلمين، فإننا لو تجولنا في أقطار أخرى لوجدنا أمريكا تتراجع على مقياس العداوة -وفق المقياس المنحرف- إلى المرتبة الثانية، بل وقد تتحول عند بعض المنتسبين إلى الإسلام إلى صديق أو حليف في مواجهة حكومات أخرى أشد فتكا بالمسلمين في تلك الديار، كما هو الأمر بالنسبة لحكومة روسيا بالنسبة لدول آسيا الوسطى، والحكومة الهندوسية بالنسبة لدول شبه القارة الهندية، والحكومة الصينية الشيوعية بالنسبة للإيغور، والحكومة البوذية بالنسبة لأهل بورما، ولو جمعنا تعداد المنتسبين إلى الإسلام في هذه المناطق، سنجد أنهم يشكلون ما لا يقل عن ثلث المنتسبين إلى الإسلام في العالم، وكل هؤلاء يعتبر أن العدو الأول له هو حكومة طاغوتية أخرى غير أمريكا، بل -وكما أسلفنا- ستجد بعضهم يرون أمريكا صديقا وحليفا ضد الحكومات التي تتسلط عليهم!

إن الدولة الإسلامية بفضل من الله وحده هي أكثر من حقق النكاية في أمريكا، وقد مكن الله مجاهديها من إيقاع أكبر هزيمة بأمريكا في تاريخها في العراق، ولم تكن كمن جعل من قتال أمريكا وثنا يعبد من دون الله، يُترك لأجله أصل الدين وموالاة المشركين.

إن من يتكلم باسم الأمة المسلمة كلها، لا يصح منه أن ينظر إلى مصالحها من عين البلد الذي يعيش فيه، أو يتكلم باسمها باللغة التي يفهمها قومه فقط، فقضية الإسلام عامة، ويجب أن تشمل كل المسلمين، ويجب أن يكون التحريض ضد كل أعداء الإسلام، لكيلا تختلط الأمور على الناس فيظنوا أن عداء بعض الطواغيت لبعض، قد يجعل منهم أولياء للمسلمين، وينزع عنهم صفة الكفر والشرك، وبذلك فقط تستبين السبيل، ويتضح الطريق، ولله عاقبة الأمور.

لماذا نقاتل؟

إن قتال المشركين، وقمع أعداء الدين من أوجب الواجبات على المسلمين في كل عصر، وقد أعد الله لمن يقوم بهذه العبادة الأجر الجزيل جزاء على جهدهم وجهادهم، ولكنه -تعالى- حصر الأجر والمثوبة بمن كان جهاده في سبيل الله فقط، أي بمن خرج يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ولكي يعرف المجاهد فيم يجاهد، والراغب بالشهادة ودرجتها الرفيعة فيم يبذل دمه، فمن الواجب عليه أن يعرف المقاصد الشرعية للجهاد في سبيل الله، وهذه أهمها...

أهم مقاصد الجهاد في سبيل الله

1) طاعة لله واتباعا لأمره

قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ} [سورة البقرة: ٢١٦]، وقال سبحانه: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ} [سورة التوبة: ٤١].

وقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة) [متفق عليه].

2) التأسي برسول الله، صلى الله عليه وسلم

قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (*) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [سورة الأحزاب: ٢١-٢٢].

قال ابن كثير في تفسيرها: «هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله -صلى الله عليه وسلم- في أقواله وأفعاله وأحواله؛ ولهذا أمر الناس بالتأسي بالنبي -صلى الله عليه وسلم- يوم الأحزاب، في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه، عز وجل».

وقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (والذي نفس محمد بيده، لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبدا، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده، لوددت أن أغزو في سبيل الله، فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل) [رواه مسلم].

3) نشر التوحيد وطمس الشرك

قال تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [سورة الأنفال: ٣٩].

قال الإمام الطبري في تفسيرها: «وقاتلوا المشركين الذين يقاتلونكم حتى لا تكون فتنة، يعني: حتى لا يكون شرك بالله، وحتى لا يعبد دونه أحد، وتضمحل عبادة الأوثان والآلهة والأنداد، وتكون العبادة والطاعة لله وحده دون غيره من الأصنام والأوثان».

وقال صلى الله عليه وسلم: (بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله تعالى وحده لا شريك له) [حديث صحيح، رواه أحمد وغيره].

4) إقامة شرع الله وتطبيق حدوده

قال تعالى: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ} [سورة الحج: ٤١].

وقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إقامة حد بأرض خير لأهلها من مطر أربعين صباحا) [حديث صحيح، رواه ابن حبان]، وقال صلى الله عليه وسلم: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله) [متفق عليه]، قال الإمام القرطبي: «يعني بـ (كلمة الله): دين الإسلام» [المفهم].

5) الدفاع عن الدين والنفس والعرض والمال

جاء رجل إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: «يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟» قال: (فلا تعطه مالك) قال: «أرأيت إن قاتلني؟» قال: (قاتله) قال: «أرأيت إن قتلني؟» قال: (فأنت شهيد) [رواه مسلم]، وقال صلى الله عليه وسلم: (من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد) [رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح].

6) إرهاب الكفار والمرتدين والإثخان فيهم

قال تعالى: {فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ} [سورة محمد: ٤]، وقال سبحانه: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ} [سورة الأنفال: ٦٧]، وقال جل جلاله: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [سورة الأنفال: ٦٠].

وقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (يا معشر قريش! أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح) [حديث صحيح، رواه أحمد وغيره].

7) مدافعة المفسدين وكف أذى الكفرة عن المسلمين

قال تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ} [سورة البقرة: ٢٥١]، وقال جل جلاله: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ} [سورة المائدة: ٣٣]، وقال جل وعلا: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [سورة النساء: ٨٤].

8) نصرة المستضعفين وفك الأسارى

قال تعالى: {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا} [سورة النساء: ٧٥].

وقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (فكوا العاني) [رواه البخاري]، والعاني: هو الأسير.

9) الدفاع عن عرض النبي، صلى الله عليه وسلم

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا} [سورة الأحزاب: ٥٧].

وقال صلى الله عليه وسلم: (من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله؟)، فقام محمد بن مسلمة -رضي الله عنه- فقال: «يا رسول الله أتحب أن أقتله؟» قال: (نعم)، فانطلق إليه، فتحايل عليه، فقتله [متفق عليه].

وعن علي -رضي الله عنه- قال: «أن يهودية كانت تشتم النبي -صلى الله عليه وسلم- وتقع فيه، فخنقها رجل حتى ماتت»، وعن ابن عباس، رضي الله عنه: «أن أعمى كانت له أم ولد تشتم النبي -صلى الله عليه وسلم- وتقع فيه، فينهاها فلا تنتهي ويزجرها فلا تنزجر، فأخذ المغول [سيف قصير] فوضعه في بطنها واتكأ عليها فقتلها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ألا اشهدوا أن دمها هدر)» [رواهما أبو داود].

10) طلبا لما أعده الله من الثواب للمجاهدين في سبيله

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (*) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (*) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سورة الصف: ١٠-١٢].

وقال النبي، صلى الله عليه وسلم: (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله تعالى، أو الغدوة، خير من الدنيا وما عليها) [متفق عليه]، وقال صلى الله عليه وسلم: (مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام، ولا صلاة، حتى يرجع المجاهد في سبيل الله) [متفق عليه]، وقال صلى الله عليه وسلم: (ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار) [رواه البخاري].

11) طلبا لما أعده الله للشهداء من منازل

قال الله تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [سورة آل عمران: ١٦٩]، وقال سبحانه: {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (*) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (*) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ} [سورة محمد: ٤-٦]، وقال جل جلاله: {إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} [سورة التوبة: ١١١].

وقال صلى الله عليه وسلم: (للشهيد عند الله سبع خصال؛ يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويشفع في سبعين إنسانا من أهل بيته) [حديث

صحيح، رواه أحمد وغيره]، وقال صلى الله عليه وسلم: (ما أحد يدخل الجنة، يحب أن يرجع إلى الدنيا، وله ما على الأرض من شيء، إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة) [متفق عليه].

12) اجتناب عاقبة المتخلفين عن الجهاد في الدنيا

قال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [سورة التوبة: ٢٤].

وقال صلى الله عليه وسلم: (من لم يغز، أو يجهز غازيا، أو يخلف غازيا في أهله بخير، أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة) [حديث صحيح، رواه أبو داود]، وقال صلى الله عليه وسلم: (إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم) [حديث صحيح، رواه أبو داود].

13) النجاة من عذاب الله الذي أعده للقاعدين عن الجهاد

قال تعالى: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ} [سورة التوبة: ٨١].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (*) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (*) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ} [سورة التوبة ٣٨-٤٠].

وقال صلى الله عليه وسلم: (من لم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق) [رواه مسلم].

14) قتال المرتدين الممتنعين عن بعض شرائع الله

قال تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله} [سورة الأنفال: ٣٩].

وقال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لقاتلتهم على منعه» [رواه مسلم].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد اتفق علماء المسلمين على أن الطائفة الممتنعة إذا امتنعت عن بعض واجبات الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها، إذا تكلموا بالشهادتين وامتنعوا عن الصلاة والزكاة أو صيام شهر رمضان أو حج البيت العتيق أو عن الحكم بينهم بالكتاب والسنة أو عن تحريم الفواحش أو الخمر أو نكاح ذوات المحارم أو عن استحلال النفوس والأموال بغير حق أو الربا أو الميسر أو الجهاد للكفار أو عن ضربهم الجزية على أهل الكتاب ونحو ذلك من شرائع الإسلام فإنهم يقاتلون عليها حتى يكون الدين كله لله» [الفتاوى الكبرى].

15) كشف المنافقين وتمييز المؤمنين

قال تعالى: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (*) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (*) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [سورة آل عمران: ١٤٠-١٤٢]، وقال سبحانه: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [سورة الأنفال: ٧٤].

وعن سعيد بن جبير -رضي الله عنه- قال: «سألت ابن عباس -رضي الله عنه- عن سورة التوبة فقال: «هي الفاضحة، ما زالت تنزل {وَمِنْهُمْ} {وَمِنْهُمْ}، حتى ظنوا أنها لم تبق أحدا منهم»» [متفق عليه].

16) رد البغاة (الخارجين على الإمام)

قال تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ الله} [سورة الحجرات: ٩].

وقال صلى الله عليه وسلم: (من بايع إماما فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه، فليطعه ما استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر) [رواه مسلم].

17) كسب أموال الكفار (الغنائم والفيء)

قال تعالى: {وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا} [سورة الفتح: ٢٠]، وقال سبحانه: {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا} [سورة الأنفال: ٦٩].

وقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (جعل رزقي تحت ظل رمحي) [حديث صحيح، رواه أحمد وغيره]، وقال صلى الله عليه وسلم: (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي)، فذكر منها: (وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي) [متفق عليه].



وجوب صلاة الجماعة

ومشروعية إغلاق المحلات التجارية أثناء أدائها

الحمد لله ذي الإنعام، والصلاة والسلام على خير الأنام، وعلى آله وصحبه الكرام، أما بعد:
فلقد أكثر سبحانه من ذكر الصلاة في كتابه الكريم، وعظم شأنها، وأمر بالمحافظة عليها وأدائها في الجماعة، والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة معلومة، فالواجب على كل مسلم أن يحافظ على الصلاة في وقتها، وأن يقيمها كما أمر الله بها، وأن يؤديها مع إخوانه المسلمين جماعة، ولا يقدم عليها أمور الدنيا ومشاغل الحياة.

إغلاق المحلات التجارية وقت صلاة الفريضة:

ومن هنا كان أول واجبات الإمام إقام الصلاة وأمر الناس بها، قال تعالى: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [الحج: ٤١]، وقال صلى الله عليه وسلم: (كلكم راع ومسؤول عن رعيته، فالإمام راع ومسؤول عن رعيته) [متفق عليه].

لذا عمد المجاهدون في الدولة الإسلامية إلى إلزام الرعية بالصلاة في جماعة، والأمر بإغلاق المحلات التجارية وقت الصلاة، ذلك لأن صلاة الجماعة واجبة على الرجال، وشهودها لا يتحقق لأصحاب المحلات التجارية إلا بإغلاقها، و(ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب).

قال تعالى: { فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ } [النور: ٣٦-٣٧].

قال ابن كثير: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ}: هي المساجد، أمر الله ببنائها ورفعها، وأمر بعمارتها وتطهيرها. {وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ}: يتلى فيها كتابه. {يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ}: التسبيح هو الصلاة، ويعني بالغدو: صلاة الغداة، وهي صلاة الفجر، ويعني بالآصال: صلاة العصر، وهما أول ما افترض الله من الصلاة، فأحب – سبحانه– أن يذكرهما وأن يذكر بهما عباده. {رِجَالٌ} فيه إشعار بهممهم السامية، ونياتهم وعزائمهم العالية، التي بها صاروا عُمَّارًا للمساجد. {لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ}: لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذ بيعها وربحها عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم. {وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ}: قال هشيم: عن سيار قال: «حدثت عن ابن مسعود أنه رأى قوما من أهل السوق، حيث نودي بالصلاة، تركوا بياعاتهم ونهضوا إلى الصلاة، فقال عبد الله: هؤلاء من الذين ذكر الله في كتابه: {رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ}»، وهكذا روى عمرو بن دينار القهرماني عن سالم عن عبد الله بن عمر: «أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد، فقال ابن عمر: فيهم نزلت: {رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ}»، وقال عمرو بن دينار الأعور: «كنت مع سالم بن عبد الله ونحن نريد المسجد، فمررنا بسوق المدينة وقد قاموا إلى الصلاة وخمروا متاعهم، فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس معها أحد، فتلا سالم هذه الآية: {رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ} ثم قال: هم هؤلاء»، وكذا قال سعيد والضحاك: «لا تلهيهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة في وقتها»، وقال الوراق: «كانوا يبيعون ويشترون، ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه في يده خفضه، وأقبل إلى الصلاة»، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «{لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ}: عن الصلاة المكتوبة»، وقال السدي: «عن الصلاة في جماعة»، وعن مقاتل بن حيان: «لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة، وأن يقيموها كما أمرهم الله، وأن يحافظوا على مواقيتها».

وجوب صلاة الجماعة:

قال تعالى: {وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً} [النساء: ١٠٢].

فلم يأذن الله سبحانه بترك الجماعة للمجاهدين حال قتالهم للكافرين، فكيف يؤذن للقاعد بتركها انشغالا بالمحلات والدكاكين؟!

وأوجب سبحانه أداء الصلاة في الجماعة في حال الحرب فكيف بحال السلم؟! ولو كان أحد يسامح في ترك الصلاة في جماعة، لكان المصافّون للعدو المهدَّدون بهجومه عليهم أولى بأن يسمح لهم في ترك الجماعة، فلما لم يقع ذلك؛ علم أن أداء الصلاة في جماعة من أهم الواجبات، وأنه لا يجوز لأحد التخلف عنها.

وقال تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ



وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ} [البقرة: ٤٢]، فكما أمرنا الله سبحانه بإقام الصلاة في قوله: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}، فكذا قد أمرنا الله تعالى بأدائها جماعة كما في قوله: {وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ}.

وعن مالك بن الحويرث –رضي الله عنه– قال: أتينا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ونحن شببة متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– رحيما رقيقا، فظن أنا قد اشتقنا أهلنا، فسألنا عن من تركنا من أهلنا، فأخبرناه، فقال: (ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا فيهم وعلموهم ومروهم، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم، ثم ليؤمكم أكبركم).

وعن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: أتى النبيَ –صلى الله عليه وسلم– رجلٌ أعمى، فقال: يا رسول الله، إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسولَ الله أن يرخص له فيصلي في بيته، فرخص له، فلما ولى، دعاه، فقال: (هل تسمع النداء بالصلاة؟) قال: نعم، قال: (فأجب) [رواه مسلم]، قال ابن قدامة المقدسي: «وإذا لم يرخص للأعمى الذي لم يجد قائدا له، فغيره أولى» [المغني].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: (من سمع النداء فلم يأته فلا صلاة له، إلا من عذر) [رواه ابن ماجه، وصححه الحاكم].

قال ابن قدامة المقدسي: «الجماعة واجبة للصلوات الخمس، روي نحو ذلك عن ابن مسعود وأبي موسى، وبه قال عطاء والأوزاعي وأبو ثور» [المغني].

وبوب البخاري في صحيحه فقال: «باب وجوب صلاة الجماعة».

وجوب صلاة الجمعة:

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [الجمعة: ٩-١١].

قال القرطبي في تفسيره: «قوله تعالى: {وَذَرُوا الْبَيْعَ} منع الله عز وجل منه عند صلاة الجمعة، وحرمه في وقتها على من كان مخاطبا بفرضها، والبيع لا يخلو عن شراء فاكتفى بذكر أحدهما، كقوله تعالى: {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ}، وخص البيع لأنه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق».

ثم قال: «وفي وقت التحريم قولان: إنه من بعد الزوال إلى الفراغ منها، قاله الضحاك والحسن وعطاء، الثاني: من وقت أذان الخطبة إلى وقت الصلاة».

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر وأبي هريرة –رضي الله عنهما– أنهما سمعا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول على أعواد منبره: (لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات، أو ليختمن الله على قلوبهم، ثم ليكونن من الغافلين)، وعند ابن ماجه بلفظ: (لينتهين أقوام عن ودعهم الجماعات...) الحديث.

وعن أبي الجعد الضمري –وكانت له صحبة– قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من ترك ثلاث جمع تهاونا من غير عذر طبع الله على قلبه) [رواه أحمد والأربعة، وحسنه الترمذي].

عواقب عدم شهود صلاة الجماعة:

إن المعصية بريد المعصية، وما من سيئة إلا وتدل على أختها، ولذا فإن لترك صلاة الجماعة عواقب كثيرة؛ منها:

أولا: غضب الله وعدم رضاه: قال تعالى: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ} [الماعون: ٤-٥]، قال الطبري في تفسيره: «قال بعضهم: عني بذلك أنهم يؤخرونها عن وقتها، فلا يصلونها إلا بعد خروج وقتها».

وعن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقد ناسا في بعض الصلوات، فقال: (لقد هممت أن آمر رجلا يصلي بالناس، ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها، فآمر بهم فيحرقوا عليهم بحزم الحطب بيوتهم) [متفق عليه].

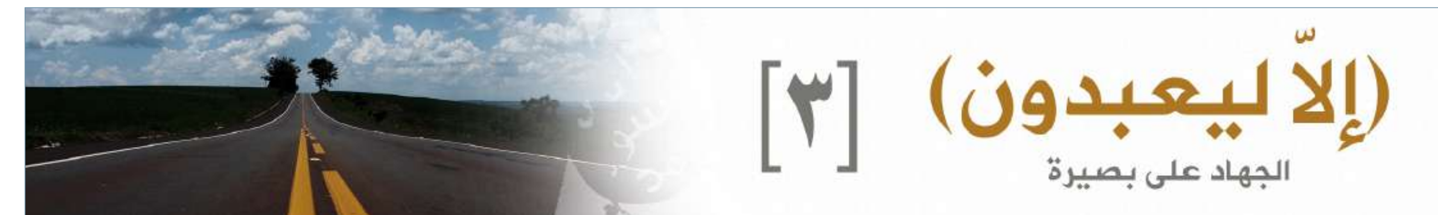
ثانيا: تفويت الأجر: عن عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: (صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة) [متفق عليه].

ثالثا: الاتصاف بصفة من صفات المنافقين: عن أبي الأحوص قال: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق قد علم نفاقه، أو مريض، إن كان المريض ليمشي بين رجلين حتى يأتي الصلاة»، كما قال –رضي الله عنه– أيضا: «إن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– علمنا سنن الهدى، وإن من سنن الهدى الصلاة في المسجد الذي يؤذن فيه» [رواهما مسلم].

رابعا: التشبه بالنساء: عن عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها، وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها) [رواه أبو داود، وصححه ابن خزيمة].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين.



كانت بيعة العقبة من أهم العتبات التي عبر بها الرسول عليه الصلاة والسلام إلى مرحلة تكوين الدّولة الإسلاميّة بهجرته بعدها من دار الاستضعاف (مكة) إلى دار النصرة ثم التمكين (يثرب)، حيث كان عليه الصلاة والسلام يبحث عن هذه النصرة فيدور في المواسم يقول: (من يؤويني وينصرني حتى أبلّغ رسالات ربي) [صحيح ابن حبّان]، ولكن تلك القبائل كانت تخشى على نفسها ما خشيته قريش من قبولها دعوة هذا النبي عليه الصلاة والسلام (وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)، ولم يكن عند هذا النبي عليه الصلاة والسلام ومن معه من المستضعفين في مكّة من المكاسب المتوقّعة ما يغري القبائل لأن تحتمل في سبيل نصرته الخسائر المؤكّدة من عداوة العرب والعجم لها، هذه الخسائر أدركها أصغر نقباء يثرب وهو أسعد بن زرارة رضي الله عنه، فبيّن لهم نتيجة قرارهم في خروج النبي عليه الصلاة والسلام إليهم أن (إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم وأن يعضّكم السيف)، فاستبانت لمن يريد أن يسلك هذا الطريق مكارهه، فلما أرادوا أن يعرفوا ثمرات هذا الطريق الشاق إن هم سلكوه، لم يزد عليه الصلاة والسلام على أن وعدهم بالجنة، فكان عقد البيعة بينهم (تؤووني وتمنعوني قالوا: نعم، فما لنا؟ قال: الجنة)، وبالأسلوب ذاته حذّر أسعد بن زرارة قومه بعد أن بيّن لهم حقيقة النصرة (فإما أن تصبروا على ذلك وأجركم على الله وإما أنتم تخافون من أنفسكم جبناً فبيّنوا ذلك، فهو أعذر لكم، فقالوا: أمط عنا، فو الله لا ندع هذه البيعة أبداً فقمنا إليه فبايعناه فأخذ علينا وشرط أن يعطينا على ذلك الجنة).

فعلى هذه الصفقة الواضحة التي لا غشّ فيها ولا غبن ولا تدليس قامت الدولة الإسلاميّة الأولى، على أن يقدّم المسلمون كل ما لديهم لنصرة دينهم، ولا يطلبوا مقابل ذلك غير الجنّة، مهما كان حجم التضحيات والنفقات التي سيقدمونها.

إن قصّة هذه البيعة يجب أن تكون من أهم المنارات للسائر في طريق العبوديّة لله، حتى يتّضح له المقصد، وتستبين له الرؤية، ويستقيم لديه المنهج، فيمشي سوياً على الصراط المستقيم الذي يؤدّي به إلى الغاية الوحيدة له من كل أعماله في الدنيا وهي الجنّة، ولا يلتفت إلى السبل التي على رأس كلٍّ منها شيطانٌ يدعوه إلى النار.

فوضوح الغاية وهي الجنّة والعلم بقيمتها (ألا إنّ سلعة الله غالية، ألا إنّ سلعة الله الجنّة)، ومعرفة السبيل إليها وهو اتباع النبي عليه الصلاة والسلام، هما الضمانة للمسافر في طريق العبوديّة لله ألّا ينحرف في الطريق فينتقل من تيه إلى تيه، وهو يحسب أنّه يحسن صنعاً، وبمقدار التزام العبد بذلك يسهل عليه تجاوز العقبات التي في طريقه (حُفّت الجنّة بالمكاره)، وتجنّب أسباب الانحراف عن هذا الطريق المتمثّلة بالشهوات والشبهات، فمن حصر همّه ببلوغ المراد، اجتهد في البحث عن الطريق الذي يبلغه به، ولم يلتفت لبنيّات الطريق.

ويستوي للعابد في ذلك كلّ عمل، من إماطة الأذى عن الطريق حتّى إقامة (لا إله إلا الله)، إذ كلّها درجات يسمو بها في طريق بلوغه الجنّة، وعلى هذا الأساس أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم دولة الإسلام.

فبعد سنوات من العمل في مكّة الذي تركّز على توحيد الله وترسيخه في النفوس، وإعلان البراء من المشركين وفعالهم التي أخرجتهم عن التوحيد، حان الوقت لإقامة دار الإسلام التي سيكون فيها الدين كلّه لله عزّ وجلّ، ولما كانت إقامة هذه الدار ستزيد من حدّة عداء المشركين لهذا الدين ومن رغبتهم في استئصاله، كان من الضروري الانتقال بالمؤمنين من مرحلة إقامة هذا الدين في أنفسهم إلى الاستعداد للدفاع عنه بأنفسهم وأموالهم.

ورغم أهميّة هذا العمل وضرورة إنجاحه والحاجة إلى حشد الأنصار إليه، فإن منهج النبي عليه الصلاة والسلام في الدعوة إليه قام على أصول صلبة، أدّت وبلا شك إلى حصر العاملين في فئة قليلة وعزوف الكثيرين عنها ربّما مع قناعتهم بصحّة الطريق وجدارة القائد بالاتّباع، وكان من أهم هذه الأصول:

- وضوح الهدف: (من يؤويني وينصرني حتى أبلّغ رسالات ربي).
- وضوح المهمّة التي يجب على الأنصار أداؤها: (تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم، وتمنعوني مما تمنعون عنه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم).
- توضيح الصعوبات والعقبات التي ستعترض الأنصار في سبيل قيامهم بالمهمّة: بإقراره قول صاحبهم: (إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم وأن يعضّكم السيف).
- توضيح الغاية الوحيدة والمقابل الوحيد الذي سيحصل عليه الأنصار لقاء قيامهم بالمهمّة: (قالوا: نعم فما لنا؟ قال: الجنة).

وبخلاف هذا المنهج في حشد الأنصار تعمل الجماعات المنحرفة في سعيها المزعوم لإقامة الدّولة الإسلاميّة والخلافة الإسلاميّة.

- فعوضاً عن توضيح هدفها الحقيقي ساد الخداع والتقيّة بدعوى الاقتراب من هموم الناس، وذلك بإخفاء هذه الجماعات لحقيقة مشاريعها وأهدافها عن الجماهير والحشود التي اجتمعت فيها وكلٌّ يأمل من نصرته لهذه الجماعة ما يشتهيه، فمنهم من يرى في هذه الجماعات وسيلة للخلاص من مستبدٍّ ظالم، ومنهم من يرى فيها أملاً في توحيد المسلمين وجمعهم بعد فرقة، ومنهم من يرى فيها بديلاً أفضل من زمر الفساد التي تحكم البلاد بالاستناد إلى الطواغيت، ومنهم من يأمل منها أن تقيم الشريعة الإسلاميّة، و(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ)، وقيادات الجماعات تزداد فرحاً باتساع "حاضنتها الشعبيّة" أو حتى "قاعدتها الانتخابيّة"، ولا تلتفت في الغالب إلى مصير هؤلاء النّاس في الآخرة، وإلامَ هم صائرون بعد موتهم، وكأن تأييد الجماعة أو الحزب صار في دين هؤلاء من مفاتيح الجنّة، فيحجز "المناصر" أو "المؤيد" مقعده فيها بمجرد انتسابه إليها.
- وعوضاً عن توضيح حقيقة الطريق لتنفيذ المهمّة، والصعوبات والعقبات التي يجب على الأنصار أن يستعدّوا لها، ساد الكذب على الأتباع والأنصار بإخفاء حقيقة ما سيلاقونه من مشاق وما يجب عليهم من صبر وجهاد في سبيل تجاوزها والتغلّب عليها، إذ لو علم الذين شاركوا بما تسمّى "ثورات الربيع العربي" بنتيجة هذه الثورات وما ستؤدّي إليه من حروب ومآسٍ لهم ولأهلهم وبلدانهم على أيادي الطغاة لأحجم معظمهم - وبلا شك - عن سلوك هذا الطريق، ولفضّل الكثير منهم أن يعيش تحت حكم الطاغوت على أن يتحمل نتيجة الخروج عليه، ولو علم معظم الذين انتخبوا "جبهة الإنقاذ" ما سيلاقونه من طواغيت الجزائر بسبب إسقاطهم في الانتخابات لما شاركوا فيها، هذا إن لم ينتخبوا الطواغيت ويسقطوا "جبهة الإنقاذ".

وعلى هذا الأساس تنتشر أكثر الانحرافات في صفوف "الجماعات الجهاديّة" التي انحرفت عن طريق الجهاد في سبيل إقامة الدّولة الإسلاميّة، لمّا طال عليهم الأمد، وكثرت فيهم الجراح، تفرّقوا بين منحرفٍ عن غاية ما خرج في سبيله، وقاعدٍ رَكَنَ إلى الدنيا وزينتها، بل وحتى منقلبٍ على عقبيه صار من أنصار الطاغوت، وقليلٌ من يثبت على هذا الطريق.

- وعوضاً عن دعوة الأنصار إلى الإخلاص في العمل وأن تكون غايتهم الوحيدة منه إرضاء الله تعالى، والمقابل الوحيد الذي يأملونه هو الجنّة، تنهال الوعود على الجماهير بما سيلقونه في دولة السمن والعسل التي ستقيمها هذه الجماعات إذا وصلت للحكم، وتنثر على رؤوسهم أحلام السيادة العالميّة السريعة والاكتساح الحتمي للدول والقارات، هذا فضلاً عن تحفيز الطموحات الشخصية والآمال الدنيوية للأنصار بما سيحصلون عليه إذا انتصرت الجماعة التي نصروها وأيّدوها، حتّى إذا وصلت الجماعة للحكم وبدأت الضغوطات، وارتفعت الأسعار، أو انقطعت الكهرباء، أو تأخرت الرواتب، رأيت أنصار الأمس معارضين لهذه



الحكومة التي لم تزد عليهم في شؤون معاشهم شيئاً إن لم تنقص منه، ولكم في "حكومة الإخوان" التي أُسقطت في مصر خير مثال.

إن الداعي إلى الله تعالى يجب أن يبيّن للناس حقيقة هذا الدين، فيؤمنوا به على بصيرة، ويبيّن لهم ما عليهم من واجبات إن آمنوا، فيعملوا بها، ويبيّن لهم ما سيلقونه من مشقّة في سبيل إقامة هذا الدين، وتبليغه للناس، ويوصيهم بالصبر على ذلك كلّه، فإن فعلوا ذلك كانوا من الفائزين بالجنّة، وإلا كانوا في جملة الخاسرين من بني آدم، كما قال تعالى: (وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)▪



لا توجد أمّة من الأمم إلا ولديها من الأبطال المقاتلين، والشجعان المحاربين، الكثيرون ممّن تفتخر بهم، وترفع من شأنهم، فالتدافع بين الناس سنّة من سنن الله عزّ وجل، فحق يدفع الباطل، وباطل يدفع باطل، ولكلّ حق أو باطل أمّة من الأمّم تداعي به، وتحرص على الوصول إليه، وكلا الطرفين (الطالب والمانع) يفتخر بمدافعته لخصمه وقتاله له ونكايته فيه، وبمقدار ما استطاع أن يستلبه منه، بل ويفتخر بحجم ما قدّمه من تضحيات في سبيل هزيمة خصمه، وهنا يبرز غالباً الأبطال الحقيقيّون وأحياناً الأدعياء المزيّفون، بمقدار ما قدّموه من تضحيات، أو حقّقوه من منجزات، أو بمقدار ما تم اختلاقه من ذلك. وبهذا تشترك كلّ الأمم، لا فرق في ذلك بين عربي وأعجمي، أو أبيض وأسود، فأبطال ملاحم اليونان، لا يختلفون عن فرسان العرب في الجاهليّة، ولا شجعان قرطاجة أو روميّة، فالحرب هي الحرب، والنفس الإنسانيّة هي النفس الإنسانيّة، والعصبيّة هي العصبيّة، والفرق في التقييم نسبي طبعاً بين كلي الطرفين، فالمجرمون السافكون للدماء المدمّرون للعمران، في عرف كل شعوب قارة آسيا تقريباً، من أمثال (جنكيز خان) و أحفاده (هولاكو) و(تيمورلنك)، هم أبطال قوميّون تصنع لهم التماثيل والنصب التذكاريّة، في الدّول ذات التعصّب للقوميّة التركيّة وعلى رأسها مسقط رأسهم (دولة منغوليا).

وقد أخرج الإسلام القتال من هذه المفاهيم العصبية القوميّة أو الكسبيّة الدنيويّة، ليجعله عبادة من العبادات، كالصلاة والصيام والزكاة والحج، يشترط لصحّته ما يشترط في أي عبادة أخرى من إخلاص واتّباع، قال الله تعالى (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ)، كما قال (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ)، معطياً على القتال في سبيل الله ما يعطى على كل العبادات الأخرى من الجزاء، وهو الجنّة، رغم فضله عليها، فعن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: (قلت يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: الإيمان بالله، والجهاد في سبيل الله) [متفق عليه]، كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)، وقد حصر الإسلام القتال الشرعي في نطاق ضيّق ليمنع كلّ أسباب القتال الدنيويّة من الدخول في إطاره، كما في الحديث (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكْر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟) [البخاري]، وفي رواية أخرى (فقال: يا رسول الله ما القتال في سبيل الله؟ فإن أحدنا يقاتل غضبا، ويقاتل حميّة) [البخاري]، وفي أخرى (يقاتل شجاعة ، ويقاتل حميّة، ويقاتل رياء) [مسلم] ، واتفقت كل الروايات على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ردّ على السائل: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) [أخرجه البخاري]، وبهذا المعنى أجاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من سأل من الصحابة عن حقيقة الشهادة (فقال عمر: الله أعلم، أنّ من الناس ناساً يقاتلون وأنّ همّهم القتال فلا يستطيعون إلّا إيّاه، وأن من الناس ناساً يقاتلون رياءً وسمعةً، وأنّ من الناس ناساً يقاتلون ابتغاء وجه الله، فأولئك الشهداء، و كلّ امرئٍ منهم يبعث على الذي يموت عليه) [قال الذهبي: على شرط البخاري].

فهذا هو القتال الشرعي الوحيد، وغيره قتال أهل الجاهلية مهما تنوّعت غاياته، كطلب الغنيمة، والحميّة الجاهليّة (في سبيل رفعة قومه)، ولغضب نفسه، ولحبّه الذكر (الشهرة)، وليرى مكانه أو للرياء (كي ترتفع مكانة المقاتل في قومه)، أو للشجاعة (كأن يكون حبّ القتال طبيعة في الفرد)، وغير ذلك، فغايات العباد تتنوّع، ولكن الله عزّ وجل لا يقبل إلا ما خلص له، وهو أن يكون القتال لتكون كلمة الله هي العليا.

فالجهاد لمّا كان من أشقّ العبادات على النفس ومن أكثرها تعريضاً للنفس للهلكة، كان من الواجب توضيح أهدافه وغاياته للعاملين به، وعدم تركهم لأهواء أنفسهم، فيهلكونها في غير طاعة الله، فيخسرون الدنيا والآخرة، لا كما تفعل الجماعات والفصائل المنحرفة، التي تنتهج بتحريضها واستنفارها للناس جمع أكبر قدر ممكن من الناس ليخدموا الأهداف التي تسعى قيادات تلك الفصائل لتحقيقها، دون تعليم هؤلاء الجنود حقيقة ما يجب عليهم أن يجاهدوا من أجله ويموتوا في سبيله، وذلك خشيّة أن ينفضّ عنهم أهل الباطل إذا علموا أن القتال هو في سبيل إعلاء كلمة الله، أو ينفض عنهم أهل الحق إذا اكتشفوا أن القتال هو لإعلاء كلمة الفصيل أو الزعيم أو المرشد أو لإقامة نظام جاهلي جديد مكان الجاهليّة التي سيعملون على هدمها، أو نصرةً لأهل الباطل على أهل الحق، وتبقى هذه الجماعات تنقل جنودها وأنصارها من تيه إلى تيه، فلا يعلمون من غاية قتالهم إلا عموميّات يمكن للقيادات أن توظّفها في اتّجاهات شتّى، كأن تعلن قيادة الفصيل أن القتال هو في سبيل (إقامة دولة الحريّة والعدالة)، أو في سبيل (العدالة والتنمية) وما شابه، فإذا التفتوا إلى أنصارهم أو حلفائهم من العلمانيين قالوا: "نريد الدّولة الديموقراطية التي تحقّق الحريّة لكل أفراد الوطن ويتساوى فيها الناس أمام القانون"، وإذا التفتوا إلى من انخدع بشعاراتهم "الإسلاميّة" قالوا: "المقصود بالحرية والعدالة، هو الدّولة الإسلاميّة لأنها تعطي الحرية للمسلمين، وتحقق لهم العدالة بالشريعة".

وعوضاً عن التصريح بحقيقة المعركة ضد الطواغيت وأنّها جهاد في سبيل الله، انتشرت مصطلحات غريبة في وصف هذا القتال، ففي العراق وفلسطين وغيرها أشاعت الفصائل المقاتلة مصطلح "مقاومة الاحتلال" كبديل للجهاد في سبيل الله، مبرّرين ذلك بالرغبة في كسب تعاطف الناس من "غير المسلمين" وهم يريدون بذلك الكفّار والمرتدّين، وزادوا على مصيبة اصطلاحاتهم تبريرهم لقتال الصليبيّين بأن "مقاومة المحتل تقرّها كل الأديان السماويّة، والقوانين الوضعية"، وبذلك جعلوا من أديان أهل الكتاب المنحرفة التي وضعها لهم الأحبار والرهبان أدياناً مصدرها السماء، وأعطوا للقوانين الوضعية الطاغوتية شرعيّة الحكم على صحة الأفعال، وشابههم في ذلك أهل "الربيع العربي" بإطلاقهم مصطلح "الثورة على الاستبداد" عوضاً عن وصف الخروج على الطاغوت المبدّل لشرع الله بأنه جهاد في سبيل الله، مبرّرين ذلك بعدم استفزاز الغرب الصليبي الذي يطلبون نصرته والذي ترعبه كلمة الجهاد، وبالتالي ممكن أن يقف في صف النظام إذا سمّينا هذا الخروج على الحاكم الكافر بأنه جهاد في سبيل الله.

وفي نفس الوقت تجد الصنفين، قبلوا في صفوفهم كل من طلب ذلك، وإذا قتل أو مات أطلقوا عليه أوصاف الشهداء، مهما كانت عقيدته أو كان دينه، وكأنّهم لا يعرفون أنّه لا ينفع مع الكفر عمل صالح، وأن من خرج لأي غاية سوى أن تكون كلمة الله هي العليا، فلا يكون مجاهداً في سبيل الله، وإن مات أو قُتل، فهو قتيل في سبيل ما خرج لأجله، ولا يسمّى شهيداً.

أمّا النبي عليه الصلاة والسلام، فلم يكن ليخدع الناس أملاً في اكتساب مقاتلين جدد في صفّه، مهما بلغت الفائدة التي يعرض هؤلاء تقديمها، ومهما كانت الحاجة للاستفادة منهم، وحاشاه أن يفعل شيئا من ذلك، وذلك لعدم انتفاعهم بهذا القتال إن لم يكن شرعيّاً من جهة، ولعدم رغبته أن يكون لغير المسلم منّة أو فضل على هذا الدين، (خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بدر، فلما كان بحرة الوبرة أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين رأوه، فلما أدركه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: جئت لأتبعك وأصيب معك، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: تؤمن بالله ورسوله. قال: لا، قال: فارجع فلن أستعين بمشرك) [مسلم]، وظل يُرجع هذا الرجل الذي جاء يقاتل طلباً للغنيمة رغم شجاعته، حتى أعلن إسلامه فقبل انضمامه للجيش.

وهذا هو المنهج الإسلامي في حشد الأنصار واستنفار المسلمين للجهاد، أن يكون الحرص على إخراجهم من النار وإدخالهم إلى الجنة مقدّماً على الحرص على الاستكثار من الجند والمقاتلين، وإن في المنهج المتبع اليوم في انتساب المجاهدين إلى جيش الخلافة لسنّة حسنة، باستقبالهم أولاً في دورات شرعية تعلمهم التوحيد، وأساسيات فقه العبادات وفقه الجهاد وسوى ذلك مما يحتاجه المجاهد من أمر دينه قبل أن يلج ساحات الجهاد، فينتفع بإذن الله من جهاده إن أخلص النية لله، وتنتفع بجهاده الأمة طالما خرج مجاهداً لتكون كلمة الله هي العليا ▪



(إلّا ليعبدون) [٥]
قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض

إنّ من أكثر الأمور التي تدفع المجاهد لإخلاص نيّته في جهاده، وتصحيح غايته إلى أن تكون كلمة الله هي العليا، هو التذكير الدائم بالثمرة الوحيدة والغنيمة الكبرى التي يحرص أن لا تفوته في جهاده، ألا وهي الجنّة. وبمقدار انحراف قلب المجاهد عن هذه الغاية، يحدث الانحراف في نفسه وفي سلوكه بل وحتّى في غاية جهاده، لأنّه إن نقص في قلبه حب الجنّة والشوق إليها والحرص على تحصيلها، فلا شكّ أنّه سيملأ مكان هذا الحرص المحمود حرص من نوع آخر؛ هو حرص على الدنيا وزينتها، لذا على المجاهد أن يحرص كل الحرص أن يبقى قلبه متعلّقاً بطلب الجنة، ليبقى متعلقاً بالصراط المستقيم الذي يوصله إليها، فتراه يسأل نفسه عند كل سبيل تعرُض له: أهذه السبيل تؤدّي بي إلى الجنّة؟ فيندم على كل معصية اقترفها، وكل خير فاته بمقدار ما يظنّ أنّهما ستحددان من درجته في الجنّة لعلمه (إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض) [رواه البخاري]، فطالما أن المجاهد في سبيل الله قد عرض أغلى ما يملكه ليبلغ الجنّة، فإن من الخيبة ألّا يطلب عالي الدرجات ثمناً لأغلى الممتلكات، كما قال الشاعر:

إذا غامرت في شرفٍ مرومٍ ... فلا تطمع بما دون النجومِ
فطعم الموت في أمرٍ حقيرٍ ... كطعم الموت في أمرٍ عظيمِ

وعلى هذا كانت سنّة النبي -صلّى الله عليه وسلم- في تحريض أصحابه على الجهاد والقتال، سواء كان التحريض على الهجوم واقتحام صفوف العدو وطلب النكاية فيهم، أو كان للدعوة إلى الثبات والاستبسال في الدفاع عن الحرمات والذود عن الحياض، ويمكننا أن نضرب على ذلك مثالين من سيرته صلى الله عليه وسلم: الأول في غزوة بدر حيث كانت صيحة التحريض التي أطلقها النبي -عليه الصلاة والسلام- لأصحابه ليبدؤوا هجومهم "قوموا إلى جنّة عرضها السموات والأرض"، فأشعلت في قلوبهم جمرة لم تنطفئ نارها إلّا وهم قتلى، يستبطؤون الدقائق التي تفصلهم عن هذه الجنّة، (قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: «قوموا إلى جنّة عرضها السّموات والأرض»، قال يقول عمير بن الحمام الأنصاري يا رسول اللّه جنّة عرضها السّماوات والأرض قال «نعم»، قال بخٍ بخٍ، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: «ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ»، قال لا واللّه يا رسول اللّه إلاّ رجاءة أن أكون من أهلها، قال: « إنّك من أهلها». فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهنّ، ثمّ قال: لئن أنا حييت حتّى آكل تمراتي هذه إنّها لحياة طويلة – قال – فرمى بما كان معه من التّمر، ثمّ قاتلهم حتّى قتل) [رواه مسلم].

والمثال الثاني في غزوة أُحُد، لمّا اشتد الخطب على المسلمين، وبلغت القلوب الحناجر، وكاد المشركون أن تطال أيديهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأراد الرّسول عليه الصّلاة والسّلام أن يحرّض المجاهدين على ردّ المشركين عنهم، فلم يزد أن ذكرهم بما لهم إن فعلوا ذلك؛ وهو الجنّة، (عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه: أنّ رسول اللّه -صلى الله عليه وسلم- أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلمّا رهقوه قال: «من يردّهم عنّا وله الجنّة أو هو رفيقي في الجنّة؟»، فتقدّم رجل من الأنصار فقاتل حتّى قتل، ثمّ رهقوه أيضا فقال: «من يردّهم عنّا وله الجنّة أو هو رفيقي في الجنّة؟»، فتقدّم رجل من الأنصار فقاتل حتّى قتل فلم يزل كذلك حتّى قتل السّبعة، فقال رسول اللّه -صلى الله عليه وسلم- لصاحبيه: «ما أنصفنا أصحابنا») [رواه مسلم].

هذه الاستجابة الفريدة من الصحابة للتحريض على الجهاد، التي بلغت حدّ أن يستبطئ أحدهم المدّة القليلة التي سيقضيها في تناول التمرات، فيعتبرها فترة طويلة تفصله عن الجنّة إن بقي على قيد الحياة حتى يقضيها، وأن يندفع سبعة من المجاهدين في إثر بعضهم، وكلٌ منهم يرى أو يعرف مصرع من استجاب لتحريض النبي عليه الصلاة والسلام قبله، فلا يثنيه ذلك عن أن يقتل بعده، وهكذا حتى يهلكوا جميعهم، هذه الاستجابة لم تكن -ولا شك- وليدة اللحظة، بل هي نتيجة الارتباط الدائم في الذهن بين العمل الصالح وجزائه، واليقين بأن أعظم ما يناله المسلم لقاء عمله الصالح هو الجنّة، وأن حياته كلّها ما هي إلّا وسيلة لبلوغ الجنّة، فإن بذلها في أي لحظة من اللحظات وهو يعرف أنّه سينال ما تمنّى فقد حقّق غاية مراده من جهاده.

وعلى هذا المنهج يجب أن تسير الجماعة المسلمة في كل وقت وحين، فتكون الآخرة حاضرة في الخطابين التحريضي والدعوي، فلا يتحول التحريض على الجهاد بخلوه من الترغيب بما عند الله والحرص على التوكل عليه وحصره بالترغيب بالمجد والغنيمة والنكاية بالخصوم إلى ما يشبه الخطابات العاطفية التي يلقيها القادة والزعماء من كل الأمم حتى الجاهلية منها على الأنصار والمقاتلين ليزيدوا من حماستهم للقتال والفتك بالأعداء، ولا يجب أن تخلو دروس التوحيد والفقه من الارتباط بالغاية من تحقيق التوحيد وتصحيح العبادات وهي الجنة التي سيدخل الله فيها من يحقق ذلك.

فطالما أن الجنّة حاضرة في الذهن، والرغبة في الوصول إليها، والخوف من تفويتها أو تفويت درجاتها العليا، دائما الاتّقاد، وتوفّرت المعرفة بالطريق الصحيح لبلوغها، والعزيمة للسير على هذا الطريق الشاق، فإنّ الفلاح سيكون مرافقاً لهذا السالك، أما إذا اختلّ لديه أيٌ مما سبق فالانحراف والفشل والتراجع ستكون في الغالب نتائج تلحق به وتعيقه عن إكمال الطريق.

إن الاستشهادي على سبيل المثال نوع من الجنود فريد، لا يمكن تحصيله أو إنتاجه في أطول المعسكرات وأشقّها وأكثرها تعليماً، ولكن آية واحدة أو حديثاً أو أثراً مما يشوّق إلى الجنّة، ويدفع إلى طلب مرضاة الله، قد تنتج مثل هذا الجندي الفريد، الذي يمثل أسمى النماذج لحرص المجاهد على بلوغ غاية جهاده، واستعجاله ذلك، وطلبه بإلحاح وعزيمة.

إن الجنود الذين يعوَّل عليهم لإقامة دين الله كما أراد الله عزّ وجل لا يمكن إعدادهم إلا بتربية إيمانيّة حقيقيّة، يكون الترغيب بالجنّة والتخويف من النار من أهم أركانها، ويبنى على ذلك ما تبقّى من أسس الدين وأركانه، إذ حتّى توحيد الله لا يمكن بناؤه إلا على هذا الأساس، فالمسلم لا يلتزم طريق التوحيد الشاق، ويترك طرائق الشرك إن لم يكن قائده في ذلك طلب الجنة والاستعاذة من النار.

وليعلم المجاهد إن أعداء الدين قد يحقّقون بعضاً من غاية قتالهم، من استيلاءٍ على الأرض أو تقتيل للمجاهدين أو نهب للخيرات، ولكن ما لا يستطيعون بلوغه ولن يستطيعون بلوغه أبداً هو أن يقفوا حائلاً في طريق الجنّة، وهيّ غاية كل مجاهد في سبيل الله.

فمهما فقد من الأحباب، وغُلب في المعارك، وفاتته الغنائم، وتراجع عن المناطق التي كان يسيطر عليها، فسيبقى مستمسكاً بطريق الجهاد، لأنّه على يقين أنّه طريق الجنّة، التي إن لم ينلها في هذه الأرض، أو هذه المعركة، فلعلّه ينالها في أرض أخرى أو معركة أخرى، فيرفع الله مقامه فيها بما قام به من الصالحات، أو ناله من المصاعب والمشقّات في الفترة بين المعركتين، وأثناء انتقاله بين الأرضين ▪

أكفّاركم خير من أولئكم

الإسلام دين الله أنزله على رسوله الكريم محمد -صلى الله عليه وسلم- ليبلغه للعالمين، ولم يعط أحدا من البشر الحق في تغيير شيء منه زيادة أو نقصانا، كما لم يعط أحدا من البشر الحق في تجاوز حدوده، والتعدي على أحكامه، وجعل له أصولا، وأركانا، لا يقوم إلا بها، وحذّر الله -عز وجل- من نقضها أو ثلمها بما يذهب به دين المسلم، فقال سبحانه مخاطبا النبي صلى الله عليه وسلم: (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [سورة الزمر: 65]، كما حذّره من أن يتّبع أهواء الناس: (وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ) [سورة البقرة: 145]، هذا وأنبياء الله ورسله -عليهم الصلاة والسلام- معصومون، مبرؤون من الشرك وأهله، ولكن كانت هذه الآيات زجرا لمن هو دونهم من الخلق.

وكذلك بيّن الله أن العقاب مرتبط بالمعصية، فمن فعلها كان مستحقا للعذاب والعقاب من الله، لذلك أنزل لقريش يحذرهم وبال شركهم ومعصيتهم، بعدما قصّ عليهم نبأ من ناله العذاب قبلهم من أقوام نوح وصالح ولوط جزاء لما فعلوه من المعاصي: (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ) [سورة القمر: ٤٣]، قال القرطبي: «أي ليس كفاركم خيرا من كفار من تقدّم من الأمم الذين أُهلكوا بكفرهم» [الجامع لأحكام القرآن]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن اللّه أخبر أن سنّته لن تُبَدّل ولن تتحول، وسنّته عادته التي يسوِّي فيها بين الشيء وبين نظيره الماضي، وهذا يقتضي أنه سبحانه يحكم في الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة» [مجموع الفتاوى].

ومن المصائب التي ابتلي بها المسلمون في هذا الزمان وفي كل زمان، ما يرونه من تسلط بعض السفهاء على دين الإسلام، واتخاذه هزوا ولعبا، يقبلون منه ما اشتهوا، ويردّون منه ما كرهوا، بل والمصيبة الأكبر أنهم يجيزون لأنفسهم من المعاصي والضلال ما يحرّمونه على غيرهم، ويكفّرون أعداءهم ببعضها، فإن فعلها هم أو من يحبّونهم صارت أعمالا صالحة يُتقرّب بها إلى الله.

وقد كان هذا دأب أهل الضلال في كل حين، فنجد أن المشركين كانوا يفعلون الفواحش من البدع ثم ينسبونها إلى الله، كما في قوله تعالى: (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [سورة الأعراف: ٢٨]، ونجد الضالين من بني إسرائيل يأمرون الناس بالطاعات ولا يفعلونها، كما في قوله تعالى: (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) [سورة البقرة: ٤٤]، ونجد من زنادقة الصوفية من كان يكذب على الناس فيزعم أنه غير مكلف بالعبادات لأنه أقرب إلى الله من باقي العباد، واليوم صرنا نرى من الفصائل والأحزاب التي تنسب نفسها للإسلام العجب العجاب في هذا الباب.

فتجدهم يقاتلون بعض الطواغيت، ويكفّرونهم على أفعالهم، ثم تجدهم يفعلون نفس أفعال الطواغيت، دون أن ينكر بعضهم على بعض، بل تجدهم يبرّرون لأنفسهم ولأحبابهم، ويحرفون الكلم عن مواضعه ليجعلوا أفعالهم الكفرية موافقة للشريعة، بل ويجعلونها من الأعمال الصالحات، إن لم تصبح من الواجبات في بعض الأحيان، التي يؤثّمون تاركها.

وهذا التناقض الحاصل لدى القوم مردّه إلى أنهم لا يطبّقون الحكم الواحد على الحالتين بمنهج واحد، فالقانون الوضعي الذي تحكم به المحاكم في مناطق الضفة الغربية من فلسطين تحت حكم الطاغوت محمود عباس هو القانون الوضعي ذاته الذي تحكم به المحاكم في قطاع غزة تحت حكم طواغيت الإخوان من أمثال إسماعيل هنية وحزبه.

فعلى أي أساس إذن تكون الحكومة في الضفة الغربية طاغوتية مرتدة، وتكون الحكومة في قطاع غزة حكومة «شرعية»؟!

والحال مشابه في مصر، فالطاغوت حسني مبارك كان كافر مرتدا في نظر الأحزاب والفصائل، لأنه يحكم بغير ما أنزل الله، فلما نزع الله منه الملك، وصار الطاغوت محمد مرسي حاكما لمصر، حكم بالقانون الوضعي ذاته الذي كان يحكم به مبارك، ولكن الأحزاب والفصائل أعطت لمرسي وحكومته وصف «الشرعية»، بالرغم أن هذا الفعل المكفر الذي هو الحكم بالقانون الوضعي قد وقع من الطاغوتين كليهما.

على أي أساس يكون الطاغوت (حسني) مرتدا يجب على المسلمين الخروج عليه وجهاده وخلعه، ويكون الطاغوت (مرسي) مسلما يجب على المسلمين مناصرته، والدعاء له؟

فعلى أي أساس يكون الطاغوت (حسني) مرتدا يجب على المسلمين الخروج عليه وجهاده وخلعه، ويكون الطاغوت (مرسي) «مسلما» يجب على المسلمين تأييده ومناصرته، والدعاء له، والعمل على تثبيت حكمه، أو إعادته إليه بعد نزعه منه؟!

وإذا تابعنا نظرة كثير من تلك الفصائل والأحزاب إلى الديموقراطية نجد أنهم في الغالب يصرّحون بأن المجالس التشريعية أو البرلمانات هي مجالس كفرية لأنها تشرّع القوانين الوضعيّة التي يحكم بها الطواغيت، من حكام بغير ما أنزل الله، وقضاة في المحاكم الوضعية، وما شابه، وعليه فإنهم يكفّرون من يدخل تلك البرلمانات من الأحزاب العلمانية، والقوميين والعشائريين، وفي الوقت نفسه تتهافت تلك الفصائل والأحزاب على الترشح للدخول في تلك البرلمانات، وتخرج في مظاهرات، وتقوم بالثورات إذا منعت من ذلك، بل وتعطي لمشاركتها في هذا الشرك لقب «الجهاد السياسي» أو «جهاد الكلمة»، ومن يُقتل من أتباعها على يد الطواغيت وهو يطالب بالديموقرطية تعطيه لقب «الشهادة»!

على أي أساس يتم تقسيم أعضاء البرلمانات إلى قسمين، الأول يكون أهله طواغيت مشركين، والثاني منسوبين للإسلام؟

فعلى أي أساس يتم تقسيم أعضاء البرلمانات الذين جعلوا أنفسهم أندادا لله، بتشريعهم القوانين الوضعية إلى قسمين، الأول يكون أهله طواغيت مشركين، والثاني ينسب أهله إلى الإسلام زورا وبهتانا؟ وما من قانون تشرعه تلك البرلمانات إلا وكل أعضاء البرلمان مشتركون في إصداره، سواء منهم من وافق عليه، أو من اعترض، فهم قد اشتركوا في التشريع جميعا.

وإذا بحثنا في أحكام بعض أولئك الضالين في قضايا الولاء والبراء، نجد أنهم ألّفوا المؤلفات، ونشروا الخطب والمحاضرات والكلمات في تكفير طواغيت جزيرة العرب، بناء على موالاتهم للصليبيين في حربهم على المسلمين، وحرضوا المسلمين على الخروج عليهم، بل قاتلوهم قتال طائفة مرتدّة، وقد أصابوا في ذلك، فلما وقع بعض أوليائهم في الفعل ذاته صاروا مجتهدين متأوّلين، كما نرى اليوم في تولّي صحوات الشام للصليبيّين في قتالهم للدولة الإسلامية، بل بتنا نرى اليوم الفتاوى وهي تنهال من الشرق والغرب لتبرّر فعلهم، وتسمّيه بغير اسمه من قبيل أنه استعانة وليس إعانة، أو أنه مزامنة وليس معاونة، وغير ذلك من خدع التلاعب بالكلمات والحروف التي يخدعون بها السذج من جنودهم وأنصارهم.

فعلى أي أساس يكون الطواغيت من آل سعود كفارا مرتدين لقتالهم المسلمين إلى جانب الصليبيين، وإعانتهم عليهم، ودلّهم على عوراتهم، ويكون مرتدو صحوات الشام الذين يقاتلون الدولة الإسلامية تحت راية الصليب «مجاهدين» و«حماة للدين»؟ مع أن الاثنين وقعوا في الفعل ذاته ولديهما التأويلات الباطلة ذاتها التي يبرّرون بها موالاتهم للصليبيين، من قبيل أن من يحاربونهم من المسلمين «خوارج» أو «مفسدون في الأرض»، أو أنهم مضطرون لفعل ذلك دفعا لمفسدة أكبر، وغير ذلك من الأباطيل التي يروّجها علماء السلاطين على العامّة، وشرعيو الفصائل المرتدة على أتباعها.

فهذا غيض من فيض من الأمثلة والشواهد على تلاعب الفصائل والتنظيمات والأحزاب الضالة بأحكام الشريعة، وتناقضاتهم الفاضحة في أحكامهم على الأفعال، ومن يعمل بها، فإذا وقع غيرهم في الفعل المكفّر كان مستحقا لأن يقع حكم الكفر عليه، وإن وقعوا هم أو من يوالون في الفعل المكفر ذاته صار هذا الفعل «عملا صالحا»، مندوبا فعله أو «واجبا كفائيا تأثم الأمة المسلمة كلها إن تركته»، كما وصفه بعض أحبارهم.

ولو قلّب أتباع تلك الأحزاب، وجنود تلك التنظيمات، وأنصار تلك الفصائل أعينهم في الواقع، لوجدوا أنهم يعيشون في عالم من التناقضات، ولمّا كان قادتهم وشيوخهم المتبوعون يعلمون هذه الحقيقة، اجتهدوا في حل هذه التناقضات والتخلص من تلك الإشكالات، فلم يجدوا أفضل من الإرجاء وعقائده الضالة لتبرير انحرافاتهم.

فصاروا يشترطون شروطا غير شرعية لتكفير من يقع في تلك الأفعال الكفرية، من قبيل الإقرار اللساني باستحلال الفعل المكفّر، أو القصد القلبي للخروج من الإسلام، بل ومال بعضهم ليصيروا من غلاة الجهمية، بأن جعلوا مجرد معرفة حكم تلك الأفعال المكفّرة مانعا من تكفيرهم، وإن عملوا بها، فصاغوا بذلك دينا جديدا، يوافق أهواءهم، ويخدم ضلالهم، فيستخدمونه سلاحا ضد خصومهم وأعدائهم، ويتدرعون به هم وأولياؤهم من إنكار المنكرين لشركهم وضلالهم، ويخدعون به الجهلة والسفهاء من أتباعهم.

إن الإسلام دين يحكم على الأفعال، لا على التسميات والألقاب، فمن أشرك بالله، وقع عليه اسم الشرك إلا أن يكون مكرها، ونالته أحكام الإسلام في المشركين، مهما كان له من سابقة وبلاء في الإسلام، ومهما كثرت مبرّراته الباطلة، وليعلم كل امرئ أن هذا الدين لله، ليس ملكا لحزب أو تنظيم أو فصيل أو لشخص، فيصوغه كما يريد، ويتلاعب به كما يشاء.

وليعلم كل مسلم أنه باتباعه لأهواء الناس في شركهم بالله يكون مثلهم، مهما كانت بواعثه وتأويلاته، ومهما كانت المنافع الموهومة التي يُزيَّن بها الشرك، كما في قوله: (قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) [سورة الأنعام: ٥٦]، وقوله تعالى: (وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) [سورة البقرة : ١٢٠]، وقوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ) [سورة الرعد : ٣٧].

أكفّاركم خير من أولئكم (2)

لا يزال المسلمون يعيبون على علماء الطواغيت أنهم لا ينكرون من المنكر إلا ما يأذن به أسيادهم، ولا يجاهرون بالعداء إلا لمن تحرّشهم أجهزة المخابرات عليه، ولكننا بتنا في أيامنا هذه نجد أن هذا الأمر توسع ليشمل كثيرا من المنتسبين للإسلام والذين يعيشون تحت حكم الطواغيت من أفراد وجماعات.

فتراهم يبدون الحماسة للإسلام، ويزعمون عداءهم لأعداء الدين مهما كانت ألوانهم وأعراقهم وجنسياتهم، ويظهرون أنهم لا يخافون في الله لومة لائم، حتى إذا وُضِعوا على المحك، ومُحِّصت ادعاءاتهم، تجدهم لا يتحركون إلا في حدود رسمها لهم الطواغيت ومخابراتهم، ولا يخرجون من المجال الذي يأذنون لهم به، بل ستكتشف أن كثيرا من أفعالهم وتحركاتهم إنما كانت بتوجيه ورضا من أجهزة المخابرات لقادتهم وشيوخهم، وتكون نتيجتها في المحصلة في حرب المسلمين.

وإن من أشهر الأمثلة على ذلك قضية تعامل الناس مع الملحدين والمستهزئين بالله عز وجل، ورسله عليهم السلام، ودين الإسلام، والمسلمين.

وهناك من القصص المعروفة الكثير، أبرزها قصة الملحد المرتد سلمان رشدي، وقصص الرسوم الكاريكاتورية الدنماركية والفرنسية، وقصص إهانة المصحف من قبل الجنود الصليبيين.

وقد خصصنا بالذكر هذه القصص بسبب الغضبات الكبيرة التي أظهرها الناس ردا عليها، حيث خرجت المظاهرات في أكثر البلدان استنكارا لها، وأُحرقت أعلام الصليبيين، وأُطلقت الدعوات لجهاد الصليبيين، لاستهزاء رعاياهم بالدين، هذا عدا عن الدعوات الكثيرة لقتل الأفراد المستهزئين، والمكافآت الكبيرة التي وضعت لمن يغتالهم.

ولو دققنا في بعض ردود الأفعال تلك لوجدنا أنها لم تقم على أساس شرعي صحيح، بل كانت ردود الناس أكثرها استجابات حماسية لتحريض من حرضهم، ما لبثت أن خبت، وتناسى أصحابها الموضوع، وكأنه لم يكن، وعادوا إلى حياتهم الاعتيادية، بعد أن نفّسوا عن شيء من الغضب في داخلهم بالتظاهرات والصراخ.

وإلا لماذا يتظاهر الناس ضد سلمان رشدي المقيم في بريطانيا الصليبية لنشره كتابا يطعن في نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ويسعون لقتله، ومن أمثاله المئات بل الألوف من الكُتّاب العلمانيين والليبراليين يعيشون بين ظهورهم، ممن يقولون بكلام سلمان رشدي بل وبأشنع منه، ويصرحون بهذا الكلام على شاشات التلفاز، ويطبعون كتبهم ومقالاتهم ويوزعونها في بلدان المسلمين المسلوبة، دون أن تخرج ضدهم المظاهرات التي لا تغني ولا تسمن من جوع، أو توضع لمن يقتلهم المكافآت، بل وتجد الكثير من أولئك الغاضبين من يجالس صديقه أو قريبه الملحد، ويتعايش معه، بل ويسمع منه الطعن في الدين دون أن ينكر عليه.

وكيف يقصرون الدعوة لـ«الجهاد» على دولة الدنمارك الصليبية لأن أحد مواطنيها استهزأ بالنبي صلى الله عليه وسلم، مطالبين رئيس حكومتها بتقديم الاعتذار عن هذا الفعل!

وفي الوقت نفسه يسكت هؤلاء أنفسهم عن الطواغيت الحاكمين لبلدان المسلمين المسلوبة، الحامين للملحدين والعلمانيين والضالين، المرسخين للشرك وللاستهزاء بالدين، فلا يخرجون لجهاد هؤلاء الطواغيت، ولا يدعون لذلك، بل ولم نسمع يوما أن أحدا من علماء السوء كرر تلك المطالبات الباهتة، بأن يدعو طاغوتا لـ«الاعتذار» لأن أحد «مواطنيه» المرتدين من كاتب أو صحفي أو ممثل أو عالم ضلالة طعن في دين الإسلام، بل نجد أن أقصى ما يفعله هؤلاء الضالون أن يستجدوا الطاغوت لكي يكف أذى هذا الطاعن بالدين، من خلال منعه من هذا الفعل، رغم علمهم اليقيني أن هذا الطاغوت هو الذي يفسح المجال لأعداء الدين للطعن فيه، بل ويؤمن له الحماية إن تعرّض للخطر، ويعاقب بأشد العقوبات من يتجرأ على المس بهم أو إيذائهم.

كيف يحرض بعض الناس على قتل المرتد سلمان رشدي ويتركون آلاف المرتدين الطاعنين في الدين ممن يقيمون بين ظهورهم

فعلى أي أساس يُشرع الجهاد إذا طعن في الدين نصراني مشرك، يعيش في دولة صليبية كافرة، ويُمنع الجهاد إذا طعن في الدين مرتد يزعم الإسلام، يعيش في بلدان المسلمين المسلوبة؟ مع أن الأصل أن المرتد أولى بالقتل من النصراني المحارب، والطاغوت الحامي لمن يطعن في الدين أولى بالقتال من الدولة الصليبية التي تفعل ذلك.

ومن القصص الكثيرة المثيرة للسخرية، التي تدل على سفاهة كثير من هؤلاء الناس، أن تراهم يلعنون الطاعنين في الدين، ويترحمون على أوليائهم ويحبونهم حبا جما، ومن ذلك الفرح الظاهر بعملية الانتقام من صحيفة (شارلي إيبدو) الفرنسية التي استهزأت بالنبي عليه الصلاة والسلام، فلما كان الغد تسابق أولياء الصليبيين من الطواغيت والعلمانيين إلى إدانة الحادث والتضامن مع الصحيفة الطاعنة في الدين تحت شعار (كلنا شارلي)، مع ما يعنيه هذا الشعار من تبني لأفعالها الكفرية وموالاتها على هذا الأساس، بل وسافر بعض الطواغيت من أمثال أردوغان وعبد الله طاغوت الأردن آلاف الأميال ليحشروا أنفسهم في مسيرة تأييد للصحافة التي تطعن في دين الإسلام بمشاركة قادة الصليبيين المحاربين للإسلام.

ولم نسمع لأحد غضبة ضد الطاغوت أردوغان على فعلته الشنيعة تلك، بل على العكس لم تتوقف قصائد المديح التي يدبجّها الإخوان المرتدون، ومنظّرو الصحوات في هذا الحاكم بغير ما أنزل الله، الموالي للصليبيين.

إن دين الإسلام واضح بيّن كما قال عليه الصلاة والسلام: (لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلا هَالِكٌ)، وإن دين الله لا تناقض فيه، ولا محاباة في أحكامه، كما قال عليه الصلاة والسلام: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا)، فكيف بنا اليوم ونحن نشاهد هذا التناقض العجيب في حياة المنتسبين إلى الإسلام، وهذا التلاعب الكبير في أحكامه من قبل أدعياء العلم، ودعاة الضلالة؟

إن قتال من يطعن في دين الإسلام وقتلهم أمر مقرّر في الشريعة، لا يمكن لأحد أن يعارضه، كما في قوله تعالى (وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ) [سورة التوبة: ١٢]، وهذه الآية عامة في كل من يطعن في الدين، بل فيها نص أن الكافر المعاهد إذا طعن في الدين ينتقض عهده وأمانه ويجب قتاله، وإن المسلم الذي يطعن في الدين، أو يسبّ الله أو رسله عليهم الصلاة والسلام، أو يستهزئ بشيء من ذلك، ولو مازحا إنما يرتدّ عن دين الإسلام، ويباح دمه.

على المسلمين في كل مكان أن يشمّروا لقطف رؤوس كل من يطعن في الدين، أو يسب الله ورسوله، أو يستهزئ بالإسلام وشعائره وأحكامه

وإن الطاعنين في الدين المستهزئين بأحكامه وشعائره من العلمانيين والليبراليين وأنصار الطواغيت، وأتباع طوائف الشرك، وفرق الضلالة، هم من أولى الناس بالقتل والقتال، فهم من أئمة الكفر الذين أمر الله بقتالهم، وإن تسهيل الطواغيت لهم الطرق للطعن بالدين من خلال إعطائهم الحرية لفعل ذلك، وفتح المجال أمامهم لنشر كفرهم وضلالهم في الصحف والمجلات والكتب والمنشورات إنما هو زيادة في كفر الطواغيت، وموجب إضافي للخروج عليهم، وقتالهم، ونزع الحكم والسلطة من أيديهم.

وعلى المسلمين في كل مكان أن يشمّروا لقطف رؤوس كل من يطعن في الدين، أو يسب الله ورسوله، أو يستهزئ بالإسلام وشعائره وأحكامه والقائمين به، وعلى رأسهم الكُتّاب والصحفيون والممثلون والسياسيون ودعاة الضلالة، سواء كانوا من الكفار الأصليين أو المرتدين.

وبهذه الطريقة يرتدع هؤلاء وأمثالهم عن النيل من الإسلام وأهله تحت مسمّى حريّة التعبير، أو حريّة الصحافة أو ما شابه من سخافات الأحكام، فإنهم لا ينتهون إلا بالقتل والقتال، ولو أن كل من تطاول على الإسلام فُلقت رأسه برصاصة، أو حزّت عنقه بسكين، لما تجرأ من بعده على التطاول.

وأكبر الأمثلة على ذلك ما جرى ويجري في دار الإسلام اليوم، فالدولة الإسلامية بتحكيمها للشريعة وإقامتها للدين حرصت كل الحرص على حماية حمى الدين من طعن المنافقين، واستهزاء العابثين، فضربت عنق كل من سب الله ورسوله عليه الصلاة والسلام، فارتدع الناس بذلك، وصاروا يراقبون ألسنتهم مخافة أن تنطلق منها كلمة كفر فتؤدي بهم إلى الموت.

وفي الوقت نفسه هي حريصة كل الحرص على أن تقطف رأس كل من يحاول النيل من الإسلام ولو في أقصى الأرض، وتحرض جنودها على ذلك، وتحث المسلمين أن يقاتلوا المشركين والمرتدين كافة مهما تغيرت ألوانهم وأجناسهم وأماكن إقامتهم.

فأين أحفاد محمد بن مسلمة -رضي الله عنه- يحملون سيوفهم على أكتافهم ويتعقبون الطاعنين في الدين، والمستهزئين بأحكامه، والسابّين لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام، فيقتلونهم حيث ثقفوهم، وينالون رضوان الله -تبارك وتعالى- عنهم.

الجهادُ بالدُّعاء

الدعاء سلاحٌ قويٌّ ماضٍ فتاك، به تُكشف المصائب ويُمنع الهلاك، وبه يدافعُ المؤمن البلاء ويدفع كيد الأعداء، وبه تُستجلبُ النعم وتُستدفعُ النقم، وبه تفرَّجُ الهموم وتزول الغموم، والدعاء أخصُّ سمات العبادة، بل إن الدعاء هو العبادة، ففيه كمال الحب وكمال الذل، لله الواحد الحكم العدل، فيه يناجي العبدُ ربَّه، ويعترف بعجزه وضعفه، وهو سلوانٌ للقلوب شفاءٌ للصدور بلسمٌ للجروح تيسيرٌ للأمور، والدعاء حرزٌ ضليع وحصنٌ منيع، ولا شيء أكرم على الله من الدعاء وأعجز الناس من عجز عن الدعاء، فهو عبادة يسيرة، ميسورةٌ في الليل والنهار مبذولةٌ في البر والبحر مشروعةٌ في الإقامة والسفر، الداعون يفرُّون إلى الرحيم الرحمن العلام، ويتعلقون بربهم الملك القدوس السلام، فتراهم حال الدعاء منطرحين بين يدي أكرم الأكرمين، قاطعين صِلاتهم بالعالَم متوجهين لرب العالمين، متخلصين من رقِّ حاجة الناس ومِنَّتهم، مخلصين لربهم في التماسهم، طامعين بفضله عليهم...

هذا هو الدعاء، فما أحوج المسلم إليه في هذه الأيام التي تداعت فيها على جماعة المسلمين كل أمم الكفر وملله ونحله! فلْينتبه المجاهد في سبيل الله إلى أهمية هذا السلاح وضرورة الاهتمام به ووجوب إتقانه وترك التعلق بغير السميع المجيب، كما ولْيشارك كل مسلم ومسلمة في مجاهدة أعداء الله بهذا السلاح الرباني الناجع، قال صلى الله عليه وسلم: (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم) [حديث صحيح رواه أبو داود والنسائي]، ولا يقتصر الجهاد باللسان على التحريض على الجهاد ومدح المجاهدين وذم القعود وهجو الكافرين؛ بل إنَّ من أهمِّ أنواع جهاد اللسان: الدعاء، بأن يدعو المسلم على المشركين بالهزيمة وللمؤمنين بالنصر.

ويتأكد هذا النوع من الجهاد (الجهاد بالدعاء) بحق من لم ييسر الله لهم القتال في سبيله لأي عذرٍ من الأعذار الشرعية، كالمرأة والمريض والعاجز والمحبوس... فعلى هؤلاء الدعاء للغزاة في سبيل الله، لأن الله تعالى عندما عذرهم من القتال، اشترط عليهم لقبول عذرهم أن ينصحوا لله ولرسوله، ومن ذلك الدعاء لأولياء الله، أتباع رسوله -صلى الله عليه وسلم- قال تعالى: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ٩١].

من أعذره الله من الجهاد فلا عذر له في ترك الدعاء للمجاهدين بالثبات والفتح

بل إنَّ دعاء هؤلاء الضعفة من أهم أسباب انتصار المسلمين وهزيمة الكافرين، كما قال -صلى الله عليه وسلم- لسعد ابن أبي وقاص -رضي الله عنه- لما ظنَّ أن له فضلٌ على من سواه من ضعفاء المسلمين: (هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم) [رواه البخاري]، وفي رواية النسائي: (إنما يَنصرُ اللهُ هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم).

قال ابن حجر العسقلاني: «قال السهيلي: الجهاد تارة يكون بالسلاح وتارة بالدعاء» [فتح الباري]، وهذا من الأمور الظاهرة الثابتة، إلا أن في هذه الأيام بعض المهزوزين المنهزمين الذين استسلموا لهبل التكنولوجيا العسكرية وسلَّموا مقدَّماً بانتصار الحملة الصليبية على الدولة الإسلامية، تركوا الدعاء، وكأنَّه لا يجدي نفعاً، والعياذ بالله! وذلك السلوك الخاطئ لدى بعض الناس إنما سببه الجهل بهذا السلاح، فإنهم لو علموا أهمية الدعاء وعظيم آثاره وكيفيته وآدابه وسمعوا قصص استجابة الله تعالى لعباده، لما زهدوا فيه وتمسكوا بغيره.

وعلى العبد أن يعلم أن للدعاء ثمراتٍ عديدة وفضائل كثيرة تعزُّ على الحصر، منها: أنه امتثال لأمر الله عزَّ وجلَّ القائل: {وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [الأعراف: ٢٩]، {وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا} [الأعراف: ٥٦]، {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} [الأعراف: ٥٥]، وأن فيه كمال التوكل والذل والتواضع لله تعالى القائل: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: ٦٠]، ومنها: أنه سبب لدفع البلاء قبل نزوله، كما قال صلى الله عليه وسلم: (ولا يرد القدر إلا الدعاء) [حديث حسن رواه ابن ماجه وابن حبّان والحاكم] كما أنه سببٌ لرفع البلاء بعد نزوله، كما قال صلى الله عليه وسلم: (لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل، ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة) [حديث حسن رواه الحاكم]، ومنها: أنه سبب لحصول المطلوب في الدعاء، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها) [حديث صحيح رواه أحمد والحاكم]، وهكذا فإن للدعاء شأنٌ عظيم!

ولعل من أهم ثمرات الدعاء أنه سببٌ للثبات والنصر والظفر على العدو، وذلك ثابتٌ في الكتاب والسنَّة متواترٌ من سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم- وسيرة صحابته -رضي الله عنهم- ومن آثار السلف الصالح -رحمهم الله- ففي قصة قتال طالوت وجنوده المؤمنين وجالوت وجنوده الكافرين، ماذا فعل المؤمنون آنذاك وماذا كانت العاقبة؟ قال تعالى: {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٢٥٠]، دعاءٌ دعاه الموحدون قبيل وأثناء التحامهم بالمشركين، فاستجاب لهم الله تعالى فوراً، قال سبحانه: {فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ} [البقرة: ٢٥١].

وفي معركة بدر الكبرى، قام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليلة بدر يصلي، ويكثر في سجوده من الدعاء ويسأل الله النصر [البداية والنهاية]، ولما كان يوم بدر نظر النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيّف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل القبلة ثمَّ قال: (اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض)، فما زال يستغيث ربَّه ويدعوه، حتى سقط رداؤه عن منكبيه [رواه مسلم].

من السنة أن يدعو المجاهد لنفسه ولإخوانه قبل المعركة وأثناءها وبعدها

أما حال الصحابة في بدر فقد وصفهم الله تعالى بأنهم كانوا يستغيثون بالله ويدعونه، فقال سبحانه: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ} [الأنفال: ٩]، وبعد هذا الدعاء من النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن الصحابة -رضوان الله عليهم- ماذا كانت النتيجة؟ أمدَّهم الله بألفٍ من الملائكة مردفين، وأنزل السكينة عليهم، وثبت أقدامهم، وغشَّاهم بأمنة من النعاس، وأنزل عليهم من السماء ماءً طهرهم به، وأذهب عنهم رجز الشيطان، وربط على قلوبهم، وقذف الرعب في قلوب المشركين، فهزموهم بإذن الله.

وفي معركة الأحزاب (الخندق)، عندما حاصر المشركون المدينة حصاراً شديداً، واشتد على المسلمين الجوع والعطش والخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم وبلغت القلوب الحناجر، ابتهل النبي -صلى الله عليه وسلم- لربه وألح بالدعاء، وكان من دعائه عند حفر الخندق، قوله صلوات الله وسلامه عليه: (اللهم لولا أنت ما اهتدينا، ولا تصدقنا ولا صلينا، فأنزلن سكينة علينا، وثبت الأقدام إن لاقينا، إن الأعداء قد بغوا علينا، إذا أرادوا فتنة أبينا) [رواه البخاري]، ومن دعائه في محنة الحصار: (اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم، وانصرنا عليهم) [رواه البخاري ومسلم].

أما المسلمون فقد كانوا يسألون النبي -صلى الله عليه وسلم- بماذا يدعون ربهم، فعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: «قلنا يوم الخندق: يا رسول الله، هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر، قال: (نعم، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا)» [رواه أحمد].

فماذا حصل بعد هذه الأدعية المباركة؟! هبت ريح هوجاء في ليلة ظلماء، فقلبت قدور المشركين واقتلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم ودفنت رحالهم، فما كان منهم إلا أن نادوا بالرحيل، وفي ذلك يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً} [الأحزاب: ٩].

فإلى المسلمين المستضعفين في كل مكان، عليكم بالدعاء، عليكم بالدعاء، عليكم بالدعاء، ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، وسينجز الله وعده، ويهزم الأحزاب وحده، بحوله وقوته، تحقيقاً لا تعليقا.

الجهادُ بالدُّعاء (2)

الدعاء سلاح المؤمن، وهو نوعٌ من أنواع الجهاد في سبيل الله باللسان، ويتأكد بحق المستضعفين من المسلمين ومن لم ييسر الله لهم مباشرة القتال بالنفس والمال، وقد كان الدعاء سبب انتصار طالوت وجنوده الموحدين على جالوت وجنوده الكافرين كما في سورة البقرة، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أول ما يفزع إليه إذا داهم المسلمين عدو أو حاصرهم أو التحمت صفوفهم بالمشركين.

وكذا كان الصحابة -رضي الله عنهم- وتابعوهم، لا يلجؤون في معاركهم إلّا إلى ربِّهم، يتوكلون عليه، وينكسرون بين يديه، ويتضرعون إليه، ويتبرؤون من حولهم وقوتهم إلى حوله وقوته سبحانه، فما يلبثون إلا أن يثبِّتهم جلَّ جلاله، وينزّل عليهم السكينة، ويخذل عدوهم ويقذف في قلوبهم الرعب ويردَّهم مهزومين.

فهذا الصحابي الجليل النعمان بن مقرن، أرسله الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- على رأس جيشٍ لقتال الفرس الذين خرجوا بمائة وخمسين ألف مقاتل لغزو بلاد المسلمين عام ٢١ هـ، فالتقى الجمعان في منطقة نهاوند في بلاد فارس، وانتظر النعمان ليبدأ القتال في أحبِّ الساعات التي كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يتحين لقاء العدو فيها، وذلك عند الزوال، فلما كان قريباً من تلك الساعة ركب فرسه وسار في الناس ووقف على كل راية يذكّرهم ويحرّضهم ويعدهم الظفر، وقال لهم: «إني مكبّر ثلاثاً، فإذا كبَّرت الثالثة فإني حامل فاحملوا»، ثم دعا قائلاً: «اللهم أعزز دينك، وانصر عبادك، واجعل النعمان أول شهيدٍ اليوم، اللهم إني أسألك أن تقرَّ عيني بفتحٍ يكون فيه عز الإسلام، واقبضني شهيداً»، فبكى الناس وأمَّنوا على دعائه.

فماذا كانت العاقبة؟! فبعد أن اقتتلوا قتالاً شديداً، انهزم الفرس وقُتل منهم ما بين الزوال والإعتام ما ملأ أرض المعركة دماً يزلق به الناس والدواب، فلما أقرَّ الله عين النعمان بالفتح ورأى هزيمة المشركين؛ اصطفاه شهيداً في آخر المعركة استجابةً لدعوته [الكامل في التاريخ لابن الأثير].

ولو أتينا نتتبع آثار السلف الصالح في استخدامهم لسلاح الدعاء في معاركهم، وكيف أن الدعاء كان له الأثر البالغ في انتصاراتهم؛ لطال بنا المقام، فمن ذلك أن الفاتح الكبير القائد قتيبة بن مسلم الباهلي -رحمه الله- كان يصطحب معه في فتوحاته العلماء والفقهاء والعُبَّاد، يستنصر بدعائهم، ففي أواخر القرن الأول الهجري وفي إحدى غزواته، صافَّ قتيبة الترك، فهاله أمرهم وجموعهم وعدتهم؛ فبعث يسأل عن الإمام التابعي محمد بن واسع -رحمه الله- فقيل له: «هو ذاك في ميمنة الجيش متكئاً على قوسه رافعاً إصبعه يناجي ربه بالنصر على العدو»، فقال قتيبة قولته المشهورة: «تلك الإصبع أحبُّ إليَّ من مائة ألف سيف شهير وشاب طرير» [سير أعلام النبلاء]، وما قال ذلك واستبشر بالنصر إلا لعلمه بفضل سلاح الدعاء وأهميته، وبالفعل فإنه لما التقى جيش الترك المشركين وقاتلهم؛ فتح الله له وكسرهم، وأخذ البلاد منهم، وقتل منهم خلقا وأسر آخرين، وغنم أموالا كثيرة [البداية والنهاية].

وتعالوا بنا نقف مع فاتحٍ ثانٍ، إنه القائد البطل والي خراسان أسد بن عبد الله القسري -رحمه الله- ففي إحدى معاركه الطاحنة مع الترك عام ١١٩ هـ صلى بعسكر المسلمين الصبح ثم خطب بهم قائلاً: «إنَّ عدو الله الحارث بن سريج -وهو ممن خرج عن طاعة بني أمية في زمن هشام بن عبد الملك- استجلب طاغيته -يقصد خاقان الترك- ليطفئ نور الله ويبدل دينه، والله مذله إن شاء الله، وإنّ عدوكم الكلب أصاب من إخوانكم ما أصاب، وإن يرد الله نصركم لم تضركم قلتكم وكثرتهم، فاستنصروا الله»، ثم قال: «إنه بلغني أن العبد أقرب ما يكون إلى الله إذا وضع جبهته لله، وإني نازلٌ وواضعٌ جبهتي، فادعوا الله واسجدوا لربكم وأخلصوا له الدعاء».

ففعلوا ثم رفعوا رؤوسهم وهم لا يشكّون في الفتح، وساروا لقتال الترك المشركين، فلما وصلوا لبَلْخ -إحدى مدن خراسان- صلى بالناس ركعتين طوَّلهما، ثم نادى في الناس أن ادعوا الله، وأطال في الدعاء ودعا بالنصر وأمَّن الناس على دعائه، فقال: «نُصرتم وربِّ الكعبة إن شاء الله» ثلاث مرات.

فلما وصلوا للمشركين والمرتدين انهزم الحارث وولى خاقان مدبراً وتلاشى الترك في الأرض لا يلوون على أحد، فتبعهم المسلمون يقتلون من يقدرون عليه حتى انتهوا إلى أغنامهم، فاستاقوا أكثر من خمس وخمسين ومائة ألف شاة [تاريخ الطبري].

تلك كانت قبسات من مآثر أسلافنا التي نستلهم منها أن الدعاء أحد أهم أسباب النصر على العدو، متى ما تحققت فيه شروط الاستجابة وانتفت موانعها.

ومن أهم شروط استجابة الدعاء إخلاص الدعاء لله الواحد الأحد، ومنها: متابعة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في طريقة دعائه وكيفيته وتجنب البدع والمحدثات في الدعاء، ومنها: العزم والجزم، قال، صلى الله عليه وسلم: (إذا دعا أحدكم فليعزم في الدعاء، ولا يقل: اللهم إن شئت فأعطني) [متفق عليه]، ومنها: الثقة بإجابة الله تعالى للدعاء، قال صلى الله عليه وسلم: (فإذا سألتم الله فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإنَّ الله لا يستجيبُ لعبدٍ دعاءً من ظهرِ قلبٍ غافل) [رواه أحمد]، ومنها: الرغبة فيما عند الله تعالى من الثواب، والرهبة مما عنده من العقاب، وحضور القلب والخشوع، قال تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء: ٩٠].

كما أنَّ للدعاء آدابا ومستحبات، تجعل الدعاء أقرب للإجابة، منها: أن يكون الداعي طاهراً ويستقبل القبلة ويرفع يديه، ومنها أن يثني الداعي على الله -عز وجل- بما هو أهله ويصلي على النبي -صلى الله عليه وسلم- قبل الدعاء، ومنها: أن يقدِّم بين يدي دعائه عملاً صالحاً، ومنها: الإلحاح على الله في الطلب وتكراره ثلاثاً أو أكثر، والبكاء، ومنها: خفض الصوت بالدعاء إذا كان الداعي منفرداً، أما الإمام فلا بد من رفع صوته حتى يؤمّن الناس على دعائه، ومنها: تحري مواطن إجابة الدعاء، كالثلث الأخير من الليل وأدبار الصلوات المفروضة، وبين الأذان والإقامة، وعند نزول الغيث، وعند زحف الصفوف في سبيل الله، وعند التقائها، والساعة الأخيرة من يوم الجمعة، وفي السجود، وعند سماع صياح الديكة، وعند الفطر من الصوم، وفي السفر...

هذا وليحذر الداعي من موانع استجابة الدعاء، التي منها: دعاء غير الله تعالى والاستشفاع بالأموات والغائبين، فهذا شرك أكبر مخرج من الملّة، ومنها: التوسل إلى الله بأدعية بدعية، كدعاء الله سبحانه بجاه النبي -صلى الله عليه وسلم- قائلا: «اللهم أسألك بجاه نبيك»، ومنها: تحجير رحمة الله، كأن يقول الداعي: اللهم ارحم فلانا واغفر لفلان ولا ترحم وتغفر لفلان، ومنها: الدعاء بالإثم وقطيعة الرحم، ومنها: ارتكاب المعاصي وخاصةً أكل الحرام كالسرقة والربا والخمر والدخان، وقد ذكر رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟!) [رواه مسلم]، ومنها: ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يُستجاب لكم) [رواه الترمذي وحسنه].

كما على الداعي أن يتجنَّب مكروهات الدعاء، كالجهر الشديد بالصوت، فعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «نزلت هذه الآية {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا} في الدعاء» [متفق عليه]، ومنها: التكلُّف والتصنُّع باستخدام ألفاظ مسجوعة أو غير مفهومة للعامة، وإن كانت الفصاحة في الدعاء محمودة لكي لا يتأثر المعنى، لكنّ الخروج عن المألوف في ذلك مذموم، كونه يُذهب الخشوع ويلهي القلوب، ومنها: أن يطلب الداعي مسألة لا يليق طلبها، كأن يسأل الله تعالى أن يخلِّده في الدنيا، أو أن يطلب أن تكون منزلته مثل منزلة الأنبياء...

فيا جنود الدولة الإسلامية ويا أمراءها ويا رعاياها ويا مناصريها، ادعوا الله أن ينصر خلافتكم، وأن يهزم جالوت العصر أمريكا وجنودها، فالله مستجيبٌ دعاءكم ولو بعد حين .

دين الإسلام وجماعة المسلمين

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم، أما بعد:

هذه السلسلة في بيان حقيقة الإسلام وضرورة الجماعة، نسأل الله أن يفقّهنا وإيّاكم في الدين ويثبّتنا على لزوم جماعة المسلمين.

قال الله، جلّ وعلا: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [سورة المائدة: ٥]، وقال جلّ وعلا: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} [سورة آل عمران: ١٩]، وقال جلّ وعلا: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [سورة آل عمران: ٨٥].

فالدين الذي رضي الله للناس والذي لا يقبل منهم سواه هو الإسلام، وحقيقته لغة وشرعا: السلامة -أي الإخلاص- والاستسلام -أي الانقياد- لله.

قال أبو العباس بن تيمية، رحمه الله: «الإسلام هو الاستسلام لله وحده، ولفظ الإسلام يتضمّن الإسلام، ويتضمّن إخلاصه لله... فمن لم يستسلم له، لم يكن مسلما، ومن استسلم لغيره كما يستسلم له، لم يكن مسلما، ومن استسلم له وحده، فهو المسلم، كما في القرآن: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [سورة البقرة: ١١٢]، وقال: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} [سورة النساء: ١٢٥]» [النبوات].

> **من لم يستسلم لله لم يكن مسلما، ومن استسلم لغيره كما يستسلم له لم يكن مسلما، ومن استسلم له وحده فهو المسلم**

وقال رحمه الله: «الإسلام الذي هو دين الله الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله... هو أن يسلم العبد لله رب العالمين فيستسلم لله وحده لا شريك له ويكون سالما له بحيث يكون متألّها له غير متألّه لما سواه، كما بيّنته أفضل الكلام ورأس الإسلام وهو شهادة أن لا إله إلا الله؛ وله ضدان: الكبر والشرك، ولهذا رُوي أن نوحا -عليه السلام- أمر بنيه بلا إله إلا الله وسبحان الله ونهاهم عن الكبر والشرك [رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو]... فإن المستكبر عن عبادة الله لا يعبده فلا يكون مستسلما له، والذي يعبده ويعبد غيره يكون مشركا به فلا يكون سالما له بل يكون له فيه شرك؛ ولفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والسلامة التي هي الإخلاص» [الفتاوى]، «وكل واحد من المستكبرين والمشركين ليسوا مسلمين» [النبوات].

فلا يكون المرء مسلما إلا بالتزام الإسلام بهذين المعنَيين، فمن لم يستسلم لله -كمن ترك جنس العمل أو امتنع بشوكة عن بعض الشرائع الظاهرة المتواترة- لم يكن إلا كافرا، ومن لم يكن سالما لله -كمن عبد الأنبياء والأولياء مقلّدا ومتأوّلا- لم يكن إلا مشركا ولو صلى وصام وزعم أنه مسلم، وهذه الحقائق دلّت عليها شهادة أن لا إله إلا الله، قال أبو العباس بن تيمية، رحمه الله: «الإله هو المعبود المطاع» بحق [تيسير العزيز الحميد]، فلا معبود ولا مطاع بحق إلا الله، وهذه الكلمة متضمّنة لمعنَيي السلامة والاستسلام لله، وهي دعوة جميع الأنبياء والمرسلين إلى أقوامهم وأممهم.

قال أبو العباس بن تيمية، رحمه الله: «لفظ الإسلام... له معنيان، أحدهما: الدين المشترك وهو عبادة الله وحده لا شريك له الذي بعث به جميع الأنبياء، كما دل على اتحاد دينهم نصوص الكتاب والسنة، والثاني ما اختص به محمد، صلى الله عليه وسلم... وله مرتبتان: إحداهما الظاهر من القول والعمل وهي المباني الخمس، والثانية: أن يكون ذلك الظاهر مطابقا للباطن» [الفتاوى].

وهذه المباني الخمس التي هي حقيقة الإسلام قولا وعملا، ظاهرا وباطنا، بيّنها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بقوله: (بُني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان) [رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر]، وفي رواية: (بُني الإسلام على خمسة، على أن يوحّد الله) [رواه مسلم عن ابن عمر]، وفي رواية: (بُني الإسلام على خمس، على أن يُعبد الله، ويُكفر بما دونه) [رواه مسلم عن ابن عمر]، فلم يكن الإسلام الذي اختصت به شريعة محمد -صلى الله عليه وسلم- إسلاما من غير سلامة واستسلام لله، بل إن المباني الخمس شُرعت ليكون المرء سالما لله مستسلما له بالتزام التوحيد واتّباع الرسول -صلى الله عليه وسلم- والقيام بالمباني، وقال إسحاق بن راهويه، رحمه الله: «غلت المرجئة حتى صار من قولهم: من ترك المكتوبات، وصوم رمضان، والزكاة، والحج، وعامة الفرائض من غير جحود بها، إنّا لا نكفّره، ويُرجأ أمره إلى الله بعد إذ هو مقرّ [بها]؛ فهؤلاء المرجئة الذين لا شك فيهم» [مسائل حرب الكرماني].

ثم إن علاقة السلامة بالاستسلام بيّنها الله في آيات كثيرة من كتابه، منها أمره بقتال المشركين، قال جلّ وعلا: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [سورة التوبة: ١١]، قال الفضيل بن عياض -رحمه الله- بعد أن تلا الآية السابقة: «فالتوبة من الشرك جعلها الله -عز وجل- قولا وعملا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وقال أصحاب الرأي: ليس الصلاة ولا الزكاة ولا شيء من الفرائض من الإيمان، افتراء على الله -عز وجل- وخلافا لكتابه وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم- ولو كان القول كما يقولون لم يقاتل أبو بكر -رضي الله عنه- أهل الردة!» [السنة لعبد الله بن أحمد].

وأجمع الصحابة -رضي الله عنهم- على أنه لا إسلام بلا استسلام، فكفّروا تارك الصلاة كسلا -وهو تارك لجنس العمل- وكفّروا مانعي الزكاة -وهم ممتنعون بشوكة عن بعض الشرائع الظاهرة المتواترة- وخالفهم مرجئة الفقهاء في ذلك، فلم يعرفوا حقيقة الإسلام الذي رضيه الله للناس دينا، وكذلك أجمع الصحابة -رضي الله عنهم- على أنه لا إسلام بلا سلامة، فكفّروا صنف أهل الردة الذين عادوا إلى عبادة الأوثان -وهي أصنام وُضعت تصويرا للصالحين- ولم يجعلوا حداثة عهد الناس بالجاهلية وظهور الدجالين المتنبئين وتغلب مانعي الزكاة على ديار المسلمين موانع من تكفير أعيانهم، وخالفهم في ذلك جهمية العصر، الذين عارضوا قول الرسول، صلى الله عليه وسلم: (من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله، دخل الجنة) [رواه مسلم عن عثمان].

> **الإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله**

فلا يكون بنيان الإسلام من غير هذه المباني، ومن يستهين بركن منه، يوشك أن يسقط عليه البنيان، فإن سقط، هلك في الدنيا بالسيف قبل الآخرة بالنار، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (من بدّل دينه فاقتلوه) [رواه البخاري عن ابن عباس]، إلا أن أعظم هذه الأركان هو الركن الأول الذي لا يصح إسلام المرء من دونه أبدا، وهو شهادة التوحيد، شهادة أن لا إله إلا الله، أن لا معبود ولا مطاع بحق إلا الله، وهي متضمنة لتوحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات، قال أبو العباس بن تيمية، رحمه الله: «لا إله إلا الله: إثبات انفراده بالإلهية، والإلهية تتضمن كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته، ففيها إثبات إحسانه إلى العباد، فإن الإله هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يُعبد، وكونه يستحق أن يُعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع» [تيسير العزيز الحميد].

وشهادة أن لا إله إلا الله، هي شهادة الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، أن يُعبد الله وحده ويُكفر بما دونه، وهي ملة إبراهيم -عليه السلام- الذي أُمرنا باتباعه، والذي قال لقومه: {إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ} [سورة الممتحنة: ٤].

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب، رحمه الله: «[الإسلام] هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله» [ثلاثة الأصول].

فهو السلامة والاستسلام لله.

ولا يكون المرء مسلما ما لم يعبد الله وحده ويكفر بما دونه، كما بيّن ذلك حديث المباني الخمس: (بُني الإسلام على خمس، على أن يُعبد الله، ويُكفر بما دونه) [رواه مسلم عن ابن عمر]، فلا إسلام من غير عبادة الله (الاستسلام)، ولا إسلام من غير الكفر بالطاغوت (السلامة)، ولا يسلم المرء من رجس الشرك ونجاسة أهله ما لم يكفر بطواغيت زمانه، وبشركهم ومشركيهم، كالديمقراطيين والوطنيين والقوميين والقانونيين المرتدين عن الإسلام، ومن هؤلاء المرشّحين والمصوّتين في الانتخابات والاستفتاءات من الأحزاب «الإسلامية» المزعومة، والمتحاكمين إلى المحاكم الوضعية بدعوى المصلحة والضرورة، وعساكر الطاغوت وأنصاره من المجنَّدين و«المشايخ»، وطائفة «الإخوان المرتدين» وأحزابها وفصائلها وأخواتها التي جحدت التوحيد والشريعة والولاء والبراء والجهاد وامتنعت عن التزامها وحاربتها واستهزأت بها وظاهرت الصليبيين والطواغيت في الحرب عليها، بل يجب على المسلم أن يُظهر كفره بهؤلاء ما استطاع إلى ذلك سبيلا، بالقلم واللسان، والسيف والسنان، متّبعا في ذلك خليلَي الرحمن -عليهما أفضل الصلاة والسلام- والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

دين الإسلام وجماعة المسلمين (2)

بيّنا في الحلقة السابقة أن حقيقة الإسلام لغة وشرعا هي السلامة (أي الإخلاص) والاستسلام (أي الانقياد) لله، وأن المرء لا يكون مسلما ما لم يكن مستسلما لله، سالما له...

ومما يجب على المرء معرفته أن الله -جل وعلا- فرض على طوائف الناس السلامة والاستسلام له كما فرض ذلك على أفرادهم، ففرض عليهم الحكم بشرعه وحده، والتحاكم إليه وحده، والاحتساب على من خالفه، وقتال من امتنع عن بعضه، فيقاتلون الناس كافّة على هذا الدين بهذين المعنيين: السلامة والاستسلام لله، ولا يتركون قتالهم ما لم يلتزموا شرائع الإسلام طوعا، إلا إن قبلوا الجزية وخضعوا لحكم الإسلام كرها.

قال الله، جلّ وعلا: {فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [سورة التوبة: ٥]، وقال جلّ وعلا: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [سورة التوبة: ١١]، وقال جلّ وعلا: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ} [سورة البقرة: ١٩٣]، وقال جلّ وعلا: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [سورة الأنفال: ٣٩]، وقال جلّ وعلا: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [سورة النساء: ٧٦]، وقال جلّ وعلا: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [سورة التوبة: ٢٩].

أمر النبي -عليه الصلاة والسلام- بقتال الناس حتى يلتزموا بأركان الإسلام، وتابعه في ذلك خليفته أبو بكر الصديق

وأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بقتال الناس حتى يلتزموا أركان الإسلام الظاهرة، فقال صلى الله عليه وسلم: (إن رأس هذا الأمر أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وإن قوام هذا الأمر إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإن ذروة السنام منه الجهاد في سبيل الله، إنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، ويشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، فإذا فعلوا ذلك فقد اعتصموا وعصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله) [رواه أحمد عن معاذ]، وقال صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا، عصموا مني دماءهم، وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله) [رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر].

وأمر خليفته شيخ الإسلام أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- بمثله، فعن حنظلة بن علي بن الأسقع أن أبا بكر -رضي الله عنه- بعث خالد بن الوليد -رضي الله عنه- وأمره أن يقاتل الناس على خمس، فمن ترك واحدة من خمس، فقاتله عليها كما تقاتل على الخمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان [وحجّ البيت] [السنة للخلال وتاريخ الإسلام للذهبي].

وإنما كان الفرض أن يقاتِل أهلُ الإسلام أهلَ الإشراك من وراء راية واحدة، لا بفرق وأحزاب بلا جماعة ولا إمام، {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} [سورة الصف: ٤]، ولا يكون الصف الواحد والتمكين لدينه من غير ولاء وبراء، قال جلّ وعلا: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [سورة التوبة: ٧٢]، وقال جلّ وعلا: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} [سورة الأنفال: ٧٣]، وقال جلّ وعلا: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [سورة البقرة: ٢٥١]، وقال جلّ وعلا: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [سورة المائدة: ٥٤].

وهذه الجماعة التي فُرضت على المسلمين هي الخلافة القرشية التي أُمر حذيفة بن اليمان -رضي الله عنهما- بالتزامها، وقد بُنيت على أركان كما بُني الإسلام على أركان، قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن: السمع، والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثا جهنم)، فقال رجل: «يا رسول الله، وإن صلى وصام؟» قال: (وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله الذي سمّاكم المسلمين، المؤمنين، عباد الله) [رواه الترمذي عن الحارث الأشعري]، فجماعة المسلمين التي أُمرنا بالاعتصام بها والتزامها والعض عليها بالنواجذ والتي لا يظهر حكم الإسلام في الأرض إلا بها بُنيت على خمسة أركان بعد أركان الإسلام: الهجرة والسمع والطاعة والجماعة والجهاد، ولا سمع ولا طاعة ولا جماعة من غير بيعة وإمام، ولا هجرة من غير إيواء ونصرة، ولا جهاد من غير إعداد ورباط وقتال.

وقال المهدي المُحدَّث عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: «إنه لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بطاعة» [سنن الدارمي].

ولأهمية جماعة المسلمين في ظهور دين الإسلام، كانت الدعوة إلى أركانها بعد الدعوة إلى أركان الإسلام، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: (اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال -أو خلال- فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك، فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين) [رواه مسلم عن بريدة]، فمن لم يهاجر، كان كالأعراب، و{الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِه} [سورة التوبة: ٩٧]، وقال جلّ وعلا: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [سورة الأنفال: ٧٢]، وقال جلّ وعلا: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ} الآية [سورة الأنفال: ٧٤-٧٥].

قال عليه الصلاة والسلام: «فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع، فاضربوه بالسيف كائنا من كان»

ولأهمية جماعة المسلمين، حذّر النبي -صلى الله عليه وسلم- من الخروج منها، فقال صلى الله عليه وسلم: (من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية) [رواه مسلم عن أبي هريرة]، وقال صلى الله عليه وسلم: (من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبرا، فمات، فميتة جاهلية) [رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس]، وقال صلى الله عليه وسلم: (من خلع يدا من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية) [رواه مسلم عن ابن عمر].

بل لأهمية جماعة المسلمين، أباح النبي -صلى الله عليه سلم- دم من شق صفها، فقال صلى الله عليه وسلم: (إنه ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع، فاضربوه بالسيف كائنا من كان) [رواه مسلم عن عرفجة]، وفي رواية: (من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد، يريد أن يشق عصاكم، أو يفرق جماعتكم، فاقتلوه)، وقال صلى الله عليه وسلم: (إذا بويع لخليفتين، فاقتلوا الآخر منهما) [رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري]، وقال صلى الله عليه وسلم: (لا يحل دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة) [رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود].

ومن نعمة المولى على الموحّدين أن جدّد لهم هذه الجماعة -من غير حول منهم ولا قوّة- بعد قرون من غيابها، وكانت حقا قبل ذلك الفريضة الغائبة في عنق كل مسلم، يُحاسب على تفريطه في السعي لتجديدها، فعلى كل موحّد أن يشكر ربه قولا وعملا، بالتحدّث بهذه النعمة في المجالس الخاصّة والعامّة، {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} [سورة الضحى: ١١]، وبالحفاظ على هذه النعمة والدفاع عنها والقتال دونها والتزام أركانها -الهجرة والسمع والطاعة والجماعة والجهاد- ولوازم هذه الأركان -الإيواء والنصرة والبيعة والإعداد والرباط- ليزيدهم الله من فضله، قال جلّ وعلا: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [سورة إبراهيم: ٧].

اللهم افتح على أيدينا القسطنطينية ورومية، واجعلنا من عبادك الصابرين الشاكرين، آمين.

دين الإسلام وجماعة المسلمين (3)

آيتان في كتاب الله -جل وعلا- لا يُعرض عن تدبّرهما وتأويلهما مَن مَنَّ الله عليه بنعمة من عنده إلا كان إعراضه حسرة عليه في الدنيا والآخرة، قال الله، جل وعلا: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: 7]، وقال جلّ وعلا: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} [الضحى: 11].

قال الربيع -رحمه الله- في تأويل قوله {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ}: «أخبرهم موسى -عليه السلام- عن ربه -عز وجل- أنهم إن شكروا النعمة زادهم من فضله وأوسع لهم في الرزق وأظهرهم على العالمين»، وقال سفيان الثوري، رحمه الله: «{لَئِنْ شَكَرْتُمْ} هذه النعمة أنها مني {لَأَزِيدَنَّكُمْ} من طاعتي»، وقال قتادة، رحمه الله: «حق على الله أن يعطي من سأله ويزيد من شكره والله منعم يحب الشاكرين فاشكروا لله نعمه»، وقال جعفر الصادق، رحمه الله: «إذا أنعم الله عليك بنعمة فأحببت بقاءها ودوامها فأكثر من الحمد والشكر عليها»، ورُوي مرفوعا: (من أُلهم الشكر لم يُحرم الزيادة).

وأوّل السلف -رضي الله عنهم ورحمهم- النعمة في قوله {بِنِعْمَةِ رَبِّكَ} بأنها القرآن العظيم ونبوّة الرسول -صلى الله عليه وسلم- والعمل الصالح وإصابة الخير، فهي شاملة لنعمة الدنيا والآخرة، إلَّا أن أعظم نعم الله على الإنسان هدايتُه إلى الإسلام، فبغير هذه النعمة (السلامة -أي الإخلاص- والاستسلام لله) يكون صدره ضيقا، ومعيشه ضنكا، وسعيه في ضلال، ثم لا يكلّمه الله يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزكّيه وله عذاب أليم، فيخسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين،

كان الاستضعاف والفتنة والابتلاء شديداً على الموحد المجاهد قبل نعمة الجماعة

وأما نعمة الجماعة، نعمة الاستخلاف في الأرض، نعمة التمكين للدين، فبغيرها يستضعف المرء ويبتلي ويفتن وتأكله الذئاب ثم يموت ميتة جاهلية، والعياذ بالله.

وأما قوله {فَحَدِّثْ}، فقال عمر بن عبد العزيز، رحمه الله: «إنّ ذِكر النعمة شُكر»، وقال الجريري ويحيى بن سعيد، رحمهما الله: «كان يُقال: إن تعداد النعم من الشكر»، وقال قتادة، رحمه الله: «مِن شُكر النعمة إفشاؤها»، وقال الفضيل بن عياض، رحمه الله: «كان يُقال: مِن شُكر النعمة أن يُحدّث بها»، وقال الحسن بن علي، رضي الله عنهما: «إذا أصبت خيرا فحدّث إخوانك»، وقال أبو نضرة، رحمه الله: «كان المسلمون يرون أن مِن شُكر النعمة أن يُحدّث بها»، وقال ابن أبي الحواري، رحمه الله: «جلس فضيل بن عياض وسفيان بن عيينة ليلة إلى الصباح يتذاكران النعم، فجعل سفيان يقول: أنعم الله علينا في كذا، أنعم الله علينا في كذا، فعل بنا كذا، فعل بنا كذا»!

ورُوي مرفوعا: (من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدّث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب)، و(من أُبلي بلاءً -أي: من أُنعم نعمةً- فذكره فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره، ومن تحلّى بما لم يُعط فإنه كلابس ثوبي زور)، و(من أُعطي عطاء فوجد فليجز به، فإن لم يجد فليُثن به، فمن أثنى به فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره).

الله أكبر، كم على الموحد المجاهد أن يشكر ربّه على ما أنعم به عليه بالإسلام والجماعة! فلولا الله، لكان عابدا لطواغيت القصور والقبور، ولولا الله، لكان متّبعا لعلماء الطواغيت ودعاة الجهمية، ولولا الله، لكان مخنّثا ديّوثا قاعداً مع الخوالف، ولولا الله، لكان مقيماً في دار الكفر بين ظهراني الشُّرط والقُضاة والعرفاء والجواسيس والعساكر وغيرهم من المرتدين أو بين ظهراني اليهود والنصارى والمجوس والملاحدة وغيرهم من الكافرين، ولولا الله، لكان من البغاة أو الخوارج أو غيرهم من أهل الفرق والبدع والضلال.

فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وكم كان الاستضعاف والفتنة والابتلاء شديداً على الموحد المجاهد قبل نعمة الجماعة! فلا مدارس ليدرّس أبناءه فيها، ولا علماء ليطلب العلم عندهم، ولا محاكم ليتحاكم إليها -فهو موحّد، يكفر بمحاكم الطواغيت- ولا مساكن ليسكن فيها آمنا مطمئنا، ولا ديار يلتجئ إليها من الطواغيت ولا معسكرات ليعدّ العدة فيها إلا في الكهوف أو الغابات أو الصحاري بعيدا عن فريضة الجماعة بمفهومها السلفي، أي: الخلافة.

وكان إذا أظهر ملّة إبراهيم بين ظهراني الكافرين والمرتدين ودعا إليها أو سعى في الإعداد والجهاد لإرهاب الأعداء، نام وهو لا يدري أيصبح في البيت مع أهل بيته أم في زنزانة مظلمة تحت الأرض؟.

هكذا كانت حياته، ثم أنعم الله عليه بالجماعة، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، {وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [الأنفال: ٢٦].

وهذه النعمة التي يتنعّم بها الآن تستوجب عليه الشكر ظاهرا وباطنا، سرا وعلانية، بين الخاصّة والعامّة، فلا يترك أهل بيته دون تذكيرهم بها، ولا يترك أصحابه دون التحدّث بها، ولا يترك العوام دون إفشائها بينهم، فيثني على الله الذي قضى هذه النعمة وقدّرها له ومنّ عليه بها، ويحمده سبحانه عليها، فلا حول ولا قوّة إلا بالحيّ القيوم، ثم يدعو للسابقين من الأمراء والجنود -خاصة الشهداء منهم- كالشيخ أبي مصعب الزرقاوي والشيخ أبي حمزة المهاجر والشيخ أبي عمر البغدادي والشيخ أبي بكر العراقي والشيخ أبي عبد الرحمن البيلاوي والشيخ أبي المعتز القرشي والشيخ أبي علي الأنباري والشيخ عمر الشيشاني -تقبلهم الله- نحسبهم والله حسيبهم ولا نزكي على الله أحدا، ومن لم يشكر الناس، لم يشكر الله.

بل لو سهر الرجل الليالي كما فعل الإمامان الفضيل وسفيان -في تعداد نعم الله عليه بالخلافة وآثارها- لكان قليلا، {وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم: ٣٤].

ومن نعم الله على الموحِّد المجاهد أن أحياه إلى هذا الزمن حتى جدّد الله بجهاده الخلافة وجعله من حرّاسها المرابطين بثغورها، قال أبو العباس بن تيمية، رحمه الله: «واعلموا -أصلحكم الله- أن مِن أعظم النعم على من أراد الله به خيرا، أن أحياه إلى هذا الوقت الذي يجدد الله فيه الدين ويحيي فيه شعار المسلمين وأحوال المؤمنين والمجاهدين، حتى يكون شبيها بالسابقين الأولين من المهاجرين

من نعم الله على الموحِّد المجاهد أن أحياه حتى جدّد الله بجهاده الخلافة وجعله من حرّاسها المرابطين على ثغورها

والأنصار، فمن قام في هذا الوقت بذلك كان من التابعين لهم بإحسان، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، وأعدَّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها أبدا، ذلك الفوز العظيم، فينبغي للمؤمنين أن يشكروا الله تعالى على هذه المحنة التي حقيقتها منحة كريمة من الله، وهذه الفتنة التي في باطنها نعمة جسيمة، حتى -والله- لو كان السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار -كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم- حاضرين في هذا الزمان لكان من أفضل أعمالهم جهاد هؤلاء القوم المجرمين، ولا يفوت مثل هذه الغزاة إلا من خسرت تجارتُه وسفه نفسَه وحُرِم حظا عظيما من الدنيا والآخرة» [الفتاوى].

فهي نعمة ونعمة ونعمة، نعمة الإسلام ونعمة الجماعة ونعمة الجهاد ونعمة الشهادة إن شاء الله تعالى.

ومن كفران هذه النعمة: الاعتزال، والعصيان، والتناجي، والإشاعة، وإساءة الظن، وازدراء الأمير، ونكث العهد، والسعي في الفتنة والفساد، والإباق إلى دار الكفر، والتعصب للاجتهاد والرأي والهوى، والبغي، والخروج، وتكفير جماعة المسلمين وأئمتهم وعامّتهم، وقد أحسن أئمة الدولة الإسلامية في تحذيرهم من هذه المهالك، كما في «واعتصموا» للشيخ الزرقاوي، و«الوصية الثلاثينية» للشيخ أبي حمزة المهاجر، و«إنما شفاء العيّ السؤال» للشيخ ميسرة الغريب -تقبّلهم الله- ومَن أورد هذه المخاطر وأصرّ على ضلاله، فلا يلومنّ إلّا نفسه إن حرّم الله عليه نعمة الإسلام جزاء كفرانه لنعمة الجماعة، وقال جلّ وعلا: {وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [البقرة: ٢١١]، وقال: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: ٧].

ومن أسوأ كفران النعمة، نسبة النعمة إلى النفس وجُهدها، {فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: ٤٩]، وإمام هذا الكفران العظيم ومُسنّ هذه السنّة السيّئة هو الهالك قارون الذي خسف الله به وبداره الأرض.

وأما السنّة الحسنة، فهي معرفة العبد أن جميع ما يتنعّم به من نعم الدنيا والدين فمن الله وحده لا شريك له، لا بحول العبد ولا بقوّته، وقد رُوي أن داود -عليه السلام- قال: «يا رب، كيف أطيق شكرك وأنت الذي تنعم عليّ، ثم ترزقني على النعمة، ثم تزيدني نعمة نعمة، فالنعم منك يا رب، والشكر منك، فكيف أطيق شكرك يا رب؟» فأوحى الله إليه: «الآن عرفتني يا داود حق معرفتي»، ورُوي أيضا أنه قال: «إلهي، كيف لي أن أشكرك، وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك؟» فأوحى الله إليه: «يا داود، ألست تعلم أن الذي بك من النعم مني؟» قال: «بلى، أي رب»، قال: «فإني أرضى بذلك منك شكرا» [الزهد للإمام أحمد بن حنبل].

ومما يثبِّت هذه المعرفة والحقيقة في قلب العبد، تدبّره لآيتين من كتاب الله، جل وعلا: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [الحجرات: ١٧]، و{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: ٤٣].

اللهم كما مننت علينا بالإسلام والجماعة في الدنيا، فمُنّ علينا برؤيتك ورضاك في الآخرة.

دين الإسلام وجماعة المسلمين (4)

إنّ الله هو الحَكَم وإليه الحُكْم

إن كلمة التوحيد -لا إله إلا الله- التي تنفي الإلهية عما سوى الله، وتثبتها لله وحده، تبطل جميع أنواع الشرك الأكبر -في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات- فإن الإله هو الذي يستحق أن يُعبد ويُطاع لـ «ما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع» [تيسير العزيز الحميد]، فمن لم يُفرد الله بالإلهية بجميع أنواع العبادة والطاعة، ناقض شهادة التوحيد، وكذّب عمليا ما ادعاه من توحيد الربوبية والأسماء والصفات.

ومن أنواع العبادة التي أفرد الله -جل وعلا- لها الذكر في كتابه وفي سنّة نبيّه -صلى الله عليه وسلم- العبادة بالتحاكم إليه وحده والحكم بما شرعه وحده، وهي مقتضى إيمان المرء بأن الله هو {أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ} [هود: ٤٥] و{خَيْرُ الْفَاصِلِينَ} [الأنعام: ٥٧]، وأنه لا أعدل منه كلمةً ولا أحسن منه حكما وأنه ليس له شريك في التشريع، فمن أشرك في حكمه أحدا، ناقض شهادة التوحيد، وكذّب عمليا ما ادعاه من توحيد الربوبية والأسماء والصفات، والأدلة على توحيد الحكم والتشريع كثيرة جدا.

قال الشنقيطي: «الإشراك بالله في حكمه كالإشراك به في عبادته، قال في حكمه: {وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} [الكهف: ٢٦]، وفي قراءة ابن عامر من السبعة {وَلَا تُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} بصيغة النهي؛ وقال في الإشراك به في عبادته: {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: ١١٠]، فالأمران سواء كما ترى إيضاحه إن شاء الله» [أضواء البيان].

وقال أيضا: «وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الحكم لله وحده لا شريك له فيه على كلتا القراءتين جاء مبينا في آيات أخر»، ثم ذكر منها قوله تعالى: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف: ٤٠]، وقوله: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة: ٥٠]، وقوله: {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا} [الأنعام: ١١٤].

الإشراك بالله في حكمه كالإشراك بالله في عبادته

ثم قال: «ويُفهم من هذه الآيات... أن متبعي أحكام المشرعين غير ما شرعه الله أنهم مشركون بالله، وهذا المفهوم جاء مبينا في آيات أخر، كقوله فيمن اتبع تشريع الشيطان في إباحة الميتة بدعوى أنها ذبيحة الله: {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [الأنعام: ١٢١]، فصرح بأنهم مشركون بطاعتهم، وهذا الإشراك في الطاعة، واتباع التشريع المخالف لما شرعه الله تعالى هو المراد بعبادة الشيطان في قوله تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ} [يس: ٦٠-٦١]».

ثم قال: «ولذا سمى الله تعالى الذين يطاعون فيما زينوا من المعاصي شركاء، في قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [الأنعام: ١٣٧]، وقد بين النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا لعدي بن حاتم -رضي الله عنه- لما سأله عن قوله تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ} [التوبة: ٣١]، فبيّن له أنهم أحلّوا لهم ما حرّم الله، وحرّموا عليهم ما أحلّ الله فاتّبعوهم في ذلك، وأن ذلك هو اتخاذهم إياهم أربابا، ومن أصرح الأدلة في هذا، أن الله -جل وعلا- في سورة النساء بيّن أن من يريدون أن يتحاكموا إلى غير ما شرعه الله يتعجب من زعمهم أنهم مؤمنون، وما ذلك إلا لأن دعواهم الإيمان مع إرادة التحاكم إلى الطاغوت بالغة من الكذب ما يحصل منه العجب، وذلك في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء: ٦٠]، وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور، أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله -جل وعلا- على ألسنة رسله -صلى الله عليهم وسلم- أنه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته، وأعماه عن نور الوحي مثلهم» [أضواء البيان].

وأما قوله، جل وعلا: {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا} [الأنعام: ١١٤]، ففي تدبرها فوائد كثيرة، قال الشنقيطي: «ذكر بعض أهل العلم [كصاحب «البحر المحيط»] أن بعض الكفار طلبوا [من] النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يتحاكم معهم إلى بعض الكهان، كما كانت عادة العرب إذا تنازعوا واختلفوا، تحاكموا إلى بعض الكهنة، والعياذ بالله»، فأنزل الله -جل وعلا- هذه الآية وأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- «أن ينكر كل الإنكار على من يبتغي حَكَما غير خالق السماوات والأرض الذي هو الحكم العدل اللطيف الخبير» [العذب النَمير].

وجاء مثل هذه الآية في سورة الأنعام قوله سبحانه: {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام: ١٤]، وقوله تعالى: {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [الأنعام: ١٦٤]، وقال -جل وعلا- في سورة الأعراف: {قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ١٤٠].

قال ابن القيم، رحمه الله: «الرضا بالله ربّاً، أن لا يتخذ ربّاً غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره، وينزل به حوائجه، قال الله تعالى: {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ} [الأنعام: ١٦٤]، قال ابن عباس، رضي الله عنهما: سيدا وإلها؛ يعني فكيف أطلب ربّاً غيره، وهو ربّ كل شيء؟ وقال في أول السورة: {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الأنعام: ١٤]، يعني معبودا وناصرا ومعينا وملجأ، وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة، وقال في وسطها {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا} [الأنعام: ١١٤]، أي: أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟ ... وأنت إذا تأمّلت هذه الآيات الثلاث حق التأمل، رأيتها هي نفس الرضا بالله ربّاً، وبالإسلام دينا، وبمحمد -صلى الله عليه وسلم- رسولا، ورأيت الحديث يترجم عنها، ومشتقا منها؛ فكثير من الناس يرضى بالله ربّاً، ولا يبغي ربّاً سواه، لكنه لا يرضى به وحده وليا وناصرا، بل يوالي من دونه أولياء، ظنا منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك، وهذا عين الشرك، بل التوحيد أن لا يتخذ من دونه أولياء، والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء... وكثير من الناس يبتغي غيره حكما، يتحاكم إليه، ويخاصم إليه، ويرضى بحكمه، وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد؛ أن لا يتخذ سواه ربّاً، ولا إلهاً، ولا غيره حَكَماً» [مدارج السالكين].

من استسلم لحكم الطواغيت فهو مؤمن بالطاغوت عابد له

فمن ابتغى حَكَما سوى الله كان مشركا مؤمنا بالطاغوت عابدا له كالذي ابتغى سواه ربّاً أو إلهاً أو وليّاً.

مما يؤكّد هذا أن الله حكم بأن من اتخذ غيره مشرّعا فقد جعله ندّا لله، لا فرق بينه وبين من جعل له شريكا في الدعاء أو الشفاعة، فقال جل وعلا: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} [الأنعام: ٩٤]، وقال جلّ وعلا: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا} [الفاطر: ٤٠]، وقال جلّ وعلا: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الشورى: ٢١].

أيضا، إن الله -جل وعلا- جعل توحيد الحكم والتشريع حجة على من لم يوحّده في العبادة والنسك كما جعل توحيد الربوبية والأسماء والصفات حجة على من جحد توحيد الألوهية، قال سبحانه على لسان يوسف، عليه السلام: {يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف: ٣٩-٤٠]، وقال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [الشعراء: ٦٩-٨٣].

ولما تكنّى أحد الصحابة -رضي الله عنهم- بـ «أبي الحَكَم»، نهاه النبي -صلى الله عليه وسلم- عن ذلك، قائلا: (إن الله هو الحَكَم، وإليه الحُكْم) [رواه أبو داود والنسائي عن أبي شريح].

وأما من استسلم لحكم الطاغوت وتشريعه -كالمصوّتين في الانتخابات والاستفتاءات الديمقراطية والمتحاكمين إلى محاكم القوانين الوضعية- فهم مؤمنون بالطاغوت عابدون له خارجون عن أصل الإسلام -شهادة أن لا إله إلا الله، أن لا معبود ولا مُطاع بحق إلا الله- وحقيقته -السلامة (أي الإخلاص) والاستسلام لله- ومن عدّ هؤلاء مسلمين موحّدين مجتنبين للطاغوت كافرين به، فليراجع دين الإسلام قبل حلول رمسه.

ربّنا أفرغ علينا صبرا وتوفّنا مسلمين وألحقنا بالصالحين.

رموز .. أم أوثان



إن من أهم صفات أهل الجاهلية في كل العصور أن تجد أن لكل قبيلة من القبائل أو جماعة من الناس وثنا خاصا بها تتميز به عن غيرها من الجماعات، فتعظمه وتنتسب إليه من دون أوثان سواها، وتتفاخر به على أوثان أعدائها، وتصل بهم الحال أن يكون شعار الانتماء إلى هذه الجماعة من البشر تعظيم هذا الوثن من دون الله، عز وجل، فيكتسب كل من الوثن والجماعة من الآخر قوته وتعظيمه بين الناس، فإما أن يكون هذا الوثن معظما بين كم كبير من الجماعات، فتكتسب الجماعة التي تقوم على خدمته أو يرتبط بها ذكره الكثير من القوة والسلطة بذلك، أو تكون الجماعة من القوة بحيث تفرض تعظيم وتقديس وثنها على بقية الجماعات، وهو الغالب إذ إن تقديس هذا الوثن يحمل في جوانبه غالبا أهدافا سياسية بحيث يكون الخضوع له خضوعا للجماعة التي تزعم الارتباط به، والقيام بأمره، وحيازة الصنم الذي يمثله، وأسرار التخاطب المزعوم معه من قبل كهانها، ولذلك نجد أن ما من أمة من الأمم يزول ملكها إلا زالت مع الملك أوثانها واندثرت أصنامها ليعبد الجاهليون وثنا آخر يكون في الغالب وثن الأمة التي ورثت الغلبة والظفر.

وربما تكون قصة أبرهة الحبشي مع الكعبة خير مثال على ذلك، إذ بنى كنيسته في اليمن ليجذب العرب إلى تعظيمها وبالتالي إخضاعهم لسطوته، فلما رأى إعراضهم عنها وارتباطهم بالكعبة وما فيها من أوثان في ذلك الحين، جرد جيشا جرارا لهدمها وإزالة الأوثان التي فيها المنافسة لوثنه المعبود من دون الله تعالى.

وقد أرسل الله تعالى رسوله -عليه الصلاة والسلام- بالحق لينهى الناس عن عبادة كل تلك الأوثان ويدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، سبحانه، وفي دعوته إلى نبذ الشرك تستوي عبادة كل ما عُبد من دون الله تعالى، سواءً كان نبيا مرسلا أم ملكا مقربا أم عبدا صالحا أم حاكما متجبرا أم كاهنا كذابا أم قانونا متبعا أم قبرا معظما أو شجرة أو صخرة متبرك بهما أو شيطانا مخوفا وما شابه.

وكما هي سنة الله -سبحانه- في الأمم التي خلت من قبل، فإن الناس لا يلبثون إذا طال عليهم الأمد أن يَخلَق عندهم التوحيد فيعودوا إلى تجديد الشرك ونصب الطواغيت، وعبادتهم من دون الله تعالى، بل ودعوة الناس إلى عبادتها.

ومن أبرز صور شرك المشركين اتخاذهم من يرون فيهم الخير من العبّاد الزهّاد آلهة، يبدؤون أولا بتصوير هؤلاء العبّاد كأصنام باعتبار صورهم تذكر الناس بعبادة الزهّاد لله -تعالى- وتثبت من يراها على الطريق الذي سلكوه، ثم يتحول المعظّمين إلى أوثان تُعبد من دون الله سبحانه، تُطلب منهم الشفاعة ويُذبح لهم ويُنذر لهم إلخ، وفي ظن المشركين أنهم يتقربون بذلك إلى الله تعالى، ويرفضون تسمية أفعالهم شركا بالله، كما في قولهم: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}، وقولهم: {هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ}، ويدافعون عن معبوداتهم هذه أشد الدفاع ويرفضون كل من ينهاهم عنها، كما في قولهم: {لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا}، بل ويتبعهم في ذلك من أتباعهم من ازدادوا كفرا بجعلهم اتباع الآباء وطاعتهم دينا ينهاهم عن طاعة الله عز وجل، كما قال الله -تعالى- فيهم: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا}، وقد أبطل الله دعواهم تلك بقوله: {أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ}، قال ابن العربي في تفسير هذه الآية: «قولهم: وجدنا عليه آباءنا، فنحن نقتدي بهم في أفعالهم، ونمتثل ما شاهدناه من أعمالهم، ولم يثبت عندهم أن آباءهم بالهدى عاملون، وعن غير الحق معصومون، ونسوا أن الباطل جائز عليهم» [أحكام القرآن].

وإننا نجد اليوم أن أفراد كثير من التنظيمات والفصائل والأحزاب التي تزعم السعي لإقامة الدين وتطبيق الشريعة، قد حذوا حذو من قبلهم في تعظيم من يرونه من عباد الله الصالحين، لعلمه بالشريعة، أو حسن جهاده، أو لصبره على مالقيه من البلاء من الطواغيت، أو لفصاحة خطابه وحسن التعبير في كتاباته، أو حتى لمجرد شهرته وشيوع اسمه بين الناس، والزيادة في توقيرهم عن الحد الجائز شرعا، برفع صورهم، وتلقيبهم بألقاب التعظيم المبالغ فيها، وجعل كلامهم وأحكامهم فوق كلام الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، وإن كانوا يدّعون أن كلامهم مبني عليهما، بل وإطلاق مسمى «المنهج» على أقوالهم وأفعالهم وأحكامهم، وتدوين هذه «المناهج» وتدريسها للأجيال المتعاقبة في هذه الأحزاب على أنها الصراط المستقيم، والسبيل القويم لتحصيل رضا رب العالمين، وبتنا نسمع تسمية هؤلاء الأشخاص «رموزاً» لهذه الحركة أو تلك،

إن الناس إذا طال عليهم الأمد يَخلَق عندهم التوحيد فيعودون إلى تجديد الشرك ونصب الطواغيت

وصرنا نرى الاستنكار لأي نقد لهؤلاء «الرموز» بدرجة تفوق الاستنكار على من يطعن في دين الله وشعائره، حتى لكأن هؤلاء «الرموز» من الأحياء والأموات حلّوا عند أولئك الضالين مكان الكتاب والسنة، فمن ينتقص من قدرهم أو يرد كلامهم، فهو الذي يريد أن ينقض عرى الإسلام.

وصرنا نرى من حال هؤلاء «الرموز» المعبودين، أن لكل حزب «رمزا» أو مجموعة من «الرموز»، كما كان لكل قبيلة من قبائل الجاهليين وثن أو مجموعة من الأوثان، وكل حزب يسعى جهده لتعظيم «رموزه» في أعين الناس، وهو يرى أنه سيزيد من أتباعه بمقدار ما يزيد من تعظيم الناس «لرموز» حزبه وتنظيمه، لذلك يكثرون من إضفاء الألقاب والأوصاف لهؤلاء «الرموز»، والاستدلال بأفعالهم على كل ما يريدون اتخاذه من قرارات، فيكفيهم لذلك أن شيخهم أو رأسهم قد فعل ذلك أو أقره أو أمر به، ليكون مباحا أو واجبا، دون النظر فيما يُحتج به من الأدلة الشرعية، بل وبات الحال أن يتنازع الناس على هذا «الرمز» أو ذاك وكل منهم يزعم أنه الوارث لإرثه، والمتبع لسنته، والسائر على نهجه، والأمين على رسالته، فوصل الأمر ببعضهم إلى «بابيّة» معاصرة، شبيهة بما لدى الرافضة والباطنية -أخزاهم الله تعالى- الذين يقدسون بعض شيوخهم وعلمائهم بزعم أنهم الأبواب إلى أئمتهم من آل البيت الذين يزعمون أنهم أحياء بعد موتهم يتواصلون مع الناس عن طريق هؤلاء الأبواب، وذلك بأن يعلن بعض أفراد هذه الأحزاب أن الوصي على منهج «الرمز» والحامي للحزب أو التنظيم أو الفصيل من الانحراف عن منهجه.

صار لكل حزب «رمز» أو مجموعة من «الرموز»، كما كان لكل قبيلة من قبائل الجاهليين وثن أو مجموعة من الأوثان

إن ارتباط الحزب أو التنظيم أو الفصيل بشخصيات «الرموز» وحرصه على الاستقواء بهم إنما هو سمة عامة لأهل الضلال، لأن المسلم يعلم أن الكتاب والسنة هما الركن الشديد الذي يُلجأ إليه في إثبات صحة دعواه، فمن أعياه من أهل الضلال إيجاد الدليل الشرعي لجأ إلى الاستدلال البدعي على «صحة» منهجه، كما تفعل الأحزاب الضالة اليوم باستنادها في إثبات «صحة» منهجها بالمشاهير من «رموزها»، الذين لو بحثنا في حقائقهم لوجدنا أن منهم المبتدع الضال، بل منهم من تلبس بردّة صريحة، أو تستدل على «صحة» منهجها بحجم تضحيات السابقين من أفرادها، وعدد من قتل وسجن منهم، أو بعدد أتباعها وحجم انتشار أفكارها، وكل هذه الأمور لا تغني من الحق شيئا.

فالمسلم يقيس «الرموز» بمقياس الدين، ولا يقيس دينه على مقياس «الرموز»، ويعرف قدر «الرموز» بمقدار اتباعهم للحق، لا أن يبحث عن الحق في أقوال «الرموز» وأفعالهم، ويسعى لأن يكون عبدا لله -عز وجل- لا عبدا للحزب والتنظيم و«رموزهم»، وتابعا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- لا لمنهج الفصيل والحركة.

لقد كثرت «الرموز» اليوم، وباتت أكثر من أوثان المشركين في الجاهلية، وكلٌ من الناس يدعو إلى «رمزه» كما كان الجاهليون يدعون الناس لعبادة أوثانهم، فكل الأحزاب أو التنظيمات صارت «رموزا»، وقادة ورؤوس كل منها «رموز»، وكتبها ومناهجها «رموز»، فإلى أيّ منها يميل المسلم، وبأيها يرتبط، وأيها يتبع؟

سيجيب الجميع: ما وافق منها الكتاب والسنة، إذن فلنتبع الكتاب والسنة، ولندع «الرموز».

رموز .. أم أوثان (2)

لا يمكن إحصاء الدعوات التي خرجت خلال القرن الأخير من عمر الأمة تطالب بنبذ التقليد، وحصر الاتّباع برسول الله صلى الله عليه وسلم، فهاجمت التعصب الأعمى للمذاهب الفقهية، وسعت إلى هدم التقديس الشركي لشيوخ الطرق الصوفية، ودعت المسلمين إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة، وقد حققت هذه الدعوات على اختلاف غاياتها نتائج كبيرة في هذا المجال، ولكن ما اتضح من تعقب مآلات هذه الدعوات أنها فشلت في تحقيق الاستمرارية في نتائجها، وذلك بسبب عودة الناس إلى اتخاذ متبوعين جدد استبدلوهم مكان المتبوعين السابقين الذين خرجت الدعوات السالفة لنقض اتباعهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن أتباع غالبية تلك الدعوات بعد فترة قصيرة من انطلاقها صاروا يتخذون لأنفسهم متبوعين يقلدونهم ويقدسونهم ويغالون فيهم محبة وطاعة، بل وتعدى بهم الأمر أن يقوموا بدعوة الناس لاتباع من قدسوه وغلوا فيه، بعد أن دعوهم لعقود إلى ترك من اتبعوهم من العلماء والرؤساء.

ولو تتبعنا الأمر أكثر لوجدنا أن تفسيره كامن في طبائع النفس البشرية، فالعصبية للجماعة التي ينسب الإنسان نفسه إليها، والمفاخرة بهذه الجماعة ومن ينتمي إليها أو يقودها، والتنافس في ذلك مع المنتسبين للجماعات الأخرى هي أمور موجودة في طبيعة الإنسان من الصعب عليه الانفكاك عنها، إلا على من رحم الله، وكذلك فإن إخلاص التوحيد لله وإحكام تنقية القلب من الأنداد هو من أشق الأمور على النفس، لذلك قال الله تعالى {وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون}.

فهذه الأحزاب أو الفصائل أو التنظيمات تقع بالضرورة في منافسة مع غيرها سواء من الحلفاء أو الأعداء، وتحاول أن تستقوي عليهم بأي وسيلة ممكنة في يدها، حتى ما يخالف الشرع منها، أو يخالف أصول دعوتها فإنها تتحايل على نفسها وأتباعها لتستفيد منها في تدعيم صفها الداخلي، أو تقوية موقفها الخارجي، ومن تلك الوسائل الشائعة في لعبة المنافسة هذه اتخاذ «الرموز»، ومبارزة المنافسين بها فخرا وتعظيما.

التنظيمات دعت الناس إلى ترك تقليد متبوعيهم لتطلب منهم اتباع رموزها

وتزداد أهمية هذه الوسيلة عند الجماعات الضالة عندما تتهم من قبل منافسيها بالافتقار إلى نوع معين من الأفراد فيها، سواء كانوا من العلماء أو القادة الدهاة الحكماء، أو المقاتلين الخبراء الأقوياء، أو حتى من أهل الحرف والصناعات، وأرباب الاختصاصات العلمية والشهادات، فترتفع قيمة هؤلاء في أوساط تنظيماتهم بأن يظهروا للناس صدق دعوتهم، أو صواب خطتهم، أو قوة جماعتهم، بعدد وحجم «الرموز» المنضمين إليها، أو المادحين لها ولسيرتها، وبحسب أهداف الجماعة أو التنظيم ترتفع أسهم «الرموز» الذين يجذبون المستهدفين من دعوته، المطلوب انضمامهم إلى صفوفها، أو على الأقل ضمان تأييدهم لها.

وفي حال افتقار الفصيل أو الحزب الضال إلى «رموز» يبني عليهم بنيانه المتهالك، فإن قادته تنتابهم عقدة النقص إزاء الفصائل الأخرى التي تمتلك «رموزاً» مشهورين يقبل عليهم الناس ويتعلقون بالتنظيم بسببهم، لذلك يسعون جهدهم إلى استقطاب «الرموز» إلى حزبهم، أو تصنيع «الرموز» عن طريق اختيار بعض الأفراد الموثوق بولائهم للفصيل، ثم إشهارهم إعلاميا، والنفخ في صفاتهم، وتكبير أسمائهم، وتحويلهم إلى «رموز»، لتتعلق بهم قلوب الأنصار، ويكونوا بمثابة الأوتاد الذين يثبت كل منهم جانبا من جوانب الحزب عن طريق شد قسم من الأنصار إليه، في حين يقوم «الزعيم الأوحد» للفصيل مقام العمود الذي ينتصب به قوام التنظيم، الذي يتم ترفيعه أيضا ورفع سوية الغلو فيه عند أعضاء الحزب في سبيل النهوض أكثر بالتنظيم الذي يقوم بكامله على الأشخاص و«الرموز»، أما منهج التنظيم وعقيدته، فتكون غالبا منهج وعقيدة «الرموز» لا أكثر.

إن الحزب أو التنظيم الذي يزعم الانتساب إلى الإسلام، بوصوله إلى هذه الحالة من التبعية «للرموز» فإنه فضلا عن الضلال المبين الذي وقع فيه، وساق إليه الناس بتشريعه الغلو في الرجال ورفعهم فوق مقام البشر، والدفع نحو تعبيد الناس لهم بالطاعة في المعروف والمنكر، فإن هذا الفصيل إنما يحفر قبره بيديه، وذلك بأن يصبح التنظيم ككل بعقيدته ومنهجه وسياسته وأفراده كله مرتبط بهؤلاء «الرموز»، بعد أن بذل جهدا كبيرا لربط الناس بهم.

وتأتي خطورة «الرموز» على التنظيم وأفراده من حرفهم عن المنهج الإسلامي في التلقي والحكم والاتباع، وإبعادهم عن الكتاب والسنة، بأن يتحول الحق كلّه إلى جانب «الرموز» فيخسر الأفراد دينهم ويتحول التنظيم بذلك إلى ما يشبه زوايا الصوفية التي قوام الدين فيها تقديس مشايخها، وسلوك طريقتهم المبتدعة في الوصول إلى الله.

ومن جانب آخر فإن عقيدة التنظيم ومنهجه تصبح كلها رهينة لأهواء «الرموز» وآرائهم، وخاصة «الرموز» الكبار الموتى، حيث يلجأ التنظيم إلى تبرير كل أقوالهم وأفعالهم، خوفا من إسقاطهم وبالتالي سقوط التنظيم بكاملة من أعين الناس، بعدما بنوا كل بنيانهم على هذا الجرف الهار الذي يسمونه «رموز».

أما «الرموز» الأحياء فإن خطرهم على هذه التنظيمات الضالة أشد وأكبر، من حيث خوف قيادتها ووجلها الدائم من إغضاب هؤلاء «الرموز» خشية تركهم للحزب، وبالتالي سيتبعهم في ذلك الآلاف من المناصرين الذين ارتبطوا بهذا «الرمز» أو ذاك، لذا يتحول هؤلاء إلى مراكز قوى داخل الفصيل، وتضعف قدرة قيادة الحزب على اتخاذ أي قرار مصيري دون أخذ إذنهم، والتاريخ شاهد على أن أحد أهم الأسباب في تفكك التجمعات البشرية هو «الرموز» وانشقاقاتهم التي تمزّق الجماعات وتدمّر الأحزاب والتنظيمات.

جماعة المسلمين تقوم على المنهج الرباني، الذي أساسه أن لا طاعة مطلقة إلا لله، وأن الاتباع المطلق لا يكون إلا لرسول الله

وكذلك فإن الطواغيت وأعداء الإسلام بمعرفتهم لهذه الحقائق يسهل عليهم حرف الأحزاب والتنظيمات بالسيطرة على هؤلاء «الرموز» عن طريق الترغيب أو الترهيب أو التضليل، وما قصص التراجعات في السجون بعيدة عنا، حيث تمكنت أجهزة المخابرات من القضاء على بعض التنظيمات بسهولة من خلال السيطرة على «رموزها» المعتقلين لديها، الذين أصدروا «المراجعات» التي يتبرؤون فيها من قتالهم للطواغيت، ويضعون لأتباعهم مناهج جديدة في العمل تخدم الطواغيت وترضيهم، وفي المحصلة ينحرف التنظيم أو الحزب بكامله عن منهجه الأصلي بسبب رغبة «رموزه» في جلب منفعة أو دفع مفسدة عن أنفسهم أو عن غيرهم.

إن جماعة المسلمين تقوم على المنهج الرباني، الذي أساسه أن لا طاعة مطلقة إلا لله عز وجل، وأن الاتباع المطلق لا يكون إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن انتصارها يكون بصحة منهجها وصدق أفرادها وقادتها في جهادهم، وأن ذلك الانتصار لا يقف وراءه عدة ولا عتاد ولا «رموز» بل هو محض فضل الله عليهم، وبربط الجماعة أفرادها بهذه الحقائق تحفظ لهم دينهم، وتبنى الجماعة على أساس متين، بحيث لا يضرها من ضل من أفرادها مهما بلغ من القدر أو العلم أو القدم في صفوفها، ولا يكون فعل أو قول أو رأي أي من أفرادها حجة عليها، بل تقوم بمحاسبتهم بناء على الأساس الشرعي الذي قامت عليه.

فإن ثبتت الجماعة المسلمة على هذا السبيل، فإنها ستضمن لنفسها البقاء بإذن الله، ولن يتمكن أحد من أفرادها من التسلق إلى المجد على أكتاف الصادقين، كما لن يكون فيها مكان للمنظرين الخاملين الذين يعتقد كل منهم أن مجرد انتسابه إليها منّة يمن بها على الجماعة، وأن الجماعة وأفرادها يجب أن يكونوا تبعا له ولهواه، كيفما دار يدوران معه، ومتى ما ركنت الجماعة إلى ما في صفوفها من «رموز» جعل الله عذابها على أيديهم، وهزيمتها بسببهم، والله لا يهدي القوم الضالين.

رموز .. أم أوثان (3)

كثيرة هي التماثيل في العالم، وإن كانت تتفاضل في مادة صنعها وجودة نحتها وتصويرها، ولكن قليل منها ما اتخذه الناس أصناما تعبد، فالتمثال لا يتحول إلى صنم من تلقاء نفسه إنما بوجود من يعبده، وكذلك «الرموز» التي يتخذها الناس، فهم كباقي البشر وإن كانوا يتفاضلون في صفاتهم، ولكن ما يجعل منهم «رموزا» من دون الناس هو تعلق قلوب وأبصار الناس بهم، وطاعتهم، واتباعهم، والاستدلال بسيرهم على صحة الطريق والمنهج.

وإننا نجد في صفحات التاريخ أن مزاج الناس في اختيار «الرموز» يتغير بحسب الظروف التي يعيشونها وما تتطلبه هذه الظروف، ففي زمن الحرب يكون «الرموز» هم الأبطال المحاربون الذين يقهرون الأعداء، وفي زمن القحط والجوع يكون «الرمز» واحدا من الكرماء الذين يجودون بمالهم لإطعام الفقراء والمحتاجين، وفي زمان السلم والرفاه يكون أهل العلم والأدب والعمران هم «الرموز» الذين يرتفع شأنهم ويشير إليهم الناس بالبنان، وهذا ما يمكننا أن نعممه على كل الظروف التي تفرز احتياجات خاصة، من يلبيها يمكن أن يصبح «رمزا» في عيون الناس، لذلك يتمسك بعض «الرموز» بحال معينة، أو يسعى لأن تسود ظروف معينة يكون له فيها الأفضلية على غيره، فيحافظ بذلك على ميزته «الرمزية»، أو يقوم البعض بأفعال معينة تلقى إعجاب الناس، فيرتفع بذلك صيتهم، ويعلو مقامهم بينهم، ويتحولون إذا ما حافظوا على ميزاتهم المكتسبة إلى «رموز» تتعلق بها القلوب، وتلهج بذكر محاسنها الألسنة والأقلام.

> **مزاج الناس في اختيار «الرموز» يتغير بحسب الظروف التي يعيشونها وما تتطلبه هذه الظروف**

يضاف إلى ذلك في عموم الأمم عقلية البحث عن «المنقذ» أيّاً كان، والتعلق بمن يعتقدون أنهم باتباعه سيصلون إلى الحالة التي يتمنون الوصول إليها، وذلك حين تكون الأمة في حال سيئة، فيكثر فيها الأدعياء ممن يزعمون أن بيدهم طريق الخلاص، فتتعلق بهم القلوب والآمال، وبمقدار امتلاك هؤلاء «الرموز» للقدرة على إقناع الناس بصحة طريقتهم ومنهجهم في تحقيق الخلاص يزداد تعلق الناس بهم، والغلو في محبتهم، فمنهم من يقودهم زعيما، ومنهم من يسودهم ملكا، ومنهم من يستخفهم فيزعم النبوة فيهم أو الألوهية عليهم.

وإن أمتنا باتت لا تختلف في ذلك عن بقية الأمم، بل تتبعها في ذلك بمقدار بعدها عن الصراط المستقيم واتباعها للسبل، فقد قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (لتتبعن سُنن من كان قبلكم، شبرا شبرا وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم) [رواه البخاري ومسلم]، وخاصة في الأزمنة الأخيرة التي قل فيها العلم، وفشا فيها الجهل، وابتعد فيها الناس عن الكتاب والسنة وتعلقوا بالرجال، وتسلط الكفار على المسلمين، حيث كثر اتخاذ الناس «رموزا» والذين كان كثير منهم من أهل الباطل الذين بدؤوا دعوتهم بشيء من الحق، كالدعوة إلى الزهد، أو الإصلاح، أو الانتصار للمظلومين، أو ما شابه، فتبعهم الجهلة على ذلك، لما ظهر منهم من زهد أو علم أو عبادة أو دعوة للحق، ثم ما لبثوا أن قادوا أتباعهم إلى ضلال، والشواهد في التاريخ أكثر من أن تحصى، فمن هؤلاء «الرموز» من كان باطنيا خبيثا يخفي عن الناس حقيقة مذهبه ويظهر لهم ما يحبون من العادات والعبادات، حتى إذا استحكم حبهم له، وضمن تبعيتهم له أظهر لهم مذهبه الباطل ودعاهم إلى اتباعه، والعمل به، بعد أن يكون عندهم مصدّقا في كلامه، مؤتمنا على دينهم وأنفسهم، ومنهم من ضل بعد أن وجد غلو الناس في شخصه، ورفعهم له فوق مقامه، فطغى وتجبر وصار لا ينفك يطلب من أتباعه المزيد من شعائر إجلاله وتعظيمه، ويبحث لهم عن المسوغات لذلك مما يوحيه إليه شيطانه من الضلالات والمنكرات، ومنهم من لبّس عليه إبليس بأن الناس لا يلتفتون إلى الكتاب والسنة، وأنهم يجب أن يتعلقوا بشخصه، ليقودهم بذلك إلى محبّة الله وطاعته، ومنهم من جعل ذلك قاعدة في الوصول إلى رضا الله تعالى، بأن أقنع السفهاء من أتباعه أن قلوبهم لا يمكن لها أن تحتمل محبة الله العظيم، ولذلك يجب أن يتعلقوا به، ثم يتدرجوا صعودا إلى محبة الله تعالى، كما يفعل مشركو الطرق الصوفية اليوم.

و«الرموز» الذين نشاهدهم اليوم وقد تعلقت بهم أبصار الناس وأفئدتهم لا يخرجون في الغالب عن الحالات التي سبق ذكرها، فإما أن أفعالهم وصفاتهم هي مما يرغبه الناس ويحتاجونه، أو أنهم يرجون فيهم الخلاص من واقع بائس يريدون تغييره، أو أنهم يرون في اتباعهم طريقا للوصول إلى الله ورضوانه.

ففي ظل الواقع البائس الذي عاشه المسلمون خلال القرون الماضية خرج الكثير ممن يزعم أنه سيحقق الإصلاح في حياة الناس الدنيوية، أو يدعوهم إلى اتباعه في طريقته ومنهجه الديني، وازدادت هذه الظاهرة وضوحا بعد عصر سايكس وبيكو ودويلاتهما، حيث بدأت الأحزاب والفصائل والتنظيمات التي تنتسب للإسلام بالظهور، وبرز في كل منها «رموز» يزعم كل منهم أنه وحزبه هم من سيقود الأمة إلى الخلاص من الواقع الأليم، وأنهم سيجدّدون الخلافة، وسيطبقون الشريعة، ويقيمون العدل، ويزيلون الظلم، ويرجعون الأمة إلى العصر الذي كان فيه الخليفة يقول للغيمة «أمطري حيث شئت فإن خراجك عائد إلي»، وإذا تطاول أحد من ملوك الأرض انطلق إليه جيش أوله عنده وآخره في حاضرة المسلمين، فتعلّق الناس بهذه «الرموز» تعلق الغريق بحبل النجاة، وكل من هؤلاء «الرموز» يخط للناس منهجا جديدا لتحقيق أحلامهم، أو لنكون أكثر دقة فإن كلا منهم كان يقدم لأتباعه نوعا خاصا من المخدرات التي لا تجعلهم غافلين عن الواقع فحسب، بل أيضا غافلين عن مدى موافقة مناهجهم لكتاب الله وسنة نبيه، عليه الصلاة والسلام، فبات في الواقع عشرات السبل على رأس كل منها شيطان يدعو إلى النار، وصرنا نرى من عجائب الأمور أن صار أتباع الأحزاب والتنظيمات كلما خطوا انحرافا جديدا بحثوا عن مسوغ له من أفعال «رموزهم» لعلمهم اليقيني أن لا أحد من حزبهم يجرؤ على انتقاد أفعال أولئك «الرموز»، وبالتالي يصبح الفعل أو القول مهما بلغ من الضلال «شرعيا» في دينهم ما دام أحد «الرموز» قد قام به، أو رضيه، أو لمجرد السكوت عنه، فصاروا بذلك أربابا يعبدون من دون الله، يشرعون لهم من الدين ما لم يأذن به الله.

وإننا نرى اليوم أن الضالين من أتباع تلك الفصائل يضعون أصابعهم في آذانهم ويستغشون ثيابهم ويرفضون السماع لمن يدعوهم إلى الحق بمجرد أن يذكر «رموزهم» بسوء، بل ويزداد تعصب كثير منهم لتلك «الرموز» كلما زادت حدة الهجوم عليهم لبيان حقيقتهم، فشابهوا بذلك حال المشركين الذين كانوا يحاربون الرسل إذا ما بينوا لهم حقيقة الأوثان التي يعبدونها، كما وصف الله حال بعض منهم بقولهم {وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا}، وقولهم (أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ).

> **ندعو إلى التوحيد ونحمل فأس إبراهيم -عليه السلام- لنحطم «الرموز» التي يعبدها الناس من دون اللّه**

وبالتالي لا بد من وضع كل من أولئك «الرموز» في حجمه الحقيقي وفق المقياس الشرعي، فمن كان منهم من الصالحين الذين غلا الناس في محبتهم بعد وفاتهم، حفظنا له حقه، وسعينا إلى هدم طريقة أتباعه في تقديسه والغلو فيه، واتّباعه من دون أمر الله ورسوله، ومن كان في نفسه ضالا أو مرتدا بيّنّا للناس حكمه، وحكم طريقته ومنهجه، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة، ولا يمكن أن ندعو الناس إلى التوحيد، مع تركنا لأولئك الذين يحرِفون الناس عن طاعة الله إلى طاعة أنفسهم، وعن اتباع رسول الله -عليه الصلاة والسلام- إلى اتباع طرقهم ومناهجهم الضالة المنحرفة، إنها معركة واحدة يجب أن نخوضها، فندعو إلى التوحيد، ونحمل فأس إبراهيم -عليه السلام- لنحطم «الرموز» التي يعبدها الناس من دون الله، بأن نزيل عن أولئك البشر المعبودين المتّبَعين «رمزيتهم» ونعيدهم بشرا من لحم ودم، يأكلون ويشربون ويتزوجون، يتمنون ويشتهون، يرجون ويخافون، يهتدون ويضلون، لا حق لهم في طاعة ولا اتباع، إلا ما أذن به الله.

إن معركة تحطيم «الرموز» وإعادة الناس إلى الكتاب والسنة، هي المعركة الأطول والأصعب، ولكنها رغم ذلك تبقى من أهم المعارك التي يجب أن نخوضها وننتصر فيها، ولله عاقبة الأمور.

رموز أم أوثان؟! (4)

> **سرقت امرأة من بني مخزوم، فاهتمت القبيلة لشأنها، وهالهم أن تُقطع يد امرأة من أشراف قريش، فأرسلوا أسامة بن زيد -رضي الله عنه- ليستشفع لها عند رسول الله، فغضب -صلى الله عليه وسلم- لشفاعة أحد أصحابه في حدّ من حدود الله، ثم خطب الناس، وقال: (أيها الناس، إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) [رواه البخاري ومسلم].**

وهذا الحديث حجة في أن شرف الفرد، أو شهرته، أو ثراؤه، أو منصبه، لا تمنع من الحكم عليه بمقتضى فعل اقترفه، أو قول خرج منه.

ولكن من علامات هلاك كثير من الناس في عصرنا الحالي أنهم إن زعموا إقامة الدين والحكم من خلاله على الأشخاص والجماعات فإنهم يقيمونه على الضعيف الذي لا ظهر له، وعلى الغمر الذي لا يؤبه له، أما القوي المعضود، والشريف المشهور فإنهم يتغافلون عن سيئاته، بل إنهم يجعلون من تلك السيئات حسنات يحمد عليها.

ومن أمثلة ذلك ما نراه من بعض المنتقدين للأحزاب الضالة والمذاهب الباطلة، فتجدهم يهاجمون ما في عقيدة التنظيم أو الحزب من الانحراف والضلال، ويفضحون ما في المذاهب الباطلة والطرق الصوفية من الشرك والبدع، وتراهم يغلظون في القول على أتباعها، ويكثرون من التحذير من اتّباعها، ولكنهم في الوقت نفسه يتجنبون أي ذكر لقادة تلك الأحزاب والفصائل، أو شيوخ تلك الطرق والفرق والمذاهب، بل إنهم يتكلمون عنهم بكل إجلال وإكبار، ويبالغون في ذكر ما يُشاع من فضائلهم ومآثرهم، بل لا غرابة إن اعتبروهم من أئمة الهدى ومصابيح الدجى، ومن السادة الشهداء وأعلام النبلاء، وهذا وجه من وجوه تناقضهم.

> **من أغرب الغرائب أن يُذم الأتباع ومنهجهم ويُمدح المتبوع الذي يقودهم**

إذ كيف يجرِّم التابع على ضلالة ويبرأ المتبوع، مع أن جرم المتبوع أكبر، وإثمه أعظم، لأنه هو من سنّ تلك السنّة السيئة، وأمر بذلك المنكر العظيم، فهو حامل لإثمه ولإثم من اتبعه في فعله أو اعتقاده إلى يوم القيامة، كما قال، صلى الله عليه وسلم: (من سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء) [رواه مسلم]، بل إن كل فعل يسنّه الإنسان ولو لم يقصد منه متابعة غيره له فيه فإنه يحمل وزر من يفعله إلى يوم القيامة كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تُقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه أول من سنّ القتل) [رواه البخاري ومسلم].

ولا نقصد من ذلك ما نسبه الضالون من أتباع المذاهب والفرق المختلفة إلى الأنبياء المعصومين من أفعال وأقوال لا تليق بهم، كما فعل مشركو النصارى بادعائهم أن عيسى -عليه السلام- أمرهم بعبادته من دون الله، وكما يفعل المبتدعة من المنتسبين إلى الإسلام في نسبة أهوائهم إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، بناء على ما اختلقوه من أحاديث مكذوبة موضوعة، ولا ما نسبه هؤلاء إلى السلف الصالح في القرون الأولى المفضلة من صحابة النبي -صلى الله عليه وسلم- وآل بيته -رضوان الله عليهم- أجمعين من المحدثات في الدين، كما في بدعة تقليد بعض العلماء من أئمة السلف من أمثال مالك والشافعي وأحمد بن حنبل الذين نهوا الناس عند تقليدهم وتعظيم أقوالهم.

ولا نقصد من ذلك أيضا من تبرأ من بدعته أو منهجه الضال الذي كان يدعو الناس إليه ثم تاب عن ذلك كلّه، وبيّن للناس ما كانوا عليه من ضلالة باتباعهم له فيما خالف الشريعة، ودعاهم إلى ترك الشرك والبدعة والعودة إلى التوحيد والسنّة.

ولكن من نقصده هنا هم من سنّوا لأتباعهم سبل الضلالة وأبعدوهم بذلك عن الصراط المستقيم، وماتوا ولم تظهر منهم توبة عما اقترفوه، ولا نصيحة لأتباعهم بترك ما هم عليه والرجوع إلى الحق، فهؤلاء يحملون أوزارهم وأوزار من اتبعوهم إلى يوم الدين، وهؤلاء أولى من أتباعهم بفضح باطلهم، وبيان حقيقتهم للناس كي لا ينخدعوا بأسمائهم البراقة، ولا بكلامهم المنمّق، ولا بالهالة الكاذبة التي يحيطهم بها أتباعهم ومريدوهم، بعكس ما يفعل المفسدون من تمجيدهم مع ذمّ أفعالهم، مجاملة للمتعصبين لهم، والغالين في محبتهم وتعظيمهم، وخوفا من إغضابهم.

ولا ينتبه هؤلاء الضالون أن مجرد مدح أولئك القادة والزعماء إنما هو فتنة للناس عن دينهم، ودعاية غير مباشرة لاتباع مذاهبهم وطرائقهم التي يزعمون الحرب عليها، فعندما يصف أحدهم رأسا من دعاة الضلالة وشرك الديموقراطية هو (حسن البنا) مؤسس حزب (الإخوان المرتدين) بأنه «الإمام الشهيد» ويترحّم عليه وفي نفس الوقت يعدد كثيرا من الأقوال والأفعال المكفّرة التي وقع فيها، والتي دعا أتباعه إلى فعلها من بعده، وهم بالفعل يسيرون على منهجه الضال منذ عقود، فإن هذا من التناقض الغريب، إذ كيف يكون «إماماً» من قاد أتباعه إلى الوقوع في شرك الديموقراطية، وسنّ لهم سنّة السعي للدخول في المجالس البرلمانية التي تنازع الله في سلطانه وحكمه؟ وكيف يحكم بـ «الشهادة» لمن وقع بنفسه في كل تلك المكفّرات، وأوقع من اتّبعه فيها؟!

فإذا كان مدح المنافق مغضبا لله -عزّ وجل- كما قال صلى الله عليه وسلم: (لا تقولوا للمنافق سيد، فإنه إن يك سيدا، فقد أسخطتم ربكم عز وجل) [رواه أبو داود بإسناد صحيح]، فما بالك بمدح من أظهر الكفر، وعمل به، ودعا الناس إليه وهو يحسبُ أنه يُحسن صُنعاً؟!

ولم يكتف المدّاحون عند هذا الحد من تزكية أئمة الضلال، بل تعدّى بهم الأمر إلى تحريف أحكام الشريعة، أو كتمانها على الأقل في سبيل أن لا يضطرهم الأمر إلى إسقاط تلك الأحكام على أولئك «الرموز»، وذلك خوفا من إغضاب أتباعهم، أو استفزاز الجهّال من الذين يعرفون الدين بالرجال، ويعتبرون أي مسٍّ بهؤلاء الرجال الذين يقدّسونهم ويقلّدونه اعتداء على الإسلام وشريعته.

> **الكثير من أحكام الإسلام كتمها وبدلها الضالون خوفا من إسقاطها على رموزهم**

ومن ذلك أنهم بدّلوا كثيرا من أحكام الشريعة، أو اشترطوا لها شروطا غير شرعية، أو وضعوا موانع لتلك الأحكام كي يخرجوا من دائرة الحرج في تطبيق تلك الأحكام على أولئك «الرموز»، كزعم بعضهم أن الحكم بالقوانين الوضعية الجاهلية هو كفرٌ دون الكفر المخرج من الملّة، كي يحكموا بإسلام رجب أردوغان ومحمد مرسي وإسماعيل هنية وأشباههم من الطواغيت (الذين أخذوا دينهم من إمامهم حسن البنا فساروا على دربه واتبعوا نهجه وأطاعوه في ضلاله)، وذلك بجعل هذا الفعل المكفّر معصية من المعاصي التي يجوز اقترافها عند الضرورة، بل يتحول شرك أولئك الطواغيت إلى واجب يثابون على فعله، ويأثمون على تركه، ومنهم من يحكم بكفر الفعل، ولكن يمتنع عن إيقاع الحكم بالكفر على فاعله عذرا لأولئك «الرموز» بالتأويل وعدم قصد الكفر والاضطرار وغير ذلك من موانع تكفير من وقع في الشرك الأكبر، التي لا اعتبار لها إلا في شريعة المرجئة ومن لفّ لفيفهم.

فتجد المنحرفين عن الصراط المستقيم يحرصون في ردّهم على أهل الضلال أن لا يمسّوا «رمزا» من رموزهم مهما بلغ جرمه، وعظمت فتنته، بخلاف سنّة النبي -صلى الله عليه وسلم- وما أتاه من وحي القرآن، حيث تنزلت الآيات التي تسفّه «رموز» المشركين من أهل مكّة، كأبي جهل، وأبي لهب، والوليد بن عقبة وغيرهم، حتى اشتكى أولئك المشركون مما اعتبروه هجاء من النبي -صلى الله عليه وسلم- لهم، وما كان ذلك بهجاء الشعراء، إن هو إلا كلام رب العالمين.

لقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يشهدوا بالحق على كل إنسان ولو كان على أنفسهم، فقال سبحانه: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ} [النساء: ١٣٥]، وليس من الإقساط في شيء أن يعظم رأس الضلالة، كما إنه ليس من الإقساط في شيء أن يحكم على التابع بحكمٍ بناءً على سيره في طريق ضلال، وينجو من ذلك الحكم من يقوده في طريق الضلالة تلك ممن يزعم العلم والبصيرة، ويتصدر لقيادة الأمة وهداية العالمين.

إن المنهج الذي سار عليه أهل الحديث في الجرح والتعديل كي يعرف الناس عمّن يأخذون دينهم، ويأمنوا سلامة نقل العلم إليهم، لهو منهج واجب اتباعه في الحكم على أهل الحق والضلال على حدّ سواء، فيعرّف السنّي بما لديه من الحق، ويُنهى عما لديه من الأوهام إن وجدت، ويعرّف الضالّ بما لديه من الضلالات، وينهى عن الأخذ منه.

وليكن رائد كل مسلم في بحثه عن الهدى قول علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: «الحق لا يعرف بالرجال، اعرف الحق، تعرف أهله».

رموز أم أوثان؟! (5)

لا تتوقف فتنة الرموز والتعلق بهم واتّباعهم -في الضلال- عليهم فحسب، بل نجد أن المفتونين غالبا يوسّعون الأمر ليشمل آخرين ممّن لهم علاقة ارتباط بـ «الرمز» رفقةً أو قرابةً، فإذا مات «الرمز» بحثوا لهم عن «رمز» جديد يقدّسونه، وغالبا ما يختارونه أو يُفرض عليهم من وسط الدائرة المحيطة بـ «الرمز» القديم، أو حتى من البعيدين عنه ممن يستطيعون إيجاد علاقة ارتباط -ولو عرضية- به، فيوثّقون تلك العلاقة ليجعلوا منها تزكية لـ «الرمز» الجديد، فيصير بذلك امتدادا وتجديدا لمنهج «الرمز» القديم.

وإنّ فهم ظاهرة تقديس رفاق «الرمز» وأقربائه سهل بإذن الله، فالمفتونون الذين يستدلّون على منهجهم بالرموز والرجال يقعون في ضيق إذا غاب عنهم رمزهم لموت مثلا، فإما أن يزعموا كما زعمت الرافضة أنه حاضر موجود يأتيهم سرّا ليعلّمهم دينهم ويصحّح لهم منهجهم، وإما أن يستخرجوا من رفاقه أو أقربائه من ينصبّونه «رمزا» عليهم، ويجعلوا منه منارة يدعون الناس إلى الاستدلال بها إلى دينهم، بعد أن يثبتوا لهم أنه ورث من «الرمز» القديم علمه وصفاته، وهو الأقدر على حراسة منهجه ورعاية القطيع من أتباعه ومريديه.

لذلك نجد المفتونين في معاركهم مع غيرهم لا يفترون عن إظهار «رموزهم» الجديدة، ومبارزة الناس بقوة ارتباطهم بـ «الرمز» القديم، فهذا «رفيق الرمز»، وذاك «حارس الرمز» والآخر «سائق الرمز»، والرابع «ابن الرمز» والخامس ظهر في صورة مع «الرمز»، وكلهم -في دين المفتونين- يجب على أمة الإسلام أن تدين لهم بالطاعة والاتّباع، كما كان واجبا عليها في دينهم طاعة «الرمز» واتّباعه.

وإن أقارب «الرمز» ورفاقه قد يكونون أخطر منه وأشد فتنة على الناس، وذلك أن كثيرا ممن اتّخذهم الناس «رموزا» لم يكونوا راضين بذلك، وإنما عملوا أعمالا حمدهم الناس عليها وعظّموهم لأجلها وهم غافلون عن هذا، أما «الرموز» الجدد فإنهم ساعون للشهرة، طالبون لها، ولو كانوا لا يملكون من مؤهّلاتها سوى علاقة الارتباط بـ «الرمز» القديم، فتجد أحدهم يشرّق في طرق الضلالة ويغرّب ما شاء، وهو مستقوٍ بعلاقته تلك، فمهما ضلّ أو أضلّ يدافع عنه المفتونون ويذكّرون الناس بعلاقته بـ «رمزهم»، ويعتبرون الطعن في هذا الضال طعنا في «الرمز»، وهي كبيرة من الكبائر -في دين المفتونين- لا يرضونها.

ولذلك نجد أن «الرمز» الجديد يعمل على الحفاظ على مكانة سلفه داخل الجماعة وخارجها، لأنّه إنما يكتسب «رمزيته» الحادثة من خلال ارتباطه بـ «الرمز» القديم، وبفقدان «الرمز» القديم لمكانته سيفقد هو نفسه كثيرا من «رمزيته» بتأثير الارتباط بينهما، بل قد تصبح علاقة الارتباط تلك وبالا عليه في حال إسقاط «الرمز» القديم، باكتشاف الأتباع لنقيصة في تاريخه كانت غائبة عنهم، وفي هذه الحالة يكون دفاع الجديد عن القديم دفاعا عن نفسه.

والجانب الآخر من جوانب خطورة هؤلاء على أي جماعة أو تنظيم، أنهم في كثير من الأحيان يستلمون أعلى المناصب القيادية فيها، دون أن تكون لديهم القدرات والكفاءات اللازمة للقيام بواجبات تلك المناصب، فيفسدون البلاد ويهلكون العباد، كما أن تقديمهم على غيرهم في الأمور المختلفة يخلق الشحناء والبغضاء داخل الجماعة مما يعرضها للتفكك والانهيار، ومن جانب آخر فإن أقارب «الرموز» ورفاقهم معرضون بشكل أكبر للتحول إلى مراكز ثقل داخل الجماعة، يجتمع عليهم الناقمون على القيادة الجديدة، ويجعلون منهم واجهات -ولو صوريّة- للمنشقين، ليستفيدوا من «رمزيتهم» المكتسبة في الاستقواء على باقي أفراد الجماعة وقيادتها، بالزعم أنها انحرفت عن الخط الأصيل لها، ويستدلون على دعواهم هذه بهؤلاء «الرموز» الجدد الذين يمثلون في عرف المفتونين ورثة منهج «الرمز» القديم والمدافعين عن مذهبه من «عبث العابثين»، وكذلك فإن هؤلاء معرضون أكثر من غيرهم للتمرّد على الأوامر وإعلان العصيان إذا ما عُزلوا عن مناصبهم، أو جُرّدوا من بعض صلاحياتهم أو مكتسباتهم، لأنهم قد يشعرون أنهم في منعة من العقاب، وأن هناك من سيغضب لغضبتهم، ويثور لثورتهم، وهذا ما نجده جليا في الأحزاب والتنظيمات، سواء منها العلمانية أو المنتسبة للإسلام، بل نجده في الطرق الصوفية، وفي الفرق والطوائف الضالة المضلة.

وهذه الحقائق تدفع الطواغيت، وزعماء الفرق، وقادة الأحزاب والتنظيمات إلى الحرص على رضا أقرباء «الرموز» كثيرا، فتراهم يقرّبون أبناءهم وأحفادهم، ليكتسبوا من وراء ذلك شرعية في قلوب المفتونين وعقولهم.

المفتونون يصنعون لأنفسهم رموزا جديدة إذا فقدوا رمزهم القديم

ولنا في حكام جزيرة العرب من «آل سعود» خير مثال، فبالرغم من أنّهم نبذوا الدين وراء ظهورهم وحادوا عن طريق أجدادهم الموحّدين، وصاروا طواغيت مرتدّين، إلا أنهم لا زالوا حريصين على تقريب بعض أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- المعروفين اليوم بـ «آل الشيخ» فيشاركونهم معهم في الردة ويختارون منهم المفتين والوزراء، وذلك لكي يخدعوا الجهال، ويستدلّ لهم علماء السوء أنهم لا زالوا على منهج التوحيد الذي جدّده الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ونصره الإمام محمد بن سعود بنفسه وأولاده ورجاله، فما دام «آل الشيخ» في صف «آل سعود» فهذا – في دين المفتونين – دليل أنهم على منهج الشيخ، وعلى سيرة الأوائل من «آل سعود».

وبالرغم من الردّة الواضحة التي وقع فيها بعض أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- المعاصرين من أمثال مفتي «آل سعود» الحالي (عبد العزيز آل الشيخ) ووزير أوقافهم (صالح آل الشيخ) وغيرهم من المشايخ «الرسميين» و«غير الرسميين»، بموالاتهم للطواغيت الحاكمين بغير ما أنزل الله، وإعانتهم للصليبيين والمرتدين المحاربين لأهل التوحيد بكلامهم ودعائهم، فإن كثيرا من الناس لا يقبل فيهم كلاما ولا نقدا، لأنهم عنده حملة علم الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وحماة منهجه.

وهكذا حوّل هؤلاء المفتونون منهج الشيخ محمد بن عبد الوهاب -الذي أفنى عمره في الدعوة إلى التوحيد واتباع السنة- إلى طريقة صوفية يورّثها الآباء للأبناء، ويورّثون معها التزكيات التي يعطيها اليوم المرتدون من «آل الشيخ» للطواغيت وأحبارهم.

وهذه العلاقة النفعية بين الطواغيت من «آل سعود» والمرتدين الموالين لهم من «آل الشيخ» لا بد أن تنتهي عاجلا في ظل تسريع عجلة التغريب والعلمنة في جزيرة العرب، ولن يكون غريبا حينها أن تنتهي بحملة تشويه يشنّها إعلام «آل سعود» ضد «آل الشيخ» ليتهموهم بأبشع التهم، ويعتبروهم فئة طفيلية تستفيد من قربها من الحكم دون أن يكون لها فائدة على دولتهم، وذلك ليكسروا «رمزيتهم» التي استفاد منها «آل سعود» لقرن من الزمن، تمهيدا لإضعافهم وإزاحتهم عن الواجهة، منعا لتحولهم إلى مركز ثقل يجتمع عليه من يريد أيضا الاستفادة من تلك «الرمزية» في منافسة «آل سعود».

كما وجدنا أن الطاغوت الوطني الهالك (أختر منصور) سارع إلى طلب البيعة من أسرة أميره السابق (الملا عمر)، التي تأخّرت شهورا طويلة عنها، ولم تعطها له إلا بعد مفاوضات ووساطات كانت نتيجتها استلام بعض أفراد الأسرة لمناصب قيادية في حركة طالبان الوطنية، فكانت تلك البيعة بمثابة التزكية للطاغوت (أختر منصور)، التي لم يكن ليستتب الأمر له بدونها في أوساط الحركة، التي تغلب عليها الأعراف القبلية والأفكار الصوفية الديوبندية التي تقوم على توريث شيخ القبيلة أو الطريقة الأمر لأكبر أولاده من بعده، ولو طال العمر بـ (أختر منصور) لربما وجدناه يسعى إلى تهميش أسرة (الملا عمر) وانتزاع ما أخذوه من مكتسبات لقاء بيعتهم له فور تثبيت أركان حكمه لحركة طالبان الوطنية وإزالته لمراكز الخطر التي هدّدت هيمنته على الحركة، بعد فضيحة حكمه لها عدة أعوام باسم أميرها (الملا عمر) الذي أخفى موته مع بعض المقرّبين منه.

الطواغيت يستفيدون من قضية الرموز في إضفاء شرعية مزيفة على حكمهم

إن أهل التوحيد السليم، وأتباع المنهج النبوي القويم، لا يقيمون بنيانهم على الأشخاص أبدا مهما ذاع صيتهم وبلغ مجدهم، بل يقيمونه على ركن شديد من الكتاب والسنّة، ولذلك لا يشعرون بالحاجة الدائمة إلى تعضيد الجماعة بـ «الرموز»، ثم الاستمرار بصناعة «الرموز» في كل جيل للحفاظ على جماعاتهم، كما تفعل الأحزاب والتنظيمات المنحرفة الضالة، وعلى هذا الأساس نجد أن أقرباء قادتهم ورفاقهم ينالهم من أفرادها الاحترام والتقدير بمقدار التزامهم هم بالمنهج القويم، وبمقدار ما يقدّمونه لأنفسهم من خير وعمل صالح، لا بناء على قرابة أو صداقة أو علاقة.

إن الآيات الواضحات والأحاديث البيّنات تدلّ أهل الإيمان أن الإنسان لا ينتفع بقرابته لأهل الخير والصلاح شيئا، فمن سار على نهج الصالحين من آبائه كان منهم، ومن حاد عن طريقهم وضلّ السبيل أبعده الله ولم يقرّبه نسب، كما في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ} [الطور: ٢١]، وقوله تعالى: {وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ} [الصافات: ١١٣]، وقوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة: ١٢٤]، وقوله تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [هود: ٤٥-٤٦]، وقوله صلى الله عليه وسلم: (يا أم الزبير بن العوام عمة رسول الله، يا فاطمة بنت محمد، اشتريا أنفسكما من الله لا أملك لكما من الله شيئا) [رواه البخاري ومسلم]، وقوله صلى الله عليه وسلم: (ومن بطّأ به عمله، لم يسرع به نسبه) [رواه مسلم]، والحمد لله رب العالمين.

رموز أم أوثان؟! ٦

إن فتنة عبادة "الرموز" ليست قضية تعلق أناس متفرقين بشخص من الأشخاص فحسب، ولكنها قضية مناهج وعقائد يتم إلباسها على هؤلاء الأشخاص، ليكونوا "رموزا" لهذه المناهج والأديان، فمن تعلق بهذه "الرموز" يراد منه ضمنا أن يتعلق بالمناهج التي التصقت بهم، ومن رفض تلك المناهج، اتهم فورا من قبل أصحابها بالطعن في "الرموز" الذين يعظمهم، لأنهم يحملون المنهج الذي رفضه.

وقد وقع في هذا بعض من أهل الصلاح وطالبي الخير، بأن يعلن مدح شخص ما، على ما ظهر منه من صلاح وإحسان، وهو لا يعلم ما خفي من حال هذا الممدوح، الذي قد يكون "رمزا" لبعض الضالين، يستدلون بأقواله وأفعاله على صحة منهجهم، وسلامة عقيدتهم، حتى إذا ما طعن المادح أو من يتبعه بعقيدة هؤلاء الضالين، جادلوه بأنهم على عقيدة ومنهج "الرمز" الذي سبق له أن مدحه وأثنى عليه، ويسعون لإلزامه بقبول ضلالهم، لكي لا ينسحب طعنه في عقيدتهم إلى الطعن في "الرمز" الذي مدحه، أو يتهموه بالتناقض، بين مدحه لذلك "الرمز" وطعنه في العقيدة التي يحملها.

ولا يمكن حصر الأمثلة على "الرموز" التي امتدحها البعض، على ما علموا عنهم من خير، وجهلوا عنهم من باطل وضلال، كحال "رموز" الإخوان المرتدين كحسن البنا، و"رموز" القاعدة كعطية الله الليبي وأبي مصعب السوري، وغيرهم كثير من أئمة الضلال، ورؤوس الفتنة.

ادعوهم إلى كتاب الله.. لا إلى "الرموز"

والمصيبة كل المصيبة أنك لا تزال تجد بعض المنتسبين إلى أهل السنة والجماعة، يحرصون على منهج تعظيم "الرموز"، ويرون فيه منفعة يزعمونها، هي دفع الناس إلى تقليدهم واتباعهم في ما يعرفون عنهم من خير، وطاعتهم في ما يأمرون به من معروف.

ولا ينتبه هؤلاء إلى أن هذا "الرمز" الذي يعلمون الناس تعظيمه واتباعه مطلقا، قد يكون وقع في أخطاء كثيرة في ما قاله أو فعله أو قرره أو سكت عنه، أو زكّاه أو ذمّه، وأن أكثر الناس لا يفقهون قاعدة أهل السنة، بالأخذ من الرجال، والردّ عليهم، التي قررها أئمتهم وهي: "كلٌّ يؤخذ منه ويردّ عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم"، وأن كثيرا من الناس يتخذون الرجال الذين يعظمونهم أربابا من دون الله، بطاعتهم مطلقا، واتباعهم مطلقا، وبالتالي يجعلون كل ما صدر منهم، أو روي عنهم، دينا يتعبدون الله به، فيكونون من الأخسرين أعمالا، الذين وصفهم الله -تعالى- بالضلال فقال: {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [الكهف: ١٠٤].

فما بالك إن كانت أخطاء هؤلاء "الرموز" تصل بهم إلى الكفر بالله والإشراك به، وأتباعهم يروجون لهذا الكفر والشرك على أنه التوحيد الخالص، والعقيدة الصحيحة، ويستدلون على ذلك، بأنها عقيدة "الرمز" التي لا يسع من يعظمه الخروج عليها، أو الطعن فيها، وإلا لزمه أن يطعن في "الرمز" أيضا، فيكون عندهم من المقبوحين، أخزاهم الله، وجمعهم بمن يتبعون على شركهم في نار جهنم، فيكون حالهم كمن وصفهم ربنا العظيم جل وعلا: {وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [البقرة: ١٦٦].

امتحان عقائد الناس بمواقفهم من "الرموز"

وعلى الجانب الآخر، تجد عُبَّاد "الرموز" يمتحنون عقائد الناس، لا بأقوالهم وأفعالهم، ولكن بمدى تعظيمهم لهؤلاء "الرموز"، وذلك بعد سلسلة طويلة من الخطوات، كأن يسعوا أولا إلى صناعة "الرمز"، وتعليق قلوب الناس به، ثم يخرجوا على الناس بعقيدتهم التي يلصقونها بهذا "الرمز"، أو التي يحملها حقيقة، وما عظموه إلا لأنها وافقت أهواءهم، ويطلبون من كل من يعظمه أن يعتقدها، ويتبعها، ليعدوه من الفرقة الناجية، ويبشروه بالحور والقصور.

أو أن يعلنوا أن هذا "الرمز" كان عدوا لإحدى طوائف الضلال، كالمرجئة أو الخوارج أو الروافض أو القدرية أو ما شابههم، ويؤصّلوا لقضية أنه لا يعادي هذا "الرمز" أو حتى يرفض غلوهم فيه، إلا من كان منتميا لتلك الطائفة الضالة التي أعلنوا سلفا أن "رمزهم" عدو لها.

وهكذا تكون نتيجة امتحان الناس بهذه الطريقة البدعية، أن يصبح الولاء والمودة والتزكية لمن يعظم "الرمز"، ولو كان من أضل الضالين، وتكون العداوة والبراء والنبز بالألقاب من نصيب كل من يشير إلى أي خطأ وقع فيه "الرمز"، أو يعاديه لخصومة من خصومات الدنيا، والمنازعات على حظوظها، أو حتى لمن يرى نفسه ندا له، لا يرى له عليه فضلا.

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: "لا يجوز لأحد أن يجعل الأصل في الدين لشخص إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا لقول إلا لكتاب الله عز وجل، ومن نصب شخصا كائنا من كان، فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل فهو {مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا} الآية، وإذا تفقه الرجل وتأدب بطريقة قوم من المؤمنين، مثل اتباع الأئمة والمشايخ، فليس له أن يجعل قدوته وأصحابه هم العيار، فيوالي من وافقهم، ويعادي من خالفهم، وليس لأحد أن يدعو إلى مقالة أو يعتقدها لكونها قول أصحابه، ولا يناجز عليها بل لأجل أنها مما أمر الله به ورسوله، أو أخبر الله به ورسوله، لكون ذلك طاعة لله ورسوله" [مجموع الفتاوى].

لا نعلق عقائد الناس بالرجال

فهذان جانبان خطيران من جوانب قضية تعظيم "الرموز" البدعية، التي هي باب جلي إلى الضلال والانحراف، وقطع حبال المودة بين المسلمين، التي يجب أن نحذرها، ونحذر منها الناس.

فنحذر من ربط جماعة المسلمين بعقيدة شخص من الأشخاص أو سنته، مهما ظهر من صلاحه وتقواه، واتباعه للسنة، وبراءته من الشرك وأهله، ومهما كان له من فضل وجهاد وإمامة في الدين، فكيف إن كان مجهول الحال، خافية علينا عقيدته، وأفعاله، وطباعه.

ويستوي في ذلك الأحياء والأموات، فالحي لا تؤمن عليه الفتنة، وليس بمعصوم من الخطأ، والميت وإن ظهرت منه خاتمة الخير، فإنه ليس بمبرَّأ أن يظهر ما هو مؤكد من أخبار حياته بعد موته ما ينقض تزكية شخصه، فضلا عن جعله إماما للمسلمين، ولعل في قصص بعض المنافقين في المدينة، الذين خص رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه- بمعرفتهم، خير مثال، إذ كان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يعامل جميع الناس على ما يظهر منهم، فإذا مات منهم أحد نظر إلى حذيفة، فإن صلى عليه وافقه في ذلك، وإن أبى الصلاة عليه عرف عمر أنه من المنافقين.

ومن جانب آخر، نحذر من قضية تصنيف الناس أو موالاتهم أو معاداتهم بناء على مجرد مواقفهم من شخص من الأشخاص، وليست كل المحبة أو العداوة مبدأها ديني أو عقدي، فباب الهوى والمنفعة، والتحاسد والتباغض بين الأنداد واسع عريض، دخله الكثيرون، وباب الاختلاف في المسائل العلمية بين أهل الفضل وبناء الخصومات عليها باب مثله، إن لم يكن أوسع منه، وقد يكون التنافس على الدنيا، مثلما يكون لأجل الدين، وقد يكون على حق أو على باطل، ولكل امرئ حال ينظر فيها.

ولنا في مواقف الناس من علي -رضي الله عنه- خير مثال، فليس كل من أحبّه من أهل السنة والجماعة، بل قد يكون من الشيعة الروافض، أو ممن شابههم، أو كان أكفر منهم، وليس كل من قاتله في حياته من الخوارج المارقين أو النواصب المغالين، إذ قد وقع العداء والقتال بينه وبين أقوام هم من خيرة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يصح بحال نسبة أحد منهم إلى خروج أو نصب، فكلهم عندنا سادة عدول، نجلهم جميعا، ونكف عما شجر بينهم.

اعرفوا الحق تعرفوا أهله

ونسعى إلى حصر تمسك الناس بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعريفهم بالحق لا بالرجال، فمن عرف الحق عرف أهله، ومن عرف الباطل عرف أهله، والرجال يستدل لهم، ولا يستدل بهم.

وإن على كل من يريد نصب "الرموز" للناس أن يتذكر مبدأ عبادة الصور والأصنام بين الناس، وهو اتخاذ بعض الصالحين "رموزا" يتذكر قومهم العبادة برؤية صورهم، فلم يطل عليهم الزمن حتى جعلوهم وسائط بينهم وبين الله تعالى، وأشركوا بعبادتهم مع الله تعالى، وكذلك فإن من يدعو إلى تعظيم "الرموز" ليستدل الناس بهم على الخير، عليه أن يتذكر أنه لن يطول الزمن ببعض هؤلاء الناس، أو من بعدهم، حتى يأخذوا دين هؤلاء "الرموز" كله، بصوابه وخطئه، ويجعلوه دينا لهم، فيكون ضلالهم من ذات الباب الذي دخلوه، والله لا يهدي القوم الظالمين.

رموز أم أوثان؟! ٧

مانزال –يوما بعد يوم- نجد أهمية الكلام في تحذير المسلمين من اتباع الرجال على غير هدى، وتقديم أقوالهم أو أفعالهم على كلام الله ورسوله، وهدي السلف الصالح من هذه الأمة المرحومة بإجماعهم على الحق، وذلك لأن الفتنة بالرجال هي من أكبر الفتن في هذا الزمان، بل وفي كل زمان، أودت بخلق كثير من الناس إلى الشرك بالله العظيم، ورد ما أنزله الله من العلم والهدى ليخرج به أولياءه من الظلمات إلى النور، كما قال جل شأنه: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٢٥٧]، فهم يخرجون من الظلمات باتباعهم النور الذي دعا إليه أنبياء الله، عليهم السلام، أما الذين كفروا فإنهم يُدخلون أنفسهم إلى الظلمات باتباعهم ضلالات رؤسائهم وزعمائهم والمشاهير من الرجال، الذين يتخذونهم طواغيت يعبدونهم من دون الله، بطاعتهم في المعصية، واتباعهم على غير الهدى.

وإن من أخطر ما في هذه القضية، أن أهل الضلالة يجعلون من أفعال "الرموز" الذين يقدسونهم أدلَّة على صحة ما يفعلون، وشعارهم في ذلك أن لو كان في الأمر خطأ ما فعله "الرموز"، فهم في ظنهم الأعلمُ فلا يعتريهم جهل، والأهدى فلا تسري إليهم ضلالة، والأتقى فلا يعقل فيهم اتباع للهوى، وإنهم لا تزري بهم أفعالهم، بل هم يزكون الأفعال التي يقومون بها، فيمنحونها الشرعية، ويكسبونها باقترافهم لها الحكم بالصحة، والمقياس في ذلك كله كثرة المصفقين لهؤلاء "الرموز"، والهاتفين بأسمائهم، والمسبّحين لصفاتهم وأفعالهم، والذين مخالفتهم –عند الضالين- لا تقل بحال عن مخالفة إجماع الصحابة.

فتجد هؤلاء يردُّون الحق، لا جحدا له أحيانا، ولا تكذيبا لمن جاء به، وإنما لمجرد أن في اتباعه مفارقة لما عليه "الرموز" المعظمون، ولما في الإقرار به من طعن في من خالفه من "الرموز"، وهذا الأمر سنة جارية في أهل الضلال على مدى العصور، ولعله من أشد الأمور صدا عن طاعة الله واتباع الهدى، فقد واجهه أنبياء الله –تعالى- المؤيَّدون بوحيه مع أقوامهم، {قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} [إبراهيم: ١٠].

فالمشكلة الأكبر عند هؤلاء كانت في مخالفة الآباء، الذين هم "الرموز" المعظمون عندهم، وفي تلك المخالفة لهم عن ضلالهم إقرار بوقوع أولئك الآباء فيه، وطعن في دينهم، بل وحتى في عقولهم أحيانا، ولذلك فإن فِئاماً منهم كانوا مقرين بأن الحق هو غير ما كان عليه آباؤهم، ورغم ذلك أصروا على أن يبقوا على دينهم، كما في قصة الشيخ الضال أبي طالب، الذي مات وهو يردّد: "هو على ملّة عبد المطلب"، مخافة أن يعيره أشياخ قريش بالرغوب عن تلك الملة الضالة المنحرفة.

دين على مقاس "الرموز"

بل إننا نجد في زماننا هذا من يسكت عن بعض المنكرات، ويجهد نفسها في الدفاع عن فاعليها، وذلك كله مخافة أن يسألهم أتباعهم عن حكم من وقع فيها، فيضطرهم الأمر إلى أن يحكموا على مرتكبها بما يستحقه، أو يقعوا في التناقض بين ما يزعمون الإيمان به من الأحكام وبين تطبيقها على الأعيان، أو في التفريق –بغير علة شرعية- بين مرتكبي هذه المنكرات، كما يفعل الهالكون (أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد) [متفق عليه].

بل إن منهم من يشط في ضلاله بعيدا، فلا بأس عنده أن تصبح السرقة من المباحات، بل من الأعمال الصالحات، ولا بأس عنده أن يفتري في سبيل ذلك حتى على الأنبياء، عليهم السلام، فينسب إليهم ظلما فعل هذا المنكر، ليجعل لمن وقع في السرقة من "الرموز" الذين يقدسهم سلفا، ولا يستغرب أحد هذا الأمر، فقد فعلوا شرا من ذلك، إذ اتهموا –كاذبين- أحد الأنبياء، وهو يوسف ابن يعقوب –عليه السلام- بما هو أفحش من السرقة، وهو الشرك بالله، وموالاة الكافرين، ليبرروا ما فعلوه هم و"رموزهم" من شرك الديموقراطية، وموالاة الطواغيت الحاكمين بغير ما أنزل الله.

ومن فهم قولنا، أدرك حقيقة أن كثيرا من أهل الضلال اليوم يسكتون عن أعظم المنكرات، فيَوَد لو أن أحدا لا يسأل عن حكمها، أو يجهد نفسه في إعذار من فعلها بأعذار ما أنزل الله بها من سلطان، ليجعل دون "الرموز" الذين وقعوا فيها سدا وحصنا من الشروط –التي ليست في كتاب الله- لتنزيل الأحكام على أعيانهم، والموانع البدعية التي اخترعوها، ليمنعوا الحكم عليهم بما أنزل الله، وما قضية إعذار من فعل الشرك الأكبر بالجهل والتأويل والتقليد وغيرها من الأعذار –غير المعتبرة في هذا الباب- عنا ببعيد.

طاغوت مرتد.. ولا كرامة

ولنا اليوم في النزاع الحاصل حول طاغوت الإخوان المرتدين (أحمد ياسين) خير مثال؛ فالرجل رأس من رؤوس الكفر في فلسطين، خرج من الإسلام بنواقض عديدة، ليس أقلها انتماؤه إلى طائفة كفر وردة هم الإخوان المرتدون، ودعوته إليها، بل هو رأس من رؤوسها، وقد أقر على نفسه بقبوله بكفر الديموقراطية، وبرضاه عن مشاركة أتباعه فيها، بل وبأنه يريد "دولة ديموقراطية، السلطة فيها لمن يفوز في الانتخابات"، واحترامه إرادة من "يرفض إقامة دولة إسلامية"، فمن كان على حاله، أو قال بمقاله، فهو طاغوت مرتد، ولا كرامة لمن يعلن الرضا بحكم غير حكم الله ورسوله، كائنا من كان، كما قال ابن القيم، رحمه الله:

فَإذا دعوك لغير حكمهمَا فَلَا
سمعا لداعي الكفر والعصيان
قل: لَا كَرَامَة، لَا، وَلَا نعما، وَلَا
طَوْعاً لمن يَدْعُو إِلى طغيان

ولو أن رجلا من عوام الناس نطق بمثل ذلك الكفر، لما اختُلف في تكفيره كما نرى اليوم، ولكن لكونه "رمزا" مشهورا بين الناس، وخاصة بين طائفة كبيرة العدد هم الإخوان المرتدون، فإن من يتصدى لتكفيره سيعرض نفسه لردَّة فعل كثير من الطوائف التي لا تقبل بهذا الحكم فيه.

فمنهم الجهلة الذين لا تحتمل عقولهم السفيهة أن يكون رجل قاوم اليهود لعقود من الزمان يكفر بكلمة تخرج من فمه، وهذه من خزايا أهل التجهم والإرجاء الذين يخفون عن الناس حقيقة حبوط أعمال المشركين التي هي من أهم مسائل الإيمان وثوابت الاعتقاد، هذا عدا عن موانع التكفير الأخرى التي اخترعها الأبالسة وراجت بين السفهاء، كشيب لحيته، وانعدام حركته، وطول مدة سجنه.

ومنهم أنصاره وأتباعه، الذين لن يرضوا بتكفير "رمزهم"، وسيردون على من فعله باتهامه بأنه عميل لليهود، أو أنه يضعف صف المقاومين الذين يتبعون هذا "الرمز"، أو أنه بتكفيره لهذا الطاغوت يشق صف المسلمين، أخزى الله من غضِب لأمثاله... ومنهم... ومنهم...

ظلمات بعضها فوق بعض

والمصيبة لا تقتصر على التوقف في الطاغوت (أحمد ياسين) وأمثاله، فالساكت عنه ينبغي عليه –وبلا شك- السكوت عن كل من فعل فعله من المشركين أو شابه حاله، لأنه مضطر أن يعدل بينهم في الحكم، فلا يقبل منه بحال أن يكفِّر من يعلن رضاه بالديموقراطية من قادة الصحوات في الشام، وهو يعذر من قال بذلك من طواغيت الإخوان، ولذلك لجأ بعضهم إلى حيلة أن يثبت الحكم بالتكفير ثم يمتنع عن إطلاقه على فاعله، بأن يجترح لهم عذرا عاما يبرؤهم جميعا به من هذا الوصف الذي استحقوه.

وليس فيما نقوله افتراء عليه، بل هو السبب الغالب في كثير من الحالات المشابهة، كقولهم بإعذار طواغيت البرلمانات بالتأويل، لأن ممن اقترف هذا الكفر "رموز" كبار لا يجرؤ أئمة الضلال على تحكيم شرع الله –تعالى- فيهم، بتكفيرهم، هم وعبَّادهم، من أمثال (حسن البنا) و(مصطفى السباعي) وغيرهم، فإذا وسعنا البحث في حكم من أباح لهم ولأمثالهم هذا الكفر، أو أعلن الرضا به، أو دعا إلى إعانتهم عليه، فإن قائمة "الرموز" المرتدين ستصبح أطول، وحشد من سترعد أنوفهم لأجلهم أكبر، ولذلك لم يكن عند أئمة الضلال إلا أن يعذروا من ترشح للبرلمانات بالتأويل، ليخرجوا "الرموز" المرتدين وأولياءهم من دائرة التكفير التي أحاطت بهم.

بل امتد إعذار بعض هؤلاء للطواغيت إلى استباحة ما فعلوه من كفر وشرك، تخلصا من التناقض بين ما يعتقدونه وبين ما يحكمون به، ولا زال من يقترفون هذا المنكر يستدلُّون على صحة فعلهم بفعل أسلافهم من "الرموز" الذين اتخذوهم جُنَّة يتصدون بها لإنكار كل منكِر عليهم، ممن ترعبه أسماء "الرموز"، ويحسب ألف حساب قبل أن يقول فيهم كلمة تسخط أتباعهم، وإن كانت من رضا رب العالمين.

إن المسلم الحق يجعل نصب عينيه قوله تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: ٦٥]، فلا يجد في نفسه حرجا من الحكم على الناس بما حكم الله –تعالى- فيهم، وإن خالف هواه، فإنه يسلِّم لحكم الله –تعالى- لا لحكم هواه، ليكون على مراد الله لا على مراد نفسه.



أرملة شهيد بإذن الله

إن الشهادة في سبيل الله لهي أقصى الطلب ومنتهى الأرب، يجدّ لنيلها الجادون، ويبذل لها أرواحهم الباذلون، ومن منا لا يشتاق لشهادة تغسل الذنب وترضي الرب؟ غير أنه ومع عظم أمر الشهادة إلا أننا بتنا نرى جزما من كثير من الناس بشهادة زيد من الناس أو عمرو، هكذا على الإطلاق ودون تقييد بنص من أحد الوحيين -الكتاب والسنة- كما تجزم بعض زوجات المجاهدين بأن أزواجهن القتلى هم من الشهداء قطعا.

وهذا الجزم مناف لعقيدة أهل السنة والجماعة الذين لا يقطعون لمعين من أهل القبلة بجنة أو نار إلا من ورد فيه نص واضح صريح، كالعشرة المبشرين بالجنة، الذين سماهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وهم الخلفاء الراشدون الأربعة ومعهم الزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، رضي الله عنهم جميعا.

كذلك ممن شهد لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بالجنة سبطاه الحسن والحسين، وعمار بن ياسر، وبلال بن رباح، وعكاشة بن محصن، وثابت بن قيس وغيرهم من المبشرين بالجنة.

الأعمال بالخواتيم

وعلى المسلمة أن تعلم أن ظاهر المرء المسلم ليس دليلا قطعيا على أنه من أهل الجنة أو من أهل النار، وقد بوّب البخاري -رحمه الله- في صحيحه: «باب: العمل بالخواتيم»، وروى عن سهل بن سعد، أن رجلا من أعظم المسلمين غناء عن المسلمين، في غزوة غزاها مع النبي -صلى الله عليه وسلم- فنظر النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: (من أحب أن ينظر إلى الرجل من أهل النار، فلينظر إلى هذا)، فاتبعه رجل من القوم، وهو على تلك الحال من أشد الناس على المشركين، حتى جُرح، فاستعجل الموت، فجعل ذبابة سيفه بين ثدييه حتى خرج من بين كتفيه، فأقبل الرجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- مسرعا، فقال: أشهد أنك رسول الله! فقال: (وما ذاك؟) قال: قلت لفلان: (من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إليه)، وكان من أعظمنا غناء عن المسلمين، فعرفت أنه لا يموت على ذلك، فلما جُرح استعجل الموت فقَتل نفسه، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- عند ذلك: (إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم).

وكم ممن ظاهره الصلاح والتقوى ويُختم له بسوء، وكم ممن ظاهره الفساد والفجور ويُختم له بخير، وكم من امرئ عَبَد الله فصلى وصام ورابط وجاهد رياء وسمعة، وكم من امرئ أخلص النية لله تعالى ولكنه عَبَد الله على غير طريق النبي، صلى الله عليه وسلم.

أهل السنة لا يحكمون لمسلم بجنة ولا نار

ولذا فإن أهل السنة والجماعة يرجون الجنة للمحسن، ويخشون النار على المسيء من أهل الإسلام دون قطع أو جزم.

قال أحمد بن حنبل، رحمه الله: «ولا نشهد على أهل القبلة بعمل يعمله بجنة ولا نار، نرجو للصالح ونخاف عليه، ونخاف على المسيء المذنب ونرجو له رحمة الله» [أصول السنة].

وقال ابن تيمية، رحمه الله: «وهم لا يقطعون لأحد من أهل القبلة لا بجنة ولا نار، إلا من قطع له النص» [مجموع الفتاوى].

وقال محمد بن عبد الوهاب، رحمه الله: «ولا أشهد لأحد من المسلمين بجنة ولا نار، إلا من شهد له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولكني أرجو للمحسن، وأخاف على المسيء» [الدرر السنية].

وقد تقول قائلة: ولكن هذه الأقوال ليست فيمن يُقتل مجاهدا في سبيل الله، بل إن المجاهد في سبيل الله، إن قُتل فهو شهيد.

فنقول مستعينين بالله: قد بوّب البخاري -رحمه الله- في صحيحه «باب لا يقول: فلان شهيد»، قال ابن حجر تعليقا على هذا التبويب: «أي على سبيل القطع والجزم بذلك» [فتح الباري]، وجاء في الباب عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (الله أعلم بمن يجاهد في سبيله، والله أعلم بمن يُكلم في سبيله).

إني لأرجو له الخير

وعن خارجة بن زيد الأنصاري، أن أم العلاء أخبرته أن عثمان بن مظعون طار له سهمه في السكنى، حين أقرعت الأنصار سكنى المهاجرين، قالت أم العلاء: فسكن عندنا عثمان بن مظعون، فاشتكى، فمرضناه حتى إذا توفي وجعلناه في ثيابه، دخل علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله؛ فقال لي النبي، صلى الله عليه وسلم: (وما يدريك أن الله أكرمه؟) فقلت: لا أدري، بأبي أنت وأمي يا رسول الله؛ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (أما عثمان، فقد جاءه واللهِ اليقين، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعل به)، قالت: فوالله لا أزكي أحدا بعده أبدا، وأحزنني ذلك، قالت: فنمت، فأريت لعثمان عينا تجري، فجئت إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأخبرته، فقال: (ذاك عمله) [رواه البخاري].

فتأملي أختي المسلمة -أرشدك الله- كيف أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد سأل أم العلاء: (وما يدريك أن الله أكرمه؟) وفي سؤاله هذا إنكار منه لشهادتها له بأنه من المكرمين قطعا.

كم من مقاتل مأواه في النار؟

وكم من مجاهد في سبيل الله كما يبدو للناس، ويُقتل على ذلك، ولكن مأواه النار عياذا بالله؟ وليس أدل على ذلك من حديث عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- حيث قال: لما كان يوم خيبر، أقبل نفر من صحابة النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: فلان شهيد، فلان شهيد؛ حتى مروا على رجل، فقالوا: فلان شهيد؛ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (كلا، إني رأيته في النار في بردة غلها) -أو- (عباءة)، ثم قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (يا ابن الخطاب، اذهب فنادِ في الناس، أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون)، قال: فخرجت فناديت: ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون [رواه مسلم].

ولا تنس المسلمة أن ممن تسعّر بهم نار جهنم مجاهد، حسبناه في الدنيا يقاتل في سبيل الله غير أن الخبير سبحانه قد اطلع على قلبه وعلم وهو العليم أنه ما جاهد إلا رياء وسمعة، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استُشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استُشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار) [رواه مسلم].

نحسبه والله حسيبه

وإن قالت قائلة: كيف لا نحكم عليه بالشهادة وهو إذا قُتل يأخذ أحكام الشهيد كعدم الغسل والتكفين والصلاة عليه وما إلى ذلك؟

نقول حينها أن هذا ليس مدعاة للقطع لمن يُقتل مجاهدا بالجنة، بل إننا نحتسبه شهيدا عند الله -عز وجل- بما شهدنا له من ظاهره على أنه خرج لله، وقاتل فيه إعلاء لكلمته في الأرض، فندعو له بالجنة وأن يتقبله الله تعالى في الشهداء، أما الجزم له بالجنة فلا، لأن ما في قلبه لا يعلمه إلا الله، عز وجل.

وقد روى البخاري ومسلم عن أبي بكرة -رضي الله عنه- أن رجلا أثنى على رجل عند النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: (ويلك قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك)، مرارا، ثم قال: (من كان منكم مادحا أخاه لا محالة، فليقل أحسب فلانا، والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدا أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه).

وعن عبد الله بن مسعود قال: (إياكم أن تقولوا مات فلان شهيدا، أو قتل فلان شهيدا، فإن الرجل يقاتل ليغنم، ويقاتل ليُذكر، ويقاتل ليُرى مكانه) [رواه أحمد].

أرملة شهيد بإذن الله

وبناءا على ما تقدم ذكره، فلا يجوز لمسلم أو مسلمة الجزم والقطع بأن فلانا شهيد، فيا مسلمة، حتى وإن كان زوجك من أصلح الناس وأتقاهم، وأعبدهم وأزهدهم، صوّاما بالنهار قوّاما بالليل، ذاكرا لربه في جميع حاله وأحواله، هاجر في سبيل الله تعالى أو ناصر وقاتل تحت راية الحق راية الدولة الإسلامية، نصرها الله، وإن كان استشهاديا قد تقطعت أشلاؤه ذبّا عن هذا الدين، فلا ينبغي لك بحال إن هو قُتل القطع له بالشهادة، وإلا تكونين من المتأليات على الله -عز وجل- ولا تقولي أنا أرملة شهيد، بل قولي أنا أرملة شهيد بإذن الله تعالى، أو أحسبه كذلك والله حسيبه.

اللهم ارحم قتلانا واغفر لهم وتقبلهم عندك في الشهداء وجازهم عن أمة نبيّك خير الجزاء، واختم لنا بالشهادة في سبيلك يا ذا الجلال والإكرام.

تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى

مع اشتداد وطأة الحرب بين الدولة الإسلامية والتحالف الصليبي الذي تقوده أمريكا، زادت آمال الشركاء المتشاكسين، والخصوم المتنافسين، المنضوين تحت قيادة التحالف باقتراب موعد حسم المعارك، فانطلقوا يستعجلون أخذ حصتهم من الغنائم التي وعدهم بها أسيادهم الصليبيون، ما دفعهم إلى التنازع فيما بينهم على الأرض والثروات التي يمنّي كل منهم نفسه أن تكون ثمنا للخسائر الكبيرة التي مُني بها في حربه مع الدولة الإسلامية.

وعلى الجانب الآخر تقف أمريكا الصليبية وهي تحاول أن تمنع تحوّل هذا التنازع إلى صراع وقتال، يؤثر على مجريات حربهم على الدولة الإسلامية.

الصراع بين الرافضة والمرتدين في إقليم كردستان

ولعل أوضح الأمثلة على ما يجري اليوم في مناطق إقليم كردستان، حيث أحاط البيشمركة المرتدون المناطق التي تقدموا إليها -بعد أن دمّرها الطيران الصليبي- بالسواتر الترابية، ونصبوا نقاط التفتيش على مداخل ضيقة في تلك السواتر التي عدها مراقبون بمثابة حدود مؤقتة للدولة التي يطمح مرتدو الأحزاب الكردية العلمانية في إعلانها بعد انتهاء المعارك في الموصل، لاسيما وأن بعض قادته أعلنوا أن قوات البيشمركة لن تنسحب من المناطق التي سيطرت عليها، ما دفع حلفاءهم الرافضة في بغداد إلى إطلاق تصريحات مضادة بأنهم سيتوجهون للسيطرة على تلك المناطق فور انتهاء المعارك في الموصل.

بل نجد أن التنازع امتد إلى داخل إقليم كردستان، حيث الصراع القديم بين الأحزاب الكردية المرتدة في كل من أربيل والسليمانية، فقد دفعت المعارك ضد الدولة الإسلامية وحرص أمريكا الصليبية على عدم السماح بأي صراع جانبي قد يؤثر عليها، إلى تأجيل مؤقت لحلقات الصراع، وذلك في ظل تدهور كبير في الأحوال الاقتصادية، وعجز للحكومة في أربيل عن تأمين رواتب الموظفين، وتعطل البرلمان والحكومة تماما؛ بسبب رفض مرتدي الأحزاب الكردية في السليمانية لرئاسة الطاغوت مسعود البرزاني.

ولكن مع الأماني التي تجددت لدى قادة أحزاب الردة في كردستان بقرب حسم المعارك ضد الدولة الإسلامية، وبالتالي زوال المانع الأمريكي من أي تنازع قد يؤثر على سير تلك المعارك، عاد أعداء البرزاني للضغط عليه عن طريق المظاهرات، والتهديد بإخراج أجزاء واسعة من الإقليم من سيطرة البرزاني عن طريق توحيد كل من السليمانية وجمجمال وحلبجة وكركوك في إقليم واحد محكوم ذاتيا، مستقل عن إقليم كردستان، أو حتى قطع العلاقة بين تلك المناطق وأربيل (عاصمة الإقليم)، عن طريق ربطها مباشرة بالحكومة الرافضية في بغداد.

هذا الأمر دفع الطاغوت مسعود البرزاني -أخيرا- إلى الإعلان عن استعداده للتنازل عن منصب الرئاسة لصالح غيره، دون أن يهدّئ ذلك من حدة الصراع بينه وبين شركائه في الحكومة والبرلمان، في ظل سعي كل منهم للحصول على أكثر المكاسب الممكنة من مال ونفوذ، خاصة مع شعور كل منهم أن كل طرف سيستبد بما وضع يده عليه قبل حسم المعارك في الموصل، وأن تغيير الواقع الجغرافي أو السياسي بعد انتهاء هذه المعارك سيكون في غاية الصعوبة.

الصراع بين الحكومة التركية المرتدة والـPKK المرتدين

وبالمثل فإن نموذجا مشابها من الصراع بدأت ملامحه تزداد وضوحا في الشام، بين تركيا والـPKK المرتدين، اللذين يعمل كلاهما تحت ظل التحالف الصليبي الدولي.

فبعد سنوات من غض الحكومة التركية المرتدة الطرف عن تقدم الـPKK وفرض سيطرتهم على الأرض بمساعدة التحالف الصليبي الدولي والنظام النصيري، قرر الجيش التركي أن يضع حدا أمام مساعي الـPKK، ومنعهم من إقامة إقليمهم المستقل على حدودهم الجنوبية، خاصة في ظل أماني التحالف الصليبي الدولي وعملائهم من الـPKK باقتراب حسم المعارك ضد الدولة الإسلامية في الشام، والسيطرة على كامل ولايتي حلب والرقة.

وفي سبيل ذلك بادرت الحكومة العلمانية التركية المرتدة بتقديم المزيد من الخدمات للتحالف الصليبي الدولي، وذلك بالزج بجيشهم في حرب مباشرة مع الدولة الإسلامية، فضلا عن دعم الآلاف من الصحوات المرتدين بالسلاح والتدريب، وتقديم الغطاء الجوي لهم، وقصف المدن والقرى التي تسيطر عليها الدولة الإسلامية بالآلاف من الصواريخ وقذائف المدفعية والدبابات، وذلك كله في سبيل الحصول على الرضا الأمريكي عنهم، وتقديم أنفسهم بديلاً للـ PKK في مسك الأرض التي تحرقها الطائرات الصليبية، لتجبر جنود الدولة الإسلامية على الانحياز عنها.

وبمجرد عبور الجيش التركي وعملائه من الصحوات الحدود في إطار العملية العسكرية التي أطلقوا عليها مسمّى «درع الفرات» بدأ الصراع بينهم وبين الـ PKK على إرضاء الأمريكيين، والتنازع بينهم على الأرض، الأمر الذي حاولت أمريكا الصليبية جهدها أن لا يتحوّل إلى حرب مفتوحة بين الطرفين، لكن تطوّرات الأوضاع في محيط مدينة الباب تشي بأن هذه الحرب باتت واقعا، مع محاولة الـ PKK منع «درع الفرات» المرتدين من الاقتراب من مدينة الباب، وبالتالي دق (إسفين) بين مناطق سيطرتهم في كل من منبج وعفرين، بل والإعلان المستمر من الحكومة التركية المرتدة عزمها على إخراج الـ PKK من منبج إلى شرق الفرات، وذلك لإنشاء الإقليم العازل الذي يطمح الأتراك إلى إنشائه منذ زمن، والذي يبدو أن فكرته بدأت تلاقي قبولا عند الروس والأمريكيين على حد سواء.

وبالتالي فإن هذا الصراع بين كل من الـ PKK من جهة، والحكومة التركية المرتدة وعملائها من الصحوات المرتدة من جهة أخرى مرشح للمزيد من التطورات، مع تزايد أماني الطرفين بقرب حسم المعارك ضد الدولة الإسلامية، وسعي كل طرف إلى السيطرة على أكبر قدر ممكن من الأرض والموارد، وترتيب الأوضاع لصالحه قبل ذلك.

الصراع بين الحكومتين المرتدتين في طرابلس وطبرق

وسعيا لإرضاء الصليبيين عنهم، تحملت «حكومة الوفاق» المرتدة خسائر كبيرة في أرواح جنودها في معركة سرت التي اندفعوا فيها لقتال الدولة الإسلامية بدعم وغطاء جوي من التحالف الصليبي الدولي، ومع سيطرتهم على أجزاء واسعة في المدينة ظنوا أنه قد اقترب موعد الجائزة التي يطلبون الحصول عليها من الصليبيين لقاء قتالهم جنود الخلافة، وإزالتهم سلطان الشريعة الإسلامية عن مدينة سرت.

ولكن فاجأهم الطاغوت (حفتر) بسيطرته على منطقة الهلال النفطي، وحرمانهم بذلك من الموارد المالية الضخمة التي تحتويها تلك المنطقة، بالإضافة لكونها مصدر قوة لمن يملكها بإجباره الدول الأجنبية على التعامل معه للحصول على النفط الليبي الذي يُصدر أغلبه من موانئها، وتمكن حفتر بذلك من سحب البساط من تحت أقدام «حكومة الوفاق» المرتدة ليعطي مزيدا من القوة لحكومته في طبرق.

وردا على ذلك كثرت التسريبات عن احتمال نشوء صراع بين الطرفين على منطقة الهلال النفطي، الذي يغلب أن يتحول إلى حرب مفتوحة في ظل التهديد الكبير الذي بات يشكله الطاغوت حفتر على «حكومة الوفاق» المرتدة، هذا عدا الصراع المحتدم بين حكومتي «الوفاق» و«المؤتمر الوطني» ويسعى كل منهما إلى استلام السلطة في البلاد.

وبالتالي فإن الوضع في ليبيا مرشح للمزيد من الصراعات والنزاعات والتقاتل بين أطراف المرتدين المختلفة، خاصة مع أماني هذه الأطراف بقرب انتهاء المعارك مع الدولة الإسلامية التي تشكل عدوا مشتركا لهم جميعا.

وإن تصبروا وتتقوا لا يضرّكم كيدهم شيئا

إن المشركين في كل زمان يجمعهم العداء للإسلام وأهله، وتُفرِّقهم المصالح، وإنّ توقفَ الصراعات بين تلك الأصناف من المشركين التي ذكرناها إنما هو لفترة مؤقتة ليتفرغوا لقتال الدولة الإسلامية، التي ظنوا أن القضاء عليها سهل يسير فإذا بهم يقضون أعواما بانتظار حسم المعارك معها، وهو ما لم يروه إلى الآن، ولن يروه -بإذن الله- إلا والنتيجة بعكس ما كانوا يتمنون.

فلمّا طال عليهم الأمد، وخدعهم شياطينهم بقرب انتهاء المعارك ضد عدوهم المشترك، عادوا اليوم يتربصون ببعضهم، بل وبدأت بوادر الحرب بينهم تزداد وضوحا.

وإن صبر مجاهدي الدولة الإسلامية اليوم، وثباتهم، وزيادة نكايتهم في أعدائهم، وتمكّنهم من إطالة أمد الحرب لفترة أطول، من شأنه أن يزيد من الضغط على أطراف المرتدين المختلفة، ويدفع كلا منها إلى أن يسعى في سبيل مصالحه، منازعا خصومه عليها، وبالتالي تفريق الأحزاب التي اجتمعت على قتال الدولة الإسلامية اليوم، بإذن الله، ونسأل الله تعالى أن يحقق فيهم قوله: {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا} [الأحزاب: ٢٥]، وأن يعيننا على الكرّة عليهم، إنه على كل شيء قدير.

من موجبات الجهاد في جزيرة العرب

للشيخ فارس بن أحمد آل شُويل الزهراني
المعروف بأبي جندل الأزدي - تقبله الله

الأسباب الموجبة للجهاد في جزيرة العرب كثيرة جدا، وكل سبب يُعتبر أحد مفاتيح الصراع التي لو لم يُتوفر منها إلا هو لكفى به سببا موجبا للجهاد، إذ أعداء الله قد كشروا عن أنيابهم وأظهروا نواياهم وكشفوا مخططاتهم.



١- وجوب إخراج المشركين من جزيرة العرب

فإخراج المشركين من جزيرة العرب سبب رئيس في قيام الجهاد في جزيرة العرب، والأدلة على ذلك كثيرة ومتوافرة، والبحوث في ذلك منتشرة لا تخفى على كل ذي لب، لو لم يكن منها إلا حديث النبي، صلى الله عليه وسلم: (أخرجوا المشركين من جزيرة العرب) لكفى.

وإني لأتعجب ممن ما زال يطنطن حول أن هؤلاء مُعاهدون وذميون إلخ، وسأورد هنا تعريفا للذمي، وأريد من القارئ أن يطبقه على الأمريكان: «هو الكتابي -يهودي أو نصراني- وكذلك المجوسي، واختُلف في غيرهم، الذي يقيم بدار الإسلام -عدا جزيرة العرب- ويلتزم بأحكام الإسلام في المعاملات، ويدفع الجزية عن يد وهو صاغر»، ولن أطيل في الحديث هنا ولكن على القارئ أن يحكم.

كيف وقد اجتمع مع ذلك أن الحرب الصليبية الجديدة بمراحلها التي تمت، أفغانستان ثم العراق ثم... ثم... كلها انطلقت من جزيرة العرب من قاعدة الخرج وقاعدة العُديد والكويت... إلخ، فهل هؤلاء ذمّيون يا عقلاء؟!

يقول حمود العقلا الشعيبي في كتابه «القول المختار في حكم الاستعانة بالكفار»: «ولما رأيت بعض الحكومات -التي تدعي الإسلام- في الجزيرة العربية قد تجاهلت مدلول هذه النصوص، فسهّلت الطريق لدخول اليهود والنصارى إلى الجزيرة، ومكّنتهم من الإقامة فيها وتكديس ترسانات أسلحتهم المتنوعة فيها لإرهاب المسلمين... ومهاجمتهم بالأسلحة الفتاكة واستمرار الهجمات والضربات العسكرية عليهم من وقت لآخر، رأيت لزاما عليّ أن أبين هذه الحقيقة وفق ما يُفهم من كتاب الله وسنة رسوله، عليه الصلاة والسلام، فكتبت هذا البحث المختصر، وضمنته بعضا من النصوص الواردة في القرآن الكريم وفي السنة المطهّرة في هذا الشأن، كما ذكرت فيه جملة من أقوال علماء الأمة الذين أدوا الأمانة ووفوا بالعهود التي أخذها الله عليهم، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيرا».

ويقول: «لقد اتفق من يُعتد بقوله من فقهاء الأمة وعلمائها على أنها لا تجوز إقامة اليهود والنصارى والمشركين في جزيرة العرب -لا إقامة دائمة ولا مؤقتة- ما عدا أن بعض العلماء يرى جواز إقامتهم ثلاثة أيام للضرورة، ولا يجوز لمسلم أن يأذن لهم في دخولها للإقامة، معتمدين على الأحاديث الصحيحة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- والآثار الثابتة عن الصحابة، رضوان الله عليهم».

ثم أورد تلك النصوص، ثم قال: «هذه النصوص وغيرها مما لم أورده تدل دلالة قاطعة على أنه لا يجوز لليهود والنصارى وغيرهم من الكفار أن يبقوا في جزيرة العرب، وهي كما ترى في مكان من حيث الصحة والصراحة ووضوح المعنى والإحكام بحيث لا يمكن الطعن فيها بالتضعيف أو التأويل أو دعوى النسخ، وذلك أنها مخرجَّة في الصحيحين وبعضها في المسند وبعضها في السنن، وقد اتفق العلماء على أن ما اتفق على إخراجه البخاري ومسلم -رحمهما الله- أنه يفيد العلم اليقيني، لأن الأمة تلقته بالقبول والتصديق، فلا مجال للطعن فيما اتفق عليه البخاري ومسلم، وأما عدم جواز تأويلها، فذلك لأجل صراحة ألفاظها ووضوحها وكونها نصا في الموضوع لا يحتمل لفظها معنى غير المعنى الظاهر منها، وما كان كذلك فلا يصح تأويله عند علماء الأصول وغيرهم من العلماء، إنما الذي يجوز تأويله من النصوص هو الذي يكون لفظه محتملا لمعنيين فيُرجّح أحدهما لأجل قرينة تحف به، أما كونها محكمة وغير قابلة للنسخ، فلأجل أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر وأوصى بإخراجهم من جزيرة العرب في آخر حياته، كما روى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت: كان آخر ما عهد به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (لا يترك بجزيرة العرب دينان)، وكما قال الإمام مالك -رحمه الله- في الموطأ: أنه سمع عمر يقول: كان آخر ما تكلم به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (قاتل الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا يبقين دينان بأرض العرب)؛ فإذا كان الأمر كذلك، فدعوى النسخ غير واردة لمعرفة تأخّر تأريخ تكلّمه -صلى الله عليه وسلم- بذلك».

٢- وجوب إزالة الحكام المبدلين لشرع الله

ومن الأسباب الموجبة للجهاد إزالة أنظمة الكفر والردة التي حكمت بغير بما أنزل الله، وعطّلت العمل بالحدود والأحكام الشرعية، واحتكمت إلى شرائع الكفر الطاغوتية من دون شرع الله، وشرّعت التشريع المضاهي لشرع الله تعالى، ونسبت لنفسها كثيرا من خصائص وصفات الإلهية، وحلّلت الحرام وحرّمت الحلال، وحاربت الله ورسوله والمؤمنين بأساليب مختلفة ومتنوعة ترغيبا وترهيبا، وصدّت الناس عن دين الله تعالى وعن التوحيد الخالص بمكر الليل والنهار من أجل أن يتحقق لهم ذلك، وكرهت ما أنزل الله من الدين والتوحيد والجهاد، وسخِرت من دين الله ومن أوليائه، وباركت الشرك الأكبر وأقرّته ولم تُغيّره أو حتى سمحت بتغييره، ودخلت حتى العظم في موالاة أعداء الأمة من اليهود والنصارى وخدمتهم، وخدمت مصالحهم وذادت عنهم... إلخ، ولكل فقرة من هذه الفقرات عشرات الأدلة من الكتاب والسنة، فكيف بها وقد اجتمعت كلها في هذه الأنظمة الكافرة؟

٣- وجوب استنقاذ أسرى المسلمين من سجون الطواغيت

ومن الأسباب الموجبة للجهاد استنقاذ أسرانا من سجون هؤلاء الطواغيت في جزيرة العرب وقد كتبت في ذلك كتابا بعنوان «وجوب استنقاذ المستضعفين من سجون الطواغيت والمرتدين»، وذكرت فيه عشرات القصص لما يجري لإخواننا المأسورين، فك الله أسرهم، يقول الله تعالى: {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا} [النساء: ٧٥].

وقال العز بن عبد السلام: «وإنقاذ أسرى المسلمين من أيدي الكفار من أفضل القربات، وقد قال بعض العلماء: إذا أسروا مسلما واحدا وجب علينا أن نواظب على قتالهم حتى نخلصه أو نبيدهم، فما الظن إذا أسروا خلقا كثيرا من المسلمين؟!».

٤- وجوب جهاد الدفاع

ومن الأسباب الموجبة للجهاد إقامة دولة الإسلام واستعادة أموال المسلمين المنهوبة والدفاع عن أموالنا وعن أعراضنا وعن أراضينا وعن بحارنا -وقبل ذلك عن ديننا- وهذه كلها من جهاد الدفع، ولذا علينا أن نحرّك أمّتنا المسلمة لكي تذود عن كل ما سبق، والله أعلم.

تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ العَشيرَ

فعن أبي سعيد الخدري، قال: خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في أضحى أو فطر إلى المصلى، فمرّ على النساء، فقال: (يا معشر النساء تصدقن فإني أريتكن أكثر أهل النار) فقلن: وَبِمَ يا رسول الله؟ قال: (تكثرن اللعن، وتكفرن العشير) [متفق عليه].

ولتعلم المرأة اللعّانة، أن اللعن يعني الطرد من رحمة الله تعالى، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (لعن المؤمن كقتله) [رواه البخاري ومسلم عن ثابت بن الضحاك].

وعن أمِّ الدرداء قالت: سمعتُ أبا الدرداء يقول: قال رسولُ الله، صلى الله عليه وسلم: (إن العبد إذا لعن شيئا صعدت اللعنة إلى السماء، فتغلق أبواب السماء دونها، ثم تهبط إلى الأرض، فتغلق أبوابها دونها، ثم تأخذ يمينا وشمالا، فإذا لم تجد مساغا رجعت إلى الذي لُعِن، فإن كان لذلك أهلا، وإلا رجعت إلى قائلها) [رواه أبو داود].

أوبعد هذا تجرؤ مسلمة على اللعن؟ فكم من امرأة تلعن نفسها في اليوم مرات ومرات وهي لا تدري! بل إن من النساء من لا تجلد بسياط لعناتها إلا ظهور أطفالها المساكين، فما إن تغضب حتى تفريهم بلسانها فريا؛ شتما ولعنا، وما -والله- تلك بأخلاق المؤمنات الصالحات!

عن أبي هريرة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا ينبغي لصِدِّيق أن يكون لعّانا) [رواه مسلم].

ليس المؤمن بلعّان

وعن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (لا ينبغي للمؤمن أن يكون لعّانا) [رواه الحاكم].

وعن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (ليس المؤمن بطعّان، ولا بلعّان، ولا الفاحش البذيء) [رواه أحمد والترمذي].

وعن زيد بن أسلم، أن عبد الملك بن مروان، بعث إلى أم الدرداء بأنجاد [جمع نجد وهو متاع البيت الذي يزينه] من عنده، فلما أن كان ذات ليلة، قام عبد الملك من الليل، فدعا خادمه، فكأنه أبطأ عليه، فلعنه، فلما أصبح قالت له أم الدرداء: سمعتك الليلة، لعنت خادمك حين دعوته، فقالت: سمعت أبا الدرداء يقول: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (لا يكون اللعّانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة) [رواه مسلم].

وطعّان ولعّان وردتا بصيغة فعّال التي تفيد كثرة الفعل، فالطعّان الذي يطعن في أعراض المسلمين ويقدح فيها، واللعّان الذي يكثر من لعن المسلمين والمسلمات ويسب ويشتم دون رادع أو وازع، والفاحش البذيء الذي لا يتورّع عن التلفظ بكلام فاحش، والجهر بألفاظ قبيحة تشمئز منها النفوس الطيبة وتتأذى منها الأسماع.

ما له... ترب جبينه!

وأين المسلمة من أخلاق نبينا -صلى الله عليه وسلم- الذي قال عنه خادمه أنس بن مالك، رضي الله عنه: لم يكن النبي -صلى الله عليه وسلم- سبّابا، ولا فحّاشا، ولا لعّانا، كان يقول لأحدنا عند المعتبة: (ما له ترب جبينه) [رواه البخاري].

بل إنه قد نهى عن لعن الدواب فكيف بلعن مسلم أو مسلمة؟!

فقد روى مسلم عن أبي برزة الأسلمي، قال: بينما جارية على ناقة، عليها بعض متاع القوم، إذ بصرت بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وتضايق بهم الجبل، فقالت: حَلْ، اللهم العنها، قال: فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: (لا تصاحبنا ناقة عليها لعنة).

وفي رواية أخرى؛ عن عمران بن حصين، قال: بينما رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في بعض أسفاره، وامرأة من الأنصار على ناقة، فضجرت فلعنتها، فسمع ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: (خذوا ما عليها ودعوها، فإنها ملعونة) قال عمران: فكأني أراها الآن تمشي في الناس، ما يعرض لها أحد [رواه مسلم].

نعم ناقة تركوها لأنها لُعنت، وبعض النساء اليوم لا نبالغ إن نحن قلنا أن جلّ أدوات مطابخهن قد لُعنت وهذا من المضحكات المبكيات؛ فالسكين يجرحها فتلعنه، والصحن يقع من يدها فتلعنه، وإبريق الشاي الساخن يلسعها فتلعنه، وهكذا فلا يكاد يسلم شيء من لسانها، أصلحها الله.

فلتتقِ المسلمة الله في نفسها وفيمن حولها وإن كان جمادا لا حراك فيه، ولتنزه لسانها عن كل ما يخل بالإيمان ويطمس الحياء، وليكن لسانها رطبا بما زان وحسن، لا بما شان وساء.

لقد حذّرت شريعتنا الغراء -قرآنا وسنة- نساء أمتنا من جملة من المثالب والمعائب، التي قد تورد صاحبتها المهلكة، ومن تلكم الطباع السيئة المنهي عنها، التي لازمت كثيرا من النساء، كثرة اللعن وكفران العشير.

شكر الإنعام فرض

وأما مسألة كفران العشير فهي مما عمت بها البلوى بين النساء وطمت، إلا من رحم الله، والكفران جحود النعم وسترها وإخفاؤها وضده الشكران، وقد ورد تفسيره في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (أُريت النار فإذا أكثر أهلها النساء، يكفرن) قيل: أيكفرن بالله؟ قال: (يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر، ثم رأت منك شيئا، قالت: ما رأيت منك خيرا قط).

قال ابن رجب، رحمه الله: «قال القاضي أبو بكر بن العربي في شرحه: مراد المصنّف أن يبيّن أن الطاعات كما تسمى إيمانا كذلك المعاصي تسمى كفرا لكن حيث يطلق عليها الكفر لا يراد الكفر المخرج من الملة، قال وخص كفران العشير من بين أنواع الذنوب لدقيقة بديعة وهي قوله، صلى الله عليه وسلم: (لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها). فقرَنَ حق الزوج على الزوجة بحق الله فإذا كفرت المرأة حق زوجها وقد بلغ من حقه عليها هذه الغاية كان ذلك دليلا على تهاونها بحق الله، فلذلك يطلق عليها الكفر لكنه كفر لا يخرج عن الملة» [ابن رجب: فتح الباري].

وقال النووي: «وفيه أن كفران العشير والإحسان من الكبائر فإن التوعد بالنار من علامة كون المعصية كبيرة».

وقال ابن بطال: «وفي هذا الحديث تعظيم حق الزوج على المرأة، وأنه يجب عليها شكره والاعتراف بفضله؛ لستره لها وصيانته وقيامه بمؤنتها وبذله نفسه في ذلك، ومن أجل هذا فضّل الله الرجال على النساء في غير موضع من كتابه، فقال: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ} [النساء: ٣٤]، وقال: {وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} [البقرة: ٢٢٨]، وقد أمر -عليه السلام- من أسديت إليه نعمة أن يشكرها، فكيف نعم الزوج التي لا تنفك المرأة منها دهرها كله؟

وقد قال بعض العلماء: شكر الإنعام فرض. واحتج بقوله، عليه السلام: (من أسديت إليه نعمة فليشكرها)، وبقوله: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ} [لقمان: ١٤]، فقَرَنَ بشكره شكر الآباء، قال: فكذلك شكر غيرهم واجب، وقد يكون شكر النعمة في نشرها، ويكون في أقل من ذلك، فيجزئ فيه الإقرار بالنعمة والمعرفة بقدر الحاجة» [شرح صحيح البخاري].

وقال الشوكاني: «وكثيرا ما ترى المرأة إذا كلمها القريب بكلمة حسنة، وأظهر لها أدنى محبة كانت في تلك الحالة طيبة النفس بأن تصيّر إليه جميع ما تملكه وإن كان بآلاف مؤلفة، وإذا أظهر لها أدنى خشونة، وأبدى لها بعض الميل عنها كانت أشد الناس عداوة له وبغضا، وربما تمنت حال فورة غضبها نزول العظائم به، التي لو نزل عليه بعضها في تلك الحال وهي ثائرة الغضب لعادت باكية عليه».

هل جزاء الإحسان إلا الإحسان

وإن المتأمل في حال كثير من النساء يرى أن الكفران لا يتأتى منهن في حق الزوج وحسب، وإن كان له منه النصيب الأوفر، بل ويكون أيضا في كثير من الأحيان في حق صديقات المرأة وجاراتها بل وحتى أبنائها، أناس يحسنون إليها ويكرمونها، ومع أول مشكلة قد تحدث بينها و بينهم تكفر كل خير رأته منهم، وتنسى كل معروف أتاها منهم، وكأنها قد جُبلت على هذا الطبع والعياذ بالله، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (من لم يشكر الناس، لم يشكر الله) [رواه الترمذي وغيره]؛ قال المباركفوري: «قوله: (من لم يشكر الناس... إلخ) قال الخطابي هذا يُتأول على وجهين؛ أحدهما أن من كان من طبعه وعادته كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعمة الله تعالى وترك الشكر له، والوجه الآخر أن الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس ويكفر معروفهم لاتصال أحد الأمرين بالآخر» [تحفة الأحوذي].

ولا خير في خل يخون خليله
ويلقاه من بعد المودة بالجفا
وينكر عيشا قد تقادم عهده
ويظهر سرا كان بالأمس قد خفا

وختاما نعود ونقول للأخت المسلمة: اللهَ اللهَ في لسانك، تلك العضلة التي قد تلقي بك في نار جهنم، والله الله في زوجك، فوالله لن تؤدي حق ربك حتى تؤدي حق زوجك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ

بعد أن أكلت جلودَ المسلمين ولحومَهم ونفوسَهم –رجالا ونساء وولدانا– نيرانُ المرتدين الغاشمة المقذوفة من الطائرات والراجمات والدبابات، شفى الله صدور أهل الولاء والبراء بما كتبه على أيديهم من حرق أسرى الطواغيت، بينما استنكر «علماء» الطواغيت و«منظّرو» الصحوات نيران العدل تقرّبا لعروش الكفرة الطغاة وفي سبيل العصبيات الجاهلية، فتجاهلوا الخلاف، وتناسوا الأدلة، وتباكوا على إخوانهم المرتدين، حشرهم الله مع حرقى الطواغيت وهلكى الصحوات في نار جهنّم خالدين فيها أبدا، آمين.

ولقد اتّبع هؤلاء «العلماء» و«المنظرون» كفرة أهل الكتاب {الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا} [البقرة: ١٧٤]، وضُلّال أهل البدعة الذين «لا يَروون إلا ما لهم»، كما نعتهم وكيع بن الجراح، رحمه الله [أبو نعيم: تاريخ أصبهان]، وسلكوا هذا النهج في مسائل يَسع الخلاف فيها ليُفضّلوا المرتدين من الطواغيت والصحوات على الموحّدين المجاهدين من المهاجرين والأنصار، ألا ساء ما يحكمون.

فأما تجاهلهم الخلاف، فهو إخفاؤهم ما ذكره غير واحد من شرّاح الحديث بقولهم: «اختلف السلف في التحريق، فكره ذلك عمر وابن عباس وغيرهما... وأجازه عليّ وخالد بن الوليد وغيرهما» [ابن حجر: فتح الباري].

وقد حرق أبو بكر الصدّيق وخالد بن الوليد –رضي الله عنهما– بعض مانعي الزكاة وأتباع المتنبئين بالنار، وحرق علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– بعض الروافض بالنار، فقتلوا المرتدين –ردّة مغلّظة– شرّ قتلة إرهابا لمن دونهم وتشريدا لمن خلفهم، وحرق أبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب وخالد بن الوليد وعبد الله بن الزبير –رضي الله عنهم– بعض اللوطية بالنار غضبا لله وتعزيرا لهم.

والواجب على المرء فيما اختلف فيه الناس ردُّه إلى الكتاب والسنة، كما قال تعالى: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ} [الشورى: ١٠]، وقال: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} [النساء: ٥٩].

فبيّنت السنّة أن الأصل في حرق ذوات الأرواح الحُرمة، فعن أبي هريرة –رضي الله عنه– أنه قال: «بعثنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في بعث فقال: (إن وجدتم فلانا وفلانا، فأحرقوهما بالنار)؛ ثم قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حين أردنا الخروج: (إني أمرتكم أن تحرقوا فلانا وفلانا، وإن النار لا يُعذّب بها إلا الله، فإن وجدتموهما، فاقتلوهما)» [رواه البخاري].

وعن ابن عباس –رضي الله عنهما– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (لا تعذّبوا بعذاب الله) [رواه البخاري].

وأما تناسي «علماء» الطواغيت و«منظّري» الصحوات للأدلة، فهو كتمانهم بعض ما أنزله أحكم الحاكمين ليقوم الناس بالقسط، قال سبحانه: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ} [النحل: ١٢٦]، وقال: {وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} [البقرة: ١٩٤]، وقال: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} [الشورى: ٤٠]، وقال: {وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ} [المائدة: ٤٥].

وجاء في التعذيب بالنار قصاصا حديثُ العُكليين الذي رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك –رضي الله عنه «أن نفرا من عُكْل ثمانية قدموا على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فبايعوه على الإسلام، فاستوخموا الأرض [أي: لم توافقهم وكرهوها]، وسقمت أجسامهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال: (ألا تخرجون مع راعينا في إبله، فتصيبون من أبوالها وألبانها؟) فقالوا: بلى؛ فخرجوا، فشربوا من أبوالها وألبانها، فصحوا، فقتلوا الراعي وطردوا الإبل [أي: أخرجوها عن مستقرها]، فبلغ ذلك رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فبعث في آثارهم، فأُدركوا، فجيء بهم، فأمر بهم، فقُطّعت أيديهم وأرجلهم، وسَمَر أعينهم [أي: كحلها بمسامير محمية بالنار، وفي رواية: ثم أمر بمسامير فأُحميت فكحلهم بها]، ثم نُبذوا في الشمس حتى ماتوا».

وقال أنس، رضي الله عنه: «إنما سمل [أي: بمعنى سَمَرَ] النبي –صلى الله عليه وسلم– أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الرعاء» [رواه مسلم].

وبوّب البخاري على حديث العُكليين في صحيحه «باب: إذا حرق المشرك المسلم هل يُحرق؟» قال ابن حجر: «أشار بذلك إلى تخصيص النهي في قوله (باب: لا يُعذّب بعذاب الله) بما إذا لم يكن ذلك على سبيل القصاص» [فتح الباري]، لأن حقيقة السمر تحريق الأعين بالنار بواسطة المسامير المحماة، كما أشار إلى ذلك ابن المهلّب وابن بطّال وابن الملقّن وغيرهم من شرّاح الحديث.

ففي هذه الآيات شرع أحكم الحاكمين القصاص، وفي هذا الحديث حكم الصادق المصدوق –صلى الله عليه وسلم– بسمر أعين العكليين لّما سمر بعضهم أعين رعاته، وهذه الأدلة شاهدة على عدالة النيران التي أشعلها الموحدون المجاهدون في أسرى الطاغوتين الأردني والتركي، كما يشهد لعدالتها مذهب جمهور الفقهاء.

قال أبو العباس القرطبي في شرحه للحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أنس –رضي الله عنه– أن يهوديا قتل جارية على أوضاح لها [أي: لأجل حُلي لها من الفضة]، فقتلها بحجر، فجيء بها إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– وبها رمق [أي: بقية الحياة والروح]، فقال لها: (أقتلك فلان؟) فأشارت برأسها أن لا، ثم قال لها الثانية، فأشارت برأسها أن لا، ثم سألها الثالثة، فقالت: «نعم»، وأشارت برأسها، فقتله رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بين حجرين.

قال القرطبي: «فيه أن من قَتَل بشيء قُتل به، وقد اختُلف فيه، فذهب الجمهور إلى أنه يُقتل بمثل ما قَتل من حجر، أو عصا، أو تغريق، أو خنق، أو غير ذلك ما لم يَقتله بفسق كاللوطية وإسقاء الخمر، فيُقتل بالسيف، وحجّتهم هذا الحديث، وقوله تعالى: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}، وقوله تعالى: {وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ}، والقصاص أصله المساواة في الفعل، ومن هؤلاء من خالف في التحريق بالنار، وفي قتله بالعصا، فجمهورهم: على أنه يُقتل بذلك»، ثم قال: «والصحيح مذهب الجمهور لما تقدّم... لقوله تعالى: {فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}، ولحديث العرنيين [أي: حديث العكليين] على ما تقدّم» [المفهم].

وقال ابن القيم: «قد ثبت عن النبي أنه رضخ رأس اليهودي كما رضخ رأس الجارية [الرضخ: كسر الشيء ودقُّه]... ولهذا كان أصح الأقوال أنه يُفعل بالجاني مثل ما فعل بالمجني عليه ما لم يكن محرّما لحق الله كالقتل باللواطة وتجريع الخمر ونحوه، فيُحرق كما حرق، ويُلقى من شاهق كما فعل، ويُخنق كما خنق، لأن هذا أقرب إلى العدل، وحصول مسمى القصاص، وإدراك الثأر والتشفي، والزجر المطلوب من القصاص» [تهذيب السنن].

فإن تباكى دجّالو العلم والتنظير على أسرى الطواغيت، وقالوا: «لم يباشر جميع عساكر الطواغيت وطيّاروهم تحريق المسلمين!» فالجواب في حديث العُكليين نفسه، قال ابن القيم في شرحه: «في القصة دليل على قتل الجماعة وأخذ أطرافهم بالواحد، وعلى أن حكم ردء المحاربين حكم مباشرهم، فإنه من المعلوم أن كل واحد منهم لم يباشر القتل بنفسه، ولا سأل النبي –صلى الله عليه وسلم– عن ذلك» [زاد المعاد].

فهؤلاء العساكر والطيّارون جزء لا ينفصم من الطائفة الممتنعة المرتدة المحاربة للإسلام، بمجموعهم تتحقق الشوكة والمنعة للطواغيت، واللتان بهما تقع النيران الغاشمة على رؤوس المسلمين، فإن أراد دجّالو العلم والتنظير أن يُذبح أسرى الطواغيت بسكاكين الإرهاب –لا بنيران العدل– فليمنعوا أولياءهم من المضي في قصف دار الإسلام بالحارقات العاتيات.

وفي الختام: قال أبو العباس بن قدامة: «ينبغي للداخل إلى الحمّام أن يتذكر بحرارته حر النار، فإن فكرة المؤمن لا تزال تجول في كل شيء من أمور الدنيا فيذكر به أمور الآخرة، لأن الغالب على المؤمن أمر الآخرة، وكل إناء ينضح بما فيه، ألا ترى أنه لو دخل إلى دار معمورة بزّاز، ونجّار، وبنّاء، وحائك، رأيت البزّاز ينظر إلى الفرش يتأمل قيمتها، والحائك ينظر إلى نسج الثياب، والنجّار ينظر إلى سقف الدار، والبنّاء ينظر إلى الحائط، فكذلك المؤمن إذا رأى ظلمة ذكر ظلمة القبر، وإن سمع صوتا هائلا تذكر نفخة الصور، وإن رأى نعيما تذكر نعيم الجنة، وإن رأى عذابا ذكر النار» [مختصر منهاج القاصدين].

فعلى المؤمن أن يتفكّر إذا ما رأى حرق عساكر الطواغيت وجنود الصلبان، ويتذكّر أن نار جهنّم أشد حرّا، وأن يوم القيامة يغضب الجبّار –عز وجل– غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، فيحرق عصاة الموحدين بها، وتأكل من نفوسهم إلا أثر السجود، فيتعذبون ويسودُّون ويصيرون فحما، ثم يُرحمون بنهر الحياة والجنة –كما جاء في الصحيحين– أما الكفرة والمرتدون، فيُحرقون فيها خالدين فيها أبدا، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء: ٥٦].

فمن كان مُصرّا على كبائر الذنوب، فليتب قبل أن تسوقَه ذنوبه إلى ما لا يغفره الجبّار يوم القيامة، «قال بعض السلف: المعاصي بريد الكفر، كما أن القُبلة بريد الجماع، والغناء بريد الزنا، والنظر بريد العشق، والمرض بريد الموت» [ابن القيم: الجواب الكافي].

اللهم، يا مقلّب القلب، ثبّت قلوبنا على دينك، آمين.

الوَلَاءَ والبَرَاءَ يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ

لا شك أنه مع عودة الخلافة وقيام دولة الإسلام، وبعد إحياء ما غُيِّب من شرائعَ وطُمس من أحكام، استنارت عقول كثير من النساء، واستضاءت بما جاءت به شريعتنا الغراء، فغدت إماء الله في ربوع دولتنا على دراية أكثر بأمور الدين، وما ألزمهن به رب العالمين، خاصة في جانب العقيدة والتوحيد، اللذين لُوِّثا في ديار الشرك والتنديد.

أوثق عرى الإيمان

اعلمي يا أمة الله أن الإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، والولاء والبراء أصلان من أصول الإسلام بالإجماع، وهما من شهادة أن «لا إله إلا الله»، ولا يُسمى المسلم مسلما حتى يتبرأ من الكفر وأهله، وإن كان هؤلاء الأهل أقرب الأقربين.

وقد تقول المرأة: ولكن ولائي لله ورسوله والمؤمنين، وأكبر دليل على ذلك أني أعيش في دار الإسلام، وأنعم بشريعة رب الأنام!

فاعلمي أن موالاة الكفار ليست فقط بنصرتهم ومعاونتهم ومظاهرتهم على المسلمين، بل مجرد إبطان المحبة والمودة لهم ومصادقتهم هو من صور الموالاة، والمحبة والمودة محلُّهما القلب، والقلب سيد الجوارح وراعيها، روى الإمام أحمد في مسنده عن البراء بن عازب -رضي الله عنه- أنه قال: كنا جلوسا عند النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: (أي عرى الإسلام أوثق؟)، قالوا: الصلاة، قال: (حسنةٌ، وما هي بها) قالوا: الزكاة، قال: (حسنةٌ، وما هي بها) قالوا: صيام رمضان. قال: (حسنٌ، وما هو به) قالوا: الحج، قال: (حسنٌ، وما هو به) قالوا: الجهاد، قال: (حسنٌ، وما هو به) قال: (إن أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله، وتبغض في الله).

قال سليمان آل الشيخ، رحمه الله: «فهل يتم الدين أو يقام عَلَم الجهاد، أو عَلَم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بالحب في الله والبغض في الله، والمعاداة في الله والموالاة في الله؟ ولو كان الناس متفقين على طريقة واحدة، ومحبة من غير عداوة ولا بغضاء، لم يكن فرقان بين الحق والباطل، ولا بين المؤمنين والكفار، ولا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» [الدرر السنية].

بدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء

ولا ولاء من دون براء، إي نعم أنت تعيشين بين ظهراني الموحدين، وولاؤك لله ورسوله والمؤمنين، ولكن هل تبرئين من أعداء الله والدين؟

لعله يوجد على لائحة الأصدقاء على هاتفك من يسبُّ دولة الإسلام، ويناصب القائمين عليها العداء، من الأهل والأقارب والصديقات، ولعل بعض محادثاتك مع قريبات لك فيهن من العداوة والبغضاء للخلافة وجندها ما الله به عليم، ولكنك لا تجزعين لذلك ولا تبالين، بل إن منهن من تحرضك على مغادرة دار الإسلام بحجة اشتداد الحرب عليها وما إلى ذلك من الأراجيف والأباطيل!

كل هذا وأنت لا تحركين ساكنا، وتُلقين إلى أمثال هؤلاء بالمودة دون غضب لدينك وعقيدتك، بل الغضب كل الغضب تبدينه إذا منعك زوجك من التواصل مع أمثال هؤلاء، لأنهم في منظورك مجرد أقرباء!

المسلمون يقاطعون صحابياً لقعوده عن غزوة

ولقد ضرب لنا السلف أروع الأمثلة في جانب الولاء والبراء، فهذا كعب بن مالك -رضي الله عنه- يتخلف عن غزوة تبوك دون عذر، فيأتي أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- للمسلمين واضحا وضوح الشمس في رابعة النهار بمقاطعة كعب والمخلَّفين معه؛ يقول كعب -رضي الله عنه- وهو يروي قصته كما في صحيح البخاري: «ونهى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبَنا الناس، وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا، فكنت أشبَّ القوم وأجلَدَهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس، مشيت حتى تسوّرت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي»، وبقي على هذه الحال والمسلمون مقاطعون له، حتى تاب الله عليه وعلى إخوانه.

فتأملي يا أمة الله وانظري كيف قاطع المسلمون كعبا استجابة لأمر نبيهم وموالاة له! وهل فعل كعب -رضي الله عنه- ما يفعله المخلَّفون اليوم؟ حاشاه حاشاه! فمخلفو اليوم لا يكفيهم قعودهم وتخلفهم عن نصرة الحق، بل إن منهم من إذا ذُكر الجهاد وأهله عندهم سلقوهم بألسنة حداد!

دين الله أحبّ إليهم من آبائهم

ولله در عبد الله بن عبد الله بن أُبّي -رضي الله عنه- يقول أبوه رأس المنافقين: {لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} [المنافقون: ٨]، ثم يأمرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بالعودة، فيعترض عبد الله طريق أبيه قائلا: «لا أفارقك حتى تزعم أنك الذليل ومحمد العزيز»، نعم، إنه الولاء والبراء عندما يتجسَّدان في أبهى الصور وأصدقها، هنا المفاصلة والصدع، عند خَطِّي المنهج والمعتقد، فلا محاباة ولا ركون، والقضية قضية دين!

أما أم المؤمنين أم حبيبة -رضي الله عنها- فتعلِّمنا في الولاء والبراء درسا قلّ أن نرى له في أيامنا نظيرا؛ فعن الزهري قال: «لما قدم أبو سفيان المدينة والنبي -صلى الله عليه وسلم- يريد غزو مكة فكلمه في أن يزيد في الهدنة. فلم يقبل عليه. فقام فدخل على ابنته أم حبيبة فلما ذهب ليجلس على فراش النبي -صلى الله عليه وسلم- طوته دونه، فقال: يا بنية أرغبت بهذا الفراش عَنّي أم بي عَنْه؟ قالت: بل هو فراش رسول الله وأنت امرؤ نجس مشرك، فقال: يا بنية لقد أصابك بعدي شر» [سير أعلام النبلاء].

درجات الهجر في الله

وفي الختام: إنّا يا أمة الله لا نحرضك على هجران أهلك وذويك إلا من تبيَّنت لك ردّته بقول أو فعل مخرج من الملة، فهذا يُهجر ويُتبرّأ إلى الله منه ولا كرامة، كمن يناصر الأعداء ولو بحرف واحد، أو يدعو على دولة الإسلام بالهلاك والخسران في حربها مع أعدائها، أو يتمنى زوال حكم الشريعة وقيام القوانين الوضعية الوضيعة، أو يفعل غير ذلك من نواقض الإسلام ومبطلات الإيمان؛ وأمّا من هم من دون هذا في الضلال، فيُهجرون بقدر ما معهم من عصيان.

والحمد لله رب العالمين.

اغتنام أموال المشركين وتهديد اقتصادهم

في حروب النبي (صلى الله عليه وسلم)

كان أول ما بدأ به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حربه على المشركين، هو تهديد اقتصادهم والسعي لتأمين الموارد للمسلمين في دولته الفتية، وخاصة المهاجرين الذي تركوا كل شيء في ديارهم مهاجرين إلى الله تعالى.

فبالرغم من أن المهاجرين في سبيل الله تركوا أموالهم في مكة طلبا لما عند الله، فاستولى عليها المشركون، إلا أنهم ما إن أُذن لهم بالقتال في سبيل الله حتى شهروا سيوفهم يطلبون أولئك المشركين، ويسعون إلى استرداد ما بأيديهم من الأموال التي أحلها الله -تعالى- للمسلمين من أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- دون غيرهم من أتباع الأنبياء، عليهم السلام.

جُعل رزقي تحت ظل رمحي

وفي الحديث الصحيح الذي يرويه البخاري عن ابن عمر -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (جُعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري).

والمتتبع لسيرته -صلى الله عليه وسلم- يجد هذا السبيل واضحا في كثير من غزواته وسراياه، وخاصة ما يتعلق منها بقطع الطريق على قوافل قريش التجارية.

اعتراض قوافل المشركين قبل معركة بدر

فقد شهدت الفترة السابقة لمعركة بدر الكبرى (٢ هـ) إرسال كثير من السرايا لاعتراض تلك القوافل، مما كان له الأثر الكبير في استنزاف موارد المشركين واسترداد بعض ما سلبوه من المهاجرين.

قال ابن سعد: «فكان أول لواء عقده رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لحمزة بن عبد المطلب بن هاشم في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من مهاجر رسول الله، صلى الله عليه وسلم» وكان هدف السرية اعتراض قافلة لقريش قادمة من الشام، قال ابن سعد: «وفيها أبو جهل ابن هشام، في ثلاثمائة رجل. فبلغوا سيف البحر -يعني ساحله- من ناحية العيص»، ولم يقع قتال بين الطرفين رغم التقائهما بسبب حجز أحد رجال القبائل بينهما، لكن خروج السرية ووصولها إلى هدفها كان رسالة لقريش مفادها أن تجارتها إلى الشام باتت مهددة.

ثم في شوال -بعد شهر من السرية الأولى- هاجمت سرية للمسلمين بقيادة عبيدة بن الحارث قافلة أخرى لقريش ووقعت مناوشات، عند ماء يقال له (أحياء) من بطن رابغ، وبعدها بشهر أيضا في ذي القعدة خرج سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- في عشرين رجلا من المهاجرين يعترض عير قريش في الخرار [انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد].

طلب قوافل قريش في ذهابها وإيابها

ومن حرص رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على هذا الأمر أنه كان يطلب قافلة قريش في ذهابها وإيابها، ففي غزوة ذي العشيرة خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يطلب قافلة قريش في ذهابها، وهي القافلة ذاتها التي طلبها في إيابها فكانت غزوة بدر الكبرى.

قال ابن سعد: «وخرج في خمسين ومائة. ويقال في مائتين من المهاجرين ممن انتدب، ولم يُكرِه أحدا على الخروج، وخرجوا على ثلاثين بعيرا يعتقبونها... وهي العير التي خرج لها أيضا يريدها حين رجعت من الشأم فساحلت على البحر، وبلغ قريشا خبرها فخرجوا يمنعونها».

وهكذا خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مع قلة العَدد والعُدد، إذ لم يكن ليفوِّت فرصةً للتضييق على مشركي قريش بحربهم في تجارتهم، وكذلك للتوسعة على المسلمين بما يغنمونه من أعدائهم.

وفي كلام للشيخ أبي حمزة المهاجر -تقبله الله- عن هذه السرايا قال: «ولضعف حالة الصَّحابة المادية وَجَب جلبُ المال، فهو عصب الجهاد في سبيل الله، ولا بد منه لشؤون حياتهم المعيشية، وفيه استحباب الاستغناء بالغنيمة، والتعفّف عن أموال الناس حتى لو بذلوها عن طيب نفس، طالما كان للتعفّف سبيل مشروعة، ولو كان فيه خطورة على النفس، فكيف وكان في جلبه فوائد أخرى؛ من إرهابِ العدو وحصارٍ لاقتصاده، وتدميرٍ لبنيانٍ وجاهتِه التي يَستعبد بها الناس ويَستجلب بها المال» [النبي القائد].

غنائم المسلمين في بدر

وعندما سمعت قريش صياح ضمضم بن عمرو الغفاري المحذر من ضياع قافلتهم، طار صوابها، فركبوا على كل صعب وذلول لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، قال ابن هشام: «فتجهز الناس سراعا... فكانوا بين رجلين، إما خارج وإما باعث مكانه رجلا. وأوعبت قريش، فلم يتخلف من أشرافها أحد»، ثم قدَّر الله -تعالى- أن تقع في بدرٍ الحربُ الفاصلة بين المسلمين والمشركين التي كان من نتائجها إضافة إلى كسر هيبة المشركين والتنكيل بهم، اغتناء المسلمين والتوسعة عليهم في معيشتهم، فعن عبد الله بن عمرو: «أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خرج يوم بدر في ثلاث مائة وخمسة عشر، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (اللهم إنهم حفاة فاحملهم، اللهم إنهم عُراة فاكسُهم، اللهم إنهم جياع فأشبعهم)، ففتح الله له يوم بدر فانقلبوا حين انقلبوا وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين، واكتسوا وشبعوا» [رواه أبو داود].

اعتراض قوافل قريش بعد غزوة بدر

ولم تتوقف هذه السرايا بعد غزوة الفرقان، بل كانت عيون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لا تنفك تراقب تحركات قوافل قريش. ففي جمادى الآخرة (٣ هـ) أرسل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سرية زيد بن حارثة إلى (القردة) ليرصد عيرا لقريش خرجت على طريق العراق، قال ابن سعد في طبقاته: «فبلغ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمرهم، فوجَّه زيد بن حارثة في مائة راكب فاعترضوا لها، فأصابوا العير وأفلت أعيان القوم. وقدموا بالعير على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فخمَّسها، فبلغ الخمس فيه عشرين ألف درهم، وقسّم ما بقي على أهل السرية»، وهكذا يقطع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على قريش كل الطرق، ويغنم المسلمون غنيمة جديدة يقوون بها أنفسهم للحرب القادمة.

الحرب الاقتصادية تذلّ المشركين

ولقد كان لهذه الحرب عظيم الأثر على المشركين، فقد رأينا مآل قادة المشركين في بدر الذين خرجوا في الأصل حماية لقافلتهم، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن هذه الحرب أذلّت المشركين وجعلتهم يطلبون إيقافها صاغرين، في موقفين مختلفين:

الأول عندما أسلم ثمامة بن أثال وأعلن قطع الحنطة عن قريش، كما جاء في حديث إسلام ثمامة الطويل في صحيح البخاري: «فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟ قال: لا، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي، صلى الله عليه وسلم»، ويروي ابن هشام تفاصيل ما حدث بعد ذلك فيقول: «ثم خرج إلى اليمامة، فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئا، فكتبوا إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم: إنك تأمر بصلة الرحم، وإنك قد قطعت أرحامنا وقد قتلت الآباء بالسيف، والأبناء بالجوع، فكتب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إليه أن يخلي بينهم وبين الحِمل».

وأما الموقف الآخر فهو بعد عدة هجمات قام بها أبو بصير -رضي الله عنه- على قوافل قريش إبّان صلح الحديبية، كونه ومن هاجر من الصحابة في تلك الفترة خارج اتفاق الصلح وفقا لأحد شروطه، لكن قريش رضخت وألغت ذلك الشرط حرصا على اقتصاد قوافلها، كما سبق بيانه في مقالة سابقة.

منهجٌ لجنود الخلافة

وبفضل الله -تعالى- يسير جنود دولة الإسلام اليوم على المنهج ذاته، فهم الذين منّ الله عليهم بأن بنوا دولتهم بجهادهم، وغنائمهم من أعدائهم، وحاربوا اقتصاد عدوهم بكل سبيل أمكنهم، فليسوا كمن سلك سبيل استجداء أموال الداعمين ورضاهم، وهذا تاريخ جند الخلافة شاهد على صنائعهم، وما وقائع السيطرة على حقول الغاز والنفط وضرب السياحة في عدد من دور الكفر المحاربة لدولة الإسلام، إلا نماذج من هذه الحرب، نسأل الله النصر والتمكين لجنده والهزيمة والخسران لأعدائه.



إيّاكم والكِبر

إن للشيطان الرجيم مكايد ومصايد، وأدرانا تسود منها القلوب، وفي الحديث: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب) [متفق عليه].

ومن الأمراض التي يجتهد الشيطان في أن تصيب قلب المسلم الكِبْر والخُيلاء، والكبر هو أن يرى الإنسان نفسه كبيرة، فيزدري بذلك غيره من الخلق ويحتقرهم، والخيلاء: يقال اختال الرجل في مشيته، أي تبختر ومشى مزهوا بنفسه معجبا.

ولقد عرّف النبي -صلى الله عليه وسلم- الكبر خير تعريف وأجمعه لما سأله رجل: «إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة؟» فقال: (إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس) [رواه مسلم]، وبطر الحق دفعه ورده على صاحبه، وغمط الناس احتقارهم.

وفي جواب النبي -صلى الله عليه وسلم- على سؤال الرجل السائل دليل على جواز الزينة ولبس الجميل، ولكن ليس للتفاخر على الناس وازدرائهم.

وهذان -أي: الكبر والخيلاء- من أخبث الأدواء، كيف لا وما أخرج إبليسَ من نعيم الجنة إلا كبرُه، إذ عصى ربه وامتنع عن السجود لآدم -عليه السلام- وقال: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [الأعراف: ١٢]، بل ويتساءل إبليس اللعين كما ذكر الله عنه في آية أخرى بكل كبر واستعلاء: {أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا} [الإسراء: ٦١].

والكبر من كبائر الذنوب التي حرمها الله -تعالى- فقال عز وجل: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [القصص: ٨٣]، وقال أيضا: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [لقمان: ١٨]، وعن ابن عباس في تفسير قوله سبحانه {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ}، قال: «ولا تتكبر، فتحقر عباد الله، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلّموك» [تفسير الطبري].

وإنّ قارون كان من المستكبرين في الأرض فخسف به الله -تعالى- داره جزاء وفاقا على تكبره واستعلائه على الناس.

ومن الناس من قد فتك الكِبر بقلبه، إما لمال، أو نسب، أو حسب، أو علم، أو منصب، أو مكانة؛ إذا جلس بين الناس أكمخ، وإذا تكلم زمخ بأنفه وشمخ.

وليته علم أن عقوبة المستكبرين النار في الآخرة، وقد ثبت ذلك في أكثر من حديث، فعن ابن مسعود عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر) [رواه مسلم].

وعن أبي هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (يقول الله، عز وجل: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في جهنم) [رواه مسلم].

وعن أبي هريرة أيضا أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (احتجت النار، والجنة، فقالت هذه: يدخلني الجبارون والمتكبرون؛ وقالت هذه: يدخلني الضعفاء والمساكين؛ فقال الله -عز وجل- لهذه: أنت عذابي أعذب بك من أشاء -وربما قال: أصيب بك من أشاء- وقال لهذه: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها) [رواه مسلم].

ومن يتكبر اليوم في مجالس الدنيا على غيره من المسلمين، لهو من أبغض الناس للنبي -صلى الله عليه وسلم- وأبعدهم منه مجلسا يوم القيامة، فعن جابر أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون)، قالوا: «يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟» قال: (المتكبرون) [رواه الترمذي].

وقد ثبت في صحيح مسلم دعاء النبي -صلى الله عليه وسلم- على رجل عاند بسبب كبره، فعن سلمة بن الأكوع أن رجلا أكل عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بشماله، فقال: (كل بيمينك)، قال: «لا أستطيع»؛ قال: (لا استطعت)، ما منعه إلا الكبر، فما رفعها إلى فيه؛ قال النووي: «وفي هذا الحديث جواز الدعاء على من خالف الحكم الشرعي بلا عذر».

هذا والنبي -صلى الله عليه وسلم- من أحلم الناس وأرحمهم وأكثرهم عفوا، ولكنه لما علم أن ما دفع هذا الرجل إلى رد أمره إنما هي أنفته واستكباره على الحق دعا عليه.

وعن حارثة بن وهب الخزاعي، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضاعف، لو أقسم على الله لأبره؛ ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلٍّ جوّاظٍ مستكبر) [رواه البخاري ومسلم]، والجواظ المتكبر.

وعن أبي هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم) [رواه مسلم]، ولسائل أن يسأل: ما الدافع لاحتقار الآخرين؟ وهل يحتقر المرء أحدا مثله؟ لا، وإنما هو الكبر -والعياذ بالله- الذي يجعل المرء يعجب بنفسه وبما آتاه الله من فضله، فيرى نفسه أكبر وأفضل من غيره.

ونسي هذا أن من تواضع لله رفعه، فالمال زائل، والبدن آخره دود وتراب إن لم يكن أشلاء تتناثر هنا وهناك، والعلم إن لم يُرد به وجه الله -تعالى- فوبال ونكال، والمناصب والأنساب في الآخرة لا تنفع، ولا تحط ولا ترفع، إنما هي صالح الأعمال ومن أتى الله بقلب سليم.

وكما أن الكبر من صفات الله -ولا يجوز لمخلوق أن يشاركه فيه ولا ينبغي لأحد غيره- ففي المقابل نجد أن التواضع من صفات المخلوقين، بل من أكرم أخلاقهم وأحسنها.

عن أنس، قال: «كانت ناقة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- تُسمّى العضباء، وكانت لا تُسبق، فجاء أعرابي على قعود له فسبقها، فاشتد ذلك على المسلمين، وقالوا: سُبقت العضباء! فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إن حقا على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه)» [رواه البخاري].

قال ابن بطال: «في حديث أنس بيان مكان الدنيا عند الله من الهوان والضعة، ألا ترى قوله، صلى الله عليه وسلم: (إن حقاً على الله ألّا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه)، فنبّه بذلك أمته -صلى الله عليه وسلم- على ترك المباهاة والفخر بمتاع الدنيا، وأن ما كان عند الله في منزلة الضعة، فحق على كل ذي عقل الزهد فيه وقلة المنافسة في طلبه، وترك الترفع والغبطة بنيله، لأن المتاع به قليل والحساب عليه طويل» [شرح صحيح البخاري].

ويُروى عن أم المؤمنين عائشة الهاشمية القرشية، الصديقة بنت الصديق، العالمة المحدثة الفقيهة، زوج النبي -صلى الله عليه وسلم- في الدنيا والآخرة، المبرأة من فوق سبع سماوات، التي إن ذهبنا نعد خصالها ومناقبها لطال بنا المقال، وحق لمثلها أن تفتخر، يُروى عنها أنها كانت تقول: «إنكم تَغْفُلُونَ أفضل العبادة: التواضع» [رواه أحمد في الزهد].

ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يخيّره الله -عز وجل- بين أن يكون ملِكا نبيّا أو عبدا رسولا فيختار الثانية، ويفتح عليه فتحا مبينا، فيدخل مكة مطأطأ رأسه، حتى لتكاد تمس مقدمة رحله، تواضعًا منه لله -عز وجل- وتذللا.

وعن أنس، قال: «إن كانت الأَمَة من إماء أهل المدينة، لتأخذ بيد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فتنطلق به حيث شاءت» [رواه البخاري]؛ والمراد من الأخذ باليد طلب المساعدة، فينقاد لها النبي -صلى الله عليه وسلم- ويمضي بها إلى أي موضع من المدينة فيه حاجتها فيقضيها لها بقلب راض ونفس متواضعة، هذا وهي جارية لا حرة!

بل لقد كان مع الإجماع على أنه خير البشر كلهم إلا أنه يقدّم غيره من الأنبياء عليه تواضعا لله -تعالى- فعن أبي هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} [البقرة: ٢٦٠] ويرحم الله لوطا، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف، لأجبت الداعي) [رواه الخباري ومسلم].

فليحذر المؤمن كل الحذر من ذرة كبر تدخل قلبه، وإن من الرجال والنساء من يتكبّر حتى لو أخطأ بحق الآخرين، ويرى في الاعتذار وطلب الصفح مذلة لهم، بل ويتكبر أيضا على أقرب الناس له، كالوالدين أو الزوج أو الأبناء، ومثل هذا واقع في كبيرة توجب سخط الربّ، والله المستعان.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلِّ اللهم وسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين.

إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ

قال أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية -رحمه الله- في قوله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨]: «والمعنى: أنه لا يخشاه إلا عالم، فقد أخبر الله أن كل من خشي الله فهو عالم، كما قال في الآية الأخرى: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر: ٩]، والخشية أبداً متضمنة للرجاء، ولولا ذلك لكانت قنوطاً، كما أن الرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمناً، فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله.

وقد روي عن أبي حيان التيمي أنه قال: العلماء ثلاثة: فعالم بالله ليس عالماً بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس عالماً بالله، وعالم بالله عالم بأمر الله. فالعالم بالله هو الذي يخافه، والعالم بأمر الله هو الذي يعلم أمره ونهيه. وفي الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلمكم بحدوده).

وإذا كان أهل الخشية هم العلماء الممدوحون في الكتاب والسنة، لم يكونوا مستحقين للذم، وذلك لا يكون إلا مع فعلهم الواجبات، ويدل عليه قوله تعالى: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ} [إبراهيم: ١٣ - ١٤]، وقوله: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمن: ٤٦]، فوَعَدَ بنصر الدنيا وثواب الآخرة لأهل الخوف، وذلك إنما يكون لأنهم أدوا الواجب، فدل على أن الخوف يستلزم فعل الواجب، ولهذا يقال للفاجر: لا يخاف الله.

ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ} [النساء: ١٧].

من علم بالله أطاعه

قال أبو العالية: سألت أصحاب محمد عن هذه الآية، فقالوا لي: كل من عصى الله فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب. وكذلك قال سائر المفسرين. قال مجاهد: كل عاصٍ فهو جاهل حين معصيته. وقال الحسن وقتادة وعطاء والسُّدِّي وغيرهم: إنما سُمُّوا جهالاً لمعاصيهم، لا أنهم غير مميِّزين. وقال الزجّاج: ليس معنى الآية: أنهم يجهلون أنه سوء، لأن المسلم لو أتى ما يجهله كان كمن لم يواقع سوءاً، وإنما يحتمل أمرين:

أحدهما: أنهم عملوه وهم يجهلون المكروه فيه.

والثاني: أنهم أقدموا على بصيرة وعلم بأن عاقبته مكروهة، وآثروا العاجل على الآجل، فسُمُّوا جهالاً لإيثارهم القليل على الراحة الكثيرة، والعافية الدائمة. فقد جعل الزجّاج الجهل إما عدم العلم بعاقبة الفعل، وإما فساد الإرادة، وقد يقال: هما متلازمان، وهذا مبسوط في الكلام مع الجهمية.

والمقصود هنا أن كل عاص لله فهو جاهل، وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله، وإنما يكون جاهلاً لنقص خوفه من الله، إذ لو تم خوفه من الله لم يعص. ومنه قول ابن مسعود، رضي الله عنه: كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً، وذلك لأن تصور المخوف يوجب الهرب منه، وتصور المحبوب يوجب طلبه، فإذا لم يهرب من هذا، ولم يطلب هذا، دلَّ على أنه لم يتصوره تصوراً تاماً، ولكن قد يتصور الخبر عنه، وتصوُّر الخبر وتصديقه وحفظ حروفه غيرُ تصور المُخبَر عنه، وكذلك إذا لم يكن المتصوَّر محبوباً له ولا مكروهاً، فإن الإنسان يصدِّق بما هو مخوف على غيره ومحبوب لغيره، ولا يورثه ذلك هرباً ولا طلباً. وكذلك إذا أُخبر بما هو محبوب له ومكروه، ولم يكذب المُخبِر بل عرف صدقه، لكن قلبه مشغول بأمور أخرى عن تصور ما أُخبر به، فهذا لا يتحرك للهرب ولا للطلب.

من لم يعمل بعلمه جاهل

وفي الكلام المعروف عن الحسن البصري ويروى مرسلاً عن النبي، صلى الله عليه وسلم: «العلم علمان: فعلم في القلب، وعلم على اللسان. فعلم القلب هو العلم النافع، وعلم اللسان حجة الله على عباده».

وقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي موسى، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (مَثَل المؤمن الذي يقرأ القرآن مَثَل الأُتْرُجَّة، طعمها طَيِّب وريحها طيب. ومَثَل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مَثَل التمرة، طعمها طيب، ولا ريح لها. ومَثَل المنافق الذي يقرأ القرآن مَثَل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر. ومَثَل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مَثَل الحَنْظَلَة، طعمها مر، ولا ريح لها). وهذا المنافق الذي يقرأ القرآن يحفظه ويتصور معانيه، وقد يصدّق أنه كلام الله، وأن الرسول حق، ولا يكون مؤمنا، كما أن اليهود يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وليسوا بمؤمنين، وكذلك إبليس وفرعون وغيرهما. لكن من كان كذلك، لم يكن حصل له العلم التام والمعرفة التامة. فإن ذلك يستلزم العمل بموجبه لا محالة، ولهذا صار يُقال لمن لم يعمل بعلمه: إنه جاهل، كما تقدّم.

وكذلك لفظ [العقل] وإن كان هو في الأصل: مصدر عَقَل يَعْقِل عَقْلاً، وكثير من النظار جعله من جنس العلوم فلا بد أن يُعد علما يُعمل بموجبه، فلا يسمى عاقلاً إلا من عرف الخير فطلبه، والشرَّ فتركه؛ ولهذا قال أصحاب النار: {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [الملك: ١٠]، وقال الله -تعالى- عن المنافقين: {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ} [الحشر: ١٤]، ومن فعل ما يعلم أنه يضره؛ فمثل هذا ليس له عقل، فكما أن الخوف من الله يستلزم العلم به، فالعلم به يستلزم خشيته، وخشيته تستلزم طاعته، فالخائف من الله ممتثل لأوامره مجتنب لنواهيه، وهذا هو الذي قصدنا بيانه أولا.

سيذّكّر من يخشى

ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: {فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى} [الأعلى: ٩ - ١٢] فأخبَرَ أن من يخشاه يتذكر، والتذكر هنا مستلزم لعبادته، قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ} [غافر: ١٣]، وقال: {تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ} [ق: ٨]؛ ولهذا قال المفسرون في قوله: {سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى}: سيتعظ بالقرآن من يخشى الله، وفي قوله: {وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ}: إنما يتعظ من يرجع إلى الطاعة. وهذا لأن التذكُّر التام يستلزم التأثر بما تذكَّره، فإن تذكر محبوباً طلبه، وإن تذكر مرهوباً هرب منه، ومنه قوله تعالى: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [البقرة: ٦]، وقال سبحانه: {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ} [يس: ١١]، فنفى الإنذار عن هؤلاء مع قوله: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}، فأثْبَت لهم الإنذار من وجه، ونفاه عنهم من وجه؛ فإن الإنذار هو الإعلام بالمخوف، فالإنذار مثل التعليم والتخويف، فمن عَلَّمْتَه فتعلَّم فقد تم تعليمه، وآخر يقول: علَّمته فلم يتعلم. وكذلك من خوَّفته فخاف، فهذا هو الذي تم تخويفه. وأما من خُوِّف فما خاف، فلم يتم تخويفه. وكذلك من هديته فاهتدى، تم هداه، ومنه قوله تعالى: {هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ٢]، ومن هَدَيته فلم يهتدِ كما قال: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} [فصلت: ١٧] فلم يتم هداه، كما تقول: قطعته فانقطع، وقطعته فما انقطع.

فالمؤثر التام يستلزم أثره، فمتى لم يحصل أثره لم يكن تاماً، والفعل إذا صادف محلاً قابلاً تم، وإلا لم يتم. والعلم بالمحبوب يورث طلبه، والعلم بالمكروه يورث تركه؛ ولهذا يسمى هذا العلم: الداعي، ويقال: الداعي مع القدرة يستلزم وجود المقدور، وهو العلم بالمطلوب المستلزم لإرادة المعلوم المراد، وهذا كله إنما يحصل مع صحة الفطرة وسلامتها، وأما مع فسادها، فقد يحس الإنسان باللذيذ فلا يجد له لذة بل يؤلمه، وكذلك يلتذ بالمؤلم لفساد الفطرة، والفساد يتناول القوة العلمية والقوة العملية جميعاً، كالممرور الذي يجد العسل مراً، فإنه فسد نفسُ إحساسه حتى كان يحس به على خلاف ما هو عليه للمُرة التي مازجته، وكذلك من فسد باطنه، قال تعالى: {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأنعام: ١٠٩ - ١١٠]». انتهى كلامه -رحمه الله- من كتاب الإيمان بتصرف يسير.

أحبب من شئت.. فإنك مفارقه

من الجميل أن يكون لأحدنا أحبة، يطيب العيش بأنسهم، وتحلو المجالس برفقتهم، يهوّنون علينا مصائب الدنيا، ويذكروننا بالآخرة، ولا بد لهذه المَحَبة بيننا وبينهم أن تكون لله وفي الله تعالى، عسى أن نكون بذلك من السبعة الذين يظلهم رب العرش بظله، يوم لا ظل إلا ظله، وقد ذكرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في الحديث المتفق عليه وعدّ منهم: (ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه)، ورجلان في الحديث لا تعني أن الأمر مقتصر على جنس الرجال، فالخطاب في لغة العرب يأتي أصالة للرجال وتدخل فيه النساء تبعا، ما لم يدل دليل أو قرينة على التخصيص.

الحب في الله عبادة

وكما أن المحبة في الله عمل صالح، بل إنها من أوثق عرى الإيمان، فكذلك من المحبة ما هو مضاد للإيمان، ونقصد بها المحبة التي تُفضي إلى معصية أمر الله تعالى، كمحبة من أمر الله ببغضهم والتبرؤ منهم، كالكفار والمشركين، وأهل الفسق والنفاق، كلٌّ بقدر معصيته لله تعالى، أو المحبة التي تمنع العبد من طاعة الله، أو تدفعه إلى معصيته، لتقديمه محبة البشر على محبة الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، فاستحق بذلك الوعيد من الله – سبحانه- كما في قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: ٢٤].

فالمسلمة تتعبد الله -سبحانه- بمحبة المسلمين عموما، وموالاتهم ونصرتهم، وكذلك بمحبة الصالحين من أهلها، والصالحات من قريباتها وصويحباتها، ولأن هذه المحبة لا تخرج عن كونها عبادة لله سبحانه، فإنه لا يصح بأي حال أن تتحول إلى معصية لله، باستمرار حصولها لمن ارتد عن دينه من الأهل والقرابة والزوج والولد، أو أن تقف تلك المحبة حائلا دون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل والهجر، في حق من عصى من الأحبة خوف إغضابهم.

أحبب حبيبك هوناً ما

ولا يُقبل أن تكون المحبة سببا في إلحاق الضرر بالآخرين عن طريق الإثقال عليهم، وإشغال أوقاتهم، والتطفل على حيواتهم وخصوصياتهم بدعوى المحبة والسؤال عن الأخبار.

ففي كثير من الأحايين، نرى مبالغة من بعض النساء في تعلقهن ببعضهن البعض، بل قد تتعلق إحداهن بأخت لها في الله تعلقا مذموما غير محمود، وقد غاب عن هؤلاء أن المسلم يجب أن يكون وسطا في جميع شأنه، فقد جاء في جملة من الأحاديث والآثار ما يضبط ميزان المحبة بين المسلمين وينأى بالمسلم والمسلمة عن الإفراط أو التفريط؛ عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة -أراه رفعه- قال: (أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما) [رواه الترمذي].

أي أحبب حبيبك من أهل الإسلام حبا مقتصدا لا إفراط فيه، وأبغض بغيضك من أهل الإسلام أيضا بغضا مقتصدا لا إفراط فيه، ومردّ هذه النصيحة أنه ما سمي القلب قلبا إلا لتقلبه، والقلوب بين أصابع الرحمن يقلبها كيفما شاء. وكما قيل:

ما سُمِّي القلب إلا من تقلبه
فاحذر على القلب من قلب وتحويل

وقد يفرط المرء في حب خليله ويحصل بينهما يوما ما يكون مدعاة للبغض والقطيعة، فيندم حينها على تلك المحبة المفرطة التي أكنها له، وكذلك قد يفرط في بغض شخص ما، ويحصل بينهما يوما ما يكون مدعاة للود والمحبة، فيندم على ما حمله له سابقا من مشاعر كره وبغض.

قال الحسن البصري، رحمه الله: «أحبوا هونا، وأبغضوا هونا، فقد أفرط أقوام في حب أقوام، فهلكوا، وأفرط أقوام في بغض أقوام فهلكوا» [شرح السنة للبغوي].

لا يكن حبُّك كَلَفا

وعن زيد بن أسلم، عن أبيه عن عمر بن الخطاب قال: «لا يكن حبك كَلَفا، ولا بغضك تلفا، فقلت: كيف ذاك؟ قال: إذا أحببت كَلِفت كَلَف الصبي، وإذا أبغضت أحببت لصاحبك التلف» [رواه البخاري في الأدب المفرد].

والكَلَف بفتح الكاف يعني مجاوزة حد المحبة، كأن تجد إحدى المسلمات وقد بالغت في ذلك، فتراها وقد ضيّقت على صديقتها بكثرة التلاقي والاتصال، والحديث والسؤال، دون أن تأخذ بعين الاعتبار أن صويحبتها تلك لها حياتها الخاصة والتزاماتها، فإن هي مثلا اعتذرت يوما عن الحديث معها لشاغل شغلها، أو عن زيارتها لها لظرف أو مانع، استاءت وتبرمت، وربما عدَّت ذلك خدشا في أنفتها، وقدحا في عزة نفسها وهي التي أحبتها في الله واختارتها صديقة دون الكثير من النساء، والله المستعان.

ورحم الله الفضيل بن عياض رحمة واسعة إذ يقول: «المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب الزلات».

أحبب من شئت فإنك مفارقه

ثم إن هذه الدنيا دار سفر وفراق، وما القرار إلا في دار القرار، فوطِّني قلبك على أنه ما من حبيب إلا وسيفارقنا أو نفارقه، تلك سنة قد خلت في الأولين والآخرين، وقد جاء جبريل -عليه السلام- إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: «يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من أحببت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به» [رواه الحاكم في المستدرك].

والفراق قد يكون بالموت، وقد يكون بسواه، من انتقال ونحوه، والهجرة في سبيل الله نوع من أنواع المفارقة للأحبة في سبيل الله، إذ يفارق المهاجر في سبيل الله أهله وعشيرته وأحبابه، طلبا لرضا العزيز الحكيم الذي أمر عباده بالتحول عن الدار إن علاها الكفر، إلى دار الإسلام التي تعلوها شريعة الرحمن، وهذه المفارقة في الله جعلها -جل جلاله- من أعلى مراتب الإيمان، وعلامة من علاماته، كما في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة: ٢١٨].

وإن توطين النفس على مفارقة الأحبة والأقارب يزداد أهمية عند المجاهد في سبيل الله وعند أهله، إذ إن من ضرورات الجهاد ومصلحة المسلمين تدفع ولاة الأمور إلى نقل الجنود من مكان لآخر لسد الثغور والقيام على شؤون البلاد ومصالح العباد، وما على المجاهد إلا أن يسمع ويطيع، ويصبر ويحتسب، هو وأهله، فلا يصدنَّ أحداً منهم عن الانتقال اعتيادٌ على مكان، أو ارتباطٌ بأحباب وخلان، بل ليتقرب العبد إلى الله بتقديم أمره بطاعة ولاة الأمر على ما سوى ذلك من المنافع والمحبوبات. والحمد لله رب العالمين.

تَوكّلُوا عَلى الله لا على عُدَدِكم

لا يُجادِل مسلمان اثنان في أنَّ إعداد العُدة للجهاد في سبيل الله من الأمور الواجبةِ المطلوبة، وقد حثَّ الله سبحانه وتعالى عليها في كتابه الكريم بقوله: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [الأنفال: ٦٠]، ولا شكَّ أنَّ إعداد العدة من الأمور التي تُعين على النصر والظفر على الأعداء.

وقد امتثل جنود الخلافة -بفضل الله عزوجل- لهذا الأمر الإلهي، فأعدوا ما وفقهم الله له، وقد رأى العدو من ذلك شيئا يسيرا، والقادم بإذن الله أدهى وأمر، إلَّا أنَّه لا ينبغي للمسلم الموحِّد أن يجعل اعتمادَه وتوكلَّه على ما أعدَّه واستعدَّ به، بل عليه أن يَتبرَّأ من حوله وقوَّته إلى حول الله وقُوَّته، وألَّا تغرَّه هذه القوة في شيء، فهي وإن كان إعدادها سببا من أسباب النصر، فإن الاغترار بها سبب من أسباب الهزيمة،

ولنا في سيرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، ولنا فيما أصابهم يوم حنين عظة وعبرة، قال تعالى: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} [التوبة: ٢٥-٢٦].

قال ابن كثير في تفسيره: «ذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله وأن ذلك من عنده تعالى، وبتأييده وتقديره، لا بِعَددهم ولا بعُدَدهم، ونبَّههم على أنَّ النَّصر من عنده، سواء قلَّ الجمع أو كثر، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئا فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم أنزل [الله] نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه».

فيا أيُّها المجاهد الموحد كن على علم بأن إعدادك امتثالٌ لأمر الله وأن النصر إنما يأتي من عنده سبحانه، وأنك بالتزامك طاعته وانتهائك عما نهى عنه يُكتب لك النصر والظفر، واعلم أنَّه كما أمرك بإعداد العدة فقد أمرك بالتوكل عليه وحده لا على شيئ سواه، قال تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [الطلاق: ٣].

وليعلم المجاهد الموحِّد أن تزعزع النيات وتقلب القلوب أشد عليه وأخطر من الحشود مهما بلغت ومن طائرات العدو مهما كثرت وقصفت، فليحرص على هذا القلب أشد الحرص، وليحذر من إبليس ووساوسه فإن حرصه على تغيير النيات عظيم، وهو لا يسأم منه حتى تفارق الروح الجسد، وليكن قلبه دائما معلقا بالله وحده لا ينزعه عن ذلك التعلّق شيء.

وليحذر من عبارات قد تطلقها الألسنة ما يلبث أثرها أن يصل إلى القلوب، من مثل «أن الاستشهاديين -مع عظيم نكايتهم بأعداء الله- يحسمون المعارك»، أو أنه «ما دام معنا سلاح كذا، فلن نهزم أو نغلب»، أو أن «ما أعددناه من وسائل كاف لإلحاق الهزيمة بالأعداء»، وليكن لسان حال المجاهد ومقاله ومعتقد قلبه الجازم أنه لا معوّل ولا اعتماد على ما أعده -وإن عظم- إلا من جهة أنه استجاب لأمر الله به.

يا أيها المجاهد يا من خرجت لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، يا من ضحيت بكل شيء ليسود التوحيد أرجاء العالم، توحيدُك لا تكن ممن يُنقِصه أو يخرمه، فتوكل على الله حق التوكل، فهو مصرّف الأمور مسبّب الأسباب بأمره سبحانه وتعالى.

لحوم الأزواج مسمومة

إن العلاقة بين الزوج وزوجته تتجاوز حدود هذه الدنيا، لتسمو بأبعادها الأخروية فوق مجرد الشهوة والمتعة، ريثما يأذن الله -تعالى- ويحط المؤمنون والمؤمنات في جنات الخلد الرحال، مصداقا لقول الكبير المتعال: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ} [الرعد: ٢٣]، وإن من حكمة الله العزيز أن جعل من الكمال في بني البشر أمرا متعذر النوال، وجعلنا ناقصين خطائين، ولذلك فإن المشاكل الأسرية لا يكاد يخلو منها بيت بحال.

ولكن بعض الأزواج -أصلحهم الله- من النساء كانوا أو الرجال، لا يتورعون عن هتك أستار بيوتهم بالقيل والقال، فنجد في كثير من الأحيان أزواجا يذكرون ما يحدث بينهم وبين زوجاتهم من مشاكل في مجالسهم الخاصة والعامة، وكذاك تفعل بعض الزوجات، أو يذكر كلٌّ منهما الآخر في غيابه بما يكره، وهذه الأفعال من الطرفين مذمومة شرعا وعرفا.

ولا يغتب بعضكم بعضا

والغيبة من آفات اللسان التي لا تعود على المرء إلا بالتباب والخسران، (وهل يكب الناس في النار على وجوههم -أو قال: على مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم؟) [رواه أحمد].

والله -عز وجل- يقول: {وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ} [الحجرات: ١٢]، و{بَعْضُكُمْ بَعْضًا} هنا لم يستثن منها الشارع الأزواج والزوجات، فلا يحل لأحدهما ذكر الآخر بسوء في غيابه، حتى وإن كان صادقا في مزاعمه؛ فعن أبي هريرة، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (أتدرون ما الغيبة؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (ذكرك أخاك بما يكره)، قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: (إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهتّه) [رواه مسلم].

وبعض النساء -أصلحهن الله- تعرف الغيبة وعظم أمرها عند الله تعالى، وأنها من آفات اللسان، والتي لا تعود على المرء إلا بالتباب والخسران، ولكنها تستثني من المُستغابين زوجها وضرتها، ظانة أن أكل لحوم هؤلاء من الحلال الزلال، وهي بمنأى يوم القيامة عن الحساب والسؤال.

وقلما تجد بين من يستمعن إليها زاجرة أو رادعة، تنهاها وتذكّرها، بل أكثرهن تعجبهن فضولهن وتثير هذه السير والتراجم لأزواج غائبين، بوّب النووي في كتابه رياض الصالحين: «باب تحريم سماع الغيبة، وأمر من سمع غيبة محرمة بردها والإنكار على قائلها، فإن عجز أو لم يقبل منه فارق ذلك المجلس إن أمكنه».

وليت بعضهن تكتفي بالاستماع، فمنهن من تعينها على زوجها وتشد من أزرها في الباطل، فإذا اشتكت امرأة من زوجها تداعت بعض صويحباتها بالتحريض والتأليب، بل وأكثر من ذلك فمن النساء من تعين أختها بوصف طريق المحكمة وإجراءات الخلع، وتزيّن لها إنهاء علاقتها بزوجها طمعا في تزويجها لأحد أقاربها أو أقارب زوجها، لا محبة فيها وحرصا على صلاح أمرها، وكأنها لم تقرأ قط ما رواه أبو داود عن أبي هريرة، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (ليس منّا من خبّب امرأة على زوجها، أو عبدا على سيده).

وكذلك الأمر مع الضرة، فكثير من النساء لا يتورعن عن ذكر ضرائرهن بسوء، بل قد يصل ببعضهن الأمر حد سبِ ضرتها وشتمها في غيابها بسبب الغيرة المفرطة، ويكون ذلك إما في مجلس نساء، أو في حضرة الزوج الذي لا يعرف في كثير من الأحيان ماذا يفعل! أيصد عادية سليطة اللسان هذه عن نفسه أم عن زوجته الغائبة؟! والله المستعان.

كما أنه للبيوت حرمات، كذلك لها أسرار ينبغي على لسان المؤمن الموحد أن يتنزه عن كشفها للناس.

ولتذكر كل مسلمة أن أي انتقاص لأخيها أو اختها المسلمَين ولو بإشارة فإنها من الغيبة المحرّمة التي هي من كبائر الذنوب، فعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «... فقلت: يا رسول الله، إن صفية امرأة، وقالت بيدها هكذا، كأنها تعني قصيرة، فقال: (لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته)» [رواه أبو داود].

فهذه أم المؤمنين قالت في ضرتها صفية -رضي الله عنهما- مازحة ما تنتقصها به، وكان قولها إشارة باليد لا نطقا باللسان، ومع هذا فقد نبهها -صلى الله عليه وسلم- إلى عظم ما فعلت، بأن هذه الكلمة التي قد لا يلقي لها المرء بالا لو أنها مُزجت بماء البحر لغيرت من أوصافه لِعظمها، وحسبنا في وصف ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم» [رواه البخاري].

العاقل لا يفضح سرّ بيته

والأشنع من فعل هذه الزوجة الظالمة لنفسها، أن تجد رجلا عاقلا يتكلم في أسرار بيته للناس، ويفضح خبايا علاقته بزوجته، ويكشف سترها أمام غيره من الرجال، فهذه والله من علامات قلة المروءة، ولا يفعلها إلا من سفه نفسه، اللهم إلا الكلام في ما يحتاج إلى وصفه للقاضي أو المفتي أو الناصح المستأمن في دينه وخلقه، الأمين على ما يبلغه من أسرار إخوانه.

وكم هو نبيل خُلق ذاك التابعي الذي أراد يوما أن يطلق زوجته فسألوه: لم تريد تطليقها؟ فقال: لست ممن يذكر زوجته بسوء. وبعد أن طلقها عاود سؤاله بعض الفضلاء: لِمَ طلقتَ زوجك؟ فقال: لست ممن يتحدث عن امرأة أجنبية عنه!

وليعلم أحد الزوجين وهو يتحدث عن قرينه أو قرينته، أن كل سر من أسرار بيتك تفشيه، وكل سوء تذكره هو بمثابة الخرق الذي يصيب ذاك اللباس، ومتى ما اتسعت الخروق وزادت فسيهترئ «ثوب الزوجية» لا محالة، حتى يتمزّق، ولا ينفعه الترقيع.

فكما أنه للبيوت حرمات، كذلك لها أسرار ينبغي على لسان المؤمن الموحد أن يتنزه عن كشفها للناس وإن كانوا أقرب الأقربين، بل إن المراقب لشأن كثير من العائلات، يرى أن الأمور تزداد سوءا بين الزوجين المتخاصمين إذا ما تدخل طرف ثالث بحجة إيجاد حلول لبعض الخصومات البسيطة، فيزداد الطين بلة، وتتعقد الأمور أكثر.

وقد يقول البعض إن مرد ذلك هو التنفيس والشكوى لا أكثر، فنقول حينها: إي نعم إن النفس البشرية قد تبلغ قدرتها على التحمل -في بعض الأحيان- النصاب، فيجد أحد الزوجين في صديق له أذنا صاغية، وقلبا ناصحا، وهنا مكمن الداء والدواء لمثل هذه الظاهرة، وهي أن يحسن هذا الشاكي أو تلك الباكية اختيار المستمع لتلك المشاكل والنزاعات، فيكون شخصا أمينا على سرهما، حافظا لبوحهما، نصوحا صدوقا يخشى الله ويتقيه فيهما.

أما أن يصبح أحدهما فيحدّث بما يجري بين جدران منزلهما كل من هب ودب، حتى تغدو أدق تفاصيل حياتهما فاكهة المجالس وبضاعة القُصّاص، فهذا فضحٌ وليس تنفيسا أو شكوى يُراد من ورائها النصح والإصلاح.

وإن كان الزوج أو الزوجة شاكيين ولا بد، بعد أن استنفدا كل السبل، فدونهما القاضي أو المفتي، فهذه خويلة بنت ثعلبة لما ظاهرها زوجها لم تشكه إلى أحد، وإنما رفعت أمره إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فنزل في شأنها: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة: ١]، وكذلك فعلت هند زوجة أبي سفيان، فعن عائشة، أن هند بنت عتبة قالت: «يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح وليس يعطيني ما يكفيني وولدي، إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم»، فقال: (خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف) [رواه الشيخان].

مقدمة في الطب النبوي

الحمد لله خالق الداء والدواء، ينفع من يشاء، ويُنزل بمن يشاء البلاء، والصلاة والسلام على رسول الله محمد ماحي الشرك والشقاء، وعلى آله الأتقياء وصحبه الأصفياء وبعد:

فإن شريعة الرحمن جاءت بأحكام عظيمة تحفظ للمسلم دينه ونفسه ونسله وماله وعقله، فالخالق أعلم بصنعه وخلقه وما ينفعهم في دينهم وأنفسهم ودنياهم، فجرت أحكام الله تعالى بنواهٍ واضحة تقطع الأسباب التي تضر بتلك المقاصد، وجاءت الشريعة بنهج قويم يمنع حدوث كل ما يمس دين المسلم، مثل سد ذرائع الشرك للوقاية من خسارة الدين والخلود في النار، وكذلك اجتناب أسباب الزنى مثل النظرة والخلوة وغيرها لاجتناب الوقوع في الزنى الذي يضر بحفظ النسل، وكذلك جاءت الشريعة على سبيل الإرشاد والتعليم لاتخاذ الأسباب لحفظ النفس من التلف والضرر.

فدلت السنة النبوية على عادات وعلاجات وقائية في مرحلة ما قبل المرض، وعلاجية إذا ما وقع، وقد كتب أهل العلم كتبا في هذا الموضوع، لحاجة الناس للوقاية والعلاج لحفظ أنفسهم من الضرر.

المنهج الوقائي في الطب النبوي

ومِن المنهج الوقائي –مثلا- هو التوجيهات النبوية حول عدم الإكثار من الطعام الذي يسبب الكثير من الأمراض مثل السكر وضغط الدم وغيرها من الأمراض القلبية، إذ جاء في سنن البيهقي وابن ماجة قوله صلى الله عليه وسلم: (ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن، حسب الآدمي، لقيمات يقمن صلبه، فإن غلبت الآدمي نفسه، فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس)، وعلّق ابن القيم على هذا الحديث في كتابه الطب النبوي: "ومراتب الغذاء ثلاثة: أحدها: مرتبة الحاجة. والثانية: مرتبة الكفاية. والثالثة: مرتبة الفضلة. فأخبر النبي، صلى الله عليه وسلم: أنه يكفيه لقيمات يقمن صلبه، فلا تسقط قوته، ولا تضعف معها، فإن تجاوزها، فليأكل في ثلث بطنه، ويدع الثلث الآخر للماء، والثالث للنفس، وهذا من أنفع ما للبدن والقلب، فإن البطن إذا امتلأ من الطعام ضاق عن الشراب، فإذا ورد عليه الشراب ضاق عن النفس، وعرض له الكرب والتعب بحمله بمنزلة حامل الحمل الثقيل، هذا إلى ما يلزم ذلك من فساد القلب، وكسل الجوارح عن الطاعات، وتحركها في الشهوات التي يستلزمها الشبع. فامتلاء البطن من الطعام مضر للقلب والبدن هذا إذا كان دائما أو أكثريا".

كذلك تظهر صورة الوقاية جلية في قوله، صلى الله عليه وسلم: (من تصبّح كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر) [رواه الشيخان]. وهذه وقاية عجيبة من بلاءين كبيرين لا يتفطن لهما المسلم الغافل.

لا عدوى ولا صفر

ويمتاز الطب النبوي بالإرشادات النبوية للوقاية من الأمراض المعدية، التي هي في حقيقتها لا تؤثر إلا بإذن الله تعالى، وفيها منهج متوازن للتعامل مع مثل هذه الأمراض، فقد ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (لا عدوى ولا صفر، ولا هامة) فقال أعرابي: يا رسول الله، فما بال الإبل، تكون في الرمل كأنها الظباء، فيخالطها البعير الأجرب فيُجربها؟ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (فمن أعدى الأول؟). فالبعير الأول الذي بدأت منه العدوى كيف أصيب بالمرض؟ وهذا السؤال سأله النبي -صلى الله عليه وسلم- للأعرابي الذي قال إن البعير الأجرب عندما يخالط الإبل تصاب كلها بالجرب، وهو يأخذ بالظاهر كعادة أهل الجاهلية الذين لا ينظرون لمشيئة الله تعالى في تقدير الأمراض والأسقام لحكمة هو يعلمها، فجواب النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن أساس المرض ليس عدوى وإنما هو بتقدير الله تعالى، وكذلك العدوى من مريض لمصح، لا تكون إلا بإذن الله تعالى ليطمئن المسلم إذا خالط مريضا وهو لا يدري،



فيعلق حصول العدوى بمشيئة الرب -جل وعلا- وتطمئن نفسه، ويعتقد أن الله -تعالى- ابتلاه بالمرض ليَحط من خطاياه كما جاءت بذلك الأحاديث النبوية، وهذا هو الأصل الذي قرره النبي، صلى الله عليه وسلم، ولكن هناك احتمالية حصول عدوى من بعض الأمراض وقد أشار النبي -صلى الله عليه وسلم- لمثل هذه الإرشادات.

وهو منهج وسط بين أهل الجاهلية الذين يرون الأمراض معدية بذاتها دون النظر لمشيئة الله تعالى، وبين من ينظر للمسألة على أنها علمية بحتة لا تقبل الاستثناء وحاصلة بالتجربة والبرهان، فالمنهج النبوي هو تعليق الأمر بمشيئة الله تعالى ونفي حدوث العدوى إلا بأمره مع إمكانيتها والتحذير منها، ولذلك أمر باتخاذ الأسباب الوقائية حين مشاهدة المرض الذي ظاهره أنه معدٍ، كما جاء في مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (فر من المجذوم فرارك من الأسد)، كذلك ما رواه الإمام البخاري بسنده قال حدثنا حفص بن عمر، حدثنا شعبة، قال: أخبرني حبيب بن أبي ثابت، قال: سمعت إبراهيم بن سعد، قال: سمعت أسامة بن زيد، يحدث سعدا، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها) فقلت: أنت سمعته يحدث سعدا، ولا ينكره؟ قال: نعم.

الشفاء من الله

وأما إذا وقع المرض فإنه مع اختلاف العلماء حول مسألة التداوي فإن المُحصِّلة هي ما بين موجب وبين قائل بالندب، وهذا الأمر يتعلق بنية المتداوي بأن يعتقد أن العلاج هو سببٌ خَلَقه الله تعالى له، وأن الشفاء ليس في العلاج ذاته، بل هو محض منة الله -تعالى- كما قال إمام الموحدين نبي الله إبراهيم: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ} [الشعراء: ٨٠ – ٨١].

ولذلك ترى كثيرا من الناس يتعلق قلبه بالسبب دون خالق السبب وهذا أمر خطير يُدخله في الشرك وينفي سلامة توكل القلب على الله تعالى، فالله -سبحانه وتعالى- خالق كل شي وخالق الأسباب والمسببات، ولا بد من الأخذ بالأسباب المشروعة لعلاج مسببات المرض، وكلها من خلق الله تعالى وتدور في مشيئته ومقتضيات حكمته، فقد أورد ابن أبي شيبة في مصنفه حديثا رواه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء).

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى في مجموع الفتاوى: "وإذا قدّر للعبد خيرا يناله بالدعاء لم يحصل بدون الدعاء، وما قدره الله وعلمه من أحوال العباد وعواقبهم فإنما قدّره الله بأسباب يسوق المقادير إلى المواقيت فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمسببات، ولهذا قال بعضهم: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع".

فهذه نماذج من سنته -عليه الصلاة والسلام- في مسائل المرض والشفاء، سنتوسع فيها بإذن الله ضمن حلقات من هذه السلسلة، نسأل الله أن ييسر لنا إتمامها، وأن يعلّمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما علمنا، إنه ولي ذلك وأهله، والحمد لله رب العالمين.



رؤى.. وأحلام

قيل في شأنها الكثير، وخاض فيها من يجهل ومن يحسن التعبير، منها ما يُفرح ويبشّر، ومنها ما يحزن ويُنفّر، إذا كانت من الله تعالى صلحت وصدقت، وإذا كانت من الشيطان فسدت وكذبت، والبشر في تلقيها ثلاثة؛ إما غالٍ فيها يبني عليها كل تفاصيل حياته ومن حوله، بل يعدها أحيانا وحيا يوحى إليه كالصوفية ومن شابههم، وإما وسط يتلقاها وفق ما دلت عليه النصوص الشرعية فيستأنس بخيرها ويستعيذ بالله من شرها، وإما منكر لها لا يرى فيها إلا هلوسات وأخلاطا كالفلاسفة وبعض المعتزلة وبعض الأطباء... وبين هذا وذاك، تبقى هي بين المبشرات الصادقة وأحاديث النفس وأضغاث الأحلام.

الرؤيا حق

وقد ورد ذكر الرؤى في الكتاب العزيز في أكثر من موضع؛ قال تعالى: {إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ} [الأنفال: ٤٣]، وقال أيضا: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} [يوسف: ٤]، وقال أيضا: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ} [الفتح: ٢٧]، وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «كانت رؤيا الأنبياء وحيا»، وأول ما بُدئ به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الوحي الرؤيا الصالحة.

والأحاديث والآثار الدالة على ثبوت الرؤيا وأنها حق، كثيرة وفيرة، وكما أن رؤيا الأنبياء وحي، فإن رؤيا الصالحين من مبشرات النبوة وجزء منها؛ فعن أنس بن مالك، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (الرؤيا الحسنة، من الرجل الصالح، جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة) [رواه البخاري]، وعن أبي الدرداء، قال: سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن قوله: {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [يونس: ٦٣ - ٦٤] فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له) [رواه مسلم]. ولفظ الرجل الصالح هنا ليس للحصر فقد تكون الرؤيا الحسنة من المرأة الصالحة. ولا يعني هذا أن الصالح لا يرى إلا الرؤيا الحسنة الصادقة بل قد يرى الأضغاث أيضا وإن ندر ذلك. والناس في صدق رؤاهم مختلفون وكلٌّ ومنزلة إيمانه وصلاحه.

وعن أبي هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا انصرف من صلاة الغداة يقول: (هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا؟ إنه ليس يبقى بعدي من النبوة إلا الرؤيا الصالحة) [رواه أبو داود].

التعامل مع الرؤى والأحلام

وقد علّمنا سيد الأولين والآخرين -عليه الصلاة والسلام- كيف نتعامل مع الرؤيا، فجعل لها ولرائيها ومعبرها آدابا، والرؤى على ثلاثة أقسام؛ رؤيا صادقة، وحديث نفس وأضغاث أحلام، وتلاعب شيطان؛ عن أبي سعيد الخدري، أنه سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها، فإنما هي من الله، فليحمد الله عليها وليحدّث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره، فإنما هي من الشيطان، فليستعذ من شرها، ولا يذكرها لأحد، فإنها لا تضره) [رواه البخاري].

وقد أرشد النبي -صلى الله عليه وسلم- كل مسلم ومسلمة أن لا يحدّثا أحدا بتلاعب الشيطان بهما في المنام، فتارة يحزنها وتارة يخيفهما؛ أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال لأعرابي جاءه فقال: إني حلمت أن رأسي قُطع فأنا أتبعه، فزجره النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: (لا تخبر بتلعّب الشيطان بك في المنام).

بل يكتفي المسلم والمسلمة بما قد أرشدَنا نبينا الكريم -صلى الله عليه وسلم- إلى التزامه عند رؤية ما يكره؛ فعن جابر -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها، فليبصق عن يساره ثلاثا، وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثا، وليتحول عن جنبه الذي كان عليه) [رواه مسلم].

وتأويل الرؤى هو من العلم الشريف الذي يمنّ الله به على من يشاء من عباده، ممَّن علم التنزيل وفقه التأويل، كما في قوله تعالى {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ} [يوسف: ٦]، فهذا العلم كان يقوم عليه الأنبياء، وأتباعهم من حوارييهم وصحابتهم ومن تبع هداهم وعمل بسنتهم، ولكننا بتنا نرى اليوم من يتصدر لهذا العلم من الجهّال والأدعياء، بل ومن الفسّاق والماجنين، والسحرة والمرتدين.

فالحذر الحذر من التصدي لهذا العلم بغير هدى ولا كتاب منير، والحذر الحذر من عرض الرؤى والأحلام على كل من هب ودب من الأدعياء، الذين يسوقون بضاعتهم بتأويل الرؤى على الوجه الذي يُرضي أصحابها ليمنّوهم ويأمّلوهم، ويكسبوا بذلك وجوههم وأموالهم.

الرؤى للاستئناس لا للاستدلال

ومن جانب آخر ينبغي على المسلم أن لا يغلو ولا ينفتن بما يحسبه من الرؤى الصالحة، فلا يبني عليها أحكاما إذ ليس هو بالنبي فتكون رؤياه وحيا من الله تعالى، ولا تأويلها له علما يقينا، ولا يرى فيها تزكية له أو لغيره، ولا يمتنع بسببها عن معروف أو يقع في منكر، ولا يتّكل عليها فيغفل عما كلَّفه الله من الطلب لما فيه خيره في الدنيا والآخرة، بل يستأنس بها، ويفرح بها، ويبشّر بها، ويحمد الله عليها.

وإن للاستدلال على الأحكام الشرعية طرقا معروفة ليس من بينها الأحلام والمنامات، فالرؤى لا تحرّم حلالا ولا تحلّل حراما، ومن يرى النبي -صلى الله عليه وسلم- في منامه فسيراه على صورته وهيئته الحقة، أما ما يشيعه البعض من صور وأنوار، وهيئات وأفكار لا يقبلها عاقل فهذا من الحلم، والحلم من الشيطان، والشيطان لا يتمثل بالنبي -صلى الله عليه وسلم- كما أخبر بذلك، صلى الله عليه وسلم، ولكن قد يتمثل بصورة غير صورته كما نص العلماء.

قال الإمام النووي، رحمه الله: «قوله صلى الله عليه وسلم: (من رآني في المنام فقد رآني)... معنى الحديث أن رؤيته صحيحة وليست من أضغاث الأحلام وتلبيس الشيطان، ولكن لا يجوز إثبات حكم شرعي به لأن حالة النوم ليست حالة ضبط وتحقيق لما يسمعه الرائي وقد اتفقوا على أن مِن شرط مَن تُقبل روايته وشهادته أن يكون متيقظا لا مغفلا ولا سيء الحفظ ولا كثير الخطأ ولا مختل الضبط، والنائم ليس بهذه الصفة فلم تقبل روايته لاختلال ضبطه، هذا كله في منام يتعلق بإثبات حكم على خلاف ما يحكم به الولاة، أما إذا رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- يأمره بفعل ما هو مندوب إليه أو ينهاه عن منهي عنه أو يرشده إلى فعل مصلحة فلا خلاف في استحباب العمل على وفقه لأن ذلك ليس حكما بمجرد المنام بل تقرر من أصل ذلك الشيء» [شرح النووي على مسلم].

ومما عمت به البلوى في أيامنا هذه، اعتماد البعض على الرؤى اعتمادا يتجاوز مجرد الاستئناس والاستبشار ويخالف بذلك هدي النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن تبعه من الأخيار، حتى باتت رؤى الفتوح والانحياز حديث الساعة في كل مجلس ومحفل، وكأن كل راءٍ هو يوسف، عليه السلام، وكل معبِّر هو يعقوب، عليه السلام!

فلا شك أن من الرؤى ما يكون سببا في تثبيت الله لعباده الصالحين، كما حدث مع المسلمين في غزوة بدر، قال تعالى {إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [الأنفال: ٤٣]، فكثرة الرؤى المبشرات هي من النعم التي أنعم الله بها على عباده الموحدين، خاصة في ظل هذه الحرب الشرسة على الدولة الإسلامية، التي تشارك فيها ملل الكفر والشرك كافة، ولكن التأويل غير المنضبط للرؤى والأحلام، وإسقاطها على الوقائع والأحداث بدعوى رفع الهمم وتثبيت القلوب قد تكون له نتائج عكسية، بما يتسبب به من إحباط إذا لم يصدق التأويل بعد أن تتعلق به بعض النفوس المتعبة المريضة.

فليس كل ما يراه المؤمن في منامه رؤيا صالحة، وليست كل رؤيا صالحة تجد من يأولها تأويلا صحيحا، وليس كل تأويل صحيح ينطبق على الواقع مباشرة بل قد يقع تأويلها بعد سنين عديدة، وهذا من علم الغيب الذي لم يُطلع الله عليه أحدا من عباده، فرؤيا يوسف في طفولته بسجود إخوانه وأبويه له وقعت بعد سنين طويلة وهو رجل، وليس كل تأويل صحيح لرؤيا صالحة مما يصح قصه على الناس، كما في رؤيا يوسف التي أمره نبي الله يعقوب بكتمانها عن إخوته.

وليسأل العبد ربّه دوما أن يبعد عنه الهمّ والحزن بما شاء، سبحانه، وأن يثبته على الصراط المستقيم، وأن يربط على قلبه، ويؤتيه العلم النافع، ويعينه على أداء العمل المتقبل، إن الله سميع مجيب الدعاء، والحمد لله رب العالمين.

لا إله إلا الله قول وعمل

قال الشيخ محمد بن عبد الوهّاب، رحمه الله:
اعلم رحمك الله تعالى، أن لا إله إلا الله هي الكلمة العالية، والشريفة الغالية، من استمسك بها فقد سلم، ومن اعتصم بها فقد عُصم، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرُم ماله ودمه، وحسابه على الله، عز وجل) [رواه مسلم عن طارق بن أشيم]، والحديث يفصح أن لا إله إلا الله، لها لفظ ومعنى.

ولكن الناس فيها ثلاث فرق: فرقة نطقوا بها وحقّقوها، وعلموا أن لها معنى وعملوا به، ولها نواقض فاجتنبوها. وفرقة: نطقوا بها في الظاهر، فزيّنوا ظواهرهم بالقول، واستبطنوا الكفر والشك. وفرقة: نطقوا بها ولم يعملوا بمعناها، وعملوا بنواقضها، فهؤلاء: {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً} [الكهف: ١٠٤]؛ فالفرقة الأولى هي الناجية، وهم المؤمنون حقا، والثانية هم المنافقون، والثالثة هم المشركون.

فلا إله إلا الله حصن، ولكن نصبوا عليه منجنيق التكذيب، ورموه بحجارة التخريب، فدخل عليهم العدو، فسلبهم المعنى، وتركهم مع الصورة، وفي الحديث: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأبدانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) [رواه مسلم عن أبي هريرة]؛ سلبوا معنى لا إله إلا الله، فبقي معهم لقلقة باللسان، وقعقعة بالحروف، وهو ذِكر الحصن لا مع الحصن، فكما أن ذِكر النار لا يحرق، وذِكر الماء لا يغرق، وذِكر الخبز لا يشبع، وذِكر السيف لا يقطع، فكذلك ذِكر الحصن لا يمنع؛ فإن القول قشر، والمعنى لب، والقول صدف، والمعنى در، ماذا يُصنع بالقشر مع فقدان اللب؟ وماذا يُصنع بالصدف مع فقدان الجوهر؟

لا إله إلا الله مع معناها، بمنزلة الروح من الجسد، لا يُنتفع بالجسد دون الروح، فكذلك لا يُنتفع بهذه الكلمة دون معناها؛ فعالم الفضل أخذوا بهذه الكلمة بصورتها ومعناها، فزينوا بصورتها ظواهرهم بالقول، وبواطنهم بالمعنى، وبرزت لهم شهادة القدم بالتصديق، {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: ١٨].

وعالم العدل [أي الشرك]: أخذوا هذه الكلمة بصورتها دون معناها، فزيّنوا ظواهرهم بالقول، وبواطنهم بالكفر، بالاعتقاد فيمن لا يضر ولا ينفع؛ فقلوبهم مسودة مظلمة، لم يجعل الله لهم فرقانا يُفرّقون به بين الحق والباطل، ويوم القيامة يبقون في ظلمة كفرهم، {ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ} [البقرة: ١٧].

فمن قال: لا إله إلا الله، وهو عابد لهواه ودرهمه وديناره ودنياه، ماذا يكون جوابه يوم القيامة لمولاه؟ {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} [الجاثية: ٢٣]، (تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أُعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش) [رواه البخاري عن أبي هريرة].

إذا قلت: لا إله إلا الله، فإن كان مسكنها منك اللسان لا ثمرة لها في القلب، فأنت منافق، وإن كان مسكنها منك القلب [مع التزام الجوارح بها]، فأنت مؤمن، وإياك أن تكون مؤمنا بلسانك دون قلبك، فتنادي عليك هذه الكلمة في عرصات القيامة: «إلهي صحبته كذا وكذا سنة، فما اعترف بحقي، ولا رعى لي حرمتي حق رعايتي!» فإن هذه الكلمة تشهد لك، أو عليك.

فعالم الفضل تشهد لهم بالاحترام، حتى تدخلهم الجنة؛ وعالم العدل [أي الشرك] تشهد لهم بالإجرام، حتى تدخلهم النار، {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} [الشورى: ٧].

لا إله إلا الله شجرة السعادة، إن غرستها في منبت التصديق، وسقيتها من ماء الإخلاص، ورعيتها بالعمل الصالح، رسخت عروقها، وثبت ساقها، واخضرت أوراقها، وأينعت ثمارها، وتضاعف أكلها، {تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا} [إبراهيم: ٢٥].

وإن غُرست هذه الشجرة في منبت التكذيب والشقاق، وأسقيتها بماء الرياء والنفاق، وتعاهدتها بالأعمال السيئة والأقوال القبيحة، وطفح عليها غدير الغدر ولفحها هجير هجر، تناثرت ثمارها، وتساقطت أوراقها، وانقشع ساقها، وتقطعت عروقها، وهبّت عليها عواصف القذر، ومزقتها كل ممزق، {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً} [الفرقان: ٢٣].

فإذا تحقق المسلم هذا، فلا بد معه من تمام بقية أركان الإسلام، كما في الحديث الصحيح: (بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام) من استطاع إليه سبيلا [رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر]، {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران: ٩٧]، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

انتهى كلامه رحمه الله بتصرف يسير.

الزهد في الدنيا من منهج السلف

لقد كان نبينا -صلى الله عليه وسلم- سيد العبّاد والزهّاد، يأتيه جبريل مرسلاً من لدن رب العباد، فيخيِّره بين أن يُبعث نبيا ملكا أو نبيا عبدا فيختار الثانية، ويرد مفاتيح خزائن الدنيا الفانية، فذاق وأهله من صنوف الفاقة والخصاصة، وعاش الكفاف مع خيرة الأصحاب، وهم الذين ملكوا الأرض وخضعت لهم الرقاب.

وإننا في أيامنا هذه وبعد أن فُتحت الدنيا علينا، بتنا نفتقد تلك الروح، روح الرعيل الأول من الزاهدين، الذين لم تخدعهم الدنيا ببريقها، وفطنوا إلى أن السلامة منها ترك ما فيها.

والمتأمل في حال بعض النساء اليوم، يرى منهن ترفا زائدا، وحرصا على الدنيا وقاذوراتها، إذا تسوَّقن بَالَغن وأسرفن، وإذا طلبن من الزوج أجهدن وأتعبن، وإذا تأخر عنهن لقلة ذات اليد، تذمَّرن واشتكين، وربما دفعن به إلى السلف والدَّين، فيريق ماء وجهه بين الرجال، ويشقى بين الناس بكثرة السؤال.

كانت إحدى نساء السلف تشيّع زوجها يوميا إلى باب البيت لتوصيه قبل خروجه بأن يتقي الله فيما يطعمهم، فهمها الحلال والحرام! وبعض نساء اليوم توصله إلى الباب مذكرة إياه بقائمة المشتريات التي لا تنتهي، ولا شأن لها بكيف، ولا من أين سيلبيها لها زوجها!

تجد إحداهن لا همَّ لها من الدنيا سوى مأكلها وملبسها، إذا أكلت استكثرت، وإذا لبست افتخرت، وإذا جلست لتحدث، فعن الطعام واللباس وقصات الشعر وألوانه، وقد كان من دعاء النبي، صلى الله عليه وسلم: (ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا) [رواه الترمذي].

فيا أخت الإسلام ويا حفيدة عائشة، عائشة التي كان درعها مرقَّعا، هلُمِّي بنا نسرح بالخيال قليلا في خير البيوتات وأشرفها وأطيبها، حسبا ونسبا ودينا وصلاحا، وعفافا وغنى وتقى، إنها بيوتات نبيك، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما كثيرا.

لقد كانت حجرات صغيرة، بسيطة متواضعة، لا تكاد في مساحتها تكفي الاثنين، وأما فراشه الذي كان ينام عليه، فتصفه لنا أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- فتقول: كان فراش النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي ينام عليه أَدَما، حشوه ليف) [متفق عليه]، والأدم: الجلد المدبوغ، والليف ليف النخل.

ويسرد لنا الفاروق عمر -رضي الله عنه- حديثا طويلا جاء فيه: "فدخلت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو مضطجع على حصير، فجلست، فأدنى عليه إزاره وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، ومثلها قرظا في ناحية الغرفة، وإذا أفيقٌ معلقٌ، قال: فابتدرت عيناي، قال: (ما يبكيك يا ابن الخطاب) قلت: يا نبي الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وصفوته، وهذه خزانتك، فقال: (يا ابن الخطاب، ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟)، قلت: بلى..." [رواه مسلم].

وأما مطعمه وأهلِه -صلوات ربنا وسلامه عليهم- فقد كان يمر الهلال والهلال ولا توقد في بيوته نار، وكان أكثر عيشهم على الأسودين؛ التمر والماء، بل تصف عائشة -رضي الله عنها- ما كان يصلهم أحيانا من لحم فتقول: "اللحيم" كناية عن قلته!

قال الطبري، رحمه الله تعالى: "في اختيار رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وخيار السلف من الصحابة والتابعين شظف العيش، والصبر على مرارة الفقر والفاقة ومقاساة خشونة خَشِن الملابس والمطاعم على خفض ذلك ودعَته، وحلاوة الغنى ونعيمه، ما أبان عن فضل الزهد فى الدنيا وأخذ القوت والبُلغة خاصة، وكان نبينا -صلى الله عليه وسلم- يطوي الأيام، ويعصِب على بطنه الحجر من الجوع؛ إيثاراً منه لشظف العيش والصبر عليه، مع علمه بأنه لو سأل ربه أن يسيِّر له جبال تهامة ذهباً وفضةً لفعل، وعلى هذه الطريقة جرى الصالحون".

وبالله عليك يا مسلمة تأملي في حديث أم سلمة -رضي الله عنها- حيث تقول: "قد كان يصيبنا الحيض على عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فتلبث إحدانا أيام حيضها ثم تطهر، فتنظر الثوب الذي كانت تقلب فيه، فإن أصابه دم غسلناه وصلينا فيه، وإن لم يكن أصابه شيء تركناه ولم يمنعنا ذلك من أن نصلي فيه" [أخرجه أبو داود]، يا سبحان الله! لقد كانت الواحدة من نساء خير القرون لربما لا تملك غير ثوب واحد، فيه تحيض وفيه تطهر، ونساء أمتنا اليوم تكاد بيوتهن تلفظ ما فيها من لباس وزينة!

وقد تقول قائلة: لا أراكم إلا تحرّمون ما أحل الله الذي يحب أن يرى أثر نعمته على عبده!

نقول حينها: معاذ الله تعالى أن نحرّم طيِّباته على عبيده، ولكن هي دعوة للتطبع بطباع خير الخلق، والزهد حلية المؤمن الحق، من صغرت الدنيا في عينه وعظمت الآخرة في قلبه.

والله -عز وجل- يحب أن يرى أثر نعمته على عبده لا أثر الإسراف والتبذير، ولا أن يرى زوجات يرهقن كواهل أزواجهن بطلب كلٍّ ما يشتهينه وإن تعذر عليهم توفير ذلك.

وإنا إذ ندعو النساء إلى التحلي بهذه الحلية الطيبة، لا يفوتنا أيضا في هذا المقام أن نحذِّر من مغبة الشح والبخل على الأهل.

فعلى الزوج المسلم أن ينفق على أهله وبنيه بالمعروف دون إفراط أو تفريط، ولينفق ذو سعة من سعته، فيبلغ بذلك منازل الكرام دون أن يكون أخا للشيطان، فلا يكوننَّ ذا مال ثم يقتر على أهله تقتيرا، وليحتسب الأجر على كل لقمة يضعها في فِيِّ أهله، وعلى كل سرور يدخله على قلوبهم، والله من وراء القصد، كما لا يكوننَّ ذا حاجة ثم يكلف نفسه ما لا يطيق إرضاء لزوجة لا تراعي حاله، ولا ترحم ضعفه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلِّ اللهم وبارك على سيد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

نعمة الصحة والابتلاء بالمرض

أمر الله -تعالى- عباده بالحفاظ على أنفسهم من كل ما يؤذيها ويَضر بها، وحثهم على الطيبات وحرم عليهم الخبائث والأرجاس التي تضر بعقولهم أو أبدانهم، وأرسل نبيَّه بذلك المنهج الرباني المتكامل الذي شمل أمور الدين والدنيا، فزخرت السنة بأنواع من المنح الربانية التي تقي المسلم في بدنه وعقله، قال سبحانه وتعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ} [الأعراف: ١٥٧]، قال الطبري رحمه الله: "وقوله: ويُحل لهم الطيبات: وذلك ما كانت الجاهلية تحرمه من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي. ويحرم عليهم الخبائث وذلك لحم الخنزير والربا، وما كانوا يستحلونه من المطاعم والمشارب التي حرمها الله".

الصحة نعمة مغبون فيها كثير من الناس

ومن عظيم ما أنعم الله به -سبحانه- على خلقه هو نعمة تمام الصحة التي لا يعرفها إلا من يفقدها، ولو فقدها لدفع كل ما يملك ليعالج نفسه ويسترجع صحته ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وقد دلت السنة على نعمة الصحة فيما رواه البخاري في الأدب المفرد وغيره من أهل السنن، وهو قوله، صلى الله عليه وسلم: (من أصبح آمنا في سربه معافى في جسده، عنده طعام يومه فكأنما حيزت له الدنيا)، وكذلك ما رواه الإمام البخاري -رحمه الله تعالى- في صحيحه عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ)، قال ابن بطال -رحمه الله- في شرحه لهذا الحديث الجليل: "معنى الحديث أن المرء لا يكون فارغا حتى يكون مَكفيا صحيح البدن، فمن حصل له ذلك فليحرص على ألا يُغبن بأن يترك شكر الله على ما أنعم به عليه، ومن شكره امتثال أوامره واجتناب نواهيه، فمن فرّط في ذلك فهو المغبون".

تحريم إتلاف النفوس

ومن عجيب أمر بعض الناس أنهم يسعون لإتلاف صحتهم بما حرم الله -تعالى- من الموبقات والخبائث بأيديهم، مثل السجائر وغيرها من المسكرات التي تعطل العقل وتغيبه بنسب متفاوتة وتضر بالجسد ضررا عظيما، فتلك وغيرها من المحرمات هي قتل بطيء وإهلاك للبدن وقد نهى الله -تعالى- عن قتل النفس فقال: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [النساء: ٢٩]، وهكذا جاءت الشريعة الغراء بصيانة الدين والنفس، ولأجل الدين ترخُص النفس بالجهاد في سبيل الله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وأما ما عدا ذلك فلا يجوز للمسلم أن يُلحق الضرر ببدنه أو يفعل ما يضر بصحته مهما كانت الأسباب، وقد روى الحاكم في مستدركه عن جابر أن رجلا من قوم الطفيل بن عمرو الدوسي هاجر مع الطفيل فمرض الرجل، قال: فضجر فجاء إلى قرن فأخذ مشقصا فقطع رواجبه فمات، فرآه الطفيل في المنام فقال: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بهجرتي إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ما شأن يديك؟ قال: قيل لي إنا لا نصلح منك ما أفسدت من نفسك، قال: فقصها الطفيل على النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: (اللهم وليديه فاغفر، ورفع يديه)، فهذا الرجل لم يقصد قتل نفسه ولكنه فعل فعلا أدى إلى قتله، وغفر الله له بسبب هجرته كما هو ظاهر الحديث من دعوة النبي -صلى الله عليه وسلم- له، وتأمل ما قيل له: إنَّا لا نصلح منك ما أفسدت، فهذا الجسد لا يُتلف إلا في مرضاة الله وطاعته لا بهوى النفس وملذاتها ودوافعها.

الصبر على المرض.. سنة الأنبياء ومنهج الصالحين

وبين نعمة الصحة ونعمة الدواء لا بد لكل مسلم أن يتوكل على ربه ويتخذ سبب العلاج، فإن شُفي فإنه من الله وحده، وإن لم يبرأ فليُحسن الظن بربه أنه أراد له رفعة المنزلة ومحو الخطايا بكل ما يصيبه من أنواع الأذى البدني والنفسي، وليحتسب المسلم أجره بالصبر على المصاب فإنه حال المؤمن في السراء والضراء، روى الشيخان عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا هم، ولا حزن، ولا أذى، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها؛ إلا كفر الله بها من خطاياه).

لذلك كان بعض السلف يفرح إذا أصابه المرض، فإن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، روى الإمام البخاري في صحيحه عن الحارث بن سويد عن عبد الله قال: دخلت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو يوعك، فقلت يا رسول الله إنك لتوعك وعكا شديدا؟ قال: (أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم). قلت ذلك بأن لك أجرين؟ قال: (أجل ذلك، كذلك ما من مسلم يصيبه أذى، شوكة فما فوقها، إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها)، وكذلك ما أصاب نبي الله أيوب -عليه السلام- من مرضه الذي طال به ومدحه الله -تعالى- على صبره فقال: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [ص: ٤٤]، ثم إنَّه ما دعا الله ربه بطلب مباشر بل كان في غاية الأدب وجميل الدعاء فقال: {مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [الأنبياء: ٨٣]، ولم يكن دعاؤه هذا إلا بعد سنين تبعتها سنين، مستعذبا ألم المرض وانفضاض الناس عنه، محتسبا أجره صابرا على مُره وضره، فكم طال به المرض حتى سعى لأعظم الأسباب، ألا وهو سؤاله الله، عز وجل، وهكذا هو منهج أتباع الأنبياء، فقد روى أبو داود في كتاب الزهد أن أبا الدرداء -رضي الله عنه- قال: "أحب الفقر تواضعا لربي، وأحب الموت اشتياقا إلى ربي، وأحب المرض تكفيرا لخطاياي".

من يشتري الجنة بالصبر؟

ومن عجائب حال الجيل الأول في الصبر على البلاء طلبا للجنة ما رواه الإمام البخاري عن عطاء بن أبي رباح قال: "قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي، قال: (إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله أن يعافيك). فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف، فادع الله ألا أتكشف فدعا لها"، فهذه المرأة المؤمنة تحملت ألم الصرع في الدنيا لتنال الجنة ونعيمها فتأمل.

ومن استغرب الحال فحسبه الحديث الذي رواه الإمام الترمذي عن جابر قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض).

فعلى من أنعم الله عليه بوافر الصحة أن يحمد الله -تعالى- على هذه النعمة، ويشكره عليها بأن يستعمل ما أوتيَه في طاعته كما أمر سبحانه: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} [القصص: ٧٧]، وعليه أن يستغل أيام صحته وقوته في زيادة رصيده من الحسنات من قبل أن يدهمه المرض أو الكبر والضعف، كما أوصى نبي الله، صلى الله عليه وسلم: (اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك) [رواه الحاكم في المستدرك]، ومن ابتلي بمرض فليحمد الله -تعالى- على ما أصابه، فإن بعض البلاء أهون من بعض، وليصبر على ما أصابه، محتسبا الأجر عند الله تعالى، وخاصة إذا كان مكلوما في سبيل الله، فإن صبره على ما أصابه، وشكر الله على أن أنعم عليه بالكلم في سبيله هو من عزم الأمور.

ونسأل الله أن يشافي كل مريض من مرضى المسلمين، وأن يجعل ما أصابهم كفارة لذنوبهم، ورفعا لدرجاتهم، إنه ولي ذلك وأهله، والحمد لله رب العالمين.

المتحاكمون إلى الطواغيت

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا} [النساء: ٦٠ - ٦٢]:

"إن من عرف أن لا إله إلا الله فلا بد من الانقياد لحكم الله، والتسليم لأمره الذي جاء من عنده على يد رسوله محمد، صلى الله عليه وسلم، فمن شهد أن لا إله إلا الله ثم عدل إلى تحكيم غير الرسول -صلى الله عليه وسلم- في موارد النزاع فقد كذب في شهادته.

ولما كان التوحيد مبنيا على الشهادتين إذ لا تنفك إحداهما عن الأخرى لتلازمهما وكان ما تقدم من هذا الكتاب [يعني كتاب التوحيد لجده الشيخ محمد بن عبد الوهاب، رحمهما الله] في معنى شهادة أن لا إله إلا الله التي تتضمن حق الله على عباده، نبه في هذا الباب على معنى شهادة أن محمدا رسول الله التي تتضمن حق الرسول -صلى الله عليه وسلم- فإنها تتضمن أنه عبد لا يُعبد، ورسول صادق لا يكذب، بل يطاع ويتبع، لأنه المبلِّغ عن الله تعالى، فله -عليه الصلاة والسلام- منصب الرسالة والتبليغ عن الله، والحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، إذ هو لا يحكم إلا بحكم الله، ومحبته على النفس والأهل والمال والوطن، وليس له من الإلهية شيء، بل هو عبد الله ورسوله، كما قال تعالى {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} [الجن: ١٩]، وقال صلى الله عليه وسلم: (إنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله) [رواه البخاري].

ومن لوازم ذلك متابعته وتحكيمه في موارد النزاع، وترك التحاكم إلى غيره، كالمنافقين الذي يدَّعون الإيمان به ويتحاكمون إلى غيره، وبهذا يتحقق العبد بكمال التوحيد وكمال المتابعة، وذلك هو كمال سعادته، وهو معنى الشهادتين، إذا تبين هذا فمعنى الآية المترجم لها: إن الله -تبارك وتعالى- أنكر على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء قبله وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، كما ذكر المصنف في سبب نزولها: قال ابن القيم: "والطاغوت كل من تعدى به حده، من الطغيان، وهو مجاوزة الحد". فكل ما تحاكم إليه متنازعان غير كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- فهو طاغوت، اذ قد تعدى به حده، ومن هذا كل من عبد شيئا دون الله، فإنما عبد الطاغوت وجاوز بمعبوده حده، فأعطاه العبادة التي لا تنبغي له، كما أن من دعا إلى تحكيم غير الله تعالى ورسوله -صلى الله عليه وسلم- فقد دعا إلى تحكيم الطاغوت، وتأمل تصديره -سبحانه- الآية، منكرا لهذا التحكيم على من زعم أنه قد آمن بما أنزله الله على رسوله -صلى الله عليه وسلم- وعلى من قبله، ثم هو مع ذلك يدعو إلى تحكيم غير الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- ويتحاكم إليه عند النزاع، وفي ضمن قوله {يَزْعُمُونَ}، نفي لما زعموه من الإيمان، ولهذا لم يقل: ألم تر إلى الذين آمنوا، فإنهم لو كانوا من أهل الإيمان حقيقة لم يريدوا أن يتحاكموا الى غير الله -تعالى- ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولم يقل فيهم {يَزْعُمُونَ} فإن هذا إنما يقال -غالبا- لمن ادعى دعوى هو فيها كاذب أو مُنزَّل منزلة الكاذب، لمخالفته لُموجِبها وعمله بما ينافيها، قال ابن كثير: "والآية ذامَّة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت ههنا، وقوله تعالى: {وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ} أي بالطاغوت، وهو دليل على أن التحاكم إلى الطاغوت مناف للإيمان، مضاد له، فلا يصح الإيمان إلا بالكفر به، وترك التحاكم اليه، فمن لم يكفر بالطاغوت لم يؤمن بالله، وقوله: {وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا}، أي: لأن إرادة التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- من طاعة الشيطان، وهو إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، وفي الآية دليل على أن ترك التحاكم إلى الطاغوت الذي هو ما سوى الكتاب والسنة: من الفرائض، وأن المتحاكم إليه غير مؤمن، بل ولا مسلم.

وقوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا}، أي إذا دعوا إلى التحاكم إلى ما أنزل الله والى الرسول أعرضوا إعراضا مستكبرين، كما قال تعالى: {وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ} [النور: ٤٨]، قال ابن القيم: "هذا دليل على أن من دُعي الى تحكيم الكتاب والسنة فلم يقبل وأبى ذلك أنه من المنافقين، و{يَصُدُّونَ} هنا لازم لا متعد، هو بمعنى يُعرضون، لا بمعنى يمنعون غيرهم، ولهذا أتى مصدره على صدود، ومصدر المتعدي صدا"، فإذا كان المعرض عن ذلك قد حكم الله -سبحانه- بنفاقهم، فكيف بمن ازداد إلى إعراضه منعَ الناس من تحكيم الكتاب والسنة، والتحاكم إليهما، بقوله وعمله وتصانيفه، ثم يزعم مع ذلك أنه إنما أراد الإحسان والتوفيق؛ الإحسان في فعله ذلك والتوفيق بين الطاغوت الذي حكَّمه وبين الكتاب والسنة؟

قلت: وهذا حال كثير ممن يدعي العلم والإيمان في هذه الأزمان، إذا قيل لهم تعالوا نتحاكم الى ما أنزل الله والى الرسول {رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ} [المنافقون: ٥]، ويعتذرون أنهم لا يعرفون ذلك ولا يعقلون، {بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ} [البقرة: ٨٨].

وقوله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ}، قال ابن كثير: "أي فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في المصائب بسبب ذنوبهم، واحتاجوا إليك في ذلك"، وقال ابن القيم: "قيل المصيبة فضيحتهم، إذا أُنزل القرآن بحالهم ولا ريب أن هذا أعظم المصيبة والإضرار، فالمصائب التي تصيبهم بما قدمت أيديهم في أبدانهم وقلوبهم وأديانهم بسبب مخالفة الرسول -عليه الصلاة والسلام- أعظمها مصائب القلب والدين، فيُرى المعروف منكرا، والهدى ضلالا، والرشاد غيا، والحق باطلا، والصلاح فسادا، وهذا من المصيبة التي أصيب بها في قلبه، وهو الطبع الذي أوجبه مخالفة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وتحكيم غيره، قال سفيان الثوري: في قوله تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ} [النور: ٦٣]، قال: هي أن تطبع على قلوبهم".

وقوله تعالى: {ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا}، قال ابن كثير: "أي: يعتذرون ويحلفون إن أردنا بذهابنا إلى غيرك إلا الإحسان والتوفيق، أي المداراة والمصانعة".

وقال غيره: "{إِلَّا إِحْسَانًا}، أي: لا إساءة، و{وَتَوْفِيقًا} أي: بين الخصمين، ولم نرد مخالفة لك، ولا تسخطا لحكمك"". [من كتاب: تيسير العزيز الحميد، باختصار]

عِتْقُ الرِّقَابِ نَجَاةٌ مِنَ الْعَذَابِ

الحمد لله الذي أخرجنا من ظلمات الحكم الجبري إلى نور خلافة على المنهاج النبوي، والحمد لله الذي أقر بالشريعة عيون الموحدين، وأغاظ رؤوس الكفر والمنافقين، والحمد لله الذي أحيى بالصادقين سننا مهجورة، لم تكن لتعود إلا بصوارم الطائفة المنصورة، والصلاة والسلام على صاحب السيرة المحمودة المشهورة، أما بعد:

فإنه لمّا كان السبي والاسترقاق، من الأمور المشروعة بدليل القرآن والسنة والاتفاق، شُرع في مقابل ذلك العتق، والعتق شرعا هو تحرير وتخليص رقبة مملوك -ذكرا كان أم أنثى- من الرق.

وهو من أعظم القربات وأجل الطاعات؛ قال الله عز وجل: { فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ} [البلد: ١١ - ١٣]؛ قال الإمام الطبري، رحمه الله تعالى: "وقوله: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ} يقول تعالى ذكره: وأيّ شيء أشعرك يا محمد ما العقبة؟ ثم بيَّن جلّ ثناؤه له ما العقبة، وما النجاة منها، وما وجه اقتحامها؟ فقال: اقتحامها وقطعها فكّ رقبة من الرقّ، وأسر العبودة". [جامع البيان].

كفارة للذنوب

وقد جعل الله -عز شأنه- العتق كفارة للقتل الخطأ فقال سبحانه: {وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ} [النساء: ٩٢]، وكفارة للظِّهار فقال تعالى: {وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا} [المجادلة: ٣]، وكفارة لمن حنث في يمينه فقال، عز من قائل: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ} [المائدة: ٨٩]، كما جعل الله -تعالى- العتق كفارة لإتيان الزوجة في نهار رمضان، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: هلكت. قال: (وما شأنك؟) قال: وقعت على امرأتي في رمضان، قال: (تستطيع تعتق رقبة؟) قال: لا. قال: (فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟) قال: لا. قال: (فهل تستطيع أن تطعم ستين مسكينا؟) قال: لا. قال: (اجلس) فجلس، فأُتي النبي -صلى الله عليه وسلم- بعرق فيه تمر -والعرق: المِكْتل الضخم- قال: (خذ هذا فتصدق به) قال: أعلى أفقر منا؟ فضحك النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى بدت نواجذه، قال: (أطعمه عيالك) [متفق عليه].

قال الإمام ابن قدامة، رحمه الله تعالى: "والعتق من أفضل القرب إلى الله تعالى؛ لأن الله تعالى جعله كفارة للقتل، والوطء في رمضان، والأيمان، وجعله النبي -صلى الله عليه وسلم- فكاكاً لمعتقه من النار، ولأن فيه تخليصا للآدمي المعصوم من ضرر الرق وملك نفسه ومنافعه، وتكميل أحكامه، وتمكنه من التصرف في نفسه ومنافعه، على حسب إرادته واختياره" [المغني].

فضل من أعتق رقبة مسلمة

وقد نُقل الإجماع على استحباب العتق والندب إليه، قال الإمام ابن هبيرة، رحمه الله تعالى: "اتفقوا على أن العتق من القرب المندوب إليها" [اختلاف الأئمة العلماء].

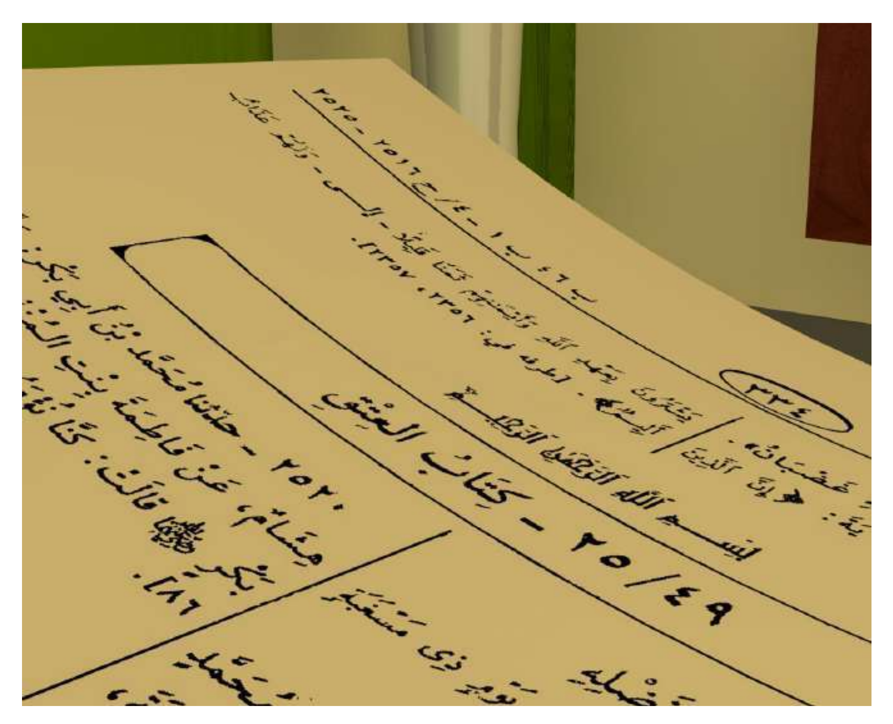
والسنة النبوية تزخر بالأحاديث المبينة لفضل العتق، الحاثة عليه المرغبة فيه؛ فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (من أعتق رقبة مسلمة، أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار، حتى فرجه بفرجه) [متفق عليه].

وعن أبي أمامة، وغيره من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أيما امرئ مسلم، أعتق امرأ مسلما، كان فكاكه من النار، يجزي كل عضو منه عضوا منه، وأيما امرئ مسلم، أعتق امرأتين مسلمتين، كانتا فكاكه من النار، يجزي كل عضو منهما عضوا منه، وأيما امرأة مسلمة، أعتقت امرأة مسلمة، كانت فكاكها من النار، يجزي كل عضو منها عضوا منها) [أخرجه الترمذي].

وعن البراء بن عازب -رضي الله عنه- قال: جاء أعرابي إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله، علمني عملا يدخلني الجنة، فقال: (لئن كنت أقصرت الخطبة، لقد أعرضت المسألة، أعتق النسمة، وفك الرقبة). فقال: يا رسول الله، أوليستا بواحدة؟ قال: (لا، إنّ عتق النسمة أن تفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في عتقها، والمنحة الوكوف، والفيء على ذي الرحم الظالم، فإن لم تطق ذلك، فأطعم الجائع، واسق الظمآن، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك، فكف لسانك إلا من الخير) [أخرجه أحمد].

هذا وقد كان العتق من هدي النبي -صلى الله عليه وسلم- وصحابته الكرام؛ قال الماوردي، رحمه الله تعالى: "وأعتق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سلمان، وشقران، وثوبان، وزيد بن حارثة، واشترى أبو بكر -رضي الله عنه- بلالاً وكان يُعذَّب على الإسلام فأعتقه لوجه الله تعالى، فقال فيه عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: بلال سيدنا وعتيق سيدنا).

ثم قال، رحمه الله: (وقد أعتق عمر، وعثمان، وعلي -رضوان الله عليهم- عبيدا وإماء، وكذلك أهل الثروة من الصحابة -رضي الله عنهم- في عصر الرسول -صلى الله عليه وسلم- وبعده، فدل على فضل العتق) [الحاوي الكبير].



ممّا تحبّون..

وإنا في هذا المقام ندل أصحاب الرقاب من مالكين ومالكات على تجارة قد تنجيهم من النار، ألا وهي العتق بل وعتق أفضل ما يملكون، إذ إن أفضل الرقاب أغلاها بدليل حديث أبي ذر -رضي الله عنه- قال: (سألت النبي، صلى الله عليه وسلم: أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله، وجهاد في سبيله، قلت: فأي الرقاب أفضل؟ قال: أغلاها ثمنا، وأنفسها عند أهلها) [متفق عليه]، والله -عز وجل- يقول: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران: ٩٢]، نعم مما تحبون وتشتهون، لا مما تزهدون فيه وتزدرون، فكلما كانت الرقبة غالية على أهلها، ثمينة مرتفعا سعرها، كان أجر معتقها أعظم عند الله تعالى، لأنه بعتقها يكون قد آثر ما عند الله من أجر على ما في هذه الدنيا من خير. إنها النار يا عباد الله وتالله إن عتق عضو واحد من أن تلفحه ريح جهنم أعظم من الدنيا وما فيها، فسارعوا إلى الخيرات قبل الممات والفوات، واعملوا ليوم يقول فيه المجرمون: {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ} [السجدة: ١٢].

كما ولا ينتظرن مؤمن فطن مجيء الموت حتى يعتق مملوكا أو مملوكة، كأن يُصاب مالكٌ بإصابة يوقن بهلاكه منها فيعتق حينها ما يملك، فإن ذلك وإن جاز بشروطه إلا أن أجره قليل مقارنة بمن يعتق رقبة وهو موفور الصحة والعافية؛ عن أبي الدرداء أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (الذي يعتق عند الموت كالذي يهدي بعدما يشبع) [أخرجه النسائي والطبراني].

وأخيرا: ننبه إلى أن العتق المندوب إنما يكون لمن حسن إسلامه، وغلب على الظن ثباته على الدين، أمّا من خُشي عليه الفتنة، والرجوع إلى دار الكفر، فلا يُشرع عتقُه في الشريعة، بل يحرم سدا للذريعة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلِّ اللهم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وَعدَ الله حقاً

لقد أثنى الله -تعالى- على عباده المؤمنين الذين يصدّقون كلام الله ويوقنون بتحقق موعوده، لا يزولون عن هذا اليقين في السراء ولا في الضراء، بل لا تزيدهم المحن إلا إيماناً بآيات الله ووعده، وتسليماً لأمره وحكمته، ورضىً بقضائه وقدره.

وكثيراً ما يتمنى العبد أن الفرج والنصر يأتيه من الله بطريقة معينة وبأحداث محددة، ولكنّ الله -تعالى- له حِكَم عظيمة قد يخفى كثير منها علينا.

فلقد تمنى المؤمنون أن يلقوا قافلة كفار قريش فيأخذوها سهلة بغير قتال، ويكون فيما يغتنمونه منها قوة لهم وبلاغ إلى حين، ولكنّ الله -تعالى- شاء بعلمه وحكمته أن تنجو القافلة وتخرج قريش عازمة على قتال المسلمين بجيش يزيد على ثلاثة أضعاف عدد المسلمين، طامعة في القضاء على المسلمين الذين بدؤوا يُسقطون هيبة قريش ويجترئون عليها وعلى تجارتها، فكانت غزوة بدر الكبرى، التي قال الله عنها: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} [الأنفال: ٧ - ٨].

وقد قلّل الله -تعالى- الكفار في أعين المؤمنين ليتشجعوا على قتال الكفار ولا يرهَبوهم، وقلّل المؤمنين في أعين الكفار ليغريهم بقتال المؤمنين، قال تعالى {وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} [الأنفال: ٤٤]، فلما التحم الفريقان رأى الكفار المسلمين وكأنهم ضعف عدد الكفار، فتزلزل جيش الكفر وسقطت معنوياته، ووهنت قوته، ويئس من النصر، وأيد الله المؤمنين بنصره، قال تعالى: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ} [آل عمران: ١٣].

وفي غزوة الأحزاب ابتلى الله -تعالى- المؤمنين ابتلاءا شديداً لم يتوقعوه، فازدادوا إيماناً بتحقق وعد الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- بنصر المؤمنين واندحار الكافرين.

قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا} [الأحزاب: ٩]، قال ابن كثير: "يقول تعالى مخبرا عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين، في صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا وذلك عام الخندق، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح... وجاء المشركون فنزلوا شرقي المدينة قريبا من أحد، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة، كما قال الله تعالى: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ}، وخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومن معه من المسلمين، وهم نحو ثلاثة آلاف، وقيل: سبعمائة، وأسندوا ظهورهم إلى سَلْع ووجوههم إلى نحو العدو"، ومع هذا التحشد للكفار اشتد البلاء على المسلمين، قال ابن كثير: "فعَظُم الخَطْب واشتد الأمر، وضاق الحال، كما قال الله تعالى: {هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا} ومكثوا محاصرين للنبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه قريبا من شهر".

ثم جاء نصر الله -تعالى- بعد تلك الشدة وذلك الضيق بكيفية عجيبة ظهرت فيها قدرة الله وقوته وعزته وحكمته ولطفه بالمؤمنين، قال تعالى: {وَرَدَّ الله الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى الله الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ الله قَوِيًّا عَزِيزًا} [الأحزاب: ٢٥]، وأيَّد الله -تعالى- المؤمنين بالنصر على يهود بني قريظة والإثخان فيهم، ومنَّ على المؤمنين بالغنائم الكثيرة التي أورثهم إياها من بني قريظة، قال تعالى: {وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا} [الأحزاب: ٢٦-٢٧].

إنه وعد الله، الذي أنجزه لعباده، بعد أن محصهم وابتلاهم حتى خرج المنافقون من صفوفهم، وازداد المؤمنون صلابة وثقة بوعد الله، فجاءهم نصره من حيث لا يحتسبون. نسأل الله لعباده المجاهدين النصر والعز والتمكين، والحمد لله رب العالمين.

تداووا عباد الله

لا يكمل إيمان عبد إلا بالتوكل على الله في أموره كلها، وما تعلق قلب عبد بغير الله -سبحانه- إلا نقص من إيمانه بقدر ذلك، حتى إذا توكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله -تعالى- كان مشركا.

وفي المرض يُبتلى الناس في صدق توكلهم على الله تعالى، فالمؤمنون يتوجهون إليه وحده في طلب الشفاء، وتحصيل الأجر والجزاء، أما من فقد التوحيد فإنه يتعلق بالأنداد طالبا منهم الشفاء من دون الله تعالى، كما يفعل عبّاد "الأولياء" والقبور، وبين أفعال أولئك الموحدين وهؤلاء المشركين، تبرز قضية التعلق بالأسباب المادية المشروعة للنجاة من الأمراض والوقاية منها، من أطباء وأدوية ولقاحات وغيرها.

إذ يختلف الناس بين مغالٍ في تلك الأسباب والتعلق بها طلبا للشفاء، وبين تاركٍ لها طلبا للتوكل الحق على الله سبحانه، وبين هؤلاء وهؤلاء من هو على منهاج النبوة في الاستشفاء، بطلب التداوي بالوسائل المشروعة، دون أن يؤثر ذلك على صدق توكلهم على الله تعالى، وهذا ما سنسعى -بحول الله- لتبيينه في هذه المقالة.

بين التوكل والأخذ بالأسباب

التوكل على الله من أعمال القلوب، وهو من العبادات القلبية ومن توحيد العبادة الذي جاء به جميع الرسل، ومن توكل على الله -تعالى- في كل أحواله فقد حاز الأجر العظيم وكفى بها نعمة، وأما العمل بالأسباب المشروعة فهو من أعمال الجوارح المتممة للتوكل.

فمع الأمر بالتوكل جاءت الشريعة بالحث على السعي بالجوارح لتحصيل الأسباب في كل ما نحتاجه لبلوغ المقاصد الدينية، وقد تكون الأسباب حينها واجبة مثل الإعداد للجهاد، لأن الوسائل لها أحكام المقاصد، وكذلك الأسباب التي يُتوصل بها إلى الحاجات البدنية الضرورية في حفظ البدن وعلاجه، ففي مجال الطب والتداوي تكون الوقاية والعلاج باتخاذ الأسباب الوقائية والعلاجية التي خلقها الله -تعالى- لعباده، ودلّهم عليها من خلال السنة النبوية الكريمة، أو علّمهم أهميتها بما شاء، وهذه الأسباب لا تبطل التوكل إذا كان المسلم لا يلتفت إليها إلا من باب اتباع سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- في تحصيل مقصد شرعي أو حاجة ضرورية.

فالنبي -صلى الله عليه وسلم- كان يلبس الدرع والمغفر، ويتخذ أسباب الحماية لبدنه، مع شجاعته وطلبه للشهادة وحبه القتل عدة مرات كما ثبت في الحديث الصحيح، وكذلك اتخذ أسباب النصر في الحرب من وضع الخطط، وتعبئة الجنود، والتورية على وجهات سراياه وغزواته، وكذلك ادخر الطعام لأهله وغير هذا كثير، وقد جاء في صحيح ابن حبان أن عمرو بن أمية الضمري -رضي الله عنه- قال: قال رجل للنبي، صلى الله عليه وسلم: أُرسل ناقتي وأتوكل؟ قال: (اعقلها وتوكل)، فإن الاحتياط من ربط الناقة لا ينافي توكلَّه على الله، بل إن التوكل القلبي يستلزم السبب العملي.

التوكل الحق

إن المتوكل على الله بقلبه حق التوكل سيلمس نتائج ذلك من خلال تيسير الله -سبحانه- له الأسباب التي تعينه على الوصول إلى غايته، وهي من أعمال البدن التي قد لا يحصل عليها إلا بحسن دعائه وصدق توكله على الله سبحانه، ومن ثم حصول النتائج المرجوة.

ولذلك جاء في سنن الترمذي عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصا وتروح بطانا) وهذا الحديث فيه من التمثيل غاية البلاغة وكمال الصورة، فإن الطير لا يُعرف لها مالك من الخلق يدبر شؤونها، ولكنها بمجرد خروجها من وكرها بحثا عن الرزق فإن الله -تعالى- يهيِّئ لها رزقها، فهو مالك خلقه جميعا ومدبر أمورهم، قال الله تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [العنكبوت: ٦٠].

وهذا منطبق على حال المسلم الذي يتناول العلاج أو يتخذ أسباب الوقاية المشروعة، فإنه بصبره على ما ابتلاه به ربه، وحسن ظنه به، وصدق توكله عليه، يهديه إلى تلك الأسباب التي تنفعه، برفع البلاء، وزيادة الأجر، وتكفير الخطايا والذنوب بإذنه سبحانه.

وعلى ربّهم يتوكلون..

وقد ورد في السنة ما يجوز فعله، ولكن تركه من كمال التوكل، مثل ترك الاكتواء وطلب الرقية، وهو ما ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب، قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: هم الذين لا يكتوون ولا يسترقُون وعلى ربهم يتوكلون).

فهنا فرق بين الراقي والمسترقي، فالراقي يرقي نفسه أو غيره وهذا حسن، والمسترقي هو طالب الرقية من الغير وهو المقصود في قوله صلى الله عليه وسلم: (لا يسترقون)، والنهي عن الكي في الحديث للكراهة لا للتحريم، وهو حمي الحديد ووضعه على الجرح، ومع جوازه فهو لا يعارض أصل التوكل لكن تركه من كمال التوكل.

فهؤلاء الصفوة المذكورة صفاتهم في الحديث لا يطلبون من غيرهم رقية أو كيًّا، أو أي حاجة يقدرون على فعلها بأنفسهم، حرصا على إتمام توكلهم وطلبا للمنزلة العالية، وعلَّل ذلك الشيخ عبد الرحمن بن حسن -رحمه الله تعالى- في "قرة عيون الموحدين" فقال: "والحامل لهم على ذلك قوة توكلهم على الله وتفويضهم أمورهم إليه، وأن لا تتعلق قلوبهم بشيء سواه في ضمن ما دبره وقضاه، فلا يرغبون إلا إلى ربهم، ولا يرهبون إلا منه ويعتقدون أن ما أصابهم بقَدَره واختياره لهم، فلا يفزعون إلا إليه وحده في كشف ضرهم، قال تعالى عن يعقوب، عليه السلام: {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ} [يوسف: ٨٦]".

المنهج النبوي في التداوي من الأدواء

وينبغي للمسلم أن يوازن بين نوع المرض الذي يوجب عليه التداوي مع نية القلب التي تصون توحيده، وبين همته في طلب منزلة السبعين ألفا بترك الاستشفاء مما يصيبه من بعض الأمراض، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ثبت أنه وصحابته تداووا، ولكنهم لا يطلبون ما يقدرون على فعله، مثل الرقية وغيرها، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يسترقِ، ولكن رقاه جبريل -عليه السلام- من غير طلب منه، وحرص النبي -صلى الله عليه وسلم- على بعض أصحابه أن ينالوا منزلة السبعين ألفا، فقد ثبت في صحيح مسلم "أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أوصى عددا من أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئا، قال: كان أحدهم يسقط سوطه وهو على دابته فلا يسأل أحدا أن يرفعه إليه فينزل ويأخذه"؛ وذلك طلبا للكمال ورفعة الدرجة.

ويجب أن يُعلم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وصحابته جمعوا بين التداوي وبين كمال التوكل على الله تعالى، فاستدامة الصحة بنعمة الدواء وغيره مما يُتوقى به هو شرع الله تعالى، جاء به النبي، صلى الله عليه وسلم، وحث المسلمين معه على صون توكلهم من منزلقات التعلق بالأسباب، وقد أوردنا الحديث عن السبعين ألفا لتبيان كمال التوكل لكلِّ مفرِّط في توكله، وكذلك نحث كل متواكل بترك الأسباب أن يسعى لتحصيل المطلوب، فقد جاء في مسند الإمام أحمد أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (تداووا عباد الله، فإن الله -عز وجل- لم ينزل داء، إلا أنزل معه شفاء، إلا الموت، والهرم)، فهنا أمر بالتداوي بالدواء من الداء، وكلاهما من خلقه -سبحانه- لحكمة بالغة قضاها، ولو كان التداوي ينافي التوكل لما حث عليه النبي، صلى الله عليه وسلم، فالدواء لا يكون نافعا إلا بإذن الله -تعالى- حين يأذن بالشفاء، إلا الهرم الذي يعقبه الموت، وقال بعض أهل العلم إن التداوي يصبح واجبا إذا ثبت نفعُه أو غلب على الظن نفعه مع احتمال الهلاك.

وما أحسن ما قاله ابن القيم، رحمه الله: "وفي الأحاديث الصحيحة الأمر بالتداوي، وأنه لا ينافي التوكل، كما لا ينافيه دفع داء الجوع، والعطش، والحر، والبرد بأضدادها، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدرا وشرعا، وأن تعطيلها يقدح في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة، ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى في التوكل، فإن تركها عجزا ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلا للحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عجزه توكلا، ولا توكله عجزا" [زاد المعاد].

الزَّوَاجُ مِنَ العَتَائِقِ سُنَّةُ خَيْرِ الْخَلَائِقِ

> يا لـه مـن ديـن ذاك الـذي يُعـز المؤمـن وإن كان عبدا، ويُذل المشرك وإن كان سيدا، ويا لـه من ديـن ذاك الـذي يرفـع النـاس بتقواهـم لا بأنسـابهم، فهـذا بـلال يُسـمع دفُّ نعليـه فـي الجنـة وهـو الحبشـي، وذاك أبـو لهـب سـيصلى نـارا ذات لهـب وهـو القرشـي، وكـم ممَّـن أمُّـه سـليلة حسـب ونسـب وهـو عنـد اللّه وضيع، وكـم ممَّن أمه جارية سُـبيت بحد السـيف وهـو عنـد اللّه رفيـع.

وما كانت تربية الإماء والزواج أو الإنجاب منهن عارا أو شنارا إلا في الجاهلية، وأما إسلامنا العظيم فقد جعل الناس سواسية، يتفاضلون بالتقوى.

وقد بوَّب علماء الحديث في مصنفاتهم عن فضل عتق الجواري والزواج منهن الشيء الكثير؛ جاء في صحيح الإمام البخاري، رحمه الله تعالى: [باب اتخاذ السراري، ومن أعتق جاريته ثم تزوجها]: عن أبي بردة، عن أبيه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (أيَّما رجل كانت عنده وليدة، فعلَّمها فأحسن تعليمَها، وأدَّبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران، وأيَّما رجل من أهل الكتاب، آمن بنبيه وآمن بي فله أجران، وأيَّما مملوك أدى حق مواليه وحق ربه فله أجران).

وأخرج الإمام مسلم -رحمه الله- في صحيحه: عن الشعبي، قال: رأيت رجلا من أهل خراسان سأل الشعبي، فقال: يا أبا عمرو، إن مَن قِبلنا من أهل خراسان يقولون في الرجل إذا أعتق أمته، ثم تزوَّجها: فهو كالراكب بدنته، فقال الشعبي: حدثني أبو بردة بن أبي موسى، عن أبيه، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (ثلاثة يُؤتَون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيِّه، وأدرك النبي -صلى الله عليه وسلم- فآمن به واتبعه وصدقه، فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله تعالى وحق سيده، فله أجران، ورجل كانت له أمة فغذَّاها، فأحسن غذاءها، ثم أدبها فأحسن أدبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران).

من أبناء هاجر .. أنبياء

وحريٌّ بكل من يفخر بنسبِه من العرب، وإن هو تسرَّى وبُشِّر بمولود عبس واكفهر وجهه وغلب عليه الشعور بالذلة والخزي من أن أمَّ ولده ما هي إلا جاريته! حريٌّ بمثل هذا أن يتأمل قليلا في أحساب من سبقنا، وليسأل نفسه بعيدا عن لمزات المنكرين، وغمزات المثربين: من كانت أم أبيك إسماعيل أيها المسلم العربي سليل خير البطون والأفخاذ؟! إن كنت تجهل فآن لك أن تعلم أنها هاجر، ومن هاجر؟ أَمة أهدتها سارة لزوجها إبراهيم الخليل، وهي أم ابنه إسماعيل، على نبينا وعليهما الصلاة والسلام، يذكرها أبو هريرة -رضي الله عنه- معقبا على قصة سارة مع الجبار فيقول: "فتلك أمكم يا بني ماء السماء" [متفق عليه]، قال الإمام النووي -رحمه الله تعالى- في شرح صحيح مسلم: "قال كثيرون المراد ببني ماء السماء العرب كلهم لخلوص نسبهم وصفائه".

وقال الإمام ابن حبان في صحيحه: "كلُّ من كان من ولد هاجر يقال له: ولد ماء السّماء، لأنّ إسماعيل من هاجر، وقد رُبِّي بماء زمزم وهو ماء السّماء الّذي أكرم اللّه به إسماعيل حيث ولدته أمّه هاجر، فأولادها أولاد ماء من السماء".

من المعتقات.. أمهات للمؤمنين

ثم إنه إذا كان السبي والاسترقاق سنة ثابتة عن نبينا، صلى الله عليه وسلم، فإن عتق السبايا والزواج والإنجاب منهن كذلك سنةٌ معلومة أكيدة؛ عن أنس -رضي الله عنه- قال: أقام النبي -صلى الله عليه وسلم- بين خيبر والمدينة ثلاثاً يُبنى عليه بصفيّة بنت حييّ، فدعوت المسلمين إلى وليمته فما كان فيها من خبز ولا لحم، أُمر بالأنطاع فألقى فيها من التّمر والأقط والسّمن، فكانت وليمته، فقال المسلمون: إحدى أمّهات المؤمنين، أو ممّا ملكت يمينه، فقالوا: إن حجبها فهي من أمّهات المؤمنين، وإن لم يحجبها فهي ممّا ملكت يمينه، فلمّا ارتحل وطّى لها خلفه ومدّ الحجاب بينها وبين النّاس" [رواه البخاري]، وهكذا غدت صفية – رضي الله عنها- زوجا لنبينا الكريم، وأمًّا للمؤمنين، وهي التي سُبيت يوم خيبر، فأي تشريف قد نالها وأي تكريم قد طالها!

وكذلك الأمر مع جويرية بنت الحارث، رضي الله عنها وأرضاها؛ فعن عائشة أمّ المؤمنين قالت: "لمّا قسَّم رسول اللّه -صلى الله عليه وسلم- سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في السّهم لثابت بن قيس بن الشّمّاس -أو لابن عمٍّ له- وكاتبته على نفسها، وكانت امرأةً حلوةً ملاحةً لا يراها أحدٌ إلّا أخذت بنفسه، فأتت رسول اللّه -صلى الله عليه وسلم- تستعينه في كتابتها، قالت: فواللّه ما هو إلّا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أنّه سيرى منها ما رأيت، فدخلت عليه، فقالت: يا رسول اللّه، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرارٍ سيّد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخفَ عليك، فوقعتُ في السّهم لثابت بن قيس بن الشّمّاس -أو لابن عمٍّ له- فكاتبتُه على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي. قال: (فهل لك في خير من ذلك؟)، قالت: وما هو يا رسول اللّه؟ قال: (أقضي كتابتك وأتزوّجك) قالت: نعم يا رسول اللّه. قال: (قد فعلت)، قالت: وخرج الخبر إلى النّاس أنّ رسول اللّه -صلى الله عليه وسلم- تزوج جويرية بنت الحارث، فقال النّاس: أصهار رسول -صلى الله عليه وسلم- فأرسلوا ما بأيديهم، قالت: فلقد أعتق بتزويجه إيّاها مائة أهل بيتٍ من بني المصطلق، فما أعلم امرأةً كانت أعظم بركةً على قومها منها" [أخرجه أحمد].

أئمة أعلام.. من أبناء السراري والجواري

وقد أهدى مقوقس مصر للمصطفى -صلى الله عليه وسلم- مارية القبطية وأختها سيرين، فتسرَّى النبي بمارية وأنجبت له ابنه إبراهيم، وأهدى أختها لحسان بن ثابت وهي أم ولده عبد الرحمن بن حسان.

وكذا كان لنبي الله سليمان -عليه السلام- الكثير من السراريّ وكان يتـغشّاهنّ يلتمس الولد.

وهذا علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- كان قد تسرّى بسبيّـة من سبْي بني حنيفة، فولدت له محمد الذي اشتهر بابن الحنفية، وهو من فقهاء التابعين.

وروى عبد الرزاق في مصنفه عن أبي سعيد الخدريّ -رضي الله عنه- قال: "كانت لي جاريةٌ كـنت أعزل عنها فولدت لي أحبّ النّاس إليّ". وقد تسرّى الحسين بن علي -رضي اللـه عنه- بسُـرِّيـةٍ فأولدت له علي بن الحسين المعروف بزين العابدين، ولم يكن للحسين عَـقِبٌ إلّا منه.

وكذلك فقد بَـرع في العلم والفقه من الـتابعين كثيرٌ ممَّـن كانوا أبناء سراريّ وسبايا من أمثال الفقيه الورع القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق أحد فقهاء المدينة السبعة المشهورين، وكذا سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب الفقيه العَـلَم.

عن الأصمعي عن أبي الزناد قال: "كان أهل المدينة يكرهون اتّـخاذ أمهات الأولاد حتى نشأ فيهم القراء السادة: علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فقهاء، ففاقوا أهل المدينة علما وتقى وعبادة وورعا فرغب الناس حينئذ في السراري" [تاريخ دمشق لابن عساكر].

وغيرهم الكثير... فالحمد لله الذي أحيانا إلى زمانٍ يُحيى فيه ما مات، ويُجدد فيه ما اندرس، حتى لامسنا الصبية ينشؤون على التوحيد؛ هذا ابن حُرة، وذاك ابن أمّ ولد، والآخر ابن معتوقة، تماما كما كان الحال في الصدر الأول، فالحمدُ لله أولا وآخرا.

الاستشفاء بالأدوية غير الحسية

الحمد لله خالق الداء والدواء، ينفع من يشاء، وينزل بمن يشاء البلاء، والصلاة والسلام على رسول الله محمد ماحي الشرك والشقاء، وعلى آله الأتقياء وصحبه الأصفياء، أما بعد:

فقد ذكرنا فيما سبق مشروعية التداوي ومنهج الشريعة فيه، ولا بد أن يُعرف أن في التداوي ما يكون بالأدوية الحسية وغير الحسية، فغيرُ الحسية المشروعة كالرقية والدعاء هي أعظم الأدوية وأجلها وأشرفها وأحمدها عواقبا، فالله -سبحانه وتعالى- قال: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} [الإسراء: ٨٢]، قال ابن القيم رحمه الله: "وإن الأدوية القلبية، والروحانية، وقوة القلب، واعتماده على الله، والتوكل عليه، والالتجاء إليه، والانطراح والانكسار بين يديه، والتذلل له، والصدقة، والدعاء، والتوبة، والاستغفار، والإحسان إلى الخلق، وإغاثة الملهوف، والتفريج عن المكروب، فإن هذه الأدوية قد جرَّبتها الأمم على اختلاف أديانها ومِللها، فوجدوا لها من التأثير في الشِّفاء ما لا يصل إليه علم أعلم الأطباء، ولا تجربته، ولا قياسه، وقد جرَّبنا نحن وغيرنا من هذا أمورا كثيرة، ورأيناها تفعل ما لا تفعل الأدوية الحسية" [زاد المعاد].

الاستشفاء بالقرآن

إن أعظم ما يُتداوى به هو كلام الله المجيد، فهو نجاة الحيران، وطب القلوب وعافية الأبدان، وشفاء العلل وجلاء الأدران، قال الماوردي في قوله، عز وجل: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} [الإسراء: ٨٢]: "يحتمل ثلاثة أوجه، أحدها: شفاء من الضلال, لما فيه من الهدى. الثاني: شفاء من السَّقم, لما فيه من البركة. الثالث: شفاء من الفرائض والأحكام, لما فيه من البيان".

وجاء في صحيح البخاري عن معمر عن الزهري عن عروة عن أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها: "أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان ينفثُ على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوِّذات، فلما ثقُل كنت أنفثُ عليه بهن، وأمسح بيد نفسِهِ لبركتها"، وجاء في الحديث: "فسألت الزهري [والسائل هو معمر]: كيف ينفث؟ قال: كان ينفث على يديه، ثم يمسح بهما وجهه".

أمَّا صحابته الكرام -رضي الله عنهم- فحالهم مع الاستشفاء بالقرآن ما رواه الإمام البخاري عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- أن ناسا من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- أتوا على حيٍّ من أحياء العرب فلم يُقروهم [أي لم يضيِّفوهم]، فبينما هم كذلك، إذ لُدغ سيد أولئك، فقالوا: هل معكم من دواء أو راقٍ؟ فقالوا: إنكم لم تُقرونا، ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جُعلا، فجعلوا لهم قطيعا من الشاء، فجعل يقرأ بأمِّ القرآن [أي الفاتحة]، ويجمع بزاقه ويتفل، فبرأ فأتوا بالشاء، فقالوا: لا نأخذه حتى نسأل النبي، صلى الله عليه وسلم، فسألوه فضحك، وقال: (وما أدراك أنها رقية، خذوها واضربوا لي بسهم).

فهذا الرجل الملدوغ مرضه حسّيّ ظاهر، ولكنّ دواءه غير حسّيّ، وهو سورة الفاتحة التي من أسمائها الشافية.

الاستشفاء بالدعاء

لقد علَّمنا نبينا الكريم -صلى الله عليه وسلم- أن (الدعاء هو العبادة) وحثنا على طلب كل شيء من الله -سبحانه- حتى لو كان أصغر حاجة، ففي الحديث الصحيح عن أنس -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (ليسأل أحدُكم ربَّه حاجته كلَّها حتى يسأله شِسع نعله إذا انقطع) [التبريزي في مشكاة المصابيح]، وبهذا التنبيه النبوي فعلى كل مسلم أن يسأل ربه -سبحانه- كل حاجاته، فهو الرب الحليم الكريم، والودود الرحيم، والسميع القريب، قال سبحانه: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [البقرة: ١٨٦]، وقد يكفيك الله -تعالى- بالدعاء قبل المباشرة بالأسباب الحسية، فالدعاء هو السبب الأجلّ، وطب الآفات والعلل، كيف لا وهو من أعظم العبادات، والصلة الوثيقة بين العبد ورب الأرض والسماوات، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن ينقطع دعاؤه في الليل والنهار، وسنَّ لنا أذكار اليوم والليلة للحماية من مجهول الآفات، وعلَّم أصحابه الدعاء طلبا للشفاء من الأمراض.

روى البخاري بسنده عن عبد العزيز، قال: دخلت أنا وثابت على أنس بن مالك، فقال ثابت: يا أبا حمزة، اشتكيت، فقال أنس: ألا أرقيك برقية رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟ قال: بلى، قال: (اللهم ربَّ الناس، مُذهِب الباس، اشف أنت الشافي، لا شافي إلا أنت، شفاء لا يغادر سقما)، وجاء عند مسلم عن عائشة زوج النبي -صلى الله عليه وسلم- أنها قالت: كان إذا اشتكى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رقاه جبريل، قال: "باسم الله يُبريك، ومن كل داء يشفيك، ومن شرِّ حاسد إذا حسد، وشر كلِّ ذي عين"، فهذه هي من مفردات الرقية بالدعاء التي وردت، شفاء من كل داء ومن شرور الحسد ومن العين أي النظرة.

فالله -سبحانه وتعالى- هو الذي يكشف السوء ويشفي المريض ويبتلي عباده وهو على ما يشاء قدير، ولذلك من اعتصم بالدعاء فقد استمسك بعظيم.

الاستشفاء بالصدقة

إن من العبادات ما فيه الأثر الحميد والمآل الحسن في الدنيا والآخرة، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (داووا مرضاكم بالصدقة) [رواه البيهقي في سننه، وهو حديث حسن]، ولسنا هنا بمعرض الحديث عن ثواب الصدقة فهو باب طويل وثوابه مضاعف أضعافا كثيرة، ولكن في هذا الحديث تصريح بأن الصدقة دواء للمريض، فإن من الأمراض والبلاء ما يكون بسبب الذنوب والمعاصي التي تُغضِب الله تعالى، وإن الصدقة تطفئ غضبه سبحانه، فعن أبي سعيد الخدري عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (صدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر، وفعل المعروف يقي مصارع السوء) [رواه البيهقي في شعب الإيمان].

الاستشفاء من الهم والغم والحزن بالاستغفار

وهذه الأدواء تعامَل معها الطب المعاصر بماديَّة بحتة، وتاه في الوصفات المختلفة التي بعضها يعتمد على تخدير العقل لينسى المريض همومَه وغمومَه، ولو علموا أصلها لسهل علاجها، فإنها تنشأ في الغالب بسبب الإعراض عن دين الله، جل وعلا، فالكفر هو أعظم أسباب الأمراض النفسية وهموم القلوب، قال الله تعالى: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأنعام: ١٢٥]، وتنشأ هذه الأمراض أيضا بسبب الذنوب والمعاصي والتقصير في الطاعات الواجبة، التي تترك النفس في همّ وحزن، وقد تكون أسبابها فقرا أو دَينا أو مشكلة من مشاكل الحياة، ولكن هذه الوصفات الحسية لم تكن العلاج النافع، فالدواء الناجع هو الوصفة النبوية، فالاستغفار يدفع الهم والحزن لأنه يجلو القلب من ظُلَم المعاصي وضيق الصدر، فحين يتوجَّه المستغفر بقلبٍ مُعرِضٍ عن كَبَد الحياة وهمومها إلى كرم الخالق ولطفِه وطلبِ ما عنده، فسيجد الراحة والسكينة وانشراح الصدر، قال ابن القيم، رحمه الله: "وأما تأثير الاستغفار في دفع الهمِّ والغم والضيق، فمِمَّا اشترك في العلم به أهلُ الملل وعقلاءُ كل أمة أن المعاصي والفساد تُوجب الهم والغم، والخوف والحزن، وضيق الصدر، وأمراض القلب، حتى إن أهلها إذا قضوا منها أوطارهم، وسئمتها نفوسهم، ارتكبوها دفعا لما يجدونه في صدورهم من الضيق والهمِّ والغم، كما قال شيخ الفسوق:

وكأسٍ شَرِبت على لَذةٍ
وأخرى تداويت منها بها

وإذا كان هذا تأثير الذنوب والآثام في القلوب، فلا دواء لها إلا التوبة والاستغفار" [زاد المعاد].

الاستشفاء من الهم والغم والحَزن بالجِهاد

عندما يُترك العدو الصائل يستبيح الدين والأرض والعرض فإن ذلك يجلب الهم والغم والحزن، ودواء ذلك هو دفعه وقتالُه وكسر شوكته وهذا يؤدي لانشراح الصدر وشفائه، قال الله تعالى: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ} [التوبة: ١٤]، ففي قتال الكفار والمرتدين تحصيل الأجور وشفاء الصدور، وفي السنة النبوية، عن عبادة بن الصامت -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (عليكم بالجهاد في سبيل الله فإنه باب من أبواب الجنة يُذهب الله به الهم والغم) [رواه أحمد].

الشرك بالله لا يكون شفاء

فهذه جملة من الأدوية غير الحسية التي وردت فيها أدلة شرعية من كتاب وسنة، وفي الوقت نفسه فقد وردت الأدلة في نفي الاستشفاء ببعض الأدوية غير الحسية التي ابتدعها أهل الضلال، ودلّوا الناس عليها، ليعلقوا قلوبهم بغير الله تعالى، ويوقعوهم في الشرك بالله، ومنها السحر، والتمائم، ودعاء غير الله، وغيرها من الأدوية التي بيّن الله العظيم ورسوله الكريم، كذب من قال بنفعها، وتسببها بخسارة الإنسان لدينه، دون أن تنفعه في دنياه.

فقال سبحانه في نفي فائدة الدعاء لغير الله تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا} [الإسراء: ٥٦]، وقال -صلى الله عليه وسلم- فيمن يعلقون التمائم والأحراز ليتقوا بها الأمراض ويستشفوا بها: (من تعلق تميمة فلا أتم الله له ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له) [رواه أحمد]، وقال -صلى الله عليه وسلم- فيمن يتعاطى السحر لأي سبب كان ومنه الاستشفاء من الأمراض: (اجتنبوا الموبقات الشرك بالله والسحر) [رواه البخاري].

هذا والله أعلم، والحمد لله رب العالمين.

لباس المسلمة أمام النساء

لطالما كان الحياء حلية المؤمنات، وزينة التقيات، وسلعة الصالحات، إلى أن سقطت ديار المسلمين بيد الطغاة والكافرين، فميَّعوا الدين، ووجهوا سهامهم نحو ربات الخدور، فحاربوا الحجاب وشجعوا السفور، واتبعت نساؤنا نساءهم شبرا بشبر وذراعا بذراع، إلا من عصم الله وهن قليلات، وكان مما عمت به البلوى بين المسلمات، لباس الكافرات الماجنات، فقل الحياء بين النساء، وأصبحت المجالس عروضا للأزياء، أزياء ما أنزل الله بها من سلطان، ولا ترضاها إلا رقيقة دين وإيمان.

المرأة عورة

بادئ ذي بدء لتعلمْ كل مسلمة أن الأصل في الأشياء كالمأكل والملبس والمشرب الحِل ما لم يرد نص أو دليل على تحريمها، أو تخالف أصلا أو قاعدة من قواعد الشرع، ومعاذ الله أن نحرِّم ما أحله الله -تعالى- لعباده من زينة أو طيبات وهو القائل: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ}]الأعراف: ٣٢[، غير أننا نسعى للنصح والإصلاح ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، والله من وراء القصد.

وإن كثيرا من النساء اليوم إذا ما عوتبت على لباسها الفاضح بين المسلمات ردَّت بأن هذا الأمر جائز، لكون عورة المرأة أمام المرأة من السُّرة إلى الركبة، وهذا القول استند إلى حديث ضعيف لا يصح الاحتجاج به.

قال الله، عز وجل: {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النور: ٣١].

وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان) [رواه الترمذي وابن خزيمة وابن حبان]، وفي هذا دليل على أن الأصل في المرأة أنها عورة، فلا يجوز إظهار شيء منها إلا ما ورد دليل باستثنائه وإباحة إظهاره.

وعموم الأدلة والأقوال الواردة عن الصحابة -رضوان الله عنهم- دلَّت على ما اعتاد نساء ذاك الزمان على إظهاره كالرأس والعنق والذراعين، وأما ما عدا ذلك وما اعتادت نساء زماننا هذا إبداءه فليس فيه دليل.

حكم الملابس الضيِّقة أمام المحارم والنساء

عن أسامة بن زيد قال: كساني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قُبطية كثيفة كانت مما أهداها دِحية الكلبي، فكسوتها امرأتي، فقال لي رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (ما لك لم تلبس القُبطية؟) قلت: يا رسول الله، كسوتها امرأتي. فقال لي رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (مُرها فلتجعل تحتها غِلالة، إني أخاف أن تصف حجم عظامها) [أخرجه أحمد، والغِلالة: شعار يلبس تحت الدِّثار؛ مثل القميص تحت الثياب الظاهرة، والجمع: غلائل].

ففي عموم هذا الحديث دليل على عدم جواز لبس الضيِّق أمام المحارم -غير الزوج- والنساء.

وقال جرير بن عبد اللَّه -رضي الله عنه- في حق الرجل (والمرأة من باب أولى): "إن الرجل ليلبس وهو عارٍ، يعنِي الثياب الرِّقاق" [رواه الطبراني].

فبعض النساء -أصلحهن الله- تلبس ألبسة ضيِّقة وتقول هي ساترة وطويلة ولا تشفّ عن شيء من جسمي عدا مواضع الوضوء! هداك الله أختنا، هي لا تشفّ ولكنها تصف جميع مفاتنك فاحذري أن يُلبِّس عليك الشيطان.

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يَضربون بها الناس، ونساءٌ كاسيات عاريات مُميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يَدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا) [رواه مسلم]، وعلى من يقول بأن المعنيَّات بهذا الحديث هنَّ الكاسيات العاريات خارج بيوتهن فقط، أن يأتي بدليل صحيح صريح على ذلك.

ثم إن حب الزينة الذي جُبلت عليه المرأة إن لم يصاحبه خوف من الله، قد يجعلها تتعلق بلباس الكافرات تعلُّقا مذموما يُخشى على عقيدتها منه، كما يُخشى عليها أن يكون ذلك من التشبه بالكافرين، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (من تشبَّه بقوم فهو منهم) [رواه أحمد وأبو داود]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله تعالى: "أن المشابهة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن كما أن المحبة في الباطن تُورث المشابهة في الظاهر وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة" [مجموع الفتاوى].

الحياء زينة

وبعيدا عن هذا وذاك، وهل هو جائز أو غير جائز لتسأل المسلمة نفسها: أَوَ هكذا كان لباس أمهات المؤمنين والسلف الصالح؟ حاشاهن حاشاهن، بل والله إنا نعلم أنهن عفيفات ورعات حيِّيات حتى في خلواتهن.

فيا أمة الله إن الحياء صفة من صفات الله -تعالى- وشعبة من شعب الإيمان، والمرأة حيِّية بطبعها فكيف تخالف إحدانا فطرتها وتُولي الحياء ظهرها؟

واعلم أيها الرجل المسلم المسؤول عن رعيتك أباً كنت أو أخاً أو زوجاً أو أيّاً كنت من الأولياء، اعلم أنك ستُسأل عن تساهلك مع محارمك وعدم مبالاتك، فكم من زوج يرى زوجته وقد أعتدت لصويحباتها في بيته مجلسا، وتزيَّنت ولبست العاري الفاضح، ثم لا يجد في ذلك بأسا ولا ينهاها بحجة أنهن نساء، والله المستعان، فالنساء لسن جميعهن على قدر واحد من الإيمان والتقوى، وقد تحضُر المجالس من تجهل أمر دينها فتذهب لتحدِّث وتصف من جالست من نساء للأجانب، فاحفظ عرضك يا مسلم من أن تلوكه ألسنة الجاهلين!

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلِّ اللهم وسلم على سيد الأنبياء والمرسلين.

إِمَاءُ اللهِ فِي بُيُوتِ اللهِ

أَحْكَامٌ وآدَابٌ

إن كثيرا من المسلمات اليوم يحفظن حديث: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله) الذي رواه الشيخان، ولكنَّ قليلات منهن من يفقهن أحكام المساجد وضوابط الخروج إليها والصلاة فيها، فإن كنت يا مسلمة خارجة إلى المسجد ولا بد، فإليك هذي السطور، علها تنفعك وتنأين بها عن المحظور.

الأصل في المرأة القرار في البيت

اعلمي أختي المسلمة -وفقك الله لكل خير- أن الأصل في المرأة القرار في البيت، وأن صلاتك في بيتك أفضل من صلاتك في المسجد.

كما أن المتأمل في حديث نبينا، صلى الله عليه وسلم: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله) يلحظ أنه -صلى الله عليه وسلم- عند نهيه عن منع النساء لم يرغّب في صلاة الجماعة لهن، ولم يذكر أفضالها كما كان شأنه مع الرجال وهو يرغبهم في الجماعة، بل نجده في حديث عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- يردف النهي عن المنع بقوله: (وبيوتُهن خير لهن)، بل إن صلاة المرأة في بيتها خير من صلاتها في مسجد النبي، صلى الله عليه وسلم؛ فعن أم حميد الساعدية أنها جاءت إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالت: يا رسول الله إني أحب الصلاة معك. قال: (قد علمتُ، وصلاتُك في بيتك خيرٌ لك من صلاتك في حجرتك، وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك، وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجد الجماعة) [رواه أحمد].

ضوابط الخروج من البيت

وإن على المرأة قبل خروجها من بيتها تريد المسجد أن تستأذن زوجها، ويحرُم على المرأة الذهاب إلى المسجد متعطِّرة متزيِّنة؛ فعن أبي هريرة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، ولْيَخرجن وهن تَفِلات) [رواه أبو داود]، ومعنى تَفِلات أي غير متعطِّرات، وأخرج الإمام مسلم -رحمه الله- من حديث زينب امرأة عبد الله بن مسعود -رضي الله عنهما- قالت: قال لنا رسول الله، صلى اللّه عليه وسلم: (إذا شَهِدَت إحداكن المسجد، فلا تمس طيباً).

وعن موسى بن يسار، قال: مرَّت بأبي هريرة امرأةٌ، وريحها تعصف، فقال لها: أين تريدين يا أمة الجبار؟ قالت: إلى المسجد، قال: وتَطَيَّبْتِ؟ قالت: نعم، قال: فارجعي فاغتسلي، فإني سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (لا يقبل الله من امرأة صلاة خرجت إلى المسجد وريحها تعصف، حتى ترجع فتغتسل) [أخرجه ابن خزيمة في صحيحه والبيهقي في الآداب]، هذا وتعطُّر المرأة عموما عند خروجها من بيتها حرام سواء كانت تريد المسجد أم غيره، ولا يجوز للمسلمة أن يجد ريحَها إلا زوجها ومحارمها.

وفي طريقها إلى المسجد تجتنب المرأة وسط الطريق وتلزم جوانبه؛ فعن حمزة بن أبي أسيد الأنصاري، عن أبيه، أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول وهو خارج من المسجد فاختلط الرجال مع النساء في الطريق، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- للنساء: (استأخرن، فإنه ليس لكن أن تَحْقُقنَ الطريق، عليكن بحافات الطريق)، فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به. [أخرجه أبو داود والطبراني].

سنن وآداب دخول المسجد

أما إذا دخلت المرأة المسجد فيُشرع لها أن تصلي ركعتين قبل أن تجلس، فعن أبي قتادة -رضي الله عنه- قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين) [متفق عليه]، وأما إذا دخلت وأقيمت الفريضة فلا صلاة حينها إلا المكتوبة؛ عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة) [رواه مسلم].

وعلى المسلمة أن تلتمس آخر صف من صفوف النساء، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (خيرُ صفوف الرِّجال أولها، وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرُّها أولها) [رواه مسلم]، فنجد أن الشارع يحرص كل الحرص على إبعادها عن الرجال ويحول دونها والاختلاط بهم حتى في بيوت الله التي ما أُسست إلا للطاعة والعبادة.

ويُسن للمرأة التصفيق إذا نابها شيء في صلاتها، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (التسبيح للرجال، والتصفيق للنساء) [متفق عليه].

وأما كيفية التصفيق فقد اختلف الفقهاء حولها؛ فمنهم من قال تصفق المرأة بباطن كفيها، ومنهم من قال تصفِّق بظاهر يدها فوق باطن كفها، وقال بعض العلماء تصفق بإصبعين من يمينها فوق باطن شمالها.

أما إذا لم يكن هناك رجال فلا يضير المرأة أن تسبِّح كما فعلت أم المؤمنين عائشة مع أختها أسماء -رضي الله عنهما وعن أبيهما- في صلاة الكسوف، وإنما كان المحذور من التسبيح في حضرة الرجال خشية سماعهم صوتها وافتتانهم به.

وعلى النساء إذا انتهى الإمام من الصلاة أن يغادرن المسجد قبل الرجال؛ عن أم سلمة -رضي الله عنها- أن النساء في عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كنَّ إذا سلَّمنَ من المكتوبة قمن، وثبت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومن صلى من الرجال ما شاء الله، فإذا قام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قام الرجال. [رواه البخاري].

محظورات في المساجد

ولا يجوز رفع الأصوات داخل المسجد باللَّغط في حق الرجال، وإنه في حق النساء أشد وأغلظ حرمة، عن السائب بن يزيد -رضي الله عنه- قال: كنت قائما في المسجد، فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب، فقال: اذهب فأتني بهذين، فجئته بهما، قال: من أنتما، أو من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟ [رواه البخاري].

وإن بعض النساء اليوم -أصلحهن الله- لا يتورَّعن عن رفع أصواتهن، بل وقد تتعالى من بعضهن ضحكات وهنَّ في بيت الله تعالى، ولا يُلقين لهذه المخالفة الشرعية بالا، فلتحذر المسلمة من مغبة ذلك، مع جواز الكلام المباح، لحديث السائب بن يزيد -رضي الله عنه- السالف ذكره.

وإذا دخلت الأخت المسلمة المسجد ووجدت مصلى النساء مكتظا كأن تكون صلاة عيد أو جمعة فلا تتخطى رقابهن تريد أول الصفوف للوصول إلى صديقة لها أو قريبة، فعن عبد الله بن بُسر -رضي الله عنه- أن رجلا جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يخطب الناس يوم الجمعة، فقال: (اجلس فقد آذيت وآنيت) [رواه أبو داود وأحمد].

كما وعلى المسلمة الحذر من أمر ترتكبه بعض النسوة، ألا وهو البيع والشراء داخل المسجد، لأن المساجد لم تُبنَ لهذا الغرض، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد، فقولوا لا أربح الله تجارتك) [رواه ابن خزيمة والترمذي].

وكذلك من أضاعت شيئا وجاءت تطلبه في المسجد، فيُسن لمن سمعتها تسأل عنه أن تدعو عليها؛ عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (من سمع رجلا ينشد ضالةً في المسجد، فليقل: لا ردَّها الله عليك، فإن المساجد لم تُبن لهذا) [رواه مسلم].

كما ويجوز للمسلمة الانضمام لحلقات حفظ القرآن وطلب العلم الشرعي في المساجد، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (... وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلَّا نزلت عليهم السَّكينة، وغشيَتهم الرحمة، وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده) [رواه مسلم].

وأما الحائض والنفساء فلا يجوز لها المكث في المسجد، ولكن يجوز لهن الخروج للعيدين إن كانت الصلاة في الفلاة، وإن هي أمنت التلويث، غير أنها لا تحضر الصلاة وتكتفي بسماع الخطبة والدعاء للمسلمين، فعن أم عطية -رضي الله عنها- قالت: أمرنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن نُخرجهن في الفطر والأضحى، العواتق والحيَّض وذوات الخدور، فأما الحُيَّض فيعتزلن الصلاة ويشهدن الخير ودعوة المسلمين، قلت يا رسول الله! إحدانا لا يكون لها جلباب، قال: (لتُلبِسْها أختُها من جلبابها) [متفق عليه].

وختاما على المسلمة أن تعلم أن المساجد بيوت الله وأحب البقاع إليه سبحانه، فلتحذر من أن ترتادها لتعصي الله فيها، بزينة تبدو، أو عطر يعصف، أو صوت يعلو، أو لغو أو لغط، وإن رأت منكرا فلتنصح أخواتها بلين ولا تنفّرهن، ولتتذكَّر أن أعرابيا بال في مسجد نبينا، فما عنَّفه، صلى الله عليه وسلم، وإنما علَّمه وبيَّن له خطأه بمنتهى اللين والرفق، هذا والله تعالى أعلى وأعلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلِّ اللهم وسلِّم على سيد الأنبياء والمرسلين.

الابتلاء سنة أتباع الأنبياء

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن مما يبعث على انشراح الصدر ورضا العبد بقضاء الله وقدره وابتلائه لعباده مما تكرهه نفوسهم هو استشعارهم نعمة الثبات على الابتلاءات، واستشعارهم بما ابتلي به النبي -صلى الله عليه وسلم- على طريق الجهاد، لا سيما أن جلَّ حياة النبي -صلى الله عليه وسلم- جهاد وغزو، وكذا صحابته المقتدون به، فالموحِّد المجاهد عندما يعيش اللحظات العصيبة من جوع وحصار وجراح واستحرار القتل، لا ينصرف ذهنه إلّا إلى تلك اللحظات التي عاشها خير البشر -صلى الله عليه وسلم- من الجوع الذي حل به جراء حصار الكفار له ولمن معه قبل الهجرة وبعدها، والجراح التي أصابته، والشدة التي لاقاها في حربه مع الكفار.

الجوع والحصار

إن ما حدث لنبينا -صلى الله عليه وسلم- على طريق دعوته لم يكن أمرا هيِّنا، بل إن الأنبياء هم أعظم الناس ابتلاء، فكم من نبي قُتل وكم من نبي عُذِّب وكم من نبي ابتُلي، ولم يكن على وجه الأرض رجل أكرم على الله من النبي الكريم محمد، صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك ابتلاه -سبحانه- بأنواع الابتلاءات. قال ابن القيم، رحمه الله تعالى: "وحُبس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومن معه في الشعب، شعب أبي طالب، ليلة هلال المحرم، سنة سبع من البعثة، وعُلِّقت الصحيفة في جوف الكعبة، وبقوا محبوسين ومحصورين مضيَّقا عليهم جدا، مقطوعا عنهم الميرة والمادة نحو ثلاث سنين، حتى بلغهم الجَهْد، وسُمعت أصوات صبيانهم بالبكاء من وراء الشعب" [زاد المعاد].

كذلك الجوع الذي أصابه وأصحابه يوم الخندق، فعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: "جئت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوما فوجدته جالسا مع أصحابه يحدثهم، وقد عصَّب بطنه بعصابة، قال أسامة: وأنا أشك على حجر، فقلت لبعض أصحابه لم عصَّب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بطنه؟ فقالوا: من الجوع..." [رواه مسلم].

فيا أيها المجاهد المحاصر الجائع في أي مكان على وجه الأرض كنت، لك أسوة بخير الأنبياء، صلى الله عليه وسلم، وبخير أتباع نبي، رضوان الله عليهم أجمعين.

حال الصحابة قبل الهجرة

وكذلك مضت سنة الابتلاء في أتباع الأنبياء مع أنبيائهم كما دلت على ذلك آيات القرآن، قال الله تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: ١٤٦]، فإن خيرة الأتباع هم أتباع الرسل، فهم أكثر إيمانا وأعظم يقينا من غيرهم، وأكثر ثباتا في الزلزلة والابتلاء والفتن، فكانت ابتلاءاتهم عظيمة على قدر ما هم عليه من ذلك الإيمان والثبات، ولذلك لمّا شكا أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- حالهم مما يلاقونه من المشركين، ذكّرهم بما كان يحصل لأتباع الأنبياء قبلهم، فعن خباب بن الأرت -رضي الله عنه- قال: شكونا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: (كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض، فُيجعل فيه، فيُجاء بالمنشار فيُوضع على رأسه فيُشق باثنتين، وما يصدُّه ذلك عن دينه، ويُمشَط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصدُّه ذلك عن دينه، والله ليَتمَّنَّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون) [رواه البخاري].

فيا أيها المجاهد المبتلى في كل ثغر من ثغور الدولة الإسلامية مهما كان ابتلاؤك، تذكر ابتلاءات أتباع الأنبياء ورفعة منزلتهم في الجنة وأنت في طريقك إلى الله تعالى، وتذكر أنك اختصرت الطريق إلى الجنان. فقد قال الحسن البصري، رحمه الله تعالى: "إن لكل طريق مختصرا ومختصر طريق الجنة الجهاد" [حلية الأولياء لأبي نعيم].

جراح النبي -صلى الله عليه وسلم- في المعركة

أما في غزواته -صلى الله عليه وسلم- فإنه بعد النصر في غزوة بدر، أصابته الجراح في غزوة أحد حتى كُسرت رباعيته وشُجَّ رأسه ودخلت المغفر في وجهه الشريف، فعن عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه، أنه سمع سهل بن سعد، يُسأل عن جرح رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم أحد، فقال: "جُرح وجه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكُسرت رباعيته، وهُشمت البيضة على رأسه، فكانت فاطمة بنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تغسل الدم، وكان علي بن أبي طالب يسكب عليها بالمِجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة حصير فأحرقته حتى صار رمادا، ثم ألصقته بالجرح، فاستمسك الدم" [رواه مسلم].

فعندما يصيب المجاهد كل هذا، عليه أن يتفكر في تلك المواقف التي مرت بالنبي -صلى الله عليه وسلم- ليسكن قلبه ويهدأ روعه، فلم يكن في مراحل بناء الدولة إلا الثبات والقتال والمدافعة بما هو موجود من العدد والعدة مع الصدق واليقين بنصر الله -تعالى- لدينه وأوليائه.

وقد مدح الله أتباع الأنبياء لثباتهم رغم الجراح والقتل، فما ضعفوا عن مواصلة طريقهم إلى الله -تعالى- وما وهنوا لما يصيبهم من ابتلاءات عظيمة، قال الله عز وجل: {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: ١٤٦]، وفي قراءة: {وكأين من نبي قُتِل معه ربيون كثير}، وصدق الله، ومن أصدق من الله قيلا، فكم كان مع الأنبياء من أتباع صادقين قاتلوا معهم وقُتلوا ولم يتراجعوا عن غايتهم العليا في تعبيد العباد لرب العباد، وإقامة شرعه في العالمين، ومنهم الصحابة -رضوان الله عليهم- فهم خير أتباع لخير نبي، صلى الله عليه وسلم، وقد وصفهم الله -تعالى- بأجمل أوصافهم فقال: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا} [الفتح: ٢٩].

فيا أهل التوحيد وجنود الخلافة دونكم تلك الخصال الحميدة، وهذا حال القوم فتأسوا بهم في الصبر على الابتلاء والشدة على الكفار، ولا تمهلوهم، ولا تولوهم الأدبار، فالابتلاء سنة أتباع الأنبياء.



تحذير ربّات الحِجال من التعالم والجدال

إن من الآفات الخطيرة التي نخرت في أمتنا وتعاظم أمرها خاصة في زماننا هذا آفة التعالم، إذ كثر المتعالمون بيننا والمتفيهقون، الذين يظنون أن مجرد حفظ آية أو حديث يبيح لهم التصدُّر للفتيا، والخوض في مسائل يتورع عن الخوض فيها أئمة في العلم وجهابذة في الفقه، ورحم الله أبا حصين الأسدي إذ يقول: "إن أحدهم ليفتي في المسألة، ولو وردت على عمر لجمع لها أهل بدر!".

ولقد تجاوز التعالم مجالس الرجال ليحط رحاله في مجالس النساء، فظهرت كثيرات من مدَّعيات العلم، اللاتي غُصن ولُصن حتى فيما مُنع الرجال من الخوض فيه وأدأ للفتنة ودرءاً للمفسدة ورصًّا للصف، حتى بتنا نسمع فتاوى وتأصيلات لا ندري أنضحك لهولها أم نبكي؟ ومصدرها فلانة وأم فلان، وإنا لله وإنا إليه راجعون!

خطورة القول على الله بغير علم

اعلمي أختي المسلمة -أرشدك الله- أن التعالم من خطوات الشيطان، وهو مزلقة نحو إثم عظيم، وهو القول على الله بغير علم، الذي حرَّمه الله -عز وجل- في جميع شرائع من سبقنا من الأمم، وأما في ديننا الحنيف فقد جاء التحذير من مغبة القول على الله بغير علم في مواضع كثيرة من الكتاب والسنة.

فأما في الكتاب فقد فقال ربنا الكبير المتعال محذرا من كيد الشيطان: {إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٦٩]، وفي موضع آخر قرنه -سبحانه- بالشرك فقال: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٣]. قال الإمام ابن قيم الجوزية، رحمه الله تعالى: "وأما القول على الله بلا علم فهو أشد هذه المحرمات تحريما، وأعظمها إثما، ولهذا ذُكر في المرتبة الرابعة من المحرمات التي اتفقت عليها الشرائع والأديان، ولا تباح بحال، بل لا تكون إلا محرمة، وليست كالميتة والدم ولحم الخنزير، الذي يباح في حال دون حال.

فإن المحرمات نوعان: محرم لذاته لا يباح بحال، ومحرم تحريما عارضا في وقت دون وقت، قال الله تعالى في المحرم لذاته: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ}، ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال: {وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ}، ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه، فقال {وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا}، ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه، فقال:{وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثما؛ فإنه يتضمن الكذب على الله، ونسبته إلى ما لا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفي ما أثبته وإثبات ما نفاه، وتحقيق ما أبطله وإبطال ما حققه، وعداوة من والاه وموالاة من عاداه، وحب ما أبغضه وبغض ما أحبه، ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله.

فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه، ولا أشد إثما، وهو أصل الشرك والكفر، وعليه أُسِّسَت البدع والضلالات، فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم.

ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة لها، وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض، وحذروا فتنتهم أشد التحذير، وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش، والظلم والعدوان، إذ مضرة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد، وقد أنكر -تعالى- على من نسب إلى دينه تحليل شيء أو تحريمه من عنده، بلا برهان من الله، فقال {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ} [النحل: ١١٦] الْآيَةَ" [مدارج السالكين].

نصف العلم لا أعلم

وعلى الأخت التي تفتي بالحلال والحرام دون دليل من الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس الصحيح أن تعلم أن هذا من القول على الله بغير علم، وما أحسن وأجلّ كلمة "لا أعلم" في دين الله تعالى، وما أسلمها للقلب، قال الشعبي: "نصف العلم لا أعلم"!

وعن عزرة التميمي، قال: قال علي، رضي الله عنه: "وا بردها على الكبد"، ثلاث مرات. قالوا: وما ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: "أن يُسأل الرجل عمَّا لا يعلم فيقول: الله أعلم" [رواه الدارمي والبيهقي].

وإليك يا مسلمة -وفقك الله لما يحبه ويرضاه- هذه الرواية عن أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- حينما سُئل عن آية، فقال: "أيُّ أرض تقلني وأي سماء تظلني، وأين أذهب، وكيف أصنع إذا أنا قلت في كتاب الله بغير ما أراد الله بها؟" [موطأ الإمام مالك].

وعن خالد بن أسلم، وهو أخو زيد بن أسلم قال: "خرجنا مع عبد الله بن عمر نمشي فلحقنا أعرابي فقال: أنت عبد الله بن عمر؟ قال: نعم. قال: سألت عنك فدُلِلْتُ عليك، فأخبرني أتَرِثُ العَمَّة؟ فقال ابن عمر: لا أدري، فقال: أنت لا تدري ولا ندري. قال: نعم اذهب إلى العلماء بالمدينة فاسألهم. فلما أدبر قبَّل ابن عمر يديه، فقال: نعمًا قال أبو عبد الرحمن، سئل عمَّا لا يدري، فقال: لا أدري" [المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي].

ابن عمر وما أدراك من ابن عمر -رضي الله عنهما- يُسأل عن مسألة فقهية فيتحرَّز لنفسه ويقول لا أدري، بينما إحداهن تستحي من قول لا أعلم، وتخشى أن يقال عنها جاهلة! ووالله لأن يقال عنكِ في الدنيا جاهلة، خير من أن يُنادى عليكِ يوم القيامة أين التي كانت عن ربها بغير علم قائلة!

عن الإمام مالك -رحمه الله- قال: "أخبرني رجل أنه دخل على ربيعة بن أبي عبد الرحمن فوجده يبكي، فقال له: ما يبكيك؟ وارتاع لبكائه فقال له: أمصيبة دخلت عليك؟ فقال: لا، ولكن استُفتيَ من لا عِلم له وظهر في الإسلام أمر عظيم، قال ربيعة: ولبعض من يفتي ها هنا أحق بالسجن من السرَّاق"! [جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر].

ومن اللطائف التي تلفت انتباه المسلمة إليها، أن من الأمور المحبوبة لدى أهل العلم، أن يربوا طلابهم وتلامذتهم على قول: لا أدري، ولا أعلم.

قال الشافعي: سمعت مالك بن أنس، يقول: سمعت محمد بن عجلان، يقول: "إذا أغفل العالم (لا أدري) أصيبت مقاتله" [المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي].

بيت في ربض الجنة

كذلك من الآفات المنتشرة أيضا في أيامنا، زيادة على التعالم، الجدال في صفوف النساء، إلا من عصم الله، ومقصدنا الجدال المذموم الذي لا طائل ولا فائدة ترجى منه وليس الجدال بالتي هي أحسن، إذ تجد من تجادل في مسألة ما دون بينة شرعية منها ولكن عيّاً وجهلاً وقصوراً، ومنهن من تجلس ساعة أو يزيد لتجادل في فتوى استفتتها ولم يعجبها رد المستفتَى عنها، إذا إنه خالف هواها ومرادها، وما تريد بجدالها ذاك إلا الانتصار لنفسها والعياذ بالله.

عن أبي أمامة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم (أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه) [رواه أبو داود].

وقال الإمام اللالكائي، رحمه الله تعالى: قال جعفر بن محمد: "إياكم والخصومات في الدين فإنها تشغل القلب، وتورث النفاق" [شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة].

فاحذري يا مسلمة -يرحمك الله- من هذين الداءين الخطيرين، واربئي بنفسك عن التعالم ومواطن الجدال، ولا تكثري في دين الله من القيل والقال.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلِّ اللهم وسلِّم على سيد الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا

ورغم كل هذه الفضائل التي تدفع المؤمن دفعا إلى تحصيلها والسعي لبلوغها ولو حبواً على الركب، فإن الله -سبحانه- لم يجعل هذه العبادة العظيمة من النوافل التي يُثاب فاعلها دون أن يُحاسب تاركها، بل كتبها -سبحانه- على المؤمنين فريضةً من الفرائض التي يجب على كل مستطيع القيام بها، ما وجبت عليه، ما لم يعذره الله. قال جل جلاله: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢١٦].

انفروا خفافاً وثقالاً

وقد عاتب الله -تعالى- من تخلف عن النفير لغزوة تبوك رضاً بالدنيا، وتفضيلا لمتاعها القليل على ما أعدَّه -سبحانه- للمجاهدين في سبيله في الآخرة من نعيم كثيرٍ باقٍ، وتوعَّد من يتخلف عن النفير بالعذاب الأليم، وبيَّن لهم أنهم بذلك يُلحقون الضرر بأنفسهم ولن يضرّوا الله شيئا، لأنه من اليسير عليه -سبحانه- أن يستبدل بهؤلاء العصاة لأوامره، أقواما آخرين يطيعونه ويسعون لمرضاته، ويجاهدون في سبيله حقَّ الجهاد، ولا يخشون غيره، فقال جل شأنه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التوبة: ٣٨ - ٣٩].

ثم جاء أمره -جل وعلا- للمؤمنين أن يستجيبوا للأمر بالنفير الذي جاءهم من رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن يكون نفيرُهم على كل حال، أغنياء وفقراء، شبابا وشيبا، وعلَّمهم أن جهادهم في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم خيرٌ لهم في دنياهم وآخرتهم، فقال جل جلاله: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [التوبة: ٤١].

وبيَّن أنه لا يستأذن للقعود عن هذا الأمر العظيم الذي تعيَّن على كل المؤمنين - باستنفار النبي، صلى الله عليه وسلم- إلا المنافقون، الذين يكذبون في أعذارهم، التي يبررون بها قعودهم عن الجهاد المتعيِّن عليهم، ومعصيتَهم لأمر نبيهم وإمامهم عليه الصلاة والسلام، ورضاهم بالتخلُّف عنه وعن المؤمنين، فكانوا من الذين كره الله خروجهم في صف المسلمين لقاء أعداء الله. قال سبحانه: {لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ} [التوبة: ٤٤ - ٤٦].

وإذا استُنفِرتم فانفروا

واتفق أهل السنة على أن الجهاد يتعيَّن على كلِّ مسلم يستنفره الإمام للقتال في سبيل الله، حتى وإن كان هذا غير متعيِّن عليه في الأصل لكفاية المسلمين المجاهدين في سبيل الله لسد الثغور، وحِفظ البيضة، والخروج لقتال المشركين.

قال ابن قدامة -رحمه الله- في الشرح الكبير: "ويتعيّن الجهاد في ثلاثة مواضع: أحدها: إذا التقى الزحفان وتقابل الصفَّان حرم على من حضر الانصراف وتعيَّن عليه المقام لقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا} [الأنفال: ٤٥]، وقوله: {وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٦]، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الأنفال: ١٥ - ١٦].

الثاني: إذا نزل الكفار ببلد تعيَّن على أهله قتالُهم ودفعهم.

الثالث: إذا استنفر الإمام قوما لزمهم النفير معه، لقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التوبة: ٣٨ - ٣٩]، وقال النبي، صلى الله عليه وسلم: (إذا استُنفرتم فانفروا) [رواه البخاري]".

الجهاد في سبيل الله، هو ذُروة سنام الإسلام، وأفضل الأعمال الصالحات، وهو ممَّا يغفر الله به الذنوب، ويكفِّر به الخطايا، ويرفع به الدرجات، ويُذهِب به الهم والغم، وينصر بسببه المؤمنين، ويعذب به المشركين، ويرد به عادية البُغاة المعتدين، والجُناة المفسدين، ويقيم به الدين، ويحمي به بيضة المسلمين.

ولو نظرنا إلى حال المسلمين اليوم، نجد أن غالبهم يرى الجهاد من نوافل الأعمال لا من الواجبات المتحتّمات التي لا يكمُل إيمانه إلا بأدائها، ومنهم من يظن أن التكليف بأداء هذه الفريضة لا يشمل غير جنود الدولة الإسلامية، وأنه ليس عليه من الواجب إلا مناصرتهم بالكلام والدعاء أو حتى بالمال، وهو يتناسى أن الفريضة إذا تعيَّنت على المسلم، فلا يَرفع الإثم عنه قيامُ غيره من المسلمين بها مع قعوده عنها، بخلاف فروض الكفايات التي يكفي لرفع الإثم عن المسلمين قيامُ من يكفي من المسلمين بها، كما لو خرج المسلمون لفتح بلاد المشركين، وهم في كثرة وكفاية في العدد والقوة، فيحصل المجاهدون على الأجر والثواب، بخلاف القاعدين الذين وإن سلموا من الإثم، فقد خسروا الثواب الجزيل، اللهم إلا أن يَخلُفوا المجاهدين في أهاليهم وشؤونهم بخير.

فلا تولّوهم الأدبار

والناظر لحال المسلمين اليوم يجد -وبلا شك- أن الجهاد متعيِّن على كل مسلم بالغ قادرٍ على حمل السلاح، فقد استولى المشركون على بلاد المسلمين منذ قرون، وأزالوا شريعة الله عنها، فحكموها بالقوانين الشركية الطاغوتية، والخارجون لقتالهم في غالب البلدان قلةٌ قليلةٌ من المسلمين تعجز عن رد المشركين، وبالتالي فإن فريضة النفير لقتال هؤلاء المشركين، واستعادة دار الإسلام تتعيَّن على كلِّ المُكلَّفين بها، حتى تحصل الكفاية من المقاتلين.

ومع عودة الخلافة، واستنفار الشيخ أبي بكر البغدادي -حفظه الله- لجميع المسلمين للجهاد في سبيل الله، فإن عينية الجهاد تتأكد على المسلمين في كل مكان، وفي ديار الإسلام التي هي أراضي الدولة الإسلامية بشكل خاص، ويزداد منكر القاعدين عن الجهاد عندما ننظر إلى حال مدن الدولة الإسلامية، فلا نجد مدينة من مدنها إلا وقد حشَّد المشركون للهجوم عليها، وقد خرج المجاهدون فيها للقائهم وصدِّهم عن ديار الإسلام، وقد التقى الصفَّان، والتحم الجيشان، فلا يكون حال القاعد عن الجهاد وهو يرى المعركة إلا أنه فارٌّ من الزحف، مولٍّ للدبر، مستحق لعذاب الله -تعالى- الذي ذكره بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الأنفال: ١٥ - ١٦].

فيا أهل الإسلام في كل مكان، وفي أراضي الدولة الإسلامية على وجه خاص...

انفروا في سبيل الله، وأدوا ما افترضه الله عليكم من جهاد المشركين، وحفظ بيضة المسلمين، ولا تُعرّضوا أنفسكم لغضب الله ووعيده، ولا يكن ما استمتعتم به من الأموال والأولاد والنساء أحبَّ إليكم من الله ورسوله ونصرة دينه، قال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: ٢٤].

الاستشفاء بالأدوية الحسيَّة

الحمد لله خالق الداء والدواء، ينفع من يشاء، وينزل بمن يشاء البلاء، والصلاة والسلام على رسول الله محمد ماحي الشرك والشقاء، وعلى آله الأنقياء وصحبه الأصفياء، أما بعد:

سبق لنا الحديث عن التداوي بالأدوية غير الحسية في السنة مثل الاستشفاء بالقرآن والدعاء والاستغفار والصدقة وغير ذلك، ولا بد أن نقدِّم بين يدي القارئ سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- في التداوي بالأدوية المادية المحسوسة، من فعلِه -صلى الله عليه وسلم- أو قولِه الذي هو من الوحي الإلهي، وذلك ليرشد أمته إلى المنافع التي يجهلها أهل الطب، فهو نبي الرحمة وما ترك لنا شيئا من الدين والمصالح العامة إلا دلَّنا عليه، قال الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧].

تداوي النبي -صلى الله عليه وسلم- لنفسه ولأصحابه

دلَّت السنة على أفعال كان يفعلها النبي -صلى الله عليه وسلم- للتداوي، ومنها على سبيل المثال الاكتواء، حيث كان يفعله النبي -صلى الله عليه وسلم- لصحابته الكرام، فعن جابر قال: "رُمي أُبَيّ يوم الأحزاب على أكحُله فكواه رسول الله، صلى الله عليه وسلم" [رواه مسلم].

وعن جابر أيضا قال: "بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى أُبيّ بن كعب طبيبا فقطع منه عرقا ثم كواه عليه" [رواه مسلم].

وهذا في الكَي أمًّا في الحِجامة، ففي رواية للبخاري من طريق وهيب عن أيوب بلفظ: (احتجم وهو محرم، واحتجم وهو صائم)، وللبخاري أيضا في كتاب الطب أنه -صلى الله عليه وسلم- احتجم وأعطى للحجَّام أجره، مما يدل على مداومته -صلى الله عليه وسلم- وحرصه على هذا الفعل.

أدوية ثبت فيها الشفاء العام من الأدواء

وردت بعض النصوص في السنة النبوية تدل على أن بعض المواد فيها شفاء بشكل عام بدون تخصيص داء معين، بل هي شفاء من كل داء، ومنها الحبة السوداء، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (في الحبة السوداء شِفاء من كل داء، إلَّا السام) [رواه البخاري]، فهذا نص عام في الشفاء وغير محدِّد لنوع الداء إلا السام أي الموت الذي يسبقه داء الهرم، الذي لا شفاء له.

وكذلك ما رواه الطبراني عن إبراهيم بن أبي عبلة، قال: سمعت أبا أُبَيّ بنِ أم حرام، يقول: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (عليكم بالسَّنا والسَّنُوت، فإن فيهما شفاء من كلِّ داء إلا السَّام). قالوا: يا رسول الله وما السام؟ قال: (السام الموت). قلنا لعمرو بن بكر: وما السَّنوت؟ قال: أما في معنى هذا الحديث فهو العسل، وأما في غريب كلام العرب فهو رُبُّ عُكَّة السَّمن" [مسند الشاميين]، وقيل أن السنا نبات فيه دواء وهذا يعرفه أهل الطب.

ومنها أيضا عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (عليكم بألبان البقر فإنها ترم مِن كلِّ الشجر، وهو شفاء من كل داء) [رواه الحاكم في المستدرك]، ورواه أبو نعيم الأصفهاني في كتاب الطب عن صهيب الخير، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (عليكم بألبان البقر فإنه شفاء وسمنها دواء)، ولأنها تأكل من كل الشجر، و الأشجار والأعشاب تحتوي المئات من الأدوية، فهذه الأدوية تجتمع في ألبانها وسمنها.

ونختم هذه النصوص العامة بما روته أم المؤمنين عائشة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (إن في عجوة العالية شفاء) [رواه مسلم]، والعجوة هي نوع من أنواع التمور، فهذه بعض النصوص العامة التي ليست موضع تفصيل في هذة المقالة.

أدوية ثبت فيها الشفاء العام مع نجاعتها بعلاج مرض محدد

لقد جاءت في السنة النبوية عن العسل والحجامة نصوص خاصة وعامة في الشفاء، فعن بشير بن عمير قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (في الحجم شفاء) [رواه ابن أبي شيبة]، وكذلك ما رواه أبو هريرة، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن كان في شيء مما تداوون به خير، ففي الحجامة) [رواه أحمد]، فهذا دليل الشفاء العام، أما دليل العلاج الخاص بمرض معين، فهو حديث يحذِّر من ارتفاع ضغط الدم القاتل، الذي قد يصبح مزمنا، فعن أنس بن مالك أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (من أراد الحجامة فليتحرَّ سبعة عشر أو تسعة عشر أو إحدى وعشرين، ولا يَتَبَيَّغ بأحدكم الدم فيقتله) [رواه ابن ماجه]، وتبيُّغ الدم يعني فورانه وهيجانه.

أما العسل فكذلك فيه نص خاص لمرض معين، وفيه نص عام للشفاء وهو قوله تعالى: {ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ} [النحل: ٦٩]، وأما دليل العلاج لمرض معين وهو فساد المعدة المسبِّب للإسهال، ففيه ما رواه أبو سعيد الخدري، قال: جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (اسقه عسلا) فسقاه، ثم جاءه فقال: إني سقيته عسلا فلم يزده إلا استطلاقا، فقال له ثلاث مرات، ثم جاء الرابعة فقال: (اسقه عسلا) فقال: لقد سقيته فلم يزده إلا استطلاقا، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (صدق الله، وكذب بطن أخيك)، فسقاه فبرأ. [رواه مسلم].

أدوية ثبت شفاؤها لأمراض معينة في البدن

ثبتت في السنة النبوية بعض الأحاديث التي تدل على أشياء معينة تكون علاجا لأمراض بعينها، كداء عرق النسا مثلا، وهو ما يُعرف بالانزلاق الغضروفي في الفقرات القطنية، فعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (شفاء عرق النِّسا ألية شاة أعرابيةٍ، تُذابُ ثم تجزَّأ ثلاثة أجزاء، ثم تُشربُ على الريق، كل يومٍ جزءٌ) [رواه ابن ماجه والحاكم، ورواه أحمد بلفظ آخر]، أما كون الشاة أعرابية وتخصيص الإلية منها، وتجزأتها ثلاثة أجزاء، وشربها على الريق، فهذا يرجع تفصيله لأهل الاختصاص.

وهناك ما يقع للبدن من التقرُّحات الجلدية أو الإصابة بشوكة فلها دواء مخصوص كذلك، فعن سلمى أم رافع، مولاة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قالت: "كان لا يصيب النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- قرحة، ولا شوكة، إلا وضع عليه الحناء" [رواه ابن ماجه]، فهذا دواء مادي لمصاب ظاهر.

وأما ما يخص العينين ففي الأحاديث ما يدل على دواء لشفائهما، وفيها ما يدل على صيانتهما والحفاظ عليهما، فعن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، قال: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (الكمأة مِن المن، وماؤها شفاء للعين) [رواه مسلم]، وأما في تقوية البصر والحفاظ عليه فعن جابر قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (عليكم بالإثمد عند النوم، فإنه يجلو البصر، وينبت الشعر) [رواه ابن ماجه وغيره من أهل السنن].

ونختم بهذا الحديث النبوي الذي يخص القسط الهندي وأن فيه سبعة أشفية، فعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن أم قيس بنت محصن -وكانت من المهاجرات الأول اللاتي بايعن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهي أخت عكاشة بن محصن أحد بني أسد بن خزيمة- قال: أخبرتني أنها أتت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بابن لها لم يبلغ أن يأكل الطعام، وقد أعلقت عليه من العذرة [وهو وجع وألم في حلق الصبي]، قالت: فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (علامه تَدْغَرن أولادكن بهذا الإعلاق؟ عليكم بهذا العود الهندي -يعني به الكست- فإن فيه سبعة أشفية منها ذات الجنب) [رواه مسلم]. وفي رواية أخرى لمسلم، رحمه الله: (منها ذات الجنب، يُسعَط من العذرة ويُلَدَّ من ذات الجنب)، والكست هو القسط، وإحدى استخداماته معالجة هذا المرض المذكور في الحديث.

فهذه وغيرها مما ورد في السنَّة تثبت صورة التداوي المادي الذي جاء على لسان الصادق المصدوق، صلى الله عليه وسلم، ومن بعض أفعاله كذلك، وسنترك المجال للدخول إلى تفاصيل التداوي من مفردات المواد وأخلاطها، لمقام آخر بإذن الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

ما لا يسع الحائض والنُّفَساء جهله

الحيض والنفاس يشتركان في الأحكام

ابتداءً، لتعلم المسلمة أنه لا فرق بين الحيض والنفاس من حيث الأحكام، وقد بوَّب الإمام البخاري -رحمه الله تعالى- في صحيحه: [باب من سمَّى النفاس حيضا، والحيض نفاسا]، جاء فيه: "عن أبي سلمة أن زينب بنت أم سلمة، حدثته أن أم سلمة حدثتها قالت: بينا أنا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- مضطجعة في خميصة، إذ حضت، فانسللت، فأخذت ثياب حيضتي، قال: (أنَفِستِ؟) قلت: نعم، فدعاني، فاضطجعتُ معه في الخميلة".

غير أن الحيض دم ينزل من رحم المرأة بعد بلوغها في أوقات معتادة من الشهر، أقلُّ مدته ساعة، وأكثرُ مدته خمسة عشر يوماً على أرجح الأقوال، وما زاد على ذلك عدَّه العلماء استحاضة.

وأما النِّفاس فهو الدم الذي ينزل من المرأة بعد الولادة أو عند السقط، وأحيانا يسبق موعد الولادة بيوم أو يومين أو ثلاثة مع الطَّلق، لأنه علامة الولادة أو قربها ويخرج بسبب ترخية الرحم، فمن تكون قد أوشكت على الولادة ورأت دما فإنه دم نفاس وعلامة مخاض، والله أعلم.

الفرق بين الحائض والمستحاضة

الاستحاضة نزول الدم على المرأة في غير أوقاته المعتادة من عرق يسمى العاذل، أو استمرار نزول الدم عليها بعد انتهاء أيام حيضها المعتادة، وهنا تجدر الإشارة إلى نقطتين مهمتين ينبغي على الأخت المسلمة التفطن والاحتراز منهما، أولاها: أن تحسن المرأة حساب تاريخ حيضتها وعدد أيامها، حتى إذا ما نزل الدم في غير وقته المعتاد، أو زادت أيام فترة الحيض، علمت المرأة أن ذلك دم استحاضة، فعن عائشة أنها قالت: قالت فاطمة بنت أبي حُبيش لرسول الله، صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، إني لا أطهر أفأدَعُ الصلاة، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إنما ذلك عِرقٌ وليس بالحيضة، فإذا أقبلت الحيضة فاتركي الصلاة، فإذا ذهب قدْرُها، فاغسِلي عنك الدم وصلي) [رواه البخاري].

وثانيها: أن تُحسن التمييز بين دم الحيض ودم الاستحاضة، فلكليهما صفة تختلف عن الأخرى، كما ينبغي للمسلمة أن تميِّز علامة طهرها ونقائها، وللطهر علامتان؛ إما قَصة بيضاء وإما جُفوف، فأما القَصة فهي عبارة عن ماء أبيض يدفعه الرحم عند انتهاء الدم، كما في حديث الفقيهة العالمة أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها وعن أبيها، فعن علقمة بن أبي علقمة، عن أمّه، مولاة عائشة أم المؤمنين أنها قالت: كان النساء يبعثن إلى عائشة بالدرجة فيها الكُرسُف، فيه الصفرة من دم الحيضة، يسألنها عن الصلاة. فتقول لهن: (لا تعجلن حتى ترين القَصَّة البيضاء. تريد بذلك الطُّهر من الحيضة) [رواه مالك]، وأما الجفوف فهو لمن لا ترى القَصَّة فتدخل خرقة فتخرجها جافة.

أحكام الحيض والنفاس

كما أشرنا آنفا فإن للحيض والنفاس أحكاما تتعلق بالعبادات والمعاملات، أولها أن المرأة إذا حاضت أو وضعت مولودا ورأت دما تنقطع عن الصلاة والصوم، وهذا هو نقصان الدين الذي وصف به النبي -صلى الله عليه وسلم- النساء، إذ جاء في الحديث عن عبد الله بن عمر، أن رسول الله قال: (ما رأيت مِن ناقصات عقل ولا دين أغلب لذي لُبٍّ منكن). قالت: "وما نقصان العقل والدين؟". قال: (أما نُقصان العقل فشهادة امرأتين شهادة رجل، وأما نقصان الدين فإن إحداكن تُفطر رمضان وتقيم أياما لا تصلي) [رواه أبو داود ورواه الشيخان مطوّلا].

وعند انتهاء المرأة من حيضتها أو خروجها من النفاس تغتسل غسل رفع الحدث الأكبر ولا تقضي تلك الصلوات التي تركتها، على خلاف الصوم فإن المرأة إذا حاضت أو نفست في رمضان، وجب عليها قضاء الأيام التي أفطرتها، فعن معاذة، أن امرأة قالت لعائشة: "أتجزي إحدانا صلاتها إذا طهرت؟"، فقالت: "أحرورية أنت؟ كنا نحيض مع النبي -صلى الله عليه وسلم- فلا يأمرنا به"، أو قالت: "فلا نفعله" [رواه البخاري]. وقد نقلَ الإجماع بوجوب قضاء الصوم طائفةٌ من أهل العلم، رحمهم الله.

كما ويَحرم على الحائض والنفساء أن يأتيها زوجها لقول الله، عز وجل: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: ٢٢٢]؛ قال الإمام الطبري -رحمه الله تعالى- في تفسيره: "وإنما كان القوم سألوا رسول الله، صلى الله عليه وسلم -فيما ذُكر لنا- عن الحيض، لأنهم كانوا قبل بيان الله لهم ما يتبيَّنون من أمره، لا يساكنون حائضاً في بيت، ولا يؤاكلونهنَّ في إناء ولا يشاربونهن. فعرَّفهم الله بهذه الآية، أنّ الذي عليهم في أيام حيض نسائهم، أن يجتنَّبوا جماعهن فقط، دون ما عدا ذلك من مضاجعتهن ومؤاكلتهن ومشاربتهن".

وعن عروة، أنه سُئل: "أتخدمني الحائض أو تدنو مني المرأة وهي جُنُب؟"، فقال عروة: "كل ذلك عليَّ هيِّن، وكل ذلك تخدمني وليس على أحد في ذلك بأس، أخبرتني عائشة: أنها كانت ترجِّل، تعني رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي حائض، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- حينئذ مجاور في المسجد، يُدني لها رأسه، وهي في حجرتها، فتُرجِّله وهي حائض" [رواه البخاري].

ويجوز للرجل -إن كان يملك إربَه- أن يباشر زوجته الحائض ويستمتع بها دون الجماع وهي متَّزرة؛ عن عائشة قالت: "كانت إحدانا إذا كانت حائضا فأراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يباشرها، أمَرَها أن تتَّزر في فور حيضتها ثم يباشرها، قالت: وأيُّكم يملك إربه كما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يملك إربه" [أخرجه البخاري].

أما الحج فإن من تحيض فيه أو يفاجئها المخاض؛ تؤدي المناسك جميعها إلا الطواف بالبيت؛ عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: "خرجنا لا نرى إلا الحج، فلما كنا بسَرَف حضت، فدخل عليَّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأنا أبكي، قال: (ما لك أنَفِستِ؟)، قلت: نعم، قال: (إن هذا أمر كتبه الله على بنات آدم، فاقضي ما يقضي الحاج، غير أن لا تطوفي بالبيت)" [متفق عليه].

> لما كان الحيض أمرا قد كتبه الله -عز وجل- على بنات آدم، كان كتاب الحيض من أهم المسائل الفقهية وأدقِّها، لتعلقه بالعبادات من صلاة وصيام وغيرها، وتعلقه كذلك بالمعاملات التي يدخل فيها فقه الأسرة، ومنه النكاح والطلاق وغير ذلك، وهو الذي قال فيه الإمام أحمد، رحمه الله تعالى: "مكثت في الحيض تسع سنين حتى علمته"، فكان حرياً بكل مسلمة أن تتفقَّه فيه، وتعرف ما لها وما عليها أثناء حيضها ونفاسها، وتكون معنية بأمر دينها، تسأل دون حرج من تثق في علمهم، لا المتعالمين والمتعالمات، المتجرِّئين على الفتيا والمتجرِّئات، كيلا تقع في محظور شرعي، ولا تأتي بقول أو فعل بدعي، ورضي الله عن الصدِّيقة عائشة إذ تقول: "نِعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين" [رواه البخاري].

كما ويَجدر بالمسلمة أن تعلم أن الحيض لا ينفي كل عبادة، فالذكر والتسبيح والتحميد والتهليل والدعاء لا بأس به، وأما مسألة قراءة الحائض من المصحف فمسألة اختلف فيها أهل العلم، والجمهور على القول بمنع الحائض من قراءة القرآن.

ويجوز للحائض دخول المسجد لتناول حاجة أو المرور عبره إذا أمنت التلويث ولا تمكث فيه؛ عن عائشة قالت: "قال لي رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (ناوليني الخُمْرة من المسجد)"، قالت: "فقلت: إني حائض، فقال: (إنَّ حيضَتكِ ليست في يَدِك)" [رواه مسلم].

وأما في المعاملات فهناك مسألة تجهلها الكثير من النساء، ألا وهي حكم الطلاق في زمن الحيض، فقد أجمع أهل العلم على أنه طلاق بِدعي محرَّم؛ عن ابن عمر، أنه طلَّق امرأته، وهي حائض في عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فسأل عمر بن الخطاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن ذلك، فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (مُره فليراجِعها، ثم ليتركها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد، وإن شاء طلَّق قبل أن يمس، فتلك العِدَّة التي أمر الله -عز وجل- أن يُطلق لها النساء) [متفق عليه]، غير أن الفقهاء اختلفوا في هل يقع طلاق الحائض أم لا.

وأخيراً: على الحائض والنفساء أن تغتسل إذا ما طهرت -بالإجماع- لأداء ما عليها من واجبات وغيرها.

هل المستحاضة لها أحكام الحائض؟

ربما تسأل سائلة: هل هذه الأحكام من منع وإباحة تجري على المستحاضة كما تجري على الحائض؟

والجواب: لا، فإنه ولما كان لدم الحيض صفة مختلفة عن دم الاستحاضة، جاءت أحكامهما أيضا مختلفة، فالمستحاضة تصوم وتصلي وتطوف بالبيت وغير ذلك، إلا أنها تغسل موضع الدم وتتوضأ عند دخول كل صلاة؛ عن عائشة زوج النبي -صلى الله عليه وسلم- أن أم حبيبة بنت جحش، خَتَنَة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكانت تحت عبد الرحمن بن عوف استحيضت سبع سنين، فاستفتت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في ذلك، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إن هذه ليست بالحيضة، ولكن هذا عرق، فاغتسلي وصلِّي) [رواه مسلم]، هذا والله تعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين.

اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في كتابه (تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد) في باب (ومن أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرمه الله فقد اتخذهم أربابا من دون الله):

لما كانت الطاعة من أنواع العبادة بل هي العبادة، فإنها طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة رسله عليهم السلام، وأنه لا يطاع أحد من الخلق إلا حيث كانت طاعته مندرجة تحت طاعة الله، وإلا فلا تجب طاعة أحد من الخلق استقلالا-

والمقصود هنا الطاعة الخاصة في تحريم الحلال أو تحليل الحرام، فمن أطاع مخلوقا في ذلك غير الرسول، صلى الله عليه وسلم، فإنه لا ينطق عن الهوى، فهو مشرك، كما بيَّنه الله –تعالى- في قوله: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ} أي: علماءهم، {وَرُهْبَانَهُمْ} أي: عبادهم {أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣١]، وفسرها النبي –صلى الله عليه وسلم- بطاعتهم في تحريم الحلال، وتحليل الحرام كما سيأتي في حديث عَدي.

فإن قيل قد قال الله تعالى: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء: ٥٩] قيل: هم العلماء، وقيل هم الأمراء، وهما روايتان عن أحمد، قال ابن القيم: "والتحقيق أن الآية تعم الطائفتين"، قيل إنما تجب طاعتهم اذا أمروا بطاعة الله وطاعة رسوله، فكان العلماء مُبلِّغين لأمر الله وأمر رسوله، والأمراء منفِّذين له، فحينئذ تجب طاعتهم تَبعا لطاعة الله ورسوله، كما قال صلى الله عليه وسلم: (لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف) [رواه البخاري ومسلم].

وقال: (على المرء السمع والطاعة ما لم يُؤمر بالمعصية، فإذا أُمِر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) حديثان صحيحان، فليس في هذه الآية ما يخالف آية براءة.

وقال ابن عباس: "يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟".

قوله: "يوشك" بضم أوله وكسر الشين المعجمة، قال أبو السعادات: "أي يقرب ويدنو ويسرع".

وهذا الكلام قاله ابن عباس لمن ناظره في مُتعة الحج، وكان ابن عباس يأمر بها، فاحتج عليه المناظِر بنهي أبي بكر وعمر عنها، أي: وهما أعلم منك وأحق بالاتباع، فقال هذا الكلام الصادر عن محض الإيمان وتجريد المتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم، وإن خالفه من خالفه، كائنا من كان، كما قال الشافعي: "أجمع العلماء على أنَّ من استبانت له سنة رسول الله –صلى الله عليه وسلم- لم يكن له أن يدعها لقول أحد" [مدارج السالكين].

فإذا كان هذا كلام ابن عباس لمن عارضه بأبي بكر وعمر وهما هما، فماذا تظنه يقول لمن يعارض سنن الرسول –صلى الله عليه وسلم- بإمامه وصاحب مذهبه الذي ينتسب إليه؟! ويجعلُ قوله عيارا على الكتاب والسنة، فما وافقه قبله وما خالفه ردَّه أو تأوَّله، فالله المستعان.

وما أحسن ما قال بعض المتأخرين:

فإن جاءهم فيه الدليل موافقا
لما كان للآبا إليه ذهاب
رضوه وإلا قيل هذا مؤول
ويركب للتأويل فيه صعاب

ولا ريب أن هذا داخل في قوله تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} الآية [التوبة: ٣١].

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: "وقال أحمد بن حنبل: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون الى رأي سفيان، والله –تعالى- يقول: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ} [النور: ٦٣]، أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك". هذا الكلام من أحمد رواه عنه الفضل بن زياد وأبو طالب.

قال الفضل عن أحمد: "نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول في ثلاثة وثلاثين موضعا، ثم جعل يتلو: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ} الآية [النور: ٦٣]، وجعل يكررها ويقول: وما الفتنة إلا الشرك، لعلَّه إذا أراد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ قلبُه، فيُهلِكه وجعل يتلو هذه الآية: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ} [النساء: ٦٥]".

قال أبو طالب عن أحمد –وقيل له: إن قوما يدَعون الحديث ويذهبون إلى رأي سفيان– فقال: "أعجب لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الإسناد وصحته يدعونه ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره، قال الله: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: ٦٣] وتدري ما الفتنة؟ الكفر، قال الله تعالى: {وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة: ٢١٧] فيدعون الحديث عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأي" ذكر ذلك شيخ الإسلام.

قلت: وكلام أحمد في ذمة التقليد وإنكار تأليف كتب الرأي كثير مشهور.

قوله: "عرفوا الإسناد" أي: إسناد الحديث، و"صحته" أي: صحة الإسناد، وصحته دليل على صحة الحديث.

قوله: "ويذهبون إلى رأي سفيان"، أي: الثوري الإمام الزاهد العابد الثقة الفقيه، وكان له أصحاب ومذهب مشهور، فانقطع.

ومراد أحمد الإنكار على من يعرف إسناد الحديث وصحته، ثم بعد ذلك يقلِّد سفيان أو غيره، ويعتذر بالأعذار الباطلة، إما بأن الأخذ بالحديث اجتهاد، والاجتهاد انقطع منذ زمان! وإما بأن هذا الإمام الذي قلدته أعلم مني، فهو لا يقول إلا بعلم، ولا يترك هذا الحديث مثلا إلا عن علم! وإما بأن ذلك اجتهاد، ويشترط في المجتهد أن يكون عالما بكتاب الله، عالما بسنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وناسخ ذلك ومنسوخه، وصحيح السنة وسقيمها، عالما بوجوه الدلالات عالما بالعربية والنحو والأصول، ونحو ذلك من الشروط التي لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر –رضي الله عنهما- كما قاله المصنف.

فيقال له: هذا إن صح، فمرادهم بذلك المجتهد المطلق، أما أن يكون ذلك شرطا في جواز العمل بالكتاب والسنة، فكذب على الله وعلى رسوله، صلى الله عليه وسلم، وعلى أئمة العلماء، بل الفرض والحتم على المؤمن إذا بلغه كتاب الله وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم، وعلم معنى ذلك في أي شيء كان، أن يعمل به ولو خالفه من خالفه، فبذلك أمرنا ربنا، تبارك وتعالى، ونبينا، صلى الله عليه وسلم، وأجمع على ذلك العلماء قاطبة، إلا جهَّال المقلدين وجفاتهم ومثل هؤلاء ليسوا من أهل العلم، كما حكى الإجماع على أنهم ليسوا من أهل العلم، منهم أبو عمر بن عبد البر وغيره.

قال الله تعالى: {اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [الأعراف: ٣].

وقال تعالى: {وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النور: ٥٤].

فشهد –تعالى- لمن أطاع الرسول –صلى الله عليه وسلم- بالهداية، وعند جفاة المقلدين أن من أطاعه –صلى الله عليه وسلم- ليس بمهتدٍ إنما المهتدي من عصاه وعدل عن أقواله، ورغب عن سنته إلى مذهب أو شيخ ونحو ذلك.

وقد وقع في هذا التقليد المحرَّم خلق كثير ممن يدعي العلم والمعرفة بالعلوم، ويصنف التصانيف في الحديث والسنن، ثم بعد ذلك تجده جامدا على أحد هذه المذاهب يرى الخروج عنها من العظائم.

وفي كلام أحمد إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يُذم إنما المذموم المنكر الحرام: الإقامة على ذلك بعد بلوغ الحجة، نعم ويُنكر الاعراضَ عن كتاب الله وسنة رسوله –صلى الله عليه وسلم- والإقبالَ على تعلم الكتب المصنفة في الفقه استغناءً بها عن الكتاب والسنة، بل إن قرؤوا شيئا من كتاب الله وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم، فإنما يقرؤون تبركا لا تعلما وتفقُّها، أو لكون بعض المُوقِفين وقف على من قرأ البخاري مثلا، فيقرؤونه لتحصيل الوظيفة لا لتحصيل الشريعة، فهؤلاء من أحق الناس بدخولهم في قول الله تعالى: {وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا} [طه: ٩٩ – ١٠١].

وقوله تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [طه: ١٢٤] إلى قوله: {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} [طه: ١٢٧].

فإن قلت فماذا يجوز للإنسان من قراءة هذه الكتب المصنفة في المذاهب؟

قيل يجوز من ذلك قراءتها على سبيل الاستعانة بها على فهم الكتاب والسنة، وتصوير المسائل، فتكون من نوع الكتب الآلية، أما أن تكون هي المقدَّمة على كتاب الله وسنة رسوله –صلى الله عليه وسلم- الحاكمة بين الناس فيما اختلفوا فيه، المدعو إلى التحاكم إليها دون التحاكم إلى الله والرسول، صلى الله عليه وسلم، فلا ريب أن ذلك منافٍ للإيمان مضادٌ له، كما قال تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: ٦٥] فإذا كان التحاكم عند المشاجرة إليها دون الله ورسوله، ثم اذا قضى الله ورسوله أمرا وجدت الحرج في نفسك، وإن قضى أهل الكتاب بأمر لم تجد فيها حرجا، ثم إذا قضى الرسول –صلى الله عليه وسلم- بأمر لم تسلِّم له وإن قضوا بأمر سلمت له، فقد أقسم الله تعالى سبحانه –وهو أصدق القائلين- بأجلِّ مقسم به وهو نفسه –تبارك وتعالى- أنك لست بمؤمن والحالة هذه، وبعد ذلك فقد قال الله تعالى: {بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} [القيامة: ١٤ – ١٦].

مِنْ خَوَارِمِ الْحَيَاءِ
لَدَى النِّسَاءِ

الحياء واحد من مكارم الأخلاق وأحسنها، وهو شعبة من شعب الإيمان، ما تزيًّا به امرؤ إلا زانه، وما تركه إلا شانه، وهو حلية المؤمنين وتاج الصالحين، وهو من فضائل الأنبياء والمرسلين، فهذا نبيُّنا خير الخلق -صلى الله عليه وسلم- كان أشد حياءً من العذراء في خدرها، وصاحبه عثمان -رضي الله عنه- ثالث الخلفاء الراشدين كان رجلا حييًّا تستحي منه الملائكة؛ قال الخطابي في معالم السُّنن: "... وأنه ما من نبي إلا وقد ندب إلى الحياء، وحثَّ عليه، وأنه لم يُنسخ فيما نسخ من شرائعهم، ولم يبدل فيما بدل منها، وذلك أنه أمر قد عُلِم صوابُه، وبان فضله، واتفقت العقول على حسنه، وما كان هذا صفته، لم يجز عليه النسخ والتبديل".

بل وأعظم من ذلك كلِّه فالحياء صفة من صفات الله عز وجل، فقد جاء في الحديث الشريف: (إن الله حَييٌّ ستِّير، فإذا أراد أحدُكم أن يغتسل فليتوارى بشيء) [أخرجه أحمد].

والحياء وإن كان في حق الرجل مطلوبا، فهو في حق المرأة آكد، بل هو رأس مال الصالحات وزينة العفيفات، غير أن بعض النساء -أصلحهن الله- قد يخرِمن حياءهن ببعض التصرفات أو الحركات بقصد أو دون قصد، وهذي جملة من الخوارم التي قد تأتيها المسلمة ولا تُلقي لها بالاً، فتخرق بها ثوب حيائها، وإذا ما اتسع الخرق في ثوب، بلي واهترأ، وصَعب حينها على الراقع المخيط.

أولاً: تذكري أختي المسلمة -وفقك الله لما يحبه ويرضاه- أن (المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان) [رواه الترمذي]، والعورة كل ما يُستحيا منه، وللخروج من البيت آداب وأحكام سبق الخوض فيها، فاعلمي -يرحمك الله- أن إمساكك بيد زوجك أو تأبُّطَك لمرفقه في الشارع من خوارم الحياء، وإن قلت هو زوجي وحليلي، قلنا لك هو كذلك ولكن في بيتك لا أمام الناس، وبعض الصالحات تستحي والله من أن تمسك بيد زوجها أمام أمها أو أحد محارمها، فكيف أمام الناس وفي الطرقات؟!

ثانيا: إن الحَيِيَّة إذا مشت في الشارع بدا عليها الوقار والرصانة، ولها جَنبات الطريق لا وسطه كي تجتنب الرجال ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، فاعلمي -أرشدك الله- أن كثرة الالتفات يمنة ويسرة وإلى الخلف دون داع من خوارم الحياء.

ثالثا: بعض المسلمات لا يتورعن عن الجلوس أمام بعض البنايات في الأسواق طلبا للراحة وما علمن -غفر الله لهن- أن هذا من خوارم الحياء، إذ كيف ترضى التقية لنفسها المكوث في أبغض البقاع إلى ربنا -تبارك وتعالى- وعلى مرأى من الرجال الأجانب؟ وإن كان النبي -صلى الله عليه وسلم- كره للرجال الجلوس في الطرقات فذلك في حق النساء آكد، فكيف بطرقات السوق حيث ينصب الشيطان رايته؟!

رابعا: تجاذُبك يا مسلمة أطراف الحديث مع مرافقتك، ورفع الصوت وبعض الضحكات بين المارة وفي الأسواق والطرقات من خوارم الحياء.

خامسا: مجادلة الباعة والإكثار من الحديث معهم حول البضاعة؛ سعرِها ونوعِها وما إلى ذلك من خوارم الحياء.

سادسا: إن الأكل والشرب من الطيبات التي أحلها الله تعالى لعباده، غير أن الطرقات لم تُجعل لهذا، وقد عدَّ سلفنا الصالح ذلك من خوارم مروءة الرجال، فماذا لو بلغهم أن بعض نساء زماننا هذا لا يتورعن عن فعل ذلك؟ فتذكري يا مسلمة أن أكل المثلجات -مثلًا- وإن كان من تحت النقاب وداخل المحلات من خوارم الحياء.

سابعا: بعض المسلمات -هداهن الله- وبمجرد دخولها البناية التي فيها الشقة المنشودة -سواء كانت بيوتهن أو بيوت قريباتهن أو صديقاتهن- لا يرين بأسا من رفع أصواتهن إما بالكلام أو الضحك، متناسيات إمكانية وجود رجال أجانب في باقي الشقق يسمعون أصواتهن وضحكاتهن وهذا يا أختنا من خوارم الحياء.

ثامنا: أحيانا وفي بعض المجالس نجد من النساء من تكثر الحديث عن زوجها وتطنب في وصفه دون موجب لذلك، بل لا ضير عندها من فتح ملف صوره على هاتفها لتريها صويحباتها والله المستعان، وهذا أيضا من خوارم الحياء فاحذري.

تاسعا: معلوم أن إفشاء ما يحدث بين الرجل وزوجته محرَّم شرعا، ولكن بعض النساء -وإن كانت لا تتحدث عن نفسها- إلا أنها لا تتورع عن المزاح في هذا الباب فتذكر أمورا تستحي من مجرد التلميح إليها كل ذات دين، وهذا يا مسلمة من خوارم الحياء.

يعيش المرء ما استحيا بخير
ويبقى العود ما بقي اللحاء
فلا والله ما في العيش خير
ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
إذا لم تخشَ عاقبة الليالي
ولم تستحي فافعل ما تشاء

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلِّ اللهم وسلم على سيد الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

عِدَّةُ المتوفَّى عنها زَوجُها

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن عدة المُتوفَّى عنها زوجُها أصبحت عند كثير من النساء اسماً بلا تطبيق، فيقال مُعتدة، فقط لأن زوجها توفي، لا من باب أنها ملتزمة بأحكام العدة، التي يجب فيها على المرأة الصبر، والقبول، والتسليم، والخضوع لأحكام الله تعالى، والتي يُعرف بها إيمانُ المرأة وتسليمُها لربها، وكذلك هي استبراء لرحِمها، ووفاء لزوجها، فيجب على المرأة المعتدة للوفاة أن تتعبَّد الله -تعالى- بتطبيق هذه الأحكام، وإلا كانت من الآثمات المضيِّعات لحق الله، تبارك وتعالى.

قالت زينب: سمعت أم سلمة، تقول: جاءت امرأة إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله، إن ابنتي تُوفي عنها زوجها، وقد اشتكت عينها، أفتكحلها؟ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (لا) مرتين أو ثلاثا، كل ذلك يقول: (لا)، ثم قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إنما هي أربعة أشهر وعشر، وقد كانت إحداكن في الجاهلية ترمي بالبعرة على رأس الحول) [متفق عليه].

فلا بد للمرأة أن تلتزم أمر ربها وسنَّة نبيِّها -صلى الله عليه وسلم- تعبُّدا وخضوعا وحبا لشرع الله، وتسليما له سبحانه.

وهذه جملة من أحكام العدة التي تتعلَّق بالمرأة المُتوفَّى عنها زوجها، وهي:

١- تعتد أربعة أشهر وعشراً إن لم تكن حاملاً

لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا} [البقرة: ٢٣٤]، فإن كانت حاملاً فتنتهي عدتها بوضع حملها، لقوله تعالى: {وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} [الطلاق: ٤].

٢- وجوب إقامتها في بيت زوجها حتى انقضاء عدتها:

والدليل أن فريعة بنت مالك -رضي الله عنها- لما توفي زوجها، سألت النبي -صلى الله عليه وسلم- أن ترجع إلى أهلها فتمكث عندهم فقال: (امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله)، قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرا، قالت: فلما كان عثمان بن عفان، رضي الله عنه، أرسل إليَّ فسألني عن ذلك، فأخبرته فاتَّبعه، وقضى به [رواه أبو داود والترمذي].

٣- اجتناب الزينة في بدنها

مثل خضاب الشعر بالحناء أو الأصباغ، أو زينة الوجه كالكحل وغيره، واجتناب كل أنواع الحلي مثل الذهب والماس واللؤلؤ وغير ذلك سواء كان قلادة أو خلخالا أو سوارا أو غيره، فعن أم سلمة، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (المتوفَّى عنها زوجها لا تلبس المعصفر من الثياب، ولا المُمَشَّقة، ولا الحلي، ولا تختضب، ولا تكتحل) [رواه أبو داود].

٤- اجتناب الزينة في الثياب

مثل لبس الحرير والثياب المنقوش عليها والمخططة بعدة ألوان وغيرها مما يلبس للتزيُّن والتجمل، كما في حديث أم سلمة الذي رواه أبو داود. قال الإمام البغوي، رحمه الله: "وأما المصبوغ للزينة كالأحمر، والأصفر، والأخضر الناضر، فلا يجوز لبسه، ولا تلبس الوشي، والديباج والحلي" [شرح السنة]، وقال الإمام ابن تيمية، رحمه الله: "ويجوز لها أن تلبس ثياب القطن والكتان وغير ذلك مما أباحه الله" [مجموع الفتاوى].

٥- اجتناب الطيب

إلا إذا طهرت من حيض فيُرخَّص لها للتنظيف لا للتطيُّب، فعن أم عطية -رضي الله عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا تَحُدُّ امرأة على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج، أربعة أشهر وعشرا، ولا تلبس ثوبا مصبوغا، إلا ثوب عصْب، ولا تكتحل، ولا تمس طيبا، إلا إذا طهرت، نبذة من قسط أو أظفار) [متفق عليه واللفظ لمسلم].

قال الإمام البغوي، رحمه الله: "ولا يجوز لها استعمال الطيب، فإن طهرت من المحيض، فرُخِّص لها في استعمال شيء من قسط، أو أظفار في محل حيضها" [شرح السنة].

سؤال وجواب

هل يجوز للمعتدة الخروج من بيتها لحاجة؟

لا تخرج المعتدة من بيتها في النهار إلا لحاجة كبيع أو شراء، ولا في الليل إلا لضرورة كالذهاب إلى مستشفى للعلاج. قال الإمام ابن تيمية، رحمه الله: "وتلزَم منزلها فلا تخرج بالنهار إلا لحاجة ولا بالليل إلا لضرورة" [مجموع الفتاوى]. وذلك لأن الليل مظنَّة الفساد، والنهار مظنة الحوائج، ودليل جواز خروجها للحاجة حديث جابر -رضي الله عنه- قال: طُلِّقت خالتي ثلاثا، فخرجت تَجُدُّ نخلاً لها، فلقيها رجل، فنهاها، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم، فذكرت ذلك له، فقال لها: (اخرجي فجُدِّي نخلك، لعلَّك أن تصدَّقي منه أو تفعلي خيرا) [رواه أبو داود].

هل يجوز للمعتدة أن تخرج لزيارة صديقتها إذا استوحشت؟

يجوز للمعتدة أن تزور صديقتَها القريبة منها أو جارتها للاستئناس بها إذا استوحشت، ولا يجوز لها المبيت في غير بيت زوجها، فعن ابن جريج، عن عبد الله بن كثير قال: قال مجاهد رحمه الله: استُشهد رجالٌ يوم أُحُد عن نسائهم، وكن متجاورات في داره، فجئن النبي صلى الله عليه وسلم، فقلن: إنا نستوحش يا رسول الله بالليل، فنبيت عند إحدانا، حتى إذا أصبحنا تبددنا إلى بيوتنا؟ فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: (تَحدَّثن عند إحداكن ما بدا لكن، حتى إذا أردتن النوم فلتأت كل امرأة إلى بيتها) [رواه عبد الرزاق في مصنفه].

لو خرجت المرأة المعتدة من غير حاجة فهل عليها أن تقضي العدة؟

أجاب الإمام ابن تيمية -رحمه الله- فقال: "العدة انقضت بمُضِي أربعة أشهر وعشرا من حين الموت ولا تقضي العدة. فإن كانت خرجت لأمر يُحتاج إليه ولم تبت إلا في منزلها فلا شيء عليها. وإن كانت قد خرجت لغير حاجة وباتت في غير منزلها لغير حاجة أو باتت في غير ضرورة أو تركت الإحداد: فلتستغفر الله، وتتوب إليه من ذلك، ولا إعادة عليها" [مجموع الفتاوى].

هل يجوز للمعتدة الخروج لأداء فريضة الحج أو العمرة أو السفر؟

لا يجوز للمعتدة الحج باتفاق الأئمة، فعن سعيد بن المسيب، أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- كان يَرُدُّ المتوفى عنهن أزواجهن من البيداء، يمنعهن الحج [رواه مالك في الموطأ]. وكذلك لا يجوز لها أداء العمرة، قال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج قال: أخبرنا حميد الأعرج، عن مجاهد قال: كان عمر وعثمان، رضي الله عنهما: "يُرجِعانِهِنَّ حواجَّ ومعتمراتٍ من الجحفة وذي الحليفة" [رواه عبد الرزاق في مصنفه]. وكذلك السفر لأي مكان من باب أولى لقوله -صلى الله عليه وسلم- لفريعة: (امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله) [رواه أبو داود والترمذي].

فهذه جملة أحكام للمعتدة، التي عليها الصبر واحتساب الأجر والانقياد لأوامر الله، فقد قال الله، عز وجل: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [النور: ٥١ - ٥٢].

هذا والله أعلى وأعلم، وصلى الله وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

من أحكام الصيام في شهر رمضان

الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام، وفرض علينا الصيام، وجعله رابع الأركان، وجعل للمفطر بعد صومه فرحتين، فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه الرحمن.
فهذه جملة من الأحكام التي تتعلق بشهر القرآن، شهر رمضان، نسأل الله تعالى الأجر والعتق من النيران.

تعريف الصيام

هو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع وسائر المفطرات بنية الصيام، من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس.

حكم صيام رمضان

صيام رمضان واجب لأنه ركن من أركان الإسلام، وفريضة فرضها الله على المسلمين، قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ١٨٣].

وعن ابن عمر، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (بني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان) [متفق عليه].

شروط وجوب الصيام

- الإسلام: لأن الكافر لا يقبل عمله ولا يصح. والبلوغ والعقل: فلا يجب على الصبي ولا على المجنون. لحديث عائشة -رضي الله عنها- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "رُفع القلم عن ثلاث: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل" [رواه أحمد وأصحاب السنن].
- والقدرة والإقامة: فلا يجب على المريض ولا على المسافر، لقول الله تعالى: {وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} [البقرة: ١٨٥].

شروط صحة الصيام

أولا: نية صيام الفريضة من الليل: فعن حفصة زوج النبي -صلى الله عليه وسلم- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (من لم يجمع الصيام قبل الفجر، فلا صيام له) [رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي]، إذ لا يصح عمل أو عبادة إلا بنية لحديث النبي، صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) [متفق عليه]، ومحل النية القلب، ووقتها من بعد غروب الشمس حتى الفجر إذا كان الصوم فرضا، ولا تبطل النية بأكل أو شرب أو جماع بعد ذلك، وقد يتساءل المرء: هل تكفي نية واحدة للصوم، أم يجب تجديد النية كل ليلة؟ والجواب أن المسألة فيها خلاف، والراجح أن الصوم المتتابع كصوم رمضان تكفي فيه نية واحدة، ولكن إذا طرأ طارئ كحيض أو نفاس أو مرض أو سفر وانقطع الصوم فيلزم تجديد النية حين انتهاء مانع الصوم.

ثانيا: الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر الصادق حتى الغروب: قال الله تعالى: {فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ} [البقرة: ١٨٧].

ثالثا: طهارة المرأة من الحيض والنفاس: فلا يجب على حائض أو نفساء، فعن أبي سعيد -رضي الله عنه- قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (أليس إذا حاضت لم تصلِّ ولم تصم، فذلك نقصان دينها) [رواه البخاري]، وعلى المسلمة أن تقطع صومها متى ما رأت دم الحيض أو النفاس وإن كان ذلك قبل أذان المغرب بقليل، ثم تقضي ذاك اليوم، وعلى المرأة إن حاضت أو نفست ثم طهرت قبل الفجر أن تنوي الصيام، أما إذا نامت مثلا ولم تنتبه لطهرها متى كان؛ أَقَبْل الفجر أو بعده، فعليها أن تمسك وتصوم، وتقضي ذاك اليوم لاحقا. وإذا طهرت خلال النهار وقبل انقضاء اليوم فعليها القضاء دون الإمساك على الأرجح والله أعلم.

فضائل وأعمال في شهر رمضان

- فقد أنزل فيه القرآن: قال الله تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ} [البقرة: ١٨٥].
- وفيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر: فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا، غُفر له ما تقدم من ذنبه) [متفق عليه].

وأعد الله الأجر الجزيل لمن قامه إيمانا واحتسابا: فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (من قام رمضان إيمانا واحتسابا، غُفر له ما تقدم من ذنبه) [متفق عليه].

- وفيه تُفتَّح أبواب الجنة وتُغلَّق أبواب جهنم وتسلسل الشياطين: عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إذا جاء رمضان فُتِّحت أبواب الجنة، وغُلِّقت أبواب النار، وصُفِّدت الشياطين) [متفق عليه].
- ومن الأعمال الصالحة المسنونة فيه: الاعتكاف في العشر الأواخر: عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: "كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله" [متفق عليه].
- والجود بالخير ومدارسة القرآن: عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "كان النبي -صلى الله عليه وسلم- أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل، وكان جبريل -عليه السلام- يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فلرسول الله -صلى الله عليه وسلم- أجود بالخير من الريح المرسلة" [متفق عليه].

فضائل الصيام

الصيام وقاية من الإثم والعذاب ولا يدخله حظ ابن آدم وأجره لا يعلمه إلا الله: فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (قال الله: كل عمل ابن آدم له، إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جنة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل إني امرؤ صائم، والذي نفس محمد بيده، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه) [متفق عليه].
يدخل الصائمون من باب في الجنة يسمى الريان: فعن سهل -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن في الجنة باباً يقال له الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أُغلق فلم يدخل منه أحد) [متفق عليه].

مستحبات الصيام

- السحور: فعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (تسحروا فإن في السحور بركة) [متفق عليه].
- تأخير السحور: عن زيد بن ثابت -رضي الله عنهما- قال: " تسحرنا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، ثم قام إلى الصلاة، قلت: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية) [متفق عليه].
- تعجيل الإفطار: عن سهل بن سعد الساعدي -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر) [متفق عليه].
- الإفطار على رطبات وإن لم يجد فعلى تمرات وإن لم يجد فعلى ماء: عن أنس

بن مالك قال: "كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يفطر على رطبات قبل أن يصلي، فإن لم يكن رطبات، فتمرات، فإن لم يكن تمرات حسا حسوات من ماء" [رواه الإمام أحمد وأبو داود].

- الدعاء عند الفطر: عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين) [رواه أحمد والترمذي].

وعن ابن عمر قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا أفطر قال: (ذهب الظمأ وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله) [رواه أبو داود والنسائي].

مفسدات الصوم

- الأكل والشرب عمدا من غير نسيان: عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله، إني أكلت وشربت ناسيا، وأنا صائم، فقال: (الله أطعمك وسقاك) [رواه أبو داود وغيره]، فهذا الرجل بيَّن أنه أكل وشرب ناسيا فلم يفسد صومه.
- إخراج المني بجماع أو بغير جماع سوى الاحتلام: وذلك لأن الاحتلام وقع من غير إرادته في حال نومه، فرفع عنه حكم بطلان صومه لأنه غير مختار، بخلاف الجماع وغيره.
- القيء عمدا دون أن يغلبه: عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (من ذرعه القيء، فليس عليه قضاء، ومن استقاء فليقض) [رواه أحمد وأبو داود وغيرهما].
- الردة عن الدين بقول أو فعل أو اعتقاد: قال الله تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الزمر: ٦٥].
- نية الإفطار في القلب ولو لم يأكل أو يشرب: فمن نوى الإفطار أفطر لحديث (إنما الأعمال بالنيات).

من أفسد صومه بجماع في نهار رمضان فتجب عليه الكفارة وهي على الترتيب:

عتق رقبة، فإن لم يستطع فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا، ودليل ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، إذ قال: بينما نحن جلوس عند النبي صلى الله عليه وسلم، إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله هلكت. قال: (ما لك؟) قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هل تجد رقبة تعتقها؟) قال: لا، قال: (فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين)، قال: لا، فقال: (فهل تجد إطعام ستين مسكينا)، قال: لا، قال: فمكث النبي صلى الله عليه وسلم، فبينا نحن على ذلك أتي النبي -صلى الله عليه وسلم- بعرق فيها تمر -والعرق المكتل- قال: (أين السائل؟) فقال: أنا، قال: (خذها، فتصدق به) فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابتيها -يريد الحرَّتين- أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى بدت أنيابه، ثم قال: (أطعمه أهلك) [رواه البخاري].

مكروهات الصوم

- مباشرة الزوجة بالقبلة والمعانقة لمن لا يملك إربه: عن أبي هريرة، أن رجلا سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن المباشرة للصائم، فرخَّص له، وأتاه آخر، فسأله، فنهاه، فإذا الذي رخَّص له شيخ، والذي نهاه شاب [رواه أبو داود].
- المبالغة في المضمضة والاستنشاق، وذلك خشية أن يذهب الماء إلى جوفه؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (وبالغ في الاستنشاق إلا أن تكون صائما) [رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة].
- التفحش في الكلام والسب والشتم والغضب، لقوله صلى الله عليه وسلم: (... وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل إني امرؤ صائم...) [متفق عليه].

من يرخص له الإفطار في رمضان مع القضاء أو الفدية

- الغازي في سبيل الله: ودليل ذلك قول النبي -صلى الله عليه وسلم- في غزوه لفتح مكة: (إنكم قد دنوتم من عدوكم، والفطر أقوى لكم) فكانت رخصة، فمنا من صام، ومنا من أفطر، ثم نزلنا منزلا آخر، فقال: (إنكم مصبحو عدوكم، والفطر أقوى لكم، فأفطروا) وكانت عزمة، فأفطرنا [رواه مسلم].

فإفطار الغازي في سبيل الله قوة له وللمجاهدين، ويستحب كلما اقترب المجاهد من قتال عدوه فيكون أولى من الصيام، كما عزم النبي -صلى الله عليه وسلم- بالإفطار لما اقترب القتال.

- المريض والمسافر: قال الله تعالى: {وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} [البقرة: ١٨٥].
- الحائض والنفساء: عن معاذة العدوية قالت: سألت عائشة فقلت: ما بال الحائض تقضي الصوم، ولا تقضي الصلاة؟ فقالت: أحرورية أنت؟ قلت: لست بحرورية، ولكني أسأل. قالت: (كان يصيبنا ذلك، فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نؤمر بقضاء الصلاة) [رواه مسلم].
- الحامل والمرضع: فعن أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (إن الله وضع عن المسافر نصف الصلاة والصوم، وعن الحبلى والمرضع) [رواه أحمد والنسائي].

فالغازي في سبيل الله والمريض والمسافر والحائض والنفساء والحامل والمرضع إذا أفطروا يقضون يوما عن كل يوم.

أما كبار السن الذين لا يطيقون الصيام فعليهم الإطعام دون القضاء: فعن عطاء، أنه سمع ابن عباس يقرأ وعلى الذين يُطَوَّقُونَهُ فَلَا يُطِيقُونَهُ فدية طعام مسكين قال ابن عباس: "ليست بمنسوخة هو الشيخ الكبير، والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما، فيطعمان مكان كل يوم مسكينا" [رواه البخاري].

ويلحق بهذا الصنف: أصحاب المرض الذي لا يرجى برؤه.

فائدة: لا يشترط التتابع في قضاء الصوم، قال الإمام البخاري في صحيحه: قال ابن عباس: "لا بأس أن يفرق لقول الله تعالى: {فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ}" [البقرة: ١٨٤].

فيما يباح للصائم فعله

- صب الماء على الرأس والغطس في الماء للتبرد، قال الإمام البغوي رحمه الله: "ولو صب الماء على رأسه، أو انغمس في ماء، لم يفسد صومه، وإن وجد برده في باطنه، روي أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يصب الماء على رأسه وهو صائم من العطش، أو من الحر. وقال أنس: لي أبزن أتقحم فيه، وأنا صائم، وبل ابن عمر ثوبا فألقي عليه وهو صائم" [شرح السنة].
- تذوق الطعام عند صنعه، فمع أن الطعام من مبطلات الصيام بالإجماع، إلا أن التذوق اليسير لا بأس به، فيجوز لمن صنعه أن يتذوق الطعام إذا اضطر إلى ذلك، قال الإمام ابن تيمية: "وذوق الطعام يكره لغير حاجة؛ لكن لا يفطره. وأما للحاجة فهو كالمضمضة" [مجموع الفتاوى].
- ويباح الكحل والطيب والبخور والدهن، قال ابن تيمية رحمه الله: "وإذا كانت الأحكام التي تعم بها البلوى لا بد أن يبينها الرسول -صلى الله عليه وسلم- بيانا عاما، ولا بد أن تنقل الأمة ذلك، فمعلوم أن الكحل ونحوه مما تعم به البلوى كما تعم بالدهن والاغتسال والبخور والطيب، فلو كان هذا مما يفطر لبينه النبي -صلى الله عليه وسلم- كما بين الإفطار بغيره، فلما لم يبين ذلك عُلم أنه من جنس الطيب والبخور والدهن، والبخور قد يتصاعد إلى الأنف ويدخل في الدماغ وينعقد أجساما، والدهن يشربه البدن ويدخل إلى داخله ويتقوى به الإنسان، وكذلك يتقوى بالطيب قوة جيدة، فلما لم ينه الصائم عن ذلك دل على جواز تطييبه وتبخيره وادهانه وكذلك اكتحاله" [مجموع الفتاوى].

عقوبة من تعمد الفطر في نهار رمضان من غير عذر

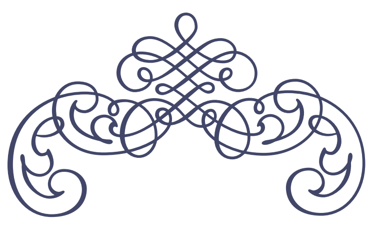
قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: "إذا أفطر في رمضان مستحلا لذلك وهو عالِمٌ بتحريمه استحلالاً له وجب قتله، وإن كان فاسقاً عوقب عن فطره في رمضان" [مجموع الفتاوى].

وختاما نذكِّر المسلمين بأن الصوم ليس إمساكا عن الأكل والشرب والنكاح، وإطلاقا للجوارح -من لسان وعين وأذن ويد ورجل- تسرح وتمرح في المعاصي والمحرمات، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه) [رواه البخاري].

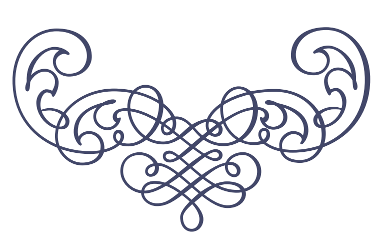
وأخرج الإمام النسائي -رحمه الله- في السنن الكبرى: عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر).

اللهم بلغنا رمضان، وأعز فيه الإسلام، واجعله شهر نصر وفتح وتمكين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصل اللهم وسلم على سيد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.



رمضان بين دار الإسلام ودار الكفر



إن الفرق في حال الناس بين دار الإسلام ودار الكفر لا يقتصر على تحكيم الشريعة فيهم، وإقامة الحدود على المعتدين منهم هنا، وحكم شريعة الطاغوت في الناس هناك، ولكن الأمر يتعدى إلى كل جوانب العبادة، بل وكل مجالات الحياة.

مهاجرون وأنصار من الذين منَّ الله عليهم بالحياة تحت ظل الشريعة، بعد أن جربوا العيش في ديار الكفر، يتحدثون عن شهر رمضان في الدارين، وعن حال الصائمين تحت حكم الطواغيت.

يقول أحدهم: "كل ما أستطيع قوله عن حياة المسلم في دول الكفر، أنه لا يستطيع أن يؤدي فرائض الإسلام بشكل كامل أو صحيح، إلا من رحم ربي، كأن يكون منعزلا عن المجتمع بشكل كامل".

التقت (النبأ) بعدد منهم، ليرووا لها بعضا من تفاصيل حياة الناس خلال شهر رمضان في ديار الكفر، ويبينوا جانبا من الفروق بين حال الناس في أرض الدولة الإسلامية، وحالهم هناك تحت حكم الطواغيت.

تعلموا التوحيد قبل أن تنهكوا أبدانكم بالصيام

أبو محمد التركي أشار إلى أن أسوأ ما في ديار الكفر هو انتشار الشرك بين كثير من المنتسبين إلى الإسلام، فهم يصلّون ويصومون ولا يعلمون أنهم لا ينتفعون من عبادتهم هذه بشيء، وأضاف: "والأسوأ من ذلك أن بعضهم يخصص شهر رمضان الكريم بأنواع معينة من الشرك قد لا يفعلها في غيره، كزيارة قبور من يرونهم صالحين بنية دعائهم وطلب الحاجات منهم، وتقديم الذبائح والقربات للأوثان التي تعبد من دون الله".

وأوصى أبو محمد الصائمين في بلاد تركيا أن يحرصوا على تصحيح عقائدهم، وأن يتوب المشرك منهم من شركه قبل أن يباشر الصيام، ويحرم نفسه من الطعام والشراب، لأن الصيام عبادة لا يقبلها الله من مشرك.

وزاد أبو أحمد الإسلامبولي أن المجتمع التركي فريد من نوعه خلال شهر رمضان.

فترى مثلا عبارة "نعتذر عن الإغلاق سنفتح بعد الإفطار" مكتوبة على باب إحدى الخمارات، وكأن الخمر في الليل مباح، ومنهم من كتب على باب إحدى المقاهي، "يمنع الطعام والشراب ولا بأس بالتدخين"، ويقصد في نهار رمضان، حيث يجتمع الرجال على لعب الورق وتعاطي السجائر وهم صائمون.

وقال إن الحال في أرض الدولة الإسلامية مختلف والحمد لله، فالناس هنا تعلموا التوحيد، وشعائرُ الإسلام -ومنها الصيام- معظمةٌ مصونةٌ من عبث العابثين، واستهزاء المستهزئين، ولا تجد أي معصية ظاهرة لا في نهار رمضان ولا في ليله، ولا في غيره من الشهور، وهذا كله من بركة الحكم بما أنزل الله تعالى.

طواغيت الحكم وعبادة الصيام

أبو إيمان الأنصاري صوّر حال الصائمين في شهر رمضان تحت حكم الطاغوت النصيري، بأنه كان فتنة حقيقية، فالطاغوت لم يكن يمنع الناس من ترك الطعام والشراب في الأحوال العادية، ولكن لتصوم حقا يجب أن تغلق عليك بابك، ولا تخرج إلى الشارع، فالمنكرات في كل مكان، من نساء كاسيات عاريات، إلى خمور تباع في الأسواق، وأهل الفسق والفجور يجاهرون بمعاصيهم وفطرهم في نهار رمضان، دون أن يجرؤ أحد أن ينكر على شيء من ذلك.

وأضاف: "كان النصيرية والنصارى وغيرهم يتعمدون إظهار فطرهم في رمضان، فيمشي أحدهم في الشارع وهو يدخن، أو يحمل زجاجة عصير، كنوع من إظهار تميّزهم عن المسلمين، واستهانتهم بما يعظمونه من شعائر".

وبيَّن الأنصاري أن أحد أبواب استهزاء الطواغيت بشعائر الإسلام، أن القانون الكفري الذي يحكم به النظام النصيري ينص على معاقبة من يجاهر بالفطر في رمضان بالحبس، ككثير من قوانين الحكومات الطاغوتية، وقال: "ما ذلك إلا للتلبيس على الناس، وإظهار الاحترام لدين الإسلام الذي ليس هناك انتهاك له أكبر من هذه القوانين الوضعية التي تحكم بها محاكمهم الكفرية".

إنما يتقبل الله من المتقين..

وتحدث أبو عبد الله القصيمي عن قضية منع أجهزة الاستقبال الفضائي (الستلايت) في أراضي الدولة الإسلامية، مؤكدا أنها نعمة من النعم، فالناس في البلاد الأخرى يقضون النهار يشاهدون منكرات التلفاز، ويتابعون المسلسلات والبرامج التي تستهزئ بالإسلام جهارا، ويستمتعون بمشاهدة المرتدين وهم يستهزؤون بدين الإسلام، ثم إذا انتهى رمضان تجد أحدهم يسارع إلى تقديم صدقة الفطر طالبا أن يتقبل الله منه صيامه.

وعن أغرب الظواهر التي يمكن مشاهدتها في جزيرة العرب خلال شهر رمضان، قال الأخ القصيمي: "من المظاهر الغريبة في حال الصائمين في جزيرة العرب، أن تجد داخل سجون الطواغيت كلا من السجين وسجَّانه ينتظرون الإفطار، السجين موحد يرجو رحمة الله، ويصبر على البلاء في سبيل الله، والسجان جندي للطاغوت مرتد عن دين الله، ينهك بدنه بالصيام والقيام، وليس له إلا نار جهنم إن لم يتب من كفره وردته".

وقال ساخرا: "ولا تستغرب إن علمت أن من طياري آل سعود الذين يقصفون المسلمين الآن من يكون صائما، وهم يحسبون موالاتهم للصليبيين وحربهم على الموحدين قربة يتقربون بها إلى الله في هذا الشهر الكريم، كما يصور لهم علماء السوء المرتدون".

في الموصل.. رمضان الصبر والرباط

ذكر أبو عائشة العراقي حال بعض مناطق مدينة الموصل التي كانت في رمضان الماضي تحت حكم الإسلام، وقد أصبح جزء منها اليوم تحت حكم المشركين، وقال: "كانت المساجد عامرة بالمصلين في الصلوات كلها، وخاصة في الليل، حيث يصلي الناس التراويح، ويتهجدون، وفي النهار كانت حلقات القرآن ودروس العلم تعج بالأشبال والرجال الذين يتعلمون دينهم، وكانت الأسواق خالية من المنكرات بفضل الله".

وذكر بأن أول ما عمله المرتدون في الأحياء التي سيطروا عليها أن نشروا المنكرات والفواحش، وحاربوا كل مظهر من مظاهر الإسلام، ولا زالوا يضيقون على الناس الذين تحت أيديهم أكثر فأكثر.

وقال موجها خطابه للمرتدين الذين أظهروا فرحهم بدخول الروافض إليهم: "لقد ضاقت صدوركم بالإسلام، فجهرتم ببغض شعائره التي تقولون إن الدولة الإسلامية تفرضها عليكم، وزعمتم أن ذلك سبَّب لكم ضيقا في حياتكم، فها قد استولى عليكم الروافض وصاروا يحصون عليكم حتى أنفاسكم، ولا يكاد الواحد منكم يأمن على نفسه أو عرضه حتى داخل بيته، فهو يخاف أن يقتحم عليه الروافض غرفة نومه ليقتلوه أو يأسروه ويعتدوا على أهله، فلا أسفا على القوم الظالمين".

ووجه أبو عائشة رسالته إلى إخوانه المرابطين الثابتين في مدينة الموصل، قائلا: "نشهد الله أنكم أنجزتم ما وعدتم، ووفيتم بما عاهدتم، فصبرتم عند اللقاء، وثبتُّم في وجوه المرتدين، وخضتم معركة هي من أعظم معارك الإسلام، ولقَّنتم الروافض دروسا لن ينسوها أبدا، وها قد أظلكم شهر الرباط والجهاد، والبذل والاستشهاد، فاحرصوا أن تبلوا فيه من البلاء أحسن من غيره، فتضاعف أعمالكم، وتعظم أجوركم عند الله، واصبروا حتى يفتح الله بينكم وبين القوم الكافرين".

المجتمع المسلم بين الحقيقة البشرية.. والخيالات المضلّة

لا يكفّ أهل الضلال ومن تبعهم من المنافقين عن الطعن في أهل الإيمان بأي طريقة استطاعوا، مستغلين أي منفذ يجدونه لتحقيق هذه الغاية، ليتهموا المسلمين بالنقص، ودولتهم بالعيب، فإن لم يجدوا ما يعيبونهم به، اخترعوا لأنفسهم ضوابط وشروط ما أنزل الله بها من سلطان، ثم راحوا يعيّرون أهل السنة بعدم تحقيقها والبعد عن بلوغها.

ومن ذلك اشتراطهم للدولة الإسلامية التي يرغّبون الناس بها أمورا لم تكن موجودة في دولة النبي صلى الله عليه وسلم، التي لو تجرأ أي منهم على الطعن فيها والانتقاص من قدر إمامها وقائدها، لما تورع أحد عن تكفيره.

أو اشتراطهم في المجتمع الذي يعيش تحت ظل الشريعة وحكم الإسلام، شروطا لم تكن موجودة في مجتمع الصحابة رضوان الله عليهم، وسنحاول في هذا المقال أن نبين -بإذن الله- جانبا من واقع ذلك المجتمع الفاضل، مؤكدين على خيريته وأفضليته على كل مجتمعات البشر رغم ما كان يعتريه من بعض أمراض المجتمعات البشرية كلها، من شهوات وشبهات.

الدولة النبوية.. التي لا يريدها أهل الضلال

لقد ردّ الشيخ المجاهد أبو حمزة المهاجر -تقبله الله- على أمثال أولئك الضالين في خطاب كامل بعنوان (الدولة النبوية)، بيَّن فيه حقيقة دولة النبي صلى الله عليه وسلم، التي أقامها في المدينة، وما كان فيها من جوع مؤلم أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحابته الكرام، الذين هم أفضل الخلق عند الله تعالى، وكذلك ما كان فيها من فقر شديد، وانتشار الأمراض في المدينة، والخوف الذي كان يحكم حياة المسلمين في هذه الدولة المباركة، فلا يأمنون أن يدخل عليهم الكفار من خارجها، ولا يأمنون على أنفسهم من غدر المنافقين من داخلها، وغير ذلك الكثير الكثير من مظاهر الضعف الذي لم ينقص بحال من قيمة دولة النبي عليه الصلاة والسلام، ولا من وجوب سعي المسلمين في كل حين أن تكون غايتهم إقامة دولة على خطاها، والسير على منهاجها.

ولذلك فإنه لما قامت دولة العراق الإسلامية، كان أتباع جماعات الضلال وأحزاب الفتنة من أول من طعن فيها، وكان أكثر ما يطعنون فيه، قلة ذات اليد فيها، وتسلط المشركين على جنودها بالقتل والأسر، متناسين الحالة التي كانت عليها دولة النبي عليه الصلاة والسلام، متجاهلين أن الدولة الإسلامية إنما تكون بما يعلوها من أحكام شريعة الإسلام، لا بمقدار ما في خزينة بنكها المركزي من سبائك الذهب وأكداس الدولارات، ولا بمقدار ما ينتشر على أرضها من جيوش، وما تطير في سمائها من طائرات.

مجتمع الصحابة.. خير أمّة أخرجت للناس

وكذلك فإن أهل الضلال من المنتسبين إلى الإسلام، تمادوا في كذبهم وتشويههم حقيقة الدولة الإسلامية، إلى تغيير صفات أهلها، من خلال تصويرهم بصورة ملائكية، فهم لا يخطئون ولا يعصون، ولا يعتدي أحد منهم على أحد أبدا، ولا همَّ لأحدهم في دنيا، بل هم منشغلون فقط بالعبادة والذكر، والصيام والقيام، فرسموا هذه الصورة الخيالية للمجتمع المسلم، وفي الحقيقة فهذا المجتمع الذي يرسمونه في مخيلات أتباعهم لم يكن له وجود على الأرض يوما، ولن يكون له وجود إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولا يطلب من المجتمع أن يحقق تلك الشروط الخيالية كي يستحق وصف الإسلام، وإنما يكفي منه أن يكون الإسلام هو ظاهر غالبية الناس فيه، وأن تحكمهم شريعة الإسلام.

إن مجتمع صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو خير مجتمع وجد في الأرض، ومن عاشوا فيه هم من خيرة خلق الله تعالى، قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} [آل عمران: ١١٠]، وصحابته -عليه الصلاة والسلام- هم خير من كل صحابة الأنبياء السابقين وحوارييهم، ولم يوجد في مجتمع من التسليم بحكم الله -تعالى- مثل ما وجد في ذلك المجتمع، وإنَّ سعي أي مجتمع من مجتمعات المسلمين أن يكونوا مثل مجتمع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم -في إيمانهم، وعبادتهم، وعدلهم، وحرصهم على السنة، وجهادهم- واجب شرعي، ولا شك في ذلك.

فإن وجد في مجتمع المسلمين من يخطئ، أو يعصي الله تعالى، أو يقع في الظلم، أو حدث فيه شيء من التنازع على الدنيا الحقيرة، أو تسلل إليهم قليل أو كثير من المنافقين، فإن هذا لا ينقض خيريّة هذا المجتمع، ولا يقدح في إسلامه، ما دام الخير فيه غالبا، والشر فيه محارَبا، وما دام العدل فيه غالبا، والظلم فيه محارَبا.

ويمكننا أن نعود إلى المجتمع القدوة، مجتمع الصحابة رضوان الله عليهم، لنرى صورا من جانب الطبائع البشرية لهذا المجتمع، حيث أناس من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، يخطؤون فيستغفرون، ويعصون الله فيتوبون، وأقوام منتسبون إليهم ليسوا منهم، ظاهرهم الإسلام وباطنهم الكفر، منهم كثيرون ماتوا على النفاق، ولم ينفعهم الانتماء إلى هذا المجتمع الصالح، ولا صحبة سيد البشر، عليه الصلاة والسلام.

مجتمع من البشر.. لا جمع من الملائكة

فإلى هذا المجتمع الذي اتسم أهله بالإيمان، تسلل كثير من المنافقين، الذين أبطنوا في أنفسهم كفرا، وكادوا للإسلام والمسلمين، بل وخطط بعضهم لقتل الرسول عليه الصلاة والسلام، وحرضوا الكافرين على أهل التوحيد، ووالوا اليهود وسارعوا فيهم، رغم إظهارهم الإسلام، وحضورهم مع المسلمين الجمع والجماعات، ومشاركتهم إياهم في المعارك والغزوات، ولم يطعن أحد في مجتمع الصحابة أن فيه كثير من المنافقين، ولم يطعن أحد في جيش رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وجنده أن ثلثهم في إحدى الغزوات كانوا من المنافقين الذين انسحبوا من المعركة قبل بدايتها.

ومن هذا المجتمع خرج أفراد ارتدوا عن دين الله تعالى، وعادوا إلى شركهم، ولحقوا بالمشركين، رغم ما عرفوا من الهدى، وما عاينوا من الحق، ولم يطعن أحد في دين رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن يرتد عنه بعض المنتسبين إليه، ويختاروا الشرك عليه.

ومع أن مجتمع الصحابة كان أنقى المجتمعات وأبعدها عن الفاحشة إلا أن فيه من زنى وأتى مقرا معترفا لطهارة قلبه وخوفه من عذاب الله في الآخرة حين جرته طبيعته البشرية في الوقوع بمحرم من المحرمات فعرف أنه معذب في الآخرة إن لم يتطهر من ذنبه، فأقام عليه إخوانه الحد، ورجموه بأيديهم، حتى مات تائبا إلى الله من خطيئته، فلم يخرج بذلك عن دائرة الإسلام، ولا يكون فعله مطعنا في مجتمع الصحابة، ولا يلغي وسمه بالعفاف، واتصافه بالفضيلة.

ومن خيرة هذا المجتمع الفاضل وجد أيضا من شرب الخمر، فضُرب بالنعال، مع شهادة الرسول -عليه الصلاة والسلام- له بالخير، ووجد من خاض في حديث الإفك بحق أم المؤمنين عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، فأقيم عليه حد القذف، رغم أنه من أهل بدر، الذين غفر الله لهم ما تقدم من ذنوبهم، وما تأخر فهم مع ذلك كله حريصون على التوبة والتطهر والجود بأنفسهم لله رب العالمين.

ومن أفراد هذا المجتمع الذين اختارهم النبي -عليه الصلاة والسلام- بنفسه لولاية أمر المسلمين، والقيام على مصالحهم، وُجد من أمر الناس بمعصية الله -تعالى- وطلب منهم إلقاء أنفسهم في النار، فنهاهم النبي -عليه الصلاة والسلام- عن الطاعة في المنكر، ووجد منهم من اجتهد في فعل فأخطأ وتبرأ النبي -صلى الله عليه وسلم- من فعله.

وكل هذه النماذج وإن قلّت وندرت لكنها وجدت في مجتمع الصحابة رضوان الله عليهم، لتؤكد الحقيقة البشرية لهذا المجتمع التي لا يمكن إلا أن تكون معها معاصٍ وذنوب، وحب للدنيا وتنازع عليها، وشهوات وشبهات، ولكنها لم تنزع أبداً عن مجتمع الصحابة صفة الفضيلة، وسمة الإيمان، وأهليته للاقتداء به على مر العصور.

الحذر من كثرة الخبث

إن المجتمع الذي يعيش في ظل الدولة الإسلامية اليوم لن يكون بحال أفضل من مجتمع الصحابة رضوان الله عليهم، ولا يمكننا أن نشترط عليه ذلك، ولا أن نزعم كذبا أنه يخلو من الخاطئين المذنبين، والظالمين لأنفسهم أو لغيرهم، ويستوي في ذلك المجاهدون المقاتلون، والعصاة القاعدون، ولكن ما يجب أن نحذر كل الحذر منه أن نتهاون في شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بدءا بالنهي عن الظلم الأكبر وهو الشرك بالله العظيم وهو الذي لا يغفره الله أبدا، مرورا بظلم الناس بعضهم بعضا وهو الذي لا يُزال إثمه إلا برد الحقوق إلى أصحابها أو عفوهم عنه، وأن نحذر كل الحذر أن يكثر الخبث فينا، ولا يكون من منكر له بيننا، فيهلكنا الله تعالى، مصداقا لما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام، في حديث زينب بنت جحش -رضي الله عنها- حيث قالت: "فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟" قال: (نعم، إذا كثر الخبث) [متفق عليه].

كُونِي رِدْءاً لِلْمُجَاهِدِينَ ١

"عمو ديننا يستاهل"؛ هي جملة واحدة وباللهجة العامية، قالها مجاهد قد كهلت سحنته وابيضت لحيته في ملحمة الموصل، جملة قد تبدو للبعض بسيطة، غير أنها أعظم من أن تُكتب بماء الذهب، جملة لخصت حقيقة الصراع.

والمتأمل حال النساء مع الجهاد، يجد أن من رحمة الله -عز وجل- بإمائه أن كفاهن بالرجال مؤنة القتال، ولم يجعل الجهاد فرضا عليهن، فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت: استأذنت النبي -صلى الله عليه وسلم- في الجهاد، فقال: (جهادكن الحج) [رواه البخاري].

المرأة تدفع العدو الصائل

ولكن بقيت هناك حالات يتوجب فيها الجهاد على المرأة وجوبه على الرجل، منها دفع العدو الصائل ورد عاديته إذا ما دخل أرض المرأة أو دارها، فتجاهد المرأة دفاعا عن دينها وعن عرضها، قال الإمام ابن النحاس رحمه الله: "ولو علمت المرأة أنها لو استسلمت امتدت الأيدي إليها لزمها الدفع، وإن كانت تُقتل؛ لأنّ من أكره على الزنا لا تحل له المطاوعة لدفع القتل" [مشارع الأشواق].

وقبل الخوض في ذلك كله وهو ما سنبينه لاحقا بعون الله، على المرأة المسلمة أن تدرك أنه وعند الحديث عن الجهاد، لا نعني فقط الجهاد بالسلاح ومباشرة القتال، وإنما للجهاد مجالات أخرى وميادين، تساهم فيها المرأة بدور كبير، من ذلك عونها ونصرتها للمجاهدين، وهو مدار مقالتنا هذه وبالله التوفيق.

النصرة عبادة

أولا: عليك أيتها المسلمة أن لا تنسي استحضار النية وتنقيتها من الشوائب عند كل عمل.

وثانيا: تذكري -يرحمك الله- أن نصرة الجهاد وأهله واجب متعين في حقك، وستُسألين: ماذا قدمت لهذا الدين؟ والويل لمن كان في مقدوره النصرة ولكنه خذل ولم ينصر، ولله در سعيد بن عامر -رضي الله عنه- الذي شهد مصرع خبيب الأنصاري -رضي الله عنه- ولم ينصره وكان يومها على الشرك، وكانت تغشاه حالة شبيهة بالإغماء حين يتذكر ذلك اليوم وهو بين الناس، قال ابن كثير رحمه الله: "قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أصحابنا قال: كان عمر بن الخطاب استعمل سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي على بعض الشام فكانت تصيبه غشية، وهو بين ظهري القوم، فذكر ذلك لعمر، وقيل إن الرجل مصاب، فسأله عمر في قدمة قدمها عليه فقال: يا سعيد ما هذا الذي يصيبك؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين ما بي من بأس، ولكني كنت فيمن حضر خبيب بن عدي حين قُتل وسمعت دعوته، فوالله ما خطرت على قلبي وأنا في مجلس قط إلا غُشي علي، فزادته عند عمر خيرا" [البداية والنهاية].

فمع أن الإسلام يجبّ ما قبله، إلا أن هذا الصحابي الجليل كان يخشى على نفسه من يوم خذل فيه مسلما وهو مشرك! فكيف بمسلم يخذل مسلما؟ فإياكِ ثم إياكِ والخذلان، وانصري دينكِ ودولتكِ ولو بشق تمرة، ولا تحقري من المعروف شيئا، والله -تعالى- يربي الصدقات، ويضاعف الحسنات.

ولعلنا نقسم النصرة والمعونة للمرابطين إلى قسمين اثنين؛ نصرة بالجنان ثم نصرة بالأركان، وسنركز في هذه المقالة على النصرة بالجنان، وتليها -بإذن الله- مقالة عن النصرة بالأركان.

النصرة بالجنان

والنصرة بالجنان مستطاع كل مسلمة، سواء كانت في سلطان الخلافة أو ممن تعلق قلبها بأرض الإسلام وتعذرت عليها الهجرة، وتكون هذه النصرة بأمور؛ أولها إصلاح النفس وتأديبها، نعم يا مسلمة، إصلاح نفسك التي بين جنبيك، ومداواة قلبك، أو تظنين أن كثيرا من النساء لسن طرفا أو سببا في هزيمة قد تصيب المجاهدين؟ أو تحسبين أن معاصيهن وذنوبهن لن تحول بين المسلمين وبين النصر؟ كلا وربي، بل إن كل مسلم أو مسلمة قد يكون سببا في الهزيمة بتقصيره في جنب الله عز وجل، وبآثامه وإن بدت في عينيه صغيرة، وقد قال تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ} [آل عمران: ١٦٥]، وضعي يا مسلمة نُصب عينيك أنه إذا غابت التقوى فالغلبة للأقوى، فلنغيِّر حالنا إلى أحسن حال، حتى يديم الله علينا نعمه ويزيدنا من فضله، وهو القائل سبحانه: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الأنفال: ٥٣].

إي نعم يا مسلمة إن كنت امرأة محجبة حجابا شرعيا كاملا لا تشوبه شائبة، فهل فكرت في الجوارح وحجابها؟ هل صُنت لسانك عن الغيبة والنميمة؟ هل طهرتِ قلبك من التباغض والحسد ونقَّيته من الغِل والحقد؟ هل نفيت عن نفسك العُجب والكِبر؟ وهل وطَّنت روحك على الزهد والقناعة؟ وكيف هو حالك مع الحياء؟ وأين أنتِ -وفقك الله- من طاعة الزوج وبر الوالدين وخدمة المسلمين، وتنفيس كرب المكروبين؟ هل تتحرين الحلال والحرام فيما تأكلين وتشربين وتقولين وتفعلين؟

إنما سؤالك عن كل هذا تذكيرا ونصحا، ولأنك إن أنت حثثت الخطى نحو التقوى والصلاح، كنت شوكة في حلوق الكافرين، وحربة في خواصر المعتدين، ثم إن أنت رفعت يديك تستغيثين رب السماوات والأرضين، فحريٌّ أن تسألي فتجابين.

الدعاء سلاح كل مؤمن

نعم يا مسلمة، الدعاء ثاني خطوات النصرة بعد إصلاح النفس، الدعاء لهؤلاء المرابطين على ثغور الإسلام، الذائدين عن بيضة الدين، الذين لا يبخلون على هذه الأمة بالدماء والأشلاء، بالأرواح والأنفس، أفنبخل عليهم نحن بالدعاء؟ الدعاء الذي يُعد من أعظم أسباب النصر والتمكين لهذا الدين، فهو سلاح المؤمن الذي لا ينفد، وعدة المخذول التي لا تبلى، وتأملي -بارك الله فيك- في قصة القائد قتيبة بن مسلم مع الإمام محمد بن واسع، رحمهما الله، إذ جاء في سير أعلام النبلاء: "قال الأصمعي: لما صاف قتيبة بن مسلم للترك، وهاله أمرهم، سأل عن محمد بن واسع؟ فقيل: هو ذاك في الميمنة، جامح على قوسه، يبصبص بأصبعه نحو السماء، قال: تلك الأصبع أحب إلي من مائة ألف سيف شهير، وشاب طرير"، فلا أقل أختي المسلمة -وفقك الله لكل خير- من رفع أكف الضراعة لرب المستضعفين وغياث المستغيثين، فلعل من بين النساء من إذا أقسمت على الله لأبرها، ولقِّني أشبالك التضرع والدعاء، و(ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاهٍ) [أخرجه الترمذي]، واعلمي أنما النصر صبر ساعة، وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة، ولا تجزعي إن عظم البلاء واشتدت المحنة، فالفجر يسبقه أحلك الظلام، وتسلّي بأخبار النصر والتنكيل بالكفار، نعم سلّي نفسك بترقب الفتح المبين، فهو آت لا شك ولا ريب، واعملي على أن تكون لك مكانة بين الفاتحين، والله الموفق وهو يهدي السبيل.

إن الأرض لله

يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين



من يراجع سير الأنبياء والمرسلين من لدن نوح -عليه السلام- إلى عهد داود وسليمان -عليهما السلام- يجد سفرا من الابتلاءات التي مر بها أهل التوحيد، على أيدي المشركين، والكفار المعاندين، الذين ساموهم قتلا، وتعذيبا، وتهجيرا، وكانوا فوقهم قاهرين، إلى أن يُحِلَّ الله عذابه على الذين كفروا، فينجو المسلمون من ذلك العذاب بتوحيدهم، وإيمانهم بالله الواحد القهار.

ومن يراجع حوارات الأنبياء -عليهم السلام- مع الطغاة المتجبرين، لا يجد فيها نبيا من الأنبياء، أو رسولا من المرسلين، يستشهد على صدق دعوته وصحّة منهجه، بمدى انتشارها بين الناس، وبكثرة الأتباع والمؤمنين، أو التمكين في الأرض، بل نجدهم غالبا ما يردّون عن أنفسهم شبهات الملأ الكافرين الذين يطعنون في دعوتهم بأنها لم تجتذب إلا الضعفاء والمساكين، بل من الأنبياء المرسلين من لم يتبعه إلا الرجل والرجلان، ومنهم من لم يتبعه أحد مطلقا، رغم صدق دعوتهم، وطاعتهم لربهم، وصحة منهجهم في الدعوة، والعمل لتمكين دين الله في الأرض، كما قال عليه الصلاة والسلام: "عرضت عليَّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد" [رواه مسلم].

أهل الضلال يشترطون الآيات.. ويكفرون بها

لقد بين الله -تعالى- في كتابه العزيز أن الاستدلال على صحة الطريق، بالملك والسلطان، والثروة والجاه، إنما هو منهج الطواغيت الكافرين بالله العظيم، وإنه لا يعتقد بهذه الأمور دليلا على صدق الدعاوى إلا القوم الفاسقون، الذين يسهل على الطواغيت خداعهم، والاستخفاف بعقولهم، قال تعالى: {وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} [الزخرف: ٥١ - ٥٤].

وبيَّن -سبحانه- أن من صفات أهل الضلال أن يشترطوا على الدعاة إلى الحق أن يأتوهم بالمعجزات والخوارق كي يؤمنوا بدينهم، كما قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [البقرة: ١١٨]، وكانت هذه الآيات التي يطلبونها تختلف بين وقت وآخر، بحسب تفاوت أزمانهم، فمنهم من أراد رؤية الله -تعالى- جهرة، ومنهم من طلب أن يكلمه -سبحانه- ويعرض عليه الإيمان به، ومنهم من طلب أن يُفَجِّر لهم من الأرض ينبوعا، أو ينزل عليهم من السماء مائدة، أو غير ذلك من الأمور المادية التي تدركها الحواس، حتى تطمئن نفوسهم لصحة هذا الدين، وهداية هذا الطريق، وذلك أنهم قوم لا يؤمنون بالغيب، ولا يأخذون دينهم من كلام ربهم، وسنن رسلهم، وهكذا هم الزائغون عن أمر الله -تعالى- في كل وقت وحين.

الفتح ابتلاء بالخير.. فطوبى لمن شكر

وقد وجدنا في زماننا هذا من أهل الضلال من يكرر سؤال أسلافه لأهل التوحيد، طالبا من جنود الدولة الإسلامية أن يُروه من الآيات المحسوسة كي يؤمن بصحة رايتها، وصواب منهجها، ولعل أشهر الآيات التي طلبها أولئك المضلون أن يروا للدولة الإسلامية التمكين في الأرض، والظفر بالأعداء، فلم يلتفت أمراء الدولة الإسلامية وعلماؤها لهذه الدعاوى الفارغة، واستمروا في دعوتهم وجهادهم، معلنين للعالم كله، أن آية صحة منهجهم موافقته لكتاب ربهم وسنة نبيهم محمد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأن آية صدق إيمانهم بهذا الدين، مطابقة أقوالهم لفعالهم، بأن يجاهدوا أعداء الله حتى يمكنهم الله في الأرض، فيقيموا حكم الله فيها.

فلما جاء أمر الله، ورأى الضالون بأعينهم ما كانوا يطلبون رؤيته من تمكين في الأرض للدولة الإسلامية، نكصوا على أعقابهم، وقالوا ما هذا إلا مؤامرة أمريكية، أو خطة إيرانية رافضية، وشابهوا بذلك أسلافهم من أهل الضلال، الذين إن جاءهم ما يطلبون ازدادوا كفرا، كما قال تعالى: {فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} [النمل: ١٣]، بل خرج أحد المرتدين، لينقض شروطه السابقة، ويقول: حتى لو فتحت الدولة الإسلامية القدس، فإنه لن يتراجع عن عدائه لها، وتحريضه على قتالها.

بينما رأى جنود الدولة الإسلامية فيما مُكّنوا فيه من الأرض، وما فتح لهم من البلاد، نعمة ينبغي شكرها بطاعة الله -تعالى- فيها، كما قال سليمان -عليه السلام- لما رأى آية من آيات ربه التي أنعم بها عليه: {رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} [النمل: ١٦]، فأقاموا الدين كاملا، وحكموا الشريعة كما أمر الله سبحانه، وجددوا الخلافة، ووحدوا جماعة المسلمين، ودعوا الناس إلى التوحيد، ونبذ الشرك، وكفَّروا المشركين بمختلف مللهم، وقاتلوهم، فكانت أفعالهم آية على صدق أقوالهم، وكانت إقامتهم للدين آية على صحة منهجهم، واستقامة طريقتهم، نحسبهم كذلك ولا نزكي على الله أحدا.

المحنة ابتلاء بالشر.. فطوبى لمن صبر

واليوم يعود أهل الضلال إلى منهاجهم القديم، ليستدلوا لأنفسهم ومن يسمع لهم، على اتهامهم للدولة الإسلامية بالزيغ والضلال، ولجنودها بالظلم والطغيان، بما يراه الناس من تحشد أمم الكفر كلها لحربها، واجتماعهم على قتالها، وانحسار رقعة تمكينها، وقتل جنودها وأمرائها، حتى يقول قائلهم: لو كانت الدولة الإسلامية على حق لما جرى لها ما جرى، عقب الفتح والتمكين، والجماعة والخلافة.

ونسي هؤلاء الضالون المضلون، أن هذه حال أصحاب دعوة الحق في كل زمان، أن يبتليهم الله بأعدائهم ثم تكون لهم العاقبة، كما قال موسى -عليه السلام- لقومه، إذ وعدهم أن العاقبة لهم، بالتمكين في الأرض، وهم في أوج محنتهم: {اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف: ١٢٨]، وهو ما أقر به الكافر هرقل عظيم الروم، حين سأله فأجابه فقال له بعد ذلك: "سألتك: هل قاتلتموه فزعمت أنكم قاتلتموه، فتكون الحرب بينكم وبينه سجالا ينال منكم وتنالون منه، وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة" [متفق عليه]، فلا ينظر إلى حال الموحدين ساعة ابتلائهم بالشر، كما لا ينظر إلى حالهم ساعة ابتلائهم بالخير، ولا يستدل لهم أو عليهم بسجالات الحروب، وتقلبات الأيام، ولا سواء، فقتلانا في الجنة وقتلى الكافرين في النار.

بل إننا -بفضل الله- نستدل على صحة منهج الدولة الإسلامية، وصدق دعوتها بالولاء لله ورسوله والمؤمنين والبراءة من المشركين والمرتدين، وقتالهم، وإقامة شرع الله في أرضه، وثبات جنودها وأمرائها على ذلك، ورفضهم لأي مداهنة في دين الله، وشدة عداء الكفار بكل أصنافهم للدولة الإسلامية، وصراعهم المستميت للقضاء عليها، وتقديم ذلك على كل أولوياتهم وأهدافهم الأخرى، كما قال تعالى: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} [البقرة: ١٢٠]، وكما قال سبحانه: {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا} [البقرة: ٢١٧]، والحمد لله رب العالمين.

أمر الله -عز وجل- عباده المتقين بأن يجتمعوا على طاعته ولا يتفرقوا، فلا شيء يجمعهم كالطاعة، ولا يفرقهم شيء كالمعصية، وقد حكم -تعالى- بأن المؤمنين إخوة، فحيثما وجد مؤمن فهو أخ للمؤمنين، له عليهم حق الأُخوّة، وعليه لهم مثلها، من المحبة والنصرة والنصح، والإصلاح بينه وبين إخوانه إذا حصل بينهم تنازع، والتواصي معه على الحق وعلى الصبر، وغيرها من الحقوق والواجبات...

واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا

اجتماع المؤمنين على الاعتصام بحبل الله

وقد حذر الله -تعالى- عباده المؤمنين من طاعة أهل الكتاب، وبيَّن لهم أن ذلك طريق الكفر والعياذ بالله، وأمرهم بأن يتقوه حق التقوى، وأن يحافظوا على إسلامهم حتى يلقوا ربهم -سبحانه- فيرضى عنهم، وينالوا ثوابه الجزيل، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ١٠٠ - ١٠٢].

ثم أمرهم الله -تعالى- بما يعينهم على تقواه، وهو أن يجتمعوا على طاعته ولا يتفرقوا، قال تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران: ١٠٣]، وحبل الله القرآن، وقيل: عهد الله وذمته، والقولان متقاربان، فمهمة المؤمنين الصادقين أن يحملوا الهدى ودين الحق للناس، ويحملوا من يأبى منهم على ذلك بالسيف والسنان، حتى يظهر دين الإسلام ويعلو على الأديان الأخرى الباطلة كلها، ولذلك يجب على المؤمنين الأخذ بجميع الأسباب الشرعية لدوام الاجتماع وعدم الافتراق، فباجتماعهم يتمكنون من الدعوة إلى توحيد الله والتوجه إليه بما يحب من العبادات والمعاملات والأخلاق الحسنة، وإقامة شرعه بتطبيق الحدود، والجهاد في سبيله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فيحصل للمؤمنين الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران: ١٠٤].

بركة الجماعة وشؤم الفرقة

بعد أن أمر الله -تعالى- بالاعتصام بحبله وعدم التفرق، أمر المؤمنين بأن يتذكروا نعمة الله عليهم بأن جعلهم إخوة في الله متحابين متآلفين بعد أن كانوا مع كفرهم أعداء متناحرين، وأنهم كانوا قريبين من عذاب جهنم ليس بينهم وبينها إلا الموت، فأنقذهم الله بفضله ومنّه بأن هداهم إلى دين الإسلام، وجمعهم على اتباع ونصرة نبيه صلى الله عليه وسلم، {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران: ١٠٣]، أي بمثل هذا البيان الواضح، يبين الله لكم سائر آياته، لكي تثبتوا على الهدى، وتزدادوا به اعتصاماً وتمسكاً.

{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران: ١٠٥]، فحذر الله -تعالى- المؤمنين من مشابهة أهل الكتاب في تفرقهم واختلافهم، من بعد ما جاءتهم الآيات البينات، ولو أن أهل الكتاب اتبعوها وعملوا بها لما تفرقوا ولا اختلفوا، فالعمل بآيات الله موجب للاجتماع والثبات على دين الله وعدم الاختلاف فيه.

وقد توعد الله الذين تفرقوا واختلفوا بالعذاب العظيم، وأخبرنا أن التفرق والاختلاف يؤديان بصاحبهما إلى ترك الحق بعد معرفته، وإلى الكفر بعد الإيمان، قال تعالى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} [آل عمران: ١٠٦]، " يعني: يوم القيامة، حين تبيضّ وجوه أهل السنة والجماعة، وتسودّ وجوه أهل البدعة والفرقة، قاله ابن عباس، رضي الله عنهما" [تفسير ابن كثير].

الإمامة الجامعة

قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة: ٣٠]، وقال تَعَالَى: {يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ} [ص: ٢٦]، قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: "يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها. فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم) [رواه أبو داود من حديث أبي سعيد وأبي هريرة]، وروى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمّروا عليهم أحدهم). فأوجب -صلى الله عليه وسلم- تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر تنبيها بذلك على سائر أنواع الاجتماع، ولأن الله -تعالى- أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم، وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة، ولهذا روي: (أن السلطان ظل الله في الأرض)" [مجموع الفتاوى].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني، وإنما الإمام جنة يقاتل من ورائه ويتقى به، فإن أمر بتقوى الله وعدل، فإن له بذلك أجرا، وإن قال بغيره فإن عليه منه) [رواه البخاري ومسلم].

الاجتماع عصمة من الفتن

ومع وجوب إقامة خليفة يحكم بشريعة الله، وفرض السمع والطاعة له في المعروف، فإن الالتفاف حوله ولزوم جماعته عصمة من الفتن، فعن حذيفة -رضي الله عنه- قال: (كان الناس يسألون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: (نعم)، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: (نعم، وفيه دخن)، قلت: وما دخنه؟ قال: (قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر)، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: (نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها)، قلت: يا رسول الله، صفهم لنا، قال: (هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا)، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: (تلزم جماعة المسلمين وإمامهم)، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: (فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك) [متفق عليه]، فأفاد هذا الحديث تأكيد وجوب لزوم جماعة المسلمين وإمامهم، وأنها عصمة من الفتن، وأن من ينأى عن جماعة المسلمين فلا عصمة له من أن يقذفه الدعاة إلى أبواب جهنم فيها.

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: "وهذا الأصل العظيم: وهو الاعتصام بحبل الله جميعا وأن لا يتفرق، هو من أعظم أصول الإسلام، ومما عظمت وصية الله -تعالى- به في كتابه. ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، ومما عظمت به وصية النبي -صلى الله عليه وسلم- في مواطن عامة وخاصة مثل قوله: (عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة)، وقوله: (فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد)، وقوله: (من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه)، وقوله: (ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين)، وقوله: (من جاءكم وأمركم على رجل واحد منكم يريد أن يفرق جماعتكم فاضربوا عنقه بالسيف كائنا من كان) وقوله: (يصلون لكم فإن أصابوا فلكم ولهم وإن أخطأوا فلكم وعليهم)، وقوله: (ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة منها واحدة ناجية واثنتان وسبعون في النار، قيل: ومن الفرقة الناجية؟ قال: هي الجماعة، يد الله على الجماعة)، وباب الفساد الذي وقع في هذه الأمة، بل وفي غيرها: هو التفرق والاختلاف فإنه وقع بين أمرائها وعلمائها من ملوكها ومشايخها وغيرهم من ذلك ما الله به عليم. وإن كان بعض ذلك مغفورا لصاحبه لاجتهاده الذي يُغفر فيه خطؤه أو لحسناته الماحية أو توبته أو لغير ذلك، لكن يعلم أن رعايته من أعظم أصول الإسلام ولهذا كان امتياز أهل النجاة عن أهل العذاب من هذه الأمة بالسنة والجماعة ويذكرون في كثير من السنن والآثار في ذلك ما يطول ذكره" [مجموع الفتاوى].

نسأل الله تعالى السداد في القول والعمل والحمد لله رب العالمين.

عبادات العشر الأواخر من رمضان وإحياء ليلة القدر

الحمد للّه، والصلاة والسلام على رسول اللّه، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

روى الإمام البخاري في باب (العمل في العشر الأواخر من رمضان)، وكذلك عند الإمام مسلم عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: "كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله"، وفي رواية لمسلم عنها -رضي الله عنها- أنها قالت: "كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره".

إذاً فقد كان النبي -صلَّى اللَّه عليه وسلَّم- يخصُّ لياليَ العشر الأواخر من رمضان بأعمال ويحرص على عبادات ويحرِّض عليها، كما جاء من كلام أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- أنه كان -صلى الله عليه وسلم- يحيي ليله ويوقظ أهله ويشد مئزره، ومعنى إحياء الليل أي استغراقه بالسهر في الصلاة والقرآن والذكر وغيرها، فيحيي ليله كله أو أغلبه بذلك، و معنى إيقاظ الأهل أي: أيقظ أزواجه للقيام، فعن علي -رضي اللَّه عنه- أنَّ النبي -صلَّى اللَّه عليه وسلَّم- كان يوقظ أهله في العشر الأواخر من رمضان [رواه أحمد والترمذي].

وأما شدُّ المِئزر، فالمئزر هو ما يلبس من الثياب أسفل البدن، وهو تعبير في غاية الأدب عن اعتزال النبي -صلى الله عليه وسلم- للنساء والجماع، وقيل كذلك الاجتهاد في العبادة، يقال: شددتُ لهذا الأمر مئزري، أَيْ: تشمَّرتُ له، وكلا المعنيين صحيح فالنبي -صلى الله عليه وسلم- كان يجتهد في العبادة في العشر الأواخر وكذلك كان يعتزل النساء في العشر الأواخر حيث كان يعتكف، والمعتكِف مأمور باعتزال النساء.

والاعتكاف: هو اللبث في المسجد والتفرُّغ للعبادة وقطع العلائق الدنيوية التي تُشغل عن الآخرة، وفي الصحيحين عن عائشة -رضي اللَّه عنها- " أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله، ثم اعتكف أزواجه من بعده"، وإنما كان يعتكف في هذه العشر لإشغال وقته كله بعبادة ربِّه ومناجاته وذكره ودعائه.

ومن العبادات التي كان يداوم عليها النبي -صلى الله عليه وسلم- هي تلاوة القرآن ومدارسته: فلكتاب اللَّه في هذا الشهر شأنٌ كبير، قال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} [البقرة: ١٨٥]، لذا فقد كان جبريل -عليه السلام- يلقى رسول اللَّه -صلَّى اللَّه عليه وسلَّم- كل ليلة فيدارسه القرآن، والمدارسة هي المعاهدة على تلاوة القرآن فكان جبريل -عليه السلام- يدارسه القرآن في شهر رمضان، وخص شهر رمضان بهذه المدارسة لأنه شهر أنزل فيه القرآن، ولذلك تأسى السلف بالنبي صلى الله عليه وسلم، فكانوا أشد الناس حرصا على تلاوة القرآن في هذا الشهر لما علموه من فضل التلاوة فيه، ويزداد حرصهم في ليالي العشر.

ليلة القدر من ليالي العشر الآخيرة:

وسُميت ليلة القدر لأنَّ الملائكة تكتبُ فيها الأقدار، قال تعالى: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} [الدخان: ٤]، عن مجاهد، قال: "في ليلة القدر كل أمر يكون في السنة إلى السنة: الحياة والموت، يقدر فيها المعايش والمصائب كلها" وعن منصور، قال: "سألت مجاهدا فقلت: أرأيت دعاء أحدنا يقول: اللهمّ إن كان اسمي في السعداء، فأثبته فيهم، وإن كان في الأشقياء فامحه منهم، واجعله بالسعداء، فقال: حسن، ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر من ذلك، فسألته عن هذا الدعاء، قال: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} [الدخان: ٣ – ٤]، قال: يقضى في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو مصيبة، ثم يقدّم ما يشاء، ويؤخر ما يشاء فأما كتاب السعادة والشقاء فهو ثابت لا يغير" [جامع البيان في تأويل القرآن].

فضل ليلة القدر:

لليلة القدر فضيلة عظيمة فهي {خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ} من سواها، وفيها {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ}، وهذا مما يدل على عظم شأنها وأهميتها لأنَّ نزول الملائكة ومعهم جبريل -عليه السلام- لا يكون إلا لأمر عظيم، {سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}، أي أنها سالمة من الشرّ كله من أوّلها إلى طلوع الفجر من ليلتها، وهذا يدل على ما فيها من خير عميم وبركة عظيمة، وفضل ليس له مثيل.

فضل العبادة في ليلة القدر:

قال رسول اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم: (من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غُفر له ما تقدم من ذنبه) [متفق عليه]، وقال صلَّى الله عليه وسلَّم: (قد جاءكم رمضان، شهر مبارك، فرض الله عليكم صيامه، يُفتح فيه أبواب الجنة، ويُغلق فيه أبواب الجحيم، وتُغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم) [رواه أحمد وغيرُه]، أي أنَّ ثواب العمل في هذه الليلة أعظم من ثواب العمل في ألف شهر من غيرها، وألفُ شهر يساوي: (٨٣) عاماً وزيادة!

تحديد ليلة القدر:

وردت عدة أحاديث في تحديد ليلة القدر، وقد اختلف العلماء في تحديدها اختلافاً كبيراً، إلا أنَّ المتفق عليه بينهم هو: أنَّها في شهر رمضان، وأنَّها في العشر الأواخر من رمضان، لذا فالأحوط والأقرب لإدراكها هو إحياء جميع العشر الأخيرة من ليالي رمضان، لأنَّ ليلة القدر ليست ثابتة بل هي متنقلة بين الليالي، فقد تأتي في الليالي الفردية أو الزوجية على السواء، فينبغي لمن أراد أن يُرزق خيرها ولا يُحرم أجرَها أن يجتهد في طلبها طيلة الليالي العشر دون أن تفوته ليلة منها، فإن ضَعُفَ على العشر تحرَّاها في السبع الأواخر، ففي صحيح مسلم أنَّه -صلَّى اللَّه عليه وسلَّم- قال: (التمسوها في العشر الأواخر، فإن ضعف أحدكم أو عجز فلا يغلبن على السبع البواقي).

كيفية قيام ليلة القدر:

قال ابنُ رجب الحنبلي: قيام ليلة القدر يكون بإحيائها بالتهجُّد فيها والصلاة والدعاء، قال سفيان الثوري: "الدعاء في تلك الليلة أحبُّ إليَّ من الصلاة"، ومراده أنَّ كثرة الدعاء أفضل من الصلاة التي لا يكثر فيها الدعاء، فإنْ قرأ ودعا كان حَسَناً، فقد كان النبي -صلَّى اللَّه عليه وسلَّم- يتهجَّد في ليالي رمضان ويقرأ قراءةً مرتَّلة لا يمرُّ بآية فيها رحمة إلا سأل ولا بآية فيها عذاب إلا تعوَّذ، فيجمع -صلوات اللَّه وسلامه عليه- بين الصلاة والقراءة والدعاء والتفكُّر، وهذه أفضل الأعمال وأكملها في ليلة القدر والعشر الأواخر [لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف].

وأفضل الدعاء في ليلة القدر ما جاء عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قالت: قلت: يا رسول الله أرأيتَ إن علمتُ أي ليلةٍ ليلةُ القدر ما أقول فيها؟ قال: (قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني) [رواه الترمذي].

علامات ليلة القدر:

قال رسول اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم: (إن أمارة ليلة القدر أنها صافيةٌ بَلْجةٌ كأنَّ فيها قمرا ساطعا، ساكنة ساجية، لا برد فيها ولا حر، ولا يحل لكوكب أن يرمى به فيها حتى تصبح، وإن أمارتها أن الشمس صبيحتها تخرج مستوية ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر، ولا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذ) [رواه أحمد].

نسأل الله -تعالى- أن يبلغنا ليلة القدر، وأن لا يحرمنا قيامها، وأن ينصر دولة الخلافة، ويفتح على عباده الموحدين المجاهدين في مشارق الأرض ومغاربها، إنه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين.

اعرف قدر نفسك يا معادي الأمم

أيها المجاهد الصابر المحتسب، كُتبت لك هذه الكلمات لتعرف قدرك وقيمتك عند عدو الله وعدوك، فقد اجتمعت عليك الأمم من كل الأجناس والأعراق من العرب والعجم.

فمن أنت أيها الجبل الأشم، من أنت لترسو لأجلك بارجات الصليبيين في البحار، وتجوب سماءك طائرات الكفار، وتصول على أرضك حشود الفجار.

من أنت أيها المعتز بدينه وتوحيده لتجتمع عليك كل هذه الحشود وتحاصرك في عزيز ملكته، أرض تحكم بشرع الله تذود عن حماها. لقد سموت بعزة الله وقوته وشرعه العظيم، وساء ذلك الكفار حسدا من عند أنفسهم لما أنت عليه من التوحيد.

فلو ملكت الأرض ولم يكن لدولتك حكم بشرع الله لما ألقوا لك بالا ولكنَّ توحيدك هو ما يغيظهم، قال الله سبحانه: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ} [البقرة: ١٠٩]، فسعوا بدافع هذا الحسد المقيت لقتالك، فكان قتالهم لأجل دينك الذي حملته في قلبك وجوارحك، قال الله تعالى: {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا} [البقرة: ٢١٧].

لو ملكت أسلحة الدمار الشامل ولم تملك هذا الدين العظيم لتركوك كما تركوا دولا امتلكته أو تسعى لامتلاكه، ولكنهم علموا أن دينك الذي ينتشر تحت شديد قتالك لطواغيتهم وأجنادهم هو أعظم من كل سلاح عندهم، فلم ولن يمهلوك لحظة واحدة ولن ينفك عنك قتالهم وعداوتهم، فإما سلطانهم في الأرض وفتنة الشرك التي يسعون لنشرها، وإما سلطان الله وهيمنة دينه على الأرض.

فاصدق مع الله في جهادك يا معادي الأمم، واخشه ولا تخش أحدا غيره، فيأس الكفار من دينك متحقق لا محالة، قال الله سبحانه: {الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ} [المائدة: ٣].

أيها الموحد الغريب، إنك هدف مهما كانت منزلتك، سواء كنت جنديا أو أميرا، فقيرا أو غنيا، لأن علة استهدافك هو دينك الذي علم الكفار أنك أخذته كله، ولم تؤمن ببعض وتكفر ببعض، لتلتقي معهم في منتصف الطريق.

وكذلك هو حالك أيتها الموحدة الصابرة، لأنك عفيفة تكثِّرين نسل المجاهدين وتربِّين أبناءك على التوحيد وجهاد الكفار، فيزيد غيظهم دينك وطهارتك، فلا عجب أن تكوني بذاتك هدفا للكفار.

فنحن في صراع طويل مع الكفار، والفوز والنصر للمتقين لا محالة فقد قال الله تعالى: {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف: ١٢٨]، وقال سبحانه: {وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الصافات: ١٧٣]، فأنت غالب في الدنيا بالظهور والغلبة على الكفار، أو منصور بقتلة في سبيل الله تنال بها النعيم المقيم عند الرب الكريم، وأعداؤك في حسرة دائمة، ودافع الغيظ يجعلهم يستنفدون طاقاتهم ليصدوا عن سبيل الله بإنفاق الأموال وبالقتال أو بغيره من عروض الدنيا الفانية وزخرفها الزائل.

فيا أيها العزيز الأبي في زمن الملاحم، امض ولا تلتفت وراءك فأنت ما خُلقت من أجل عرض فانٍ، بل خُلقت لتعبد الله وحده وتفوز بالجنان والروض الحسان، فحقق معنى العبودية لله بتحكيم شرعه والكفر بأنظمة طواغيت العالم وأديانهم وحشودهم، واصدع بكل عزة وافتخار بدين الله الذي كتب الله له الهيمنة على كل الأديان، فأنت من أجل ذلك هدفهم الوحيد وغايتهم الأولى.

فهل عرفت قدرك عند أعدائك؟ هل علمت مقدار تقصيرك في أداء واجبك حين تضيع وقتك والكفار يستثمرون أوقاتهم لحربك؟

هل علمت مقدار تقصيرك في حق نفسك حين تهمل سلاح التزود بالتقوى وأمم الكفر تطور أسلحتها كل يوم لتنال منك؟

هل علمت مقدار تقصيرك عندما تركت الأذكار والأدعية التي تتقي بها كيد شياطين الإنس والجن وهم قد سخروا لك الجواسيس والمنافقين، والسحرة والشياطين؟

هل علمت مقدار تقصيرك إن صرفت أكثر وقتك للدنيا التي يفترض أنك تركتها لأهلها ومضيت إلى ربك تبتغي إحدى الحسنيين؟

هل علمت مقدار تقصيرك وذنبك إن فرَّقت صف المجاهدين وقلوبهم ولم تسمع وتطع لأميرك بالمعروف ولم تطع الله ورسوله صلى الله عليه وسلم؟ فإنَّ من أطاع الأمير فقد أطاع الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم. فانظر إلى أمم الكفر قد أطاعوا معبودهم أمريكا ورموك عن قوس واحدة، واجتمعوا على ذلك.

هل علمت مقدار تقصيرك إن لم تسع للاستزادة بالعلم الذي يوصلك إلى الله -تعالى- وتنقذ به نفسك وأهلك من النار؟

واعلم حقيقة الخسارة، فإنها ليست فوات دار واسعة أو مركبة فارهة أو مال وحليلة، أو زواج حسناء جميلة، بل هي ما قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } [الزمر: ١٥].

اعلم أيها الموحد أنك إن ضاقت بك فتن الكفار وضاق عليك الحصار، وأنت لم تعرف حالك عند أعداء الملة والدين ولم تكن على قدر المسؤولية فإنك على وشك السقوط وتحقيق هدفهم الأول في النيل من دينك وتوحيدك لله رب العالمين، فاستعن بالله ولا تعجز، وتزود من التقوى فهي سلاحك الذي لا ينفد، وسيفك الذي لا ينبو.

فحافظ على أذكار الصباح والمساء والحروز التي تتقي بها الأعداء فمن لاذ بحمى الله وقوته فلا غالب له، واستثمر وقتك في كل ما يغيظ الكفار، وينال منهم، ويضعفهم، ويوهن عزيمتهم، ويوقع بهم أعظم النكايات، ولا تغفل عن تجديد إيمانك وتوحيدك وقتال الطواغيت وجنودهم دائما، واجعل هذا ديدنك في نفسك وأهلك، تذاكر مع إخوانك وتعلم، وتواص معهم بالحق والصبر على لأواء الطريق حتى بلوغ الراحة في اجتماع خالدٍ ونعمة لا تزول، فموضع سوط المجاهد في الجنة خير من الدنيا وما عليها فما بالك بجنة عرضها السماوات والأرض، واعلم أنك مقبل على فتن وابتلاءات لا يثبت فيها إلا من رسخ إيمانه وثبت يقينه وصبره وحسن توكله، قال الإمام ابن تيمية -رحمه الله- عن الجهاد: "فيه سنام التوكل وسنام الصبر، فإن المجاهد أحوج الناس إلى الصبر والتوكل، ولهذا قال تعالى: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [النحل: ٤١ - ٤٢] وَقَالَ: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف: ١٢٨]" [مجموع الفتاوى].

وتذكر يا معادي الأمم الأمر العظيم الذي خرجت من أجله، فما خرجت إلا لتحقيق العبودية لله -سبحانه- واستنقاذ الناس من عبودية الطواغيت، وإخراجهم من الظلمات إلى النور بإذن الله سبحانه، فإن قتلت فميتة كريمة ومنزلة رفيعة، ومنزلتك في الجنة التي أعدها الله لك ما هي إلا لأنك عاديت أمم الكفر وكفرت بطواغيتهم وآمنت بالله ربا وإلها وأقمت شرعه رغم أنوفهم، فأتيت بالجهاد وطلب الاستشهاد بينةً واضحةً على صدق دعواك بتوحيد الله -تعالى- والكفر بالأنداد الباطلة، فأغلى ما يقدم العبد لربه -سبحانه- هو نفسه وماله.

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: "وأعظم مراتب الإخلاص: تسليم النفس والمال للمعبود كما قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} [التوبة: ١١١]، والجنة اسم للدار التي حوت كل نعيم، أعلاه النظر إلى الله إلى ما دون ذلك مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين مما قد نعرفه وقد لا نعرفه كما قال الله -تعالى- فيما رواه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم: (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)" [مجموع الفتاوى].

زكاة الفطر مسائل وأحكام

الحمد لله الذي شرع لعباده الصيام، وشرع في ختامه زكاة الفطر من رمضان، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه وأتباعه بإحسان، أما بعد:

فقد جعل الله زكاة الفطر من عبادات يوم الفطر وليلته، التي يؤديها المكلفون بها، بعد إتمامهم ما افترض عليهم من صيام شهر رمضان، فيعطونها للفقراء، قربة إلى الله تعالى، قبل صلاة يوم العيد، كما قال جل جلاله: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} [الأعلى: ١٤ - ١٥]، فهي مطهرة للصائم، وكفارة له، وطُعمة للفقير والمسكين.

• تعريفها:

وهي صدقة تجب عقب إتمام شهر رمضان.

• الحكمة من مشروعيتها

قال أهل العلم: إن الحكمة من مشروعية زكاة الفطر هو الرفق بالفقراء، بإغنائهم عن السؤال في يوم العيد، وإدخال السرور عليهم في يوم يُسر المسلمون بقدوم العيد عليهم، وإنها تطهير للصائم من اللغو والرفث الذي وقع منه في هذا الشهر المبارك، فعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "فرض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- زكاة الفطر طُهرة للصائم من اللغو والرفث وطُعمة للمساكين" [رواه أبو داود].

• حكمها:

نقل ابن المنذر -رحمه الله- الإجماع على أنها فريضة فقال: "وأجمعوا على أن صدقة الفطر فرض"، وذلك لحديث ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: "فرض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- زكاة الفطر صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير، على العبد والحر، والذكر والأنثى، والصغير والكبير من المسلمين" [متفق عليه].

• شروط وجوبها:

أولاً: الإسلام، فلا تصح من الكافر، ولا يقبلها الله منه، قال تعالى: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [المائدة: ٢٧].

ثانياً: الحرية، أما العبد فإنَّ سيّده هو الذي يُخرج عنه، وذلك لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: (ليس في العبد صدقة إلا صدقة الفطر) [رواه مسلم].

قال ابن المنذر رحمه الله: "وأجمعوا أنَّ على المرء أداء زكاة الفطر عن مملوكه الحاضر" [الإجماع لابن المنذر].

ثالثاً: القدرة على إخراجها؛ بمعنى أن يكون عنده فاضل عن نفقة واجبة على حوائجه الأصلية ليلة العيد ويومه.

• عمَّن تؤدى زكاة الفطر:

يُخرجها الرجل عن نفسِه وعمَّن تلزمه نفقتُهم إن كانوا صغارا لا مال لهم، أو كانوا فقراء لا يستطيعون إخراجها، يُخرجها الرجل عن نفسه وزوجته وأولاده وأبويه ومماليكه، وذلك لحديث ابن عمر -رضي الله عنهما- المتقدم عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولما رواه البخاري -رحمه الله- عن نافع قال: "فكان ابن عمر يعطي عن الصغير والكبير"، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى بلفظ: "أنه كان يؤدي زكاة الفطر عن كل مملوك له في أرضه، وفي غير أرضه، وعن كل إنسان كان يعوله، صغير أو كبير".

ولا يجب إخراجها عن الجنين، لكن يُستحب لورود ذلك عن عثمان -رضي الله عنه- ممَّا روى ابن أبي شيبة في مصنفه: "أن عثمان -رضي الله عنه- كان يعطي صدقة الفطر عن الحَبَل"، وروى عن أبي قلابة أنه قال: " كانوا يُعطون صدقة الفطر، حتى يعطون عن الحَبَل".

• وقتها:

تجب بغروب الشمس ليلة الفطر، فمن أسلم بعده أو ملك عبداً، أو تزوج، أو وُلد له، لم تلزمه فطرته، وقبله تلزم، ويجوز إخراجها قبل العيد بيوم أو يومين، وذلك لما رواه البخاري عن نافع أنه قال: "وكانوا يعطون قبل الفطر بيوم أو يومين"، وهذا محمول على أنهم كانوا يعطونها للجباة لا للفقراء، ويدل عليه ما رواه مالك في الموطأ عن نافع أن عبد الله بن عمر "كان يبعث بزكاة الفطر إلى الذي تُجمع عنده قبل الفطر بيومين أو ثلاثة".

أما أفضل وقت لإخراجها، فهو يوم عيد الفطر قبل الصلاة، لحديث ابن عمر، رضي الله عنهما: "أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمر بزكاة الفطر أن تؤدَّى قبل خروج الناس إلى الصلاة" [متفق عليه]، ذلك أن مِن مقاصدها إغناءُ الفقراء عن السؤال في هذا اليوم، ولتطييب نفوسهم بمشاركة إخوانهم الأغنياء بالفرح والسرور في يوم العيد، دون أن يحملوا همَّ الكسب في هذا اليوم.

أما من أداها بعد الصلاة، فهي صدقة من الصدقات ولا تُجزئ عنه في زكاة الفطر، لما رواه أبو داود عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "فرض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، وطُعمة للمساكين، من أدَّاها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات".

• مقدارها:

الواجب فيها هو صاع من الأصناف التي يجوز إخراج زكاة الفطر منها، لحديث أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه: "كنا نخرج زكاة الفطر صاعا من طعام، أو صاعا من شعير، أو صاعا من تمر، أو صاعا من أقِط، أو صاعا من زبيب" [متفق عليه]، [صاعا من طعام: أي من بُرٍّ، وهو القمح].

• نوعها:

تُخرج من أغلب قوت البلد فإن كان قوت البلد من الأصناف المذكورة في الحديث أخرجها، وإن كان قوت البلد من غير الأصناف المذكورة في الحديث، فتخرج من قوت البلد.

قال مالك: "لا أرى لأهل مصر أن يدفعوا إلا القمح لأنَّ ذلك جلّ عيشهم، إلا أن يغلو سعرهم، فيكون عيشهم الشعير، فلا أرى بأسا أن يدفعوا شعيرا"، وقال: "وأما ما ندفع نحن بالمدينة فالتمر" [المدونة الكبرى].

فعلَّل الإمام مالك -رحمه الله- إعطاء القمح والشعير بأنه جل عيش البلد، وقال الشافعي: "وفي سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنَّ زكاة الفطر مما يقتات الرجل... وأي قوت كان الأغلب على رجل أدى منه زكاة الفطر" [الأم].

• مقدار الصاع:

قدر الصاع أربعة أمداد، والمد هو ملء كَفَّي الإنسان المتوسط إذا ملأهما، ولعدم انتشار الصاع النبوي بين المسلمين نورد لكم -أسفل المقال- ما يقابله من الموازين في أغلب الأصناف.

• هل يجوز إخراجها قيمةً؟

ذهب جمهور العلماء من المالكية والشافعية والحنابلة إلا أنه لا يجوز إخراج القيمة في زكاة الفطر، وإنما الواجب هو إخراجها عينا من الأصناف التي بيَّنها الرسول صلى الله عليه وسلم، لأنه لم يرد خلاف ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الأقرب إلى براءة الذمة، والله أعلم.

• مكان إخراجها:

تعطى زكاة الفطر للفقراء والمساكين من أهل البلد، ولا تنقل عن البلد إلا إذا فاضت عن حاجة الفقراء والمساكين، ويراعى في إخراجها الأحوج والأقرب للصلاح ليتزود بها على طاعة الله تعالى.

• تفويض ديوان الزكاة بأدائها:

يمكن لأي مسلم في دار الإسلام أن يسلم صدقة فطره ومن يعول، إلى إخوانه في المراكز التابعة لديوان الزكاة ليتولوا هم أداءها عنه، في وقتها، وتبرأ ذمته منها، بمجرد دفعها إليهم، وذلك أفضل، وخاصة لمن خشي التأخر عن وقت أدائها، أو صعب عليه الوصول إلى الفقراء والمساكين ليؤديها إليهم.

نسأل الله أن يتقبل من المسلمين صيامهم، وأن ينصر دولة الإسلام على أحزاب الكفر المتحالفة ضدها، والحمد لله رب العالمين.

الصنف	وزن الصاع	الصنف	وزن الصاع	الصنف	وزن الصاع	الصنف	وزن الصاع
الأرز (حبة طويلة)	٢٨٠٠ غرام	الحنطة المقشورة	٢٧٠٠ غرام	العدس	٢٦٠٠ غرام	التمر	٢٢٠٠ غرام
الأرز (حبة قصيرة)	٢٨٠٠ غرام	الشعير	٢٣٠٠ غرام	العدس الأحمر	٢٧٠٠ غرام	الزبيب	٢٤٠٠ غرام
البرغل	٢٣٠٠ غرام	الدقيق	٢٣٠٠ غرام	الفول	١٩٠٠ غرام	معكرونة كبيرة	١٥٠٠ غرام
الفريكة	٢٢٠٠ غرام	الفاصوليا	٢٥٠٠ غرام	الحمص	٢٨٠٠ غرام	معكرونة صغيرة	١٨٥٠ غرام

حراسة ليلة أفضل من ليلة القدر

لهذه الأسباب يفضل المجاهدون الرباط في رمضان عن سواه ..

النبأ – ولاية الخير – خاص

في مثل هذه الأيام من كل عام يسعى المسلمون في جميع بقاع الأرض إلى زيادة طاعاتهم رغبة في الأجر العظيم والثواب الكبير، فترى كلاً منهم يسعى لاغتنام الفرصة وزيادة الأجر.

فمنهم من يقوم الليل في المساجد ويقرأ الختمة تلو الختمة، ومنهم من يشد رحاله إلى بيت الله الحرام للاعتمار والاعتكاف، ومنهم من يعلم ما فرض الله عليه من الهجرة والجهاد، فيشد رحاله إلى الثغور للدفاع عن أراضي المسلمين وأعراضهم، يعرِّض نفسه للأسر والبتر والقتل في سبيل الله، تغرب عليه الشمس فترى بيده تمراتٍ معدودات وشربةَ ماء، وقد لا يتوفر من ذلك شيءٌ بسبب بُعد الثغر وصعوبة الطريق إليه، فيبيت ليله على ما أصبح، تلفحه الرمضاء، ويزكم أنفَه غبار الصحراء، ويأتيه الخوف من كل مكان، فهل يستويان مثلا؟!

وهنا يخبرنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن ليلة هي أفضل من ليلة القدر، فعن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ألا أنبئكم بليلة أفضل من ليلة القدر؟ حارس حرس في أرض خوف، لعله ألّا يرجع إلى أهله) [رواه النسائي والبيهقي وغيرهما].

وعن سلمان -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه) [رواه مسلم].

فهنا الخيرية فاقت كل أيام الدنيا، والأجر تجاوز ليلة القدر نفسها وزاد عنها.

فكيف إذا كان الرباط في أيام رمضان، ولياليه المباركة، التي منها ليلة القدر؟ فما أعظم ثواب من يوافق هذه الليلة وهو مرابط في سبيل الله، يحرس ثغور الإسلام، ويجاهد أعداء الملة والدين.

(النبأ) التقت عددا من المجاهدين المرابطين في شهر رمضان بولاية الخير واستمعت إلى ما يروونه عن أيام رباطهم فيه.

رباط وقتال وتقرب إلى الله

أبو ميمونة الأنصاري المرابط في ولاية الخير بإحدى نقاط جبل الموظفين قال إن نهار رمضان عند المرابط يبدأ بالاستيقاظ للسحور عند الثانية والنصف فجرا، حيث يقوم الإخوة المرابطون في تلك النوبة بإعداد وجبة السحور وإيقاظ إخوانهم.

وأضاف أنه وبعد أذان الفجر يتجهز الإخوة للصلاة حيث يصلي نصفهم جماعة فيما يحرسهم النصف الآخر، ليقوم الذين لم يصلوا إلى صلاتهم بعد انتهاء الجماعة الأولى من الصلاة.

وأشار أبو ميمونة إلى أنه وبعد صلاة الفجر يتوزع الاخوة بين قراءة القرآن وقراءة أذكار الصباح فيما ترتاح المجموعة التي كانت مكلفة بالحراسة قبل السحور، لتستلم المجموعة الثانية دورها وتقوم بمراقبة سواتر العدو ونقاطه، لافتاً إلى أن وقت المرابط كلَّه طاعة وعبادة لله، فتواجد المرابط في الثغر بحد ذاته عبادة، وما يفعله من عبادات أخرى هي طاعات منفصلة عن عبادة الرباط ولها كذلك أجرها.

وعن ازدحام نقاط الرباط بالمجاهدين المرابطين في شهر رمضان قال: "إن جميع الإخوة المجاهدين يرغبون في الرباط خلال شهر رمضان ويعرضون أنفسهم لرحمة الله عز وجل، ويتمنون القتل في هذا الشهر راجين الأجر من الله وحسن الخاتمة".

وذكر أن المجاهدين لا يضيعون فرصة لاقتحام ثكنات العدو الكافر أو الإغارة عليه داخل نقاطه إلا واغتنموها، لافتاً إلى أنه في الأسبوع الثاني من رمضان رأى أمير المحور فرصة مواتية لاقتحام ثكنة من الثكنات، فبادر مع عدد من جنوده المتجهزين دائما للاقتحام واقتحموا إحدى الثكنات غير أن الأمر لم يتيسر بسبب حالة الطقس، فانحاز الإخوة وعادوا سالمين، والحمد لله.

توبتكم أحب إلينا من قتلكم

وأضاف أن من الأحداث التي جرت خلال مدة رباطه قبل عدة أيام تأمين انشقاق عدد من جنود الطاغوت النصيري، حيث استطاع المرابطون التواصل معهم -بفضل الله وتوفيقه- وتأمين طريق آمن لهم، فجاؤوا تائبين، والحمد لله.

وقال: "إن توبة جنود النظام أحب إلينا من قتلهم، مؤكدا أن كل جندي يريد التوبة بإمكانه التواصل مع المرابطين، حيث يحفظه المجاهدون من السوء ولا يسمحون لأحد أن يمسه بأذى، مشيرا إلى أن انشقاق عدد من الجنود المرتدين وتوبتهم أدخلت الفرحة إلى قلوب المجاهدين المرابطين، ودعا أبو ميمونة الجنود المرتدين إلى الانشقاق عن جيش النظام والتبرؤ منه قبل القدرة عليهم، وإلا فمصيرهم معلوم، بإذن الله".

المرابط يأمن فتنة القبر

من جهته قال أبو إسلام الجزراوي المرابط في إحدى نقاط الخط الأول من جهة الأحياء في ولاية الخير: "إن أجر المرابطين في سبيل الله عظيم يحرص عليه المسلم الذي عرف الحق ووحد الله، وبذل نفسه في سبيل الله كما يريد الله ويحب، ولعظم هذا العمل عند الله، لم ينحصر أجر المرابط بمدة حياته فقط بل تعداه إلى ما بعد الموت، فإذا فارق المسلم دنياه وهو في ثغره، وانتقل إلى جوار ربه، فإن أجر رباطه سارٍ إلى يوم القيامة، وهذه ميزة خاصة للمرابط لما يتعرض له من شدة وجوع وعطش وخوف في سبيل الله".

فعن فضالة بن عبيد -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (كل ميِّت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله؛ فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن من فتنة القبر) [رواه الترمذي].

وذكر أن المرابطين يملؤون أوقاتهم بذكر الله وقراءة القرآن والتباحث في شؤون المسلمين والدعاء والذكر.

تأخر فطورهم بسبب رصد الطريق

وعن حرارة الجو وشدة العطش أشار إلى أن العطش يبلغ درجة عالية عند الإخوة المرابطين بسبب حرارة الجو وطول النهار، فترى الإخوة -والحمد لله- صابرين ثابتين محتسبين الأجر عند الله، مشيرا إلى أن خطورة النقطة وبُعدها أو رصد الطريق المؤدي إليها يجعل من مهمة إيصال الطعام والماء إليها أمرا صعبا في بعض الأحيان، وهو ما حصل قبل عدة أيام عندما لم يتمكن الإخوة من إيصال الطعام والماء للمرابطين في النقطة بسبب رصدها من قبل قناص مرتد، وهو ما أخر إفطار الإخوة عدة ساعات، ريثما تمكن أحدهم من جلب وجبات الطعام والماء.

وقال إن هذه المصاعب أمر عادي في بعض نقاط الرباط وقد اعتاد عليها الإخوة فترى الصبر والتجلد عندهم، ورغم الصعوبات ترى الإصرار على الثبات يجعل معنوياتهم مرتفعة، والحمد لله.

ولفت إلى أن أكثر ما يلفت النظر في نقاط الرباط وجود أشبال في مقتبل العمر وقد ندبوا أنفسهم مع الاقتحاميين، فتراهم يصرون على الاقتحام ويطلبونه دائما، ويلحون في ذلك، الأمر الذي يجعل حماس المرابطين عاليا للنيل من المرتدين وقتلهم.

ليلة أفضل من ألف ليلة

أبو عبد الله المهاجر، الذي يعمل في أحد المراكز التابعة للدواوين، ولم يتهيأ له بسبب ذلك لزوم خطوط الرباط مع إخوانه في جيش الخلافة، كان يهيئ نفسه لأن يكون وقت رباطه في العشر الأواخر من رمضان، قبل أن يمنعه من ذلك مشاغل في عمله الذي يتولاه، لا ينوب عنه فيها أحد.

ذكر أنه كان يتمنى أن يحيي ليالي العشر الأواخر من رمضان وهو مرابط في سبيل الله، وسأل الله أن لا يحرمه أجر ذلك، هو وكل إخوانه الذين حبسهم العذر، وقيدتهم التكاليف والأمانات، ويحكي تجربته في السنة الماضية:

"كنا نقتسم مع الإخوة الوقت في نوبة الحراسة، فيتفرغ البعض للصلاة، وقراءة القرآن، ويبقى آخرون يحرسون، ويرصدون جوانب الثغر، مخافة أن يتسلل المرتدون إليه، فما أروعها من لحظات، وقد تقاسم الإخوة الأجر، بين عين تبكي من خشية الله، وأخرى باتت تحرس في سبيل الله".

وأضاف أبو عبد الله: "إن كانت ليلة في الرباط فضَّلها السلف على قيام ليلة القدر في بيت الله الحرام، فكيف بمن شهد ليلة القدر، وهو مرابط في سبيل الله، يقضي ليلته مرهبا لأعداء الله يخشون صولته، ويخاف هو من صولتهم عليه".

نسأل الله أن يقر عيوننا وعيون المرابطين بنصر الله لدولة الإسلام واندحار أحزاب الكفر، وأن يجزي المرابطين في سبيل الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، والحمد لله رب العالمين.

اغتنم حياتك قبل موتك

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فإن من رحمة الله –تعالى- بهذه الأمة أن جعل لها أوقاتا مخصوصة تُضاعف فيها الأجور وجعل لها بقاعا تُضاعف فيها الأجور، كالحرمين الشريفين فك الله أسرهما من رجس الطواغيت، وكل ذلك للتعويض عن قصر الأعمار في هذه الأمة، لأن الأمم السالفة كانت أعمارهم طويلة فكان لهم من العبادات حظ وافر، ومن رحمة الله –سبحانه وتعالى- بأمة النبي محمد –صلى الله عليه وسلم- أن جعل لهم ما يعوِّض قصر أعمارهم، كما في ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر والأيام العشرة من ذي الحجة وغيرها، وكذلك بعض العبادات التي لا يعدل أجرها شيء، مثل الجهاد في سبيل الله، ولما كان الإنسان يغفل بطبعه ويفتر عن عبادة ربه، فقد فرض الله عليه صيام شهر رمضان لتقوى نفسه على الطاعات وتنهض من الغفلة الطويلة في أشهر السنة الفائتة، وتغترف من الأجور ورفعة الدرجات، وتزيد فيها من عمل الصالحات، قال الإمام ابن جرير الطبري –رحمه الله- في تأويل نهاية آية الصيام وهي قوله تعالى: {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [البقرة: ١٨٥]: "يعني –تعالى ذكره- بذلك: ولتشكروا الله على ما أنعم به عليكم من الهداية والتوفيق، وتيسير ما لو شاء عسر عليكم" [جامع البيان].

التوفيق للطاعات نعمة عظيمة تستحق الشكر

فالتوفيق للطاعات والهداية الربانية نعمة عظيمة تستحق الشكر لله –سبحانه وتعالى- بمزيد من العبادات ومزيد من الطاعات وبالاستمرار على ما كان عليه المرء في رمضان، وشكر نعمة الله –تعالى- يكون بالعمل، ولكن كثيرا من الناس تبرد همتهم وتضعف عزيمتهم عن الاستمرار على ما كانوا عليه من طاعات وعبادات في رمضان، فكأنهم لا يشكرون نعمة الله عليهم أن وفقهم لطاعته وبلغهم رمضان وهداهم للعمل الصالح.

وإياك أيها المسلم أن تغفل عن تلك الساعة التي يحين بها فراقك للدنيا فلا تجد ما ينفعك إلا ما عملت في دنياك، فاجعل كل أيامك وشهورك كأيام رمضان، تذكر أن عمرك قصير مهما طال، فاغتنم وقتك وأدرك نفسك قبل مفارقة الروح الجسد، فإما إلى جنة وإما إلى نار، تذكر أن بدنك سيبلى مهما طالت صحته، فأتلفه لله وفي سبيل الله –جل وعلا- واستمر في تميزك في طاعة الله وعبادتك له بعد رمضان وكن عبدا شكورا، قال الله تعالى: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ: ١٣].

تذكر يا صاحب العمل أنك تتزود لآخرتك، وكثير من الناس يتزود لدنياه ويبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، وانظر حولك كم من الناس باع ماله ونفسه لله في جهاد أعداء الله، يقابلهم كثير من الناس باع آخرته بدنياه، قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "فباع المغبونون منازلهم منها بأبخس الحظ وأنقص الثمن، وباع الموفقون نفوسهم وأموالهم من الله وجعلوها ثمنا للجنة، فربحت تجارتهم ونالوا الفوز العظيم، قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ} [التوبة: ١١١]، فهو –سبحانه- ما أخرج آدم منها إلا وهو يريد أن يعيده إليها أكمل إعادة" [مفتاح دار السعادة].

لا يغرنَّك كثرة الهالكين ولا تستوحش لقلة السالكين

فاغتنم حياتك قبل موتك، ولا يغرنَّك كثرة الهالكين، ولا تستوحش لقلة السالكين، فكم سمعت عن إنسان حقق حلمه في متاع من الدنيا قليل، ولكن ماذا بعد ذلك النعيم الناقص والرفاه المنتهي الزائل؟ إنه الشقاء بعد السعادة، وتقلبات الدنيا الفانية بأهلها. فمن حاد عن توحيد الله وعبادته ونصرة دينه وأراد الدنيا ورغب عن الآخرة فليقرأ قوله الله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} [الإسراء: ١٨ - ١٩]

إن الله –تعالى- من رحمته أن افترض علينا رمضان لتحصل به زيادة الإيمان وتهذيب النفوس والصبر على ألم البلاء في سبيل الله، فتتسامى على لهو الدنيا وإضاعة الأوقات بظلم العبد نفسه أو ظلم العباد أو بتفاهات لا قيمة لها ولا وزن يوم ينصب الميزان وتوزن الأعمال، قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "قال حذيفة وعبد الله بن مسعود وغيرهما من الصحابة: يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف؛ فمن رجحت حسناته على سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته بواحدة دخل النار، ومن استوت حسناته وسيئاته فهو من أهل الأعراف. وهذه الموازنة تكون بعد القصاص، واستيفاء المظلومين حقوقهم من حسناته، فإذا بقى شيء منها وزن هو وسيئاته" [طريق الهجرتين وباب السعادتين].

فيا طلاب الآخرة، جعل الله لكم بعد شهر رمضان ما تتزودون به لذلك اليوم العظيم، يوم يفر المرء من أغلى أرحامه، من أمه وأبيه وزوجته وبنيه، فما زلت يا مسلم في الحياة فاغتنم أيامك قبل موتك، وها نحن قد ودعنا رمضان، فأتبعه بصيام ست من شوال. فقد قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (من صام رمضان وأتبعه بست من شوال فكأنما صام الدهر) [رواه مسلم].

اجعل أيامك زاداً لك في اكتساب الحسنات

وأخرج الإمام الترمذي –رحمه الله- بسنده عن الحسن البصري قال: كان إذا ذُكر عنده صيام ستة أيام من شوال، يقول: "والله لقد رضي الله بصيام هذا الشهر عن السنة كلها" [سنن الترمذي].

ويستحب تتابع الصيام عقب يوم الفطر لما فيه من المسارعة في البر والعمل الصالح، ونوصيك يا مسلم أن تجعل أيامك زادا لك في اكتساب الحسنات بين جهاد وصلاة وطاعات، فلا أقل أن يخلو حال المسلم من هذين الأمرين، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- قال: (إذا جاء الرجل يعود مريضا، قال: اللهم اشف عبدك، ينكأ لك عدوا، ويمشي لك إلى الصلاة) [رواه أحمد]، فلا يخلو حال المسلم من المشي إلى الصلاة والنكاية بالكفار.

اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم

الحمد لله الذي أمر عباده بما يزكيهم، ونهاهم عما يفسدهم ويشقيهم، والصلاة والسلام على رسوله الحريص على أمته، الذي ما ترك أمراً يقربها إلى الله إلا ودلّها عليه، ولا أمراً يقربها من النار إلا وحذرها منه، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

فقد أمر الله -عز وجل- عباده الذين استجابوا له فآمنوا وصدقوا إيمانهم بالعمل الصالح بأن يطيعوه ويطيعوا رسوله صلى الله عليه وسلم، ويطيعوا من تولى أمرهم فحكمهم بالإسلام، وجعل الإسلام حاكماً بينه وبينهم، وبهذا يصلح لهم دينهم ودنياهم.

طاعة ولاة الأمر من طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وتابعة لها

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء: ٥٩]، فقد جعل الله -تعالى- طاعة ولاة الأمر تابعة لطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد أكد على هذا المعنى حديث علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- الذي في الصحيحين أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف)، وفي الآية من الفوائد أن ذكر طاعة ولاة الأمور بعد طاعة الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- هو من عطف الخاص على العام، فطاعة الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- هي الأمر العام، وطاعة ولاة الأمر من أفراد هذا العام، فأفردت بالذكر لأهميتها في صلاح الفرد والجماعة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني) [متفق عليه]، وأما ولاة الأمر، فهم الأمراء، وقيل العلماء، وقيل العلماء والأمراء، والمتقرر شرعاً أنه يجب على العلماء أن يطيعوا للأمراء، ونحمد الله أن جمع لولاة الأمور في الدولة الإسلامية العلم مع الإمارة.

التحاكم إلى شريعة الله ضمان تماسك المجتمع وصلاحه

لما كان التفاف الرعية حول ولي أمرها وطاعتها له أمراً يحبه الله تعالى، فقد جعل الله ضمانات لهذا البنيان المرصوص من التصدع، ومن أهمها أنه إذا حصل تنازع بين الرعية أو بين الراعي والرعية أن يردوه إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ففيهما حل لكل إشكال أو اختلاف مهما كبر أو صغر، لأن الله -تعالى- قال: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} وكلمة {شَيْءٍ} نكرة في سياق الشرط فتعم كل تنازع، وبيَّن -تعالى- أن الرد والتحاكم إلى الكتاب والسنة في مسائل النزاع شرط لصحة الإيمان، فقال سبحانه: {فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}، ومن لا يرد مسائل النزاع والخلاف إلى الله ورسوله فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر، ثم بيَّن -تعالى- أن التحاكم إليه وإلى رسوله خير للمتحاكمين في الحال، وأحسن في العاقبة والمآل، {ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}.

أحاديث نبوية في طاعة ولاة الأمور

عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يُؤمر بمعصية، فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) [متفق عليه].

وعن عبادة بن الصامت -رضي الله عنه- أنه قال: بايعنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله. قال: (إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم فيه من الله برهان) [متفق عليه].

عن أبي ذر -رضي الله عنه- قال: "إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع، وإن كان عبدا مجدَّع الأطراف" [رواه مسلم].

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون). قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: (أوفوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم) [متفق عليه].

النصيحة خير رابط بين أئمة المسلمين وعامتهم

في صحيح مسلم عن تميم بن أوس الداري -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (الدين النصيحة). قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: (للّه وكتابه ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم).

قال أهل العلم عن هذا الحديث: إنه أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، وفيه أن النصيحة لها معانٍ كثيرة تجمع الدين كله، وأما النصيحة لأئمة المسلمين فهي تشمل توقيرهم والدعاء لهم وصفاء القلب تجاههم وعدم غشهم بأن يكون ظاهره وباطنه لهم سواء، وطاعتهم في المعروف في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة عليه، وأن يلزم جماعتهم ويصبر عليهم، فعن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (من رأى من أميره شيئا فكرهه فليصبر؛ فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت إلا مات ميتة جاهلية) [رواه البخاري]، ورواه مسلم بلفظ: (من كره من أميره شيئا، فليصبر عليه، فإنه ليس أحد من الناس خرج من السلطان شبرا، فمات عليه، إلا مات ميتة جاهلية).

ومن النصح لولاة الأمور الجهاد تحت رايتهم، ودفع الصدقات لعمالهم الذين يقبضونها، وإذا رأى خللاً سده ونصح لهم برفق، وأن يدعو الناس إلى طاعتهم، وعدم الخروج عليهم إذا رأى أثرة عليه أو رأى منكراً، وإنما يجتنب المنكر وينهى عنه، ولا يجوز له الخروج عليهم، إلا إذا رأى منهم كفراً بواحاً، عنده فيه من الله برهان.

ومن أئمة المسلمين أهل العلم، فينصح لهم بقبول توجيههم وإرشادهم المؤيد بالدليل الشرعي، وأن ينصحهم إن وجد منهم خللاً، وأن يضعهم في مكانهم اللائق بهم دون إفراط فيقبل كلامهم دون دليل، ولا تفريط بترك احترامهم أو ترك طاعتهم في ما يدلونه عليه من الحق.

وأما النصيحة لعامة المسلمين فتشمل ناحيتين: النصيحة بين عامة المسلمين بعضهم لبعض، والثانية: النصيحة من ولاة الأمر لعامة المسلمين، بأن يسعوا في صلاح دينهم ودنياهم، بتصحيح عقائدهم وعباداتهم وأخلاقهم، وأن يقيموا لهم المحاكم الشرعية ويجتهدوا في إصلاح ذات بينهم، وأن يرفقوا بهم ويأخذوا الزكاة من أغنيائهم فيضعوها في مصارفها الشرعية، وأن يُعِدّوا الرعية ويقودوهم للجهاد في سبيل الله؛ جهادِ الدفع وجهاد الطلب، لحماية المسلمين وديارهم وأعراضهم وأموالهم، ولفتح بلاد الكفار لإخضاعها لشريعة الله، وكف شرهم عن الإسلام والمسلمين.

اللهم وفق ولاة أمرنا لما تحبه وترضاه، وأعزهم بالإسلام وأعز الإسلام بهم، وثبتنا وإياهم على دينك وانصرنا على القوم الكافرين، وصلى الله وسلم على نبيه محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

منزلة الإمامة من الدين

الحمد لله الذي يحب من عباده أن يدعوه قائلين: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الفرقان: ٧٤]، والصلاة والسلام على رسوله إمام المتقين، الذي جمع الله له بين إمامة الناس بأن يحكمهم بما أنزل الله وبين أن يكون إمامهم الذي يُقتدى به في الدين، ثم جعل خلفاءه الراشدين على منهاجه وسيرته، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد..

فقد روى الإمام أحمد والحاكم وابن حبان في صحيحه من حديث أبي أمامة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة، تشبث الناس بالتي تليها، فأولهن نقضاً الحكم، وآخرهن الصلاة).

فالإمامة العظمى الشرعية من عرى الإسلام، وانتقاض أمر الحكم بما أنزل الله هو نقصان يلحق أهل الإسلام في دينهم ودنياهم، فكم من شُعَب للإسلام والإيمان لا تتحقق إلا بهذه العروة من الإسلام، ومهمة الحكم بما أنزل الله إنما يضطلع بها الحاكم وأهل العلم الشرعي الذين يعينونه وينصحون له، قال تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ} [المائدة: ٤٤]، فبيَّن -تعالى- أن من كلفهم بالحكم بما أنزل هم النبيون (وهم الذين كانوا يسوسون بني إسرائيل)، كما قال عليه الصلاة والسلام: (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبيٌّ خلفه نبيٌّ، وإنه لا نبيَّ بعدي، وستكون خلفاء فتكثر، قالوا: فما تأمرنا، قال: فوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم) [رواه مسلم]، فالخلفاء يقومون مقام الأنبياء في حكم الناس بما أنزل الله، والعلماء الربانيون عون لهم في ذلك.

الخلافة الراشدة ترث منهاج النبوة

إن من أهم مهام الخلافة في هذا الزمان، تجديد الدين، وإقامته على منهاج النبوة، كما وعد نبينا -عليه الصلاة والسلام- بقوله: (تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضا، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبرية، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج نبوة) [رواه أحمد]، فالخلافة المطلوبة هي التي تكون على منهاج النبوة، وهي التي تتحقق فيها صفة الرشد، التي وُصِفت بها خلافة الرعيل الأول من صحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

وإن اتصاف الخلافة بالرشد إنما حصل ويحصل -بإذن الله- باتباع الخلفاء لكتاب الله واقتفائهم هدي نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- في جميع الأمور والأحوال.

وللرشد معانٍ في كتاب الله تعالى، من أعظمها ما أخبر -تعالى- عنه من فضله وهدايته لعباده الذين يحبهم: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} [الحجرات: ٧]، فالتزام أركان الإيمان وخصاله وشعبه ومحبة ذلك والتمسك به، والابتعاد عن كل ما يخالفه من كفر أو فسوق أو عصيان، كل ذلك من الرشد، وأعظم داعٍ إلى الرشد هو كتاب ربنا عز وجل، كما أخبر -تعالى- عن قول الجن: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ} [الجن: ١ - ٢]، وأخبر -تعالى- أنه آتى نبيه وخليله إبراهيم الرشد، فدعا الناس إلى توحيد الله وجادلهم مبيناً لهم ضلالهم، وصبر على أذاهم وتهديداتهم بل ومحاولتهم قتله حرقاً، فالتجأ إلى الله، فنجاه من النار وجعلها عليه برداً وسلاماً، وأعلن براءته من أبيه وقومه لَمَّا أصروا على الكفر، ومفارقته لهم بالهجرة عنهم، {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الصافات: ٩٩].

فالخلافة الراشدة تقيم كل شرائع الدين وتحيي السنن وتميت البدع، وتجاهد الكفار والمعاندين، لا تتبع أهواء البشر بل هي مستجيبة لأوامر الله متبعة لما يحبه مجتنبة لما يسخطه، قال تعالى: {فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: ١٨٦].

الإمامة العظمى تسعى لظهور دين الإسلام

وبالإضافة إلى أن إقامة دين الله، وسياسة الدنيا بالدين، وحماية الدين، والذود عن دار الإسلام، والدفاع عن المسلمين وحرماتهم وأموالهم، من أهم ما يقوم به خليفة المسلمين، فإن من مهامه أيضا أن يسعى لبسط سلطان الدين على كل أرض الله.

فالله -تعالى- يريد إرادة شرعية أن يعمل المسلمون ليكون دين الإسلام هو المهيمن على الأديان كلها، والمنتصر عليها، حتى تكون كلمة الله هي العليا، وتكون كلمة الذين كفروا هي السفلى، وكذلك فالله -تعالى- إرادة كونية أن يعلو دينه على كل الأديان علواً ظاهراً، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣٣].

وإظهار الله لدين الإسلام يشمل إظهاره على الأديان كلها بالحجج والبراهين، فأظهر الله أنه دين الحق، وما عداه فباطل زائف زاهق، كما يشمل إظهاره بمعنى نصره على أهل الأديان الأخرى، حتى زال سلطانهم وانهدم بنيانهم، فأزال الله بدين الإسلام وأهله المجاهدين الأولين أكبر دولتين كانتا قائمتين وقت سطوع نور النبوة، هما دولتا فارس والروم فضلاً عن ممالك الكفار المتفرقة.

والمراد أن دين الله ظهر وانتصر على الكفار حينما قامت للمسلمين دولة، أسسها وأرسى دعائمها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم خلفاؤه الراشدون من بعده، وكذلك يقوم بهذا الأمر اليوم خليفة المسلمين وجنوده بعون الله تعالى، فلا يتصور حصول نصر أو عزة للمسلمين دون قيام دولة الإسلام التي أحيت الخلافة الراشدة.

الأرض لله يورثها عباده الصالحين

ومن مهام من وُلِّيَ أمر المسلمين (وهو الخليفة أعزه الله) أن يبسط سلطان دولة الإسلام على أرض الله كلها، فالأرض أرض الله، وليس لكافر فيها حق، قال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} [الأنبياء: ١٠٥]، وقد فسر المفسرون ومنهم ابن عباس -رضي الله عنهما- (الأرض) بالجنة، وقال ابن عباس أيضاً: "أخبر -سبحانه- في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السماوات والأرض، أنه يورث أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- الأرض، ويدخلهم الجنة، وهم الصالحون"، فهما قولان صحيحان لا يتعارضان، وهذه الوراثة للأرض لا تكون إلا بالجهاد في سبيل الله الذي هو ذروة سنام الإسلام، فالكفار لا يتركون كفرهم وفتنتهم للناس عن دين الإسلام إلا بالقتال الذي يقوم به أولياء الرحمن ضد أولياء الشيطان، قال تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال: ٣٩]، وقال تعالى: {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا * الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [النساء: ٧٥ - ٧٦]، فإن لم تقم الدولة الإسلامية وجنودها بواجب القتال في سبيل الله ولإنقاذ المستضعفين من المؤمنين من براثن الكفر وأهله، فمن سيقوم بذلك؟!

إنها أمور جسام تضطلع بها دولة الخلافة قيادة وجنوداً، وإننا لموقنون بنصر الله لها قريباً، فقد أقسم الله -عز وجل- على نصر من ينصر دينه، {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٤٠]، أكد الله وعده بالنصر بالقسم الذي تدل عليه لام القسم، وأكده بـ (إن) المشددة وبلام التوكيد الداخلة على اسمين من أسماء الله الحسنى -وكلها حسنى- {لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}، فلا تكافئ قوته قوة، فهو خالق الخلق وهو الذي أعطاهم ما شاء من أسباب القوة، وهو القوي وخلقه الضعفاء، وهو الغني وخلقه الفقراء إليه، وهو العزيز الذي لا يغالَب، الذي جعل العزة للمؤمنين من عباده، والذي وعد بنصرهم وكفايتهم، قال تعالى: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عِبَادَهُ} [الزمر: ٣٦] بالجمع على قراءة حمزة والكسائي وخلف العاشر وأبي جعفر.

نسأل الله أن يحفظ إمامنا خليفة المسلمين، وأن يسدد رأيه، وأن يجعل له ولجند الخلافة من لدنه سلطاناً نصيراً، وأن يثبت أقدامهم وينصرهم على القوم الكافرين.

اغتنم فراغك قبل شُغلِك

الفراغ نعمة غُبن فيها كثير من أصحابها، الذين كفاهم الله مُؤنة العيش والسعي وراء الرزق، فلم يستفيدوا منه ولم يغتنموه، بل أضاعوه في لهو ولعب، حتى جاءهم الموت وهم ساهون لاهون عن مُراد الله منهم، يتنعَّمون بفضله الذي سيُسألون عنه، وقال الله –تعالى– فيه: {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} [التكاثر: ٨].

نعم سيُسألون، لأن الله –تعالى– ما خلَق الخلْقَ ليتنعَّموا بالنعيم الزائل بل خلقهم ليعبدوه، وهو غني عنهم وعن عبادتهم، وهو بفضله ورحمته أعدَّ للطائعين منهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، يعوِّضهم فيها بالنعيم الدائم عن إشغال أوقاتهم بطاعته، ونعم العِوض جنةُ المأوى.

وأما من مال عن الآخرة إلى دنياه الفانية وعيشِه الزائل، فحاله بعد الموت كما قال الله سبحانه: {رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ} [المؤمنون: ٩٩ – ١٠٠]، فهل يعتبر المرء فيشغل نفسه بطاعة الله ومرضاته ما دامت روحه بين جنبيه؟ قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة) [رواه الشيخان]. تأمَّل قوله –صلى الله عليه وسلم– ونفيَه أن يكون نعيم الدنيا عيشاً حقيقياً يستحق عناء الطالبين له، لأن العيش الحقيقي هو عيش الآخرة في جنة الله الكريم.

يا ليتني قدمت لحياتي

لقد أضاع كثير من الناس الميزان بين أعمال الدنيا وأعمال الآخرة فلم يوفِّقوا بينهما، فمبلغ همِّ كثير منهم جمعُ الثروات والإسراف في المباحات، فتراه في غنًى وكفاية من العيش ولكنه فقير من الأعمال للفوز بجنة الله ورضوانه، فأنعم الله عليه بنعمة الفراغ ولكنه أشغل فراغه بدنياه، وهو ليس محتاجاً إليها فهذا هو المغبون حقاً، كما جاء عن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ) [رواه البخاري].

فيا صاحب الغِنى والفراغ، اللاهي بدنياه إنك من المحرومين، لأنك لم تُقدِّر قيمة الأوقات الفائتة من عمرك كما عرفها أصحاب الهمم العالية الذين لا يجدون فراغاً لإتمام أعمالهم وجهادهم، وإنك يا صاحب الفراغ صائر إلى أمر عظيم قد غاب عنك وغفلت عنه، اللحظة التي تقول فيها: {يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي} [الفجر: ٢٤]، قال الإمام الطبري، رحمه الله: "يقول –تعالى ذكره– مخبراً عن تلهُّف ابن آدم يوم القيامة، وتندّمه على تفريطه في الصَّالِحات من الأعمال في الدنيا التي تورثه بقاء الأبد في نعيم لا انقطاع له، يا ليتني قدَّمت لحياتي في الدنيا من صالح الأعمال لحياتي هذه، التي لا موت بعدها، ما ينجيني من غضب الله، ويوجب لي رضوانه" [جامع البيان].

نعم هناك من الناس من أنعم الله عليه فكفاه مؤنة العيش ولكنه سادرٌ في غيِّه لاهٍ عن أوامر ربه، لم يشغل فراغه في معرفة دينه وماذا أراد الله منه، بل أشغله في المحرمات، أو كثرة المباحات، فأعدَّ أيها التائه اللاهي أجوبة كثيرة لأسئلة كثيرة، فإنك –والله– ما خُلقت عبثاً ولن تترك سدى وستسأل عن فراغك بماذا قضيته.

كلما ذهب منك يوم ذهب بعضك

وهناك من كبر سنه وانحنى ظهره ولديه من يعينه على أمر دنياه من مال أو ولد، وقد أنعم الله عليه مع تلك النعم بالفراغ، لكنه لا يعرف كيف يقضيه، فإلى من هذه حاله تفكَّر ملياً في تلك السنين التي قضيتها ولم يكن لك فيها حظ من الآخرة، تفكر كم أنت قريب من لقاء ربك، أما آن الأوان لك لتحرِّض أبناءك وأحفادك على البذل لدين الله ونصرته، أما آن الأوان لتقضي فراغك خالياً بالله بالدعاء لنفسك وللمسلمين المستضعفين ولعباد الله المجاهدين، أما آن أوان الانقطاع إلى الله والتقرب إليه بكل أنواع القُرب.

فإن كثيراً من الناس بلغوا من الكبر عتياً ثم تراهم يعيشون بعقل التائهين من الشباب الذين لا يفكرون بالموت وساعة السؤال والحساب، وهذا –والله– هو طول الأمل والهلكة بعينها، فأين أنت من قوله تعالى: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} [ق: ١٩]؟ قال الإمام البغوي: "وجاءت سكرةُ الموت: غمرتُه وشدتُه التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله، بالحق: أي بحقيقة الموت، وقيل: بالحق من أمر الآخرة حتى يتبيَّنه الإنسان ويراه بالعيان. وقيل: بما يؤول إليه أمر الإنسان من السعادة والشقاوة. ويقال: لمن جاءته سكرة الموت، ذلك ما كنت منه تحيد: تميل، قال الحسن: تهرب. قال ابن عباس: تكره" [معالم التنزيل في تفسير القرآن].

فاغتنم فراغك قبل أن تصير في قبرك، واغتنم صباحك فلربما لا تدرك مساءك، عن الحسن قال: "ابنَ آدم، إنما أنت أيام وكلما ذهب يوم ذهب بعضك" [الزهد لأحمد بن حنبل]، واقتد بأولئك الشيب الذين قدموا أشلاءهم في سبيل الله وسابقوا الشباب على الجنة لا على الدنيا.

اغتنم ساعات فراغك

إن هنالك صِنفاً من الأبرار كفاه الله –تعالى– مؤنة العيش فكان رزقه تحت ظل رمحه، فهو يستعمله في تنغيص عيش الكافرين ونصرة دين رب العالمين، ومن هؤلاء الموفَّقين أيضا من اكتفى في رباطه بأداء نوبة الحراسة في ساعات قليلة ثم يعود إلى فراغه الطويل، وتلك الأوقات هي نعمة للمجاهد قد لا يدركها، فلو استغلها بذكر الله وقراءة القرآن والدعاء أو المحافظة على النوافل أو ساعة تذكرة لإخوانه فيحرِّض بعضهم بعضاً، لكان في ذلك منفعة عظيمة وثبات عند لقاء الكفار ورفعة في الدرجات وزيادة في الحسنات.

فاعلم أيها المجاهد أن فراغك نعمة من الله فاغتنمها لئلا تكون من المغبونين، واجعلها ذخراً لك عند الله تعالى، فإن الله أعد للمجاهدين في الجنة مئة درجة، فدرجة المجاهد الذي يذكر الله –تعالى– ويتطوع في الصلاة ويقرأ القرآن ويجتهد في الحراسة والرباط والقتال ليست كدرجة المجاهد المرابط الذي لا يذكر الله إلا قليلاً، ويؤدي نوبة حراسته ثم يعود إلى فراغه الطويل.

فعلى المجاهدين المرابطين الصادقين أن يجتهدوا في فراغهم لنيل أعلى الدرجات ويعلموا أن ما بين الدرجة والدرجة في الجنة كما بين السماء والأرض، وأن نعيم المنازل العلى أفضل وأكمل مما دونها، فلا يزهد المرابط في التزوُّد من العمل الصالح مع عظيم عمله الذي أخبر عنه النبي، صلى الله عليه وسلم: (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه، وأمن الفتَّان) [رواه مسلم]، فأي فضل عظيم للمرابط الذي يُقتل فيجرى له عمله الذي شغل فراغه به؟ فعليك بقراءة القرآن وقيام الليل وغير ذلك من العبادات، واحرص على طلب العلم والتفقه في الدين وحفظ كتاب الله جل وعلا، فالفراغ الذي تعيشه ما بين نوبات الحراسة يغبطك عليه كثير من الصالحين.

إن في خلق السماوات والأرض لآيات



نكدح في حياة أوجدها الله لأمر عظيم، وخلق السماوات والأرض وسخر الشجر والدواب من أجله، ألا وهو الإيمان بالخالق وتوحيده، وتعظيمه حق تعظيمه.

وقد أنزل الله القرآن هدى للناس يبيِّن لهم طريق السلامة، الذي يُسلِّمهم من النار ويُسلِمهم لجنة فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذّ الأعين.

وإن من يقرأ القرآن يطوف بفكره آفاق السماء وجنبات الأرض، ويقف على النبات والزروع والدواب، ويسمو بنظره فيرى النجوم، يتأمل لينظر إلى عِظم الخالق وحسن صنعه، ويعرف بعد كل ذلك أنه –سبحانه– يستحق أن نَذل له ونعظِّمه ونتبع شرعه، يستحق أن نعبده بكل جوارحنا، وفي كل أوقاتنا، وفي كل حركاتنا وسكناتنا، ولا نلتفت لمن يصرف العبادة لغيره من الأصنام والقبور والقوانين، وغيرها من الطواغيت، ونأنف أن نلتجئ لغني أو نخاف من جبار أو ننكسر لعبد.

ومنهج القرآن في التفكُّر لا شك أنه منهج عظيم، إذ غايته الوصول إلى تعظيم الله، ونظير ذلك أنك لو وقفت على آلة معقدة أُحسن صنعُها وترتيبها، وجُوِّدت مداخلها ومخارجها، أو بناء عظيم فيه من الإتقان والتفاصيل المثيرة شيء كثير، لعجبت من ذلك وعرفت به مقام صانعه، والله أجلّ وأعظم وله المثل الأعلى.

أمرنا الله بالنظر في خلقه وشكره على أنعمه

والحديث عن الكون وآياته مثير طويل مشوق، يستفز المشاعر ويصوِّب الفكر، والنظر فيه من الذكرى التي تنفع المؤمنين، وهم مأمورون به، كما قال تعالى: {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [يونس: ١٠١]، وقال {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ} [الطارق: ٥]، وقال: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ} [عبس: ٢٤]، فنريد أن نستعرض بشكل مختصر بعض هذه الآيات، تِبيانا للجاهل وتذكيرا للغافل وإيقاظا للمتجاهل، عسى الله أن يشرح صدورنا لذلك.

قال تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ} [عبس: ٢٤]، كيف أوجدناه، وأنزلنا المطر لإنباته، وشققنا الأرض لاحتوائه، ثم يسرنا قطفه واستخلاصه، {أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} [عبس: ٢٥ – ٣١]، ولم نجعله نوعا واحدا بل أنواعا مختلفة لكلٍّ فيها ما يشتهيه، فكانت: {مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} [عبس: ٣٢] وذكر الله قبل هذه الآيات أن الإنسان كفور لا يعظِّم من أنعم عليه: {قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ} [عبس: ١٧ – ١٩] فهو خُلق من نطفة فقدَّره وسوَّاه بشرا سويا، وأتقن قواه الظاهرة والباطنة، كما ذكر مبدأ ابن آدم وأنه {لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا} [الإنسان: ١].

عن بُسر بن جِحاش القرشي أن النبي –صلى الله عليه وسلم– بزق يوما في كفه، فوضع عليها أصبعه، ثم قال: (قال الله: ابن آدم! أنى تعجزني، وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين، وللأرض منك وئيد، فجمعتَ ومنعتَ، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتَصَدَّقُ! وأنى أوان الصدقة؟!) [رواه أحمد].

ثم أتم الله –تعالى– القول: {ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ * كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ} [عبس: ٢٠ – ٢٣]، فالله –سبحانه– هو المدبّر الذي يدبر الأمور بحكمته، فهو الرب القادر على التدبير لا رب سواه، ولا يقدر أحد أن يقوم بأفعال الربوبية من الخلق والرزق والتدبير ومع هذه القدرة والتدبير التي تدل على عظمة الخالق فإن الإنسان لا يمتثل أوامر الله ونواهيه ولا يقوم بما فرضه الله عليه.

فهذه الفواكه المتنوعة من تمر وعنب وزيتون وتفاح وغيرها كثير، نعمةٌ من نعمٍ ومظهرٌ من مظاهرَ كثيرة لتنظيم الله هذا الخلق الهائل وترتيبه وجعل بعضه يخدم بعضا، وليست هذه النعم مجرد شهوات نشتهيها ومُتع نتمتع بها، بل الأمر أعظم يا عبد الله، فكن ممن ينظر ويعتبر، ولا تكن غافلا عن آيات الله فتكون من الخاسرين الخائبين الكافرين لأنعمه سبحانه، وامش بين الناس بعينٍ بصيرةٍ لا بعينٍ غافلةٍ، فالبصيرة بأن تنظر من حولك، كيف قدَّر الله لنا هذه النباتات نقتات منها، وأنها لم تأتِ عبثا، بل سخر الله الغيث وسخر لنا الأرض ومياهها، ويسَّر لنا حفرَها وتوثيق بنيانها، وإخراج الماء من بطن الأرض لنسقي به هذا الذي نأكله؟!

ليس هذا فحسب، بل يسر لنا تقطيعه بالأسنان ثم بالمعدة ثم عصره في الأمعاء، لنستخرج منه ما يقوينا، وما يداوينا، ثم لم يحبس ما فضل منها داخل أجسامنا، بل يسَّر إخراجه، كل ذلك بتقدير العليم الخبير.

إن نظرت لهذه المألوفات نظر بصيرة أورثك ذلك تعظيم المُقدِّر، ثم أورثك شكره بالقلب واللسان والجوارح. وإن نظرت إليها نظر غافل، لم ترع لله حقا، وكنت كالجاحد الذي جحد نعمة من ينعِم عليه، أرأيت لو أن ولدا عق أباه بعد أن سعى في تربيته وتنعيمه بقدر ما يستطيع، ألا يعدُّه الناس خسيس الطبع؟ فكذا من لا يشكر الله على نعمه، ولله المثل الأعلى.

تسخير الله للكون إصلاحا لحياة بني آدم

خلق الله الكون وسخره لبني آدم وقدره لتصلُح به حياتهم: {قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} [الملك: ٢٣].

وإذا تلونا مطلع سورة الزخرف تبين لنا عظم تقصير بني آدم في حق الله عز وجل، قال –تعالى– إخبارا عن سنَّته مع بني آدم في تذكيرهم بحقه عليهم في عبادته: {وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ} [الزخرف: ٦]، ويكون حال بني آدم مع هؤلاء الرسل: {وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الزخرف: ٧]، ثم يذكر –تعالى– أن الرسول لو سأل هؤلاء المشركين: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ} [الزخرف: ٩]، فإذا كانوا معترفين بأفعال الربوبية لله –سبحانه– كالخلق والرزق والتدبير والإحياء والإماتة فمن العجب من هؤلاء أن يشركوا به من لا يخلق ولا يدبر الأمر من رزق وغيره ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا!

ثم ذكر الله نعمه على عباده: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا} [الزخرف: ١٠]، أي صالحة للعيش وذلَّلها لندرك منها كل ما تعلقت به حاجاتنا من غرس وبناء وحرث، {وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الزخرف: ١٠]، أي جعل منافذ بين سلاسل الجبال المتصلة نعبر إلى ما وراءها من الأقطار النائية والبلدان الشاسعة.

ثم واصل ذكر بعض النعم: {وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا} [الزخرف: ١١]؛ أنزل الماء بقدر الحاجة لا يزيد فيفسِد ولا ينقص فتُجدب، فتغاث به الأرض ويخرج به النبات وتحيا البلاد وتنشر من الموت، ثم ذكَّرنا أن حالنا في الآخرة كحال هذه الأرض بعد نزول الغيث: {كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} [الزخرف: ١١].

وقال بعد ذلك: {وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ} [الزخرف: ١٢ – ١٤].

والمراد بيانه من كل هذه الآيات أن الرب –سبحانه وتعالى– الموصوف بإفاضة النعم على خلقه هو المستحق للعبادة وأن الشرك من أعظم الظلم في حقه، فقال الله مستنكرا على بني آدم بعد ذكر هذه النعم: {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ} [الزخرف: ١٥]، وقال تعالى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: ١٣] فلا تكن يا عبد الله ممن وصف الله حالهم مع كثرة نعمه عليهم، فتدبر آيات الله حتى تكون من الشاكرين.



حكم الشريعة لا حكم الجاهلية

الحمد لله الذي أنقذنا من حكم الطواغيت، وأنعم علينا بحكم الشريعة، وأعاد لنا الخلافة، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله الذي محا بحوافر خيله حكم الجاهلية، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد...

فقد تكلمنا في مقالة سابقا عن الإمامة العظمى ومنزلتها من الدين، ونتناول في هذه المقالة جانب تحكيم الشريعة التي يضطلع بها الخليفة وأعوانه وفقهم الله، ويعمل للحفاظ عليها كل جندي من جنود دولة الإسلام، ويبذل في سبيل إعلائها النفس والنفيس.

لقد بعث الله رسوله -صلى الله عليه وسلم- بالدعوة إلى توحيد الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وإن كان أهل الجاهلية قد أقروا بتوحيد الربوبية في الجملة، إلا أنهم ناقضوا ذلك الإقرار بوقوعهم في أنواع الشرك المناقضة لأنواع التوحيد الثلاثة (الربوبية والألوهية والأسماء والصفات).

وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون

أخبر الله -تعالى- أن الكفار إذا سُئلوا: لمن الأرض ومن فيها؟ يجيبون: لله، وإذا سئلوا: من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم؟ يجيبون: لله، وإن سئلوا: من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه؟ يقولون: لله. ومع ذلك لا يتذكرون ولا يتقون الله ولا يخافون عذابه! فمع إقرارهم بأن الله -تعالى- هو مالك الملك الخالق المدبر الرزاق المحيي المميت، إلا أنهم يشركون مع الله غيره، وهم يقرون بأن كل ما سوى الله فهو مخلوق، فعن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: "كان المشركون يقولون: لَبَّيْكَ لا شريك لك، فيقول رسولُ الله، صلى الله عليه وسلم: ويلكم قَدْ قَدْ (أي يكفيكم يكفيكم)، فيقولون: إلا شَرِيكاً هو لك، تَملكُهُ وما مَلَكَ، يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت" [رواه مسلم].

ومع أن المشركين كانوا في الضراء يلجؤون إلى الله وحده، إلا أنهم في السراء يعودون إلى ما اعتادوه من الشرك بالله، قال الله تعالى: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} [العنكبوت: ٦٥]، لقد أشركوا بعبادة الله غيره، فدعوا معه من لا يضر ولا ينفع، وتوجهوا بأنواع العبادات إلى الطواغيت، وتحاكموا إليها، وافتروا على الله كذباً بقولهم: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [الزمر: ٣].

وقد أرسل الله -تعالى- رسله وأنبياءه داعين إلى الإيمان بالله وإفراده بالعبادة، والكفر بالطواغيت كلها، فلا يصح إيمان أحد من الإنس أو الجن إلا بأن يجمعوا بين الأمرين: الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [النحل: ٣٦]، فكل من أبى إفراده بالعبادة، أو أبى اجتناب الطواغيت والكفر بها فهو ضال مكذب لرسل الله، مستحق لعقوبات الله التي يجازي بها الكافرين.

بيَّن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- أن الله لا يقبل من عباده إلا الإسلام الصافي والتوحيد الخالص، فأخبروا الناس أنهم ما بُعثوا إلا ليُعبد الله وحده، كما قال تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥]، وأخبروهم أن الله تعالى {لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: ٤٨]، وحين عرض الكفار على النبي -عليه الصلاة والسلام- أن يعبدوا الله سنة ويعبد هو آلهتهم سنة، أنزل الله -تعالى- سورة الكافرون الفاصلة بين الإيمان وأهله وبين الشرك وأهله؛ {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون].

توحيد الله في التشريع والحكم

بيَّن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- لأقوامهم ما يحبه الله ويرضاه من التوحيد والإيمان والأعمال الصالحة، وحذروهم مما يناقض ذلك من أنواع الكفر والشرك والفسوق والعصيان، ومما أوضحوه غاية الإيضاح قضية أن الحكم لله تعالى، فكما أن الله -تعالى- قد انفرد بالخلق فهو المنفرد بالأمر {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ٥٤]، ونزلت ثلاث آيات مكِّيات تنص على أنه {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} [الأنعام: ٥٧ / يوسف: ٤٠، ٦٧]، ومع أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان هو وأصحابه مستضعفين بمكة إلا أن الله -تعالى- أمره أن يجهر بأن هذا الدين العظيم جاء من عند الله ليحكم حياة الناس بكل تفاصيلها ولا يدعها لأهوائهم، فالتشريع حق خالص لله تعالى، وكما أنه لا شريك له في عبادته، فكذلك لا شريك له في حكمه، قال تعالى في العبادة:{ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: ١١٠]، وقال في الحكم: {وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} [الكهف: ٢٦]، وفيها قراءتان متواترتان؛ {وَلَا يُشْرِكُ} بضم الكاف، إذ يخبر الله -تعالى- أنه لا يشركُ في حكمه أحداً من خلقه، والثانية {وَلَا يُشْرِكْ} ناهيا عن جعل الخلق له شريكاً في الحكم، وقال -تعالى- في سورة الجاثية: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الجاثية: ١٨]، وبعض العلماء يسمونها سورة الشريعة لأن هذه الآية ذكرت فيها.

توحيد الحكم والتشريع يدخل في أنواع التوحيد الثلاثة

أولا: دخوله في توحيد الربوبية: فالله -تعالى- هو الذي له الأمر، وهو الذي له حق الحكم والتشريع، فهذه من أفعال الله تعالى (وبينها عموم وخصوص) وهي من إفراده بالربوبية، قال تعالى: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ٥٤]، تبارك أي كثر خيره وبره، فسبحانه من إله خالق قادر، يأمر بفعل الخيرات وترك الشرور الموبقات.

ثانياً: دخوله في توحيد الأسماء والصفات: فالله تعالى (هو الحَكَم وإليه الحُكْم) كما ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما رواه النسائي وأبو داود في السنن.

وانظر إلى هذه الآية الكريمة: {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا} [الأنعام: ١١٤] كيف دلت على دخول الحكم بما أنزل الله في أنواع التوحيد الثلاثة، فالله -تعالى- هو الحَكَم بمعنى الحاكم وبمعنى الحكيم، فالحَكَم من أسمائه، والحُكْم من صفاته وأفعاله {إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ} [المائدة: ١]، وفي الآية استفهام إنكاري {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا}؟! فمن عرف عظمة الله وأسماءه الحسنى وصفاته العلى كيف يبتغي حكماً غير الله؟

ثالثاً: دخوله في توحيد الألوهية: فالتحاكم إلى شريعة الله عبادة تصرف لله وحده، والتحاكم إلى غيرها شرك أكبر، ومن تحاكم إلى غير شريعة الله فقد تحاكم إلى الطاغوت وآمن به والعياذ بالله، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء: ٦٠]، وإذا كان الإنسان لا يدخل الإسلام إلا إذا آمن بالله وكفر بالطاغوت فلا شك أن الذين يتحاكمون إلى الحاكم بغير الشريعة هم مؤمنون بالطاغوت بتحاكمهم إليه، ومن آمن بالطاغوت فليس بمسلم، نسأل الله الثبات على دينه.

إما حكم الله وإما حكم الجاهلية

ليس بعد حكم الله الحكيم الخبير إلا أحكام الجاهلية الظالمة المظلمة، ومهما سمى البشر أحكامهم وقوانينهم فهي أحكام جاهلية تلعب بها أهواء الكفار، فلا يستقر لأهلها قرار، ولا يصلون بها إلى فلاح ديني ولا دنيوي. ولكن مَن الذي يعلم أن حكم الله هو أحسن الأحكام؟ إنه المؤمن الموقن{ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة: ٥٠].

نسأل الله -تعالى- أن ينصر دولة الخلافة ويثبت ولاة أمورها وجنودها، وأن يكف بأس الذين كفروا، والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً.

أدلة وجوب إقامة الإمامة العظمى

الحمد لله الذي يخلق ما يشاء ويختار، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى المختار، وعلى آله وصحبه الأخيار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم القرار، أما بعد...

فقد تحدثنا في المقالات الماضية عن أهمية الإمامة العظمى لقيادة المسلمين وإصلاح دينهم ودنياهم، وفي هذه المقالة نتناول -إن شاء الله- الأدلة الشرعية الموجبة لإقامة الإمامة العظمى والخلافة الراشدة، المتمسكة بهدي النبي -صلى الله عليه وسلم- في سياسة أمة الإسلام.

أولاً: الأدلة من القرآن الكريم

❋ قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ} [النساء: ٥٩]. أخرج الطبري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنه قال: "[أولو الأمر] هم الأمراء"، ثم قال الطبري: أَوْلَى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: "هم الأمراء والولاة فيما كان لله طاعة وللمسلمين مصلحة"، وقال ابن كثير: "الظاهر -والله أعلم- أن الآية عامة في جميع أولي الأمر من الأمراء والعلماء".

ووجه الاستدلال بهذه الآية هو أن الله -سبحانه- أوجب على المسلمين طاعة أولي الأمر منهم وهم الأئمة، والأمر بالطاعة دليل على وجوب نصب ولي الأمر، لأن الله -تعالى- لا يأمر بطاعة من لا وجود له، ولا يفرض طاعة من يُندَب وجوده، فالأمر بطاعته يقتضي الأمر بإيجاده، فدل على أن تنصيب إمام للمسلمين واجب عليهم.

❋ ومن الأدلة أيضاً قول الله -تعالى- مخاطباً الرسول، صلى الله عليه وسلم: {فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ} [المائدة: ٤٨]، وقوله -تعالى- في الآية التي تليها: {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ} [المائدة: ٤٩].

فهذا الأمر من الله -تعالى- لرسوله -صلى الله عليه وسلم- بأن يحكم بين المسلمين بما أنزل الله أي بشرعه، والخطاب للرسول -صلى الله عليه وسلم- خطاب لأمته ما لم يرد دليل على التخصيص، كما هو الحال هنا، فيكون خطابا للمسلمين جميعا بإقامة الحكم بما أنزل الله إلى يوم القيامة، ولا تكون إقامة الحكم والسلطان إلا بإقامة الإمامة، لأن ذلك من أعمالها ولا يمكن القيام به على الوجه الأكمل إلا عن طريقها، فتكون جميع الآيات الآمرة بالحكم بما أنزل الله دالة على وجوب نصب إمام يتولى ذلك.

❋ ومن الأدلة كذلك قول الله، تبارك وتعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحديد: ٢٥].

فمهمة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- أن يقيموا العدل بين الناس وفقا لما أنزل في الكتاب، وأن ينصروا ذلك بالقوة، وهذا لا يحصل لأتباع الرسل إلا بتنصيب إمام يقيم فيهم العدل، وينظم جيوشهم الناصرة لدين الله، قال الإمام ابن تيمية، رحمه الله: "ولهذا أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- أمته بتولية ولاة أمور عليهم، وأمر ولاة الأمور أن يردوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، وأمرهم بطاعة ولاة الأمور في طاعة الله تعالى" [مجموع الفتاوى].

❋ ومن أدلة القرآن أيضا آيات الحدود والقصاص وجمع الزكاة ونحوها من الأحكام التي هي في الأصل من أعمال الإمام ثم من ينوب عن الإمام، فجميع الآيات التي نزلت بتشريع الأحكام التي تتعلق بالإمامة وشؤونها دلت على أن قيام الإمامة الشرعية وقيام الدولة الإسلامية هي من أساسيات وضروريات الشريعة الإسلامية.



ثانياً: الأدلة من السنة

أ- الأدلة من السنة القولية:

جاءت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أحاديث كثيرة تدل على وجوب نصب الإمام، ومنها:

١) ما رواه عبدُ الله بنُ عمرَ -رضي الله عنهما- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (من خلع يداً من طاعةٍ لقي الله يوم القيامة ولا حُجَّة له، ومن مات وليس في عُنقه بيعةٌ مات مِيتَة جاهليَّة) [صحيح مسلم]، أي: طاعة الإمام والبيعة له، وهذا بيِّن الدلالة على وجوب نصب الإمام والسمع والطاعة له، لأنه إذا كانت البيعة واجبة في عنق المسلم، والبيعة لا تكون إلا لإمام، فنصب الإمام واجب، وكذلك الاستمرار في طاعته وعدم الخروج عليه وعدم نزع اليد من طاعته.

٢) ومنها أيضا الحديث المشهور في السنن عن العرباض بن سارية عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (إنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة) [رواه أبو داود والترمذي].

وقد تواتر عن الصحابة -رضوان الله عليهم- أنهم بايعوا أبا بكر -رضي الله عنه- بالخلافة بعد لحاق النبي -صلى الله عليه وسلم- بالرفيق الأعلى، ثم استخلف أبو بكر عمرَ، رضي الله عنهما، ثم جعل عُمَرُ أمر الخلافة في ستة هم خيار الصحابة فاختاروا من بينهم عثمانَ، رضي الله عنهم أجمعين، ثم بعد استشهاده بايعوا عليا -رضي الله عنه- بالخلافة، فهذه سنتهم -رضي الله عنهم- في الخلافة، وعدم التهاون في إقامتها، فوجب الاقتداء بهم في ذلك كما أمر النبي، صلى الله عليه وسلم.

وكذلك الأحاديث الدالة على وجوب طاعة الحكام فيما لا معصية فيه، وأحاديث البيعة والأمر بالوفاء بها للأول فالأول، وحرمة الخروج على أئمة المسلمين، والحث على ضرب عنق من جاء ينازع الإمام الحق،كل هذه الأحاديث تقتضي وجود الإمام المسلم، فدلّ ذلك على وجوب تنصيبه، بل وأنه لا صلاح لحياة المسلمين إلا بإمام شرعي لهم.

ب- سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- الفعلية في إقامة الإمامة العظمى:

منذ بعث الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- وآمن به من علم اللهُ فيهم الخير العظيم، كان صحبه الكرام يأتمرون بأمره ويطيعونه ليس في العبادات فحسب، بل كان هو مرجعهم في تنظيم أمور الدعوة والتعامل مع الكفار، وكل ما يستجد من أمور كالهجرة إلى الحبشة ثم المدينة، وكون مكة لم تكن دار تمكين فلم يكن معنى ذلك أن يعيش المسلمون بلا إمارة تدير ما استطاعت من أمور حياتهم، فقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- للمسلمين إماماً معلماً وأباً شفيقاً.

ولما هيأ الله -تعالى- لنبيه -صلى الله عليه وسلم- من ينصرون دينه من أهل المدينة ويمنعونه كما يمنعون أهليهم وأبناءهم، وبايعوه على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وكان للأنصار قوة ومنعة في دارهم، حينذاك هاجر إليهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، وقام حكم النبي -صلى الله عليه وسلم- للمسلمين ودارهم على ساقه، واكتمل بناء دار الإسلام بالنبي الإمام -صلى الله عليه وسلم- والصحابة الأبرار.

وبالإضافة إلى أدلة الكتاب والسنة، فإن إجماع الصحابة -رضوان الله عليهم- على نصب الإمام، وحرصهم على ذلك وتقديمه على واجب دفن النبي -عليه الصلاة والسلام- بعد موته، واستمرارهم على هذا الإجماع، بنصبهم للإمام تلو الإمام، هو دليل أيضا على هذا الواجب المتعين على المسلمين.

ووجوب الإمامة شرعا من أكثر الأمور التي اتفق عليها علماء أهل السنة عبر العصور، ولم يخالف فيها إلا أهل البدع والضلال، الذين لا يعتد بمخالفتهم، والحمد لله رب العالمين.

سياحة الجهاد

روى أبو داود في سُننه عن أبي أمامة الباهلي -رضي الله عنه- أن رجلا قال: «يا رسول الله، ائذن لي بالسياحة»؛ فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: (إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله)؛ سكت عنه أبو داود، ورواه الحاكم في مستدركه وصحّح إسناده، وصحّحه عبد الحق الإشبيلي والذهبي، وجوّد إسناده النووي والعراقي.

وهذا الحديث مما أخطأ بعض أهل الهجرة والجهاد في فهمه، وظنوا أن سياحة الجهاد هي ما عليه أهل العصر من «التنقل من بلد إلى بلد طلبا للتنزه أو الاستطلاع والكشف» [المعجم الوسيط المعاصر]، فإذا نظر بعد فهمه الخاطئ إلى شيء من جمال البلد المُهاجَر إليه من جبال وأنهار وشواطئ وأشجار، أو وجد شيئا من رغد العيش فيه من طعام وشراب وزينة وراحة، أشار إلى زهرة الحياة الدنيا، وقال: «صدق رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إن الجهاد سياحة الأمة!».

وهكذا أخطأ كثير من الناس في فهم الحديث والأثر، فشتّان ما بين ما هو مقصود في الحديث الشريف، وبين ما ذهبت إليه أذهان كثير من الناس.

فإن قيل، فما معنى «السياحة» المذكورة إن لم يكن سفر النزهة المتعارف عليه؟

الجواب: إنما يُفسّر غريب الحديث والأثر بلسان العرب الفصيح وبفهم السلف الصالح -لا ما اصطلح عليه المتأخرون ولا ما تعارف عليه المعاصرون- وهذا بالرجوع إلى أئمة اللغة والغريب، الذين حفظوا معاني القرآن والحديث لمن بعدهم من القرون كما حفظ القراء والمحدثون ألفاظ الوحيين، جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيرا كبيرا كثيرا.

قال ابن قتيبة، رحمه الله (المتوفى ٢٧٦ هـ) في شرح ما جاء من السياحة في الأثر: «[السياحة]: مفارقة الأمصار والذهاب في الأرض كفعل... عُبّاد بني إسرائيل... وأراد -صلى الله عليه وسلم- أن الله -جل وعز- قد وضع هذا عن المسلمين وبعثه بالحنيفية السمحة» [غريب الحديث].

وقال ابن الأنباري، رحمه الله (المتوفى ٣٢٨ هـ): «السياحة: الخروج إلى أطراف البلاد، والتفرد من الناس، بحيث لا يشهد جمعة، ولا يحضر جماعة» [الزاهر].

وقال أبو منصور الأزهري، رحمه الله (المتوفى ٣٧٠ هـ): «قال الليث: السياحة ذهاب الرجل في الأرض للعبادة والترهّب، وسياحة هذه الأمة الصيام ولزوم المساجد» [تهذيب اللغة].

فالسياحة التي لم يأذن بها النبي -صلى الله عليه وسلم- هي من الترهّب الذي لم يشرّعه أحكم الحاكمين، قال سبحانه وتعالى: {ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد: ٢٧].

عن عروة بن الزبير -رحمه الله- قال: «دخلت امرأة عثمان بن مظعون... على عائشة وهي باذَّة الهيئة فسألتها ما شأنك؟ فقالت: زوجي يقوم الليل ويصوم النهار؛ فدخل النبي -صلى الله عليه وسلم- فذكرت عائشة ذلك له، فلقي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عثمان فقال: (يا عثمان، إن الرهبانية لم تكتب علينا، أفما لك فيّ أسوة، فوالله إني أخشاكم لله، وأحفظكم لحدوده) [رواه أحمد وأبو داود وابن حبان].

وهكذا، لما استأذن بعض الصحابة -رضي الله عنهم- النبي -صلى الله عليه وسلم- في السياحة، نهاه -صلى الله عليه وسلم- عن التشبّه بالرهبان الضالين، وأرشده إلى ما شرعه الله -تعالى- منهاجا لخير أمة أخرجت للناس: الجهاد في سبيله؛ وفيه ما في سياحة الرهبانية من الزهد والعزلة والذكر والعبادة، يتقرب المجاهد إلى الله بالتزام هذه الحقائق في أسفار جهاده، وليكون بذلك من رهبان الليل فرسان النهار، وهم: {ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ} [الواقعة: ١٣-١٤].

وتشهد لقول أئمة اللغة بعضُ الأحاديث المرفوعة الضعيفة، منها: (عليك بالجهاد، فإنه رهبانية الإسلام) [رواه أحمد عن أبي سعيد الخدري]، و(لكل نبي رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله) [رواه أحمد عن أنس]، و(عليك بالجهاد فإنه رهبانية أمّتي) [رواه ابن حبّان عن أبي ذر].

ومنها: رواية لحديث عثمان بن مظعون، أنه أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: «ائذن لنا بالاختصاء»؛ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (ليس منا من خصى، ولا اختصى، إنّ إخصاء أمتي الصيام)؛ فقال: «يا رسول الله، ائذن لنا في السياحة»؛ فقال: (إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله)؛ فقال: «يا رسول الله، ائذن لنا في الترهّب»؛ فقال: (إن ترهّب أمتي الجلوس في المساجد انتظار الصلاة) [رواه ابن المبارك في الزهد بإسناد ضعيف].

ومنها: (لا سياحة، ولا تبتّل، ولا ترهّب في الإسلام) [رواه عبد الرزاق عن طاووس مرسلا].

قال ابن قتيبة: «قوله (ولا رهبانية) يريد فعل الرهبان من مواصلة الصوم ولبس المُسوح وترك أكل اللحم وأشباه ذلك... وقوله (ولا تبتّل) يريد ترك النكاح» [غريب الحديث].

وقال ابن الأنباري: «[راهب متبتّل]: منقطع إلى الله -تبارك وتعالى- تارك للنكاح»، ثم ذكر حديث طاووس، ثم قال: «الرهبانية: لزوم الصوامع، وترك أكل اللحم» [الزاهر].

ومما يشهد لقول أئمة اللغة أيضا بعضُ الآثار الموقوفة والمقطوعة، منها: «سياحةُ هذه الأمة الصيام» [رواه الطبري عن عائشة]، و«{السَّائِحُونَ}: الصائمون»، و«{سَائِحَاتٍ}: صائمات» [رواهما الطبري عن عدد من السلف].

قال ابن قتيبة: «أصل السائح: الذاهب في الأرض... والسائح في الأرض ممتنع من الشهوات، فشُبّه الصائم به، لإمساكه في صومه عن المطعم والمشرب والنكاح» [غريب القرآن].

وقال الطبري -رحمه الله- في تفسيره: «كان بعض أهل العربية يقول: نرى أن الصائم إنما سُمي سائحا، لأن السائح لا زاد معه، وإنما يأكل حيث يجد الطعام، فكأنه أُخذ من ذلك».

ومنها: عن سفيان بن عيينة -رحمه الله- قال: «حدثنا عمرو، أنه سمع وهب بن منبه يقول: كانت السياحة في بني إسرائيل...» قال ابن عيينة: «إذا ترك الطعام والشراب والنساء فهو السائح» [رواه الطبري].

وقال المروزي، رحمه الله (المتوفى ٢٩٤ هـ): «عن إسحاق بن سويد [تابعي، توفي ١٣١ هـ]: كانوا [أي السلف الصالح] يرون السياحة صيام النهار وقيام الليل» [مختصر قيام الليل].

وبعد هذا، يظهر بلا ريب أن المقصود بـ (سياحة أمتي الجهاد)، النهي عن سياحة الرهبان المبتدعة وما فيها من ادعاء التوكّل والزهد بترك الزاد والإعراض عن النكاح -وهي عادة وَرِثَتها بعض الطرق الصوفية من كفرة أهل الكتاب- والمقصود أيضا، الإرشاد إلى ما هو خير من السياحة، الجهاد في سبيل الله، وما يترتّب عليه من الاجتهاد في العبادة وطلب لقاء الله -سبحانه وتعالى- علماً أن بعض السلف الصالح جعلوا من بدائل السياحة: الاعتكاف وقيام الليل والصيام وطلب العلم، ومنهم من جعلها الهجرة إلى الله التي قورنت بالجهاد في الوحيين، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم -رحمه الله- (المتوفى ١٨٢ هـ) في تفسير قوله سبحانه {السَّائِحُونَ} وقوله تعالى {سَائِحَاتٍ}: «ليس في القرآن ولا في أمة محمد سياحة إلا الهجرة» [رواه الطبري]، وقال: «كان سياحتهم الهجرة حين هاجروا إلى المدينة» [رواه ابن أبي حاتم].

فمن أراد أن يكون من أهل السياحة السنية السلفية، فعليه بالهجرة والجهاد، وعليه أن يجاهد نفسه في الله بالتزام الزهد والذكر في رباطه وقتاله ما استطاع، وعليه أن يهجر ما كره الله من الخطايا والذنوب الظاهرة والباطنة، ومنها: العجب والكبر والغيبة والنميمة والقتال للمغنم وللذكر.

وفي الختام، قال ابن القيم -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ...} الآية [التوبة: ١١١-١١٢]: «فُسِّرت السياحة بالصيام، وفُسِّرت بالسفر في طلب العلم، وفُسِّرت بالجهاد، وفُسِّرت بدوام الطاعة، والتحقيق فيها أنها سياحة القلب في ذكر الله، ومحبته، والإنابة إليه، والشوق إلى لقائه، ويترتّب عليها كل ما ذكر من الأفعال، ولذلك وصف الله -سبحانه- نساء النبي -صلى الله عليه وسلم- اللاتي لو طلّق أزواجه، بدله بهن بأنهن سائحات، وليست سياحتهن جهادا، ولا سفرا في طلب علم، ولا إدامة صيام، وإنما هي سياحة قلوبهن في محبة الله تعالى، وخشيته، والإنابة إليه، وذكره، وتأمل كيف جعل الله -سبحانه- التوبة والعبادة قرينتين، هذه ترك ما يكره وهذه فعل ما يحب، والحمد والسياحة قرينتين، هذا الثناء عليه بأوصاف كماله وسياحة اللسان في أفضل ذكره، وهذه سياحة القلب في حبه وذكره وإجلاله، كما جعل سبحانه العبادة والسياحة قرينتين في صفة الأزواج، فهذه عبادة البدن وهذه عبادة القلب» [حادي الأرواح].

هذا، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على الرسول النبي الصادق الأمين، وعلى أزواجه وذريته الطيبين الطاهرين.

زواج الأرملة سنّة ممتثَلة



عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (خير أمتي القرن الذين بُعثت فيهم، ثم الذين يلونهم) [متفق عليه]، قال النووي: «اتفق العلماء على أن خير القرون قرنه، صلى الله عليه وسلم، والمراد أصحابه، وقد قدمنا أن الصحيح الذي عليه الجمهور أن كل مسلم رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- ولو ساعة فهو من أصحابه».

وقد غلب على نساء ذاك القرن من الصحابيات الزواج إثر وفاة أو مقتل أزواجهن، باستثناء أمهات المؤمنين -رضي الله عنهن- اللاتي حُرِّمن على الرجال من بعد النبي -صلى الله عليه وسلم- وإن نحن تأملنا في كتب السير والتراجم والتواريخ، فقلما نجد امرأة من تيك المؤمنات الفاضلات الصالحات لم تتزوج بعد زوجها، سواء كانت صاحبة عيال أم لا، ولم نقرأ قط أن أحدا ممن حولها من النساء أو الرجال لامها على زواجها أو ثرّب عليها أو لمزها بعدم الوفاء لزوجها الأول! ومن يلمز امرأة تزوجت بعد مقتل زوجها بآخر، فليحذر من معارضة شيء شرعه الله -عز وجل- وأحلّه لعباده، فأيما امرأة يُتوفّ عنها زوجها وتتزوج ثم يُتوفّ وتتزوج ثم يُتوفّ وتتزوج، وهكذا إلى ما شاء الله، ولو مائة مرة، فيأتي من يلومها وينهاها دون مسوّغ شرعي، بل من باب أن هذا «عيب»، فيقدّم بذلك «ثقافة العيب» المستفحلة بين الناس -إلا من عصم ربنا- على الحلال الذي أحله الله، أو الحرام الذي حرمه الله، فمثل هذا اللائم يُخشى عليه.

وقد جاء في «المحبر» لأبي جعفر البغدادي فصل أسماه: «أسماء من تزوج ثلاثة أزواج فصاعدا من النساء»، ذكر منهن مجموعة من خيرة الصحابيات، رضي الله عنهن.

ثم إن الصحابة -رضوان الله عليهم- كانوا يتسابقون لخطبة مسلمة قتل عنها زوجها، وكفالة يتيم مات عنه أبوه، فهل غاب عن الصحابة والصحابيات ما فقهته المعترضات على زواج الأرامل في يومنا هذا؟ حاشاهم حاشاهم!

وبناتُ نبيّنا -صلى الله عليه وسلم- وحفيداته، منهن من تزوجت رجلا واثنان وثلاثة، قال ابن كثير، رحمه الله: «زينب تزوجها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف، وهو ابن أخت خديجة، أمه هالة بنت خويلد، فولدت له ابنا اسمه علي، وبنتا اسمها أمامة بنت زينب، وقد تزوجها علي بن أبي طالب بعد وفاة فاطمة، ومات وهي عنده، ثم تزوجت بعده بالمغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب» [البداية والنهاية].

وقال: «وأما أم كلثوم فتزوجها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فولدت له زيدا ومات عنها، فتزوجت بعده ببني عمها جعفر واحدا بعد واحد؛ تزوجت بعون بن جعفر فمات عنها، فخلف عليها أخوه محمد فمات عنها، فخلف عليها أخوهما عبد الله بن جعفر، فماتت عنده» [البداية والنهاية].

نعم تزوجت أم كلثوم أربعة رجال وهي من هي؛ حفيدة النبي -صلى الله عليه وسلم- وابنة علي وفاطمة -رضي الله عنهما- فلم تُغمز فيها عين، ولم يُلمز بها بلسان، ولم تسمع قولا بائسا أن ويحك، كيف نسيت زوجك الأول وما كان بينكما من العشرة والود؟

كما وللمؤمنات أسوة حسنة في الصحابية أسماء بنت عميس صاحبة الهجرتين -رضي الله عنها وعن أزواجها- جاء في «معرفة الصحابة» لأبي نعيم: «هاجرت مع زوجها جعفر بن أبي طالب، فولدت له بأرض الحبشة عبد الله، وعونا، ومحمدا ابناء جعفر بن أبي طالب، ثم قتل عنها جعفر، فخلف عليها أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، فولدت له محمد بن أبي بكر الصديق عام حجة الوداع بالشجرة، ثم توفي عنها فتزوجها علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فولدت له يحيى بن علي بن أبي طالب».

كذلك: «خولة بنت قيس بن قهد بن ثعلبة الأنصارية أم محمد، وقيل: أم حبيبة، قتل عنها حمزة بن عبد المطلب، وخلف عليها النعمان بن عجلان الأنصاري».

وفي «أسد الغابة» لابن الأثير: «عاتكة بنت زيد تزوجها عبد الله بن أبي بكر، فلما قتل تزوجها الفاروق عمر، فلما قتل تزوجها الزبير بن العوام».

ولك أيتها المسلمة أن تتفكري، كيف تتزوج المرأة على مثل أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب!

وما هذا إلا غيض من فيض تاريخ نساء خير القرون، وإننا إن نحن ذهبنا نعدد المتزوجات بعد أزواجهن منهن لما أحصيناهن.

وللمعترضات من الأرامل على الزواج -هداهن الله لما فيه خير لهن في الدنيا والآخرة- بعض الشبهات، منها أن من تصبر على أيتام تربيهم تزاحم النبي -صلى الله عليه وسلم- عند باب الجنة. وهؤلاء سَنَدُهنّ في ذلك ما رُوي عن أبي هريرة مرفوعا: (حرّم الله على كل آدمي الجنة يدخلها قبلي، غير أني أنظر عن يميني، فإذا امرأة تبادرني إلى باب الجنة، فأقول: ما لهذه تبادرني؟ فيقال لي: يا محمد، هذه امرأة كانت حسناء جملاء، وكان عليها يتامى لها، فصبرت عليهن حتى بلغ أمرهن الذي بلغ، فشكر الله لها ذاك)، رواه أبو يعلى والخرائطي واللفظ له، إلا أنه حديث لا يصح عن النبي، صلى الله عليه وسلم. قال البوصيري في «الإتحاف»: «رواه أبو يعلى بسند ضعيف لضعف عبد السلام بن عجلان»، فهل تدع العاقلة أحاديث متواترة وافرة، صحيحة وحسنة، تحث على النكاح وترغب به، وتبني على حديث ضعيف؟!

ثم مَن قال إن أم الأيتام لا تؤجر على تربية أبنائها إن هي تزوجت بعد أبيهم؟ بل إن أجرها ثابت قائم، بإذن الله تعالى، وبالعكس لعل زواجها من رجل صالح يخلفها خيرا في نفسها وفي عيالها، ويعفها ويرعاها وينشّئ أبناءها على طاعة الله، يجعل أجرها عند ربها أعظم، ولو أبصرها زوجها الأول وأبصر ما كان عليه أطفاله من صلاح وفلاح لأجزل لها الشكر.

وقد تقول قائلة إني لا أتزوج حتى أكون في الآخرة لزوجي الأول ولا بأس بذلك، ولكن على مثل هذه الأخت أن تعلم أن مسألة لِمَن مِن أزواجها تكون المرأة في الجنة مسألة خلافية، فهناك من قال بأنها تكون لآخرهم، وهناك من قال بأنها تكون لأحسنهم خُلقا كان معها، وهناك من قال بأنها تكون لمن ابتكرها، وهناك من قال بأنها تُخيّر، وهناك من قال غير ذلك من الأقوال.

فلتنظر المسلمة -أرشدها الله- إلى هذا الخلاف ثم لتنظر هل لديها نص من كتاب الله أو حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن زوجها الأول في الجنة، أم هو الظن الحسن والرجاء؟!

ولتنظر في حالها اليوم، شابة في ريعان شبابها ولها يتيم أو اثنان أو ثلاثة أو أكثر والأرض أرض جهاد وكر وفر، وهي ترد الخطّاب من أهل التقوى، والله تعالى أعلم أيطول العمر أم يقصر!

والمرأة دائما بحاجة إلى زوج يرعاها ويقوم على شؤونها، ومن تقول غير ذلك فهي تخالف فطرتها التي فطرها الله تعالى عليها، ولا أحد ممن حولها يعوضها في زوجها، لا أباها ولا أخاها ولا أقرب أقاربها!

ثم إن على الأرامل باب فتنة وجب على من تخشى الله في نفسها وفيمن حولها أن تسعى لإيصاده، فمن تردّ الأزواج وتطلب حاجياتها وحاجيات بنيها من أزواج صديقاتها أو أحمائها من أعمام أطفالها، حري بها أن تتقي مزالق الشيطان، وتنأى بنفسها عن الشبهات، ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه ولعرضه، وليس أحرص من شيطان على عزباء جربت الأزواج.

أما من تتحجج من الأرامل بوعد قطعته لزوجها بألا تتزوج بعده، فلتعلم أن أئمة السلف قد كرهوا ذلك، وذهب بعضهم إلى بطلانه؛ فقد «جاءت إلى الشعبي امرأة، فقالت: إني حلفت لزوجي أن لا أتزوج بعده بأيمان غليظة، فما ترى؟ قال: أرى أن نبدأ بحلال الله -عز وجل- قبل حرامكم» [رواه سعيد بن منصور في سننه]، والمرأة أدرى بحالها وأحوالها من زوج قد ارتقى إلى ربه وأفضى.

والكلام في حكم حلّ زواج المرأة بعد وفاة أو استشهاد زوجها الأول شبيه إلى حد بعيد بالكلام في حكم إباحة زواج الرجل بأكثر من امرأة في حياتهن، فعلام تحمر أنوف وتشخص أبصار وكله شرع الله؟!

وختاما؛ اعلمي أختي أرملة الشهيد -كما نحسبه والله حسيبه- أن الجنة، ذاك المقام العالي الغالي، حيث لا وصب ولا نصب، ولا حزن ولا كدر، والمؤمن فيها راضٍ بما آتاه ربه سواء كان مع أحبابه من أهل الدنيا أم لم يكن، وإن هذا الزوج الذي تحبسين نفسك عن الزواج مع حاجتك لذلك راجية أن يكون زوجك في الآخرة، لو احتجت يوم الحساب حسنة واحدة كي تدخلي الجنة، وجئتِه راجية تلك الحسنة من حسناته لما أعطاك؛ {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [عبس: ٣٤-٣٧]، يومها نفسي نفسي حتى الأنبياء والرسل إلا نبينا، عليه الصلاة والسلام.

ثم لا تدرين قطعا، هل قُبلت شهادته أم لا، فإن ما في قلبه من النيات لا يطّلع عليها إلا علّام الغيوب، ولا شك أن ما ترجينه من رضوان الله ولقائه وقربه وكلامه ورؤيته أعظم من كل ما سواه من نعيم الآخرة، جاء في الأثر: (أن أهل الجنة إذا بلغ النعيم منهم كل مبلغ، وظنوا أن لا نعيم أفضل منه، تجلى لهم الرب، فنظروا إلى وجه الرحمن، فنسوا كل نعيم عاينوه حين نظروا إلى وجه الرحمن) [رواه الدارمي في رده على المريسي]، فهلا فكّرتِ في الزوج الذي قد يعينك على نيل هذا النعيم العظيم بإبعادك عما حرّمه رب العالمين؟!

البيعة على الموت وحرمة نقضها

إن الصبر حين البأس والثبات إذا حمي الوطيس من أفضل الأعمال عند الله، وهو صفة من صفات المتقين الذين مدحهم الله في كتابه الكريم بقوله: {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة: ١٧٧]، كما جعل رسوله -صلى الله عليه وسلم- هذه الصفات من سمات أفضل الشهداء، فأجاب -عليه الصلاة والسلام- على من سأله: «أي الشهداء أفضل؟» بأنهم: (الذين إن يُلقوا في الصف لا يلفتون وجوههم حتى يُقتلوا، أولئك يتلبطون في الغرف العلى من الجنة، ويضحك إليهم ربك، وإذا ضحك ربك إلى عبد في الدنيا فلا حساب عليه) [رواه أحمد].

ونظرا لخطورة الانهزام أمام العدو وتولية الدبر فزعا من الموت، لما فيه من خلخلة صف المسلمين، وتسبب في هزيمتهم أمام عدوهم، فقد حذّر الله تعالى عباده المؤمنين من هذه المعصية التي يترتب عليها غضب الله تعالى على فاعلها ودخوله نار جهنم، قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الأنفال: ١٥-١٦]، ولذلك أيضا كان التولي يوم الزحف من أكبر الكبائر كما قال، صلى الله عليه وسلم: (اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات) [رواه البخاري ومسلم].

ولأن المسلمين كالبنيان الذي يقوّي بعضه بعضا، فقد كان من فعل الصحابة -رضوان الله عليهم- أن يتبايعوا على الصبر عند اللقاء، والثبات في المعركة حتى يُقتلوا أو يفتح الله لهم، والأدلة على ذلك كثيرة من كتاب الله، وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم- وفعل الصحابة، رضوان الله عليهم.

أولاً: البيعة تعني العهد على الطاعة في المعروف

إن الوفاء بالعهد واجب، سواء كان عهدا لله أو لأحد من الناس، كما قال سبحانه: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ} [البقرة: ٤٠]، وقال: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [النحل: ٩١]، وقال في مدح المؤمنين: {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا} [البقرة: ١٧٧]، وقال: {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ٧٦]، والوفاء بالعهد إنما يكون فيما يجوز للمسلم دون ما يحرم عليه.

قال أبو العباس بن تيمية، رحمه الله: «وليس لبني آدم أن يتعاهدوا ولا يتعاقدوا ولا يتحالفوا ولا يتشارطوا على خلاف ما أمر الله به ورسوله».

ومن ذلك التعاهد على الثبات في القتال، فإن كان القتال في طاعة الله، كقتال المسلم للكفرة والخوارج والبغاة، فيجب عليه الوفاء بالعهد، وإن كان القتال محرما، كخروج المبتدعة والبغاة على جماعة المسلمين، فلا تجوز المشاركة فيه أصلا فضلا عن التعاهد عليه، بل الواجب نكث العهد تقربا إلى الله.

ثانياً: في شرعية المبايعة على الموت في القتال المشروع

في هذا النوع من البيعات، قال الله، عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح: ١٠].

قال الطبري، رحمه الله: «يقول تعالى ذكره، لنبيه محمد، صلى الله عليه وسلم: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ} بالحديبية من أصحابك على أن لا يفروا عند لقاء العدو، ولا يولوهم الأدبار، {إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ} يقول: إنما يبايعون ببيعتهم إياك الله، لأن الله ضمن لهم الجنة بوفائهم له بذلك».

وقال ابن كثير، رحمه الله: «وهذه البيعة هي بيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة سمر بالحديبية، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يومئذ قيل: ألف وثلاثمائة. وقيل: أربعمائة. وقيل: وخمسمائة. والأوسط أصح».

وهذا المعنى، وهو البيعة على الموت أو الحرب أو أن لا يفروا، محفوظ في كتب الصحاح والسنن والمسانيد، بل بوّب له الأئمة مثل البخاري، فقد قال في صحيحه: «باب البيعة في الحرب أن لا يفروا، وقال بعضهم: على الموت لقول الله تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ}»، ثم أورد الأحاديث الواردة في الباب، وكذلك فعل النووي في تبويبه على صحيح مسلم، قال: «باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة»، وكذا صنع النسائي في السنن الكبرى، حيث بوّب: «البيعة على أن لا نفر»، وبوّب: «البيعة على الموت».

وقد وردت شروط بيعة الرضوان بروايات عديدة عن الصحابة، ومن ذلك ما قاله النووي، في شرح صحيح مسلم: «في رواية جابر ورواية معقل بن يسار: بايعناه يوم الحديبية على ألا نفر، ولم نبايعه على الموت؛ وفي رواية سلمة: أنهم بايعوه يومئذ على الموت؛ وهو معنى رواية عبد الله بن زيد بن عاصم، وفي رواية مجاشع بن مسعود: البيعة على الهجرة، والبيعة على الإسلام والجهاد؛ وفي حديث ابن عمر وعبادة: بايعنا على السمع والطاعة، وألا ننازع الأمر أهله؛ وفي رواية عن ابن عمر في غير صحيح مسلم: البيعة على الصبر؛ قال العلماء: هذه الرواية تجمع المعاني كلها، وتبين مقصود كل الروايات، فالبيعة على ألا نفر معناه: الصبر حتى نظفر بعدونا أو نقتل، وهو معنى البيعة على الموت، أي: نصبر وإن آل بنا ذلك إلى الموت، لا أن الموت مقصود في نفسه، وكذا البيعة على الجهاد، أي والصبر فيه. والله أعلم» انتهى كلام النووي.

وقال ابن حجر: «لا تنافي بين قولهم: بايعوه على الموت، وعلى عدم الفرار، لأن المراد بالمبايعة على الموت ألا يفروا ولو ماتوا، وليس المراد أن يقع الموت ولا بد، وهو الذي أنكره نافع، وعدل إلى قوله: بل بايعهم على الصبر، أي: على الثبات وعدم الفرار سواء أفضى بهم إلى ذلك إلى الموت أم لا».

قال ابن القيم: «كان النبي -صلى الله عليه وسلم- بايع أصحابه في الحرب ألا يفروا، وربما بايعهم على الموت...»

قال الرافعي: «وأنه يستحب إذا بعث الإمام سرية أن يؤمر عليهم أميرا، ويأمرهم بطاعته، ويوصيه بهم، وأن يأخذ البيعة على الجند حتى لا يفروا» [الشرح الكبير].

وقد عمل على ذلك الصحابة، ومن أشهر ما روي في ذلك ما حدث في اليرموك، حيث قال عكرمة بن أبي جهل يومئذ: «من يبايع على الموت؟» فبايعه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور في أربع مائة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعا جراحا، وقتلوا إلا من برئ، منهم ضرار بن الأزور. [تاريخ الطبري وغيره]، وقال ابن حجر في «الإصابة في تمييز الصحابة»: «وكان -أي عكرمة- أميرا على بعض الكراديس، وذلك سنة خمس عشرة في خلافة عمر»، وهذا حصل في محضر من الصحابة ولم يُنكر.

ثالثاً: في وجوب الوفاء بهذه البيعة، وحرمة نقضها

قال ابن الجوزي: «ونقض العهد: الإعراض عن المقام على أحكامه»، وهو محرّم، قال الله، عز وجل: {فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ} [الفتح: ١٠]، وقال: {وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا} [النحل: ٩١]، وقال، صلى الله عليه وسلم: (آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان) [رواه البخاري ومسلم]، وقال، صلى الله عليه وسلم: (المسلمون عند شروطهم) [رواه البخاري].

قال أبو العباس بن تيمية: «وكل من شرط شرطا ثم نقضه فقد غدر، فقد جاء الكتاب والسنة بالأمر بالوفاء بالعهود والشروط والمواثيق والعقود وبأداء الأمانة ورعاية ذلك والنهي عن الغدر ونقض العهود والخيانة والتشديد على من يفعل ذلك».

وقد جاء التحذير من الغدر كما في الصحيحين عن ابن عمر -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته، فيقال هذه غدرة فلان).

فعلى هذا فإن مثل هذه البيعة إذا تمت وبايع عليها الإنسان فلا يجوز له نكثها ويعظم الجرم فيها في وقت الشدة على المجاهدين والتحام الصفوف وقرب العدو ومناجزته.

فليحرص كل مسلم على أن يفي بعهده إلى الله بالثبات، وأن يوفي أمراءه وإخوانه ما بايعهم عليه من الصبر عند اللقاء، وأن لا يغدر بهم حتى يفتح الله عليه أو يموت دون ذلك كما عاهد الله، وعاهد إخوانه، وليذكر قوله تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ * فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ * وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب: ٢٣].

أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها



الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، والصلاة والسلام على من أرسله ربه رحمة للعالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد...

فقد قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: ٥٨].

ورد في سورة النساء الأمر بالإحسان والعدل في النساء واليتامى في الإرث وغيره، وغير ذلك من الدماء والأموال والأقوال والأفعال، وذكر الله تعالى خيانة أهل الكتاب وما أحل بهم لذلك من العقاب، وذكر أنه آتى هذه الأمة الملك والحكم، وآتاهم الحكمة بعد جهلهم وضعفهم، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ}، أي أيتها الأمة، {أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا}، أي من غير خيانة ما، كما فعل أهل الكتاب في كتمان ما عندهم والإخبار بغيره، والأمانة: كل ما وجب لغيرك عليك.

ولّما أمر بما يجب على الإنسان في نفسه، أمر بما يجب عليه في معاملة غيره، فقال سبحانه: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ}، أي السواء، بأن تأمروا من وجب عليه حق بأدائه إلى من هو له، فإن ذلك من أعظم الصالحات الموجبة لحسن المقيل في الظل الظليل، أخرج الشيخان عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (سبعة يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظله: إمام عادل...) الحديث.

ولّما أخبرهم بأمره رغبهم فيه بقوله: {إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ}، أي: لا أحسن ولا أفضل مما أمركم الله وذكركم ونصحكم به، ثم نبههم تعالى ليبقوا منتبهين متيقظين وهم يحفظون الأمانات ويؤدونها إلى أهلها مع استشعارهم رقابة الله عليهم، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ}، أي ولم يزل ولا يزال، {سَمِيعًا}، أي بالغ السمع لكل ما يقوله الناس، {بَصِيرًا}، أي بالغ البصر إلى أعمالهم، مع علمه بما في قلوبهم من إخلاص وصدق أو ما ينافيهما، وفي هذا وعد عظيم للمطيع، ووعيد شديد للعاصي، وإلى ذلك الإشارة بالحديث المرفوع: (اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)،

رجّح ابن جرير -رحمه الله- أن المعني بهذه الآية ولاة أمور المسلمين، وأخرج عن زيد بن أسلم -رحمه الله- أنه قال: «نزلت هذه الآية {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} في ولاة الأمر»، وأخرج عن علي -رضي الله عنه- أنه قال: «حقٌّ على الإمام أن يحكم بما أنزل الله، وأن يؤدِّيَ الأمانة، وإذا فعل ذلك، فحقّ على الناس أن يسمعوا، وأن يُطيعوا، وأن يجيبوا إذا دُعوا».

وأخرج عن مكحول -رحمه الله- في قول الله: {وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ}، قال: «هم أهلُ الآية التي قبلها: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ}، الآية».

ورجّح ابن كثير -رحمه الله- أن الآية تعمّ «جميع الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله -عز وجل- على عباده، من الصلوات والزكوات والكفارات والنذور والصيام وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه لا يطّلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض، كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به بعضهم على بعض من غير اطلاع بينة على ذلك؛ فأمر الله -عز وجل- بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أُخذ منه ذلك يوم القيامة، كما ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (لتؤدنّ الحقوق إلى أهلها، حتى يقتص للشاة الجماء من القرناء)». وقال، رحمه الله: «وفي حديث الحسن، عن سمرة، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك)؛ [رواه الإمام أحمد وأهل السنن]».

والقول الثاني أعم وأشمل من الأول، فهي تتناول كل مؤتمن على أمانة، وأول الأمانات أمانة التكاليف، وهي كل ما أمر الله به عباده من فعل أو ترك، وهي الأمانة المذكورة في قوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [الأحزاب: ٧٢]، فالسموات والأرض والجبال لم يقبلن حمل أمانة التكاليف خوفاً من ألا يقمن بحقها، فيعصين الله تعالى فيعاقبهن، وآثرن أن يبقين طائعات مسخرات لا خيار لهن، ثم عرضت الأمانة على آدم -عليه السلام- على أنه وذريته إن قاموا بحقها أُثيبوا، وإن لم يقوموا بحقها عُوقبوا، فقبلها آدم -عليه السلام- ثم بيّن تعالى أن الدافع إلى التفريط في جنب الله سببان: هما الظلم والجهل، قال ابن جرير، رحمه الله: «معناه: إن الله عرض طاعته وفرائضه على السموات والأرض والجبال على أنها إن أحسنت أثيبت وجوزيت، وإن ضيَّعت عوقبت، فأبت حملها شفقا منها أن لا تقوم بالواجب عليها، وحملها آدم {إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا} لنفسه {جَهُولًا} بالذي فيه الحظ له»؛ ثم أخرج عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا}، قال: «الأمانة: الفرائض التي افترضها الله على عباده».

ولما أمر الله تعالى بأداء الأمانات نهى عن ضد ذلك وهو الخيانة، فقال سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [الأنفال: ٢٧-٢٨].

فأمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤدوا ما ائتمنهم الله عليه من أوامره ونواهيه، فمن أدى الأمانة استحق من الله الثواب الجزيل، ومن لم يؤدها -بل خانها- استحق العقاب الوبيل، وصار خائناً لله وللرسول -صلى الله عليه وسلم- ولأمانته، منقصاً لنفسه بكونها اتصفت بأخس الصفات، وهي الخيانة، مفوتاً لها أكمل الصفات وأتمها، وهي الأمانة.

ولما كان العبد ممتحناً بأمواله وأولاده، فربما حملته محبة ذلك على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته، أخبر تعالى أن الأموال والأولاد فتنة يبتلي الله بهما عباده، وأنها عارية ستؤدى لمن أعطاها، وترد لمن استودعها، {وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}، والمعنى: فإن كان لكم عقل ورأي، فآثروا فضله العظيم على اللذة الصغيرة الفانية المضمحلة، فالعاقل يوازن بين الأشياء، ويؤثر أولاها بالإيثار، وأحقها بالتقديم.

من أعظم الأمانات ما ذكره الله تعالى في الآية: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}، أمانة حكم الناس بشريعة الله وعدم اتباع أهوائهم، والحذر من أن يفتنوا من يحكمهم عن بعض شريعة الله بالترغيب أو الترهيب أو تلبيس الحق بالباطل، والقيام بأمانة الحكم بما أنزل الله هو عمل الأنبياء والربانيين والخلفاء الراشدين، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون)؛ قالوا: «فما تأمرنا؟» قال: (فوا ببيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم) [متفق عليه].

ويحمل أهل العلم أمانة عظيمة، وهي أن يبينوا الحق للناس ولا يكتموه، قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ} [آل عمران: ١٨٧]، وإذا قام أولو الأمر من الأمراء والعلماء بحقوق الأمانة الملقاة على عاتقهم، لزمت الرعية طاعتهم في طاعة الله، ومعاونتهم على تحكيم شريعة الله، والنصيحة لهم، وأن يعلم كل مؤمن في الدولة الإسلامية الأمانة التي على عاتقه، فيتقي الله فيما استرعاه إياه، كما قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (ألا كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راعٍ، وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته، وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده، وهي مسؤولة عنهم، والعبد راعٍ على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته) [متفق عليه].

وما توفيقنا إلا بالله، عليه توكلنا وإليه ننيب.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. والحمد لله رب العالمين.

فإني مكاثر بكم الأمم

إن من مقاصد الإسلام طلب الولد لغايات كثيرة، لعل أهمها تكثير سواد المسلمين لتقوية الأمة، وقد جاءت الشريعة حافلة بالنصوص المؤيدة لذلك والحاضة عليه.



ولطالما كان طلب الولد من سنة الأنبياء والرسل؛ فهذا نبي الله زكريا -على نبينا وعليه الصلاة والسلام- يدعو ربه في أكثر من موضع في القرآن الكريم، لا أن يهبه ملكا أو سلطانا، ولا ذهبا أو فضة، وإنما ذرية طيبة، فقام يصلي ويدعو ربه سرا ويقول: {رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا} [مريم: ٤-٦]، وقال: {رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} [آل عمران: ٣٨]، وقال أيضا: {رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ} [الأنبياء: ٨٩].

وتلك زوجة نبي الله عمران قد سألت الله الولد فوهبها مريم وجعلها آية للعالمين، ووهب مريم عيسى وجعله نبيا ورسولا من أولي العزم، عليهم السلام جميعا.

وإنه وبازدياد أعداد المسلمين، يرتدع الكفر ويعلو الدين، وقد فهم الكفرة هذه المعادلة التي غابت عن أذهان غافلة، فنجد أن من أولوياتهم في كل حرب يشنونها على الإسلام وأهله استهداف النساء والأطفال، للقضاء على الأرض وزرعها، فما سميّت النساء حرثا إلا لكونهن منشأ النسل وأرضه الخصبة، وتلك سياسة عدو حاقد همه اجتثاث «لا إله إلا الله» من الأرض، وهيهات له هيهات، فأمة محمد أمة ولود لا تعقم، وهي كذلك إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

غير أن بعض النساء قد لا يعين سياسة العدو في حربه على الموحدين، ولا يقدرن أنه ومع ولادة كل مولود مسلم تُزرع شوكة في حلق الكفر، ويُغرز خنجر في خاصرة الشرك، وأنه وبزيادة عدد المسلمين يُغص الفجار وتنكّس رايات الكفار وتعلو أصوات الأبرار، وما سياسة تحديد النسل إلا وباء قد دخل على أمتنا الولود من حيث أراد أعداؤها، حتى يقل عدد المسلمين وتضعف شوكتهم.

ولقد أوصى النبي -صلى الله عليه وسلم- بتكثير سواد المسلمين، كما جاء عن معقل بن يسار، قال: «جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال، وإنها لا تلد، أفأتزوجها؟ قال: (لا)، ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة، فقال: (تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم) [رواه أبو داود وابن حبّان].

كما ويدعو النبي -صلى الله عليه وسلم- لأنس بن مالك -رضي الله عنه- بوفرة الولد والبركة فيه فيقول: (اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيما أعطيته) [متفق عليه].

وروى أحمد في مسنده عن أنس أنه قال: «حدثتني ابنتي أنه دفن من صلبي عشرون ومائة ونيف، وإني لمن أكثر الأنصار مالا».

وقد دخل الأحنف بن قيس على معاوية -رضي الله عنه- ويزيد بين يديه وهو ينظر إليه إعجابا، فقال: «يا أبا بحر، ما تقول في الولد؟» فقال: «يا أمير المؤمنين، هم عماد ظهورنا، وثمر قلوبنا، وقرة أعيننا، بهم نصول على أعدائنا، وهم الخلف منا لمن بعدنا، فكن لهم أرضا ذليلة، وسماء ظليلة، إن سألوك فأعطهم، وإن استعتبوك فأعتبهم، لا تمنعهم رفدك فيملوا قربك، ويكرهوا حياتك، ويستبطئوا وفاتك. فقال: لله درك يا أبا بحر! هم كما وصفت».

كما لا يفوتنا ونحن في هذا المقام أن نحذّر الأخت المسلمة من سياسة خبيثة أخرى جاء بها أعداء الإسلام، ألا وهي تأجيل الزواج حتى سن متأخرة، وهذا من مكر الكافرين الذين سعوا وما زالوا إلى صرف المسلمات عن حقيقة دورهن في الحياة، وأنهن خلقن لتوحيد الله -عز وجل- وإفراده بالعبادة دون سواه، ثم لخدمة الدين بما يسره الله لهن، ومنها الزواج والإنجاب والتربية.

ولو علمت المسلمة ما في التبكير بالزواج مع استحضار نية تكثير السواد وإنجاب الولد الصالح الذي يبرها ويدعو لها ولوالده حتى بعد موتهما كما في الحديث الذي يرويه أبو هريرة، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له) [رواه مسلم].

وجاء في الحديث أيضا، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إن الله -عز وجل- ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب، أنّى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك) [رواه أحمد وابن ماجه].

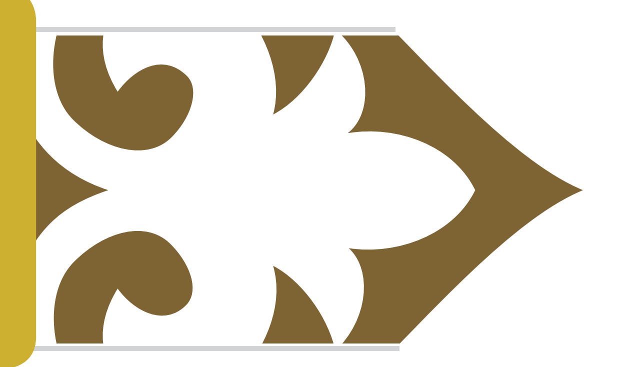
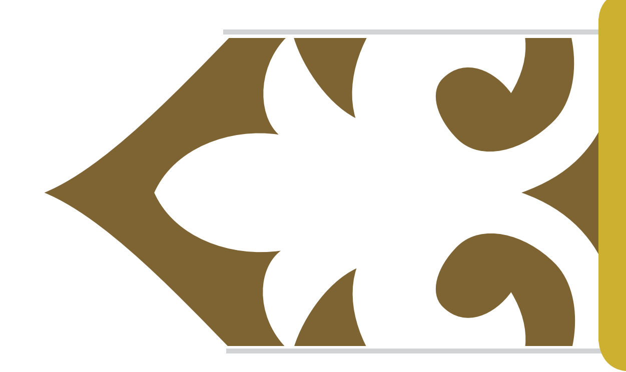
وقد بوّب البخاري في صحيحه: «باب من طلب الولد للجهاد»، جاء فيه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (قال سليمان بن داود، عليهما السلام: لأطوفن الليلة على مائة امرأة، أو تسع وتسعين كلهن يأتي بفارس يجاهد في سبيل الله؛ فقال له صاحبه: إن شاء الله؛ فلم يقل إن شاء الله، فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل، والذي نفس محمد بيده، لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون)، لو علمت المسلمة ما في كل ذلك من نصرة للدين، وإغاظة للكافرين، لاستقبلت من هذا الأمر ما استدبرت، ولعلها تكون بذلك من الذين {وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ} [التوبة: ١٢٠].

ولتتأمل المسلمة في قول عمر، رضي الله عنه: «والله إني لأكره نفسي على الجماع؛ رجاء أن يخرج الله مني نسمة تسبح الله» [رواه البيهقي في الكبرى].

بل إن تزويج البنات فيما يعرف بـ «السن المبكر » يُعد جريمة يُعاقِب عليها القانون الطاغوتي في بعض الدول المسماة زورا إسلامية، وأما في الإسلام الحق، فلا حلال إلا ما أحله الله تعالى، ولا حرام إلا ما حرمه الله تعالى، وقد أخرج مسلم في صحيحه عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «تزوجني النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن خزرج، فوعكت فتمرق شعري، فوفى جميمة فأتتني أمي أم رومان، وإني لفي أرجوحة، ومعي صواحب لي، فصرخت بي فأتيتها، لا أدري ما تريد بي فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار، وإني لأنهج حتى سكن بعض نفسي، ثم أخذت شيئا من ماء فمسحت به وجهي ورأسي، ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت، فقلن على الخير والبركة، وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن، فأصلحن من شأني، فلم يرعني إلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ضحى، فأسلمتني إليه، وأنا يومئذ بنت تسع سنين».

ومتى ما علمت الأخت المسلمة ذلك، اتخذت دعاوى السوء ظهريا، وعكفت على تكثير الأشبال وإعدادهم، فجعلت من بيتها عرينا لهم، ترضعهم من ملة إبراهيم لبنا سائغا، وتلقنهم التوحيد زلالا صافيا، تعركهم بالولاء عركا، وتخبزهم بالبراء خبزا، ثم تفتح لهم باب العرين، والقلوب قد أشربت: {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح: ٢٩]، {أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ} [المائدة: ٥٤]. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً

لقد ضبط الشارع الحكيم عقد النكاح بضوابط وجعل لتمام صحته شروطا وواجبات، ومن بين تلك الواجبات المهر أو الصداق، وقد دل على مشروعية المهر الكتاب والسنة والإجماع.

فأما الكتاب فقد قال الله تعالى: {وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً} [النساء: ٤]، وقال أيضا: {فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً} [النساء: ٢٤]، وأما السنة فعن سهل بن سعد -رضي الله عنه- قال: «جاءت امرأة إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالت: إني وهبت من نفسي؛ فقامت طويلا، فقال رجل: زوجنيها إن لم تكن لك بها حاجة؛ قال: (هل عندك من شيء تصدقها؟) قال: ما عندي إلا إزاري؛ فقال: (إن أعطيتها إياه جلست لا إزار لك، فالتمس شيئا)؛ فقال: ما أجد شيئا؛ فقال: (التمس ولو خاتما من حديد)؛ فلم يجد، فقال: (أمعك من القرآن شيء؟) قال: نعم، سورة كذا، وسورة كذا، لسور سماها، فقال: (قد زوجناكها بما معك من القرآن)» [متفق عليه].

وعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: «لما قدم عبد الرحمن بن عوف المدينة، آخى النبي -صلى الله عليه وسلم- بينه وبين سعد بن الربيع، فقال: أقاسمك مالي نصفين، ولي امرأتان فأطلق إحداهما، فإذا انقضت عدتها فتزوجها؛ فقال: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق؟ فدلوه، فانطلق، فما رجع إلا ومعه شيء من أقط وسمن قد استفضله، فرآه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعد ذلك وعليه وضر من صفرة فقال: (مهيم؟) قال: تزوجت امرأة من الأنصار؛ قال: (ما أصدقتها؟) قال: نواة من ذهب -قال حميد: أو وزن نواة من ذهب- فقال: (أولم ولو بشاة)» [متفق عليه].

وأما الإجماع فقد ذكره غير واحد من الفقهاء؛ قال القرطبي في تفسيره: «قال تعالى: {وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً}، الآية تدل على وجوب الصداق للمرأة، وهو مجمع عليه ولا خلاف فيه».

والمهر قد يكون معجّلا فيدفعه الزوج للزوجة قبل الدخول بها، وقد يكون مؤجّلا فيدفعه لها بعد الدخول، وقد يكون مبعّضا أي يدفع لها بعضا منه قبل البناء على أن يدفع لها بقيته بعد الدخول بها؛ قال ابن قدامة: «ويجوز أن يكون الصداق معجلا، ومؤجلا، وبعضه معجلا وبعضه مؤجلا، لأنه عوض في معاوضة، فجاز ذلك فيه كالثمن» [المغني]. غير أنه لا يجوز للزوج تأجيل المهر ولا تبعيضه إلا بموافقة الزوجة ورضاها عن طيب خاطر لا غصبا.

وللزوجة أن تمتنع عن زوجها حتى تستلم صداقها كاملا؛ قال ابن قدامة: «فإن منعت نفسها حتى تتسلم صداقها، وكان حالا، فلها ذلك. قال ابن المنذر: وأجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم أن للمرأة أن تمتنع من دخول الزوج عليها، حتى يعطيها مهرها. وإن قال الزوج: لا أسلم إليها الصداق حتى أتسلمها. أجبر الزوج على تسليم الصداق أولا، ثم تجبر هي على تسليم نفسها» [المغني].

> **لا يجوز للزوج تأجيل المهر ولا تبعيضه إلا بموافقة الزوجة ورضاها عن طيب خاطر لا غصبا**

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- «أن عليا قال: تزوجت فاطمة، فقلت: يا رسول الله، ابن لي؛ قال: (أعطها شيئا)؛ قال: ما عندي شيء؛ قال: (فأين درعك الحطمية؟) قلت: عندي؛ قال: (فأعطها إياه)» [رواه أبو داود والنسائي].

ثم إن هذا المهر وإن لم يدفعه الزوج قبل الدخول بزوجته -برضاها- كما أسلفنا- يبقى دينا عليه يجب الوفاء به متى قدر على ذلك، ولا يجوز له بحال المماطلة في سداد هذا الدين أو الامتناع عنه، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (مطل الغني ظلم) [متفق عليه]، خاصة إذا باتت الزوجة تحت يده وقد أتى منها ما يأتي الرجل من المرأة، فيستضعفها حينها ناسيا أو متناسيا ما جاء في الحديث عن عقبة بن عامر -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (أحق الشروط أن يوفى به ما استحللتم به الفروج) [متفق عليه].

وقد غلّظ الشارع في الزجر عن سلب المرأة مهرها عنوة، قال ابن كثير، رحمه الله: «وقوله: {وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ} [النساء: ١٩]، أي: لا تضاروهن في العشرة لتترك لك ما أصدقتها أو بعضه أو حقا من حقوقها عليك، أو شيئا من ذلك على وجه القهر لها والاضطهاد. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: {وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ} يقول: ولا تقهروهن {لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ} يعني: الرجل تكون له امرأة وهو كاره لصحبتها، ولها عليه مهر فيضرها لتفتدي».

ولم يحرم الشرع أخذ مهر الزوجة كرها فقط، بل حتى وإن كانت الزوجة موسرة ذات مال، فيحرم على الزوج أن يأخذ فلسا واحدا من مالها غصبا ودون رضاها وإن كان ذلك بقصد الإنفاق على البيت والأبناء الذين هم أبناؤها، أما إن رضيت ووهبته عن طيب خاطر، فهنيئا مريئا، مصداقا لقول الله، عز وجل: {فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا} [النساء: ٤].

> **إنَّ المرأة إن احتسبت ما تنفقه على زوجها وأولادها من مالها، فإنه لها من أعظم الصدقات أجرا**

وإنَّ المرأة إن احتسبت ما تنفقه على زوجها وأولادها من مالها، فإنه لها من أعظم الصدقات أجرا، كما روى الشيخان عن زينب امرأة ابن مسعود -رضي الله عنهما- أنها قالت لبلال، رضي الله عنه: «سل النبي -صلى الله عليه وسلم- أيجزي عني أن أنفق على زوجي، وأيتام لي في حجري؟» فحينما سأله، أجاب النبي، صلى الله عليه وسلم: (نعم، لها أجران، أجر القرابة وأجر الصدقة)».

وللمسلمة في أم المؤمنين خديجة -رضي الله عنها- خير مثال، فقد جعلت مالها كله في يد زوجها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ينفق منه على نفسه، وعلى إخوانه.

يقول بعض المفسرين في تفسير قول الله تعالى: {وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى} [الضحى: ٨]؛ أي أغناك بمال خديجة بنت خويلد، ومعلوم أن أم المؤمنين خديجة -رضي الله عنها- كانت من أشراف قريش وأوفرهم مالا، وحينما منَّ الله -عز وجل- عليها بالزواج من سيد الأنام، لم تبخل عليه بمالها، قال صاحب «أضواء البيان»: «قال النيسابوري ما نصه: يروى أنه -صلى الله عليه وسلم- دخل على خديجة وهو مغموم، فقالت: ما لك؟ فقال: (الزمان زمان قحط، فإن أنا بذلت المال ينفد مالك، فأستحيي منك، وإن أنا لم أبذل أخاف الله)، فدعت قريشا وفيهم الصديق، قال الصديق: فأخرجت دنانير حتى وضعتها، بلغت مبلغا لم يقع بصري على من كان جالسا قدامي؛ ثم قالت: اشهدوا أن هذا المال ماله، إن شاء فرقه، وإن شاء أمسكه».

والنبي -صلى الله عليه وسلم- قد عرف لها ذلك حتى بعد موتها -رضي الله عنها- فقد روى أحمد عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا ذكر خديجة أثنى عليها، فأحسَنَ الثناء، فغرتُ يوما، فقلت: ما أكثَرَ ما تذكرها حمراء الشدق، قد أبدلك الله -عز وجل- بها خيرا منها؛ قال: (ما أبدلني الله -عز وجل- خيرا منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدّقتني إذ كذّبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله -عز وجل- ولدها إذ حرمني أولاد النساء)».

هذه أم المؤمنين خديجة -رضي الله عنها- تعطي المال دون منٍّ أو أذى -حاشاها- ولا تذكِّر زوجها بسبب ومن دون سبب بما تعطيه إياه ولا تعيّره، ولا تطالبه عند الغضب بما وهبته إياه عند الرضا، وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه)» [متفق عليه].

ويوم قدّر الله تعالى على النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن آمن معه أن يُحاصَروا في شعب أبي طالب لسنين، تركت خديجة مالها وكل ما تملك واختارت الله ورسوله، فلله درها ولله در كل كريمة لها فنع في الجود، همها إسعاد معسر بعد رضا المعبود. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

والذين يتلون كتاب الله

أنزل الله الكتاب على عباده ليكون للعالمين هاديا، ومعلما، ومرشدا، وأرسل الرسل وبعث الأنبياء ليتلوا آياته، فيخرجوا بها الناس من الظلمات إلى النور، كما في قوله: {رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [الطلاق: ١١]، وقوله: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [البقرة: ١٢٩]، وقوله: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [آل عمران: ١٦٤].



كما بيّن -جل جلاله- أن تلاوة هؤلاء الرسل لآياته على الناس حجة عليهم في الدنيا والآخرة، كما في قوله: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ} [القصص: ٥٩]، وقوله: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} [الزمر: ٧١]، وقوله: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ} [الأنعام: ١٣٠].

وبيّن أن حال الناس مع تلاوة آيات الله تختلف باختلاف درجة إيمانهم، فوصف المؤمنين منهم بقوله: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [البقرة: ١٢١]، وقوله: {لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} [آل عمران: ١١٣]، ووصف حالهم مع تلاوة تلك الآيات بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ} [فاطر: ٢٩]، وقوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: ٢]، بينما الكافرون لا يتلون كتاب الله، وإذا تليت عليهم زادتهم كفرا، وإعراضا عن الدين، وحربا على الإسلام والمسلمين، كما وصفهم سبحانه بقوله: {وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} [الحج: ٧٢].

يرجون تجارة لن تبور

وجعل الله -عز وجل- تلاوة كتابه من أعظم الأعمال التي تقرب إليه، ورتّب عليها أعظم الأجر، كما قال عليه الصلاة والسلام: (من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها) [رواه الترمذي]، وجعل الاجتماع على قراءة كتاب الله وتدارسه من أفضل المجالس التي يحبّها الله تعالى، كما قال عليه الصلاة والسلام: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده) [رواه مسلم].

والتلاوة التي يكتب الله بها الأجر لعباده هي التي يصاحبها العمل، كما قال سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ} [فاطر: ٢٩-٣٠].

فقوله سبحانه: {الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ}، أي: يتبعونه في أوامره فيمتثلونها، وفي نواهيه فيتركونها، وفي أخباره فيصدّقونها ويعتقدونها، ولا يُقدّمون عليه ما خالفه من الأقوال، ويتلون أيضاً ألفاظه وحروفه تلاوة صحيحة، ويدرسون معانيه فيفهمون مراد الله تعالى.

ثم خص من التلاوة بعد ما عم، الصلاةَ التي هي عماد الدين، ونور المسلمين، وميزان الإيمان، وعلامة صدق الإسلام، ثم النفقة في سبيل الله وعلى الأقارب والمساكين واليتامى وغيرهم، من الزكوات والكفارات والنذور والصدقات، {سِرًّا وَعَلَانِيَةً} في جميع الأوقات والأحوال.

{يَرْجُونَ} أي: بذلك، {تِجَارَةً لَّن تَبُورَ} أي: لن تكسد وتفسد، بل تجارة هي أجل التجارات وأعلاها وأفضلها، ألا وهي رضا ربهم، والفوز بجزيل ثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه، وهذا فيه أنهم يُخلصون أعمالهم، وأنهم لا يرجون بها من المقاصد السيئة والنيات الفاسدة شيئاً.

وذكر أنه حصل لهم ما رجوه فقال: {لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ} أي: أجور أعمالهم كاملة غير منقوصة، {وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ} زيادة على أجورهم، لأن دخولهم الجنة إنما هو برحمته وفضله، {إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ} غفر لهم السيئات، وقبل منهم الحسنات، وشكرها لهم.

ومن الأدلة أيضا على التلازم بين تلاوة الكتاب، والإيمان به، والعمل به، قوله تعالى في أهل الكتاب: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [البقرة: ١٢١]، قال ابن مسعود، رضي الله عنه: «والذي نفسي بيده، إن حق تلاوته، أن يُحل حلاله ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئا على غير تأويله» [تفسير الطبري].

هجر القرآن، كيف يكون؟

وفي مقابل العناية بكتاب الله قراءةً وعلماً بمعانيه وعملاً به، يكون الهجران للقرآن، وهو أنواع، قال ابن القيم، رحمه الله: «هجر القرآن أنواع: أحدها هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه، والثاني هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به، والثالث هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصِّل العلم، والرابع هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه، والخامس هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلب وأدوائها فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به، وكل هذا داخل في قوله: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا}، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض» [الفوائد].

يهدي به الله من اتبع رضوانه

وزيادة على الأجر العظيم الذي تفضّل الله به على عباده الذين يتلون كتابه حق تلاوته، فإن كتاب الله كتاب هداية وإرشاد وإصلاح، يهتدي به المقبلون على الله، الذين بادروا إلى الإيمان والعمل الصالح أول ما عرفوا الحق، قال تعالى: {قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}.

{قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ}، وهو القرآن، يستضاء به في ظلمات الجهالة وعماية الضلالة، {وَكِتَابٌ مُّبِينٌ} لكل ما يحتاج الخلق إليه من أمور دينهم ودنياهم، من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن العلم بأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية.

ثم ذكر مَن الذي يهتدي بهذا القرآن، وما هو السبب الذي يكون من العبد ليحصِّل ذلك، فقال: {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ}، أي: يهدي به من اجتهد وحرص على بلوغ مرضاة الله، وصار قصده حسناً، يهديه الله سبل السلام التي تسلِّم صاحبها من العذاب، وتوصله إلى دار السلام، وهو العلم بالحق والعمل به، إجمالاً وتفصيلاً.

{وَيُخْرِجُهُم مِّنَ} ظلمات الكفر والبدعة والمعصية، والجهل والغفلة، إلى نور الإيمان والسنة والطاعة والعلم، والذكر، وكل هذه الهداية بإذن الله، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، {وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}.

فهذه تلاوة كتاب الله كما أمر الله -عز وجل- المؤمنين، وهذه سنّة أنبيائه المرسلين، فليحرص عليها من طمع في أعظم الأجور، وتجارة لن تبور، مع الكريم الغفور الشكور.



رفقاً بالقوارير

إن مـن أجلِّ نعم الله تعالى وأعظمها علـى عباده نعمة الزواج، التـي جعل منها سـبحانه آية مـن آياته، إذ يقول عـز من قائل: {وَمِـنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَـقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِـكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْـكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُـمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَـاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الـروم: ٢١]، وإن صـلاح هذه الأمـة يبدأ بصلاح الأُسَـرِ، فمتى ما صلحـت العائلـة المسـلمة كان لذلك كبيـر الأثـر والتأثير في صـلاح الأمـة، ولأجل ذلك جـاء ديننـا الحنيف زاخـرا بالنصوص الضابطـة للعلاقة بيـن الزوجين في جميـع تفاصيلها.

ومن تلكم التفاصيل عشرة النساء، التي صُنِّفت فيها المصنفات، وأُلِّفت المؤلفات، وبوّب عليها كثير من أهل العلم، قصد بيان حقّ الزوجة على زوجها ووضع النقاط على حروفِ العشرة بينهما، والمتأمل في آي الكتاب المحكمات، يرى أن عماد معاملة الزوجة وأسّها إنما هو المعروف في الرضا والغضب، والمعروف كما جاء في «تهذيب اللغة» هو: «كل ما تعرفه النفس من الخير وتبسأ به وتطمئن إليه».

قال الله، عز وجل: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} [البقرة: ٢٢٨]، وقال أيضا: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا} [البقرة: ٢٣١]، وقال: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} [النساء: ١٩].

قال القرطبي في تفسير قوله {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}: «أي على ما أمر الله به من حسن المعاشرة، والخطاب للجميع، إذ لكل أحد عِشْرة، زوجا كان أو وليّا، ولكن المراد بهذا الأمر في الأغلب الأزواج، وهو مثل قوله تعالى: {فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ} [البقرة: ٢٢٩]، وذلك توفية حقها من المهر والنفقة، وألا يعبس في وجهها بغير ذنب، وأن يكون مُنطلِقا في القول لا فَظّا ولا غليظا ولا مُظهرا ميلا إلى غيرها».

استوصوا بالنساء خيرا

ولضعف المرأةِ وانكسارها، فقد أكثر النبي -صلى الله عليه وسلم- من الاستيصاء بها خيرا، فعن عمر بن الأحوص -رضي الله عنه- في حجة الوداع أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ، ثم قال: (استوصوا بالنساء خيرا، فإنهن عندكم عوان، ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربا غير مبرّح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا، إن لكم من نسائكم حقا، ولنسائكم عليكم حقا، فأما حقكم على نسائكم، فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن) [رواه ابن ماجه والترمذي]، وعوان أي أسيرات، فانظر كيف شبّه النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي أوتي جوامع الكلم الزوجة بالأسير الذي لا يملك من أمره شيئا وذلك لتحكم الرجل بها، عن عروة بن الزبير، قال: «قالت لنا أسماء بنت أبي بكر: يا بنيّ وبني بنيّ، إن هذا النكاح رقّ، فلينظر أحدكم عند من يُرق كريمته» [رواه سعيد بن منصور].

وقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (اللهم إنّي أُحرِّج حقّ الضعيفين: اليتيم والمرأة) [رواه أحمد وابن ماجه وابن حبان عن أبي هريرة]، وأحرّج حق الضعيفين أي أضيّقه على من ظلمهما.

وقال صلى الله عليه وسلم: (المرأة كالضلع، إن أقمتها كسرتها، وإن استمتعتَ بها استمتعتَ بها وفيها عوج) [رواه البخاري عن أبي هريرة]، قال ابن حجر: «في الحديث الندب إلى المداراة لاستمالة النفوس وتألف القلوب، وفيه سياسة النساء بأخذ العفو منهن والصبر على عوجهن، وأن من رام تقويمهن فإنه الانتفاع بهن، مع أنه لا غنى للإنسان عن امرأة يسكن إليها ويستعين بها على معاشه، فكأنه قال الاستمتاع بها لا يتم إلا بالصبر عليها».

وفي لفظ عند مسلم في صحيحه: (استوصوا بالنساء، فإن المرأة خُلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، إن ذهبت تقيّمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، استوصوا بالنساء خيرا).

قال الشوكاني: «فيه الإرشاد إلى ملاطفة النساء، والصبر على ما لا يستقيم من أخلاقهن، والتنبيه على أنهن خلقن على تلك الصفة التي لا يفيد معها التأديب أو ينجح عندها النصح، فلم يبق إلا الصبر والمحاسنة وترك التأنيب والمخاشنة» [نيل الأوطار].

هي الضلع العوجاء لست تقيمها
ألا إنّ تقويم الضلوع انكسارها
تجمع ضعفا واقتدارا على الفتى
أليس عجيبا ضعفها واقتدارها؟

إذا كره منها خلقا رضي آخر

أوبعد كل هذه النصوص الناهية الآمرة، المرغّبة الزاجرة، يغلّظ بعض الأزواج لزوجاتهم؟ ويتعدى آخرون ويظلمون؟ ويسيئون ويشدون؟ وعلامَ أوّل الحلول وآخرها عند بعضهم الطلاق؟ ويكأن الزوجة من بشرٍ خطائين، والزوج من مَلَكٍ معصومين، إنهن القوارير أيها الرجل فحنانيك!

عن أنس -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان في بعض أسفاره، وغلام أسود يقال له: أَنْجَشَة يحدو، فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (يا أنجشة، رويدك، سوقا بالقوارير) [رواه مسلم]، قال النووي في شرحه: «قال العلماء: سمي النساء قوارير لضعف عزائمهن، تشبيها بقارورة الزجاج، لضعفها وإسراع الانكسار إليها».

والزوج قد يكره من زوجته خُلقا ما، ولكنه قد يرضى منها آخر، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (لا يَفْرَك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خُلقا رضي منها آخر) أو قال: (غيره) [رواه مسلم عن أبي هريرة]، والفرك بفتح الفاء وإسكان الراء: البغض، قال النووي: «أي ينبغي أن لا يبغضها لأنه إن وجد فيها خُلقا يُكره وجد فيها خُلُقا مرضيا، بأن تكون شرسة الخلق لكنها دينة أو جميلة أو عفيفة أو رفيقة به أو نحو ذلك».

وقال الشوكاني: «فيه [أي الحديث] الإرشاد إلى حسن العشرة والنهي عن البغض للزوجة بمجرد كراهة خلق من أخلاقها، فإنها لا تخلو مع ذلك عن أمر يرضاه منها، وإذا كانت مشتملة على المحبوب والمكروه فلا ينبغي ترجيح مقتضى الكراهة على مقتضى المحبة» [نيل الأوطار].

ثم إن الله تعالى قد يجعل في صبر الزوج على زوجته وإن كرهها خيرا كثيرا، والدليل قوله عز وجل: {فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيرًا} [النساء: ١٩].

قال ابن الجوزي: «قوله تعالى: {فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً} قال ابن عباس: ربما رَزَق الله منهما ولدا، فجعل الله في ولدها خيرا كثيرا، وقد ندبت الآية إلى إمساك المرأة مع الكراهة لها، ونبهت على معنيين: أحدهما: أن الإنسان لا يعلم وجوه الصلاح، فرب مكروه عاد محمودا، ومحمود عاد مذموما، والثاني: أن الإنسان لا يكاد يجد محبوبا ليس فيه ما يكره، فليصبر على ما يكره لما يُحب» [زاد المسير].

وليس الذكر كالأنثى

وعن الضحاك -رحمه الله- قال: «إذا وقع بين الرجل وبين امرأته كلام، فلا يعجل بطلاقها وليتأن بها، وليصبر، فلعل الله سيريه منها ما يحب» [رواه ابن المنذر].

ثم هل كلُّ الرجال كُمّل؟ لا، وكذلك النساء، غير أن الرجال قد فُضّلوا عليهن درجة، وهذه الدرجة فيها من رجاحة العقل، والرصانة، والحكمة، والحلم، والأناة، والمروءة، وسعة الصدر والصبر ما لا تملكه النساء، فهن ناقصات العقل والدين، وإن كان ذلك ليس نقيصة فيهن ولا معرّة، إلا أنهن يفتقدن كثيرا مما أوتي الرجال.

وكم من بيت قائم على الحب ولكنه خاوٍ كالطبل متصدع البنيان، وكم من بيت قائم على الألفة والرحمة وطيب المعشر ثابت كالوتد، دائم وصاله قوية أواصره.

وعلى من ابتلي بامرأة سيئة الخلق أن لا يبرح باب ربه سائلا صلاحها، قال تعالى عن زوج زكريا، عليه السلام: {وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ} [الأنبياء: ٩٠]؛ «قال ابن عباس وعطاء: كانت سيئة الخُلُق، طويلة اللسان، فأصلحها الله تعالى فجعلها حسنة الخُلُق» [القرطبي: الجامع لأحكام القرآن].

هذا ونذكِّر كل زوجة مسلمة تؤمن بالله واليوم الآخر بشوق الحور لأزواجهن من أهل الدنيا ودعائهن على زوجته المؤذية له، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله، فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا!) [رواه أحمد وابن ماجه والترمذي عن معاذ].

إنَّ الهمم -أرشدكِ الله- نوعان، همم سامية عالية، وأخرى ساقطة نازلة. يقول ابن القيم، رحمه الله: «ولله الهمم! ما أعجب شأنها، وأشد تفاوتها، فهمة متعلقة بمن فوق العرش، وهمة حائمة حول الأنتان والحش» [مدارج السالكين].

لسان حالكِ



«لأموتنَّ والإسلام عزيز»



فأما الذين تعلَّقت هممهم بمن فوق العرش، فقوم تزينت لهم الدنيا فأغرتهم بالخسيس والدني، وجعلت من نفسها أكبر همِّهم ومبلغ علمهم، وغلّقت الأبواب دون المعالي وقالت: هيت لكم! فما كان منهم إلا أن أدبروا هلعى، وفروا منها فرار المعافى من المجذوم، لا يلوون على شيء سوى أن يعصمهم الرحمن منها ويكفيهم شرها، فعاشوا فيها والأرواح تتنفس عزة.

إن لله عبادا فطنا
طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا
أنها ليست لحيّ وطنا
جعلوها لُجّة واتخذوا
صالح الأعمال فيها سفنا

وأما الذين تحوم هِممهم حول الأنتان والحش، فقوم نجحت الدنيا في فتنتهم، وجعلت همَّهم بين مال وبطن وفرج، فعاشوا فيها والأرواح ترهقها ذلة.

ثم قال ابن القيم: «وإذا أردت أن تعرف مراتب الهمم، فانظر إلى همة ربيعة بن كعب الأسلمي -رضي الله عنه- وقد قال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (سلني)؛ فقال: أسألك مرافقتَك في الجنة؛ وكان غيره يسألُه ما يملأ بطنَه، أو يواري جلده، وانظر إلى همة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين عُرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فأباها، ومعلوم أنه لو أخذها لأنفقها في طاعة ربه تعالى، فأبت له تلك الهمة العالية، أن يتعلق منها بشيء مما سوى الله ومحابه، وعُرض عليه أن يتصرف بالملك، فأباه، واختار التصرف بالعبودية المحضة، فلا إله إلا الله، خالق هذه الهمة، وخالق نفس تحملها، وخالق همم لا تعدو همم أخس الحيوانات» [مدارج السالكين].

وجاء في «حلية الأولياء»: «عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، قال: اجتمع في الحِجر مصعب بن الزبير، وعروة بن الزبير، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، فقالوا: تمنّوا؛ فقال عبد الله بن الزبير: أما أنا، فأتمنّى الخلافة؛ وقال عروة: أما أنا، فأتمنّى أن يؤخذ عني العلم؛ وقال مصعب: أما أنا، فأتمنّى إمرة العراق والجمع بين عائشة بنت طلحة، وسكينة بنت الحسين؛ وقال عبد الله بن عمر: أما أنا، فأتمنّى المغفرة؛ قال: فنالوا كلهم ما تمنوا، ولعل ابن عمر قد غُفر له».

ويقال إن عمر بن عبد العزيز خطب الناس فقال في خطبته: «أيها الناس، إن لي نفسا توّاقة لا تُعطى شيئا إلا تاقت إلى ما هو أعلى منه، وإني لمّا أُعطيت الخلافة تاقت نفسي إلى ما هو أعلى منها وهي الجنة» [البداية والنهاية].

ورُوي أن نابغة بني جعدة أنشد هذه الأبيات في حضرة النبي، صلى الله عليه وسلم:

بلغنا السماء مجدنا وثراؤنا
وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فيسأله النبي: (إلى أين المظهر يا أبا ليلى؟) قال: «إلى الجنة»؛ قال: (كذلك إن شاء الله) [رواه أبو نعيم والبيهقي في «دلائل النبوة»].

ولطالما كانت الجنة همَّةَ الصالحين من الأولين والآخرين.

وأنت يا مسلمة، كيف هي همتك؟ أهي همة صفية بنت عبد المطلب؟ أم همة نسيبة بنت كعب؟ أم لعلها همة أم سلمة الأنصارية؟ رضي الله عنهن جميعا.

فأما صفية سليلة الحسب والنسب، عمّة النبي -صلى الله عليه وسلم- وشقيقة سيد الشهداء حمزة -رضي الله عنهما- ومن أوائل الذين آمنوا، فإنها لما رأت المسلمين يوم أُحُد، يتراجعون، تقدمت ورُمْحٌ بيدها، تضرب في وجوه المتراجعين وتقول: «انهزمتم عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟» بل وأكثر من ذلك، فيوم الخندق جمع النبي -صلى الله عليه وسلم- النساء في حصن حسان بن ثابت، كعادته -صلى الله عليه وسلم- إذا خرج للغزو، جمع النساء في ملجأ واحد، فجاء يهودي وأخذ يطوف حول الحصن، فقامت فأخذت عمودا، ثم نزلت من الحصن وتخفّت حتى مرّ اليهودي فضربته على رأسه فقتلته ثم قطعت رأسه بسكين.



أما نسيبة بنت كعب أم عمارة وما أدراك ما أم عمارة، فقد جاء في «الطبقات الكبرى»: «شهدت أم عمارة بنت كعب أُحُدا مع زوجها غزية بن عمرو وابنيها، وخرجت معهم بشَن لها في أول النهار تريد أن تسقي الجرحى، فقاتلت يومئذ وأبلت بلاء حسنا وجُرحت اثني عشر جرحا بين طعنة برمح أو ضربة بسيف، فكانت أم سعد بنت سعد بن ربيع تقول: دخلتُ عليها فقلت: حدثيني خبرك يوم أُحُد؛ قالت: خرجت أول النهار إلى أُحُد وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله وهو في أصحابه، والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله، فجعلت أباشر القتال وأذب عن رسول الله بالسيف وأرمي بالقوس حتى خَلُصت إليّ الجراح؛ قالت: فرأيت على عاتقها جرحا له غور أجوف فقلت: يا أم عمارة، من أصابك هذا؟ قالت: أقبل ابن قميئة وقد ولّى الناس عن رسول الله يصيح: دلّوني على محمد فلا نجوت إن نجا، فاعترض له مصعب بن عمير وناس معه، فكنت فيهم فضربني هذه الضربة ولقد ضربته على ذلك ضربات ولكنّ عدو الله كان عليه درعان».

وأما أم سلمة أو أم عامر الأنصارية فقد قال عنها الذهبي: «من المبايِعات المجاهدات، روت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- جملة أحاديث، وقتلت بعمود خبائها يوم اليرموك تسعة من الروم» [سير أعلام النبلاء].

وأين أنت يا مسلمة من هموم أمّتك؟ وكيف أنت اليوم وقد انجلى الظلام، وانقشع الغمام عن فسطاطين لا ثالث لهما؛ فسطاط إيمان وفسطاط كفر؟ وبم تحدثين نفسك كلما اشتد البلاء وعظمت المحنة؟ بالصبر والثبات أم بالنكوص والنجاة؟

إن الأرض أرض جهاد وقتال، وإن الحرب سجال، نُصيب من الأعداء ومنا يصيبون، نألم ويألمون، ولكن مما يجرّئ المشرك على الموحد، رَخاوة العقيدة وضعف الإيمان والجزع عند الخطوب، فما أن يُشيعَ مرجِف أو مرجفة خبر ظهور للكفار في مكان ما، حتى ترجف القُلوب وتشخَص الأبصار خاصة بين النساء، ولكن أبدا ما تلكم بقلوب أو أبصار الصادقات ذوات الهمم العلية، لأن المؤمنة الصادقة وعند احتدام الصفوف، لسان حالها دائما: «دمي دون ديني، بل دمي دون شبر واحد علاه حكم الله ورفرف في سمائه راية العقاب!» لسان حال حفيدات صفية وأم عمارة: «لنموتنّ والإسلام عزيز»

ولما أوصى ابن مسعود -رضي الله عنه- رجلا من أهل اليمن وأرشده كيف يعتصم عن الفتن والفتانين قال اليماني: «فإن لم أُترك؟» فقال ابن مسعود، رضي الله عنه: «وما أراك تُترك، فإن طلبوا دمك ودينك، فابذل دمك، واحرز دينك»؛ قال اليماني: «قُتلتُ، ورب الكعبة!» قال ابن مسعود: «هي هي، أو النار، هي هي، أو النار» [رواه ابن بطة في الإبانة الكبرى].

وما ينبغي لمن عَرَفَتْ قدر هذا الدين، وعاشت تحت عزة الشريعة أن تراودها فِكرة الرجوع خطوة إلى الوراء، أو الانحياز أو الهروب، وإنما ينبغي عليها أن تحدِّث نفسها بكلمتين بسيطتين هما عمود الأمر وذروة سنامه: «إما نحن وإما هم، إما أرض الخلافة وإما الجنة!»

وكما أنه من المعلوم أن لا جهاد على النساء من حيث الأصل، فلتعلم المسلمة أيضا أنه ومتى دخل العدو بيتها فالجهاد حينها متعيِّن عليها كما الرجال، تدفعه بما أمكنها، ونصوص الفقهاء في ذلك كثيرة مبسوطة في مظانها من كتب الفقه.

قد أنعم الله عليّ

> **إذا سمع الموحد أن طائفة من إخوانه أصابها ابتلاء أو مستها محنة، أيقن أن النعمة الحقيقيّة هي في أن يُصاب معهم، أو يُقتل قبلهم.**

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، أما بعد...

لم يكن قول {قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ} من أقوال المؤمنين الصادقين الشاكرين لله على أنعمه، بل كان قول المنافقين حينما تخلّفوا عن الغزو، وابتعدوا عن مواطن الابتلاء والقتل والجراح، وهو قول يستسيغه من تخلّف عن معركة خسر فيها المجاهدون جولة، أو انحازوا عن أرض، أو كثر فيهم القتل، وما مصدر ذلك إلا جهل بمعنى النعمة الحقيقية التي يجب على المؤمن شكرها.

قال ابن كثير -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً} [النساء: ٧٢]: «قال مجاهد وغير واحد: نزلت في المنافقين، وقال مقاتل بن حيان: {لَّيُبَطِّئَنَّ}، أي: ليتخلفن عن الجهاد. ويحتمل أن يكون المراد أنه يتباطأ هو في نفسه، ويبطّئ غيره عن الجهاد، كما كان عبد الله بن أبي بن سلول -قبحه الله- يفعل، يتأخر عن الجهاد، ويثبّط الناس عن الخروج فيه. وهذا قول ابن جريج وابن جرير؛ ولهذا قال تعالى إخبارا عن المنافق أنه يقول إذا تأخر عن الجهاد: {فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ}، أي: قتل وشهادة وغَلْبُ العدو لكم، لما لله في ذلك من الحكمة {قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً}، أي: إذ لم أحضر معهم وقعة القتال، يعد ذلك من نعم الله عليه، ولم يدْرِ ما فاته من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قُتل»، انتهى كلامه.

فإذا علم الموحد هذا وسمع أن طائفة من إخوانه أصابها ابتلاء أو مستها محنة، أيقن أن النعمة الحقيقيّة هي في أن يُصاب معهم، أو يُقتل قبلهم، فليس الهروب من الشهادة نعمة، بل النعمة في أن يقتحم العبد غمار المعارك، وأن يكون في الصفّ الأوّل، وأن لا يلفت وجهه حتى يُقتل، فهذه هي النعمة الحقيقيّة، وهذا هو المفهوم الصحيح الذي يجب أن يرسخ في نفس المؤمن، فيبقى باحثا عن القتل أينما كان. عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (من خير معاش الناس لهم، رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلما سمع هيعة، أو فزعة، طار عليه، يبتغي القتل والموت مظانه) [رواه مسلم].

ومن أقوال المنافقين القبيحة وأفعالهم، تحسُّرهم بعد أن فاتهم ما منّ الله به على عباده المؤمنين من نصر وغنيمة، قال تعالى: {وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا} [النساء: ٧٣].

قال ابن كثير في تفسيره: «{وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ}، أي: نصر وظفر وغنيمة، {لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ}، أي: كأنه ليس من أهل دينكم، {يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا}، أي: بأن يُضرب لي بسهم معهم فأحصل عليه، وهو أكبر قصده وغاية مراده»، انتهى كلامه.

وبعد هذا، فمن كان يتحسّر على فوات غزوة فيها غنيمة وظفر، ويفرح أنه تخلّف عن غزوة أُصيب فيها المسلمون، فليراجع إيمانه، وليتّقِ ربّه، وليكثر من سؤال الله الهداية والثبات. هذا والحمد لله ربّ العالمين.

عيد الأضحى
شعيرة يجب تعظيمها

ما هي إلا أيام قليلة ويحلّ علينا يوم النحر (الأضحى)، ذلك اليوم الذي جعله الله شعيرة من شعائر الإسلام العظيمة، وشرعه الله ميقاتا لعبادة عظيمة من عبادات الإسلام وهي النُسك، أي نحر الأضاحي تقربا لله وحده -سبحانه وتعالى- وجعل أيامه مزامنة للأيام المعدودات التي شرع الله فيهن أداء فريضة الحج على المسلمين، كما أمر المؤمنين أن يتخذوه عيدا لأمّة الإسلام، يفرحون فيه بفضل الله، ويهنّئ بعضهم بعضا فيه، ويتّخذونه لهم شعارا يميّزهم عن أمم الشرك والكفر، فلا يشاركون المشركين أعيادهم ومهرجاناتهم، بل يخالفونهم فيها إلى ما شرعه الله لهم من الأعياد، وهما يوما فطرهم ونحرهم.

وقد دلت الأحاديث الكثيرة على أن اتخاذ هذا اليوم عيدا للمسلمين هو شريعة شرعها الله تعالى، منها حديث أنس بن مالك –رضي الله عنه– قال: «كان لأهل الجاهلية يومان في كل سنة يلعبون فيهما، فلما قدم النبي – صلى الله عليه وسلم– المدينة قال: (كان لكم يومان تلعبون فيهما وقد أبدلكم الله بهما خيرا منهما: يوم الفطر ويوم الأضحى)» [رواه النسائي، وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي].

وبذلك يتبيّن أن تعظيم هذا اليوم، واتخاذه عيدا، إنما هو تعظيم لأمر الله تعالى، الذي جعل هذا اليوم خاصّا بأمّة الإسلام، كما قال تعالى: {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} [الحج: ٣٢]، وأن إظهار الفرح والسرور بهذا اليوم أمر مندوب، كما في قول النبي – صلى الله عليه وسلم– لصاحبه أبي بكر الصديق –رضي الله عنه– في قصة الجواري اللواتي كن يغنين عند أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها: (يا أبا بكر، إن لكلّ قوم عيدا، وإنّ هذا عيدنا) [رواه البخاري ومسلم]، بخلاف ما يدعو إليه بعض الناس هذه الأيام، ممّن ينهى المسلمين عن اتخاذه عيدا وفرحا بقولهم: «لا عيد حتى تتحرّر القدس!»، أو «لا عيد والمسلمون يُقتّلون في كل مكان!»، وما إلى ذلك من الأقوال المنكرة التي ما أنزل الله بها من سلطان، وما لهم عليها من بينة ولا دليل، بل شابهوا فيها قول الرافضة الذين خالفوا أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم– بشكر الله –عز وجل– يوم العاشر من محرم على إنجائه موسى –عليه السلام– وقومه من فرعون بالصوم، بأن جعلوه يوم نَوْح ولطم بدعوى أنّه وافق يوم مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما.

ومن صور تعظيم هذا اليوم طاعة الله تعالى فيما أمر به من عبادات مخصوصة به، وعلى رأسها النُسك وهو نحر الأضاحي قربة لله –عز وجل– فقد قال تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ} [الحج: ٣٤]، وقال تعالى: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} [الكوثر: ٢]، وقال تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: ١٦٢]، لذلك فإن الحرص على أداء هذه العبادة هو حرص على التوحيد، وإظهار له، وصورة من صور البراءة من الطواغيت الذين يذبح المشركون لهم الذبائح تقربا إليهم من دون الله –جل جلاله– وصورة من صور التمايز بين أهل الإيمان وأهل الأوثان ينبغي على الموحّدين إظهارها والحرص عليها.

وقد قال طائفة من الفقهاء بأن هذه العبادة واجبة على كل قادر من المسلمين يأثم بتركها، واتفق من لم يقل بوجوبها على أنها سنّة مؤكّدة عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أما وقتها فبعد صلاة يوم النحر، وطيلة أيام التشريق الثلاث التي تليه، لقول النبي، صلى الله عليه وسلم: (من ذبح قبل الصلاة فليذبح شاةً مكانها، ومن لم يكن ذبح فليذبح على اسم الله) [رواه البخاري ومسلم].

ومن عبادات هذا العيد أيضا، التكبير عقب الصلوات وفي الطريق إلى صلاة العيد، ورفع الصوت بذلك، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أصحّ الأقوال في التكبير، الذي عليه جمهور السلف والفقهاء من الصحابة والأئمة: أن يكبَّر من فجر يوم عرفة، إلى آخر أيام التشريق، عقب كل صلاة، ويشرع لكل أحد أن يجهر بالتكبير عند الخروج إلى العيد، وهذا باتفاق الأئمة الأربعة» [مجموع الفتاوى].

ومن هذه العبادات أداء صلاة العيد مع الجماعة، ومن سننها تأخيرها يوم الفطر، ليتمكّن المسلمون من أداء زكاة فطرهم، بينما يُسنّ تبكيرها يوم النحر ليتمكّن المسلمون من ذبح أضاحيهم، وكذلك فإنه يسنّ أن يَطعم المسلم قبل الصلاة يوم فطره، ولا يَطعم قبل الصلاة يوم نحره حتى يأكل من ذبيحته بعد الصلاة.

ومن صور تعظيم هذه الأيام أن يترك المرء ما يندب فعله في أيام أخرى من السنة، وهو صيام التطوّع، لأنها أيام أكل وشرب كما وصفها النبي –صلى الله عليه وسلم– بقوله: (أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله) [رواه مسلم].

ومن صور تعظيم هذا اليوم اجتناب المعاصي والآثام فيه، كالنياحة على الموتى، والتبرّج وحلق اللحى بدعوى التزيّن، واختلاط الرجال بالنساء من غير المحارم والمصافحة بينهم بدعوى تهنئة العيد، والإسراف في المأكل والمشرب والملبس، وشرب الدخان، والدخول إلى أماكن الفسق والمجون، وسماع الأغاني و مشاهدة المسلسلات والأفلام والمسرحيات والبرامج التي فيها ما حرّم الله بدعوى الفرح بالعيد، وقطع الرحم والتهاجر بين المسلمين، وغير ذلك من المعاصي التي يفعلها بعض الناس في هذه الأيام عوضا عن هجر المنكرات فيها تعظيما لشأنها.

وإننا نحمد الله تعالى أن أعاد علينا هذا العيد ونحن في ظل دولة الخلافة، وفي دار الإسلام، حيث يكون الدين كله لله تعالى وحده لا شريك له، وحيث تحكّم شريعته، وتقام حدوده، ويؤمر فيها بالمعروف وينهى عن المنكر، ويعزّ فيها المسلمون، ويخنس المنافقون.

ولكن ما زال في الحلق غصّة من بقاء بيت الله الحرام وما جاوره من الأرض أسيرا بيد المرتدين من طواغيت آل سعود، الذين يمنعون الموحّدين منه كما كان مشركو قريش يفعلون مع النبي –صلى الله عليه وسلم– وصحابته الكرام، فيحرمونهم بذلك من أداء فريضة الحج التي افترضها الله على من استطاع إليه سبيلا من المسلمين، وفي الوقت ذاته يفتح أولئك الطواغيت الباب مشرعا أمام إخوانهم المشركين من الرافضة والقبوريين والطواغيت والإخوان المرتدين ليدخلوا المسجد الحرام، وقد أمر الله سبحانه بمنعهم من دخوله بقوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} [التوبة: ٢٨]، وتمتد أياديهم النجسة أيضا إلى مسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ليقيموا مجالسهم الشركية في جواره.

فإن كنا حبسنا وإخواننا العذر عن أداء ما افترضه الله علينا هذا العام من حج بيته الحرام، فإننا واثقون من فتح الله القريب لنا، كما فتح على نبيه –صلى الله عليه وسلم– من قبل، بعد أن صدقه وعده، {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح: ٢٧].

ولنطهرنّ مكّة –بإذن الله– من أوثان الطواغيت المتمثلة بمحاكمهم الوضعية الشركية، كما طهرها نبينا –صلى الله عليه وسلم– من أوثان قريش وأصنامهم، وكما طهرها تلاميذ الشيخ محمد بن عبد الوهاب من أوثان الصوفيّة والروافض، وما ذلك على الله بعزيز.



الغلظة على الكفار والمرتدين
في سيرة الخلفاء الراشدين

كان الصحابة -رضوان الله عليهم- أرقّ الناس أفئدة، وألينهم قلوبا وجانبا، وأحسنهم معشرا وأخلاقا، وأخلصهم في الدعوة والحرص على نشر الدين ورفع راية الإسلام، وكانوا أشد الناس حرصا على التمسك بالهدي النبوي واتّباع سنّة الرسول -صلى الله عليه وسلم- في الأمور كلّها، ومن ذلك قضية التعامل مع الكفار في أوقات السلم وأوقات الحروب على حد سواء، فقد كانوا أشداء على الكفار، يغلظون عليهم بالسيف واللسان، حتى ثبّتوا للدين أصوله، وأقاموا للإسلام قواعده، ورفعوا للتوحيد رايته.

وأولهم الصديق -رضي الله عنه- الذي ثبّت الله الإسلام بثباته حين عزم على قتال المرتدين الذين امتنعوا عن شريعة واحدة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة، وهي فريضة الزكاة، فلم يفرق بينهم وبين من عاد إلى عبادة الأوثان أو من اتبع الدجّالين، لذا عقد الألوية وبث السرايا، ومنها اللواء الذي عقده لسيف الله المسلول خالد بن الوليد، رضي الله عنه.

وفي أولى صولاته مع المرتدين تمكن خالد -رضي الله عنه- من كسر جيش طليحة بن خويلد الأسدي، ومن انضم إليه من قبائل العرب، ففلَّ جمعهم وكسر شوكتهم، فأرسل الصديق إليه يوصيه بالتنكيل والإثخان فيهم، قال ابن كثير: «وقد كتب أبو بكر الصديق إلى خالد بن الوليد حين جاءه أنه كسر طليحة ومن كان في صفه وقام بنصره، فكتب إليه: ليزدك ما أنعم الله به خيرا، واتق الله في أمرك، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، جُدَّ في أمرك ولا تلن، ولا تظفر بأحد من المشركين قتل من المسلمين إلَّا نكلت به، ومن أخذت ممن حاد الله أو ضاده ممن يرى أن في ذلك صلاحا فاقتله» [البداية والنهاية].

أوصى الصدّيق أميره بقتل المرتدين والتنكيل بهم

وقد أنفذ سيف الله المسلول الوصية، فانطلق يطلب مَن بقي مِن المرتدين مِن فلول الجيش المنهزم وينكل بهم ويقتص منهم، قال ابن كثير: «فجعل يتردَّد في طلب هؤلاء شهرا يأخذ بثأر من قتلوا من المسلمين الذين كانوا بين أظهرهم حين ارتدوا، فمنهم من حرَّقه بالنار ومنهم من رضخه بالحجارة، ومنهم من رمى به من شواهق الجبال، كل هذا ليعتبر بهم من يسمع بخبرهم من مرتدة العرب»، وفي هذا إرهاب لمن بقي من المرتدين الذين بدءوا يتسامعون هذه الأخبار فبادر بعضهم إلى التوبة والانقياد وعاند آخرون وأصروا على القتال والجلاد.

ولما قدم وفد بزاخة يسألون أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- الصلح متعهدين بالرجوع إلى أحكام الإسلام كافة، خيرّهم بين الحرب المجلية أو السلم المخزية، قال ابن كثير: «فقالوا يا خليفة رسول الله أما الحرب المجلية فقد عرفناها، فما السلم المخزية؟ قال: تؤخذ منكم الحلقة والكراع وتتركون أقواما يتبعون أذناب الإبل، حتى يري الله خليفة نبيه والمؤمنين أمرا يعذرونكم به، وتؤدون ما أصبتم منا ولا نؤدي ما أصبنا منكم، وتشهدون أن قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار»، والحديث عند البخاري مختصرا.

وهذا الفعل من الصديق -رضي الله عنه- إذلال لمن حارب الله ورسوله ليتبين لهم سوء ما فعلوه وعظم ما اقترفوه، وفيه تأمين لدولة الإسلام من خطرهم بنزع سلاحهم بعد توبتهم، وهو منبئ عن عزة الإسلام والمسلمين، فمع أنَّ الحرب لم تنته بعد مع المرتدين، إلا أنه فرض الشروط التي تدل على عزة المسلمين وعزة دولتهم وذلة من يعاديها أو يحاربها.

وللصديق رضي الله عنه موقف آخر مع مرتد خادع المسلمين وحاربهم وهو الفجاءة السلمي، فكان جزاؤه أن يحرقه بالنار، قال ابن كثير: «وقد كان الصديق حرَّق الفجاءة بالبقيع في المدينة، وكان سببه أنه قدم عليه فزعم أنه أسلم وسأله أن يجهز معه جيشا يقاتل به أهل الردة، فجهز معه جيشا فلما سار جعل لا يمر بمسلم ولا مرتد إلا قتله وأخذ ماله، فلما سمع الصديق بعث وراءه جيشا فردّه، فلما أمكنه بعث به إلى البقيع فجُمعت يداه إلى قفاه، وألقي في النار فحرقه وهو مقموط».

وأما في اليمامة فقد جرت أشد المعارك وأحماها وطيسا مع المرتدين من أتباع مسيلمة الكذاب، وبذل فيها الصحابة -رضوان الله عليهم- أقصى ما يستطيعون حتى مكّنهم الله من رقاب أعدائهم فأبادوا خضراءهم، قال ابن كثير: «فكان جملة من قتلوا في الحديقة وفي المعركة قريبا من عشرة آلاف مقاتل، وقيل واحد وعشرون ألفا، وقتل من المسلمين ستمائة وقيل خمسمائة»، وقال ابن الأثير في «الكامل»: «ووصل كتاب أبي بكر إلى خالد أنْ يقتل كل محتلم، وكان قد صالحهم فوفى لهم ولم يغدر»، ولولا الصلح الذي عقده خالد بن الوليد -رضي الله عنه- مع مجاعة عن قومه بني حنيفة قبل وصول كتاب الصديق -رضي الله عنه- لاستأصل ما بقي منهم، والله أعلم.

وفي البحرين بعد أن أثخن العلاء بن الحضرمي -رضي الله عنه- بمرتديها ففروا أمامه وتبعهم المسلمون ينكلون بهم، ركب المرتدون السفن وعبروا الخليج، قال ابن كثير: «ثم ركب المسلمون في آثار المنهزمين يقتلونهم بكل مرصد وطريق، وذهب من فر منهم أو أكثرهم في البحر إلى دارين»، وهنا لم يترك لهم المسلمون فرصة التقاط الأنفاس أو الهرب بأنفسهم، فقرروا عبور الخليج بالسفن إليهم، ولما وجدوا أنَّ ذلك سيؤخرهم عن مبتغاهم قرر العلاء الحضرمي -رضي الله عنه- أن يخوض هو وجيشه الخليج متوكلاً على ربه مستعينا به، قال ابن كثير: «فأجاز بهم الخليج -بإذن الله- يمشون على مثل رملة دمثة فوقها ماء، لا يغمر أخفاف الإبل، ولا يصل إلى ركب الخيل ومسيرته للسفن يوم وليلة، فقطعه إلى الساحل الآخر فقاتل عدوه وقهرهم واحتاز غنائمهم ثم رجع فقطعه إلى الجانب الآخر، فعاد إلى موضعه الأول وذلك كله في يوم، ولم يترك من العدو مخبرا واستاق الذراري والأنعام والأموال»، وعلى هذه الوتيرة كانت كل حروب الردة، تنكيل وإثخان بالمرتدين حتى يرجعوا لأمر الله أو يقتلوا على ردتهم.

أجرى خالد النهر بدماء الفرس، وحرّق علي من ارتد من أصحابه غلوّا فيه

وبفراغ الصديق -رضي الله عنه- من حروبهم، عمد إلى البدء في فتوح العراق والشام، فالمرتدون عقبة كؤود في طريق الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام في الأرض لا بد من اقتلاعها، حتى يتيسر لأمة الإسلام دعوة من خالفها من الأمم وقتالهم على أمر الله.

وفي إحدى معاركه مع الفرس المجوس أقسم سيف الله المسلول -رضي الله عنه- أن يجري النهر بدمائهم، قال ابن كثير: «وقال خالد اللهم لك علي إن منحتنا أكتافهم أن لا أستبقي منهم أحدا أقدر عليه حتى أجري نهرهم بدمائهم، ثم إن الله -عز وجل- منح المسلمين أكتافهم، فنادى منادي خالد الأسر الأسر لا تقتلوا إلا من امتنع من الأسر، فأقبلت الخيول بهم أفواجا يساقون سوقا وقد وكَّل بهم رجالا يضربون أعناقهم في النهر، ففعل ذلك بهم يوما وليلة، ويطلبهم في الغد ومن بعد الغد، وكلما حضر منهم أحد ضربت عنقه في النهر، وقد صرف ماء النهر إلى موضع آخر، فقال له بعض الأمراء إن النهر لا يجري بدمائهم حتى ترسل الماء على الدم فيجري معه فتبرَّ بيمينك، فأرسله فسال النهر دما عبيطا، فلذلك سمي نهر الدم إلى اليوم... وبلغ عدد القتلى سبعين ألفا».

وفي إحدى حروب خالد بن الوليد -رضي الله عنه- مع الروم سأله أحد قادتهم -وهو ماهان- اللقاء والمحاورة ليرده عن قصده فكان الجواب المرعب من خالد مُوقفاً له عند حده. قال ابن كثير: «فقال ماهان: إنا قد علمنا أنّ ما أخرجكم من بلادكم الجهد والجوع، فهلموا إلى أن أعطي كل رجل منكم عشرة دنانير وكسوة وطعاما وترجعون إلى بلادكم، فإذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها؛ فقال خالد: إنه لم يخرجنا من بلادنا ما ذكرت، غير أنَّا قوم نشرب الدماء، وأنه بلغنا أنه لا دم أطيب من دم الروم، فجئنا لذلك؛ فقال أصحاب ماهان: هذا والله ما كنا نحدَّث به عن العرب».

وفي خلافة علي -رضي الله عنه- ظهر قوم غلوا فيه وادعوا ربوبيته فأمر بإحراقهم جميعا، ذكر الذهبي في «تاريخ الإسلام»: «جاء أُناس إلى علي فقالوا: أنت هو! قال: من أنا؟ قالوا: أنت هو! قال: ويلكم من أنا؟ قالوا: أنت ربنا! قال: ارجعوا! فأبوا، فضرب أعناقهم، ثم خدّ لهم في الأرض، ثم قال: يا قنبر ائتني بحزم الحطب، فحرقهم بالنار، وقال: لما رأيت الأمر أمراً منكراً أوقدت ناري ودعوت قنبرا».

إن ما ذكرناه من قصص هنا لا يعدو كونه نماذج قليلة من نمط تعامل الصحابة مع الكفرة والمرتدين في حروبهم معهم، فمن شاء أن يسير على هداهم فقد اهتدى ونجا، ومن أراد أن يتبع غير سبيلهم، فسيوليه الله ما تولّى من المناهج والملل الضالة المضلة، ومن زعم أنه أهدى منهم فقد كذب على الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- والله يهدي إلى سواء السبيل.

الله .. الله

فيما ملكت أيمانكم

إن كثيرا من المسلمات اليوم، يتباهين ويفتخرن بالعيش في ظل الخلافة، أعزها الله، وتحت شريعة الإسلام وحكمه وعدله، ورغم ذلك نجد بعضهن بعيدات عن إقامة العدل في بيوتهن وعلى من استرعاهن الله من ملك اليمين، سواء ملك يمينهن أو ملك يمين أزواجهن، ومرد ذلك إلى أمرين اثنين: أولهما غيرة عمياء مذمومة، وثانيهما جهل بعضهن بأحكام الدين، ولو أدركت كل مسلمة أنها مرآة لدينها، فتخلقت بأخلاق الإسلام، وتحلت بقيمه لاختلف الأمر وصلح الحال.

وإن كنا لا نلوم المسلمة على غيرة محمودة لا محمومة، يكبح جماحها الشرع، فقد غارت سارة زوج نبي الله إبراهيم -على نبينا وعليه الصلاة والسلام- من هاجر جاريته وأم ولده إسماعيل، وكذلك غارت بعض أمهات المؤمنين من مارية جارية نبينا وأم ولده إبراهيم، ولكنهن لم يأتين ببدع من الغيرة، كأن يضربن ويشتمن ويتطاولن، والله المستعان.

ولتعلم المسلمة ابتداء أن نبينا -صلى الله عليه وسلم- الذي قال عنه ربه -عز وجل- مخاطبا المؤمنين: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر: ٧]، كان له أربع إماء: مارية وهي أم ولده إبراهيم، وريحانة، وجارية أخرى أصابها في بعض السبي، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش [ذكره ابن القيم في زاد المعاد].

ثم لقد أوصى الله -عز وجل- في كتابه العزيز خيرا بملك اليمين، جواري كانوا أو غلمانا، فقال تبارك اسمه: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا} [النساء ٣٦]، قال ابن كثير، رحمه الله: «وقوله: {وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} وصية بالأرقاء؛ لأن الرقيق ضعيف الحيلة أسير في أيدي الناس».

وقد فاضت روح النبي -عليه الصلاة والسلام- وهو يوصي بالصلاة وملك اليمين، عن أنس -رضي الله عنه- قال: «كانت عامة وصية رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين حضره الموت: (الصلاة وما ملكت أيمانكم الصلاة وما ملكت أيمانكم). حتى جعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يغرغر بها صدره، وما يكاد يفيض بها لسانه» [رواه أحمد وابن ماجه وغيرهما].

وحري بالمسلمة تدبر هذه الوصية، فها هو النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرن بين الصلاة عمود الدين التي تركها كفر، وبين الإحسان إلى الإماء والغلمان، هذا وهو لا يدري ما سيصيب الإماء في زماننا من بعض المسلمات، أصلحهن الله، فكيف لو علم بأبي هو وأمي ما سيؤول إليه حالهن! وإن النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي أوصى خيرا بالنساء، هو نفسه الذي أوصى خيرا بالإماء، فلِمَ تتغنى بعض النساء بوصية النبي بهن خيرا، بينما وصيته بملك اليمين تزيغ عنها الأبصار؟

وقد علّمنا نبينا -صلى الله عليه وسلم- كيف نعامل الرقيق، فجاءت كتب السيرة ومصنفات أئمة الحديث زاخرة بهديه -عليه الصلاة والسلام- في تعامله مع الغلمان والجواري، هديه الذي ميزانه الرحمة والإحسان.

وقد بوّب البخاري في صحيحه: «باب كراهية التطاول على الرقيق، وقوله: عبدي أو أمتي»، جاء فيه من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ولا يقل أحدكم: عبدي أمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي).

وعن المعرور بن سويد، قال: «رأيت أبا ذر الغفاري -رضي الله عنه- وعليه حلة، وعلى غلامه حلة، فسألناه عن ذلك، فقال: إني ساببت رجلا، فشكاني إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال لي النبي، صلى الله عليه وسلم: (أعيَّرته بأمه)، ثم قال: (إن إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم)» [رواه البخاري ومسلم]، قال النووي: «يجب على السيد نفقة المملوك وكسوته بالمعروف، بحسب البلدان والأشخاص، سواء كان من جنس نفقة السيد ولباسه أو فوقه، حتى لو قتر السيد على نفسه تقتيرا خارجا عن عادة أمثاله، إما زهدا أو شحا، لا يحل له التقتير على المملوك وإلزامه بموافقته إلا برضاه».

هذا وإن الأحاديث الواردة في الحث على الإحسان إلى المماليك، والزاجرة عن الإساءة إليهم كثيرة وفيرة.

ولا تحسبن المسلمة أنها لن تحاسب على الإساءة لأَمَة زوجها لأنها تحت يمينه هو لا هي، فهذه امرأة تدخل النار في هرة حبستها، فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت، فكيف بمن تتطاول على أَمَة مسلمة في بيتها بالضرب وسوء المعاملة؟! تغار على زوجها فلا تجد أمامها غير هذه المستضعفة لتصب عليها جام غضبها! لعمرو الله ما هذا من دين نبيّنا محمد -صلى الله عليه وسلم- ولا من هديه!

نبيّنا محمد -صلى الله عليه وسلم- الذي بيّن أن كفارة من تعدّى على عبد أو أمة باللطم أو الضرب العتق ولا شيء سواه، أخرج الإمام مسلم في صحيحه في «باب صحبة المماليك، وكفارة من لطم عبده» عن زاذان أبي عمر، قال: «أتيت ابن عمر وقد أعتق مملوكا، قال: فأخذ من الأرض عودا أو شيئا، فقال: ما فيه من الأجر ما يسوى هذا، إلا أني سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (من لطم مملوكه، أو ضربه، فكفارته أن يعتقه)»... سبحان الله، ابن عمر -رضي الله عنهما- ورغم عظيم الأجر الذي يناله من أعتق مملوكا لوجه الله تعالى، إلا أنه أدرك أن ضربه له قد أذهب هذا الأجر، فأعتقه فقط ليكفّر عن هذا الذنب العظيم، ومقدار الأجر فيه لا يساوي عودا!

وهذا أبو مسعود الأنصاري -رضي الله عنه- يقول: «كنت أضرب غلاما لي، فسمعت من خلفي صوتا: (اعلم، أبا مسعود، لله أقدر عليك منك عليه)، فالتفت فإذا هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقلت: يا رسول الله، هو حر لوجه الله، فقال: (أما لو لم تفعل للفحتك النار) أو (لمستك النار)» [رواه مسلم].

وعن هلال بن يساف، قال: عجل شيخ فلطم خادما له، فقال له سويد بن مقرن: «عجز عليك إلا حر وجهها، لقد رأيتني سابع سبعة من بني مقرن ما لنا خادم إلا واحدة، لطمها أصغرنا، فأمرنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن نعتقها» [رواه مسلم].

وإنا لا ننكر ما يتصف به بعض الغلمان والجواري من مكر ولؤم، ولكن ذلك لا يبيح للمسلمة التي تخاف ربها وتخشى عقابه، أن تأخذ جميع السبايا بجريرة واحدة أخطأت أو أبقت، وهذه أم المؤمنين حفصة -رضي الله عنها- قد سحرتها جارية لها، فقتلها عبد الرحمن بن زيد، فهل اتهم الصحابة -رضوان الله عليهم- كل الجواري بأنهن يستهدفن مواليهن بالأذى والخيانة؟

اعلمي يا مسلمة أن هؤلاء الإماء حتى وإن أسلمن، فهن يصبن ويخطئن، ثم لا تنسَ الأخت المسلمة أنهن حديثات عهد بالإسلام، ومن الواجب عليك إن رأيت منهن خطأ أن تعلميهن، وتنصحيهن، وتخوفيهن بالله العظيم، لا أن تتطاولي عليهن باليد واللسان! فهذا ديننا السمح وهذا شرعنا الحنيف، وما أكثر حِكَم الخالق في السبي، ولكن الأَمَة لا تعلم ذلك ويلزمها كثير من الوقت والتعليم والشرح حتى تعي الإسلام وأحكامه، فتدرك حينها أنه ما أريد بسببها إلا خيرا.

وهذا من الأدوار الموكلة إلى المرأة الموحّدة، تلك التي كَبر الإسلام في عينها حتى ما عادت تلقي لسفاسف الأمور بالا، من غيرة وعنجهية وفظاظة في تعاملها مع الآخرين وإن كانت سبية كافرة، فما بالنا بمن هداها الله إلى الإسلام، وأنار قلبها بقراءة القرآن وحفظه، وتعلُّم أحكام الدين والعمل بها؟

ثم إن بعض المسلمات -هداهن الله- لا يتورعن عن رمي بعض الإماء بالنفاق وأنهن قد أسلمن خوفا ومكرا، ولمثل هؤلاء نقول: أولاً، إن الله تعالى لم يأمرنا بالبحث في سرائر الناس وبواطنهم ونواياهم، وإنما جعل لنا الظاهر للحكم عليهم، فمن أظهر لنا الإسلام عاملناه معاملة المسلم ولم نشق عن صدره لنتبين ما يبطن إيمانا أو كفرا؛ عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله) [متفق عليه]، وحسابهم على الله أي فيما أضمروا في صدورهم، وكم من أمة في الدنيا قد تسبق حرة غدا في الجنة، إذ لا فرق عند الله -عز وجل- بين المؤمنين إلا بالتقوى، لا بالعرق ولا اللون ولا النسب، فهذه صفية بنت حيي -رضي الله عنها- قد شرفها الله تعالى بزواجها من النبي -صلى الله عليه وسلم- وبجعلها أمّاً للمؤمنين، وقد كانت من قبل أمة سباها الرسول -عليه الصلاة والسلام- لما غزا خيبر.

وتلك أم أيمن مولاة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وحاضنته، وقد ورثها من أبيه ثم أعتقها.

وهناك من النساء اليوم من تستاء من زوجها لأنه جعل للجارية بيتا مستقلا، وعلى هذه أن تعلم أنه لو كفت هذه الزوجة شرها عنه وعن أمته، وارتاح في بيته، لما فعل ذلك.

فيا أيتها المسلمة، الله الله في تقوى الله، وتذكري أن باب السبي والاسترقاق باب شديد على الكفار، لما فيه من ذلة لهم وصغار، فليكن همك هم دين وأُمَّة، لا هم دنيا وأَمَة.

بشّر الصابرين بأن نصر الله قريب

لقد خلق الله تعالى العباد، وجعل سنة الابتلاء ماضية فيهم، حتى يميز الخبيث من الطيّب، وليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة، فلا تمكين إلا بعد تمحيص، ولا نصر إلا بعد شدة، ولا سرّاء إلا بعد ضرّاء.



والطريق إلى الله -عز وجل- وما أعد للمؤمنين فيه من جزيل عطاء، طريق باهض التكاليف، وهذه التكاليف لا يستطيع دفعها إلا المؤمنون حقا، المعلقة قلوبهم بالله وحده، الثابتون على نهج النبي -صلى الله عليه وسلم- وصحبه الكرام، وهم الذين لم يفتنهم الرجال ولا الأسماء، طلبوا الحق فعرفوا أهله، وأهل الحق ليسوا من الذين ذاع صيتهم في الجهاد لعقود، ثم بعدت عليهم الشقة فانتكسوا وارتكسوا وباتوا اليوم من أهل الخذلان والجحود، وليسوا من الذين أفنوا أعمارهم بين المحابر والطروس، ولما صاح البشير أن دولة الإسلام قد قامت فهلّموا أتبعوا العلم بالعمل، ولوا مستكبرين، كأن في آذانهم وقرا.

يقول ابن قيم الجوزية -رحمه الله- واصفا الطريق إلى جنات الخلد: «أين أنت والطريق طريقٌ تَعِب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورُمي في النار الخليل، وأُضجع للذبح إسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس، ولبث في السجن بضع سنين، ونُشر بالمنشار زكريا، وذُبح السيد الحصور يحيى، وقاسى الضر أيوب، وزاد على المقدار بكاء داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد» [الفوائد].

فإن كان هذا حال الأنبياء ومنهم أولو العزم -على نبينا وعليهم خير الصلاة وأزكى التسليم- لاقوا ما لاقوا في ذات الله -عز وجل- فصبروا وثبتوا، وأوذوا بسبب دعوتهم إلى التوحيد الخالص أيما أذية، فما وهنوا وما ضعفوا، فكيف بمن هم دونهم؟ ألا يُبتلون فيطهرون، ويمُحَّصون فيُخلِصون؟ وقد سئل الشافعي، رحمه الله: «أيّهما أفضل للرجل أن يمكّن أو يبتلى؟» فقال: «لا يمكّن حتى يبتلى» [الفوائد لابن القيم].

نعم؛ من لم تكن له بداية محرقة، لم تكن له نهاية مشرقة، ولا تمكين حتى تعظم الابتلاءات، وتضيق الحلقات، وتشتد الأزمات، لأن الموعود للصادقين والصادقات الجنة، الجنة التي يُرى فيها وجه الله، جل في علاه، أعلى النعم وأغلى الأمنيات، وهل يُدرك ذلك برغد الدنيا، ولذيذ العيش؟ بل قعصا بالرماح تحت ظلال السيوف؛ {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ} [البقرة: ٢١٤]؛ يقول الطبري، رحمه الله: «فمعنى الكلام: أم حسبتم أنكم أيها المؤمنون بالله ورسله تدخلون الجنة، ولم يصبكم مثل ما أصاب من قبلكم من أتباع الأنبياء والرسل من الشدائد والمحن والاختبار، فتبتَلَوا بما ابتُلُوا واختُبِروا به من البأساء وهو شدة الحاجة، والفاقة، والضراء، وهي العلل، والأوصاب؛ ولم تزلزلوا زلزالهم، يعني: ولم يصبهم من أعدائهم من الخوف، والرعب شدة وجهد حتى يستبطئ القوم نصر الله إياهم، فيقولون: متى الله ناصرنا».

ولم يَخفَ ذلك عن هرقل ملك الروم إذ قال لأبي سفيان: «سألتك كيف كان قتالكم إياه فزعمت أن الحرب سجال ودول، فكذلك الرسل تُبتلى ثم تكون لهم العاقبة... الحديث» [متفق عليه]، فكيف يخفى عن الموحدين الظانين بالله ظن الخير؟!

وإن هذا الدين غال، والدعوة إلى التوحيد الخالص وإعلاء كلمة الله في الأرض تحتاج إلى تضحيات جسام، كتلك التي قدمها أصحاب الأخدود، الذين استأصل الطاغوت حينها شأفتهم، وأبادهم عن بكرة أبيهم، ولم يبق منهم أحد، وكانوا -من بَعد إيمانهم برب الغلام- يرون الكفار وهم يخدون الأخاديد ويضرمون فيها النيران ليقحموا فيها من يثبت ولا يرتد، غير أن ذلك لم يخدش إيمانهم، ولم يزحزحهم عن دينهم، حتى جاءت امرأة كانت تحمل صبيا وتتقاعس عن إلقاء نفسها في النار، فيقول لها صبيها مثبتا: «يا أمه اصبري فإنك على الحق» [متفق عليه].

إن هذا الدين غال، والدعوة إلى التوحيد الخالص وإعلاء كلمة الله في الأرض تحتاج إلى تضحيات جسام

وروى ابن أبي شيبة في مصنّفه: عن الحسن قال: «كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا ذكر أصحاب الأخدود تعوذ بالله من جهد البلاء».

وقد بوّب البخاري في صحيحه: «باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر»، وأخرج فيه عن خباب بن الأرت -رضي الله عنه- قال: «شكونا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: (كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض، فيُجعل فيه، فيُجاء بالمنشار فيُوضع على رأسه فيُشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمُشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)».

وللصراع بين الحق والباطل ثمن يدفعه المؤمنون، فقد قال الله تعالى: {فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} [التوبة: ١١١]، وما أعظم تلك الدروس المنتقاة، والعبر المستقاة من غزوة أُحُد، تلك الغزوة التي لم يُقتل فيها وزير، أو أمير، أو قائد، واحد أو اثنان أو ثلاثة أو عشرة، بل قُتل فيها سيد الشهداء حمزة عم النبي -صلى الله عليه وسلم- في سبعين من خيرة الصحابة، رضي الله عنهم جميعا، يوم واحد يُقتل فيه هذا العدد من الرجال ويُمثّل بهم، وأي رجال؟ إنهم أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويوم أُحُد علا صوت الكفر، وانتفش ريش الكفرة وظنوا أن صولتهم تلك دائمة؛ «وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: (لا تجيبوه)، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: (لا تجيبوه)، فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قُتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا؛ فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يخزيك؛ قال أبو سفيان: اعلُ هبل، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: (أجيبوه)، قالوا: ما نقول؟ قال: (قولوا: الله أعلى وأجل)؛ قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: (أجيبوه)، قالوا: ما نقول؟ قال: (قولوا الله مولانا، ولا مولى لكم)» [رواه البخاري].

إذا سيد منّا خلا قام سيد
قؤول لما قال الكرام فعولُ
وأيامنا مشهورة في عدوّنا
لها غُرر معلومة وحُجولُ

وهل المؤمنون اليوم أكرم على الله من ذاك الرعيل الأول الذين ابتلوا وزلزلوا زلزالا شديدا حتى بلغت القلوب الحناجر؟! ومن يظن أن فتح رومية والقسطنطينية يُدرك بالكلام لا الكلوم، فهو مختلط موهوم!

ومن هنا يتبين أنه وأمام الابتلاء والتمحيص يصمد المؤمن الموحد، بإذن ربه، وينهار المنافق ومن في إيمانه وهن، فلا تبقى بعدها إلا الصفوة، أولئك الذين صُهر معدنهم ونُقّي من شوائب الدنيا وأدرانها، وحينها... حينها فقط يعلو في نفوسهم صوت الحق، وتأتيهم الإجابة تتنزل بردا وسلاما على قلوبهم: {أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: ٢١٤]، فواهاً ثم واهاً لذاك النصر وتلك الفتوح، وإنا لنجد ريح خلافتنا المباركة، وهي تعصف من مشارق الأرض إلى مغاربها، لولا أن يفندونا، فصبر جميل، والله المستعان.

أمام الابتلاء والتمحيص يصمد المؤمن الموحد، بإذن ربه، وينهار المنافق ومن في إيمانه وهن

من صفات علماء السوء

كنا قد بيّنّا في مقالة سابقة المفهوم الصحيح لمسمى أولي العلم وذكرنا أهم الخصائص التي صاروا بها أئمة في الدين، وبان من خلال الشرع أن علماء السوء والضلالة لا يدخلون أبداً في زمرة العلماء مهما حفظوا وصنّفوا، ومهما ذاع صيتهم، بل هم أشبه باليهود الذين علموا ثم كتموا وما عملوا بل ودعوا إلى الضلال، ولكثرة علماء السوء في زماننا الذين دأبوا على تضليل عباد الله فلا بد من ذكر صفاتهم ليكون الناس على بينة من الأمر.

أولاً: كتمان الحق

إنّ مِنْ غايات العلم بثَّه وبيانَه للناس لتعلّق هدايتهم ومصالحهم به، فكان كتمانُه وعدمُ إظهاره من أعظم المحرمات، وأشد الموبقات، ولذلك أخذ الله الميثاق على كل من أعطاه الكتب وعلمه العلم، أن يبين للناس ولا يكتم ما يحتاجون إليه، قال الله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ} [آل عمران: ١٨٧].

فكان عالمُ السوءِ خائناً لدين الله كافراً بنعمة العلم متسبباً في ضلال الناس، ولذلك قضى الله بلعنه، وجعَل لعنةَ الناس عليه؛ لسعيه في غشِّ الخلْق بكتمان الحق عنهم، قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} [آل عمران: ١٥٩].

وإنّ أعظمَ ما كتمه علماء السوء عن الناس، بيان حال الطواغيت وحكم الله فيهم، إذ قد أمرَنَا اللهُ باجتناب الطواغيت والكفر بهم، وجعَل هذا من أصل التوحيد والإيمان، فلما رأى الناسُ علماءَهم المُبرَّزين يداهنون الحكامَ الطواغيت ويصمتون عن شركهم وفسادهم، بل يُفتون بجواز الشرك للمصلحة، صار كثير منهم يؤمنون بالطواغيت، ويوالونهم، ويدخلون في دينهم، بل صاروا جنداً لهم، وسبب هذه الردّة كلها كتمان علماءِ السوء الحقَّ ولُبْسهم إياه بالباطل.

فالناظر إلى جزيرة العرب مثلاً يجد أنّ آل سلول ما تجرّؤوا على إظهار كثيرٍ من الكفر والفساد، وما اتّبعهم فئام من الناس على الردة إلا بسبب هيئة كبار العملاء وابن باز وابن عثيمين والفوزان وآل الشيخ المعاصرين وأمثالهم... وذلك بسبب كتْم هؤلاء الحق وعدم تبيينهم حال آل سلول للناس، بل زيادةً في التلبيس: وصفوهم بـ «ولاة الأمر»، وزعموا أنّهم أئمة شرعيّون!

وكتموا عن الخلق حكم المراسيم التشريعية الطاغوتية وحكم إقامة القواعد الصليبية في البلاد وحكم استحلال الربا... فانخدع كثير من الناس بهم، وضلّوا، وارتدوا، فكان لهم نصيب من وزر من تبعهم من الناس، دون أن ينقص من أوزار الأتباع شيئاً.

وعين الحال في مصر فسبب ضلال الناس واتباعهم لحسني مبارك ثم السيسي هو شيوخ الأزهر ومدّعو «السلفية»، وكذا سبب ولوج الناس في شرك البرلمانات والانتخابات هم طواغيت الإخوان المرتدين وحزب الظلام، وهذه الصورة نجدها في سائر البلاد.

ثانياً: التبديل والتحريف في الشرع

ومن سمات علماء السوء أنهم يُبدّلون الشرع ويُحرّفونه -إن لم يستطيعوا كتمانه- بتأويلات فاسدة للنصوص الشرعية، وصرْفها عن معناها الحق إلى معنى باطل، كما قال تعالى عن اليهود: {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ} [النساء: ٤٦].

ثم ينسبون هذا التحريف والتأويل الباطل إلى الله سبحانه، فهم يُحرّفون المعاني المرادة من النصوص إلى معانٍ باطلة ويوهمون الناس أن هذا هو المراد من كتاب الله، فيكون لهم بذلك نفي المعنى الحق، وإثبات المعنى الباطل، وسلفهم في ذلك اليهود الذين دأبوا على نسبة تحريفهم النصوص لله تعالى، كما قال سبحانه: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: ٧٨].

فالنصوص الشرعية الآمرة بالجهاد دأبَ علماء السوء إلى تحريف معناها القتالي إلى معانٍ أخرى، ليصرفوا الناس عن قتال الكفرة والمرتدين، وفوق ذلك ابتدعوا للجهاد معانيَ ما أنزل الله بها من سلطان، بل هي تناقض حقيقة الجهاد، كزعمهم أن الجهاد هو الانتساب إلى جيوش الطواغيت، أو الدخول في العملية الديموقراطية الشركية لمنافسة العلمانيين على منازعة الله في حكمه وتشريعه للأحكام، وغير ذلك من الأفعال المخرجة من الملة التي يحاول أولئك الملاعين إلصاقها بذروة سنام الإسلام.

وكذا النصوص الشرعية الآمرة بالصدع بالحق عمد علماء السوء إلى تعطيلها وعدم العمل بها زاعمين أن الله أمر بذلك! مستدلين بقوله سبحانه: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة: ١٩٥].

مع أن المقصود بالتهلكة ترك الجهاد، كما بيّن ذلك الصحابي أبو أيوب الأنصاري -رضي الله عنه- إذ قال: «فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة: أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد» [رواه أبو داود]، فما أقْبح علماء السوء وما أقبح تلبيسهم!

ثالثاً: الصّد عن سبيل الله

إن عالم السوء بسلوكه طريق الضلال والفساد يحرص أشد الحرص على أطر الناس على طريقه وصدهم عن طريق الحق، إذ يخشى أن يُكذّب فعلَه قولَه إن أظهر للناس الآيات الشرعية دون تلبيس وتدليس، فيعمد إلى التحريف وليّ النصوص ليكون الأمر موافقاً لحاله وهواه، فلذلك تجده يصدّ الشباب عن الجهاد لأنه راكنٌ إلى الدنيا مفتونٌ بالقعود، ولأنه يخشى من الصدع بالحق تراه يلبّس الحق بالباطل ويجعل ذلك أصل دعوته؛ ويظهره على أنه عين الحكمة والكياسة، فلا هو أظهر الحق، ولا هو كتمه واكتفى، بل لبّس وألْبَس، وراغ ودلّس، فقال على الله بغير علم ليصد عن سبيل الله كما فعلت من قبل الأحبار والرهبان، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [التوبة: ٣٤].

رابعاً: الحِرْصُ الشديد على الدنيا

ما ألجأ علماء السوء إلى إخفائهم الحق وتلبيسهم إلا حب الدنيا والحرص عليها، ولم يُلزمهم أحد أو يكرههم على النفاق والكذب على الله والكفر، بل حرصهم على وظائف الطواغيت ورواتبها أكثر ما تسبب لهم بذلك، فدافعُ بعضهم هو الحرص على الجاه والقرب من السلاطين، وبعضهم غرّهم خروجهم في الشاشات وما يُعْطَونه من أعطيات! فثقُل عليهم الاحتجاب القسري عن الشهرة والأضواء بسبب كلمة حق! فآثَرَ أن يكتم مَا أَنزَلَ اللَّهُ -مما لا يريد الطواغيت إظهاره للناس- واشترى به ثمناً قليلاً، وقد قال الله سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [البقرة: ١٧٤]، وقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ} [آل عمران: ١٨٧]، وقال ابن القيم: «كل من آثر الدُّنْيَا من أهل الْعلم واستحبها فَلَا بُد أَن يَقُول على الله غير الحق» [الفوائد].

خامساً: التأثُّر بالتخذيل والإرجاف والتهديد، والحَيْدة عن الحق بسببه

وهذا أيضاً من صفات علماء السوء: الرجوع عن الحق بعد تيقُّنه وإظهار الباطل انصياعاً وخنوعاً لأهواء الطواغيت كي تسلم لهم دنياهم، فما أعظمها من جريمة! وما أشدّها من خيانة!

كما في قصة بلعام بن باعوراء وهُوَ رجل من مَدِينَة الجبارين، لو اجتمع علماء السوء في زماننا كلهم ما بلغوا عُشْرَ علم بلعام، إذ قال ابن عباس -رضي الله عنهما- عنه: «وكان يعلم اسمَ الله الأكبر» [تفسير ابن أبي حاتم]، ما يشير إلى مرتبة عالية في العلم، وقال بعض السلف: «كان مُجاب الدعوة ولا يسأل اللهَ شيئاً إلاّ أعطاه إياه...» ومع هذا فلما زاغ عن المنهج، وراغ عن الحق الأبلج، شُبِّه بالكلب!

وذلك أن موسى -عليه السلام- لما نزل بالجبارين، أتى بلعامَ بنو عمه وقومه فقالوا: «إن موسى رجل جديد، ومعه جنود كثيرة وإنّه إن يظهر علينا يهلكنا، فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه»؛ قال: «إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي»، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم، فسلخ ما كان عليه [تفسير ابن أبي حاتم]، قال الله تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث} [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

فبلعام {أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} سكن إلى الدنيا وإلى ملذاتها، معرضاً عن آيات الله، حتى غلب عليه هواه كالكلب لاهثاً أبداً.

عن مجاهد قال: «مثل الذي يقرأ الكتاب ولا يعمل بما فيه» [تفسير الطبري]، وقال القرطبي: «وهذا المثل في قول كثير من أهل العلم بالتأويل عام في كل من أوتي القرآن فلم يعمل به» [تفسير القرطبي]، وما أكثرهم في زماننا.

وهذه بعض الصفات التي بيّنها الله تعالى لعلماء السوء ليفضحهم، ويذكّر عباده باجتنابهم، وعدم السماع منهم، أو الأخذ عنهم، ونجد أنه -سبحانه- ذكر وصفهم ولم يسمّهم بالعلماء رغم معرفتهم بأحكام الله، ولكنهم لما فقدوا الخشية من الله، وتركوا العمل بما عرفوا، لم ينفعهم علمهم، بل كان سبباً في لعنهم في الدنيا والآخرة، ووصفهم بأبشع الأوصاف، وإدخالهم في نار جهنم، بل وجعل الله اتباع الأحبار والرهبان -وهم سلف علماء السوء المحرّفين لدين الله- وطاعتهم في كفرهم شركا أكبر مخرجا من الملة، كما قال تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣١]، فلا يُعذر أحد في كفره بتقليده لعلماء الطواغيت، بل الواجب على كل إنسان أن يجتهد في طلب الحق والعمل به، والحمد لله رب العالمين.

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

قرن الله تعالى في مواضع كثيرة من كتابه العزيز بين طاعته وعدم الإشراك به وشكره وبين بر الوالدين والإحسان إليهما، كما في قوله سبحانه: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} [لقمان: 14]، فقرن بين شكره على نعمه، وشكر والديه على معروفهما، وقوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [البقرة: 83]، وقوله {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [الإسراء: 23]، فقرن سبحانه بين توحيده وعبادته والإحسان إلى الوالدين.

كما إن كثيرا من الأحاديث النبوية حثت على بر الوالدين، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: «جاء رجل إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: (أمك)، قال: ثم من؟ قال: (ثم أمك)، قال: ثم من؟ قال: (ثم أمك)، قال: ثم من؟ قال: (ثم أبوك)» [متفق عليه].

وأخرج الشيخان في صحيحيهما من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: «سألت رسول الله، صلى الله عليه وسلم: أي العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: (الصلاة على وقتها)، قلت: ثم أي؟ قال: (بر الوالدين)، قلت: ثم أي؟ قال: (الجهاد في سبيل الله)».

وإن هذا البر الواجب بحق الوالدين يكون أوكد في حالة بلوغهما أو أحد منهما سن الكبر، وذلك لأن الإنسان إذا هرم زادت حاجته إلى من يعوله ويقوم على حوائجه، كما تزداد الحاجة إلى الصبر عليه لما يعتريه من ضعف في الفهم والعقل، كما قال تعالى: {وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ} [يس: ٦٨]، وقال سبحانه: {ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا} [الحج: ٥].

ولذلك نجد أن الله تعالى قد خص حالة الكبر بالذكر، فقال: {إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} [الإسراء: ٢٣-٢٤]؛ قال القرطبي: «خص حالة الكبر لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى بره لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر، فألزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل، لأنهما في هذه الحالة قد صارا كلّا عليه، فيحتاجان أن يلي منهما في الكبر ما كان يحتاج في صغره أن يليا منه، فلذلك خص هذه الحالة بالذكر. وأيضا فطول المكث للمرء يوجب الاستثقال للمرء عادة ويحصل الملل ويكثر الضجر فيظهر غضبه على أبويه وتنتفخ لهما أوداجه، ويستطيل عليهما بدالة البنوة وقلة الديانة، وأقل المكروه ما يظهره بتنفسه المتردد من الضجر، وقد أُمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة، وهو السالم من كل عيب فقال: {فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا} [الإسراء: ٢٣]».

وإذا عُرف هذا، وجب على الابن البار الساعي لمرضاة ربه تعالى تجنب كل ما قد يسيء إلى والديه من قول أو فعل، وبذل ما في استطاعته في سبيل الإحسان إليهما ورد شيء من معروفهما عليه، وإن كان ذلك صعب الإدراك خاصة في جانب الأم التي برها آكد من بر الأب، والدليل أن خصّها الله تعالى بذكر أتعابها منذ الحمل وحتى الوضع والإرضاع، قال عز وجل: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} [لقمان: ١٤]، وقال أيضا: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا} [الأحقاف: ١٥]، وقد تقدم ذكر حديث «أمك ثم أمك ثم أمك».

وأما عقوق الوالدين فقد عدّه النبي -صلى الله عليه وسلم- من الكبائر؛ فعن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه -رضي الله عنه- قال: «قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر)، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين...)» الحديث [رواه البخاري].

ولما كان بر الوالدين سببا لدخول الجنة، فقد حذر النبي -صلى الله عليه وسلم- من مغبة إضاعة الولد حقوق والديه فيوصد بعقوقه لهما هذا السبب، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: «قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه) قيل: من يا رسول الله؟ قال: (من أدرك والديه عند الكبر، أحدهما أو كليهما، ثم لم يدخل الجنة)» [رواه مسلم].

فبر الوالدين، والامتناع عن عقوقهما والتعدي عليهما، حق واجب على كل مسلم، ولا يمنع من أداء هذا الحق إليهما كونهما من عصاة المسلمين الذين يرتكبون الذنوب والآثام، مع بقائهما على التوحيد، بل ولا كونهما من المشركين بالله -من غير المرتدين والكفرة المحاربين- فعن أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنهما- قالت: «قدمتْ عليّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فاستفتيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قلت: وهي راغبة، أفأصل أمّي؟ قال: (نعم صلي أمّك)» [متفق عليه]، وقد قال بعض أهل التفسير إن آية: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة: ٨]، نزلت في أسماء وأمها.

ولكن وجوب بر الوالدين ومصاحبتهما في الدنيا بالمعروف، لا يعنيان بحال موافقتهما في شركهما أو طاعتهما في معصية الله -عز وجل- والعياذ بالله، بل يبرأ المسلم من والديه المشركين وما هما عليه من الشرك، كما فعل إمام الموحدين إبراهيم -عليه السلام- قال تعالى: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} [التوبة: ١١٤]، ويخالفان في دعوتهما إلى الشرك بالله، كما أمر سبحانه: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا} [لقمان: ١٥]، ومثله الأمر بعدم طاعتهما فيما فيه معصية لله جل جلاله، لقول النبي، صلى الله عليه وسلم: (لا طاعة لمخلوق في معصية الله) [رواه أحمد].

فعن أبي عثمان: أن سعدا قال: «نزلت هذه الآية فيّ: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا} [لقمان: ١٥]، قال: كنت برا بأمي، فلما أسلمت، قالت: يا سعد! ما هذا الدين الذي قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا، أو لا آكل، ولا أشرب حتى أموت، فتُعيَّر بي، فيقال: يا قاتل أمه، قلت: لا تفعلي يا أمه، إني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثت يوما لا تأكل ولا تشرب وليلة، وأصبحت وقد جهدت، فلما رأيت ذلك، قلت: يا أمه! تعلمين -والله- لو كان لك مائة نفس، فخرجت نفسا نفسا، ما تركت ديني، إن شئت فكلي أو لا تأكلي، فلما رأت ذلك، أكلتْ» [سير أعلام النبلاء].

وإننا لنعلم أن بعض الآباء والأمهات يصدون أبناءهم عن الجهاد في سبيل الله، ويمنعونهم من الهجرة إلى ديار الإسلام، ويهددونهم بالغضب عليهم إن خالفوا أوامرهم في ذلك، والجواب على ذلك أن لا طاعة على الابن لهما في ذلك، بل الواجب عليه أن يهاجر ويجاهد في سبيل الله، ليؤدي ما عليه من حق لله تعالى، فحقوقه سبحانه مقدمة على حقوق العباد، مع استمرار البر لهما، والدعاء لهما بالهداية.

وإن من أعظم البر للوالدين دعوتهما إلى الحق وترك المعاصي والذنوب، باللين والموعظة الحسنة، مع التزام جانب الإحسان في التعامل معهما، لأن ذلك من أهم موجبات قبولهما الدعوة، قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: ١٢٥]، والرفق ما كان في شيء إلا زانه، فالكلمة الطيبة وقعها في النفوس طيب جميل الأثر، فلا ينبغي التكبر عليهما في دعوتهما ولا مسبّتهما في نصحهما.

وليجعل الأبناء نصب أعينهم هدي نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- في دعوة عمّه (الذي هو بمثابة الأب) حتى آخر لحظات حياته، فقد روى البخاري عن ابن المسيب، عن أبيه، أن أبا طالب لما حضرته الوفاة، دخل عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وعنده أبو جهل، فقال: (أي عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله)، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: «يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب؟» فلم يزالا يكلمانه، حتى قال آخر شيء كلمهم به: «على ملة عبد المطلب»، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: (لأستغفرن لك، ما لم أُنْهَ عنه)، فنزلت: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [التوبة: ١١٣]. ونزلت: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} [القصص: ٥٦].

ومن الجدير بالمجاهد في سبيل الله أن يكون أبر الناس بأبويه، وأبعد الناس عن عقوقهما وإيذائهما، لأنه من أكثر الناس سعيا إلى تكميل إيمانه، الذي لا يمكن أن يكتمل مع ارتكاب كبيرة العقوق، وعليه أن يعلم أن جهاده وقتاله في سبيل الله لن يرفعا عنه إثم تضييع حقوق غيره عليه، وعلى رأسهم الوالدين، حتى وإن كان والداه من المعارضين لخروجه، خوفا عليه، أو حرصا على دنياه، فإن ذلك لا يمنعه من صلتهما، والإحسان إليهما، ودعوتهما إلى الحق، والدعاء لهما بالرحمة في الدنيا والآخرة ما داما على الإسلام.

وجوب الكلام في علماء السوء وفضحهم

لقد نزلت هذه الشريعة الإسلامية لتحقق المقاصد الخمس، التي لا تستقيم حياة الناس في دينهم ودنياهم إلا بها، وهي: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ العرض، وحفظ المال.

ولا شك أن حفظ الدين هو أعظم المصالح والغايات، ولذلك حرم الله الشرك وحرم أسبابه، وحرم القول عليه بغير علم، وحرم البدع والمحدثات، ولذلك أيضا كان من الواجبات: تحذير الأمة من الشرك والبدع، وبيان حال أهلهما وكشف زيفهم وباطلهم، وهذا من النصيحة الواجبة حفظا لدين المسلمين، كما ثبت عن تميم الداري -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (الدين النصيحة)، قلنا: لمن؟ قال: (لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) [رواه مسلم].

ولذلك كان الرد على أهل البدع والتحذير منهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال الله تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران: ١٠٤].

قال أبو العباس بن تيمية، رحمه الله: «ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة أو العبادات المخالفة للكتاب والسنة، فإن بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين... إذ تطهير سبيل الله ودينه ومنهاجه وشرعته ودفع بغي هؤلاء وعدوانهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب؛ فإن هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعا وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداء» [مجموع الفتاوى].

وقد ثبت في السنة ما يدل على الكلام في رجل السوء وعيبه باسمه لا على سبيل العموم فحسب، ويقاس عليه صاحب البدعة، فيجوز اغتيابه لتحذير الناس منه، عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «استأذن رجل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: (ائذنوا له، بئس أخو العشيرة) أو (ابن العشيرة)، فلما دخل ألان له الكلام، قلت: يا رسول الله، قلت الذي قلت، ثم ألنت له الكلام؟ قال: (أي عائشة، إن شر الناس من تركه الناس، أو ودعه الناس، اتقاء فحشه) [متفق عليه].

وقد كان السلف يحذّرون من أخذ العلم عن المبتدعة كما روى مسلم في صحيحه عن الإمام محمد بن سيرين قال: «إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم».

وقال: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة، قالوا: سموا لنا رجالكم! فينُظر إلى أهل السنة فيُؤخذ حديثُهم، ويُنظر إلى أهل البدع فلا يُؤخذ حديثهم».

وهذا شبابة بن سوار الفزاري (المتوفى: ٢٠٦ هـ) لما تلبّس ببدعة الإرجاء ترك الأخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل وقال: (لم أكتب عنه للإرجاء) [تهذيب الكمال].

ومقتضى ذلك أن من أهل البدع من حملوا من العلم وحفظوا منه وبرعوا في كثير من الفنون ومع ذلك ما اغتر أئمة السنة بهم، بل جانبوهم، لأن علمهم لم يكن تزكية لهم بل حجة عليهم، فالعلم هو الخشية، والعلم هو العمل، كما قال إبراهيم النخعي: «كنا إذا أردنا أن نأخذ عن شيخ سألناه عن مطعمه ومشربه ومدخله ومخرجه، فإن كان على استواء أخذنا عنه وإلا لم نأته» [الكامل في ضعفاء الرجال].

بل لم يكن السلف يتورعون عن ذكر المخطئ في الرواية -لسوء حفظه أو ضبطه- بعينه وإن كان من أهل الصلاح والاستقامة، ليحذر الناس من خطئه، وليس هذا من الغيبة المحرمة بل هو نصح واجب حتى لا يلصق ذلك الخطأ بالشريعة في أذهان الناس فيظنونه من الدين فيتبعوهم، ولذلك ظهر في التاريخ الإسلامي عِلْمٌ جليل عظيم سمي بعِلْمِ «الجرح والتعديل»، كان من أعظم مفاخر الأمة، فبه حُفظت السنة، وبه مُيِّز الصحيح من الضعيف.

وعلم «الجرح والتعديل» هو أحد علوم الحديث، وموضوعه يبحث في أحوال الرواة -نقلة العلم- في عدالتهم وضبطهم وصدقهم وأمانتهم، فيذكرون الراوي بما فيه من جرح كضعف أو تدليس أو وهم أو كذب.

بل أفرد العلماء التصانيف في أولئك المجروحين كما صنف البخاري كتابا أسماه «الضعفاء»، وكذا صنف بنفس الاسم أبو جعفر العقيلي (المتوفى: ٣٢٢ هـ)، وكذا صنف النسائي صاحب السنن (المتوفى: ٣٠٣ هـ) كتابا أسماه «الضعفاء والمتروكون»، وكذا صنف بنفس الاسم الدارقطني (المتوفى: ٣٨٥ هـ)، وابن الجوزي (المتوفى: ٥٩٧ هـ)، وكذا صنف ابن عدي الجرجاني (المتوفى: ٣٦٥ هـ) كتابا أسماه «الكامل في ضعفاء الرجال»، ولغيرهم من العلماء مصنّفات مشهورة ومهمّة في هذا الفن.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل، رحمهما الله: «جاء أبو تراب النخشبي إلى أبي، فجَعَل أبي يقول: فلان ضعيف، فلان ثقة. قال أبو تراب: يا شيخ، لا تغتب العلماء! فالتفت أبي إليه فقال له: ويحك هذه نصيحة، ليس هذا غيبة» [تاريخ بغداد].

وذكر ابن الجوزي عن محمد بن بندار الجرجاني قال: «قلت لأحمد بن حنبل إنه ليشتد عليّ أن أقول فلان ضعيف وفلان كذاب؛ فقال: إذا سكتَّ أنت وسكتُّ، أنا فمتى يعرف الجاهل الصحيح من السقيم؟» [الضعفاء والمتروكون].

ولئن كان هذا نهج الأئمة فيمن أخطأ أو وهم -في الرواية- من أهل الصلاح والاستقامة أن يذكر خطؤه ليحذر الناس من خطئه، فإن هديهم مع أهل البدع والأهواء أشد وأعظم، من التحذير والهجر كما سبق بيانه.

وأما أصحاب البدع المكفرة فقد انبرى لهم الأئمة بالردود والزجر والتحذير، والهجر والتشهير والتكفير، فذاك الضال «بشر المريسي» لمّا قال بخلق القرآن، وألحد في أسماء الله، وأنكر بعض القطعيات، زجره أئمة السنة، وحذروا منه، وصنفوا في الرد عليه باسمه، كما فعل الإمام أبو سعيد الدارمي في كتابه الموسوم: «نقض عثمان بن سعيد، على بشر المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله في التوحيد»، بل كفّره أئمة السنة وألحقوه بسلفه الجهم بن صفوان، قال حماد بن زيد حين سئل عن بشر المريسي: «ذلك كافر» [الدارمي: النقض على المريسي]، وقال عبد اللطيف آل الشيخ، رحمه الله: «أهل العلم متفقون على تكفيره» [مجموعة الرسائل].

وهذا المريسي كان ممن طلب العلم عند ثلة من علماء زمانه وفقهاء عصره، وحظي بالسماع منهم ومشافهتهم، ولم يكن من عامة الدهماء، بل قال الذهبي في ترجمته: «المتكلم، المناظر، البارع [بشر المريسي]... كان بشر من كبار الفقهاء؛ أخذ عن القاضي أبي يوسف، وروى عن حماد بن سلمة، وسفيان بن عيينة؛ ونظر في الكلام، فغلب عليه، وانسلخ من الورع والتقوى، وجرد القول بخلق القرآن، ودعا إليه، حتى كان عين الجهمية في عصره وعالمهم» [السير].

بل نجد أن أئمة السنة لم يتوقفوا عند تكفير الجهمية ورأسهم المريسي والتحذير منهم، ولكن حرضوا أيضا على قتل كبارهم، فهذا الإمام يزيد بن هارون -رحمه الله- يقول: «الجهمية كفار، حرضت غير مرة أهل بغداد على قتل المريسي» [الدارمي: الرد على الجهمية].

وهذا أمير المؤمنين هارون الرشيد يقول: «بلغني أن بشرا المريسي يزعم أن القرآن مخلوق، لله علي إن أظفرني به إلا قتلته قتلة ما قتلتها أحدا قط» [عبد الله بن أحمد: السنة].

وعبر التاريخ جرت حوادث تكفير وقتل وصلب لكثير من الزنادقة، ورؤوس المبتدعة الغلاة، أمثال قتل الجعد بن درهم، والجهم بن صفوان، والحسين بن منصور الحلاج.

وعلى هذا سار الأئمة الأعلام في معاملتهم لأئمة الضلال والزندقة، فنجد أبا العباس بن تيمية -رحمه الله- يتكلم في الزنديق الحلولي ابن عربي بعينه، وألف كتابه «منهاج السنة» ردا على رأس الرافضة أبي منصور الحلي، وكذلك كتب رسائل في الرد على القبوري البكري المصري وغيره من دعاة الضلال.

وكذلك نجد هذا المنهج واضحا عند الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- وتلامذته من العلماء الصادقين، إذ لم يتركوا مناسبة إلا وفضحوا فيها الزنادقة من الداعين إلى الشرك، والمجادلين عن المشركين، والمفترين على أهل التوحيد، من أمثال ابن عفالق، وابن فيروز، وأولاد مويس، وابن جرجيس وغيرهم، بل ألّفوا في بعضهم مؤلفات كاملة، فضلا عن الرسائل المخصوصة، والفتاوى الكثيرة.

فالكلام في المبتدعة والزنادقة وفضحهم بأسمائهم والحكم عليهم بما هم أهل له منهج أصيل عند أهل السنة والجماعة، ومن باب أولى اتباع منهجهم مع علماء الطواغيت وجهمية العصر الذين يسوقون الناس إلى الشرك والكفر -ومن ثم نار جهنم- بترويجهم للضلال، وكتمانهم للحق، وتلبيسهم على الناس، ونسأل الله أن يعيننا على فضحهم وبيان أمرهم للناس.

وَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا

لقد خلق الله تعالى الذكور والإناث، وحرّم عليهم السفاح، وأباح لهم النكاح، وجعله ميثاقا غليظا، فقيّده بشروط وضوابط، وأعطى لكلا الزوجين حقوقا، وألزمهم بواجبات، هي للبيت بمثابة الأوتاد، فإذا ما ضيعها أحدهما أو حاد، خر عليهما السقف أو كاد.

وقد أُعطيت الزوجة في الإسلام حقوقا مهمة قُدّمت حتى على الانشغال المفرط في نوافل العبادات الكثيرة، غير أن بعض الرجال اليوم هم من المقصرين والمفرطين في جنب زوجاتهم، والحجة هي العمل وكثرة المسؤوليات الموكلة إليهم، وإننا وإن كنا نقر بانشغال بعضهم، إلا أن ذلك ليس عذرا لهم أمام الله تعالى إن هو سألهم عن حقوق الزوجات وما جاء في عشرة النساء.

وهذا نبينا -صلى الله عليه وسلم- ومع عظم الأمانة التي حملها، وكبر الرسالة التي كُلّف بتبليغها لأهل الأرض قاطبة، إلا أن ذلك لم يجعله يفرّط في حقوق زوجاته، أو يقصّر في تأدية ما عليه من واجبات تجاههن.

فعن عون ابن أبي جحيفة عن أبيه قال: «آخى النبي -صلى الله عليه وسلم- بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا؛ فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما، فقال: كل؛ قال: فإني صائم؛ قال: ما أنا بآكل حتى تأكل؛ فأكل، فلما كان الليل، ذهب أبو الدرداء يقوم، فقال: نم؛ فنام، ثم ذهب يقوم فقال: نم؛ فلما كان من آخر الليل، قال سلمان: قم الآن فصليا؛ فقال له سلمان: إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه؛ فأتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فذكر ذلك له، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: (صدق سلمان)» [رواه البخاري].

وقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يوفّر من وقته ما يجلس فيه مع زوجاته، بل لا يضيع فرصة تسنح له يدخل فيها السرور على قلب زوجته، فها هم الأحباش يلعبون بحرابهم في المسجد، وعائشة أم المؤمنين تنظر إلى لعبهم، والنبي لا يتذمر من فعلها، ولا يزجرها، ولا يستعجلها لتنتهي، حتى تسأم هي فتقعد! والحديث في صحيح البخاري.

بل وأكثر من ذلك، فها هو -صلى الله عليه وسلم- يجد الوقت لإدخال السرور على قلب زوجه حتى في السفر، السفر الذي هو قطعة من العذاب، لما يحصل للمسافر فيه من مشقة وتعب، فعن عائشة -رضي الله عنها- أنها كانت مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في سفر قالت: «فسابقته فسبقته على رجلي، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني فقال: (هذه بتلك السبقة)» [رواه أبو داود]، هكذا كان نبينا المعلم -صلى الله عليه وسلم- وهكذا كان هديه في عشرة النساء.

وبعض الرجال اليوم لا يكاد يدخل بيته ويجلس مع زوجته، حتى يصيبه الملل وكأن جبالا قد رست على صدره، ويشتد به النعاس فلا يكاد يقدر على فتح جفنيه، ولو كان مع صحبه لما كان هذا حاله، بل لربما وجدناه من أشدهم نشاطا، وأكثرهم سردا للقصص والحكايات، فهل قرأ مثل هذا الزوج حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- أو سمعه؟ فعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)» [رواه الترمذي]، وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: «قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم)» [رواه أحمد والترمذي]، قال الشوكاني في شرح الحديثين: «وأحقهم بالاتصاف به هو من كان خير الناس لأهله، فإن الأهل هم الأحقاء بالبِشر وحسن الخلق والإحسان وجلب النفع ودفع الضر، فإذا كان الرجل كذلك فهو خير الناس، وإن كان على العكس من ذلك فهو في الجانب الآخر من الشر، وكثيرا ما يقع الناس في هذه الورطة، فترى الرجل إذا لقي أهله كان أسوأ الناس أخلاقا وأشجعهم نفسا وأقلهم خيرا، وإذا لقي غير الأهل من الأجانب لانت عريكته وانبسطت أخلاقه وجادت نفسه وكثر خيره، ولا شك أن من كان كذلك فهو محروم التوفيق زائغ عن سواء الطريق، نسأل الله السلامة» [نيل الأوطار].

> **يا أمة الله اعلمي أن لله على زوجك حقا، ولنفسه عليه حق، ولأهله وضيوفه وأصحابه عليه حق**

> **كان النبي -صلى الله عليه وسلم- من خير الناس لأهله رغم انشغاله الكبير بالدعوة والجهاد**

وهناك من الأزواج من يتحجج في تقصيره مع زوجه بانشغاله بالصلاة والعبادة، وهذا أيضا لم يفقه هدي النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي كان أتقى البشر وأعبدهم، ومع ذلك لم يضيع حقا واحدا من حقوق أزواجه؛ فعن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- قال: «دخلت امرأة عثمان بن مظعون على نساء النبي -صلى الله عليه وسلم- فرأينها سيئة الهيئة، فقلن: ما لك؟ ما في قريش رجل أغنى من بعلك! قالت: ما لنا منه شيء؟ أما نهاره فصائم، وأما ليله فقائم! فدخل النبي -صلى الله عليه وسلم- فذكرن ذلك له، فلقيه النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: (يا عثمان، أما لك فيَّ أسوة؟) قال: وما ذاك يا رسول الله؟ فداك أبي وأمي؛ قال: (أما أنت فتقوم الليل وتصوم النهار، وإن لأهلك عليك حقا، وإن لجسدك عليك حقا، صل ونم، وصم وأفطر) [رواه ابن حبان]، فهذا لمن شغلته عن أهله نوافل العبادات الكثيرة، فكيف بمن انشغل عنهم بتضييع الأوقات في اللهو والسمر؟!

بل لقد بوّب البخاري في صحيحه: «باب: كيف يكون الرجل في أهله»، جاء فيه: عن الأسود، قال: «سألت عائشة، ما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يصنع في أهله؟ قالت: كان في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة»، قال ابن رجب، رحمه الله: «وقد فسرت عائشة هذه الخدمة في رواية عنها، فروى المقدام بن شريح، عن أبيه، عن عائشة، أنه سألها كيف كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يصنع إذا كان في بيته؛ قالت: مثل أحدكم في مهنة أهله، يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويضع الشيء» [فتح الباري].

وإن كانت بعض النساء اليوم ممن يشح عليهن أزواجهن بالوقت ويغدقون عليهن باللامبالاة، لا يبغين من بعولتهن خدمة ولا مساعدة في أمور البيت وشؤونه، وإنما فقط شيئا من الوقت والعناية!

وعن بعض الأزواج -أصلحهم الله- فحدث ولا حرج، عمل في النهار وسهر في الليل وسمر مع الأصحاب والأحباب، وينسى الزوج أن زوجه تنتظر اليوم أو اليومين والثلاثة حتى تنال حقها من زوجها -خاصة إن كان له من الزوجات غيرها- ومع ذلك فإنه يتأخر عنها حتى لا يبقى لها منه إلا أن يلقي بجسده المتعب على فراشه في آخر الليل، ليغادر بيتها في الصباح، وتبدأ رحلة الانتظار من جديد.

هذا وإن كنا ننصح الأزواج بتقوى الله في نسائهم، وتمتيعهن بما لهن من حقوق، وأن يكونوا لهن كأبي زرع لأم زرع تأسيا بنبينا -صلى الله عليه وسلم- إلا أنه لا يفوتنا أيضا أن نذكّر بعض النساء بشكر النعم، إذ وجدنا كثيرا من الزوجات يكثرن التذمر والشكوى من انشغال الزوج وغيابه عن البيت حتى وإن حضر متى تهيأ له ذلك وأرضاها واسترضاها، وعلى مثل هذه أن تعلم أن الرجل لم يخلق ليبقى حبيسا في البيت مع الزوجة والأبناء، فالله -عز وجل- قد خصه بالقوامة، وفرض عليه الجهاد، وهذه الدولة الإسلامية دولة فتية بحاجة إلى جهود الرجال وصبر النساء واحتسابهن الأجر عند الله تعالى، وإنما النساء شقائق الرجال، ولتحذر الزوجة المسلمة من مغبة تثبيط الزوج عن الجهاد والرباط في سبيل الله، فتفتنه تارة بالبنين وتارة بنفسها، لتبعده عن دينه وترده عن أمر ربه عز وجل.

باتت تذكرني بالله قاعدة
والدمع ينهل من شأنيهما سبلا
يا بنت عمي كتاب الله أخرجني
كرها وهل أمنعن الله ما فعلا
فإن رجعت فرب الناس يرجعني
وإن لحقت بربي فابتغي بدلا
ما كنت أعرج أو أعمى فيعذرني
أو ضارعا من ضنا لم يستطع حولا

ورحم الله نساء السلف، فقد كانت الواحدة منهن يخرج بعلها غازيا ولعله يغيب عنها شهورا طوالا، وربما سنينا، ولا يفت ذلك في عضد صبرها وهمتها في تربية الأبناء، بل تلقاه بنفس راضية وقلب شاكر.

فيا عبد الله اعلم أن لأهلك عليك حقا، ويا أمة الله اعلمي إن لله على زوجك حقا، ولنفسه عليه حق، ولأهله وضيوفه وأصحابه عليه حق، والمؤمن يعطي كل ذي حق حقه، ويعين أخاه على أداء ما عليه من حقوق، والحمد لله رب العالمين.

رسالة في النفاق

للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب
مختصرة من رسالة لشيخ الإسلام ابن تيمية
رحمهما الله

اعلم -رحمك الله- أن الله تعالى منذ بعث محمدا -صلى الله عليه وسلم- وأعزّه بالهجرة والنصر، صار الناس ثلاثة أقسام: قسم مؤمنون، وهم الذين آمنوا به ظاهرا وباطنا، وقسم كفار: وهم الذين أظهروا الكفر به، وقسم منافقون: وهم الذين آمنوا به ظاهرا لا باطنا، ولهذا افتتح الله سورة البقرة بأربع آيات في صفة المؤمنين، وآيتين في صفة الكافرين، وثلاث عشرة في صفة المنافقين.

وكل واحد من الإيمان والكفر والنفاق له دعائم وشُعب كما دل عليه الكتاب والسنة، وكما فسّره علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- في الحديث المأثور عنه، فمن النفاق ما هو نفاق أكبر ويكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار، كنفاق عبد الله بن أُبيّ وغيره، مثل أن يُظهِر تكذيب الرسول، أو جحود بعض ما جاء به، أو بغضه، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه، أو المَسَرَّة بانخفاض دينه، أو المَسَاءة بظهور دينه، ونحو ذلك مما لا يكون صاحبه إلا عدوا لله ورسوله، وهذا القدر موجود في زمن الرسول، صلى الله عليه وسلم، وما زال بعده أكثر من عهده لكون موجبات الإيمان على عهده أقوى، فإذا كانت مع قوتها والنفاق موجود، فوجوده فيما دون ذلك أولى به، وهذا ضرب النفاق الأكبر، والعياذ بالله.

وأما النفاق الأصغر، فهو نفاق الأعمال ونحوها، مثل أن يكذب إذا حدَّث، ويُخلف إذا وعد، أو يخون إذا ائتُمِن، للحديث المشهور عنه، صلى الله عليه وسلم، قال: (آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتُمِنَ خان، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم) [رواه مسلم].

ومن هذا الباب: الإعراض عن الجهاد، فإنه من خصال المنافقين لقوله، صلى الله عليه وسلم: (من مات ولم يَغْزُ، ولم يحدّث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق) [رواه مسلم].

> كل واحد من الإيمان والكفر والنفاق له دعائم وشُعب كما دل عليه الكتاب والسنة

وقد أنزل الله سورة براءة التي تُسَمَّى الفاضحة لأنها فضحت المنافقين كما قاله ابن عباس -رضي الله عنه- قال: «هي الفاضحة، ما زالت تنزل {وَمِنْهُم} {وَمِنْهُم} حتى ظنوا أن لا يبقى أحد إلا ذُكِرَ فيها»، وعن المقداد بن الأسود قال: «هي سورة البَحُوث، لأنها بحثَتْ عن سرائر المنافقين»، وقال قتادة: «هي المثيرة، لأنها أثارت مخازي المنافقين».

وهذه السورة نزلت في آخر مغازي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم غزوة تبوك، وقد أعز الله الإسلام وأظهره، فكشف فيها عن أحوال المنافقين، ووصفهم فيها بالجبن والبخل، فأما الجبن، فهو ترك الجهاد، وأما البخل، فهو عن النفقة في سبيل الله.

> أنزل الله سورة براءة التي تُسَمَّى الفاضحة لأنها فضحت المنافقين

وقال تعالى: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [آل عمران: ١٨٠]، وقال: {وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الأنفال: ١٦].

فأما وصفهم فيها بالجبن والفزع، فقد قال تعالى: {وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً} يلجؤون إليه مثل المعاقل والحصون، {أَوْ مَغَارَاتٍ} يغورون فيها كما يغور الماء، {أَوْ مُدَّخَلاً} وهو الذي يُتكلف الدخول إليه ولو بكُلْفَة ومشقة، {لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ} عن الجهاد، {وَهُمْ يَجْمَحُونَ} [التوبة: ٥٦-٥٧]، أي: يسرعون إسراعا لا يردهم شيء، كالفرس الجَمُوح الذي إذا حمل لم يرده اللجام.

وقد قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحجرات: ١٥]، فحصر المؤمنين فيمن آمن وجاهد، وقال تعالى: {لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ} [التوبة: ٤٤-٤٥]، فهذا إخبار من الله أن المؤمن لا يستأذن في ترك الجهاد، وإنما يستأذن الذين لا يؤمنون بالله، فكيف بالتارك من غير استئذان؟

وقال في وصفهم بالشح: {وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ} [التوبة: ٥٤]، فإذا كان هذا ذَمُّ الله -تبارك وتعالى- لمن أنفق وهو كاره، فكيف بمن ترك النفقة رأسا؟

وقد أخبر أن المنافقين لما قربوا من المدينة، تارة يقولون للمؤمنين: «هذا الذي جرى علينا بشؤمكم، فأنتم الذين دعوتم الناس إلى هذا الدين، وقاتلتم عليه وخالفتموهم!» وتارة يقولون: «أنتم الذين أشرتم علينا بالمقام هنا، وإلا لو كنا قد سافرنا، ما أصابنا هذا!» وتارة يقولون: «أنتم مع قلتكم وضعفكم تريدون أن تكسروا العدو، وقد غركم دينكم!» وتارة يقولون: «أنتم مجانين، لا عقل لكم، تريدون أن تهلكوا أنفسكم وتهلكوا الناس معكم!»

وتارة يقولون أنواعا من الكلام المؤذي، فأخبر الله عنهم بقوله، عز وجل: {يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً} [الأحزاب: ٢٠]، فوصفهم -تبارك وتعالى- بثلاثة أوصاف؛ الأول: أنهم -لخوفهم- يحسبون الأحزاب لم ينصرفوا عن البلد، وهذا حال الجبان الذي في قلبه مرض، فإن قلبه يبادر إلى تصديق الخبر المخوف وتكذيب خبر الأمن. الوصف الثاني: أن الأحزاب إذا جاؤوا تَمَنَّوْا أن لا يكونوا بينكم، بل في البادية بين الأعراب يسألون عن أنبائكم: «أيش خبر المدينة؟ وأيش خبر الناس؟» الوصف الثالث: أن الأحزاب إذا أتوا، وهم فيكم لم يقاتلوا إلا قليلا، وهذه الصفات الثلاث منطبقة على كثير من الناس.

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ

سيدات بيت النبوة، زوجات النبي -صلى الله عليه وسلم- في الدنيا والآخرة، وأمهات المؤمنين -رضي الله عنهن- أتقى النساء وأنقاهن وأعفهن وأطهرهن وأورعهن، يخاطبهن الله -عز وجل- من فوق سبع سماوات، فتأتي الوصايا والآداب الربانية واضحة صريحة، لا تحتاج تفسيرا ولا تأويلا لمن فتح الله على بصيرته، ومن تلك الوصايا والآداب وصية جاءت بصيغة الأمر، ألا وهو: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ}، وفي قراءات أخرى: {وقِرْنَ} بكسر القاف، وقال بعض أهل التفسير بأن معنى القراءتين واحد وكلاهما يعني القرار والاستقرار والمكوث في البيت، وإذا كان الآمر هو الله -تبارك وتعالى- فلا يملك المؤمنون والمؤمنات من أمرهم سوى أن يقولوا: {سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا}، فلماذا لا تقر معظم نساء اليوم في بيوتهن كما أُمرت بذلك خير النساء؟ ويكثرن الخروج من البيت لغير حاجة ولا ضرورة؟

إنه ضعف الوازع الديني في تلقي مثل هذه الأوامر، والالتزام بها في مواجهة لذة الخروج إلى الدنيا الخضراء زعموا.

وقد يقول قائل أو قائلة إن الخطاب بأمر القرار خاص بنساء النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا تدخل فيه غيرهن من النساء، فيجيبهم القرطبي في تفسيره لقول الله تعالى: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ} بقوله: «معنى هذه الآية الأمر بلزوم البيت، وإن كان الخطاب لنساء النبي -صلى الله عليه وسلم- فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى. هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء، كيف والشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن، والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة».

وقال ابن كثير، رحمه الله: «هذه آداب أمَرَ الله تعالى بها نساء النبي -صلى الله عليه وسلم- ونساء الأمة تبع لهن في ذلك».

بل إنه إذا كانت هذه وصية الله -عز وجل- لنساء النبي خير النساء وأسلمهن قلوبا، وأحفظهن لمحارم الله، فكيف بمن هن دونهن من النساء؟

وإنا لا نتألى على الله تعالى، ولا نحرم ما أباحه -والعياذ بالله- والله لطيف بعباده رحيم بهم، فهو لم يحرم الخروج على المرأة من بيتها مطلقا، وإنما جعل مكوثها في بيتها هو الأصل، وأما خروجها منه فيكون بقدر الحاجة، وهذه الحاجة تقدرها المرأة نفسها والله -عز وجل- {هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى}.

والسنة زاخرة بالأحاديث الدالة على إباحة خروج المرأة، كخروجها طلبا للفُتيا، وخروجها في الغزو تسقي الماء وتداوي الجرحى، وكذلك خروجها لزيارة صويحبات لها، أمّا أن يصبح هذا الخروج دأبا وعادة، فهذا ما ينافي الشرع ويشذ عن الأصل الذي هو القرار في البيت.

> **لماذا لا تقر معظم نساء اليوم في بيوتهن كما أُمرت بذلك خير النساء ويكثرن الخروج من البيت لغير حاجة أو ضرورة؟**

ولتتأمل الأخت المسلمة حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي رواه أبو داود وغيره، عن ابن عمر -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا تمنعوا نساءكم المساجد، وبيوتهن خير لهن)، هذا المسجد بيت الله وأحب البقاع إليه سبحانه، وهذه الصلاة عمود الدين، ومع ذلك لا يلزم الشارع المرأة بصلاة الجماعة التي أوجبها في حق الرجل، وإنما يجعل من صلاتها في بيتها -بل، وفي حجرتها- خير ا لها من خروجها لتشهد الجماعة في المسجد، وما ذاك إلا زيادة في صيانة المرأة وحجبها عن الأنظار ما استطيع إلى ذلك سبيلا.

وعن ابن مسعود -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (المرأة عورة، فإذا خرجت، استشرفها الشيطان) [رواه الترمذي].

ولا تحسبن المسلمة الملتزمة بالحجاب الشرعي أن خمارها ينأى بها عن هذا الحديث، وأن المرأة تكون فقط عورة إذا كانت سافرة أو متبرجة، بل هي عورة متى ما خرجت من بيتها، وإن كان لا يبدو منها شيء، ورحم الله التابعي الجليل سفيان الثوري إذ يقول: «ليس للمرأة خير من بيتها وإن كانت عجوزا»! [الطحاوي: مختصر اختلاف العلماء].

فمجرد خروجها من بيتها قد تكون فيه فتنة عليها أو على الرجال الذين يرونها، خاصة إن تكلمت معهم، لذلك قال الله تعالى لنساء النبي، صلى الله عليه وسلم: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ}، والخضوع بالقول يعني التكسر عند الكلام وترقيق الصوت، فتكون نتيجة ذلك: {فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}، فيطمع الذي في قلبه مرض في قرن النبي -صلى الله عليه وسلم- وصحبه الكرام -رضي الله عنهم- خير القرون على الإطلاق، فكيف بزماننا هذا؟ زمان الفتن والموبقات. عن يحيى بن سعيد، «عن عمرة، عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: لو أدرك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما أحدث النساء، لمنعهن كما مُنعت نساء بني إسرائيل. قلت لعمرة: أَوَمُنعن؟ قالت: نعم» [متفق عليه]؛ سبحان الله! هذا ما توصلت إليه عائشة الفقيهة المحدّثة مما رأته من المُحْدَثات والتجاوزات من بعض نساء عصرها، فماذا لو أدركت الصدّيقة زماننا هذا، بل ماذا لو يرى نبينا -صلوات ربنا وسلامه عليه- ما عليه نساء اليوم، إلا من عصم الله؟!

> **لا يترك الزوج لزوجته أمر خروجها على غاربه، وله أن يمنعها إن أكثرت من الخروج**

وحريّ ببعض الحائمين حول حمى الشبهات ومراتعها أن يضعوا حديث أم المؤمنين السالف ذكره نصب أعينهم وهم يفتون في بعض أحكام النساء، حتى أصبحت المرأة تخرج دون ضابط، ولو أن تخرج في اليوم الواحد مرات ومرات فلها ذلك، بل وإن كانت معتدة عدة وفاة، فلا ضير في خروجها في غير حاجة ولا مصلحة ولا ضرورة، والله المستعان.

وقد سئل الإمام أحمد -رحمه الله- عن خروج النساء في العيدين فأجاب: «لا يعجبني ذلك»، وقال ابن المبارك، رحمه الله: «أكره اليوم الخروج للنساء في العيدين»، وقال أبو حنيفة: «كان النساء يرخص لهن في الخروج إلى العيد، فأما اليوم فإنني أكرهه».

فإذا كان هؤلاء الفقهاء قد كرهوا خروج المرأة لأداء شعيرة عظيمة من شعائر الإسلام درءاً لمفاسد قدّروها حينها، فكيف بخروجها المتكرر في أيامنا هذه حتى أصبحت خرّاجة ولّاجة؟

ومن اللطائف القرآنية في قول الله تعالى: {حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ}، أن الله تعالى قد وصف الحور في الجنة بالقصور، قال القرطبي: «{مَقْصُورَاتٌ} محبوسات مستورات، {فِي الْخِيَامِ} في الحجال، لسن بالطوافات في الطرق، قاله ابن عباس»، هذا والجنة فيها الكمال فلا فتن ولا زيغ ولا ضلال، ومع ذلك تحبس الحور على أزواجهن، فلا يراهن غيرهم كما هو قول جمهور المفسرين.

ثم إن على الإخوة الرجال أن يتذكروا أن زوجاتهم من رعيتهم التي سيُسألون عنها، فلا يترك الزوج لزوجته أمر خروجها على غاربه، وله أن يمنعها إن أكثرت من الخروج، ورضي الله عن عمر الذي كاد يمنع زوجه من الخروج إلى المسجد من غيرته لولا حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- بعدم منعهن؛ فعن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: «كانت امرأةٌ لعمر تشهد صلاة الصبح والعشاء في جماعة في المسجد، فقيل لها: لِمَ تخرجين وقد تعلمين أن عمر يكره ذلك ويغار؟ قالت: فما يمنعه أن ينهاني؟ قالوا: يمنعه قول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله)» [رواه البخاري].

فلا بأس بالتزاور بين المسلمات، ولا بأس بالتزاور لصلة الأرحام، ولا بأس بالذهاب إلى السوق ولكن دون إفراط، فيكون الخروج طارئا على الأصل الذي هو القرار، والمؤمنة في خدرها أقرب ما تكون من ربها، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

إقامة الدولة الإسلامية

بين منهاج النبوة وسبل أهل الضلالة

١

لن نبالغ بالقول إن تحدثنا أنَّ مئاتٍ من الحركات والأحزاب والفصائل قامت خلال القرن الماضي زاعمة العمل على إعادة الخلافة، وتطبيق الشريعة، وإقامة الدين في الأرض، ولكنها جميعا فشلت في تحقيق ذلك، رغم أن قليلا منها وصل إلى مرحلة التمكين الحقيقي أو الشكلي، بل منها من تمكن من إقامة بعض أحكام الشريعة، ولكن تلك الآمال كلّها لم تتحقق إلا في الدولة الإسلامية، والفضل لله من قبل ومن بعد.

ولو نظرنا إلى حال تلك الحركات لوجدنا أنها بغالبها صنعت لنفسها العقبات والعراقيل التي سدّت الطريق أمامها، أو دفعتها دفعاً إلى الانحراف عن الطريق الحقيقي والوحيد المُوصل للهدف السامي الذي كانوا يطمحون إليه، وذلك أنهم كلفوا أنفسهم بما لم يكلفهم به الله، وألزموا أنفسهم بما لم يُلزمهم به الله، سواء منهم من سلك طريق التشديد والغلو وافتراض ما لم يفرضه الله عليهم، أو من سلك طريق التفلّت من الأحكام الشرعية، وفي كلا الحالتين كان الابتعاد عن الصراط المستقيم، والمنهج القويم في إقامة الدين.

حتميّات فاسدة

ومن أبرز ما كلَّفوا به أنفسهم هو ما ابتدعوه من مناهج في العمل، وضعها لهم قادتهم ومنظروهم وعلماؤهم، أطلق بعضهم عليها أسماءً كالنظريات السياسية والمناهج الحركية أو ما شابه، ويقصدون بذلك ما افترضوه من مقدمات ضرورية للوصول إلى النتائج التي يرومون الوصول إليها من عملهم وحركتهم، حيث أن أفهامهم، وأهواءهم أوحت إليهم طرقاً في العمل ينبغي سلوكها للوصول إلى الهدف المنشود وهو إقامة دين الله في الأرض، ولم يكتفوا بوضع هذه النظريات، أو الفرضيات، بل جعلوها بمثابة الصراط المستقيم بالنسبة للعمل لإقامة دين الله، إذ لا يصح –في نظرهم- سلوك غيرها للوصول إلى الغاية، وبالتالي فقد سلكوا طريق الحتميّة، وكلّفوا أنفسهم ومن تبعهم ما لا يطيقون، مما لم يُفرض عليهم، فزادوا ضلالاً على ضلال، والله لا يهدي القوم الفاسقين.

وهذه الافتراضات قامت على أساس أن الطريق لإقامة الدين ينبغي أن يكون بالوصول إلى هدفٍ مرحلي ما، أو تجاوز عقبة رئيسة ما، وبدون تحقيق هذا أو ذاك لا يمكن –بحسب زعمهم- إقامة الدين، ولا الحديث عن دولة إسلامية، فضلاً عن إقامة خلافة على منهاج النبوة وإمامة عظمى لأمة واحدة.

والمشكلة الأكبر من وراء افتراضاتهم، هي أن الفرضيات –على العموم- لا يمكن إثبات صِحتها، أو بيان بطلانها، إلا بعد إخضاعها للتجربة، فإذا تطابقت النتيجة مع الفرضية، فقد بُرهنت، وعُدَّت نظرية صحيحة، ومع تكرار نجاح هذه النظرية في ظروف مختلفة فإنها تكتسب صفة المعادلة الثابتة، التي يمكن من خلالها توقع نتائج أي فعل، أو مستقبل أي حالة، إذا تطابقت عناصر الفعل وحالته، مع ما تتطلبه المعادلة، وهنا كانت مصيبة أولئك القوم، إذ إنهم عاملوا فرضياتهم على أنها نظرياتٌ مُبرهنٌ على صحتها، أو عاملوا نظريات الآخرين التي ظنوا صحتها في ظروفهم الخاصة على أنها معادلات ثابتة ينبغي العمل بها في كل حال، وزمان، ومكان.

تجاربٌ أثمانُها الدماءُ

وبما أن المجال الوحيد لتجربة الفرضيات، أو النظريات التي تخص البشر، أو قسماً منهم، وكل ما يتعلق بحياتهم، هو جعلهم أنفسَهم حقلاً للتجارب، بدفعها إلى تطبيق الفرضيات، وانتظار ظهور النتائج على الواقع، وتسجيلها، ثم الحكم من خلالها على صحة الفرضية، من خلال برهان الواقع، مما يعني تحمل تكلفة عالية للوصول إلى المبتغى، إضافة إلى الخسائر الكبيرة المتوقعة في حال كانت الفرضية خاطئة من الأساس، أو جرى تطبيقها بطريقة خاطئة، أو لمجرد دخول متغير أو عامل مؤثر –غير معتبر سلفا- في التجربة عليها، مع صعوبة أو استحالة إخراجه منها، بسبب تشابك واختلاط العوامل المؤثرة في الطبيعة، بخلاف تجارب المختبرات (كالتي تتعلق بعلمي الفيزياء والكيمياء التقليديين)، التي يمكن فيها عزل التجربة بدرجة كبيرة عن الوسط المحيط، وبالتالي الحصول على نتائج أكثر قرباً من الحقيقة.

فقد حمل المنظرون وقادة الحركات فرضياتهم، وأسقطوها على الأرض فوراً، محملين أتباعهم (وأنفسهم أحيانا) تكاليف تطبيق التجربة، وكلٌ منهم يجرّب فرضياته في من تبعه من الناس، حتى امتلأت الأرض بالتجارب الحركية التي قامت على أساس تلك الفرضيات، وبالتالي شهد القرن الماضي عددا من التجارب الرئيسة، التي تفرَّع عن كل منها عدّة تجارب، وبالمحصِّلة صرنا نجد العشرات من التجارب التي تطبق في آن واحد على الساحة الكبيرة التي ينتشر فيها المسلمون في العالم، بل تجد في البلد الواحد عدة تجارب، يتصارع أصحابها فيما بينهم أكثر مما يتصارعون مع الأنظمة الطاغوتية التي خرجوا في الأساس لمواجهتها.

عُبّاد النظريات

لقد كانت نتيجة تلك التجارب كارثية بحق، فقد قُتل، وسُجن، وشُرِّد، الملايين من الناس على أيدي الأنظمة الطاغوتية، دون تحقيق نتيجة تذكر، وكان وراء ذلك في الغالب –بالإضافة إلى الضلال في العقيدة والمنهج- فرضيات خاطئة، حاول أصحابها تجربتها على الواقع، وقد أقنعوا أتباعهم سلفاً بأنها صحيحة، وأن نتائجها الإيجابية مضمونة، بل تعدت نتائج تلك الفرضيات الخسائر الكبيرة المادية والبشرية، لتصيب الدين ذاته، بما جرى إدخاله عليه من البدع والمنكرات باسم الوسائل الضرورية لإحداث التغيير المنشود، ووصل الأمر ببعضهم إلى سلوك طريق الشرك بالله، وهو يزعم أن هذا الطريق يؤدي بالأمة إلى التوحيد الخالص، فلا هم ديناً أقاموا، ولا هم دنياً أبقوا.

ولو تتبعنا الساحة اليوم لوجدنا أنها ما زالت تعج بتلك الفرضيات الفاسدة التي جعلها كثير من الناس إلهاً يُعبد من دون الله، فتتحزب حولها الحركات، ويتعصب لها الأفراد، ويُعقد عليها الولاء والبراء، رغم ما أثبتته من فشل، وما أحلّته بالأمة من كوارث، وفوق ذلك كله وضوح مخالفتها لأصل دين الإسلام، وأحكامه.

أَفَّمَن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ

قال الإمام الطبري -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الملك: ٢٢]:

«يقول تعالى ذكره: {أَفَمَنْ يَمْشِي} أيها الناس {مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ} لا يبصر ما بين يديه، وما عن يمينه وشماله {أَهْدَى}: أشدّ استقامة على الطريق، وأهدى له، {أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا} مشي بني آدم على قدميه {عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} يقول: على طريق لا اعوجاج فيه» [تفسير الطبري].

إذ لا يُتصور بحالٍ أن من يمشي وهو لا يرى الطريق أمامه أهدى من الذي يسير مستقيما على طريق لا عوج فيه ولا عقبات، فالأول مخوف عليه دائما أن يضل الطريق، أما الآخر فقد منّ الله عليه بقدرته على إبصار ما حوله وكذلك هو يسير على صراط مستقيم لا يؤدي به إلا إلى الهدى.

وهكذا الفرق بين مجاهدي الدولة الإسلامية وغيرهم من مرتدي الفصائل والتنظيمات وضُلّالهم، فأهل الحق لا يسيرون خطوة إلى الأمام إلا بعد أن يعلموا الحكم الشرعي لهذه الخطوة، فلا يسيرونها إلا إن تأكدوا أنها مشروعة لن تخرجهم عن الصراط المستقيم الذي يوصلهم إلى الجنة، فضلا عن كونه سيوصلهم إلى غايتهم في إقامة الدين.

أما أهل الضلال فإنهم قد انكبوا بوجوههم على السبل التي خطها لهم قادتهم لا يرون غيرها، ولا يرون ما فيها من عِوج، ولا ما يعترضها من عقبات، لذلك لا يلبثون أن يصطدموا بعقبة كؤود أو ينحرفوا انحرافا يبعدهم عن الصراط المستقيم.

وسنقدّم –بإذن الله- في حلقات قادمة نماذج لسبل أهل الضلالة في سعيهم المزعوم لإقامة الدين، وتحكيم الشريعة، وإعادة الخلافة، ليظهر الفارق بينها وبين منهاج النبوة الذي سارت عليه –بفضل الله- الدولة الإسلامية حتى مكنها الله في الأرض، والحمد لله رب العالمين.

إقامة الدولة الإسلامية

٢

بين منهاج النبوة وسبل أهل الضلالة

إن الدولة الإسلامية هي الوسيلة الوحيدة لإقامة الدين، وتحقيق العدل بين الناس الذي فرضه الله -تعالى- على خلقه، وجعل تحكيم شريعته شرطا له، وبغياب هذا الدين، وبتحكيم غير شريعة الله -سبحانه- يطغى الكفر، ويسود الظلم، ولعلاج ذلك يلجأ الناس إلى مسالك شتى، فمنهم من يرى أن إقامة الدين إضافة إلى كونها واجبا شرعيا، فإنها تتضمن تحقيق العدل، وهم المسلمون لرب العالمين، ومنهم من يسعى لإقامة كل ما يحسبه عدلا بأي طريق كانت، ولأسباب دنيوية محضة، وهم المفسدون من دعاة الإصلاح في كل ملّة ودين باطل.

إذ يتساوى البشر جلهم برغبتهم في إقامة العدل داخل المجتمعات التي يحيون فيها، ويرون في ذلك وسيلة لتجنيبهم ظلم الآخرين لهم، وفتح المجال أمامهم ليحيوا حياتهم الدنيوية بأمان أكبر، وسعادة أكثر، ولذلك نرى كثرة ما كتبه الفلاسفة والمتكلمون من الجاهليين في مسائل الحكم، لكونه وسيلة لإقامة العدل، وسعادة البشر، وظهرت مصطلحات كثيرة تحوم حول "الحكم العادل" و"المدينة الفاضلة" التي يحلم الناس بوجودها والعيش فيها، وقد قام عدد لا يحصى من الثورات والحروب في الأمم المختلفة لتحقيق هذه الغايات.

فبإغفال الناس للمنهج الذي بيّنه لهم خالقهم -جلّ وعلا- لتحقيق العدل فيما بينهم، وتحصيل السعادة في الدارين، لا يلبثون أن يختلفوا فيما بينهم، وأن يظهر فيهم الأئمة المضلون الذين يزعم كل منهم أنه وحده من يعرف الطريق لتحقيق العدل، وأنه وحزبه هم الوحيدون الذين بإمكانهم إقامته في الأرض، وعندما تتصارع رؤاهم حول العدل الذي يزعمون مع رؤى غيرهم ومصالحهم، لا يبقى إلا السلاح حكما بينهم، إذ لا أصل متفق عليه بينهم يرجعون إليه لحسم التنازع.

قالوا إنّما نحن مصلحون

وعلى هذا يسير الكثيرون ممن يزعمون اتّباع أنبياء الله ورسله -عليهم السلام- ممن ترك السنة وسار على طريق الهوى والبدعة، فضلَّ عن الصراط المستقيم، واتبع كلٌّ منهم سبيلا من السبل، عليه شيطان يدعو إلى النار، وكلٌّ منهم يدّعي أنه وريث علم النبوة، وحامي حمى الشريعة، وكلٌّ منهم يؤمل أتباعه بأنه سيعيد الدين إلى ما كان عليه في حياة أنبيائهم، بل وسيحقق لهم ما لم يتحقق لأولئك الأنبياء من الظفر والتمكين، وتحكيم الكتاب وإقامة الدين، وفي المحصلة ظهرت فيهم الفرق المتعددة؛ ففي النصارى إحدى وسبعون فرقة، وفي اليهود ثنتان وسبعون، ليتبعهم من يزعمون الانتساب إلى أمة محمد، صلى الله عليه وسلم، فينقسموا بدورهم إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها على ضلالة إلا فرقة تسير على منهاج النبوة، على ما كان عليه النبي -عليه الصلاة والسلام- وصحابته الكرام.

ومن يرجع إلى تاريخ كثير من تلك الفرق يجد أن مبدأ الانحراف في مناهج كثير منها، الذي قادها إلى الخروج عن الدين بالكلية إنما هو مناداتهم بالعودة إلى منهاج النبوة مع بنائهم دعاواهم على أصول فاسدة، وسعيهم في إقامة دولة تختلف كثيرا عن دولة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم ما برحوا يزداد بهم الانحراف، ويبتعد بهم سبيلهم عن الصراط المستقيم، وهم يزيدون على دينهم وينقصون بما يخدم منهجهم الضال، حتى باتت أديانهم المختلفة شيئا مختلفا عن دين الإسلام الذي خرجوا بادئ الأمر يطلبون إعادته لما كان عليه السلف الأول.

الرافضة.. تاريخ طويل من الضلال

فالرافضة -إن صدق عدُّهم من أولى الفرق ظهورا- هم استمرار للانحراف الذي بدأ عند بعض الناس بتعصبهم لآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، واعتقادهم أنه لن يعيد الدين إلى ما كان عليه قبل انقطاع الوحي، ولن يحفظه إلى يوم القيامة إلا رجال من آل النبي وذريته، فظهرت في الشيعة عقيدة الوصاية على الدين التي حصروها بعلي، رضي الله عليه، وخرجوا بكذبةٍ مفادها أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نصّ عليه خليفة من بعده، وأظهروا بدعة تفضيله على الصحابة وخاصة الشيخين، ثم تطوّر بهم الأمر إلى الغلو في علي بل إلى تأليهه في حياته وبعد موته، وأصبحت مسألة إمامة أهل البيت أصلا في دينهم، فلا يرون طريقا لإصلاح الدين إلا أن تكون إمامة الدين لواحد من أبناء فاطمة، رضي الله عنها.

وهذا الاتجاه البدعي في الإصلاح المزعوم -الذي ألزموا به أنفسهم- ذهب بهم في كل مرة يموت فيها إمامهم المنصوب إلى القول برجعته، أو إنكار موته، بل ووصل بهم الأمر إلى أن ينسبوا لأحد أئمتهم ابنا لم يكن له، وذلك لما وصلت سلسلة الإمامة التي تنتقل حلقاتها من الآباء إلى الأبناء إلى طريق مسدود، عندما انعدمت سلالة الإمام الحادي عشر الحسن العسكري، فخرجوا بكذبة الإمام الثاني عشر الذي أسموه (محمد المهدي بن الحسن العسكري)، ليواروا سوءة ضلالهم في مسألة الوصاية، بأن خلت الأرض من وصي يحقق شروطهم النَسبيّة والشرعية، واخترعوا قصة غيبته في سرداب سامراء إلى آخر الزمان ليستمر منهجهم البدعي الشركي الضال، زاعمين ظهوره في آخر الزمان ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا.

دين ملفق في خدمة منهج ضال

ومنذ بداية ظهور فرقة الشيعة وحتى ما نراه اليوم من شرك طوائفهم المختلفة وكفرها، غيّر علماء السوء الذين يتبعونهم دين الإسلام الذي زعموا أول الأمر أنهم حريصون على حفظه ووقايته من الانحراف الذي ادعوا وجوده، وأضافوا عليه الكثير من أديان أهل الكتاب والوثنيين، وأنكروا منه كل ما لا يوافق هواهم ومنهجهم، وكذبوا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وآل بيته، من الآثار ما ملؤوا به المجلدات وخدعوا به السذج الأغرار، وحتى القرآن الكريم لم يسلم من كفرهم وتشكيكهم، فزعموا أن فيه زيادة ونقصانا، لما وجدوا أن آياته تعارض ما يزعمون من الدين.

ولعزل منهجهم عن منهج أهل السنة والجماعة بالكلية، طفقوا يدورون على الفرق المنحرفة، والأديان الباطلة، ليختاروا من كلٍّ منها ما يمكن أن ينبني على أصولهم الفاسدة من العقائد والأحكام، حتى لفقوا لأنفسهم دين الرفض الذي يخالف دين الإسلام بالكلية.

ومن يرجع لتاريخ فرق الشيعة يجد أنها ما زالت منذ عهدها الأول مستمرة في العمل لإقامة ما يزعمون أنه الدولة الإسلامية، وإدخال الناس في دينهم الباطل الذي يزعمون أنه الدين الذي نزل على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وورث تبليغه للناس أئمتهم الغائبون، ولا يعلم إلا الله -تعالى- عدد من قُتل من أتباع ملتهم ومن المسلمين في سبيل غاياتهم تلك في حروبهم التي لم تتوقف ضد المسلمين خلال القرون الأربعة عشر الماضية.

فهكذا نشأ دين الرفض كلّه من أصل فاسد ونظرية فاسدة في الإصلاح، رأوها ضرورية لتحقيق العدل الذي يزعمون السعي إليه، والإصلاح الذي يكذبون في ادعاء طلبه، أخذها بعض الشيعة الأوائل من دين اليهود، أو أدخلها في أذهانهم يهودي كابن سبأ، باعتقادهم وصاية علي بن أبي طالب على الدين من بعد انقطاع الوحي، كما كان يوشع بن نون وصيا على بني إسرائيل من بعد موسى، عليه السلام، وتطوّرت هذه الفكرة على مدى القرون الطويلة، وما جرى فيها من صراعات بين فرق الشيعة وأعدائهم، ومن نزاعات بين فرق الشيعة أنفسهم، ومن تبديل وتغيير في دينهم على أيدي علماء السوء المشرعين لهم من دون الله، حتى تكوَّن من كل ذلك هذا المزيج النجس من العقائد الذي نراه اليوم عند فرق الشيعة المختلفة.

تنظيمات وفصائل على خطى الرافضة

فهذا التطور البعيد الأمد لدين الرافضة يقدّم لنا نموذجا حيا لما يمكن أن تصل إليه الدعوات إلى إقامة الدولة الإسلامية إن سلكت سبلا تنحرف عن الصراط المستقيم، وجعلت من تلك السبل واجبا حتميا على الناس سلوكه لإقامة الدين، فكانت نهايتهم أن بدّلوا الدين ليتوافق مع تلك السبل التي ابتدعوها.

وهذا ما نجد كثيرا من الدعوات تسير عليه اليوم في طريقها المزعوم لإقامة الدين وتحكيم شريعة رب العالمين، فالانحرافات التي بدأت في أول الطريق لم تلبث أن انجلت اليوم عن ابتعادٍ كبيرٍ عن منهاج النبوة، بل ومحاربة لهذا المنهاج الذي رضيه الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم.

وسنسعى -بإذن الله- فيما يأتي من حلقات هذه السلسلة إلى ضرب أمثلة أكثر لتوضيح هذه الفكرة، وصولا إلى بيان مآلات سبل الضالين، مقارنة مع منهاج النبوة الذي تسير عليه الدولة الإسلامية اليوم، بفضل الله تعالى.

إقامة الدولة الإسلامية.. بين منهاج النبوة وسبل أهل الضلالة (٣)

الرافضة الاثنا عشرية

من النص المزعوم.. إلى الإمام المعدوم

يضع أصحاب الدعوات الباطلة لأنفسهم أصولا فاسدة ليبنوا عليها نظرياتهم وعقائدهم، فلا يمضي بهم زمن إلا وقد اكتشفوا بأنفسهم أن نظرياتهم لا تستقر على أصولهم فيلجؤون إلى تعزيز تلك الأصول بمزيد من البدع والضلالات، لتقوى على حمل ما علاها، وكذلك يعمدون إلى ما بنوه فوقها فيعيدون ترتيبه ليحققوا لبنائهم بعض التوازن.

هكذا يستمرون في بنيانهم إلى أن يصلوا إلى مرحلة يعجزون فيها عن تعزيز الأصول، أو تثبيت البنيان، فينهار بهم، ويخسروا بذلك الدنيا بعد أن خسروا الآخرة، قال جل جلاله: {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ١٠٩-١١٠].

وهكذا هي غالب النظريات التي وضعها بعض المنتسبين للإسلام الزاعمين الصدق في السعي لإقامة الدولة الإسلامية، من الذين جعلوا لمساعيهم أصولا فاسدة، ثم بنوا عليها أفعالهم وتوجُّهاتهم واجتهاداتهم الخاطئة، التي لا تلبث نتائجها إلا وتنقض أصولها، فلا يكون أمام أولئك الضالين من خيار غير تدعيم أصولهم المنتقضة بالمزيد من دعائم الباطل، فيزدادون بها ضلالا، ويزداد بنيانهم خرابا، حتى لا يبقى من الإسلام فيه شيء.

وفي مبحثنا حول مناهج إقامة الدولة الإسلامية بين أتباع المنهج النبوي وأتباع سبل الضلالة، نجد أنفسنا مضطرين للوقوف مطولا أمام تجربة الروافض الاثني عشرية التي وصلت بهم إلى أن يضعوا بأيديهم وألسنتهم دينا جديدا، لا صلة له بالإسلام إلا كصلة أديان اليهود والنصارى بدين إبراهيم عليه السلام، والتقديم بدراسة هذه التجربة التي امتدت لأكثر من ١١ قرنا، فهي بذلك من أطول التجارب، وأكثرها وضوحا في بيان مدى الانحراف الذي سبَّبه البناء على أصل فاسد في العمل على ضلالة لإقامة الدولة الإسلامية، والادِّعاء الكاذب بالسعي لحفظ الإسلام من البدع والانحرافات.

مبدأ دعوتهم.. نصٌ بالإمامة مزعوم

يزعم الروافض المشركون أن مبدأ دعوتهم كان في حياة النبي عليه الصلاة والسلام، بوصيَّته ونصِّه بالخلافة والإمامة لعلي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وأولاده من بعده، ولا دليل لديهم على هذه الوصية، سوى ما يختلقون من تأويلات باطلة لنصوص الكتاب والسنة، بل الأدلة الثابتة تنقض ما يدّعون.

ومنها قول عمر، رضي الله عنه: "إني لئن لا أستخلِف فإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لم يستخلف، وإن أستخلف فإن أبا بكر قد استخلَف" [رواه مسلم]، ففيه دليل على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يستخلف عليًّا ولا غيره من صحابته رضي الله عنهم، وما رواه البخاري عن الأسود أنه قال: ذكروا عند عائشة أن علياً -رضي الله عنهما- كان وصيا، فقالت: "متى أوصى إليه"، وقد كنت مسندته إلى صدري، أو قالت: حجري، فدعا بالطست، فلقد انخنث في حجري، فما شعرت أنه قد مات، فمتى أوصى إليه؟"، وكذلك فإن إجماع الصحابة على البيعة لأبي بكر وعمر وعثمان -رضي الله عنهم- لم يخرج عنه من يزعمون الوصية لهم، وهم علي بن أبي طالب وابناه الحسن والحسين رضي الله عنهم، وغير ذلك من الأدلة التي تهدم كذبة الوصية كثير.

ومما ينقض ثبوت الوصية أيضا، التنازع الذي حصل بين من يزعمها من الروافض وغيرهم ممن يزعم النصرة لآل البيت، فكلٌ منهم يزعمها لواحد من آل البيت، وخاصة بعد مقتل علي رضي الله عنه، بين من يزعمها في عقب العباس بن عبد المطلب، أو الحسن بن علي، أو الحسين بن علي، أو محمد بن علي (ابن الحنفية) رضي الله عنهم، بل ولأبناء جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، ولم يمت واحد ممن يدَّعون له الإمامة إلا زادتهم الأهواء والشبهات تفرقا، وكلٌّ منهم يزعم الوصية لمن يهواه، فلو كان لأيٍّ منهم نص أو وصية لأثبت بها الحق لإمامه، ولكنهم في كثير من الحوادث لم يجدوا ما يستشهدون به على منافسيهم سوى معجزات مزعومة وخوارق مكذوبة، كما استدل الروافض على إمامة علي بن الحسين، ورفض إمامة أخيه زيد بن الحسين، بأن الأول ثبتت بيعته على لسان الحجر والشجر!

أصل ضلال الرافضة.. ادعاء عصمة الأئمة

ويمكننا أن نلخِّص الأصل الذي قام عليه دين الرافضة والذي بنوا عليه كل ضلالاتهم وانحرافاتهم حتى يومنا هذا، باعتقادهم أن الدولة الإسلامية لا يجوز أن تقوم، إلا أن يقوم عليها إمام اشترطوا له شروطا ما أنزل الله بها من سلطان، أهمها أن يكون معصوما من كل ما يقدح في عدالته الظاهرة والباطنة، عالما بكل شيء ومنه الغيب، منصوصا عليه بأمرٍ من الله سبحانه، وأن دين الناس لا يستقيم بغير هذا الإمام، وأن الناس إن آمنوا بأئمتهم، وصفاتهم، وأطاعوهم في كل ما أمروا، فإن أمورهم ستستقيم، وإن دولتهم ستكون على منهاج النبوة.

ولا يكفي عندهم أن يحوز الإمام تلك الصفات، بل لا بد أن يكون متفرّدا بها من بين البشر، لا شبيه له بينهم، ولا ندّ له منهم، ومن نازعه في شيء من ذلك فهو طاغوت، ومن أعطى المنازع للإمام ما يجب للإمام فقد أشرك بالله سبحانه.

ومرجع هذا الأصل الفاسد لديهم هو القول بأن الإمام يجب أن يطاع ويُتبَّع كطاعة النبي -صلى الله عليه وسلم- واتّباعه، ولذلك لا يمكن أن يكون من عامة المسلمين ممن يجوز عليه الجهل والخطأ والنسيان والهوى، بل لا بد أن يكون عالما بكل شيء يريد أن يعلمه، منزَّها عمَّا يعتري البشر من خطأ وسهو وميل لهوى، لكي لا يُطاع في معصية، ولا يُتَّبع على ضلالة، ولا يوجد له ندٌّ فينازعه الملك وتحصل الفتنة، ولا ند له في العلم فيخالفه الرأي ويحدث الافتراق.

ولما كانت الصفات التي اشترطوها من الخفيَّات التي لا يمكن الاطلاع عليها، وجب عندهم أن يجري اختيار هذا الإمام من الله تعالى، كما يُختار الأنبياء، لأنه وحده العالم بالخفايا، بل وتعدوا في الأمر إلى أن يوجبوا على الله -تعالى- هذا الأمر، لأنه إن لم يختر لهم هذا الإمام يكون ظالما لهم إن عذبهم، إذ لا حجة له عليهم بغياب الإمام الذي يقوم مقام الرسول، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، ولذلك فإنهم يصفون من يرونه إماما بأنه "حُجَّة" أي تقوم به الحجة على الناس، ليستحق من يعصيه العذاب من الله سبحانه، ويكون هذا الاختيار بالنص الذي يزعمونه لعلي -رضي الله عنه- وأبنائه من بعده.

توحيد الطاعة ينقض نظرية العصمة

ويأتي فساد أصلهم في طلب العصمة للأئمة من ضلالهم في مسألة طاعة الإمام، فالله -عز وجل- جعل طاعة الأئمة والأمراء تَبَعا لطاعة الله ورسوله، لا مساوية لها، فمتى ما كان أمر الأمير في المعروف، فإن طاعته هي طاعة لله سبحانه، ومتى ما تعارضت طاعة الأمير مع طاعة الله وجبت معصية الأمير، وإفراد الله -سبحانه- بالطاعة.

وقد أوجب -جل جلاله- طاعة أولي الأمر، ولكنه أمر حين التنازع بالردّ إلى الله ورسوله، أي الكتاب والسنة، للتأكيد على أن طاعة أولي الأمر هي طاعة لله، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء: ٥٩]، وقال عليه الصلاة والسلام: (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني) [رواه مسلم]، ولا يُعقل أن تكون طاعة الأمير الذي أوصى النبي -صلى الله عليه وسلم- في حياته بطاعته فيما يناقض أوامره، كما إنه لم يشترط لهذا

الإمام الذي وجبت طاعته بالنص أن يكون معصوما، وقال أيضا: (لا طاعة في المعصية إنما الطاعة في المعروف) [رواه البخاري ومسلم].

وبذلك تنتفي الحاجة إلى عصمة الإمام، ما دامت الطاعة لهذا الإمام واتّباعه مقيَّدان بطاعة الله –جل جلاله– واتباع رسوله عليه الصلاة والسلام، وهذا هو منهج أهل السنة والجماعة الذي لا يزالون عليه منذ زمن الرسول –صلى الله عليه وسلم– وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، بوجوب الطاعة لولاة أمور المسلمين في المعروف، ما داموا على الإسلام، وأن ظلمهم وفجورهم –إن ظلموا وفجروا– لا يمنعهم حقَّهم من الطاعة فيما لا معصية لله فيه.

تدعيم الأصل الفاسد بالبدع وضلالات جديدة

وبناء على أصلهم الفاسد بأن الأرض لا يجوز أن تخلو من معصوم يقوم مقام سلفه، وزعمهم بالنص على هذا المعصوم في حياة الإمام السابق، بل واشتراطهم عليه أن يخلِّف من ورائه معصوما من أولاده، فقد اصطدم الرافضة بعدة عقبات، أجبرت بعضهم على الرجوع عن ذلك الأصل الفاسد، ودفعت آخرين إلى انحراف أكبر، حفاظا على هذا الأصل الذي بات عندهم أصلا للدين كلِّه لا لمسألة الإمامة فحسب، ويمكننا أن نذكر على ذلك بعض الأمثلة.

فقد زعموا في حياة جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أن الوصي من بعده هو ابنه إسماعيل، فلما مات إسماعيل في حياة أبيه، وقع تناقض بين أصلهم في وجوب تحقُّق الوصية، وبين وفاة المُوصى إليه، فانكشفت بذلك الخدعة لفئة من الناس علمت كذب هذه النظرية، وأنه لا يُعقل أن يَنصَّ الله –تعالى– على رجل بأنه هو الإمام ثم يميته قبل أن يوليه الإمامة، فيما تمسك آخرون بذلك الأصل الفاسد ليبنوا عليه مبانِيَ أشد فسادا.

فخرج قوم منهم بالقول باستمرار إمامة إسماعيل بن محمد، وإنكارهم لمسألة وفاته، أو زعمهم برجوعه للحياة بعد موته، وتكذيبهم لإمامهم جعفر (الذي يسمونه الصادق)، لَمَّا أبلغهم بخبر وفاته، وزعموا أنه اخترع قصة وفاته تقيَّةً، ليحفظه من أعدائه، وأنه غائب عن الناس، ومنهم نشأت فرقة الإسماعيلية الباطنية التي ما زالت مستمرة إلى يومنا هذا، والذين أكملوا سلسلة الإمامة المزعومة في نسل إسماعيل بن محمد، ومن هنا نشأت بدعة الإيمان بالغيبة، والحياة الدائمة، والرجعة لأئمتهم.

وخرج قوم آخرون ليكذبوا على الله تعالى، ويجيزوا عليه أن يغيِّر قوله بالنص على إمام جديد بعد أن أوجبوا عليه من قبل أن ينص على الإمام الأول، وسمّوا هذه الفرية على الله، والبدعة في الدين، بعقيدة "البداء" ومعناه أن الله –سبحانه– قد بدى له أن ينقل الإمامة من شخص إلى آخر، قاتلهم الله أنى يؤفكون، وقام هؤلاء (وهم الموسوية) بنقل النص من إسماعيل بن جعفر (المتوفى) إلى أخيه موسى بن جعفر (الذي يسمونه الكاظم)، وذلك ليحفظوا نظريتهم من الاندثار، ويحفظوا أصلهم من النقض.

تثبيت النظرية بالأكاذيب

ولما مات جعفر بن محمد رحمهما الله، وقع غلاة الرافضة في حرج جديد، لعدم وجود النص على الإمام من بعده، فقالوا بإمامة ولده الأكبر عبد الله بن جعفر (الذي يسمونه الأفطح)، ثم أنكر قسم منهم إمامته لما وجدوه يقول بخلاف قولهم، واتهموه بالفسق، وعادوا ليلحقوا بمن قال بإمامة أخيه موسى بن جعفر.

وأما من استمر في القول بإمامة عبد الله بن جعفر فقد أُسقط في أيديهم بوفاته من غير أن يعقب، فلم يكن له ولد يؤمِّمونه من بعده، فرجع قسم منهم عن خرافة النص، وازداد آخرون في ضلالهم، بأن كذبوا على إمامه وزعموا له ولدا لم ينجبه، وادعوا أنه غائب عن الأنظار، فكرروا بذلك ما قاله الغلاة في إسماعيل بن جعفر، وترسخت فيهم عقيدة (الغيبة)، بل وزاد هؤلاء انحرافا بالبيعة لغائب لم يولد يوما، ولم يظهر في الأرض ساعة، وظهر فيهم اختراع الأئمة المعدومين.

وأما من قال بإمامة موسى بن جعفر (الذي يسمونه الكاظم) فقد وقع في حرج جديد، بوفاة الإمام في السجن دون وصية لأحد من بعده، فعادوا حفاظا على الأصل الفاسد والنظرية الباطلة إلى اختراع الأكاذيب، فمن نفى وفاته وقال باستمرار حياته وغيبته بقي على القول بإمامته وسُمّوا بالواقفية، ومن اضطر للتصديق بوفاته، قالوا بإمامة ابنه علي بن موسى (الذي يسمونه الرضا)، وقد أظهر الواقفية العداء لعلي بن موسى، واتهموه بالكذب فيما أعلنه من خبر وفاة أبيه.

أئمتهم ينقضون أصل النظرية

أما من قال بإمامته فقد أوقعهم هو في تناقض كبير مع أصولهم الفاسدة، وذلك ببيعته للمأمون بن هارون الرشيد، وقبول تولي ولاية العهد منه، وقدَّم بذلك دليلا جديدا على كذب نظريات الوصية والنص والعصمة وغيرها، إذ لا يعقل أن يبايع الإمام المعصوم المنصوص عليه رجلا غاصبا للسلطة، غير مُزكى في دينه وعلمه، فإما أن يطيعوا إمامهم الذين يزعمون عصمته فيما ذهب إليه، فينقُضوا أصل النص في الإمامة، أو يخالفوه ويخرجوا عليه فينسفوا دينهم كلَّه من أصله فيخطِّئوا إمامهم وينكروا عصمته، ويعودوا عن القول بالوصية بالإمامة إليه والنص عليه، ولا يبقى لديهم إلا القول بالبداء أو التقية كما هو دأبهم في كل فرية يفترونها وكذبة يكذبونها.

تجويز إمامة الصبيان والمعدومين

ولم يلبث هؤلاء أن حلّت بهم مصيبة جديدة، بوفاة علي بن موسى، فاضطر الرافضة إنفاذا لنظريتهم إلى القول بإمامة الصبيان، كمحمد بن علي بن موسى (الذي يسمونه الجواد)، إذ مات أبوه علي بن موسى (الرضا) في خراسان وهو ابن سبع سنين، في حين انفض عنه قسم من الرافضة اتجهوا لبيعة عمه أحمد بن موسى، وقسم رجع إلى نقض إمامة الرضا لأنه لم يترك إماما من خلفه، ولم يغسِّله بعد وفاته إمام، وفرقة بايعت محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين، وأخرى بايعت (الجواد) واستدلوا على إمامته بادِّعاء علمه الغيب، ونسبوا إليه الذهاب من المدينة إلى خراسان وتغسيل والده والعودة في لحظات، وغير ذلك من المعجزات المزعومة، وتكرر الأمر بوفاة محمد (الجواد) شابا في الخامسة والعشرين من عمره، مخلِّفا ولدين صبيَّين هما علي (الهادي) وموسى، وتعيينه وصيا على أموالهما لحين بلوغهما، ما دفع الرافضة إلى التفكير في كيفية تولية الصبي على أمر الأمة في حين أن أباه "المعصوم" لم يأتمنه حتى على ماله الخاص.

ثم عاد قسم من هؤلاء للخروج على علي (الهادي) بن محمد (الجواد)، لما مات ولده الذي أوصى له في حياته (محمد) فأوصى لابنه الآخر الحسن (العسكري)، فأصر قسم من الرافضة على استمرار إمامة محمد بن علي (الهادي) منكرين موته، حفاظا على عقيدة الوصية التي يشترطونها لانتقال الإمامة، فيما بايع آخرون الحسن (العسكري) على أساس عقيدة البداء المعروفة عندهم.

ثم كانت الضربة القاصمة لهم بوفاة الحسن (العسكري) بن علي (الهادي) من غير أن يعقب، فما كان من الغلاة إلا أن لجؤوا إلى إخوانهم (الأفطحية) لينسبوا للحسن ولدا لم يولد ويسموه محمد (المهدي)، ليكمل الرافضة الاثنا عشرية بذلك ١٢ إماما لهم، ويزعموا أنه غاب في سرداب بسامراء وهو طفل خوفا من أعدائه، وأنه سيظهر عندما يزول عنه الخطر، ومنذ هذا الغياب المزعوم قبل ١٢٠٠ عام تقريبا، والروافض ينتظرون خروج هذا الإمام المختلق ليقيم الدولة الإسلامية على أساس أصلهم الفاسد، وهو إمامة المعصوم.

دين موضوع على أصل فاسد

من خلال تتبع مسيرة هؤلاء الضالين الذين شتت الله شملهم، بعد خروجهم عن جماعة المسلمين، فانقسموا إلى عشرات الفرق، كل منها تلعن الأخرى وتكفِّرها، نجد أنهم جعلوا أصلهم الفاسد ونظريتهم الباطلة ليبرروا رفضهم خلفاء المسلمين وأمراء المؤمنين من زمن أبي بكر الصديق وإلى أن تقوم الساعة، إذ لا يمكن لأحد أن يحقق الشروط التي يشترطونها عليهم من عصمة ونص ومعجزات، إلا ما يعطونه هم من ذلك بأكاذيبهم، ثم لا يقبلوا إماما إلا من يرضي أهواءهم، ولذلك رأينا أنهم خرجوا مرارا على من قالوا بإمامتهم، لما خالفوهم بأحكامهم، أو جرى عليهم من الأقدار ما يناقض أصولهم، ووجدنا أن من يزعمون نسبة النظرية لهم قد نقضوها مرارا في حياتهم، وخالفوها بأقوالهم وأفعالهم.

كما أنهم اضطروا مرارا إلى الزيادة على دينهم، ووضع أصول جديدة لهم ليستقيم بنيانهم المتداعي، فأضافوا عقائد الوصية والنص والبداء وغيرها، بل ورجعوا إلى الكتاب والسنة فحرفوهما، وأنكروا كل ما خالف أصولهم منهما، واضطروا لإطلاق الخرافات والتبرير لها مهما كانت درجة سخافتها، كالغيبة لمئات السنين، والرجعة بعد الغيبة، واختلاق الأولاد، وإمامة الصبيان، وغيرها.

وسنجد –بإذن الله– في الحلقة القادمة من هذه السلسلة كيف أن الرافضة وضعوا معظم دينهم خلال فترة الغيبة التي تلت وفاة الحسن (العسكري) وزعمهم بغيبة ولده المختلق محمد (المهدي)، وكيف زادوا في دينهم ونقصوا خلال هذه القرون الطويلة، وصولا إلى دولتهم الطاغوتية التي أقاموها في إيران اليوم، ويسعون لامتدادها لتشمل العالم كله حسب زعمهم تمهيدا لرجعة مهديهم وظهوره بعد اختفاء أسباب غيبته من وجود الأعداء، وضعف الأنصار.

إقامة الدولة الإسلامية.. بين منهاج النبوة وسبل أهل الضلالة (٤)

الرافضة الاثناعشرية

أوردنا في الحلقة الماضية من هذه السلسلة لمحات عن تاريخ نشوء دين الرافضة على أساس نظرية (الإمامة الإلهية) الباطلة، وما اشتُق منها من نظريات (الوصية) و(النص)، و(التقية) و(البداء)، و(الغيبة) و(الرجعة)، وغيرها من البدع المكفرة والخرافات. وسنحاول في هذه الحلقة -بإذن الله- أن نبين كيف اضطر الروافض إلى التلاعب بنظرية (الإمامة الإلهية) التي اشترطوها لإقامة الدولة الإسلامية، وكيف أضافوا التعديل تلو التعديل عليها حتى وصلوا إلى نظرية (ولاية الفقيه)، التي تنقض أصول نظريتهم الأولى، وتقوم عليها دولة إيران الشركية اليوم، وتسعى لتعميمها على بلاد المسلمين كافة.

فبخلاف ما يزعمه الرافضة من أن دينهم وحي من السماء على رسول الله محمد، صلى الله عليه وسلم، وأنه وصل إليهم مسلسلا منه عبر علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وأبنائه، حتى دوَّنوه في القراطيس ونشروه بين الناس، فإن أكثر الباحثين المحقِّقين يجزمون بأن هذا الدين كتبه علماء الرافضة بعد موت كل من يزعمون له الإمامة والعصمة من أبناء علي، رضي الله عنه، ودخولهم في ما يسمّونه (عصر الغيبة) أي غيبة إمامهم الثاني عشر الذي اختلقوه من العدم، ليرقّعوا به ثوبهم المزِق، ويعززوا به بنيانهم الهدِم.

فلم يكتفِ الرافضة باشتراط العصمة والنص لمنصب الإمامة، ليدعوا بذلك نقض شرعية كل خلفاء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من لدن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، ويبرروا الخروج عليهم، وتكفيرهم، بل توجهوا إلى عامة المسلمين ليشترطوا عليهم في دينهم أمورا تُلزمهم ببيعة أئمتهم والدخول في دين الرفض ليكونوا مسلمين.

فكان أهم ما بدؤوا به هو موضوع الإمامة، فجعلوا منها أصلا من أصول الدين، ومن لم يعرف إمام زمانه، ويبايعه فلا إيمان له، ولذلك وقع عندهم الخلاف في إيمان بعض من كبار أصحاب أئمتهم لما ماتوا في فترات الاختلاف على تحديد الإمام.

وليضيِّقوا على أتباع دينهم أكثر، فقد قالوا بتوقيف كل ما يتعلق بمنصب الإمامة من أحكام كالقضاء وإقامة الحدود والحسبة والجهاد والجمعة، وغيرها، فلا يصح أن يقوم بها إلا من يزعمون إمامته أو من ينصِّبه الإمام لذلك، وحرَّموا عليهم أن يتقاضوا إلى من يسمونهم بـ "أئمة الجور"، أو يقاتلوا من ورائهم، أو يصلوا الجمعة خلفهم، أو يؤدوا إليهم زكاتهم.

بل وامتد تحريفهم إلى التشريع في الدين، فمنعوا أتباعهم من الأخذ من كتاب الله، أو سنة رسوله -عليه الصلاة والسلام- مباشرة، وألزموهم بأن يأخذوا الأحكام عن طريق "الأئمة" فحسب، وزعموا أن كلام أئمتهم هو القرآن الناطق، مقابل ما سموه "القرآن الصامت" الذي في مصاحف المسلمين وصدورهم، ثم تعدوا الأمر لينكروا توقف التشريع في الدين بموت النبي، صلى الله عليه وسلم، زاعمين أنه اختص آل بيته بالكثير من الأحكام التي لم تحدث الحاجة لإظهارها في حياته، وأن كل ما ينسبونه لأئمتهم من أقوال وأفعال، إنما هو مما ورثوه من علم النبوة، بل شطُّوا بعد ذلك بعيدا ليزعموا أن أئمتهم يوحى إليهم من الله تعالى، لتكون أقوالهم وحيا يوحى، ويجعلوها ضمن ما يسمونه "السنة" في باب أصول الفقه، فمنعوا الاجتهاد في الدين، وعدُّوا من يتصدى للفتيا

من إمامة المعدوم.. إلى ولاية الطواغيت

من غير الأئمة بمثابة الطواغيت المشرِّعين، الحاكمين بغير ما أنزل الله.

ولم يقتصروا على حصرهم تفسير الكتاب والسنة بما ينسبونه لأئمتهم من أقوال، وتأويلهم نصوص الوحيين بتأويلات باطنية كاذبة، بل امتدت ألسنتهم الآثمة إلى تلك النصوص بالتكذيب والتحريف، فلا صحيح من السنة إلا ما وافق مذهبهم، بناء على القول المكذوب على جعفر (الصادق): "ما خالف العامة فهو الرشاد"، ويعنون بالعامة أهل السنة والجماعة، بل وكذّبوا حتى بصحة القرآن الكريم، زاعمين أن صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حرّفوا آياته، وحذفوا منها ما كان فيها من نص واضح على إمامة علي -رضي الله عنه- وآل بيته، وأزالوا ما فيه من لعن لأبي بكر وعمر وبني أمية، وكل من ليس على مذهبهم الباطل وملتهم الكافرة بزعمهم، ونسبوا إلى أئمتهم مصحفا غير الذي في أيدي الناس، وبالتالي فقد ادعوا احتكار الوحيين أيضا بعد أن احتكروا تأويلهما، وبيان الأحكام النازلة فيهما.

وزادوا على حصرهم دين الناس بأئمتهم، بأن ربطوا دنياهم بهم أيضا عن طريق إشاعة شرك العبودية بين أتباعهم، وحثهم على الاستغاثة بأئمتهم ودعائهم، والتقرب إليهم بالذبح والنذور، والتبرك بقبورهم، وما ينسبونه إلى آثارهم، ليرزقوهم الأموال والأولاد، أو يشفوهم من الأمراض، زعموا، وكل ذلك في إطار عملية شاملة لحشد الناس إلى حزبهم، وربطهم بمذهبهم.

وفيما ذكرنا من أخبار بنائهم دينهم كله على أصل الإمامة غنى عن إيراد المزيد من الأمثلة لتوضيح المراد، رغم أن دينهم الخرافي الوضعي مليء بأمثال هذه الغرائب.

من "الإمامة الإلهية" إلى نيابة الإمام

لم يستحِ الروافض من تغيير دينهم في مسألة الإمامة عدة مرات طوال قرنين من الزمن تقريبا، ولكن أحرج المواقف التي مرّوا بها كانت عند وفاة إمامهم الحادي عشر الحسن (العسكري) بن علي (الهادي)، وذلك في منتصف القرن الثالث الهجري، من غير أن يعقب، ولتسلم لهم نظريتهم اخترعوا قصة ولادة ولد للحسن (العسكري) من جارية رومية، وزعموا أن أمه أخفته لحمايته من الحكام حتى يكبر، ثم عدّلوا القصة ليقولوا إن أعداءه عثروا عليه وهو صبي، فاختبأ منهم في سرداب في مدينة سامراء بالعراق.

فلما طالت قصة اختبائه، وكثرت أسئلة أتباعه عنه، ومطالبتهم برؤيته لأخذ الدين منه، زعم الدجاجلة الكذبة أنه متخفٍ عن الناس، ومحتجب عن أعينهم، فلا يعرفه إلا نائب له هو (عثمان بن سعيد العمري) الذي أخرج لهم رسائل زعم أنها بخط المهدي المزعوم، بتنصيبه نائبا عنه للرد على أسئلة الناس، وتبليغهم علم الإمام، واستلام الخمس منهم، والأخيرة هي الأهم كما سنرى لاحقا.

ومع ظهور نواب للإمام الثاني عشر محمد (المهدي) بن الحسن (العسكري)، انتهى عند الرافضة عصر الأئمة المعروفين وبدأ عصر الغيبة، وسميت هذه المرحلة بالغيبة الصغرى، لوجود نواب معروفين للإمام، يقومون مقامهم، ويحفظون لطواغيت الرافضة نظريتهم الباطلة وأصلهم الفاسد. واستمرت مرحلة (الغيبة الصغرى) قرابة الـ ٧٠ عاما، تعاقب على نيابة الإمام فيها ٤ نواب، أهمهم بعد العمري ابنه محمد (ونلاحظ انتقال نيابة الإمام بالوراثة كمنصب الإمامة)، الذي استمر في منصبه ٤٠ عاما، تلاه الحسين النوبختي، ثم علي المسيري، الذي انتهت بوفاته -سنة ٣٢٩ هـ- هذه المرحلة، خاصة أنهم بوفاته شعروا أن كذبة الغيبة الصغرى ووجود الإمام في مكان خفي لن تنطلي على أحد بعد اليوم بانقضاء العمر المتوقع لغالب الناس. وبدأت مرحلة (الغيبة الكبرى) التي منعوا من الخوض في كُنهها أو التساؤل عن مكان الإمام وموعد ظهوره فيها، والتي استمرت منذ ذلك الوقت وإلى يومنا هذا، ليعيش الرافضة طوال ١٠٠٠ سنة دون إمام ظاهر، ويبدأ علماء الرافضة بوضع الأحاديث على ألسنة أئمتهم، وتتطور محاولاتهم الخروج من متاهة الغيبة بحلول متعددة، لا شك أن ولاية الفقيه في إيران الرافضية هي طورها الأعلى، ولذلك نجد إكثارهم هذا الزمان من الحديث عن (عصر الظهور)، ويقصدون بذلك ظهور المهدي (المنتظر) ليقيم الدولة الإسلامية العادلة، وينتقم من أعداء آل البيت (ويقصدون بهم أهل السنة)، ويملأ الأرض عدلا كما ملئت كفرا وجورا، زعموا.

ألف عام من الحيرة...

وقع طواغيت الرافضة في شر أعمالهم، وسقطوا في فخ "الإمامة الإلهية" الذي نصبوه للمسلمين، ووجدوا أن القيود والأغلال التي طالما ربطوا بها الناس باتت تطوق أياديهم وأعناقهم، فما كانوا يحصرونه بالإمام من تشريع واجتهاد وحكم وإقامة للحدود وقتال وأخذ لأموال الخمس والزكاة وغيرها، ويمنعون أيا من الناس من أن يتولّوا شيئا منها، باتوا هم أيضا ممنوعين من القيام بها، بحكم غيبة الإمام، واستحالة موته ونصب إمام بعده، لأنهم ختموا به سلسلتهم الاثني عشرية، وكذلك صعوبة ادعاء النيابة عنه، لكثرة الأدعياء الذين ستغويهم صلاحيات الإمامة ومكاسبها المالية للسعي في ذلك (وقد خرج فعلا في عصر النواب الأربعة المقبولين لدى الرافضة أكثر من ٣٠ نائبا يرفضهم الرافضة، وتولوا جمع الخمس والزكوات باسم الإمام الغائب)، وهنا كان لا بد لهم من حيل جديدة تمكنهم من الاستمرار في وضع دين الرافضة، وتطوير نظرية "الإمامة الإلهية".

وهكذا اهتزت عقيدة الرافضة كثيرا خلال هذه الفترة، وخرج غالبهم عن هذا الدين الباطل الذي يجدون فيه تناقضا كبيرا، بحصره كل جوانب دينهم ودنياهم بوجود الإمام الذي ليس له وجود إلا في الأساطير والخرافات، وقد وصف أحد طواغيتهم الكذابين الذي يسمّونه (الصدوق) حالة الرافضة في بدايات (الغيبة الكبرى)، التي يسمونها (عصر الحيرة) بقوله: "وجدت أكثر المختلفين عليّ من الشيعة قد حيرتهم الغيبة، ودخلت عليهم في أمر القائم الشبهة"، ويقول طاغوت آخر من طواغيتهم، وهو النعماني: "أيّ حيرة أعظم من هذه التي أخرجت من الأمر هذا الخلق الكثير والجم الغفير، ولم يبقَ ممن كان فيه إلا النزر اليسير؟! وذلك لشكّ الناس".

التوقفيّون والحركيّون

وكان التطوير الأهم في نظرية "الإمامة الإلهية" خلال هذه المرحلة هو اختراع نظرية جديدة هي "الانتظار" التي اختلفوا لاحقا في تأويلها، بين موقفين رئيسيين، الأول (توقفي) يقوم على الاستخفاء بالتقية، حتى عودة الإمام الغائب، والآخر (حركي) يقوم على ضرورة تهيئة الأوضاع لعودة هذا الإمام، وذلك بتحقيق التمكين وامتلاك القوة التي تزيل أسباب خوف الإمام من أعدائه ليتمكن من الظهور والحكم وإقامة الدين.

أما الاتجاه الأول (التوقفي) فقد شدَّد على تحريم أي تحرك لإقامة "الدولة الإسلامية" أو اتباع أي أحد يخرج في عصر الغيبة باسم إعادة الحكم لآل البيت، وقد نسبوا لمحمد (الباقر) القول: "كل راية ترفع قبل راية المهدي فصاحبها طاغوت يُعبد من دون الله، وكل بيعة قبل ظهور القائم فإنها بيعة كفر ونفاق وخديعة".

وساد المنهج (الإخباري)، بين أتباع هذا الاتجاه، الذي يشبهونه زورا وبهتانا بمنهج أهل الحديث، والذي يمنع علماءهم من الاجتهاد، ويمنع جُهالهم من التقليد، ويأمر الجميع بالأخذ فقط من الآثار المنسوبة لأئمتهم، وقد أسرف هؤلاء بالكذب على النبي -صلى الله عليه وسلم- وآل بيته، بل وعلى مهديهم الغائب، ويمكن القول إن معظم ما وُضع في دين الروافض من أكاذيب وبدع وخرافات، وطعن في الإسلام وأهله، وفي القرآن وحملته إنما هو من فعل أولئك (الإخباريين)، بل وقد أعادوا كتابة تاريخ القرون الماضية من جديد بما يُوافق أهواءهم ومعتقداتهم، وهكذا لم يكتفِ الروافض وعلى رأسهم (الإخباريون) ببناء دينهم على أصلهم الفاسد "الإمامة الإلهية"، وإنما كتبوا تاريخ البشرية من جديد ليوافق هذه النظرية الباطلة، بل وحددوا معالم المستقبل لينسجم معها أيضا.

وبناء على هذا فقد استمر وقوف أهل الاتجاه (التوقفي) موقفا سلبيا من كل الدول التي أقامها الرافضة خلال الأزمنة الماضية، ونقضوا شرعيتها بناءً على نظريات (الوصية) و(النص) و(العصمة) و(الانتظار) وغيرها، التي لا تتوافق شروطها مع جميع أولئك الحكام رغم ديانتهم بدين الرافضة، وإيمانهم بانتظار (المهدي)، ورغم زوال الموانع التي برَّروا بها غيبة إمامهم، بعرض بعض أولئك الملوك على طواغيت الرافضة، أن يطلبوا من (المهدي) الظهور لتسلم حكم دولهم، إلا أنهم رفضوا العرض بحجة أن لخروجه علامات لم تظهر بعد!

أما أصحاب الاتجاه الآخر، الذين لم ترق لهم جمودية (الانتظار)، رغم إيمانهم بألّا إمام إلا بظهور مهديهم، تبعا لإيمانهم بنظرية (الإمامة الإلهية) وشروطها الباطلة، فقد أحرجهم كثيرا ضعف نظرياتهم البدعية وقصصهم الخرافية أمام حجج خصومهم، فتحركوا تحت ضغط أتباعهم ليتحرروا من قيود جمودية (الانتظار)، متسلحين بالمنهج العقلي الضال للمعتزلة، وأصولهم في التلقي والاجتهاد والمناظرة، ليفتح طواغيت الرافضة هؤلاء، الذين يسمّونهم (الأصوليين) الباب بذلك رويدا رويدا أمام أنفسهم، للاجتهاد واتخاذ الأتباع والمقلدين، وإعادة العمل ببعض العبادات التي أسقطها (التوقفيون) في عصر الغيبة، كصلاة الجمعة، والحسبة، والقتال، وإقامة الحدود، بل والإمارة أيضا، وكل ذلك طبعا وفق دين الرافضة، لا وفق دين الإسلام.

نظرية (نيابة الفقيه)

تمكن طواغيت (الأصوليين) من فتح باب الاجتهاد أمام أنفسهم، بكسرهم قفل (الإمامة الإلهية) الذي أغلق الباب عليهم، وحلِّهم للعقدة التي وضعها طواغيت (الإخباريين)، والمتعلقة بعدِّ كل علم غير علم الأنبياء والأئمة علما ظنِّيا، وعدم إجازتهم العمل به، فأخرجوا نظرية جديدة تقوم على أساس (النيابة العامة للفقهاء) عن المهدي، بناء على تأويل نص منسوب لأحد أئمتهم يجيز طاعة من يعرف أقوال آثارهم، فهم نواب للمهدي في هذا الباب لا أكثر، وهو (أي المهدي) يسددهم ويمنعهم من الخطأ، اعتمادا على نظرية (اللطف) الاعتزالية، بل هو يَظهر عند الضرورة لينقض إجماعهم على الخطأ بقول يلقيه بين أقوالهم من معلوم أو مجهول.

إلا أن الغالب في قضية التأصيل لنظرية (نيابة الفقيه) هو حل إشكالية استلام ضريبة (الخمس) التي فرضوا من خلالها اقتطاع خمس أموالهم وتأديتها لأئمتهم، إذ توقف أداؤها لفترة طويلة لغياب الإمام، فما كان أمام طواغيت الرافضة سوى أن يفتحوا الباب لأنفسهم لأخذ هذه الأموال من الناس، بدعوى الاحتفاظ بها في خزائنهم وتأديتها لمهديِّهم عند خروجه، أو نيابته في التصرُّف فيها وإنفاقها على آل البيت، زعموا، وفي سبيل نشر دينهم، وتقوية أتباعهم، فلما فُتح باب النيابة عن الإمام الغائب في باب واحد هو (الخمس)، أجاز طواغيت الرافضة لأنفسهم النيابة عنه في الأبواب كلها تدريجيا، حتى قال أحد رواد هذا الاتجاه، وهو شيخهم الكركي: "إن الفقيه المأمون، الجامع لشرائط الفتوى، منصوب من قبل الإمام المهدي".

وهكذا بدأ طواغيت الرافضة يحلون محل أئمتهم، ويتشبهون بهم أكثر فأكثر، ويحتكرون لأنفسهم ما حصروه بهم، من تشريع، واجتهاد، وقضاء، ورئاسة، فبدؤوا يستثمرون نظرية (نيابة الفقهاء) في الضغط على الحكام لأخذ الإجازة منهم بالحكم، وإلا كانوا طواغيت مشركين، فشابهوا بذلك ما كان يفعله "الباباوات" النصارى في أزمنة ضعفهم من اشتراط إجازتهم لشرعنة حكم ملوك أوروبا، زاعمين النيابة في ذلك عن عيسى المسيح عليه السلام.

من "نيابة الفقيه" إلى "ولاية الفقيه"..

ربما تكون الدولة الصفوية أول الدول الرافضية التي مارس فيها طواغيت الرافضة سلطتهم نوابا للمهدي المزعوم، بأن جعل طهماسب بن إسماعيل الصفوي الحكم لأحدهم وهو الكركي، ليحكم بالنيابة عن المهدي، على أن يجيزه بإدارة شؤون بلاد فارس، فيكتسب بذلك شرعيّة في نظر الروافض الذين كان يسعى لاستمالتهم إلى صفِّه ضد أعدائه العثمانيين بشكل خاص، وكذلك في نظر جنوده وأنصاره من القزلباشية الصوفيين الباطنيين.

ولكن اشتراط هذه الإجازة للحكام من "نواب المهدي" لم يرسخ كقانون، نظرا لتهرب الملوك منها أولا، وللتنازع حول أصل نظرية "نيابة الفقهاء" مع (الإخباريين) الذين لم يستسلموا لإخوانهم (الأصوليين)، ولم يسلّموا لهم بتنصيبهم من قبل مهديِّهم، ورغم ذلك فقد استمر نفوذ طواغيت الروافض بازدياد بين أتباعهم، وبالتالي امتلكوا القوى التي يستطيعون من خلالها الضغط على الحكام، كما فعلوا مع سلاطين القاجاريين حتى نهاية حكمهم، ونظرا لاضطراب العلاقة بينهم وبين الحكام، فقد ظهر بين طواغيت الروافض اتجاه قوي يقول بوجوب أن تكون السلطة في أيديهم بشكل مباشر، ثم يفوِّضوا هم جزءا منها لمن يرون من الناس، بدل تقاسمها مع الحكام، فلا ينالوا منها غير الولاية على القضايا الدينية فحسب.

وهكذا وبعد أن ضاق الروافض وطواغيتهم ذرعا بنظرية (الإمامة الإلهية) وشروطها، ونظريات (الغيبة) و(الانتظار)، باتوا يجهرون بصوت خافت بالحاجة إلى إعادة النظر في هذه النظريات الباطلة، أو على الأقل إيجاد منافذ تسمح لهم بإقامة الدول والحكومات، والفصل في القضايا والمنازعات، وحراسة الثغور وإقامة الحدود، وجمع "الخمس"، والزكوات، وغير ذلك مما لا غنى لمجتمعاتهم عنه، فتطور لديهم القول بنظرية جديدة بنوا عليها آخر دولهم الطاغوتية بإذن الله، وهي دولة إيران الشركية التي تقاتلها دولة الإسلام اليوم، وهي نظرية "ولاية الفقيه".

وسنسعى -بإذن الله- في حلقة قادمة من هذه السلسلة إلى الحديث عن هذه النظرية، وواقعها اليوم في ظل تطبيقها من قبل طواغيت إيران، نسأل الله أن يعلِّمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما علمنا، وأن يهدينا سواء السبيل، والحمد لله رب العالمين.

إقامة الدولة الإسلامية.. بين منهاج النبوة وسبل أهل الضلالة (٥)

الرافضة الاثنا عشرية

يأكلون أوثانهم

تحدثنا في الحلقات الثلاث الماضية من هذه السلسلة عن تطور دين الرافضة الاثني عشرية المشركين، وكيف بني هذا الدين كله على أصل فاسد هو "الإمامة الإلهية"، التي تحصر الحق في الإمامة بفئة من الناس يزعمون أنهم استحقوها بعهد من الله تعالى، ووصية من النبي، صلى الله عليه وسلم.

وجدنا كيف أنهم زادوا في دينهم ونقصوا على مدى القرون الماضية، وذلك بسبب تداعي أصل دينهم، وحاجتهم المستمرة إلى تعزيزه بالمزيد من الأكاذيب والخرافات، التي لم يكن آخرها اختلاقهم لشخص زعموا ولادته لرجل لم يعقّب، واخترعوا له قصة الغيبة، ثم ربطوا حكايته بقصة عبد الله المهدي الذي يولّيه المسلمون أمرهم في آخر الزمان، ليقاتل بهم الدجال ومن معه من المشركين.

وسنسعى في هذه الحلقة الخاتمة لحديثنا عن تجربة الرافضة الاثني عشرية في سعيهم المزعوم لإقامة الدولة الإسلامية، إلى أن نكمل قصة تطور دين هؤلاء القوم، وصولا إلى آخر ما بلغه طواغيتهم من الكذب والخداع، وهو نظرية "ولاية الفقيه" التي يقوم عليها النظام السياسي لدولة إيران الرافضية اليوم، والتي يسعى الروافض إلى تعميمها لتشمل كل ما يمكنهم السيطرة عليه من الأرض.

نهاية طريق الضلالة.. هاوية

لقد أظهر أسلاف طواغيت الرافضة نظرية "الإمامة الإلهية" كوسيلة للخروج على أئمة زمانهم، وجذب الأنصار والأتباع، بإقناعهم أن الدولة الإسلامية لا يمكن أن تقوم كما كانت في عهدها الأول، إلا أن يقوم عليها رجال من آل بيت النبي، صلى الله عليه وسلم، الذين يعدونهم الأمناء على منهاج النبوة، والورثة لعلم الأنبياء، والمؤهلين وحدهم لأن يتبعهم الناس لما أضفوه عليهم من صفات مزعومة كالعصمة وعلم الغيب وغير ذلك.

وكان جعلهم كل من يحكم الناس، أو يقضي بينهم، أو يفتي لهم في الدين، أو يقوم فيهم بشعائر الدين كصلاة الجماعة، والزكاة، والجهاد، وغيرها طاغوتا، سوى أئمتهم أو من اختاره أئمتهم لأداء هذه الوظيفة، كان فخا صنعوه بأنفسهم بسبب انقطاع أئمتهم، واختفائهم من الأرض بالكلية، مع ما يعنيه ذلك –بناء على أصلهم الفاسد– من وجوب بقاء الناس بلا جماعة، ولا إمام يجتمعون عليه، ويصلون خلفه، ويقاتلون عدوهم من ورائه، ولا قاض يفصل بينهم في الخصومات، إضافة إلى تعطيل أحكام الشريعة، والخضوع لأحكام الطواغيت، وإبطال شعائر الدين، واندراس معالمه، وذلك كله حتى تتهيأ الظروف التي يزعمون أنها واجبة لخروج إمامهم الغائب المختلق ليحكمهم، ويؤمّهم، ويسوسهم بالعدل، ويحكمهم بالشريعة.

من "إمامة المعصوم" إلى "ولاية الفقيه"

وجيلا بعد جيل، بدأ طواغيت الرافضة بالسعي للخلاص من الأغلال التي وضعوها في أعناقهم، والقيود التي كبلوا بها أيديهم وأقدامهم، والخروج من الفخ الذي حفروه بأنفسهم، فبدؤوا يعملون على تبرير القيام بالوظائف التي حصروها سابقا بإمامهم الغائب، بداية بالفتوى والقضاء وأخذ الخمس والوصاية على الأوقاف وأموال اليتامى، وصولا إلى الزعم بحقهم بحكم الناس "بالنيابة عن الإمام"، وزعمهم أنهم أخذوا الحق في كل ذلك من الإمام الغائب، سواء عن طريق الكتب المكذوبة على لسانه، أو الروايات الموضوعة على ألسنة أئمتهم السابقين، وهكذا وصل الأمر بطواغيت الرافضة إلى نصب أنفسهم أوصياء على ملوكهم، وتوليتهم بناء على ذلك شؤون الحكم والسياسة "نيابة عن الإمام"، بما لديهم من صلاحيات يزعمون أخذها من أئمتهم، كما كان دأب باباوات النصارى مع ملوك أوروبا قبل قرون، فكل من قبلوه جعلوا دولته "دولة إسلامية"، وأجازوا لأتباعهم القتال من ورائه، والتقاضي إليه، مع احتكارهم الاستيلاء على أموال الخمس "نيابة عن الإمام"، وإن رفضوا حكم ملك ما جعلوه طاغوتا، وحرضوا أتباعهم على عصيانه والخروج عليه.

وهكذا ومع تفاقم النزاعات بين أحبار ورهبان السوء الذين يتبعهم الرافضة وملوكهم، بدأ كل من الطرفين يكيد للآخر، ويسعى جهده إلى الاستئثار بالحكم من دونه، فظهر بين علماء الروافض ومراجعهم من ينادي صراحة بوجوب أن يكون الحكم بأيديهم وحدهم، وتطويرهم بذلك نظرية "الإمامة الإلهية" التي زعموا بها حق أئمتهم بولاية أمر المسلمين، لينقلوا هذا الحق إلى أنفسهم، أسوة بباقي الأمور التي كانت خاصة بأئمتهم ثم أجازوها لأنفسهم، وهكذا ظهرت نظرية "ولاية الفقيه" التي هي في حقيقتها خروج مبطَّن على أصل دينهم الباطل، وذلك بمنح كل ما حصروه بأئمتهم المزعومين إلى رجال لا يحملون الصفات التي ادَّعوا قبلا أنها واجبة في الحاكم، ليعدل ويقيم الدين على منهاج النبوة، وأهمها العصمة عن الخطأ، والعلم بكل شيء ظاهره وباطنه، حاضره وغائبه، وذلك بتعديل هذه الصفات، والتخفيف منها نوعا ما لتناسبهم.

فتحولوا من اشتراط العصمة في الحاكم، إلى الاكتفاء بالعدالة الظاهرية، ومن اشتراط العلم بكل شيء، إلى الاكتفاء بعلم ما يلزمه ليحكم بشريعتهم، أي أن يكون عالما بكلام أئمتهم، قادرا على الاجتهاد فيه، وأخذ دينهم منه.

بل وتجرؤوا على المطالبة لأنفسهم بـ "خلافة الإمام" بدل ما اكتفوا به سابقا من نيابة له، ثم جاؤوا إلى ما كانوا يرفضونه سابقا من أحكام الإمامة عند أهل السنة، التي أصلها خلافة النبي –صلى الله عليه وسلم– في أمته، وسياستهم بشريعة رب العالمين، ليأخذوها ويبنوا عليها نظرية "ولاية الفقيه" هذه، مع ما أضافوه إليها من بدع، وما جنحوا إليه من آراء إخوانهم المعتزلة –المنسوبين زورا إلى السنة– في هذا الشأن.

الروافض ينقضون أصول دينهم

عاد طواغيت الرافضة ليقرّوا أن الدولة تكون إسلامية عندما تُحكم بشريعة الإسلام، وبما أن علّة قيامها أن تقيم الدين، فمن الواجب أن يتم نصب الحاكم الذي يقيم هذا الدين، ويحكم بهذه الشريعة، مع إيمانهم أن الدين الذي يجب أن تقيمه هذه الحكومة هو دينهم الوضعي الباطل، والشريعة التي يجب تحكيمها هي شريعتهم الطاغوتية التي تقوم على اتخاذ مراجعهم، وشيوخهم أربابا من دون الله تعالى.

كما أقرّوا بأن نصب هذا الحاكم إنما يكون بالاختيار لا بالنص الإلهي، والوصية النبوية، فمن اجتمع فيه شروط الخليفة جاز له أن يكون حاكما، بل وجب عليه ذلك، ووجب على من هو أهل للاختيار عندهم أن يختاروه، ليقيم دينهم، ويحكم بشريعتهم، ويكون ذلك الحاكم "ولياً للمؤمنين" و"خليفة للإمام"، يقوم مقامه، ويأخذ الذي له من حقوقٍ على كل من يؤمن بذلك الإمام الغائب.

وكذلك فإنهم اضطروا إلى نسف عقيدة "الانتظار"، باعترافهم أن "الدولة الإسلامية لا يمكن أن تقوم إلا بسعي المؤمنين لإقامتها"، وبالتالي الإنكار على من نادى بالقعود انتظارا لعودة الإمام ليقيم دولة العدل التي لا تقوم بغيره، وتحريم أي فعل لاستعجال ذلك، بل واعتبار كل راية تخرج لإقامة هذه الدولة قبل عودة إمامهم راية جاهلية، ومن يرفعها شيطانا، فما دامت "الحكومة الإسلامية" يمكن أن تقوم في غياب "الإمام المعصوم"، فمن باب أولى يكون تجويز الخروج والحركة لإقامة هذه الحكومة، بل وإيجابها.

من "الغيبة الكبرى".. إلى الغيبة المطلقة

وهكذا نجد طاغوت الرافضة الأكبر (الخميني) يقر في كتابه الأشهر (الحكومة الإسلامية) بالأثر السيء للبدع التي أحدثوها، وظنوا أنهم سيصلون من خلالها



إلى أن يحكموا الناس بشريعتهم، ويقيموا بذلك دينهم الشركي، فيقول الهالك: "قد مرّ على الغيبة الكبرى لإمامنا المهدي أكثر من ألف عام، وقد تمر آلاف السنين قبل أن تقتضي المصلحة قدوم الإمام المنتظر، فهل تبقى أحكام الإسلام معطلة طوال هذه المدة المديدة؟"، ويقول: "لا تقولوا نَدَعُ حتى ظهور الحجّة عليه السلام (يقصد إمامهم الغائب)، فهلّا تركتم الصلاة بانتظار الحجّة!؟"، ثم ينطلق ليقرّ بوجوب إقامة الدولة الإسلامية من أجل إقامة أحكام الدين، فيقول: "كل من يتظاهر بالرأي القائل بعدم ضرورة تشكيل الحكومة الإسلامية، فهو ينكر ضرورة تنفيذ أحكام الإسلام، ويدعو إلى تعطيلها وتجميدها".

ويتجاوز الخميني مسألة إيجاب الرافضة وجود الإمام في كل زمان ومكان، ليتعداها إلى إيجاب وجود ولي الأمر، معتبرا أن علة الوجوب هي علة وجوب الإمامة ذاتها، فيقول: "وجود ولي الأمر القائم على النظم والقوانين الإسلامية ضروري، لأنه يمنع الظلم والتجاوز والفساد، ويتحمل الأمانة، ويهدي الناس إلى صراط الحق، ويبطل بدع الملحدين والمعاندين، ألم تكن خلافة أمير المؤمنين (يقصد علياً، رضي الله عنه) قد انعقدت لأجل ذلك؟".

وفي سبيل تجويز "ولاية الفقيه" فإن الطاغوت الخميني يجعل أهلية الحاكم للحكم إنما تكون بما يحققه من شروط الولاية، لا بالنص عليه الذي لا يمكن أن يتوفر في ظل غيبة الإمام، فيقول: "بالرغم من عدم وجود نص على شخص من ينوب عن الإمام حال غيبته، إلا أن توفر خصائص الحاكم الشرعي في أي شخص يعتبر مؤهّلا ليحكم في الناس".

بل ويجعل الهالك الخميني العمل على تشكيل هذه الحكومة فرعا من الإيمان بالولاية التي هي من أصول دينهم، فيقول: "والإيمان بضرورة تشكيل هذه الحكومة، وإيجاد تلك المؤسسات، جزء لا يتجزأ من الإيمان بالولاية"، ثم يؤكد أن من يقوم على هذه الحكومة يقوم بما للأئمة من وظائف دون أن يكون بمقامهم، أو منزلتهم، "لأن كلامنا هنا لا يدور حول المنزلة والمرتبة، وإنما يدور حول الوظيفة العمليّة"، كما أن قيام "الإمام المعصوم" بوظائف الحكم لا ينزله إلى مقام غيره من الحكام، "فإن للإمام مقاما محمودا، ودرجة سامية، وخلافة تكوينية، تخضع لولايتها كل ذرات الكون، وأن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاما لا يبلغه ملك مقرّب، ولا نبي مرسل".

وبهذا يترك طواغيت الرافضة لأئمتهم ما أشركوهم به مع الله –تعالى– في أسمائه وصفاته، ودعائهم، والتقرب إليهم بالطاعات، وينتزعون منهم بعض ما زعموه لهم من حق في التشريع والحكم، فمن يسمونهم "الفقهاء" بيدهم أمر التشريع باسم الاجتهاد، وعلى الأتباع طاعتهم في ذلك، كونهم نوابا عن الإمام، ومع تولي هؤلاء الطواغيت حكم الناس بشكل مباشر، وإنفاذ أحكامهم فيهم، فإن الحاجة إلى "الإمام الغائب" تنتفي بالكلية، وما دام من الممكن إقامة دينهم الباطل، وتحكيم شريعتهم الوضعية، وسلب الناس أموالهم باسم الخمس، وقتال أعدائهم باسم الجهاد، في غياب "الإمام"، فما الحاجة إلى "رجعة الإمام" أو "ظهوره" إن كان وجوده وعدمه سواء.

وعلى هذا الأساس ينقسم الرافضة اليوم حول نظرية "ولاية الفقيه" بين مؤيد لها يرى وجوبها، ومعارض لها لا زال يصرّ على نظرية "الانتظار"، ويحرّم إقامة الدول قبل عودة إمامهم من غيبته، وبين من يتقبلها باعتبارها تمهّد لرجعة إمامهم وظهوره، وذلك من خلال تهيئة الظروف له، بتكثير الأنصار، وإعداد العدة، والتزود من القوة، التي ترفع عن الغائب خوفه من أعدائه، بل ويعَدّ الدول التي تقوم على أساس "ولاية الفقيه" وسيلة لنشر الفساد في الأرض، لتمتلئ جورا وهرجا، فيكون ذلك داعيا لظهور "الإمام" كي يملأها عدلا وأمنا.

ولكن كان صوت أهل "ولاية الفقيه" هو الأعلى اليوم، لامتلاكهم السلطة والدولة والإمكانيات المادية والبشرية الكبيرة، من خلال ما بأيديهم من موارد إيران وما استولوا عليه من موارد العراق وغيرها من البلدان.



ما بعد "ولاية الفقيه"

لقد حصر مراجع الرافضة المؤمنون بنظرية "ولاية الفقيه" بأنفسهم ما كانوا يحصرونه من قبل بأئمتهم، وذلك بناء على فهمهم للأثر: "العلماء ورثة الأنبياء" الذي ينسبونه إلى جعفر الصادق رحمه الله، فيقول الهالك الخميني: "وإذا نظرنا إلى قوله تعالى: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} [الأحزاب: ٦]، وتأملنا في قوله (ع): (العلماء ورثة الأنبياء)، عرفنا أن الولاية من الأمور الاعتبارية التي يمكن انتقالها، وذلك غير مستحيل عرفا".

ويقول كذلك: "حجة الله تعني أن الإمام مرجع للناس في جميع الأمور، والله قد عيّنه، وأناط به كل تصرف وتدبير من شأنه أن ينفع الناس ويسعدهم، وكذلك الفقهاء فهم مراجع الأمة وقادتها".

واعتبروا أنفسهم منصَّبين من قبل أئمتهم للحكم بين الناس، وبالتالي فإن إيمان أتباعهم بولاية هؤلاء الفقهاء عليهم هي فرع من إيمانهم بولاية أئمتهم "المعصومين"، يقول الخميني، بعد أن ساق رواية عن جعفر الصادق، فيها: "اجعلوا بينكم رجلا قد عرف حلالنا وحرامنا، فإني قد جعلته عليكم قاضيا": "فالعلماء بموجب هذه الرواية قد عُيِّنوا من قبل الإمام للحكومة والقضاء بين الناس، ومنصبهم لا يزال محفوظا لهم".

فاعتبروا بذلك اختيار من جعلوه من أهل الحل والعقد منهم، ممن هو أهل للحكم، لامتلاكه الشرطين الأساسيين لديهم، وهما العدالة والفقه، بمثابة النص الذي جعلوا سابقا شرطا للإمامة، أو النيابة عن الإمام.

وبمجمل ما ذكرنا يتبين لنا أن الرافضة اليوم في تعاملهم مع نظرية "الإمامة الإلهية" التي قام عليها دينهم، وما تفرع عنها من أصول ونظريات أخرى، أشبه ما يكونون بحال مشركي العرب، الذين كانوا يصنعون الأوثان بأيديهم من التمر ليعبدوها من دون الله، فإذا جاعوا أكلوها، وهكذا استغنى طواغيت الرافضة عن أصولهم ونظرياتهم تدريجيا، لما وجدوا المنفعة في غيرها، بعد أن اتخذوها لقرون أوثانا يعبدونها، ومعاقد للولاء والبراء، يوادّون فيها ويعادون.

صراط المهتدين.. لا تيه الضالين

فهكذا تطور دين الرافضة على مدى القرون الماضية، ليقرّوا بصحة ما تركوا جماعة المسلمين بسببه، وهو إنكارهم شرعية ولاية الخلفاء الراشدين باختيار المسلمين لهم، وادعائهم وجوب النص الإلهي والوصية النبوية لمن يحق له ولاية أمر المسلمين، ليحصروها بعلي –رضي الله عنه– وأولاده من بعده، بناء على ما زعموه لهم من نص ووصية، وينكروا بذلك إمامة كل ولاة أمور المسلمين، ويناصبوهم العداء والقتال، ويزيدوا على دينهم، ويكثروا من الابتداع فيه، ويبالغوا في الكذب على الله تعالى، ورسوله وآل بيته، لينصروا ملتهم، ويعزلوا مذهبهم عن دين المسلمين، حتى صار دينا مستقلا قائما على الشرك والخرافة، ليس لهم في اتباعه نقل، ولا لهم في أخذه من عقل.

وهكذا تتطور كل المذاهب الباطلة، والجماعات الضالة، التي تزعم السعي لإقامة الدولة الإسلامية، وهي تسير على طرق مبتدَعة، ليس لهم عليها من برهان، أو أثر لسلف صالح، فتنحرف بهم عن جادة الصواب، وتوقعهم في مهاوي الشرك والكفر من حيث زعموا أنهم يريدون إقامة الدين، فيخبطون فيها خبط عشواء، ويتلونون فيها تلون الحرباء، حتى لا تكاد تعرف لهم فيها أصلا يركنون إليه، وإن أصابوا بعض الحق في شيء من أقوالهم وأفعالهم، فإنهم لا يقصدون منه إلا ما يقصدونه من أيٍّ من طرق الضلالة التي اتبعوها من قبل، فإن وجد في ذلك الحق ما يشتهي، تعلق به، وإن وجد فيه خلاف ذلك، ذمّه، وعاد يتقلب في تيهه، باحثا عن هدى في دروب الضلالة.

أما أهل السنة والجماعة السائرون على منهاج النبوة في سعيهم لإقامة الدين، فهم على طريق واحد لم يغادروه منذ بعثة نبيهم، صلى الله عليه وسلم، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لم تختلط عليهم الطرق، ولم تنحرف بهم السبل، بل هم متمسكون بصراط الله المستقيم، وهو كتابه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، معتصمون بحبل الله المتين، وهي جماعة المسلمين، يؤمنون بالله حقا، ويتوكلون عليه صدقا، ويجاهدون في سبيله مخلصين، والله يهديهم سواء السبيل.

الغنيمة والفيء والاحتطاب

مسائل وأحكام (١)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد...

فلقد عمد الدجالون من علماء السلاطين على تحريف فقه الجهاد كما حرفوا التوحيد الذي جاء به الأنبياء والمرسلون، فجعلوا أهل الكتاب والمجوس والمشـركين إخوةً للمسلمين وأولياء بزعمهم، وقاربوا بين الأديان ووحدوا الملل فعصموا دماءهم وأموالهم بفتاواهم وكتاباتهم، وحالهم كحال اليهود الذين قال تعالى فيهم: {مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ} [النساء: ٤٦]، وقد كانت مسائل قتل الكفار في ديارهم غيلة أو أخذ أموالهم تلصصاً وخفية من المسائل الشائعة عند الفقهاء، إلا أن هؤلاء الطواغيت روجوا لفقه الانبطاح وسعوا بمكرهم لَمَحْوِها من دين الإسلام واستبدال منهج الذل والتبعية للكفار بها، وتطويع الناس لما يقررونه من دين جديد، الذي من أصوله "التعايش بين الأديان" وترسيخ "مبادئ السلام" وكف اليد وتعطيل الجهاد.

فأصبحت تجد كثيرا من المنتسبين للإسلام والعلم يكادون أن يجتمعوا على تحريم أمر قد أجمعت الأمة سابقا على جوازه، ولا غرابة في ذلك إذا تأمّلنا قول أنس بن مالك -رضي الله عنه- عندما دخل عليه الزهري بدمشق، فقال له الزهري: (ما يبكيك؟) فقال: (لا أعرف شيئا مما أدركت إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضُيِّعت) [رواه البخاري].

فكيف لو أدرك زماننا الذي طُمست فيه أحكام واضحة في كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- وإجماع السلف؟ ومن هذه الأحكام التي طُمِست حكم دماء وأموال الكفار الحربيين، وأنه لا عصمة لها إلا بإيمان أو عهد معتبر شرعا، فيجوز للمسلم أن يسفك دماءهم ويأخذ من أموالهم ما يشاء تأسيًا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه الكرام، رضوان الله عليهم.

فتجد علماء السوء ودعاة الضلالة اليوم يتهمون الموحدين بتشويه صورة الإسلام ويعيبون عليهم أفعالا هي عينها أفعال الصحابة الكرام، أمثال أبي بصير وأبي جندل، رضي الله عنهما، وفي المقابل لا تسمع لهم كلمة عندما ينهب أسيادهم من طواغيت الشرق والغرب أموال المسلمين.

ولقد أخذت الدولة الإسلامية على عاتقها أن تجاهد أعداء هذا الدين من الكفار والمرتدين، بالسيف والسنان وبالحجة والبيان حتى يكون الدين كله لله وحتى يرجع للمسلمين دينهم نقيا صافيا كما كان، قال تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الأنفال: ٣٩].

وسنُبين في هذه المقالة حكم أموال الكفار الحربيين في ديارهم، وأن المأخوذ منها قد يأخذ أحكام الغنيمة، أو الفيء، أو التلصص والاحتطاب، كما سنذكر أقوال بعض أهل العلم في هذا الموضوع، وسنردُّ في القسم الثاني منها على بعض شبهات المخالفين ونذكر فيه بعضا من فوائد أخذ مالهم في إطار الحرب الشاملة بين دولة الخلافة وأمم الكفر جمعاء، إن شاء الله.

الكافر الحربي حلال الدم والمال

الأصل في دماء وأموال أهل الحرب عدم العصمة، وقد أجمع أهل العلم على أن حكم الله في الكفار الحربيين أنه لا عصمة لدمائهم ولا لأموالهم، بل هما مباحان وحلال للمسلمين.

قال الإمام ابن تيمية، رحمه الله: "والكفر مع المحاربة موجود في كل كافر فجاز استرقاقه كما يجوز قتاله" [مجموع الفتاوى].

وإن الكفار الحربيين في اصطلاح الفقهاء غير محصورين في الكفار الذين بينهم وبين المسلمين حربٌ قائمة وقتال، بل هم الكفار الذين لم يؤمِّنهم أهل الإسلام بميثاق من ذمة أو أمان أو هدنة، سواء كانوا من المقاتلين أو غيرهم من سائر الكفار، فدماؤهم وأموالهم مباحة للمسلمين، وهذا الحكم يشمل المشركين في كل مكان، قال الله تعالى: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ٥]، وقال تعالى: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ} [التوبة: ١١]، فسبب إباحة دمائهم هو الشرك، فإن تابوا من الشرك عُصمت دماؤهم، قال ابن قدامة: "ولا قصاص على قاتلِ حربيٍّ، لقول الله تعالى: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة: ٥]، ولا على قاتلِ مرتدٍ كذلك، ولأنه مباح الدم، أشبه الحربي" [الكافي في فقه الإمام أحمد].

وفي السنة عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله) [متفق عليه].

فإن دماء الكافرين وأموالهم تعصم بالدخول في الإسلام.

قال الإمام الطبري رحمه الله: "وفي إجماع الجميع على أن حكم الله في أهل الحرب من المشركين قتلُهم" [جامع البيان في تأويل القرآن].

قال الإمام الشافعي -رحمه الله- فيما يعصم دم الكفار: "وأباح الله -تعالى- دم الكافر وماله إلا بأن يؤدي الجزية أو يستأمن إلى مدة" [الأم].

وقال -رحمه الله- في المعاهَد أيضا: "والعهد الذي وصفت على الأبد إنما هو إلى مدة إلى المعاهد نفسه، ما استقام بها كانت له، فإذا نزع عنها كان محاربا حلال الدم والمال" [الأم].

دار الكفر دار إباحة

إن دار الحرب أو دار الكفر هي دار إباحة وذلك لما أسلفنا من الأدلة في أن الشرك بالله -تعالى- يبيح المال والدم، فدماء وأموال الكفار حلال للمسلمين.

قال الإمام الشافعي -رحمه الله- في كتابه "الأم": "الدار مباحة لأنها دار شرك".

وقال الجصاص الحنفي: "ما كان في دار الحرب فليس بملك صحيح لأنها دار إباحة وأملاك أهلها مباحة" [أحكام القرآن].

وقال ابن أبي زيد القيرواني المالكي: "قال سحنون: وإذا أسلم قوم بدار الحرب حلَّ لهم قتل من أمكنهم وأخذ أموالهم" [النوادر والزيادات].

أموال الكفار إما مال غنيمة أو مال فيء أو مال احتطاب

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله:"فأما الغنيمة فهي المال المأخوذ من الكفار بالقتال" [مجموع الفتاوى].

وقد أحلَّ الله الغنيمة للمسلمين فقال سبحانه: {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنفال: ٦٩].

وفي الصحيحين عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أُعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي؛ نُصرتُ بالرعب مسيرة شهر، وجُعلتْ لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأُحلتْ لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأُعطيتُ الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثتُ إلى الناس عامة).

أما الفيء: "فهو ما أُخذ من الكفار بغير قتال" [مجموع الفتاوى].

قال الله تعالى: {وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ} [الحشر: ٦].

وأما الاحتطاب أو التلصص فهو سلب أموال الكفار على وجه الختل والاحتيال، وهو مال مباح إذا لم يصرح لهم بالتأمين، ولا يوجد خلاف معتبر بين أهل العلم من حيث في الجملة في إباحته، ولكنهم اختلفوا في كونه غنيمةً يخمس أو اكتساباً مباحاً يكون لآخذه خاصة.

فصل في مذاهب العلماء عما يدخل فيه الخمس من أموال الاحتطاب

يحصل التلصص بالإغارة بإذن الإمام وبدون إذنه، وبوجود المنعة وعدمها، وبغير إغارة كتلصص الأسير بعد خلاصه وكتلصص التاجر عن طريق السوم وجحد المال وكتلصص من أسلم في دار الحرب أو كان مسلما مقيما، وفي هذه الحالات يأتي التفصيل عن أهل العلم فيما يخمس أو لا يخمس.

أولاً: التلصص بالإغارة

اتفق الجمهور على تخميس الأموال التي يأخذها الواحد أو المجموعة من المسلمين الذين تحصل بهم القوة والمنعة سواء أغاروا على دار الحرب على وجه القوة والقهر أم على وجه الاحتيال، ولم يشترط الجمهور عدداً معيناً تحصل به القوة وذلك لعموم آية الخمس، قال الإمام البغوي الشافعي رحمه الله: "سواء قل عددهم أو كثر، فالخمس لأهل الخمس والباقي لهم، حتى لو دخل رجل واحد دار الحرب، فقاتل حربياً، وأخذ منه مالاً يخمس، والباقي بعد إفراز الخمس له" [التهذيب في فقه الإمام الشافعي].

أما عند الأحناف، اشترط أبو يوسف تسعة فأكثر من المسلمين للتخميس لأن المنعة والقوة حاصلة بهم، وأما الإغارة من آحاد المسلمين فلا يرون فيها الخمس ويعدونها من الاكتساب المباح إلا إذا كان المغير على دار الحرب بإذن الإمام، لأنه معزز بقوة الإمام فحكمه حكم السرية.

والصحيح مذهب الجمهور أن الأموال تخمس إذا حصلت الإغارة بمجموعة غير محددة العدد، ويخرج من قول الجمهور فعل الواحد إذا كان أصلا في داخل دار الحرب ونوى التلصص فلا يخمس ماله، كمن أسلم بدار الحرب وكالأسير الناجي وكالتاجر الذي جحد مالا وهرب به.

ثانياً: الإغارة والتلصص بإذن الإمام وبغير إذنه

لم يفرق الجمهور بين إذن الإمام وعدمه وذهبوا إلى أن من خرج بإذن الإمام أو بدون إذنه وأخذ أموال الكفار فإن هذه الأموال تخمس، قال الإمام البغوي الشافعي رحمه الله: "ولو غزت طائفة بغير إذن الإمام يُكره لهم ذلك، لأنهم إذا خرجوا بإذنه يتفحص عن حالهم، ويُعينهم بالمدد، فإذا فعلوا دون إذنه، وغنموا يخمّس ما غنموا" [التهذيب في فقه الإمام الشافعي].

قال أبو محمد الثعلبي البغدادي المالكي: "ومن دخل دار الحرب وحده متلصصاً فغنم، أُخذ منه الخمس، ولم يفصّل مالك بين دخوله بإذن الإمام أو بغير إذن" [عيون المسائل للقاضي عبد الوهاب المالكي].

وهذا مذهب الجمهور وهو أحد الروايات عن الإمام أحمد، قال ابن قدامة حاكيا رواية الإمام أحمد: "أن غنيمتهم كغنيمة غيرهم، يخمسه الإمام، ويقسم باقيه بينهم. وهذا قول أكثر أهل العلم، منهم الشافعي، لعموم قوله سبحانه: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ} [الأنفال: ٤١]، الآية. والقياس على ما إذا دخلوا بإذن الإمام" [المغني].

أما الأحناف ففرقوا بين إذن الإمام وعدمه، قال أبو يوسف: "سألت أبا حنيفة، قلت: أرأيت الرجل والرجلين يخرجان من المدينة أو المصر فيغيران في أرض الحرب فيصيبان الغنائم هل يخمس ما أصاباه؟ قال: لا يخمس ما أصاباه، لأن هذين بمنزلة اللص فيما أصابا فهو لهما، قلت: فإن كان الإمام بعث رجلا طليعة من العسكر فأصاب غنيمة، هل يخمس تلك الغنيمة ويكون ما بقي بينه وبين أهل العسكر؟ قال: نعم، قلت: فمن أين اختلف هذا والرجلان؟ قال: لأن هذا بعثه الإمام من العسكر والعسكر ردء له، والرجلان الآخران لم يخرجا من العسكر، إنما خرجا من المصر أو المدينة متطوعين بغير إذن الإمام" [السير الصغير].

وهذا المذهب هو إحدى الروايات عن الإمام أحمد، قال ابن قدامة حاكيا الرواية الأخرى للإمام أحمد: "هو لهم من غير أن يخمس. وهو قول أبي حنيفة؛ لأنه اكتساب مباح من غير جهاد، فكان لهم أشبه بالاحتطاب، فإن الجهاد إنما يكون بإذن الإمام، أو من طائفة لهم منعة وقوة، فأما هذا فتلصص وسرقة ومجرد اكتساب" [المغني].

وهناك مذهب ثالث وهو رواية عن الإمام أحمد أنه لا حق لهم فيه بل هو للمسلمين لأنهم عصاة بخروجهم بغير إذن الإمام، قال ابن قدامة: "قال أحمد، في عبد أبق إلى الروم، ثم رجع ومعه متاع: فالعبد لمولاه، وما معه من المتاع والمال فهو للمسلمين؛ لأنهم عصاة بفعلهم، فلم يكن لهم فيه حق" [المغني].

والصحيح هو مذهب الجمهور لأن الإغارة حاصلة بالقوة فتخمس الأموال لعموم آية الخمس ويكره الخروج من دار الإسلام للإغارة على دار الحرب بغير إذن الإمام فإذا منع الإمام الإغارة والتلصص فحينها تكون الإغارة بغير إذنه معصية.

ثالثاً: تلصص التاجر والأسير بعد خلاصه والمقيم في دار الكفر ومن أسلم في دار الحرب

من ينظر في اختلاف أهل العلم في هذه المسألة يجد أن علة الخمس هو الغنم بالقوة وهذا شرط الغنيمة، واختلف أهل العلم بوصف القوة في العدد وإذن الإمام، أما غير ذلك فأخرجه أهل العلم من مسمى الغنيمة كالفيء وكالتلصص الذي اعتبروه كسباً مباحاً كالاصطياد والاحتطاب، وهو كتلصص التاجر والأسير بعد خلاصه وكالمسلم المقيم بين ظهراني الكفار وكمن أسلم بدار الحرب، أو ولد مسلما وأقام فيها، ودليل ذلك ما نقله الإمام الطبري -رحمه الله- في تفسيره عن سالم بن أبي الجعد في قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} قال: "نزلت في رجل من أشجع أصابه الجهد، فأتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال له: (اتقِ الله واصبر)، فرجع فوجد ابنا له كان أسيرا، قد فكه الله من أيديهم، وأصاب أعنزاً، فجاء، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: هل تطيبُ لي يا رسول الله؟ قال: (نعم)" [جامع البيان في تأويل القرآن].

فهذه الأعنز سلبها هذا الأسير المسلم من الكفار بعد خلاصه منهم فلم يخمسها النبي -صلى الله عليه وسلم- لأنها حصلت خارج سلطان المسلمين في دار الحرب من غير قتال وبغير إذنه -صلى الله عليه وسلم- فلم يعتبرها غنيمة، ولذلك يشترط في أموال الاحتطاب أن تُسلب في دار الحرب وأن تكون بغير إذن الإمام، وهذا الحكم متحقق في التاجر إذا سلب المال في دار الحرب، قال الإمام البغوي رحمه الله: "ولو دخل دار الحرب، فأخذ من حربي شيئاً على جهة السوم، ثم جحد، وهرب فهو له خاصة، ولا يخمس" [التهذيب في فقه الإمام الشافعي].

ونفس الحكم لمن أقام في دار الحرب ولم يؤمِّنهم، أو أسلم في دار الحرب وتلصص من الكفار لتحقق الشروط التي تحققت في من أخذ الأعنز على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ولا دليل لمن قال إن هذا المال المأخوذ من الكفار يخمس، قال ابن أبي زيد القيرواني: "قال سحنون: وإذا أسلم قوم بدار الحرب حل لهم قتل من أمكنهم وأخذ أموالهم" [النوادر والزيادات].

ويؤخذ مال الرجل والمرأة والطفل من الكفار على وجه الحيلة والتلصص لا فرق بينهم في ذلك.

وسنبحث في القسم الثاني من هذه المقالة -بإذن الله- مسألتي تقسيم الأموال التي تؤخذ من الكفار وأحكامها، والأمان الذي يعطيه المسلم للكفار وأحكامه، وسنرد -بإذن الله- على الشبهات التي أثارها علماء السوء ودعاة الضلال حول هذه القضية، والله الهادي إلى سواء السبيل.

الغنيمة والفيء والاحتطاب

مسائل وأحكام (٢)

تكلمنا -بفضل الله- في القسم الأول من هذه المقالة عن بعض أحكام الأموال التي تؤخذ من أهل الحرب، وبيَّنَّا حكم أموال الكفار المحاربين، وفرَّقنا بين ما يؤخذ منها على وجه الفيء والغنيمة، وما يؤخذ منها على وجه التلصص والاحتيال، وذكرنا مذاهب الفقهاء في تخميس الأموال التي يحتطبها المسلمون من الكفار في دار الحرب.

ونتابع في هذا القسم -بإذن الله- الحديث في هذا الباب، لنتكلم في مسائل تخميس الغنيمة والفيء، ونبيِّن حقيقة الأمان الذي يعطيه المسلم للكافر، ويمنعه من أخذ ماله، ونرد على شبهات أهل الضلال في هذا الباب، سائلين المولى -عز وجل- الهداية والسداد.

التقسيم فيما أُخذ من أهل الحرب:

الغنيمة:

قال الله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الأنفال: ٤١].

فالأخماس الأربعة من الغنيمة هي للمجاهدين الغانمين، والخمس المتبقي هو للأصناف المذكورة في آية الغنيمة في سورة الأنفال، وهذا الخمس المتبقي يقسم على خمسة أسهم، قال الإمام أحمد، رحمه الله: "خُمس الله والرسول واحدة، ولذي القربى سهم، وهم قرابة النبي، صلى الله عليه وسلم؛ وهم بنو هاشم وبنو المطلب، لم يقسمه النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا فيهم، لليتامى سهم، وللمساكين سهم، ولابن السبيل سهم" [مسائل أحمد بن حنبل رواية ابنه عبد الله بن أحمد].

مصرف سهم الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم)

يُصرف سهم الله والرسول صلى الله عليه وسلم -على الأصح- في الخيل والسلاح ومصالح المسلمين، قال ابن قدامة: "إنما أضافه الله -تعالى- إلى نفسه وإلى رسوله، ليُعلم أن جهته جهة المصلحة، وأنه ليس بمختص بالنبي -صلى الله عليه وسلم- فيسقط بموته" [المغني].

الفيء:

بيَّن الله -سبحانه وتعالى- المواضع التي يُصرف فيها الفيء في سورة الحشر: {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: ٧ - ١٠].

واختلف أهل العلم هل يُخمَّس الفيء أو لا يُخمَّس، وسبب الخلاف هو أن الآية السابعة من سورة الحشر ذكرت الأصناف ذاتها التي ذكرها الله -تعالى- في آية الغنيمة في سورة الأنفال، فأخذ فريق بظاهر الآية مع العلم أن الله -تعالى- لم يذكر الخمس كما ذكره في آية الأنفال، وفريق ذهبوا إلى قول عمر -رضي الله عنه- لما قرأ قول الله -تعالى- في الآيات المذكورة أعلاه: "هذه استوعبت المسلمين"، فذكر هذه الأصناف على وجه الاستيعاب لا على وجه تخصيص هؤلاء المذكورين في الآية السابعة من سورة الحشر بخمس الفيء.

قال ابن قدامة: "وظاهر المذهب أنه لا يُخمَّس، لقول الله تعالى: {وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ} [الحشر: ٦]... الآيات. فجعله كله لجميع المسلمين. قال عمر -رضي اللَّه عنه- لما قرأها: هذه استوعبت المسلمين، ولئن عشت ليأتين الراعيَ -وهو بسرو حمير- نصيبُه منها لم يعرق فيها جبينه" [الكافي في فقه الإمام أحمد].

وذهب ابن قدامة إلى أن الفيء يُخمَّس، فخمس الفيء لمن ذكر الله -تعالى- في آية الغنيمة في سورة الأنفال وآية الفيء في سورة الحشر، والأخماس الأربعة المتبقية من الفيء لجميع المسلمين على الترتيب الذي ذكره في كتاب الكافي فقال: "يبدأ فيه بالأهم فالأهم، وأهم المصالح كفاية أجناد المسلمين بأرزاقهم، وسد الثغور بمن فيه كفاية، وكفايتهم بأرزاقهم، وبناء ما يحتاج إلى بنائه منها، وحفر الخنادق، وشراء ما يحتاج إليه من الكراع والسلاح، ثم الأهم فالأهم من عمارة القناطر والطرق والمساجد، وكري الأنهار، وسد البثوق، وأرزاق القضاة، والأئمة، والمؤذنين، ومن يحتاج إليه المسلمون، وكل ما يعود نفعه إلى المسلمين، ثم ما فضل قسمه على المسلمين، لما ذكرنا من الآية، وقول عمر، رضي اللَّه عنه" [الكافي في فقه الإمام أحمد].

عقد الأمان

لا خلاف في أن دار الحرب دار إباحة، وأن دماء أهل الحرب وأموالهم غير معصومة، وأن عقد الذمة أو الأمان هو ما يمنع سفكها، وأما المعاهَدون الذين بينهم وبين المسلمين عهد من أمان أو هدنة، فمتى تحققت شروط تلك العهود وجب الوفاء بها، وهذا إجماع لا خلاف فيه.

قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (من قتل مُعاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما) [رواه البخاري].

وأمان المسلم للكافر مُلزم للمسلمين أن يكفُّوا أيديهم عنه كما في الحديث المتفق عليه أن علياً -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (ذِمَّة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل).

وكذلك ما جاء عن علي -رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم: (المؤمنون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ألا لا يُقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد في عهده) [رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي].

قال ابن هشام: "وحدثني أبو عبيدة، أن أبا العاص بن الربيع لما قدم من الشام ومعه أموال المشركين، قيل له: هل لك أن تُسلم وتأخذ هذه الأموال، فإنها أموال المشركين؟ فقال أبو العاص: بئس ما أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي" [سيرة ابن هشام].

وعن المغيرة بن شعبة -رضي الله عنه- أنه كان قد صحب قوماً في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: "أما الإسلام أقبلُ، وأما المال فلستُ منه في شيء" [رواه البخاري].

قال الإمام ابن القيم، رحمه الله: "وفي قول النبي -صلى الله عليه وسلم- للمغيرة: (أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء) دليل على أن مال المشرك المعاهَد معصوم، وأنه لا يُملك بل يرد عليه؛ فإن المُغيرة كان قد صحبهم على الأمان ثم غدر بهم وأخذ أموالهم، فلم يتعرض النبي -صلى الله عليه وسلم- لأموالهم ولا ذبَّ عنها، ولا ضمنها لهم؛ لأن ذلك كان قبل إسلام المغيرة" [زاد المعاد في هدي خير العباد].

فمن أمَّن الكفار على أموالهم بألفاظ الأمان الصريحة فيجب عليه الوفاء لهم.

لا ينعقد الأمان إلا بلفظ صريح

إن عقد الأمان للكفار لا ينعقد إلا بلفظ صريح غير محتمل، أما إذا كان اللفظ محتملا فلا أمان للكفار، وهذا هو فعل عبد الله بن أُنيس ومحمد بن مسلمة، رضي الله عنهما، فإن محمد بن مسلمة لم يؤمِّن كعب بن الأشرف بل أوهمه أنه كره العيش مع النبي -صلى الله عليه وسلم- وخادعه بذلك، وقد استأذن من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يقول شيئا، وأذن له النبي -صلى الله عليه وسلم- في ذلك، ومما قال كما في صحيح البخاري: "إن هذا الرجل قد سألنا صدقة، وإنه قد عنَّانا، وإني قد أتيتك أستسلفك. قال [أي كعب بن الأشرف]: وأيضا والله لتملنه. قال: إنا قد اتبعناه، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه"، فقوله عنَّانا معناه أن الصحابة -رضي الله عنهم- بايعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- على تحمل ما يلقون بعد البيعة، فهم يعلمون ما ينتظرهم من البلاء والجهد والعناء في سبيل الله، ولكنه خادعه بهذا اللفظ، وطلب منه حاجته لكي يطمئن إليه ثم يقتله.

وكذلك قول عبد الله بن أُنيس -رضي الله عنه- لخالد الهذلي: "بلغني أنك تجمع لهذا الرجل، فجئتك في ذاك" [رواه ابن خزيمة

في صحيحه وأحمد في مسنده]، فكلامه محتمل، هل يقصد في "ذاك" نصرته أم قتله؟ وعلى هذا فالمخادعة بالأفعال والأقوال ثم القتل أو الاستيلاء على الأموال لا يعد غدراً، إذا لم تكن صريحة في التأمين.

فالتأمين تعاهد وتعاقد بين طرفين، بين المُؤَمِّن والمستأمِن بألفاظ واضحة صريحة، لا بأفعال وأقوال توهم المخاطب بالأمان.

والتأمين بالألفاظ الصريحة ليس فيه اختلاف بين الفقهاء، وأما الألفاظ غير الصريحة فقد اختُلف فيها، ومن العلماء من عد بعض الأفعال أو الأقوال من الأمان، ومنهم من لم يعدها منه، ولا غرابة أن تجد أحد علماء المسلمين يُدخل مسألة ما تحت خانة الغدر، بينما يُدرجها آخر في باب الخداع ومكائد الحرب.

وبالجملة: فإن المسائل الجزئية التي تدخل تحت الأمان غير الصريح لا يشملها ضابط معين متفق عليه، ولا يخفى أن إدخال الجزئيات تحت أصل معين هو من موارد الاجتهاد التي يسوغ فيها النزاع، فلا ينبغي التعنُّت في ذلك.

التأشيرة والإذن بدخول دار الحرب لا يعصمان دماء وأموال الكفار

إن الأصل في دماء أهل الحرب وأموالهم الحل وعدم العصمة، فإذا تنازعنا في صورة ما هل هي أمان أم لا، وتكافأت الأدلة أو تقاربت، نرجع إلى الأصل القاضي بحل دماء وأموال الكفار، إلا إن وجد دليل يدعم مانعا معتبراً، لأن الإجماع يقين، والاختلاف شك، فلا يُرفع اليقين بالشك؛ والتأمين مانع مشكوك فيه، والشك في المانع لا يلغي الحكم الثابت بالسبب المعلوم، ولا شك أنه تجوز مخادعة الكفار في الحرب، ويكون ذلك بالكذب وبالألفاظ المحتملة غير الصريحة.

والخلاصة: أن المال إذا زالت عصمته بكفر المالك مثل مال الحربي جاز الاستيلاء عليه بكل الطرق المكنة، وهذا لا خلاف فيه في الأصل إلا أن يؤمَّن عليه، ويجوز للمسلم أن يحتال في اختلاس الأموال من الكفار في ديارهم.

ولم يثبت بدليل شرعي ولا عرفي أن التأشيرة عهد أو أمان للكفار على دمائهم أو أموالهم، بل هي إذن بدخول الدار، والإذن بالدخول لا يعد أمانا لأهل الدار، وأن الإذن للدخول من طرف لا يصير أماناً من الطرف الآخر.

قال ابن أبي زيد القيرواني: "وإن ذكروا للملك إسلامهم فقال أنتم آمنون، ولم يؤمِّنوه هم ولا قالوا له شيئاً، ولا فشا هذا بالبلد حتى يعرف أهل البلد أنهم في أمان، فلهؤلاء أن يقتلوا ويأخذوا ما شاؤوا، وكذلك لو قال لهم: أمنتكم فالحقوا بأرض الإسلام، فلم يقولوا له شيئاً، فلهم أيضاً ما أمكنهم من قتل أو غيره ويخرجون من بلد الحرب... وقال بعض أهل العراق: وإن دخل مسلم أرض الحرب بلا أمان فقال: أنا منكم، أو قال: جئت أقاتل معكم، فتركوه فله أن يأخذ من أموالهم، فيأخذ ما أمكنه ويقتل من أمكنه، وليس الذي قال بأمان منه لهم" [النوادر والزيادات].

ومن دخل دار الحرب بأوراق مزورة أو صحيحة تُثبت ديانته ومعلوماته الشخصية، جاز له الفتك بهم وأخذ مالهم إن تيسر له ذلك، لأن هذا ليس بأمان ولا في معنى التأمين، فقد انتسب عمرو بن أمية إلى قبيلة بني بكر وقدَّم لأحد المشركين معلومات مضللة خدعه بها، حتى ظن أنه مشرك واطمأن له، فلما نام قتله، وهي كما في [تاريخ الطبري]: "وأقبلتُ أمشي، حتى إذا أشرفتُ على الغليل، غليل ضجنان، دخلتُ غاراً فيه، ومعي قوسي وأسهمي، فبينا أنا فيه إذ دخل عليَّ رجل من بني الديل بن بكر، أعور طويل يسوق غنما له، فقال: من الرجل؟ فقلت: رجل من بني بكر، قال: وأنا من بني بكر، ثم أحد بني الديل ثم اضطجع معي فيه، فرفع عقيرته يتغنى ويقول:

ولست بمسلم ما دمت حيا
ولست أدين دين المسلمينا

فقلت: سوف تعلم! فلم يلبث الأعرابي أن نام وغط، فقمت إليه فقتلته أسوأ قتلة قتلها أحدٌ أحداً، قمت إليه فجعلت سِيَة قوسي في عينه الصحيحة، ثم تحاملت عليها حتى أخرجتها من قفاه".

فالوثائق المزورة إن كانت تثبت أن حاملها من أهل تلك الديار فلا يعدُّ ذلك أمانا للكفار، لا عرفاً ولا شرعاً.

وإن كانت الوثائق تثبت أنه من غير أهل الدار لكنه مأذون بالدخول على مقتضى الوثائق المزورة فلا يعد هذا تأميناً منه لهم، فإنه من خدع الحرب، وليس بأشد من صنع الصحابي محمد بن مسلمة وحزبه، بل إن زوجة كعب بن الأشرف حذرته وقالت إنها تسمع صوتا يقطر دما فأجابها كما عند البخاري: "إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة"، ورضيعي أي أخي من الرضاعة، ولم تكن هذه المكانة منه أمانا له، ويشبه ذلك الانتساب إلى دار الحرب أو إلى قوم كفار أو اللجوء إلى دارهم أو المبيت عندهم، فلا يعد تأمينا من جهة المسلم لمن في تلك الدول الكافرة، والمبيت مع من يراد اغتيالهم لا يعد تأميناً كما فعل الصحابي عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه، وقد بوَّب الإمام البخاري رحمه الله [باب: قتل المشرك النائم]، وأخرج في هذا الباب حديثا عن البراء بن عازب -رضي الله عنهما- قال: "بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رهطا من الأنصار إلى أبي رافع، فدخل عليه عبد الله بن عتيك بيته ليلا فقتله وهو نائم".

فدخول المجاهد عن طريق اللجوء إلى دار الحرب هو مثل فعل الصحابة، ما لم يتضمن الإقرار بشروط كفرية.

التحريض على أخذ أموال الكفار وجهادهم بها

لما هاجر النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة كانت الغنائم مصدر رزقه، وهي أفضل الرزق، فالمال الذي يؤخذ من الكفار بالقوة أكثر طهراً ونقاء مما يُحصَّل بغير ذلك، قال الله تعالى: {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنفال: ٦٩].

قال الإمام ابن القيم، رحمه الله: "والراجح أن أحلَّها الكسب الذي جُعل منه رزق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو كسب الغانمين وما أبيح لهم على لسان الشارع، وهذا الكسب قد جاء في القرآن مدحه أكثر من غيره، وأثني على أهله ما لم يُثن على غيرهم؛ ولهذا اختاره الله لخير خلقه، وخاتم أنبيائه ورسله حيث يقول: (بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يُعبَد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري)، وهو الرزق المأخوذ بعزة وشرف وقهر لأعداء الله، وجعل أحب شيء إلى الله، فلا يقاومه كسب غيره، والله أعلم" [زاد المعاد].

وبعض الناس اليوم قد لا يعجبهم استنزاف أموال الكفار بالقوة ويظنون أن الأموال التي يحصلون عليها مقابل الأعمال الأخرى أحل وأطهر، وهذا غير صحيح، فأطيب الحلال بنص القرآن هو الغنيمة، وهذه الأموال خلقها الله لبني آدم ليستعينوا بها على طاعته وعبادته، فمن استعان بها على الكفر بالله والشرك به سلَّط الله عليه المسلمين، فانتزعوها منه وأعادوها إلى من هم أولى بها، وهم أهل عبادة الله وتوحيده وطاعته، ولهذا سمي الفيء فيئاً لرجوعه إلى من كان أحق به ولأجله خُلق.

ويجب على كل موحد أن يوسع دائرة جهاده، فحرب المال والاقتصاد من أكبر ميادين الجهاد كما فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- في كثير من غزواته حيث أخذ أموال الكفار وأتلف ممتلكاتهم التي يعتمدون عليها في محاربته، ولا شك أن الكفار اليوم يحركون جيوشهم وطاقاتهم بأموالهم، فيجب على الموحدين أن يجدوا ويبتكروا أساليب لإضعاف اقتصاد الكفار وسلب أموالهم أو إتلافها، وينبغي على المسلمين، وخاصة الذين يعيشون في ديار الكفار ولا يجدون طريقا للهجرة أن يفعلوا فعل الصحابي أبي بصير -رضي الله عنه- بمشركي مكة، ولا شك أن استهلاك أموال الكفار له تأثير كبير على حربنا اليوم معهم.

وكذلك التخريب العام لديارهم، يضعف شوكة العدو ويضر اقتصاده. قال أبو يوسف: "ولا بأس بإحراق حصونهم بالنار، وإغراقها بالماء، وتخريبها وهدمها عليهم، ونصب المنجنيق عليها؛ لقوله تبارك وتعالى: {يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال: ٦٩]، ولأن كل ذلك من باب القتال؛ لما فيه من قهر العدو وكبتهم وغيظهم، ولأن حرمة الأموال لحرمة أربابها، ولا حرمة لأنفسهم حتى يقتلوا، فكيف لأموالهم؟" [بدائع الصنائع].

وكذلك فإن هذه الأموال قد تنفع الجهاد إن هي استعملت في سبيل الله، فيأخذ الموحد من الكافر الحربي لتمويل هجرة المسلمين إلى ولايات الخلافة، أو لتمويل من يجاهد الكفار، وكم من مسلم أخَّر هجرته مضطراً للعمل عند الكافرين حتى يكسب المال الكافي لهجرته، والله المستعان، وهكذا يستعمل الموحد المجاهد أموال الكفار لشراء الأسلحة والمعدات اللازمة للقيام بالصولات والعمليات الجهادية في عقر دار العدو.

فيا أيها الموحد في ديار الكافرين كن مثل أبي جندل، رضي الله عنه، ولا تتردد في أخذ أموال الكفار الحربيِّين إما بالغلبة والقهر وإما بالاختلاس والاحتيال، وتأمل قول الإمام ابن تيمية -رحمه الله- في المسلم الذي دخل دار الحرب: "وكذلك لو سرق أنفسهم أو أولادهم أو قهرهم بوجه من الوجوه، فإن نفوس الكفار المحاربين وأموالهم مباحة للمسلمين فإذا استولوا عليها بطريق مشروع ملكوها" [مجموع الفتاوى]، وهذا فيما يَخص خطف أطفالهم فما بالك بسلب أموالهم.

ولا تنس أن حربهم على الدولة الإسلامية قائمة على المال فأخلص نيتك وتوكل على الله ولا تشاور أحدا في سلب أموالهم، امض على بركة الله، فإن الاحتطاب من أموال الكفار يضعفهم ويهدد أمنهم وأمن اقتصادهم، ويقوي المؤمنين، ويجرئهم، ويُعِدُّهم لما هو أكبر من الاحتطاب، وهذا من أوجه الجهاد المهجورة في هذا الزمان، إلا عند ثلة من الصادقين وقليل ما هم.

نسأل الله أن يفتح لعباده المجاهدين ويشفي صدور الموحدين، والحمد لله رب العالمين.



مآل من استنصر بالكافرين على المسلمين

فرض الله على عباده موالاة المسلمين ومناصرتهم، وأمرهم بمعاداة المشركين وقتالهم، ولكن نجد في كثير من الأحيان من تختلط عندهم الموازين، فيصبح الكافر قريبا محبّبا إليهم إذا حقق لهم المصالح، بل يصبح أقرب إليهم من المسلمين، فيستعينون بأهل الشرك على أهل التوحيد، ويوالونهم عليهم، في سبيل أن ينالوا لديهم الحظوة والمكانة، وفي التاريخ كثير من القصص التي فيها العبر لأناس وقعوا في مثل هذه الأمور وما دونها...

ففي عصر دولة بني أمية، وبعد أن فشل عبد الرحمن بن الأشعث في خروجه على الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، مستخدما جيشه الذي كان قد رجع عن غزو بلاد الترك بعد صلح عَقَده مع ملكها، وكان من قبل منّاه بأنه سيوقف قتاله، ويرفع عنه الخراج أبدا، قرر ابن الأشعث اللجوء لملك الترك نفسه خوفا من القتل على يد الحجاج، قال ابن كثير: «ثم إن ابن الأشعث دخل هو ومن معه إلى بلاد رتبيل ملك الترك، فأكرمه رتبيل وأنزله عنده وأمّنه وعظّمه».

وإنك لتعجب من إكرام رتبيل لرجل كان بالأمس يحاربه وكاد أن يأخذ دياره ولكنه الكيد للإسلام والمسلمين، وهكذا استفاد رتبيل من لجوء ابن الأشعث إليه عبر اشتراطه شروطا تحفظ مصالح دولته مقابل تسليم ابن الأشعث للحجاج قال ابن كثير: «فأرسل إلى الحجاج يشترط عليه أن لا يقاتل عشر سنين، وأن لا يؤدّي في كل سنة منها إلا مائة ألف من الخراج، فأجابه الحجاج إلى ذلك»، وبعد تحقق هذه المصالح ما كان من ملك الترك إلا الغدر بمن لجأ إليه وأحسن فيه الظن، قال ابن كثير: «فعند ذلك غدر رتبيل بابن الأشعث فقيل إنه أمر بضرب عنقه صبرا بين يديه، وبعث برأسه إلى الحجاج... والمشهور أنه قبض عليه وعلى ثلاثين من أقربائه فقيّدهم في الأصفاد وبعث بهم، فلما كانوا ببعض الطريق بمكان يقال له الرجح، صعد ابن الأشعث وهو مقيد بالحديد إلى سطح قصر ومعه رجل موكل به لئلا يفر، وألقى نفسه من ذلك القصر وسقط معه الموكل به فماتا جميعا فعمد الرسول إلى رأس ابن الأشعث فاحتزه»، وهذه نهاية من أحسن الظن بأهل الكفر وهرب ملتجئا إليهم، بعد أن كان وعدهم ومنّاهم ليسهل عليه خروجه على الخليفة، فكيف بمن تولى المشركين من الصليبيين وظاهرهم على المسلمين؟!

ومن أولئك الذين استعانوا بكفار الترك الحارث بن سريج الذي كان من أمره أنه زعم الدعوة إلى الكتاب والسنة بعد خروجه على الأمويين سنة ستة عشر ومائة، قال الطبري: «لما أقبل الحارث إلى بلخ وكان عليها التجيبي بن ضبيعة المري ونصر بن سيار... فدعاهم الحارث إلى الكتاب والسنة والبيعة للرضا»، ويقصد بذلك البيعة لرجل من آل بيت النبي، صلى الله عليه وسلم.

واستمر الحارث في ثورته حتى احتاز بلاداً كثيرة رافعاً شعاره ودعوته، قال الطبري: «فأقبل الحارث إلى مرو، وقد غلب على بلخ، والجوزجان، والفارياب، والطالقان، ومرو الروذ»، ولكنه هزم بعد ذلك عدة هزائم منكرة، فلجأ إلى بلاد الترك مستعينا بملكهم على المسلمين، قال الطبري: «وكان الحارث بن سريج بناحية طخارستان فانضم إلى خاقان... فأصبح أسد [قائد جيش المسلمين] فصلى وخطب الناس وقال: إن عدو الله الحارث بن سريج استجلب طاغيته ليطفئ نور الله ويبدل دينه والله مذله إن شاء الله»، وجرت معركة حامية الوطيس كان الظفر فيها لأهل الإسلام وأذل الله فيها أهل الكفر ومن تولاهم من المرتدين، قال الطبري: «وعبى خاقان الحارث بن سريج وأصحابه وملك السغد وصاحب الشاش وخرابغره أبا خاناخره جد كاوس وصاحب الختل جبغويه والترك كلهم ميمنة... حتى انهزم الحارث والأتراك وحمل الناس جميعا، فقال أسد: اللهم إنهم عصوني فانصرهم وذهب الترك في الأرض عباديد لا يلوون على أحد فتبعهم الناس مقدار ثلاثة فراسخ يقتلون من يقدرون عليه».

وبعد الهزيمة استقر المقام بالحارث بن سريج بدار الكفر مدة إحدى عشرة سنة تقريبا، إلى أن جاءه كتاب أمان من الخليفة يحثه على الرجوع إلى الإسلام وأهله، قال ابن كثير في البداية والنهاية: «وفي هذه السنة [١٢٧ هـ] خرج الحارث بن سريج الذي كان لحق ببلاد الترك ومالأهم على المسلمين فمنّ الله عليه بالهداية ووفقه حتى خرج إلى بلاد الشام، وكان ذلك عن دعاء يزيد بن الوليد إلى الرجوع إلى الإسلام وأهله فأجابه إلى ذلك».

ولكن كان القتل نهاية ابن سريج بعدما خرج مرة أخرى ثائرا، ومفرّقا جماعة المسلمين، ليزعم من جديد الدعوة إلى الكتاب والسنة، وهو الذي كان مناصراً للكفار على المسلمين قبل ذلك، قال ابن كثير: «وجاءه مسلمة بن أحوز أمير الشرطة وجماعة من رؤوس الأجناد والأمراء، وطلبوا منه أن يكف لسانه ويده، وأن لا يفرّق جماعة المسلمين، فأبى، وبرز ناحية عن الناس، ودعا نصر بن سيار إلى ما هو عليه من الدعوة إلى الكتاب والسنة فامتنع نصر من موافقته»، وبعد عدة مؤامرات من الغدر والبغي والخروج، قُتل الحارث بن سريج سنة ثمان وعشرين ومائة على أيدي أصحابه من البغاة [انظر: البداية والنهاية].

وأما في العصر العباسي وفي ظل سعي عماد الدين زنكي لتوحيد بلاد المسلمين لمجابهة الصليبيين وطردهم من بيت المقدس، وبينما كان يحاصر دمشق ليتم بها ما عزم عليه، عمد أميرها «معين الدين» أنر لمراسلة الصليبيين مخوفاً إياهم من دخول زنكي دمشق، قال ابن الأثير: «فلما رأى أنر أن زنكي لا يفارقهم، ولا يزول عن حصرهم، راسل الفرنج، واستدعاهم إلى نصرته، وأن يتفقوا على منع زنكي عن دمشق، وبذل لهم بذولاً من جملتها أن يحصر بانياس ويأخذها ويسلمها إليهم، وخوفهم من زنكي إن ملك دمشق»، وقد فزع الفرنجة من ذلك لأن معناه إخراجهم من الشام بالكلية إن اجتمعت ممالك الإسلام تحت ظل الزنكيين، وهو ما حذرهم منه «معين الدين» أنر، ولذا سارعوا إلى نجدته، ففك زنكي الحصار عن دمشق، وبعد أن قدم الفرنجة وفّى لهم «معين الدين» أنر، وسار إلى بانياس مع النصارى ليحاصر قلعتها ومن بها من المسلمين، قال ابن الأثير: «فنازلها معين الدين، فقاتلهم، وضيق عليهم، ومعه طائفة من الفرنج، فأخذها وسلَّمها إلى الفرنج».

وهكذا تحققت مصلحتان للفرنج، أولاهما إبعاد خطر زنكي عن الصليبيين، والثانية أخذهم بلدا من بلاد المسلمين، ومع ذلك وبالرغم من قرب «معين الدين» أنر من الفرنج وما صنعه لأجلهم، إلا أنهم جمعوا حشودهم مع ملك الألمان وحاصروا دمشق سنة ثلاث وأربعين وخمسمئة، مما اضطر «معين الدين» أنر إلى الاستنجاد والاستغاثة بسيف الدين غازي بن زنكي، وهو ابن من استعان أنر بالنصارى عليه قبل سنين، ولكن هذا الأمير لبّى نداءه (رغم خيانة أنر السابقة)، وقدم لنجدة المستضعفين من عوام المسلمين، في دمشق مما دعا الفرنجة للانسحاب وعودة ملك الألمان إلى بلاده.

واستطاع نور الدين زنكي أن يأخذ دمشق بعد ذلك سنة تسع وأربعين وخمسمئة وأن يقضي على حكامها رغم محاولتهم من جديد الاستعانة بالصليبيين [انظر: الكامل في التاريخ].

وأما في عصر المماليك، فقد عمد ملك الكرك الملقب بـ«المغيث» عمر لمراسلة التتار ليعينهم على بلاد المسلمين، فيضمنوا له البقاء في كرسيه، إلا أنه فُضح وكُشفت مساعيه، قال ابن كثير: «ركب الظاهر [يقصد: بيبرس] من مصر في العساكر المنصورة قاصداً ناحية بلاد الكرك، واستدعى صاحبها الملك المغيث عمر بن العادل أبي بكر بن الكامل، فلما قدم عليه بعد جهد أرسله إلى مصر معتقلا فكان آخر العهد به، وذلك أنه كاتب هولاكو وحثه على القدوم إلى الشام مرة أخرى، وجاءته كتب التتار بالثبات ونيابة البلاد، وأنهم قادمون عليه عشرون ألفا لفتح الديار المصرية، وأخرج السلطان فتاوى الفقهاء بقتله»، فكانت عاقبته العزل ثم القتل.

ولو نظرنا إلى زماننا هذا لوجدنا من أمثال هذه القصص الكثير الكثير، من أناس باعوا أنفسهم للصليبيين علانية، وآخرين ظنوا أن بإمكانهم الاستفادة منهم دون أن يخسروا دينهم فكان عاقبتهم أن مضوا في دركات التنازلات عن دينهم فلحقوا بالصنف الأول، وآخرين وقعوا فيما دون ذلك من الإقامة في ديارهم مذلّين مهانين.

وعلى المرء أن يجتهد في عداوة المشركين حتى يعصمه الله من هذه الفتن ويثبّته على الحق.

مآل من استنصر بالكافرين على المسلمين ٢

إن التاريخ لا يعيد نفسه فالأيام تمضي بقدر الله ولا تعود، ولكنها سنن الله -عز وجل- الثابتة في كل زمان ومكان، فمن سار على هدي الله وأمره رشد وأفلح، ومن خالف هديه وعصاه خاب وخسر، ولكل من الفريقين سلف في التاريخ، فلينظر الإنسان في مآل سلفه فيتعظ ويعتبر، قبل أن يصير عظة وعبرة لمن بعده، ولأولئك الذين ادّعوا الإسلام ثم ذهبوا إلى أعداء هذا الدين ونصروهم على المسلمين عظة بمن سبق إلى هذا المنزلق وما دونه من المهالك.

ومن أولئك حكام الأندلس الذين عُرفوا بملوك الطوائف في أواخر القرن الخامس الهجري، وهم من استنصر بالمرابطين المجاهدين على الفرنجة الصليبيين، ثم ما لبثوا بعد انتصار الزلاقة العظيم (٤٧٩ هـ) أن نقضوا توبتهم وعادوا إلى سيرتهم الأولى، فعمدوا مرة أخرى إلى مراسلة الصليبيين للاستعانة بهم على المسلمين، وفي هذه المرة على المرابطين الذين أنقذوا الأندلس من مؤامرات الصليبيين، بل وصل الأمر بابن عباد نفسه (الذي تولى الاستعانة بالمرابطين على الصليبيين) إلى أن يقلب ظهر المجن لهم، لما رأى انتزاعهم للملك من قعد عن الجهاد ووالى الصليبيين من ملوك الطوائف، فاستعان بالصليبيين عليهم فلم ينفعوه، قال ابن خلدون: «واقتحم المرابطون إشبيلية عليه عنوة، سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وتقبّض على المعتمد وقاده أسيرا إلى مراكش، فلم يزل في اعتقال يوسف بن تاشفين إلى أن هلك في محبسه بأغمات سنة سبعين وأربعمائة».

وكان علماء ذلك الزمان قد أفتوا بخلع ملوك الطوائف، قال ابن خلدون: «وأفتاه الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والأندلس بخلعهم وانتزاع الأمر من أيديهم، وصارت إليه بذلك فتاوى أهل الشرق الأعلام...»

وأما في نهاية القرن التاسع الهجري ومع انحسار وجود المسلمين في الأندلس، ليقتصر على غرناطة ومالقة وأعمالهما، ورغم أن ذلك مدعاة لأن يتحد المسلمون فيكونوا يدا واحدة على أعدائهم، إلا أن المصالح والأهواء دعت بعض الحكام إلى موالاة الصليبيين دون المسلمين، كما فعل أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن «الصغير»، الذي ثار أولا على والده أبي الحسن، ثم أسره الفرنجة بعد ذلك، فآل الأمر إلى أبيه، ثم إلى عمه أبي عبد الله «الزغل»، ثم أراد النصارى الكيد للمسلمين، فعمدوا إلى أسيرهم ليحدثوا الفتنة بينه وبين عمه السلطان، قال المقري: «ثم إن العدو دبّر الحيلة مع ما هو عليه من القوة، فبعث إلى السلطان أبي عبد الله الذي تحت أسره وكساه، ووعده بكل ما يتمناه، وصرفه لشرقي بسطة، وأعطاه المال والرجال، ووعده أن من دخل تحت حكمه من المسلمين وبايعه من أهل البلاد فإنه في الهدنة والصلح».

وهذه هي عادة أعداء الله في استخدام الوكلاء ممن يرضى ببيع دينه ونفسه لهم، فأطلق النصارى أسيرهم واختار أن يكون أداة طيعة بيدهم، فدخل مدينة «لوشة» ثم سلمها للنصارى، ثم أتى «البيازين» من غرناطة ودخلها على حين غفلة في شوال سنة إحدى وتسعين وثمانمائة]انظر: نفح الطيب[، وبذلك عظمت الفتنة واشتد البلاء على المسلمين، وسارع النصارى لإمداد حليفهم في البيازين بما يحتاج، قال المقري: «ثم إن صاحب قشتالة أمد صاحب البيازين بالرجال والعدة والمال والقمح والبارود وغيرها، واشتد أمره بذلك... فعزم أهل غرناطة مع سلطانهم على الدخول على البيازين عنوة، وتكلم أهل العلم فيمن انتصر بالنصارى ووجوب مدافعته، ومن أطاع عصى الله ورسوله».

وجرت بعد ذلك حروب كثيرة استطاع بها «الصغير» الاستيلاء على غرناطة ثم بعد صراع مرير مع الفرنجة (أُجبر عليه من قبل أهل غرناطة)، سلّم المدينة للنصارى وفق شروط لم يلبث أعداء الله أن نقضوها، ثم أُجبر «الصغير» على الخروج من الأندلس كلها، قال السلاوي: «وحين جوازه لبر العدوة، لقي شدة وغلاء وبلاء، ثم إن النصارى نكثوا العهد ونقضوا الشروط عروة عروة، إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة».

وقال المقري: «انتهى السلطان المذكور بعد نزوله بمليلة إلى مدينة فاس بأهله وأولاده معتذرا عما أسلفه... وعهدي بذريته بفاس سنة ١٠٢٧ هـ، يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين، ويُعدّون من جملة الشحاذين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، وهكذا كان الخزي له جزاء ما اقترفه من موالاة أعداء الله.

وفي المغرب أواخر القرن العاشر الهجري، ثمة قصة أخرى لمن ذهب إلى النصارى ووالاهم دون المسلمين، بل وجادل وادعى الحجج الواهية ليُحسّن فعله، كما يفعل اليوم كثير ممن والى الصليبيين.

إنه السلطان المخلوع أبو عبد الله محمد بن عبد الله السعدي «المسلوخ»، الذي لجأ للبرتغاليين كي يسترجع ملكه، قال السلاوي: «فشرط عليه [ملك البرتغال] أن يكون للنصارى سائر السواحل، وله هو ما وراء ذلك، فقبل أبو عبد الله ذلك والتزمه، وللحين جمع الطاغية جموعه، واستوعب كبراء جيشه، ووجوه دولته، وعزم على الخروج إلى بلاد الإسلام».

ومن جرأته أنه بعث برسالة إلى أعيان المغرب يبرر فيها موالاته للنصارى، ويحثهم على مساندته، قال السلاوي: «وقال لهم ما استصرخت بالنصارى حتى عدمت النصرة من المسلمين، وقد قال العلماء أنه يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه وتهددهم فيها وأبرق وأرعد؛ وقال: فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله؛ وسمى النصارى أهل العدوة واستنكف من تسميتهم نصارى»، فرد عليه أعيان المغرب برسالة بيّنوا فيها ردّته عن الإسلام، وحذّروه عاقبة أمره، ومما جاء فيها، كما نقل السلاوي: «ثم لم تتمالك أن ألقيت بنفسك إليهم ورضيت بجوارهم وموالاتهم، كأنك ما طرق سمعك قول الله سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} [المائدة: ٥١] قال أبو حيان، رحمه الله: أي لا تنصروهم ولا تستنصروا بهم؛ وفي كتاب القضاء من نوازل الإمام البرزلي -رحمه الله- أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني -رحمه الله- استفتى علماء زمانه -رضي الله عنهم- وهم ما هم، في استنصار ابن عباد الأندلسي بالكتابة إلى الإفرنج على أن يعينوه على المسلمين فأجابه جلهم -رضي الله عنهم- بردته وكفره».

كما ردوا على عدم تسمية النصارى بما سماهم الله تعالى به فقالوا: «واستعظمت أن تسميهم بالنصارى، ففيه المقت الذي لا يخفى، وقولك رجعت إليهم حين عُدمت النصرة من المسلمين ففيه محظوران يحضر عندهما غضب الرب -جل جلاله- أحدهما كونك اعتقدت أن المسلمين كلهم على ضلال وأن الحق لم يبق من يقوم به إلا النصارى والعياذ بالله، والثاني أنك استعنت بالكفار على المسلمين... وفي قولك يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه وجعلت قولك هذا قضية أنتجت لك دليلا على جواز الاستعانة بالكفار على المسلمين، وفي ذلك مصادمة للقرآن والحديث، وهو عين الكفر أيضا والعياذ بالله»، وهكذا كان الرد على «المسلوخ» واضحا جليا قاصما ظهر كل من أراد أن يلوي أعناق النصوص أو يلبس الحق بالباطل، ولكن «المسلوخ» لم يتعظ، بل سار مع النصارى متباهيا بجموعهم، إلى أن هلك على ردّته مع أتباعه.

قال السلاوي: «وحكمت السيوف في رقاب الكفار ففروا ولات حين فرار، وقتل الطاغية سبستيان عظيم البرتغال غريقا في الوادي، وقصد النصارى القنطرة فلم يجدوا إلا آثارها، فخشعت نفوسهم، وتهافتوا في النهر تهافت الفراش على النار، فكان ذلك من أكبر الأسباب في استئصالهم»، وأما «المسلوخ» فلم يكن وضعه أحسن حالا من حال أوليائه، قال السلاوي: «وبحث في القتلى عن محمد بن عبد الله المستصرخ بهم، والقائد لهم إلى مصارعهم، فوُجِد غريقا في وادي المخازن، وذلك أنه لما رأى الهزيمة فر ناجيا بنفسه، واضطر إلى عبور النهر فتورط في غدير منه، وغرق فمات، فاستخرجه الغواصون، وسُلِخ، وحُشِي جلده تبناً، وطيف به في مراكش وغيرها من البلاد»، وشاركه في هذه الميتة مدّعي فقه لم يفقه حكم من والى أعداء الله، قال السلاوي: «وممن وُجِد صريعا في القتلى يومئذ الفقيه أبو عبد الله محمد بن عسكر السريفي الشفشاوني، صاحب الدوحة، فإنه كان هرب مع المسلوخ وكان من بطانته فدخل معه بلاد العدو، فوُجِد بين جيف النصارى قتيلا وتكلّم الناس في أمره، حتى قيل إنه وجد على شماله مستدبر القبلة»، وهكذا كانت خاتمة «المسلوخ» كما عرف في التاريخ، نسأل الله العلي القدير أن يكتب هذه الخاتمة لكل من والى الصليبيين، وأن يجعلهم عبرة لكل معتبر، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.






راجع نفسك وحاسبها

أخي المجاهد، اعلم أن على المسلم ألّا يتبع هوى نفسه، وأن يراجعها ويردَّها إلى جادة الصواب إن هي انحرفت أو قصَّرت، ولن يعرف المجاهد انحرافها وتقصيرها إن كان غافلا عنها قليل المراجعة والتأنيب لها على ما فرطت به من معاصٍ وذنوبٍ وبعدٍ عن الحق، ولن تُردَّ هذه النفس إلى رشدها وصوابها إن كان صاحبها ساهيا غافلا قليل الذكر، لا يقرأ القرآن ولا يتدبَّر آياته، ولن تُردَّ إلى صوابها إن كان صاحبها لا يملك من العلم الشرعي ما يجعلها تسمو به إلى مرتبة أعلى.

كما أن على هذه النفس أن تتفقَّه في معاني الجهاد والرباط والصبر والمصابرة لتثبت على أمر ربها، والأعظم من هذا كلِّه أن تستشعر هذه النفسُ خشية الله والخوف من لقائه، فإن حرصتَ على أن توطِّن نفسك للقائه سبحانه، فلن ترضى أن تلقاه وهو ساخط عليك بل تتمنى أن تلقاه بنفس مطمئنة راضية مرضية، قال تعالى: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً} [الفجر: ٢٧ - ٢٨].

فعليك -أخي المجاهد- لبلوغ هذه المرتبة محاسبة نفسك أولا بأول، ومراقبتها في كل الأمور، وعلى رأسها:

- **مراجعة النية في كل قول أو عمل.**
- **أداء الفرائض على أكمل وجه.**
- **دوام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.**
- **قيام الليل وأداء النوافل.**
- **قراءة القرآن وتدبُّر معانيه.**
- **المحافظة على أذكار الصباح والمساء.**

أخي المجاهد، أنت أولى الناس بمراقبة نفسك، فقد حملت على عاتقك همَّ إيصال دعوة الأنبياء والمرسلين، وأنت تحمل هذه الرسالة براحة يدٍ وتحمل روحك بالأخرى لتقدِّمها رخيصةً لمولاها، كما أنك الأقرب من حياض الموت ومواطن الردى، فكم من مرة رجوت الله ودعوته مخلصا له الدين أن ينجِّيك لتعود لتصلح ما أفسدت من نفسك فلما أنجاك أتبعت نفسك هواها وعدت للتقصير.

أخي المجاهد، ذلَّ نفسك بين يدي مولاها وعُد إلى الله وتُب إليه كل يوم بل كل ساعة، واستغفر ربك لتفريطك في جنبه سبحانه، وضع لنفسك ميزانا تزن به أعمالها وتردها إلى صراطها المستقيم.

قصة حديث

(إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة)

قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة، فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار، فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة) [رواه البخاري].

ولهذا الحديث قصة تشرحه وتوضح معناه، فعن سهل بن سعد الساعدي -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- التقى هو والمشركون، فاقتتلوا، فلما مال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى عسكره، ومال الآخرون إلى عسكرهم، وفي أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رجل، لا يدع لهم شاذة ولا فاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه، فقال: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (أما إنه من أهل النار)، فقال رجل من القوم: أنا صاحبه، قال: فخرج معه كلما وقف، وقف معه، وإذا أسرع، أسرع معه، قال: فجُرح الرجل جرحا شديدا، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض، وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه، فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: أشهد أنك رسول الله، قال: (وما ذاك؟)، قال: الرجل الذي ذكرت آنفا أنه من أهل النار، فأعظم الناس ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجتُ في طلبه، ثم جُرح جرحا شديدا، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه في الأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عند ذلك: (إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة.. الحديث) [متفق عليه].

ولهذا على المسلم أن يسأل الله -عز وجل- الثبات على دينه كما كان يفعل خير الخلق، صلى الله عليه وسلم، وعليه ألا يأمن على نفسه الفتن، فيعمل بأسباب الثبات ويحرص عليها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من خير معاش الناس لهم، رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلما سمع هيعة، أو فزعة طار عليه، يبتغي القتل والموت مظانه، أو رجل في غنيمة في رأس شعفة من هذه الشعف، أو بطن واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير).

رواه مسلم



فتاوى

من برنامج إذاعة البيان

حكم الأكل والشرب وقت أذان الفجر الثاني

السؤال: أخت كانت تشرب الماء أثناء أذان الفجر، وتمسك بعده، فنبَّهتها بعض الأخوات في العام الماضي على عدم جواز الشرب، فماذا عليها الآن؟، هل عليها قضاء الصيام أم تُعذر؟

الجواب: الأصل أن المؤذن مؤتمن على دخول الأوقات، فإذا أذن للفجر أي الأذان الثاني، فيجب الإمساك، لحديث عائشة -رضي الله عنها- عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (إن بلالا يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم) متفق عليه.

فدلَّ على جواز الأكل والشرب إلى أن يُرفع أذان الفجر، أما من يسمع الأذان، والإناء في يده، فله أن يُكمل اللُّقمة أو الجرعة، لما رواه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إذا سمع أحدكم النداء، والإناء على يده، فلا يضعه حتى يقضي حاجته منه، ومن أكل أو شرب أثناء أذان الفجر، ولم يتيقَّن دخول الفجر حقيقة، متأوِّلا أو جاهلا، كحال الأخت المسؤول عنها، فلا شيء عليه إن شاء الله، والله أعلم.

حكم التبرُّع بالدم والحجامة للصائم

السؤال: هل التبرع بالدم من مفسدات الصيام؟

الجواب: أخذ الدم أو التبرع به ليس من نواقض الصيام، كذلك الفصد والحِجامة على القول الراجح من أقوال العلماء، وإليه ذهب الأحناف والمالكية والشافعية، لما روى البخاري -رحمه الله- عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- احتجم وهو صائم، وأما حديث: (أفطر الحاجم والمحجوم)، فهو حديث منسوخ، والله أعلم.



إيَّاكم والظن فإنه أكذب الحديث

بسببه يُتهم البريء، ويُكذَّبُ الصادق، ويخوَّن المُؤتمن، ويُرمى العفيف، ويُدان المظلوم، وهو باب من أبواب الظلم، يتلبس بأصعب المواقف التي يتعرض لها المرء في حياته، وقد حذرَنا رب العزة منه، وأمرنا باجتنابه والابتعاد عنه فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} [الحجرات: ١٢].

إنه سوء الظن، له محرضات كثيرة أولها الادِّعاء بمعرفة ما في القلوب، والزعم بالاطلاع على خبايا الصدور، ولقد علَّمنا الشرع الحنيف ألا نحكم على الناس من خلال السرائر، فالله تعالى -هو الوحيد- المطلع عليها، ولم يسمح لنا بالتفتيش فيها والتنقيب بها.

أخي المجاهد: إن الحكم على ما في قلوب الناس يدفع المرء لإساءة الظن بهم، فيرى الخطأ غير المقصود مفتعلا ومدروسًا، بل عن سابق قصد وترصد، ويسمع الكلمة -حمَّالة الأوجه- ذما، ويرى الابتسامة استهزاء، والمزاح ازدراء، والنصيحة اتهاما، والعون انتقاصا.

فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانها) [أخرجه البخاري وأحمد].

ففي الحديث تحذير من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من التحسس والتجسس، لأن بهما اطلاع على جزء من الأمر وليس كله، وقد يكون الحق فيما خفي، كذلك الحسد مدخل من مداخل سوء الظن بالناس، فهو يحرض عليه، فما مبرر تمنيه زوال النعمة عن أخيه إلا أن الأخير فعل كذا وقال كذا وقصد كذا، فهو بذلك يبرر حسده ولن يرى كسوء الظن معينا له على ذلك، وقل ذلك أيضا عن التباغض، فإذا ما أبغض المرء أخاه أساء الظن به.

وإن الأولى بالمسلم الانشغال بذكر الله عن الانشغال بعورات الناس وتتبعها، والعمل على علاج أمراضه بدل السعي لعلاج أمراض غيره، فمن انشغل بنفسه لن يجد الوقت للانشغال بالآخرين.

وليس المقصود هنا التوقف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل المقصود أن يبتعد المرء عن إساءة الظن إن لم يكن لديه دليل قاطع واضح بيِّن، وتحسين الظن فيما يستوعب ذلك.

قال أحدهم: "إذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه فالتمس له العذر جهدك، فإن لم تجد له عذراً فقل في نفسك: لعلَّ لأخي عذراً لا أعلمه".

وقال تعالى: {وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا} [النجم:٢٨].

أخي المجاهد إن الشيطان متكفل بسوء الظن، فهو الوقود الذي يستعمله لزرع الخصومات والعداوات بين الإخوة، ولا يكاد يفتر عن التحريش بينهم، وأهم الأمور الواجب اتباعها لقطع الطريق على الشيطان في هذا الباب هو إحسان الظن بإخوانه والمسلمين.

قالوا عن سوء الظن

"من حكم بشرٍ على غيره بمجرد الظن حمله الشيطان على احتقاره، وعدم القيام بحقوقه، والتواني في إكرامه، وإطالة اللسان في عرضه، وكلها من المهلكات، فليس أريح لقلب العبد في هذه الحياة ولا أسعد لنفسه من حسن الظن، فبه يسلم من أذى الخواطر المقلقة التي تؤذي النفس، وتكدر البال، وتتعب الجسد".

"ثم إن من آفات سوء الظن أنه يحمل صاحبه على اتهام الآخرين، مع إحسان الظن بنفسه، وهو نوع من تزكية النفس التي نهى الله عنها في كتابه فقال: {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم:٣٢]".

وعن الأسباب التي تعين المسلم على إحسان الظن بالآخرين عدَّد بعضهم أمورا، أهمها:

حمل الكلام على أحسن المحامل، واستحضار آفات سوء الظن، ودعاء الله تعالى والالتجاء إليه لتخليصه من هذه الآفة، وإنزال النفس منزلة الآخر، فلو أن كل واحد منا عند صدور فعل أو قول من أخيه، وضع نفسه مكانه لحمله ذلك على إحسان الظن بالآخرين، وقد وجَّه الله عباده لهذا المعنى حين قال سبحانه: {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا} [النور:١٢].



فتاوى

من برنامج إذاعة البيان

حكم من نظر إلى أجنبية وتحرَّكت شهوته وهو صائم

السؤال: لو أن صائما وقع نظره على أجنبية أو لامسها، فتحركت لذلك شهوته، هل يُفطر بهذا ويتوجَّب عليه القضاء؟

الجواب: تقصُّد النظر للمرأة الأجنبية محرَّم للصائم وغيره، وإذا وقع ذلك من الصائم فهو جارح لصيامه غيرُ مُبطل له. فإن من مقاصد مشروعية الصيام تقوى الله تعالى، وتهذيبَ النفس، ومنعها عن الشهوات.

- قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ١٨٣].

-وقد جاء عند ابن ماجه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (من لم يدع قول الزور، والجهل، والعمل به، فلا حاجة لله في أن يدع طعامه وشرابه)، وبالله التوفيق .

حكم من شكَّ فأكل بعد الأذان الثاني

السؤال: رجل نوى الصيام فأكل بعد الأذان الثاني، ظنا منه أنه الأذان لأول، فتبيَّن أنه الأذان الثاني، فهل يكمل صيامه؟

الجواب: على الأخ السائل أن يكمل صيامه، ولاشيء عليه لأن الفقهاء يقولون الأصل بقاء ماكان على ما كان، فإذا شكَّ زيد مثلا دخول الفجر، فالأصل بقاء الليل، حتى يتيقَّن دخول الفجر، وإذا شكَّ عمرو مثلا دخول المغرب، فالأصل بقاء العصر حتى يتيقَّن دخول المغرب، فلو أكل زيد قبل أن يتيقَّن، قلنا صيامه صحيح، ولو أكل عمرو قبل أن يتيقَّن، قلنا صيامه باطل، وعلى ذلك فقس، وبالله التوفيق.



مركب الرجال لبلوغ المقاصد

لا يبلغ المرء مراتب الشرف إلا بها، فهي دأب الطامحين، ومركب القاصدين، وسبيل الراغبين، لا يلزمها إلا من قصد العُلى، وأتبع السعي للمُنى، فأرهق النفس للبلوغ، وأتعب الجسد للوصول.

فهي الدافع للعمل، والمحرِّض على النجاح، وقد شبَّهوها بجناحي الطائر، يطير بها المرء فتحلق به إلى أعلى الآفاق، طليقة من القيود التي تكبل الأجساد.

إنها الهمة يجود صاحبها بأغلى ما يملك لبلوغ هدفه، وتحقيق غايته، ولا غنى له عنها في سعيه للمكارم والخيرات، وعلو الدرجات، ومن علم أن الجنة محفوفة بالمكاره، أدرك أنه لا بد من البذل، ومن أيقن أن الشهادة غالية علم كذلك أنه لن ينالها بالقعود، فالدرب ورغم أنها مفروشة بالمشقة، إلا أنها مشقة محمودة مُسعدة، يرتاح الجسد في خِضمِّها عندما يستشعر مرضاة ربه، وتطمئن النفس إن استحضر أن ذلك ما هو إلا في سبيل ربه، ولقد مدح ربنا -عز وجل- علو الهمة بقوله، فقال جلَّ من قائل: {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} [الإسراء: ١٩]، وقال تعالى {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة : ١٤٨].

ولا بد لعلو الهمة من زاد يدفعها نحو الاستمرار والتجدد، وإن خير الزاد التقوى وأفضله الصبر، فلا شيء من دون التقوى، ولا نتائج مرجوة من دون الصبر، قال تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف: ٣٥].

وإن علو الهمة ليس أحد أجدر بها منك أخي المجاهد، فأنت على رأس الأمر، وهذه المرتبة لا بد لها من همة عالية.

ومن العوامل المساعدة عليها: الاستعانة بالله، وكثرة الذكر، والتزام النوافل وكثرة الصلاة، وقراءة القرآن، وذكر الموت واستحضار لقاء الله، وكثرة الدعاء، ومصاحبة أصحاب الهمم العالية، والابتعاد عن الكسالى والمثبِّطين، والمحبطين واليائسين والبائسين.

فالتحلي بها يجعلك أخي المجاهد تتطلَّع إلى كل شرف، وتبتعد عن كل نقيصة، وليكن هدفك مرضاة الله، وحذار أخي أن تستخدم علو همتك في التنافس على جاه أو سلطان أو إمارة، وارغب بما عند الله، وازهد بما عند سواه، واجعل سعيك وتنافسك مع إخوانك على الطاعات، واستحضر في كل أحوالك قول التابعي الجليل وهيب بن الورد -رضي الله عنه-: "إن استطعت أن لا يسبقك إلى الله أحد فافعل".

وقول الحسن البصري -رحمه الله-: "من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياه فألقها في نحره".

وقد ضرب الله لنا مثلا عن أصحاب الهمم المتدنية ليحذِّرنا من أعمالهم فقال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

ومن الأسباب التي تؤدي إلى دنو الهمة: الوهن، والفتور، وإهدار الوقت في غير طاعة الله، والعجز، والكسل، والغفلة، والتسويف والتمني، وكثرة المعاصي، والسعي في ملذات الدنيا، فاحذر أخي المجاهد منها وابتعد قدر الإمكان عنها، ولتكن همتك مرتبطة بالسعي لأشرف مقصد، ألا وهو نشر التوحيد وقتال أعداء الله والشهادة في سبيله.

ولقد قال الشاعر قديما:

إذا غامرت في شرف مروم
فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر صغير
كطعم الموت في أمر عظيم

عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : " كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله وجدّ وشدّ المئزر". [رواه البخاري ومسلم]



فتاوى

من برنامج إذاعة البيان

صلاة النافلة وقت إقامة الفريضة

السؤال: إذا كنت أصلي السنة، وأقيمت صلاة الفريضة، فهل أقطع الصلاة أم أتم؟

الجواب: إن الراجح من أقوال أهل العلم أنه إذا أقيمت الصلاة والمُصلي يصلي نافلة، فعليه أن يقطع النافلة لكي يدرك الفريضة، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: (إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة) وفي رواية (إلا التي أقيمت) [رواه مسلم وأحمد وأصحاب السنن]، والله أعلم.

أين يكون الدعاء في صلاة الاستخارة

السؤال: الدعاء في صلاة الاستخارة متى يكون؟ بعد الركوع أم بعد الصلاة الإبراهيمية؟ وكيف أعرف أي أمر اختارُه بعد الصلاة؟

الجواب: أخرج البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: (كان رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلِّمنا السورة من القرآن، يقول إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليَقل اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك...) الحديث.

فالذي يظهر من قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (... فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل...)، أن موطن دعاء الاستخاره إنما هو بعد الفراغ من الصلاة، لأن (ثم) تدل على التعقيب مع التراخي.

وأما عن قول السائل: (وكيف أعرف أيَّ أمر اختارُه) فنقول: هذا من الأخطاء الشائعة بين الناس في ذلك، أنهم يجعلون صلاة الاستخارة فيما إذا احتاروا بين أمرين، والصحيح أنها تكون عند الهمِّ بالأمر الواحد، كالزواج أو السفر أو نحو ذلك.

كما جاء في الحديث (... إذا همَّ أحدُكم بالأمر...)، عندها يصلي صلاة الاستخارة ثم يعزم على ما همَّ به، فإن كان خيرا يسَّره الله له، وإلا صرفه، والله أعلم.



من تواضع لله رفعه

لا تكتمل الصفات الحسنة للرجال ما لم يتزينوا بالتواضع، فهو بوابة العبور للقلوب، لا يسلكها إلا من اتصف به، وقلَّ أن ترى رجلا مألوفا عند الناس ليس متخلقا به، أجمع الناس على استحسانه، وجبلت النفوس على حبه.

عرَّفه أهل اللغة بالتذلل، من تواضعت الأرض، أي انخفضت عمّا يليها، واصطلاحا: بلين الجانب والبُعد عن الاغترار بالنفس، قال تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا} [الفرقان: ٦٣] قال ابن كثير: "أي بسكينة ووقار من غير تجبُّر ولا استكبار".

إنه التواضع، يرتقي صاحبه بأعين الناس إن ألان لهم جانبه، ويعظم في عيونهم إن بسط لهم نفسه، وكما الأرض المتواضعة المنخفضة تفيض بالماء وتنعم بالبركة والخير الوفير، كذلك النفس المتواضعة تنعم بالقبول والأنس من الجميع.

أخي المجاهد: كيف لبشر خلقه الله من تراب، وشرفه بعبوديته أن يتجاوز حدود ما شرعه الله ويتكبر، وينظر لغيره بعين الصغار، وهو عند الله أصغر، فهنيئا للمتواضعين اندراجهم تحت: {يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة: ٥٤]، وتعسا للمندرجين تحت {فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} [الزمر: ٧٢].

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٢١٥].

فكان أكثر من تمثلت به هذه الصفة الكريمة هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فكان -عليه الصلاة والسلام- يركب الحمار ويلبس الصوف ويأكل على الأرض وينام على الأرض ويجلس على الأرض على حصير وكان يعقل الشاة ويخصف نعله ويخيط ثوبه ويعمل في خدمة أهله في بيته ويسلم على الصبيان ويجيب دعوة المملوك على خبز شعير، وتأخذ الأمة الصغيرة بيده فتنطلق به حيث شاءت في المدينة، فهذه صفة النبي الكريم في التواضع، وهو القائل صلى الله عليه وسلم: (ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله) [رواه مسلم].

وحذر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من التكبر وضرب لنا مثلا على سوء مصرع ومصير صاحبه، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: (بينما رجل يتبختر يمشي في برديه، قد أعجبته نفسه، فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة) [رواه مسلم].

ورفض -صلى الله عليه وسلم- أن يتم إطراؤه بالكلام وفضل وصفه بالعبد فعن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (لا تطروني، كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا عبد الله ورسوله) [رواه البخاري].

أخي المجاهد لقد دعا -صلى الله عليه وسلم- إلى التواضع، وحَثّ عليه لما له من فوائد كثيرة، فقد روى عياض بن حمار -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنّ الله أوحَى إليَّ أنْ تواضعوا حتى لا يَفْخَر أحد على أحد ولا يَبغي أحد على أحد) [رواه مسلم].

وقد ذكر لنا ربنا -عز وجل- أن أعظم فوائده هي الجائزة الكبيرة التي يحصل عليها المتواضعون في الدار الآخرة فقال سبحانه: {تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [القصص: ٨٣].

قال ابن كثير: "يخبر تعالى أنَّ الدَّار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون علوا في الأرض، أي: ترفُّعاً على خلق الله وتعاظماً عليهم وتجبُّراً بهم".





فتاوى

من برنامج إذاعة البيان

مبطلات الصوم

السؤال: ما هي مفسدات الصيام؟

الجواب: أولا: الأكل والشرب عمدا، لقوله تعالى: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ} [البقرة: ١٨٧].

ثانيا: الجماع، فمن جامع وهو صائم بطُل صيامه، وعليه التوبة والاستغفار، وقضاءُ اليوم الذي جامع فيه، وعليه مع القضاء كفارة، وهي عتق رقبة، فإن لم يجد صام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع أطعم ستين مسكينا. لحديث أبي هريرة -رضي الله عنه- كما عند البخاري ومسلم.

ثالثا: التقيُّؤ عمدا، وهو إخراج ما في المعدة من طعام أو شراب عن طريق الفم عمدا، أما إذا غلبه القيءُ، وخرج منه بغير اختياره، فلا يؤثِّر في صيامه، لقوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: (من ذرعه -أي غلبه- القيءُ، فليس عليه قضاء، ومن استقاء عمدا فليقضِ) [رواه أبو داود والترمذي، وهو صحيح].

رابعا: خروج دم الحيض والنفاس، فمتى رأت المرأة دم الحيض أو النفاس أفطرت، ووجب عليها القضاء، لقوله -صلى الله عليه وآله وسلم- في المرأة: (أليس إذا حاضت لم تُصل، ولم تصم) [متفق عليه].

خامسا: نيَّة الفطر، فمن نوى الفطر قبل وقت الإفطار، وهو صائم بطل صومه، وإن لم يتناول مفطرا، فإن النية أحد ركني الصيام، فإذا نقضها قاصدا الفطر، ومتعمِّدا له انتقض صيامه، والله أعلم.



من تواضع لله رفعه

لا تكتمل الصفات الحسنة للرجال مالم يتزيَّنوا به، فهو بوابة العبور للقلوب، لا يسلكها إلا من اتصف به، فقلَّ أن ترى مألوفا عند الناس ليس مُتخلِّقا به، أجمع الناسُ على استحسانه، وجُبلت النفوس على حبِّه.

إنه التواضع، يرتقي صاحبه بأعين الناس إن أخفض لهم جناحه، ويعظُم في عيونهم إن بسط لهم نفسه، وكما الأرض المتواضعة تنعم بالبركة والخير الوفير، كذلك النفس المتواضعة تنعم بالقبول والأنس من الجميع.

أخي المجاهد: كيف لبشر خلقه الله من تراب، وشرَّفه بعبوديته أن يتعدى خصائصه ويأنف، ينظر لغيره بعين الصغار ويترف، وهو عند الله أصغر، فهنيئا للمتواضعين اندراجهم تحت:(يحبهم ويحبونه)، وتعسا للمندرجين تحت (وبئس مثوى المتكبرين).

قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} [المائدة: ٥٤].

وإن أكثر من تمثَّل به هذه الصفة النبيلة نبيُّنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار، ويلبس الصوف، ويعتقل الشاة، ويأتي مراعاة الضيف" [سنن البيهقي].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدا بعفو ، إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله) [رواه مسلم].

وحذَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم من التكبر وضرب لنا مثلا على سوء مصير صاحبه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بينما رجلٌ يتبختر يمشي في برديه قد أعجبته نفسه فخسف الله به فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة) [رواه البخاري ومسلم].

قال تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} [الفرقان: ٦٣]، قال ابن كثير: "أي بسكينة ووقار من غير تجبُّر ولا استكبار".

أخي المجاهد لقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى التواضع، وحَثّ عليه لما له من فوائد كثيرة، فقد روى عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(إنّ الله أوحَى إليَّ أنْ تواضعوا حتى لا يَفْخَر أحد على أحد ولا يَبغي أحد على أحد) [رواه مسلم].

وقد ذكر لنا ربنا عز وجل أن أعظم فوائده هي الجائزة الكبيرة التي يحصل عليها المتواضعون في الدار الآخرة، قال سبحانه:{تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[القصص:٨٣].

جعلنا الله ممن يتواضعون لعباده المؤمنين، ويلين جناحهم للمسلمين، وأعاذنا الله من الكبر والمتكبرين.

من التاريخ

جهاد المسلمين في رمضان ١

خاض المسلمون على مر تاريخهم العشرات من المعارك الفاصلة والمؤثرة في شهر رمضان المبارك، وكان هذا الشهر العظيم ببركة أيامه وساعاته، وتنزل الرحمات فيه، دافعا ومحرضا للمسلمين على أن يخوضوا فيه أعتى معاركهم مبتغين فيه الأجر والنصر من رب العالمين.

وفي حياة النبي -صلى الله عليه وسلم- كانت أعظم غزواته فيه، إذ وقعت فيه غزوة بدر التي فرَّق الله فيها بين الحق والباطل، وقُتل فيها صناديد قريش، وأذلَّهم الله بعد أن خرجوا يبتغون استئصال المسلمين، وذلك في اليوم السابع عشر من أيامه في السنة الثانية للهجرة، وكان فيه فتح مكة للنبي -صلى الله عليه وسلم- ثم دخول الناس في دين الله أفواجا، دخلها رسول الله فاتحا بعد أن منعوه قبل سنتين من دخولها وآذوه، ليأذن الله بالفتح في اليوم العاشر من رمضان في السنة الثامنة للهجرة.

وفي عهد الخلافة الراشدة خاض المسلمون بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني -رحمه الله- معركة البويب في رمضان من السنة الثالثة عشرة للهجرة ضد الفرس المجوس، والتي انتصر فيها المسلمون وأعادوا هيبتهم بعد معركة الجسر، وقيل عن البويب: "ما كانت بين المسلمين والفرس وقعة أبقى رمة منها، بقيت عظام القتلى دهرا طويلا، وكانوا يحزرون القتلى مئة ألف، وسُمِّي ذلك اليوم الأعشار، أحصي مئة رجل قتل كل رجل منهم عشرة".

وفي رمضان من سنة ٩٢ للهجرة كان فتح الأندلس بقيادة المجاهد المسلم طارق بن زياد -رحمه الله-، وفي الأندلس كذلك خاض المسلمون في هذا الشهر العظيم المعركة الكبرى التي أوقفت زحف الصليبيين عليهم، وأخرتهم لقرون معركة الزلاقة بقيادة المجاهد المسلم يوسف بن تاشفين -رحمه الله- عام ٤٧٩ للهجرة، وأقيمت بعدها دولة للمرابطين في الأندلس.

وفي المشرق كانت موقعة عين جالوت في رمضان من عام ٦٥٨ للهجرة بقيادة المجاهد المسلم (قطز) والتي أوقفت غزو التتار لبلاد المسلمين، وأوقفت زحفهم نحو مصر، وطردتهم من بلاد الشام، وأعادت توازن القوة معهم.

وهذا غيض من فيض من غزوات المسلمين في هذا الشهر العظيم، ولعلنا نقف معها وقفة أخرى، نسأل الله أن يجعل شهرنا هذا شهر نصر وتمكين لجنود دولة الإسلام، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله رب العالمين.



فتاوى

من برنامج إذاعة البيان

هل يُعذر راعي أيتام ونساء بترك الجهاد؟

السؤال: أخي ترك ثلاثة أيتام، وأمي وأبي وزوجتي وزوجة أخي كلهم برعايتي. فهل ذلك كله يرخِّص لي بالقعود عن الجهاد للقيام بشأنهم ؟.

الجواب: لا شك أنَّ قيام الرجل بمن يعول مصلحة، لكنها مصلحة خاصة، والجهاد مصلحة عامة. وإذا تعارضت المصلحتان، تُقدَّم المصلحة العامة على الخاصة.

- قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ} [التغابن: ١٤]، عن عطاء بن يسار -رحمه الله- قال: "نزلت سورة التغابن كلُّها بمكة، إلا هؤلاء الآيات...يشير إلى قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ}، قال: نزلت فى عوف بن مالك ،كان ذا أهل وولد، وكان إذا أراد الغزوة، بكوا إليه ورقَّقوه، فقالوا "إلى من تدعنا " فيرِق، فيُقيم، فنزلت.

-وليَعلم الأخ السائل، أنَّ الذي من أجله خرجت، هو هو جلَّ فى علاه، كفيل بمن تركت، وبالله التوفيق.

حكم أخت الأخت من الرضاعة

السؤال:- شاب له أخت من الرضاعة ويريد خطبة أختها، هل هذا جائز؟ أم تحرم عليه، لأن أختها رضعت معه ؟

- الجواب: أخرج الشيخان عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (يَحرم من الرضاع ما يحرم من النسب)، وفي رواية لمسلم (الرضاع يُحرِّم ما تُحرِّم الولادة). فكل امرأة حرمت من النسب حرم مثلها من الرضاع، وهن الأمهات، والبنات، والأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الأخت ،وبنات الأخ، وأما أخت الأخت من الرضاعة، فليست مُحرمة على الرَّجل، فيجوز له أن يتزوج بأخت أخته من الرضاعة. فالُمحرمة عليه هى التي باشرت الرضاعة وإياه من أم واحدة، أما إن كانت الأُم المرضعة له هي أم هؤلاء الأخوات، فهنَّ جميعاً أخواته من الرضاعة ،يحرم عليه الزواج بواحدة منهن، وإن اختلف زمن رضاعتهن، والله أعلم.



والكاظمين الغيظ

ليس أشقَّ على النفس شيئا مثله، فهو أشد خصومة للمرء من خصمه، يتصِّف به الحكماء، ويقدر عليه العقلاء، فهو سلاحهم أمام الجهل والاستفزاز، وأتقن السيطرة عليه من كان عمله لله خالصا، ولوجهه متطلعا، فاستوى عنده المدح والذم، فلم يُستفز بالتوافه، ورغم قدرته ترفَّع عن الرد، شَرع الدين الحنيف له أن يعاقِب بمثل ما عوقِب، غير أنه فضَّل ما هو أعظم.

إنه كظم الغيظ، أساسه التحكم بالغضب الشديد إزاء إساءة أو تصرف صدر من غيرك، فهو يحتاج إلى مجاهدة عظيمة لأنه شديد على النفس، ولكن إذا استعان المرء بالله تعالى عليه، وروَّض نفسه على حبسه صار عليه أقدر، ومرة بعد أخرى سيكون أسهل.

ولكظم الغيظ فوائد جمة، فهو أحد صفات الواردين إلى الجنة، المستحقين للمغفرة، ووجَّه الله سبحانه وتعالى عباده إلى التحلِّي به فقال: {وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

قالوا في تعريفه أنه: حبس الغيظ والغضب، وإمساكه، وضبط النفس وعدم إنفاذ العقوبة للمسبِّب له مع القدرة على ذلك.

وقالوا عن حسن آثاره الدنيوية: النجاة من التصرف الخاطئ المتسرع الذي يجلب الندامة، والتغلب على الشيطان، والانتصار على وساوسه، وإفقاده الأمل من إيقاع العبد في الغضب، وفيما لا يرضي الله، وفيما لا تعقُّل فيه، وتحقيق تقوى الله عزَّ وجلَّ، وتدريب النفس على التحمل والصبر، والتحلي بخُلق الأنبياء، والشعور بالسعادة، وراحة النفس بعد الانتصار عليه، وكسب محبة الآخرين، وتحويل الأعداء إلى أصدقاء ومحبِّين، وإتاحة الفرصة للمرء للتفكير بحكمة ورويَّة، والنظر للأسباب الحقيقية للخصم، وإيجاد الحلول الحقيقية للمشكلات.

أخي المجاهد، اعلم أن صبرك على من جهل عليك أجر ومثوبة، وهو ليس بالمستحيل ولا بالسهل، وله أسباب إن استعنت بها بات الكظم ممكنا، ولقد ذكر بعضهم أمورا تُعين عليه منها: دعاء الله عز وجل، واحتساب الأجر والثواب، والاستعانة بالصبر، واللين والرفق بحق المخطئ، وتربية النفس على الرضا، وحسن الظن بالآخرين، وتجنُّب السرعة في الحكم عليهم، وسعة الصدر، والسمو بالنفس، وتجنب جدال الجاهلين، وحفظ المعروف والخير السابق للمسيء، والتقليل من الكلام حال الغضب، وتذكُّر وصية الرسول الكريم محمد -صلى الله عليه وسلم- بعدم الغضب، وتغيير الحالة التي يكون عليها المرء كأن يجلس إذا كان واقفاً، والاستغفار، وترك مكان النزاع، واللجوء إلى الوضوء، وتعلم العلم النافع، وضبط اللسان، ومعرفة عواقب الأمور، ورجاحة العقل، والتقوى، والتربية على حسن الخلق.

أخي المجاهد، إنك بأمسِّ الحاجة للتخلق بخلق الأنبياء والمرسلين، فالأخلاق الحسنة جوهرة ونحن أحق بها من غيرنا، فلنجاهد أنفسنا للتمثُّل بها، ولنسعَ لها ففيها الخير والوقار والسكينة والأجر.



اسم الله (العليّ)

الحمد لله الذي له الأسماء الحسنى، المتضمنة للصفات العلى، والصلاة والسلام على عبده ورسوله الذي قدّر الله حق قدره، وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد...

فإن من أسماء الله تعالى "العليّ"، فهو العلي على خلقه، الذي استوى على عرشه، وعرشه فوق سماواته، وتحت السماوات الأرضون السبع، وكل خلقه يسبحون بحمده، ويسجدون له طوعاً وكرهاً، قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء) [رواه البخاري]، وقال البخاري رحمه الله: "قال أبو العالية {اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ} ارتفع {فَسَوَّاهُنَّ} خلقهن، وقال مجاهد {اسْتَوَى} علا على العرش".

الله -تعالى- رب كل شيء وهو أعلى من كل شيء، {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى} [الأعلى: ١ - ٥].

وهو -تعالى- عظيم أعظم من كل شيء، مع علوه على كل شيء، {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة: ٢٥٥]، ختم الله -عز وجل- أعظم آية في القرآن بهذين الاسمين العظيمين {الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} لنربط كل ما ذُكر فيها من أسمائه وصفاته وأفعاله بعلوه -عز وجل- وعظمته.

وهو -تعالى- مع علوه يعلم كل شيء؛ ما غاب عن الناس وما شهدوه لا تخفى عليه خافية، {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} [الرعد: ٩]، هو -سبحانه- الكبير أكبر من كل شيء، الذي تعالى على كل شيء، وتعالى عن أن يماثله شيء من خلقه في ذاته أو أفعاله أو صفاته وآثارها.

معاني العلو

العلو ثابت لله -تعالى- من جميع الوجوه، علو الذات، وعلو الشأن، وعلو القهر. قال ابن القيم، رحمه الله تعالى:

وله العلوُّ من الوجوه جميعها
ذاتاً وقدراً مع علوِّ الشانِ

- فعلو الذات، علوه على خلقه كلهم، مع بينونته عنهم، يُنزل على عباده ما يشاء من خيرات الدين والدنيا، ما به تزكو قلوبهم وتصلح أعمالهم ومعايشهم، فأنزل كتابه الكريم، قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: ١]، وهو سبحانه {يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ} [النحل: ٢]، وقال تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: ١٠]، وقال تعالى: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ} [تبارك: ١٦].
- وأما علو الشأن ومعناه: علو القدر والصفات، فلله -تعالى- الأسماء الحسنى والصفات العلا، وله -سبحانه- الكمال المطلق من كل الوجوه، ليس في أسمائه ولا صفاته ولا أفعاله نقص ولا عيب، فتعالى الله عما يصفه أهل الشرك والضلال، سبحانه لا نحصي ثناءً عليه، هو كما أثنى على نفسه.
- وأما علو القهر، فيقول الله تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: ١٨]، قال الإمام الطبري -رحمه الله- في تفسيره: "ويعني بقوله: {الْقَاهِرُ}، المذلِّل المستعبد خلقه، العالي عليهم، وإنما قال: {فَوْقَ عِبَادِهِ}، لأنه وصف نفسه -تعالى ذكره- بقهره إياهم، ومن صفة كلِّ قاهرٍ شيئاً أن يكون مستعلياً عليه، فمعنى الكلام إذاً: والله الغالب عبادَه، المذلُّ لهم، العالي عليهم بتذليله لهم، وخلقه إياهم، فهو فوقهم بقهره إياهم، وهم دونه، {وَهُوَ الْحَكِيمُ}، يقول: والله الحكيم في عُلُوِّه على عباده، وقهره إياهم بقدرته، وفي سائر تدبيره، {الْخَبِيرُ} بمصالح الأشياء ومضارّها، الذي لا تخفى عليه عواقب الأمور وبواديها، ولا يقع في تدبيره خلل، ولا يدخل حكمه دَخَل" [جامع البيان في تأويل القرآن].

فالله -تعالى- لا مغالب له ولا منازع، تجري أحكامه على خلقه، فلا يملكون إلا الرضوخ لها، ويوفق الله أهل الإيمان للرضا بها والتسليم لحكمته البالغة.

إيمان أهل السنة والجماعة بعلو الله على خلقه

وقد هدى الله -عز وجل- أهل السنة والجماعة -وهم السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان- للإيمان بعلو الله -تعالى- بجميع المعاني السابقة، ومنها إيمانهم بأنه -تعالى- فوق عرشه بائن من خلقه، وأنه استوى على عرشه، استواءً يليق بجلاله، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]، وعرشه فوق السماوات السبع.

أقوال للسلف في إثبات صفة العلو

روى الإمام الدارمي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه استأذن على عائشة -رضي الله عنها- وهي تحتضر فقال: "كنتِ أحبَّ نساء النبي -صلى الله عليه وسلم- إليه ولم يكن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يحب إلا طيبا، وأنزل الله -تعالى- براءتك من فوق سبع سماوات، جاء بها الروح الأمين".

وروى الحاكم عن الأوزاعي -رحمه الله تعالى- قال: "كنا -والتابعون متوافرون- نقول: إن الله -عز وجل- فوق عرشه ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته".

وروى الخلال عن إسحاق بن راهويه أنه قال: قال الله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} إجماع أهل العلم أنه فوق العرش استوى ويعلم كل شيء في أسفل الأرض السابعة.

قال الإمام ابن عبد البر، رحمه الله: "وعلماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل -أي التفسير- قالوا في تأويل قوله تعالى: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ} هو على العرش، وعلمه في كل مكان، وما خالفهم أحد في ذلك يحتج به" [التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد].

إنكار السلف على من نفى صفة العلو

إن المبتدعة الذين ينفون صفة العلو عن الله -عز وجل- ينفون أيضاً استواءه على عرشه:

- قيل ليزيد بن هارون: من الجهمي؟ قال من زعم أن قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} على خلاف ما يقر في قلوب العامة فهو جهمي" [السنة لعبد الله ابن الإمام أحمد].
- وسُئل أبو زرعة الرازي عن تفسير {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} فغضب وقال: تفسيره كما تقرأ، هو على عرشه، وعلمه في كل مكان، من قال غير هذا فعليه لعنة الله" [ذم الكلام وأهله لأبي إسماعيل الأنصاري].
- وقال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي: "فمن لم يقصد بإيمانه وعبادته إلى الله الذي استوى على العرش فوق سماواته وبان من خلقه فإنما يعبد غير الله ولا يدري أين الله" [الرد على الجهمية].
- وقال الدارمي أيضا: "فمن آمن بهذا القرآن الذي احتججنا منه بهذه الآيات وصدق هذا الرسول -صلى الله عليه وسلم- الذي روينا عنه هذه الروايات لزمه الإقرار بأن الله بكماله فوق العرش فوق سماواته، وإلا فليحتمل قرآنا غير هذا فإنه غير مؤمن بهذا".

وأخيرا: فهذا هو تعظيم السلف لله عز وجل، وتعظيمهم لصفاته، وشدة إنكارهم على من نفاها، واعتبارهم تأويل الصفات تعطيلا لها، وأن من عطل صفة واحدة منها فهو جهمي.

هذا والله أعلم، والحمد لله رب العالمين.

الإيمان باليوم الآخر

القبر أول منازل الآخرة

الحمد لله مالك الملك وجامع الناس ليوم عظيم، يوم يقوم الناس من قبورهم لرب العالمين، والصلاة والسلام على نبيِّه المصطفى صاحب الحوض المورود والشفاعة العظمى، بالمؤمنين رؤوف رحيم، أما بعد...

كثيرا ما تكرَّر ذكر اليوم الآخر في كتاب الله تعالى، فيذكر الله تعالى أن أهل الإيمان يؤمنون به وباليوم الآخر، وأنهم يرجونه ويرجون اليوم الآخر، أي حسن العاقبة عنده سبحانه عندما يبعث عباده فيجازيهم بأعمالهم، ولا بد من ذكر تفاصيل ما سيحصل في ذلك اليوم، كما أخبر الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، ولعلَّنا نبدأ بأول منازل الأخرة، وهو القبر، الذي غفل عن أهواله الغافلون، ونام عن وقائعه النائمون، وأمِن من كربه المفرِّطون المضيِّعون، فالقبر أول منازل الآخرة، فمن رأى فيه مقعده من النار، فإنه صائر إليها ومن رأى مقعده من الجنة، فإنه صائر إليها.

عن هانئ مولى عثمان -رضي الله عنه- قال: كان عثمان، إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي وتبكي من هذا؟ فقال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه) [رواه أحمد والترمذي].

وقد جاء ذكر عذاب القبر في الكتاب والسنة، أما في كتاب الله تعالى، ففي قوله سبحانه ذاكرا أهوال القبر وما أعدَّه لفرعون وأتباعه: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [غافر:٤٦]، وقال الله تعالى عن المنافقين: {سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ} [التوبة: ١٠١].

وأمَّا ما جاء في السنة النبوية فقد ثبت في الصحيحَين وغيرهما، عن أبي أيوب -رضي الله عنه- قال: خرج النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقد وجبت الشمس، فسمع صوتا فقال: (يهود تُعذَّب في قبورها) [متفق عليه].

وعن عائشة -رضي الله عنها-: أن يهودية دخلت عليها، فذكرت عذاب القبر، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فسألت عائشة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن عذاب القبر، فقال: (نعم، عذاب القبر)، قالت عائشة -رضي الله عنها-: فما رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعدُ صلَّى صلاة إلا تعوَّذ من عذاب القبر، زاد غندر: (عذاب القبر حق) [رواه البخاري].

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: مرَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- بقبرَين، فقال: (إنهما ليُعذَّبان، وما يُعذَّبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة) ثم أخذ جريدة رطبة فشقَّها نصفين، فغرز في كل قبر واحدة، قالوا يا رسول الله لم فعلت هذا قال: (لعلَّه يخفف عنهما ما لم ييبسا) [متفق عليه].

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إذا تشهد أحدكم فليستعِذ بالله من أربع يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال) [رواه مسلم].

سؤال الملكين في القبر

وأولُّ ما يوضع الإنسان في قبره يأتيه الملكان، فعن أنس بن مالك -رضي الله عنه-، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن العبد إذا وُضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه مَلَكان، فيُقعِدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل (لمحمد -صلى الله عليه وسلم-) فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة فيراهما جميعا) [متفق عليه]، وفي رواية أخرى للإمام البخاري زيادة على ما سبق وهي قوله -صلى الله عليه وسلم-: (وأما الكافر -أو المنافق- فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثَّقلين).

ما يحدث للكافر والمؤمن في القبر

عن البراء بن عازب -رضي الله عنه- أنه قال: خرجنا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يُلحَد، فجلس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وجلسنا حوله وكأن على رؤوسنا الطير وفي يده عود ينكت في الأرض فرفع رأسه، فقال: (استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثا)، ثم قال: (إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت -عليه السلام- حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان) قال: (فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض)، قال: (فيصعدون بها فلا يمرون -يعني بها- على ملإٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له، فيفتح لهم فيشيِّعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهى به إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليِّين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى)، قال: (فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيُجلسانه فيقولان له من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادي مناد في السماء أن صدق عبدي، فافرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة، قال فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول له: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير؟ فيقول: أنا عملك الصالح فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي)، قال: (وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال فتفرَّق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملإ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا فيستفتح له، فلا يفتح له)... الحديث. [رواه أحمد وغيره].

نسأل الله سبحانه أن يميتنا شهداء آمنين من فتنة القبر لنكون أحياء عنده سبحانه بكرمه وفضله ورحمته ولطفه ومغفرته ورأفته، وأن ينجينا من فتنة القبر ويوفقنا للصالحات وأحسن الخواتيم، إنه ولي ذلك ومولاه.

انتصار المجاهد على المعوقات

الحمد لله الذي شرع لعباده أن يجاهدوا أعداءه، ووعدهم الثواب الجزيل على طاعتهم له وامتثالهم أمره، وتوعد العاصين بالعقاب الأليم، والصلاة والسلام على نبينا محمد عبد الله ورسوله إمام المجاهدين نبي الملحمة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

فإنها تقف أمام المسلمين شبهات وشهوات تحول بين أكثرهم وبين الجهاد في سبيل الله، وهذا ناتج عن بعدهم عن دين الله، وعن تعلم شرائع الإسلام، وتساهلهم في العمل بها، وقد أخبر الله -تعالى- أن الناس كلَّهم خاسرون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، والإيمان الصحيح لا يكون إلا عن علم وبصيرة بشرع الله.

فالإنسان ما خلقه الله إلا ليعبده ويوحده، ويجتنب الطاغوت ويكفر به ويجاهده، ليكون الدين كله لله، فتصبح حياته كلها دائرة مع هذا الأصل الذي يوصله إلى موالاة الله ورسوله والمؤمنين، ونصرتهم والدفاع عن دولة الإسلام حيث تقام أحكام الشريعة.

مجاهدة الشهوات

فُطر الإنسان على حب الحياة وشهواتها من النساء والبنين والأموال، إلا أن إيمانه بما أوجب الله على المتقين يدفعه إلى طاعة الله وأن يبذل في سبيل مرضاته النفس والمال، فالجنة سلعة الله الغالية، أعدها الله لمن يتقونه، والنار الحامية توعَّد بها الله من يعصونه ويخالفون عن أمره، فيعالج المؤمن شهواته بأن يُرغِّب نفسه في ثواب الله الذي أعده للمهاجرين والمرابطين والمجاهدين والشهداء، ويقنعها بقلة متاع الدنيا، والذي هو مع قلته منغص وسريع الزوال، وعلاج القلوب يكون أيضاً بالترهيب من غضب الله وأليم عقابه، كما قال تعالى: {إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التوبة: ٣٩].

عن سَبرة بن أبي فاكه -رضي الله عنه- قال: سمعتُ النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- يقول: (إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال له: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟ قال: فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك؟ وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول، قال: فعصاه فهاجر، قال: ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له، هو جهد النفس والمال، فتقاتل فتقتل، فتنكح المرأة ويقسم المال، قال: فعصاه فجاهد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقا على الله أن يدخله الجنة، أو قتل كان حقا على الله -عز وجل- أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابته كان حقا على الله أن يدخله الجنة) [رواه أحمد].

شبهات تصد عن سبيل الله

كثيراً ما تقترن الشهوات بالشبهات، فالذي يتهرب من الجهاد يبرر لنفسه ويجادل عن قعوده بالحجج الباطلة، إلى أن يرجف بغيره ويثبطهم عن الجهاد، وإلا، فهل كان صادقاً من قال: {ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي}، فأجابهم الله تعالى: {أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [التوبة: ٤٩].

حاول بعض المنافقين التهرب من الجهاد في سبيل الله بحجة أنهم يخافون من أن يفتتنوا بنساء الروم فيقعوا في الإثم، فبين الله -تعالى- أن هؤلاء المنافقين قد سقطوا من قبل في الفتنة العظمى وهي أنهم كفروا بالله -تعالى- وخادعوه وخادعوا المؤمنين بإظهارهم الإسلام وإبطانهم الكفر، وتعاونوا مع الكفار الصرحاء على حرب الإسلام وحرضوهم على قتال المؤمنين، وأرجفوا في المدينة وحاولوا تخويف المؤمنين من الكفار، وسخروا من المجاهدين واستهزؤوا بهم... إلى غير ذلك من الضلال البعيد، ولذلك توعدهم الله -عز وجل- بجهنم التي ستحيط بالكافرين كلهم سواءً من كان كفره صريحاً ظاهراً ومن كان مخفياً للكفر، ستحيط بهم جهنم فلا يستطيعون منها خروجاً ولا من عذابها تملصاً، ولا يجدون طريقة للهرب من عذاب الله، ولا يخفف عنهم العذاب يوماً من الأيام.

مرضى القلوب على طريق المنافقين

كثيراً ما يلتف أهل القلوب المريضة حول المنافقين فيسمعون منهم ويتأثرون بهم، ويُخَذل بعضهم بعضاً، حتى تصبح مقالاتُهم واحدةً وكفرُهم واحداً، كما قال -تعالى- فيهم: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} [الأحزاب: ١٢]، وقد أخبر -تعالى- عن سماع الذين في قلوبهم مرض من المنافقين بقوله: {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ} [التوبة: ٤٧]، أي كثيرو السماع لهم، يصدقونهم في الأخبار والتحليلات، ويتأثرون بحربهم النفسية على المسلمين فيصيبهم الوهن والخوف من الكفار، ثم ينقلون كلام أهل النفاق إلى أسماع المؤمنين فيؤذونهم بذلك، ويقللون من قوة المؤمنين ويهولون قوة الكافرين، وقد توعدهم الله جميعاً بقوله: {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} [الأحزاب: ٦٠-٦٢].

انتصارٌ سبيله الاصطبار

قد تأتي فتنة التعويق أو التخذيل إلى المجاهد من أناس يحسن بهم الظن أو من بعض من يشاركونه طريق الجهاد، فعليه أن يمضي لأمر الله غير ملتفت إلى العوائق والمعوقين، قال تعالى: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [التوبة: ١٣٩].

وقد خرج مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في بعض غزواته أناس في قلوبهم مرض بل وبعض المنافقين، فلم يلتفت إليهم المجاهدون المخلصون، كما حصل في غزوة تبوك التي أخبرنا الله عن بعض ما جرى فيها من أهل النفاق وتخذيلهم واستهزائهم بالمؤمنين، فأنزل الله -تعالى- سورة التوبة تفضح المنافقين، وتثني على المؤمنين الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم، ولم يكن من خُلقهم أن يستأذنوا في ترك الجهاد بأموالهم أو أنفسهم، فهم أهل الصفقة الرابحة، وقد قال -تعالى- فيهم: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ١١١].

فالتغلب على العقبات واجب على كل مسلم كي يؤدي ما عليه من واجب أوجبه الله -تعالى- عليه بجهاد المشركين، ويثبت على الصراط المستقيم حتى يلقى ربه وهو راض عنه، وعليه أن يضع في حسبانه دائما أن الطريق إلى الجنة محفوفة بما تكرهه النفس من جهد ومشاق وبذل للنفس والمال، كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات) [رواه مسلم]، فيجاهد نفسه للتغلب على الشهوات والشبهات، ويجاهد المنافقين والداعين إلى ضلاله، كي يسلم له دينه، وتسلم له آخرته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

العيد: اسم جنس يدخل فيه كلُّ يوم أو مكان لهم [الكفار] فيه اجتماع، وكل عمل يحدثونه في هذه الأمكنة والأزمنة، فليس النهي عن خصوص أعيادهم، بل كل ما يعظمونه من الأوقات والأمكنة التي لا أصل لها في دين الإسلام، وما يُحدثونه فيها من الأعمال يدخل في ذلك.

وكذلك حريم العيد: هو وما قبله وما بعده من الأيام التي يُحدثون فيها أشياء لأجله، أو ما حوله من الأمكنة التي يحدث فيها أشياء لأجله أو ما يحدث بسبب أعماله من الأعمال، حكمها حكمُه فلا يفعل شيء من ذلك، فإن بعض الناس قد يمتنع من إحداث أشياء في أيام عيدهم، كيوم الخميس والميلاد، ويقول لعياله: إنما أصنع لكم هذا في الأسبوع أو الشهر الآخر، وإنما المحرِّك له على إحداث ذلك وجود عيدهم ولولا هو لم يقتضوا ذلك، فهذا من مقتضيات المشابهة. لكن يحال الأهل على عيد الله ورسوله ويقضي لهم فيه من الحقوق ما يقطع استشرافهم إلى غيره، فإن لم يرضوا فلا حول ولا قوة إلا بالله، ومن أغضب أهله لله أرضاه الله وأرضاهم.

الحذر من طاعة النساء في المعصية

وليحذر العاقل من طاعة النساء في ذلك، ففي الصحيحين عن أسامة بن زيد قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء)، وروي أيضا (هلكت الرجال حين أطاعت النساء) [رواه أحمد].

البدع في أعياد الكفار

أعياد الكفار كثيرة مختلفة، وليس على المسلم أن يبحث عنها، ولا يعرفها، بل يكفيه أن يعرف في أي فعل من الأفعال أو يوم، أو مكان، أن سبب هذا الفعل أو تعظيم هذا المكان أوالزمان من جهتهم، ولو لم يعرف أن سببه من جهتهم، فيكفيه أن يعلم أنه لا أصل له في دين الإسلام، فإنه إذا لم يكن له أصل، فإما أن يكون قد أحدثه بعض الناس من تلقاء نفسه، أو

مفهوم العيــد

والحذر من التشبه بالكفار في أعيادهم

يكون مأخوذا عنهم، فأقل أحواله: أن يكون من البدع، ونحن ننبِّه على ما رأينا كثيرا من الناس قد وقعوا فيه:

فمن ذلك الخميس الحقير، الذي في آخر صومهم، فإنه يوم عيد المائدة فيما يزعمون ويسمونه عيد العشاء، وهو الأسبوع الذي يكون فيه من الأحد إلى الأحد؛ هو عيدهم الأكبر، فجميع ما يحدثه الإنسان فيه من المنكرات.

فمنه: خروج النساء، وتبخير القبور، ووضع الثياب على السطح، وكتابة الورق وإلصاقها بالأبواب، واتخاذه موسما لبيع البخور وشرائه، وكذلك شراء البخور في ذلك الوقت إذ اتُّخذ وقتا للبيع.....

ومن ذلك: ترك الوظائف الراتبة من الصنائع، والتجارات، أو حلق العلم، أو غير ذلك، واتخاذه يوم راحة وفرح، واللعب فيه بالخيل أو غيرها على وجه يُخالف ما قبله وما بعده من الأيام.

والضابط: أنه لا يحدث فيه أمر أصلا، بل يجعل يوما كسائر الأيام، فإنا قد قدمنا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهاهم عن اليومين اللذين كانا لهم يلعبون فيهما في الجاهلية، وأنه صلى الله عليه وسلم نهى عن الذبح بالمكان إذا كان المشركون يعيِّدون فيه....

وكذلك أعياد الفرس مثل: النيروز والمهرجان، وأعياد اليهود أو غيرهم من أنواع الكفار أو الأعاجم أو الأعراب، حكمها كلها على ما ذكرناه من قبل .

النهي عن فعل ما يعين الكفار في أعيادهم

وكما لا نتشبَّه بهم في الأعياد فلا يعان المسلم المتشبه بهم في ذلك، بل يُنهى عن ذلك فمن صنع دعوة مُخالفة للعادة في أعيادهم لم تُجب دعوته، ومن أهدى من المسلمين هدية في هذه الأعياد، مخالفة للعادة في سائر الأوقات غير هذا العيد، لم تُقبل هديته، خصوصا إن كانت الهدية مما يُستعان بها على التشبه بهم، مثل: إهداء الشمع ونحوه في الميلاد، أو إهداء البيض واللبن والغنم في الخميس الصغير الذي في آخر صومهم، وكذلك أيضا لا يهدى لأحد من المسلمين في هذه الأعياد هدية لأجل العيد، لا سيما إذا كان مما يستعان به على التشبه بهم كما ذكرناه.

ولا يبيع المسلم ما يستعين به المسلمون على مُشابهتهم في العيد، من الطعام واللباس ونحو ذلك؛ لأن في ذلك إعانة على المنكر، فأما مبايعتهم ما يستعينون هم به على عيدهم أو شهود أعيادهم للشراء فيها، فقد قدمنا أنه قيل للإمام أحمد: هذه الأعياد التي تكون عندنا بالشام مثل طور يانور ودير أيوب، وأشباهه يشهده المسلمون، يشهدون الأسواق، ويجلبون فيه الغنم والبقر والدقيق والبر، وغير ذلك؛ إلا أنه إنما يكون في الأسواق يشترون، ولا يدخلون عليهم بيعهم، وإنما يشهدون الأسواق، قال: إذا لم يدخلوا عليهم بيَعَهم، وإنما يشهدون السوق، فلا بأس.

وقال أبو الحسن الآمدي: "فأما ما يبيعون في الأسواق في أعيادهم فلا بأس بحضوره ". نص عليه أحمد في رواية مهنا، وقال: "إنما يمنعون أن يدخلوا عليهم بيعهم وكنائسهم، فأما ما يباع في الأسواق من المأكل فلا، وإن قصد إلى توفير ذلك وتحسينه " لأجلهم فهذا الكلام محتمل؛ لأنه أجاز شهود السوق مطلقا بائعا، ومشتريا؛ لأنه قال: "إذا لم يدخلوا عليهم كنائسهم، وإنما يشهدون السوق فلا بأس " هذا يعم البائع، والمشتري، لا سيما إن كان الضمير في قوله: " يجلبون " عائدا إلى المسلمين، فيكون قد نص على جواز كونهم جالبين إلى السوق.

ويحتمل -وهو أقوى- أنه إنما أرخص في شهود السوق فقط، ورخص في الشراء منهم، ولم يتعرض للبيع منهم؛ لأن السائل إنما سأله عن شهود السوق التي يقيمها الكفار لعيدهم، وقال في آخر مسألته: "يشترون، ولا يدخلون عليهم بيعهم " وذلك؛ لأن السائل مهنا بن يحيى الشامي، وهو فقيه عالم، وكان -والله أعلم- قد سمع ما جاء في النهي عن شهود أعيادهم، فسأل أحمد: هل شهود أسواقهم بمنزلة شهود أعيادهم؟ فأجاب أحمد بالرخصة في شهود السوق..

ثم إن الرجل لو سافر إلى دار الحرب ليشتري منها، جاز عندنا، كما دلَّ عليه حديث تجارة أبي بكر -رضي الله عنه- في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الشام، وهي دار حرب، وحديث عمر -رضي الله عنه- وأحاديث أخرى بسطت القول فيها في غير هذا الموضع مع أنه لا بد أن تشتمل أسواقهم على بيع ما يستعان به على المعصية.

فأما بيع المسلمين لهم في أعيادهم، ما يستعينون به على عيدهم، من الطعام واللباس والريحان ونحو ذلك، أو إهداء ذلك لهم، فهذا فيه نوع إعانة على إقامة عيدهم المحرم، وهو مبني على أصل وهو: أن بيع الكفار عنبا أو عصيرا يتخذونه خمرا لا يجوز، وكذلك لا يجوز بيعهم سلاحا يقاتلون به مسلما .

الركوب مع النصارى المحتفلين بعيدهم

وسئل ابن القاسم عن الركوب في السفن التي تركب فيها النصارى إلى أعيادهم، فكره ذلك مخافة نزول السخطة عليهم بشركهم الذي اجتمعوا عليه، وكره ابن القاسم للمسلم يهدي للنصارى شيئا في عيدهم مكافأة لهم ورآه من تعظيم عيدهم وعونا لهم على مصلحة كفرهم ...

انتهى – من كتاب اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم – باختصار.

أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ

إن الصدق لا يمكن أن يكون حقيقة ملموسة فيمن يدعيه بمجرد الدعاوى الخاوية من الأفعال، إلا بعد أن تتجسد تلك الدعاوى واقعا على أرض الجهاد، فلا يكون المرء صادقا إلا حين تسمو نفسه إلى مراقي الفلاح فتسعى بخطوات عملية وتقف موقف الصدق لتثبت ما تدعي أثناء مسيرها في طريق الدعوة إلى الله، الذي حُفَّ بأعظم الكربات والمكاره، فليس الصادق اليوم من يجد الأعذار لنفسه للهروب من مواقف الصدق مع الله -تعالى- حين يشتد البلاء، وليس الصادق من يرمي فشله ونكوصه وانهزامه على مواقف المنهزمين، وليس الصادق من يترك جماعة المسلمين ويتشبث بالأشخاص متذرعا بالذين يَحصُر الحقَّ في أقوالهم وأفعالهم، إنما الصادق الذي لا يرى لنفسه عذرا ولو كان من أهل الأعذار، والصادق لا يأبه بانتكاس من يشار له بالبنان ولو عُدَّ من الأخيار، والصادق هو الذي يتشبث بوصية النبي -صلى الله عليه وسلم- بلزوم الجماعة والإمام، وإن تنازع المتنازعون وركبتهم الأهواء فتركوا جماعة المسلمين.

إن دولة الخلافة لا تمضي إلا بأفعال الصادقين الذين يبذلون دماءهم رخيصة في سبيل الله ولا يحسبون حسابا للنتائج بعد ذلك، لأن هذه المواقف هي التي تستجلب النصرين، الشهادة في سبيل الله أو الظهور والتمكين، وكلاهما سبيل بقاء عزة الدين وبقاء كلمة التوحيد فوق كلمات الباطل.

إن أعظم موقف في أول ظهور الإسلام على الكفر هو موقف الصحابة البدريِّين، الذين كان منهم الصحابي الجليل حارثة بن سراقة -رضي الله عنه- الذي قُتل في أول معركة له وهي معركة بدر، فنال أعلى المراتب وحاز أسمى المطالب، وذلك حين أصابه سهم لا يعرف من رماه، فأصاب به الفردوس الأعلى بصدقه مع ربه جل في علاه، حينها جاءت أمه الثكلى لتعرف مصير ابنها الذي لم يكن في نظرها قد فلق بالسيف الهامات، أو سطر تاريخ البطولات، لتسأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن مصير ابنها القتيل بهذا السهم الذي لا يعرف راميه، أمسلم أم كافر، فعن أنس بن مالك أن أم الربيع بنت البراء -وهي أم حارثة بن سراقة- أتت النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالت: يا نبي الله، ألا تحدثني عن حارثة -وكان قُتل يوم بدر أصابه سهم غرب- فإن كان في الجنة صبرت وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء؟ قال يا أم حارثة: (إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى) [رواه البخاري].

إن موقف صدق واحد يكفي للوصول إلى دار السعادة، فأولئك الصحابة الكرام الذين وقفوا موقف ساعة من نهار، سموا بالبدريِّين للتعريف بفضيلتهم، فهم أجلُّ الصحابة وأفضلهم وأرفعهم قدرا ومنزلة بين باقي الصحابة الكرام، لأنهم حين وقفوا وقفتهم كانوا قلة في العدد والعدة، فوقفوا موقفا في ذروة ضعفهم المادي، وذروة صدقهم مع الله -تعالى- مواجهين أبناء عمومتهم، متبرئين من شركهم، مناجزين إياهم بالسيوف، فكان فعلهم وجهادهم كما سمَّاه الله -تعالى- الفرقان يوم التقى الجمعان، فأنزل معهم ملائكته لتذود عنهم وتنصرهم، ولم تكن لبعض الأسياف والعصي وبعض الخيالة أن تهزم جموع الكافرين إلا بالصدق في نصرة الدين وترك الملذات والحرص على الحياة.

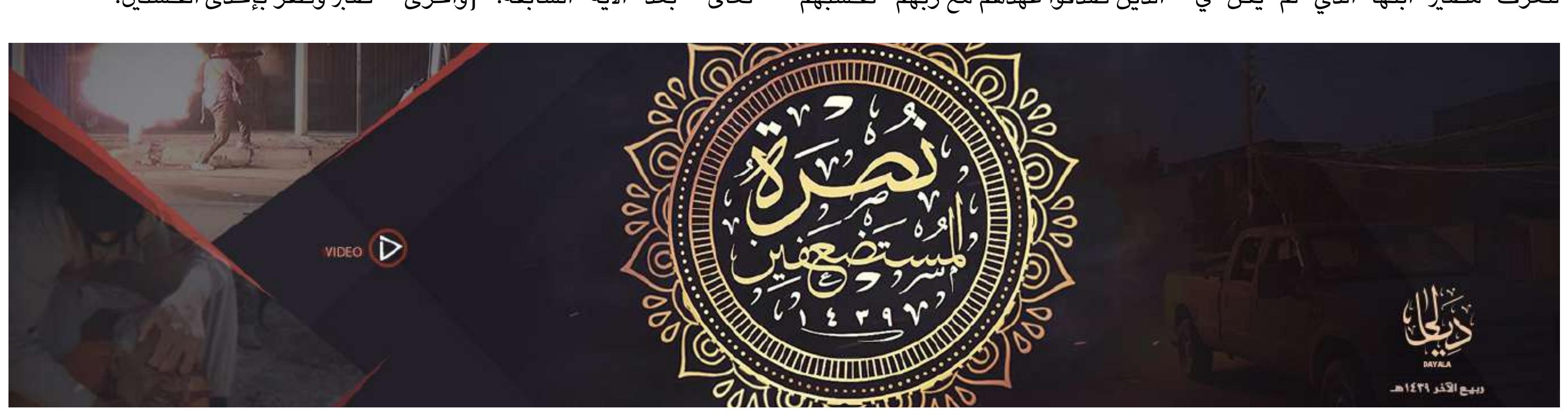
لقد سما صرح الخلافة بمواقف الصادقين الذين صدقوا عهدهم مع ربهم -نحسبهم والله حسيبهم-، فمن مواقف صدقهم هو وضوح غاية جهادهم من أول يوم بذرت فيه بذرة التوحيد على أرض الرافدين فأثمرت دولة الإسلام، لأن مشيديها نحسبهم من الصادقين الذين لم يرتابوا في دينهم وأخذوا الكتاب بقوة فأبطلوا مناهج الباطل وقاتلوا القريب والبعيد على أساس الولاء والبراء وشيدوا للحق دولة، وقد حفظ الله -تعالى- هذه الدولة فاستمر جهادها حتى قامت بواجب العصر المضيع، وذلك بإعلان الخلافة التي جمعت شتات الصادقين في أصقاع الأرض.

إن الصادقين اليوم هم الذين يمضون في طريقهم لا ينتظرون نتيجة عاجلة، فعاجل ما يريدون أن تُغمض أعينهم لتبصر أعالي النعيم وقناديل العرش بجوار الرحمن جل في علاه، فهم الذين يبذرون بدمائهم بذور التوحيد لتثمر في ربوع أرض الله بالتمكين، فلا ينأون بأنفسهم وينظرون من بعيد أو يقعدون مع النساء والذرية وينتظرون النتائج، بل يرمقون بأفئدتهم الفوز العظيم الذي يعقب التجارة الرابحة، وهو وعد الله -تعالى- الذي وعد به عباده الصادقين بالمغفرة والجنان قائلا في محكم التنزيل: {يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [الصف: ١٢]، ومع هذا الوعد وعد آخر تحبه النفوس وتطلبه وقد جبلت عليه، يمنحه الله بمنه وكرمه لمن شاء من عباده، وهو في قوله -تعالى- بعد الآية السابقة: {وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [الصف: ١٣].

وبعد كل ما سبق، فلا يخافنَّ موحد على مستقبل هذه الدولة المباركة مهما حصل من النوائب والزلزلة وفقدان الأرض، وحسب كل صادق أن أقر الله عينه برؤية الدين عزيزا محكما بين المسلمين وأبناء الإسلام يناجزون العالم كله عن أمر ربهم جل وعلا، فطوبى لقتلة في سبيل الله بعد هذه العزة وهذا الخير العميم، ولو كان الإمام المجاهد أبو مصعب الزرقاوي -تقبله الله- حيا بيننا فماذا عساه أن يقول بعد أن قال في وقته: "ويكفينا قبل حسم النتيجة أن قرت عيوننا برؤية أبناء الإسلام يثبتون كالجبال الرواسي على خطوط الفلوجة المباركة، ويلقنون الأمة دروساً جديدة في الجلد والصبر واليقين" [وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة].

إن دولة الإسلام كانت ولا تزال تروى بدماء خيرة أبناء المسلمين من مهاجرين وأنصار ممن صدقوا مع ربهم سبحانه، فمن فاته هذا الخير في زمان الفتن والملاحم فقد فاته الخير كله، لأن الثبات وقت الشدائد والرزايا والخطوب هو ديدن الصادقين الذين كتب الله لهم المراتب والمنازل العلا في الجنة بقدر صبرهم على الفتن والابتلاءات، وستبقى ثلة من أولياء الله الصادقين ثابتين مهما تساقط من حولهم المتساقطون حتى يتسلم الراية عيسى ابن مريم -عليه الصلاة والسلام-، فيلقى تلك الثلة الثابتة الصادقة فيبشرهم، فبماذا يبشرهم؟ قال نبينا -صلى الله عليه وسلم- عنهم: (يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة) [رواه مسلم].

فيا أيها الصادق الموحد، يا من رماك الكفار جميعهم عن قوس واحدة وأنت صابر محتسب ثابت، أبشر بدرجة في الجنة تقر بها عينك، ولن تكون تلك الدرجة إلا لمن صبر وظفر بإحدى الحسنين.



قصة حديث

رفقاً بالقوارير

"رفقا بالقوارير" مقولة تجسد عند كثير من الناس حرص الإسلام على المرأة وتقديرها، والحرص على إبعادها عن كل ما يؤذيها، فما قصة هذه المقولة وما أصلها.

يبين ذلك الحديث الذي يرويه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، وغلام أسود يقال له: أنجشة يحدو، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أنجشة رويدك سوقا بالقوارير) رواه البخاري ومسلم.

وقال النووي رحمه الله في شرحه للحديث: قال العلماء سمي النساء قوارير لضعف عزائمهن تشبيها بقارورة الزجاج لضعفها وإسراع الانكسار إليها واختلف العلماء في المراد بتسميتهن قوارير على قولين: ذكرهما القاضي وغيره، أصحهما عند القاضي وآخرين وهو الذي جزم به الهروي وصاحب التحرير وآخرون: أن معناه أن أنجشة كان حسن الصوت وكان يحدو بهن وينشد شيئا من القريض والرجز وما فيه تشبيب فلم يأمن أن يفتنهن ويقع في قلوبهن حداؤه فأمره بالكف عن ذلك..

والقول الثاني: أن المراد به الرفق في السير لأن الإبل إذا سمعت الحداء أسرعت في المشي واستلذته فأزعجت الراكب وأتعبته فنهاه عن ذلك لأن النساء يضعفن عند شدة الحركة ويخاف ضررهن وسقوطهن. [شرح النووي على صحيح مسلم].

ومن هنا يظهر أن الحرص على المرأة بالمقام الأول هو الحرص على دينها وعفتها وحيائها، ثم الحرص عليها من حيث أنها ضعيفة تحتاج من يُعنى بأمرها ويقوم على شأنها، فوصية رسول الله لأنجشة ينبغي أن تكون شعارا لكل مسلم في التعامل مع النساء، فيعنى أولا بدينهن وحيائهن رفقا بهن، كما يرفق بهن في التعامل بالمعاملات الأخرى، نسأل الله أن نكون كذلك.



فقاتل في سبيل الله لا تُكلَّف إلا نفسك

على طريق الجهاد، تزداد الشبهات شدة، وتتعاظم العوائق حدة، فلا يثبت في موج الفتن إلا من ثبته الله، ولا ينجو من عواصف المحن إلا من نجاه الله، وإن الرجل ليمضي في درب الجهاد السنين الطوال، فيلاقي فيه بلاء كالجبال، وبعد عظيم صبر وكثير ثبات، يفتن عن دينه فيرتد، فلا يكون له من جهاده إلا الجَهد، ولا من ابتلائه إلا الكدّ، فيضيع ما قدَّم لنفسه سنين وشهورا، {وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا} [الفرقان: ٢٣].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها نُكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نُكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مُرْبَادّاً كالكوز مُجَخِّياً، لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا، إلا ما أشرب من هواه) [صحيح مسلم]، فلما كانت الوقاية من العلاج أنجع، والإعراض عن الشبهات للقلب أنفع، وجب على المجاهد الانشغال بما فيه صلاحه، والنأي عنها إلى ما فيه فلاحه، فلا يصاحب إلا من كان تقيا، ولا يجالس إلا من كان إيمانه قويا، فيُحصل بذلك الفوائد، ويتجنب ما أعده الشيطان له من شراك ومصائد.

وإن المجاهد إذا انفضت من حوله الناس، ما ضرَّه ذلك والله معه، وإذا خذله من كان له سندا، ما فتَّ ذلك في عضده والله وليُّه، فإن الله ناصره ما نصره، ويدافع عنه ما آمن به، وهو يمده بجند من عنده ما ائتمر بأمره وانتهى بنهيه، وهنا يكمن سر النصر، وسبب الفتح والظفر، ألا وهو التسليم المطلق لله، فما تذل قوم لله إلا ازدادوا بذلك رفعة، وما ابتعدوا عن ملذات الدنيا إلا ازدادوا إليه قربا، وما ازدادوا لعدوه بغضا إلا ازدادوا له حبا، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّـهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ} [المائدة: ٥٤].

فيا من حبست نفسك للجهاد في سبيل الله، وسَخَّرت ما أنعم عليك به في نصرة دين الله، وضحيت على درب الفداء ترجو جنة الله وتخشى عذابه، امض في هذا الطريق غير آبه بانتكاس المنتكسين، ولا بتخذيل المخذلين، ولا بإرجاف المرجفين، وتيقن بنصر الله لك، {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر: ٥١]، فإما فتح يقر الله به أعين المؤمنين، ويشفي به صدور الموحدين، وإما جنة الخلد التي أعد الله للمتقين، فامض في طريق الجهاد، فإنما هي قتلة وميتة واحدة، ثم هي الكرامة التي لانقضاء لها، والنعيم الذي لا انقطاع له.





الحمد لله الذي نوَّع لعباده الابتلاءات ليرى امتثالهم لأوامره في جميع الأحوال، والصلاة والسلام على رسوله الذي آتاه الحكمة، فكان يتصرف وفقها في الجهر والإسرار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد...

فإن مما ابتلى الله به عباده وخاصة المجاهدين أمر حفظ الأسرار والتثبت من الأخبار، وهناك أمور شرعية ومصالح عامة وخاصة يحب الله فعلها علناً وجهراً، ومنها ما يُستحب كتمانه ومنها ما يجب إخفاؤه، قال تعالى: {إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [البقرة: ٢٧١].

صلاح الأحوال بكتمان الأسرار

من المعلوم لدى العقلاء أن هناك أموراً لا يصلح أن تكون معلنة، ولذلك يستأمن الناس بعضهم بعضاً على إسرارها، فأمور السياسة والحرب لا يمكن أن تكون كلأً مباحاً لكل الناس، يتكلم عن تفاصيلها الجميع أهل الشأن وغيرهم ممن لا مصلحة له في معرفة الأسرار، بل المفسدة متحققة بنشر الإنسان كل ما يصله من أخبار وإفشائه للأسرار، فلدولة الإسلام أعداء كثر متربصون يبحثون عن كل ثغرة لاستغلالها، ولذلك يستخدمون جواسيسَ ظاهرهم الإسلام ليصلوا إلى الأسرار والمخفيات، وقد صار للجاسوسية عالم كبير من الأجهزة والوسائل والأشخاص، ومن المؤسف أن يقوم مسلمون بل ومجاهدون بخدمة الأعداء دون قصد بأن لا يقيموا وزناً للمعلومات والأخبار التي يجب أن تبقى سرية، فيسارع الواحد إلى التفكه والتسلية في المجالس بحكاية الأخبار، وربما يحاول أن يبرز نفسه بأنه يعرف ما لا يعرفه غيره، ويصل إلى ما لا يصل إليه غيره، ويدعي مكانة ليست حقيقية، وهذا داءٌ خطير يقدح في إخلاص المسلم ويفسد قلبه وعمله، بل يتعدى فساده إلى المصلحة العامة للجماعة والدولة.

الحفاظ على معنويات المجاهدين بكتمان ما يضرهم سماعه

في غزوة الأحزاب، لما بلغ النبي -صلى الله عليه وسلم- لقاء حيي بن أخطب ببني قريظة، أرسل الزبير بن العوام يستطلع الأمر، فرجع فقال: يا رسول الله رأيتهم يصلحون حصونهم ويدربون طرقهم وقد جمعوا ماشيتهم، فدعا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عدداً من الصحابة فيهم سيد الأوس سعد بن معاذ وسيد الخزرج سعد بن عبادة، وقال لهم: (انطلقوا حتى تنظروا أحقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه ولا تفتُّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس). فلما ذهبوا إليهم جاهروهم بالعداوة وقالوا: مَن رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، وتشاتموا مع الوفد، فرجع الوفد إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقالوا: عضل والقارة، أي: كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع، فكبَّر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقال: أبشروا يا معشر المسلمين بنصر الله وعونه.

راعى النبي -صلى الله عليه وسلم- في حال المعركة نفوس الناس، وحرص على ألا يسمع المجاهدون إلا ما يقوي قلوبهم ويشجعهم على القتال، ومثل هذا الخبر وهو غدر بني قريظة سيعلم به المسلمون، وأول ما سمعوا من النبي القائد -صلى الله عليه وسلم- أنه كبَّر وبشَّر المسلمين بالنصر والعون من الله، فبهذا التصرف الحكيم من النبي -صلى الله عليه وسلم- ترتفع معنويات المؤمنين ويزداد يقينهم وإيمانهم وتتعلق قلوبهم بالله، فلا يضرهم بعد ذلك أن يصلهم خبر نقض بني قريظة للعهد، فبدلاً من أن يتأثر الصحابة سلباً بالخبر يتأثرون إيجاباً، لأنهم يرون سنة الله في نصره للرسل وأتباعهم وهي تجري عليهم، كما قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: ٢١٤]، وهذا ما جعل المسلمين يستبشرون بنصر الله فيقولون لما رأوا الأحزاب: {هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّـهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّـهُ وَرَسُولُهُ} [الأحزاب: ٢٢]، وما زادهم تحشد الكفار وتحزبهم عليهم إلا إيماناً بوعد الله لهم بالنصر وتسليماً لأمر الله الحكيم العليم.

خطورة الأسرار العسكرية

(كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع) [رواه مسلم].

هذا منهج وضعه لنا الصادق المصدوق -صلى الله عليه وسلم- في التعامل مع الأخبار، في حالَي السلم والحرب، والأمر حال الحرب أعظم خطراً، فلا يصح أن نقبل أو ننقل كل خبر دون تثبت ودون نظر في المصلحة الشرعية لجماعة المسلمين، بل نتثبت ونبحث عن مصدر الخبر، وننظر هل يصح نشر الخبر أم لا، قال صلى الله عليه وسلم: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت) [متفق عليه].

وهناك أمور عامة كخطط المعارك ومواعيدها وأخبار الانتصارات أو المصائب فهذه مما يختص أولياء الأمور بالنظر والبت فيها، لا يصح للأفراد من الجنود والرعية التساهل في قبولها أو نقلها أو تحليلها، قال تعالى: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء: ٨٣]، عاب الله -تعالى- في هذه الآية على هؤلاء المتساهلين في إذاعة الأخبار ونشرها والحال أنها تمس المصلحة العامة لجماعة المسلمين، وأمر بردِّ هذه الأخبار إلى أهل الاختصاص من أولي الأمر والخبرة ليحللوها ويروا ما يصح نشره مما لا يصح، وبيَّن -تعالى- أن رد الأمور إلى أهلها هو شأن المهتدين المنتفعين بفضل الله ورحمته، وأن من لا يتبعون هذا المنهج الرباني يخسرون فضل الله ورحمته وهم بأمس الحاجة إليهما، ويتسلط عليهم الشيطان فيضلهم ويرديهم.

الصِدِّيق يحفظ سر رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

عن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب حين تأيمت حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمي، وكان من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فتوفي بالمدينة، فقال عمر بن الخطاب: أتيت عثمان بن عفان، فعرضت عليه حفصة، فقال: سأنظر في أمري، فلبثت ليالي ثم لقيني، فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا، قال عمر: فلقيت أبا بكر الصديق، فقلت: إن شئت زوجتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر، فلم يرجع إلي شيئا، وكنت أوجد عليه مني على عثمان، فلبثت ليالي، ثم خطبها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر، فقال: لعلك وجدت علي حين عرضت علي حفصة فلم أرجع إليك شيئا؟ قال عمر: قلت: نعم، قال أبو بكر: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت علي إلا أني كنت علمت أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولو تركها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قبِلتُها [رواه البخاري].

حفظ الأسرار خلق فاضل وإفشاؤها من الرذائل

ومن الحِكَم: سرك دمك. وقالوا: "مِن وَهْي الأمر -أي ضعفه- إعلانه قبل إحكامه"

وقال بعض الشعراء:

قد أركب الهول مسدولاً عساكره
وأكتم السرّ فيه ضربة العنق

نسأل الله أن يوفقنا لخدمة دينه والحفاظ على دولة الإسلام وأسرارها، وأن يثبتنا فيها حتى نلقاه وهو راضٍ عنا، والحمد لله رب العالمين.

الوقاية من أسباب الانتكاسات

الحمد لله الذي يثبِّت الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة، ويُضل الظالمين ويفعل ما يشاء، والصلاة والسلام على رسوله الذي كثيراً ما كان يدعو (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

فإن غاية خلق الله للإنسان أن يعبد الله ويستمر على عبادته حتى يلقاه فيفوز برضاه، وعلى هذا المعنى يدُلُّ قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ١٠٢]، يريد الله منا أن نثبُت على تقواه حتى يأتينا الأجل ونحن على الإسلام، وهذا يتطلب من المسلم أموراً، منها أن يسأل الله الثبات على دينه، فكما أنه بحاجة إلى الهداية، هو بحاجة إلى الثبات عليها حتى الممات، وهذا داخل في دعاء المسلم في كل ركعة: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: ٦]، والذي ينتفع بهذا الدعاء العظيم هو من يكون طالباً للهداية والثبات مستشعراً حاجته إليهما، خائفاً من الضلال بعد الهدى، غير مُعجب بعمله، بل يعترف بفقره إلى الله، ويُقرُّ بنعم الله عليه التي أعظمها الهدايةُ إلى الصراط المستقيم ومخالفةُ المغضوب عليهم والضالين.

العلم الشرعي معين على الثبات

كما على المسلم كي يرزق الثبات أن يتعلم العلم الشرعي الذي به يعرف ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال حتى يتقي الله حق التقوى، والعلم الشرعي مبني على أصلين هما الكتاب والسنة، كما فهمهما سلف هذه الأمة، قال ابن القيم، رحمه الله:

العلم قال الله قال رسوله
قال الصحابة هم أولو العرفان

ثم عليه بعد ذلك أن يحرص على العمل بما علم، فلا تحقيق للتقوى بلا علم، ولا تحقيق لها بلا عمل بالعلم الشرعي.

الخوف من الانتكاس

ويجب أن يبقى المسلم خائفاً من الانتكاس على عقبيه، فقد أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن من الخصال التي يجد المؤمن بها حلاوة الإيمان: (أن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار) [متفق عليه]، وقد أخبرنا -تعالى- أن الراسخين في العلم يخافون من العودة في الكفر والزيغ بعد إذ نجَّاهم الله منهما، ويدعون الله -تعالى- قائلين: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} [آل عمران: ٨].

وعليه أن يحقق التقوى بفعل جميع ما أوجبه الله وترك كل ما حرَّم على عباده، وتعاهُد النية لتكون الأعمال خالصة لوجه الله تعالى، وإلا لم تقبل. فإن وقعت منه معصية اعترف لله بذنبه وبادر إلى التوبة والعودة إلى الله، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: ١٣٥].

الحذر من أسباب الانتكاسات

وإذا لم يحذر المسلم أسباب الانتكاسات أصابته في مقتل، وأعظم الخسارة خسارة الدين، قال حذيفة، رضي الله عنه: "كان الناس يسألون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني" [صحيح البخاري].

ومن أسباب الانتكاسات:

- اتباع الهوى وترك الهدى المستفاد من كتاب الله وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [القصص: ٥٠]، والخطر كل الخطر في الإعراض عن العمل بالحق بعد معرفته، قال تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: ٦٣].

قال الإمام أحمد: "أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا رد بعض قوله: (أي قول النبي، صلى الله عليه وسلم) أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك". وقال تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [الصف: ٥]، وقد يعاقب الله العاصي بأن يضله ويوقعه فيما هو أكبر من المعصية، كما عاقب الذي في قلبه مرض ولم يسع إلى مداواته بأن زاده مرضاً حتى صار من أهل النفاق الأكبر والعياذ بالله، قال تعالى: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا} [البقرة: ١٠].

- **ومنها:** اتباع الأئمة المضلين من قادة وعلماء، قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} [الحج: ٣ - ٤]، والعلماء منهم من هو كالدواء للناس، ومنهم من هو سبب مرضهم وهلاكهم، لأن الناس تسمع لهم وتقتدي بهم، ويظن البعيدون عن الحق أن العلماء جُنة من عذاب الله ولو كانوا من أئمة الضلال! فيقول بعضهم: "اجعل بينك وبين النار عالماً"، وقد قطع الله حجة من يتبع المضلين ولو كانوا من أهل العلم الشرعي بأن بيَّن -سبحانه- أنه سيسألنا عن اتباعنا للأنبياء لا للعلماء، وأن العلماء الذين ينفعهم علمهم وينتفع الناس بهديهم هم أشد الناس خشية لله {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨]، وأخبرنا -سبحانه- عن علماء أهل الكتاب الذين لبَّسوا الحق بالباطل وكتموا الحق واشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله، وذلك لنحذر من تضليل من يشابههم من علماء هذه الأمة، وأخبرنا -سبحانه- عن تبرؤ المتبوعين المضلِّين من علماء وقادة من أتباعهم، وتمني الأتباع أن تكون لهم كرة أخرى فيتبرؤوا من أئمتهم المضلين، قال تعالى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [البقرة: ١٦٦ - ١٦٧]، فواجب المسلم أن يتحرى العالِمَ الذي يتبعه ويستفتيه، وينظر في حاله من حيث التقوى والبعد عن الشبهات والشهوات المحرمة.

- **ومنها:** عدم تعويد النفس على ترك التعلق بالدنيا، وقد أهلك هذا الأمر خلاصة الناس وخاصَّتهم وهم علماء كانوا أعرف الناس بالحق وعرفوا ما في اتباعه من الثواب، وما في الإعراض عنه من العقاب، قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦].

- **ومنها:** عدم تعاهد القلب حتى يقسو فتجمد العين وتضعف التقوى، وخاصة بعد طول الأمد، لأن الإنسان إذا انتقل من الغفلة والضلال إلى التمسك بالدين يكون في أول الأمر متحمساً للحق مقبلاً عليه بقوة، ولكن هذا الحماس يضعف مع الأيام ويعقبه فتور، فإن لزم المسلم طاعة الله وجاهد نفسه وهواه نجا بإذن الله تعالى، وإن أدى به الفتور إلى العودة إلى ما كان يألف من معاص قبل هدايته فهذا يهلك والعياذ بالله إن لم يتغمده الله برحمته، جاء في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول اللَّه -صلى الله عليه وسلم- قال (إن لكل شيء شِرَّة، ولكل شِرَّة فترة، فإن صاحبها سدد وقارب فارجوه، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدوه) [رواه الترمذي وقال حسن صحيح]. وقال -تعالى- محذراً من مشابهة أهل الكتاب في قسوة القلوب، وأن الواجب أن يحرص المسلم على خشوع قلبه لذكر الله: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد: ١٦].

وهذا الموضوع يحتاج إلى استعراض جوانب أخرى كثيرة لمحاولة استيفاء الكلام عنه، ولعل الله أن ييسر ذلك في مقالات قادمة، وبالله التوفيق وهو المستعان.

نسأل الله -تعالى- أن يثبتنا على دين الإسلام ونصرته ونصرة دولته حتى نلقاه، ونسأله -تعالى- أن يمن علينا بالنصر على القوم الكافرين، والحمد لله رب العالمين

سبب نزول

(ولا تقولوا لمن أَلقَى إليكم السَّلامَ لست مؤمناً)

قال الله تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النساء: ٩٤].

جاء في سبب نزول هذه الآية ما رواه البخاري في صحيحه قال: عن ابن عباس -رضي الله عنهما- {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا}، قال ابن عباس: كان رجل في غنيمة له فلحقه المسلمون فقال: السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غنيمته، فأنزل الله في ذلك إلى قوله: {تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} تلك الغنيمة، قال: قرأ ابن عباس السلام (يعني بإثبات الألف).

وفي رواية أحمد عن عكرمة، عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قال: مرَّ رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يسوق غنما له، فسلم عليهم فقالوا: ما سلم علينا إلا ليتعوذ منا، فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمه النبي -صلى الله عليه وسلم- فنزلت هذه الآية.

وجاء في تفسير ابن كثير: "وقوله: {فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ} أي: خير مما رغبتم فيه من عرض الحياة الدنيا الذي حملكم على قتل مثل هذا الذي ألقى إليكم السلام، وأظهر إليكم الإيمان، فتغافلتم عنه، واتهمتموه بالمصانعة والتقية، لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، فما عند الله من المغانم الحلال خير لكم من مال هذا.

وقوله: {كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ} أي: قد كنتم من قبل هذه الحال كهذا الذي سر إيمانه ويخفيه من قومه"

وفي هذه الآية تنبيه للمسلمين عموما والمجاهدين في سبيل الله على الأخص أن يتبينوا من حال الناس قبل الحكم عليهم، وألا يدفعهم الهوى وحب الدنيا إلى اتهام مسلم في دينه دون تبيُّن رغبة باغتنام ماله أو أخذ متاعه، وما عند الله خير وأبقى.



وبشِّر الصابرين

(عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كلَّه خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراءُ شكرَ فكان خيرا له، وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيرا له) [صحيح مسلم].

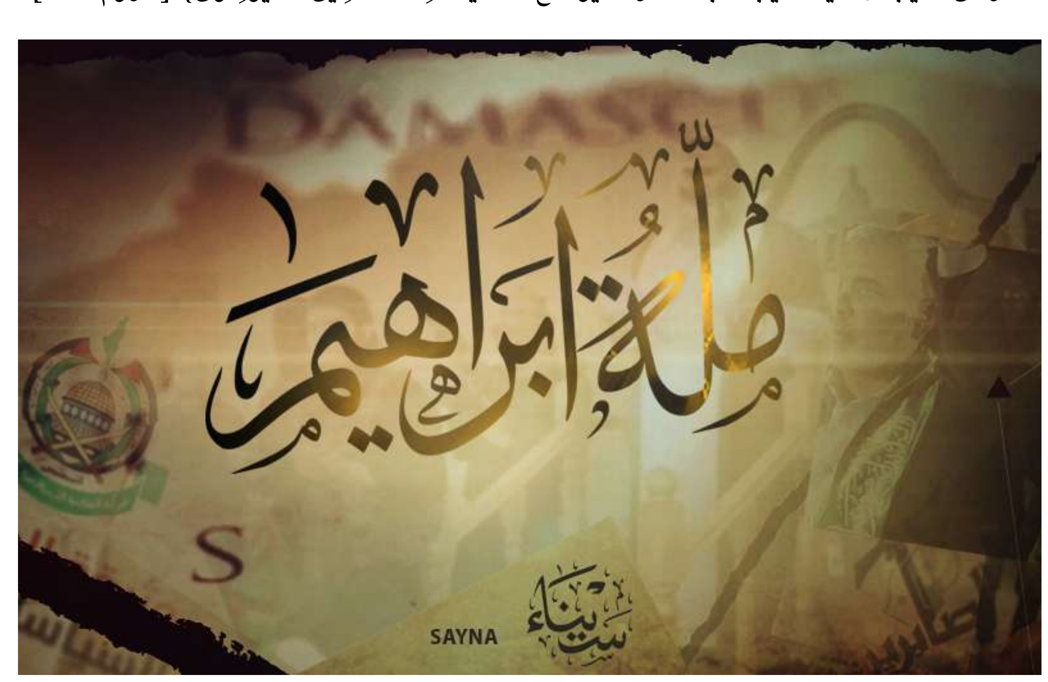
إن الله يبتلي العبد ليحط عنه من ذنوبه، ويكفر عنه من سيئاته، وإن الرجل ليبتلى بقدر إيمانه ومنزلته عند الله ومكانه، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، فمن كان إيمانه قويا اشتد بلاؤه وعظم، ومن كان إيمانه رقيقا خفف الله عنه البلاء ورَحِم، وإن للمحن أشكالا، وللبلاء ألوانا، فقد يبتلى الرجل في النفس أو المال، أو الأهل أو العيال، {وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٥٥].

ولما كان الصحابة أصلب الناس بعد الأنبياء إيمانا، وأصدقهم إسرارا وإعلانا، كان البلاء ولا بدَّ مصيبهم، فوقع بهم ونالوا منه نصيبهم، إذ كان لهم من العذاب أنكاه، ومن التنكيل أعظمه وأقواه، فعن خباب بن الأرت أنه قال: شكونا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو متوسدٌ بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال: كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض، فيُجعل فيه، فيُجاء بالمنشار، فيُوضع على رأسه، فيُشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويُمْشَط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله لَيُتِمَّنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون [رواه البخاري].

ويمر الصحابة -رضوان الله عليهم- بأم عمار زوج ياسر، يسومها المشركون من العذاب ألوانا، فلا يرفعون الظلم عنها لاستضعافهم ولا يكفون عدوانا، ويمر النبي -صلوات ربي وسلامه عليه- بعمار وأمه وأبيه وقد أُلبسوا في رمضاء مكة دروع الحديد، فيقول: (صبرا آل ياسر، إن موعدكم الجنة) ولا يزيد[سيرة ابن هشام[، وصَبَرَ الصحابة على أذى المشركين حتى ماتوا على دينهم كراما، فكانوا شامة على جبين الصبر وعلى صدر العز وساما.

فيا من عظم عليه البلاء، واشتدت به المحنة واللأواء، وأوصدت دونه الأبواب، وتقطعت به الأسباب، ودخل اليأس إلى قلبه فارتاب، قارن حالك بحالهم، وليكن مآلك كمآلهم، فإن صبرت جزاك الله عظيم الأجر والثواب، وإن نكصت فما لك إلا الخزي والعذاب.

أتنظر إلى هالة الكفار فتهولك؟ {أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّـهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [التوبة: ١٣]، أتذوق من بأسهم فتبتئس؟ {فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} [الأنعام: ١٤٧]، أم طالك جَهدهم فأَجْهَدَك؟ {وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّـهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [العنكبوت: ٦]. فحافظ يا طالب الخير على الثبات تسلم، وتسلَّح بالصبر تُفلح وتغنم، {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّـهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ} [الروم: ٦٠].



العِلم بالله

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد...

فإن قلب التوحيد معرفة الله، وهي كالأساس للعبادة، التي هي غاية خلق الإنس والجن.

ومعلوم أن التوحيد ثلاثة أركان: الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

والربوبية والألوهية إنما يرسخهما في قلب المؤمن الأسماء والصفات، فإنك إن تعرفت على أسماء معبودك التي سمَّى بها نفسه، وصفاته التي وصف بها ذاته ازداد في قلبك:

١) اليقين بأحقية الله للعبادة.

٢) وجوب توكيل تدبير الأمور إليه.

٣) تعظيمه وإجلاله.

٤) خوفه والوجل منه.

٥) الخشوع له وعمل الصالحات حتى بلوغ الأجل.

٦) الذل والتعظيم والمحبة لربك ومالكِ أمرك ونهيك.

وكلما تعرفت على الله زادت العبادة كما وكيفا، لأن الإنسان -بفطرته- إذا عرف الشيء مال نحوه.

فتوحيد الأسماء والصفات كالطاقة للموحد، ولذا فلا تخلو صفحة في القرآن من عدة أسماء وصفات، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والقرآن فيه من ذكر أسماء الله وصفاته وأفعاله أكثر مما فيه من ذكر الأكل والشرب والنكاح في الجنة، والآيات المتضمنة لذكر أسماء الله وصفاته أعظم قدرا من آيات المعاد، فأعظم آية في القرآن آية الكرسي المتضمنة لذلك".

قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨]، قال ابن جرير: "إنما يخاف الله فيتقي عقابه بطاعته: العلماءُ بقُدرته على ما يشاء من شيء، وأنه يفعل ما يريد، لأن من علم ذلك وأيقن بعقابه على معصيته فخافه ورهبه خشية منه أنه يعاقبه"، وقد ورد في حديث متفق عليه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إن لله تسعا وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة)، وإحصاؤها: حفظها، وتدبر معانيها واستحضارها وقيامها بقلبك، ودعاء الله بها.

ليس أنفع لقلب العبد يُصفيه ويهذبه ويصقله من معرفة إلهه وربه جل في علاه، وقد اختص الله ذاتَه بالأسماء الحسنى والصفات العلا {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف: ١٨٠]، فهي أسماء حسنة في الأسماء، تدل على توحيد الله ورحمته وأفضاله، بل تدل على معاني الخير جميعا دون نقصان.

ومورد فهم أسماء الله وصفاته عند أهل السنة والجماعة مورد عذب صافٍ على منهج راسخ هذا ذكره:

١) إثبات الأسماء والصفات المذكورة في الكتاب وصحيح السنة.

٢) فهمها وتصورها كما تصورها أعلم الخلق بربهم رسولُه، صلى الله عليه وسلم.

٣) كان فهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وصحابته أن الله (ليس كمثله شيء) فلا مجال للعقل أن يفتح باب الخيال على مصراعيه، فإن العقل يتاح له التخيل في الأمور التي جربها وعرفها والله لا يشبه خلقه، وهنا يطرد من الإسلام من يتخيل أن الله يشبه خلقه!

(وهو السميع البصير) فمع أن الله لا يشبه خلقه إلا أنه سميع له سمع وبصير له بصر يليقان بذاته العظيمة -كما ورد في القرآن لا نزيد ولا ننقص- وهنا يُطرد من الإسلام من يدعي قوة تنزيهه لله عن مشابهة خلقه فلا يثبت له أي صفة أو اسم ثابت لخلقه، بمعنى أنه يقول أن الله لا يسمع لأنه ليس كمثله شيء، فكيف يشبه المخلوقين في السمع والبصر، وهذا لم يفرق بين المشاركة اللفظية والحقيقية، فإن الله متنزه عن مشابهة خلقه، وله سمع وبصر يليقان بذاته ولا يعلم أحد من الخلق كيفيتهما، فهذه المشابهة في اللفظ ليتعرف المخلوق على صفات خالقه من خلال دلالة اللفظ ولا تعني المطابقة والتشبيه، تعالى الله عن ذلك.

٤) كان توجه فهم الصحابة للأسماء والصفات أن يتعرفوا على الله بها ثم يتعبدونه بها أيضا، فعلى ضوء اسمه الغفور يستغفرونه ويرجعون عن ذنوبهم، وعلى ضوء اسمه القوي يستمدون منه النصر في المعارك، وعلى ضوء اسمه الرزاق يطلبون منه الرزق، وعلى ضوء اسمه الرقيب يشعرون أن الله مطلع عليهم في كل وقت وعلى كل حال حتى في الليلة السوداء، في الحجرة الظلماء، في قعر العقلِ، وسر القلبِ... سبحانه لا شريك له، وعلى ضوء اسمه السميع فهم يدعونه ويلجؤون إليه في الرخاء قبل الشدة، وهم يناجونه آناء الليل وأطراف النهار ولسانهم رطب من ذكره وشكره وحمده وتسبيحه، وهم في كل اسم له يتعبدونه به، وفي هذا يتفاوت عباد الله وتظهر منزلة الشك من اليقين، ففرق بين من يوقن يقينا تاما أن الله مطلع عليه يراه ويسمعه، فهذا يندر أن يقع في معصية وبين من هو أقل يقينا من ذلك فهو يعصي تارة ويحجم تارة، فاليقين درجات والشك دركات، نعوذ بالله من الشك والنفاق.

فهذه قواعد مرقمة تنفعك يا أخَ الدين في معرفة ربك والتعبد بأسماءه وصفاته.

يَجِلُّ عن التشبيه جل جلاله
ولا تَسْلَمُ الأعداءُ منه، ويسلمُ
ولا يُبرِمُ الأمر الذي هو حاللٌ
ولا يحلل الأمر الذي هو مبرمُ

ولابد للمؤمن حق الإيمان أن يكون ملجأه الوثيق وركنه الركين رب العزة، سبحانه وتعالى، على كل حالاته، فلو اغتنى أو افتقر فمن الغني غَنَاؤه، ولو عزَّ أو ذلَّ فبالعزيز اعتزازه، وإن فرح أو حزن فبرضى الله فرحه وسروره، وإن اشتدت عليه الأمور وضاقت السبل وانصكَّت في وجهه الأبواب فللرحيم القوي التجاؤه.

فهو يعبد الله على كل هيئة، ويستحضر اسمه المناسب لكل حال.

فتتجدد حياته وتُمد بالإيمان والنشاط في كل مناسبة وظرف. فوا فوزه ويا حظه، ذلك الذي أنعم المنعم عليه وجعله يتقلب بين أسمائه وصفاته يتعبده بها.

فبالله عزي واعتزازي وقوتي
ولله حبي ما بقي الدهر وانصرم
خوفا من الله حالي وقت عزي وقوتي
له الكل عُبَّاد صغير وذو الهَرم
أرجوه ذا العفو عفوا على حال زلتي
سبحانه يغفر الذنب ومنه المنتقَم

وسنذكر -بإذن الله- نُبَذاً عن أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى.



سبب نزول
(إن الصفا والمروة من شعائر الله)

قال الله تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ١٥٨].

روى البخاري في صحيحه في سبب نزول هذه الآية عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال: قلت لعائشة زوج النبي -صلى الله عليه و سلم- وأنا يومئذ حديث السن: أرأيت قول الله تبارك وتعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا}- فما أرى على أحد شيئا أن لا يطوف بهما؟ فقالت عائشة -رضي الله عنها- كلا، لو كانت كما تقول كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، إنما أنزلت هذه الآية في الأنصار كانوا يُهلون لمناة وكانت مناة حذو قديد وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن ذلك فأنزل الله: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا}.

وفي رواية أخرى عند البخاري عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنس بن مالك -رضي الله عنه- عن الصفا والمروة فقال كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله، تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا}.

ومما يستفاد من هاتين الروايتين أن الصحابة -رضي الله عنهم- كانوا يتحرَّجون من أداء منسك لأنهم كانوا يفعلونه في الجاهلية بوجود الأصنام، لكن الشارع الحكيم بين أن هذا الركن من شعائر الله وأن أهل الجاهلية أضافوا إليه الشرك، وبزواله يعود إلى أصله فعلى المسلم أن يحرص على ألا يشابه المشركين في أفعالهم وأقوالهم، كما عليه أن يحرص على اتباع أمر الله وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم.



إن اللَّهَ لا يُضيع أجر المحسنين

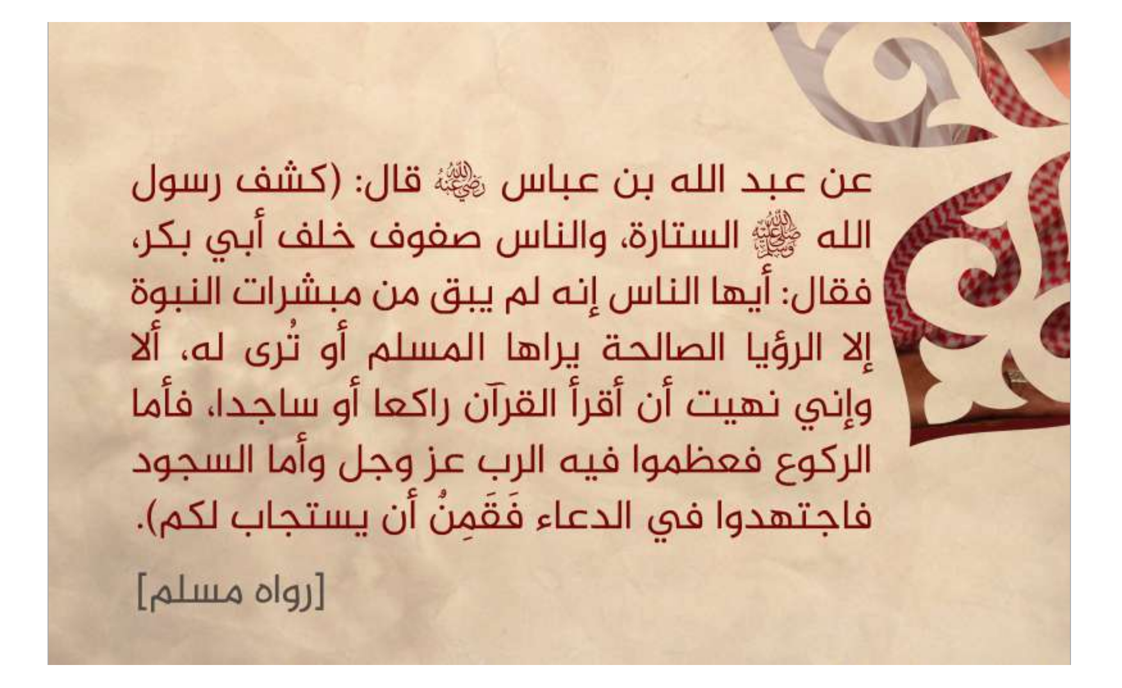
إن مما يحتاج إليه المجاهد في جهاده ورباطه أن يكون متفائلاً بتحقُّق موعود الله له بالأجر العظيم، قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [التوبة: ١٢٠ - ١٢١].

وصف الله -عز وجل- المجاهدين بالمحسنين ووعدهم بألا يضيع أجرهم، بل لهم جزاء أحسن من أعمالهم، وقيل يجزيهم على قليل أعمالهم بما يجزيهم على كبيرها، وهنا ذكر أجورهم مفصَّلة، فهم مأجورون على العطش وعلى التعب وعلى الجوع، وكل مكان يطؤونه مما يَغيظ الكفار يكتب لهم به عمل صالح، وكلّ نيل ينالونه من الكفار، وكذلك كل نفقة ينفقونها صغرت أم كبرت تكتب لهم أعمالاً صالحة، وحتى قطعهم لواد في مسيرهم يُؤجرون عليه مقبلين وراجعين، فاحتسب أخي المجاهد عند الله صبرك على المصاعب والمشاق، واحتسب كل عمل صالح تعمله في طريق الجهاد.

وليتفاءل المجاهد بوعد الله للمؤمنين بالنصر قال تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر: ٥١]، وليعلم أن الله طلب منه الجهاد ولم يطلب منه تحقيق النصر، {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [آل عمران: ١٢٦]، فحتى الصولة أو الغزوة التي يفشل فيها المجاهد، فهو مأجور عليها بأعظم مما لو أنه انتصر وغنم فيها، قال نبينا صلى الله عليه وسلم: (ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة، ويبقى لهم الثلث، وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم) [رواه مسلم].

وكل مصيبة تحصل له خاصة أو للمجاهدين عامة يبحث المجاهد عن الخير فيها وعن العِبر منها ويحاول الاستفادة منها، مع تحسين العمل وتحاشي الأخطاء، قال -تعالى- عمَّا حصل في حادثة الإفك: {لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} [النور: ١٢]، مع أن الحادثة آلمت النبي -صلى الله عليه وسلم- وزوجه المباركة عائشة والصحابة، رضي الله عنهم.

وقد توعد الله المُنافقين والمرجفين والمخذِّلين بأن يسلط عليهم نبيه -صلى الله عليه وسلم- فيتخلص من شرورهم بأن يقتلهم حيثما يجدهم، وذلك لما يسبِّبونه للمجاهدين من تخويف و توهين لعزائمهم أو إضعاف التفاؤل عندهم، قال تعالى: {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} [الأحزاب: ٦٠ - ٦٢].





سبب نزول

فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا

قال الله تعالى: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا} [النساء: ٨٨]

قال ابن كثير في تفسيره: "يقول تعالى منكرا على المؤمنين في اختلافهم في المنافقين على قولين، واختلف في سبب ذلك، فقال الإمام أحمد عن زيد بن ثابت: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى أحد فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم فرقتين، فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا، هم المؤمنون فأنزل الله: {فما لكم في المنافقين فئتين}، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنها طيبة وإنها تنفي الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد) (رواه الشيخان)

وقد ذكر محمد بن إسحاق في وقعة أحد: أن عبد الله بن أبي بن سلول رجع يومئذ بثلث الجيش، رجع بثلثمائة وبقي النبي صلى الله عليه وسلم في سبعمائة، وقوله تعالى: {والله أركسهم بما كسبوا} أي ردَّهم وأوقعهم في الخطأ، قال ابن عباس: {أركسهم} أي أوقعهم، وقال قتادة: أهلكهم، وقال السدِّي: أضلهم، وقوله: {بما كسبوا} أي بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول واتباعهم الباطل {أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا} أي لا طريق له"

فليحذر المسلم من اتباع طريق المنافقين ومخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومفارقة جماعة المسلمين، وليخش على نفسه فإنه لا يأمن النفاق على نفسه إلا منافق، والله المستعان.



فاز من باع نفسه لخالقها

إذا حلت المنايا وجاءت الآجال، فالتهرب منها شيء محال، لأن القدر المكتوب لا بد واقع، ماله من صاد ولا دافع، ثم ينتقل المرء من دار الزوال والفناء، إلى دار الخلود والبقاء، فإما نعيم مقيم، وإما عذاب مُخزٍ أليم.

وإن الموحد إذا علم أن الحياة مرتحلة عنه قسرا، وأن الموت نازل بساحه وإن عاش دهرا، اجتهد في طلب رضى الرحمن، وطمع في عطاء الكريم المنان، فلم يترك باب خير إلا طرقه، ولا طريق برٍّ إلا سلكه، ينتقي من الأعمال أصلحها، ومن التجارة أربحها، وليس عمل أصلح عند الله من الجهاد، وليست تجارة أربح من القتل في سبيله والاستشهاد، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [الصف: ١٠-١٣].

وقد علم الله أن النفس عن الجهاد لاهية، وعنه عازفة لأعذار تافهة واهية، إذ فيه ذهاب النفس والمال، وفراق الأهل والأصحاب والعيال، لذلك أجزل لمن أقامه العطاء والثواب، ووعده الفردوس الأعلى مع الصديقين والصالحين والأنبياء والأصحاب، {لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ٨٨-٨٩]، فأنعم بطريقهم طريقا، وحسُن أولئك صحبة ورفيقا.

وكما أن الله أعد للمجاهدين نعيما وفيرا، وخيرا جزيلا كثيرا، خلق لمن تخلف عنهم سعيرا، وبشَّرهم عذابا أليما وحسابا عسيرا، فإذا هم أعرضوا عن الجهاد استبدل بهم أهل خير، وتركهم أهل العصيان جميعا ولا ضير، فأمر الله ماض أبدا، وهو الناصر عونا ومددا، {إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ} [التوبة: ٣٩-٤١].

فإذا تيقن المرء أنه إلى الله راجع، وأن ليس له من قضائه من دافع، فضَّل الهداية على الغواية، والثواب على العقاب، والموت في سبيل الله عن الموت في سبيل سواه، فإن للموت في الحالتين سكرات، وهو في كِلتيهما مُرُّ الجرعات، فشمِّر يا باغي الخير عن ساعد الجد تأمن، واسع للعلياء يرفعك الله من حال إلى أحسن.

اسم الله (الغني)

تكملة للكلام عن أسماء الله جل وعلا، نتدبر في هذا المقال اسم الله (الغني).

قال تعالى: {قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [يونس: ٦٨] هذا الاسم من أسماء الله تعالى، يظهر جانباً من عظمة الله –تعالى– القائم بنفسه القيوم على عباده، فلله –سبحانه– الملك التام، وله خزائن السماوات والأرض، وهو على كل شيء قدير، وعباده لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وليس لله منهم شريك في ذرة من خلقه، ولا حاجة به إلى عون من مخلوقاته فقد استغنى الله –تعالى– عنها، هو الذي خلقها، وبقاؤها مفتقر إليه، هو الذي يدبر أمرها ويصلح شؤونها، لا يملك المخلوق لنفسه ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله، كما أن إحسان الطائعين لا ينفع الله شيئاً ومعصية المسيئين لا تضر الله شيئاً، بل الطاعة تنفع صاحبها والمعصية تضر فاعلها، كما علمنا النبي –صلى الله عليه وسلم– أن نقول في دعائنا: (ولا ينفع ذا الجد منك الجد)، أي لا ينفع صاحب الغنى غناه وإنما ينفعه فضل الله ورحمته، وتنفعه طاعته إذا تقبلها الله عز وجل، والذي يوفق الطائعين هو ربهم ذو الفضل العظيم، والذي يضل الظالمين هو ربهم الحكيم العليم سبحانه، قال تعالى: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [الزمر: ٧]، فالله –تعالى– غني عن عباده ولكنه –سبحانه– يجازيهم بأعمالهم، فيرضى عن المتقين ويثيبهم ويغضب على الكافرين ويعاقبهم.

من كمال غناه سبحانه وتعالى

أنه ما اتخذ صاحبة أي زوجة ولا ولداً، فهذان إنما يحتاجهما العباد الضعفاء الفقراء إلى الله المحتاجون إلى من يؤنسهم ويعينهم في قضاء حاجاتهم، قالت الجن: {وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا} [الجن: ٣]، جد ربنا أي غناه سبحانه.

وحاجة العباد إلى الله –تعالى– دائمة مستمرة، لا غنى بهم عن رحمة الله وعونه طرفة عين، يستجيب دعاءهم ويكشف ضرهم ويهدي بفضله ورحمته من يشاء منهم صراطه المستقيم في الدنيا، ويهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم.

ومن غناه –سبحانه– أنه لم يلد ولم يولد، وأنه هو الأحد الصمد الذي استغنى عن الطعام والشراب وسائر ما يحتاج إليه الخلق.

ويخبرنا الله –سبحانه– عن غناه وعن امتنانه علينا فيقول: {وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى} [النجم: ٤٨]، أي هو –سبحانه– الذي يغني عباده ويملكهم أنواع المقتنيات.

وقال –تعالى– مذكراً لعباده بحقيقة افتقارهم إليه غاية الفقر، لا يستغنون عن فضله ورحمته ولطفه ومعونته وتدبيره لأمورهم طرفة عين ولا أقل من ذلك، وهو –سبحانه– الغني التام المطلق، ولا يشغله غناه عن حاجات خلقه وقيامه بشؤونهم، ولذلك هو –تعالى– الحميد أي المحمود على أسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله، التي منها اسمه الغني وصفة الغِنى وأنه المغني لعباده الذي يربيهم التربية العامة ويربي أولياءه الصالحين التربية الخاصة.

سنة الاستبدال وعلاقتها باسم الله الغني

وقد بين الله –تعالى– لخلقه كمال غناه، بأنه قادر على أن يذهبهم ويأتي بمن يخلفهم، كما جاء بهؤلاء المخاطبين من آبائهم، {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} [الأنعام: ١٣٣].

وهو –سبحانه– مع غناه رحيم، ومن رحمته أنه أنذر من لم يلبِّ دعوة الإنفاق في سبيله فسيستبدله بمن لا يكون مثله في التقصير في طاعة الله، {هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد: ٣٨].

وأنذر –سبحانه– عباده المؤمنين حاثاً لهم على مواصلة طريق الجهاد لنصرة دين الله أنه غني عن جهاد المجاهدين، وأن من يجاهد فإنما يجاهد لنفسه كما قال سبحانه: {وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [العنكبوت: ٦]، وأن من ارتد عن دينه أو قعد عن نصرته فإن الله –تعالى– سوف يستبدل به غيره، يكونون على ما يحب الله من الصفات، فيجعل لهم الغلبة على أعدائه، {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [المائدة: ٥٤]، فالله –تعالى– غني وذو فضل عظيم يؤتيه من يشاء على مقتضى حكمته وعلمه بمن يستحق ذلك.

الذي أغناك -سبحانه- يأمرك بالإنفاق

ومن حكمة الله –تعالى– أنه حين يأمر عباده بالإنفاق في سبيله يذكرهم بأن هذا الرزق من عنده {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [البقرة: ٣]، فتطيب نفوسهم ويذهب الشح عنهم خاصة وأن ربهم الغني –سبحانه– يعدهم بالخلف الحسن: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سبأ: ٣٩].

قال ابن جرير في قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [البقرة: ٢٦٧]، "واعلموا أيها الناس أن الله –عز وجل– غنيٌّ عن صدقاتكم وعن غيرها، وإنما أمركم بها وفرضها في أموالكم رحمة منه لكم ليغني بها عائلَكم ويُقَوِّيَ بها ضعيفكم، ويجزل لكم عليها في الآخرة مثوبتكم، لا من حاجة به فيها إليكم".

وقرن الله –عز وجل– اسمه الكريم باسمه الغني في قوله: {وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} [سبأ: ٤٠] أي غني عن أعمال من يكفر به، وهو –سبحانه– كريم عمَّ خيرُه الكثيرُ المؤمنَ والكافرَ في الدنيا، ومن يشكر نعم الله يكرمه الله بزيادتها ومباركتها، وهو –سبحانه– واسع العطاء، وحتى نفهم سبب اقتران اسم الغني بالكريم، نتذكر أن كثيراً من الناس يقترن الغنى عندهم باللؤم، وقد تعالى الله عن ذلك فله –سبحانه– المثل الأعلى، أي الوصف الأعلى فهو الغني الكريم.

هو الغني سبحانه

ويصف الله –عز وجل– عدله وغناه وكرمه في حديث قدسي عظيم، فعن أبي ذر –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– فيما روى عن الله –تبارك وتعالى– أنه قال: (يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم مُحرماً، فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع، إلا من أطعمته، فاستطعموني أُطعمكم، يا عبادي كلكم عار، إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه) [رواه مسلم]. وكان أبو إدريس الخولاني الراوي عن أبي ذر إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه، وقال أحمد بن حنبل: ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث. وحتى يتضح لنا اقتران صفة العدل بصفة الغنى لله –عز وجل– نتذكر قول الله –تعالى– عن أكثر أصحاب الغنى: {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى} [العلق: ٧] تعالى الله ذو الجلال والإكرام عن كل نقص وعيب، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

الحمد لله ناصر المستضعفين ومبيد الطغاة الكافرين، والصلاة والسلام على النبي المبعوث رحمة للعالمين محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

إن كثيرا من الناس يجحد نعم الله -تعالى- عليه ويدعي أنه شاكر لله سبحانه، وهو يظن أن الشكر قول باللسان دون العمل بالجوارح والأركان، وهذا الفهم الخاطئ لمعنى الشكر يستدعي تبيان معاني الشكر التي أرادها الله -تعالى- من خلقه.

قال الله تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [آل عمران: ١٢٣].

قال الإمام الطبري -رحمه الله- في تفسيره: "{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ} على أعدائكم وأنتم يومئذ أذلة، يعني: قليلون، في غير منعة من الناس، حتى أظهركم الله على عدوكم، مع كثرة عددهم وقلة عددكم، وأنتم اليوم أكثر عدداً منكم حينئذ، فإن تصبروا لأمر الله ينصركم كما نصركم ذلك اليوم، {فَاتَّقُوا اللَّهَ}، يقول تعالى ذكره: فاتقوا ربكم بطاعته واجتناب محارمه {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}، يقول: لتشكروه على ما منَّ به عليكم من النصر على أعدائكم وإظهار دينكم، ولما هداكم له من الحق الذي ضلَّ عنه مخالفوكم" [جامع البيان في تأويل القرآن].

إن الله -سبحانه وتعالى- يعلمنا معنى الشكر في هذه الآية الكريمة، وكيف نشكره عندما يمُنُّ علينا بنصر من عنده ونحن ضعفاء قليلون وعدتنا قليلة ضعيفة، فهذه الآية في غاية الأهمية، فإن من المعلوم أن الشكر يكون بالعمل، كما قال سبحانه وتعالى: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا} [سبأ: ١٣]، أي اعملوا بطاعة الله شكرا على نعمه، وكذلك معنى الشكر في قوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [آل عمران: ١٢٣]، هو بالعمل بأوامر الله -تعالى- واجتناب نواهيه حيث تتحقق التقوى، وهذه المناسبة كانت في تذكير الله للمؤمنين بأنه نصرهم في معركة بدر ولم يكن بين المسلمين والكفار تقارب من ناحية العدد والعدة، فكان الصحابة قليلين وعدتهم بسيطة، وكان الكفار يملكون السلاح والخيالة والعدد الكثير، لكن الله -سبحانه- نصرهم بجند السماء وأيدهم بنصره، وهذا لأن الصحابة تعلقت قلوبهم بالله وصدَّقوا رسوله -صلى الله عليه وسلم- بما وعدهم من النصر والظفر، وهذه النعمة تستحق الشكر لله سبحانه وتعالى، والشكر بتعظيم أوامر الله هو من تقوى القلوب، كما قال الله سبحانه، {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} [الحج: ٣٢]، فالتقوى لا بد معها من تنفيذ الأوامر، مع اجتناب ما حرَّم الله -تعالى- واجتناب الذنوب والنواهي، كما قيل:

دع الذنوب صغيرها
وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماشٍ فوق
أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرنَّ صغيرة
إن الجبال من الحصى

فلا بد من تحقيق الشكر لله بكلا جانبيه ليتحقق النصر، جانب الأوامر وجانب النواهي، وإن كان المجاهدون قد استسلموا لأمر ربهم وخضعوا بطاعته في قتال أعدائه صفا واحدا، فلا بد أيضا من عدم إغفال الجانب الآخر وهو الخضوع له في اجتناب نواهيه، وإن من أعظم النواهي التي تمنع ثمار العمل الصالح وتُخلُّ بالشكر وبالتالي تُؤخر النصر، هي الاختلاف والتباغض والتحاسد والغيبة والطعن والنميمة وفساد ذات البين، وهذه الآفات لا بد أن يخلو صف أهل الإيمان منها، فهي التي تُضعف الصف المؤمن وتُؤخر نعمة النصر وتُفضي إلى الفشل وغضب الله -تعالى- وحرمان حسنة التمكين في الدنيا، كما قال ربنا جل وعلا: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٦].

فهنا في هذه الآية أمرٌ بالطاعة والصبرِ ونهيٌ عن التنازع لأنه يفضي إلى الفشل وذهاب القوة، وعلى كل مجاهد أن يدرك هذه السنن والحقائق التي لا تحابي أحدا وأن يلتزم بطاعة الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- ويصبر على طريق الجهاد ويربي نفسه على السمع والطاعة للأمراء وينأى بنفسه وإخوانه عن كل موطن يؤدي إلى التنازع والاختلاف، فيحفظ الحقوق ويؤدي النصيحة كما يحبها الله تعالى.

وإذا كان الإخلال بمعاني الشكر يكون في القعود عن أوامر الله والوقوع في مناهيه، فإن أعظم من ذلك كله من وقع في الشرك وفسَق عن أمر ربه، فإنه نقض كل معاني الشكر التي يستحقها الخالق جل وعلا، فإن المتدبر لقوله تعالى: {وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ} [لقمان: ٣٢]، يعلم قبح فعل الكافر لنعم الله تعالى، فهو الذي خلقه ورزقه وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، ثم يقوم هذا الكفور بربه فيعبد غيره ويصرف للأنداد أنواع العبادات ويصرف الشكر لغيره، والله -تعالى- هو الخالق المستحق للشكر بعبادته وطاعته والاستجابة لأوامره والتصديق برسله، ولذلك قال -سبحانه- مذكرا بنعمه على عباده لكي يشكروه عليها فقال: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل: ٧٨].

قال الإمام الطبري -رحمه الله- في تفسير هذه الآية: "والله -تعالى- أعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من بعد ما أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعقلون شيئا ولا تعلمون، فرزقكم عقولا تفقهون بها، وتميزون بها الخير من الشرِّ وبصَّركم بها ما لم تكونوا تبصرون، وجعل لكم السمع الذي تسمعون به الأصوات، فيفقه بعضكم عن بعض ما تتحاورون به بينكم والأبصار التي تبصرون بها الأشخاص فتتعارفون بها وتميزون بها بعضا من بعض، {وَالأَفْئِدَةَ} يقول: والقلوب التي تعرفون بها الأشياء فتحفظونها وتفكرون فتفقهون بها، {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} يقول: فعلنا ذلك بكم، فاشكروا الله على ما أنعم به عليكم من ذلك، دون الآلهة والأنداد، فجعلتم له شركاء في الشكر، ولم يكن له فيما أنعم به عليكم من نعمه شريك" [جامع البيان في تأويل القرآن].

ولو تأمَّل المتأمل حال أكثر أهل الأرض لتعجَّب ممَّا هم فيه من صرف الشكر لغير الله باتخاذ الأنداد والوقوع في أنواع كثيرة من الشرك بالله، سبحانه وتعالى، فمن عبادة الأصنام وعبادة الحيوانات إلى عبادة القبور والبشر وانتهاءً بشرك الديموقراطية ومنازعة الله -تعالى- في الحكم والتشريع، وهذا حال كثير من الناس اليوم من المنتسبين للإسلام والله المستعان، الذين طابق حالهم حال أولئك الذين قال الله فيهم: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [يوسف: ١٠٦]، قال ابن عباس: "تسألهم من خلق السماوات والأرض فيقولون الله وهم يعبدون غيره"، وهؤلاء تسألهم من خلق السماوات والأرض فيقولون الله وهم يعبدون غيره بصرف عبادة الحكم لسواه، ويصنعون الطواغيت بأيديهم حين يوصلونهم إلى سدة التشريع في البرلمان بواسطة الانتخابات كمن يصنع صنما بيديه ويعبده، فيطيعونهم في تشريعهم ويتحاكمون إليهم، والله -تعالى- يقول: {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [الأنعام: ١٢١]، وقال: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ} [الشورى: ٢١]، فلله الخلق والحكم والتشريع، فتبارك الله أحسن الخالقين، وتبارك الله أحكم الحاكمين، وتعالى الله عن شرك المشركين وجحود الكافرين وافتراء الطواغيت المشرعين، وتعالى الله عما يصفون ويشركون، والحمد لله رب العالمين.



من التاريخ

نهر الدم

أقسم خالد بن الوليد -رضي الله عنه- في إحدى معاركه مع الفرس أن يجري النهر بدمائهم إن أمكنه الله من رقابهم، فتحقق قسمه -رضي الله عنه- في وقعة (أليس) في السنة الثانية عشرة للهجرة.

قال الطبري: "ولما أصاب خالد يوم الولجة من أصاب من بكر بن وائل من نصاراهم الذين أعانوا أهل فارس، غضب لهم نصارى قومهم، فكاتبوا الأعاجم وكاتبتهم الأعاجم، فاجتمعوا إلى أليس، وعليهم عبد الأسود العجلي، وكان أشد الناس على أولئك النصارى مسلمو بني عجل: عتيبة بن النهاس وسعيد بن مرة وفرات بن حيان والمثنى بن لاحق ومذعور ابن عدي، وكتب أردشير إلى (بهمن جاذويه) -وهو بـ (قسيانا)- أن سر حتى تقدم (أليس) بجيشك إلى من اجتمع بها من فارس ونصارى العرب، فقدَّم (بهمن جاذويه) (جابان) وأمره بالحث، وقال: كفكف نفسك وجندك من قتال القوم حتى ألحق بك إلا أن يعجلوك، ومضى (جابان) حتى أتى أليس، فنزل بها في صفر، واجتمعت إليه المسالح التي كانت بإزاء العرب".

واستطاع خالد -رضي الله عنه- أن يفاجئ الأعداء فهجم عليهم وهم يستعدون لتناول طعامهم، قال ابن كثير: "فبينما هم قد نصبوا لهم سماطا فيه طعام يريدون أكله، إذ غافلهم خالد بجيشه... ونفرت الأعاجم عن الطعام وقاموا إلى السلاح فاقتتلوا قتالا شديدا جدا، والمشركون يرقبون قدوم (بهمن) مددا من جهة الملك إليهم، فهم في قوة وشدة وكلب في القتال، وصبر المسلمون صبرا بليغا، وقال خالد: اللهم لك عليَّ إن منحتنا أكتافهم أن لا أستبقي منهم أحدا أقدر عليه حتى أجري نهرهم بدمائهم. ثم إن الله -عز وجل- منح المسلمين أكتافهم فنادى منادي خالد: الأسر، الأسر، لا تقتلوا إلا من امتنع من الأسر، فأقبلت الخيول بهم أفواجا يساقون سوقا، وقد وكل بهم رجالا يضربون أعناقهم في النهر، ففعل ذلك بهم يوما وليلة ويطلبهم في الغد ومن بعد الغد، وكلما حضر منهم أحد ضُربت عنقه في النهر، وقد صرف ماء النهر إلى موضع آخر، فقال له بعض الأمراء: إن النهر لا يجري بدمائهم حتى ترسل الماء على الدم فيجري معه فتُبِرَّ بيمينك، فأرسله فسال النهر دما عبيطا، فلذلك سمي نهر الدم إلى اليوم، وبلغ عدد القتلى سبعين ألفا".

وهذه هي قصة النهر الذي جرى بدماء المجوس، نسأل الله أن يجازي أحفادهم الرافضة بمثل ما جازاهم.



وهم في غفلة معرضون

الغفلة هي البوابة الذي تعبر منها المعاصي إلى العباد، والمنفذ الذي تسلكه الأمراض إلى القلوب، والطريق الذي تستغله الشهوة للسيطرة على النفوس، فتصبح أقل إحساسا بالواقع والمصير، فلا يستفيق منها الإنسان إلا وقد سيطرت عليه الذنوب، وكبلته بحبالها وقيدته بسلاسلها.

وهي ليست فعلا يرتكبه المسلم، بل حالة يعيشها، تنشأ بالابتعاد عن الطاعة والذكر والمراقبة لله تعالى، ولا علاج لها إلا باليقظة، وأهم أسبابها: الصحبة الصالحة، وقراءة القرآن، وترطيب اللسان بذكر الله، آناء الليل وأطراف النهار، والصلاة على وقتها بخشوع وتدبُّر، والالتزام بأوامر الله والابتعاد عن نواهيه، والكف عن السعي خلف ملذات الدنيا والجري خلف شهواتها، والإكثار من السنن والنوافل والأعمال الصالحة.

ولا يتجرأ العبد على مخالفة مولاه، وارتكاب الذنوب والمعاصي والتعدي على حقوقه إلا وهو غافل عنه، ساهٍ لاهٍ.

وأشد مظاهر الغفلة نسيان الموت، رغم اقترابه، ونسيان لقاء الله رغم دنوِّه، واللهوُ والإعراض عن آياته وأوامره، قال تعالى: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ} [الأنبياء: ١ - ٣].

وقال تعالى في علاج الغفلة: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ} [الأعراف: ٢٠٥].

وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما رواه أبو هريرة -رضي الله عنه- قال: (من حافظ على هؤلاء الصلوات المكتوبات لم يُكتبْ من الغافلين، ومن قرأ في ليلة مائة آية كُتبَ من القانتين) [رواه ابن خزيمة في صحيحه، والحاكم].

وهي طريقٌ نهايته الحسرة والندامة، قال الله تعالى: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [مريم: ٣٩]، عندها لا ينفع لوم ولا يقظة.

فانتبه أخي، لتكون من الناجين، واحذر لتكون من الفائزين، والزم ذكر الله والصحبة الصالحة، وتدبر آياته ولا تفتر عن ذكره.

يقول ابن القيم، رحمه الله: "إن مجالسَ الذكر مجالسُ الملائكة، ومجالس اللغو والغفلة مجالسُ الشياطين، فليتخيَّر العبد أعجبَهما إليه وأولاهما به".

وإن أحرى من يكون بعيدا عن الغفلة هو أنت أخي المجاهد، فطلب القتل مظانه، والتعرض له، يجعلك أبعد ما تكون عن الغفلة، فكيف لمن ينتظر لقاء الله ويتعرض له في كل لحظة وحين، أن يكون غافلا عن طاعته وعبادته ولقائه، فتذكر -أخي المجاهد- أنك قريب من مولاك، سريع اللقاء به، ولا تغفل عنه تكن من الفائزين.

فعن هانئ مولى عثمان -رضي الله عنه- قال: كان عثمان، إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته، فقيل له: تُذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا! فقال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه) [رواه الترمذي].





سبب نزول (آية التيمم)

قال الله تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا} [النساء: ٤٣].

قال ابن كثير في تفسيره: "ومن عفوه عنكم وغفره لكم أن شرع التيمم، وأباح لكم فعل الصلاة به إذا فقدتم الماء توسعة عليكم ورخصة لكم".

وأما سبب نزول آية التيمم، فعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: خرجنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في بعض أسفاره، حتى إذا كنا في البيداء -أو بذات الجيش- انقطع عقد لي، فأقام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على التماسه، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبالناس، وليسوا على ماء وليس معهم ماء! فجاء أبو بكر، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- واضعٌ رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبستِ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والناس، وليسوا على ماء وليس معهم ماء! قالت عائشة: فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في خاصرتي، ولا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على فخذي، فقام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم فتيمموا، فقال أسيد بن الحضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر، قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فوجدنا العقد تحته [متفق عليه].

وهكذا نزلت رخصة التيمم بسبب أمر ظنَّه المسلمون شرّاً، فكان خيرا عظيما، وفيه بيان مكانة بيت الصديق، رضي الله عنه، وما أجرى الله بسببه من خير وتيسير للمسلمين، وفيه حسن رعاية رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لأهل بيته، إذ حرص على أن يجد عقدا أضاعته زوجه، لما يعلمه من أثر فقده عليها، وهكذا يعلمنا رسول الله الرفق بأهلينا والاهتمام بهم.



لا تَعجلنَّ لأمر أنت طالبه

أخي المجاهد، لتكن الأناة مركبك ورفيقك، وإياك والعجلة فإنها تورث الندامة، واعلم أن الأناة خلق يحبه الله تعالى، ويرضاه من عبده.

لا تعجلنَّ لأمرٍ أنت طالبُه
فقلَّما يدركُ المطلوبَ ذو العَجلِ
فذو التَّأنِّي مصيبٌ في مقاصدِه
وذو التَّعجلِ لا يخلو من الزَّللِ

والأناة هي "التمهل في تدبير الأمور ومفارقة التعجل"، فكلما منح المرء نفسه وقتا للتمعن في الأمور والأحداث وتفاصيلها، وصل إلى نتائج أقرب إلى الصواب.

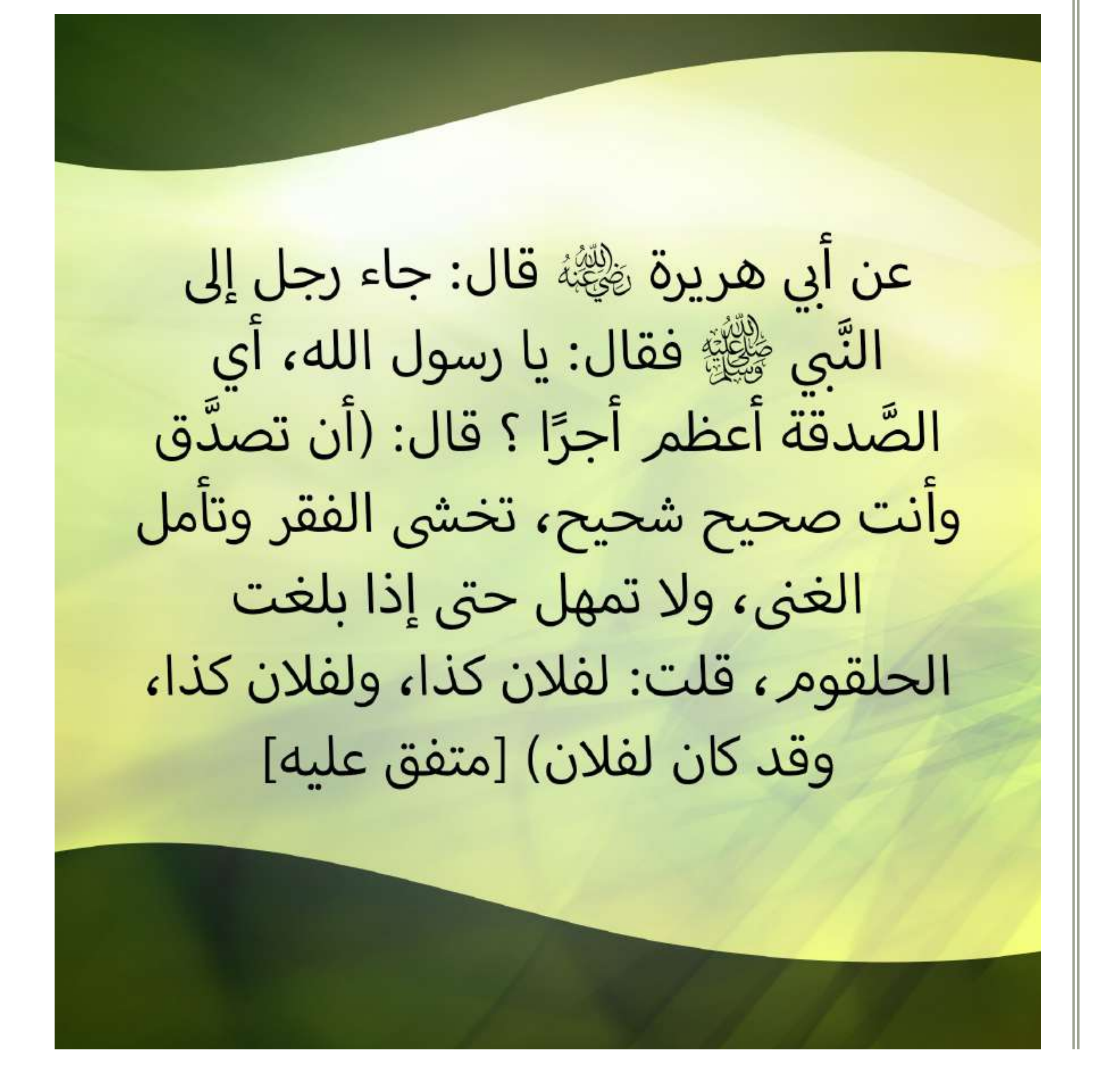
وكلما تأنَّى المرء في تصرفاته وردود أفعاله، سما بنفسه عن الصغائر وجنَّبها السفاسف، فأصبح من الذين يلتمسون الأعذار للآخرين، لا من الذين يفتشون عن إدانتهم.

ولقد مدح الرسول -صلى الله عليه سلم- صفة الأناة، عند أشج عبد القيس فقال له: (إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة) [رواه مسلم].

ولنا في أناة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عندما أشاع المنافقون في المدينة خبر الإفك خير مثال نقتدي به، فرسول الله -صلى الله عليه وسلم- لم يحدِّث أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- في الأمر إلا بعد إشاعته بأكثر من شهر حيث كانت -رضي الله عنها- مريضة.

وما سمعَت بالأمر إلا من أم مسطح، ثم استشار -صلى الله عليه وسلم- أسامة بن زيد، وعلي بن أبي طالب -رضي الله عنهما- في الأمر، ثم سأل خادمتها بريرة عن طباعها وأخلاقها، وبعد ذلك كله ذهب رسول الله -صلى الله عليه سلم- وتحدث إلى أمنا عائشة -رضي الله عنها- وسمع منها، فلم يتسرَّع -صلى الله عليه وسلم- بالحكم من دون تبيُّن، ولم يتخذ قرارا بمجرد سماعه للإشاعة، ثم نزلت براءتها من فوق سبع سماوات.

إنها أخلاق نبينا -صلى الله عليه وسلم- الذي أثنى عليه الله -تعالى- بقوله: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤]، فلنتشبه -أخي المجاهد- بها ونتأسى بصاحبها -عليه الصلاة والسلام- فنحن أحق وأولى بها.



قصة حديث

تصدَّقَ على سارقٍ وزانيةٍ وغني

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: قال رجل لأتصدقنَّ بصدقة: فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تصدَّقَ على سارق، فقال: اللهم لك الحمد، لأتصدقنَّ بصدقة: فخرج بصدقته فوضعها في يدي زانية، فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على زانية، فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقنَّ بصدقة: فخرج بصدقته فوضعها في يدي غني فأصبحوا يتحدثون تصدق على غني، فقال: اللهم لك الحمد على سارق وعلى زانية وعلى غني، فأتي فقيل له أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغني فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله" [متفق عليه].

وسبب تعجبهم هو أن الصدقة لم تقع في مكانها المعهود أي عند أهل الحاجات، ففي هذه القصة أن صدقة هذا الرجل قبلت وإن لم تقع في يد المحتاجين ما دامت نيته صالحة، وأن المرء يجتهد في الصدقة فإن وقعت في مثل هذه الأصناف فإن الأمر لا يخلو من الخير للمتصدق عليه كما هي الحكم المذكورة في الحديث، ومن الحكم في هذا الحديث عدم التضجر بل التسليم لقضاء الله واستحباب تكرار التصدق فإن موضع الصدقة كله خير أينما وقع، وإن قبول الأعمال عند الله -تعالى- مرتبط بالإخلاص له سبحانه، وفيه دفع لوساوس الشيطان في عدم التصدق بدعوى عدم معرفة حال السائل، فيُحرم من العطاء من هو مستحق.



سادات الناس في الدنيا الأسخياء

أخي المجاهد، للسخاء معانٍ عظيمة حثَّ عليها الإسلام ورغَّب بها، وأجزل العطاء لفاعلها، ووصف بالفلاح أصحابها، فقال تعالى: {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: ٩]. فالسخاء هو العطاء عن طيب نفس بدون أن تستكثر النفس ذلك العطاء أو تجد موجدة بعد إنفاقه، وإن أرفع درجات السخاء أن يجود المرء بنفسه في سبيل مولاه، فيقاتل أعداءه لتحكيم شرعه، ويتحمل في سبيل ذلك الأذى والجوع والنصب، ويقدم المال والأهل والولد، ومن جاد بنفسه هان عليه ما دون ذلك، ولذلك فإن الكرم والشجاعة صنوان.

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: "وبالشجاعة والكرم في سبيل الله فضَّل الله السابقين فقال: {لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى} [الحديد: ١٠]" [مجموع الفتاوى].

وعن جابر -رضي الله عنه- قال: (ما سُئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن شيء قط فقال: لا) [متفق عليه].

ولنا في سيرة صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عند تجهيز جيش العسرة خير مثال، وقد قدَّم أبو بكر الصديق كل ماله، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله، وجهَّز عثمان بن عفان ثلث الجيش، وتصدَّق عبد الرحمن بن عوف بمئتي أوقية من الفضة، وقدَّم عاصم بن عدي سبعين وسقاً من تمر، وتصدَّقت النساء بالمعاضد والخلاخل، وتصدَّق العباس بتسعين ألفاً.

وتروي لنا السير أن عثمان بن عفان -رضي الله عنه- اشترى بئر رومية من اليهودي الذي كان يبيع الماء للمسلمين بسعر مرتفع، وجعلها للمسلمين دون مقابل، واشتهر عنه -رضي الله عنه- أنه كان عتَّاقاً للرقاب.

قال الإمام عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: "ومقام الإنفاق من أشرف مقامات الدين وتفاوت الناس فيه بحسب ما جبلوا عليه من الكرم وضدهما من البخل والشح فالأول: محمود في الكتاب والسنة والثاني: مذموم فيهما، وقد حث الله -تعالى- عباده على الإنفاق لعظم نفعه وتعديه وكثرة ثوابه" [فتح المجيد].

وقال بعضهم للسخاء صور كثيرة غير مقتصرة على بذل المال فحسب، بل هي أعم وأشمل، منها سعي الإنسان في قضاء حوائج الناس وتنفيس كرباتهم، ومنها السخاوة بالجاه، بحيث يبذل المرء استطاعته في الشفاعات الحسنة، وبذل القدرة في إحقاق الحق، ونصرة المظلوم، وإعانة الضعيف، وسخاوة الإنسان بوقته في سبيل نفع الناس، كالتعليم والتدريب وغيره، والنصح والإرشاد، ومن صوره كذلك البشاشة في وجوه الناس، والتجاوز عمن أساء.

أخي المجاهد، أنفق وأبشر بالثواب، وأبشر فلا خوف ولا حزن، قال الله تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ٢٦٢].

أخي المجاهد، أنفق فقد تكفل لمن يعطي بأن يخلف له ويرزقه، كما في قوله تعالى: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سبأ: ٣٩].

فتأمل أخي هذه النصوص المباركة وتذكرها دائما واجعلها دافعا لك على السخاء في جميع حالاتك، تنل عطاءً لا حدود له من الله تعالى.

كنت حُرّاً
أجناد
نشيد صوتي
١٤٣٩هـ

كنتَ حُـرّاً شامـــــخَ الرَّأسِ أَبيّاً *** في بـــــلادٍ زادَها المَولى مَزايا
ما لكم سِـــرْتُم إِلى الأَعـــداءِ طَوْعاً *** قد أَضَعْتُم كُـــلَّ هاتيكَ السَّجايا
يَا أَخـــا الإِسلامِ لا تَــرْضَ الدَّنايا *** كيفَ تَرْضاها وتَجْتَـــرُّ الرَّزايـــا
كيف تتــرك دار عزٍّ عشــت فيها *** ناســيا صحبـــا تنـــادوا للمنايـــا
كيفَ غادرْتَ وسَافرْتَ بعيـــــداً *** نَحْـــوَ دارِ الكفْرِ أَسْـرَجْتَ المَطايا
كيفَ ترضى العيشَ يا هذا ذليلاً *** نازحـــاً يرْضى فُتاتـــاً والبقايـــا
تائهاً فـــي أَرْضِ كُفْـــرٍ لا أَنيسٌ *** غارقاً في قَعْـــرِ بحْـــرٍ بالخطايا
في شُرُوطِ العارِ قد أَصْبحْتَ عَبْداً *** قد خَلَعْتَ السَّمْتَ قد بِعْتَ القَضايا
وَصْمـــةً صرْتُـــم وأَشـــتاتاً رِذالاً *** فـــي بلادٍ سَـــادَها سُـــوءُ الطَّوايـــا
كنتمُ خيـــرَ الوَرى في كلِّ أَمْـــرٍ *** كيـــفَ أَصْبَحْتُمْ عناوينَ البلايـــا
من رأَى دَيناً سِـــوى الإِسـلامِ يوماً *** سَـــوْفَ يَخْزَى ثُـــمَّ تُخْفيهِ الخفايا
فارْجعوا للدِّيـــنِ إِنَّ الدِّينَ عـــزٌّ *** واطْلبُوا العِـــزَّ بتَجْهيـــزِ السَّرايـــا

فوائد دريّة

من كلام الإمام ابن قيم الجوزية

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده أما بعد:

قال الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله في كتابه زاد المعاد في هدي خير العباد: [فصل في ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أحد].

وقد أشار الله -سبحانه وتعالى- إلى أمهاتها، وأصولها في سورة (آل عمران) حيث افتتح القصة بقوله: {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ} [آل عمران: ١٢١] إلى تمام ستين آية.

فمنها: تعريفهم سوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع، وأن الذي أصابهم إنما هو بشؤم ذلك، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ} [آل عمران: ١٥٢]، فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول، وتنازعهم، وفشلهم، كانوا بعد ذلك أشد حذرا ويقظة، وتحرزا من أسباب الخذلان.

ومنها: أن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جرت بأن يدالوا مرة ويدال عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائما دخل معهم المؤمنون وغيرهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انتصر عليهم دائما لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق، وما جاءوا به ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة.

ومنها: أن هذا من أعلام الرسل كما قال هرقل لأبي سفيان: (هل قاتلتموه؟ قال: نعم، قال: كيف الحرب بينكم وبينه؟ قال: سجال يدال علينا المرة، وندال عليه الأخرى، قال: كذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لهم العاقبة).

ومنها: أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر، وطار لهم الصيت دخل معهم في الإسلام ظاهرا من ليس معهم فيه باطنا، فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سبب لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق، فأطلع المنافقون رؤوسهم في هذه الغزوة، وتكلموا بما كانوا يكتمونه، وظهرت مخبآتهم، وعاد تلويحهم تصريحا، وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق انقساما ظاهرا، وعرف المؤمنون أن لهم عدوا في نفس دورهم، وهم معهم لا يفارقونهم، فاستعدوا لهم، وتحرزوا منهم. قال الله تعالى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ} [آل عمران: ١٧٩]، أي ما كان الله ليذركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين حتى يميز أهل الإيمان من أهل النفاق كما ميزهم بالمحنة يوم أحد {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ} [آل عمران: ١٧٩] الذي يميز به بين هؤلاء وهؤلاء، فإنهم متميزون في غيبه وعلمه وهو سبحانه يريد أن يميزهم تمييزا مشهودا فيقع معلومه الذي هو غيب شهادة. وقوله: {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ} [آل عمران: ١٧٩] استدراك لما نفاه من اطلاع خلقه على الغيب سوى الرسل، فإنه يطلعهم على ما يشاء من غيبه كما قال: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ} [الجن: ٢٦ - ٢٧] فحظكم أنتم وسعادتكم في الإيمان بالغيب الذي يطلع عليه رسله فإن آمنتم به وأيقنتم فلكم أعظم الأجر والكرامة.

ومنها: استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء، وفيما يحبون وما يكرهون، وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون فهم عبيده حقا، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء والنعمة والعافية.

ومنها: أنه سبحانه لو نصرهم دائما، وأظفرهم بعدوهم في كل موطن، وجعل لهم التمكين والقهر لأعدائهم أبدا لطغت نفوسهم، وشمخت وارتفعت، فلو بسط لهم النصر والظفر لكانوا في الحال التي يكونون فيها لو بسط لهم الرزق، فلا يصلح عباده إلا السراء والضراء، والشدة والرخاء، والقبض والبسط، فهو المدبر لأمر عباده كما يليق بحكمته، إنه بهم خبير بصير.

ومنها: أنه إذا امتحنهم بالغلبة والكسرة والهزيمة ذلوا وانكسروا وخضعوا، فاستوجبوا منه العز والنصر، فإن خلعة النصر إنما تكون مع ولاية الذل والانكسار، قال تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ} [آل عمران: ١٢٣]، وقال: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا} [التوبة: ٢٥]، فهو - سبحانه - إذا أراد أن يعز عبده ويجبره وينصره كسره أولا، ويكون جبره له ونصره على مقدار ذله وانكساره.

ومنها: أنه سبحانه هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة، فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

ومنها: أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغيانا وركونا إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى الله والدار الآخرة، فإذا أراد بها ربها ومالكها وراحمها كرامته قيض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقي العليل الدواء الكريه، ويقطع منه العروق المؤلمة لاستخراج الأدواء منه، ولو تركه لغلبته الأدواء حتى يكون فيها هلاكه.

ومنها: أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه والمقربون من عباده، وليس بعد درجة الصديقية إلا الشهادة، وهو سبحانه يحب أن يتخذ من عباده شهداء تراق دماؤهم في محبته ومرضاته، ويؤثرون رضاه ومحابه على نفوسهم، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو.

ومنها: أن الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم قيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم، ومن أعظمها بعد كفرهم بغيهم وطغيانهم، ومبالغتهم في أذى أوليائه، ومحاربتهم وقتالهم والتسلط عليهم، فيتمحص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم، وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك في قوله: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: ١٣٩ - ١٤١]، فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم وإحياء عزائمهم وهممهم، وبين حسن التسلية، وذكر الحكم الباهرة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم فقال: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ} [آل عمران: ١٤٠]، فقد استويتم في القرح والألم، وتباينتم في الرجاء والثواب، كما قال: {إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ} [النساء: ١٠٤]، فما بالكم تهنون وتضعفون عند القرح والألم، فقد أصابهم ذلك في سبيل الشيطان، وأنتم أصبتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي.

ثم أخبر أنه يداول أيام هذه الحياة الدنيا بين الناس، وأنها عرض حاضر، ثم ذكر حكمة أخرى، وهي أن يتميز المؤمنون من المنافقين فيعلمهم علم رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين في غيبه، وذلك العلم الغيبي لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وإنما يترتب الثواب والعقاب على المعلوم إذا صار مشاهدا واقعا في الحس.

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي اتخاذه سبحانه منهم شهداء، فإنه يحب الشهداء من عباده، وقد أعد لهم أعلى المنازل وأفضلها، وقد اتخذهم لنفسه، فلا بد أن ينيلهم درجة الشهادة.

وقوله: {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [آل عمران: ١٤٠]، تنبيه لطيف الموقع جدا على كراهته وبغضه للمنافقين الذين انخذلوا عن نبيه يوم أحد فلم يشهدوه ولم يتخذ منهم شهداء، لأنه لم يحبهم فأركسهم وردهم ليحرمهم ما خص به المؤمنين في ذلك اليوم، وما أعطاه من استشهد منهم، فثبط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التي وفق لها أولياءه وحزبه. **انتهى كلامه رحمه الله رحمة واسعة بما أفاد من الدرر البديعة، وقد أوردناها ليتأملها كل مجاهد ويأخذ منها ما يتزود به لشدائد الجهاد في سبيل الله، ولتكون له سلوة على هذا الطريق الشاق، طريق العز والمعالي ورفعة المنزلة في الجنة والقرب من الله جل جلاله والحمد لله رب العالمين.**

لا تستسلم
لأراجيف النفاق

إن أكثر ما يكدر على المجاهد في سيره إلى ربه وينغص عيه لذة الطاعة هم أهل النفاق وأهل التخذيل، مع أن التخذيل من صفات المنافقين، لكن قد يخذل بعض أهل الصدق من حيث لا يشعر، أما أهل النفاق فإن ديدنهم تخذيل أهل الجهاد، عن ابن عباس -رضي الله عنه- قال: "لما قُتل أصحاب الرجيع قال ناس من المنافقين: يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا، لا هم أقاموا في أهلهم ولا هم أدوا رسالة صاحبهم" [البداية والنهاية].

كلمات المنافقين لا تزال تتردد في كل زمان كلما كانت النتائج أن يقتل الموحدون وتعظم بهم الزلزلة، فيظهر أهل النفاق بتلك الكلمات الخبيثة، وهذا حالهم اليوم، حيث يقولون: "ما الذي جناه هؤلاء الذين أتوا من أصقاع الأرض؟ لا هم أقاموا في أوطانهم عند أهلهم ولا هم حققوا ما أرادوا"، خسئتم يا أهل النفاق، إن الدين سيستمر ظهوره وإن نور الله لن ينطفئ، وإن القتل الذي أصاب أهل الإسلام في دولة الخلافة إنما هو غاية ما يرجو الموحدون الصادقون، ولكنه في حساب المنافقين خسارة وهم الذين قالوا يوم قتل جمع من الصحابة يوم أحد، {لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا}، فأخبر الله نبينا -صلى الله عليه وسلم- أن يقول لهم: {قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [آل عمران: ١٦٨]، إن هذا الموت الذي يفر منه كثير من الناس لملاقيهم لا محالة، وإن الموحدين الذي خرجوا لإقامة أمر ربهم قد حققوا غاية القتال وهي أن يكون الدين كله لله، فعلت الشريعة كل أرض وطئها هؤلاء الشعث الغبر، وأزيل الشرك، وساد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأمن الناس على أموالهم وأعراضهم، واتقدت جذوة الجهاد في قلوب أبناء المسلمين وانتفضت أجيال وعاشت في ظل دولة إسلامية نقية بالتوحيد عزيزة بالجهاد ونزال ملل الكفر في الأرض.

فعندما تصدح حناجر النفاق بكلمات الشماتة، على كل موحد أن يتذكر ما قالته أمّنا أم المؤمنين خديجة -رضي الله عنها- لنبينا صلى الله عليه وسلم: "كلا والله لا يخزيك الله أبداً"، وكان عاقبة أمره -صلى الله عليه وسلم- الظهور والسيادة في جزيرة العرب وأكمل الصحابة من بعده فتوحات المشرق والمغرب، وكان ذلك بعد جهد وبلاء وزلزلة وابتلاء، ومشقة ونصب وجوع وظمأ، وجراح وأسر وبتر، واحتملوا ذلك بصبر ويقين بوعد ربهم جل في علاه، وهكذا نحن اليوم -بإذن الله- على طريق من سلف من خير القرون، فلن يخزيك الله أبداً أيها الموحد الأشم، وقد أقمت شريعة ربك، وكفرت بالطاغوت وقاتلته وأوتاده، فإن قتلت فهي الحسنى، وإن أبقاك الله فعش قرير العين فإن الله -تعالى- لن يضيعك وقد امتثلت أمره في جهاد الكفار بما تملك من أسباب القوة التي لا تقارن بما لدى الكفار اليوم، وقد وعدك الله بالنصر ما دمت حيا قائما بهذا الجهاد المبارك.

إن كل مجاهد اليوم لا بد أن يعلم أن أهل النفاق مترصدون للمجاهدين ما داموا قد حملوا السلاح لإقامة الدين، فلا تهولنكم كلمات المنافقين ولا تستوحشوا لكثرة المتساقطين، فإن كثيرا من الناس يفر عندما تعظم الزلزلة، وحسبك أن جيش دابق سيفر منهم الثلث كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم، وأن من يقتل في ذلك الجيش هم خير الشهداء، وذلك لعظيم ما يلاقونه من تلك الزحوف وشدة التلاحم في تلك المعركة واستحرار القتل، وكلما تشابه هذا الحال من بعض جوانبه مع بعض الملاحم التي تخوضها الدولة الإسلامية كان الشهداء من خيرة الناس حينها، وكذلك من أبقاهم الله -تعالى- في ملحمة دابق وفتح عليهم هم من الذين لا يفتنون في دينهم أبدا كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم، لأنهم تجاوزوا محطات الملحمة الرهيبة التي خاضوها، فكان ما بعدها أيسر عليهم حتى فتنة الدجال وهي من أعظم الفتن، وهكذا كلما ثبت أهل التوحيد في كل مكان أمام جموع الكفار وخاضوا الحرب الضروس، ولم يلتفتوا إلى كلام أهل النفاق والتخذيل، كانوا قد قطعوا شوطا في استكمال البنيان المبارك الذي يريد الله أن يتم به ظهور دينه على العالمين.

ولا شك أن النفوس تتوق للانتصارات والفتوحات، لكن الله يريد لهذه الدولة ذات الشوكة، أي أن يلاقوا الكفار بالقتال والبأس والصبر، فإن هذه الدولة تتهيأ لأمر عظيم، بقدر ما تحمله عظائم البلاء اليوم على أهل الإسلام، فلو تأملت أن الصحابة يوم بدر أرادوا بفطرهم البشرية أن يكون لهم المغنم من قوافل قريش التي لم تتهيأ لقتال، لكن الله -تعالى- ساقهم للقتال من غير ميعاد في بدر، لأن الطعام والملبس يفنى، لكن انتصار التوحيد ومقتل الطواغيت وإبادة جموعهم وارتفاع أسهم الموحدين في القوة وممارسة شعيرة القتال تكون فيه النتائج أعظم وأعز لدين الله تبارك وتعالى، ولذلك قال الله -تعالى- عن ذلك: {وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ} [الأنفال: ٧]، هذا الذي أراده الله -تعالى- لنا في كل زمان، أن نلاقي حشود الكفار ونكر عليهم صابرين محتسبين، هكذا نكون قد أضأنا الطريق وسلمنا الراية لمن بعدنا بأمانة وثبات ومضاء وعزيمة لا تعرف اللين والاستكانة.

فقاتل أيها الموحد ودع عنك الأراجيف، ما كلفك الله إلا بذلك ولو وحدك، قاتل وحرض إخوانك، فإن لك أجر قتال من حرضت منهم، قاتل ولا تنظر ولا تلتفت خلفك، قال الإمام ابن القيم، رحمه الله: "قال بعض السلف: عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين"، وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم، وغض الطرف عمن سواهم، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتفت إليهم، فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك" [مدارج السالكين].

فيا عبد الله الموحد المجاهد إن طريقك قد قلَّ فيه السالكون في كل زمان وكثر المتساقطون، فانظر لمن سبقك من إخوانك الذين مضوا شهداء عند ربهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، تنعم أرواحهم في جوف طير النعيم والكرامة، حتى تقوم القيامة وهو آمن من الفزع يأكل من ثمار الجنة، فامض ولا تلتفت فإنك متى التفت وسمعت فإن ذلك قد يؤخرك عن مرادك وسيرك إلى غايتك، فلا تصحب من يعيقك عن جهادك المبارك من مخذل أو مرجف، واستعن بالله وكن أُمة وحدك، ولو ذهبت أرضك وازدحمت سماؤك بطائرات عدوك، فإن نصر الله يلوح بعد هذه المحن، ما دام قلبك ملازما للحق وما دمت مقاتلا دونه، فعندما جاء ابن أبي داود إلى الإمام أحمد متشمتاً يقول مقولة أهل النفاق: ألم تر كيف ظهر الباطل على الحق يا أحمد؟ فقال الإمام أحمد، رحمه الله: "إن الباطل لم يظهر على الحق، إن ظهور الباطل على الحق هو انتقال قلوب الناس من الحق إلى الباطل، وقلوبنا بعد لازمة للحق". وما علينا بعد ملازمة الحق والقتال إلا قطف الثمار، فإما الشهادة التي يحبها الله ويرضى بها عنا، أو أن نجوس الديار ونتبر ما علا طواغيت العالم تتبيرا، والله -تعالى- لا يتخلف وعده في نصر دينه وهو -سبحانه- قادر وغالب على أمره ولكن المنافقين لا يعلمون، والحمد لله رب العالمين.

الإيمان بالقدر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، أما بعد..

قال ابن عباس، رضي الله عنه: "القدر نظام التوحيد، فمن وحَّد الله ولم يؤمن بالقدر كان كفره بالقضاء نقضا للتوحيد، ومن وحَّد الله وآمن بالقدر كان العروة الوثقى لا انفصام لها".

القدر من الأمور العظيمة التي لا تسير حياة المرء سيرا سليما إلا بالإيمان به، فإن له آثاراً عظيمة تدفع المسلم للعمل والكدِّ لمصلحة آخرته ودنياه، وبالتصوُّر الخاطئ عن القضاء والقدر يتخبط المرء بين التواكل الذي هو في حقيقته عجز، وبين التوكل على النفس المبالغ فيه، الذي فيه هلاك المرء.

والمؤمن بإيمانه بالقدر شجاع مقدام، لِيَقينه أنه لن يموت إلا إذا جاء أجله، ويتحقق في قلبه قول الله: {قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا} [التوبة: ٥١]، وهو أيضا جسور على الصعاب والأخطار، يُحقق أمر الله بفعل أسبابه وينتظر الموعود، فهو محسن ظنه بالله، فإذا لم يأت الموعود فهو صابر محتسب، لأنه يعلم أن الله قدَّر عليه المصيبة وأمره بالصبر.

وقبل هذا وذاك، هو وجل يخاف من الله ويحذر سوء الخاتمة، فإن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

ولا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، لأنه اعتراض على التقدير وسوء أدب مع الحكيم الخبير، ولأن الله هو الذي أعطى، فيدعوه ويطلب منه.

في كتاب مبين...

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، رحمه الله: "وقد قدَّر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم، قدَّر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم، وكتب ذلك، وكتب ما يصيرون إليه من سعادة وشقاوة، فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، ومشيئته لكل ما كان، وعلمه بالأشياء قبل أن تكون، وتقديره لها وكتابته إياها قبل أن تكون" [تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد].

إن كل عمل يعمله ابن آدم في كتاب، وكل مصيبة أو نعمة فإنها في كتاب، والنصر والخسارة في كتاب، والهمُّ والحَزَن في كتاب، والإيمان والكفر في كتاب، بل حركة الطير في السماء والسمك في الماء في كتاب، بل ما يحصل في أعماق البحار وفي ظلمات الأرض وتغيرات الثمار في كتاب، كما قال تعالى: {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [الأنعام: ٥٩]، فكل مقادير الخلائق كتبها الله قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة كما ورد عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنه- أنه قال: "كنت خلف النبي -صلى الله عليه وسلم- يوماً فقال: (يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)"، [رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح]، وعن علي بن أبي طالب أنه ذُكر عنده القدر يوما، فأدخل أصبعيه السبابة والوسطى في فيه فرقم بهما في باطن يده، فقال: "أشهد أن هاتين الرقمتين كانتا في أم الكتاب".

عِلْم الله بما لم يكن لو كان كيف يكون

والله عالم بكل ما كان وما سيكون، فالله يعلم ما ستصير إليه الأمور، والذي لم يكن لو كان كيف سيكون، ولعل ما يحصل للمسلم من نكبات ومصائب فيه الخير له في دينه ودنياه، كما قال -تعالى- عن المنافقين الذين لم يخرجوا في غزوة تبوك: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا} [التوبة: ٤٧]، فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا، وقال عن المعرضين عن اتباع الحق: {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ} [الأنفال: ٢٣]، لذا فلا تحزن لتخاذل من تخاذل وانتكاس من انتكس، فمصيبته على نفسه، فلا نصر بيده ولا هزيمة، ثم لا تعلم ما يحدث لو جلس في صفوف المجاهدين، فقد يُخذِّل ويُرجف، وقبل كل هذا لعله من المنافقين الذين يتنزل النصر بخروجهم.

الرضا بالقدر

وعليك بالصبر إذا أصابتك المصيبة أو حل بك الداء أو نزلت بك اللأواء أو تلف الزرع أو فقدتَ القريب أو انتصر العدو أو أُسرت أو كُسرت، فاصبر وروِّض نفسك بالإيمان بالقضاء والقدر وقل: "قدَّر الله وما شاء فعل"، واعلم أن صبرك واجب، وأن تقنطك وقولك: "ليته لم يحدث، ولو أنني فعلت كذا ما كان كذا" اعتراض على القدر، ففي الحديث: (وإن أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدَّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان) [رواه مسلم]، وكما قال عبد الله بن مسعود: "لأن أعض على جمرة وأقبض عليها حتى تبرد في يدي، أحب إلي من أن أقول لشيء قضاه الله: ليته لم يكن".

والله يريد من المسلم طاعته وينهاه عن معصيته، {إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} [الزمر: ٧]، فلا يترك الطاعة ويفعل المعصية ويقول بلسانه دون قلبه: قدر الله وما شاء فعل! بل الله أقدره وخلق له مشيئة يشاء بها ما يريد، كما قال ابن تيمية: "ومما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها -مع إيمانهم بالقضاء والقدر وأن الله خالق كل شيء وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يضل من يشاء ويهدي من يشاء- أن العباد لهم مشيئة وقدرة يفعلون بمشيئتهم وقدرتهم ما أقدرهم الله عليه، مع قولهم إن العباد لا يشاؤون إلا أن يشاء الله، كما قال الله تعالى: {كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ} [المدثر: ٥٤-٥٦]".

ولا يُقبل من المسلم التشبهُ بالمشركين الذين قال الله عنهم: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ} [الأنعام: ١٤٨]، فاحتجوا على ذنبهم أن الله قدَّره عليهم! بل هذا خلل في العقل كما قال ابن تيمية: "وليس لأحد أن يحتج بالقدر على الذنب باتفاق المسلمين وسائر الملل وسائر العقلاء، فإن هذا لو كان مقبولا لأمكن كل أحد أن يفعل ما يخطر له من قتل النفوس وأخذ الأموال وسائر أنواع الفساد في الأرض ويحتج بالقدر، ونفس المُحتج بالقدر إذا اعتدي عليه واحتج المعتدي بالقدر لم يقبل منه بل يتناقض، وتناقض القول يدل على فساده، فالاحتجاج بالقدر معلوم الفساد في بدائه العقول".

حِكَم الله

إن الله له حكمة بالغة في كل شيء قدَّره وخلقه، ومن ذلك هداية من هدى للإسلام والسنة، وإضلال من أضل بالكفر والبدعة كما قال تعالى: {مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [الأنعام: ٣٩]، وقال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا} [يونس: ٩٩]، ولكن لم يشأ لحكمة أرادها، ومن الحِكَم: {وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ} [الحديد: ٢٥].

فعل الأسباب

أمر الله -عز وجل- بفعل الأسباب فقال: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} [آل عمران: ١٣٣]، هذا في طلب الآخرة، وقال: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ} [الجمعة: ١٠]، وهذا في طلب المعيشة، وقال: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ} [الأنفال: ٦٠]، وهذا في فعل أسباب النصر، وقال: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠]، فإن تأخَّر شيء مع فعل أسبابه الواجبة فالأمر أمر الله والخلق خلقه له الحكمة في كل ذلك، وقد قال ابن تيمية -رحمه الله- عمَّن يترك ما أُمر به متكلا على أن كل شيء مقدر ومكتوب: "وكان قوله ذلك بمنزلة من يقول: أنا لا آكل ولا أشرب، فإن كان الله قضى بالشبع والري حصل وإلا لم يحصل، أو يقول: لا أجامع امرأتي فإن كان الله قضى لي بولد فإنه يكون! وكذا من غلط فترك الدعاء أو ترك الاستعانة والتوكل ظانا أن ذلك من مقامات الخاصة ناظرا إلى القدر، فكل هؤلاء جاهلون ضالون" [مجموع الفتاوى]، ولا تعتقد بحال أن ترك الأسباب من التوكل، فعلى المرء أن يسعى في مصالح دنياه، فإن أتت الأمور على ما يريد حَمِد الله، وإن أتت على خلاف ما يريد فلعله خير كما قال ابن مسعود: "إن العبد ليهم بالأمر من التجارة أو الإمارة حتى إذا تيسر له نظر الله إليه من فوق سبع سماوات فيقول للملائكة: اصرفوه عنه، فإنه إن يسرته له أدخلته النار" قال: "فيصرفه الله عز وجل".

ودوا لو تكفرون كما كفروا

لا يزال كفار العالم في غيض وحسد، وسعي لاجتثاث الموحدين الذين آمنوا بربهم وسعوا لإقامة سلطان شريعته، هذا الغيض منشؤه حسدهم للمؤمنين على إيمانهم واستقامتهم، ولذلك قال العليم الخبير: {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً} [النساء: ٨٩]، فهذه الأمنية عند الكفار هي التي تحرِّك عداوتهم وتغذي حروبهم معنا، فلا عجب أن يكون الكفار قد أجمعوا أمرهم وتركوا خلافاتهم وتوجهوا لحرب دولة الخلافة، فالدين الحق الذي تدين به هذه الدولة المباركة هو السبب الدافع لعداوة الأمم الكافرة لأبنائها ورعيتها، لأن الالتزام بهذا النور المبين يكشف كفر أديانهم ويظهر باطل مناهجهم، ويفضح فساد طريقتهم وانحطاط أخلاقهم، فتندفع قواتهم لفتنة الموحدين عن دينهم ليشاركوهم في كفرهم فيكونوا معهم سواء، ويتجاوزوا المنغصات التي يسببها وجود أهل التوحيد وسلوكهم واتباعهم للهدى الذي حاد الكفار عنه وحاربوه.

وهذه الحقيقة ذكرها القرآن كثيرا بين الأنبياء وأقوامهم، فتجد أن الباطل لا يطيق رؤية الحق يعلو وينتشر، وترى أن الكفار لا يستطيعون كتم غيظهم أمام ظهور الدين الحق الذي يكشف باطلهم ويفضح أستاره، فيحاول الطاغوت وجنده تشويه منهج أهل الحق بما يملكون من الوسائل الضخمة التي تقابل صوت الحق الذي لا يُجارى حتى لو كان في أضعف حالاته، فعند بدء دعوة الرسل لأقوامهم تصدح تلك القلوب الفاسدة العمياء بذلك الجواب الذي يعبِّر عن إرادة اجتثاث الحق واستئصاله والسعي لذلك، كما في قوله تعالى: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ} [العنكبوت: ٢٤]، فإن الباطل لا يمكن أن يصمد بحججه الواهية أمام قوة البراهين على أحقية دعوة التوحيد، ولذلك يبدأ أهل الباطل بخطوات فعلية لمواجهة الخطر الذي يُهدد باطلهم.

إنه التقتيل والتحريق أو الطرد أو السجن والتعذيب، كما في قوله تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال: ٣٠]، إن كل ذلك وسيلة لرد المسلمين عن دينهم، الذي يهدم أديان الكفر والعصيان، فتندلع المواجهة مع ظهور الحق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان في قتال لا يزال مستمرا لا ينقطع ولا تخمد ناره، قال ربنا جل في علاه: {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا} [البقرة: ٢١٧]، ولذلك لا عجب أن تعرف الحقيقة التي تقف وراء تحريق أصحاب الأخدود العزَّل من قبل ذلك الطاغوت الذي فضح باطله مجرد إيمان أولئك الناس بربهم، إن تلك الحقيقة هي قوله تعالى: {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [البروج: ٨]، وهكذا تجد أن نقمة الكفار وسبب اجتماعهم على المسلمين في كل زمان هو توحيد الله -تعالى- ونبذ الباطل الذي يدين به الكفار، وهو الإيمان الحق الذي يريده الله جل وعلا، ولذلك لا عجب أيضا أن ترى الصليبيين يدفعون بعلماء السوء للطعن بالموحدين ورميهم بالكفر والفسوق وذلك ليخففوا الوطأة على نفوسهم التي أظهر الحق ضعفها وانهيارها وشوَّش عليها نشوة التمتع بالمحرمات وأنواع الشهوات حتى تلك التي اتفقت الفطر على خبثها وجرمها، فإن ظهور الحق يعني انتهاء الباطل، فلا بد للطاغوت أن يجد من يسوِّق له دينه وينشره بين الناس فيدينوا بدينه ويعبدوه على شريعته الباطلة الفاجرة ويشوِّهوا دين وسبيل أهل الحق ليصدوا عنها ويذبوا عن الطاغوت وشريعته.

وهذه الحقيقة التي يجدها الكفار في نفوسهم هي موجودة حتى ولو لم يكن هناك قتال، فعندما دعا نبي الله شعيب -عليه السلام- قومه الكفار أن يصبروا عليه وعلى أتباعه حتى يحكم الله بينه وبينهم وبدون أن يتعرض أحد للآخر، رفضوا ذلك وخيَّروا النبي شعيبا -عليه السلام- ومن آمن معه إحدى اثنتين، قال الله تعالى: {وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ} [الأعراف: ٨٧ - ٨٨]، هما خياران عند كل طاغوت في كل زمان، إما القتال والإبعاد، أو العودة إلى ملة الكفر والفساد، ولن يطيقوا الصبر على وجود دين الله الحق، ومن أبى فلن يجد إلا القتل أو النفي أو الإكراه على العودة في ملة الكفر، وهذه الحقيقة هي ثابتة تحصل بين الأنبياء وأقوامهم، قال الله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [إبراهيم: ١٣].

ومن هنا يعرف الموحد الكذبة الكبرى التي سماها علماء السوء ودعاة الدخول إلى جهنم بالتعايش السلمي أو قبول الآخر، أي قبول التعايش مع الكفار، وهذا التعايش فَشِل فشلا ذريعا حتى مع كون دعاة هذا التعايش قد تخلوا عن كثير من دينهم وارتدوا لأجل أن يثبتوا للكفار أنهم يتعايشون معهم ويقبلون بمنهجهم أو يحسِّنون دينهم ويجدون معهم مشتركات للالتقاء في منتصف الطريق، فيأبى أهل الباطل على أولئك إلا الدخول تحت باطلهم وملتهم بشكل لا يُبقي لهم أي نوع من الاستقلالية.

فلا بد للموحدين أن يعلموا أن هذا المنهاج الطاغوتي الذي يسعى للضغط عليهم بكل الوسائل إنما هو قضاء كوني وصراع كائن إلى يوم القيامة لا يتخلف عن كل موحد صادق متبع لمنهج النبي صلى الله عليه وسلم، كما قال ورقة بن نوفل للنبي صلى الله عليه وسلم: "ما جاء رجل بمثل ما جئت به إلا عودِيَ"، ولذا يتوجب على كل موحد أن يثبت لربه صدقه وإخلاصه في دينه ويصبر على أذى وقتال الكفار والمرتدين، فإن هذه الحرب لن تضع أوزارها إلا بنزول عيسى -عليه السلام- فيقمع الباطل ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام الذي يسود العالم، كما أن الكفار اليوم لا يقبلون منا إلا الدخول معهم في الكفر ولو أدى ذلك لتدمير المدن وتحريق ما فيها بحمم الطائرات، ناقمين علينا إيماننا وتوحيدنا واتباع شريعة ربنا جل في علاه، فلا سبيل لدفع هذا الباطل وحشوده إلا بالقتال الذي اتسم به منهج النبي -صلى الله عليه وسلم- في نشر الرسالة، وكان اليهود يحدثون بصفته هذه عندهم في التوراة قبل مبعثه، وعندما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فاحتج عليهم الأنصار بمقولتهم التي كانوا يسمعون منهم في صفته حيث كان اليهود يقولون أنه "الضحوك القتال يركب البعير، ويلبس الشملة، يجترئ بالكسرة، سيفه على عاتقه، له ملاحم وملاحم" [تفسير السمعاني]، وهكذا ينبغي لكل متبع للنبي -صلى الله عليه وسلم- أن يكون سيفه على عاتقه ينشر الشريعة ويذب عنها ويتحمل الأذى والعداوة ومخرجاتها المريرة في زمن تكالب أمم الكفر، ويخوض الملاحم مع الكفار والمرتدين، فكلما اشتدت العداوة وزادت غربة الدين وصار القابض على دينه كالقابض على جمرة، صار عند ذلك الصبر على تلك المحن زيادة في درجة الموحدين وقربهم عند ربهم، ورفعة في منزلتهم، لما يلاقونه من عظيم التكالب والزلزلة، ولا يجد الموحد حينها له من الزاد الذي يعينه إلا الصبر على لأواء الطريق وشدته، ولذلك مدح الله -تعالى- أتباع الرسل وأخبر أنه يحب الصابرين على ما يصيبهم ابتغاء مرضاته فقال: {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: ١٤٦]، وهذا لأن جهاد النفس وإرغامها على المكاره هو الصبر الذي يحبه الله تعالى، فلما كان الوهن يصيب النفس البشرية عند كل بلاء لتتراجع قليلا فتثبت أو تفتن، كان الصبر على المحن وحب الموت في سبيل الله وعدم الضعف أمام بأس الكفار وعدم الاستكانة لهم هو من الصبر الذي يحبه الله -تعالى- ويدخل أصحابه جنة تقر بها أعينهم ويرضى عنهم خالقهم فلا يسخط عليهم أبدا.

فبشراكم أيها الموحدون القابضون على دينكم في زمن الغربة وتكالب الأمم فما هي إلا فترة من الصبر والثبات يعقبها خير الدنيا والآخرة، فعوا حقيقة الصراع واحفظوا عليكم دينكم واصبروا على أمر الله حتى يأتي وعده الذي لا يتخلف، ولا تضعوا عن عواتقكم السلاح، وامضوا إلى الهيجاء في كل ساح، فإن في ذلك الرشد والنجاة والفلاح.

علاج مرض القلب

من استيلاء النفس عليه

قال ابن قيم الجوزية في كتاب (إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان):

إن سائر أمراض القلب إنما تنشأ من جانب النفس، فالمواد الفاسدة كلها إليها تنصبُّ، ثم تنبعث منها إلى الأعضاء، وأول ما تنال القلب، وقد كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول في خطبة الحاجة: (الحمدُ لله نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَهْدِيهِ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا) [رواه أحمد].

وقد استعاذ النبي -صلى الله عليه وسلم- من شرها عموما، ومن شر ما يتولد منها من الأعمال، ومن شر ما يترتب على ذلك من المكاره والعقوبات، وجمع بين الاستعاذة من شر النفس وسيئات الأعمال.. .

وقد اتفق السالكون إلى الله -على اختلاف طرقهم، وتباين سلوكهم- على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب، وأنه لا يُدخَل عليه سبحانه ولا يُوصل إليه إلا بعد تركها، وإماتتها بمخالفتها والظفر بها.

فإن الناس على قسمين:

قسم ظفرت به نفسه فملَكته وأهلكته وصار طوعا لها تحت أوامرها.

وقسم ظفروا بنفوسهم، فقهروها، فصارت طوعا لهم منقادة لأوامرهم.

قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الحياةَ الدُّنيَا * فَإِنَّ الجحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنّ الجنَّةَ هِيَ المَأْوَى} [النازعات: ٣٧ - ٤١] .

فالنفس تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا، والرب تعالى يدعو العبد إلى خوفه ونهي النفس عن الهوى، والقلب بين الداعيين، يميل إلى هذا الداعي مرة وإلى هذا مرة، وهذا موضع المحنة والابتلاء.

وقد وصف سبحانه النفس في القرآن بثلاث صفات: المطمئنة، والأمارة بالسوء، واللوامة...

النفس المطمئنة

فالنفس إذا سكنت إلى الله، واطمأنت بذكره، وأنابت إليه، واشتاقت إلى لقائه، وأنست بقربه، فهي مطمئنة، وهي التي يُقال لها عند الموافاة. {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً} [الفجر: ٢٧-٢٨] .

قال ابن عباس: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ}، يقول: المصدِّقة، وقال قتادة: "هو المؤمن، اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله"...

وحقيقة الطمأنينة: السكون والاستقرار، فهي التي قد سكنت إلى ربها وطاعته وأمره وذكره، ولم تسكن إلى سواه، فقد اطمأنت إلى محبته وعبوديته وذكره، واطمأنت إلى أمره ونهيه وخبره، واطمأنت إلى لقائه ووعده، واطمأنت إلى التصديق بحقائق أسمائه وصفاته، واطمأنت إلى الرضا به ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، واطمأنت إلى قضائه وقدره، واطمأنت إلى كفايته وحسْبِه وضمانه، فاطمأنت بأنه وحدَه ربُّها وإلهها، ومعبودها ومليكها، ومالك أمرها كلِّه، وأن مرجعها إليه، وأنها لا غنى لها عنه طرفة عين.

النفس الأمارة بالسوء

وإذا كانت بضد ذلك فهي أمَّارة بالسوء، تأمر صاحبها بما تهواه: من شهوات الغيِّ، واتباع الباطل، فهي مأوى كل سوء، وإن أطاعها قادته إلى كل قبيح وكل مكروه، وقد أخبر سبحانه أنها أمَّارة بالسوء، ولم يقل آمرة، لكثرة ذلك منها، وأنه عادتها ودأبها إلا إذا رحمها الله، وجعلها زاكية تأمر صاحبها بالخير...

النفس اللوامة

وأما اللوامة فاختلف في اشتقاق هذه اللفظة: هل هي من التلوم، وهو التلون والتردد؟ أو من اللوم؟ وعبارات السلف تدور على هذين المعنيين.

قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: ما اللوامة؟ قال: "هي النفس اللئوم".

وقال مجاهد: "هي التي تَندَم على ما فات، وتلوم عليه" إلخ .

وأما من جعلها من التلوُّم فلكثرة ترددها وتلوُّمها، وأنها لا تستقر على حال واحدة. والأول أظهر.

ثلاث حالات في ساعة واحدة

والنفس قد تكون تارة أمَّارة، وتارة لوامة، وتارة مطمئنة، بل في اليوم الواحد والساعة الواحدة يحصل فيها هذا وهذا، والحكم للغالب عليها من أحوالها، فكونها مطمئنة وصفُ مدح لها، وكونها أمارةً بالسوء وصف ذمٍّ لها، وكونها لوامة ينقسم إلى المدح والذم، بحسب ما تلوم عليه.

محاسبة النفس ومخالفتها

والمقصود: ذكر علاج مرض القلب باستيلاء النفس الأمّارة عليه، وله علاجان: محاسبتها، ومخالفتها.

وهلاك القلب من إهمال محاسبتها، ومن موافقتها واتباع هواها، وفي الحديث الذي رواه أحمد وغيره من حديث شداد بن أوس قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : (الكَيِّسُ من دان نفسَه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسَه هواها، وتمنَّى على الله) دان نفسه: أي حاسبها.

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه قال: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا، وزِنوا أنفسَكم قبل أن تُوزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدا أن تُحاسِبوا أنفسَكم اليوم، وَتَزَيَّنُوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية"....

وقال ميمون بن مهران: "لا يكون العبد تقيًّا حتى يكون لنفسه أشدَّ محاسبة من الشريك لشريكه"، ولهذا قيل: النفس كالشريك الخوَّان، إن لم تحاسبه ذهب بمالك".

النفس مثل الشريك

وقد مُثِّلت النفسُ مع صاحبها بالشريك في المال، فكما أنَّه لا يتم مقصود الشركة من الربح إلا بالمشارطة على ما يفعل الشريك أولا، ثم بمطالعة ما يعمل، والإشراف عليه ومراقبته ثانيا، ثم بمحاسبته ثالثا، ثم يمنعه من الخيانة إن اطلع عليه رابعا، فكذلك النفس، يُشارطها أولا على حفظ الجوارح السبعة التي حفظها هو رأس المال، والربح بعد ذلك، فمن ليس له رأس مال، فكيف يطمع في الربح؟ وهذه الجوارح السبعة -وهي العين، والأذن، والفم، واللسان والفرج، واليد، والرِّجل: هي مركب العطب والنجاة، فمنها عطب من عطب بإهمالها، وعدم حفظها، ونجا من نجا بحفظها ومراعاتها، فحفظها أساس كل خير، وإهمالها أساس كل شر، قال تعالى: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيحفظُوا فُرُوجَهُمْ} [النور: ٣٠]، وقال تعالى: {وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجبَالَ طُولا} [الإسراء: ٣٧] وقال تعالى: {وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْم إِن السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً} [الإسراء: ٣٦] وقال تعالى: {وَقُلْ لِعِبادي يَقُولُوا الّتي هِيَ أَحْسَنُ} [الإسراء: ٥٣] وَقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلا سَدِيداً} [الأحزاب: ٧٠] وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ} [الحشر: ١٨] .

فإذا شارطها على حفظ هذه الجوارح انتقل منها إلى مطالعتها والإشراف عليها ومراقبتها، فلا يهملها، فإنه إن أهملها لحظة وقعت في الخيانة ولا بد، فإن تمادى على الإهمال تمادت في الخيانة، حتى يذهب رأس المال كلِّه، فمتى أحس بالنقصان انتقل إلى المحاسبة، فحينئذ يتبيَّن له حقيقة الربح والخسران، فإذا أحَسَّ بالخسران وتيقَّنه استدرك منها ما يستدركه الشريك من شريكه، من الرجوع عليه بما مضى، والقيام بالحفظ والمراقبة في المستقبل، ولا مطمع له في فسخ عقد الشركة مع هذا الخائن، والاستبدال بغيره، فإنه لا بد له منه، فليجتهد في مراقبته ومحاسبته، وليحذر من إهماله.

ما يعين على المحاسبة والمراقبة

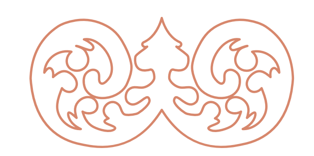
ويعينه على هذه المراقبة والمحاسبة معرفته أنه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها غدا إذا صار الحساب إلى غيره، وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غدا.

ويعينه عليها أيضا: معرفته أن ربح هذه التجارة سكنى الفردوس، والنظر إلى وجه الرب سبحانه، وخسارتها: دخول النار، والحجاب عن الرب تعالى، فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم.

فحقٌّ على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر: أن لا يغفُل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها، وسكناتها وخطراتها وخطواتها، فكل نَفَس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة.

فإضاعة هذه الأنفاس، أو اشتراء صاحبها بها ما يجلِب هلاكه: خسران عظيم لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلا، وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً} [آل عمران: ٣٠] . انتهى كلامه - باختصار

واجب النساء في جهاد الأعداء



النساء شقائق الرجال، وكم من مسلمة لم يقعدها ضعفها وانشغالها بتربية أطفالها وطاعة زوجها عن أن تنال من المعروف ما ناله الكُمّل من الرجال، بل منهن من طرقت أبوابا هي من أخص خصائص الرجال لما فيها من شدّة على النفس، وحاجة إلى القوّة والعزيمة، كباب الجهاد في سبيل الله تعالى.

وإننا اليوم في إطار هذه الحرب على الدولة الإسلامية، وما فيها من شدة وبلاء، يغدو لزاما على النساء المسلمات أن يقمن بواجبهن على كافة الأصعدة في دعم المجاهدين في هذه المعركة، بأن يعددن أنفسهن مجاهدات في سبيل الله، ويتجهزن للذود عن دينهن بأنفسهن فداء لدين الله تبارك وتعالى، وبتحريضهن لأزواجهن وأبنائهن، فيكن كالنساء المجاهدات من الرعيل الأول.

ولبيان أهمية واجبك أختي المسلمة في الصراع المحتدم اليوم بين ملل الكفر وملة الإسلام، لا بد لنا أن نذكرك بالمرأة المجاهدة في العصر الذهبي للإسلام، وما سوف نسوقه لك من نماذج لنساء المسلمين هو أحد الجوانب المضيئة في حياة المرأة المسلمة، أم الأبطال وأخت الأبطال وزوجة الأبطال، وليس غريباً على نساء المسلمين اليوم أن يكون عندهن من الفداء والصدق والحب للدين مثل المجاهدات السابقات اللاتي نصرن الإسلام.

وعسى أن يكون ما سنذكره من صور دافعاً لك -أختي الكريمة- لتقتدي بهن، ليحصل لك من الخير ما حصل لهن وللدين في وقتهن، فهنَّ حقاً من يستحققن أن يقتدى بهن، وليست غيرهن قدوتك أختي المسلمة، كلا، فإن أردت أن تعرفي من أنت فانظري بمن تقتدين، وإذا أردت أن تعرفي حال الأمة فانظري بمن تقتدي نساؤها، فإن كنَّ يقتدين بالعظيمات المجاهدات الصادقات القانتات العابدات الصابرات فقد انتصرت الأمة، وإن كن يقتدين بالكافرات الكاذبات الضالات المضلات المائلات المميلات، فهذه خسارة كبيرة للأمة حقاً.

حرص النساء الصحابيات على القتال

لقد دخلت المرأة ميدان المعركة في قرون الإسلام الأولى ليس ذلك بسبب قلة الرجال في وقتها، ولكنه راجع إلى حبها للأجر والفداء والتضحية في سبيل الله، يبين ذلك ما رواه أحمد عن حشرج بن زياد الأشجعي عن جدته أم أبيه أنها قالت: خرجت مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في غزاة خيبر وأنا سادس ست نسوة، فبلغ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن معه نساء، فأرسل إلينا فقال: (ما أخرجكن؟ وبأمر من خرجتن؟) فقلنا: خرجنا نناول السهام، ونسقي الناس السويق، ومعنا ما نداوي به الجرحى، ونغزل الشَّعر، ونعين به في سبيل الله، قال: (قمن فانصرفن)، فلما فتح الله عليه خيبر أخرج لنا سهاماً كسهام الرجال، قلت: يا جدة ما أخرج لكن؟ قالت: تمراً.

ومن حبها أيضاً للجهاد والفداء لهذا الدين فقد قادها ذلك الحب الصادق إلى طلب خوض الجهاد طلباً صريحاً من الرسول -صلى الله عليه وسلم- فقالت كما في البخاري وسنن النسائي واللفظ له عن عائشة -رضي اله عنها- أنها قالت: قلت: يا رسول الله، ألا نخرج فنجاهد معك، فإني لا أرى عملاً في القرآن أفضل من الجهاد؟ قال: (لا، ولكنَّ أحسن الجهاد وأجمله حج البيت حج مبرور)، وفي رواية أحمد والبخاري قال: (لا، جهادكنَّ الحج المبرور وهو لكنَّ جهاد).

نسيبة الأنصارية

وأول تلك النماذج التي نسوقها لك -أختي الكريمة- لتقتدي بها، لو كانت نساء المسلمين مثلها لما ضاع لنا حق ولا انتهكت لنا حرمة إن شاء الله، إنها المجاهدة الشجاعة التي خرجت يوم كان الجهاد جهاد دفع، إنها أم عمارة نَسِيبةُ بنتُ كعبٍ الأنصارية.

جاء في ترجمتها في سير أعلام النبلاء للذهبي: "شهدت أم عمارة ليلة العقبة وشهدت أحداً والحديبية ويوم حنين ويوم اليمامة وجاهدت وفعلت الأفاعيل، وقُطعت يدها في الجهاد، وقال الواقدي شهدَتْ أُحُداً مع زوجها غزية بن عمرو ومع ولديها، خرجت تسقي ومعها شَنٌّ وقاتلت وأبلت بلاء حسناً، وجُرحت اثني عشر جرحاً.

وكان ضمرة بن سعيد المازني يحدث عن جدته وكانت قد شهدت أحداً، قالت سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (لمقام نَسيبةَ بنتِ كعبٍ اليومَ خيرٌ من مقامِ فلانٍ وفلان)، وكانت يومئذ تقاتل أشد القتال وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها حتى جرحت ثلاثة عشر جرحاً، وضربها ابن قمئة على عاتقها وكان أعظم جراحها، فداوته سنة، ثم نادى منادي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى حمراء الأسد، فشدت عليها ثيابها، فما استطاعت من نزف الدم، رضي الله عنها ورحمها".

ألق ترسك إلى من يقاتل

قال الإمام الذهبي: "قالت أم عمارة: رأيتني، وانكشف الناس عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فما بقي إلا نفر ما يتمون عشرة، وأنا وابناي وزوجي بين يديه نذب عنه، والناس يمرون به منهزمين، ورآني ولا ترس معي فرأى رجلاً مولياً ومعه ترس، فقال: (ألق ترسك إلى من يقاتل)، فألقاه فأخذته فجعلت أترِّسُ به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما فعل بنا الأفاعيل أصحاب الخيل، ولو كانوا رَجَّالة مثلنا أصبناهم إن شاء الله، فأقبل رجل على فرس فيضربني وترَّسْتُ له فلم يصنع شيئاً وولى، فأضربُ عرقوبَ فرسِه فوقع على ظهره فجعل النبي -صلى الله عليه وسلم- يصيح: (يا ابنَ أمِّ عِمارةَ أمَّكَ أمَّكَ)، قالت: فعاونني عليه حتى أوردته شَعوبَ، وهو اسم من أسماء الموت".

قال الإمام ابن كثير: "قال ابن هشام: وقاتلت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية يوم أحد، فذكر سعيد بن أبي زيد الأنصاري أن أم سعد بنت سعد بن الربيع كانت تقول: دخلت على أم عمارة فقلت لها: يا خالة أخبريني خبرك، فقالت: خرجت أول النهار أنظر ما يصنع الناس ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمي عن القوس، حتى خلصت الجراح إلي، قالت: فرأيت على عاتقها جرحا أجوف له غور فقلت لها: من أصابك بهذا؟ قالت: ابن قمئة أقمأه الله، لما ولى الناس عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أقبل يقول: دلوني على محمد لا نجوت إن نجا، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فضربني هذه الضربة" [البداية والنهاية].

من يطيق ما تطيقين يا أم عمارة؟!

وقال الذهبي: "عن عبد الله بن زيد [وهو ابن أم عمارة] قال: جرحتُ يومئذ جرحاً وجعل الدم لا يَرْقَأُ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (اعصب جرحك)، فتُقْبِل أمي إليَّ ومعها عصائب في حِقْوِها، فرَبَطَت جرحي والنبي -صلى الله عليه وسلم- واقف فقال: (انهض بُنيَّ فضارب القوم)، وجعل يقول: (من يطيق ما تطيقين يا أم عمارة؟)، فأقبل الذي ضرب ابني فقال رسول الله: (هذا ضارب ابنك)، قالت: فأعترض له فأضرب ساقه، فبرك، فرأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يتبسم حتى رأيت نواجذه، وقال (استقدت يا أم عمارة)، ثم أقبلنا نَعُلُّه بالسلاح حتى أتينا على نفسِه، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: (الحمد لله الذي ظَفَّرَكِ)".

وقال: "عن عبد الله بن زيد بن عاصم أيضاً، قال: شهدتُ أُحُداً، فلما تفرقوا عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دنوت منه أنا وأمي نذب عنه فقال: (ابن أم عمارة؟) قلت: نعم، قال: (ارمِ)، فرميت بين يديه رجلاً بحجر وهو على فرس، فأصبت عين الفرس، فاضطرب الفرس، فوقع هو وصاحبه، وجعلت أعلوه بالحجارة والنبي -صلى الله عليه وسلم- يتبسم، ونظر إلى جرح أمي على عاتقها فقال: (أمَّكَ أمَّكَ اعصِبْ جُرْحَها، اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة) قلت: ما أبالي ما أصابني من الدنيا".

وقال: "عن محمد بن يحيى بن حبان قال: جُرِحَتْ أم عمارة بأُحُد اثني عشر جرحا، وقطعت يدها يوم اليمامة، وجُرِحَتْ يوم اليمامة سوى يدها أحد عشر جرحا. فقدمت المدينة وبها الجراحة فلقد رئي أبو بكر -رضي الله عنه- وهو خليفة يأتيها يسأل عنها، وابنها حبيب بن زيد بن عاصم هو الذي قطعه مسيلمة، وابنها الآخر عبد الله بن زيد المازني الذي حكى وضوء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قُتل يوم الحرة وهو الذي قَتل مسيلمة الكذاب بسيفه" [سير أعلام النبلاء].

هذه هي المجاهدة الشجاعة الصابرة أم عمارة، وحقاً من يطيق ما تطيق أم عمارة؟ متى كانت هذه قدوتك أختي الكريمة في شجاعتها وفدائها وإقدامها وثباتها وصبرها على هذا الطريق أفلحتِ، بإذن الله.

مناظرة

بين ابن تيمية وبعض أهل البدع

جاء في مجموع الفتاوى لابن تيمية من مناظرة بينه وبين أهل البدع:

وسألني الأمير عما تطلب منهم فقلت: متابعة الكتاب والسنة مثل أن لا يعتقد أنه لا يجب عليه اتباعهما، أو أنه يسوغ لأحد الخروج من حكمهما ونحو ذلك، أو أنه يجوز اتباع طريقةٍ تخالف بعض حكمهما، ونحو ذلك من وجوه الخروج عن الكتاب والسنة التي توجب الكفر. وقد توجب القتل دون الكفر، وقد توجب قتال الطائفة الممتنعة دون قتل الواحد المقدور عليه.

فقالوا: نحن ملتزمون الكتاب والسنة أتنكر علينا غير الأطواق؟

نحن نخلعها. فقلت: الأطواق وغير الأطواق، ليس المقصود شيئا معينا؛ وإنما المقصود أن يكون جميع المسلمين تحت طاعة الله ورسوله -صلى الله تعالى عليه وسلم- فقال الأمير فأي شيء الذي يلزمهم من الكتاب والسنة؟ فقلت: حكم الكتاب والسنة كثير لا يمكن ذكره في هذا المجلس، لكن المقصود أن يلتزموا هذا التزاما عاما ومن خرج عنه ضربت عنقه....

قلت: ومن ذلك الصلوات الخمس في مواقيتها كما أمر الله ورسوله؛ فإن من هؤلاء من لا يصلي ومنهم من يتكلم في صلاته..

فلما أظهروا التزام الكتاب والسنة، وجموعهم بالميدان بأصواتهم وحركاتهم الشيطانية يظهرون أحوالهم، قلت له: أهذا موافق للكتاب والسنة؟ فقال: هذا من الله حال يرِد عليهم فقلت: هذا من الشيطان الرجيم لم يأمر الله به ولا رسوله -صلى الله تعالى عليه وسلم- ولا أحبَّه الله ولا رسوله فقال: ما في السموات والأرض حركة، ولا كذا ولا كذا إلا بمشيئته وإرادته، فقلت له: هذا من باب القضاء والقدر، وهكذا كل ما في العالم من كفر وفسوق وعصيان هو بمشيئته وإرادته وليس ذلك بحجة لأحد في فعله؛ بل ذلك مما زينه الشيطان وسخطه الرحمن.

السياط الشرعية للأحوال الشيطانية

فقال: فبأي شيء تبطُل هذه الأحوال. فقلت: بهذه السياط الشرعية. فأعجب الأمير وضحك وقال: أي والله! بالسياط الشرعية تبطل هذه الأحوال الشيطانية كما قد جرى مثل ذلك لغير واحد، ومن لم يُجب إلى الدين بالسياط الشرعية فبالسيوف المحمدية. وأمسكت سيف الأمير وقلت: هذا نائب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلامه، وهذا السيف: سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن خرج عن كتاب الله وسنة رسوله ضربناه بسيف الله وأعاد الأمير هذا الكلام.

وأخذ بعضهم يقول: فاليهود والنصارى يُقرُّون ولا نقر نحن؟، فقلت: اليهود والنصارى يقرون بالجزية على دينهم المكتوم في دورهم، والمبتدِع لا يُقر على بدعته. فأفحموا لذلك.

و "حقيقة الأمر " أن من أظهر منكرا في دار الإسلام لم يُقر على ذلك، فمن دعا إلى بدعة وأظهرها لم يقر، ولا يقر من أظهر الفجور، وكذلك أهل الذمة لا يُقرون على إظهار منكرات دينهم، ومن سواهم فإن كان مسلما أخذ بواجبات الإسلام وترك محرَّماته، وإن لم يكن مسلما ولا ذمِّيا فهو إما مرتد وإما مشرك وإما زنديق ظاهر الزندقة.

ذم المبتدعة

وذكرت ذم "المبتدعة " فقلت روى مسلم في صحيحه عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه أبي جعفر الباقر عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في خطبته (إن أصدق الكلام كلامُ الله، وخيرَ الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة).

وفي السنن عن العرباض بن سارية قال: خطبَنا رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- خطبةً ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: (أوصيكم بالسمع والطاعة فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة) وفي رواية: (وكل ضلالة في النار).

البدعة شر من المعصية

فقال لي: البدعة مثل الزنا، وروى حديثا في ذم الزنا، فقلت هذا حديث موضوع على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، والزنا معصية والبدعة شر من المعصية، كما قال سفيان الثوري: البدعة أحبُّ إلى إبليس من المعصية؛ فإن المعصية يُتاب منها والبدعة لا يتاب منها.

وكان قد قال بعضهم: نحن نتوِّب الناس، فقلت: مماذا تتوبونهم؟ قال: من قطع الطريق والسرقة ونحو ذلك. فقلت: حالهم قبل تتويبكم خيرٌ من حالهم بعد تتويبكم؛ فإنهم كانوا فساقا يعتقدون تحريم ما هم عليه، ويرجون رحمة الله، ويتوبون إليه، أو ينوون التوبة، فجعلتموهم بتتويبكم ضالين مشركين خارجين عن شريعة الإسلام، يحبِّون ما يبغضه الله ويبغضون ما يحبه الله، وبيَّنت أن هذه البدع التي هم وغيرهم عليها شر من المعاصي.

قلت مخاطبا للأمير والحاضرين: أما المعاصي فمثل ما روى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب أن رجلا كان يُدعى حماراً، وكان يشرب الخمر، وكان يُضحك النبي -صلى الله عليه وسلم- وكان كلما أتي به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جلده الحد، فلعنه رجل مرة. وقال: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: (لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله).

قلت: فهذا رجلٌ كثير الشرب للخمر، ومع هذا فلما كان صحيح الاعتقاد يحب الله ورسوله شهد له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك ونهى عن لعنه.

وأما المبتدع فمثل ما أخرجا في الصحيحين عن علي بن أبي طالب وعن أبي سعيد الخدري وغيرهما - دخل حديث بعضهم في بعض - أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقسم، فجاءه رجل ناتئ الجبين كث اللحية محلوق الرأس، بين عينيه أثر السجود، وقال ما قال. فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: (يخرج من ضئضئ هذا قوم يحقر أحدُكم صلاته مع صلاتهم، وصيامَه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية؛ لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد)...

فلما ظهر قبح البدع في الإسلام وأنها أظلم من الزنا والسرقة وشرب الخمر وأنهم مبتدعون بدعا منكرة فيكون حالهم أسوأ من حال الزاني والسارق وشارب الخمر، أخذ شيخهم عبد الله يقول: يا مولانا لا تتعرَّض لهذا الجناب العزيز - يعني أتباع أحمد بن الرفاعي - فقلت منكرا بكلام غليظ: ويحك؛ أي شيء هو الجناب العزيز وجناب من خالفه أولى بالعز يا ذو الزرجنة تريدون أن تبطلوا دين الله ورسوله، فقال: يا مولانا يحرقك الفقراء بقلوبهم فقلت: مثل ما أحرقني الرافضة لما قصدت الصعود إليهم، وصار جميع الناس يخوفوني منهم ومن شرهم، ويقول أصحابهم إن لهم سرا مع الله فنصر الله وأعان عليهم. وكان الأمراء الحاضرون قد عرفوا بركة ما يسَّره الله في أمر غزو الرافضة بالجبل.

وقلت لهم: يا شبه الرافضة يا بيت الكذب.. وقلت لهم: أنا كافر بكم وبأحوالكم { فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ} [هود: ٥٥].

ولما رددت عليهم الأحاديث المكذوبة، أخذوا يطلبون مني كتبا صحيحة ليهتدوا بها فبذلت لهم ذلك، وأعيد الكلام أنه من خرج عن الكتاب والسنة ضُربت عنقه، وأعاد الأمير هذا الكلام واستقر الكلام على ذلك. والحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده.

النصيحة للمجاهدين...

| تحريض لا تثبيط |

الحمد لله ولي المجاهدين، وناصرهم وهاديهم إلى الصراط المستقيم، والصلاة والسلام على من جاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، وعلى آله وصحبه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

فإن الله -سبحانه وتعالى- قد بيَّن لعباده السبيل الذي يحبه ويرضاه، ودلَّهم على مواطن الخلل والنقص لديهم ليحذروا الخطايا وتكرارها، وقد ذكر الله -تعالى- ما وقع من خطأ من المجاهدين، كما أثنى على ما فعلوه من صواب، كما بعد غزوة بدر حيث أنزل الله -تعالى- سورة الأنفال، لتخبر عن تردد بعض المؤمنين أول الأمر وكراهيتهم الخروج للقتال ومجادلتهم للنبي -صلى الله عليه وسلم- بعدما تبيَّن الحق {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ} [الأنفال: ٥ - ٦].

فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم

وكذلك نزول صدر هذه السورة إثر اختلافهم في تقسيم الأنفال، إذ بيَّن الله -تعالى- لهم أن ما هو أهم من ذلك عنده أن يتقُّوه ولا يسمحوا لأعراض الدنيا أن تكون سبباً لفساد ذات بينهم، ونبَّههم -سبحانه- إلى ضرورة السعي إلى استكمال الإيمان، بذكر صفات المؤمنين التي يحبها ويحب أهلها ويثيبهم أعظم الثواب عليها في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [الأنفال: ١- ٤]، ونزلت آيات كثيرة في شأن غزوة بدر، وفي ثناياها الفوائد الجليلة التي تزكي قلوب المؤمنين وأعمالهم.

منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة

ورغم وجود المنافقين وتربصهم بالمؤمنين وبحثهم عن عثراتهم، نزلت الآيات التي تبين أن الفشل الذي حصل في غزوة أحد إنما هو بسبب معصية بعض المجاهدين لأمر النبي صلى الله عليه وسلم، وأن دافع تلك المعصية كان إرادةَ الحياةِ الدنيا ومتاعِها الزائل. قال تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٥٢]، وما أجملَ وأحسن أن يخبرهم الله بعفوه عنهم في الموضع الذي ينبِّههم فيه على خطئهم...

ثم أخبر -تعالى- أنه عفا عمن تولى يوم التقى الجمعان، وأخبرهم أن سبب توليهم وقوعهم في معاصٍ سابقة أوقعهم الشيطان في الزلل بسببها، {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [آل عمران: ١٥٥].

قل هو من عند أنفسكم

آيات كثيرة تحدثت بالتفصيل عن حِكَم الله -عز وجل- فيما جرى قبل غزوة أحد وأثناءها وبعدها، كان في تلك الآيات الشفاء لقلوب المؤمنين وتساؤلاتهم عن سبب الفشل أمام الكفار في تلك المعركة، قال تعال: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: ١٦٥]، وفي الآيات بيان الحكمة من مقتل عدد من الصحابة، رضي الله عنهم، مع التأكيد على أن إدالة الكفار على المؤمنين لا تدل أبداً على محبة الله للظالمين، {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [آل عمران: ١٤٠]، كما علمهم الله -تعالى- درساً عظيماً لمَّا أُصيب بعض الصحابة بالضعف والوهن عندما أشيع أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قُتل، وأن الواجب الاستمرار في طاعة الله بجهاد أعدائه، ومتابعة السير في نصرة الإسلام {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: ١٤٤].

وأن الموت أو القتل أصاب خيار خلق الله وهم الأنبياء والرسل، عليهم الصلاة والسلام، فلم يمنع ذلك من اتبعوهم بإحسان من الثبات على طريق الدعوة إلى توحيد الله وجهاد أعداء الله لأطرهم على الحق ودفع عدوانهم على الشريعة وأهلها ودارها {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: ١٤٦]، ثم يشير الله -تعالى- إلى أن النصر قادم ولن تحرموا منه رغم ما سبق من أحداث، وأن عليكم أن تقتدوا بالأنبياء وأتباعهم الذين قال الله -تعالى- عنهم: {وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران: ١٤٧ - ١٤٨]، فكأن الله -تعالى- يَعِد الصحابة بالنصر بعد غزوة أحد التي وقع فيها الابتلاء والتمحيص للمؤمنين، ويوصيهم بالصبر والإحسان في طاعته، ويذكرهم بأن يطلبوا من الله مغفرة ذنوبهم وأن ينصرهم على القوم الكافرين.

ولذلك كانوا واثقين من نصر الله -عز وجل- لهم يوم الأحزاب رغم الشدة وتكالب الكفار عليهم وإحاطتهم بهم {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [الأحزاب: ٢٢].

منهج رباني في النصيحة

إننا نحتاج إلى تتبع هذا المنهج الرباني في تذكير المجاهدين، فمن جهة نذكر أسباب تأخر النصر، ومن جهة أخرى نُذكرهم بحِكَم الله -تعالى- الأخرى في إدالة الكفار على المؤمنين، وأن منها أن يصطفي الله -عز وجل- من المجاهدين أناساً لمنزلة الشهادة، وأن يمحِّص الله -تعالى- المؤمنين، ويستخرج منهم عبادة التذلل والاستكانة لله والتضرع إليه، ولعل منها أن يُخرج الله -تعالى- الخَبث من بيننا، ولعل منها أن الله لو نصرنا دائماً لأصابنا الأشر والبطر وطلب العلو في الأرض والركون إلى الدنيا، كما أن الله -تعالى- يحب أن يرانا صابرين ملحين عليه في الدعاء والاستغاثة به -عز وجل- خائفين من ذنوبنا أن تكون سبب هلاكنا وخسارتنا في دنيانا وآخرتنا، وأن نخاف من الوقوع في الزيغ والضلال والانتكاس بعد معرفة الحق واتباعه {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} [آل عمران: ٨]، ومن الحِكم أيضاً أن يُضل الله الكافرين حين يظنون أنفسهم قد انتصروا على الحق والهدى فيزدادوا إثماً وضلالاً، {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} [آل عمران: ١٧٨]، فينتقم الله منهم، وينزل بهم بأسه ويسلِّط عليهم أولياءه الموحدين المجاهدين فيعذبهم بأيديهم.

لقد أمرنا الله -عز وجل- أن نحرض المؤمنين على القتال وعلى الصبر فيه والمصابرة والرباط على أعداء الله، ولا يصح أبداً أن نُقنط المجاهدين من رحمة الله، ولا أن نقول لهم إنكم لن تنتصروا أبداً بسبب وقوع الذنوب والأخطاء من بعضكم، فكما أنه لا يصح أن يُغلِّب المسلم جانب الرجاء بحيث يتجرأ على معاصي الله، فكذلك لا يصح أن يُغلب العبد جانب الخوف إلى أن ييأس من عفو الله ورحمته، فكلا الطرفين مذموم وهو سبب للفتنة والضلال.

بل نقول للمجاهدين: حافظوا على إيمانكم بفعل الواجبات وترك المعاصي، فالإيمان هو سبب نصر الله لنا، مع الخوف من الله ورجاء ما عنده من الرحمة والثواب، وكونوا دوماً أذلة على إخوانكم المؤمنين أشداء على الكفار، وجاهدوا واصبروا واستغفروا الله واطلبوا عفوه ونصره، وأحسنوا ظنكم بالله -تعالى- الذي وعد المؤمنين بالنصر وبخصال أخرى جليلة، بقوله سبحانه: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ١٤ - ١٥].

الحي القيوم

الحمد لله رب العالمين، الذي منّ علينا فأخبرنا بأسمائه وصفاته، ودلنا على كيفية تعظيمه وطلب مرضاته، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين الذي كان أعلم الناس بالله وأخشاهم وأتقاهم له، أما بعد...

فقد تكلمنا عن معرفة الله -جل وعلا- في الحلقة الماضية، وهذا شروع في بيان بعض أسماء وصفاته:

الحي القيوم: قال -سبحانه- واصفاً ذاته في أعظم آيات قرآنه (آية الكرسي): {اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ} [البقرة: ٢٥٥]، جاء في حديث أُبَيِّ بن كعب -رضي الله عنه- قال: قال رسولُ الله، صلى الله عليه وسلم: (يا أبا المنذر، أتدري أيّ آية من كتاب الله معك أعظم؟ قلت: {اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ} [البقرة: ٢٥٥] فضرب في صدري وقال: لِيَهْنِكَ العِلْمُ أبا المنذر) [رواه مسلم].

ففي هذه الآية الكريمة وصف الله -سبحانه- نفسه العلية بأنه حي وقيوم، وهما كما قال ابن كثير، رحمه الله: "{الْحَيُّ الْقَيُّومُ} أي: الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً، القيم لغيره... فجميع الموجودات مفتقرة إليه وهو غني عنها ولا قوام لها بدون أمره"، وهو حي قيوم يدبر الأمور فلا تعتريه صفات النقص كالنوم أو النعاس المنافية لكونه قيوم مدبر لشؤون خلقه، وهو حي غني بنفسه لا يحتاج إلى أحد ويحتاج له كل أحد، سبحانه، {مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: ٥٧ - ٥٨]، كلنا عاجز ضعيف لولا إقامته لنا، وكلنا فقير لولا إغناؤه لنا، وكنا لا شيء فأخرجنا إلى الوجود وخلق أبانا آدم من الطين بيده وذرأ له ذريته من بعده، وقدرنا من أشرف الأجناس فامتنَّ علينا بأن فرض علينا عبادته وحبه وتعظيمه، لم يطلب منا رزقاً ولا هو بحاجة لشيء من عباداتنا ولا ننفعه طرفة عين -جل جلاله- وقد تلطف معنا غاية التلطف في الحديث القدسي فقال: (يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً) [رواه مسلم].

وهو حي لا ينام ولا يسهو ولا يغفل طرفة عين عن تدبير عباده ورزقهم وإجابة دعائهم وتقبل عباداتهم -عزَّ وجلّ- كما قال عنه رسوله، صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل وعمل الليل قبل عمل النهار) [رواه مسلم].

هو -سبحانه- القائم على كل نفس بما كسبت، يعلم سرها ونجواها، ويدبر أمورها ويربيها طوراً فطوراً، ويدلها -بفضله ورحمته- على طريق نجاتها، ثم يجازيها الجزاء الدائر بين العدل والفضل.

قال ابن القيم -رحمه الله- في النونية:

هذا وَمِنْ أوصافه القيّوم
والقيّوم في أوصافه أمران
إحداهما القيّوم قام بنفسه
والكون قام به هما الأمران
فالأول استغناؤه عن غيره
والفقر من كلٍّ إليه الثّاني
والوصف بالقيّوم ذو شأن كذا
موصوفه أيضا عظيم الشانِ

و(الحي القيوم) (الحي) من له الحياة الكاملة العظيمة الجامعة لجميع معاني الذات، و(القيوم) الذي قام بنفسه، واستغنى عن جميع خلقه، وقام بتدبير جميع المخلوقات، فتدخل في هذا الاسم جميع صفات الأفعال الثابتة لله تعالى.

{لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [البقرة: ٢٥٥]، خالق السماوات والأرض وما فيهما، ومالكهما وما فيهما، يتصرف فيها بما يشاء على مقتضى علمه، الذي وسع كل شيء وحكمته البالغة، لا شريك له في ملكه، ولا معاون له من خلقه، بل هو الذي يعينهم ويتولى أمورهم ويقضي حاجاتهم.

ثم تمَّم الله -عز وجل- آية الكرسي في شرحٍ بديعٍ لاسمه (الحي القيوم) واصفاً فقرنا إليه في الآخرة وحاجتنا إلى أن يقبل فينا شفاعة الشافعين المرضيين عنده عز وجل: {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [البقرة: ٢٥٥]، فهو -سبحانه- مالك الشفاعة، ويأذن لمن شاء بالشفاعة عنده لمن شاء، ولا يبتدئ الشافع إلا بعد إذنه، قال ابن تيمية رحمه الله: "قال أبو هريرة له، صلى الله عليه وسلم: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: (من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه) فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله... وحقيقتها أن الله -سبحانه- هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود" فالشافع والمشفوع له تحت أمر الله وإذنه!

ثم تمم {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ} [البقرة: ٢٥٥]، قال ابن كثير: "دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات: ماضيها وحاضرها ومستقبلها كقوله إخباراً عن الملائكة: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} [مريم: ٦٤]، لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله -عز وجل- وأطلعه عليه".

وتمم بيان عظمته وعظمة ملكه بذكر قيوميته وقيامه بأمور الخلق كلها: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [البقرة: ٢٥٥]، ثم بين أن كل هذا التدبير والتصريف للسماوات والأرض لا يتعبه طرفة عين {وَلَا يَئُودُهُ} [البقرة: ٢٥٥]، أي لا يثقله {حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة: ٢٥٥] "بل ذلك سهل عليه يسير لديه وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه، محتاجة فقيرة إليه وهو الغني الحميد، الفعال لما يريد، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو القاهر فوق عباده، الحسيب على كل شيء، الرقيب العلي العظيم، لا إله غيره ولا رب سواه" كما قال ابن كثير.

وللإيمان بهذين الاسمين العظيمين آثار على قلب المؤمن وأعماله، فمنها:

١- تعظيم الله -تعالى- ومحبته والتذلل له وإخلاص العمل له، واجتناب الشرك وجميع ما يسخطه، عز وجل.

٢- التعلق والاستعانة بالله -عز وجل- الذي يدبر أمور جميع الخلائق، وقطع التعلق بالخلق والأسباب، مع عدم إهمال الأخذ بالأسباب الشرعية، فالله -تعالى- هو مسبب الأسباب، والأسباب لا توصل بنفسها بل بأمر الله عز وجل، والخلق لا يملك الواحد منهم لنفسه فضلاً عن غيره ضراً ولا نفعاً.

٣- التوكل على الله -عز وجل- في جلب المنافع الدينية والدنيوية والأخروية، ودفع المضار في الدين والدنيا والآخرة، مع الثقة بالله -تعالى- في تحقيق ذلك، لأنه يعلم حاجات عبده، ويقدر على إصلاح شؤونه كلها، ولأنه -سبحانه- قد وعد عباده المؤمنين بأن يكفي من توكل عليه.

٤- الزهد في الدنيا والسعي لإعمار الآخرة بطلب مرضاة الله وثوابه بالأعمال الصالحة، فالإنسان سيفنى وتفنى متع الحياة الدنيا، وما عند الله من الثواب والنعيم لمن عمل صالحاً هو الباقي.

فسبحان الله ما أعظم شأنه، وما أجهلنا حال عصيانه، وهو خالقنا ورازقنا ومالك رقابنا ونواصينا، وما أشد نُكراننا لجميله إذا تشبثنا بأموالنا وأولادنا، وقبل هذا وذاك أنفسنا ولم نبذلها فداً للدين.

يا حي يا قيوم أنت المرتجى
رزقا وعزاً دونه سنَحَارُ
خضعت لعزتك الخلائق كلها
أنت الكريم ودونك الإعسارُ
يا حي يا قيوم فاقبل عذرنا
من دون عفوك شَقْوة وخَسَارُ

سبحانه... سبحانه... سبحانه...

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

سنستدرجهم من حيث لا يعلمون

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فلما كانت سنن الله الكونية لا تتبدل ولا تتغير، وذلك مصداقا لقوله تعالى {وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} [الأحزاب: ٦٢]، وكان من سنن الله الكونية المكر بالكافرين واستدراجهم وكان هذا الاستدراج من حيث لا يعلمون قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ } [الأعراف: ١٨٢]، قال أحد السلف: الاستدراج: كلما أحدثوا ذنبا أعطاهم الله أ.هـ. فقد يفتح الله عليهم ويمدهم بالغنى والنعيم ويشهد لهذا قوله تعالى {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ} [الأنعام: ٤٤]، وكذا قوله تعالى {كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ} [الأنعام: ١٠٨] وقوله {فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ} [المؤمنون: ٥٤ - ٥٦]، ذكر البغوي في شرح السنة أن ثابتًا البناني سئل عن الاستدراج فقال: مكر الله بالعباد المضيِّعين

نعم الاستدراج مكر الله بالكافرين، وإن كان في ظاهره على الكفار نعمة ولكن في باطنه العذاب والنقمة، وإن كان في ظاهر الأمر على المؤمنين الشدة والابتلاء، إلا أنه في باطنه الرحمة والسعادة والهناء، كيف لا، والله معهم ويكيد ويمكر لهم {وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال: ١٩]، ولما كان هذا الظاهر، أغتر به كل كافر، وهم لا يشعرون أنه فتنة، فحسبوه كرامة ومنة.

فتقلبوا وبغوا ، قال تعالى: {لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]، متاع قليل، نعم إنه قليل فلن يطول أبدًا، فإنما هي مرحلة وستنقضي، وسحابة صيف عن قريب تقشَّع.

وراهن أعداء الله في قديم الزمان وحديثه على استئصال الإسلام من جذوره، كما حاولوا عند بدء ظهوره والدعوة إليه، وذلك لما يرون من قلة أهله وضعفهم في بداية الأمر، وقد تشابهت كلمات أعداء الله، كما تشابهت قلوبهم؛ فكانت كلمات السخرية والاستهزاء، والتقليل من شأن الموحدين هي ديدن الكفار في ماضي الزمان وحاضره، ولئن تبجح الكفار في أيامنا وصاروا يعلنون انتصاراتهم المزعومة على الموحدين وذلك بسلب الأراضي، وأن هؤلاء لا عقول لهم، وغرهم دينهم؛ إذ كيف يستطيعون الحياة والعالم بأسره تخندق ضدهم؛ فلئن قالوا مثل هذه الأقاويل؛ قلنا لهم: شنشنة نعرفها من أخزم، لا تنطلي إلا على من كان عن نور الشريعة وصوت الحق أعمى وأصم.

حال الأنبياء في الصراع مع الباطل

وقد أخبرنا المولى سبحانه عن رهان الكفار الخاسر في استئصال الدين وحملته؛ وذلك بإخباره - سبحانه - عن حال أنبيائه ورسله في هذه المرحلة.

فقد أخبر الله عن قوم نوح أنهم سخروا منه وهدَّدوه بالرجم، وأنه ما تبعه إلا قليل من الضعفاء، فقال الله - حاكياً عنهم - {قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ} [الشعراء: ١١١]، وقالوا: {لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ} [الشعراء: ١١٦]، وكانوا كلما مرَّ على ملأٌ منهم سخروا منه، ومع تطاول الزمان الذي دعاهم فيه، وقلة أنصاره وأعوانه إلا أن الله أراه مصرع الكافرين أمام عينيه؛ فأغرق الله الكافرين، وأنجى نوحًا ومن معه وجعل ذريته هم الباقين، وقال قوم شعيب لشعيب: {قَالُوا يَاشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ } [هود: ٩١]، وقال قوم لوط للوط: {قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ}، وكثيرة هي الآيات التي تحكي عن هذه المرحلة من خلال أخبار الأنبياء والصالحين مع أقوامهم، وفيها تسلية للمتَّبعين لهم، المقتفين آثارهم.

ولنا في الماضي القريب عبرة

وما أشبه الليلة بالبارحة فقد مكر الله بكفار زماننا كما مكر بأسلافهم من قبل؛ فبينما أمة الصليب، وأحفاد القرود يمكرون بأمة الإسلام، ويقسمون البلاد؛ حتى لا يبقى لهم كيان موحد، وبينما أمة الإسلام في سباتها وقد أحاطوها بكمٍ هائل من التحالفات والمُعاهدات التي تكرِّس الذل والتبعية لأمم الكفر، وفي خضم هذا كله مكر الله بهم؛ فقدر العليم القدير أن يقوم ثلة من المجاهدين بقتال الاتحاد السوفيتي؛ ففرحت امريكا وحركت أذنابها في المنطقة للقضاء عليه؛ لتصفو لها الزعامة ولم تدرِ أنه مكر الله بها ؛ فقام سوق الجهاد - على ما فيه من أخلاط - ثم جاءت غزوتا نيويورك وواشنطن؛ فاستشعرت حامية الصليب خطر الجهاد وأهله عليهم؛ فجاءت بحدها وحديدها نحو المسلمين تروم إطفاء نور الله، والقضاء على الجهاد وأهله، ولتعيد المسلمين إلى عهد السبات والذل، فمكر الله بها ومرَّغ أنفها في التراب، وتخطفت جيشها ضربات المجاهدين في كل مكان؛ فأدركت خطر الموقف، وجلل الخطب، وصعوبة المخرج، فأوكلت إلى عملائها في الخليج وراهنوا على إضعاف شوكة المجاهدين، وتشتيت شملهم، تمامًا كحال سلفهم فرعون إذ قال: {سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ} [الأعراف: ١٢٧]، فتنوعت أساليب الطغاة في إضعاف المجاهدين فكان من أساليبهم:

١- استنفار عملائهم من علماء السوء وأحفاد بلعام بن باعورا، لصد شباب الإسلام عن الجهاد بحجة أن الوقت ليس مناسبًا، وبعدم شرعيته في هذا العصر، مرورًا بسيل الشبهات، وتأويل صريح الأحاديث والآيات، وانتهاءً بوصف المجاهدين بالمارقين عن دين الإسلام، وأنهم من أهل الإلحاد.

٢- تشويه السمعة، وإظهار المجاهدين بصورة القتلة المجرمين، وكان لوسائل الإعلام بشتى أنواعها الحظ الأوفر في هذا المكر والكيد الذي يرومون به إطفاء نور الله، وكذبوا، وصدق الله إذ يقول {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [التوبة: ٣٢] .

٣- إغلاق الحدود والمعابر وتضييق الخناق أمام كل محاولة للوصول إلى دار الإسلام وموطن الجهاد كسلفهم من كفار قريش حين منعوا المهاجرين من المدينة.

٤- سدُّ قنوات الدعم المالي للمجاهدين ومحاولة إيقاف عملهم لانعدام المال.

ولما باءت هذه المحاولات -التي راهنوا من خلالها على إضعاف المجاهدين- بالفشل والخسران، عمدوا إلى آخر العلاج وهو الحرب الجوية على دولة الإسلام علانية، ومع هذا المكر الكُبَّار تولى الله حفظ المجاهدين، ويسر لهم كل عسير، فما تنزل بهم نازلة أو ضائقة إلا جاءهم الفرج من حيث لا يحتسبون.

مكر الله بالكافرين

وفي حال انشغال أهل الكفر بإضعاف شوكة المجاهدين، ونشوتهم بالقضاء عليه؛ إذ بأمر الله الذي لا يرد، وحكمه الذي لا معقب له، وبين عشية وضحاها؛ إذ بكتائب المجاهدين وسراياهم تجتث عروش الطواغيت، وتكسر الحدود، وبعملية أشبه بالخيال يسيطر المجاهدون على مناطق شاسعة، ويقيمون فيها حكم الله، ويرجعون سلطانه، ذلَّ فيها الكفر وأهله ، وبخطوة أعجب يعلنون قيام سلطان الله في أرضه وعودة الخلافة الإسلامية؛ فتبددت آمال الطغاة، وشرقت حلوقهم ، وامتلئوا غيظًا وحنقًا ، فأعادوا الكرة من جديد ، تمامًا كما فعل فرعون من قبل، قال تعالى: {فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ} ولكن هيهات فلا تزال من أمة الإسلام طائفة تجاهد في سبيل الله لا يضرها من عاداها ولا من خذلها.

فإنا وربي إن صمتنا برهةً
فالنار في البركان ذات كمون
أظننت أمتنا تموت بضربة
خابت ظنونك فهي شر ظنون
بليت سياطك والعزائم لم تزل
منّا كحدّ الصارم المسنون

والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



قصة حديث

من لا يرحَم لا يُرحم

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (من لا يَرحم لا يُرحم) [متفق عليه].

وهذا الحديث ينبيك عن مكانة الرحمة في الإسلام، وأن المسلم ينبغي أن يكون رحيما بنفسه وبأهله وبالمسلمين جميعا، فمن تخلى عن هذه الصفة فلا ينتظر رحمة الله عزوجل به، وهو شديد الحاجة إليها في كل أحواله لاسيما يوم القيامة.

وقصة الحديث توضح أن الرحمة بالأطفال والأولاد جزء من هذه الرحمة الموصى بها، وتدلك القصة على صورة من صور الرحمة قد لا يفطن لها الكثير.

وفي الحديث الذي ورد به هذا النص النبوي قصة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قبَّل رسول الله صلى الله عليه و سلم الحسن بن علي، وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسا، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه و سلم ثم قال: (من لا يَرحم لا يُرحم) [متفق عليه].

وفي رواية أخرى للبخاري عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من لا يرحم الناس ، لا يرحمه الله عز وجل).

فقد جعل عليه الصلاة والسلام تقبيل الطفل من صور الرحمة المحمودة، محذرا من غلظة القلب وقسوته، وأنها ربما تكون سببا في البعد عن رحمة الله تعالى.



فلينظر أحدكم من يخالل

إن من أسباب التوفيق والفلاح في الدنيا والآخرة حسن اختيار الصُحبة، فالصحبة الصالحة تعين صاحبها على الخير وتدفعه إليه، كما أن الصحبة الفاسدة تُهلك المرء وتدفعه إلى المعاصي، عياذا بالله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل) [رواه أحمد]، وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وسلم: (لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي) [رواه الترمذي، وقال حسن غريب].

وعلى هذا سار سلفنا الصالح رحمهم الله فقد كان أحدهم يختار جلساءه اختيارا، فلا يصاحب إلا من يعينه على الخير والصلاح، ويحذر أشد الحذر من الفساق وأهل الدنيا، ويحذّر منهم.

والمجاهد في سبيل الله أكثر من يعنيه هذا الأمر، فصحبته ورفاقه لهم أكبر الأثر في صلاحه وثباته بإذن الله، فإن كان أصحابه من أهل التقوى والصلاح وأهل الرباط والقتال وأهل التثبيت والتفاؤل الحسن، فثباته أرجى بإذن الله، فإن سمع بصوله كان من أول الملبين وإن احتاجه اخوانه بعمل لم يقصر ولم يتخاذل، وإن اشتدت عليه الخطوب صبر وثبت بتوفيق الله له ثم بثبات إخوانه معه، أما إن كان اصحابه من أهل الدنيا اللاهثين خلفها الكارهين للموت في سبيل الله، فمجالسهم تخذيل وإرجاف وذكر للشرور والآفات التي تقعد الإنسان وتذهب همته وتنقض عزيمته، فإن استنفر لم ينفر وصار الجبن والخوف وحب الدنيا شعاره ودثاره.

إن تأثير الأخلاء على بعضهم قد لا يكون ملحوظا إلا على المدى الطويل، فقد يحدث المرء نفسه بأن بقاءه مع بعض صحبه الذين لا يعينون على الخير لا مضرة فيه، ولا يدري أن أساسه يُهدم يوما بعد يوم دون شعور منه، فإذا حضرت الملمّات لم يجد ما يرتكز عليه، وكم من رجل انتكس على عقبيه، وقد كان من الخيار الصالحين، فتفتش عن أمره وسبب نكوصه تجد له صحبة لا تعين على الخير ولا تثبت عليه، بل تخذّله عنه، وتدلّه على الشر، وتحثه عليه.

وعلى المرء ان يحذر من نفسه أيضا فقد يكون هو صاحب التأثير السيء على صَحبه ورفاقه، فيذهب عزيمتهم ويخذّلهم وهو لا يشعر، يجلس مع أخيه فيذكر له من الأمور والقصص والحوادث ما يخذّله، وقد يكون صاحبه في وقت قد ضعف فيه إيمانه، فينتكس، وينهزم عند اللقاء، أو يخرج من جماعة المسلمين، فيكون بذلك رجل سوء يفرق ولا يجمع، يخذِّل ولا يحرض، علم بذلك أم لم يعلم، فليس كل ما يعلم يقال، فإن كان صاحب همة عالية لا تؤثر فيه كثير من الأمور، فليس كل الناس على هذا الحال، فرب كلمة ينتكس بها رجل، يحمل وزره من قالها، والعياذ بالله.

قصة حديث

إنما الأعمال بالنيات

عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله يقول: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) [رواه البخاري ومسلم].

وهذا الحديث من الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، قال أحمد بن حنبل رحمه الله: "ليس في أخبار النبي صلى الله عليه وسلم أجمع وأغنى فائدة من هذا الحديث".

وقال الشافعي رحمه الله: "يدخل في سبعين باباً من أبواب العلم"، ولأهميته ابتدأ به الإمام البخاري صحيحه.

وتذكر الروايات أن لهذا الحديث قصة، وهي قصة تزيد لك المعنى إيضاحا، وتقربه.

قال البغوي رحمه الله: "ويروى أن هذا جاء في رجل كان يخطب امرأة بمكة، فهاجرت إلى المدينة، فتبعها رغبة في نكاحها، فقيل له: مهاجر أمِّ قيس".

وقال ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى: "مراده -صلى الله عليه وسلم- بالنية، النية التي في القلب، دون اللسان باتفاق أئمة المسلمين: الأئمة الأربعة، وغيرهم.

وسبب الحديث يدل على ذلك، فإن سببه أن رجلا هاجر من مكة إلى المدينة ليتزوج امرأة يقال لها: أم قيس، فسمي مهاجر أم قيس. فخطب النبي -صلى الله عليه وسلم- على المنبر، وذكر هذا الحديث. وهذا كان نيته في قلبه".

وفائدة القصة أن هذا الرجل هاجر فعلا، فانتقل من دار الكفر إلى دار الإسلام، ولم تكن هجرته ابتغاء مرضاة الله، بل طلب التزوج من أمرأة أراد الزواج بها، فلما هاجرت هاجر وراءها، ولذلك لم يكن من المهاجرين في سبيل الله.

فليصحح كل مسلم نيته، ويتأكد أنه يبتغي من أي عمل يقدم عليه وجه الله، ولا يشرك في هذه النية أشياء أخرى، فيحبط بسبب ذلك ثواب عمله.



فِرَّ إلى الله

إذا نزل بك الكرب واشتد حولك الخطب وأحاطت بك الُلمات وجهدت في البحث عن طريق للنجاة، فاعلم -أخي- أن الطريق هو الفرار إلى الله ربِّ الأرض والسماوات،خالق الليل والنهار، من هو كل يوم في شأن.

نعم فِرَّ إلى الله، فهو من قدَّر الأقدار، وهو من يجيب المضطر إذا دعاه، ومن أقوى منه تلجأ إليه؟! أو أشد بأسا تحتمي بحماه؟!

فِرَّ إلى الله بالتضرع إليه والانكسار بين يديه، فِرَّ إليه بالصلاة والذكر، وقد كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول عند الكرب: (لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم)، وأمرك ربك بالاستعانة بالصلاة فقال: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة: ٤٥].

فِرَّ إليه بالتوبة والاستغفار مما بدر منك في حقه: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال: ٣٣].

فِرَّ إليه باتباع أمره، والانتهاء عن نهيه، بالثبات والصبر على دينك وجهادك، والأخذ بالأسباب، واليقين بصدق وعده، قال تعالى: {فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ} [الذاريات: ٥٠].

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: "فإذا فرَّ العبد إلى الله فإنما يفر من شيء، إلى شيء وُجد بمشيئة الله وقدره، فهو في الحقيقة فارٌّ من الله إليه، ومن تصور هذا حق تصوُّره فهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم: (وأعوذ بك منك) [صحيح مسلم]، وقوله: (لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك) [رواه الشيخان]، فإنه ليس في الوجود شئ يُفرُّ منه ويستعاذ منه ويلجأ منه إلا هو مِن الله خلقاً وإبداعا، فالفارُّ والمستعيذ: فارٌّ مما أوجبه قدر الله ومشيئته وخلقه، إلى ما تقتضيه رحمتُه وبِره ولطفه وإحسانه" [الرسالة التبوكية].

وإياك إياك أن تتبع الشيطان في طريق فيه هلاكك وسوء عاقبتك، فلقد أمرك ربك أن تجاهد عدوه وأمرك بالصبر على ذلك، وحذرك من الفرار، وبين لك الطريق وأعلمك بالعاقبة ودلَّك على درب النجاة.

قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } [البقرة: ١٥٥ - ١٥٦]، فأخبرهم بقدره عليهم وهو البلاء، ودلَّهم على طريق النجاة وهو الصبر.

ولك أسوة حسنة بالأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين، فلقد علموا طريق نجاتهم وسلكوه، فكانت لهم العاقبة وأهلك الله عدوهم ونصرهم عليهم.

فهذا نبي الله موسى لما أدركه فرعون وجنوده من خلفه، والبحر من أمامه، وقال أصحابه إنا لمدركون، أبى ذلك ودلهم على طريق نجاته الذي لايخيب، {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ} [الشعراء: ٦١ - ٦٣].

وهذا رسول الله محمد -صلى الله عليه وسلم- يخِرُّ راكعا لله -عز وجل- يوم بدر، وقد حشَّد المشركون حشدهم، وجاؤوا ببهرجهم، يحاربون الله ورسوله، فسلك رسول الله طريقه، وتضرع إلى خالقه وألح عليه في الدعاء حتى أمده الله بجنده ونصره.

فدونك هذا الطريق فالزمه، وإياك أن تحيد عنه، واعلم أن الله نعم المولى ونعم النصير.



سبب نزول

{فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يُحَكمُوك فيما شَجر بينهم}

قال الله تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: ٦٥].

والآية كما هو واضح تنفي الإيمان عمَّن لم يجعل الرسول -صلى الله عليه وسلم- حَكَما في كل ما يحصل من خلافات وقضايا، ثم تشترط بعد ذلك الانقياد والتسليم لحكمه.

وجاء في سبب نزول هذه الآية ما رواه البخاري في صحيحه عن عروة [يعني: ابن الزبير] قال: خاصم الزبير رجلا من الأنصار في شريج من الحرة، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: (اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك)، فقال الأنصاري: يا رسول الله، أن كان ابن عمتك؟ فتلون وجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم قال: (اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك). واستوعى النبي -صلى الله عليه وسلم- للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري، كان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة، قال الزبير فما أحسب هذه الآيات إلا نزلت في ذلك: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ} [النساء: ٦٥].

وقال ابن كثير في تفسيره: "يُقسم -تعالى- بنفسه الكريمة المقدسة: أنه لا يؤمن أحد حتى يُحكِّم الرسولَ -صلى الله عليه وسلم- في جميع الأمور، فما حكَم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنا وظاهرا، ولهذا قال: {ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} أي: إذا حكَّموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجا مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليما كُلِّيًّا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة، كما ورد في الحديث: (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)".

فهذا من لم يرض بحكم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الذي هو حكم الله تعالى، فما ظنك بمن نحَّى كتاب الله -تعالى- وأحكامه، وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- جانبا، وراح يحكِّم هواه، وزبالات أفكار البشر، والعياذ بالله؟!



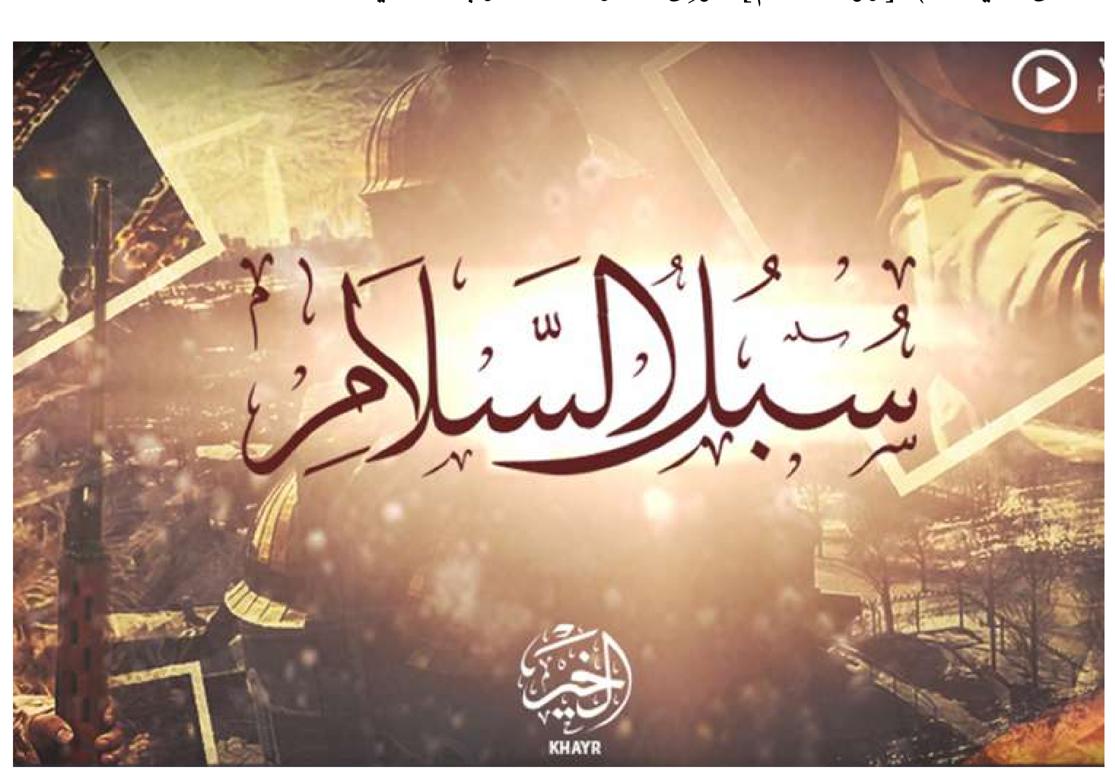
احفظ أموال المسلمين

لقد منَّ الله -تعالى- علينا بنعم عظيمة أعظمها الإسلام، ثم منَّ علينا بأن أقام لنا دولة الخلافة وأنعم علينا فيها بالغنائم والفيء، قال تعالى: {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنفال: ٦٩]، وقال عن الفيء: {وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الحشر: ٦]، والنعم كلها ابتداؤها ودوامها من الله عز وجل، قال تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} [النحل: ٥٣]، وقد وعد الله -تعالى- الشاكرين بأن يزيدهم من نعمه، وتوعد من يَكفر النعم بأليم عذابه: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: ٧]، والصبر عند البلاء والشكر عند النعماء من صفات المؤمنين، قال صلى الله عليه وسلم: (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له) [رواه مسلم]، ومِن شُكر النعم أن نتذكر أنها من الله، ولا ننسبها لأنفسنا أو لاستحقاقنا.

ومِن شُكر الله على النعم أن نحافظ عليها وألا نسرف فيها، فالله -تعالى- لا يحب المسرفين، وقد أثنى الله -تعالى- على عباده الذين نسبهم إلى اسمه الرحمن (عباد الرحمن) فذكر من صفاتهم أنهم {إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [الفرقان: ٦٧]، وهذا يشمل مالهم الخاص والمال العام الذي يؤتمنون عليه، بل الحفاظ على المال العام واستعماله في محله أولى وأحرى من المال الخاص، والذنب في التفريط فيه أكبر، لأنه مال المسلمين، وبه قوامهم وكمال مصالحهم، كما أنه يستعمل في الجهاد ومقارعة أعداء الله، وتعويض ما يتلف منه ليس متيسراً في جميع الأوقات، فأقل ما يجب على المسلم أن يُعامل المال العام كما يعامل ماله الخاص، إن لم يكن أكثر حرصاً.

وتذكَّر أخي أن الذنوب الخاصة بينك وبين الله قد يغفرها الله لك، وأما حقوق العباد فهي مبنية على المشاحة، ولا بد أن يأخذوا حقوقهم ممن يهضمها ويفرِّط فيها، ومما يبين لك خطورة التهاون في حقوق العباد، أن الشهيد مع ما له من المنزلة والكرامة عند الله إلا أنه يَغفر له كل الذنوب إلا الدَّين، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (يُغفر للشهيد كلُّ ذنب إلا الدَّين) [رواه مسلم].

نسأل الله أن يفتح لنا ويرزقنا شكر نعمه واستعمالها فيما يرضيه، والحمد لله رب العالمين.



المعاصي سبب المصائب

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر):

ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا وبما شهد به في كتابه أن المعاصي سبب المصائب، فسيئات المصائب والجزاء: هي من سيئات الأعمال، وأن الطاعة سبب النعمة، فإحسان العمل سبب لإحسان الله، قال تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} [النساء: ٧٩]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ} [آل عمران: ١٥٥] ، وقال: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ} [آل عمران: ١٦٥]، وقال: {أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى: ٣٤] ، وقال: {وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ} [الشورى: ٤٨]، وقال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال: ٣٣].

ما عاقب الله به الأمم السابقة لمعاصيهم

وقد أخبر الله سبحانه بما عاقب به أهل السيئات من الأمم، كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وقوم فرعون - في الدنيا. وأخبر بما سيعاقبهم به في الآخرة، ولهذا قال مؤمن آل فرعون: {يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [غافر: ٣٠ - ٣٣]، وقال تعالى: {كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ} [القلم: ٣٣]، وقال: {سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ} [التوبة: ١٠١]، وقال: {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [السجدة: ٢١]، وقال: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ} [الدخان: ١٠]، إلى قوله: {يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ} [الدخان: ١٦] .

عقوبة أهل السيئات في الدنيا والآخرة

ولهذا يُذكر الله في عامة سور الإنذار ما عاقب به أهل السيئات في الدنيا، وما أعده لهم في الآخرة، وقد يذكر في السورة وعد الآخرة فقط، إذ عذاب الآخرة أعظم، وثوابها أعظم، وهي دار القرار، وإنما يذكر ما يذكره من الثواب والعقاب في الدنيا تبعا، كقوله في قصة يوسف: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يوسف: ٥٦ - ٥٧]، وقال: {فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ} [آل عمران: ١٤٨]، وقال: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [النحل: ٤١ - ٤٢]، وقال عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: {وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} [العنكبوت: ٢٧] ....

و في سورة " القلم ". ذكر قصة أهل البستان الذين منعوا حق أموالهم وما عاقبهم به، ثم قال: {كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [القلم: ٣٣] .

وكذلك في سورة التغابن قال: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [التغابن: ٥ - ٦] ثم قال: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } [التغابن: ٧].

وكذلك في سورة: (ق) ذكر حال المخالفين للرسل؛ وذكر الوعد والوعيد في الآخرة.

وكذلك في سورة (القمر)، ذكر هذا وهذا، وكذلك في سور (حم) مثل حم غافر، والسجدة، والزخرف، والدخان، وغير ذلك، مما لا يحصى....

اختلاف الناس في الأمر والنهي سب التفرق والاختلاف

وإذا كان الكفر والفسوق والعصيان سبب الشر والعدوان، فقد يذنب الرجل و الطائفة ويسكت آخرون عن الأمر والنهي، فيكون ذلك من ذنوبهم، ويُنكر عليهم آخرون إنكارا منهيا عنه فيكون ذلك من ذنوبهم، فيحصل التفرق والاختلاف والشر، وهذا من أعظم الفتن والشرور قديما وحديثا، إذ الإنسان ظلوم جهول، والظلم والجهل أنواع، فيكون ظلم الأول وجهله من نوع، وظلم كلٍّ من الثاني والثالث وجهلهما من نوع آخر وآخر.

ومن تدبر الفتن الواقعة رأى سببها ذلك، ورأى أن ما وقع بين أمراء الأمة وعلمائها ومن تبعهم من العامة في الفتن هذا أصلها، ويدخل في ذلك أسباب الضلال والغي: الأهواء الدينية والشهوانية، والبدع في الدين والفجور في الدنيا، وذلك أن أسباب الضلال والغي التي هي البدع في الدين، والفجور في الدنيا مشتركة: تعم بني آدم، لما فيهم من الظلم والجهل، فيُذنب بعض الناس بظلم نفسه وغيره، بفعل الزنا أو "التلوط" أوغيره، أو بشرب الخمر، أو ظلم في المال بخيانة أو سرقة أو غصب، و نحو ذلك.

المعاصي مشتهاة في الطبع

ومعلوم أن هذه المعاصي وإن كانت مُستقبحة مذمومة في العقل والدين، فهي مشتهاة في الطباع، ومن شأن النفوس أنها لا تحب اختصاص غيرها بشيء وزيادته عليها، لكن تريد أن يحصل لها ما حصل له، وهذا هو الغبطة التي هي أدنى نوعي الحسد، فهي تريد الاستعلاء على الغير، والاستئثار دونه، أو تحسده وتتمنى زوال النعمة عنه، وإن لم يحصل، ففيها من إرادة العلو والفساد والاستكبار والحسد ما يتقاضاها أن تختص عن غيرها بالشهوات، فكيف إذا رأت الغير قد استأثر عليها بذلك واختص بها دونها؟ فالمعتدل منهم في ذلك: الذي يحب الاشتراك والتساوي، وأما الآخر فظلوم حسود.

وهذان يقعان في الأمور المُباحة، والأمور المحرمة لحق الله، فما كان جنسه مباحا من أكل وشرب، ونكاح، ولباس، وركوب، وأموال إذا وقع فيها الاختصاص حصل بسببه الظلم، والبخل والحسد.

الشح سبب الغرور

وأصلهما الشح، كما في الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (إياكم والشح! فإنه أهلك من كان قبلكم: أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا)

ولهذا قال الله تعالى في وصف الأنصار: { وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ{ الحشر: ٩]، أي: من قبل المهاجرين: {يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا} أي: لا يجدون الحسد مما أوتي إخوانهم من المهاجرين: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}، ثم قال: {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} .

وسُمع عبد الرحمن بن عوف، وهو يطوف بالبيت يقول: "رب قني شح نفسي، رب قني شح نفسي" فقيل له في ذلك فقال: "إذا وقيت شح نفسي فقد وقيت البخل والظلم والقطيعة"، أو كما قال.

فهذا الشح -الذي هو شدة حرص النفس- يوجب البخل بمنع ما عليه، والظلم بأخذ مال الغير، ويوجب قطيعة الرحم، ويوجب الحسد -وهو كراهة ما اختص به الغير وتمني زواله- والحسد فيه بخل وظلم، فإنه بخل بما أعطيه غيره، وظلَم بطلب زوال ذلك عنه.

فإذا كان هذا في جنس الشهوات المباحة، فكيف بالمحرمة، كالزنا وشرب الخمر ونحو ذلك؛ وإذا وقع فيها اختصاص فإنه يصير فيها نوعان:

أحدهما: بغضها لما في ذلك من الاختصاص والظلم، كما يقع في الأمور المباحة الجنس.

والثاني: بغضها لما في ذلك من حق الله.

انتهى كلامه رحمه الله - باختصار

وقفات مع الرؤى والأحلام

الحمد لله الذي جعل من الرؤى مبشرات تسرُّ المؤمن وتعينه على الثبات، والصلاة والسلام على رسوله القائل "لم يبقَ من النبوة إلا المبشرات قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة" [رواه البخاري]، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد...

فإن من الأمور التي ينبغي وضعها في مواضعها الصحيحة الرؤى التي نراها في منامنا، وسنذكر في هذه المقالة -إن شاء الله- أحكاماً شرعية تصحح مفاهيمنا عن الرؤى، ومنها أنه لا شك أن الوحي قد انقطع بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يصح أن تُؤخذ من الرؤى أحكام شرعية بعد وفاة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولحوقه بربه عز وجل، فعن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قال: "كشف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- السِّتارة، والناس صُفوفٌ خلف أبي بكر، فقال: (أيها الناس، إنه لم يبقَ من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة، يراها المسلم، أو تُرى له)" [رواه مسلم].

الرؤى الصالحة مبشرات

والرؤيا الصالحة من البشارات التي يُبشَّر بها المؤمن في الدنيا، فقد قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسير البشرى في الحياة الدنيا في قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [يونس: ٦٢ - ٦٤]: "إن الله -تعالى ذكره- أخبر أن لأوليائه المتقين البشرى في الحياة الدنيا، ومن البشارة في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له".

أقسام الرؤى

وتُقسم الرؤى إلى ثلاثة أقسام: رؤيا بشرى من الله، وحديث نفس، ورؤيا تحزين من الشيطان، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا: أصدقكم حديثا... والرؤيا ثلاث، فالرؤيا الصالحة: بشرى من الله، ورؤيا: تحزين من الشيطان، ورؤيا: مما يحدِّث المرء نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره، فليقم فليصلِّ، ولا يحدث بها الناس) [رواه مسلم وبعضه في البخاري].

ومعنى اقتراب الزمان: قرب قيام الساعة على الصحيح، فينبغي للمسلم أن يضع في اعتباره هذه الأقسام الثلاثة للرؤى، فإن رأى في منامه ما كان يفكر فيه ويشغل باله فقد تكون رؤياه من حديث النفس، وإن رأى ما يسوؤه ولا بشارة فيه فليحمله على أنه من أذى الشيطان ليحزنه، كما جاء في حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- أن أعرابيا قال: "يا رسول الله، رأيت في المنام كأن رأسي ضُرِب فتدحرج، فاشتددت في أثره"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تُحدِّث الناس بتلعب الشيطان بك في منامك) [رواه مسلم].

علاقة الرؤيا بأول تعبير لها

وقد استدل البخاري -رحمه الله- بحديث الرؤيا التي عبرها أبو بكر -رضي الله عنه- على أن الرؤيا لا تقع على أول تعبير تعبر به إذا لم يكن التعبير صوابا، فقال: "باب من لم ير الرؤيا لأول عابر إذا لم يصب"، وتحت التبويب أسند حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رجلا أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: "إني رأيت الليلة في المنام ظلة تنطُف السمن والعسل، فأرى الناس يتكففون منها، فالمستكثر والمستقل، وإذا سببٌ واصلٌ من الأرض إلى السماء، فأراك أخذت به، فعلوت، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فانقطع ثم وصل"، فقال أبو بكر: "يا رسول الله، بأبي أنت والله، لتَدَعَنِّي فأعبرها"، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (اعبرها)، قال: "أما الظلة فالإسلام، وأما الذي ينطف من العسل والسمن فالقرآن، حلاوته تنطف، فالمستكثر من القرآن والمستقل، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض فالحق الذي أنت عليه، تأخذ به فيعليك الله، ثم يأخذ به، رجل من بعدك فيعلو به ثم يأخذ به رجل آخر فيعلو به، ثم يأخذه رجل آخر فينقطع به ثم يوصل له، فيعلو به، فأخبرني يا رسول الله، بأبي أنت أصبت أم أخطأت؟"، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أصبت بعضا، وأخطأت بعضا)، قال: "فوالله يا رسول الله، لتحدثني بالذي أخطأت"، قال: (لا تقسم) [رواه البخاري]، وفي الحديث دلالة على أن تعبير الرؤى هو من الاجتهاد الذي قد يصيب وقد يخطئ أو قد يصيب بعضه ويخطئ بالآخر، وقد يقول قائل فما معنى حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الرؤيا تقع على ما تعبر و مثل ذلك رجل رفع رجله فهو ينتظر فهو متى يضعها فإذا رأى أحدكم رؤيا فلا يحدث بها إلا ناصحا أو عالما)، فيقال له أن لا إشكال في المعنى لأن الرؤيا تقع على ما تعبر من الصحيح في تأويلها لا على تأويل من جانب الصواب كما مر معنا في عنوان الباب الذي أورده الإمام البخاري في صحيحه، وفي هذا الحديث إرشاد نبوي وحث على سؤال العالم بالتأويل أو الناصح في تعبير الرؤى.

على من تُقص الرؤيا

وكذلك دلت قصة يوسف -عليه السلام- على أن الأصل ألا تُقَصَّ الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح أو من يخشى منه الكيد والحسد، وذاك في قوله تعالى: {قَالَ يَابُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [يوسف: ٥]، ومن فهم من رؤيا أنها مصيبة تنزل بالرائي فلا يجوز أن يجامله فيكذب في تأويلها، وله أن يتهرب من تفسيرها دون كذب، قيل لمالك، رحمه الله: "أَتُعَبِّر الرؤيا على الخير وهي عنده على الشر؟"، فقال: "معاذ الله، أبالنبوة يتلعب؟ هي من أجزاء النبوة".

زمن وقوع الرؤيا

وقد يخطئ بعض الناس في تعبير الرؤى من حيث زمان وقوعها أو مكانه أو غير ذلك، قال ابن كثير -رحمه الله- في تفسيره: "كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد أُري في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- في ذلك، فقال له فيما قال: "أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟" قال: (بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا) قال: "لا"، قال: (فإنك آتيه ومُطَّوِّف به). وبهذا أجاب الصديق -رضي الله عنه- أيضا حذو القذة بالقذة؛ ولهذا قال تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ} [الفتح: ٢٧].

من تعبير النبي صلى الله عليه وسلم للرؤى

ومن أمثلة تعبير النبي -صلى الله عليه وسلم- للرؤى ما جاء عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- أنه قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (رأيت الليلة -وفي رواية: رأيت ذات ليلة- فيما يرى النائم، كأنا في دار عقبة بن رافع، وأتينا برُطَب من رُطَب ابن طاب، فأوَّلْتُ: أن الرفعة لنا في الدنيا، والعاقبة في الآخرة، وأن ديننا قد طاب) [رواه مسلم]، وفي هذا المثال بعض العلم النبوي يوضح أن الكلمات تكون أحيانا مفاتيح للتعبير، فاسم عقبة فُسّر بالعاقبة في الآخرة، واسم رافع فُسّر بالرفعة في الدنيا، وابن طاب فُسّر بأن ديننا قد طاب.

وموضوع الرؤى لا تكفيه هذه المساحة، ولكن ما يجدر ذكره أن رؤى الأنبياء وحي كرؤيا نبي الله إبراهيم أنه يذبح ابنه، ومنها أن رؤيا الكافر قد تصدق كما في رؤيا الملك قبل أن يسلم على يدي يوسف عليه السلام.

وعلم تعبير الرؤى من نعم الله على من أراده الله بهذا الفضل، وهي نعمة تستوجب الشكر، أخبر -تعالى- أن يعقوب قال لابنه يوسف، عليهما السلام: {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [يوسف: ٦].

ونصلي ونسلم على رسول الله ومصطفاه، والحمد لله رب العالمين.



علامات مرض القلب وصحته

قال ابن قيم الجوزية -رحمه الله- في كتاب (إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان):

كل عضو من أعضاء البدن خُلق لفعل خاص به ، كمالُه في حصول ذلك الفعل منه، ومرضه أن يتعذر عليه الفعل الذى خُلق له، حتى لا يصدر منه، أو يصدر مع نوع من الاضطراب.

فمرض اليد: أن يتعذَّر عليها البطش، ومرض العين: أن يتعذر عليها النظر والرؤية، ومرض اللسان: أن يتعذر عليه النطق، ومرض البدن: أن يتعذر عليه حركته الطبيعية أو يضعف، ومرض القلب: أن يتعذر عليه ما خُلق له من المعرفة بالله، ومحبته، والشوق إلى لقائه، والإنابة إليه، وإيثار ذلك على كل شهوة.

من لم يعرف ربه

فلو عرف العبد كلَّ شيء ولم يعرف ربه، فكأنه لم يعرف شيئا، ولو نال كلَّ حظ من حظوظ الدنيا ولذاتها وشهواتها، ولم يظفر بمحبة الله والشوق إليه والأنس به، فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين، بل إذا كان القلب خاليا عن ذلك عادت تلك الحظوظ واللذات عذابا له ولا بد...

وكل من عرف الله أحبه، وأخلص العبادة له ولا بدَّ، ولم يؤثر عليه شيئا من المحبوبات فمن آثر عليه شيئا من المحبوبات، فقلبه مريض، كما أن المعدة إذا اعتادت أكل الخبيث وآثرته على الطيب سقطت عنها شهوة الطيِّب، وتعوَّضت بمحبة غيره.

قلب مريض وصاحبه لا يعلم

وقد يمرض القلب ويشتد مرضه، ولا يعرف به صاحبُه، لاشتغاله وانصرافِه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك أنه لا تؤلِمه جراحات القبائح، ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة، فإن القلب إذا كان فيه حياة يألم بورود القبيح عليه، ويألم بجهله بالحق بحسب حياته، وَمَا لِجُرْحٍ بَمِّيتٍ إيلامُ.

لا يصبر على الدواء

وقد يشعر بمرضه، ولكن يشتد عليه تحمُّل مرارة الدواء والصبر عليها، فيؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء، فإن دواءه في مخالفة الهوى، وذلك أصعب شيء على النفس، وليس لها أنفع منه. وتارة يوطِّن نفسه على الصبر، ثم ينفسخ عزمه، ولا يستمر معه لضعف علمه وبصيرته وصبره، كمن دخل في طريق مَخوف مُفض إلى غاية الأمن، وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضى الخوف وأعقبه الأمن، فهو محتاج إلى قوة صبر، وقوة يقين بما يصير إليه، ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق، ولم يتحمَّل مشقتها، ولا سيما إن عدِم الرفيق، واستوحش من الوحدة، وجعل يقول: أين ذهب الناس؟ فلي بهم أسوة.

حال أكثر الخلق

وهذه حال أكثر الخلق، وهى التي أهلكتهم، فالبصير الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ولا من فقده إذا استشعر قلبُه مرافقة الرعيل الأول، {الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: ٦٩]، فتفرُّدُ العبد في طريق طلبه دليل على صدق الطلب....

وما أحسن ما قال أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة في كتاب (الحوادث والبدع): "حيث جاء به الأمر بلزوم الجماعة: فالمراد به لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسِّك به قليلا والمخالف له كثيرا"، لأن الحق هو الذى كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم.....

والمقصود أن من علامات أمراض القلوب عدولُها عن الأغذية النافعة الموافقة لها إلى الأغذية الضارة، وعدولُها عن دوائها النافع إلى دائها الضار، فهنا أربعة أمور: غذاء نافع، ودواء شاف، وغذاء ضار، وداء مهلك.

القلب الصحيح

فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافي على الضارِّ المؤذى، والقلب المريض بضد ذلك.

وأنفع الأغذية: غذاء الإيمان، وأنفع الأدوية: دواء القرآن، وكلٌّ منهما فيه الغذاء والدواء.

ومن علامات صحته (يعني القلب) أيضا: أن يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة، ويحلَّ فيها، حتى يبقى كأنه من أهلها وأبنائها، جاء إلى هذه الدار غريبا يأخذ منها حاجته، ويعود إلى وطنه، كما قال النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- لعبد الله بن عمر: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعدَّ نفسك من أهل القبور) [رواه أحمد، والترمذي].

فحيَّ على جنات عدن فإنها
منازلك الأولى وفيها المخيَّم
ولكننا سبيُ العدو، فهل ترى
نعود إلى أوطاننا ونسلَّم؟

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: "إن الدنيا قد ترحَّلت مدبرة، وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة، ولكل منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل".

وكلما صحَّ القلب من مرضه ترحل إلى الآخرة، وقرُب منها حتى يصير من أهلها، وكلما مرض القلب واعتلَّ آثر الدنيا واستوطنها، حتى يصير من أهلها.

ومن علامات صحة القلب: أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى يُنيب إلى الله ويخبت إليه، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه، الذى لا حياة له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به، فبه يطمئن، وإليه يسكن، وإليه يأوي، وبه يفرح، وعليه يتوكل، وبه يثق، وإياه يرجو، وله يخاف. فذكرُه: قوتُه وغذاؤه، ومحبته والشوق إليه: حياته ونعيمه ولذته وسروره، والالتفات إلى غيره والتعلق بسواه: داؤه، والرجوع إليه: دواؤه، فإذا حصل له ربُّه سكن إليه واطمأن به، وزال ذلك الاضطراب والقلق، وانسدت تلك الفاقة، فإن في القلب فاقة لا يسدُّها شيء سوى الله تعالى أبدا، وفيه شعث لا يلمه غير الإقبال عليه، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له وعبادته وحده، فهو دائما يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن إلى إلهه ومعبوده، فحينئذ يباشر روح الحياة، ويذوق طعمها، وتصير له حياة أخرى غير حياة الغافلين المعرضين عن هذا الأمر الذى له خُلق الخَلق، ولأجله خلقت الجنة والنار، وله أرسلت الرسل وأنزلت الكتب، ولو لم يكن جزاءً إلا نفس وجوده لكفى به جزاءً، وكفى بفوته حسرة وعقوبة.

قال بعض العارفين: "مساكين أهل الدنيا، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والتنعُّم بذكره وطاعته" وقال آخر: "والله ما طابت الدنيا إلا بمحبَّته وطاعته، ولا الجنة إلا برؤيته ومشاهدته".

وقال آخر: "من قرت عينه بالله تعالى قرَّت به كل عين، ومن لم تقرَّ عينه بالله تقطع قلبه على الدنيا حسرات".

ومن علامات صحة القلب: أن لا يفتُر عن ذكر ربه، ولا يسأم من خدمته، ولا يأنس بغيره، إلا بمن يدلُّه عليه، ويذكِّره به، ويذاكره بهذا الأمر.

ومن علامات صحته: أنه إذا فاته وِرْدُه وجد لفواته ألمًا أعظم من تألُّم الحريص بفوات ماله وفقده.

ومن علامات صحته: أنه يشتاق إلى الخدمة، كما يشتاق الجائع إلى الطعام والشراب.

ومن علامات صحته: أنه إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همُّه وغمه بالدنيا، واشتد عليه خروجه منها، ووجد فيها راحتَه ونعيمه، وقرة عينه وسرور قلبه.

ومن علامات صحته: أن يكون همُّه واحدا، وأن يكون في الله.

ومن علامات صحته: أن يكون أشحَّ بوقته أن يذهب ضائعا من أشد الناس شحا بماله.

ومنها: أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل، فيحرص على الإخلاص فيه والنصيحة والمتابعة والإحسان، ويشهد مع ذلك منَّة الله عليه فيه، وتقصيره في حق الله.

ذلك منة الله عليه فيه وتقصيره في حق الله، فهذه ست مشاهد لا يشهدها إلا القلب الحى السليم... انتهى - باختصار



وألَّف بين قلوبهم

الحمد لله الذي ألَّف بين قلوب المؤمنين فأصبحوا بنعمته إخواناً، والصلاة والسلام على نبيه الذي ربَّى أصحابه على توحيد الله والإحسان إلى عباده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد..

فقد مرَّ أبو سفيان قبل أن يسلِّم على سلمان وصهيب وبلال -رضي الله عنهم- في نَفَر بالمدينة، فقالوا: ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها، فقال أبو بكر، رضي الله عنه: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيِّدهم؟ فأتى أبو بكر النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- فأخبره، فقال: (يا أبا بكر لعلَّك أغضبتَهم، لئن كنتَ أغضبتَهم لقد أغضبتَ ربك)، فأتاهم أبو بكر، فقال: يا إخوتاه أغضبتُكم؟ قالوا: لا، ثم قالوا: يغفر الله لَكَ يا أخي. [رواه مسلم].

بهذه الأخلاق العالية كانوا يتعاملون، ولإخوانهم يتواضعون، وعن أخطائهم يتراجعون.

تآلف قلوب المؤمنين مِنَّة عظيمة من الله (عز وجل)

في معرض الامتنان أخبر الله -تعالى- نبيه -صلى الله عليه وسلم- أنه أيَّده بنصره وبالمؤمنين، وألَّف بين قلوبهم، وأن تأليف القلوب هو بيد الله -تعالى- وحده، كما قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: ٦٢ - ٦٣].

وفي الآية إشارة إلى أن سبب تآلف القلوب هو الإيمان، وأن أمر تآلف القلوب يستحق أن تبذل فيه أموال الدنيا كلها لو كان يُدرك ببذل أسباب دنيوية، ولكنه مِنَّة من الله -تعالى- على من اهتدى بهداه، واتبع نبيه، صلى الله عليه وسلم، وقدَّم رابطة الإيمان على كل رابطة، من قرابة أو انتساب لقبيلة أو لغة أو غيرها...

تآلف القلوب من أسباب النصر

كما أن في الآية إشارة إلى أن من أهم أسباب النصر تآلف قلوب المؤمنين المجاهدين، فالعكس صحيح، وإن التنازع والتفرق من أهم أسباب الفشل وذهاب ريح المؤمنين وقوتهم، وهو معنى نصَّت عليه آية أخرى، هي قوله تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٦].

والمعنيُّ بالصبر هنا الصبر على طاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- بصفته رسولاً وبصفته قائداً لهم في المعارك، والصبر على إخوة الجهاد، فالمجاهد قد تبدر منه أخطاء بسبب ما يمر به من شدائد تخرجه عن طباعه، فيحتاج المجاهدون إلى أن يصبروا على بعضهم البعض، مع التناصح لإصلاح العيوب وتلافي الذنوب، حتى تنال معية الله سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٥٣].

الألفة بين المهتدين

للتآلف أسباب أهمها الإيمان -كما ذكرنا- والصبر على الإخوان، والتواصي معهم على الحق وعلى الصبر كما قال تعالى: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر].

ومن الإيمان الاعتصام بحبل الله جميعاً وعدم التفرق: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران: ١٠٣].

وقد جمع الله المجاهدين في دولة الإسلام القائمة على الحكم بشريعة الله، وتوحيده، والكفر بالطواغيت، ومجاهدتهم، ولزوم جماعة المسلمين وإمامهم، فحريٌّ بالمجاهدين أن يكونوا كالبنيان المرصوص: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} [الصف: ٤]، فيشعر كل مؤمن بأخيه، يفرح لفرحه ويحزن لحزنه، كما قال، صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) [رواه الشيخان].

ما تحصل به الألفة

السعيُ إلى تآلف القلوب ومنعُ أسباب التفرق من الواجبات الشرعية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، **وهذه بعض التوجيهات النبوية لتحقيق ما أمرنا الله به:**

- أن يحب المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه، قال نبينا، صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) [رواه الشيخان]، فالإيمان لا يتم حتى نحب لإخواننا محبة صادقة ما نحب لأنفسنا من خصال الدين، وخيري الدنيا والآخرة.
- أن يؤدي إليه حقوقه، ومنها ما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- بقوله: (حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس) [رواه الشيخان]، وفي رواية لمسلم: (حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد اللَّه فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه).
- الابتعاد عن أسباب التفرق والتنافر والتشاحن، كما قال، صلى الله عليه وسلم: (لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخْذُلُه ولا يَحْقره، التقوى هاهنا، وأشار إلى صدره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله عرضه) [رواه مسلم].
- أن تعين أخاك على الحق والمعروف، وتمنعه من العصيان والظلم، قال صلى الله عليه وسلم: (انصر أخاك ظالما أو مظلوما)، فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلوما، أفرأيت إذا كان ظالما كيف أنصره؟ قال: (تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره) [رواه البخاري].

وهناك أمور أخرى كثيرة تصون الأخُوَّة وتحافظ عليها وتغلق منافذ الشيطان، وتقف أمام تحريشه بين الإخوان، فمنها الصدق معهم، وصفاء القلب لهم، ونصيحتهم، وانتقاء أطايب الكلام لمخاطبتهم، كما قال تعالى: {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِيناً} [الإسراء: ٥٣].

ثوابٌ ومنافعُ يُحصلها المتحابون في الله

إن محبتنا للمؤمنين دليل على محبتنا لله عز وجل، وبها يجد المؤمن حلاوة الإيمان، ففي الحديث المتفق عليه: (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان) ومنها: (أن يحب المرء لا يحبه إلا لله).

وبالأخذ بأسباب الألفة نكون قد عملنا بأوامر الله، ونكسب الأجر والثواب الجزيل، وتطيب حياتنا، ونكون بعون الله قد انتصرنا على شح نفوسنا ووساوس الشياطين، وتقوى عزائمنا لجهاد أعداء الله وأعدائنا..

كما أن تآلفنا وتراحمنا وتآخينا يحقق مصلحة الإسلام ومصلحة الجماعة، وهي دولة الإسلام، أمراء ورعية، وقد روي عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: "لا إسلام إلا بجماعة، ولاجماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بطاعة" [سنن الدارمي].

إن التعاون على البر والتقوى الذي أمرنا الله -عز وجل- به لا يتحقق على الوجه الذي يحبه الله إلا بإخوة متحابين في الله متآلفين، وما أعظم ربحهم بأن يظلهم الله -عز وجل- في ظله يوم القيامة، كما في الحديث القدسي الذي يقول الله -تعالى- فيه: (أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي) [رواه مسلم].

نسأل الله أن يجعلنا من المتآلفة قلوبهم على دين الله، المتحابين في ذات الله، والمتناصرين في طاعة الله، والحمد لله رب العالمين.

قصة حديث

والله لقد جئتكم بالذبح

عن عروة عن عبد الله بن عمرو قال: قلت له: "ما أكثر ما رأيت قريشاً نالت من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما كانت تُظهر من عداوته، قال: "حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحِجر فذكروا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا على هذا الرجل سفَّه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرَّق جماعتنا وسبَّ آلهتنا ولقد صبرنا منه على أمرٍ عظيم -أو كما قالوا- فبينما هم في ذلك إذا طلع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفاً بالبيت، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول، قال: فعرفت ذلك في وجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم مضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى، فمر بهم الثالثة، فغمزوه بمثلها حتى وقف ثم قال: (أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفس محمدٍ بيده لقد جئتكم بالذبح)، قال: فأطرق القوم حتى ما منهم رجلٌ إلا كأنما على رأسه طائرٌ واقع حتى إن أشدهم فيه وصاة ً قبل ذلك ليرفأه بأحسن ما يجد من القول حتى إنه ليقول انصرف يا أبا القاسم راشداً، فوالله ما كنت جهولاً، قال فانصرف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- .. الحديث، رواه البخاري .

ويحكي هذا الحديث مشهدا من مشاهد الأذى التي كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعيشها يوميا مع عتاة وطغاة قريش، لكنه يقدم لنا قصة هذه المقولة العظيمة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- (والله لقد جئتكم بالذبح).

ويبين الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رغم مرحلة الاستضعاف التي كان يعيشها مع أصحابه إلا أنه كان يعلن براءته من المشركين ويسفِّه أحلامهم.

في ظل ذلك كله كان يخبرهم أنهم إن لم يتبعوه فعاقبتهم الهوان والقتل في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة، بل ووعدهم بأني جئتكم بالذبح.

قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم لملأ الطغاة المستكبرين، محذرا لهم من مصير ينتظرهم، وواقع سيستقبلهم، وقد تحقق وعد النبي صلى الله عليه وسلم، ونحن أتباعه، نتوعد المشركين برغم كل مايصيبنا بهذا المصير، وسيحققه الله لنا بإذنه، فتربصوا إنا معكم متربصون.



أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء

عن جابر -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلَّى الله عليه وسلم- قبل موته بثلاث، يقول: (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل، فإن قوما أرداهم سوء ظنهم بالله -عز وجل- فقال لهم: {وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ}[فصلت: ٢٣]) [رواه مسلم].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي..) [رواه مسلم]

أخي المجاهد، انزع من قلبك الهم والحزن واستعن بمولاك وأحسن الظن به، فهو لا يَرُدُّ من استجار به، ولا يُبعد من تقرب إليه، فكم أزال عنك شدة، وكم دفع عنك مكروها. هو الذي خلقك ورزقك وربَّاك وعدلك، رزقك وأنت في رحم أمك، وأجرى لك اللبن سائغا دافئا فور خروجك، وما زال يطعمك ويسقيك ويكسوك ويشفيك ويحميك.

ربَّاك وعلَّمك وحفظ عليك سمعك وبصرك، ومنَّ عليك بكل ما تمتعت به من نعم وأولها أن أوجدك، ثم هداك، ثم اصطفاك، هداك للإسلام، واصطفاك لقتال أعدائه، فكم أنت محظوظ أن جعلك أحد جنوده، ولست أحد جنود الطواغيت، فأنت -أخي- على خير عظيم ما التزمت تقاه ولزمت طريقه.

تذكر دائما -أخي- أن الله رحمن رحيم، وأنك تردد هاتين الصفتين في اليوم والليلة بضع عشرة مرة في صلاتك المفروضة وتكررهما في البسملة، فحاشا للرحمن الذي هو أرحم بك من أمك أن يتخلى عنك فأحسن الظن به تفلح.

رُوي أن حماد بن سلمة عاد سفيان الثوري، فقال له: يا أبا سلمة أترى الله يغفر لمثلي؟ فقال حماد: والله لو خُيِّرت بين محاسبة الله إياي وبين محاسبة أبوَي، لاخترت محاسبة الله على محاسبة أبوَي، وذلك أن الله أرحم بي من أبوَي.

فلتكن -أخي- عالي الهمة شديد التعلُّق بالله والتوكل عليه، فإن حسن الظن بالله باب من أبواب التوكل عليه والاعتماد عليه، فلن تستطيع التوكل على الله ما لم تُحسن الظن به.

عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: لله أرحم بعبده يوم يأتيه أو يوم يلقاه من أم واحد فرشت له بأرض فيء ثم قامت فلمست فراشه بيدها، فإن كان به شوكة كانت بها قبله، وإن كانت لدغة كانت بها قبله.



دعا إلى الله بقوله، وقاتل أعداءه بفعله

أبو سليمان الليبي:

"لقد عاهدت الله على رصاصة تدخل من هنا وتخرج من هنا"

إن الدعوة إلى الله هدي الأنبياء، وسبيل الصالحين والأتقياء، قال سبحانه وتعالى مخاطبا نبيه: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ} [النحل: ١٢٥]، وللدعوة طريقان، طريق السنان وطريق اللسان، وأكمل أسلوب للدعوة هو الجمع بين الطريقين، وقد تجسَّد ذلك كله بأخلاق النبي العدنان صلى الله عليه وسلم، وسار على هديه الصحابة والتابعون الكرام، فقد كانوا دعاة لله بأفعالهم قبل أقوالهم.

وممن نحسبه كذلك -والله حسيبه- الأخ المجاهد أبو سليمان الليبي -تقبله الله- فلقد كان -رحمه الله- مثلا في الدعوة إلى الله بفعله وقوله، حيث كان طالب علم على صغر سنِّه الذي لم يتجاوز الرابعة والعشرين، وقد كان حافظا لكتاب الله، ولآلاف من الأحاديث النبوية الصحيحة، وكان له باع في علوم الآلة.

ولم يكن -تقبله الله- ممن حفظ المتون والكتب وتجاهد العمل بها، بل كان علمه قائدا له في جميع شؤون حياته، فكان قوّاما بالليل صواما بالنهار، عابدا لله على بصيرة، مجاهدا ذو أخلاق كريمة رفيعة.

لم تمنعه الدنيا من الالتحاق بجندية الخلافة

ينحدر أبو سليمان الليبي -تقبله الله- من عائلة ثرية من مدينة بنغازي، فلم يكن ينقصه المال كي يطلبه عبر الغزوات أو القتال، ولم تكن تنقصه الشهرة كي يطلبها عن طريق الالتحاق بصفوف الدولة الإسلامية وجنديتها، لم يرض القعود ودماءُ المسلمين تسيل، وأعراضهم تنتهك، فشمَّر عن ساعد الجد، وتسلَّح بالإيمان وتوكل على الله، وأدرك يقينا حقيقة الضر والنفع، التي لخَّصها رسولنا الكريم -صلى الله عليه وسلم- بقوله لابن عباس -رضي الله عنه- عندما كان يافعا: (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف) [سنن الترمذي].

كان حريصا على طلب العلم وتعلمه، وكان أكثر ما يحرص على علم المواريث، ولم يكن طلبه للعلم يصدُّه عن الجهاد في سبيل الله، بل كان من السباقين للقتال في ليبيا منذ اندلعت شرارة الجهاد فيها، وأُصيب -تقبله الله- في إحدى المعارك هناك خلال قتاله ضد المرتدين أعوان الصليبيين الأمريكان.

ولما منّ الله على عباده المجاهدين بإعلان الخلافة، سارع بإعلان بيعته لخليفة المسلمين وحثَّ إخوانه هناك على اللحاق بركب الخلافة، خاصة وأنه وجد في إعلانها في ذلك الوقت فرصة ذهبية لجمع شتات الأمة بعد تبعثرها ولإحيائها بعد موتها بمئات السنين، ففرح أشد الفرح لإعلانها وبدأ ينشط نشاطا كبيرا لإقناع إخوانه بالالتحاق بركبها.

ابتعاثه إلى أرض الشام

فانتدبه إخوانه للهجرة إلى أرض الشام مبتعثا من قبلهم للتواصل مع الأمراء، وإخبارهم عن حال إخوانهم في ليبيا وإطلاعهم على منهجهم وعقيدتهم، فانطلق أبو سليمان قاصدا أرض الشام، فالتقى بإخوانه من الأمراء ورفع لهم أمر إخوانه في ليبيا، فرحبوا به وبإخوانه بعد أن تأكدوا من صحة منهجهم، وقوة عزيمتهم، وقام بدوره -تقبله الله- بنقل ما رآه في أرض العراق والشام لإخوانه في ليبيا مشجعا ومحرضا لهم على البيعة، فبايع الإخوة هناك.

وبعد فترة وجيزة من وصوله لأرض الشام، عُين -تقبله الله- الشرعي العام لولاية حمص وأميرا للمراكز الشرعية فيها، فأحبه الإخوة حبا شديدا لما رأوا من طيب أخلاقه وحسن إدارته، وما زادته تلك التكليفات إلا انكسارا لربه وتواضعا لإخوانه الذين وُلِّي أمرهم.

واستمر الشيخ -رحمه الله- في طلب العلم والجهاد في سبيل الله حتى بعد تكليفه بمهام كثيرة منها خدمة إخوانه، فكان يدير شؤونهم في النهار ويسهر على طلب العلم في الليل، وإذا ما نادى منادي الجهاد والقتال تراه في الصفوف الأولى بجنب إخوانه المقاتلين في المعارك يحرض ويقاتل، وكأن لسان حاله ما قاله ابن حزم:

مناي من الدنيا علوم أبثها
وأنشرها في كل باد وحاضر
دعاء إلى القرآن والسنن التي
تناسى رجال ذكرها في المحاضر
وألزم أطراف الثغور مجاهدا
إذا هيعة قامت فأول نافر
لألقى حمامي مقبلا غير مدبر
بسمر العوالي والربيع البواتر
فيا رب لا تجعل حمامي بغيرها
ولا تجعلني من قطين المقابر

> انتدبه إخوانه للهجرة إلى أرض الشام مبتعثا من قبلهم للتواصل مع الأمراء، وإخبارهم عن حال إخوانهم في ليبيا وإطلاعهم على منهجهم وعقيدتهم

لم يغفل -رحمه الله- عن العمل بما تعلمه من خلق نبينا -صلى الله عليه وسلم-، فلقد كان لينا رحيما بإخوانه المجاهدين، يؤثرهم على نفسه حتى في أموره الخاصة، وكانوا لا يسمعون منه إلا طيب الكلام ولا يرون منه إلا حسن المعاملة، ولقد صدق من قال عنه أنه كان مدرسة بفعله وأخلاقه وتعامله مع إخوانه.

مقتله -تقبله الله-

ولقد كان لمقتله -تقبله الله- أثر كبير في نفوس إخوانه لا يمحى، فلقد كان مقتله علامة على صدقه -نحسبه والله حسيبه-، صدق الله عز وجل فصدقه الله، وما أشبه مقتله بمقتل ذلك الصحابي الكريم الذي قال عندما وصله نصيبه من الغنائم: "ما على هذا بايعتك يا رسول الله، بايعتك على سهم يدخل من هنا ويخرج من هنا، بايعتك على أن أقتل في سبيل الله"، وما هي إلا أن دارت رحى الحرب حتى تفقد الصحابة الكرام الصحابي فرأوا السهم وقد اخترق رقبته كما أشار.

> أصيب بطلق ناري وبدأ ينزف دما فيغمى عليه ويفيق، فقال له الأخوة: ارجع يا شيخ لن تستطيع مواصلة القتال معنا فلقد أُصبت، فقال: "لا والله لا أرجع"

وهنا مع أخينا أبي سليمان الليبي حصل الشيء نفسه، حيث ينقل لنا أحد إخوانه الذين كانوا معه في آخر غزوة خاضها -رحمه الله- ما حدث فيقول: ركب أخونا أبو سليمان معنا في عربة BMP لينغمس في حاجز للجيش النصيري في محيط المحطة الثالثة بولاية حمص شرق مدينة تدمر، فأصيب بطلق ناري وبدأ ينزف دما فيغمى عليه ويفيق، فقال له الأخوة: ارجع يا شيخ لن تستطيع مواصلة القتال معنا فلقد أُصبت، فقال: "لا والله لا أرجع"، فلما أعاد عليه إخوانه طلب الرجوع وألحوا عليه قال: "لا والله لا أرجع ولقد عاهدت الله على رصاصة تدخل من هنا وتخرج من هنا وأشار إلى جبهته ومؤخرة رأسه"، وما هي إلا دقائق قليلة حيث رفع رأسه فجاءته رصاصة أصابت جبهته بالمكان الذي أشار إليه فارتقى -تقبله الله- شهيدا كما نحسبه.

رحمك الله أبا سليمان، لقد كنت نعم الأخ ونعم الرفيق ونعم الأمير ونعم المعلم، وأسكنك الله فسيح جنانه.



قصة حديث

من سن في الإسلام سنة حسنة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من سنَّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء) [رواه مسلم].

وهذا الحديث النبوي يحث على إحياء سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمبادرة لاتباع أمره، فمن تبعك في ذلك كان لك أجره، من دون أن ينقص من أجوره شيئا.

وقد ضل من أوَّل الحديث ليشرِّع الابتداع في الدين على أنها بدع حسنة حث النبي -صلى الله عليه وسلم- على فعلها، وحسبك بالأحاديث الكثيرة الناهية والمحذرة من البدع، وكذلك قصة الحديث نفسه التي تبيِّن لك المراد من السنة الحسنة. وقصة الحديث كما تبين الرواية ذاتها التي جاء فيها نص الحديث.

عن المنذر بن جرير، عن أبيه، قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر النهار، قال : فجاءه قوم حفاة عراة، مجتابي النمار أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتمعَّر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى ما بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالا فأذن وأقام، فصلى ثم خطب فقال: ({يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} إلى آخر الآية: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}[النساء: ١]، والآية التي في الحشر: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ} [الحشر: ١٨]، تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمرة، قال : فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلَّل، كأنه مذهبة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء) [رواه مسلم].



كيفية النصر

إن حكمة الله البالغة وتقديره للمؤمنين في الدنيا فيه من الخفايا ما لا يعلمه إلا هو جل في علاه، ومن ذلك كيفية حصول النصر لعبادة المؤمنين، فقد نصر الله سبحانه وتعالى الأنبياء والرسل والمؤمنين من بعدهم بأشكال وصور متعددة متباينة فلم يقتصر انتصارهم على المعارك المباشرة، وفي ذلك حكم من الله كثيرة.

ومن ذلك أن المؤمن لا يصيبه اليأس مهما سدّت فيه وجهه الأبواب، بل يعلم أن نصر الله سبحانه قد يحصل بما لا يخطر على بال، فيعلق أمله به وحده، وهكذا فقط يأتيه النصر.

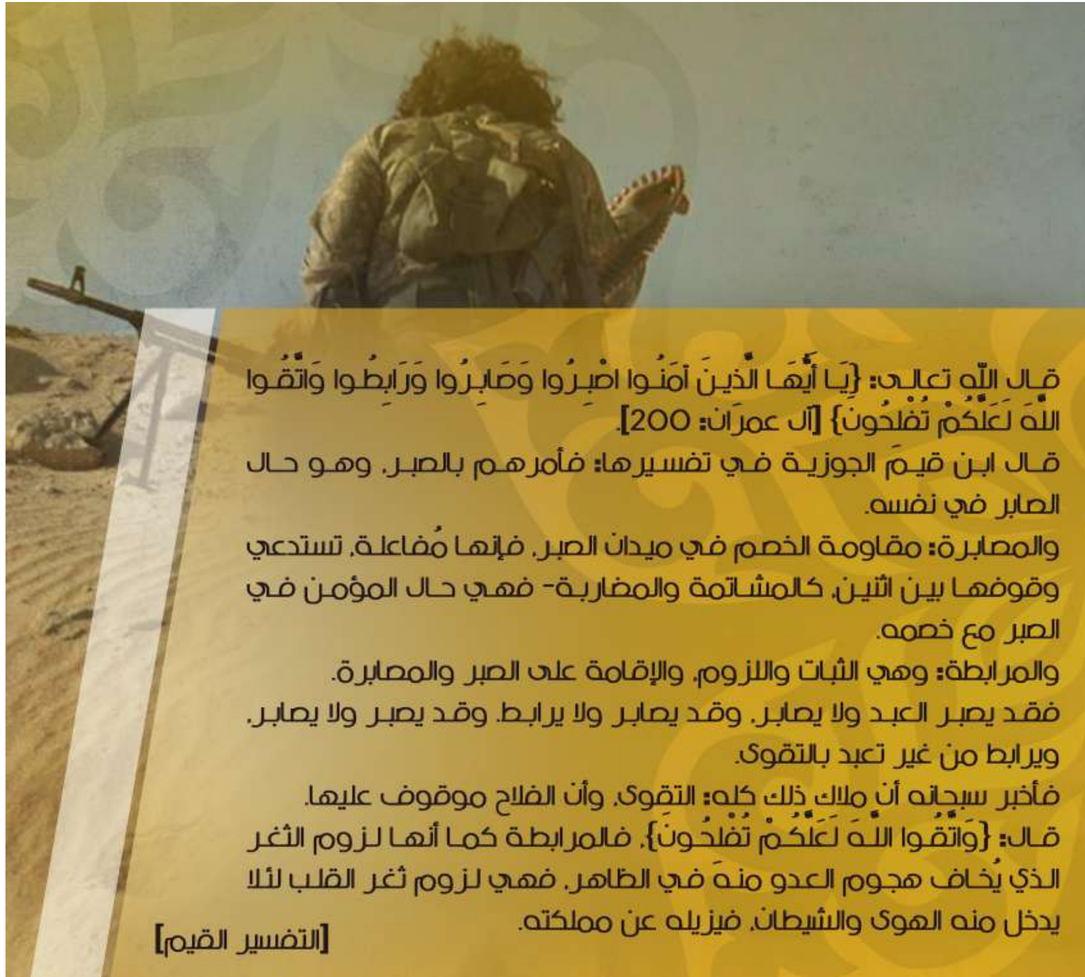
وللمؤمن في رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أسوة حسنة فلم يلتفتوا كثيرا إلى كيفية حصول النصر، بل عملوا ما أمرهم الله به من تطبيق أمره وقتال الكافرين، قال تعالى: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا} [النساء: ٨٤].

كما أنهم لم يتأخروا للاستزادة من عدد أو انتظار تحصيل عدة، بل بذلوا ما كان عندهم من أسباب، فنصرهم الله جل وعلا بها بصور كثيرة، فنصرهم بالرعب، ونصرهم بالريح، وبتفريق كلمة الكافرين، كما نصرهم بالملائكة.

فلا يشغلنَّ المؤمن نفسه كثيرا بالتفاصيل، بل يعمل على ما أمره الله به بأفضل ما يستطيع فإن شاء الله عذب الكافرين على يديه وإن شاء بغير ذلك.

ولابد له من الدعاء والتضرع لله سبحانه مع العمل والجهاد في سبيله، ولا يركننَّ إذا لاحت له أسباب يظن أن بها هلاك للكافرين كاختلاف بينهم أو ضرر يصيبهم بأموالهم أو أنفسهم من عند الله، فيعلق أمله كله عليها فإن نجوا منها انهار عزمه وخبت همته، بل يواصل القتال والنزال ويعمل كل ما يستطيع من أسباب، فإن لاح له نصر زاد من تضرعه لله -جل وعلا- أن يتمه فإن لم تكن بها فلا ضير.

فالله أعلم كيف ينصر دينه وهو العالم سبحانه بمآلات الأمور وخواتمها، فرُب نصر عاجل يبقي في صف المسلمين من ليس منهم من المنافقين وغيرهم فلا يتمحص الصف ويبقى فيه من الكدر ما يكون فيه شتاته وهلاكه عياذا بالله، ورب صفة للنصر يرجوها المؤمنون والله قد أخفى لهم في حجب الغيب ما لو علموه لهانت عليهم أمانيهم، فنسأل الله أن يمكن لعباده المؤمنين وينصرهم على الكافرين بما شاء وكيف شاء إنه القاهر فوق عبادة وهو الحكيم الخبير.



علاج مرض القلب من الشيطان

قال ابن قيم الجوزية:

هذا الباب من أهم أبواب الكتاب وأعظمها نفعاً، والمتأخرون من أرباب السلوك لم يعتنوا به اعتناءهم بذكر النفس وعيوبها وآفاتها، فإنهم توسعوا في ذلك، وقصَّروا في هذا الباب.

ومن تأمل القرآن والسنة وجد اعتناءهما بذكر الشيطان وكيده ومحاربته أكثر من ذكر النفس، فإن النفس المذمومة ذكرت في قوله: {إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ} [يوسف: ٥٣]، واللوامة في قوله: {وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} [القيامة: ٢]، وذُكرت النفس المذمومة في قوله: {وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى} [النازعات: ٤٠] .

وأما الشيطان فذكر في عدة مواضع، وأفردت له سورة تامة. فتحذير الرب تعالى لعباده منه جاء أكثر من تحذيره من النفس، وهذا هو الذي لا ينبغي غيره، فإنَّ شر النفس وفسادَها ينشأ من وسوسته، فهي مركَبُه وموضع سرِّه، ومحل طاعته، وقد أمر الله سبحانه بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن وغير ذلك، وهذا لشدة الحاجة إلى التعوُّذ منه، ولم يأمر بالاستعاذة من النفس في موضع واحد، وإنما جاءت الاستعاذة من شرِّها في خطبة الحاجة في قوله صلى الله عليه وسلم: (ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا) [سنن ابن ماجه] .

وقد جمع النبي -صلى الله عليه وسلم- بين الاستعاذة من الأمرين، في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه: "أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله، علِّمني شيئا أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت؟ قال قل: (اللهم عالم الغيب والشهادة، فاطر السموات والأرض، ربَّ كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه، وأن أقترف على نفسي سوءا أو أجره إلى مسلم، قله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك"، فقد تضمن هذا الحديث الشريف الاستعاذة من الشر وأسبابه وغايته:

فإن الشر كلَّه إما أن يصدُر من النفس أو من الشيطان، وغايته: إما أن تعود على العامل، أو على أخيه المسلم، فتضمن الحديث مصدري الشر اللَّذين يصدر عنهما، وغايتيه اللتين يصل إليهما.

الاستعاذة بالله عند قراءة القرآن

قال تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} [النحل: ٩٨ - ١٠٠] .

ومعنى استعذ بالله: امتنع به، واعتصم به والجأ إليه، ومصدره: العَوذ، والعياذ، والمَعَاذ؛ وغالب استعماله في المستعاذ به، ومنه قول النبي -صلى الله عليه وسلم- (لقد عُذت بمَعاذ)[رواه البخاري].

وأصل اللفظة: من اللَّجأ إلى الشيء والاقتراب منه، ومن كلام العرب: "أطيب اللحم عوَّذُه"، أي الذي قد عاذ بالعظم واتصل به، و(ناقة عائذ): يعوذ به ولدها، وجمعها عوذ كحُمر.

وجوه وفوائد الاستعاذة عند القراءة

فأمر سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن، وفي ذلك وجوه:

منها: أن القرآن شفاء لما في الصدور، مُذهِبٌ لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أثَّره فيها الشيطان، فأمر أن يطردَ مادة الداء، ويُخلي منه القلب ليصادف الدواء محلاً خاليا، فيتمكَّن منه، ويؤثِّر فيه، كما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى
فصادف قلبا خاليا فتمكنا

فيجيء هذا الدواء الشافي إلى القلب قد خلا من مُزاحم ومُضادٍّ له فينجع فيه.

ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أنَّ الماء مادة النبات، والشيطان نار يحرق النبات أولا فأولًا، فكلما أحسَّ بنبات الخير في القلب سعى في إفساده وإحراقه، فأمر أن يستعيذ بالله عز وجل منه لئلا يُفسد عليه ما يحصل له بالقرآن.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله: أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن، وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها وثباتها.

وكأن من قال: إن الاستعاذة بعد القراءة، لحظ هذا المعنى، وهو لعَمر الله ملحظ جيد، إلا أن السنة وآثار الصحابة إنما جاءت بالاستعاذة قبل الشروع في القراءة، وهو قول جمهور الأمة من السلف والخلف، وهو محصِّلة للأمرين.

ومنها: أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن وتستمع لقراءته. كما في حديث أُسيد ابنُ حضَير لما كان يقرأ، ورأى مثلَ الظُّلة فيها مثل المصابيح، فقال النبيّ عليه الصلاة والسلام: (تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ) [رواه مسلم].

والشيطان ضد المَلك وعدوُّه، فأمر القارئ أن يطلب من الله تعالى مباعدة عدوه عنه حتى تحضره خاصتُه وملائكته، فهذه وليمة لا تجتمع فيها الملائكة والشياطين.

ومنها: أن الشيطان يُجلب على القارئ بخيله ورَجله، حتى يَشغَله عن المقصود بالقرآن، وهو تدبُّره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن، فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأُمر عند الشروع أن يستعيذ بالله منه.

ومنها: أن القارئ مُناجٍ لله بكلامه، والله تعالى أشد أَذَناً للقارئ الحسن الصوت بالقرآن مِن صاحب القينة إلى قينته، والشيطان إنما قراءتُه الشعر والغناء، فأمر القارئ أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاته لله، واستماع الربِّ قراءته.

ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيَّته، والسلف كلُّهم على أن المعنى: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته، كما قال الشاعر في عثمان:

تَمنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ
وَآخِرَهُ لاقَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ

فإذا كان هذا فعله مع الرسل، فكيف بغيرهم؟

ولهذا يُغلِّط القارئ تارة، ويخبط عليه القراءة، ويشوِّشها عليه، فيخبط عليه لسانه، أو يشوِّش عليه فهمه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارئ هذا أو هذا، وربما جمعهما له، فكان من أهم الأمور: استعاذة بالله منه عند القراءة.

ومنها: أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهُم بالخير، أو يدخل فيه، فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن شيطانا تفلت على البارحة، فأراد أن يقطع على صلاتي" الحديث [رواه البخاري]، وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله تعالى كان اعتراض الشيطان له أكثر.... فالشيطان بالرَّصد للإنسان على طريق كل خير..

فأمر سبحانه العبد أن يحارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق، ويستعيذ بالله منه أولا، ثم يأخذ في السير، كما أن المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه، ثم اندفع في سيره.

ومنها: أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتي به بعدها القرآن، ولهذا لم تُشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره، بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السامع الاستعاذة استعد لاستماع كلام الله، ثم شُرع ذلك للقارئ، وإن كان وحده، لما ذكرنا من الحِكم وغيرها.

فهذه بعض فوائد الاستعاذة. انتهى كلامه - بتصرف



فتاوى

من برنامج إذاعة البيان

حكم الأكل من الذبيحة إن كانت نذراً

السؤال: رجل ذبح لله ذبيحة نذراً، فهل يجوز أن يأكل من الذبيحة؟

الجواب: يجب أن يُعلم أن النذر على قسمين، أما الأول فهو النذر المطلق، كأن يقول: لله علي أن أذبح شاة . وأما الثاني فهو نذر المجازاة، كأن يقول: إن شافاني الله من مرضي فلله عليَ أن أذبح شاة،

فأما القسم الأول وهو النذر المطلق فيجوز له أن يأكل من الذبيحة إن لم ينوِ لها جهة معينة، كالفقراء والمساكين، سواءً تلفَّظ بذلك أو نواه.

وأما القسم الثاني: أعني نذر المجازاة، فلا يجوز له أن يأكل من الذبيحة، في القول الأظهر من أقوال أهل العلم.

قال ابن حجر الهيتمي في تحفة المحتاج: ولا يجوز الأكل من نذر المجازاة قطعا لأنه كجزاء الصيد وغيره من جبران الحج.

وروى ابن أبي شيبة في المصنَّف عن عطاء رحمه الله قال: ما كان من جزاء صيد أو نُسك أو نذر للمساكين، فإنه لا يأكل منه، والله أعلم.

حكم الاختلاط مع زوج العمة أو الخالة

السؤال: امرأة تسأل هل يعتبر زوج العمة وزوج الخالة من المحارم ؟

الجواب: لا يعتبر زوج العمة ولا زوج الخالة من المحارم، وبالتالي فلا يجوز لها أن تكشف وجهها أمامهم، أو أن تختلط معهم، والله أعلم.



كن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول

روي أن لقمان قال لابنه: "يا بني، إن غُلبت على الكلام، فلا تغلب على الصمت، فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، إني ندمت على الكلام مرارًا، ولم أندم على الصمت مرة واحدة".

وقال ابن بريدة: رأيت ابن عباس آخذًا بلسانه، وهو يقول: "ويحك، قل خيرًا تغنم، أو اسكت عن سوء تسلم، وإلا فاعلم أنَّك ستندم". قال: فقيل له: يا ابن عباس، لم تقول هذا؟ قال: "إنه بلغني أنَّ الإنسان ليس على شيء من جسده أشدُّ حنقًا أو غيظًا يوم القيامة منه على لسانه إلا ما قال به خيرًا، أو أملى به خيرًا" [رواه أحمد].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من يضمن لي ما بين لَحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة) [رواه البخاري].

قال ابن عبد البر: "في هذا الحديث دليل على أن أكبر الكبائر إنما هي من الفم والفرج، وقال ابن بطال في فتح الباري: "دلَّ الحديث على أن أعظم البلاء على المرء في الدنيا لسانه وفرجه، فمن وُقي شرهما وقي أعظم الشر".

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم طويل الصمت، كثير الذكر، قليل الضحك، فعن سماك بن حرب، قال: "قلت لجابر بن سمرة: أكنت تجالس النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم، كان طويل الصمت، قليل الضحك، وكان أصحابه ربما تناشدوا عنده الشعر والشيء من أمورهم، فيضحكون، وربما يتبسم" [رواه أحمد].

وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت) [رواه البخاري ومسلم].

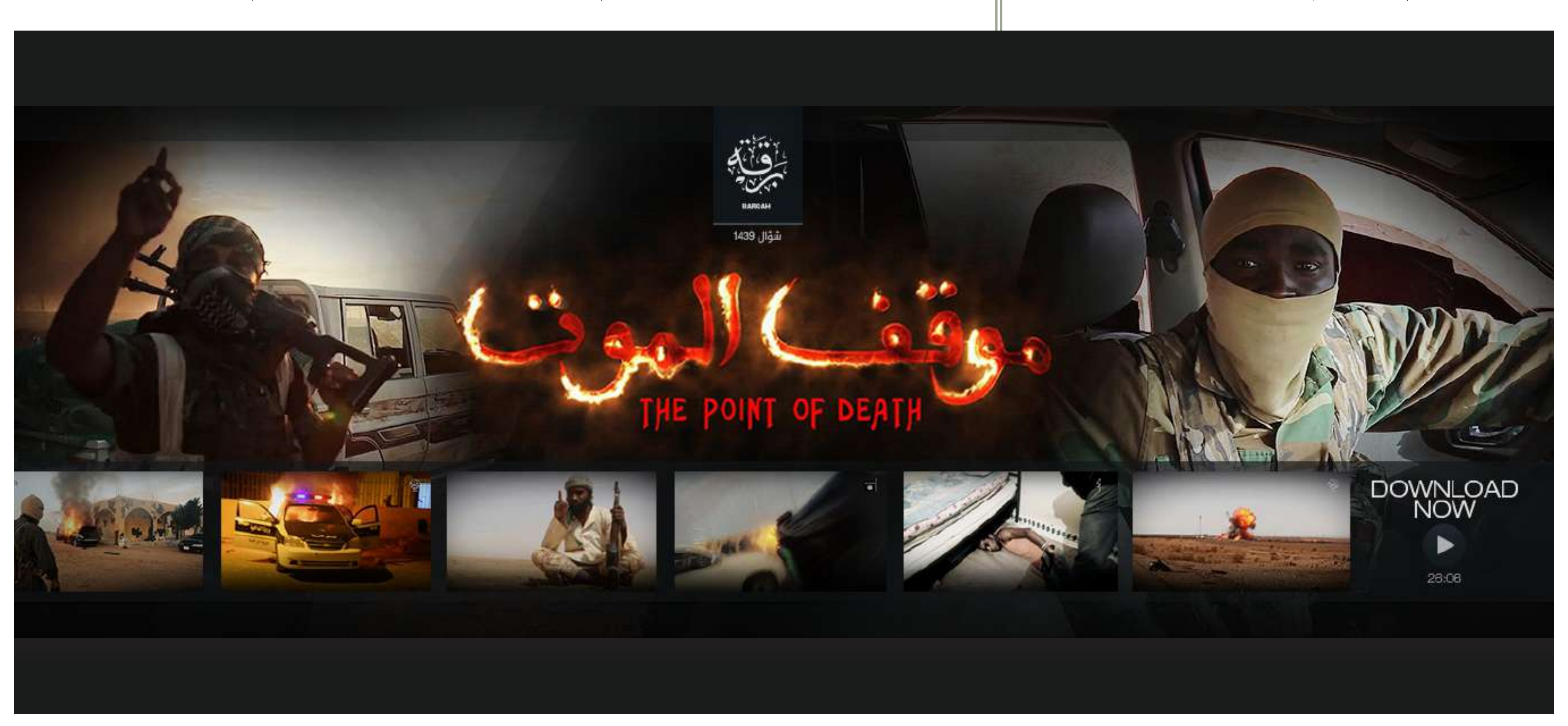
أخي المجاهد إن الصمت عمَّا لا يرضي الله منجاة من النار، ومرضاة لله، واتقاء من غضبه، به السلامة من الندم، والنجاة من الزلل، وهو وقار للرجال، لا حِكمَة إلا بالتزامه، والمعين على اجتياز الصراط يوم الدين، وهو ليس انعزالا عن الناس بقدر ما هو انعزال عن الاحتياج للاعتذار للناس ونجاة من الزلل والغيبة والنميمة ونجاة من القول على الله بغير علم.

فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من صمت نجا) [رواه الترمذي].

وروي أن أعرابيا كان يجالس الشعبي ويطيل الصمت، فقال له الشعبي يومًا: ألا تتكلم؟، فقال: "أسكت فأسلَم وأسمع فأعلَم؛ إنَّ حظَّ المرء في أذنه له، وفي لسانه لغيره".

وقد قال بعض الصالحين: "الزم الصمت يكسبك صفو المحبة، ويأمِّنك من سوء المغبة، ويلبسك ثوب الوقار، ويكفك مؤنة الاعتذار".

والشرع قد حثَّ على الصمت ورغَّب فيه؛ لأنه يحفظ الإنسان من الوقوع في آفات اللسان ومنكرات الأقوال، ويسلم به من الاعتذار.



هو أعلم بمن اتَّقَى

كتب الله -تعالى- لدينه النصر والتأييد من عنده سبحانه، وجعل لذلك الأسباب من عنده سبحانه، فهو ينصر دينه وعباده المؤمنين بما شاء وكيف شاء، فقد قال تعالى: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الفتح: ٤]، وقال جل جلاله: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ} [المدثر: ٣١]. فمن تلك الجنود ما لا تخطئه العين، ومنها ما لا يدركه إلا من أنار الله بصيرته ليطلعه عليه، ومن ذلك تأييد هذا الدين بأفراد وأقوام لا يُتوقع أن تكون منهم نصرة له، ولا أن يأتي النصر والمدد من قبلهم، ولكن الله الحكيم العليم، يسخِّرهم لخدمة هذا الدين، فيجعل على أيديهم من الفتح ما لا يكون على أيدي غيرهم، وقد لا يجعل لهؤلاء نصيبا من ثواب النصرة، لأنهم لم يحققوا شروط استحقاق الثواب الأخروي من الله سبحانه، وإن كان لا يبعد أن يثيبهم عليه شيئا من حطام الدنيا الذي يرجونه، ثم يأتون يوم القيامة وليس لهم جزاء يرجونه من رب العالمين.

إنه من أهل النار

في الصحيح، من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قوله: شهدنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حُنَيْناً، فقال لرجل ممن يُدعى بالإسلام: (هذا من أهل النار)، فلما حضرنا القتال قاتل الرجل قتالا شديدا، فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله، الرجل الذي قلت له آنفا: (إنه من أهل النار)، فإنه قاتل اليوم قتالا شديدا، وقد مات، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: (إلى النار)، فكاد بعض المسلمين أن يرتاب، فبينما هم على ذلك إذ قيل: إنه لم يمت، ولكن به جراحا شديدا، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح، فقتل نفسه، فأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك، فقال: (الله أكبر، أشهد أني عبد الله ورسوله)، ثم أمر بلالاً فنادى في الناس: (أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وأن الله يُؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) [متفق عليه].

وفي هذا الحديث دليل واضح على ما أسلفنا من القول، فهذا الرجل الذي أحسن به الصحابة الظن، لحسن بلائه في القتال ضد أعداء الله، وهو من أعظم القربات إلى الله ولا شك، ثم تأتي الأخبار بموته على ذلك، فيكون ظاهره بذلك من الشهداء الذين ثبت أنهم من أصحاب الجنة، ثم يتعارض هذا كله مع شهادة النبي -عليه الصلاة والسلام- له بالنار، حتى يحسم رسول الله -تعالى- القضية، بتنبيه المسلمين إلى أمر هام، وهو أن الرجل وإن كان في عمله نصرة للدين وتأييد له، فإنه قد لا ينتفع من ذلك بشيء، ويكون ما أسلفه من خير فللإسلام والدين، وما فعله من شر فعلى نفسه.

إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ

وفي هذا الحديث السابق إشارة واضحة إلى خطأ من اعتمد في تزكية الناس تزكية مطلقة على بعض ما قاموا به من نصرة لهذا الدين، وحسن بلاء في الذود عنه، وتعرض للابتلاء من قبل أعدائه، إذ في النهاية المُعوَّل عليه في ذلك كله تقوى الله تعالى، كما قال سبحانه: {قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [المائدة: ٢٧]، وقوله، جل جلاله: {قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ} [التوبة: ٥٣]، وهذه التقوى التي هي الفيصل في قبول العمل مما لا يطلع عليه إلا هو، كما قال سبحانه: {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم: ٣٢].

وكذلك فإن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن، ولا يعلم مآلات الناس وبِمَ يُختم لهم في هذه الحياة غيره سبحانه، وقد يصنع العبد من الأعمال الصالحة ما لو مات عليه لكان من أهل الجنة، لكونها مما يغفر الله بها خطاياه، ويكفِّر بها سيِّئاته، ويرفع بها درجاته، وهذا حال من أراد الله به خيرا من الناس، ولكن هناك أيضا من تطول به الحياة إلى أن ينكص على عقبيه، ويرتد على أدباره، فيضيع أجر ما عمل من عمل صالح، بوقوعه في كفرٍ يُحبط عمله كله مهما كان عظيما، فيجعله الله -تعالى- هباء منثورا، كما قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها) [رواه البخاري].

لا يشكرُ اللهَ من لا يشكرُ الناسَ

إن ما ذكرناه آنفا من حسن الظن بالنفس أو بالغير بسبب بعض الأعمال الصالحة التي يُيَسرها الرب -جل جلاله- لعبيده، ويوفقهم إليها، ويعينهم عليها، لا يعني بحال أن ينقلب المرء إلى غلو في اتجاه مخالف، بأن يغمط الناس أعمالهم، وأن يتهمهم في نياتهم، فإن هذا ليس من سبيل المؤمنين في شيء، كما قال تعالى: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [التوبة: ٧٩]، بل السنة بخلاف ذلك كليا، ومن يراجع علاقة النبي -عليه الصلاة والسلام- مع الناس يجد هذا واضحا جليا، فقد كان منهجه في ذلك قوله: (لا يشكرُ اللهَ من لا يشكرُ الناسَ) [رواه أحمد].

ولذلك نجد له مواقف كثيرة يشير فيها إلى حسن صنيع بعض صحابته الكرام، مُنبِّها إلى فضلهم في ذلك، ودالّاً الناس على اتباعهم في هذا العمل، ومحببا إليهم النشاط فيه، والإكثار منه، كما في قوله لسعد -رضي الله عنه- يوم أحد: (ارم سعد، فداك أبي وأمي) [رواه أحمد]، لما أعظم النكاية في المشركين بسهامه، وكما قال بعد موقعة أخرى مع المشركين: (كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة) [رواه مسلم]، وقوله لعثمان -رضي الله عنه- لما بذل ألف دينار للإنفاق على جيش العسرة: (ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم) [رواه الترمذي]، وقال لحسان بن ثابت -رضي الله عنه- لما ردَّ على قريش طعنهم في الله ورسوله: (هَجَاهُم حسان، فشفى، واشتفى) [رواه مسلم]، وشهد لأهل بدر أن لهم فضلا عن العالمين بقوله: (وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) [رواه البخاري]، وغيره كثير في سنته، عليه الصلاة والسلام.

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ

فالسنة في الأمر عند النظر في الأعمال الصالحة التي يقوم بها غيره، أن يشكره على هذه الأعمال، ويذكر فضله فيها إن تطلب الأمر، ما لم تخش الفتنة عليه أو على غيره بذلك، وأن يسعى الإمام أو من ينوب عنه إلى مكافأته عليه، وذلك كله دون أن يؤدي ذلك إلى غلو في محبة هذا الفاعل للخير أو تعظيمه، تُفضي إلى الفتنة به على الدين، فيصبح هذا العمل الصالح الذي قام به دَيناً على المسلمين لا يوفون حقه إلا أن يصيروا تبعا لهذا الفاعل للخير، ويكون منَّة عليهم لا يتحللون منها حتى يرث الله الأرض ومن عليها، بل لله -تعالى- المنُّ في ذلك كله على العبد أن يسَّر له طريق الخير وأعانه عليه، كما قال تعالى: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الحجرات: ١٧].

ولا يتجرَّأن أحد فيستشهد بحديث (ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم) في تزكية من يحبُّ من الناس بناء على فعل قام به، فإنه كلام في الخواتيم التي لا يعلمها إلا الله، وأما عثمان فإنه مشهود له بالجنة، شهد له بها من يتنزل عليه الوحي من فوق سبع سماوات، فأين من يدَّعي في نفسه شبها بالشاهد، أو فيمن يزكيه شبها بالمشهود له، هيهات.

وأما الإنسان ونفسه، فيحذر كل الحذر من أن يعجبه عمل صالح دلَّه الله عليه، ووفقه إليه، مهما عظمت قيمة هذا العمل في موازين الناس، وفي ميزان الله تعالى، وعليه أن ينسب الفضل في هذا العمل كله لله، جل جلاله، ويتخذه قربة منه، ووسيلة إليه، وإن كان هذا العمل فتحا من أعظم الفتوح ونصرا من أعظم الانتصارات، فلن يبلغ بحال فتح مكة وتطهير جزيرة العرب من الشرك، فلم يكن من أعظم الفاتحين -عليه الصلاة والسلام- ذلك اليوم، إلا أن يدخل المدينة متذللا لله العظيم، مسبحا له، مستغفرا لذنبه، كما أمره.

وليخش كل امرئ إن رأى من نفسه إعجابا بفعل قام به كان فيه نصر للدين، أو إعزاز لكلمة التوحيد، أن يكون حاله كذلك الرجل الفاجر، الذي منعه ضرره على نفسه أن ينتفع بشيء مما نفع به هذا الدين، وحكم عليه رسول الله -عليه الصلاة والسلام- أنه من أهل النار. نعوذ بالله أن نكون من أمثاله وسائرُ المسلمين، والحمد لله رب العالمين.



فتاوى

من برنامج إذاعة البيان

حكم التصرف باللُّقطة وزكاتها

السؤال: امرأة وجدت لُقطة ذات قيمة منذ سنة، وعرَّفت بها، ولم تجد صاحبها، فهل لها أن تتصرف بها؟ وهل يجب عليها إخراج زكاة عنها، عن هذه السنة التى بقيت تعرِّف بها ؟

الجواب: للمرأة المسؤول عنها أن تتصرف بهذه اللقطة، بعدما عرَّفتها سنة هجرية كاملة، فإن جاء صاحبها بعد حين فعليها السداد.

وهذا نص كلام رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فيما رواه البخارى ومسلم عن زيد بن خالد قال: (سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن لُقطة الذهب، و الورِق؟ فقال : اعرف وكاءها وعفاصها، ثم عرِّفها سنة فإن لم تُعرف، فاستنفقها، ولتكن وديعة عندك، فإن جاء طالبها يوما من الدهر ، فادفعها إليه)

فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (فإن لم تعرف فاستنفقها)، وفي لفظ: (وإلا فهي كسبيل مالك)، وفي لفظ: (ثم كلها)، وفي لفظ: (فانتفع بها)، وفي لفظ: (فشأنك بها)، وفي حديث أبي بن كعب رضي الله عنه: (فاستنفقها)، وفي لفظ (فاستمتع بها) وهو حديث صحيح.

قال الإمام بن قدامة -رحمه الله- (أنَّه إذا عرَّف اللقطة حولا، فلم تُعرف مَلَكها ملتقطها، وصارت من ماله كسائر أمواله، غنيا كان الملتقط أو فقيرا)

ثم عدد القائلين بذلك من أهل العلم وذكر الأدلة ثم قال: (ولأن من ملك بالقرض ملك باللقطة كالفقير، ومن جاز له الالتقاط ملك به بعد التعريف كالفقير)

وأما زكاتها عن السنة التى عرِّفت فيها فليس فيها زكاة، لأن شرط الوجوب هو ملك النصاب، ومُعرف اللقطة غير مالك، والله أعلم .

حكم قول الإمام استقيموا

السؤال: عند تسوية الصفوف يقول الإمام "استووا " وبعضهم يقول "استقيموا "، السؤال عن "استقيموا " هل ورد بها نص ؟

الجواب: لم يثبت عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال "استقيموا" فى تسويته لصفوف المأمومين، فيما نعلم .

ولكن ثبت عنه -صلى الله عليه وآله وسلم- ألفاظ عديدة فى تسويته للصفوف كنحو :

(استووا) كما أشار السائل. وكذا(أقيموا صفوفكم و تراصوا). وكذا (رصوا صفوفكم وحاذوا بالأعناق)، والله أعلم.



التزمه إن أحببت أن يكون الله معك

لا تُعرف قيمته إلا في النوازل، ولا يثبت أصحابه إلا في الشدائد، فلا وجود له في الرفاه، ولا معنى له في الرخاء، أكثر ما يحتاجه الرجال في الفتن، وهو أكبر معين لهم على المحن، وقد مدح رب العزة صاحبه، وذكر أنه في معيَّته قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٥٣].

لا يولد مع المرء في فطرته، ولا هو جزء أصيل في شخصيته، بل هو بالاكتساب يُنال، وبالتدريب يُطال، يكتسي صاحبه تاج الوقار إن استمسك به، ويفوز برضى الرحمن إن تمثَّله، مُرٌّ في بدايته، حلو في نهايته، يُقرِّب المرء من مولاه، ويُنقّي روحه، ويسمو بها إلى المعالي.

من علاماته الرضى بقدر الله، والتسليم بقضائه، وعدم السخط، والاعتراض، والتشكي، فما صبر من اعترض، ولا احتسب من لجّ واشتكى، وإنما الصابر مستكين لمولاه، مستأنس به، قريب إليه، مستسلم له، موقن بالفرج، وفرح بالتعرف إليه، وليس شيء كالمحن تُقرب المسلم إلى مولاه، ولا كالصبر شيء يعرفه عليه .

إنه الصبر الذي يُهذِّب النفس، ويصقل الأخلاق، ويسمو بالروح، ويعلو بالهمم، والذي لا غنى عنه لأحد مهما بلغت مرتبته، وعلا شأنه، وعظم أو قلَّ قدره، وكم يحتاج إليه أهل الثغور، ويطلبه رجال الوغى.

ولقد ذكر الله تعالى لنا كل ما يخص الصبر، أو يلوذ به، كأهميته، وأجره، ومكانة صاحبه عند الله، والخير الذي يصيبه، وعلَّمنا جلَّ في علاه كيف يستعين المؤمن على المصائب والمحن التي تصيبه في حياته فقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٥٣].

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية:(والصبر صبران، فصبر على ترك المحارم والمآثم، وصبر على فعل الطاعات والقربات، والثاني أكثر ثوابا لأنه المقصود، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الصبر في بابين، الصبر لله بما أحب، وإن ثقل على الأنفس والأبدان، والصبر لله عما كره وإن تنازعت إليه الأهواء.

وروى عن علي بن الحسين زين العابدين أنه قال: إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادي مناد: أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب؟، قال: فيقوم عنق من الناس، فتتلقاهم الملائكة، فيقولون: إلى أين يا بني آدم؟، فيقولون: إلى الجنة، فيقولون: وقبل الحساب؟ قالوا: نعم، قالوا: ومن أنتم؟ قالوا: الصابرون، قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا على طاعة الله، وصبرنا عن معصية الله، حتى توفانا الله، قالوا: أنتم كما قلتم، ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين) [تفسير ابن كثير].

وبشَّر رب العزة المؤمنين الذين يصبرون على البلاء فقال: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٥٥].

وأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالتزام الصبر كما التزمه أولو العزم من الرسل، فقال تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ....} [الأحقاف: ٣٥].

وذكر تعالى أنه مع الصابرين فقال: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٥٣]، وأنه يحبهم فقال: {وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: ١٤٦].

إنها نتائج تستحق مقدمتها، ومراتب تتناسب مع ما بذلوا من آلام، وما كتموا من حسرات في سبيل مولاهم العظيم.

فمن للأسير غير الله، ومن للمكلوم سوى الكريم، ومن للأرملة واليتيم والمصاب والحزين والوحيد والفقير والمسكين سوى العليم، ومن لرجال الوغى إذا ما تزلزلت الأقدام مثبِّتا سوى الله.

أخي المجاهد ليكن الصبر زادك في كل حالك، فأنت على خير عظيم ما التزمت به واستأنست إليه، واجمع إليه التقوى ما استطعت، فما بينك وبين أن تنتقل إلى الفردوس الأعلى سوى خطوات وأنفاس، فاجعل التقوى والصبر زادك في الطريق تفلح في الدنيا والآخرة بإذن الله.

سبب نزول

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

قال الله تعالى: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ٩٥].

والآية تتحدث عن الفرق العظيم بين المؤمن القاعد عن الجهاد في سبيل الله، والمجاهد بماله ونفسه، لكنها استثنت من هذا التفريق (أولي الضرر)، ولنزول هذا التفريق سبب بيَّنته الأحاديث.

فعن ابن شهاب قال: حدثني سهل بن سعد الساعدي أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد، قال: فأقبلت حتى جلست إلى جنبه، فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أملى عليه: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}. فجاءه ابن أم مكتوم وهو يملها علي، قال: يا رسول الله والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت، وكان أعمى، فأنزل الله على رسوله -صلى الله عليه وسلم- وفخذه على فخذي، فثقلت علي حتى خفت أن ترض فخذي ثم سُرِّي عنه فأنزل الله: {غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ} [رواه البخاري].

وفي رواية أخرى عن أبي إسحاق عن البراء -رضي الله عنه- قال: لما نزلت {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، دعا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- زيدا فكتبها فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته فأنزل الله {غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ}.

ورغم عفو الله تعالى عن أولي الضرر، فإن ابن أم مكتوم رضي الله عنه، مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي أنزل الله تعالى بسبب قصته معه قوله: {عبس وتولى * أن جاءه الأعمى} [عبس: ١-٢]، وأول المهاجرين إلى المدينة، وخليفة رسول الله على المدينة في غزوة بدر، رغم عذره، أبت نفسه إلا أن يطلب منازل المجاهدين، وأن تغبر قدمه في سبيل الله، فقد شهد له الصحابة أنه شارك في القادسية، عليه درع حصينة سابغة، ومعه الراية، كما جاءت بذلك الروايات.

فما للأصحاء يرضون بالقعود، ويزهدون بما أعده الله تعالى للمجاهدين في سبيله.



حسن الخلق

إن المنزلة العظيمة التي خصَّ الله -تعالى- بها صاحب الخلق الحسن، والمكافأة الكبيرة التي أعدها الله له لَتجعلُنا متحفزين متنبهين لمعرفتها وسبل بلوغها، والسعي لتحقيق ذلك.

فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: سُئل رسول الله، صلى الله عليه وسلم: ما أكثر ما يُدخل الجنة؟ قال: (تقوى الله، وحسن الخلق)، قال: وما أكثر ما يُدخل النار؟ قال: (الأجوفان: الفم والفرج) [رواه البخاري في الأدب المفرد].

وعنه قال: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصلاة والصوم) [رواه الترمذي].

وعن عائشة -رضي الله عنها- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وألطفهم بأهله) [رواه أحمد].

وعن جابر: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا) [رواه الترمذي].

قال عبد الله بن المبارك واصفا حسن الخلق: هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكفُّ الأذى.

وقال آخر: هو التحرز من الشح والبخل والغضب، والتشديد في المعاملات، والتحبب إلى الناس بالقول والفعل، والسماحة وترك التقاطع والهجران والتساهل في العقود.

والصبر والحلم والأناة والتواضع مقدمات لا غنى عنها للخلق الحسن، فإن لم يكن للمرء صبر على الأذى، وحلم على الإساءة، وتفكر في الأمور ونظر في عواقبها، وأناة في القيام بها فليس باستطاعته أن يكون من أصحاب الخلق الحسن.

وقال الطبري في تفسير قوله تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت: ٣٤]: "أي افعل هذا الذي أمرتك به يا محمد من دفع سيئة المسيء إليك بإحسانك الذي أمرتك به إليه، فيصير المسيء إليك الذي بينك وبينه عداوة، كأنه من ملاطفته إياك وبرِّه لك، وليٌّ لك من بني أعمامك، وقوله تعالى: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فصلت:٣٥]. أي لا يُعطَى دفع السيئة بالحسنة إلا الذين صبروا لله على المكاره، والأمور الشاقة، وذو حظ عظيم أي ذو جدٍّ" [تفسير الطبري].

وفي تفسير قوله: {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ} [فصلت: ٣٦]: "يقول -تعالى- وإما يُلقِيَنَّ الشيطان يا محمد في نفسك وَسوَسة من حديث النفس إرادة حملك على مجازاة المسيء بالإساءة، ودعائك إلى إساءته، فاستجر بالله واعتصم من خطواته، إن الله هو السميع لاستعاذتك منه واستجارتك به من نزغاته" [تفسير الطبري].

تذكر أخي أن الأخلاق الحسنة أمر يمكن اكتسابه بالتدرب، وهو يحتاج إلى النباهة وتجنب الغفلة، وإلى ضبط النفس، وكظم الغضب والابتعاد عنه ما أمكن، وإن أفضل ما يساعدك على ذلك الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم عند الغضب، أو تلقي الإساءة.

أخي المجاهد، إن أفضل وأتم تَمثُّلٍ بالخلق الحسن هو التمثل بأخلاق رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وليكن هدفك الأول من التمثل بأخلاقه -صلى الله عليه وسلم- مرضاة الله تعالى، وتذكر أن الله -عز وجل- يرضى لك ذلك ويحبه، فأره منك ما يحب، وليكن الطمع فيما عند الله دافعا لك.

اعلم أخي المجاهد أن هذه المرتبة العظيمة التي خصَّ الله بها صاحب الخلق الحسن تستحق منك البذل والجهد والعناء في سبيل تحقيقها، فاستعن بالله وراقب أقوالك وأفعالك واحرص أن تكون على هدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كي تكون من أقرب الناس منه مجلسا يوم القيامة.





قصة حديث

(من غشَّ فليس منِّي)

حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الغش معلوم مشهور بين الناس وهو قوله: (من غشَّ فليس منِّي)، وفي رواية: (ومن غشَّنا فليس منَّا)، وكلا الروايتين في صحيح مسلم. وللحديث قصة تُبيِّنها الرواية ذاتها، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مرَّ على صُبرة طعام، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعُه بللاً، فقال: (ما هذا يا صاحب الطعام؟)، قال: أصابته السماء يا رسول الله! قال: (أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، من غش فليس مني) [رواه مسلم].

والمعنى أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أدخل يده في كومة طعام فوجد أسفله مبللا، مع أن ظاهره غير ذلك، ولما سأل صاحب الطعام عن الأمر أخبر بأن المطر نزل عليه، فأنكر عليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فعله، وأعلمه أن عليه أن يظهر ذلك للناس ولا يخفي عيب بضاعته، وأعلمه بأن ذلك من الغش الذي مَنْ فَعَلَهُ، فليس من رسول الله، أي ليس على هدي رسول الله ونهجه.

وهذا الحديث يتحدث عن صورة من صور الغش -وما أعظم انتشارها- وللغش صور كثيرة، فهل يرضى من اتصف بهذه أن يقول له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لست مني؟ إذن ليراجع كل امرئ نفسه، ويجدد التوبة لربه.



استبشر بطريق الجهاد

الحمد لله الذي أنزل الكتاب هدىً ورحمةً للمؤمنين، والصلاة والسلام على نبيه نبي الرحمة ونبي الملحمة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد...

فإن الله -تعالى- قد بشَّر عباده المؤمنين بشارات كثيرة تُقوِّي عندهم جانب الرجاء وترفع معنوياتهم، خاصة إذا واجهوا أعداءهم، فحين أمرهم -سبحانه- بالثبات في قتال عدوهم بشَّرهم بأنه مع الصابرين، {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٥ - ٤٦]، وهي معية خاصة لأوليائه، تختلف عن المعية العامة لعموم خلقه بالعلم والإحاطة والقدرة عليهم، كما في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد: ٤]، وأمر -تعالى- عباده بأن يستبشروا ببيعهم أنفسهم وأموالهم لله عز وجل، مقابل أن يدخلهم جنة الخلد، {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ١١١]، وحتى حين يبتليهم الله -عز وجل- بأن ينال منهم الكفار بعض النيل بالقتل أو بالجراح أو الأسر، أمر -تعالى- المجاهدين بأن يستشعروا العلو على الكافرين ولا يضعفوا عن قتالهم ولا يحزنوا لما أصابهم، {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٣٩]، والمؤمن مبشر بالخير في السراء والضراء، إذا كان شاكراً لأنعم الله صابراً عند الابتلاء، قال صلى الله عليه وسلم: (عَجَباً لأمر المؤمن! إنّ أمره كلّه له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضرّاء صبر، فكان خيرا له) [رواه مسلم]، وكل ما يصيب المسلم من بلاء صغُر أو كبُر فهو سبب لتكفير سيئاته، قال صلى الله عليه وسلم: (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفَّر الله بها من خطاياه) [رواه البخاري ومسلم]. وكل ما يعمله المؤمن من جهاد بالنفس والمال، وكل موطئ يطأه يغيظ الكفار وكل نيل يناله منهم، وكل أذى يصيبه، فهو مثاب على هذه الأعمال أعظم الثواب، فاحتسب الأجر أخي المجاهد في العسر واليسر، وأحسن ظنك بالله -تعالى- ولي المؤمنين، الذي أمرهم بجهاد أعدائه فاستجابوا، وأمرهم بتحكيم شريعته وعدم اتباع أهواء الناس فامتثلوا طالبين رضاه، خائفين من عذابه إن لم ينفروا لقتال أعدائه أو لم يحكِّموا شرعه، أبشر أخي المجاهد بكفاية الله للمتوكلين عليه المفوضين أمرهم إليه، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.



فتاوى

من برنامج إذاعة البيان

هل يعامل معاملة الشهيد من مات بعد مدة من إصابته

السؤال: أخ يسأل، إذا أصيب أحدنا بجراح ونُقل إلى المستشفى، ثم مات فهل يُعامل معاملة الشهيد؟ أم يُغسَّل ويكفَّن ويُصلَّى عليه ؟

الجواب: لابد أن يُعلم ابتداءاً أن باب الشهادة واسع، فالحريق شهيد، والغريق شهيد، والمبطون ،والمطعون، وصاحب الهدم شهداء، وغيرُهم ممَّن دلَّت الأدلة على أن لهم وصف الشهادة بالمعنى العام. غير أن الأدلة قد خصَّت شهيد المعركة بأحكام خاصة.

-وشهيد المعركة هو: من قُتل فيها ،أو وُجد وبه رمق ثم مات، أو حُمل ولم تستقر له حياة ثم مات .

– أما من أصيب فى المعركة بجراح ثم حُمل من المعركة، وبقيت حياته مستقرة، فإنه ليس بشهيد معركة، فلا يأخذ أحكام الشهيد الدنيوية باتفاق الفقهاء.

– لذا قالوا : ومن عاش فأكل أو شرب، أو عاش حياة بيِّنة ليس كحال من به رمق وهو فى غمرة الموت، فإنه يُغسَّل ويكفن ويصلى عليه، والله أعلم.

سفر المرأة العجوز بغير محرم

السؤال: ما حكم سفر المرأة العجوز بغير محرم ؟

الجواب: إن الناظر فى نصوص الشرع التي جاءت بتحريم سفر المرأة بغير محرم يجد أنها عامَّة فى جميع النساء ولم تُخصَّص، ولذا فالقول بجواز سفر المرأة العجوز بغير محرم، قول يحتاج لدليل خاص، وما دام أنه لا يوجد دليلٌ خاص، فالأصل عدم تخصيص المرأة العجوز، فتبقى على الأصل فى حرمة السفر بغير محرم، وبالله التوفيق .



وشاورهم في الأمر

عن المِسْوَر بن مخرمة في قصة الحديبية قال: فلما فرغ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من قضية الكتاب قال لأصحابه: (قوموا فانحروا، ثم احلقوا)، قال: فو الله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، قال: فلما لم يقم منهم أحد، قام فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟، اخرج، ثم لا تكلم أحدا منهم حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فقام، فخرج، فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضا.

وفي موقعة بدر قال صلى الله عليه وسلم: أشيروا عليّ أيها الناس، فقام سيدنا سعد رضي الله عنه، وقال: يا رسول الله لكأنك تعنينا؟ قال: أجل، قال: يا رسول الله لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق فامض لما أراك الله، نحن معك لن يتخلف منا رجل واحد، إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء فحارب من شئت، وسالم من شئت، وعادِ من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فو الذي بعثك بالحق إن الذي تأخذه من أموالنا أحب إلينا من الذي تبقيه لنا فامض على بركة الله، لو خضت هذا البحر لخضناه معك.

هذا فِعل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– النبي المعصوم، الذي يتلقى الوحي من السماء، وهو أغنى من يكون عن المشورة، لكنه فعلها، وكررها، وحث عليها، وما ذلك إلا درس لنا، وإيعاز بأهميتها، وتنبيه لضرورتها، وهذا كله امتثال لقوله تعالى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: ١٥٩].

أخي المجاهد إن الاستشارة مستحبة بكل المواطن، بل تكاد تكون واجبة في بعضها، وأكثر ما تكون كذلك في ساحات الوغى، وأكثر من يجب عليه الالتزام بها هو المجاهد، الذي قد يترتب على قراره سفك دماء إخوانه، وأرواح المسلمين، فكم من دماء حُفظت بمشورة أمير عاقل، وكم من أرواح أُزهقت بتعنُّت جاهل، رفض مشورة إخوانه واستبدَّ برأيه.

أخي المجاهد إن المشورة كنز قد يقيك عناء الطريق ومشقة المسير، فكلمة صغيرة من أخ بسيط قد تكون حليفة التوفيق والنجاح، فلا تغتر برأيك، فقد يأتي الشقاء على يديك، فتكون سببا في ظلم نفسك وغيرك.

وتذكر أن هذا الأمر لا يصلح له متكبر، فلن تقدر على طلب المشورة مالم تكن متواضعا، واحذر الابتعاد عن إخوانك فلن تقوى على هذا الأمر كذلك ما لم تكن قريبا منهم، تجالسهم، تمازحهم، تندمج معهم، كي لا ترى حرجا في طلب المشورة منهم، وانتق في ذلك صاحب الخبرة والتقوى، وتحيَّن الوقت المناسب، ولا تتردد في طلبها وقت حاجتها، ولا تفوِّت على نفسك الفرصة في طلبها ابتغاء وجه الله تعالى بإخلاص وابتغاء مرضاته.

واحذر أخي المجاهد إن امتنعت عن استشارة إخوانك من امتناعهم عن نصحك، واعلم أنك إن جعلتها ديدنك فإنهم سيجعلون النصح ديدنهم، ولن يبخلوا عليك بآرائهم، فقد يُكرم الله تعالى أحدهم برأي يكون فيه السداد، فتسود به أنت وهم في الدنيا والآخرة.

واعلم أخي أن المشورة تجعل إخوانك شركاء لك في الأمر، يتحملون المسؤولية معك، ويتبنُّون قرارك، ويعملون على تنفيذه وإنجاحه، وفيها تقدير لهم واحترام لذواتهم، وإن وافق رأيُك رأيهم، فذلك تعزيز له وتقريبه من قلوبهم.



سبب نزول

{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا}

قال الله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [الطلاق: ٢ - ٣].

قال ابن كثير في تفسيره: "أي: ومن يتق الله فيما أمره به، وترك ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مخرجا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، أي: من جهة لا تخطر بباله... وقال محمد بن إسحاق: جاء مالك الأشجعي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال له: أُسِر ابني عوف. فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (أرسل إليه أن رسول الله يأمرك أن تكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله)، وكانوا قد شدوه بالقد فسقط القد عنه، فخرج، فإذا هو بناقة لهم فركبها، وأقبل فإذا بسرح القوم الذين كانوا قد شدوه فصاح بهم، فاتبع أولها آخرها، فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادي بالباب، فقال أبوه: عوف ورب الكعبة. فقالت أمه: واسوأتاه، وعوف كيف يقدم لما هو فيه من القد؟ فاستبقا الباب والخادم، فإذا عوف قد ملأ الفناء إبلا، فقصَّ على أبيه أمره وأمر الإبل، فقال أبوه: قِفا حتى آتِيَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأسأله عنها، فأتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأخبره بخبر عوف وخبر الإبل، فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (اصنع بها ما أحببت، وما كنت صانعا بمالك)، ونزل: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}" [تفسير القرآن العظيم].

نسأل الله أن يجعلنا من المتقين، ويفرِّج عنا ما نحن فيه، ويرزقنا من لدنه رزقا طيبا مباركا فيه.

أخي المجاهد

إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

الحمد لله رب العالمين، وعده حقٌّ وأخباره صدقٌ وأحكامه عدلٌ، والصلاة والسلام على أعلم الخلق بالله وأخشاهم وأتقاهم له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد...

فقد أثنى الله -تعالى- على عباده المؤمنين الذين يصدِّقون كلامه ويوقنون بتحقق موعوده، لا يزولون عن هذا اليقين في السراء ولا في الضراء، بل لا تزيدهم المحن إلا إيماناً بالله وآياته ووعوده، وتسليماً لأمره وحكمته، ورضاً بقضائه وقدره.

كثيراً ما ترجو نفوسنا أن يأتي الفرج والنصر من الله بطريقة معينة وبأحداث محددة، ولكن {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير: ٢٩]، فلله -تعالى- حِكم عظيمة قد يخفى علينا كثير منها.

لقد رجا المؤمنون من المهاجرين والأنصار أن يلقوا قافلة كفار قريش فيأخذوها سهلة بغير قتال، ويكون فيما يغتنمونه منها قوة لهم وبلاغ إلى حين، ولكن الله -تعالى- شاء وهو العليم الحكيم أن تنجو القافلة وتخرج قريش عازمة على قتال المسلمين بجيش يزيد على ثلاثة أضعاف عدد المجاهدين، طامعة في القضاء على الموحدين الذين بدأوا يُسقطون هيبة قريش ويجترئون عليها وعلى تجارتها، فكانت غزوة بدر الكبرى، التي قال الله عنها: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} [الأنفال: ٧ – ٨]، وقبل الغزوة قلَّل الله -تعالى- عدد الكفار في أعين المؤمنين ليتشجعوا على قتال الكفار ولا ترهبهم أعدادهم، وقلل عدد المؤمنين في أعين الكفار ليغريهم بقتال المؤمنين، قال تعالى: {وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} [الأنفال: ٤٤]، فلما التحم الفريقان رأى الكفارُ المسلمين وكأنهم ضعف عدد الكفار، فتزلزل جيشهم وسقطت معنوياته، ووهنت قوته، ويئس من النصر، وأيَّد الله المؤمنين بنصره، قال تعالى: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ} [آل عمران: ١٣].

وفي غزوة الأحزاب ابتلى الله -تعالى- المؤمنين ابتلاء شديداً لا يتوقعونه، فازدادوا إيماناً بتحقق وعد الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- بنصر المؤمنين واندحار الكافرين.

قال ابن إسحاق: "حدثني يزيد بن رومان في قول الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا} [الأحزاب: ٩]، والجنود: قريش وغطفان وبنو قريظة، وكانت الجنود التي أرسل الله عليهم مع الريح: الملائكة، وعن مجاهد: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ} قال: عيينة بن بدر في أهل نجد، {وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ}، قال أبو سفيان: وواجهتهم قريظة، وعن قتادة: {وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ} شخصت، وعن عكرمة: {وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ}، قال: من الفزع، وعن الحسن: {وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا}، قال: ظنوناً مختلفة: ظنَّ المنافقون أن محمداً وأصحابه يُسْتَأْصَلُون، وأيقن المؤمنون أن ما وعدهم الله حق، وأن الله سيُظهر دين الإسلام على الأديان كلها ولو كره المشركون" انتهى كلامه بتصرف يسير.

لقد جاء نصر الله -تعالى- بكيفية عجيبة ظهرت فيها قدرة الله وقوته وعزته وحكمته ولطفه بالمؤمنين، قال تعالى: {وَرَدَّ الله الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى الله الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ الله قَوِيًّا عَزِيزًا} [الأحزاب: ٢٥]، وأيَّد الله -تعالى- المؤمنين بالنصر على يهود بني قريظة والإثخان فيهم، ومنَّ على المؤمنين بالغنائم الكبيرة التي أورثهم إياها من بني قريظة، قال تعالى: {وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً} [الأحزاب: ٢٦ – ٢٧].

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين.





الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

فإن الله خلق الخلق لغاية سامية بيَّنها الله في كتابه فقال: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]، فطلبه منهم، ووعدهم عليه أن يدخلهم الجنة؛ فانقسم الخلق في هذا الأمر بين مقدِّم لأمر الله تعالى، وبين متبع هواه ضال عن سبيل ربه ومولاه، فأرسل الله الرسل وأنزل الكتب حجة للناس وإعذارا إليهم، فمن وفَّقه الله وهداه استجاب لنداء الله ورسوله، ومن كتب عليه الشقاء ضلَّ وما اهتدى.

جاءت الرسل بالدعوة إلى عبادة الله تعالى، وترك الشرك به سبحانه، وهذا ما دعا إليه النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- وحققته أمته، لكن أفكارا دخيلة كانت تتسرب لها بين حقبة وحقبة، من إنكار للقدر، إلى نفي للأسماء والصفات وإلحاد فيها، إلى شرك القبور، وانتهاء بشرك الدستور ونبذ كتاب الله وسنة رسوله، وتنحيتهما عن الحكم بين المسلمين، وإحلال الحكم بالقانون بدلا عن الحكم بالكتاب والسنة، وجعل السيادة للشعب بدلا عن سيادة القرآن والسنة، فكانت سنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول {وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} [فاطر: ٤٣]، فافترق الناس في الموقف من هذا؛ فضلَّ الكثير منهم، ودخلوا في شرك القانون، ونهضت ثلة من المؤمنين يقارعون هذا المد الكفري، ويكشفون عواره بالحجة والبرهان، والسيف والسنان، قال صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك).

فعندما كان كثير من أبناءالأمة هائم باللهو والرقاد، كانت الصفوة منها تتهيأ لميادين من العمل الشاقّ الدؤوب، وعندما كان العالم ينادي بالكفر المغلّف بمسمى السلام والتعايش ويلمِّعه بالزخرف من القول، كانت الصفوة تستعلي بعقيدتها وجهادها وقتالها، تهدهد عروش الطواغيت وتزلزلها.

وعندما كان العالم في وادٍ سحيقٍ من المتاع والرفاهية المقعدة والهمم الدنيئة المتوجسة من أدنى بذل وعطاء، كانت الصفوة ترسم بتضحياتها وإنجازاتها لوحةً رائعةَ الملامح، تثير مكامن الإعجاب والتقدير في قلوب وعيون كثير من الناس حتى من أعدائها المحاربين لها.

وبدأ المجاهدون جهادهم ضد شرك العصر وأوليائه ورافقتهم معونة الله وتأييده قال الله تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ} [الصافات: ١٧١، ١٧٢]، فمن جهاد ثلة قليلة مستضعفة إلى نصر توّج بإعلان قيام الخلافة المباركة وقيام سلطان الله في أرضه، فظهر الدين وهدمت آمال الطغاة وأهل الضلال، وبزغت شمس الحق فأحرقت شُبه أئمة الضلال وأذناب الطواغيت، الذين ما ادَّخروا جهدا في حرب الجهاد وأهله.

وكان نتاج هذا الجهاد والصبر الطويل ثمرات يانعة سقيت بدماء وعرق أئمة الجهاد الذين بذلوا أغلى ما يملكون حتى وصلت الثمرة إلى نضجها واستوائها وتذوق الناس حلاوتها، ومن هذه الثمرات اليانعة..

- تطبيق شرع الله تعالى والذي كان قبل وقت قريب أشبه بالمستحيل عند من يقيسون الأمور بعيدا عن مدد الله وعونه، فطبقت أحكام الشريعة على أرض الواقع، ونصِّب الإمام وساس الرعية بهدي القرآن، وأقيمت الصلوات وجبيت الزكوات، وفاء الناس إلى دين الله تعالى، وأزيح ركام الشبهات عن حدود الله فرُدِع السارق بقطع يده، ورجم الزاني وجلد شارب الخمر، وصار ما يتلوه المسلمون في كتاب الله فيظنونه تراث عصور قد خلت صاروا يرونه أمرا مشاهدا وواقعا ملموسا فشرقت حلوق أهل الكفر وأئمة الضلال وظهر حسد الحاسدين، فقامت سوق الابتلاء والتمحيص كما قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: ١٤٢].

- ظهور دين الله وتميُّز منهج أهل الهدى والحق الذي يوافق الفطرة ويهتدي بالقرآن، فبعد أن كان دين الإرجاء هو السائد في أمة الإسلام أصبح اليوم منهجا متخلفا يخلعه متبعه عند أول خطوة يخطوها في طريق الجهاد، إذ يتبين له عواره ويكتشف مكر الطواغيت بتمكينهم لهذا المنهج الدخيل على أمة الإسلام، فالإرجاء دين يحبه الملوك.

- وكذا كشف جهاد المجاهدين زيف منهج الإخوان المرتدين الذين خدَّروا المسلمين وخدعوهم بشعاراتهم الكاذبة فأوقعوا الناس في الكفر والضلال، فأفاق من كان مغترا بهم لما رأى صفاء منهج دولة الإسلام الموافق للفطرة، ونهج القرآن، وبضدها تتميز الاشياء.

- وأحيا المجاهدون ألفاظ الشرع المستعملة في القرآن والسنة كلفظ الردة والشرك والمشركين وأهل الذمة والجزية وغيرها؛ فصار المسلم يتلوا القرآن فينزِّله على واقعه بعد أن كان يتلوه فيظنه في أناس مضوا ولم يُعقبوا وارثا، فيصده ذلك عن الانتفاع بكتاب الله تعالى.

- ومن بركات الجهاد زوال الشرك وانحساره في بقاع شتى، فبعد أن أوقع الطواغيت وأنصارهم أمة الإسلام في كثير من صور الشرك المعاصر كالقبورية، والتحاكم لغير شرع الله، ونصب المشرِّعين مع الله، أعادت دولة الإسلام كثيراً ممن ضل عن نهج القران بعد أن بُيِّنت صور الشرك للناس فأفاق كثير ممن كان يحسب أنه على هدى وأنه يحسن صنعا وعلم أنه قد قارف الموبقات، من صور الشرك والضلال فبادر إلى التوبة والبراءة منه والصدع بذلك في أهله ومن حوله.

- وكذا ما دخل المجاهدون أرضا إلا هدمت فيها الأصنام وأزيلت مظاهر الشرك والوثنية، فمحيت من الوجود وأزيلت من الأذهان والعقول بكتاب يهدي وسيف ينصر وكفى بربك هاديا ونصيرا، وما كان هذا ليكون إلا بفضل الله ثم بجهود الصادقين من المجاهدين والشهداء الذين أناروا هذه الظلماء ودلّوا الناس بتوفيق الله على التوحيد الخالص.

- ومن ثمرات الجهاد معرفة الأمة لحقيقة الولاء والبراء بعد أن عبث بهذا المفهوم أولياء الشيطان من الطواغيت وعلماء السوء فكان في حقبة من الزمان قائما على قومية نتنة، أو على حفنة من تراب، أو على عصبية قبلية، أو مبدأ من زبالة أفكار البشر، فهدم المجاهدون كل هذا وأقاموا أوثق عرى الإيمان وهو الولاء والبراء على عقيدة الإسلام، فالناس بين مسلم وكافر تحقيقا لقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ} [التغابن: ٢] فليس ثمة إلا الحنيفية السمحاء عليها يعقد الولاء والبراء فالمسلم البعيد أخوك في الدين، والمرتد عدو لله وإن كان في النسب قريب.

- ومن بركات جهاد المجاهدين كشف عوار أنصار الطواغيت من أحبار السوء وعساكر الشرك فبعد أن كان الالتحاق بسلك العسكرية عند الطواغيت في نظر كثير من الناس أمنية ووظيفة مطلوبة؛ أصبحت اليوم أمرا مرفوضا وبان لهم حكمها وكفر أصحابها بفضله وحده سبحانه.

وإن نعم الله في هذا الجهاد لا تعد ولا تحصى، فالمجاهد تهدى على يديه بهداية الله أمم، لا يعلم كثير منهم ولا يعرفهم، وكثير من خيرات الجهاد وفضله قد لا يتنبه لها حتى المجاهدون أنفسهم بل يجدونها بإذن الله في صحائفهم عند من لا يضيع عنده مثقال ذرة، وإن أقل القليل من المجاهد هو أن وجوده فقط يغيض الطواغيت {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [التوبة: ١٢٠]، فالله الله بالإخلاص واحتساب الأجر عند الله فالحمد لله أن وفق المجاهدين وأنار دربهم وللحق هداهم.

قصة حديث

(إنما الصبر عند الصدمة الأولى)

قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إنما الصبر عند الصدمة الأولى) [رواه البخاري]، وفي رواية أخرى عند ابن ماجه عن أبي أمامة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: يقول الله سبحانه: (ابن آدم إن صبرت واحتسبت عند الصدمة الأولى، لم أرض لك ثوابا دون الجنة).

ولحديث الإمام البخاري قصة حدثت مع امرأة، فعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: مرَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- بامرأة تبكي عند قبر فقال: (اتقي الله واصبري)، قالت: إليك عنِّي فإنك لم تُصب بمصيبتي ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي، صلى الله عليه وسلم، فأتت باب النبي، صلى الله عليه وسلم، فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: (إنما الصبر عند الصدمة الأولى) [رواه البخاري].

والمعنى أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - لما أمر المرأة بالصبر أنكرت عليه ذلك، لكنها لما عرفت أن الذي خاطبته هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جاءت إلى بيته معتذرة، فأعلمها أن تحقيق الصبر، الذي يؤجر عليه المسلم أجرا عظيما هو ما يظهره المسلم من التسليم بقدر الله عندما يلقى صدمة المصيبة بالصبر، فقد يبكي الإنسان وهو صابر وقد يكون غير ذلك.

ولذا فليكن المسلم حريصا على تمثل الصبر عند وقوع المصائب، وليحرص على ألا يقول كلمة أو يفعل فعلاً ينقص من أجره، وما عند الله خير وأبقى، وليعلم أن الله -عز وجل- بشَّرَه فقال: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٥٥].



العفو يقربك إلى الله

أخي المجاهد اعلم أن من أسمى الأخلاق التي حث الإسلام على الاتصاف والتحلي بها هي خلق العفو عمن أساء وظلم، وهو الخلق الذي يُقرب العبد من ربه، ويجعله ممن يأمل عفوه يوم لا ينفع مال ولا بنون.

قال تعالى: {إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} [النساء: ١٤٩].

قال ابن كثير في تفسير الآية: "إن تُظهروا أيها الناس خيرا، أو تُخفوه، أو تعفوا عمن أساء إليكم، فإن ذلك مما يقربكم من الله ويُجزل ثوابكم لديه، فإن من صفاته -تعالى- أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم".

وقال تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [الشورى: ٤٠].

وقال لنبيه: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: ١٩٩].

قال ابن جرير الطبري في تفسيره: "خذ العفو من أخلاق الناس، واترك الغلظة عليهم، وقد أُمر بذلك نبي الله في المشركين" [جامع البيان في تأويل القرآن].

وعن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله، يدَّعون له الولد، ثم يعافيهم ويرزقهم) [رواه البخاري].

وعن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: "يا رسول الله كم نعفو عن الخادم؟"، فصمت، ثم أعاد عليه الكلام فصمت، فلما كان في الثالثة قال: (اعفوا عنه في كل يوم سبعين مرة) [رواه أبو داود].

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله) [رواه مسلم].

وقال الحسن البصري: "أفضل أخلاق المؤمن العفو".

وقال الأحنف بن قيس: "إياكم ورأي الأوغاد"، قالوا وما رأي الأوغاد؟ قال: "الذين يرون الصفح والعفو عاراً".

وأما صور عفو رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عمّن أساء إليه فهي كثيرة، منها أنه عفا عن الأعرابي الذي أتاه وهو نائم تحت الشجرة فأخذ سيفه وقال له: من يمنعك مني يا محمد؟ فقال صلى الله عليه وسلم: الله، فسقط السيف من يد الأعرابي، وتمكن منه رسول الله ثم عفا عنه.

وعفا كذلك عن الأعرابي الذي جذبه من ردائه وحمَّر رقبته وطلب منه المال، فالتفت إليه -صلى الله عليه وسلم- ولم يعنفه وأمر له بعطاء، وعفا عن ثمامة بن أُثال بعدما أسره بَعْثُ رسول الله قِبَلَ نجد، وكان العفو سببا في إسلامه، وعفا عن المرأة اليهودية التي سممته، وعفا عن أهل مكة بعد فتحها، وعفا عن أبي سفيان يوم فتح مكة، وخصَّه بما هو أكثر من العفو عندما أعلن أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمِن، وعفا عن أهل ثقيف بقوله لملك الجبال: (أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا).

إذن فالتاريخ يثبت أن المسلم يحقق بالعفو ما لا يحقق بضده، وفوق ذلك أن من اتصف به فهو متأس بالنبي صلى الله عليه وسلم وسائر على نهجه وراج من الله عزوجل عفوه ورضاه، فكما تدين تدان.

من التاريخ

ثبات أهل (جُوَاثَا) على الإسلام

بعد وفاة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ارتدت العرب أجمعين إلا مكة والمدينة والطائف، وقرية بالبحرين، هذه القرية هي (جُوَاثَا) التي ثبت أهلها على الإسلام، ولاقَوا في ذلك ما لاقَوا من أذى المرتدين المحيطين بهم من كل مكان، إلى أن أرسل إليهم الصديق -رضي الله عنه- العلاء بن الحضرمي الذي قضى على أهل الردة، بفضل الله.

قال ابن كثير في البداية والنهاية: "فلما مات المنذر ارتد أهل البحرين وملَّكوا عليهم الغَرور، وهو المنذر ابن النعمان بن المنذر. وقال قائلهم: لو كان محمد نبيا ما مات، ولم يبق بها بلدة على الثبات سوى قرية يقال لها (جُوَاثَا)، كانت أول قرية أقامت الجمعة من أهل الردة كما ثبت ذلك في البخاري عن ابن عباس وقد حاصرهم المرتدون وضيقوا عليهم، حتى مُنعوا من الأقوات وجاعوا جوعا شديدا حتى فرَّج الله.

وهكذا صبرت هذه القرية المسلمة في محيطٍ كافر مرتد، صبرت وثبتت على دينها لما أعلن الجميع عودتهم إلى الجاهلية والردة، حتى أذن الله بالفرج والنصر بدحر المرتدين واقتلاع شأفتهم.

قال ابن الأثير في الكامل: "وخندَقَ المسلمون على أنفسهم والمشركون، وكانوا يتراوحون القتال ويرجعون إلى خندقهم، فكانوا كذلك شهرا، فبينا هم كذلك سمع المسلمون ضوضاء هزيمة أو قتال، فقال العلاء: من يأتينا بخبر القوم؟ فقال عبد الله بن حذف: أنا، فدخل عسكر المسلمين فأخبرهم أن القوم سكارى، فخرج المسلمون عليهم، فوضعوا فيهم السيف كيف شاءوا، وهرب الكفار، فمن بين مرتد وناج ومقتول ومأسور، واستولى المسلمون على العسكر، ولم يفلت رجل إلا بما عليه".

قصة حديث

من ولي من أمر أمتي شيئا فشقَّ عليهم فاشقُق عليه

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (اللهم، من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم، فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم، فارفق به) [رواه مسلم].

روى مسلم عن عبد الرحمن بن شِماسة، قال: "أتيت عائشة أسألها عن شيء، فقالت: ممن أنت؟ فقلت: رجل من أهل مصر، فقالت: كيف كان صاحبكم -أي أميركم- في غزاتكم هذه؟ فقال: ما نقمنا منه شيئا، إن كان ليموت للرجل منا البعير فيعطيه البعير، والعبد فيعطيه العبد، ويحتاج إلى النفقة، فيعطيه النفقة، فقالت: أما إنه لا يمنعني الذي فعل في محمد بن أبي بكر -أخي- أن أخبرك ما سمعت من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول في بيتي هذا: (اللهم، من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم، فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم، فارفق به) [رواه مسلم].



لم يكن الرفق في شيء إلا زانه

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن أعرابيا بال في المسجد، فثار إليه الناس ليقعوا به فقال لهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (دعوه، وأهريقوا على بوله ذَنوبا من ماء، أو سَجلا من ماء، فإنما بُعثتم ميسرين ولم تُبعثوا معسرين) [صحيح البخاري].

وعن عائشة -رضي الله عنها - قالت: استأذن رهط من اليهود على النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: السام عليك، فقلتُ: بل عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (يا عائشة، إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله)، قلتُ: أولم تسمع ما قالوا؟ قال: (قلتُ: وعليكم) [صحيح البخاري].

أخي المجاهد: لقد حثَّ شرعنا الحنيف على الأخلاق الحسنة وحرَّض عليها ليس لأنها تعلو بصاحبها في مراتب الشرف وتُهذب النفس فحسب، بل لأن خيرها ينعكس على كامل المجتمع المسلم وأفراده.

ويعتبر الرفق من الأخلاق التي يتعدى خيرها للآخرين، حتى مع غير البشر، فقد روت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- شيئا من ذلك فقالت: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يبدو إلى هذه التلاع، وإنه أراد البداوة مرة، فأرسل إليَّ ناقة محرَّمة -يعني ناقة لم تُركب- من إبل الصدقة، فقال لي: (يا عائشة، ارفقي فإن الرفق لم يكن في شيء قط إلا زانه، ولا نُزع من شيء قط، إلا شانه) [سنن أبي داوود].

وعن أبي يعلى شداد بن أوس -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليُرح ذبيحته) [رواه مسلم].

ولا بد للرفق أن يكون لِينا من غير ضعف، وتيسيرا من غير تفريط، وأن يُستعمل في موضعه استعمالا حكيما، فلين الجانب بالقول والفعل هو السهولة والتواضع بالقول والفعل وترك العنف والقسوة والغلظة والفظاظة في الأمر والنهي.

قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}، [آل عمران: ١٥٩].

وإذا ما أردت أيها القائد أو الأمير أو الأب أو الزوج أو الأخ أو الجندي أن تكون مطاعا فلا بد لك من لين الجانب أي السهولة في التعامل بدون عنف أو قسوة.

واجعل أخي المجاهد رفقك بمن حولك لله عز وجل، وليكن هدفك أن تُريَ الله هذا الرفق في تعاملاتك كلها إرضاء له، وذلك لأنه -تعالى- يحبه منك فقد روت أمنا عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه) [رواه مسلم].

أي إن الله -تعالى- يسهل الأمور وييسرها بالرفق واليسر ولا يحصل ذلك التيسير والتسهيل بالعنف والغلظة، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.



إن الله معنا

الحمد لله الذي له نعوت الكمال وأوصاف الجلال، والصلاة والسلام على عبده ورسوله المعظم لربه حق التعظيم، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان في طلب رضا ربهم المنان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد...

فإن أكثر الناس يحكمون على ظواهر الأمور ويغفلون عن الحقائق التي أخبرنا الله بها، فيرون الأعداء يفوقوننا في العدد والعتاد، ولا يستشعرون أن الله العظيم هو معنا، الذي إن أراد نصر أحد فلن يغلبه أحد، وإن خذل أحداً فلا ناصر له من بعد الله، يغفل الناس عن الحقيقة الكبرى أن الكفار شواذ عن باقي الخليقة في الإيمان بالله وتنزيهه عن العيوب والنقائص، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [الحج: ١٨]، فهذه المخلوقات العظيمة والكثيرة والمتنوعة كلها تُعظِّم الله وتخشع له وتسجد له وتُقِر له بالربوبية وبالألوهية وبأنه خالقها القيوم عليها، الذي لا قيام لها ولا بقاء إلا به، فنرى الكون وما فيه كله متناسقاً متشابهاً في عبادة الله، إلا هذه المخلوقات المهانة الخبيثة التي أبت عبادة الله والخضوع لأوامره، وظنَّت أنها تستطيع على ضعفها وذلتها إطفاء نور الله، فأي قوة لها أمام قوة الله؟ الذي أعطاها الحول والقوة، ويجري قضاؤه عليها رضيت أم كرهت.

كل شيء يسبح الله ويحمده

لله -تعالى- المحامد كلها، فكل أسمائه محمودة وكل صفاته محمودة، وكل أفعاله وأحكامه محمودة، ولذلك حمد الله -تعالى- نفسه: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} [الأنعام: ١].

ويحمده المطيعون من خلقه وينزهونه عن كل عيب ويقرون له بالكمال والجلال والجمال، ولهذا يجمعون بين تسبيح الله وحمده، كما قال تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [الإسراء: ٤٤]، كلهم على طاعته إلا كفار الإنس والجن، ومع ذلك فمن يأبى السجود لله طوعاً فهو يسجد له كرهاً، فتمضي عليه أحكام الله القدرية والجزائية شاء أم أبى، قال تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} [الرعد: ١٥].

أساس الدين تعظيم الله

وعلى أساس تعظيم الله قام دين الإسلام وبعث الله رسله مبشرين ومنذرين، ومن أجل تعظيم الله -تعالى- قام الجهاد في سبيل الله لمحاربة من لم يقدروا الله حق قدره من الكفار والمشركين والمنافقين، الذين كفروا بالله وجحدوا نعمه أو نسبوها لغيره أو نسبوا لله الصاحبة والولد وادعوا أن لله شركاء في العبادة وأن هناك من يشفع عند الله بلا إذنه، وقام الجهاد لمحاربة الطواغيت الذين اعتدوا على أعظم حقوق الله، ونازعوا الله في حق التشريع والتحليل والتحريم الذي هو من خصائص الربوبية، ونتج عنها منازعة الله في حق الطاعة المطلقة وهي من خصائص الربوبية والألوهية، ولذلك فمعية الله وتأييده وتوفيقه إنما هي للمعظمين لله الذين أخلصوا له الدين، الذين يحبهم ويحبونه، الذين يوالون في الله ويعادون فيه، ويجاهدون لإرضائه غير مبالين بلوم اللائمين، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

لا تحزن إن الله معنا

حفظ لنا القرآن العظيم مواقف عظيمة كثيرة، وكان منها هذا الموقف الخالد من عبد الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- أثناء هجرته إلى الله عز وجل، هاربا بدينه ودعوته، مطاردا من أهل مكة المشركين، فيلجأ إلى غار ثور ومكانه ليس على طريق المدينة، ولكنهم تتبعوا الآثار حتى وقفوا فوق باب الغار، حتى قال الصديق وهو خائف مهموم "لو أن أحداً من المشركين نظر إلى قدميه لأبصرنا"، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم- وقد أنزل الله عليه السكينة، وهي الطمأنينة والشعور بالأمان والعناية الإلهية: (يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين اللهُ ثالثهما؟) [رواه البخاري ومسلم].

وتذكر لنا كتب السير ومعاجم الصحابة قصة سراقة بن مالك -رضي الله عنه- الذي قال له النبي -صلى الله عليه وسلم- في طريق الهجرة بعد أن كان يطارد النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- طامعاً في أن يحصل على جائزة المشركين إن هو أتى بالنبي -صلى الله عليه وسلم- حياً أو ميتاً: (كيف بك إذا لَبستَ سِوارَيْ كسرى)، فلمّا أُتِيَ عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- بسوارَيْ كسرى ومِنْطَقَتِهِ وتاجِه، دعا سراقة بن مالك، فألبسه إياهما. وكان سراقة رجلا كثير شعر الساعدين، فقال له عمر: ارفع يديك، فقال: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبها كسرى بن هرمز الذي كان يقول: أنا رَبُّ الناس، وألبسهما سراقةَ بن مالك بن جُعْشُم، أعرابي من بني مُدْلِج، ورفعَ لها عمرُ صوتَه.

رُسل الله وهم يستشعرون معية الله

لما أرسل الله عز وجل موسى -عليه السلام- إلى فرعون قال هو وأخوه هارون، عليهما السلام: {رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٥ - ٤٦]، فوقف موسى -عليه السلام- أمام فرعون داعياً ومذكراً ومجادلاً بالحق، يجيب على أسئلة فرعون بالأدلة والبراهين، غير آبه لتهديدات فرعون الذي {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ} [الشعراء: ٢٩]، ثم واعد فرعون وقومه يوم الزينة وهو يوم عيد لهم يجتمعون فيه بزينتهم مبتهجين، وهناك وقف الوقفة العظيمة أمام السحرة الذين {سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} [الأعراف: ١١٦]، فألقى عصاه فالتقمت حبال السحرة وعصيهم، فآمنوا بالله وكفروا بفرعون، فهددهم الطاغوت بالقتل والتعذيب والتقطيع، فانتقل موسى -عليه السلام- إلى الذين آمنوا بالله يثبتهم ويُصبرهم ويدعوهم إلى التوكل على الله، {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ} [يونس: ٨٤]، ويأمرهم موسى -عليه السلام- بالصلاة التي تعينهم على جميع أمورهم، ويبشرهم بموعود الله بالنجاة من فرعون وبالجنة لمن ثبت على دين الإسلام، {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [يونس: ٨٧].

إن معي ربي سيهدين

صبر موسى -عليه السلام- وقومه حتى جاء الفرج من الله -تعالى- لما أمرهم بالخروج من مصر ليلاً وأخبر نبيه -عليه السلام- أن فرعون سيتبعهم، وقد لحقهم بجنوده حتى ظن بنو إسرائيل أنه سيدركهم، فقد صاروا محاصرين بين البحر وبين جيش فرعون، قال تعالى: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الشعراء: ٦١ - ٦٢]، "كلا": كلمة نفي وزجر لهم أن يظنوا أن وعد الله لهم بالنجاة والنصر لا يتحقق، وأكد كلامه بـ "إن"، وأخبرهم بيقينه بأن الله معه ولن يتخلى عنه بل سيهديه للمخرج من هذا الموقف العصيب، فجاء الوحي سريعاً من الله -عز وجل- إلى عبده ورسوله المقرب إليه: {أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ} [الشعراء: ٦٣ - ٦٦].

لقد أحسن رُسل الله وأنبياؤه وأتباعهم العمل، وصدَّقوا بموعود الله وأحسنوا ظنهم بالله، فلم يُخيِّب ربهم رجاءهم، بل كان معهم كما وعدهم بالتوفيق والهداية والتسديد والنصر على الكافرين، والحمد لله رب العالمين.

قصة حديث

(إنا كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر)

عن زيد بن سعنة أنه دفع مالا للرسول -صلى الله عليه وسلم- لقاء تمر يأخذه منه في أجل معلوم، قال: "فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة، خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في جنازة رجل من الأنصار ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، ونفر من أصحابه، فلما صلَّى على الجنازة دنا من جدار فجلس إليه، فأخذت بمجامع قميصه، ونظرت إليه بوجهٍ غليظٍ، ثم قلت: ألا تقضيني يا محمد حقي؟ فوالله ما علمتكم بني عبد المطلب بمَطْلٍ، ولقد كان لي بمخالطتكم علم!

قال: ونظرتُ إلى عمر بن الخطاب وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير، ثم رماني ببصره وقال: أيْ عدو الله! أتقول لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما أسمع، وتفعل به ما أرى؟! فوالذي بعثه بالحق، لولا ما أحاذر قوته لضربت بسيفي هذا عنقك. ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة، ثم قال: (إنا كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التِّباعة، اذهب به يا عمر فاقضه حقه، وزده عشرين صاعا من غيره مكان ما رعته).

قال زيد: فذهب بي عمر فقضاني حقي، وزادني عشرين صاعاً من تمر، فقلت: ما هذه الزيادة؟ قال: أمرني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن أزيدك مكان ما رُعْتُكَ، فقلت: أتعرفني يا عمر؟ قال: لا، فمن أنت؟ قلت: أنا زيد بن سعنة، قال: الحَبْر؟ قلت: نعم، الحبر، قال: فما دعاك أن تقول لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما قلت، وتفعل به ما فعلت؟

فقلت: يا عمر، كل علامات النبوة قد عرفتُها في وجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أختبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، فقد اختبرتهما، فأُشهدك -يا عمر- أني قد رضيت بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد -صلى الله عليه وسلم- نبيّاً، وأشهدك أن شطر مالي -فإني أكثرها مالاً- صدقة على أمة محمد، صلى الله عليه وسلم" [رواه ابن حبان والطبراني وغيرهما].



الحلم حلة أهل الإيمان والعقل

قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لأشَجِّ عبد القيس: إن فيك لخصلتين يحبهما الله الحلم والأناة).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "قيل للأحنف بن قيس: ما الحلم؟ قال: أن تصبر على ما تكره قليلا" [عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين].

ورُوي أن رجلاً سبَّ ابن عباس، رضي الله عنهما، فلما فرغ الرجل قال ابن عباس: "يا عكرمة، هل للرجل حاجة فنقضيها؟" فنكَّس الرجل رأسه واستحى.

ومثلها أن معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- قال لعرابة بن أوس: "بم سُدْت قومك يا عرابة؟" قال: "يا أمير المؤمنين، كنت أحلم عن جاهلهم وأعطي سائلهم وأسعى في حوائجهم، فمن فعل فعلي فهو مثلي، ومن جاوزني فهو أفضل مني".

إنه الحِلم -أخي المجاهد- الذي يعتبر من أهم الصفات التي يجب على المسلم التحلي بها إذا ما أراد أن يكون من أصحاب الخلق الحسن، فهو يعني الطمأنينة عند الغضب، والتفكر قبل الحكم على الشيء، والتعقل والروية.

وقال الإمام ابن القيم: "أوثق غضبك بسلسلة الحلم، فإنه كلب إن أفلت أتلف" [الفوائد].

أخي المجاهد، لقد وصف الله -تعالى- نفسه بهذه الصفة فقال عزَّ من قائل: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [البقرة: ٢٣٥]، وفي آية أخرى: {وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ} [البقرة: ٢٦٣]، وقال أيضا: {وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ} [التغابن: ١٧]. ووصف -تعالى- خليله إبراهيم -عليه السلام- بها فقال: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} [التوبة: ١١٤].

وما نال أحد من النبي -صلى الله عليه وسلم- فينتقم منه إلا إذا انتَهَك محارم الله فينتقم لله، فعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- أنه قال: خَدَمْتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سبع سنين، أو تسع سنين، ما علمتُ قال لشيء صنعتُ: لم فعلت كذا وكذا؟ ولا لشيء تركت: هلا فعلت كذا وكذا [رواه مسلم].

أخي المجاهد، إن الحلم مطلوب في كل الأوقات وفي جميع الظروف وهو كنز ثمين، وهو في زمن الشدائد والفتن أثمن وأحوج، حيث تحار العقول، وتختلج القلوب، وتضطرب المواقف، ولا يسع المرء عند ذلك سوى تقوى الله والحلم.

واعلم أن ذلك ليس دعوة للبلادة في الطباع، تجعل المرء محط تلقي الإهانات والإساءات دون رد، ولكنه تريُّث وتعقُّل، ونظر في العواقب وتدبُّر، وتقدير للمصالح والمفاسد، وما لم يكن هناك تدبر للإساءة وأسبابها، فلن يكون هناك قدرة على تجاوزها أو ردها.

من التاريخ

معركة الجسر (١٣ هـ)

لم تكن معارك المسلمين مع الفرس في فتوح العراق بلا ثمن من دمائهم، فقدموا دماءهم وأشلاءهم لتكون كلمة الله هي العليا، تشهد على ذلك الملاحم التي خاضها الصحابة والمسلمون، ومنها موقعة الجسر الشهيرة التي ارتسمت فيها ملامح الثبات والتضحيات.

وقصة المعركة تبدأ بتولية عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- لأبي عبيد الثقفي -رحمه الله- قائدا الجيش المسلمين المتوجه إلى فارس، لأنه أول من تطوع للقتال بعد تثاقل الناس عنه، كرها لقتال أعظم دولة في ذلك الزمان، المعروفة ببطشها وقوتها.

وسار جيش المسلمين والتقى مع الفرس في عدة معارك كان النصر حليفه فيها، عندها أرسل ملك الفرس القائد (بهمن جاذويه) لقتال المسلمين، قال ابن كثير: "فأرسلوا: إما أن تعبروا إلينا وإما إن نعبر إليكم. فقال المسلمون لأميرهم أبي عبيد: مُرهم فليعبروا هم إلينا" [البداية والنهاية].

وبعد عبور المسلمين للنهر، لم تستطع خيل المسلمين مواجهة فيلة الأعداء وارتعبت منها، وكانت الفيلة هي سلاح الفُرس النوعي في ذلك الوقت، إلا أن أبا عبيد واجه هذه المعضلة حين أمر بقتل الفيلة.

قال ابن كثير: "وأمر أبو عبيد المسلمين أن يقتلوا الفيلة أولا، فاحتوشوها فقتلوها عن آخرها، وقد قدمت الفرس بين أيديهم فيلا عظيما أبيض، فتقدم إليه أبو عبيد فضربه بالسيف فقطع ذلومه فحمى الفيل، وصاح صيحة هائلة وحمل فتخبطه برجليه فقتله ووقف فوقه فحمل على الفيل خليفة أبي عبيد الذي كان أوصى أن يكون أميرا بعده فقتل، ثم آخر ثم آخر حتى قتل سبعة من ثقيف كان قد نص أبو عبيد عليهم واحدا بعد واحد، ثم صارت إلى المثنى بن حارثة بمقتضى الوصية أيضا".

ومما زاد الطين بلة أن أحد المسلمين قطع الجسر لئلا يفر المجاهدون، إلا أن النتيجة جاءت على الضد فقتل وغرق في النهر على إثر ذلك عدد كبير وصمد المثنى وجماعة من فرسان المسلمين حتى إصلاح الجسر.

ويكمل ابن كثير وصف المشهد فيقول: "وسار المثنى بن حارثة فوقف عند الجسر الذي جاءوا منه... فنادى المثنى: أيها الناس على هينتكم فإني واقف على فم الجسر لا أجوزه حتى لا يبقى منكم أحد ههنا... وقام يحرسهم هو وشجعان المسلمين، وقد جرح أكثرهم وأثخنوا".

وقضى من المسلمين في هذه المعركة أربعة آلاف بين قتيل وغريق، وهرب ألفان، وبقي ثلاثة آلاف، وقُتل من الفرس ستة آلاف، وأُخبر عمر -رضي الله عنه- عمَّن سار في البلاد من الهزيمة استحياء، فاشتد عليه وقال: "اللهم إن كل مسلم في حل مني، أنا فئة كل مسلم، يرحم الله أبا عبيد، لو كان انحاز إلي لكنت له فئة".



فتاوى

من برنامج إذاعة البيان

أداء دين لرجل خارج دار الإسلام

السؤال:- رجل استدان مبلغا من أحد الناس، ثم بعد مدة قُتل المَدين، ولكن الدائن ذهب إلى بلاد الكفر، فهل يوفَّى دينُه، وتُرسل الأموال له؟

الجواب: نعم، فالمال ماله وهو أحق به، وهذا الدين من الأمانات الواجبِ تأديتها، قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [النساء: ٥٨].

روى بن أبي شيبة -رحمه الله- في مصنفه عن طَلْق بن معاوية قال: كان لي على رجل ثلاثمائة درهم فخاصمته إلى شُريح، فقال الرجل: إنهم وعدوني أن يحسنوا إلي، فقال شريح: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [النساء: ٥٨]، قال: وأمر بحبسه.

فالمال ماله، وهو أحق به، فعليه أن يرجع له، وليتذكر قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّى الله عنه، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله) [رواه البخاري].

قيمة المبلغ المستدان بين وقت الدين ووقت الأداء

السؤال:- إن المبلغ المستدان كان ما يقارب ٤٠ ألف ليرة، أي ما يعادل ٢٠٠ دولار وقتها، فعند السداد هل يُرجع المبلغ كما أُخذ بالليرة، أم بالدولار؟

الجواب: طالما أن الدين ثبت في ذمتك بالليرة، فالواجب إرجاعه بالليرة، ولا يجوز له أن يُطالب بزيادة السعر بناء على رخص سعر الليرة، والله أعلم.



كن من المُؤْثِرين

إنّ تغيّر ما في النفس أشق ما يواجهه الإنسان في مسيرته، ففي الوقت الذي يبدل المرء بعض أفكاره بين الفترة والأخرى، يكاد لا يجد أنه غيَّر شيئاً من أخلاقه وصفاته طيلة سنوات.

وكثيرة هي الأخلاق الحسنة التي يدعي المرء التحلي بها، ولكن تراه يسقط عند أول امتحان يواجهه، وإن من أكثر الصفات التي تُعرِّي المرء أمام نفسه وتجعله يقف على مكنوناتها، ويكتشف ماهيتها، وينكشف أمامها، صفة الإيثار، فهي صفة لا يستطيعها إلا من أوتي حظاً كبيراً من الإيمان واليقين، والزهد، والرغبة فيما عند الله، والتصديق بموعوده.

فحين يُقدِّم المرء أخاه على نفسه، في الخير والنفع ودون مقابل، وحين يدفع الشر عنه قبل أن يدفعه عن نفسه دون أجر، فذاك منتهى الأخوة.

وقد أثنى الله -تعالى- على أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بما تمتعوا به من هذه الصفة، فقال: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [الحشر: ٩]، وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنه قال: جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: إني مجهود، فأرسَل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء. فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: (من يضيف هذا الليلةَ؟) فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وفي رواية قال لامرأته: هل عندك شيء؟ فقالت: لا، إلا قوت صبياني، قال: فعلليهم بشيء وإذا أرادوا العشاء فنوميهم، وإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج، وأريه أنَّا نأكل، فقعدوا وأكل الضيف وباتا طاويَين، فلما أصبح غدا على النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: (لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة) [رواه الشيخان].

فليس كالإيثار -أخي المجاهد- خلق يقوي علاقة الإخوة بعضهم ببعض، وينشر الرحمة فيما بينهم، ويحقق السكينة والاطمئنان والرضى لقلوبهم، ويعمل على معالجة الصفات المذمومة في نفوسهم، كالبخل، والأنانية، والحسد والتنافس على الدنيا والتزاحم على ملذاتها.

أخي المجاهد، إنك بتقديم روحك في سبيل الله، دفاعا عن دينك وإخوانك وأهلك وأعراض المسلمين تكون قد حِزت أعلى درجات الإيثار ومراتبه، فلا تبخل على إخوانك بما هو دونها، فأنت آثرت رضا الله -تعالى- وآثرت ما عنده على ما عندك.

قال ابن القيِّم -رحمه الله- في هذا المعنى: "إن أعلى درجات الإيثار هو أن يريد ويفعل ما فيه مرضاته تعالى، ولو أغضب الخَلْق، وهي درجة الأنبياء، وأعلاها للرُّسل عليهم صلوات الله وسلامه، وأعلاها لأولي العزم منهم، وأعلاها لنبيِّنا، صلى الله عليه وسلم".

ومن إيثار الصحابة -رضي الله عنهم- بعضهم على بعض ما روي عن عمر بن الخطَّاب -رضي الله عنه- أنه أخذ أربعمائة دينار، فجعلها في صرَّة، ثمَّ قال للغلام: اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجرَّاح، ثمَّ تلكَّأْ ساعة في بيته حتى تنظر ماذا يصنع بها، فذهب بها الغلام إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك، فقال: وصله الله ورحمه، ثمَّ قال: تعالي يا جارية، اذهبي بهذه السَّبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، حتى أنفدها، فرجع الغلام إلى عمر، فأخبره فوجده قد أعدَّ مثلها لمعاذ بن جبل، وقال: اذهب بهذا إلى معاذ بن جبل، وتلكَّأْ في بيته ساعة حتى تنظر ماذا يصنع، فذهب بها إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك، فقال: رحمه الله ووصله، وقال: يا جارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا وبيت فلان بكذا، فاطَّلعت امرأة معاذ فقالت: ونحن والله مساكين فأعطنا، ولم يبق في الخرقة إلَّا ديناران فنحا بهما إليها، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره، فسُرَّ بذلك عمر، وقال: إنَّهم إخوة بعضهم مِن بعض.

شعبان

بين السنة والبدعة

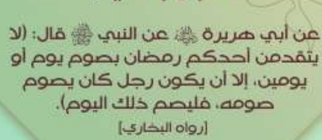
حكم صيام يوم الشك

عن عمار بن ياسر ﷺ قال: «من صام اليوم الذي يُشكُّ فيه، فقد عصى أبا القاسم ﷺ». [رواه أبو داود وغيره]
قال الإمام البغوي ﷺ: والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبيّ ﷺ فمن بعدهم، أنه لا يصوم يوم الشكُ عن رمضان.
[شرح السنة]

من بدع شهر شعبان

- تخصيص ليلة النصف من شعبان بالقيام أو نهارها بالصيام.
- الاحتفال بليلة النصف من شعبان أو اتخاذها عيدا.
- الصلاة الألفية: وهي مائة ركعة تقرأ فيها سورة الإخلاص ألف مرة.

النهي عن تخصيص آخر يومين من شهر شعبان بالصيام



عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (لا يتقدمن أحدكم رمضان بصوم يوم أو يومين، إلا أن يكون رجل كان يصوم صومه، فليصم ذلك اليوم).
[رواه البخاري]

فضيلة صيام شهر شعبان

عن أسامة بن زيد ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، لم أرك تصوم شهراً من الشهور ما تصوم من شعبان، قال: (ذلك شهر يغفُلُ الناس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهر تُرفعُ فيه الأعمال إلى ربّ العالمين، فأحبُ أن يُرفع عملي وأنا صائم). [رواه النسائي]



إنفوغرافيك النبأ
شعبان ١٤٣٩ هـ

الذين إن مكنَّاهم في الأرض (١)

إن قضية الشعارات في كثير من الأحزاب والتنظيمات لا تتعدى كونها -غالباً- وسيلة لحشد الأتباع، وتحسين صورة الجماعة، وعلى هذه السنَّة تمضي بعض الجماعات المنتسبة إلى الإسلام، الزاعمة للجهاد في سبيل الله.

فعلى مدى قرن من الزمان، تابع المسلمون في كل مكان ولادة كثير من التنظيمات التي تتبنى أكثرها شعارات متقاربة، ثم تدَّعي أن لكل منها وسيلة مختلفة في تحقيق تلك الشعارات، التي كان ولا يزال شعار "إقامة الدولة الإسلامية" هو أشهرها وأكثرها انتشاراً، فنجد أن التنظيمات المقاتلة، والأحزاب المنغمسة في شرك الديموقراطية، وغيرها من التجمعات ذات التوجهات الدعوية أو العلمية أكثرها يزعم أن هدفه الحقيقي من كل نشاطاته هو أن تؤدي إلى "إقامة الدولة الإسلامية، وتحكيم الشريعة"، ويجادل أتباع كل منها بأن وسيلته هي المثلى، وأن وسيلة غيره لن تؤدي إلى غير تضييع الأعمار والأموال والخبرات فيما لا طائل منه.

ولقد كان تحقيق حلم الخلافة من قبل الثلة المجاهدة من الموحدين في العراق والشام، ومن انضم إلى جماعتهم من المجاهدين في شرق الأرض وغربها، زلزالاً عنيفاً هزَّ تلك التنظيمات، وعاصفة هوجاء اقتلعت خيامهم وكفأت قدورهم، وذلك لما وجد أتباعها أن ما كان يمنيهم به زعماؤهم من خلال الطرق البدعية، حققه الموحدون باتباع طريق السنة القويم، بجهاد المشركين حتى إزالة الشرك من الأرض، وإقامة دين الإسلام مكانه، وتحويل الأرض بذلك إلى دار إسلام، تحكمها جماعة المسلمين بشرع رب العالمين.

شروطٌ بدعيَّة لإقامة الدين

ولما تبين للناس أن قضية "إقامة الدولة الإسلامية" لم تكن مجرد شعار دعائي عند جنود الدولة الإسلامية، بل كان عهداً عزم المجاهدون أن يحققوه، وصدقوا الله في ذلك -نحسبهم- فصدقهم -سبحانه- بأن مكن لهم في الأرض، خرج أفراد تلك التنظيمات يطالبون زعماءهم بتصحيح سعيهم، وتوضيح رايتهم، وإقامة الدين فيما مكَّنهم الله فيه من الأرض، بل ودعوهم إلى الانضمام إلى جماعة المسلمين، ومبايعة إمامها على السمع والطاعة، الأمر الذي هدد بنقض تلك التنظيمات التي فرقت المسلمين، وما زادتهم إلا خبالاً، فوجد أرباب تلك التنظيمات أنفسهم محاصرين بالأدلة الشرعية، التي تلزمهم بالخضوع لحكم الله في هذه القضايا، فما وجدوا عنها محيداً إلا أن يبتدعوا في دين الله، ويخترعوا فيه أحكاماً جديدة، يحسبون أنهم بخداعهم لأتباعهم من خلالها ينجون من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

وهكذا وجدنا سفيه القاعدة في اليمن المدعو (قاسم الريمي) يخرج محاضراً في أتباعه شارحاً "مفاهيم" منهج القاعدة، ساعياً من خلال ذلك إلى نقض شرعية الدولة الإسلامية، بل وتأثيم مجاهديها، لأنهم قاموا -بحسب جهله المُركّب- بفعل غير شرعي، وهو تحكيم شريعة رب العالمين على أرضه، مستدلاً على ذلك بعدم تحقيقهم لما ابتدعه من شروط ما أنزل الله بها من سلطان.

والشرط الذي يكتمل لإقامة الدولة الإسلامية -بحسب قوله- هو عدم تحقق التمكين في الأرض للمجاهدين اليوم، طالما بقيت أمريكا وغيرها من الدول المتجبرة قادرة على نقض هذه الدولة، كما حدث مراراً مع من أعلنوا دولا وإمارات سمَّوها إسلامية، خلال العقود الماضية.

وبالتالي فإن وصف التمكين -بحسب هذا الاستدلال البدعي- يتحقق إذا ضمن من يقيمها أن لا يتمكَّن عدوُّه من إزالتها أبداً، وأما إذا تحقق التمكين وفي الأرض من الدول القوية التي يمكنها الهجوم عليها وإزالتها فإن إقامة الدين وتحكيم الشريعة فيها -الذي ليست الدولة الإسلامية إلا صورة واقعية له- محرَّم في شريعتهم، لأن التمكين شرط صحة لها، وقد انتقض -حسب مذهبهم- بتهديد بقائه، واحتمال زواله.

هل حققت الدولة النبوية شرط المبتدعة؟

ولو طردنا هذا الأصل الفاسد، لما حلَّ لمسلم في أي زمان ومكان أن يقيم الدين إن مكَّنه الله في الأرض، بل الواجب عليه -في دينهم- أن يهرب من هذه الأرض، هروب الصحيح من أرض الطاعون والجذام، لأن قيامه فيها بما يرضي الله سيجلب عليه غضب الجبابرة الكافرين، أو أن يحكم تلك الأرض بما يرضي أولئك الطواغيت، ليحفظ فيها تمكينه، وفي الوقت نفسه يخادع الناس من حوله بأن ما يفعله من امتناع عن إقامة الدين هو من إقامة الدين، وما يجريه على تلك الأرض من أحكام الجاهلية، هو حكم بالشريعة، كما نراه واضحاً الآن من فعل فصائل الصحوات في الشام.

ومن أراد الدليل الشرعي على نقض ذلك، فحسبه فعل النبي -عليه الصلاة والسلام-، الذي أقام الدولة النبوية في يثرب وهي محاطة بالأعداء الأقوياء، الذي يكفي للدلالة على تناسب القوة بينهم وبين أهل المدينة ما حصل عندما تألبت الأحزاب عليهم يوم الخندق، حتى إن أحدهم لم يكن يجرؤ على قضاء حاجته من شدة الخوف والوجل، ومن خلف أولئك الأعداء من مشركي العرب كان هناك أقوى الدول في الأرض آنذاك وهم فارس والروم، اللتان كان سلطانهما إلى أطراف جزيرة العرب، ومع هذا لم يجعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تحطيم قوة قريش والأعراب، ومن بعدهما فارس والروم، أو انتظار أن يُفني أحدهما الآخر، شرطاً لإقامة الدين في المدينة، بل الوقائع تثبت أنه -عليه الصلاة والسلام- لم تطأ قدمه المدينة، إلا وقد أعلنها دولة هو إمامها، الحكم فيها لله، وما على أهلها إلا الخضوع لهذه الأحكام، ومن ناصبها العداء فله الحرب.

ولو قدَّر الله فتمكن الأحزاب من كسر دفاعات المسلمين يوم الخندق، ثم السيطرة على المدينة، وإزالة حكم الإسلام منها، بعد قتل الرجال، وسبي الذرية والنساء، أو قدَّر الله أن يتمكَّن الأعراب المرتدون من إزالة حكم الإسلام من المدينة بعد أن أزالوه من كل الجزيرة العربية، أو قدَّر الله أن يرسل كسرى أو قيصر لاقتحام المدينة، ففي أي من الحالات، هل كان أحد يدَّعي الإسلام يجرؤ على القول إن دولة النبي -صلى الله عليه وسلم- لم تكن دولة شرعيَّة، لأنها قامت قبل تمكُّنه -عليه الصلاة والسلام- من تأمين المدينة من خطر اليهود، وقريش، والأعراب، وفارس والروم؟

وبالمثل هل يجرؤ أحد أدعياء السلفية أن ينقض شرعية دولة أئمة الدعوة النجدية، ويؤثم الإمامين محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب لإقامتهما الدولة الإسلامية في الدرعية وما حولها، ثم سعيهم ومن جاء بعدهم إلى مد سلطان الشريعة إلى البحرين والحجاز وبادية الشام، وهم يعلمون يقيناً أن دولة الأتراك الكافرة، ومن يتبعها يتربصون بهم، ولن يرضيهم قيام دولة لا تخضع لقوانينهم، ولا تعظم أوثانهم، وأن من حولهم من الأعراب منافقون لن يتأخروا عن نصرة المشركين عليهم؟

إن قياس حال دولة الإسلام اليوم على حالها في عهد النبي -عليه الصلاة والسلام- من الناحية السياسية، هو قياس صحيح، وما قدَّمناه على ما هو أولى منه من الأدلَّة إلا لسهولة الإيضاح من خلاله، وإلا فإن أدلة الكتاب والسنة التي لا تبيح فحسب إقامة دولة الإسلام لمن مكَّنه الله في الأرض، بل وتوجبه عليه، وتحكم بكفره إن هو امتنع عن إقامة الدين، وتحكيم شريعة رب العالمين، وهذا ما سنتناوله -بإذن الله- في قادم الكلام.

المبتدعة يقدِّمون سلامة النفس على الدين

إن من سبب شبهة تنظيم القاعدة التي ذكرنا جانباً منها هو حرصهم على بقاء تنظيمهم، وتقديمهم سلامة التنظيم على سلامة الدين، لكون الدين عندهم هو التنظيم، فبقاؤه من بقائه وزواله من زواله، لذلك ابتدعوا مثل هذه الشروط ليهربوا من إقامة الدين، بزعم عدم تحقق ما ابتدعوه من شروط لذلك، ويسكتوا أتباعهم الذين استنكر بعضهم على زعمائهم امتناعهم عن تحكيم الشريعة في المناطق التي تمكنوا منها، فالتمكين في دينهم مبيح لأخذ المكوس من الناس، ولكنه لا يبيح تحكيم الشريعة، وهو مبيح لمحاكمة الموحدين وسفك دمائهم المحرمة على أنهم خوارج، ولكنه لا يبيح لهم إقامة حكم الله في المرتدين، وهو يوجب عليهم تولِّي الحكومات الكافرة، وحراسة حدودها، ولكنه لا يأمرهم بالاعتصام بحبل الله بمبايعة خليفة المسلمين ولا يبيح لهم أن يطيعوا أياً من أوامر الله التي يُغضب المشركين القيام بها.

ومن قدَّم سلامة نفسه وتنظيمه على سلامة الدين، فلن يبقى له دين ولن تسلم له نفسه، ومن قدَّم رضا رب العالمين، وقدَّم إزهاق نفسه في سبيل سلامة دينه، فإنه إن لم تسلم له نفسه، فهو مع النبيين والشهداء والصديقين، وحسن أولئك رفيقاً.





من كلام الشيخ
أبي مصعب الزرقاوي
تقبله الله



إن مصطلح (منظري التيار الجهادي) مصطلح دخيل، كثر ذكره وامتهانه في الآونة الأخيرة، ولاسيما من قبل وسائل الإعلام ليصدوا أبناء الأمة عن الجهاد، وهذا المصطلح في حقيقته هو فصام نكد بين القول والفعل. فإن أهل العلم على مر العصور، وكر الدهور، كانوا في مقدمة ركب الجهاد، كما سبق ذكره بشواهده غير مرة، ولم نسمع أن أحدا منهم نظّر للأمة أحكام الجهاد ثم هو قعد وتخلف عن الجهاد الواجب المتعين عليه، وكأنه ليس معنيا بهذا الخطاب.

وإن المتأمل اللبيب ليلحظ أن هذا المصطلح في حقيقته؛ ذمٌّ وطعنٌ في أصحابه، حيث يدخلهم في قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف:2-3]

إن المقرر عند أهل العلم أن الذي يفتي في مسألة ما لابد أن يكون عنده علم بالحكم الشرعي، وعلم بالواقع الذي يطبق عليه هذا الحكم، وإلا كانت فتواه مجانبة للصواب.

قال ابن القيم: (ولا يتمكن المفتي الفتوى ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق، إلا بنوعين من الفهم:

أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علما.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أوعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم في هذا الواقع ثم يطبق أحدهما على الآخر). انتهى كلامه.

تعميم

إلى / كافة الولايات والدواوين والهيئات "سلمها الله"

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

فقد تم إلغاء العمل بمضمون التعميم المعنون له بالآية الكريمة {ليهلك من هلك عن بينة} ذي الرقم "٨٥_ت_٣١" وذلك لاحتوائه على أخطاء علمية وعبارات موهمة غير منضبطة، أدت إلى حدوث التنازع والتفرق بين صفوف المجاهدين خاصة، والمسلمين عامة.

كما أنه قد تم إعادة كتابي (التقريرات المفيدة في أهم أبواب العقيدة) و(توعية الرعية بالسياسة الشرعية)، والتي تم إلغاؤها بالكتاب ذي الرقم "ص٨-د-ج-٢٩" وذلك بعد إجراء الإضافات والتعديلات اللازمة، علما بأن هذه الكتب لم يتبيَّن عند التحقيق احتواؤها على ما يخالف عقيدة أهل السنة والجماعة، ونوصي بالرجوع لهذه الكتب في بيان مسألة المتوقف في تكفير المشركين أو حكم الطائفة الممتنعة أو أحكام الديار أو غيرها من المسائل.

وعليه: فإنَّنا نذكِّر الجميع بفضيلة الرجوع إلى الحق والتمسك بعقيدة التوحيد والقتال في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى وصد عادية الكفار عن ديار المسلمين، والحمد لله رب العالمين

ملحوظة: ستصدر من خلال إذاعة البيان سلسلة صوتية يتم من خلالها طرح المسائل التي حصل فيها النزاع مع بيان الحق فيها بإذن الله تعالى.

الدولة الإسلامية
اللجنة المفوَّضة

سلسلة علمية في بيان مسائل منهجية (١)

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الحق المبين، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله إمام الأولين والآخرين، أما بعد:

فهذه سلسلة إذاعية في بيان وتوضيح بعض مسائل المنهج والعقيدة، التي وقع فيها الالتباس والاشتباه على أبنائنا وإخواننا من جنود الدولة الإسلامية وسائر المسلمين في داخل دولة الخلافة وخارجها؛ وذلك بسبب التعميم الصادر عن اللجنة المفوضة المعنون له بالآية: {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ} [الأنفال: ٤٢]، الذي تم إيقاف وتعطيل العمل به؛ وذلك لما تضمنه من أخطاء علمية ومنهجية وعبارات موهمة حمالة أوجه، أدت إلى الوقوع في التنازع والاختلاف.

فكان لزاما علينا عدم تأخير البيان عن وقت دعت الحاجة إليه واشتدت، وأصبحت ضرورة ملحة؛ وذلك لجمع كلمة الدولة، وتأليف قلوب جنودها على الحق، وإفراغهم لصد عادية أمم الكفر عليها، والذب عن بيضة الإسلام وحرماته.

وقد حذرنا الله تعالى من التنازع والاختلاف أيما تحذير فقال سبحانه: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٦]

وفي الوقت ذاته أمرنا بالجماعة وعظم شأنها ..

قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «عليكم بالجماعة»، وقال -صلى الله عليه وسلم-: «يد الله مع الجماعة»، وقال -صلى الله عليه وسلم-: «وإياكم والفرقة؛ فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد».

وجاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي وصححه، قال -صلى الله عليه وسلم-: «وأنا آمركم بخمس أمرني الله بهن، السمع والطاعة، والجهاد والهجرة والجماعة، فإن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه».

وإن من أسباب الفتنة والاختلاف والتنازع:

١- ترك الاعتصام بالكتاب والسنة بفهم سلف الأمة والاعتماد على الأهواء وأقوال الرجال..

قال تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران: ١٠٣].

وقال تعالى: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [آل عمران: ١٠١].

قال -صلى الله عليه وسلم-: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا: كتاب الله وسنتي».

وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «إن الله يرضى لكم ثلاثا، ويكره لكم ثلاثا؛ فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول إذا خطب: «أما بعد: فإن أحسن الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها».

وقال ابن عباس: "أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله تعالى".

وعن التابعي الجليل ابن شهاب الزهري رحمه الله، قال: كان من مضى من علمائنا يقولون: "الاعتصام بالسنة نجاة".

وقال الإمام الأوزاعي رحمه الله: "عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس، وإياك ورأي الرجال، وإن زخرفوه بالقول؛ فإن الأمر ينجلي وأنت على طريق مستقيم".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وأهل السنة والجماعة يتبعون الكتاب والسنة، ويطيعون الله ورسوله، فيتبعون الحق، ويرحمون الخلق". [١]

وقال أيضا رحمه الله: "والفتنة والفرقة لا تقعان إلا من ترك ما أمر الله به، والله تعالى أمر بالحق والعدل وأمر بالصبر، والفتنة تكون من ترك الحق أو من ترك الصبر". انتهى كلامه رحمه الله.

٢- عدم تمييز السنة من البدعة على بعض صغار المنتسبين للعلم أنصاف المتعلمين، الذين جعلوا أنفسهم في مصاف الأئمة المجتهدين، فتجد الواحد منهم يزعم أنه المهتدي، ويحسب أن السنة معه، وأن المخالف له ضال مبتدع وربما قال: كافر، فينشأ عن ذلك من التفرق والشرور ما الله به عليم.

والسنة هي ما أمر به الله ورسوله، والبدعة هي ما لم يشرعه الله من الدين.

وقد قال سبحانه: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: ٤٣].

وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما، اتخذ الناس رؤسا جهالا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا».

وعن محمد بن سيرين رحمه الله، قال: "إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم". انتهى كلامه.

ومن صفات رؤوس الضلالة (أهل البدع): أنهم يمررون باطلهم بعبارات شرعية رنانة، كحفظ جناب التوحيد، وملة إبراهيم، والتوحيد الخالص وغيرها؛ كما قالت الخوارج لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: "لا حكم إلا لله"، وقالوا: "لا نحكِّم الرجال، نريد حكم الله".

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٧٩).

وهذه الأقوال لا تروج على أهل العلم، كما لا تروج الدنانير الزائفة على الصيرفي الحاذق، فقد فهم علي رضي الله عنه مغزى كلام الحرورية، ولم يَرُج عليه قولهم: (لا حكم إلا لله) كما راج على الجهال، حيث قال رضي الله عنه: "لا حكم إلا لله، {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ} [الروم: ٦٠]، فما تدرون ما يقول هؤلاء؟ يقولون: لا إمارة، أيها الناس، إنه لا يصلحكم إلا أمير بر أو فاجر".[٢]

وفي صحيح مسلم عن عبيد الله بن أبي رافع مولى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أن الحرورية لما خرجت وهو مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه قالوا: لا حكم إلا لله، قال علي: "كلمة حق أريد بها باطل، إن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وصف ناسا إني لأعرف صفتهم في هؤلاء يقولون الحق بألسنتهم، لا يجاوز هذا منهم (وأشار رضي الله عنه إلى حلقه) من أبغض خلق الله إليه".

قال النووي رحمه الله: "قوله: (قالوا لا حكم إلا لله، قال علي: كلمة حق أريد بها باطل) معناه: أن الكلمة أصلها صدق، قال الله تعالى: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} [يوسف: ٤٠]، لكنهم أرادوا بها الإنكار على علي رضي الله عنه في تحكيمه". انتهى كلامه.

من أجل ذلك وجب على طالب الحق أن يبتغي الحق من مظانه، لا من المرجفين أنصاف المتعلمين، ولا من علماء الضلالة.

وكان سفيان بن عيينة وغيره من أهل العلم كالإمام أحمد وعبد الله بن المبارك يقولون: إذا اختلف الناس فانظروا ما عليه أهل الثغر؛ فإن الله سبحانه وتعالى يقول: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [العنكبوت: ٦٩].

فكيف تترك أخي المجاهد أهل الثغر من العلماء الذين نفروا إلى أرض الجهاد والإسلام، كيف تترك هذا المعين الصافي، ثم تذهب لتأخذ دينك عن القاعدين بين أحضان طواغيت جزيرة العرب وغيرها، وما كفَّرهم ولا أنكر عليهم، يخالط جنوده ورجال أمنه ومخابراته من غير أن يبين لهم ما ارتكبوه من نواقض.

ولا تغتر أخي بسجن الطاغوت لأحدهم، فقد يكون تلميعا وإشهارا له ولأقواله، وإدخالا له على الإخوة في السجون؛ لإحداث البلبلة وإلقاء الشبهات بينهم، وقد كانت لهم الفرصة سانحة إن كانوا أهل حق وصدق أن ينفروا إلى أرض الجهاد، ويهاجروا إلى دار الإسلام.

فإن الطاغوت الذي يؤوي أمثال هؤلاء المنظرين للغلو في التكفير، ويسمح برواج بدعتهم هو نفسه الذي يؤوي أهل التجهم والإرجاء ويعينهم على الترويج لبدعتهم، وما ذلك إلا لكون الطرفين والمنهجين يؤديان لنتيجة واحدة؛ وهي الطعن في أهل الحق وترك الهجرة والجهاد في سبيل الله تعالى.

أخي المجاهد: كيف بعد إذ نجاك الله من شباك علماء الطواغيت أهل الإرجاء، تعود فتقع في شباك علماء الطواغيت المروجين للغلو المصدرين للشبهات؛ لكي يقعدوك عن جهادك، ويردوك عن هجرتك، فيسلم من بأسك أولياؤهم من أعداء الله تعالى.

وقد قال بعض السلف: "ما أمر الله تعالى عباده بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان: فإما إلى غلو، وإما إلى تقصير؛ فبأيهما ظفر قنع".

كيف تترك علم من يحمل معك السلاح، ويقاتل معك في الصف من أهل العلم والفقه –لا أعني أنصاف المتعلمين–، وتسلم عقلك وذهنك إلى من لا يستأمن على دينه، وهو يعيش في دعة سالما مسالما للطواغيت، وينظر لك من بعيد؟!

٣ - السبب الثالث من أسباب الاختلاف والتنازع: البغي، يقال بغى فلان على فلان؛ أي تعدى عليه بالقول أو الفعل وتجاوز حده.

قال الله تعالى: {وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} [الشورى: ١٤].

وقال تعالى: {فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} [الجاثية: ١٧].

وقال تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة: ٢١٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "الاجتهاد السائغ لا يبلغ مبلغ الفتنة والفرقة إلا مع البغي، لا لمجرد الاجتهاد ... فلا يكون فتنة وفرقة مع وجود الاجتهاد السائغ، بل مع نوع بغي، وكل ما أوجب فتنة وفرقة فليس من الدين، سواء كان قولا أو فعلا ...

وقال أيضا رحمه الله: "وعامة ما تنازعت فيه فرقة المؤمنين من مسائل الأصول وغيرها في باب الصفات والقدر والإمامة وغير ذلك: هو من هذا الباب؛ فيه المجتهد المصيب، وفيه المجتهد المخطئ، ويكون المخطئ باغيا، وفيه الباغي من غير اجتهاد، وفيه المقصر فيما أمر به من الصبر".[٣] انتهى كلامه.

وإن من البغي الاستطالة على المخالف، واتهامه في نيته، وقذف المسلم بالكفر أو البدعة تعديا وظلما جزافا من غير بينة ...

أخرج ابن حبان في صحيحه عن حذيفة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: «إن ما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رئيت بهجته عليه، وكان ردئا للإسلام، غيره إلى ما شاء الله، فانسلخ منه ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك»، قال: قلت: يا نبي الله، أيهما أولى بالشرك، المرمي أم الرامي؟ قال: «بل الرامي».

وقال الآجري رحمه الله: "إن الله عز وجل بمنه وفضله أخبرنا في كتابه عمن تقدم من أهل الكتابين اليهود والنصارى، أنهم إنما هلكوا لما افترقوا في دينهم، وأعلمنا مولانا الكريم أن الذي حملهم على الفرقة عن الجماعة والميل إلى الباطل الذي نهوا عنه، إنما هو البغي والحسد، بعد أن علموا ما لم يعلم غيرهم، فحملهم شدة البغي والحسد إلى أن صاروا فرقا فهلكوا، فحذرنا مولانا الكريم أن نكون مثلهم فنهلك كما هلكوا، بل أمرنا عز وجل بلزوم الجماعة، ونهانا عن الفرقة، وكذلك حذرنا النبي –صلى الله عليه وسلم– من الفرقة وأمرنا بالجماعة، وكذلك حذرنا أئمتنا ممن سلف من علماء المسلمين، كلهم يأمرون بلزوم الجماعة، وينهون عن الفرقة".[٤] انتهى كلام الآجري رحمه الله.

وننكر أشد النكير على من يبغي ويتعدى فيكفر العلماء أمثال ابن قدامة المقدسي والنووي وابن حجر العسقلاني وغيرهم رحمهم الله ممن لهم على أمة الإسلام أياد بيضاء في نشر العلم ونصرة الشريعة، بل نحفظ مكانتهم ونترحم عليهم، ونعتذر عما بدر منهم من أخطاء وزلات.

قال الشعبي –أحد أئمة التابعين– رحمه الله: "كل أمة علماؤها شرارها، إلا المسلمين؛ فإن علماءهم خيارهم".[٥]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: دفع التكفير عن علماء المسلمين وإن أخطئوا هو من أحق الأغراض الشرعية".[٦] انتهى كلامه رحمه الله.

وقال الشيخ عبد الله بن الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: "ونحن كذلك: لا نقول بكفر من صحت ديانته، وشهر صلاحه، وعلم ورعه وزهده، وحسنت سيرته، وبلغ من نصحه الأمة ببذل نفسه لتدريس العلوم النافعة والتأليف فيها، وإن كان مخطئا في هذه المسألة أو غيرها". انتهى كلامه رحمه الله.

وممن نثني عليهم، ونحفظ حقهم علينا أمراء الدولة الإسلامية من أبي مصعب الزرقاوي؛ أمير الاستشهاديين، الصادع بالحق والتوحيد، وقتّال أهل الشرك والتنديد، مرورا بالشيخ المجاهد أبي عمر البغدادي صاحب العقيدة الراسخة والمواقف الشامخة، ووزيره الشيخ المجاهد أبي حمزة المهاجر صاحب التآليف والتصانيف النافعة، والشيخ أبي محمد العدناني قامع المنحرفين، وكاسر حدود الكافرين، والعالم الرباني أبي علي الأنباري، وغيرهم من أمراء هذه الدولة الذين قضوا في سبيل الله، نحسبهم والله حسيبهم، ولا نزكي على الله أحدا.

وستشتمل هذه السلسلة بإذن الله تعالى على بيان أمور منها:

* **حكم التوقف في تكفير المشركين أو الكفار.**
* **حكم الطوائف الممتنعة، وحكم المخالف فيها.**
* **حكم ساكني ديار الكفر الطارئ.**

ونسأل الله تعالى أن يبارك في هذه السلسلة العلمية، وأن يجعلها سببا لجمع كلمة المجاهدين على الكتاب والسنة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٧/٥٦٢/٣٧٩٣١).
(٣) الاستقامة (١/٣٧).
(٤) الشريعة (١/٢٧٠).
(٥) مجموع الفتاوى (٧/٢٨٤).
(٦) مجموع الفتاوى (٣٥/١٠٣).

سلسلة علمية (٢)
في بيان مسائل منهجية

(أصل الدين)

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الملك الحق المبين، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، إمام الأولين والآخرين، أما بعد:

ففي هذه الحلقة سنتناول الحديث عن أصل الدين، وهو موضوع في غاية الأهمية؛ وذلك لأنه لا يصح إيمان أحد إلا إذا أتى به.

فما هو أصل الدين؟

أصل الدين هو الإقرار بالله، وعبادته سبحانه وحده وترك عبادة ما سواه، والبراءة ممن أشرك به سبحانه.

أربعة أمور ...

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وإبراهيم وموسى قاما بأصل الدين؛ الذي هو الإقرار بالله، وعبادته وحده لا شريك له، ومخاصمة من كفر بالله". [١] انتهى كلامه.

"والبراءة ممن أشرك به سبحانه" هو ما عبَّر عنه شيخ الإسلام ابن تيمية هنا بقوله: "ومخاصمة من كفر بالله"، فكلا العبارتين معناهما واحد: مخاصمة المشركين والبراءة منهم.

فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وأصل الدين أن يكون الحب لله، والبغض لله، والموالاة لله، والمعاداة لله، والعبادة لله". [٢] انتهى كلامه.

فنقول بناء على ما سبق: لو أن شخصا أتى بثلاثة أمور من أصل الدين ولم يأت بالرابع؛ كترك عبادة ما سوى الله تعالى، أو ترك البراءة ممن أشرك به سبحانه، هل يصح إسلامه؟، الجواب: لا.

فماذا يسمى؟، يسمى مشركا كافرا.

وهذا القدر الذي هو أصل الدين لا يعذر من لم يأت به أحد بلغ حد التكليف ولو كان جاهلا، سواء بلغته الحجة الرسالية أو لم تبلغه، أو بلفظ آخر سواء جاءه رسول أو لم يأته.

(١) مجموع الفتاوى (٢٠٣/١٦).
(٢) منهاج السنة النبوية (٢٥٥/٥).

قال إمام المفسرين ابن جرير الطبري رحمه الله بعد ذكره لشيء من أصل الدين، قال: "لا يعذر بالجهل به أحد بلغ حد التكليف؛ كان ممَّن أتاه من الله تعالى رسول، أو لم يأته رسول، عاين من الخلق غيره، أو لم يعاين أحدا سوى نفسه". [٣] انتهى كلامه رحمه الله.

لم يعاين أحدا سوى نفسه؛ يعني لم ير إلا نفسه؛ كمن كان في جزيرة نائية ولم ير أحدا من الناس سوى نفسه.

نقول: فإذا جاءه رسول دخل في أصل الدين الإيمان به وبما جاء به على وجه الإجمال.

إذن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم منذ بعثته إلى الآن، وبما جاء به على وجه الإجمال يدخل في أصل الدين؛ لأن أصل الدين هو الشهادتان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "أصل الدين: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدا عبده ورسوله". [٤] انتهى كلامه رحمه الله.

طيِّب ما معنى (الإقرار بالله)؟

يعني: الإيمان بوجوده تعالى، وأنه متصف بصفات الكمال، ومنزه عن النقائص والعيوب، وأنه سبحانه المتفرِّد بالخلق والأمر.

قال الله تعالى: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} [الأعراف: ٥٤]

والأمر منه ما هو كوني؛ أي أنه سبحانه يقول للشيء كن فيكون، ومن الأمر ما هو شرعي؛ ويتمثل بتفرده سبحانه وتعالى بالتحليل والتحريم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فإن أصل الدين أنه لا حرام إلا ما حرمه الله، ولا دين إلا ما شرعه الله؛ فإن الله سبحانه في سورة الأنعام والأعراف عاب على المشركين أنهم حرموا ما لم يحرمه الله، وأنهم شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله". [٥] انتهى كلامه رحمه الله.

(٣) التبصير في معالم الدين (ص١٢٦-١٣٢).
(٤) مجموع الفتاوى (١٠/١).
(٥) مجموع الفتاوى (٣٥٧/٢٠).

مرة ثانية: ما هو أصل الدين؟ هو الإقرار بالله، وعبادته سبحانه وحده وترك عبادة ما سواه، والبراءة ممن أشرك به سبحانه، شرحنا الإقرار بالله.

طيب، ما معنى: عبادته سبحانه وحده، وترك عبادة ما سواه، والبراءة ممن أشرك به سبحانه؟

معناه: توحيد الله، ومحبة التوحيد وتحسينه، وموالاة أهله، وتقبيح الشرك، واجتنابه، ومخاصمة أهله.

قال ابن القيم رحمه الله: "واعلم أنه إن لم يكن حسن التوحيد وقبح الشرك معلوما بالعقل، مستقرا في الفطر، فلا وثوق بشيء من قضايا العقل؛ فإن هذه القضية من أجل القضايا البديهيات، وأوضح ما ركب الله في العقول والفطر". [٦] انتهى كلامه رحمه الله.

وموالاة أهله: هذا هو الولاء؛ موالاة المؤمنين ...، ومخاصمة أهله -يعني أهل الشرك-: هذا هو البراء من المشركين ...

ومن هنا يتبيَّن أن الولاء والبراء يدخل في أصل الدين.

ولكن ههنا مسألة؛

وهي الفرق بين وجود العداوة للكافرين وبين إظهار العداوة، فالأول -وهو وجود العداوة- من أصل الدين، والثاني: وهو إظهار العداوة فمن واجبات الدين لا من أصله.

قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رحمه الله: "ومسألة إظهار العداوة غير مسألة وجود العداوة؛ فالأول: يعذر به مع العجز والخوف، لقوله تعالى: {إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً} [آل عمران: ٢٨]، والثاني: لا بد منه؛ لأنه يدخل في الكفر بالطاغوت، وبينه وبين حب لله ورسوله تلازم كلي، لا ينفك عنه المؤمن". [٧] انتهى كلامه.

أصل الدين كما قلنا: لا يُعذر بالجهل به

(٦) مدارج السالكين (٤٥٥/٣).
(٧) الدرر السنية (٣٥٩/٨).

أيُّ أحد؛ أي لا يصح إسلام من نقضه ولا يرتفع عنه اسم الكفر.

لماذا لم يعتبر بجهل الرجل العاقل أو المرأة العاقلة في أصل الدين؟

لأنه مما علم وثبت بالميثاق وضرورة الفطرة والعقل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وأصل الدين هو عبادة الله، الذي أصله الحب والإنابة والإعراض عما سواه، وهو الفطرة التي فطر عليها الناس". [٨] انتهى كلامه.

وقال ابن القيم رحمه الله: "وأي شيء يصح في العقل إذا لم يكن فيه علم بقبح الشرك الذاتي، وأن العلم بقبحه بديهي معلوم بضرورة العقل، وأن الرسل نبهوا الأمم على ما في عقولهم وفطرهم من قبحه". [٩] انتهى كلامه رحمه الله.

ومن هنا نعلم أن أصل الدين لا يشترط فيه إقامة الحجة للحكم بالكفر على من لم يأت به؛ أي نحكم على من لم يأت بأصل الدين بالكفر، سواء أقيمت عليه الحجة أم لم تقم.

ونؤكد على أنه لا عذر لأي أحد بالجهل في هذه المسائل، التي هي من أصل الدين؛ لأنها من العلوم الضرورية المستقرة في جميع الفطر والعقول، وبالتالي فمن انتقض أصل دينه فهو مشرك، ولكن عذابه في الدنيا والآخرة متوقف على بلوغ الحجة الرسالية إليه.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: "وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة، وعدم التمكن من معرفتها؛ فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل". [١٠] انتهى كلامه رحمه الله.

سؤال: ما الذي يناقض أصل الدين؟

الجواب: الشرك ...

حيث قلنا في تعريف أصل الدين: أنه الإقرار بالله وعبادته سبحانه وحده وترك عبادة ما سواه، والبراءة ممن أشرك به سبحانه، إذن: الشرك بالله يناقض أصل الدين وينافيه.

ومعنى الشرك شرعا: هو جعل الشريك أو الند لله تعالى في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته.

(٨) مجموع الفتاوى (٤٣٨/١٥).
(٩) مدارج السالكين (٢٥٣/١).
(١٠) طريق الهجرتين (ص٤١٤).

فمثال شـرك الربوبية: أن يجعل مع الله خالق أو رازق أو مدبر أو حاكم أو مشـرع.

ومثال الشـرك في الألوهية: السجود أوالدعاء أوالنذر أوالذبح لغير الله.

ومثال الشـرك في الأسماء والصفات: تعطيلها مثل نفي العلم والسمع والبصـر عن الله، أو تشبيهه سبحانه وتعالى بخلقه.

وكل هذا الشـرك لم يعذر فيه أحد من المشـركين بجهله؛ لأنه يناقض أصل الدين، والله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم حكم بكفر الأتباع والمقلدين، وحكم بكفر الأميين من أهل الكتاب مع جهلهم، وحكم بكفر جهلة مشـركي العرب قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: "من مات مشـركا فهو في النار، وإن مات قبل البعثة؛ لأن المشـركين كانوا قد غيَّروا الحنيفية دين إبراهيم واستبدلوا بها الشـرك وارتكبوه، وليس معهم حجة من الله به، وقبحه والوعيد عليه بالنار لم يزل معلوما من دين الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم، وأخبار عقوبات الله لأهله متداولة بين الأمم قرنا بعد قرن، فلله الحجة البالغة على المشـركين في كل وقت، ولو لم يكن إلا ما فطر عباده عليه من توحيد ربوبيته المستلزم لتوحيد إلهيته، وأنه يستحيل في كل فطرة وعقل أن يكون معه إله آخر، وإن كان سبحانه لا يعذب بمقتضـى هذه الفطرة وحدها، فلم تزل دعوة الرسل إلى التوحيد في الأرض معلومة لأهلها، فالمشـرك يستحق العذاب بمخالفته دعوة الرسل، والله أعلم". انتهى كلامه رحمه الله.

وأما الجهلة من المشـركين بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم من المنتسبين للإسلام وغيرهم فالأمر فيهم أشد؛ لأن غالب جهلهم جاء من جهة الإعراض عن رسالته صلى الله عليه وسلم، والإعراض بمجرده كفر، فكيف لو كان معه شـرك؟!

قال الشوكاني رحمه الله: "ومن وقع في الشرك جاهلا لم يعذر، لأن الحجة قامت على جميع الخلق بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم، فمن جهل فقد أتي من قبل نفسه؛ بسبب الإعراض عن الكتاب والسنة، وإلا ففيهما البيان الواضح؛ كما قال سبحانه في القرآن: {تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً} [النحل: ٨٩]، وكذلك السنة: قال أبو ذر رضي الله عنه: "توفي محمد صلى الله عليه وسلم وما ترك طائرا يقلب جناحيه بين السماء والأرض إلا ذكر لنا منه علما"، أو كما قال رضي الله عنه؛ فمن جهل فبسبب إعراضه، ولا يعذر أحد بالإعراض". انتهى كلامه رحمه الله.

هذا وأدلة عدم عذر الجاهل في الشرك والذي يناقض أصل الدين كثيرة.

منها قوله تعالى: {فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأعراف: ٣٠].

قال الطبري رحمه الله: "يقول تعالى ذكره: إن الفريق الذي حق عليهم الضلالة، إنما ضلوا عن سبيل الله وجاروا عن قصد المحجة، باتخاذهم الشياطين نصـراء من دون الله وظهراء؛ جهلا منهم بخطأ ما هم عليه من ذلك، بل فعلوا ذلك وهم يظنون أنهم على هدى وحق، وأن الصواب ما أتوه وركبوا.

وهذا من أبين الدلالة على خطأ قول من زعم أن الله لا يعذب أحدا على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها، فيركبها عنادا منه لربه فيها؛ لأن ذلك لو كان كذلك، لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل وهو يحسب أنه هاد، وفريق الهدى فرق، وقد فرق الله بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية". [11] انتهى كلامه رحمه الله.

ومن الأدلة على عدم عذر الجاهل في الشـرك: قوله تعالى: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

قال الطبري رحمه الله: "وهذا من أدل الدلائل على خطأ قول من زعم أنه لا يكفر بالله أحد إلا من حيث يقصد إلى الكفر بعد العلم بوحدانيته؛ وذلك أن الله -تعالى ذكره- أخبر عن هؤلاء الذين وصف صفتهم في هذه الآية، أن سعيهم الذي سعوا في الدنيا ذهب ضلالا، وقد كانوا يحسبون أنهم محسنون في صنعهم ذلك، وأخبر عنهم أنهم هم الذين كفروا بآيات ربهم، ولو كان القول كما قال الذين زعموا أنه لا يكفر بالله أحد إلا من حيث يعلم لوجب أن يكون هؤلاء القوم في عملهم الذي أخبر الله عنهم أنهم كانوا يحسبون فيه أنهم يحسنون صنعه، كانوا مثابين مأجورين عليها، ولكن القول بخلاف ما قالوا، فأخبر جل ثناؤه عنهم: أنهم بالله كفرة، وأن أعمالهم حابطة". [12] انتهى كلامه رحمه الله.

طيب: إذا حكمنا على شخص ما بالكفر والشرك، ما الذي يترتب على ذلك؟

يترتب على حكمنا على أحد بالكفر والشـرك ولو كان جاهلا: قطع الموالاة الإيمانية بيننا وبينه حتى يتوب إلى الله تعالى، وعدم التناكح معه أو أكل ذبيحته، وكذا عدم الاستغفار له إن مات على ذلك، وأنه لا حظ له من الحقوق التي أوجبها الله للمسلمين، وغير ذلك من الأحكام.

وأما تعذيبه في الدنيا والآخرة فهذا متوقف على قيام الحجة الرسالية، وهذا على الصحيح من أقوال العلماء، ودليله قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥]، وقوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥].

ونؤكد على: أن من وقع في الشـرك من هذه الأمة فهو مشـرك كافر أيضا، وإن كان مدعيا للإسلام ناطقا بالشهادتين.

قال تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الزمر: ٦٥].

وقال تعالى بعد ذكره لأنبيائه عليهم السلام: {ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ٨٨].

وهذه الآيات من أقوى الأدلة على أن الإسلام يحبط بالشـرك، وأن من أشرك من هذه الأمة فهو كافر، وإن كان ناطقا بالشهادتين عاملا بشعائر الإسلام الأخرى.

ونختم بمسألتين:

الأولى: لو كان إنسان قائما بأصل الدين يعبد الله ولا يشـرك به شيئا، ويؤمن برسوله صلى الله عليه وسلم، لكنه يجهل مصطلح أصل الدين.

بمعنى أنك لو سألته: ما هو أصل الدين تلعثم أو لم يحر جوابا، فلا يضـره ذلك؛ لقيامه بأصل الدين، إذ لا يضـره عدم معرفة ما اصطُلح عليه في هذه المسائل والمعاني.

والدليل على ما ذكرنا: ما جاء في الصحيحين -واللفظ للبخاري-: عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: أنا رديف النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (يا معاذ)، قلت: لبيك وسعديك، ثم قال مثله ثلاثا: (هل تدري ما حق الله على العباد)، قلت: لا، قال: (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشـركوا به شيئا).

فتصـريح معاذ رضي الله عنه بأنه يجهل حق الله على عباده لم يوقعه في الكفر أو الشرك؛ لأنه قائم بهذا الحق وإن لم يعلم الاصطلاح الشرعي الذي يدل على ذلك المعنى.

المسألة الثانية: أن إحدى المسائل التي ذكرنا أنها من أصل الدين قد يخفى على بعض طلبة العلم أنها من أصل الدين، وهي مسألة عداوة المشـركين، وموالاة المؤمنين؛ فيظن أنها من واجبات الدين لا من أصله، أو يتوقف فيها، فهذا لا يعد ناقضا لأصل الدين طالما أنه حقق البراءة من المشـركين، والموالاة للمؤمنين.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله: "بحسب المسلم أن يعلم: أن الله افترض عليه عداوة المشـركين وعدم موالاتهم، وأوجب عليه محبة المؤمنين وموالاتهم، وأخبر أن ذلك من شروط الإيمان، ونفى الإيمان عمن يواد {مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} [المجادلة: ٢٢]، وأما كون ذلك من معنى لا إله إلا الله أو لوازمها، فلم يكلفنا الله بالبحث عن ذلك، إنما كلفنا بمعرفة أن الله فرض ذلك وأوجبه، وأوجب العمل به، فهذا هو الفرض والحتم الذي لا شك فيه، ومن عرف أن ذلك من معناها، أو من لازمها فهو حسن، وزيادة خير، ومن لم يعرفه فلم يكلف بمعرفته، لا سيما إذا كان الجدال والمنازعة فيه مما يفضي إلى شـر واختلاف، ووقوع فرقة بين المؤمنين، الذين قاموا بواجبات الإيمان، وجاهدوا في الله، وعادوا المشـركين، ووالوا المسلمين". [13] انتهى كلامه رحمه الله.

ونكتفي بهذا القدر، ونسأل الله تعالى أن ينفعنا بما علمنا، وأن يجمع كلمتنا على الحق، وأن يجعلنا هداة مهديين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١١) تفسير الطبري (١٢/٣٨٨).

(١٢) تفسير الطبري (١٨/١٢٨).

(١٣) الدرر السنية (٨/١٦٦).

سلسلة علمية في بيان مسائل منهجية (٣-٤)

تَكْفِيرُ الْمُشْرِكِينَ

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الحق المبين، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله إمام الأولين والآخرين، أما بعد:

ففي هذه الحلقة نبدأ الحديث -بعون الله تعالى- عن تكفير المشركين، وسنتكلم عن مسألتين:

المسألة الأولى: سنجيب فيها على سؤال: ما هي منزلة التكفير من الدين؟

المسألة الثانية: نذكر فيها العلة أو المناط أو السبب في كفر المتوقف في تكفير المشركين.

وقبل الشروع في ذلك نذكر بعض نصوص أهل العلم في كفر من لم يكفر الكافر...

قال أبو الحسين الملطي الشافعي -رحمه الله-: "جميع أهل القبلة لا اختلاف بينهم أن من شك في كافر فهو كافر". [١] انتهى كلامه.

وقال القاضي عياض -رحمه الله: "نكفر من لم يكفر من دان بغير ملة المسلمين من الملل، أو وقف فيهم، أو شك، أو صحح مذهبهم، وإن أظهر مع ذلك الإسلام واعتقده واعتقد إبطال كل مذهب سواه، فهو كافر بإظهاره ما أظهر من خلاف ذلك". [٢] انتهى كلامه.

وقال النووي -رحمه الله-: "من لم يكفر من دان بغير الإسلام كالنصارى، أو شك في تكفيرهم، أو صحح مذهبهم، فهو كافر". [٣]

ونص الحجاوي -رحمه الله- على أن من "لم يكفر من دان بغير الإسلام؛ كالنصارى، أو شك في كفرهم أو صحح مذهبهم... فهو كافر". [٤] انتهى كلامه.

ونص البهوتي -رحمه الله- على تكفير من " لم يكفر من دان بغير دين الإسلام كأهل الكتاب، أو شك في كفرهم، أو صحح مذهبهم". [٥]

وقال الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-: "من لم يكفر المشركين، أو شك في كفرهم، أو صحح مذهبهم كفر إجماعا". ا.هـ [٦]

انتهى كلامهم رحمهم الله.

ونشرع الآن في بيان المسألة الأولى: وهي الإجابة على سؤال: ما هي منزلة التكفير من الدين؟

والجواب هو أن التكفير حكم شرعي محض، لا مدخل للعقل فيه، ولا يدخل تحت مسائل ومعاني أصل الدين، والتي سبق وأن بيناها في الحلقة السابقة.

إذن تكفير المشركين من واجبات الدين وليس من أصل الدين.

طيب ما الفرق؟

الفرق أن ما كان من أصل الدين، فإنه لا يعذر المرء فيه بجهل، ولا تشترط إقامة الحجة على تاركه أو تارك بعضه.

أما التكفير فهو حكم شرعي قد يعذر فيه بالجهل والتأويل.

ثم إن التكفير ليس على مستوى واحد، بل له مراتب، فأعلاها ما هو معلوم من الدين بالضرورة؛ كتكفير من كفرهم الله تعالى في كتابه على التعيين؛ كإبليس وفرعون وكل من دان بغير الإسلام؛ كاليهود والنصارى وعباد الأصنام.

وأدناها ما اختلف في تكفير مرتكبه؛ كتارك الصلاة وغير ذلك، وبينهما مراتب متفاوتة، وهو ما سوف نتناوله في حلقة قادمة بإذن الله تعالى.

قلنا: إن التكفير من واجبات الدين، وأنه حكم شرعي، وليس له مورد سوى الأدلة الشرعية، ولا مدخل للعقل فيه، وقد تتابع أهل العلم على تقرير ذلك وتأكيده، وإليكم بعض أقوالهم:

قال القاضي عياض -رحمه الله-: "فصل في بيان ما هو من المقالات كفر وما يتوقف أو يختلف فيه، وما ليس بكفر: اعلم أن تحقيق هذا الفصل وكشف اللبس فيه مورده الشرع، ولا مجال للعقل فيه". [٧] انتهى كلامه.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- : "التكفير حكم شرعي، يرجع إلى إباحة المال، وسفك الدماء، والحكم بالخلود في النار، فمأخذه كمأخذ سائر الأحكام الشرعية". [٨]

وقال -رحمه الله-: "فإن الكفر والفسق أحكام شرعية، ليس ذلك من الأحكام التي يستقل بها العقل؛ فالكافر من جعله الله ورسوله كافرا، والفاسق من جعله الله ورسوله فاسقا، كما أن المؤمن والمسلم من جعله الله ورسوله مؤمنا ومسلما..- إلى أن قال: - فهذه المسائل كلها ثابتة بالشرع". [٩]

وقال -رحمه الله-: "الإيمان والكفر هما من الأحكام التي ثبتت بالرسالة، وبالأدلة الشرعية يميز بين المؤمن والكافر، لا بمجرد الأدلة العقلية". [١٠] انتهى كلامه.

وقال العلامة ابن القيم -رحمه الله- :

الكفر حق الله ثم رسوله
بالنص يثبت لا بقول فلان
من كان رب العالمين وعبده
قد كفراه فذاك ذو الكفران[١١]

وقال ابن الوزير الصنعاني -رحمه الله: "أن الدليل على الكفر والفسق لا يكون إلا سمعيا قطعيا، ولا نزاع في ذلك". [١٢] انتهى كلامه

وعليه نقول: إن من جهل حكم الشرع في أحد الكفار أو المشركين أو إحدى طوائفهم: لا يكون حكمه كحكم من أشرك، لأن الذي أشرك نقض أصل الدين؛ كما ذكرنا في الحلقة السابقة، وإنما حكمه كحكم كل من جهل شريعة أو فريضة من فرائض الإسلام، فمن قامت عليه الحجة الرسالية في ذلك كفر، ومن لم تبلغه الحجة الرسالية في ذلك فليس بكافر، بخلاف من جهل التوحيد؛ الذي هو أصل الدين؛ فإنه كافر كفر جهل.

هذا وقد تتابع أهل العلم على تقرير الفرق بين الجهل بأصل الدين والجهل بالواجبات الشرعية:

فقد نقل الإمام محمد بن نصر المروزي عن طائفة من أهل الحديث قولهم: "ولما كان العلم بالله إيمانا والجهل به كفرا، وكان العمل بالفرائض إيمانا والجهل بها قبل نزولها ليس بكفر ... إلى أن قالوا: وإنما يكفر من جحدها لتكذيبه خبر الله، ولو لم يأت خبر من الله ما كان بجهلها كافرا، وبعد مجيء الخبر من لم يسمع بالخبر من المسلمين لم يكن بجهلها كافرا، والجهل بالله في كل حال كفر، قبل الخبر وبعد الخبر". [١٣] انتهى كلامه -رحمه الله-

وأما صفة قيام الحجة وكيفية تحقيق هذا الشرط قبل التكفير، فإن ذلك يختلف بحسب ظهور المسألة وخفائها، فقد تقوم الحجة بمجرد وجود المتوقف عن التكفير في مظنة العلم، بحيث يكون بتوقفه معرضا لا جاهلا، وبحيث لا يعذر إلا من كان حديث عهد بإسلام، أو نشأ في بادية بعيدة، وقد تكون إقامة الحجة بتبيين النص الشرعي الدال على كفر من فعل كذا أو قال كذا، ولا يكتفى بمجرد البلوغ العام للقرآن، وقد تكون إقامة الحجة بتبيين الدليل مع إزالة الشبهة والإجابة عن الدليل المعارض، وسيأتي مزيد توضيح لهذه المسألة عند الحديث عن مراتب المتوقفين.

ويستدل على التفريق بين الجهل بالشرائع والجهل بأصل الدين أو على أن تكفير المشركين من الشرائع ليس من أصل الدين بعدة من الأدلة، أذكر منها:

إن جميع الأنبياء عليهم السلام بدءوا أقوامهم بالدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولو أن الجهل بأحكام التكفير كفر لما تأخر بيانها عن بيان أصل الدين لحظة واحدة.

ومن الأدلة أيضا على التفريق أن التكفير من واجبات الدين وأنه حكم شرعي وليس من أصل الدين ما ثبت أن من الصحابة رضي الله عنهم، من توقف

(١) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع (ص٤٠)-بتصرف-.
(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/٢٨٦)
(٣) روضة الطالبين (١٠/٧٠).
(٤) الإقناع (٤/٢٩٨) -بتصرف يسير-.
(٥) شرح منتهى الإرادات (٣/٣٩٥).
(٦) الدرر السنية (١٠/٩١).
(٧) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/٢٨٢).
(٨) بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية (ص٣٤٥).
(٩) منهاج السنة النبوية (٥/٩٢) بتصرف.
(١٠) مجموع الفتاوى (٣/٣٢٨).
(١١) الكافية الشافية (ص٨٥٨).
(١٢) العواصم والقواصم (٤/١٧٩).
(١٣) تعظيم قدر الصلاة (٢/٥٢٠).

في تكفير قوم وقعوا في الردة، وسموهم مسلمين، ولما نزلت الآيات التي بينت كفر هؤلاء القوم لم يستتابوا من توقفهم، بينما ثبت أن أحد الصحابة وقع في الشـرك جاهلا، ومع ذلك كفره الصحابة، وأمره النبي صلى الله عليه وسلم بتجديد إسلامه، وهذا يدل على الفرق بين من وقع في الشـرك جاهلا، وبين من جهل الشـرائع.

فعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشـركون معهم يوم بدر، فأصيب بعضهم وقتل بعض، فقال المسلمون: "كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا فـــاستغفروا لهم"، فنزلت: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: ٩٧، ٩٨]، قال: فكتب إلي من بقي من المسلمين بهذه الآية، وأنه لا عذر لهم، قال: فخرجوا فلحقهم المشـركون فأعطوهم الفتنة، فنزلت فيهم هذه الآية: }وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ{[العنكبوت: ١٠] الْآيَةَ".[١٤]

قال الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله : "فأنزل الله هذه الآية، وبين فيها حكم هؤلاء المشـركين، وأنهم من أهل النار مع تكلمهم بالإسلام".[١٥] انتهى كلامه.

وعن سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- قال: كنا نذكر بعض الأمر، وأنا حديث عهد بالجاهلية، فحلفت باللات والعزى، فقال لي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: بئس ما قلت، ائت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره؛ فإنا لا نراك إلا قد كفرت، فلقيته فأخبرته، فقال: «قل: لا إله إلا الله وحده ثلاث مرات، وتعوذ من الشيطان ثلاث مرات، واتفل عن شمالك ثلاث مرات، ولا تعد له».[١٦]

وقال ابن الوزير الصنعاني-رحمه الله- معلقا على هذا الحديث: "وهذا أمر بتجديد الإسلام".[١٧] انتهى كلامه.

وقال ابن العربي المالكي -رحمه الله- "فمن قال في الإسلام في يمينه واللات والعزى مؤكدا ليمينه بذلك على معنى التعظيم فيه: كافر حقيقة". ا.هـ[١٨]

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله -رحمه الله- : "أخذ به -يعني حديث سعد -رضي الله عنه-طائفة من العلماء فقالوا يكفر من حلف بغير الله كفر شـرك، قالوا: ولهذا أمره النبي صلى الله عليه وسلم بتجديد إسلامه بقول لا إله إلا الله، فلولا أنه كفر ينقل عن الملة لم يؤمر بذلك، وقال الجمهور: لا يكفر كفرا ينقله عن الملة، لكنه من الشـرك الأصغر".[١٩] انتهى كلامه.

فلم يعذر- رضي الله عنه- في ذلك مع أنه حديث عهد بجاهلية..

ومن الأدلة أيضا على التفريق أن التكفير من واجبات الدين، وأنه حكم شـرعي وليس من أصل الدين الذي لا يعذر فيه أحد: ما روي أن الصحابة -رضي الله عنهم- اختلفوا في تكفير بعض المرتدين، فلما بين الله تعالى كفر هؤلاء القوم لم يأمر من توقف فيهم بتجديد إسلامه.

فقد قال الله تعالى: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا * وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [النساء: ٨٨ - ٨٩]

وصح في سبب نزولها أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى أحد، فرجع ناس ممن كان معه، فكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيهم فرقتين، قال بعضهم: "نقتلهم"، وقال بعضهم: "لا".[٢٠]

وصح عن مجاهد -رحمه الله- أنه قال: "قوم خرجوا من مكة حتى أتوا المدينة يزعمون أنهم مهاجرون، ثم ارتدوا بعد ذلك، فـاستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة؛ ليأتوا ببضائع لهم يتجرون فيها، فـاختلف فيهم المؤمنون، فقائل يقول: "هم منافقون"، وقائل يقول: "هم مؤمنون"، فبين الله نفاقهم، فأمر بقتالهم".[٢١]

وقد روي بهذا المعنى عن عبد الرحمن بن عوف، وابن عباس -رضي الله عنهم-، وصح بنحوه مرسلا عن عدة من التابعين وهم: عكرمة، والسدي، وقتادة، ومحمد بن كعب القرظي رحمهم الله.

وقال الإمام الطبري -رحمه الله- في تأويل قوله تعالى: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا { [النساء: ٨٨]، قال: "يعني بذلك: والله ردهم إلى أحكام أهل الشـرك في إباحة دمائهم، وسبي ذراريهم".[٢٢] انتهى كلامه.

وقد رجح الإمام الطبري أن هذه الآية نزلت في قوم ارتدوا عن الإسلام، حيث قال بعدما ذكر أقوال السلف في سبب نزولها: "وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك: قول من قال: نزلت هذه الآية في اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوم كانوا ارتدوا عن الإسلام بعد إسلامهم من أهل مكة".[٢٣] انتهى كلامه.

وقال ابن أبي زمنين -رحمه الله-: "هم قوم من المنافقين كانوا بالمدينة؛ فخرجوا منها إلى مكة، ثم خرجوا من مكة إلى اليمامة تجارا فـارتدوا عن الإسلام، وأظهروا ما في قلوبهم من الشـرك، فلقيهم المسلمون، فكانوا فيهم فئتين؛ أي فرقتين، فقال بعضهم: قد حلت دماؤهم؛ هم مشـركون مرتدون، وقال بعضهم: لم تحل دماؤهم؛ هم قوم عرضت لهم فتنة، فقال الله تعالى: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ}".[٢٤] انْتَهَى كَلَامُهُ رحمه الله.

ومن الأدلة أيضا: ما رجحه طائفة من العلماء أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- توقف في تكفير مانعي الزكاة في بادئ أمرهم، ولما بين له أبو بكر -رضي الله عنه- كفرهم وافقه، ولم يستتبه على توقفه فيهم.

فقد صح عن عمر -رضي الله عنه- أنه قال لأبي بكر -رضي الله عنه- في شأن "المرتدين" : كيف تقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله ».[٢٥]

وقد توقف بعض أئمة السلف -في بادئ الأمر- كفر من قال بخلق القرآن، ومنهم توقف في كفر الجهمية على الرغم من شدته، فلم يكونوا بذلك كفارا، ولما تبين لهم الدليل على كفرهم لم يتوقفوا فيهم، ولم يجددوا إسلامهم لأجل ما سبق من توقفهم.

فعن يعقوب بن إبراهيم الدورقي، قال: "سألت أحمد بن حنبل عمن يقول: القرآن مخلوق، فقال: "كنت لا أكفرهم حتى قرأت آيات من القرآن: {وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ} [البقرة: ١٤٥]، وَقَوْلَهُ: {بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ} [البقرة: ١٢٠]" وقوله: {أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ } [النساء: ١٦٦]".[٢٦]

وعن ابن عمار الموصلي -رحمه الله- قال: "يقول لي ابن المديني: ما يمنعك أن تكفرهم؟! -يعني: الجهمية- قال: وكنت أنا أولا أمتنع أن أكفرهم حتى قال ابن المديني ما قال، فلما أجاب إلى المحنة، كتبت إليه كتابا أذكره الله، وأذكره ما قال لي في تكفيرهم".[٢٧]

وبذلك نكون قد انتهينا من المسألة الأولى...

ونشرع الآن في بيان المسألة الثانية: وهي ما هو المناط أو العلة أو السبب في كفر المتوقف في تكفير المشركين.

الجواب: هو تكذيب الشـرائع وردها.

فبالنظر إلى نصوص أهل العلم في هذا الناقض يظهر جليا ما قرروه من أن مناط الكفر في المتوقف في الكافر يرجع إلى تكذيب الشـرائع وردها، لا من جهة انتقاض أصل الدين.

وقد تتابع أكثر أهل العلم على ذكر هذا المناط بناء على أن الكفر إنما يكون بإنكار الأحكام المتواترة المجمع عليها، أو بإنكار المعلوم من الدين ضـرورة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "والكفر إنما يكون بإنكار ما علم من الدين ضـرورة، أو بإنكار الأحكام المتواترة المجمع عليها ونحو ذلك". ا.هـ[٢٨]

---

(١٤) رواه الطبري في تفسيره (١٠٢/٩) بسند صحيح.
(١٥) الدرر السنية (٢٤١/١٠).
(١٦) رواه النسائي في سننه (٣٧٧٦/٧/٧) بسند جيد.
(١٧) إيثار الحق على الخلق (ص٣٨٠).
(١٨) عارضة الأحوذي (٢٨/١).
(١٩) تيسير العزيز الحميد (ص٥٢٩).
(٢٠) متفق عليه، صحيح البخاري (١٣٩٩/١٠٥/٢)، صحيح مسلم (٧٨١/٥/٢).
(٢١) رواه الطبري في تفسيره (١٠٠٥٢/٩/٨) بسند صحيح.
(٢٢) تفسير الطبري (٧/٨).
(٢٣) تفسير الطبري (١٣/٨).
(٢٤) تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٣٩٣/١).
(٢٥) متفق عليه، صحيح البخاري (١٨٨٤/٢٢/٣)، صحيح مسلم (٧١٣٢/١٢١/٨).
(٢٦) نقله ابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة (٤١٤/١) عن كتاب الخلال، وإسناده جيد.
(٢٧) رواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٤٢١/١٣) بسند صحيح.
(٢٨) مجموع الفتاوى (١٠٦/١).

* وإليكم بعض ما وقفنا عليه من أقوال أهل العلم الذين نصوا على مناط كفر المتوقف في الكافر:

فقد علل القاضي عياض تكفير المتوقف في اليهود والنصارى ومن فارق دين الإسلام بما نقله عن الباقلاني، قال: "لأن التوقيف والإجماع اتفقا على كفرهم، فمن وقف في ذلك فقد كذب النص والتوقيف، أو شك فيه، والتكذيب أو الشك فيه لا يقع إلا من كافر".[٢٩] انتهى كلامه.

وقال ابن الوزير الصنعاني -رحمه الله- في تكفير الشاك في عابد الصنم ومن لم يكفره: "ولا علة لذلك إلا أن كفره معلوم من الدين ضرورة".[٣٠] انتهى كلامه.

وعلل الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- تكفير من قال: (أن من شهد الشهادتين لا يجوز تكفيره ولو عبد غير الله)، فقال: "لأن قائل هذا القول مكذب لله ورسوله، وإجماع المسلمين".[٣١] انتهى كلامه

وقال بعض أئمة الدعوة النجدية: "فإن الذي لا يكفر المشركين غير مصدق بالقرآن، فإن القرآن قد كفر المشركين، وأمر بتكفيرهم، وعداوتهم وقتالهم".[٣٢] انتهى كلامهم.

ونكتفي بهذا القدر، وإلى لقاء آخر في حلقة قادمة إن شاء الله تعالى...

ونسأل الله تعالى العون والتوفيق والسداد، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا...

الْحَلَقَةُ الرابعة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الحق المبين، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله إمام الأولين والآخرين، أما بعد:

فهذه حلقة نتناول فيها الحديث -بعون الله تعالى- عن مسألتين:

الأولى: هل تكفير المشركين كله على مرتبة واحدة أم على مراتب...

والثانية: نذكر فيها مراتب المتوقفين في تكفير المشركين...

ونشرع الآن في المسألة الأولى: هل تكفير المشركين كله على مرتبة واحدة أم على مراتب؟

• والجواب: نص أهل العلم على أن التكفير حكم شرعي له مراتب بحسب أمرين:

فالأول: قوة ثبوته في الشرع؛ أي وضوح وظهور الدليل الشرعي على كفر فلان من الناس، وهو ما يعرف بمعرفة الحكم...

والثاني: قوة ثبوته على المعين الذي وقع في الشرك أو الكفر، وهو ما يسمى بمعرفة الحال، ويكون من خلال الرؤية أو السماع أو شهادة الشهود...

فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "التكفير حكم شرعي، يرجع إلى إباحة المال، وسفك الدماء، والحكم بالخلود في النار، فمأخذه كمأخذ سائر الأحكام الشرعية، فتارة يدرك بيقين، وتارة يدرك بظن غالب، وتارة يتردد فيه، ومهما حصل تردد فالتوقف عن التكفير أولى، والمبادرة إلى التكفير إنما تغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل".[١] انتهى كلامه رحمه الله.

وذلك بخلاف من زعم أن جميع صور الكفر أو الشرك على مرتبة واحدة؛ بحيث يستوي في إدراكها العالم والجاهل، ولا شك في بطلان هذا القول، ومخالفته لما قرره أهل العلم في هذا الشأن، بل ومخالفته للنصوص التي دلت على أن الكفر بعضه أشد من بعض.

قَالَ تَعَالَىٰ: {هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ} [آل عمران: ١٦٧]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا} [آل عمران: ٩٠]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: {الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا} [التوبة: ٩٧].

أما المسألة الثانية: وهي مراتب المتوقفين في تكفير المشركين...

فنقول: إن للمتوقفين في المشركين مراتب يؤثر فيها قوة الدليل الشرعي، وظهور الكفر أو الشرك...

قال الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: "فهؤلاء الطواغيت الذين يعتقد الناس فيهم من أهل الخرج وغيرهم مشهورون عند الخاص والعام بذلك، وأنهم يترشحون له، ويأمرون به الناس: كلهم كفار مرتدون عن الإسلام، ومن جادل عنهم، أو أنكر على من كفرهم، أو زعم أن فعلهم هذا لو كان باطلا فلا يخرجهم إلى الكفر: فأقل أحوال هذا المجادل أنه فاسق، لا يقبل خطه ولا شهادته، ولا يصلى خلفه".[٢] انتهى كلامه رحمه الله.

فتأمل كلامه؛ كيف أنه جعل للمتوقف في هؤلاء الطواغيت أحوالا أقلها الفسق، وهذا يؤكد على أن للمتوقفين في المشركين أحوالا ومراتب.

❋ وهذه المراتب يؤثر فيها قوة الدليل الشرعي، وظهور الكفر أو الشرك بغض النظر عن شدته؛ فقد يكون الشرك أشد في حال من الأحوال، ولكنه في الظهور أقل مما هو أخف منه شدة.

مثال ذلك: شرك عباد الأصنام مع شرك الجهمية؛ فالحكم بتكفير المتوقف في عباد الأصنام أقوى من الحكم بتكفير المتوقف في الجهمية؛ وذلك لأن عبادة الأصنام أشد ظهورا من التجهم، مع أن التجهم أشد شركا.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: "فإن المشرك المقر بصفات الرب خير من المعطل الجاحد لصفات كماله... فأين القدح في صفات الكمال والجحد لها من عبادة واسطة بين المعبود الحق وبين العابد، يتقرب إليه بعبادة تلك الواسطة إعظاما له وإجلالا؟ فداء التعطيل هذا الداء العضال الذي لا دواء له".[٣]

وقال أيضا رحمه الله: "فشرك عباد الأصنام والأوثان والشمس والقمر والكواكب خير من توحيد هؤلاء بكثير، فإنه شرك في الإلهية مع إثبات صانع العالم وصفاته وأفعاله وقدرته ومشيئته وعلمه بالكليات والجزئيات، وتوحيد هؤلاء تعطيل لربوبيته وإلهيته وسائر صفاته، وهذا التوحيد ملازم لأعظم أنواع الشرك، ولهذا كلما كان الرجل أعظم تعطيلا كان أعظم شركا".[٤] انتهى كلامه رحمه الله.

بناء على ما سبق؛ سنذكر مراتب المتوقفين في المشركين أو الكفار بناء على ظهور الأدلة على كفرهم وشهرتها، معتمدين على نصوص أهل العلم في ذلك:

المرتبة الأولى- من توقف فيمن علم كفره بالضرورة من دين أهل الملل، فمن ذلك:

أولا: من توقف في إبليس أو فرعون أو مدع الإلهية لنفسه أو لغيره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تكفير من لم يكفر فرعون: "وقد علم بالاضطرار من دين أهل الملل؛ المسلمين واليهود والنصارى: أن فرعون من أكفر الخلق بـالله".[٥] انتهى كلامه رحمه الله.

ثانيا: من توقف في عباد الأصنام، ولو انتسبوا للإسلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تكفير من صحح من عبادة الأصنام: "ومن لم يكفرهم فهو أكفر من اليهود والنصارى؛ فإن اليهود والنصارى يكفرون عباد الأصنام".[٦] انتهى كلامه.

وقال ابن الوزير الصنعاني رحمه الله: "ولا شك أن من شك في كفر عابد الأصنام وجب تكفيره، ومن لم يكفره، ولا علة لذلك إلا أن كفره معلوم من الدين ضرورة".[٧] انتهى كلامه.

وحكم المتوقف في هذه المرتبة الكفر، ولا يعذر بالجهل في ذلك كل من بلغته الحجة الرسالية.

المرتبة الثانية- من توقف فيمن علم

---

(٢٩) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/٢٨٠).
(٣٠) الروض الباسم (٢/٥٠٩).
(٣١) الدرر السنية (١٠/٢٥٠).
(٣٢) الدرر السنية (٩/٢٩١).
(١) بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية (ص٣٤٥).
(٢) الدرر السنية (١٠/٥٢).
(٣) الداء والدواء (ص١٤٤).
(٤) مختصر الصواعق المرسلة (ص١٨٦).
(٥) مجموع الفتاوى (٢/١٢٥).
(٦) مجموع الفتاوى (٢/١٢٨).
(٧) الروض الباسم (٢/٥٠٩).

كفرهم بالضرورة من دين المسلمين خاصة؛ كمن توقف في اليهود والنصارى، أو كل من فارق دين الإسلام.

قال القاضي عياض رحمه الله: "نكفر من لم يكفر من دان بغير ملة المسلمين من الملل، أو وقف فيهم، أو شك، أو صحح مذهبهم". [٨] انتهى كلامه.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ومن لم يحرم التدين بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم بدين اليهود والنصارى، بل من لم يكفرهم ويبغضهم فليس بمسلم باتفاق المسلمين". [٩] انتهى كلامه. وحكم المتوقف في هذه المرتبة الكفر، ولا يعذر بالجهل في ذلك كل من بلغته الحجة الرسالية.

المرتبة الثالثة- من توقف فيمن ينتسب للإسلام ووقع في شرك أو كفر مجمع على كفر من وقع فيه، وهؤلاء على مراتب:

الأول من المرتبة الثالثة: من لم يكن له تأويل؛ فإنه إما أن يقتصر على تبيين الحال له، وإما أن يقتصر على تبيين حكم الشرع فيهم، وإما أن تبين له حالهم ويبين له حكم الشرع فيهم، وهذا بناء على ظهور الشرك وظهور حال المتوقف فيهم؛ فإن توقف بعد ذلك فهو كافر، وأما إن كان حالهم ظاهرا، وحكم الشرع فيهم ظاهرا؛ فيحكم بكفر المتوقف من غير تبيين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في طائفة من الباطنية: "ومن كان محسنا للظن بهم، وادعى أنه لم يعرف حالهم: عرف حالهم؛ فإن لم يباينهم ويظهر لهم الإنكار وإلا ألحق بهم وجعل منهم".[١٠] انتهى كلامه.

* فانظر هنا كيف اقتصر شيخ الإسلام في تكفير المتوقف في هذه الطائفة على تعريفه بحالهم.

(٨) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/٢٨٦).
(٩) مجموع الفتاوى (٢٧/٤٦٤).
(١٠) مجموع الفتاوى (٢/١٣٢).

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمهما الله في بعض مرتدي زمانه: "فإن كان شاكا في كفرهم أو جاهلا بكفرهم، بينت له الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم على كفرهم، فإن شك بعد ذلك أو تردد، فإنه كافر بإجماع العلماء على: أن من شك في كفر الكافر فهو كافر".[١١] انتهى كلامه رحمه الله.

* نلاحظ هنا أن الشيخ سليمان اشترط تبيين الحكم الشرعي للمتوقف قبل تكفيره.

وقال الإمام أبو حاتم الرازي رحمه الله فيمن قال بخلق القرآن: "ومن شك في كفره ممن يفهم ولا يجهل فهو كافر، ومن كان جاهلا علم؛ فإن أذعن بالحق بتكفيره وإلا ألزم الكفر". [١٢] انتهى كلامه رحمه الله.

* في هذه الصورة اشترط أبو حاتم تعليم المتوقف قبل تكفيره.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الحلولية: "ومن شك في كفر هؤلاء بعد معرفة قولهم ومعرفة دين الإسلام فهو كافر؛ كمن يشك في كفر اليهود والنصارى والمشركين".[١٣] انتهى كلامه.

* أما في هذه الصورة فقد اشترط تعريف الحال والحكم الشرعي معا.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في "طائفة الدروز": "كفر هؤلاء مما لا يختلف فيه المسلمون؛ بل من شك في كفرهم فهو كافر مثلهم". [١٤] انتهى كلامه.

* ونلاحظ في هذه الصورة أنه لم يشترط في تكفير المتوقف تبيين الحال، ولا تبيين الحكم؛ وذلك لظهور حال تلك الطائفة، وظهور الأدلة على كفرهم.

والقسم الثاني من المرتبة الثالثة: من كانت له أصول فاسدة فتأول؛ فيؤثر في الحكم عليه شدة ظهور كفر المعين أو الطائفة، ففي حال شدة ظهور الكفر يعتبر كافرا معاندا متسترا بتأويله، وفي حالات أخرى اختلف بين تفسيقه وتكفيره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في طائفة من الباطنية: "وأما من قال: (لكلامهم تأويل يوافق الشريعة)؛ فإنه من رءوسهم وأئمتهم؛ فإنه إن كان ذكيا فإنه يعرف كذب نفسه فيما قاله، وإن كان معتقدا لهذا باطنا وظاهرا فهو أكفر من النصارى؛ فمن لم يكفر هؤلاء، وجعل لكلامهم تأويلا، كان عن تكفير النصارى بالتثليث والاتحاد أبعد".[١٥]

(١١) الدرر السنية (٨/١٦٠).
(١٢) طبقات الحنابلة (١/٢٨٦).
(١٣) مجموع الفتاوى (٢/٣٦٨).
(١٤) مجموع الفتاوى (٣٥/١٦٢).

وقال أيضا رحمه الله: "وعنه -أي الإمام أحمد- في تكفير من لا يكفر روايتان؛ -يعني في تكفير من لم يكفر الجهمية- أصحهما لا يكفر". [١٦] انتهى كلامه.

وقال الإمام البخاري رحمه الله: "نظرت في كلام اليهود، والنصارى، والمجوس، فما رأيت قوما أضل في كفرهم منهم -يعني الجهمية-، وإني لأستجهل من لا يكفرهم، إلا من لا يعرف كفرهم".[١٧] انتهى كلامه رحمه الله.

والظاهر من قول الإمام البخاري أنه يذهب إلى عدم تكفير المتوقف في الجهمية؛ كإحدى الروايتين عن أحمد.

وقال المرداوي رحمه الله: "وذكر ابن حامد في أصوله كفر الخوارج والرافضة والقدرية والمرجئة، وقال: "من لم يكفر من كفرناه فسق وهجر، وفي كفره وجهان"، والذي ذكره هو وغيره من رواة المروذي، وأبي طالب، ويعقوب، وغيرهم: أنه لا يكفر -إلى أن قال:- وقال في إنكار المعتزلة استخراج قلبه صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء وإعادته: في كفرهم به وجهان، بناء على أصله في القدرية الذين ينكرون علم الله وأنه صفة له، وعلى من قال: لا أكفر من لا يكفر الجهمية".[١٨] انتهى كلامه رحمه الله.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وأما السلف والأئمة فلم يتنازعوا في عدم تكفير المرجئة والشيعة المفضلة -يعني الذين يفضلون عليا على سائر الصحابة بلا طعن فيهم- ونحو ذلك، ولم تختلف نصوص أحمد في أنه لا يكفر هؤلاء، وإن كان من أصحابه من حكى في تكفير جميع أهل البدع -من هؤلاء وغيرهم- خلافا عنه أو في مذهبه، حتى أطلق بعضهم تخليد هؤلاء وغيرهم، وهذا غلط على مذهبه وعلى الشريعة". [١٩] انتهى كلامه رحمه الله.

(١٥) مجموع الفتاوى (٢/١٣٣).
(١٦) مجموع الفتاوى (١٢/٤٨٦).
(١٧) المصدر السابق (٢/٢٤/٣٤).
(١٨) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف (١٠/٣٢٤) -بتصرف يسير-.

والقسم الثالث من المرتبة الثالثة: من كانت له أصول صحيحة فتأول؛ كما جاء في خطأ بعض الصحابة رضي الله عنهم في تكفير بعض المرتدين؛ حيث بين الله تعالى خطأ من توقف، ولم يحكم عليهم بكفر.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر، فأصيب بعضهم وقتل بعض، فقال المسلمون: "كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا فاستغفروا لهم"، فنزلت: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: ٩٧]، قال: فكتب إلي من بقي من المسلمين بهذه الآية، وأنه لا عذر لهم، قال: فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة، فنزلت فيهم هذه الآية: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ} [العنكبوت: ١٠] الآية".[٢٠]

وقال الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله: "فأنزل الله هذه الآية، وبين فيها حكم هؤلاء المشركين، وأنهم من أهل النار، مع تكلمهم بالإسلام".[٢١] انتهى كلامه.

وروي أن الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في تكفير بعض المرتدين، فلما بين الله تعالى كفر هؤلاء القوم لم يأمر من توقف فيهم بتجديد إسلامه.

(١٩) مجموع الفتاوى (٣/٣٥١).
(٢٠) رواه الطبري في تفسيره (٩/١٠٢) بسند صحيح.
(٢١) الدرر السنية (١٠/٢٤١).

فقد قال الله تعالى:{فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا} [النساء: ٨٨].

وصح في سبب نزولها أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى أحد، فرجع ناس ممن كان معه، فكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيهم فرقتين، قال بعضهم: "نقتلهم"، وقال بعضهم: "لا".[٢٢]

وصح عن مجاهد رحمه الله، أنه قال: "قوم خرجوا من مكة حتى أتوا المدينة يزعمون أنهم مهاجرون، ثم ارتدوا بعد ذلك، فاستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة ليأتوا ببضائع لهم يتجرون فيها، فاختلف فيهم المؤمنون، فقائل يقول: "هم منافقون"، وقائل يقول: "هم مؤمنون"، فبين الله نفاقهم، فأمر بقتالهم".[٢٣]

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "فكانوا كذلك فئتين والرسول عندهم لا ينهى واحدا من الفريقين عن شيء، فنزلت: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ} [النساء: ٨٨] الآية". [٢٤]

وقال الإمام الطبري رحمه الله في تأويل قوله تعالى: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا} [النساء: ٨٨] قال: "يعني بذلك: والله ردهم إلى أحكام أهل الشرك في إباحة دمائهم، وسبي ذراريهم".[٢٥] انتهى كلامه رحمه الله.

وقد رجح الإمام الطبري أن هذه الآية نزلت في قوم ارتدوا عن الإسلام، حيث قال بعدما ذكر أقوال السلف في سبب نزولها: "وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك: قول من قال: نزلت هذه الآية في اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوم كانوا ارتدوا عن الإسلام بعد إسلامهم من أهل مكة".[٢٦] انتهى كلامه رحمه الله.

وقال ابن أبي زَمَنِين رحمه الله -وهو من أئمة أهل السنة-: "هم قوم من المنافقين كانوا بالمدينة؛ فخرجوا منها إلى مكة، ثم خرجوا من مكة إلى اليمامة تجارا فارتدوا عن الإسلام، وأظهروا ما في قلوبهم من الشرك، فلقيهم المسلمون، فكانوا فيهم فئتين؛ أي فرقتين، فقال بعضهم: قد حلت دماؤهم؛ هم مشركون مرتدون، وقال بعضهم: لم تحل دماؤهم؛ هم قوم عرضت لهم فتنة، فقال الله -تعالى-: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ} [النساء: ٨٨]".[٢٧] انتهى كلامه رحمه الله.

ورجح طائفة من العلماء أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه توقف في تكفير مانعي الزكاة في بادئ أمرهم، ولما بين له أبو بكر رضي الله عنه كفرهم وافقه، ولم يستتبه على توقفه فيهم؛ فقد صح عن عمر رضي الله عنه، أنه قال لأبي بكر رضي الله عنه في شأن "المرتدين": كيف تقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله».[٢٨]

* والحكم في هذه الحال: أن المتوقف لا يكفر ابتداء، بل يحكم عليه بالخطأ، وهذا الحكم مبني على أن التكفير من الأحكام الشرعية، وأن حكم المجتهد المخطئ فيه كحكم غيره ممن أخطأ في المسائل الشرعية، فإذا بينت له الأدلة وانقطع تأويله ثم توقف بعد ذلك فهو كافر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فإن الإيمان بوجوب الواجبات الظاهرة المتواترة وتحريم المحرمات الظاهرة المتواترة: هو من أعظم أصول الإيمان وقواعد الدين والجاحد لها كافر بالاتفاق مع أن المجتهد في بعضها ليس بكافر بالاتفاق مع خطئه".[٢٩] انتهى كلامه رحمه الله.

وقال الشيخ سليمان بن سحمان رحمه الله: "ثم لو قدر أن أحدا من العلماء توقف عن القول بكفر أحد من هؤلاء الجهال المقلدين للجهمية، أو الجهال المقلدين لعباد القبور، أمكن أن نعتذر عنه بأنه مخطئ معذور، ولا نقول بكفره لعدم عصمته من الخطأ، والإجماع في ذلك قطعي".[٣٠] انتهى كلامه.

المرتبة الرابعة- من توقف فيمن وقع في كفر أو شرك، وكان سبب توقفه غرضا شرعيا مباحا، فمن ذلك:

١- من توقف فيمن وقع في نوع شرك أو كفر مختلف في أنه مخرج من الملة؛ كترك الصلاة.

٢- ومن ذلك من توقف فيمن انتسب للعلم الشرعي بغرض الدفع عن تكفير علماء المسلمين.

وحكم المتوقف في هاتين الصورتين أنه مجتهد مأجور بإذن الله؛ إن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: دفع التكفير عن علماء المسلمين وإن أخطئوا هو من أحق الأغراض الشرعية؛ حتى لو فرض أن دفع التكفير عن القائل يعتقد أنه ليس بكافر حماية له، ونصرا لأخيه المسلم: لكان هذا غرضا شرعيا حسنا، وهو إذا اجتهد في ذلك فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فيه فأخطأ فله أجر واحد". [٣١] انتهى كلامه.

* **وهنا سؤال مهم، وهو: أين مرتبة المتوقف في عباد القبور من هذه المراتب؟**

• والجواب أن مرتبة المتوقف في القبورية تختلف بحسب ظهور الشرك أو الاعتقاد في صاحب القبر، ولا شك أن منها ما يماثل عبادة الأصنام أو يزيد عليها، ومنها ما هو دون ذلك، ومنها ما يقتصر على الابتداع في الدين ولا يبلغ الشرك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "والمراتب في هذا الباب ثلاث:

إحداها: أن يدعو غير الله وهو ميت أو غائب، سواء كان من الأنبياء والصالحين أو غيرهم فيقول: يا سيدي فلان أغثني، أو أنا أستجير بك، أو أستغيث بك، أو انصرني على عدوي، ونحو ذلك فهذا هو الشرك بالله...

* وأعظم من ذلك أن يقول: اغفر لي وتب علي؛ كما يفعله طائفة من الجهال المشركين..

* وأعظم من ذلك: أن يسجد لقبره ويصلي إليه، ويرى الصلاة أفضل من استقبال القبلة، حتى يقول بعضهم: هذه قبلة الخواص، والكعبة قبلة العوام..

* وأعظم من ذلك: أن يرى السفر إليه من جنس الحج، حتى يقول: (إن السفر إليه مرات يعدل حجة)، وغلاتهم يقولون: (الزيارة إليه مرة أفضل من حج البيت مرات متعددة)، ونحو ذلك؛ فهذا شرك بهم، وإن كان يقع كثير من الناس في بعضه..

الثانية: أن يقال للميت أو الغائب من الأنبياء والصالحين: ادع الله لي، أو ادع لنا ربك، أو اسأل الله لنا؛ كما تقول النصارى لمريم وغيرها؛ فهذا أيضا لا يستريب عالم أنه غير جائز، وأنه من البدع التي لم يفعلها أحد من سلف الأمة...

فعلم أنه لا يجوز أن يسأل الميت شيئا: لا يطلب منه أن يدعو الله له ولا غير ذلك، ولا يجوز أن يشكى إليه شيء من مصائب الدنيا والدين؛ ولو جاز أن يشكى إليه ذلك في حياته؛ فإن ذلك في حياته لا يفضي إلى الشرك، وهذا يفضي إلى الشرك..

الثالثة: أن يقال: أسألك بفلان أو بجاه فلان عندك ونحو ذلك الذي تقدم عن أبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهما أنه منهي عنه".[٣٢] انتهى كلامه رحمه الله.

ونكتفي بهذا القدر، ونسأل الله تعالى التوفيق والعون والسداد، وصلى الله على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(٢٢) متفق عليه، صحيح البخاري (٢/١٠٥/١٣٩٩)، صحيح مسلم (٢/٥/٧٨١).
(٢٣) رواه الطبري في تفسيره (٨/٩/١٠٠٥٢) بسند صحيح.
(٢٤) تفسير الطبري (٨/١٠/١٠٠٥٤).
(٢٥) تفسير الطبري (٨/٧).
(٢٦) تفسير الطبري (٨/١٣).
(٢٧) تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (١/٣٩٣).
(٢٨) متفق عليه، صحيح البخاري (٣/٢٢/١٨٨٤)، صحيح مسلم (٨/١٢١/٧١٣٢).
(٢٩) مجموع الفتاوى (١٢/٤٩٦).
(٣٠) كشف الأوهام والالتباس (ص٧٠).
(٣١) مجموع الفتاوى (٣٥/١٠٣).
(٣٢) مجموع الفتاوى (١/٣٥٠) -بتصرف-.



سلسلة علمية في بيان مسائل منهجية (٥-٦)

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الملك الحق المبين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله إمام الأولين والآخِرين، أما بعد؛

فسنتكلم في هذه الحلقة بإذن الله تعالى عن المسائل التي حصل فيها النزاع حول حكم الطائفة الممتنعة عن شرائع الإسلام.

وقبل الدخول في موضوع الطائفة الممتنعة نود أن نبدأ بتقرير مقدمة يسيرة، فنقول:

إن أهل السنة والجماعة قد اتفقوا على أن الإيمان قول وعمل، ونقل غير واحد من أهل العلم إجماعهم على ذلك، وتفصيل ذلك القول هو بما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- فقال: "ومن أصول أهل السنة أن الدين والإيمان قولٌ وعمل؛ قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح"، انتهى كلامه.

وتوضيح ذلك أن الله تعالى إذا أمر بأمر كالصلاة والزكاة وغيرها، وركن الإيمان بأمر الله تعالى هو الانقياد له وذلك من عمل القلب، فمن لم يقم في قلبه انقياد لأمر الله تعالى فهو كافر، قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق وعملِ القلب الذي هو الانقياد"، إلى أن قال: "فمن لم يحصل في قلبه التَّصديق والانقياد فهو كافر"، انتهى كلامه رحمه الله.

ولا بدَّ أيضًا من التنبيه على أمر مهم؛ وهو أن انقياد القلب لأمر الله لا بدّ وأن يظهر أثرُه على الجوارح، فمن امتنع عن العمل دل امتناعُه على عدم إيمانه وانقياده أو ضعف إيمانه وانقياده، فالممتنع عن العمل إما أن يكون كافرًا وإما أن يكون فاسقًا، وهذا يختلف باختلاف صورة الامتناع عن العمل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "فأصل الإيمان في القلب؛ وهو قول القلب وعملُه، وهو إقرارٌ بالتصديق والحب والانقياد، وما كان في القلب فلا بدَّ أن يظهر موجبُه ومقتضاه على الجوارح، وإذا لم يعمل بموجبه ومقتضاه دل على عدمه أو ضعفه"، انتهى كلامه.

والمقصود من ذلك أن الإنسان إذا امتنع عن عمل من أعمال الإسلام إباءً واستكبارًا فإنه يعد كافرًا لعدم انقياده، وكفر هذا كـكفر إبليس الذي امتنع عن السجود لآدم عليه السلام مع إقراره بالوجوب.

نعود إلى مسألة الطائفة الممتنعة فنقول: ما هي الطائفة الممتنعة؟

الجواب: هي جماعة تنتسب إلى الإسلام ثم تمتنع بالقوة والقتال عن التزام شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة، ولو أقرت بوجوبها.

مثالها: لو امتنعت طائفة عن التزام أداء الزكاة أو عن التزام الصيام أو غير ذلك من شرائع الإسلام، ولو أقرُّوا بوجوبها، أو لم يلتزموا ترك المحرمات الظَّاهرة كالربا والخمر والزنا، ولو أقروا بتحريمها، ولم نقدر على إلزامهم إلا بالقتال، أو يكونون ذوي قوة يمتنعون بها عن التزام الشرائع الظاهرة ولو لم يباشروا القتال فعليًا.

ثم نقول: ما حكم الطائفة الممتنعة؟

الجواب: حكم الطائفة الممتنعة على الصحيح من قولي العلماء هو الردة، والخروج عن الإسلام، وذلك بناءً على ما سبق ذكره في المقدمة عن مسمى الإيمان، وأنه قول وعمل، وأنه لا بدّ من الانقياد لأوامر الله تعالى.

والدليل على ذلك: إجماع الصحابة -رضي الله عنهم- المستند إلى الدليل فقد سموا مانعي الزكاة بالمرتدين.

يقول أبو عبيدٍ القاسم ابن سلّام: "والمصدق لهذا جهادُ أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- بالمهاجرين والأنصار على منع العرب الزكاة، كجهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الشرك سواءا، لا فرق بينهما في سفك الدماء، وسبي الذرية، واغتنام المال، فإنما كانوا مانعين لها غير جاحدين بها"، انتهى كلامه.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وقد اتفق الصحابة والأئمة بعدهم على قتال مانعي الزكاة وإن كانوا يُصلون الخمس، ويصومون شهر رمضان، وهؤلاء لم يكن لهم شبهة سائغة، فلهذا كانوا مرتدين، وهم يقاتَلون على منعها، وإن أقرّوا بالوجوب كما أمر الله"، انتهى كلامه.

ويقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب بعد نقله لكلام شيخ الإسلام: "فتأمل كلامه وتصريحه بأن الطائفة الممتنعة عن أداء الزكاة إلى الإمام أنهم يقاتلون، ويحكم عليهم بالكفر، والردة عن الإسلام، وتسبى ذراريُّهم، وتغنم أموالهم، وإن أقروا بوجوب الزكاة، وصلوا الصلوات الخمس، وفعلوا جميع شرائع الإسلام غير أداء الزكاة، وأن ذلك ليس بمسقط للقتال لهم، والحكم عليهم بالكفر، والردة، وأن ذلك قد ثبت بالكتاب والسنة، واتفاق الصحابة رضي الله عنهم، والله أعلم"، انتهى كلامه رحمه الله.

حكم قتال الطائفة الممتنعة.

لقد دل الكتاب، والسنة، والإجماع على وجوب قتال الطائفة الممتنعة.

قال الله تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّـهِ} [الأنفال : ٣٩].

فإذا كان بعض الدين لله، وبعضه الآخر لغير الله: وجب القتال حتى يكون الدين كلُّه لله.

وفي الصحيحين عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أُمِرتُ أن أُقاتِلَ الناسَ حتى يشهدوا أن لا إلهَ إلا اللهُ وأن محمدًا رسولُ اللهِ، ويقيموا الصلاةَ، ويؤتوا الزكاةَ، فإذا فعلوا ذلك عَصَموا مني دماءَهم وأموالَهم إلا بحقِّ الإسلامِ، وحسابُهم على اللهِ).

وقال أبو بكر رضي الله عنه: "الزكاة حق المال، والله لو منعوني عَناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "وأجمع العلماء على أن كل طائفة ممتنعة عن شريعة متواترة من شرائع الإسلام، فإنه يجب قتالها حتى يكون الدين كله لله، كالمحاربين وأولى".

وقال أيضًا رحمه الله: "فعُلم أن مجرد الاعتصام بالإسلام مع عدم التزام شرائعه ليس بمسقط للقتال، فالقتال واجب حتى يكون الدين كله لله، وحتى لا تكون فتنة، فمتى كان الدين لغير الله فالقتال واجب، فأيُّما طائفة امتنعت من بعض الصلوات المفروضات أو الصيام أو الحج أو عن التزام تحريم الدماء، والأموال، والخمر، والزنا، والميسر أو عن نكاح ذوات المحارم أو عن التزام جهاد الكفار أو ضرب الجزية على أهل الكتاب، وغير ذلك من واجبات الدين، ومحرماته التي لا عذر لأحد في جحودها وتركها، التي يكفر الجاحد لوجوبها، فإن الطائفة الممتنعة تقاتَل عليها، وإن كانت مقرة بها، وهذا مالا أعلم فيه خلافا بين العلماء"، انتهى كلامه رحمه الله .

فإذا كان هذا حكمَ الطائفة إذا امتنعت عن التزام شريعة واحدة من شرائع الإسلام فكيف إذا امتنعت عن أكثر من ذلك، بل كيف بمن يعلن عدم التزامه بشرع الله من خلال استبداله بقوانين ديمقراطية أو مبادئ وضعية؟!

إذا تقرر هذا فلا بدّ من التنبيه على مسائل:

المسألة الأولى: الخلاف الذي وقع بين علماء الصحابة: أبي بكر وعمر حول تكفير الطائفة الممتنعة.

إن الخلاف الذي وقع بين الصحابة في تكفير مانعي الزكاة في أول الأمر ثابت بنص الحديث الذي رواه الشيخان عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: "لما

توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأُستُخلف أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العرب، قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله، ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله)، فقال: والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عِقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه، فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق".

فكان استدلال عمر -رضي الله عنه- على تحريم القتال بأنهم يقولون لا إله إلا الله، دليل واضح على أنه لم يكن يرى كُفرهم.

وممن نص على حدوث هذا الخلاف بين الصحابة الإمام ابن قدامة في كتابه الـمُغني، فقد قال بعد ذكره للروايتين في تكفير مانع الزكاة: "ووجه الأول أن عمر وغيره من الصحابة امتنعوا من القتال في بدء الأمر، ولو اعتقدوا كفرهم لما توقفوا عنه..." إلى آخر كلامه رحمه الله.

المسألة الثانية: ذكر الخلاف الذي وقع بين العلماء في هذه المسألة.

اختلف علماء أهل السنة في حكم كفر الطائفة الممتنعة بناءً على اختلاف الصحابة رضي الله عنهم، فذهب الشافعي -رحمه الله- إلى عدم كفر مانعي الزكاة، وذهب إلى أن نسبتهم إلى الردة نسبة لُغوية لا شرعية، فذهب إلى أن الصحابة إنما اختلفوا في القتال مع اتفاقهم على عدم التكفير، ووصفهم بأنهم ممتنعون عن أداء حق للإمام بتأويل.

قال الإمام الشافعي -رحمه الله-: "وأهل الردة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربان؛ منهم قوم أغروا بعد الإسلام مثل طليحة ومسيلمة والعنسي وأصحابِهم، ومنهم قوم تمسكوا بالإسلام ومنعوا الصدقات، فإن قال قائل: ما دلَّ على ذلك والعامة تقول لهم: أهلَ الردة؟ قال الشافعي: فهذا لسان عربي؛ فالردة الارتداد عما كانوا عليه بالكفر، والارتداد بمنع الحق، قال: ومن رجع عن شيء جاز أن يقال ارتدّ عن كذا"، انتهى كلامه .

وذهب الإمام أحمد إلى ذلك في رواية عنه، فنقل الأثرم عنه فيمن ترك صوم رمضان: "هو مثل تارك الصلاة؟ فقال: الصلاة آكد ليس هي كغيرها. فقيل له: تارك الزكاة؟ فقال: قد جاء عن عبد الله: ما تارك الزكاة بمسلم، وقد قاتل أبو بكر عليها والحديث في الصلاة"، انتهى كلامه .

قال القاضي أبو يعلى: "فظاهر هذا أنه حكى قول عبد الله، وفعل أبي بكر، ولم يقطع به لأنه قال: الحديث في الصلاة، يعني الحديث الوارد بالكفر لينظر هو في الصلاة، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (بيْنَ العبدِ وبيْنَ الْكفرِ ترْكُ الصَّلاةِ فَمَن ترَكَ الصَّلاةَ فقَد كفَرَ)، ولأن الزكاة حق في المال فلم يكفر بمنعه، والقتال عليه كالكفارات وحقوق الآدميين"، انتهى كلامه.

ويقول شيخ الإسلام: "ثم تَنازع الفقهاءُ في كفر من منعها، وقاتل الإمام عليها مع إقراره بالوجوب على قولين، هما روايتان عن أحمد كالروايتين عنه في تكفير الخوارج"، انتهى كلامه.

المسألة الثالثة : هل المخالف في كفر الطائفة الممتنعة بدعيٌ أم سني؟

نقول: من كان يقول بعدم كفر الطائفة الممتنعة وبنى ذلك على قوله بأن الإيمان قول بلا عمل، فهو مرجئ، وأما من كان يقول: إن الإيمان قول وعمل ثم لم يكفر الطائفة الممتنعة، فإنه ليس بمبتدع، وإنما هو مُجتهد مخطئ، والإمام الشافعي من هذا الصنف، فهو ممن يقرر أن الإيمان قول وعمل كعامة أئمة السنة والجماعة.

قال الإمام الشافعي -رحمه الله: "وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ممن أدركناهم، أن الإيمان قول وعمل ونية، لا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر"، انتهى كلامه.

وهذا الأمر يشبه الخلاف في كفر تارك الصلاة؛ فمن العلماء من ذهب إلى عدم كفر تارك الصلاة مع قولهم: إن الإيمان قول وعمل، فهذا سني وليس بمبتدع.

وأما من قال بعدم تكفير تارك الصلاة أو أنه يقتل بعد أن يُدعى إليها حين يقتل مسلمًا فقد دخلت عليه الشبهة التي دخلت على المرجئة والجهمية في مسمى الإيمان، وبالتالي بنى قوله بعدم التكفير على ذلك.

قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: "فهذا الموضع ينبغي تدبُّره؛ فمن عرف ارتباط الظاهر بالباطن زالت عنه الشبهة في هذا الباب، وعلِم أن من قال من الفقهاء أنه إذا أقرَّ بالوجوب وامتنع عن الفعل لا يُقتل، أو يقتَل مع إسلامه، فإنه دخلت عليه الشبهة التي دخلت على الُمرجئة والجهمية، والتي دخلت على من جعل الإرادة الجازمة مع القدرة التامة لا يكون بها شيء من الفعل، ولهذا كان المتنعون من قتل هذا من الفقهاء بنوه على قولهم في مسألة الإيمان، وأن الأعمال ليست من الإيمان"، انتهى كلامه رحمه الله.

ونأخذ مثالاً على هذا:

وهو ما كان من ابن شهاب الزهري -رحمه الله- فقد روى المروزي في تعظيم قدر الصلاة عن ابن شهاب الزهري أنه سُئل عن الرجل يترك الصلاة فقال: "إن كان إنما تركها أنه ابتدع دينًا غير دين الإسلام قُتل، وإن كان إنما هو فاسق ضرب ضربًا مبرحًا وسجن".

فهذا واضح في أن ابن شهاب لم يكن يرى كفر تارك الصلاة، فقد روى اللالكائي عن معقل ابن عبيد الله العبسي قال لنافع مولى ابن عمر: قلت إنهم يقولون نحن نُقر بالصلاة فريضة ولا نصلي، وإن الخمر حرام ونحن نشربها، وإن نكاح الأمهات حرام ونحن نريده، فنتر يده من يدي وقال: من فعل هذا فهو كافر.

قال معقل: فلقيت الزهري فأخبرته بقولهم فقال: سبحان الله؛ أوقد أخذ الناس في هذه الخصومات، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَشْرَبُ الشَّارِبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ).

فانظر إلى قوله بعدم تكفير تارك الصلاة مع إنكاره على المرجئة الذين يخرجون العمل من مسمى الإيمان، فهذا الذي يجعلنا لا نتهم أمثال الإمام الزهري بالإرجاء لمجرد أنه لا يرى كفر تارك الصلاة، فتأمل هذا الموطن جيدًا، ولا تغتر بكثرة المشغِّبين، ولا بأقوال الُمغالين، والله المستعان.

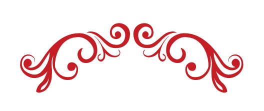
وختامًا ينبغي التنبيه ها هنا على أمر هام

وهو أن أغلب من نقاتلهم اليوم من طوائف الكفر والردة لا يجري فيهم الخلاف الذي وقع بين أهل العلم في الطوائف الممتنعة؛ فجيوش الدول الطاغوتية وشرطهم وأعوانهم كفار باتفاق، وهم أقرب إلى كونهم كأتباع مسيلمة والأسود من كونهم كمانعي الزكاة؛ فجند الطاغوت وكل من قاتل في سبيله كافر بنص القرآن، كما قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [النساء : ٧٦].

ومن والى الطاغوت على الحكم بغير ما أنزل الله ومحاربة أولياء الله فهو كافر مثلُه؛ لأن من والى الكفار كان منهم لقوله تعالى: {وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة : ٥١].

وقد مر معنا أن البراءة من المشركين وموالاة الموحدين من أصل الدين الذي لا يعذر فيه أحد بالجهل ولا بالتأويل، وهذا محل اتفاق في الجملة بحمد الله تعالى.

ونكتفي بهذا القدر، ونسأل الله تعالى أن ينفعنا بما علمنا، وأن يجمع على الحق كلمتنا، وأن يجعلنا هداة مهتدين، وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين.



الْحَلَقَةُ السادسة



الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، الملك الحق المبين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، إمام الأولين والآخرين، أما بعد:

فهذه الحلقة سنتناول الحديث فيها

بإذن الله تعالى عن مبحثين:

المبحث الأول: عن الديار وأحكامها.

والمبحث الثاني: عن الهجرة وأحكامها.

وسنتناول في مبحث الديار مسائل:

الأولى: معنى الدار، وانقسام العالم إلى دارين.

والثانيةُ: تعريف دار الإسلام، ودار الكفر.

والمسألةُ الثالثة: علة الحكم على الدار بالإسلام أو الكفر.

والرابعةُ: أقسام دار الكفر.

وسنتناول في مبحث الهجرة مسائل:

الأولى: حكم الهجرة.

والثانيةُ: حكم تركِ الهجرة.

والثالثةُ: أحوال المقيمينَ في دار الكفر.

ونشرعُ الآن في المبحث الأول المتعلقِ بأحكامِ الديار:

المسألةُ الأولى من المبحث الأول

معنى الدار، وانقسام العالم إلى دارين؛ ومعنى الدار اصطلاحًا:

اصطلح العلماءُ من السلف والخلف على تقسيم العالم إلى دارين؛ دارِ إسلامٍ ودارِ كفرٍ، وهذا التقسيم تقسيمٌ أصيل مبنيٌّ على كتاب اللهِ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فمن كتاب الله قوله تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ} [الحشر : ٩].

قال الإمام ابنُ كثيرٍ رحمه الله: "أي سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم"، انتهى كلامه.

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّـهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَـٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء : ٩٧].

والهجرة إذا أُطلِقت في الكتاب والسنة، فهي تعني الانتقال من دار الكفر إلى دار الإسلام.

أما من السنة فقد جاء تقسيم الديار في عدةِ أحاديث: فمن ذلك ما جاء في الحديث الذي رواه مسلمٌ عن بُريدةَ بن الحصيب -رضي الله عنه- مرفوعًا: (ثُمَّ ادعُهم إلى الإسلامِ، فإن أجابوكَ فاقبَل منْهم وكُفَّ عنهُم، ثمَّ ادعُهم إلى التَّحوُّلِ مِن دارِهم إلى دارِ الـمُهاجرينَ، وأخبرهم أنَّهم إن فعلوا ذلكَ فلَهم ما للمُهاجرينَ، وعَلَيهِم مَا عَلَى الـمُهاجرينَ).

وأخرج النسائي -رحمه الله- بإسناد صحيح، عن جابر بن زيد -رضي الله عنه- قال: قال ابن عباس -رضي الله عنهما- إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكرٍ وعمرَ كانوا من المهاجرين، لأنهم هجروا المشركين، وكان من الأنصار مهاجرون، لأن المدينة كانت دارَ شركٍ، فجاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة.

المسألة الثانية من مبحث الديار: تعريف دارِ الإسلامِ ودارِ الكفر.

دارُ الإسلام: هي كل بلدةٍ أو بقعةٍ تعلوها أحكامُ الإسلام، والغلبةُ والقوةُ والكلمةُ فيها للمسلمين، وإن كان أكثرُ سُكانِ هذه الدار من الكافرين.

أما دارُ الكفر: فهي كل بلدٍ أو بقعةٍ تعلوها أحكامُ الكفر، والغلبةُ والقوةُ والكلمةُ فيها للكافرين، وإن كانَ أكثرُ سُكانِ هذه الدار من المسلمين.

قال الإمام ابن القيّم رحمه الله: "دارُ الإسلام هي التي نزلها المسلمون، وجرتْ عليها أحكامُ الإسلام، وما لم تجرِ عليه أحكام الإسلام لم يكن دار إسلام، وإن لاصقها، فهذه الطائفُ قريبةٌ إلى مكةَ جدًا، ولم تَصِرْ دار إسلام بفتح مكة، وكذلك الساحل"، انتهى كلامه.

وقال ابن مفلح رحمه الله: "فصلٌ في تحقيق دارِ الإسلام ودارِ الحرب؛ فكل دارٍ غلب عليها أحكامُ المسلمين فدارُ الإسلام، وإن غلبَ عليها أحكام الكفار فدارُ الكفر، ولا دارَ لغيرهما"، انتهى كلامه.

المسألة الثالثة: علة الحكم على الدار بالإسلام أو الكفر.

باستقراء كلام العلماء يتبين أنهم يذكرون سببين للحكم على الدار:

الأول: القوةُ والغلبة.

الثاني: نوع الأحكام المطبقةِ فيها.

قال ابن حزمٍ رحمه الله: "وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسلِمٍ أَقَامَ بَيْنَ أَظهُرِ الْمُشرِكِينَ)، يبين ما قلناه، وأنه عليه السلام إنما عنى بذلك دار الحرب، وإلا فقد استعمل عليه السلام عُمّاله على خيبر، وهم كلهم يهود، وإذا كان أهل الذمة في مدائنهم لا يمازجهم غيرهم، فلا يسمى الساكن فيهم لإمارة عليهم، أو لتجارة بينهم كافرًا، ولا مسيئًا، بل هم مسلم حسنٌ، ودارهم دار إسلام لا دار شرك، لأن الدارَ إنما تنسب للغالب عليها، والحاكم فيها، والمالك لها"، انتهى كلامه.

وعن أبي يوسف، ومحمد بن الحسن -رحمهما الله تعالى-: "إذا أظهروا أحكام الشرك فيها، فقد صارت دارهم دار حرب، لأن البقعة إنما تنسب إلينا أو إليهم باعتبار القوة والغلبة، فكل موضع ظهر فيه حكم الشرك، فالقوة في ذلك الموضع للمشركين، فكانت دار حرب، وكل موضع كان الظاهر فيه حكم الإسلام، فالقوة فيه للمسلمين"، انتهى كلامهما.

وقال الشوكاني رحمه الله: "الاعتبار في الدار بظهور الكلمة، فإن كانت الأوامر والنواهي في الدار لأهل الإسلام، بحيث لا يستطيع من فيها من الكفار أن يتظاهر بكفره، إلا لكونه مأذونًا له بذلك من أهل الاسلام، فهذه دار إسلام، ولا يضرّ ظهور الخصال الكفرية فيها، لأنّها لم تظهر بقوة الكفار ولا بصولتهم، كما هو مشاهد في أهل الذمة من اليهود والنصارى، والمعاهِدين الساكنين في المدائن الإسلامية، وإذا كان الأمر بالعكس فالدار بالعكس"، انتهى كلامه.

المسألة الرابعة: أقسام دار الكفر.

تنقسم ديار الكفر من جهة كون الكفر فيها قديمًا أو طارئًا إلى قسمين:

القسم الأول؛ دار الكفر الأصلي: وهي التي لم تكن دار إسلام في وقت من الأوقات.

والثاني؛ دار الكفر الطارئ: وهي التي كانت دار إسلام في وقت من الأوقات، ثم استولى عليها الكفار، أو ارتد الحاكمون لها، أو ارتد أهلها وجرت فيهم أحكام الكفر.

فصفة الدار ليست من الصفات اللازمة المؤبدة، بل هي من الصفات العارضة المتغيرة، بمعنى: أن الدار قد تتغير من صفة إلى أخرى، فقد تكون الدار دار كفر في وقت ما، ثم تصير دار إسلام، وقد تكون دار إسلام ثم تصبح دار كفر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فإن كون الأرض دار كفر، أو دار إسلام أو إيمان، أو دار سلم أو حرب، أو دار طاعة أو معصية، أو دار المؤمنين أو الفاسقين، أوصاف عارضة لا لازمة، فقد تنتقل من وصف إلى وصف، كما ينتقل الرجل بنفسه من الكفر إلى الإيمان والعلم، وكذلك بالعكس"، انتهى كلامه رحمه الله.

وهنا تنبيه مهم

أنه لا يلزم من الحكم على الدار بأنها دار كفر، أصليةٍ كانت أو طارئة، الحكم على من كان فيها من المسلمين بأنه كافر، بل هذه مقالة الغلاة، ومسلك من مسالك الخوارج.

فقد ذكر الأشعري -رحمه الله- هذا القول عن إحدى فرق الخوارج، فقال: "زعمت الأزارقة أن من أقام في دار الكفر فهو كافر، لا يسعه إلا الخروج"، انتهى كلامه.

وذكر عن الخوارج "البيهسية والعوفية" أنهم قالوا: "إذا كفر الإمام فقد كفرت الرعية، الغائب منهم والشاهد"، انتهى كلامه.

وذلك لأن الأصل هو بقاء المسلم على إسلامه فوق كل أرض، وتحت كل سماء، ما لم يرتكب ناقضًا من نواقض الإسلام، وما ثبت بيقين لا يزول بالشك.

قال الإمام الشوكاني رحمه الله: "اعلم أن التعرض لذكر دار الإسلام ودار الكفر، قليل الفائدة جدًا -أي في الحكم على قاطنيها- لما قدمنا لك في الكلام على دار الحرب، وأن الكافر الحربي مباح الدم والمال على كل حال، ما لم يؤمَّن من المسلمين، وأن مال المسلم ودمه معصومان بعصمة الإسلام، في دار الحرب وغيرها"، انتهى كلامه.

والتحقيق أن يقال:

إن حكم السكان في دار الكفر الطارئ، أو القول بأن الأصل فيهم الإسلام أو الكفر، أو حكمَ مجهول الحال منهم، يختلف باختلاف الأحوال، وكلها أحكامٌ فقهية مردها إلى فتوى العلماء، ولذلك اختلفت أقوالهم باختلاف أحوال الساكنين في تلك الديار.

وإليك بعضَ الأمثلة على ذلك:

المثال الأول: فتوى شيخ الإسلام -رحمه الله- في أهل (مَارِدِين).

وهي دار إسلام كانت قد استولى عليها التتار، فعلتها أحكامُ الكفر.

سُئل -رحمه الله- عن بلد (مَارِدِين) هل هي بلد حرب أم بلد سلم، وهل يجب على المسلم المقيم بها الهجرة إلى بلاد الإسلام أم لا، وإذا وجبت عليه الهجرة ولم يهاجر، وساعد أعداء المسلمين بنفسه أو ماله، هل يأثم في ذلك؟ وهل يأثم من رماه بالنفاق، وسبَّه به أم لا؟

فأجاب: الحمد لله؛ دماء المسلمين وأموالهم محرمة حيث كانوا في مَارِدِين أو غيرها، وإعانة الخارجين عن شريعة دين الإسلام محرمة سواء كانوا أهل ماردين أو غيرهم، والمقيم بها إن كان عاجزًا عن إقامة دينه وجبت الهجرة عليه، وإلا استحبت ولم تجب.

ومساعدتهم لعدو المسلمين بالأنفس والأموال مُحرّمة عليهم، ويجب عليهم الامتناع من ذلك بأي طريق أمكنهم، من تغيّب أو تعريض أو مصانعة، فإذا لم يمكن إلا بالهجرة تعينت.

ولا يحل سبهم عمومًا ورميهم بالنفاق، بل السب والرمي بالنفاق يقع على الصفات المذكورة في الكتاب والسنة، فيدخل فيها بعض أهل مَارِدِين وغيرهم.

وأما كونها دار حرب أو سلم فهي مركبة، فيها المعنيان؛ ليست بمنزلة دار السلم التي تجري عليها أحكام الإسلام لكون جندها مسلمين، ولا بمنزلة دار الحرب التي أهلها كفار، بل هي قسم ثالث: يُعامل المسلم فيها بما يستحقه، ويُقاتل الخارج عن شريعة الإسلام بما يستحقه"، انتهى كلامه رحمه الله.

فانظر كيف حكم على السكان بأنه لا يحل سبهم عمومًا ورميهم بالنفاق، ولا أنهم كفار كأهل دار الحرب، مع أنه حكم على جندها بأنهم غير مسلمين، وكل ذلك في مَارِدِين، وهي دار كفر طارئ.

المثال الثاني: فتوى حمد بن عتيق -رحمه الله- في أهل الأحساء.

قال: "ومن له مشاركة في ما قرره المحققون قد اطلع على أن البلد إذا ظهر فيها الشرك، وأُعلنت فيها المحرمات، وعُطّلت فيها معالم الدين: تكون بلاد كفر، يغنم أموال أهلها، وتستباح دماؤهم، وقد زاد أهل هذا البلد في إظهار المسبة له ولدينه، ووضعوا قوانين يُنفذونها في الرعية مخالفة لكتاب الله وسنة نبيه، وقد علمت أن هذه كافية وحدها في إخراج من أتى بها من الإسلام، هذا ونحن نقول قد يوجد فيها من لا يحكم بكفره في الباطن من مستضعفٍ ونحوه، وأما في الظاهر فالأمر -ولله الحمد- واضح، ويكفيك ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في مكة مع أن فيهم مستضعفين، وكذلك ما فعله أصحابه بكثير ممن ارتد عن الإسلام، من استباحة الدم والمال والسبي، وكل عاقل وعالم يعلم أنما أتى به هؤلاء من الكفر والردة أقبح وأفحش وأكثر مما فعله أولئك، فارجع البصر في نصوص الكتاب والسنة وفي سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه تجدها بيضاء نقية لا يزيغ عنها إلا هالك، تحرَّى فيها ذكر العلماء، وارغب إلى الله في هداية القلب وإزالة الشبهة، وما كنت أظن أن هذا يصدر من مثلك، ولا تغتر بما عليه الجهال، وما يقوله أهل الشبهات"، انتهى كلامه.

فانظر كيف حكم على أهل البلد بالكفر ظاهرًا، وذلك لتحقق أوصاف فيهم اقتضت هذا الحكم؛ من تفشٍّ للكفر فيهم، وتمالئهم عليه، وإعلانهم به وغير ذلك، ولم يعلق حكمه عليهم على مجرد أن دارهم دار كفر فتنبه.

فالحاصل أنه ينبغي التفريق بين مسألة الحكم على الدار ومسألة الحكم على السكان؛ فيكون الحكم على الدار وفقًا لما علت الدار من أحكام، ويكون الحكم على السكان بالاطلاع على حال السكان، والله المستعان.

انتهى المبحث الأول عن الديار بتوفيق الله.

ونشرع الآن في مسائل المبحث الثاني: مبحث الهجرة.

الهجرة شرعًا: هي الخروج في سبيل الله من دار الكفر إلى دار الإسلام.

وقد تطلق الهجرة ويراد بها الخروج من دار معصية إلى دار طاعة، ومن دار بدعة إلى دار سنة.

المسألة الأولى: حكم الهجرة.

قال ابن القاسم -رحمه الله- في حاشيته على الأصول الثلاثة: "معلوم ثبوتها -أي الهجرة- بالكتاب والسنة والإجماع، مُتوعد من تركها، وقد حكى الإجماع على وجوبها من بلد الشرك إلى بلد الإسلام غيرُ واحد من أهل العلم"، انتهى كلامه.

المسألة الثانية: حكم ترك الهجرة.

لا يكفر المسلم بمجرد ترك الهجرة لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّـهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الأنفال: ٧٢].

فجمع بين وصفهم بالإيمان وترك الهجرة من أرض الحرب.

يقول أبو بكر ابن العربي رحمه الله: "قوله تعالى: {وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ} يريد إن دعوا من أرض الحرب عونكم بنفير أو مال لاستنقاذهم فأعينوهم، فذلك عليكم فرض إلا على قوم بينكم وبينهم عهد، فلا تقاتلوهم عليهم، يريد حتى يتم العهد عليه أو ينبذ على سواء"، انتهى كلامه.

وإنما تحرم على المسلم الإقامة في دار الكفر إذا لم يكن متمكنًا من إظهار دينه لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّـهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَـٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: ٩٧].

قال ابن كثير رحمه الله: "الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكنًا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حرامًا بالإجماع"، انتهى كلامه.

وليس إظهار الدين هو مجرد التمكن من الصلوات وغيرها، وإنما المقصود من إظهار الدين إظهار العداوة للكفار والمشركين لقوله تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّـهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّـهِ وَحْدَهُ} [الممتحنة: ٤].

وأما من ترك الهجرة وكانت عنده أصل العداوة -يعني العداوة موجودة- ولكن لم يبدها -أي لم يظهرها- فهو عاص وليس بكافر.

سُئل الشيخ عبد اللطيف -رحمه الله- عمن كان في سلطان المشركين وعرف التوحيد وعمل به ولكن ما عاداهم ولا فارق أوطانهم، فأجاب: "هذا السؤال صدر عن عدم التعلق لصورة الأمر، والمعنى المقصود من التوحيد والعمل به، لأنه لا يتصور أنه يعرف التوحيد ويعمل به ولا يعادي المشركين، ومن لم يعادهم لا يقال له عرف التوحيد وعمل به، والسؤال متناقض، وحسن السؤال مفتاح العلم، وأظن مقصودك: من لم يظهر العداوة ولم يفارق، ومسألة إظهار العداوة غير مسألة وجود العداوة؛ فالأول: يعذر به مع العجز والخوف لقوله تعالى: {إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً} [آل عمران: ٢٨].

والثاني: لا بدَّ منه، لأنه يدخل في الكفر بالطاغوت، وبينه وبين حب الله ورسوله تلازم كلي لا ينفك عنه المؤمن؛ فمن عصا الله بترك إظهار العداوة فهو عاص لله، فإذا كان أصل العداوة في قلبه فله حكم أمثاله من العصاة، فإذا انضاف إلى ذلك ترك الهجرة فله نصيب من قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ} [النساء: ٩٧]، لكنه لا يكفر،

لأن الآية فيها الوعيد لا التكفير، وأما الثاني الذي لا يُوجد في قلبه شيء من العداوة فيصدق عليه قول السائل لم يعادِ المشركين، فهذا هو الأمر العظيم والذنب الجسيم، وأي خير يبقى مع عدم عداوة المشركين؟! والخوف على النخل والمساكن ليس بعذر يوجب ترك الهجرة، قال تعالى: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ} [العنكبوت: ٥٦]"، انتهى كلامه رحمه الله.

"وأما من ترك الهجرة من دار الكفر موالاة للكفار من أهلها أو إعانة لهم على المسلمين فهو كافر مثلهم".

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [التوبة: ٢٣].

قال القرطبي رحمه الله: "ظاهر هذه الآية أنها خطاب لجميع المؤمنين كافة، وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين، وروت فرقة أن هذه الآية إنما نزلت في الحض على الهجرة ورفض بلاد الكفرة، فالمخاطبة على هذا إنما هي للمؤمنين الذين كانوا بمكة وغيرها من بلاد العرب، خوطبوا بأن لا يوالوا الآباء والإخوة فيكونوا لهم تبعًا في سكنى بلاد الكفر"، انتهى كلامه.

وقال ابن حزم رحمه الله: "فصحّ بهذا أن من لحق بدار الكفر والحرب مختارًا محاربًا لمن يليه من المسلمين، فهو بهذا الفعل مرتد له أحكام المرتد كلها، من وجوب القتل عليه متى قُدر عليه، ومن إباحة ماله، وانفساخ نكاحه وغير ذلك، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبرأ من مسلم"، انتهى كلامه.

وقال ابن تيمية -رحمه الله- معلقًا على أثر عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-: "من بنى ببلادهم، وصنع نيروزهم ومهرجانهم، وتشبه بهم حتى يموت، حشر معهم".

قال: "وهذا يقتضي أنه جعله كافرًا بمشاركتهم في مجموع هذه الأمور أو جعل ذلك من الكبائر الموجبة للنار، وإن كان الأول ظاهر لفظه، فتكون المشاركة في بعض ذلك معصية"، انتهى كلامه.

المسألة الثالثة: أحوال المقيمين في دار الكفر.

يقول ابن حزم رحمه الله: "وأما من فرَّ إلى أرض الحرب لظلم خافه، ولم يحارب المسلمين ولا أعانهم عليهم، ولم يجد في المسلمين من يجيره: فهذا لا شيء عليه، لأنه مضطر مكره، وقد ذكرنا أن الزهري محمد بن مسلم بن شهاب كان عازمًا على أنه إن مات هشام بن عبد الملك لحق بأرض الروم، لأن الوليد بن يزيد كان نذر دمه إن قدر عليه، وهو كان الوالي بعد هشام، فمن كان هكذا فهو معذور، وكذلك من سكن بأرض الهند والسند والصين والترك والسودان والروم من المسلمين؛ فإن كان لا يقدر على الخروج من هنالك لثقل ظهر أو لقلة مال أو لضعف جسم أو لامتناع طريق فهو معذور.

فإن كان هناك محاربًا للمسلمين معينًا للكفار بخدمة أو كتابة: فهو كافر.

وإن كان إنما يقيم هنالك لدنيا يصيبها، وهو كالذمي لهم، وهو قادر على اللحاق بجمهرة المسلمين وأرضهم: فما يبعُد عن الكفر، وما نرى له عذرًا، ونسأل الله العافية.

وليس كذلك من سكن في طاعة أهل الكفر من الغالية ومن جرى مجراهم؛ لأن أرض مصر والقيروان وغيرهما، فالإسلام هو الظاهر، وولاتهم على كل ذلك لا يجاهرون بالبراءة من الإسلام، بل إلى الإسلام ينتمون، وإن كانوا في حقيقة أمرهم كفارًا.

وأما من سكن في أرض القرامطة مختارًا: فكافر بلا شك لأنهم معلنون بالكفر وترك الإسلام، ونعوذ بالله من ذلك.

وأما من سكن في بلد تظهر فيه بعض الأهواء المخرجة إلى الكفر: فهو ليس بكافر لأن اسم الإسلام هو الظاهر هنالك على كل حال من التوحيد والإقرار برسالة محمد صلى الله عليه وسلم والبراءة من كل دين غير الإسلام، وإقامة الصلاة وصيام رمضان، وسائر الشرائع التي هي الإسلام والإيمان، والحمد لله رب العالمين"، انتهى كلامه رحمه الله.

هذا وصلى الله على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



مقتطفات نفيسة



من كلام الشيخ
أبي مصعب الزرقاوي
تقبله الله

أما أنتم أيّها المجاهدون الصابرون فنقول لكم:

مع كل ما يصيبنا من هم ونصب وضيق وبلاء، فوالله لن يرى الأعداء منا إلا كل ما يسوؤهم، ولنجاهدنهم بكل ما نستطيع، ولنبذلن الغالي والنفيس في حربهم، فإن مراغمة الطواغيت من أقرب القربات إلى الله، فاصبروا إنما هي أيام قلائل ثم بعدها يأتي الفرج والنصر بعون الله، فإنّ تأخر النصر لا يعني تخلف وعد الله، حاشا وكلا.

إياكم والنكوص والرجوع عن هذا الطريق، فإنه والله مع مشقته وصعوبته ومرارته لحلو في ذات الله، وإنها لنعمة عظيمة أن يصطفيكم الله لنصرة دينه، والجهاد في سبيله.

ألا يكفيكم -يا رفاق الدرب؛ يا أُنس الروح وسلواها- الحديث الذي رواه أبو هريرة، قال: مر رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعب فيه عين من ماء عذبة فقال: (لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم)، فقال: (لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة اغزوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة).

ورحم الله ابن تيمية عندما قال: (واعلموا أصلحكم الله أن من أعظم النعم على من أراد الله به خيراً أن أحياه إلى هذا الوقت الذي يُجدد الله فيه الدين ويحيي فيه شعار المسلمين وأحوال المؤمنين والمجاهدين؛ حتى يكون شبيهاً بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار فمن قام في هذا الوقت بذلك كان من التابعين لهم بإحسان، فينبغي للمؤمنين أن يشكروا الله تعالى على هذه المحنة التي حقيقتها منحة كريمة من الله تعالى، وهذه الفتنة التي في باطنها نعمة جسيمة، حتى والله لو كان السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم حاضرين في هذا المكان لكان من أفضل أعمالهم جهاد هؤلاء القوم المجرمين ولا يُفوت مثل هذه الغزاة إلا من خسرت تجارته، وسفه نفسه، وحُرم حظاً عظيماً من الدنيا والآخرة).

الفتن والابتلاءات ١

الحمد لله الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً، والصلاة والسلام على من أرسله ربه شاهداً ومبشراً ونذيراً، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد...

فقد بيَّن الله –تعالى- أن إرادته الشرعية في خلق العباد أن يعبدوه مخلصين له الدين، واقتضت حكمته البالغة أن يكلف العباد بفعل ما يحب وترك ما يكره، وأن يجعل لهم إرادة واختياراً فيختاروا أحد الطريقين: طريق الهدى أو طريق الضلال، دون أن يجبرهم على طاعة أو معصية، مع أن جميع أفعالهم لا تقع إلا بمشيئة الله سبحانه، قال تعالى: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [البلد: ١٠]، وهذه هي هداية الدلالة بأن بيَّن لهم وميَّز لهم طريق الحق من طريق الباطل، وقد وصف الله –تعالى- نفسه بأنه المبين في قوله: {وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} [النور: ٢٥]، ووصف نبيه –صلى الله عليه وسلم- بأنه مبين فقال سبحانه: {وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ} [الدخان: ١٣]، ووصف كتابه بأنه مبين: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} [المائدة: ١٥]، لئلا يكون للناس حجة على الله بعد ذلك، والله –تعالى- يهدي من يشاء بحكمته وفضله ورحمته، ويضل من يشاء بحكمته وعدله.

الابتلاء بالنعم وبالمصائب

يريد الله –تعالى- من عباده أن يداوموا على طاعته وامتثال أوامره في السراء والضراء، وأن يقابلوا نعمه بالشكر، ويقابلوا المصائب بالصبر.

وأما النعم فالله –تعالى- يصيب بها المؤمن والفاسق، ولذلك أنكر الله –تعالى- على من يعد نعم الله الدنيوية إكراماً له، ويعد تضييق الرزق إهانة له، فقال سبحانه: {فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا} [الفجر: ١٥ - ١٧]، فالله –تعالى- يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، وأما الدين فلا يعطيه إلا لمن يحب.

وكذلك المصائب الدنيوية تصيب الطائع والعاصي، فالفقر والأمراض ونقص الأنفس والجوع والخوف تصيب المسلمين والكافرين، ولكن المسلم له مواقف عدة من هذه المصائب:

١- أولها أنه يعلم أنها من عند الله سبحانه، فيرضى ويسلِّم.

٢- وأن لله فيها حكمة قد تظهر للخلق وقد يجهلونها.

٣- الإيمان بقضاء الله وقدره، وأنه قدّر الخير والشر، ولا يقول لو كان كذا وكذا لكان كذا وكذا، ولكن يقول: قدر الله وما شاء فعل، كما أمرنا النبي، صلى الله عليه وسلم، فالمؤمن لا يلوم نفسه على وقوع المصائب، لأنها قدر الله.

٤- أن هذه المصيبة قد أصابته بذنب أذنبه، لقوله تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى: ٣٠]، فيستغفر الله ويتوب إليه من ذنوبه، وهو موقن بأن الله –تعالى- يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات.

الصبر على الأذى فيه

هناك مشاق ومصائب وأذىً ومحن تصيب المسلم بسبب دعوته إلى الله وإعلانه الولاء للمؤمنين والبراء من الكافرين والطواغيت وأتباعهم، وأيضاً بسبب مجاهدته لأعداء الله بالحجة والسنان، فهذه يعلم المؤمن أنها ابتلاءات تجري على سنة الله في عباده المجاهدين، بحيث يمحصهم ثم يمحق أعداءهم، ويكشف بها الصادق في إيمانه من الكاذب، والمؤمن من المنافق، فهذه الابتلاءات والفتن يستقبلها المؤمن بالرضا والصبر والاستمرار في دعوته وجهاده، كما أنه لا يهين ولا يستكين لعدوه ولا يحزن لما أصابه في سبيل الله، ويستشعر علوه على الكافرين بإيمانه بالله عز وجل، وقد يجتمع مع هذه السنن الإلهية وقوع معصية من العباد فيحصل الابتلاء والتمحيص، ويعقبهما لطف الله بعباده وعفوه عنهم لاستمرارهم في طاعته ومجاهدة أعدائه، كما حصل في غزوة أحد، فقد حصل الفشل بسبب معصية بعض الرماة وحبهم للدنيا، ولكن الله –تعالى- عفا عنهم بعد أن ابتلاهم، قال تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٥٢].

وأخبر –تعالى- في السياق نفسه ما حصل في غزوة أحد أن له حكماً كثيرة من صرفه للمؤمنين عن الكافرين، قال تعالى: {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [آل عمران: ١٣٧].

أنواع الفتن

أتى ذكر الفتن في النصوص الشرعية بمعنى الابتلاء والاختبار الذي يبين حقيقة الشيء، وذلك مثل إحراق الذهب لاختبار حقيقته وصفائه ونقاوته، وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [الأنبياء: ٣٥]، وأيضاً قوله تعالى: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [العنكبوت: ٢ - ٣].

وجاءت الفتنة بمعنى العذاب كما في قوله –تعالى- عن الكفار: {يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ} [الذاريات: ١٣]، وأيضاً قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} [العنكبوت: ١٠ - ١١]، والفتنة هنا بمعنى التعذيب لأجل صرف المسلم عن دينه.

والمعنى الثالث للفتنة هو الضلال، وأعظم الضلال الشرك بالله، قال تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: ٦٣]، قال الإمام أحمد –رحمه الله- عن هذه الآية: الفتنة الشرك. وجاءت الفتنة بمعنى الضلال في قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [التوبة: ٤٩]، ادعى المنافقون خوفهم من أن يفتتنوا بنساء الروم إذا ذهبوا لجهادهم، فأخبر الله –تعالى- أنهم واقعون في ضلال أكبر من ذلك وهو كفرهم الذي يخفونه عن الناس.

وقد يراد بالفتنة سبب الضلال وقد تكون بسبب شهوة أو شبهة، فأما الفتنة بالشهوات فهي فتنة المال والأهل والولد، كما في قوله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [الأنفال: ٢٨]، وهذا السبب يؤدي إلى الضلال للمفتونين الذين يتصرفون تجاه أسباب الفتنة بما يخالف شرع الله، وأما المتقون فيقدمون أوامر الله ويجتنبون ما حرم ولو عارض شهواتهم وما يحبونه من أموال أو أهل أو ولد، وكذلك النساء فتنة أي سبب للوقوع في المعاصي، كما قال نبينا –عليه الصلاة والسلام- في الحديث المتفق عليه: (ما تركتُ بعدي فِتْنَة هي أضَرُّ على الرجال من النساء)، والمعصوم من عصمه الله تعالى.

وأما الفتنة بالشبهات، فمثل ما أخبر الله –عز وجل- عن الملكين ببابل هاروت وماروت، اللذين نزلا بأمر الله وكانا يعرفان السحر، فإذا جاءهما أحد يريد تعلم السحر منهما قالا له: إنما نحن فتنة فلا تكفر، فإن أصر بعد ذلك علماه السحر، والملائكة لا تعصي الله تعالى: {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: ٦].

وإذا نسبت الفتنة إلى العبد فهي مذمومة دائماً، كما في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ} [البروج: ١٠] أي: أحرقوا المؤمنين.

ولله –تعالى- حكم عظيمة من فتن الشبهات والشهوات، فالله –تعالى- يحب من عبده أن يظل عائذاً به من الضلال، مستجيراً به من الفتن وأسبابها، طالباً الهداية على الدوام، باحثاً عن الحق والصواب، متجرداً من الهوى، مستشعراً فقره إلى ربه الكريم، وحاجته إلى أن يثبته الله على الهدى، كلما أحس بالتباس أمر عليه دعا بدعاء نبيه –صلى الله عليه وسلم- الذي كان يدعو به في استفتاح صلاة الليل: (اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم) [رواه مسلم].

الفتن والابتلاءات ٢

الحمد لله الذي خلق الخلق ليعبدوه، وأمرهم بالاستمرار في عبادته حتى يلقوه، له الحكمة البالغة في فتن السراء والضراء، التي يظهر بها إيمان المؤمنين ونفاق المنافقين، ويظهر الصادق من الكاذب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

فإن الله –تعالى- يحب من عباده أن يصبروا على طاعته في جميع الأحوال، وأن يوقنوا بأن كل ما يحكم الله به صادر عن حكمته البالغة وعلمه الذي أحاط بكل شيء، وأنه لا شيء يخرج عن قدرة الله عز وجل، ولا يكون صلاح أمر الناس في الدنيا والآخرة إلا باتباع شرعه وحكمه، وهذا ما يعلمه كل موقن. قال تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة: ٥٠]، ومن تدبّر عَلِم أن اليقين إذا لم يصحبه صبر فإن صاحبه لا يثبت بل يتزعزع، نسأل الله أن يثبت قلوبنا على دينه.

حِكم الله في الابتلاء:

التمحيص

يعلم الله –تعالى- بكل شيء، ومن ذلك ما سيفعله الناس إذا ابتلوا بأنواع الابتلاءات، ولكنه لا يؤاخذهم إلا بعد حصول الأفعال منهم، قال تعالى: {فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [العنكبوت: ٣]، أي العلم الذي يتعلق به الثواب والعقاب، وإلا فهو –سبحانه- يعلم ما كان وما سيكون، فهذه إحدى حِكم الله من ابتلاء المؤمنين، ومن الحكم أيضاً أن يظهر إيمان المؤمن للناس فيرتفع قدره عندهم ويكون له القبول في الأرض، وأن يظهر نفاق المنافق فيعامله الناس بما يستحق كما في الحديث: (إنّ الله إذا أحبّ عبدا دعا جبريل، فقال: إني أحبّ فلانا فأحبّه، قال: فيحبّه جبريل، ثم ينادي في السماء، فيقول: إنّ الله يحبّ فلانا فأحبّوه، فيحبّه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدا دعا جبريل عليه السلام، فيقول: إني أبغض فلانا فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إنّ الله يبغض فلانا فأبغضوه، ثم توضع له البغضاء في الأرض) [رواه البخاري ومسلم واللفظ له].

خروج الخبَث

ومن الحكم أيضاً أن يُخرج الله الخُبثاء من دار الإسلام، كما في حديث جابر بن عبد الله –رضي الله عنه- أن أعرابيا بايع النبي –صلى الله عليه وسلم- على الإسلام، فأصاب الأعرابي وعك بالمدينة، فأتى النبي –صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله أقلني بيعتي، فأبى رسول الله –صلى الله عليه وسلم- قالها ثلاثا، فخرج الأعرابي، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إنما المدينة كالكير، تنفي خبثها، وينصع طيبها) [رواه البخاري ومسلم].

لعلهم يتضرعون

ومن حِكم الله –تعالى- من ابتلاء المؤمنين أن تخشع قلوبهم لله ويحاسبوا أنفسهم على التقصير في حق الله –تعالى- وحقوق عباده، ويلجؤوا إلى الله –تعالى- ويتضرعوا إليه ليرزقهم الصبر على البلاء ويكشفه عنهم، ويغفر لهم ذنوبهم ويثبتهم على الإيمان، قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ} [الأنعام: ٤٢]، وقال تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} [النحل: ١٢٧].

ثبات أولياء الله على الحق

ومن يتأمل سير أنبياء الله ورسله –عليهم الصلاة والسلام- يجد الثبات على دين الله في أوضح صوره، وأنهم كانوا يتقلبون بين الشكر والصبر، فلم تغلب النعم شكرهم، ولم تغلب المصائب صبرهم، وأن هؤلاء المصطفين الأخيار قد بذلوا كل شيء في سبيل إرضاء الله تعالى، فلم يؤخرهم حب بلد نشؤوا فيه ولا تعلق بزوج أو ولد أو مال عن ابتغاء مرضاة الله تعالى، راضون مسلِّمون لأمر الله –عز وجل- وحكمته، يعلمون أن الله –تعالى- لا يريد بابتلائه لهم –بالسراء والضراء- إلا فلاحهم، يشكرون الله –تعالى- على توفيقه لهم للطاعة بمزيد من التقرب إليه والسعي في مرضاته، وعند نزول البلاء يكون همهم اتقاء سخط الله –تعالى- فيلجؤون إليه خوفاً وطمعاً.

أصابتهم محن وبلايا كثيرة فلم يتراجعوا عن حق دعوا إليه، ولم تتغير مواقفهم من الباطل وأهله، بل استمروا في طريق الدعوة إلى توحيد الله وتحكيم شريعته والجهاد في سبيل الله بكل ما أمكنهم من أنواع الجهاد، وأولها الجهاد بالحجة واللسان، ومجادلة الناس بالتي هي أحسن لتبيين الحق وكشف الباطل.

من الناس من يعبد الله على حرف

وهناك صنف من الناس ليسوا على يقين من صحة الطريق الذي يسلكونه لطلب مرضاة الله، وزيَّن لهم هواهم مقياساً خاطئاً لمعرفة الحق من الباطل، فإن أقبلت عليهم الدنيا بمتاعها وزخرفها قالوا إذن طريقنا الذي سلكناه صحيح وحق، وإن أصابتهم الفتن التي أخبر الله –عز وجل- بأنها ستصيب لا محالة كل من يقول آمنا بالله وبنبيه –صلى الله عليه وسلم- وبدين الإسلام، {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} [العنكبوت: ٢]، استغرب هؤلاء من هذه الفتن واستنكروا أن تصيبهم وقرروا ترك طريق الاستقامة على دين الله، قائلين: لا طاقة لنا بهذه المصائب، مدعين أن هذه المحن تدل على عدم صحة الطريق الذي يسلكونه، فينقلبون راجعين مدبرين، وقد أخبر –تعالى- عنهم بقوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الحج: ١١]، فهؤلاء كما يصورهم لنا القرآن يقفون في مكان خطير، وميزانهم غير شرعي بل تلعب به أهواؤهم، ولا فرق في الحكم عليهم بالضلال والخسران بين من ضل منهم على علم أو من ضل على جهل، والمصيبة التي أصابتهم كانت كبيرة بحيث خسروا بها الدنيا، وبنكوصهم وتراجعهم عن دينهم خسروا الآخرة أيضاً، فأي خسارة أبين من هذه؟ نسأل الله العافية في الدين والدنيا والآخرة.

مثل لمن ضل على علم

رجل أنعم الله عليه بنعمة العلم بآيات الله، ولكنه فتن بفتنة عظيمة من فتن الدنيا، بحيث إنه صار على مفترق طرق إما أن يختار التمسك بآيات الله فيخسر ذلك العرض الدنيوي، وإما أن ينسلخ من دينه اتباعاً لهواه، فأخلد إلى الأرض وركن إلى الدنيا مؤثراً لشهواتها على ما أعد الله للمتقين، فضرب الله له مثلاً بالكلب يظل لاهثاً سواء أطاردته أم تركته، قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦]، فهذا رجل لم ينفعه علمه ولم يسعفه فهمه، بل أعمته شهوات الدنيا عن أن يطلب لنفسه المكانة الرفيعة عند ربه تعالى، وخطر هؤلاء الذين يضلون على علم كبيرٌ، لأنهم يُضلون كثيراً من الناس وراءهم، إما بأن يدعوهم إلى الضلال الذي صاروا إليه، وإما أن يسنُّوا للناس سنة سيئة فيقتدي بهم أناس في ضلالهم، فيحمل ذلك العالم وزره وأوزار من أضلهم، وقد حذرنا الله –تعالى- من أنه لا يعذر من يتبع أئمة الضلال، وأنهم سيتبرأ بعضهم من بعض، ولا ينفعهم ذلك التبرؤ شيئاً، قال تعالى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [البقرة: ١٦٦ - ١٦٧].

ولعلنا نقف وقفات أخرى مع الفتن والابتلاءات، نسأل الله العافية في ديننا ودنيانا، والحمد لله رب العالمين.

الفتن والابتلاءات ٣

الحمد لله الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، والصلاة والسلام على رسوله قدوة المؤمنين في طاعة العزيز المجيد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد...

فإنه لما كانت حكمة الله من خلق عباده أن يبتليهم ليُظهر الصالح من الفاسد، والمصلح من المفسد فإن الله تعالى شاء -وهو الحكيم العليم- أن يأمر عباده بأنواع من العبادات القلبية والبدنية والمالية، وأمرهم -سبحانه- بأن يأتوا الحلال وينصرفوا عن الحرام، بل وحتى ما يشتبه عليهم، فالرشاد في أن يتركوه حتى يتبين لهم وجهه فيقدموا عليه أو يذروه على بيّنة من أمرهم.

وأوجب الله على عباده أن يتقوه في معاملتهم لبعضهم البعض، وجعل لمعاملاتهم أحكاماً وحدوداً لتحفظ حقوقهم وتمنع العدوان عليهم.

الابتلاء بأنواع العبادات

قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} [الملك: ١ - ٢]، أي ليختبركم بالأعمال التي يأمركم بها، والأوامر نوعان: أمر بالفعل وأمر بالترك.

وإذا نظرت إلى أركان الإسلام وجدتها تجمع بين أقوال القلوب وأعمالها وقول اللسان وعمل الجوارح، فالشهادتان لا يقبلهما الله إلا ممن يعلم معناهما ويوقن بهما، ويشهد بلسانه على ما في قلبه من إيمان بهما، مع القبول والإذعان لما دلّتا عليه والانقياد لأوامر الله بالفعل أو بالترك واجتناب ما ينقض الشهادتين من قول أو عمل أو اعتقاد.

والصلاة هي حق البدن تصححها النية الخالصة لله، ويَعظم أجرُ المصلي باستشعاره عظمة الله، وأن يصلي لربه خائفاً طامعاً محباً مستحيياً من ربه لتقصيره في طاعة الله وجرأته على معصية الله، ويؤدي صلاته متّبعاً هدي نبيه -صلى الله عليه وسلم- في أركانها وواجباتها ومستحباتها، فيجاهد نفسه في تأديتها على أحسن وجه.

ثم الزكاة وهي حق المال، عبادة قلبية مالية، يؤديها المزكي راجياً ثواب الله خائفاً من أن يقصر فيها متحرياً مَن يستحقونها.

والصوم عبادة قلبية بدنية من نوع مختلف أيضاً، فهي إمساك عن أفعال معينة في وقت النهار شهراً كاملاً.

ثم الحج الجامع لهجر الدار -وربما الأهل أيضاً- مع النية الخالصة، وهو جامع أيضاً للعبادة البدنية والمالية، وتذكر الاقتداء بنبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- والاقتداء بخليل الله إبراهيم -عليه السلام- مع تعظيم شعائر الله وذبح الهدي ابتغاء رضوان الله.

مرتبة الإيمان

أمرنا الله -تعالى- بالإيمان وهو التصديق والإقرار المقترن بالقبول والإذعان لله -تعالى- وأوامره، ومنه ما هو إيمان بالغيب ومنه ما هو إيمان بالشهادة، والإيمان قول وعمل، والقول قول القلب وقول اللسان، والعمل عمل القلب وعمل الجوارح، والإيمان يزيد بالطاعة وينقص بنقص الطاعات وبفعل المعاصي.

رُوي عن الحسن البصري -رحمه الله- أنه قال: "إن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني وإنما الإيمان ما وقر في القلب وصدَّقه العمل".

مرتبة الإحسان

ثم إن المؤمن الموفَّق يرتقي إلى درجة الإحسان بأن يجاهد نفسه حتى يعبد الله كأنه يراه، وهي المرتبة العليا من الإحسان، تليها المرتبة الأخرى منه، وهي أن يعبد الله -تعالى- مستحضراً مستشعراً أن الله -تعالى- يراه، فيخشع لربه ويتقن طاعته ويقوى يقينه وإخلاصه، وقد وعد الله -تعالى- عباده الذين يجاهدون فيه أن يهديهم سُبُلَه الموصلة إليه وأن يكون معهم بتوفيقه وتأييده وعونه، فيطهرهم من المعايب ويرقيهم أعلى المراتب في دينهم ثم في آخرتهم، قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩].

تقوى الله في المعاملات

يحب الله -تعالى- ممن يوحدونه أن يحسنوا إلى عباده، قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} [البقرة: ٨٩]، فإن لم يحسن إليهم فليعدل معهم، فالله -تعالى- أوجب العدل في معاملة الناس، وحرم البغي. قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: ٩٠]، وقال نبينا -صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) [رواه مسلم]

بالاحتساب تؤجر على فعل المباحات

وإذا عمل المسلم المباحات بنية صالحة فإنه يؤجر عليها، كما قال معاذ -رضي الله عنه- لما سأله أبو موسى الأشعري، رضي الله عنه: كيف تقرأ القرآن؟ فأجابه: "أمَّا أنا: فأنام، ثم أقوم فأقرأ، فأَحْتَسِبُ في نومتي ما أَحْتَسِبُ في قَومتي" [رواه الشيخان].

ولقد تعجب الصحابة -رضي الله عنهم- كيف يأتي الإنسان شهوته الحلال ويكون له فيها أجر، فأجابهم النبي، صلى الله عليه وسلم: (أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي الْحَرَامِ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهِ وِزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ) [رواه مسلم].

حُفت الجنة بالمكاره

طريق الجنة محفوف بالمكاره، أي الواجبات التي تثقل على النفس ولا تُقبل عليها أول الأمر، كما في التطهر بالغسل والوضوء أيام الشتاء، وكما في الاستيقاظ لصلاة الفجر لأدائها في وقتها جماعة، وكما في إنفاق الأموال رغم حب الإنسان لها، قال تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} [الإنسان: ٨]، ومن أعظم المكاره الهجرة والجهاد في سبيل الله وتحمل ما يلقى في طريقهما من فتن وابتلاءات ومحن ومصائب، ولا نغفل عن أن الله -تعالى- يعين المؤمن ويحبب إليه هذه الطاعات حتى إنه لا يجد بعد ذلك راحته ولا أنسه إلا بها، وكم يفتح الله من بركات الدين والدنيا والآخرة بالهجرة والرباط والجهاد.

وربما كانت هذه الأمور العظام فتنة للذين في قلوبهم مرض فيرتدون على أعقابهم، ويشكّون في صحة طريقهم إذا طال وقت الجهاد وكثرت الابتلاءات دون حصول النصر المأمول، {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} [الأحزاب: ١٢] ويظن بعضهم بالله ظنَّ الجاهلية وأن الله لن ينصر دينه وأولياءه، قال تعالى: {وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا} [آل عمران: ١٥٤].

(وحفت النار بالشهوات)

جعل الله -تعالى- في فطر عباده الميل إلى شهوة النساء والأبناء والذهب والفضة والمركوب الفاخر والأنعام التي يأكلون منها والمزارع التي فيها من كل زوج مبهج للنفس، فيحب الله من العبد أن يكون همه الأكبر طلب الآخرة، وأن يقدم رضا الله -تعالى- على شهواته إذا تعارضا، وأن لا يتجاوز الحلال إلى الحرام من هذه الشهوات، قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} [آل عمران: ١٤]، ثم رغَّبهم -تعالى- في أن يكون أكبر همهم وأكثر سعيهم للحياة الآخرة الباقية: {قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [آل عمران: ١٥].

ومن ابتلاء الله لعباده أن منعهم من بعض ما يشتهون، فإذا اقتحموا الشهوات المحرمة عرضوا أنفسهم لسخط الله وعقابه، ومن هذه العقوبات ما هو في الدنيا ومنها ما يكون في الآخرة، نسأل الله العافية في ديننا ودنيانا، وجعلنا الله ممن يصبر ويصابر حتى نلقى ربنا وهو راض عنّا غير غضبان.

الفتن والابتلاءات ٤

الحمد لله الذي جعل للمتقين فرقاناً يفرقون به بين الصحيح والفاسد من الأقوال والأعمال، والصلاة والسلام على رسوله الذي لنا فيه أسوة حسنة في سائر الأحوال، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الكبير المتعال، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

فإن الله -تعالى- يبتلي عباده بما يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك، ومما ابتلاهم به الفتن التي تُظهر إيمان المؤمنين ونفاق المنافقين، وبعض الناس يصبحون بعد الفتن مرضى قلوب، لا ترى لهم رشداً في تبين الحق وكشف الباطل، فتطيش عقولهم وتضطرب تفسيراتهم للأحداث، حتى يصير المعروف عندهم منكراً والمنكر معروفاً، كما في حديث حذيفة -رضي الله عنه- قال سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (تُعْرَض الفتن على القلوب كالحصير عَوداً عَوداً، فأيُّ قلب أُشْرِبَها نُكِتَ فيه نُكتة سوداء؟ وأي قلب أنكرها نُكِتَ فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: أبيضَ مثل الصَّفا، فلا تَضره فتنة، ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مُرْباداً، كالكوزِ مُجَخِّياً، لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، إلا ما أُشرب من هواه) [رواه مسلم].

فقه الحديث

إن من حكمة الله أن تتعرض القلوب لأنواع من الفتن المتتابعة، فعلى المؤمن أن يعتصم بالله -عز وجل- وبسنة نبيه -عليه الصلاة والسلام- ليعصمه الله من الفتن عند نزولها، ومن هذه الفتن نعم الدنيا المتنوعة أو المصائب المختلفة في الأهل والأولاد أو تسلط الأعداء ونقص الأنفس والثمرات، فيشكر المسلم ربه على ما أنعم به عليه ويعترف أن هذه النعم هي من فضل الله وأنه لم ينلها بحوله وقوته، بل ولا باستحقاقه -لأن المسلم دوماً يتهم نفسه ويخاف من عاقبة ذنوبه وتقصيره- وأيضاً موقف المؤمن أمام النعم أنه لا يغتر بها ولا يقول إنها دليل رضا الله عنه، بل يخاف من الاستدراج من حيث لا يعلم، ويبتلى المؤمن بالنعم ليَظهر هل يستخدمها في طاعة الله وفيما أباحه الله أم أنها تشغله عن طاعة مولاه، وهل يقدم ما يحب من مال وجاه ومناصب وزوجات وبنين على طاعة ربه؟

فإذا خالف المسلم ذلك فقد وقع في الفتن، ثم إنه يألفها ويحبها ويدافع عنها حتى يشرب قلبه حبها ويتعلق بها.

وأما فتن الضراء، فيقابلها المسلم بالصبر والرضا ويتذكر أنها من عند الله فيقابلها بالتسليم لأمر الله، ويعلم أنه إن صبر عليها كانت كفارة لذنوبه، وإن لم يصبر عليها وسخط، سخط الله عليه ولم يجد لمشكلته حلا إلا بما يريده الله عز وجل، ويعلم المؤمن أن المصائب ليست دلالة على سخط الله عليه إلا إذا رأى نفسه ساخطاً على القدر مستغرباً من الابتلاء فهذه والله خسارة الدين والدنيا، والمصائب خير للمؤمن إن صبر وكانت سبباً لعودته إلى ربه ومحاسبته لنفسه.

فتنة اشتباه الحق بالباطل

وهناك فتن أخرى أعظم وهي اشتباه الحق بالباطل وأن تبحث عن ناصح صالح فلا تجد إلا ما شاء الله، وأن تسمع تفسير الأحداث باطلاً يشوبه شيء من حق يجعله حمّال أوجه، وأن ترى من كنت تظنهم أهل العلم والحلم مبحرين في الضلال مدافعين عن الباطل بشتى الشبه، منتقصين لأهل الحق رامين لهم بقصور النظر أو بالضلال.

وقد يشتبه الحلال بالحرام، فهنا أمرنا النبي -صلى الله عليه وسلم- أن نتورع ولا نقدم على الأمر إلا إذا تبينا حِله، قال صلى الله عليه وسلم: (الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله تعالى في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب) [رواه الشيخان].

هنا يُختبر المرء، هل يُحكّم هواه أم يبحث صادقاً عن الحق الذي لا شبهة فيه، هل يطلب العلاج في كتاب الله وسنة رسوله، عليه الصلاة والسلام، وهو متيقن أن الحق لا يمكن أن يكون في غير سبيل الصحابة ومن تبعهم بإحسان.

والفتن لا تتوقف ما دام المرء حياً، فلا تعجب إذا رأيت مَن صحبوك في طريق التوحيد والجهاد والدعوة وتحكيم الشريعة ينقسمون إلى فريقين:

فريق شبّه النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- قلوبَهم في بياضها وصلابتها بالصفا وهي الحجرة الملساء التي لا تشرب الماء ولا تعلق بها القاذورات، بل ازدادت لمعاناً وصفاءً وصقلاً، فهؤلاء لا تضرهم الفتن بفضل الله ورحمته، بل ازدادوا بعدها قوة ونضارة حتى يصير الواحد منهم قدوة في طاعة الله والصبر على طلب مرضاة الله مهما كان الحال.

وفريق -نعوذ بالله من حالهم- انقلبوا على أعقابهم يشككون في صحة طريق الإيمان وارتباط الهداية بالجهاد في سبيل الله، ويقولون لو كنا على حق ما قتلنا ههنا وما صرنا إلى الضيق والحصار، متناسين ما مر على خير البشر من محن في طريق دعوتهم وفي سبيل جهادهم، بل تمر عليهم السنون والحال لا تتغير إلا ما شاء الله، وأهل الإيمان ثابتون يعلمون أن كل لحظة تمر عليهم وهم صابرون محتسبون فمعها الأجر والثواب ورضا الله وعونه وتأييده بل وفتحه على المؤمنين بما لا يحتسبون في العلم والعمل والإصلاح والصبر والرد على أهل الباطل والشبهات.

وإذا أصابتك -يا أخي- فتنة ثم نجاك الله منها فاحمد الله واعلم أنها ليست الأخيرة، فلا راحة للمؤمن دون لقاء ربه عز وجل.

سبيل النجاة من الفتن

- سل الله الهداية بصدق وافتقار وضراعة إلى الله، واستشعر هذه المعاني عند قراءتك {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: ٦]، واستعذ بالله من الفتن.

- تعلم العلم الشرعي لتصرف عنك الجهل، وانوِ بتعلمه وجه الله تعالى، وتذكر أن العلم هو من أجْل العمل، وإلا كان وبالاً على صاحبه وحجة عليه.

- اعمل بما علمت، واتق الله حيثما كنت، وجاهد نفسك وهواك في ذات الله عز وجل، قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الأنفال:٢٩]، فرقاناً تفرق به بين الحق والباطل، وبين والهدى والضلال وبين أهل السعادة وأهل الشقاء.

- لزوم جماعة المسلمين وإمامهم، فقد بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن لزومهما هو النجاة لدين المرء من فتنة الدعاة على أبواب جهنم، والذين هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا كما جاء في الحديث الذي في الصحيحين الذي رواه حذيفة اليمان، رضي الله عنه.

- اجعل لك ورداً يومياً من كتاب الله فتقرأه بتدبر وخشوع.

- احرص على تكميل الفرائض وإتقانها، ثم تقرب إلى الله بالنوافل والإكثار منها، واحرص على أن يكون كثير منها خفياً عن الخلق لا يعلمه إلا الله، قال صلى الله عليه وسلم: (بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا) [رواه مسلم].

نسأل الله أن يعيذنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يحيينا ويميتنا على ما يرضيه عنا، إنه هو الولي الحميد.

وقفات عند أحاديث

الفتن والملاحم

تتشوق النفس البشرية للتعرف على ما هو كائن في قابل الأيام، سواء عما يتعلق بمستقبل الإنسان نفسه أم بمصير البشرية كلها وصولا إلى قيام الساعة، ولعل في انتشار الكهنة والعرافين في كل أمم الشرك خير دليل على ذلك، إذ يُنفق المشركون كثيرا من أموالهم طلبا لمعرفة المستقبل الذي يزعم أولئك الكذبة الدجالون معرفته.

وفي الوقت نفسه فإن الله سبحانه -الذي لا يعلم الغيب إلا هو- أوحى إلى بعض عباده وهم الأنبياء -عليهم السلام- في جملة ما أوحى إليهم أمورا هي من الغيب، تخص ما هم ملاقوه وأتباعهم في أيامهم القادمة، ولعل أكبر مثال على ذلك، ما أوحاه -تعالى- للمرسلين السابقين عن بعثة أخيهم محمد، صلى الله عليه وسلم، وأمره لهم بالإيمان به ونصرته هم وأتباعهم، وأخذ الميثاق منهم على ذلك.

وكذلك فإن نبينا -عليه الصلاة والسلام- بلَّغ من جملة ما بلَّغه عن ربه -تعالى- من العلم أمورا تحصل بين بعثته وقيام الساعة، منها ما هو من أخبار الفتن والملاحم التي تكون في آخر الزمان، ومنها ما هو من أشراط الساعة التي يجعلها الله -سبحانه- علامات على اقتراب قيامها، فلا تقوم إلا بعد ظهور هذه الأشراط.

ولا زال المسلمون في كل عصر يولون هذه الأحاديث الاهتمام الكبير، فيؤمنون بما فيها من العلم، ويعلِّمونها، ويبلِّغها كل قرن للذي يليه، وكما في كل مسألة من مسائل الدين الكثيرة التي ضل فيها أقوام، فإن طوائف كثيرة من الناس قد ضلت في هذه القضية الهامة، فغلوا فيها إفراطا أو تفريطا، بين متعلق بها أشد التعلق يريد أن يُسقط كل ما يسمعه من أنبائها على واقعه المعاش، هربا من ضغوط عليه أو طمعا في مصير يطمح إليه، وبين قالٍ يريد أن يردّ هذه الأحاديث كلها، ويكفر بها، لأنه لا يعتقد بما ورد فيها من أمور لا تتوافق مع عقله القاصر.

والمؤمن يعمل بالمسألة كما أراد الله سبحانه، فلا يندفع في عالم من الجهل، يتتبع كل كلمة لا يعرف صدقها فيجعلها من محكمات الدين، ولا يزهد في هذا الباب من العلم الذي نزل به الروح الأمين من لدن رب العالمين، وبلغه إلى رسولنا الكريم، عليه الصلاة والسلام، ونقله عنه خيار الناس من الصحابة والتابعين، ولا زال مدار اهتمام وتعليم له من أهل العلم الراسخين، ومن أهم أسس المنهج النبوي في هذا الباب:

الإيمان بكل ما جاء في الكتاب والسنة

فلا شك أن من أصول أهل الإيمان أن يؤمنوا بكل ما جاءنا من النبي، عليه الصلاة والسلام، ومن ذلك الإيمان بما ورد في الكتاب والسنة من أحاديث الفتن والملاحم، فقد ورد كثير مما يتعلق بهذا الباب في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يصح إيمان امرئ لا يؤمن أن كل ما فيه حق، وأنه من الله تعالى، وكذلك الإيمان بكل ما صح عن النبي، عليه الصلاة والسلام، وإن لم يعقله، أو يدرك مغزاه، وأن لا يكون في صدره حرج منه، كما قال تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٦].

ولذلك نجد أن أئمة السلف جعلوا الإيمان بالمسائل الغيبية التي أنبأ النبي -عليه الصلاة والسلام- بحدوثها في آخر الزمان في كتب العقيدة التي كتبوها للناس، مبينين من خلالها اعتقاد أهل السنة والجماعة الذين لا يزيغ عن عقيدتهم إلا هالك، وما كان اهتمامهم الكبير بإبراز هذه المسائل إلا خوفا على المسلمين من أن يفتنهم أهل الضلال عنها، ويدفعوهم إلى الكفر ببعض ما ورد عن النبي -عليه الصلاة والسلام- اتباعا لأهواء الذين لا يعلمون.

قال ابن قدامة في لمعة الاعتقاد: "ويجب الإيمان بكل ما أخبر به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وصح به النقل عنه فيما شهدناه أو غاب عنا، نعلم أنه حق وصدق، وسواء في ذلك ما عقلناه وجهلناه ولم نطلع على حقيقة معناه، مثل: حديث الإسراء والمعراج، ومن ذلك أشراط الساعة، مثل خروج الدجال، ونزول عيسى بن مريم -عليه السلام- فيقتله، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها، وأشباه ذلك مما صح به النقل"، انتهى كلامه رحمه الله.

ولا يشترط تواتر الأحاديث لوجوب الإيمان بها، بل إذا صح الحديث عند علماء الحديث فإننا نؤمن ونعمل به، خلافاً لأهل البدع الذين اشترطوا تواتر الحديث لإثبات أمور العقائد، وادعوا أن الحديث غير المتواتر لا يفيد العلم اليقيني.

ولا يجوز اعتقاد أن بعض الأخبار المستقبلية قد نسخ، لأن النسخ يكون للأحكام لا للأخبار، فما أخبر عنه الله -عز وجل- ورسوله -صلى الله عليه وسلم- كله حق وصدق، قال تعالى: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} [النساء: ١٢٢]، وقال عن نبيه، صلى الله عليه وسلم: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: ٣ - ٤].

الحذر من الأحاديث المكذوبة والتأويلات الفاسدة

ولما كانت القضية هنا تتعلق بما ورد عن النبي، صلى الله عليه وسلم، وجب التأكد من نسبة الأقوال إليه، قبل الإيمان بها أو نسبتها إليه عند تبليغها للناس، وخاصة أن باب الفتن والملاحم من الأبواب التي كثر الكذب فيها من أهل الضلال الذين حاولوا الانتصار لضلالهم من هذا الطريق، وخاصة الروافض الملاعين الذين أكثروا من الكذب على النبي -عليه الصلاة والسلام- وآل بيته، ووضعوا قصصا كثيرة يزعمون من خلالها انتصار ضلالهم في آخر الزمان.

وكذلك فإن كثيرا من أحاديث الفتن والملاحم وصلتنا من طرق ضعيفة لا يقوم بها دين، فالحديث الضعيف وإن لم يكن شديد الضعف فهو لا يفيد العلم اليقيني، بل يفيد الظن، والظن لا يغني من الحق شيئاً، ولكن من الجهة الأخرى لا يُكذب المسلم ما جاء في الأحاديث الضعيفة من أخبار، وإن لم يؤمن بها، إلا إذا جاء في الأحاديث الصحيحة ما يعارضها وينفي صحة ما جاء فيها، لأن بعض الأحاديث تختلف فيها اجتهادات أهل العلم بالحديث فيصححها بعضهم ويضعفها آخرون.

والإيمان بما ورد من الغيبيات يقتضي أن نصدق بالأخبار على ظاهرها، خلافاً لأهل البدع الذين يسمون أنفسهم العقلانيين ومن على شاكلتهم حيث ادعوا الإيمان بالغيب ثم صرفوا كثيراً من النصوص عن ظاهرها، فلا نتأول أحاديث الفتن والملاحم تأولا يحرفها عن حقيقتها، بل نؤمن بما جاء فيها، ونمررها كما جاءت عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حتى يظهر تأويلها واضحا جليا في الوقت الذي يأذن به الله عز وجل.

والواجب على المسلم الرجوع إلى تفسير أهل العلم للآيات والأحاديث التي فيها أخبار عن أشراط الساعة وغيرها من الأمور المستقبلية، كما هو شأن المسلم دائماً، ألا يفسر القرآن برأيه ولا بآراء أهل البدع والضلال.

وكذلك فإنه ينبغي الابتعاد عن إسقاط النصوص التي تتضمن إشارات إلى أحاديث آخر الزمان على واقع المسلمين في أي زمان دون برهان بيّن من الشريعة، ففي هذه الهاوية زلَّت كثير من الأقدام، وفي هذا الطريق ضلت طوائف من الناس، وسنسعى -بإذن الله- إلى الحديث عن هذا الجانب الخطير من جوانب الإيمان بأحاديث الملاحم والفتن، والله الهادي إلى سواء السبيل.

وقفات عند أحاديث الفتن والملاحم ٢

تحدثنا في العدد السابق -بحمد الله تعالى- عن بعض الضوابط في مسألة التعامل مع أخبار الفتن والملاحم التي تقع في آخر الزمان، وخاصة ما ورد منها في صحاح الأحاديث النبوية.

وبيّنا وجوب الإيمان بكل خبر ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية، بما فيها أخبار الفتن والملاحم التي هي من أنباء الغيب، مع التأكيد على التثبت من صحة نسبة هذه الأخبار إلى النبي -عليه الصلاة والسلام-، وصحة تأويل هذه الأخبار الواردة في الوحيين، وعدم الالتفات إلى الأخبار المكذوبة والتأويلات الباطلة.

وكما يتفاضل الناس إزاء أي من واجبات الإيمان، فإنهم يتفاضلون أيضا في مواقفهم من هذا الواجب، وهو الإيمان بأخبار المرسلين، التي منها ما أخبروا عنه من فتن آخر الزمان وأشراط الساعة، فهُم بين مؤمن بها حق الإيمان، وبين ناقصٍ إيمانه بها لمرض في قلبه، وبين جاحد لها أشد الجحود، ومنافق يظهر الإيمان، ويطعن فيه من جوانب يظنها تخفى على المؤمنين.

ولنا في كتاب الله وسيرة رسول الله -عليه الصلاة والسلام- الكثير من النماذج التي توضح اختلاف مواقف الناس من أخبار المرسلين.

الكافرون: فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

فقد أوحى الله تعالى إلى عبده نوح -عليه السلام- شيئا من الغيب في مصير من كفر من قومه، وأمره بصناعة الفلك لتجنيب الذين آمنوا ما سيصيب المشركين من العذاب، ولكن الذين كفروا بكل ما أنبأهم نبيهم من أمر الغيب لم يكونوا ليؤمنوا بما بلغهم من أمر العذاب الذي قدّره الله عليهم، فسخروا من نوح وما يعدهم به من العذاب، وطالبوه أن يستعجل لهم ما يعدهم به، حتى حاق بهم ما كانوا به يستهزؤون، في الوقت الذي كان نبي الله موقنا بوعد ربه له، ويتوعد به الكفار أنهم مصيبهم ما وعدهم ربهم لا محالة، قال تعالى: {وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ} [هود: ٣٦-٣٩].

وهذا المشهد نجده يتكرر في كثير من قصص الأنبياء مع الكافرين من أقوامهم، تكذيب لهذه الوعود، وسخرية منها، حتى وهم متيقنون من صدق أنبيائهم، كما كان حال كفار قريش مع الرسول -عليه الصلاة والسلام-، ومن ذلك ما رواه عمرو بن العاص -رضي الله عنه- من اعتداء قومه على النبي -صلى الله عليه وسلم- في مكة، فلما أكثروا من أذاه، توعّدهم بما يسوؤهم، وهو في حال استضعاف منهم، فقال -عليه الصلاة والسلام-: (تسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفس محمد بيده، لقد جئتكم بالذبح)، فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: "انصرف يا أبا القاسم، انصرف راشدا، فوالله ما كنت جهولا"، ثم عادوا إلى إيذائه في اليوم التالي، رغم ما وجدوه في أنفسهم من رهبة له عندما توعدهم.

المنافقون: ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا

وكذلك نجد في مواقف المنافقين محاولات للطعن في صدق دعوة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من خلال التشكيك فيما أخبر المسلمينَ به من بشائر وهم في أحلك الظروف، ليثبتهم بها، ويربط على قلوبهم، فاستغل المنافقون الضعف الذي مرَّ به المسلمون، ليشككوهم في صدقه -عليه الصلاة والسلام-، إذ يبشّرهم بفتح الله لهم مشارق الأرض ومغاربها، وهم يخشون أن يدخل عليهم عدوهم في أي لحظة، فيستبيح بيضاءهم ويستأصل شأفتهم.

فقد روى الإمام أبو جعفر الطبري -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} [الأحزاب: ١٢]، عن قتادة قوله: "قال ذلك أُناس من المنافقين، قد كان محمد يعدنا فتح فارس والروم، وقد حُصرنا هاهنا، حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته، ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا" [جامع البيان في تأويل القرآن].

الظالمون: اذهب أنت وربك فقاتلا

وهذا المرض، وهو عدم تصديق أخبار الأنبياء والمرسلين، قد لا يتجلى في الإنكار القولي، ولكنه يظهر أحيانا بصورة التولي العملي عن تنفيذ الأحكام التي قد ترتبط بهذه الأخبار، كما كان حال بني إسرائيل مع إخبار نبيهم موسى -عليه السلام- لهم بأن الله قد جعل لهم الأرض المقدسة، وأمرهم فقط أن يدخلوها فينصرهم الله على عدوهم ويورثهم الأرض التي بأيديهم، وهذا ما فقِهَه أولوا الإيمان من بني إسرائيل، فقالوا: {ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [المائدة: ٢٣].

فكان جواب الظالمين التشكيك في هذا الوعد من خلال امتناعهم عن تنفيذ أمر الله لهم بدخول تلك الأرض، بحجة أن فيها قوما جبارين يمنعون من تحقيق موعود الله تعالى لهم، كما قال تعالى: {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ} [المائدة: ٢١-٢٢].

فكان عقوبة فعلهم هذا أن حرَّمها الله عليهم أربعين سنة، ثم صدق وعده مع بني إسرائيل بأن أدخلهم هذه الأرض التي كتبها لهم، كما قال تعالى: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا} [الأعراف: ١٣٧]، وذلك بعد أن خرج منهم من صدّق موعود الله وأطاع أمره سبحانه، وما كان الله ليُخلف وعده، وإن استبطأ الناس تحقيقه، قال تعالى: {فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} [إبراهيم: ٤٧].

المؤمنون: هذا ما وعدنا الله ورسوله

أما أهل الإيمان فإنهم يصدقون موعودَ الله، ويزدادون إيمانا بما يجدونه في واقعهم من حدوث ما آمنوا به سابقا من أخبار جاءتهم عن طريق الوحي، حتى لو كانت تلك الأخبار تتضمن ابتلاءات سيجدونها في طريقهم قبل أن يأتيهم نصر الله، كما كان موقفهم من قوله تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: ٢١٤]، إذ وجدوا مصداقا لها في ذات الموقف الذي أظهر المنافقون فيه كفرهم، وهو الشدة التي أصابتهم يوم الأحزاب، فازدادوا بذلك تصديقا لكلام الله ورسوله، وازدادوا بذلك إيمانا.

قال الإمام أبو محمد البغوي رحمه الله: "فالآية تتضمن أن المؤمنين يلحقهم مثل ذلك البلاء، فلما رأوا الأحزاب وما أصابهم من الشدة قالوا: {هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [الأحزاب: ٢٢] أي: تصديقا لله وتسليما لأمر الله" [معالم التنزيل في تفسير القرآن].

وهذا التصديق رافقه عمل صالح هو الثبات أمام الأحزاب، والصبر على الشدة والحرب حتى فصل الله بينهم وبين القوم المشركين، وكان فرحهم بتحقق موعود الله تعالى لهم بالنصر يرافقه فرح آخر ببشرى جديدة ألقاها إليهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، تتعلق بانقلاب كلي في مسار الحرب بين المسلمين ومشركي قريش، بقوله: (نغزوهم ولا يغزوننا) [رواه البخاري]، فلا زالوا مصدّقين لذلك حتى فتح الله عليهم مكة عقر دار المشركين يومئذ.

وهكذا هم المتّقون في كل زمان، يؤمنون بالغيب، الذي منه ما جاءهم من أنباء ما يأتي من الأيام، ويؤمنون بكل ما أنزل إلى أنبيائهم، ومنه ما أوحي إليهم من أخبار آخر الزمان، ويوقنون بالآخرة وبالساعة، التي يبعث فيها الناس من قبورهم، ويُنشرون لحسابهم، ويؤمنون بما جاءهم من أشراطها، التي لا تقوم إلا بعد حدوثها، كما قال تعالى فيهم: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [البقرة: ٢-٥].

وقفات عند أحاديث الفتن والملاحم ٣

تحدثنا في الحلقات الماضية من هذه السلسلة عن أخبار الفتن والملاحم الواردة في نصوص الوحيين، وواجب المسلم نحوها، وبينا أنها من الإيمان بالغيب الذي لا يتم إيمان المرء بغيره.

ونكمل في هذه الحلقة -بإذن الله- كلامنا، مستعينين به -عز وجل- في بيان مكانة هذا الباب من أبواب العلم، ومقدار اهتمام أهل الإسلام به.

أخبار الغيب وأنواعها

فأخبار الغيب التي أخبر بها الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- تتفاوت من حيث المدى الزمني لوقوعها، فمنها ما وقع قبل زمن التكلم بها، فيوحي بها إلى عباده المرسلين ليبلغوها لأقوامهم على سبيل التعليم وأخذ العبر وإثبات النبوة، كما في أخبار الأمم السالفة التي ما جاء نبي من بعد نوح إلا وأخبر بها، كما قال عنها الله تعالى: {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} [هود: ٤٩].

ومنها ما كان واقعا في زمن تكلم الأنبياء بها، كإخبارهم -عليهم الصلاة والسلام- الناس بأمور من الغيب لم يطلعوا عليها، على سبيل تقديم الآيات والدلائل على نبوتهم، وتلقيهم الوحي من الله عز وجل، كما في قول عيسى بن مريم -عليه السلام- لقوله، فيما أخبر عنه ربه سبحانه وتعالى: {وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [البقرة: ٤٩].

ومنها ما كان إخبارا عن أمور ستقع بعد فترة من إخبارهم بها، كما في إخباره -عليه الصلاة والسلام- بدخول المسلمين إلى مكة بعد رؤيا رآها، وصدق ذلك كلام ربه عز وجل: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح: ٢٧]، قال الإمام أبو محمد البغوي رحمه الله: "وذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أُري في المنام بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين، ويحلقون رؤوسهم ويقصرون، فأخبر بذلك أصحابه، ففرحوا وحسبوا أنهم داخلو مكة عامهم ذلك، فلما انصرفوا ولم يدخلوا شق عليهم، فأنزل الله هذه الآية" [معالم التنزيل في تفسير القرآن].

ومن تلك الأخبار، ما لم يقع في حياة الأنبياء المبلغين لها، ولكن بعد أن توفاهم الله، كإخبارهم ببعثة النبي محمد عليه الصلاة والسلام، وأمرهم أتباعهم بالإيمان به، كما في قول عيسى بن مريم عليه السلام: {وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} [الصف: ٦].

وكذلك بعض أخبار رسولنا عليه الصلاة والسلام، التي وقعت بعد موته، كما في حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه: (فإن طالت بك الحياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى)، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: (كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يُخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله فلا يجد أحدا يقبله منه) [رواه البخاري]، قال عدي عن الحديث نفسه: "فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم الحياة لترون ما قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: (يُخرج ملء كفه)".

أخبار الغيب وأشراط الساعة

ومنها ما أخبر النبي -عليه الصلاة والسلام- أنها تكون بعد موته، وجعلها إشارات أو علامات على اقتراب الساعة، كلما وقع منها شيء دلّ أكثر على اقتراب ذلك اليوم الموعود، كما أنها حين وقوعها تدلّ على صدق رسالته -عليه الصلاة والسلام- فيما أخبر به قبل حدوثه، ففي حديث عوف بن مالك -رضي الله عنه- قال: أتيت النبي -صلى الله عليه وسلم- في غزوة تبوك وهو في قبة من أدم فقال: (اعدد ستا بين يدي الساعة، موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفا) [رواه البخاري].

ولارتباط هذه الأخبار بالساعة، وهي موعد انتهاء الحياة الدنيا، وبداية الحياة الآخرة، ولعظم الأحداث المرتبطة بهذه الأخبار، فقد أولى بها أهل العلم من صحابة رسول الله وأتباعهم اهتماما كبيرا، وأفرد لها أهل الحديث في صحاحهم وسننهم ومسانيدهم أبوابا وكتبا.

فمنهم من أوردها في معرض الحديث عن الساعة وأشراطها، وذلك ثابت في كلامه عليه الصلاة والسلام، بدلالته على اقتراب الساعة بأحداث تقع قبلها، كما في الحديث السابق، وكما في جوابه لجبريل -عليه السلام- عندما سأله عن الساعة وموعدها، قال: (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها) [متفق عليه]، وكقوله عليه الصلاة والسلام: (إن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوما ينتعلون الشعر) [رواه ابن ماجة]، وغير ذلك كثير فيما أخبر عنه عليه الصلاة والسلام.

أحاديث الفتن والملاحم وموقعها من العلم

ومن العلماء من جعلها في باب الحديث عن الأحداث العظام التي تقع قبل قيام الساعة، وهذا ما غلب على وصف هذه الأحاديث، حتى صارت تعرف عند الناس بـ (أحاديث الفتن والملاحم)، ولذلك نجد معظم هذه الأحاديث تحت هذه التسمية في كتب أهل العلم، وقلما نجد كتابا من كتب الحديث يخلو من باب بهذه التسمية أو قريبا منه.

فبوب البخاري في صحيحه (كتاب الفتن)، وفي صحيح مسلم (كتاب الفتن وأشراط الساعة)، و(كتاب الفتن) في كل من سنن الترمذي، وسنن ابن ماجة، ومسند الشافعي، ومصنف ابن ابي الشيبة، و(كتاب الفتن والملاحم) في سنن أبي داود ومستدرك الحاكم.

ومن العلماء من صنف كتبا مستقلة في هذا الباب، ككتاب (الفتن) للإمام أحمد بن حنبل، و(كتاب الفتن) لحنبل ابن إسحق بن حنبل، و(كتاب الفتن) لنعيم بن حماد المروزي، وهو أشهر ما صنف في هذا الباب، رغم تحذير العلماء منه لما احتواه من مناكير، وعلى آثارهم سار من جاء بعدهم، كالحافظ ابن كثير في كتابه (النهاية في الفتن والملاحم)، وغيره كثير من كتب أهل العلم.

فأحاديث (الفتن والملاحم) تندرج في إطار العلم بالساعة، لما توضحه من علامات على قرب موعدها، ومن العلم بدلائل النبوة، لما فيها من أدلة واضحة على صدقه -عليه الصلاة والسلام- فيما يبلغه عن ربه تعالى، بل وجعلها بعض علماء السلف بابا من أبواب الاعتقاد التي يعلمونها للمسلمين، وخاصة الأحاديث التي أنكرها أهل الضلال من المعتزلة والروافض وغيرهم، لما فيها من نقض لأقوالهم ومعتقداتهم الباطلة.

بل ليس من المستبعد اعتبار (الفتن والملاحم) علما مستقلا بذاته، لما في هذا العلم من منهجية خاصة في تأويل الأخبار الواردة في متون الأحاديث التي نقلتها، من حيث مطابقة الأخبار للوقائع التي تحدث في كل زمان، وتقرير إن كانت هذه الوقائع من الأحداث التي تندرج في إطار (الفتن والملاحم) التي يدرسها هذا العلم، أم هي من جملة الأحداث التي يحدثها الله -تعالى- في كل الأزمنة المختلفة، والأماكن المتباعدة، ويبتلي بها عباده، ويمضي بها أقداره.

وسنبين في الحلقة القادمة -بإذن الله- جانبا من أهمية هذا العلم، من خلال بيان اهتمام النبي -عليه الصلاة والسلام- بتعليمه لأصحابه، واهتمامهم -رضي الله عنهم- بتعلمه وتبليغه لمن بعدهم، واهتمام علماء الإسلام بنقل هذا العلم، والفقه فيه، وبيانه للناس، والحمد لله رب العالمين.

وقفات عند أحاديث الفتن والملاحم ٤

لأخبار الفتن والملاحم التي تقع آخر الزمان أهمية كبيرة عند المسلمين، وذلك لارتباطها بقيام الساعة التي هي أكبر وأخطر حدث في العالم، وكذلك لاحتواء هذه الأخبار على بشارات بالخير الذي يجب أن يحرصوا عليه، وإنذار من الشرور التي يجب أن يحذروها ويتجنبوها.

بل الساعة موعدهم

أما من حيث ارتباط هذه الأخبار بقيام الساعة، فإن السؤال عن موعدها من أكبر الأسئلة التي تشغل أذهان الناس، ويسعون جهدهم لتحصيل الإجابات عن ذلك من أنبيائهم، قال جل جلاله: {يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا} [الأحزاب: ٦٣]، فالله -عز وجل- قد حجب موعدها عن كل خلقه بما فيهم الأنبياء، عليهم السلام، ولم يطلعهم إلا على أمارات وشرائط تنبئ باقترابه، فكانوا يبلغون عن تلك الأمارات كلما سئلوا عنها، كما في حديث جبريل، قال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها) [متفق عليه]، وكذلك ورد هذا على لسان نبي آخر من الأنبياء في قصة الإسراء والمعراج، فعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى قال: فتذاكروا أمر الساعة فردوا أمرهم إلى إبراهيم فقال: لا علم لي بها، فردوا الأمر إلى موسى فقال: لا علم لي بها فردوا الأمر إلى عيسى فقال: أما وجبتها فلا يعلمها أحد إلا الله ذلك وفيما عهد إلي ربي -عز وجل- أن الدجال خارج قال: ومعي قضيبان فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص قال: فيهلكه الله حتى إن الحجر والشجر ليقول: يا مسلم إن تحتي كافرا فتعال فاقتله قال: فيهلكهم الله ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم قال: فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج...) [رواه أحمد].

وعلى هذا سار الصحابة الكرام في تبليغ أحاديث الفتن والملاحم عند سؤالهم عن الساعة، كما في الأثر عن يسير بن جابر، قال: هاجت ريح حمراء بالكوفة، فجاء رجل ليس له هجيري إلا: "يا عبد الله بن مسعود، جاءت الساعة"، قال: فقعد وكان متكئا، فقال: (إن الساعة لا تقوم حتى لا يُقسم ميراث ولا يُفرح بغنيمة، ثم قال بيده هكذا -ونحاها نحو الشام- فقال: عدو يجمعون لأهل الإسلام ويجمع لهم أهل الإسلام، قلت: الروم تعني؟ قال: نعم...) [رواه مسلم].

يدعون إلى الخير

وأما من دلالة الأنبياء والمرسلين أقوامهم على ما سيصيبهم في قابل الأيام من خير أو شر، فهو جزء مما أُمروا بتبليغه للناس لتبشيرهم وإنذارهم، كما قال، عليه الصلاة والسلام: (إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلَمه لهم، وينذرهم شر ما يعلَمه لهم) [رواه مسلم].

فمن تبشيرهم بالخير ودلالتهم أقوامهم عليه، ما كان من إخبارهم عن بعثته -عليه الصلاة والسلام- بعد أن أبلغهم ربهم -تبارك وتعالى- بذلك، كما قال سبحانه: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} [آل عمران: ٨١]، فأبلغوا هذا الأمر لأقوامهم، كما قال عيسى -عليه السلام- لقومه: {وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} [الصف: ٦]، ولذلك فإنه كان معروفا عندهم، ينتظرون خروجه، ويعلمون مآل دعوته مما بلغهم من الأنبياء عنه، وقد اعترف أحد كبرائهم وعلمائهم بذلك، وهو هرقل عظيم الروم، لما قال لأبي سفيان، رضي الله عنه: "إن يكن ما تقول فيه حقا فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي" [متفق عليه].

قل إنما أنذركم بالوحي

ومن إنذارهم من الشر وتحذيرهم أقوامهم منه، تواتر أقوالهم على التحذير من فتنة الدجال، كما قال -عليه الصلاة والسلام- في شأنه: (إني أُنذركموه، وما من نبي إلا قد أنذره قومَه، لقد أنذره نوحٌ قومَه، ولكن سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه، تعلمون أنه أعور، وأن الله ليس بأعور) [متفق عليه].

وهكذا نجد النبي -عليه الصلاة والسلام- يبادر بإبلاغ أصحابه بما هو كائن إلى قيام الساعة، كما في الحديث عن حذيفة -رضي الله عنه- قال: "قام فينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مقاما، ما ترك شيئا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه" [رواه مسلم].

ونجد من اهتمام صحابته -رضي الله عنهم- بسؤاله عن ما يكون من خير وشر، فيجيبهم -عليه الصلاة والسلام- بما ينفعهم، كما في حديث حذيفة -رضي الله عنه- قال: كان الناس يسألون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله إنا كنا في الجاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: (نعم)، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: (نعم، وفيه دخن)، قلت: وما دخنه؟ قال: (قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر)، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: (نعم، دعاة إلى أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها)، قلت: يا رسول الله صفهم لنا؟ فقال: (هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا)، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: (فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك) [متفق عليه].

فكان الصحابة يتذاكرون أحاديث الفتن ويتدارسونها ويؤوِّلونها، كما في حديث حذيفة -رضي الله عنه- قال: "كنا عند عمر، فقال: أيكم سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه، فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره، قالوا: أجل، قال: تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة، ولكن أيكم سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يذكر الفتن التي تموج موج البحر، قال حذيفة: فأسكت القومُ، فقلت: أنا، قال: أنت لله أبوك..." [رواه مسلم]، وفي الحديث أيضا قول حذيفة: وحدثته أن بينك وبينها بابا مغلقا يوشك أن يكسر، قال عمر: أكَسراً لا أبا لك، فلو أنه فتح لعله كان يعاد، قلت: لا بل يكسر، وحدثته أن ذلك الباب رجل يقتل أو يموت، حديثا ليس بالأغاليط.

وهكذا وجدنا اهتمام أتباع الصحابة من أهل السنة والجماعة بهذا الباب من العلم، يسألون عنه، ويتدارسونه، ويعلِّمونه للناس، ويصنفون فيه الكتب والرسائل، فهم يسألون عن الخير ليكونوا من أهله، ويسألون عن الشر ليتَّقوه، ويتجنبوا أهله، ويعلموا حكم الله فيهم، ويسألون عن أشراط الساعة إيمانا بها، وتصديقا لموعود رسولهم بظهور علاماتها، وطلبا لإرغام من كفر بوقوعها.

وكذلك وجدنا منهم إسقاطا لأخبار الغيب على ما يجدونه أمامهم من وقائع وطوائف وأعيان، والاجتهاد في الحكم عليها وفق ما يرونه من قرائن تتيح لهم إطلاق تلك الأحكام.

وفي الوقت نفسه نجد على امتداد التاريخ من أراد إسقاط أخبار الفتن والملاحم على الواقع من غير هدى ولا كتاب منير، وقد سبب ذلك كثيرا من المصائب التي حلت بالمسلمين على امتداد تاريخ المسلمين.

وسنسعى في الحلقة القادمة من هذه السلسلة إلى بيان بعض الأوجه التي طبَّق فيها السلف أخبار الفتن والملاحم على واقعهم بمنهاج أهل السنة والجماعة، ثم سنبين -بإذن الله- بعض الحالات التي تم إسقاط أحاديث الفتن والملاحم على الوقائع والطوائف والأعيان بمناهج بدعية أودت بأتباعها إلى الضلال، والله الهادي إلى سواء السبيل، والحمد لله رب العالمين.

وقفات عند أحاديث الفتن والملاحم ٥

تكلمنا في الحلقة السابقة عن اهتمام الأنبياء وأتباعهم بأخبار الغيب، وتبليغها للمسلمين، وتدارسها، والتحقق منها، ونتكلم اليوم عن جانب آخر مهم من هذا الباب يتعلق بالاجتهاد في تأويل هذه الأخبار، وتطبيقها على الوقائع التي يعيشها المسلمون، بناء على قرائن يجدونها تطابق ما جاءهم من أخبار الوحيَين.

أهل الكتاب يتعرَّفون على النبي الموعود

فقد أمر الله –سبحانه- أهل الكتاب باتباع رسوله محمد، صلى الله عليه وسلم، الذي أخبرهم عن ظهوره في الكتب التي أنزلها على أنبيائهم الذين يزعمون الإيمان بهم واتباعهم، ودلَّهم على وسيلة التأكد من صدق هذا النبي بمطابقة أوصافه لأوصاف الرسول الذي وعدهم بخروجه بعد فترة من الرسل، فقال تعالى: {قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

وهذا المنهج في التأكد من مطابقة أوصاف الوقائع والطوائف والأعيان لما ورد بخصوصها في أخبار الغيب يعلمه أهل الكتاب، بل وطبَّقه بعضهم للتحقق من نبوة النبي، عليه الصلاة والسلام، كما فعل عبد الله بن سلام –رضي الله عنه- للتأكد من ذلك قبل إسلامه، بأن سأله عن صفات يجب أن تتوفر فيه ليكون على صفة من ورد في الأخبار، كمعرفته لأمور لا يعرفها إلا الأنبياء، فعن حميد عن أنس –رضي الله عنه- قال: "بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله –صلى الله عليه وسلم- المدينة، فأتاه، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي" [رواه البخاري]، فلما أجابه عنها، عليه الصلاة والسلام، أسلم له وكان من صحابته، وترك ملة آبائه وأجداده، أما بقية قومه، فرغم تصديقهم بالأخبار الواردة فيه، ومعرفتهم لأوصافه، وانتظارهم لخروجه، فإنهم اختاروا عداوته والكفر به، وذلك أنهم ظنوا أنه يخرج في بني إسرائيل، فكان في أمة غيرهم، كما قال –تعالى- فيهم: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٠١].

كما وجدنا في قصة هرقل أنه تأكد من نبوته –عليه الصلاة والسلام- من خلال سؤاله أبا سفيان –رضي الله عنه- عن أوصافه وأخباره، فتبين له أنه نبي، وأنه هو الذي وُعدوا به في كتبهم، فقال: "إن يكن ما تقول فيه حقاً فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنّه منكم" [متفق عليه]، فصدَّق بنبوته، ولم يؤمن به، ضناً بملكه، وخوفا على سلطانه.

النبي وصحابته يتحققون من ابن صياد

وهذا المنهج، هو منهج نبوي، اتبعه رسول الله –صلى الله عليه وسلم- في التحقق من مطابقة الواقع لما جاءه من الأخبار، كما فعل في قصة ابن صياد، عندما كان صبيا، فيه بعض الصفات التي يعلمها في المسيح الدجال الذي حذَّر أمته منه، فعن عبد الله بن عمر: أن عمر انطلق مع النبي –صلى الله عليه وسلم- في رهط قِبل ابن صياد، حتى وجدوه يلعب مع الصبيان عند أطم بني مغالة، وقد قارب ابن صياد الحلم، فلم يشعر حتى ضرب النبي –صلى الله عليه وسلم- بيده، ثم قال لابن صياد: (تشهد أني رسول الله؟)، فنظر إليه ابن صياد، فقال: أشهد أنك رسول الأُميِّين، فقال ابن صياد للنبي، صلى الله عليه وسلم: أتشهد أني رسول الله؟ فرفضه، وقال: آمنت بالله وبرسله، فقال له: (ماذا ترى؟)، قال ابن صياد: يأتيني صادق وكاذب، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: (خلط عليك الأمر)، ثم قال له النبي، صلى الله عليه وسلم: (إني قد خبأت لك خبيئا)، فقال ابن صياد: هو الدُّخ، فقال: (اخسأ فلن تعدو قدرك)، فقال عمر، رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: (إن يكُنْهُ فلن تسلط عليه، وإن لم يكُنْهُ فلا خير لك في قتله) [رواه مسلم].

فلم يتمكن النبي –عليه الصلاة والسلام- من التبيُّن من ابن صياد كونه هو المسيح الدجال، أم لا، ولكن رغم ذلك، اجتهد بعض صحابة رسول الله، وحكموا عليه أنه هو المسيح الدجال، فلم ينكر عليهم ذلك، كعمر وابنه عبد الله وجابر، رضي الله عنهم أجمعين، فعن محمد بن المنكدر قال: رأيت جابر بن عبد الله يحلف بالله أن ابن الصياد الدجال، قلت: تحلف بالله؟ قال: إني سمعت عمر يحلف على ذلك عند النبي، صلى الله عليه وسلم، فلم ينكره النبي، صلى الله عليه وسلم [متفق عليه]، وعن نافع قال: كان ابن عمر يقول: والله ما أشك أن المسيح الدجال ابن صياد [رواه أبو داود].

ونجد أن شك الصحابة في ابن صياد لم يتوقف، واستمروا في الحذر منه، وكراهية مخالطته، رغم ما ظهر منه من صفات تخالف ما جاءهم في الأخبار من صفات الدجال، فعن أبي سعيد الخدري قال: صحبت ابن صائد إلى مكة، فقال لي: أما قد لقيت من الناس يزعمون أني الدجال، ألست سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم- يقول: (إنه لا يولد له)، قال: قلت: بلى، قال: فقد وُلد لي، أو ليس سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم- يقول: (لا يدخل المدينة ولا مكة)، قلت: بلى، قال: فقد ولدت بالمدينة، وهذا أنا أريد مكة، قال: ثم قال لي في آخر قوله: أما والله إني لأعلم مولده، ومكانه، وأين هو، قال: فلبسني [رواه مسلم].

بل وقد كان من أولاده من جعلهم الله أئمة في الدين، كعمارة بن عبد الله بن صياد، رحمه الله، روى عن سعيد بن المسيب وعطاء بن يسار، وروى عنه مالك والضحاك، وقال عنه يحيى بن معين: ثقة [الجرح والتعديل].

علي يحكم على الخوارج

وهكذا مضى الصحابة –رضوان الله عليهم- هم ومن تبعهم، يجتهدون في الحكم في أخبار الفتن والملاحم كلما وجدوا من القرائن ما يعينهم على ذلك، كما فعل علي –رضي الله عنه- ومن معه في قصة الخوارج الذين خرجوا عليه، فحرَّض المسلمين على قتالهم، مستعينا على ذلك بما يعلم من أخبار الغيب، وظنَّ أنها جاءت فيهم وفي أمثالهم من المارقين عن الشريعة، فعن سلمة بن كهيل قال: حدثني زيد بن وهب الجهني، أنه كان في الجيش الذين كانوا مع علي –رضي الله عنه- الذين ساروا إلى الخوارج، فقال علي، رضي الله عنه: أيها الناس، إني سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم- يقول: (يخرج قوم من أمتي يقرؤون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السّهم من الرّميّة)، لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قضى لهم على لسان نبيهم –صلى الله عليه وسلم- لاتكلوا عن العمل، وآية ذلك أن فيهم رجلا له عضد، وليس له ذراع، على رأس عضده مثل حلمة الثدي عليه شعرات بيض، فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام وتتركون هؤلاء يخلفونكم في ذراريكم وأموالكم؟ والله إني لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم، فإنهم قد سفكوا الدم الحرام، وأغاروا في سرح الناس فسيروا على اسم الله [رواه مسلم].

وهكذا وجدنا اجتهاد الصحابة في الحكم على الأحداث، كما أوردنا –في الحلقة الماضية- في جزم حذيفة أن عمر –رضي الله عنهما- لن يشهد الفتنة التي تموج كموج البحر، لأنها لا تكون إلا بعد مقتله، واجتهادهم في الحكم على الطوائف، كحكم علي –رضي الله عنه- على الخوارج بأنهم من المقصودين في حديث رسول الله –عليه الصلاة والسلام- الذي يوصي فيه بقتلهم وقتالهم، واجتهادهم في الحكم على الأعيان، كحكمهم على ابن صياد أنه هو الدجال الذي جاءت الأحاديث بالتحذير منه، رغم أن من صفاته ما يناقض تلك الأخبار.

والمحصلة أن الاجتهاد في هذا الباب من أبواب العلم وارد من السلف، رضوان الله –تعالى- عنهم، وأن لهذا الاجتهاد منهجا لمن أراد التوصل من خلاله إلى الأحكام الصحيحة، لا على طريقة أهل الهوى والضلال الذين طفقوا يطبقون أخبار الغيب على واقعهم بغير هدى ولا كتاب منير، كما سنجد في الحلقة القادمة من هذه السلسلة، بإذن الله تعالى.

وقفات عند أحاديث الفتن والملاحم ٦

تكلمنا في الحلقات السابقة من هذه السلسلة -بفضل الله- عن منهج أهل السنة والجماعة في التعامل مع أخبار الغيب، وبيَّنَّا وجوب الإيمان بما صحَّ نسبته منها إلى الوحي، وأوردنا أمثلة عن تعامل الأنبياء ومن سار على هداهم مع هذه الأخبار.

واليوم نركز في بحثنا على واحدة من أهم المسائل التي زلَّت فيها الأقدام في هذا الباب، وهي مسألة خروج المهدي من آل بيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في آخر الزمان، والفتن التي حلت بالناس بسببها طيلة القرون الماضية.

يُضلُّ به كثيرا ويهدي به كثيرا

فقد انقسم الناس في موقفهم من هذه القضية طوائف شتَّى، بين منكرين لهذه الأخبار بالكلية، وغلاة فيها، بنَوا عليها أديانا وأحكاما تُخرج من أخذ بها من دين الإسلام، وضالِّين في تأويلها يُسقطونها بشكل خاطئ على واقعهم، وبين مؤمنين بها الإيمان الصحيح الذي أمر به الله -عز وجل- ورسوله الكريم، وعمل به سلف هذه الأمة من أهل القرون المفضَّلة.

فأما الطائفة الأولى، وهم المنكرون لأخبار المهدي بالكلية، المكذِّبون بأنها جاءت عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فهم في الغالب من "الأهوائيِّين" الذين يطلق عليهم في زماننا خطأ وصف "العقلانيِّين"، فهؤلاء يردُّون كل الأخبار التي جاءت في المهدي، في إطار ردِّهم لأكثر أنباء الغيب التي أخبرت عن أحداث آخر الزمان، فمنهجهم الباطل يقوم على عرض كل النصوص على أهوائهم، فما وافقها صحَّحوه ولو كان ساقط السند والمتن، وما خالفها ردُّوه وإن أجمع أهل السنة على صحته، وما عجزوا عن إنكاره تأوَّلوه بمعنى يخرجه عن حقيقته، أو نفوا أنه يفيد العلم إن لم يكن متواترا، بناء على قاعدتهم الباطلة في هذا الباب.

وزعم بعضهم أن هذه الأحاديث هي من وضع الرافضة الذين غلَوا في هذا الباب حتى جعلوه من ضروريات دينهم، التي يكفر منكرها، وجازف آخرون بالقول بتضعيف كل الأحاديث الواردة في هذا الباب، والكذب على أئمة أهل السنة بنسبة هذا القول الباطل إليهم، ومنهم من أشغل نفسه بضرب هذه الأحاديث ببعضها، بل بضرب الضعيف منها بالصحيح، أملا في أن يضعف متنه، ومنهم من أنكر وجود المهدي كشخص مستقل بهذا الاسم أو الوصف، زاعما أن المقصود بهذا الوصف هو عيسى ابن مريم -عليه السلام- حين نزوله آخر الزمان.

إيراد أئمة أهل السنة لأحاديث المهدي في كتبهم

أما من زعم أن أحاديث المهدي هي من وضع الرافضة، أو أنها من أحاديثهم، فهذا مردود عليه، بأن هذه الأخبار منثورة في كتب السنة ودواوينها، بل أفرد لها أئمة أهل السنة في أسفارهم كتبا وأبوابا، وترجموا لهذه الأحاديث بما يقطع بأنهم يرَون بأن الأخبار التي أوردوها إنما تشير إلى المهدي المعروف في أخبار الساعة.

ففي سنن الترمذي (باب ما جاء في المهدي)، وفي سنن ابن ماجه (باب خروج المهدي)، وفي سنن أبي داود (كتاب المهدي)، وأفرد ابن حبان عدة أبواب من صحيحه للأخبار الواردة في المهدي مترجما لكل منها على حدة، وكذلك البغوي في شرحه للسنة (باب المهدي).

فهذا ما يخص بعض ما رواه أئمة أهل السنة في هذا الباب، وما هو عند غيرهم كثير، مما يصعب استقصاؤه وحصره.

تصحيح علماء أهل السنة لبعض أحاديث المهدي

رغم أن البخاري ومسلم لم يخرجا أيّاً من الأحاديث التي تنص على اسم المهدي في صحيحيهما، فهذا لا يعني بحال تضعيف أو تكذيب هذه الأحاديث كما قال بعض من ضلَّ في هذا الباب، فإنه لا يشترط لصحة الحديث أن يروِيَه الشيخان، بل الصحاح خارج الصحيحين أكثر مما فيهما.

ولذلك فإن بعض الأحاديث التي عند غيرهما في هذا الباب حكم عليها علماء الحديث بالصحة، فقال الإمام أبو عيسى الترمذي -رحمه الله- عن بعض أحاديث المهدي التي أوردها في سننه أنه "حسن صحيح"، وكذلك فعل البزار في مسنده.

بل وجزم بعض العلماء أن الخبر بخروج المهدي بلغ حدَّ التواتر، كما في قول الإمام أبو الحسين الآبري -رحمه الله- وهو من أئمة الحديث: "قد تواترت الأخبار، واستفاضت بكثرة رُواتها عن المصطفى -صلى الله عليه وسلم- يعني في المهدي" [شرح السنة للبغوي]، وكذا قال السفاريني الحنبلي وهو من المتأخرين: "وقد كثرت بخروجه الروايات حتى بلغت حد التواتر المعنوي، وشاع ذلك بين علماء السنة حتى عدَّ من معتقداتهم" [لوامع الأنوار البهية]، أما الأخبار العديدة في أوصافه، وقصته، والأحداث المرافقة لها، فأمرها مختلف من حيث الثبوت.

ربطُ العلماء لأحاديث المهدي مع غيرها من أخبار الساعة

وبالإضافة لذلك، نجد علماء آخرين يحكمون على بعض الأخبار الواردة في الصحيحين أنها تشير أيضا إلى ما يتعلق بقصة خروج المهدي، كما في حديث (يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء من الأرض، يخسف بأولهم وآخرهم) [متفق عليه]، إذ يقول الإمام ابن حبان -رحمه الله- في تبويبه لأحد أحاديث المهدي: "ذكر الخبر المصرح بأن القوم الذين يخسف بهم، إنما هم القاصدون إلى المهدي في زوال الأمر عنه".

وأورد الإمام البغوي -رحمه الله- الحديث الذي رواه مسلم عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثيا، لا يعده عددا) في (باب المهدي) من كتابه (شرح السنة) إشارة إلى رأيه أن الخليفة المقصود في هذا الحديث هو المهدي المذكور في الأخبار.

وعن حديث (يتقارب الزمان) [متفق عليه]، قال الخطابي -رحمه الله- بأن ذلك يكون: "زمان خروج المهدي، ووقوع الأمنة في الأرض بما يبسطه من العدل فيها، فيُستلذ العيش عند ذلك، وتُستقصر مدته" [شرح السنة للبغوي].

وقال الإمام ابن كثير -رحمه الله- بعدما ذكر حديث (لا يزال أمر الناس ماضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا) [رواه مسلم]: "والظاهر أن منهم المهدي المبشر به في الأحاديث الواردة بذكره" [تفسير ابن كثير].

كما ربط العلماء قصة المهدي بقصة نزول عيسى ابن مريم، التي هي في الصحيحين، وجزم بعض الأئمة بأن المهدي سيكون معه -عليه السلام- في قتاله للدجال، وبهذا قال الإمام البربهاري، رحمه الله: "وبنزول عيسى ابن مريم، ينزل فيقتل الدجال، ويتزوج، ويصلي خلف القائم من آل محمد، صلى الله عليه وسلم، ويموت، ويدفنه المسلمون" [شرح السنة]، وبذلك قال أيضا الإمام أبو الحسين الآبري، رحمه الله: "وأنه يخرج مع عيسى ابن مريم، ويساعده في قتل الدجال بباب لد بأرض فلسطين، وأنه يؤم هذه الأمة، وعيسى يصلي خلفه، في طول من قصته وأمره" [مناقب الإمام الشافعي].

ورأى علماء آخرون أن خروج المهدي يكون قبل نزول عيسى ابن مريم، عليه السلام، كما في قول ابن كثير، رحمه الله: "وأظن ظهوره يكون قبل نزول عيسى ابن مريم كما دلت على ذلك الأحاديث" [البداية والنهاية].

ردهم على من زعم أن المهدي هو عيسى ابن مريم

وردَّ العلماء على من أنكر خروج المهدي، معتمدا على حديث (ولا المهدي إلا عيسى ابن مريم) [رواه ابن ماجه]، فأنكر بعضهم هذا الحديث، وتأوله آخرون بما يجعله موافقا للأحاديث الصحيحة عندهم في هذا الباب.

فقال ابن تيمية -رحمه الله- عنه: "هذا الحديث ضعيف" [منهاج السنة النبوية]، وقال الذهبي: "خبر منكر" [ميزان الاعتدال]، وقال النسائي: "حديث منكر" [العلل المتناهية لابن الجوزي].

وبالإضافة إلى الطعن في سند الحديث، لجهالة بعض رواته على المحدثين، أو لتفرد بعضهم الآخر به، فإن أهل العلم ردُّوا أيضا بأن بعض أوصاف المهدي الواردة في الأحاديث الصحيحة عندهم تمنع من كونه عيسى ابن مريم، كما قال ابن حبان: "ذكر الإخبار عن وصف اسم المهدي واسم أبيه ضد قول من زعم أن المهدي عيسى ابن مريم" [صحيح ابن حبان].

وردَّ بعض العلماء على هذه الشبهة، بأن الحديث ولو صحَّ فإنه لا ينفي خروج المهدي، كشخص مستقل، بل هو يخصُّ وصفا لعيسى ابن مريم، عليه السلام، كما قال ابن كثير: "وهذا الحديث فيما يظهر ببادي الرأي مخالف للأحاديث التي أوردناها في إثبات مهدي غير عيسى ابن مريم، إما قبل نزوله كما هو الأظهر، وإما بعده، وعند التأمل لا ينافيها، بل يكون المراد من ذلك أن المهدي حق المهدي هو عيسى ابن مريم، ولا ينفي ذلك أن يكون غيرُه مهدياً أيضاً" [النهاية في الفتن والملاحم]، وبناء على هذا الرأي نجد الإمام ابن كثير يصف عيسى ابن مريم -عليه السلام- بأنه "المسيح المهدي" في مواضع عدة من كتابه الكبير (البداية والنهاية).

هذا والله أعلم، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه.

وقفات عند أحاديث الفتن والملاحم ٧

تحدثنا في الحلقة الماضية عن بعض جوانب تعامل أهل السنة والجماعة مع قضية ظهور المهدي، من حيث إثبات أئمة أهل السنة لهذه القضية، قبولا للخبر الوارد بذلك عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وتصحيحهم لبعض الأحاديث في هذا الشأن، وبيان أنه في عقيدة أهل السنة يخرج في آخر الزمان، وأنه غير عيسى ابن مريم، عليه السلام.

ومن يراجع مواقف أئمة السنة من هذه القضية يجد أنها لم تأخذ حيزا كبيرا من كلامهم، ويلحظ فقرا في التصنيف في هذا الباب مما وصل إلينا من كتبهم، بل إننا لا نجازف إن قلنا أن حجم اهتمامهم بهذه القضية لا يتعدى تبليغ ما ورد من العلم عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تأديةً للأمانة، والتحقق من صحة ادعاءات من زعم أنه المهدي، من خلال مطابقة صفاته الشخصية، وصفة ظهوره، والحال التي يخرج فيها مع ما ورد في ذلك من أخبار صحيحة، وكذلك أداء واجب في الرد على بعض من ضلَّ في هذا الباب، خاصة أن هذه القضية لا ينبني عليها عمل إلا بعد تحقق الأخبار الواردة فيها.

أما إذا خرجنا من دائرة أهل العلم هؤلاء وأتباعهم، فإننا نجد عند كثير من المنتسبين إلى الإسلام اهتماما كبيرا بقضية خروج المهدي، يبلغ عند بعضهم حد الهوس، وصارت عند بعضهم من أصول الدين التي تنبني عليها أحكام مبتدَعة يلتزمونها، وهي الأساس في قيام بعض الطوائف الخارجة عن الإسلام بالكلية.

ومن يراجع التاريخ يرى عجبا، من التأثير الذي لعبته هذه القضية في مختلف جوانب حياة الناس، الدينية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، فما من زمن خلا من دَعِيٍّ يزعم أنه المهدي، يجتمع حوله طائفة من الأتباع، يستقل بهم عن الناس، بل سجلت كتب التاريخ وجود عدد من أدعياء المهدوية متزامنين أحيانا في الوقت، بل ومتجاورين أحيانا في المكان، وربما تصارعا على حيازة هذا اللقب المزعوم، وتقاتل أتباع كل منهما ليحقق كل فريق الغلبة لمن بايعه مهديا.

ولعل الله أن ييسر لنا -سبحانه- تفسير هذا الافتتان من الناس بأدعياء المهدوية على مَرِّ التاريخ، وشغف كثير من الناس لتصديق أي مدَّعٍ لهذه الصفة، رغبة منهم في تحقيق هذه النبوءة، ودخولهم فيما تضمَّنته من مبشرات، أكثر من كونها تعصُّبا للأدعياء في بعض الأحيان، معتمدين في ذلك على ما ورد في الأخبار التي تعلَّق بها الناس.

الظروف المصاحبة لظهوره

إن الظلم والجور مكروهان إلى النفوس، وخاصة إذا وجد الإنسان في نفسه عجزا عن رفعهما، لأن لا طاقة له بمن سلَّط الظلم عليه أو على قومه، ولذلك فإن النفوس التي تميل إلى الإيمان بالخالق القادر على كل شيء -جل جلاله- تترقب منه النصر على الظالمين، وبما أن من أخبار المهدي، أنه (... يخرج رجل من عِترتي فيملؤها قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وعدوانا) [رواه أحمد]، فإن الناس في كل العصور، كلما وقع عليهم ما يرونه ظلما لم يقع على أحد قبلهم فإنهم كانوا يتمنَّون خروج المهدي ليرفع الله به هذا الظلم، بل يترقبون ذلك، اعتمادا على التلازم بين فُشُوِّ الظلم، وإخراج الله -تعالى- له.

صفة حُكْمه

وبما أن هذا الرجل المهدي يترقبه الناس ليرفع الظلم، فلا يُتصور منه أن يحكم هو بالظلم بعد أن يرفعه الله به، بل سيكون حكمه موافقا لمنهاج النبوة الذي لا يرضى المسلمون بغيره، ويكون حكمه قويا بحيث يمكِّنه الله من بسط حكم الإسلام في الأرض، فإنه (يعمل في الناس بسنة نبيهم، ويلقي الإسلام بجرانه في الأرض) [رواه أبو داود]، ويعين الله -تعالى- هذا الحاكم بما أنزل الله على أن (يملأ الأرض قسطا وعدلا، كما مُلئت جورا وظلما) [رواه أبو داود]، ويؤتي دولته من الغنى ما لم ير مثله، (فتَنعَم فيه أمتي نعمة لم ينعموا مثلها قط، تؤتي أكلها، ولا تدَّخر منه شيئا، والمال يومئذ كدوس) [رواه ابن ماجه]، ويزيد من بركة غنى دولته أنه جواد على الناس، يعطيهم مما أعطاه الله عطاء بغير عدٍّ، (فيجيء إليه الرجل فيقول: يا مهدي أعطني، أعطني، فيحثو له في ثوبه ما استطاع أن يحمله) [رواه الترمذي].

ولا غرابة في أن كل إنسان سَوِيٍّ تطمح نفسه إلى رؤية العدل منتشرا في الأرض التي يسودها الإسلام، وتحكم بسنة خير الأنام، فلا يكون فيها خوف من ظلم، ولا فقر من مال.

صفاته الشخصية

وبالإضافة لما ذكرته الأخبار عن صفة حكمه، فإن من صفاته الشخصية ما يدفع طوائف من الناس إلى ترقب ظهوره بفارغ الصبر، لأنها تؤيد ما تعتقده هذه الطوائف في أمور مختلفة، ومن ذلك وصفه في الأخبار أنه: (من عترتي، أو من أهل بيتي) [رواه أحمد]، وهذا ما تعتمد عليه الرافضة في أصل دينها كله، وهو (عقيدة الإمامة)، التي قوامها أنه لا تصح إمامة المسلمين لغير رجل من آل بيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ليحفظوا العدل ويقوموا بالسنة، وعندما لم يتحقق لهم هذا الأمر على مدى قرون، تمسكوا بقضية ظهور المهدي، ليبنوا على الأخبار الصحيحة فيها كمًّا كبيرا من الأكاذيب التي ينصرون بها دينهم، ويؤيدون بها بدعتهم، ويثبِّتون بها شيعتهم.

صفة النفر الذين يبايعونه

وكذلك فإن في الأخبار الواردة في تزكية القوم الذين يكونون معه دافعا قويا للناس، يُرغِّبهم في إدراك زمانه ليبايعوه، وينصروا الإسلام في جيشه، ومن ذلك بعض الأخبار الواردة في صفة الطائفة المنصورة، أنهم يقاتلون، وهم ظاهرون على الحق إلى يوم القيامة (فينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم: تعال صلِّ لنا، فيقول: لا، إن بعضكم لبعض أمير، تكرمة الله لهذه الأمة) [رواه مسلم]، وكذلك الأخبار الواردة في نصر الله لهذا المهدي ومن معه على عدوهم، كما في الحديث: (سيعوذ بهذا البيت -يعني الكعبة- قوم ليست لهم منعة، ولا عدد ولا عدة، يُبعث إليهم جيش، حتى إذا كانوا ببيداء خُسف بهم) [رواه مسلم].

حشد الأنصار وتثبيتهم على الدعوات

وبناء على كل ما سبق، فقد وجدت الطوائف والفرق والأحزاب المختلفة على مدى تاريخ الإسلام في أخبار المهدي وسيلة لحشد الأنصار، وتسلية نفوسهم حين تُلمُّ بهم الملمات، ويعجزوا عن تحقيق الغايات، وتثبيتهم عند فشلهم بأن ما يطمحون إليه لا يمكن أن يتحقق إلا على يد المهدي أو في زمانه، وأنهم بثباتهم مع هذه الطائفة أو تلك سيكونون من جنود المهدي الذين يقاتلون في جيشه، فيُمكِّنهم الله في الأرض، فيحكمونها بما يرونه على منهاج النبوة، ويملؤونها قسطا وعدلا، وينالون فيها أكداسا من المال، ومن أراد بهم سوءا فإن الله يخسف به الأرض، وهذا غير منهج أهل العزمات من أتباع المرسلين.

أهل السنة قبل ظهور المهدي

إن أهل السنة يطيعون الله فيما أمرهم في كل وقت وحين، فهُم كما قال نبيهم، عليه الصلاة والسلام: (لا يزالون يقاتلون على الحق، ظاهرين، إلى يوم القيامة) [رواه مسلم]، مع الأئمة المسلمين، ولو كانوا من أهل الجور والفجور، وإن عُدموا الأئمة لم ينقطع جهادهم لإقامة حكم الله في الأرض، والسعي في ملئها عدلا في كل حين.

فإن أظهر الله عبده المهدي، حين مشيئته سبحانه، فإنهم يبايعونه ويطيعونه، إذا ثبت انطباق الوصف الوارد في الأخبار الصحيحة عليه، وينصرونه في دعوته للخير، ويسمعون له ويطيعون في المعروف، ويقاتلون معه أهل الشرك، حتى يفتح الله لهم، فما هو في نظرهم إلا إمام من أئمة المسلمين يجب له ما يجب لكل من ولاه الله هذه الأمانة، ومن أبى أن يعطي هذه الحقوق لإمام شرعي، بحجج غير شرعية، فإنه يُستبعد أن يقبل إعطاءها لإمام آخر، سواء كان المهدي أم غيره من الأئمة المهتدين.

استغلال أهل الضلال لأخبار المهدي

في حين نجد أن الكثيرين من الأفراد والطوائف قد استغلوا أخبار المهدي لينتصروا بالمتشابه منها لما يزعمون من حق، وما يدعون إليه الناس من دعاوى، فقد كان كافيا بالنسبة إليهم أن يدَّعوا أن قائد دعوتهم هو (المهدي) ليجتذبوا بذلك الأنصار إلى القتال خلف هذا الإمام المزكَّى بزعمهم، الموعود بالنصر على أعدائه، وبالتمكين في الأرض، وهذا ما نجده في كثير من الدعوات الباطلة التي ظهرت على مدى الزمان، تزعَّم كثير منها أدعياء خدعوا الناس بمزاعم كاذبة، وجروا على المسلمين الويلات، بإجرامهم، وبدعهم، وضلالهم.

وفي الوقت نفسه نجد نفرا من الناس زعم أتباع كل منهم فيه أنه المهدي، ودفعوهم بذلك إلى التصدُّر وقيادة تحركاتهم، مرغمين أحيانا، أو لصق صفة المهدوية بهم حتى وإن أنكروها، للاستفادة من ذلك في نصرة ما ينتحلون من الأفكار، وما يطلبون من أهداف.

وهو ما سنضرب عليه -بإذن الله- الأمثلة الكثيرة من التاريخ، في الحلقة القادمة من هذه السلسلة.

وقفات عند أحاديث

الفتن والملاحم ٨

ذكرنا في الحلقة الماضية أن قضية المهدي من أكثر القضايا التي استغلها أهل الضلال في تسويق ضلالهم، واجتذاب الأنصار والأتباع إليهم، وفي هذه الحلقة -بإذن الله- سنذكر نماذج من التاريخ، تُبيِّن بعض أهم الحالات لأدعياء المهدوية أو من ألبسهم الناس هذا الثوب، فدفعهم إلى ذلك، بيبعتهم لهم، ومناداتهم بهذا اللقب، دون رضا منهم أحيانا، ولا نعني بنسبة كل منهم إلى طائفته أن كل هذه الطائفة يدعونه بذلك، ولكن لبيان أنه قد ظهر في كل هذه الطوائف المبتدعة من نُودِيَ بالمهدية.

مهدي الكيسانية: محمد بن علي (رضي الله عنهما)، توفي عام ٨٣ هـ

"السيد الإمام أبو القاسم وأبو عبد الله، محمد بن الإمام علي بن أبي طالب، وأمه من سبي اليمامة زمن أبي بكر الصديق، وهي خولة بنت جعفر الحنفية. وكانت الشيعة في زمانه تتغالى فيه، وتدَّعي إمامته، ولقَّبوه بالمهدي، ويزعمون أنه لم يمت" [سير أعلام النبلاء].

وقال ابن كثير، رحمه الله: "وصارت الشيعة فرقتين، الجمهور منهم مع سليمان يريدون الخروج على الناس ليأخذوا بثأر الحسين، وفرقة أخرى مع المختار يريدون الخروج للدعوة إلى إمامة محمد بن الحنفية، وذلك عن غير أمر ابن الحنفية ورضاه، وإنما يتقولون عليه ليروجوا على الناس به، وليتوصلوا إلى أغراضهم الفاسدة" [البداية والنهاية].

وروي عن عبد الله بن محمد بن الحنفية قال: "قالوا لأبي: يا مهدي، السلام عليك، قال: سبحان الله، ألم أنهكم عن هذا؟ إنما المهدي من هدى الله، عز وجل" [المستدرك].

مهدي الرافضة: محمد بن الحسن العسكري

وهو أسطورة اخترعها غلاة الرافضة، عندما انقطعت السلسلة التي كانوا يتقلون فيها الإمامة في نسل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وذلك بوفاة إمامهم الحسن العسكري ولم يعقب، فزعموا أن له ولدا، أخفته أمه في سرداب خوفا عليه من أعدائه، في القرن الثالث الهجري، ثم اختفى وغاب عن الأنظار، وأنه لا زال حيا إلى يومنا هذا، بل سيبقى حيا حتى قبيل قيام الساعة، ليظهر على أنه المهدي، فيقيم دينهم، ويقتل أعداءهم.

مهدي الخوارج: صاحب الزنج، هلك سنة ٢٧٠ هـ

"هو طاغية الزنج، علي بن محمد بن عبد الرحمن العبدي، من عبد القيس. افترى وزعم أنه من ولد زيد بن علي العلوي، وكان منجما طرقيا ذكيا حروريا ماكرا داهية منحلا على رأي فجرة الخوارج يتستر بالانتماء إليهم، وإلا فالرجل دهري فيلسوف زنديق" [سير أعلام النبلاء].

قال ابن كثير: "وقد كان هذا اللعين -أعني صاحب الزنج المدعى إلى غير أبيه- يقول لأصحابه: لقد عُرِضَتْ عليَّ النبوة فخفت أن لا أقوم بأعبائها، فلم أقبلها" [البداية والنهاية].

قال بعض المؤرخين "وكانت أيامه مذ نجم إلى أن قتل أربع عشرة سنة وأربعة أشهر، وتنوزع في عدة من قتل من أصحاب السلطان، وغيرهم من الرجال والنساء والصبيان، بالسيف والحرق والغرق والجوع، فمنهم من يقول أن ذلك ألف ألف، وأكثرهم يرى أن ذلك لا يحيط به الإحصاء، ولا يحصره العدد كثرة وعظما" [التنبيه والإشراف].

مهدي الباطنية: عبيد الله الباطني، هلك سنة ٣٢٢ هـ

"أول من قام من الخلفاء الخوارج العبيدية الباطنية، الذين قلبوا الإسلام، وأعلنوا بالرفض، وأبطنوا مذهب الإسماعيلية، وبثُّوا الدعاة، يستغوون الجبلية والجهلة. وادعى هذا المدبر، أنه فاطمي من ذرية جعفر الصادق فقال: أنا عبيد الله بن محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد. وقيل: بل قال: أنا عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق. وقيل: لم يكن اسمه عبيد الله، بل إنما هو سعيد بن أحمد" [سير أعلام النبلاء].

مهدي الأشاعرة: محمد بن تومرت، هلك سنة ٥٢٤ هـ

"أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت البربري، والمصمودي، الهرغي، الخارج بالمغرب، المدعي أنه علوي حسني، وأنه الإمام المعصوم المهدي.

كان يقول لأصحابه: ما في الأرض من يؤمن إيمانكم، وأنتم العصابة الذين عَنَى النبي -صلى الله عليه وسلم- بقوله: "لا يزال أهل الغرب ظاهرين"، وأنتم تفتحون الروم، وتقتلون الدجال، ومنكم الذي يؤم بعيسى، وحدثهم بجزئيات اتفق وقوع أكثرها، فعظمت فتنة القوم به حتى قتلوا أبناءهم وإخوتهم لقسوتهم وغلظ طباعهم، وإقدامهم على الدماء، فبعث جيشا، وقال: اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الدين، فادعوهم إلى إماتة المنكر وإزالة البدع، والإقرار بالمهدي المعصوم، فإن أجابوا، فهم إخوانكم، وإلا فالسنة قد أباحت لكم قتالهم.

قال اليسع بن حزم: سمَّى ابن تومرت المرابطين بالمجسمين، وما كان أهل المغرب يدينون إلا بتنزيه الله -تعالى- عما لا يجب وصفه بما يجب له، مع ترك خوضهم عما تقصر العقول عن فهمه.

إلى أن قال: فكفَّرهم ابن تومرت لجهلهم العرض والجوهر، وأن من لم يعرف ذلك، لن يعرف المخلوق من الخالق، وبأن من لم يهاجر إليه، ويقاتل معه، فإنه حلال الدم والحريم، وذكر أن غضبه لله وقيامه حسبة.

وقد بلغني -فيما يقال: أن ابن تومرت أخفى رجالا في قبور دوارس، وجاء في جماعة ليريهم آية، فصاح: أيها الموتى أجيبوا، فأجابوه: أنت المهدي المعصوم، وأنت وأنت، ثم إنه خاف من انتشار الحيلة، فخسف فوقهم القبور فماتوا" [سير أعلام النبلاء].

مهدي البهائية: علي محمد رضا الشيرازي، هلك سنة ١٢٦٦ هـ

كان هذا الطاغوت من أتباع الطريقة (الشيخية) التي يدين أتباعها بدين الرافضة المشركين، خرج على أصحابه بادعاء المهدوية، فلما وجد فيهم تصديقا لذلك، واتباعا له على هذا الباطل، زاد في غيِّه، فزعم أنه نبي موحى إليه مثل محمد وعيسى، عليهما السلام، ثم زعم أنه إله، وأن الله -تعالى- قد حل في جسده، تعالى الله عما يقول علوا كبيرا، وأطلق على نفسه لقب (الباب)، قيل "باب المهدي"، وقيل "باب الحقائق".

وخلفه في دينه الباطل أتباع يطلق على أكثرهم اليوم اسم (البهائية) نسبة إلى أحد خلفائه اسمه (حسين البهاء)، الذي جمع لهم دينا ملفقا من كل ما وافق هواه من العقائد والأديان، وكتب لهم كتبا هو وخلفاؤه، هي أقدس عندهم من الكتاب المنزل من رب العالمين ويربط كثيرون بين أتباع هذا الدين والمنظمات اليهودية والماسونية العالمية.

مهدي الصوفية: أحمد بن عبد الله الفحل، هلك سنة ١٣٠٢ هـ

ينتسب إلى آل بيت رسول الله، عليه الصلاة والسلام، كان في صغره من أتباع إحدى الطرق الصوفية، قاد واحدة من أكبر حركات المقاومة ضد الإنكليز في وادي النيل، تمكنت من بسط سيطرتها على مناطق واسعة من السودان.

زعم أنه هو المهدي، وفتن الناس باسمه ونسبه وزهده وقتاله للصليبيين وانتصاره عليهم، ويروى عنه أنه كان يزعم أنه مؤيد في معاركه ضد أعدائه بالنبي، عليه الصلاة والسلام، والخلفاء الراشدين، والخضر، وستين ألفا من الأولياء الميتين، وبملك الموت يرسله الله معه لأخذ أرواح أعدائه، كما ينقل عنه قوله: "فيأتي النبي ويجلس معي، ويقول للأخ المذكور: شيخك هو المهدي، فيقول: إني مؤمن بذلك، فيقول، عليه الصلاة والسلام: من لم يصدق بمهديته كفر بالله ورسوله، قالها ثلاث مرات".

ويروى أن أتباعه (الدراويش) استباحوا بهذه الدعوى دماء من لم يؤمن بدينهم، وأموالهم وأعراضهم.

مهدي القاديانية: غلام أحمد الهندي، هلك سنة ١٣٢٦ هـ

ظهر في منطقة البنجاب، إبان الاحتلال البريطاني لها، وكان والده من عملاء الإنكليز، الذين أعانوا ابنه (ميرزا غلام أحمد) وساعدوا في اشتهاره بالعلم والتقوى، ليلتف الناس حوله، ويكون منهم طائفة، أساس دعوتها تثبيط المسلمين في الهند عن قتال الإنكليز.

ثم تطور به الحال بعد أن جعله أتباعه من أولياء الله الصالحين، أن زعم أنه المهدي المذكور في الأخبار، ثم أضاف إلى ذلك الزعم أن الله جمع له بالإضافة إلى المهدوية أنه هو عيسى بن مريم، عليه السلام، فادعى النبوة، ونفى أن يكون محمد -صلى الله عليه وسلم- هو خاتم النبيين، ثم تطور به الأمر وزعم أن الله

–تعالى– أحيا رسول الله ليحل في بدنه، فلا يكون بذلك خلاف بين كونه –عليه الصلاة والسلام– خاتما للنبيين، وبين ادعائه للنبوة.

وكان يزعم أنه يوحى إليه من الله تعالى، وأن جبريل يتنزل عليه بالوحي، وأن شريعته ناسخة لشريعة محمد، عليه الصلاة والسلام، وكلامه مقدم عند أتباعه على القرآن، ولا زال لأتباع هذا الدين (القاديانية) انتشار في الهند، وبعض المناطق الأخرى، وهم يسمون أنفسهم (الأحمدية) نسبة إلى طاغوتهم الهالك (ميرزا غلام أحمد).

كل الأمم تنتظر مهديا ينصر دينها

قال ابن القيم –رحمه الله– بعد حديثه عن بعض فرق أهل الضلال وما تقوله كل منها في مهديها المزعوم: "فكل هذه الفرق تدعي في مهديها الظلوم الغشوم، والمستحيل المعدوم، أنه الإمام المعصوم، والمهدي المعلوم، الذي بشر به النبي، صلى الله عليه وسلم، وأخبر بخروجه. وهي تنتظره كما تنتظر اليهود القائم الذي يخرج في آخر الزمان، فتعلو به كلمتهم، ويقوم به دينهم وينصرون به على جميع الأمم. والنصارى تنتظر المسيح، يأتي قبل يوم القيامة فيقيم دين النصرانية، ويبطل سائر الأديان، وفي عقيدتهم نزع المسيح الذي هو إله حق من إله حق من جوهر أبيه الذي نزل طامينا، إلى أن قالوا: وهو مستعد للمجيء قبل يوم القيامة.

فالملل الثلاث تنتظر إماما قائما يقوم في آخر الزمان" [المنار المنيف].

فهذه عينة مختارة من أبرز من ادعى المهدوية، أو لُقبوا بذلك، وقد رأينا كم كان وراء تلك المزاعم من فتن كبيرة في الدين، فعلى أساس هذا الزعم نشأت طوائف وأديان، وسفكت دماء، واستبيحت أموال وأعراض.

الحوار المشهود
والعذاب الموعود ١

لا يفتأ الناس ينظرون إلى الصراع بين الحق والباطل بالنتائج المادية التي يبنون عليها مواقفهم وردود أفعالهم، فمن الناس من حسم أمره بالقعود والنكول عن أمر الله لما رأى في نظره أن الأمر محسوم لصالح أقوى القوتين المتصارعتين على ميدان أرض الله الواسعة، وهما قوة الحق وقوة الباطل، فيظن الباطل غالبا والحق مغلوبا، وما درى أن العاقبة لأهل الحق والتقوى والإيمان، ومنهم من يميل مع القوة حيث مالت فيُظهر الإيمان تارة ويظهر الكفر تارة أخرى حسب النتائج التي تلبي مصالحه وهواه، ومنهم من ينظر من بعيد حتى إذا كانت الدائرة لأهل الإيمان ادعى أنه كان منهم ومناصرا لهم، وإذا كانت الدائرة لأهل الباطل قال قد أنعم الله عليَّ إذ لم أكن معهم شهيدا، وبين هذه الأصناف تبقى ثلة مبصرة اجتباها الله من بين الخلق كلهم، فلم تكترث للكثرة الخائبة المرتكسة، ولم تتأرجح في المواقف ولم تتردد قلوبهم أو تشك في موعود الله تبارك وتعالى، ولقد آنسهم ربهم -جل في علاه- فيما حكاه من الحوار مع الكفار ومشاهد العذاب التي لو تأملها المؤمن وقارن بين عاقبته وعاقبة أعداء الله، لهانت عليه كل بلية يلقاها في دنياه من أعدائه، ولتضاءلت في نظره كل الأخطار المحدقة به، التي يراها بأم عينه، فلنتأمل بعض تلك الحوارات وبعض تلك المشاهد الرهيبة من الانتقام والعذاب الخالد السرمدي.

لقد أخبر الله -تعالى- عباده الموحدين أن حوارات ستقع مع الكفار لما كان منهم من استهزاء بآيات الله -تعالى- والكفر بها ونصب العداوة لأولياء الله والسخرية منهم والضحك عليهم، كما أخبر الله -تعالى- عن حوارات أخرى بين التابعين والمتبوعين، وحوارات بين أهل الإيمان وأهل الكفران في الآخرة، وتلك المشاهد لا تغيب عن قلوب الصادقين الذين لا ينظرون إلى الصراع الدنيوي بنتائجه العاجلة، لأن الربح كل الربح عندهم هو الجزاء الجزيل من الرب الجليل يوم القيامة، وأن الله -تعالى- توعد الكفار بعذاب سرمدي سيراه المؤمنون ويحمدون الله -تعالى- على نعمة الهداية والنجاة من مصائر الكفار وسوء عاقبتهم، كما أنهم سيضحكون من الكفار يوم القيامة وتقر أعينهم بذلك الانتقام الذي ينزله الله بالقوم الكافرين.

وهنا سنتعرض إلى الحوار الذي أجاب الله به الكفار، والذي أجاب به ملائكته عن أسئلة الكفار والمجرمين بهذا الشأن والحكاية القرآنية عن حالهم ومآلهم، نسأل الله العفو والعافية، ومن الروايات التي جمعت بعض تلك الحوارات هو ما رواه الإمام الطبري -رحمه الله- إذ قال: "قال محمد بن كعب: بلغني، أو ذُكر لي، أن أهل النار استغاثوا بالخزنة، ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب، فردُّوا عليهم ما قال الله، فلما أيسوا نادَوا: يا مالك، وهو عليهم، وله مجلس في وسطها، وجسور تمرُّ عليها ملائكة العذاب، فهو يرى أقصاها كما يرى أدناها، فقالوا: يا مالك، ليقض علينا ربك، سألوا الموت، فمكث لا يجيبهم ثمانين ألفَ سنة من سني الآخرة، أو كما قال، ثم انحط إليهم، فقال: {إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ} [سورة الزخرف: ٧٧]، فلما سمعوا ذلك قالوا: فاصبروا، فلعلَّ الصبر ينفعنا، كما صبر أهل الدنيا على طاعة الله، قال: فصبروا، فطال صبرهم، فنادوا {سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ} [سورة الرعد: ٢١]، أي مَنْجى، فقام إبليس عند ذلك فخطبهم، فقال: {إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ} [سورة الرعد: ٢٢]، فلما سمعوا مقالته، مَقَتُوا أنفسهم، قال: فنودوا {لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ} [سورة غافر: ١٠] الآية، قال: فيجيبهم الله {ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ} [سورة غافر: ١٢]، قال: فيقولون: ما أيسنا بعد، قال: ثم دعوا مرَّة أخرى، فيقولون: {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ} [سورة السجدة: ١٢]، قال: فيقول الرب تبارك وتعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} [سورة السجدة: ١٣]، يقول الرب: لو شئت لهديت الناس جميعا، فلم يختلف منهم أحد {وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} يقول: بما تركتم أن تعملوا ليومكم هذا {إِنَّا نَسِينَاكُمْ} أي تركناكم {وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة السجدة: ١٣ - ١٤] قال: فيقولون: ما أيسنا بعد، قال: فيدعون مرَّة أخرى: {رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ} [سورة الرعد: ٤٤] قال: فيقال لهم: {أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ * وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} [سورة الرعد: ٤٤ - ٤٥] ... الآية، قال: فيقولون: ما أيسنا بعد، ثم قالوا مرَّة أخرى: {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ} قال: فيقول: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ} [سورة فاطر: ٣٧]، ثم مكث عنهم ما شاء الله، ثم ناداهم: {أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ} [سورة المؤمنون: ١٠٥]، فلما سمعوا ذلك قالوا: الآن يرحمنا، فقالوا عند ذلك: {رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا} أي: الكتاب الذي كُتب علينا {وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا} [سورة المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٧] الآية، فقال عند ذلك: {اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ} [سورة المؤمنون: ١٠٨ - ١١١]، قال: فلا يتكلمون فيها أبدا، فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء منهم، وأقبل بعضهم ينبح في وجه بعض، فأطبقت عليهم، قال عبد الله بن المبارك في حديثه: فحدثني الأزهر بن أبي الأزهر أنه قال: فذلك قوله: {هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ * وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ} [سورة المرسلات: ٣٥ - ٣٦]" [تفسير الطبري].

فما أعظم تلك المشاهد الرهيبة من العذاب الطويل الخالد بأهل الكفران! وما أعظم الأجوبة التي تلقاها الكفار، التي تبين فداحة جرمهم وكفرهم بالله -تعالى- وحرابة دينه وأوليائه!

تلك الحوارات وتلك المشاهد هي أنيس كل مجاهد يحاربه من استكبر عليه وعلى إخوانه من قبل أمم الكفر والبغي، فحاربوه وأذاقوه البلاء والفتنة، وأظهروا له العداء والاستهزاء والسخرية ورموه بالضلال، {وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ} [سورة المطففين: ٣٢]، وهذا ما تفعله وسائل إعلام المرتدين والصليبيين اليوم، وهنا يتجلى مشهد آخر، لو تأمله المجاهد الموحد لازداد قلبه اطمئنانا واستئناسا ورضى، فكما يرى المؤمن الموحد مشاهد الضحك والاستهزاء به ورميه بالضلال من قبل الكفار في الدنيا، فسيكون هو من يضحك منهم في الآخرة وهم يُعذبون، وبهذا الشأن قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ} [المطففين: ٢٩ - ٣٤].

قال الإمام الطبري: "كان ابن عباس يقول: إن السور الذي بين الجنة والنار يُفتح لهم فيه أبواب، فينظر المؤمنون إلى أهل النار، والمؤمنون على السرر ينظرون كيف يعذَّبون، فيضحكون منهم، فيكون ذلك مما أقرَّ الله به أعينهم، كيف ينتقم الله منهم" [تفسير الطبري].

وهذا المنظر الذي ينظر إليه المؤمنون لهو أشفى لصدورهم من كل انتقام دنيوي قد نراه أحيانا في الكفار، لأن أقصى ما يمكن فعله بهم في الدنيا هو قتلهم، والله -تعالى- عبَّر عن قتل الكفار بأنه عذاب لهم بأيدي المؤمنين، وذلك لأن رحلة العذاب للكفار تبدأ بعد القتل، فتبدأ صور العذاب النفسي والجسدي للكفار في اليوم الآخر، فيرى ذلك أهل الإيمان عيانا، ويقدر لهم أن يحاوروا الكفار الذين يرون الماء الطيب والرزق الذي حباه الله به عباده الصابرين، كما في قوله تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ} [الأعراف: ٥٠].

قال الإمام البغوي: "قال عطاء عن ابن عباس: لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار في الفَرَج، وقالوا: يا رب إن لنا قرابات من أهل الجنة، فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم، فينظروا إلى قرابتهم في الجنة وما هم فيه من النعيم فيعرفونهم، ولم يعرفهم أهل الجنة لسواد وجوههم، فينادي أصحاب النار أصحاب الجنة بأسمائهم، وأخبروهم بقراباتهم: أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، {قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ} [سورة الأعراف: ٥٠]" [تفسير البغوي].

ولعل من يقرأ هذه الآيات يجد أن نعمة الهداية هي محض فضل عظيم خصَّ به الله -تبارك وتعالى- أهل طاعته وأسكنهم دار مقامته وانتقم لهم من الكفار في الدنيا والآخرة، {فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [سورة الجاثية: ٣٦ - ٣٧].

الحوار المشهود
والعذاب الموعود (٢)

لقد كشف الله -تبارك وتعالى- بعض مشاهد الغيب التي ستقع لا محالة بين الكفار وهم يُعذَّبون في نار جهنم، والتي تتضمن الاتهامات المتبادلة بين الطواغيت والرؤساء المتبوعين، وبين أتباعهم وجندهم وأنصارهم الذين بنَوا سلطان الكفر لهم، وقد تكررت هذه الحوارات في كثير من آيات القرآن العظيم، فذكر الله -تعالى- أن أهل النار يتخاصمون ويتحاجون ويتّهم بعضهم بعضا، ويتبرأ المتبوعون من التابعين لهم، كما في قوله تعالى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ} [البقرة: ١٦٦]

قال الإمام الطبري رحمه الله: "والصواب من القول عندي في ذلك أنّ الله -تعالى ذكره- أخبرَ أنّ المتَّبَعين على الشرك بالله يتبرؤون من أتباعهم حين يعاينون عذاب الله. ولم يخصص بذلك منهم بعضاً دون بعض، بل عَمّ جميعهم. فداخلٌ في ذلك كل متبوع على الكفر بالله والضلال أنه يتبرأ من أتباعه الذين كانوا يتَّبعونه على الضلال في الدنيا، إذا عاينوا عَذابَ الله في الآخرة" [جامع البيان في تأويل القرآن].

وهذه المودة التي بينهم في الدنيا والتعاضد في نشر الكفر والرذيلة وحرب الموحدين والصد عن سبيلهم، تتحول إلى حسرة وندامة وتبادل للتُّهم بين الرؤساء والقادة المتبوعين، وبين جندهم وأنصارهم، قال الله تعالى: {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً} [العنكبوت: ٢٥].

وفي ثنايا تلك الحوارات والخصومات بين الكفار حين يُعاينون العذاب تبريرات فاسدة لما كانوا عليه من الكفر وتعاونهم عليه والدفاع عنه، فأول تلك الحوارات حين يقفون بين يدي خالقهم جل في علاه، قال الإمام ابن كثير -رحمه الله- في تفسيره: "قال الله -تعالى- متهددا لهم ومتوعدا، ومخبرا عن مواقفهم الذليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجهم: {يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا} منهم وهم الأتباع: {لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا} وهم قادتهم وسادتهم: {لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ} [سبأ: ٣١]، أي: لولا أنتم تصدونا، لكنا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاءونا به، فقال لهم القادة والسادة، وهم الذين استكبروا: {أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ}، أي: نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنَّا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الأنبياء، لشهوتكم واختياركم لذلك؛ ولهذا قالوا: {بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} أي: بل كنتم تمكرون بنا ليلا ونهارا، وتَغُرُّونا وتُمَنُّونا، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكذِبٌ ومَيْن، قال قتادة، وابن زيد: {بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} يقول: بل مكرهم بالليل والنهار، وكذا قال مالك، عن زيد بن أسلم: مكرهم بالليل والنهار، {إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا} أي نظراء وآلهة معه، وتقيموا لنا شُبَهاً وأشياء من المحال تضلونا بها، {وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ} [سبأ: ٣١ - ٣٣]، أي: الجميع من السادة والأتباع، كُلٌّ ندم على ما سَلَف منه" [تفسير القرآن العظيم].

ومن الحقائق التي يقر بها الكفار وكانوا يستكبرون عنها في الدنيا أو يسموها بغير اسمها هي اعترافهم بما كانوا عليه من اتخاذ الأرباب وتسويتهم برب الأرباب سبحانه وتعالى، فهؤلاء الأتباع العابدون للطواغيت المشرعون لأحكام جاهلية كفرية، أو العابدون للحكام الحاكمين بشرائع البشر تلك، أو العابدون لأي طاغوت في العالم بأي نوع من العبادة، كل هؤلاء سيعترفون أنهم في ضلال مبين بعد أن كانوا يرمون خصومهم الموحدين في الدنيا بالضلال والظلم والظلامية، ويختصمون مع طواغيتهم ويقرون بتسوية طواغيتهم وشريعتهم وأمرهم مع رب العالمين وشريعته وأمره، كما قال الله -تعالى- عن مقولتهم تلك بعد معاينة العذاب: {قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ٩٦ - ٩٨]، قال الإمام ابن كثير: "نجعل أمركم مطاعا كما يطاع أمر رب العالمين، وعبدناكم مع رب العالمين" [تفسير القرآن العظيم].

وفي مشهد آخر يفزع الأتباع إلى سادتهم ليجدوا لهم منجى من عذاب الله، هؤلاء الأتباع الذين كانوا يأتمرون بأمر هؤلاء الطواغيت في حرب الله وأوليائه ودينه، والذين يلجؤون إليهم حين تحدق بهم أخطار المجاهدين، فيكونوا لهم ردءا وعونا فيعقدون التحالفات ويحتشدون جنبا إلى جنب، لحرب دين الله وعباد الله الموحدين، فيلجأ المرتد إلى طاغوته، ويلجأ الطاغوت المرتد إلى الطاغوت الصليبي، وهكذا يصور لنا القرآن مشهدا جديدا من الفزع، حين يهرع الأتباع إلى طواغيتهم ليخلصوهم من عذاب الله ولات حين خلاص، قال الإمام الطبري في تفسير آيات هذا الحوار بين القادة والأتباع: "{فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا}، يقول: فقال التُّبَّاع منهم للمتبوعين، وهم الذين كانوا يستكبرون في الدنيا عن إخلاص العبادة لله واتباع الرسل الذين أرسلوا إليهم: {إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا}، في الدنيا وإنما عنَوا بقولهم: {إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا}، أنهم كانوا أتباعهم في الدنيا يأتمرون لما يأمرونهم به من عبادة الأوثان والكفر بالله، وينتهون عما نهوهم عنه من اتِّباع رسل الله، {فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ}، يعنون: فهل أنتم دافعون عنَّا اليوم من عذاب الله من شيء، {قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ}، قالت القادةُ على الكفر بالله لتُبَّاعها: {لَوْ هَدَانَا اللَّهُ}، يعنون: لو بَيَّن الله لنا شيئاً ندفع به عَذابَه عنا اليوم، {لَهَدَيْنَاكُمْ}، لبيَّنا ذلك لكم حتى تدفعوا العذابَ عن أنفسكم، ولكنا قد جزعنا من العذاب، فلم ينفعنا جزعُنا منه وصَبْرُنا عليه، {سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ} [إبراهيم: ٢١]، يعنون: ما لهم من مَراغٍ يرُوغون عنه" [تفسير الطبري].

وفي مشهد آخر أخبرنا به الله -تبارك وتعالى- أن هؤلاء القادة والأتباع سيتحاورون ويتحاجون بعد دخولهم النار، وذلك حين يضج الجمع الضال الغفير إلى قادتهم الطواغيت، ويحاجونهم أنهم كانوا لهم أوتادا وجندا يأتمرون بأمرهم ويقيمون سلطان باطلهم، قال الإمام ابن كثير في تفسير هذا الحوار: "يخبر -تعالى- عن تحاجّ أهل النار في النار، وتخاصمهم، وفرعون وقومه من جملتهم {فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ} وهم: الأتباع {لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا} وهم: القادة والسادة والكبراء: {إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا} أي: أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال، {فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ} أي: قسطا تتحملونه عنا، {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا} أي: لا نتحمل عنكم شيئا، كفى بنا ما عندنا، وما حملنا من العذاب والنكال، {إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ} [غافر: ٤٧ - ٤٨] أي: يقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كلٌّ مِنَّا" [تفسير القرآن العظيم].

إن الله -تعالى- حكم بين هؤلاء بما يستحقونه، فكيف كان هذا الحكم ولماذا؟ كان هذا الحكم بعد أن طلب الأتباع بمضاعفة العذاب لقادتهم لأنهم أدخلوهم النار بسبب إضلالهم لهم وذاك في قوله تعالى: {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا} [الأحزاب: ٦٧ - ٦٨].

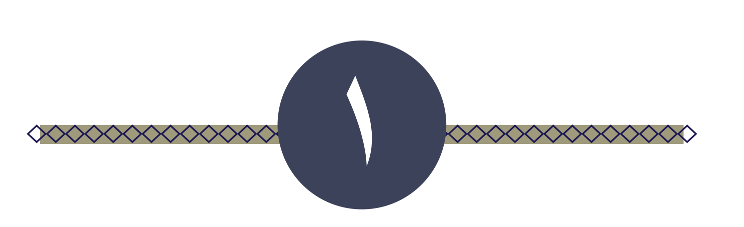
وفي مشهد عظيم من هذه المشاهد الرهيبة، تجتمع ملل الكفر كلها في نار جهنم، حينها يطلب آخر أمم الكفر مضاعفة العذاب لمن سبقهم في الكفر من تلك الملل، لأنهم زينوا لهم طريق الكفر والضلالة، كما تتواصى الأمم اليوم في إشاعة دين الكفر الديموقراطية، وتخلف أمة إثر أمة بهذا الدين الباطل في الكفر وإشاعة الشرك والرذائل والظلم والفساد الكبير، قال الله -تعالى- عن تلك الأمم من الجن والإنس: {قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٨].

قال الإمام الطبري في تفسير آيات هذا المشهد: "وهذا خبر من الله -جل ثناؤه- عن محاورة الأحزاب من أهل الملل الكافرة في النار يوم القيامة، يقول الله تعالى ذكره: فإذا اجتمع أهل الملل الكافرة في النار فادَّاركوا، قالت أخرى أهل كل ملة دخلت النار، الذين كانوا في الدنيا بعد أولى منهم تَقَدَّمتها وكانت لها سلفاً وإماماً في الضلالة والكفر، لأولاها الذين كانوا قبلهم في الدنيا: ربنا هؤلاء أضلونا عن سبيلك، ودعونا إلى عبادة غيرك، وزيَّنوا لنا طاعة الشيطان، فآتهم اليوم من عذابك الضعفَ على عذابنا".

هذا هو طلب الأتباع من الأفراد والأمم الذين ائتمروا بأوامر القادة المُتَّبَعين، طالبهم أن يضاعف العذاب لمن كان سبب إضلالهم، فجاء الحكم من الله -تعالى- بأن العذاب مضاعف لكل الكفار بقدر إضلالهم، قال الإمام ابن كثير في تفسيره: "قوله: {قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٨] أي: قد فعلنا ذلك وجازينا كلا بحسبه، كما قال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ} [النحل: ٨٨].

نسأل الله -تعالى- بمنِّه وكرمه أن يثبتنا على دينه ويجيرنا من العذاب والضلال، ومشاهد الخزي والنكال، والحمد لله على نعمة الإسلام.

السمع والطاعة



الحمد لله القوي المتين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وآله وصحبه أجمعين، أما بعد...

مما هو معلوم لدى أهل السنة والجماعة وجوب السمع والطاعة، وهذا مما يتميز به أهل السنة والجماعة عن أهل البدع، قال ابن تيمية -رحمه الله- في الواسطية: "أهل السنة والجماعة هم الذين يتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- قولاً وعملاً، ظاهراً وباطناً، على ما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ويبتعدون عن البدع، ويرون السمع والطاعة لولاة الأمر في غير معصية، ويأمرون بالفضائل وينهون عن الرذائل".

فإن السمع والطاعة هي الركن الأول في البيعة، والحق الأعظم للإمام والأمير، قال عبادة بن الصامت: "دعانا النبي -صلى الله عليه وسلم- فبايعناه، فقال فيما أخذ علينا: أن بايعنا على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم من الله فيه برهان" [رواه البخار ي].

ولما كان للسمع والطاعة من الأهمية ما ذكرنا، كان بيان مفهومهما ضروريا للغاية، حتى لا يلتبس على الناس هذا المعنى العظيم الذي به ينتظم أمر دنياهم ويُحفظ عليهم دينهم القويم، فكانت هذه السلسلة (السمع والطاعة).

وجوب السمع والطاعة:

إن مما انعقد عليه الإجماع وجوب السمع والطاعة، حتى أصبح السمع والطاعة علامة مميزة وفارقة لأهل السنة عن أهل البدع، بل أصبح السمع والطاعة يذكر في كتب عقائد أهل السنة.

قال ابن قدامة، رحمه الله: "ومن السنة: السمع والطاعة لأئمة المسلمين وأمراء المؤمنين -برِّهم وفاجرهم- ما لم يأمروا بمعصية الله، فإنه لا طاعة لأحد في معصية الله، ومن ولي الخلافة واجتمع عليه الناس ورضوا به، أو غلبهم بسيفه حتى صار الخليفة، وسمي أمير المؤمنين، وجبت طاعته وحرمت مخالفته والخروج عليه وشق عصا المسلمين" [لمعة الاعتقاد].

وقال ابن تيمية -رحمه الله- في الواسطية: "فطاعة الله ورسوله واجبة على كل أحد، وطاعة ولاة الأمور واجبة لأمر الله بطاعتهم، فمن أطاع الله ورسوله بطاعة ولاة الأمر لله فأجره على الله، ومن كان لا يطيعهم إلا لما يأخذه من الولاية والمال فإن أعطوه أطاعهم وإن منعوه عصاهم فما له في الآخرة من خلاق".

قال ابن رجب، رحمه الله: "أما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين، ففيها سعادة الدنيا، وبها تنتظم مصالح العباد في معايشهم، وبها يستعينون على إظهار دينهم، وطاعة ربهم".

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب، رحمه الله: "وأرى وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين، بَرِّهم وفاجرهم ما لم يأمروا بمعصية الله".

والأحاديث الصحيحة في هذا الباب كثيرة، ولم يقع خلل في دين الناس أو دنياهم إلا من الإخلال بهذه الوصية.

وقبل هذا جاء كلام الله ورسوله يؤكد وجوب السمع والطاعة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} [النساء: ٥٩]. قال ابن حجر: "قال ابن عيينة: سألت زيد بن أسلم عنها -أي عن أولي الأمر في هذه الآية- ولم يكن بالمدينة أحد يفسر القرآن بعد محمد بن كعب مثله، فقال: اقرأ ما قبلها تعرف، فقرأت: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ} [النساء: ٥٨]. فقال: هذه في الولاة" [فتح الباري].

أما من السنة فالأحاديث كثيرة في وجوب السمع والطاعة للأئمة في غير معصية نذكر منها ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: "قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميرِي فقد أطاعَنِي، ومن عصى أميري فقد عصانِي).

ومنها ما رواه البخاري بسنده عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (اسمعوا وأطيعُوا، وإن استُعمل عليكم عبدٌ حبشيٌّ، كأنَّ رأسَه زبيبةٌ).

ومنها ما رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: "قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إنها ستكونُ بعدِي أثرةٌ وأمورٌ تُنكرونها). قالوا: "يا رسولَ اللهِ! كيف تأمر من أدركَ منّا ذلك؟" قال: (تُؤدّونَ الحقَّ الذي عليكُم، وتسألونَ اللهَ الذي لكُم)، إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة الموجبة لطاعة الأئمة في غير معصية وإن جاروا.

حرمة مفارقة الجماعة

إن الله لَمَّا أمر بالسمع والطاعة والجماعة، حَرَّم الخروج عنها والعصيان والتنازع، إذا لا يجوز لفرد أو جماعة الخروج على الإمام العادل، ومن خرج عليه وجب قتاله وقمعه، ورد شره وبغيه.

قال الله تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الحجرات: ٩]، وعن عرفجة -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يَقول: (من أتاكم، وأمركُم جميعٌ، على رجلٍ واحدٍ، يريدُ أن يشقَّ عصاكُم، أو يفرقَ جماعتكُم، فاقتلوهُ) [رواه مسلم].

وقال النبي، صلى الله عليه وسلم: (من رأى من أميرِه شيئاً يكرهُه فليصبر، فإنَّه ليس أحدٌ يُفارِقُ الجماعةَ شبراً فيموتُ، إلا مات ميتةً جاهليةٍ) [متفق عليه]. قال الإمام البخاري، رحمه الله: "لقيت أكثر من ألف رجل من أهل العلم، أهل الحجاز ومكة والمدينة والكوفة والبصرة وواسط وبغداد والشام ومصر... -وذكر جماعة منهم ثم قال:- ما رأيت واحداً منهم يختلف في هذه الأشياء، فذكر أموراً منها: وأن لا ننازع الأمر أهله لقول النبي، صلى الله عليه وسلم: (ثلاث لا يَغِل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، وطاعة ولاة الأمر، ولزوم جماعتهم، فإنَّ دعوتهم تحيط من ورائهم)".

وقال أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي: "سألت أبي وأبا زرعة عن مذهب أهل السنة في أصول الدين وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار وما يعتقدان من ذلك؟ فقالا: أدركنا العلماء في جميع الأمصار حجازاً وعراقاً وشاماً ويمناً فكان من مذهبهم [...] فذكرا أموراً منها: ونقيم الجهاد والحج مع أئمة المسلمين في كل دهر وزمان، ولا نرى الخروج على الأئمة ولا القتال في الفتنة، ونسمع ونطيع لمن ولاه الله -عز وجل- أمرنا، ولا ننزع يداً من طاعة، ونتبع السنة والجماعة، ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة، فإن الجهاد ماض مذ بعث الله -عز وجل- نبيه -عليه الصلاة والسلام- إلى قيام الساعة مع ولي الأمر من أئمة المسلمين لا يبطله شيء، والحج كذلك، ودفع الصدقات من السوائم إلى أولي الأمر من أئمة المسلمين".

وعن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (من خلع يداً من طاعةٍ، لقيَ اللهَ يومَ القيامةِ، لا حُجَّةَ له. ومن مات وليس في عُنُقِه بَيعةٌ، مات مِيتةً جاهليةً) [رواه مسلم].

فعلى المسلمين لزوم الجماعة لما تقدم ذكره، ولما في ذلك من عزة المسلمين ووحدتهم، وعليهم نبذ التنازع والفرقة والاختلاف، حتى لا يذهب ريحهم فيصيبهم الفشل، فتستباح بيضتهم وتباد خضراؤهم، والله أعلم، والحمد لله رب العالمين.

السمع والطاعة ٢

الحمد لله القوي المتين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وآله وصحبه أجمعين، أما بعد...
إن السمع والطاعة كما ذكرنا هي العلامة الفارقة بين أهل السنة وأهل البدع، وإن مفارقة الجماعة محرمة كما بَيَّنَّا، وإن فيها هلاك المرء وفساد دينه، وإن الصبر على الأمير واجب وإن صدر منه ما يُكره، وسنبين في هذه المقالة بعض المسائل المهمة المتعلقة بها، كمن تجب لهم الطاعة وحدودها.

من تجب لهم الطاعة:

تجب الطاعة لمن وُلِّيَ أمرا من أمور المسلمين، سواء كان خليفة أو واليا أو أمير حرب أو سرية أو نحوه... قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميرِي فقد أطاعَنِي، ومن عصى أميري فقد عصانِي) [متفق عليه].
وفي هذا دليل على أن الطاعة واجبة لكل من ولّاه الله أمرا من أمور المسلمين.

معنى الأثرة:

وقد أخذ النبي –صلى الله عليه وسلم- البيعة من الصحابة واشترط عليهم أمورا، قال عبادة بن الصامت: "دعانا النبي –صلى الله عليه وسلم- فبايعناه، فقال فيما أخذ علينا: أن بايعنا على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم من الله فيه برهان" [رواه البخاري].
قال القاضي في شرح الحديث: "أي عاهدناه بالتزام السمع في حالتي الشدة والرخاء وتارتي الضراء والسراء، وإنما عبَّر عنه بصيغة المفاعلة للمبالغة أو للإيذان بأنه التزم لهم أيضا بالأجر والثواب والشفاعة يوم الحساب على القيام بما التزموا، والمنشط والمكره مفعلان من النشاط والكراهة للمحل أي فيما فيه نشاطهم وكراهتهم، أو الزمان أي في زماني انشراح صدورهم وطيب قلوبهم وما يضاد ذلك، (وعلى أثرة) بفتحتين اسم من "أثَرَ" بمعنى اختار أي على اختيار شخص علينا بأن نؤثره على أنفسنا، كذا قيل، والأظهر أن معناه على الصبر إيثار الأمراء أنفسهم علينا، وحاصله أن (على أثرة) ليست بصلة للمبالغة بل متعلق مقدر أي بايعناه على أن نصبر على أثرة علينا".
وعن سلمة بن يزيد الجعفي -رضي الله عنه- قال: "يا نبي الله، أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا، فما تأمرنا؟" فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم سأله في الثانية أو في الثالثة فجذبه الأشعث بن قيس، وقال: "اسمعوا وأطيعوا، فإنما عليهم ما حُمِّلوا وعليكم ما حُمِّلتم". [رواه مسلم]. والمراد بقوله أي اسمعوا قولا وأطيعوا فعلا، فإن عليهم ما حُمِّلوا من العدل وإعطاء الرعية حقهم، وعليكم ما حُمِّلتم من الطاعة والصبر على البلية، وقد ورد هذا في قوله تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النور: ٥٤]، ومعناه أنه يجب على كل أحد ما كلف به، وليس على الأمراء إلا ما حمَّلهم الله وكلفهم به من العدل والقسط، فإن لم يقوموا بذلك فعليهم الوزر والوبال، وأما الرعية فعليهم ما كُلِّفوا به من السمع والطاعة وأداء الحقوق، فإذا قاموا بما عليهم آتاهم الله –تعالى- أجورهم وأثابهم.

حدود الطاعة:

وتجب طاعة الأمراء ما لم تكن في معصية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "إنهم -أي أهل السنة والجماعة- لا يجوزون طاعة الإمام في كل ما يأمر به، بل لا يوجبون طاعته إلا فيما تسوغ طاعته فيه في الشريعة، فلا يجوزون طاعته في معصية الله وإن كان إماماً عادلاً، فإذا أمرهم بطاعة الله أطاعوه، مثل أن يأمرهم بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والصدق، والعدل، والحج، والجهاد في سبيل الله. فهم في الحقيقة إنما أطاعوا الله" [منهاج السنة].
وقد خرجت طائفة من أهل الشام زمن الأمويين يرون الطاعة المطلقة للإمام، يقول ابن تيمية –رحمه الله- عن هذه الطائفة: "وأما غالية الشام أتباع بني أمية فكانوا يقولون: إن الله إذا استخلف خليفة تقبَّل منه الحسنات، وتجاوز له عن السيئات، وربما قالوا: إنه لا يحاسبه، ولهذا سأل الوليد بن عبد الملك عن ذلك العلماء فقالوا: يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أم داود؟ وقد قال له: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} [ص: ٢٦]، وكذلك سؤال سليمان بن عبد الملك عن ذلك لأبي حازم المدني في موعظته المشهورة فذكر له هذه الآية"، ثم بيَّن -رحمه الله تعالى- ضلالهم فقال: "لكن غلط من غلط منهم من جهتين، من جهة: أنهم كانوا يطيعون الولاة طاعة مطلقة، ويقولون: إن الله أمر بطاعتهم، والثانية: قول من قال منهم: إن الله إذا استخلف خليفة تقبَّل منه الحسنات وتجاوز له عن السيئات".

عظم أمر الإمارة:

وإن أمر الإمارة عظيم خطير، وإنها لا يقوى عليها إلا خيرة الرجال، ولذلك لم يعط رسول الله –صلى الله عليه وسلم- الإمارة من طلبها منه، فعن أبي موسى -رضي الله عنه- قال: دخلت على النبي –صلى الله عليه- وسلم أنا ورجلان من قومي، فقال أحد الرجلين: "أمِّرنا يا رسول الله"، وقال الآخر مثله، فقال: (إنا لا نولي هذا من سأله، ولا من حرص عليه) [رواه البخاري].
وإن الإمارة خزي وعار يوم القيامة لمن لم يقم بحقها، فعن أبي هريرة أن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: (إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة وبئست الفاطمة) [رواه البخاري].
قال النووي: "هذا أصل عظيم في اجتناب الولاية ولا سيما لمن كان فيه ضعف، وهو في حق من دخل فيها بغير أهلية ولم يعدل، فإنه يندم على ما فرط منه إذا جوزي بالخزي يوم القيامة، وأما من كان أهلا وعدل فيها فأجره عظيم كما تظاهرت به الأخبار، ولكن في الدخول فيها خطر عظيم ولذلك امتنع الأكابر منها".
وعن أبي ذر –رضي الله عنه- قال: قلت: "يا رسول الله، ألا تستعملني؟" قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: (يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها) [رواه مسلم].
وعن عائشة أم المؤمنين –رضي الله عنها- أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- قال: (اللهم، من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم، فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم، فارفق به) [رواه مسلم].
فعلى من وُلِّيَ من أمر المسلمين شيئا الرفق بهم، والاجتهاد في قضاء حاجاتهم، فإنما هو راع وهم رعيته، وإنما هو مسؤول عنهم يوم القيامة، فعليه أن يجتنب مسالك الشيطان، ألا يستزله، فإن الشيطان إليه أقرب.

فضل العِلم وأهله

ا

قال ابن قيم الجوزية: في كتاب (مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة) وهو يذكر وجوه فضل العلم وأهله:

الوجه التاسع والاربعون:

ما روى الترمذي من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- قال سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالم ومتعلم)، قال الترمذي هذا حديث حسن.

ولما كانت الدنيا حقيرة عند الله لاتساوي لديه جناح بعوضة كانت -وما فيها- في غاية البُعد منه، وهذا هو حقيقة اللعنة،

وهو سبحانه إنما خلقها مزرعة للآخرة ومعبراً إليها يتزوَّد منها عبادُه إليه، فلم يكن يُقرِّب منها إلا ما كان متضمِّنا لإقامة ذكره ومفضيا إلى محابِّه، وهوالعلم الذي به يُعرف الله ويُعبد،ويُذكر ويثنى عليه ويمجَّد.

ولهذا خلقها وخلق أهلها، كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا } [الطلاق: ١٢]، فتضمنت هاتان الآيتان أنه سبحانه إنما خلق السموات والأرض وما بينهما، ليعرف بأسمائه وصفاته، وليعبد.

فهذا المطلوب وما كان طريقا إليه من العلم والتعليم فهو المستثنى من اللعنة، واللعنة واقعة على ما عداه، إذ هو بعيد عن الله وعن محابِّه وعن دينه، وهذا هو متعلَّق العذاب في الآخرة.....

الوجه الخمسون

ما رواه الترمذي من حديث أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس قال قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع) قال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب، رواه بعضهم فلم يرفعه"، وإنما جُعل طب العلم من سبيل الله لأن به قِوام الإسلام كما أن قوامه بالجهاد، **فقِوام الدين بالعلم والجهاد.**

ولهذا كان الجهاد نوعين:

جهاد باليد والسنان وهذا المشارك فيه كثير.

وجهاد بالحجة والبيان وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل. ..

قال تعالى في سورة الفرقان وهي مكية: {وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ❋ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا } [الفرقان: ٥١، ٥٢]، فهذا جهاد لهم بالقرآن، وهو أكبر الجهادين، وهو جهاد المنافقين أيضا، فإن المنافقين لم يكونوا يُقاتلون المسلمين بل كانوا معهم في الظاهر، وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم، ومع هذا فقد قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ } [التوبة: ٧٣]. ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن.

والمقصود أن سبيل الله هي الجهاد وطلب العلم ودعوة الخلق به إلى الله، ولهذا قال معاذ -رضي الله عنه-: "**عليكم بطلب العلم فإن تعلمه لله خشية، ومدارسته عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد**".

ولهذا يقرن سبحانه بين الكتاب المنزَّل والحديد الناصر، كما قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحديد: ٢٥]، فذكر الكتاب والحديد إذ بهما قِوام الدين.

ولما كان كل من الجهاد بالسيف والحجة يسمى سبيل الله فسر الصحابة -رضي الله عنهم- قوله: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء: ٥٩] بالأمراء والعلماء [انظر: تفسير الطبري]، فإنهم المجاهدون في سبيل الله، هؤلاء بأيديهم وهؤلاء بألسنتهم.....

الوجه الحادي والخمسون

ما رواه الترمذي حدثنا محمود بن غيلان: حدثنا أبو أسامة، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهَّل الله له طريقا إلى الجنة)، قال الترمذي هذا حديث حسن.....

وقد تظاهر الشرع والقدر على أن الجزاء من جنس العمل، فكما سلكَ طريقاً يطلب فيه حياةَ قلبه ونجاتَه من الهلاك سلك الله به طريقا يحصِّل له ذلك...

الوجه الثاني والخمسون

أن النبي دعا لمن سمع كلامه ووعاه وبلَّغه بالنَّضرة، وهي البهجة ونضارة الوجه وتحسينُه، ففي الترمذي وغيره من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (نضَّر الله امرءا سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلَّغها، فرُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهن قلبُ مسلم، إخلاص العمل لله، ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإنَّ دعوتهم تُحيط مِن ورائهم)، وروى هذا الأصلَ عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ابنُ مسعود ومعاذُ بن جبل وأبو الدرداء وجبير بن مطعم، وأنس بن مالك، وزيد بن ثابت، والنعمان بن بشير.

ولو لم يكن في فضل العلم إلا هذا وحده لكفى به شرفا، فإن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لمن سمع كلامه، ووعاه، وحفظه، وبلَّغه. وهذه هي مراتب العلم.....

فمن قام بهذه المراتب الأربع دخل تحت هذه الدعوة النبوية المتضمِّنة لجمال الظاهر والباطن، فإن النَّضرة هي البهجة والحسن الذي يُكساه الوجهُ من آثار الإيمان، وابتهاج الباطن به وفرح القلب وسروره والتذاذه به، فتظهر هذه البهجة والسرور والفرحة نضارةً على الوجه.

ولهذا يجمع سبحانه بين البهجة والسرور والنضرة، كما في قوله تعالى: {فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا} [الإنسان: ١١]، فالنضرة في وجوههم والسرور في قلوبهم.

فالنعيم وطيب القلب يُظهر نضارةً في الوجه، كما قال تعالى: {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ} [المطففين: ٢٤]....

وقوله صلى الله عليه وسلم: ثلاث لا يَغِل عليهن قلب مسلم.. إلى آخره، أي لايحملُ الغلَّ ولا يبقى فيه مع هذه الثلاثة، فإنها تنفي الغِلَّ والغِشَّ، وهو فساد القلب وسخائمه.

فالمخلص لله إخلاصه يمنع غِلَّ قلبه، ويخرجه ويزيله جملة، لأنه قد انصرفت دواعي قلبه وإرادته إلى مرضاة ربه، فلم يبق فيه موضع للغل والغش ....

وقوله: (ومناصحة أئمة المسلمين) هذا أيضا مناف للغل والغش، فإن النصيحة لا تُجامع الغل، إذ هي ضدَّه **فمن نصح الأئمة والأمة فقد برئ من الغل.**

وقوله: (ولزوم جماعتهم) هذا أيضا مما يطهِّر القلب من الغل والغش، فإن صاحبه لِلزومه جماعة المسلمين يحبُّ لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكرهُ لها، ويسوؤه ما يسؤوهم ،ويسرُّه ما يسرهم.

وهذا بخلاف من انحاز عنهم واشتغل بالطعن عليهم والعيب والذم لهم، كفعل الرافضة والخوارج والمعتزلة وغيرهم، فإن قلوبهم ممتلئة غلا وغشا، ولهذا تجد الرافضة أبعد الناس من الإخلاص، وأغشِّهم للائمة والأمة وأشدهم بعدا عن جماعة المسلمين..

وقوله: (فإن دعوتهم تحيط من ورائهم) هذا من أحسن الكلام وأوجزه وأفخمه معنى، شبَّه دعوة المسلمين بالسور والسياج المحيط بهم، المانع من دخول عدوهم عليهم، فتلك الدعوة -التي هي دعوة الإسلام وهم داخلوها- لما كانت سورا وسياجا عليهم، أخبر أن من لزم جماعة المسلمين أحاطت به تلك الدعوة -التي هي دعوة الإسلام- كما أحاطت بهم، فالدعوة تجمع شمل الأمة وتلم شعثها وتحيط بها، فمن دخل في جماعتها أحاطت به وشملته. انتهى كلامه -رحمه الله- باختصار.

فضل العِلم وأهله

٢

قال ابن قيم الجوزية في كتابه مفتاح دار السعادة، وهو يذكر وجوه فضل العلم وأهله:

الوجه الثالث والخمسون:

أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر بتبليغ العلم عنه، ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو، قال قال رسول الله (بلِّغوا عني ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمِّدا فليتبوأ مقعدَه من النار)، وقال: (ليبلغ الشاهد منكم الغائب) روى ذلك أبو بكرة ووابصة بن معبد وعمار بن ياسر، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وأسماء بنت يزيد بن السكن، وحجير وأبو قريع، وسرَّاء بنت نبهان، ومعاوية بن حيدة القشيري وعم أبي حُرَّة وغيرهم.

فأمر بالتبليغ عنه، لما في ذلك من حصول الهدى بالتبليغ، وله -صلى الله عليه وسلم- أجر من بلَّغَ عنه وأجر من قبل ذلك البلاغ، وكلما كثر التبليغ عنه تضاعف له الثواب، فله من الأجر بعدد كلِّ مبلَّغ وكلِّ مهتد بذلك البلاغ، سوى ماله من أجر عمله المختصِّ به، فكلُّ من هُدي واهتدى بتبليغه فله أجره، لأنه هو الداعي إليه.

ولو لم يكن في تبليغ العلم عنه إلا حصول ما يحبه -صلى الله عليه وسلم- لكفى به فضلا، وعلامة المحب الصادق أن يسعى في حصول محبوب محبوبه، ويبذل جهده وطاقته فيها، ومعلوم أنه لا شيء أحبُّ إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من إيصاله الهدى الى جميع الأمة، فالمبلِّغ عنه ساع في حصول محابِّه، فهو أقرب الناس منه وأحبهم إليه، وهو نائبه وخليفته في أمته، وكفى بهذا فضلا وشرفا للعلم وأهله.

الوجه الرابع والخمسون:

أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قدَّم بالفضائل العلمية في أعلى الولايات الدينية وأشرفها، وقدم بالعلم بالأفضل على غيره.

فروى مسلم في صحيحه حديث أبي مسعود البدري عن النبي -صلى الله عليه وسلم- يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواءً فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم سلما أو سنا..) وذكر الحديث.

فقدَّم في الإمامة بفضيلة العلم على تقدُّم الإسلام والهجرة، ولما كان العلم بالقرآن أفضل من العلم بالسنة لشرف معلومه على معلوم السنة قدَّم العلم به، ثم قدم العلم بالسنة على تقدم الهجرة، وفيه من زيادة العمل ماهو متميِّز به، لكن إنما راعى التقديم بالعلم ثم بالعمل، وراعى التقديم بالعلم بالأفضل على غيره، **وهذا يدل على شرف العلم وفضله وأن أهله هم أهل التقدم إلى المراتب الدينية.**

الوجه الخامس والخمسون:

ما ثبت في صحيح البخاري من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه) وتعلُّم القرآن وتعليمه يتناول تعلُّم حروفه وتعليمَها، وتعلم معانيه وتعليمها، وهو أشرف قسمي تعلُّمه وتعليمه، فإن المعنى هو المقصود واللفظ وسيلة إليه....

الوجه السادس والخمسون:

ما رواه الترمذي وغيره في نسخة عمرو ابن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لن يشبع المؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة)، قال الترمذي هذا حديث حسن غريب، وهذه نسخة معروفة رواها الناس وساق أحمد في المسند أكثرها أو كثيرا منها، ولهذا الحديث شواهد.

فجعل النبي -صلى الله عليه وسلم- النَّهمة في العلم وعدم الشبع منه من لوازم الإيمان وأوصاف المؤمنين وأخبر أنَّ هذا لا يزال دأب المؤمن حتى دخوله الجنة.

ولهذا كان أئمة الاسلام إذا قيل لأحدهم إلى متى تطلب العلم؟ فيقول إلى المات، قال نعيم بن حماد سمعت عبد الله بن المبارك رضي الله عنه يقول وقد عابه قوم في كثرة طلبه للحديث، فقالوا له: إلى متى تسمع؟ قال إلى المات.

وقال الحسن بن منصور الجصَّاص قلت لأحمد بن حنبل رضي الله عنه الى متى يكتب الرجل الحديث؟ قال إلى الموت....

وقال عبد الله بن بشر الطالقاني أرجو أن يأتيني أمر ربِّي والمحبرة بين يدي، ولم يفارقني القلم والمحبرة.

وقال حميد بن محمد بن يزيد البصري: جاء ابن بسطام الحافظ يسألني عن الحديث، فقلت له ما أشد حرصك على الحديث! فقال أو ما أحب أن أكون في قطار آل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقيل لبعض العلماء: إلى متى يحسن بالمرء أن يتعلَّم؟ قال ما حسنت به الحياة.

وسئل الحسن عن الرجل له ثمانون سنة: أيحسُن أن يطلب العلم؟ قال إن كان يحسن به أن يعيش.

الوجه الستون:

أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أوصى بطلبة العلم خيرا، وما ذاك إلا لفضل مطلوبهم وشرفه.

قال الترمذي حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا أبو داود الحفري عن سفيان عن أبي هرون قال: كنا نأتي أبا سعيد فيقول: مرحبا بوصية رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، إن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: إن الناس لكم تبع، وإنَّ رجالا يأتونكم من أقطار الارض يتفقَّهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا.

حدثنا قتيبة حدثنا روح بن قيس عن أبي هرون العبدي عن أبي سعيد الخدري، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يأتيكم رجال من قبل المشرق يتعلَّمون فإذا جاؤكم فاستوصوا بهم خيرا) فكان أبو سعيد إذا رآنا قال مرحبا بوصية رسول الله -صلى الله عليه وسلم، قال الترمذي هذا حديث لانعرفه إلا من حديث أبي هرون العبدي عن أبي سعيد.

قال أبو بكر العطار قال علي ابن المديني قال يحيى بن سعيد: كان شعبة يضعِّف أبا هارون العبدي، قال يحيى: وما زال ابن عوف يروي عن أبي هارون حتى مات، وأبو هرون اسمه عمارة بن جوين.

الوجه الحادي والستون:

قد تقدم أن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الارض وقد رويت آثار عديدة عن جماعة من الصحابة في هذا المعنى: .. ومنها ما رواه فطر بن خليفة عن أبي الطفيل، عن علي: (ما انتعل عبد قط ولا تخفَّف ولا لبس ثوبا ليغدو في طلب العلم إلا غفرت ذنوبه حيث يخطو عند باب بيته) وقد رواه ابن عدي مرفوعا، وقال ليس يرويه عن فطر غير إسمعيل بن يحيى التيمي. قلت وقد رواه إسمعيل بن يحيى هذا عن الثوري: حدثنا محمد بن أيوب الجُوزجاني عن مجالد عن الشعبي عن الأسود عن عائشة مرفوعا: (من انتعل ليتعلم خيرا غفر له قبل أن يخطو).

وقد رواه عبد الرحمن بن محمد المحاربي، عن فطر عن أبي الطفيل عن علي.

وهذه الأسانيد وإن لم تكن بمفردها حجَّة، فطلب العلم من أفضل الحسنات، والحسنات يذهبن السيئات، فجديرٌ أن يكون طلب العلم ابتغاء وجه الله يكفِّر ما مضى من السيئات ،فقد دلت النصوص أن إتباع السيئة الحسنة تمحوها، فكيف بما هو من أفضل الحسنات وأجل الطاعات؟!

فالعُمدة على ذلك لاعلى حديث أبي داود والله اعلم...

انتهى كلامه باختصار من كتاب مفتاح دار السعادة

قصص من جهاد النساء

١

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

فقد ذكرنا في المقالة سابقا نموذجا من نساء القرن الأول المبارك، وكيف شاركن بأنفسهن في المعارك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتحملن في سبيل ذلك الصعاب.

وسنعرض في هذه المقالة جانبا من تحريضهن وصبرهن عند المصائب، كأمثلة نسوقها لك أيتها المجاهدة لتكون سلوى لك عند المصائب، وزادا على طريق الجهاد والمتاعب.

أم سليم الأنصارية (رضي الله عنها) تذود عن نفسها بخنجر

فلك –أختي المسلمة- مثال واضح من أفعال الصحابية الجليلة تنبيك عن استعدادها للجهاد والدفاع عن دينها وعرضها، إنها أم سليم رضي الله عنها، تلك المرأة التي تميزت بقوة القلب في سبيل نصر دين الله، وخاطرت بنفسها ودخلت ميدان المعركة واستعدت لمواجهة الرجال، كل ذلك بسبب حبها للدين ونصر الإسلام، فعن أنس، أن أم سليم اتخذت يوم حنين خنجرا، فكان معها، فرآها أبو طلحة، فقال: يا رسول الله، هذه أم سليم معها خنجر، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما هذا الخنجر؟) قالت: اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين، بقرت به بطنه، فجعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يضحك" [رواه مسلم].

صفية (رضي الله عنها) تقتل يهودياً

وهاك أختي المجاهدة صحابية أخرى عندها من قوة القلب ما نحتاجه في كثير من نساء المسلمين، ولا نظن أن رجلاً يعلم أن وراءه مثلها فينكص عن الجهاد والإقدام، وهذا النموذج هو صفية بنت عبد المطلب عمةُ النبي -صلى الله عليه وسلم- فعندما رقى أحد اليهود الحصن الذي فيه النساء والذرية كانت له بالمرصاد، قال ابن سعد في طبقاته: "فأخذت عموداً فنزلت فختلته حتّى فتحت الباب قليلا قليلا، ثمّ حملت عليه فضربته بالعمود فقتلته".

ولك أختي المسلمة المجاهدة جانبا من تحريض صفية -رضي الله عنها- للرجال على القتال إذ لم تقتصر على التحريض بلسانها فقط، بل بفعالها أيضاً، قال ابن سعد: "عن هشام بن عروة، أنّ صفيّة بنت عبد المطّلب جاءت يوم أحد وقد انهزم النّاس وبيدها رمح تضرب في وجوه النّاس وتقول: انهزمتم عن رسول اللّه..." [الطبقات الكبرى].

صبر صفية (رضي الله عنها)

وأما صبرها على المصيبة واحتسابها فهي جبل أشم، قال الإمام الطبري: "قال ابن إسحاق: وأقبلت -فيما بلغني- صفيّة بنت عبد المطّلب لتنظر إلى حمزة، وكان أخاها لأبيها وأمّها، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لابنها الزّبير بن العوّام: (القها فأرجعها، لا ترى ما بأخيها)، فلقيها الزّبير فقال لها: يا أمه، إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يأمرك أن ترجعي، فقالت: ولم، وقد بلغني أنّه مثّل بأخي وذلك في اللّه قليل! فما أرضانا بما كان من ذلك! لأحتسبنّ ولأصبرنّ إن شاء اللّه، فلمّا جاء الزّبير رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأخبره بذلك، قال: خلّ سبيلها، فأتته فنظرت إليه وصلّت عليه، واسترجعت واستغفرت له" [تاريخ الطبري].

قتلت تسعة من الروم بعمود

وهذه قدوة أخرى لك في الفداء والإقدام، وهي أسماء بنت يزيد بن السكن بنت عم معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال عنها الذهبي: "من المبايعات المجاهدات، وقتلت بعمود خبائها يوم اليرموك تسعة من الروم" [سير أعلام النبلاء].

ولكل أخت مجاهدة نقول: إن لم تستطيعي أن تفعلي فعل أسماء بنت يزيد فلا أقل من أن تدافعي عن نفسك إذا دهمك خطر الكفار والمرتدين فلا عذر لك حينئذ من القتال والمدافعة.

زوجها يستشهد بعد سبعة أيام من زواجها

ولك أختي المسلمة في أم حكيم بنت الحارث عبرة، زوج عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه، وكيف تعالت على مصيبتها في زوجها، وتزوجت فارسا آخر وقاتلت معه في سبيل الله، ولكنه لم يبق معها سوى أيام وارتقى شهيدا، قال الذهبي: "وقال سعيد بن عبد العزيز: التقوا على النّهر عند الطّاحونة، فقتلت الرّوم يومئذ حتّى جرى النهر وطحنت طاحونتها بدمائهم فأنزل النّصر، وقتلت يومئذ أمّ حكيم سبعةً من الرّوم بعمود فسطاطها، وكانت تحت عكرمة بن أبي جهل، ثمّ تزوّجها خالد بن سعيد بن العاص، قال محمّد بن شعيب: فلم تقم معه إلّا سبعة أيّام" [تاريخ الإسلام].

امرأة طلبت لقاء ربها

وهذه أختي في الله قدوة أخرى لك، أحبت لقاء ربها وطلب المنازل العلا فكانت من أهلها، إنها أم حرام رضي الله عنها، وهي من محارم النبي -صلى الله عليه وسلم- باتفاق العلماء، فقيل أنها خالته من الرضاعة وقيل خالة أبيه، فعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: كان رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- إذا ذهبَ إلى قُباء يدخل على أمِّ حرام بنتِ مِلْحَان فتُطعمُه، وكانت تحت عُبادة بن الصامت، فدخل عليها رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- يوماً فأطْعَمَتْه، فنام رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: فقلت: ما يُضْحِكك يا رسول الله؟ قال: ناسٌ من أمتي عُرِضوا عليَّ غُزَاة في سبيل الله، يركبون ثَبَجَ هذا البحر، مُلوكاً على الأَسِرَّة -أو قال: مثلَ الملوك على الأسِرَّةِ- قالت: فقلت: يا رسول الله، ادْعُ الله أن يجعلني منهم، فدعا لها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت :فقلتُ: ما يُضْحِكُك يا رسول الله؟ قال: ناسٌ من أمتي عُرِضوا عليَّ غزاة في سبيل الله -كما قال في الأولى- قالت: فقلت: يا رسول الله، ادْعُ الله أن يجعلَني منهم، قال: أنت من الأولين، فركبت أمُّ حرام بنت مِلْحان البحرَ في زمن معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، فصُرِعت عن دابتها حين خرجت من البحر، فَهَلَكَت" [متفق عليه].

وكان ذلك في جزيرة قبرص حيث غزت أم حرام مع زوجها عبادة بن الصامت -رضي الله عنه- وكانوا في جيش أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه، قال ابن الأثير: "وفي هذه الغزوة ماتت أمّ حرام بنت ملحان الأنصاريّة، ألقتها بغلتها بجزيرة قبرص فاندقّت عنقها فماتت، تصديقًا للنبي، صلى الله عليه وسلم، حيث أخبرها أنّها في أوّل من يغزو في البحر" [الكامل في التاريخ].

هذه أختي الكريمة أمُّ حرامٍ -رضي الله عنها- تشوقَت إلى مشاركة المجاهدين في أفعالهم وأجرِهم، فسألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يدعوَ لها لتكون من الغزاة في سبيل الله، وأن تكون النفر الذين هم مثل الملوك على الأسرة، وما كان هذا السؤال منها إلا لأن قلبها قد امتلأ بحب الله ورسوله والجهاد في سبيله، فاسترخصت النفس في مقابل ذلك، فرحمها الله ورضي عنها وأسكنها فسيح جناته.

قصص من جهاد النساء ٢

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

ففي هذه الحلقة من سلسلتنا نقدم لك -أختي الكريمة- قصص ثلة من النساء المجاهدات القدوات، ونبدأ بقدوة جعلت سلامة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فوق كل شيء رغم قتل ابنها، فرسول الله -صلى الله عليه وسلم- أغلى وأهم عندها، ولا تعد المصاب شيئاً إزاء سلامته صلى الله عليه وسلم.

قُتل زوجها وأبوها وتسأل عن سلامة رسول الله

جاء في سيرة ابن هشام: "عن سعد بن أبي وقّاص -رضي الله عنه- قال: مرّ رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- بامرأة من بني دينار، وقد أُصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول اللّه -صلّى الله عليه وسلّم- بأحد، فلمّا نُعوا لها، قالت: فما فعل رسول اللّه صلّى الله عليه وسلّم؟ قالوا: خيراً يا أمّ فلان، هو -بحمد اللّه- كما تحبّين، قالت: أرونيه حتّى أنظر إليه؟ قال: فأشير لها إليه، حتّى إذا رأته قالت: كلّ مصيبة بعدك جلل! -تريد صغيرةً- قال ابن هشام: الجلل: يكون من القليل، ومن الكثير، وهو ها هنا من القليل".

الصابرة المحتسبة

وإن أردت -أختي في الله- قدوة لك في احتساب المصيبة في سبيل الله والصبر عليها، فإليك هذا النموذج، قال الذهبي: "معاذة بنت عبد الله السيدة العالمة أم الصهباء العدوية البصرية العابدة زوجة السيد القدوة صلة بن أشيم، لما استشهد زوجها (صلة) وابنُها في بعض الحروب اجتمع النساء عندها فقالت: مرحباً بكن إن كنتن جئتن للهناء، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن، وكانت تقول: "والله ما أحب البقاء إلا لأتقرب إلى ربي بالوسائل لعله يجمع بيني وبين أبي الشعثاء وابنه في الجنة" [سير أعلام النبلاء].

أم المجاهدين

وإليك -أختي- امرأة فريدة من نوعها كرمها الله على النساء ورزقها الأولاد ولم تطب نفسها إلا بأن يجاهدوا كلهم في سبيل الله، إنها عفراء بنت عبيد بن ثعلبة، قال أبو جعفر البغدادي: "عفراء بنت عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار، كانت عند الحارث بن رفاعة، فولدت له معاذا ومعوّذا، ثم طلقها، فقدمت مكة فتزوجها بكير بن عبد ياليل، فولدت له خالدا وإياسا وعاقلا وعامرا بني بكير، ثم رجعت إلى المدينة فراجعها الحارث بن رفاعة فولدت له عوفا، وشهدوا كلهم بدرا، واستشهد معاذ ومعوذ وعاقل يوم بدر، وخالد يوم الرجيع. وعامر يوم بئر معونة، وإياس يوم اليمامة، والبقية منهم لعوف" [المحبر].

وأنت يا أم الرجال كم لك من الأبناء؟ فهلّا قدمت ما قدمت عفراء رضي الله عنها؟

أم الأبطال

وهذه امرأة مشهورة لو كان النساء مثلها، لخرج الرجال جماعات للجهاد، ألا وهي الخنساء، قال أبو الربيع الكلاعي: "وقد ذكر الزبير بن بكار نحو هذا عن الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمية في بنين لها أربعة شهدت معهم حرب القادسية، فقالت لهم من أول الليل: يا بني، إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، وذكرت من صونها لنسبهم نحو ما ذكر قبل، ثم قالت لهم:

"وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، فإذا صبَّحتم غدا إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمَّرت عن ساقها واضطرمت لظاها على سباقها، وجللت نارا على أرواقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام حميسها، تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة"، فخرج بنوها قابلين لنصحها، فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم، وأنشأ أولهم يقول:

يا إخوتي إن العجوز الناصحة
قـد نصحتنا إذ دعتنا البارحه
مقالة ذات بيان واضحه
فباكروا الحرب الضروس الكالحه
وإنما تلقون عند الصالحه
من آل ساسان كلابا نابحه
قـد أيقنوا منكم بوقع الجائحه
وأنتم بين حياة صالحه
أو موتة تورث غنما رابحه
وتقدم فقاتل حتى قتل، رحمه الـلـه، ثم حمل الثاني وهو يقول:
إن العجوز ذات حزم وجلَد
والنظر الأوفق والرأى السدَد
قد أمرتنا بالسداد والرشَد
نصيحة منها وبرا بالولَد
فباكروا الحرب حُماة فى العدد
إما لفوز بارد على الكبد
أو ميتة تورثكم عز الأبد
في جنة الفردوس والعيش الرغد
فقاتل حتى استشـهـد، رحمه الله،
ثم حمل الثالث وهو يقول:
والله لا نعصى العجوز حرفا
قد أمرتنا حدبا وعطفا
نصحا وبرا صادقا ولطفا
فبادروا الحرب الضروس زحفا
حتى تلفوا آل كسرى لفّا
وتكشفوهم عن حمالكم كشفا
فقاتل حتى استشـهـد، رحمه الله،
وحمل الرابع وهو يقول:
لست لخنساء ولا لأخزمِ
ولا لعمر وذى السناء الأقدمِ
إن لـم أرد في الجيش جيش العجمِ
ماض على الهول خضم خضرمِ
إما لفوز عاجل ومغنمِ
أو لوفاة في السبيل الأكرمِ

فقاتل حتى قتل، رحمة الله عليه وعلى إخوته، فبلغ الخبر أمَّهم، فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم فى مستقر رحمته، فكان عمر -رضي الله عنه- يعطي الخنساء بعد ذلك أرزاق أولادها الأربعة، لكل واحد مائتي درهم، حتى قُبض، رحمه الله" [الاكتفاء].

أسماء ذات النطاقين تحض ابنها على الثبات

ولكِ -أختي- في صبر النساء وحضهن أبنائهن على القتال قدوات كثيرات، ومنهن ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، قال الذهبي: "قال عروة رحمه الله: دخلت أنا و أخي -يقصد عبد الله بن الزبير- رضي الله عنه قبل أن يقتل على أمِّنا بعشرِ ليال وهي وَجِعة، وقالت: والله ما أشتهي أن أموت حتى تأتي على أحد طرفيك -أي في قتاله مع الحجّاج- إما أن تُقتل فأحتسبك، وإما أن تظفر فتقر عيني، وإياك أن تُعرض على خطةٍ لا تُحق الحق فتقبلها كراهية الموت. ولما جاءها ابن عمر -رضي الله عنه- ليعزيها بمقتل ابنها عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، وجدها في ناحية المسجد وذلك حين صلب ابن الزبير، فمال إليها فقال إن هذه الجثث ليست بشيء، وإنما الأرواح عند الله فاتقي الله واصبري، فقالت: وما يمنعني -أي أن أصبر- وقد أهدي رأس يحيى بن زكريا -عليهما السلام- إلى بغي من بغايا بني إسرائيل؟" [سير أعلام النبلاء].

هانت عليها مصيبتها لأن دين الله أحب إليها من ابنها، وتعزت بما أصاب نبي الله يحيى -عليه السلام- وهو أكرم على الله من ابنها، رضي الله عنه.

هؤلاء المجاهدات من نساء السلف نقلنا لك جهادهن ومثلهن كثير، ولا يمنعنا من الاستزادة إلا خشية الإطالة، علماً أننا لم نذكر لك إلا جانباً بسيطاً من سيرتهن العطرة، فكيف لو ذكرنا لك طرفاً من عبادتهن وخشيتهن لله وعلمهن وصدقتهن وسائر أعمالهن الصالحة، إذاً لطال بنا المقام ولكن فيما ذكرنا كفاية إن شاء الله، فاقتدي بنساء السلف في التحريض على الجهاد والإعداد له، وكذلك المشاركة في هذا الجهاد بما تستطيعين، وفي الصبر على هذا الطريق من أجل انتصار الإسلام، والحمد لله رب العالمين.



رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ

الحمد لله رب العالمين، باعث الرسل مبشرين ومنذرين، والصلاة على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، سلام الله عليهم أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم البعث والدين، أما بعد...

لقد أنزل الله -عز وجل- الكتاب على عبده -صلى الله عليه وسلم- {تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [النحل: ٨٩]، وقصَّ فيه على نبيه ما جهله من أنباء الأقوام السابقة، {تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا} [هود: ٤٩]، وقد أوحى الله لرسوله هذه القصص لما فيها من التثبيت والمواعظ والتذكير، {وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَـٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [هود: ١٢٠]، وإن لهذه القصص أثر عظيم على أصحاب القلوب الحية، التي عمرها الإيمان والتصديق، وإن لهم فيها سلوى على ما يواجهونه من المحن والابتلاءات والزلازل، {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ} [هود: ١٢٠]، ولذلك، سنسلط في هذه السلسلة الضوء على قصص الأنبياء عليهم السلام، لنستخلص منها الدروس والعبر، ونسير في طريقهم ونقتفي الأثر.

سنبدأ هذه السلسلة بالحديث عن إبراهيم عليه السلام، في قصة فريدة تظهر الإيمان الراسخ والتوكل الصادق واليقين المطلق بالله عز وجل، إنها قصته مع هاجر وابنه إسماعيل عليه السلام، بعد أن أنجاه الله وزوجه سارة من الملك الجبار، ورأى ذلك الملك الظالم منها ما رأى، وأوهبها جارية اسمها هاجر، وعاد إبراهيم -عليه السلام- إلى الأرض المباركة، أرض الشام، فلما لم يُرزق من سارة بالولد، وهبته جاريتها هاجر، فرُزق منها بإسماعيل عليه السلام، فلما تمكنت الغيرة من قلب سارة، بدأت قصتنا التي ذكر الله جزءا منها في قوله: {رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّـهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ}[إبراهيم: ٣٧ - ٣٨].

حيث أوحى الله إلى إبراهيم أن يسري بهاجر وإسماعيل ويتركهما حيث أمره، لحكمة يعلمها عز وجل، فمضى بهاجر من أرض الشام إلى مكة مصطحبة رضيعها، حتى بلغوا دوحة فوق زمزم عند موضع البيت، ولم يكن بمكة يومئذ أحد، ولا ماء ولا طعام، إنما كانت صحراء قاحلة قفرة، فوضعهما هناك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفل إبراهيم راجعا، فتبعته أم إسماعيل قائلة: "يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟"، قالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها، فاستدركت قائلة: "آلله الذي أمرك بهذا؟"، فأجاب أن نعم، فقالت بكل ثقة بالله وتوكل عليه عز وجل: "إذن لا يضيعنا"، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا بلغ الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهذه الكلمات ورفع يديه فقال: {رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} [إبراهيم: ٣٧].

جعلت أم إسماعيل ترضع ابنها وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش رضيعها، وجعلت تنظر إليه وهو يتلوى، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فنظرت في ما يليها من الأرض فلم تجد أقرب من الصفا، فانطلقت إليه حتى بلغت أعلاه، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي هل ترى من أحد فلم تر أحدا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة، فقامت عليها ونظرت هل ترى من أحد فلم تر أحدا، وطفقت تسعى بين الصفا والمروة بحثا عن ماء أو بشر، حتى أتمت سبعة أشواط، فذلك سعي الناس اليوم بينهما، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا، فقالت: "صه"، تريد نفسها، ثم تسمعت أيضا فقالت: "قد أسمعت إن كان عندك غواث"، أي قد سمعت صوتك، فإن كان عندك ما يغيثني فأغثني، فإذا هي بمَلَك أرسله الله -عز وجل- عند موضع زمزم، فبحث بعقبه (وهو مؤخر قدمه) أو بجناحه في الأرض حتى ظهر الماء، فجعلت تحيطه بالتراب وتصنع له حوضا مخافة أن يفنى، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور، فشربت حتى ارتوت وارتوى إسماعيل عليه السلام، فقال لها الملك: "لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله"، وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول، فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مر بهم نفر من قبيلة (جُرْهُم)، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائرا حائما، فعرفوا أن بهذا الوادي ماء، وكانَ عهدهم به أنه واد مقفر، فأرسلوا رسولا من قبلهم، أو رسولين، فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم به فأقبلوا، وأمُّ إسماعيل عند الماء، فقالوا: "أتأذنينَ لنا أن ننزل عندك؟" فأجابت أن نعم...

إن في هذه القصة لعبرا عديدة، ودروسا مفيدة، على رأسها التوكل على الله وإحسان الظن به، فمن حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (قال الله: أنا عند ظنِّ عبدي بي) [رواه البخاري]، فإن إحسان الظن بالله كان واضحا جليا في ترك إبراهيم -عليه السلام- أهله في واد غير ذي زرع، انعدمت فيه كل مقومات الحياة، متيقنا أن الله لن يضيع أهله، وأنه سيتكفل برزقهم وأنه خيرٌ حافظاً، وهو أرحم الراحمين، كما برز ذلك في كلام هاجر إذ قالت: "إذن لا يضيعنا"، فهي متيقنة أن الله إنما أمر إبراهيم -عليه السلام- بذلك لحكمة، محسنة ظنها به، ومنها كذلك التسليم المطلق لله -عز وجل- والرضا بقضائه، حيث أن نبي الله إبراهيم -عليه السلام- ترك أهله في الصحراء القاحلة حيث الموت محتَّم باعتبار انعدام الأسباب المادية للحياة، لكن تسليمه المطلق لأمر الله كان سببا في تركهم، فقفل راجعا بعد أن وصلوا إلى المكان الذي أمره الله أن يتركهم فيه، وكذلك أم إسماعيل، لما رأت المكان وانعدام الأنس والماء سألته مرارا مستنكرة: "يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟"، فلما علمت أن الله أمره بذلك، أسلمت أمرها وخضعت لقضاء الله، متيقنة أن الله جاعل لها ولرضيعها مخرجا، فكان الله عند حسن ظنها به، وآنس وحشتها ورزقها من الطيبات.

إن قصص الأنبياء وأقوامهم فيها من الدروس ما نفعه دائم وخيره مستفيض، وإن أولي اللب إن قارنوا حالَهم بحالِهم تجلت لهم مسالك الخلاص مما هم فيه من بلاء ومحنة، وشق الله لهم في بحار الظلمات طريق النور، ورفعهم من دركات التيه إلى درجات الرشاد، فلا تحل بهم نازلة إلا وقد أنبأهم الله بدوائها، ولا يرون معضلة إلا وقد بين الله لهم حلها، {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص: ٢٩].



فاذهب أنت وربك فقاتِلا



الحمد لله رب العالمين، باعث الرسل مبشرين ومنذرين، والصلاة على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، سلام الله عليهم أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم البعث والدين، أما بعد...

إن لله -عز وجل- سننا لا تتبدل، وقضاء لا يتغير، وإن المرء إذا سار على خطى قوم كانت خاتمته كخاتمتهم، وعاقبته كعاقبتهم، فإن سنن الله لا تحابي أحدا، وقضاؤه ماض أبدا، واللبيب من اعتبر بغيره.

إن من أعظم القصص التي ذكرها الله في كتابه المجيد لقصة نبيه موسى -عليه السلام- مع قومه، بني إسرائيل، إذ ذكرها الله مرارا وتكرارا، كاملة ومجزأة، عامة ومفصلة، وما ذلك إلا دليل على عظمة ما جرى فيها من أحداث، وعلى ما فيها من عبر نفيسة، ودروس قيمة، وليس هذا مقام ذكرها كاملة، لكننا سنذكر -بعون الله- قصته مع الجبارين.

لقد كان الجبارون قوما أولي قوة وبأس شديد، وكانوا يسكنون قرى محصنة في الأرض المقدسة، فلما أنجى الله موسى وقومه من فرعون وجنده، بعد أن أراهم آياته، وشق لهم في البحر طريقا يبسا، وفرق لهم الماء فرقا، ونصرهم على عدوهم بلا جهد منهم أو نصب، أمرهم بقتال الجبارين، ودخول الأرض المقدسة، فذكَّرهم نبي الله موسى بفضل الله عليهم، فقال: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ} [المائدة: ٢٠]، ثم أمرهم بدخول الأرض المقدسة، وقتال قومها، وضمن لهم النصر إن هم فعلوا ذلك، وحذرهم من تولية الأدبار، ومن سوء العاقبة، {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ} [المائدة: ٢١]، فما كان منهم إلا أن أجابوه بكلام ملؤه السخرية {قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ} [المائدة: ٢٢]، إذ لا يُعقل أن يخرج قوم عتاة جبابرة من أرضهم بلا قتال، وقد حصَّنوا قراهم، وأعدوا للحرب عدتها، وإنما قال بنو إسرائيل ذلك استهزاء واستخفافا، فقال لهم رجلان من قومهم، يخشون ربهم ويخافونه، قد أنعم الله عليهم بطاعته، أن خُذوا بالأسباب، وتوكلوا على ربكم، فإن فعلتم أفلحتم، وكانت لكم الغلبة على عدوكم، {قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [المائدة: ٢٣]، فلم تنفع تلك القلوب التي أعماها الخوف تذكرة المذكرين، ولم يمتثلوا لأمر رب العالمين، بل أصروا على ضلالهم وتمادوا في غيهم، {قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [المائدة: ٢٤]، فهنا أحسَّ نبي الله موسى بخذلان قومه له، وبانقطاع أسباب الأرض عنه، فالتجأ إلى مسبب الأسباب، ورب الأرباب، وتضرع إليه، {قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [المائدة: ٢٥]، فأنزل الله عليهم عذابه، بأن حرمهم الأمن الذي بسببه قعدوا عن الجهاد، والاستقرار الذي لأجله عزفوا عن القتال، {قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [المائدة: ٢٦].

لقد ذكر الله في هذه القصة حال بني إسرائيل مع نبي الله موسى، إذ خذلوه وتخلوا عنه، ولم ينصروه وقد أمروا بذلك، ولم يعزروه وقد كُتب عليهم ذلك، بل كان ردهم القعود والخذلان، والنفور والعصيان، وزادوا على ذلك السخرية والاستهزاء، فما كان من المؤمنين إلا أن ثبتوا على ما أمروا به من جلاد الأعداء، وصبروا على ما نهوا عنه من الفرار وتولية الأدبار، حتى قال نبي الله موسى: "رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين".

إن أمثال قوم نبي الله موسى من ذوي المعادن الرديئة والنفوس الدنيئة، يدخلون في صفوف أهل الحق إذا قووا، ويحتمون بشوكتهم، وهذا ديدنهم في كل زمان ومكان. فهُم إذا رأوا من عدوهم كثرة عدة وشدة بأس أحجموا عن القتال، وقعدوا عن الجهاد، مع ما أراهم الله من نصره لهم في مواطن كثيرة على من هم أشد منهم قوة، ووعده لهم بالظفر والتمكين. فترى من أضلهم الله ينهون من هداهم عن القتال والجلاد، بل ويسخرون منهم، ويخذلونهم عند حاجتهم لهم، راكنين إلى زخرف الحياة الدنيا، راضين بها، قائلين بلسان حالهم: "اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون".

وإن هذا الخبث إن وُجد في صفوف المؤمنين، فإن المؤمنين لا يألون جهدا في نصحهم، ولا يدخرون وسعا في تذكيرهم بربهم، رأفة بهم وإشفاقا عليهم، وخوفا من أن يصيبهم الله بذنوب هؤلاء، فيهلك الكل بجريرتهم لكثرة الخبث، روت أم المؤمنين زينب بنت جحش -رضي الله عنها- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- دخل عليها فزعا يقول: (لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه) وحلَّق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش فقلت: "يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟" قال: (نعم، إذا كثر الخبث) [رواه البخاري]، فإن الخبث إذا كثر، سلط الله على المسلمين المحن والبلاء، والشدة واللأواء، حتى يرجعوا إلى أمر الله، فقد عاقب الله بني إسرائيل لما عتوا عن أمر ربهم بالتيه ٤٠ سنة، حتى فني أولئك العصاة الفاسقون، ونشأ الصبيان على الشدة والجلد، بعيدا عن الدعة والترف، فلما انقضت تلك السنون الأربعون، قاتل الصالحون الجبارين ففتح الله عليهم، ودخلوا الأرض المقدسة، وأسكنهم الله مساكنهم وأورثهم أموالهم.

إن من سنن الله أن يبتلي المسلم إذا تعلق قلبه بغير ربه، فيمتحنه بوقوع ما يكره، أو بفقدان ما يحب، فإن هو رجع إلى الله فكان هو ورسوله أحب إليه مما سواهما من ملذات الدنيا وزخارفها، رفع الله عنه البلاء، ومكن له في الأرض، وإلا بقي في البلاء حتى يرجع، فإن أبى أتى الله بمن هو خير منه، واستبدل به قوما يحبهم ويحبونه، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون فيه لومة لائم، ينصرونه ورسوله، ويقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص، فإنما ينصر المؤمنون بطاعتهم لربهم، وتمسكهم بجماعتهم، وبالمضي قدما في جهادهم، ولا يخذلهم مثل القعود عما أمرهم الله به، والإحجام عما أعده الله لهم من نعيم.



ذو القرنين رحمه الله



لقد أنزل الله سبحانه القرآن العظيم على نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- وقد تضمن آيات الأحكام والقصص والعبر والأمثال لتكون منارا للموحدين السائرين إلى ربهم، ومن القصص التي ينبغي أن نقف عندها ونستقي منها العلم النافع ونحن نسير على طريق الموحدين الغزاة في سبيل الله هي قصة ذي القرنين.

ذلك الملك الصالح الغازي في سبيل الله الذي بلغ مشارق الأرض ومغاربها فاتحا داعيا إلى الله تعالى بالسيف واللسان، وهذا ما يحتاجه المجاهدون اليوم وهم يسيرون على خطى ذلك الملك الصالح في بلوغ الوعد الإلهي وظهور هذه الأمة في هذا الزمان على العالمين، فإن الله تعالى أعطى ذا القرنين من كل شيء سببا، أي إن الله تبارك وتعالى أراد له التمكين في الأرض فأعطاه من كل العلوم والخبرات لتكون له سببا في سعيه وغزوه في سبيل الله ومواجهة أمم الكفر في وقته، قال الإمام البغوي في تفسيره: "أعطيناه من كل شيء يحتاج إليه الخلق، وقيل: من كل ما يستعين به الملوك على فتح المدن ومحاربة الأعداء، {سببا} أي: علما يتسبب به إلى كل ما يريد ويسير به في أقطار الأرض، والسبب: ما يوصل الشيء إلى الشيء".

وحينها أخبرنا الله تعالى أنه {اتبع سببا}، أي سار في منازل الأرض ومعالمها وطرقها، فبلغ مغرب الشمس ووجد في تلك البلاد البعيدة أمة عظيمة من الأمم الكافرة، فألهمه الله أن يفعل فيهم أحد أمرين إما أن يعذبهم بالقتل إن لم يقبلوا التوحيد أو أن يتخذ فيهم حسنا قيل: أي أن يأسرهم ويعلمهم الهدى، وبعد أن أظفره الله بهم كان حكمه فيهم: {قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا} [الكهف: ٨٧-٨٨]، فأخبرنا الله تعالى عن سيرته في الأقوام الكافرين، فمن أصر منهم وعاند فإن جزاءه التعذيب الدنيوي بيد ذي القرنين وهو القتل، ثم يرد إلى ربه سبحانه فيعذبه العذاب الأنكر من القتل وهو العذاب بنار جهنم.

وهكذا يسير كل موحد مجاهد في من ظلم وتعدى على حق الله وعبد غيره، فإن الشرك أعظم الظلم، ومن تعدى على حق الله وعبَد غيره فإن جزاءه العذاب بأيدي الموحدين، قال الله تعالى:

> **فبلغ مغرب الشمس ووجد في تلك البلاد البعيدة أمة عظيمة من الأمم الكافرة، فألهمه الله أن يفعل فيهم أحد أمرين إما أن يعذبهم بالقتل إن لم يقبلوا التوحيد أو أن يتخذ فيهم حسنا**

{قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ} [التوبة: ١٤]، وأما من آمن وعمل صالحا فله الحسنى عند ربه وهي الجنة، وأما عند ذي القرنين فإنه سيجد منه اللين والمعاملة الطيبة، معاملة المسلم لأخيه المسلم، فمنهج ذي القرنين يعتمد على أخوة الدين مهما اختلفت الأعراق والأجناس، فمن أسلم وعبَد الله وكفر بالمعبودات الباطلة فهو وليه وأخوه.

وتستمر رحلة الملك الغازي في سبيل الله سيرا في طرق الأرض ومعالمها حتى بلغ مطلع الشمس فوجد فيها قوما ليس لهم بنيان يسترهم عنها، فسار فيهم مسيرة من قبلهم في المعاملة الرشيدة، ثم سار في مسلك آخر حتى وصل بين السدين أي الجبلين حيث يخرج من بينهما قوم يأجوج ومأجوج ليشنوا غاراتهم، وهم قوم مفسدون ظالمون باغون، وكان خارج السد أقوام في عزلة عن الناس، قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: "لا يفهمون كلام أحد ولا يفهم الناس كلامهم"، ولكن الله تعالى آتى ذا القرنين من كل شيء سببا، فجاءه المترجم ليسمع منه مُراد أولئك القوم الذين عانوا من فساد وشر يأجوج ومأجوج ، فوجدوا في ذي القرنين الرجل الصالح الذي يريد إصلاح الأرض بالتوحيد والسير بين الناس بالعدل ورفع الظلم، {قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا} [الكهف: ٩٤].

وسياق الآية يدل على أن هؤلاء الأقوام المنعزلين عن محيطهم كانوا أيضا يملكون المال ولكنهم لم يستطيعوا توظيف جهدهم لمواجهة خطر يأجوج ومأجوج، فعرضوا على ذي القرنين أن يعطوه المال مقابل أن يبني لهم سدا يكفي به شر يأجوج ومأجوج الذين أهلكوا الحرث والنسل، ولكن ذا القرنين عرض عليهم عرضا مغايرا، فأخبرهم أنه ليس بحاجة إلى أموالهم ولكن يحتاج جهدهم البشري، فكان جوابه يفيض بالاعتراف بنعمة الله تعالى ونسبة الفضل إليه والتعفف عن أموال الغير، قال الإمام ابن كثير في تفسيره: "فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير: {مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ} أي: إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه، كما قال سليمان عليه السلام: {أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ} [النَّمْل: ٣٦] وهكذا قال ذو القرنين: الذي أنا فيه خير من الذي تبذلونه، ولكن ساعدوني {بِقُوَّةٍ} أي: بعملكم وآلات البناء".

وعندما تهيأت آلات البناء واستعد الناس للعمل، قام ذو القرنين باستخدام ما حباه الله به من أسباب النجاح فقال، {آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا} [الكهف: ٩٦]، أي إن ذا القرنين جمع قطع الحديد ورتبها حتى بلغ بها رؤوس الجبلين، ثم أجج فيها النار ثم أفرغ في الحديد المذاب نحاسا حتى يكون السد صلبا لا يمكن ثقبه، {فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا}، ولأن الظهور من فوق السد أسهل من نقبه، جاءت الأولى بالتخفيف بدون تاء {فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ} وجاءت الثانية بالتاء للتعبير عن استحالة إحداث نقب فيه {وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا}.

ثم قال ذو القرنين بعد اكتمال بناء السد معترفا مرة أخرى بنعمة الله عليه ورادا الفضل إليه: {هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي}، وهكذا ينبغي لكل مجاهد غاز في سبيل الله أن يرد الفضل لله سبحانه في كل أحواله مهما بذل وتعب ومهما جنى من النتائج المفرحة التي يحبها ويرجوها من المغنم والفتح والتمكين والظهور على الكفار، فإن ذلك كله بفضل الله ورحمته، وقد ذكر الله قول عبده الملك الصالح لنقتديَ به ونعتبر، فمن شكر نعمة الله زاده الله من فضله ورحمته.

> **هذه قصة عبد صالح من عبيد الله تعالى، مكن له في الأرض، فحمد الله على هذه النعمة بإقامة دينه، والسعي في إخضاع الناس لحكمه، وجهاد المشركين في سبيله**

أما هؤلاء القوم المفسدون فلا يزالون يحفرون حتى يأذن الله عز وجل بخروجهم وذلك حين يسوي الله تعالى السد بالأرض فيدكه دكا، وقد أعطى الله تعالى ذا القرنين العلم بهذا حين قال: {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا}، قال الإمام الطبري -رحمه الله- في تفسيره: "فإذا جاء وعد ربي الذي جعله ميقاتا لظهور هذه الأمة وخروجها من وراء هذا الردم لهم، جعله دكاء، يقول: سوَّاه بالأرض، فألزقه بها، وكان وعد ربي الذي وعد خلقه في دك هذا الردم، وخروج هؤلاء القوم على الناس، وعيثهم فيه، وغير ذلك من وعده حقا، لأنه لا يخلف الميعاد فلا يقع غير ما وعد أنه كائن".

فهذه قصة عبد صالح من عبيد الله تعالى، مكن له في الأرض، فحمد الله على هذه النعمة بإقامة دينه، والسعي في إخضاع الناس لحكمه، وجهاد المشركين في سبيله، واتخذ في ذلك كل ما مكنه الله من وسائل القوة المادية التي استعان بها على أعداء الله تعالى، وحري على كل مسلم أن يستن بسنة هذا العبد الصالح، الذي أثنى عليه ربه، وقص قصته على عبيده ليتأسوا به.



هدي النبي صلى الله عليه وسلم في الصيام (١)

قال ابن قيِّم الجوزية رحمه الله: فصل في هديه صلى الله عليه وسلم في الصيام، لما كان المقصود من الصيام حبسَ النفس عن الشهوات، وفطامَها عن المألوفات، وتعديلَ قوتها الشهوانية، لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمِها، وقبول ما تزكو به مما فيه حياتُها الأبدية، ويكسِر الجوعُ والظمأ من حِدَّتها وسَورتها، ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين.

وتضيق مجاري الشيطان من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب، وتُحبس قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرُّها في معاشها ومعادها، ويُسكِّن كلَّ عضو منها وكلَّ قوة عن جماحه وتلجم بلجامه، فهو لجام المتقين، وجُنَّةُ المحاربين، ورياضة الأبرار والمقرَّبين، وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال، فإن الصائم لا يفعلُ شيئا، وإنما يترك شهوتَه وطعامَه وشرابَه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفس وتلذُّذاتها إيثارا لمحبة الله ومرضاته، وهو سِرٌّ بين العبد وربِّه لا يطَّلع عليه سواه، والعبادُ قد يطَّلعون منه على ترك المفطرات الظاهرة، وأما كونه ترك طعامَه وشرابَه وشهوتَه من أجل معبوده، فهو أمر لا يطَّلع عليه بشرٌ، وذلك حقيقة الصوم...

والمقصود: أن مصالح الصوم لما كانت مشهودةً بالعقول السليمة والفِطَرِ المستقيمة، شرعه اللهُ لعباده رحمةً بهم، وإحساناً إليهم، وحميةً لهم وجُنَّة.

وكان هدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيه أكمل الهدي، وأعظمَ تحصيل للمقصود، وأسهلَه على النفوس.

ولما كان فطمُ النفوس عن مألوفاتها وشهواتِها مِن أشق الأمور وأصعبها، تأخَر فرضُه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة، لما توطَّنت النفوسُ على التوحيد والصلاة، وألِفت أوامر َالقرآن، فنُقلت إليه بالتدريج.

متى فرض الصيام؟

وكان فرضُه في السنَّة الثانية من الهجرة، فتوفِّي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقد صام تسع رمضانات، وفُرض أولا على وجه التخيير بينه وبين أن يُطعِم عن كلِّ يوم مسكينا، ثم نُقل من ذلك التخيير إلى تحتُّم الصوم، وجعل الإطعام للشيخ الكبير والمرأة إذا لم يطيقا الصيام، فإنهما يُفطران ويُطعمان عن كل يوم مسكينا، ورخَّص للمريض والمسافر أن يُفطرا ويقضيا، وللحامِل والمُرضع إذا خافتا على أنفسهما كذلك، فإن خافتا على ولديهما، زادتا مع القضاء إطعامَ مسكين لكلِّ يوم، فإن فطرَهما لم يكن لخوف مرض، وإنما كان مع الصحة، فجُبر بإطعام المسكين كِفطر الصحيح في أول الإسلام.

الإكثار من العبادات في رمضان

وكان من هديه -صلى الله عليه وسلم- في شهر رمضان الإكثار من أنواع العبادات، فكان جبريل يدارسُه القرآن في رمضان، وكان إذا لقيَه جبريل أجودَ بالخير من الريح المرسلة، (وكان أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان) [رواه البخاري ومسلم]، يُكثر فيه من الصدقة والإحسان وتلاوة القرآن، والصلاة والذكر والاعتكاف....

فصل في ثبوت رمضان

وكان من هديه -صلى الله عليه وسلم- أن لا يدخُل في صوم رمضان إلا برؤية محقَّقة، أو بشهادة شاهد واحد...، وكان إذا حال ليلةَ الثلاثين دون منظره غيمٌ أو سحاب، أكمل عدة شعبان ثلاثين يوما، ثم صامه. ولم يكن يصوم يوم الإغمام، ولا أمر به، بل أمر بأن تُكمل عدة شعبان ثلاثين إذا غمَّ، وكان يفعل كذلك، فهذا فعله وهذا أمره...

هديه صلى الله عليه وسلم في الفطر

وكان يُعجِّل الفِطر ويحضُّ عليه، ويتسحَّر ويَحُث على السَّحور، ويؤخِّره ويُرغِّب في تأخيره، وكان يحض على الفطر بالتمر، فإن لم يجد فعلى الماء، هذا من كمال شفقته على أمته ونُصحهم، فإن إعطاء الطبيعة الشيء الحلو مع خُلوِّ المعدة أدعى إلى قبوله وانتفاع القُوى به، ولا سيما القوة الباصرة، فإنها تقوى به، وحلاوةُ المدينة التمر، ومرباهم عليه، وهو عندهم قوت، وأُدمٌ ورُطَبه فاكهة.

وأما الماء فإن الكَبد يحصُل لها بالصوم نوع يبس. فإذا رُطبت بالماء كمُل انتفاعها بالغذاء بعده. ولهذا كان الأولى بالظمآن الجائع أن يبدأ قبل الأكل بشرب قليل من الماء، ثم يأكل بعده،

وكان -صلى الله عليه وسلم- يُفطر قبل أن يصلي، وكان فِطره على رطبات إن وجدها، فإن لم يجدها فعلى تمرات، فإن لم يجد فعلى حسوات من ماء.. وروي عنه أنه كان يقول إذا أفطر: (ذهب الظمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله تعالى)، ذكره أبو داود من حديث الحسين بن واقد، عن مروان بن سالم المقفع، عن ابن عمر، ويذكر عنه صلى الله عليه وسلم: (إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد) . رواه ابن ماجه.

وصح عنه أنه قال: (إذا أقبل الليل من هاهنا، وأدبر النهار من هاهنا، فقد أفطر الصائم) [رواه البخاري] . وفُسِّر بأنه قد أفطر حكما، وإن لم ينوه، وبأنه قد دخل وقت فطره، كأصبح وأمسى، ونهى الصائم عن الرَّفث والصَّخب والسِّباب وجواب السِّباب، فأمره أن يقول لمن سابه: (إني صائم) فقيل: يقوله بلسانه وهو أظهر، وقيل: بقلبه تذكيرا لنفسه بالصوم، وقيل: يقوله في الفرض بلسانه، وفي التطوع في نفسه، لأنه أبعد عن الرياء.

الصوم في السفر

وسافر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في رمضان، فصام وأفطر، وخيَّر الصحابة بين الأمرين.

وكان يأمرهم بالفطر إذا دَنوا من عدوِّهم ليتقووا على قتاله.

فلو اتفق مثلُ هذا في الحَضَر ، وكان في الفطر قُوة لهم على لقاء عدوِّهم فهل لهم الفطر؟ فيه قولان أصحهما دليلا: أنَّ لهم ذلك، وهو اختيار ابن تيمية، وبه أفتى العساكر الإسلامية لما لقوا العدو بظاهر دمشق، ولا ريب أن الفطر لذلك أولى من الفِطر لمجرد السفر، بل إباحة الفطر للمسافر تنبيهٌ على إباحته في هذه الحالة، فإنها أحقُّ بجوازه، لأن القوة هناك تختص بالمسافر، والقوة هنا له وللمسلمين، ولأن مشقة الجهاد أعظم من مشقة السفر، ولأن المصلحة الحاصلة بالفطر للمجاهد أعظم من المصلحة بفطر المسافر، ولأن الله تعالى قال: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ } [الأنفال: ٦٠]. والفِطر عند اللقاء من أعظم أسباب القوة. .. ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال للصحابة لما دنوا من عدوهم: (إنكم قد دنوتم من عدوكم، والفطر أقوى لكم) . وكانت رخصة ثم نزلوا منزلا آخر فقال: (إنكم مصبحو عدوكم، والفطر أقوى لكم فأفطِروا) فكانت عزمة [فأفطرنا] [رواه مسلم]، فعلَّل بدنوهم من عدوهم واحتياجهم إلى القوة التي يلقون بها العدو، وهذا سبب آخر غير السفر، والسفر مستقل بنفسه، ولم يذكر في تعليله ولا أشار إليه.

وسافر رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان في أعظم الغزوات وأجلِّها في غزاة بدر ، وفي غزاة الفتح.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: غزونا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في رمضان غزوتين، يوم بدر والفتح، فأفطرنا فيهما. انتهى كلامه (باختصار من كتاب زاد المعاد في هدي خير العباد).



هدي النبي صلى الله عليه وسلم في الصيام (٢)

قال ابن قيم الجوزية: "وكان من هديه -صلى الله عليه وسلم- أن يدركه الفجر وهو جنب من أهله، فيغتسل بعد الفجر ويصوم [رواه البخاري ومسلم]، (وكان يقبل بعض أزواجه وهو صائم في رمضان)[رواه البخاري ومسلم]، وشبَّه قبلة الصائم بالمضمضة بالماء [من حديث رواه أبو داود].....

وأما الحديث الذي رواه أحمد وابن ماجه عن ميمونة مولاة النبي -صلى الله عليه وسلم- قالت: " «سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن رجل قبل امرأته وهما صائمان، فقال: قد أفطر» فلا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيه أبو يزيد الضني، رواه عن ميمونة، وهي بنت سعد، قال الدارقطني: ليس بمعروف، ولا يثبت هذا، وقال البخاري: هذا لا أحدث به، هذا حديث منكر، وأبو يزيد رجل مجهول.

ولا يصح عنه صلى الله عليه وسلم التفريق بين الشاب والشيخ، ولم يجئ من وجه يثبت، وأجود ما فيه حديث أبي داود عن نصر بن علي، عن أبي أحمد الزبيري: حدثنا إسرائيل، عن أبي العنبس، عن الأغر، عن أبي هريرة أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن المباشرة للصائم، فرخَّص له، وأتاه آخر فسأله فنهاه، فإذا الذي رخص له شيخ، وإذا الذي نهاه شاب [رواه أبو داود وهو حسن]، وإسرائيل، وإن كان البخاري ومسلم قد احتجا به وبقية الستة، فعلَّة هذا الحديث أن بينه وبين الأغر فيه أبا العنبس العدوي الكوفي، واسمه الحارث بن عبيد، سكتوا عنه.

صحة صيام من أكل ناسياً

وكان من هديه صلى الله عليه وسلم إسقاط القضاء عمَّن أكل وشرب ناسيا، وأن الله سبحانه هو الذي أطعمه وسقاه، فليس هذا الأكل والشرب يضاف إليه، فيفطر به، فإنما يفطر بما فعله، وهذا بمنزلة أكله وشربه في نومه، إذ لا تكليف بفعل النائم، ولا بفعل الناسي.

المفطرات

والذي صح عنه -صلى الله عليه وسلم- أن الذي يفطر به الصائم: الأكل والشرب والحجامة والقيء[إذا كان عمدا]، والقرآن دال على أن الجماع مفطر كالأكل والشرب، لايعرف فيه خلاف، ولا يصح عنه في الكحل شيء، وصح عنه أنه كان يستاك وهو صائم، وذكر الإمام أحمد عنه، أنه كان يصب الماء على رأسه وهو صائم.

وكان يتمضمض ويستنشق وهو صائم، ومنع الصائم من المبالغة في الاستنشاق....

وقال حنبل: حدثنا أبو عبد الله، حدثنا وكيع، عن ياسين الزيات، عن رجل، عن أنس، أن النبي صلى الله عليه وسلم «احتجم في رمضان بعد ما قال: (أفطر الحاجم المحجوم)» قال أبو عبد الله: الرجل أراه أبان بن أبي عياش، يعني: ولا يحتج به.

وقال الأثرم: قلت لأبي عبد الله: روى محمد بن معاوية النيسابوري، عن أبي عوانة، عن السدي، عن أنس، أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم وهو صائم، فأنكر هذا، ثم قال: السدي عن أنس؟ قلت: نعم، فعجب من هذا. قال أحمد: وفي قوله: (أفطر الحاجم والمحجوم) غير حديث ثابت.

وقال إسحاق: قد ثبت هذا من خمسة أوجه عن النبي صلى الله عليه وسلم.

والمقصود أنه لم يصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه احتجم وهو صائم، ولا صح عنه أنه نهى الصائم عن السواك أول النهار ولا آخره، بل قد روي عنه خلافه. ويذكر عنه (من خير خصال الصائم السواك) ، رواه ابن ماجه من حديث مجالد وفيه ضعف.

الاكتحال للصائم

وروي عنه -صلى الله عليه وسلم- «أنه اكتحل وهو صائم» ، وروي عنه أنه «خرج عليهم في رمضان وعيناه مملوءتان من الإثمد»، ولا يصح، وروي عنه أنه «قال في الإثمد: (ليتقه الصائم) ولا يصح. قال أبو داود: قال لي يحيى بن معين: هو حديث منكر.

فصل في هديه صلى الله عليه وسلم في صيام التطوع

كان صلى الله عليه وسلم يصوم حتى يقال: لا يفطر، ويفطر حتى يقال: لا يصوم، وما استكمل صيام شهر غير رمضان، وما كان يصوم في شهر أكثر مما يصوم في شعبان [رواه البخاري ومسلم].

ولم يكن يخرج عنه شهر حتى يصوم منه.

ولم يصم الثلاثة الأشهر سردا كما يفعله بعض الناس، ولا صام رجبا قط، ولا استحب صيامه، بل روي عنه النهي عن صيامه، ذكره ابن ماجه [ضعيف]، وكان يتحرى صيام يوم الاثنين والخميس [رواه الترمذي والنسائي].

وقال ابن عباس رضي الله عنه: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفطر أيام البيض في سفر ولا حضر) ذكره النسائي. (وكان يحض على صيامها) [رواه أحمد] .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم من غرة كل شهر ثلاثة أيام» ذكره أبو داود والنسائي.

وقالت عائشة رضي الله عنها: «لم يكن يبالي من أي الشهر صامها» ذكره مسلم، ولا تناقض بين هذه الآثار.

وأما صيام عشر ذي الحجة فقد اختلف، فقالت عائشة: «رأيته صائما في العشر قط» ، ذكره مسلم.

وقالت حفصة: «أربع لم يكن يدعهن رسول الله صلى الله عليه وسلم: صيام يوم عاشوراء والعشر، وثلاثة أيام من كل شهر، وركعتا الفجر» . ذكره الإمام أحمد رحمه الله.

ذكر الإمام أحمد عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أنه «كان يصوم تسع ذي الحجة، ويصوم عاشوراء، وثلاثة أيام من الشهر، أو الاثنين من الشهر والخميس» وفي لفظ: الخميسين. والمثبِت مقدَّم على النافي إن صح.

وأما صيام ستة أيام من شوال فصح عنه أنه قال: (صيامها مع رمضان يعدل صيام الدهر) [رواه مسلم] ".

انتهى كلامه رحمه الله باختصار من كتاب زاد المعاد في هدي خير العباد

عبادات العشر الأواخر من رمضان

روى البخاري ومسلم عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: "كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله"، وفي رواية لمسلم عنها -رضي الله عنها- أنها قالت: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره".

إحياء الليل

وإحياء الليل أي استغراقه بالسهر في الصلاة والقرآن والذكر وغيرها.

الاعتكاف

عن عائشة -رضي الله عنها- أن النبي ﷺ، كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله، ثم اعتكف أزواجه من بعده [متفق عليه].

تلاوة القرآن

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن جبريل عليه السلام كان يلقى النبي ﷺ في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن [متفق عليه].

تحرِّي ليلة القدر

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان رسول الله ﷺ يجاور في العشر الأواخر من رمضان ويقول: (تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان) [متفق عليه].

إيقاظ الأهل

عن علي -رضي الله عنه- أنّ النَّبيَّ ﷺ كان يوقظ أهله في العشر الأواخر من رمضان [رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح].

